

الإمير فتحي بن رسول الله

يفتدّم ويثيب ثوق على رجوايشي
مؤلف

حاضر العلماء الإسلاميين

تأليف: لؤمرب ستودارد
تعريب: عجاج نويحيف

المجلد الأول

الجزءان الأول والثاني



الدار للطباعة

مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

رابطہ بدیل
lisanerab.com

www.lisanarb.com



حاضر العالم
الإسلامي

الأمير شكيب أرسلان

يُقدِّم وَيُعَلِّقُ عَلَى حَوَاشِي
مُؤَلَّفٍ

حاضر العالم الإسلامي

تأليف: لوثر بـ ستودارد
تعريب: عجاج نوحهضف

المجلد الأول

الجزءان الأول والثاني



حاضر العالم الإسلامي /تقديم و ضبط الأمير شكيب أرسلان

إشراف وتحرير:

د. سوسن النجار نصر

جميع الحقوق محفوظة

الدار التقدمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١_٥/٢١١٥٥٥ - ٩٦١_٥/٢١٠٥٥٥

E mail: moukhtarainf@terra.nct.lb

<http://www.daraltakadoumya.com>

الطبعة الخامسة ٢٠٠٩



الأمير شقيب في الخامسة والعشرين من عمره - كانون الثاني ١٨٩٥



صاحب العطفة الأمير شكيب أرسلان



المؤلف لوثر روب ستودارد

كلمة لا بد منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه
إلى الأساتذة:

المرحوم الدكتور يوسف إيش، والدكتور يوسف خوري،
والمحامي الأستاذ توما عريضه،

الذين لم يتوانوا عن شقِّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية
بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،
طيّ النسيان والضياع.

فلهم دائم العرفان لما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع
هذا التراث ونقله.

الدار التقدمية

مقدمة الناشر

في حافظات الكتب تجتمع ذاكرة الشعوب الحية، فتنقل من محاكاة ومعايشة وقول فعل إلى عالم الكلم الذي يورق في دفاتر التاريخ مهجعاً لكلّ حدث وإحساس ورواية. فتتهي الروايات والأحداث، ويموت الأبطال والقادة، وتبقى الأفكار بين دفتين مغلقتين بانتظار من يعيد إليها الحياة، فترتقي بعيون قارئها، وتنتشي في أيدي من ينقّب ويجول بحثاً عن ماضٍ غابر، وعن صولات وجولات في زمن النضال الهادف.

ولا شكّ أنّ الاهتمام الذي طال مؤلّف "حاضر العالم الإسلامي" للمؤلّف لوثر ب ستودارد، والذي اعتنى بالتقديم له وضبطه وتقديم فصوله أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، هو مدعاة للإعجاب والفخر، إذ تمّت إعادة طبع هذا المؤلّف لأربع مرّات متتالية على مدار زمن معيّن، وها هي الطبعة الخامسة تظهر إلى الوجود مهوراً بتوقيع الدار التقدّمية، التي تتولّى حالياً جمع ونشر تراث الأمير شكيب أرسلان.

وحرصاً على الأمانة والإرث، تُدرج الدار التقدّمية تواريخ الطبعات السابقة التي استُهلّت بالطبعة الأولى الصادرة عن "المطبعة السلفية" في القاهرة، وكانت مقدّمة الأمير شكيب أرسلان لها في ستّ صفحات، أمّا تاريخها، فيعود إلى ٢١ آذار (مارس) سنة ١٩٢٥. أمّا مقدّمة الأمير شكيب أرسلان للطبعة الثانية والتي صدرت عن مطبعة "عيسى الباي الحلبي وشركاه"، فكانت في ثلاث صفحات، ووضعها في جنيف عام ١٣٥١هـ - ١٩٣٣م. أمّا الطبعتان الثالثة والرابعة، فقد صدرتا عن "دار الفكر" للطباعة والنشر والتوزيع.

هذا ونسأل الله أن تعيد الطبعة الخامسة إلى الأذهان وقائع الزمن الغابر، فنكون قد أضأنا ولو نبراساً خافتاً في ليل تلك الحقبة، ولم نغفل تاريخ رجالات كان لهم كبير الوقع والأثر في خطّ وسيرة التاريخ، الذي أفرد لنضالاتهم وعظيم مكانتهم المساحات الرحبة،

تأ يجعلها محطة قسرية لكلّ مارّ، في ما سلف، وفي ما يعدو، وفي ما سيتبع من أيام، وجلّ همّنا في ذلك أن نحمي إرثنا من الاندثار، وأن نُعلي صوت الوفاء لمن كانت له اليد الطولى في رسم أولى ملامح حاضر منطقة الشرق الأوسطية، بما يُعرف بفترة انتهاء الانتداب الغربي، وبدء الاستقلال الواعد.

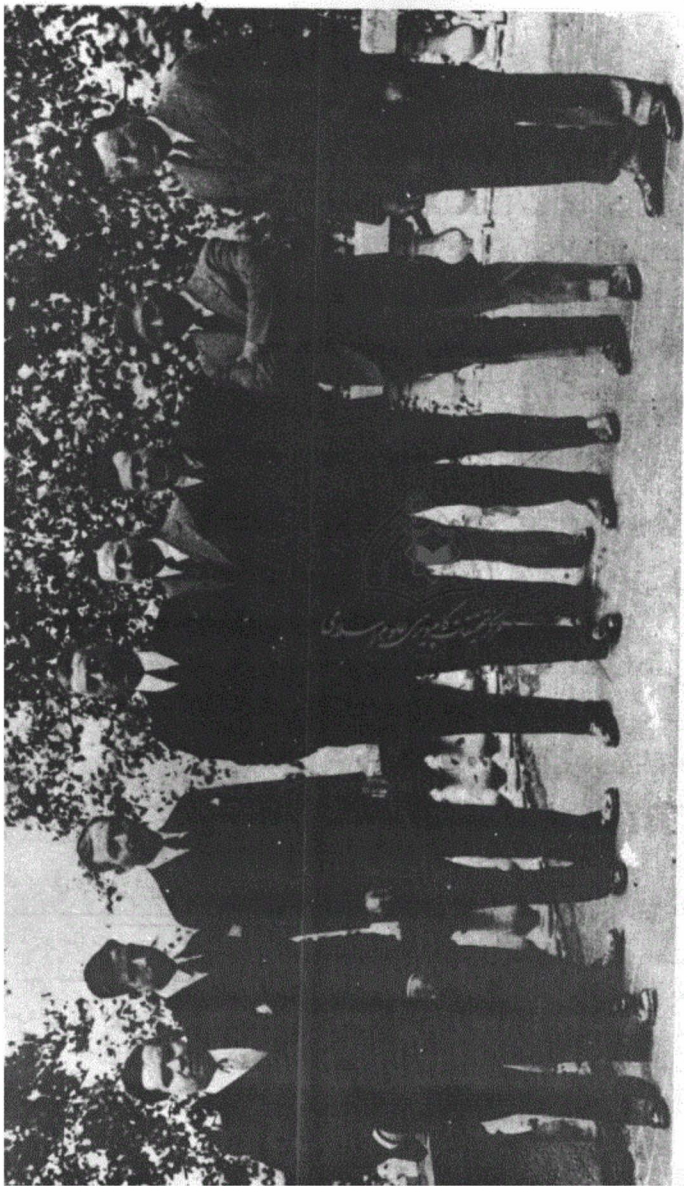
فللقارئ فسحة جميلة نتمناها في رحاب التاريخ والوقائع، وللباحثين جذوة شعاع موجّه في بحثهم الدووب عن الحقيقة، ولنا... تأكيد العمل على حسن المتابعة ونشر النفايس، بأمانة، بما تجود بها مكتبة الأيام.

الدار التقذمية

في، ٧ كانون الثاني ٢٠٠٩

قصة هذا الكتاب

جئت بيت المقدس من دمشق في خريف ١٩٢٠ ابتغى بلداً عربياً
احلّ فيه ، بعد خروجي من لبنان وسوريا ، وفي هذين البلدين امست
فرنسا البطاشة . وفي دمشق اقامت الفترة العربية كلها من تشرين الاول
١٩١٨ - تموز ١٩٢٠ وكان مرادى ان اذهب الى العراق ، ولكن الوصول
اليه في ذلك الوقت كان صعباً شاقاً ، فلا سيارة ولا طائرة ، ولا استطع
ركوب البحر لطول المسافة وتعقد سائلها وكثرة نفقاتها . فاشار علي
اخواني في دمشق ان آتي فلسطين ، فلعلّ وسائل الانتقال منها الى العراق
اسهل . ولم اكن اعرف شيئاً من فلسطين عن كتب الى ذلك الوقت ،
سوى ما احفظه في ذاكرتي من المعلومات التاريخية والجغرافية عنها ايام
الدراسة في لبنان . ولكني منذ الصغر والنشأة الأولى كنت اشعر بهواجس
في نفسي نحو فلسطين ولا ادري علة ذلك . وبيتنا في « رأس المتن »
مشرف على ذلك الوادي الذي فتن الشاعر « لامرتين » الفرنسي لما زاره في
القرن الماضي حتى صار يطلق عليه بلغة الشعر « وادي لامرتين » ،
وهو بيننا وبين بجمدون وصوفر وبعلمشيه، المصايف المشهورة . وطبيعة
لبنان في هوائه - صيفاً وشتاء - يستطيع اللبناني الصغير ان يفهم معجمها
دون استاذ ومدرسة ، فكانت كل يوم تقريباً تطلع الغيوم البيضاء من
الجنوب ، لا من جهة البحر للغرب ، وتنسحب وتتراكم في الجو ، وتتقطع
وتتناثر ، وتتألف منها مناظر خلابة . فلما سألت الاستاذ في مدرسة القرية
عن هذا قال لي تلك الغيوم من البحر الميت . فازددت حباً لفلسطين عن



في سنة ١٩٢٩ . وقت الثورة العربية الفلسطينية الكبيرة المعروفة بثورة « البراق الشريف » أرسل رئيس « اللجنة المركزية لائتلاف منكري سورية و ساحة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس « المجلس الإسلامي الأعلى » وقدما عمريا إلى أميركة للعمل من أجل قضية فلسطين واستنهاض ضم المهاجرين العرب والمسلمين وكان الوفد مؤلفا من المجاهد بالسيف والقلم الأمير عادل ارسلان شقيق الأمير شكيبا في الوسط فارح الطول و ومن يساره الأستاذ البناتك وبقية الوفد .

طريق الغمام اولاً .

ركبت القطار من دمشق الى حيفا ، فلما وصل بنا القطار الى وادي اليرموك اجتازه لأول مرة في حياتي ، ثارت هواجس نفسي من جديد ، ولكن الآن الذكريات محرقة : موقعة اليرموك ، وكانت بوابة الفتح ، كانت هنا ، وفي المساء وصلت حيفا وشاهدت « جبل الكرمل » فوجدته تلة بالنسبة الى جبال لبنان . فبت في حيفا ، وثاني يوم صباحاً ركبت القطار الفلسطيني الى القدس فوصلت بعد الظهر فهالني ان ارى بيت المقدس مدينة ، على كنفها لا اقل من خمسة الآف سنة ، وهي كلها من الحجر ، وفي دمشق مدينة الدهور والازمنة ، لم يكن فيها اكثر من عدة مبان حكومية من حجر 11 وبقيت بضعة الايام الاولى للحولي في بيت المقدس اجتلي حسن تقاسيم وجهها ، ومزابض تلالها واوديتها ، وزرت الحرم القدسي الشريف فدهشت 12 قبة الصخرة آية . المسجد الاقصى وتد الله المبارك . ولحسني ذعرت حقاً لما رأيت ما يسمون باليهود وهم بغاث يحاولون ان يستنسروا . فلم يكن في دمشق رائحة للصهيونية ، ويهود دمشق قبضة منكمشة في « حارة اليهود » شأنهم في مدن الشرق قاطبة .

ولما سألت عن الطريق البرية الى العراق ضحك الناس مني ! وكنت آخر ليلة لي في دمشق قد تعرفت مصادفة ، بمظهر (باشا) رسلان 13

(1) من رجالات سوريا العاملين في الحركة الوطنية ، وكان من المخضرمين الذين ثقافتهم صبغتها تركية لتخرجه من معاهد الأستانة ، ولما تعرفت به كان ينوي العودة الى الصلطا حيث مقره ، ثم عمل في الادوار الاولى من الحكم الاردني ايام حزب الاستقلال العربي وتوفي في 1948 ابان معترك فلسطين رحمه الله .

(لا ارسلان) في فندق خوآم ، وهو وقتئذٍ حاكم البلقاء العربي مرجعه دمشق ايام فيصل والاردن كان تابعاً لسوريا ، ولكن بعد حوادث تموز ١٩٢٠ ودخول الجنرال غورو دمشق ، تغير الوضع ، اذ معاهدة « سايكس - بيكو » تفصل بين المنطقة العربية السورية التي خرج منها فيصل بن الحسين وبين المنطقة الجنوبية التي هي الاردن - بخط قرب (درعا - حوران) فبعد خروج فيصل من دمشق انقطعت المنطقة الجنوبية - شرق الأردن - عن دمشق ، فالتقى الانكليز ظلمهم عليها شيئاً فشيئاً ، وذهب هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني أول مندوب سام بريطاني الى شرق الاردن ليدرس كيف تنشب المجال فيه. فحار حاكم البلقاء العربي في أمره ، فلا دمشق بقيت كما كانت عربية ، ولا هو مستعد ان يستقبل الانكليز ليحلوا محل دمشق الا مغامراً ، والفرنسيون امسوا في سوريا ، فجاء مظهر ارسلان الى دمشق ليعلم مسيره ومصيره. فلما تعرفت به آخر ليلة سرنى ذلك جداً ، وأنست ببقائه ، ولم اكن اعرفه من قبل ، ولما اخبرته خطتي ونيّتي ، ووقف على صلتى بالامير عادل ارسلان ورشيد طليح ، طلب مني اني اذا بلغت القدس ان ازوره في الصلّة لاعمل معه والحّ عليّ في ذلك اللاحاح كله . وزاد في الفضل انه زودني من تلقاء نفسه بكتاب وصاة بالتركية الى السكرتير المدني « مستر ديدز »^(١) في حكومة

(١) مستر ديدز هذا كان اول سكرتير مدني للمندوب السامي بمسد الحكومة العسكرية التي انتهت في اول تموز ١٩٢٠ وانما هو يعرف التركية جيداً لانه كان قبل الحرب في بعثة بريطانية الى تركيا لتنظيم الدرك فأقام في تركيا عدة سنوات .

فلسطين ، وعرفه بي وبنيتي العراقية . ولم اكن الى ذلك الوقت اعلم شيئاً
عن أي «مستر» من «المساتر» في فلسطين .

* * *

لا يقيب عني اني لست هنا أدونُ ذكرياتي ولا تسجيل مذكراتي ،
ولكنني معنيٌ بالحيوط التي منها نَسَج لي القضاء والقدر ثوباً ألبسنيه
بخير وبركة حتى اليوم - في فلسطين . من ذلك «حاضر العالم الاسلامي» .

* * *

في بيت المقدس ١٩٢٠

وثاني يوم وصولي بيت المقدس ، ذهبت الى «جبل الطور» حيث
مقر الحكومة^(١) وقابلت نائب المندوب السامي وكان يقال له «السكرتير

(١) لما زار الامبراطور غليوم الثاني فلسطين وبيروت ودمشق سنة ١٨٩٨
اهداه السلطان عبدالمجيد قطعة أرض قرب «علية صهيون» في القدس فانشأ
الامان اللاتين كنيسة ضخمة في هذا المكان . كما دشن غليوم في أثناء زيارته
للقدس كنيسة المانية جديدة قرب «كنيسة القيامة» . وبمناسبة هذه الزيارة
بنى الامان في جبل الطور صرحاً عظيماً مؤلفاً من عدة مبان لاغراض دينية
وغيرها . وهذا الصرح كان يقيم فيه القائد جمال باشا «السفاح» ايام وجوده
في القدس . والامير شكيب دخل هذا الصرح مراراً في ايام الحرب الأولى .
وبعد ١٩١٧ اقامت السلطة العسكرية البريطانية فيه الى ١٩٢٠ ثم اقامت فيه بعد
ذلك الحكومة المدنية الى ١٩٢٧ فانطلقت منه بسبب الزلزال ، وفي هذا المقر
قابلت مستر ديدز في ايلول ١٩٢٠ .

المدني ، مستر ديدز . ودهشت من لطفه وشدة ترحيبه بي وأنا آت من دمشق ، فقال لي ان « مظهر باشا » سيعود الى الصلت بعد مدينة ، وهو سينتظر هناك واما انت ، فكيف سيبلك الى العراق ؟ فهذا مستحيل اليوم . فابق في القدس ، ريثما يتيسر لك السفر البري الى العراق ، او الوصول الى الصلت ، وفي اثناء مدة بقائك في القدس ، لا بأس ان تتسلى بعمل حكومي مؤقت عندنا ، وهذا كتاب مني الى مدير المالية ، فاذهب اليه فوراً .

وبعد مناقشتي هذا الاقتراح مناقشة واقعية سريعة ، وجدت ان عودة مظهر الى الصلت قد تتراخى الى اسابيع ، وكى لا اقع في ازمة مالية خاصة وانا غريب في بيت المقدس ، اجبت مستر ديدز بالشكر والقبول ، فكتب الكتاب فوراً وسلفنيه وودعني الى الباب . وثاني يوم بدأت عملي في المالية على « جبل صهيون » .

* * *

أسال عن الأمير شكيب

قبل خروجي من الشام ، وفي اثناء ١٩٢٠ كنت اسال في « أي دنيا » الامير شكيب في اوروبا ، اذ تقطعت الاسباب ، والعالم لم يزل كسفينة تغالب الريح . والحرب قائمة بين مصطفى كمال واليونان في الاناضول ، و « روسيا البيضاء » بمدد وعون من « الحلفاء » ثارت على روسيا التي كان

يقال لها وقتئذ « البولشيفيكية » . ويران كانت تتخبط في امورها
الداخلية . ومصر لم تسكن بعد الاسكون النار تحت الرماد .

و كنت اقرأ في تلك الغضون اخبار مجي « سير برسي كوكس » الى
بغداد ليمهد ليفصل بن الحسين ، وفي الجزيرة العربية ، وبعد قليل نرى
عبد العزيز آل سعود يستولي على « حايل » ويصفي ابن الرشيد ، وهذا
اول صعود ابن السعود الى المملكة العربية .

اما الامير شكيب فقد كان بلغني من اصدقائي في دمشق ان « المكاتبات
الاخوانية » عادت الى مجراها القديم بينه وبين اصحابه ، ولكني بعد قليل
في القدس علمت انه في المانيا ، وآخر مرة رأيته فيها في لبنان كان ١٩١٦
في « صوفر » ، وله في صوفر بناية وفيها مقهى وكان يجلس في هذا المقهى
لمطالعة الصحف . وغدوت اتنسم اخباره بشوق ، فصار كثير من الناس
في القدس اول ما يسألونني ، عندما يعرفون اني من لبنان : اين هو
الامير شكيب ؟

اول صلتي بالأمير شكيب

وأوجز قصة صلتي بالامير شكيب في لبنان: فاني نشأت وانا اسمع وارى
الناس في المجالس كلما أتوا على ذكره، تهلت منهم الوجوه ولو حوا بالأيدي
اكبارآله باعتباره شاعراً لايجارى ، ولم يكن غير المثقفين يدركون انه
كان قبل بضع سنين يناغي محمود سامي البارودي في الشعر المنتفض من
العصر العباسي . ولم يكن الامير شكيب يذشر من شعره في لبنان كثيراً،

الا في كبرى المناسبات . وكنت اول تذوق الشعر اقرأ شعر امين ناصر الدين صاحب جريدة « الصفاء » في لبنان الجبل ، وشعر بشارة عبدالله الخوري الذي عُرف فيما بعد « بالاخطل الصغير » .

ولما وقعت الحرب صيف ١٩١٤ لم اكن قد رأيت الأمير شكيباً بالعيان بعد وانا مشتاق الى ذلك ، وانا طالب في المدرسة الداخلية في برمانا^(١) . ولكني كنت سنة ١٩١٤ قد قرأت ما استطعت من كتابات المنفلوطي وامين الريحاني ، وما قاله الاول عن شعر الامير شكيب وطبقته في « مختارات المنفلوطي »^(٢) .

ولم تدخل الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا الا في الحريف ، فجاء احمد جمال باشا قائداً عاماً أواخر ١٩١٤ بدلاً من زكي باشا الحلبي الذي نقل « ياوراً عسكرياً » الى بلاط الامبرطور غليوم . وما لبث احمد جمال طويلاً حتى اخذ بالتحريض على مهاجمة « الترعة » - السويس - وانتشرت الدعوة في البلاد الى هذا ، وكان الامير شكيب قد اعلن انه تطوع بكتيبة

(١) الى سنة ١٩١٤ لم يكن في لبنان الا المدارس الخاصة ، ومعظمها « تبشيري » انجليزية أو فرنسية ، وليس للحكومة اللبنانية مدارس تذكر ، وانما الأتراك حاولوا بعد ١٩١٦ انشاء مدارس حكومية على منهج تركي . وكذلك لم يعرف لبنان حتى ١٩١٦ شيئاً من معنى « دائرة الاشفال العامة » او « الصحة العامة » .

(٢) منذ الدستور العثماني ١٩٠٨ فصاعداً عمت سوريا ولبنان موجة الاقبال على الافكار الحديثة والاساليب الكتابية المصرية ، وكانت كتابات المنفلوطي في هذه الناحية في الطليعة .

لبنانية وهو زاحف مع الجيش . وآل ارسلان كان بيتهم وقتها يمثله
« الامير مصطفى » ، ويناديه شكيب ابدأ « بياعمي » ، وبعد الامير
مصطفى ، الامير شكيب ، الاديب ، الشاعر المفلح ، « السياسي العثماني » .
اذا مشى في الناس ، مشى بتؤدة ورزانة ، وعلى عينيه « نظارتان »
(عويطات) ذهبيتا الإطار ، ومن احد الطرفين تتدلى سلسلة ، ذهبية رفيعة
الى صدره ، وقامته كالرمح . سنة ١٩١٤ كان في الخامسة والاربعين .

* * *

واخذ يجول في قرى لبنان داعياً الى التطوع . و « الشوف »
و « المتن » في لبنان هما مسرح النفوذ الارسلاني والجنبلاطي . وقرتي
المسماة « رأس المتن » باتت تنتظر وصول الامير شكيب ، فلما وصل بات
ليلته عند الشيخ حسين تقي ، ودار جدي لوالدي ملاصقة لدار بيت تقي ،
وامام الدارين ساحة . ولا نعلم المدة التي يمكثها الامير في القرية . ولكن في
صباح اليوم التالي قيل ان الامير شكيباً يريد ان يجتمع بالناس في الساحة
فاحتشد الناس من كبار وصغار ، وهممهم ان يروا الامير ابن ارسلان
اكثر من « الترععة » والتطوع . وكان الشيخ حسين والدي يعرفان الامير
من قبل ، وكان الشيخ حسين يحفظ حصة من شعر الامير ، يتغنى بها
امام الناس ، ولكنه لا يبالي بقواعد الصرف والنحو .

فذهبت مع والدي الى الساحة ، وحضر الشيوخ والشبان جميعاً من
الحي كله فوقع نظري على الامير شكيب لأول مرة ، ولما بدأ يتكلم داعياً

الى نصره « الدولة » احسست كان الكلام يخرج من قلبه لا عن طريق لسانه . فارتعشت . وكان جدي قريباً منه ، وانا واقف قرب جدي . فلما انتهى الأمير من خطبته ، تقدمت خطوة أو خطوتين حتى صرت في مقابلته ، والقيت خطبة (ارتجالية) بين يديه ضارباً على وتر التطوع ، مستمداً من رباطة جاشه كل ما قلت . ولما انتهيت ، وانا احسب نفسي نلت المنى برؤيتي الأمير شكيب والخطابة بين يديه ، في اكبر حشدراته القرية في ذلك الصباح ، ما رأيته الا يسال الشيخ حسينا عني فلما علم اني ابن فلان ، واني في مدرسة (برمانا) غرني بابتساماته الحلوة وبشاشاته المشجعة وقربني منه ، وكرمني بثناء لا استحقه على مسمع من الناس ، وجعل الناس يهتفون باسمه ، ولوقفني في الحلقة الى جانبه مبالغياً في تشجيعي وتكريمي ، فطرت من الفرح ، وها قد مضى على تلك المباحثات مضى ، وما زلت اشعر بيهجتها وغبطتها . وسألني الى أي مدرسة تذهب بعد ان اقلت مدرسة « برمانا » ابواها (لأنها انجليزية) فقلت له اني ساذهب الى مدرسة « سوق الغرب » الاميركية . فدعا لي بالتوقيع .

انور وجمال والامير شكيب في عاليه

لما جاء انور باشا وزير الحربية الى لبنان وسوريا ، وتابع رحلته الى المدينة المنورة سنة ١٩١٦ ، وانور صديقه الحميم منذ أيام طرابلس الغرب (ليبيا) ١٩١١ - ١٩١٢ اقام الامير شكيب لانور استقبالا حافلا في « صوفر » ، ثم في « عاليه » وكان اخوه الأمير عادل « قائمقام الشوف » وقتئذٍ ومركزه عاليه ، وبين عاليه وسوق الغرب مرمى حجر وكان مع انور

احمد جمال ، وثلة من كبار الضباط الالمان . وجئنا نحن طلاب المدرسة لنشترك في هذا الاستقبال الرسمي الشعبي الرائع ، والناس بأسلحتها عملاً الأرض كلها يقدرون بأكثر من عشرة آلاف ؛ فلما وصل انور بسيارته المكشوفة ، والان ارى السيارة في حياتي لأول مرة ، ترجل وترجل معه احمد جمال وكبار الالمان، فقلت : اغتم هذه الفرصة لارى « انور » واحمد جمال ، والأمير شكيباً معاً . فدنا « انور » من احد الرجال المسلحين الواقفين صفوفاً على جانب الطريق ، يريد محادثته محادثة «تلطيف» وتشجيع ، فجاء الامير شكيب مع انور للترجمة ، وشاء حسن الحظ ان يكون ذلك الشخص الذي اقترب منه انور هو «عمي» وانا بجانبه ، فلما رأني الأمير بادرته بالتحية ، فهش لي وبش رغم دقة الثواني في هذه اللحظات ، وكان حديث بين انور و« المسلح » لا يتسع المكان له هنا . ثم اني رأيت الأمير شكيباً في لبنان بعد هذه الحفلة السنوية مرتين في صوفر ، وانا مع صديق والذي الشيخ عباس صالحه من اعيان « المتن » واصدقاء الأمير . ثم بعد ذلك لم اراه الا سنة ١٩٣٤ في بيت المقدس .

* * *

نفوري من اليهود في فلسطين

بعد نحو اسبوعين من مقامي في بيت المقدس، اعمل موظفاً في دائرة المالية وأنا اسأل عن مظهر باشا رسلان، وجدت ان النفوذ اليهودي في الحكومة شيء لا يطاق . غطرسة ، وعجرفة وطاوسية يهودية لانهاية لها. وصارت

ذكريات دمشق العربية تيب بي الو، الانعتاق ، فقدمت استقالتي الى المدير فلم يقبلها ، ثم دعاني الى مكتبه وراح يسألني عما انوي عمله بعد الاستقالة لوُقبلت ، فقلت له ، وهو بريطاني لا يهودي ، اني اريد الذهاب الى شرق الاردن ، الى حكومة عربية ، واذا تمكنت فالى العراق . وكان الانجليز على الجملة في حكومة فلسطين الجديدة ويرأسها هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني من اول تموز ١٩٢٠ ، في حيزين : حيز يعطف على العرب عطفاً كامناً لا يستطيع الجهر به ، وحيز المباشرة للسياسة الصهيونية . وتُقل كثير من الادارة العسكرية الفلسطينية التي كان يشرف عليها الجنرال اللنبي في مصر الى الادارة المدنية ، ومعظم هؤلاء كانوا يكرهون اليهود .

فقال لي المدير : اني لا اقبل استقالتك ، ولكني احتفظ بها في الدرج وامهلك بضعة ايام تذهب في خلالها الى السلط ، فان عدت الى القدس في خلال اسبوع ، عدت الى عملك ، وان لم تعد ، تقبل استقالتك . ثم زودني بكتاب وصاة الى المتمد البريطاني الذي في السلط . فشكرته ، وذهبت ثاني يوم الى الصلت ، فبقيت النهار كله مع رفاقي الركاب في سيارة «فورد» من مخرجات الجيش ، حتى وصلت السلط مساء فوجدت مظهر باشا لم يعد بعد ، وبت في السلط ضيفاً على أحد الكرام ، وثاني ليلة عدت الى القدس ، وصباح اليوم الثالث جئت الى عملي في المالية ، فدخلت على المدير ، فلما وقع نظره عليّ قال مستغرباً : لماذا لم تذهب الى السلط ؟

(١) واليوم تقطع المسافة من عمان الى القدس ساعتين ، ومن السلط باقل .

فقلت له ذهبت وبت هناك ليلة ورجعت ، وسألني السبب فأخبرته ، فهزّ برأسه وقال : « لم تصدقني ان هنا احسن لك » . وبقيت نحواً من سنتين اعمل في حكومة فلسطين ، حتى ذقت الأمرين كل يوم عشرين مرة من تنمر اليهود وثعلبياتهم . في ربيع ١٩٢١ أو بعد حلولي بالقدس بنحو نصف سنة ، احتشد في عمان رهط من رجالات العرب الذين كانوا في دمشق . رجال هذا رهط حاولوا العمل مع الملك عبدالله (الامير وقتئذٍ وحتى ١٩٤٦) الذي قدم من الحجاز في ذلك الربيع فاستقر في الاردن ، وكانت أول حكومة تآلفت في الأردن بعد مجيء عبدالله ، هي التي ألفها رشيد طليع « مدير الداخلية » ووالي حلب « في الحكومة العربية في سوريا أيام فيصل ، وطيح من نبغاء الأمة العربية »^(١) . فكتبت اليه من القدس اعرض عليه خدمتي ، شاكياً له اشواك المحاصرة في فلسطين ، فاجابني بانه يطلبني باول فرصة ، ولكن حكومته الأولى هذه ، وكانت لا تسلّم للانجليز بما يريدون ، لم تمش إلا بضعة اشهر ، فبقي في الأردن بعد الاستقالة مدة ثم جاء فلسطين ثم ذهب الى مصر ، ولما نشبت الثورة سنة

(١) هو صديق الأمير شكيب وخرّيج معاهد الآستانة . تولى في عهد الاتراك مناصب ادارية عديدة ، سنة ١٩١٣ كان « متصرف حوران » ، فلما ترشح الامير شكيب للنيابة عن حوران قدّم له طليح كل مساعدة . وبعد استيلاء الفرنسيين على سوريا انزوى في جبل العرب حتى دعاه الملك عبدالله ١٩٢١ لتأليف أول حكومة فألفها ولكن الانكليز عارضوه ، توفي وفاة شهيد في اثناء الثورة في جبل العرب سنة ١٩٢٦ وهو في الأخلاق المعالية قليل النظير ، وفي اتقان الادارة فريد .

١٩٢٥ في جبل العرب جاء من مصر من اجلها ، وهو في الوقت نفسه صديق قديم لقائد الثورة سلطان الاطرش . فذهب الى الجبل وتوفي بعد بضعة أشهر .

القضاء والقدر ساقني الى حاضر العالم الاسلامي

كنت في المطالعة أوتر جريدة «التيمس الاسبوعية» ، و«مجلة المجلات» الانجليزية . ولم أكن استطيع شراء الكتب أول امري في بيت المقدس اذ حالتي المالية لا تساعد على ذلك . فجعلت اتردد على «جمعية الشبان المسيحية»^(١) في القدس لاستفيد من مكتبتها ، ولكنني كنت اخشى سوء المقبة من هذا التردد ، لانني من ايام المدرسة في سوق الغرب لاحظت اني لا استطيع هضم وسائل التبشير لغير المسيحي .

وما كنت قد عرفت من وسائل التبشير حتى خروجي من لبنان الى البرتستانتي ، ومدرستا «برمانا وسوق الغرب» من هذا النوع . وحصلت امور بيني وبين الجماعة في سوق الغرب آلمتني ، فقلت : اظلل اتردد على المكتبة ما دام الجو صافياً ، فاذا اعتكر ، فليس لي الا المفرد ، وكان مدير الجمعية في بيت المقدس رجلاً محنكاً ، طويل القامة ، وفي باطنه غير ما تقرأ في ظاهره ، اسمه «مستر شيفرز» .

(١) سنة ١٩٢١ على ما أذكر جاء أمين الريحاني وخطب في هذه الجمعية فسمعت خطيباً لأول مرة وكنت معجباً بكتابة «الريحانيات» اعجابي «بنظرات» المنفلوطي .

و « مجلة المجلات » الانجليزية كانت تعني بتقريب القيم من الكتب ،
 ففي ذات يوم وانا في المكتبة اطالع هذه المجلة ، انا « مستر شيفرز »
 وكلفني بغاية الايناس : مستر فلان، هل لك ان تتفضل بأخذ هذه البطاقة
 واعادتها موقعة اذا احببت ؟ ولما وقع نظري على البطاقة ادركت ما هي .
 ما يسمى « بالعهد » وبالانكليزية Pledge خلاصتها ان الموقع موافق على
 ان يكون عضواً مسيحياً في الجمعية ، مراعياً لنظامها ، غيوراً على غاياتها ،
 مؤمناً .. . ولما لاحظت مستر شيفرز اني لم ابال بالمسألة كثيراً عاد فسألني :
 ومتى يمكنك اعادة البطاقة موقعة ؟ فقلت له : بعد دراستها !! فتركني
 ومضى . فعدت الى المجلة اكمل مطالعة ما كنت بسبيله ، وهو كتاب ظهر
 حديثاً في بريطانيا واميركا اسمه The New World of Islam وكان التقريظ
 يلاً ثلثي الصفحة ، ولفتت نظري عبارة للمجلة في الثناء على المؤلف
 فقالت هو « ارميا القرن العشرين » .

فدوّنت في دفتر الجيب اسم الكتاب وعنوان دار النشر البريطانية
 وخرجت دون ان ارى مستر شيفرز . ونظرت في النهاية وقلت : اذا
 عدت الى المكتبة ، فان مستر شيفرز سيألفني عن البطاقة، فبماذا اجيبه ؟
 وبعد التفكير ، ابقيت البطاقة على حالها ووقعتها . ولكن بعد ان كتبت
 اسم « نيينا محمد صلعم » في المحل الذي ينبغي ان يكون فيه ، وجئت
 المكتبة وجلست اطالع حصة كبيرة ، وكدت اتمّ مطالعة ما اريد ثم
 اخرج ، فاذا بمستر شيفرز مقبل علي فقال : أوقمت البطاقة ؟ فقلت :
 نعم ، ولكن مع تبديل اسم باسم أو لفظة بلفظة . فاضطرب وقال : ما

الذي بدّله ؟ وكنت جمعت اوراقى تحت ابطني ، فوقفت وقلت له: مستر شيفرز : كم سنة لك في الشرق ؟ فقال كذا وكذا من السنين ؛ فقلت له : انا اقدم منك بكثير في الشرق اوتدري كم عمري بالنسبة الى هذه البطاقة ؟ فبهت واضطرب . فقلت له ان عمري هذه السنة ١٢٤٠ سنة . تفضل هذه هي بطاقتك Good bye Mr. Shivers .

* * *

اتفقت مع مكتبة انجليزية في القدس صاحبها اسمه « مستر كلنن » على ان يحضر لي الكتاب بالطيارة . لما وصل الكتاب استقلت من عملي في الحكومة صباح اليوم التالي ، ثم جئت « البانسيون » الذي كنت اقيم فيه وقلت للسيدة المسؤولة عنه : اريد مصباحاً (لم تكن الانوار الكهربائية قد عرفت في القدس بعد) يكفيني من المساء حتى الصباح فاني ساصاب بالارق هذه الليلة . فاعدته وأتت به إلي .

فخلعت ثيابي ، وهيات مصباحي ، واعدت شيئاً لعشائي، والساعة الثالثة بعد الظهر جلست في سريري اطالع الكتاب مطالعة عامة لاقف على مطوياته ، ، مطالعة المام لا اكثر ، واذا بي اتلفت حوالي فاجد النور قد خف والشمس في الغيب، فاشعلت المصباح ووصلت بياض النهار بسواد الليل ، وكانني مسافر على بساط ربيع ، ثم تلفت ، فاذا بي ارى الصباح قد اطل ، وبعد ساعة كنت قد فرغت من الالمامة التي اردت . فاعجبت بالكتاب ..

* * *

كيفية الحصول على الاذن بنقله

«حقوق الطبع» محفوظة، كما هي العادة، ولا سيما في مثل هذه الكتب التي يدرسها الناشرون دراسة وافية قبل اخراجها، فكتبت الى السيدة البريطانية الرحالة روزيتا فوربس اسألها ان تكون معرفاً لي لدى الناشرين الانجليز، الذين طلبت منهم الاذن بنقل الكتاب الى العربية اذنا واحداً لا يتعدد ويشمل العالم العربي. وكنت قد عرفت السيدة روزيتا في دمشق سنة ١٩٢٠^(١)، اذ جاءت تدرس الاوضاع السياسية، من عربية وانجليزية وفرنسية، وشرح لها (الامير) فيصل الحقائق كلها. كان يترجم لها توفيق مفرج. واما صلتني بها فن قبيل المصادفة اني كنت صاعداً الطابق الثاني من فندق خوام، فاذا بي ارى شيخاً عربياً نازلاً وكانه حائر يفتش على شيء. فاستوقفني بعد التحية وسألني أعرف الانجليزية، ولما اجبته بنعم سألني ببهجة الذي يلقي الفرج بعد شدة، ان اذهب معه الى الصالون اذ عنده سيدة بريطانية، واخبره الامير فيصل ان يحدثها فجاءت قبل ان يهبي من يترجم بينهما. فكان هذا الشيخ هو الامير نوري الشعلان من أمراء البادية. فذهبت. وبعد هذه الجلسة كلفتنني السيدة روزيتا فوربس بان اترجم لها الاناشيد القومية العربية

(١) قامت روزيتا فوربس بعدة رحلات الى اليمن وافغانستان وصحراء ليبيا وغيرها. وفي رحلتها الى صحراء ليبيا كان رفيقها الرحالة المصري احمد حسنين المشهور ثم هو بعد ذلك قام برحلة اخرى وحده وروزيتا فوربس مؤلفة روائية. وبلغني في هذه السنوات الاخيرة انها التوت في ميولها العربية.

التي كانت تنشد في المدارس والمعاهد والتظاهرات والمواكب . ففعلت . ولم تترك هي دمشق آيةً الى بلدها الا وقد تاكدت الحال بيننا ، واعطتني عنوانها ، ولما جئت فلسطين كانت ترسل رسائلها الى بعض السيدات العربيات اللواتي يعملن في المضار القومي ، بواسطتي ، الى داخل سوريا . لذلك لما اضطررت من جهتي الى الحصول على الاذن المتعلق بكتاب ستودارد ، كتبت اليها فجلبت لي الاذن موافقاً عليه من الناشرين الانجليز والاميركان جميعاً واخبرتني انه كان لدى الناشرين عدة طلبات من ادباء العرب من مصر والعراق وسوريا ، فكان طلبي هو أول ما وصلهم فلبوه .

لما تسلمت الاذن من الناشرين ، رتبت امري أن اسير بالعمل سيراً منظماً لا يوقفني عنه الا القواهر كالمرض والطوارئ . ولكني كنت لا أملك من المال ما يكفيني بضعة أشهر وأنا لا أجنبي شيئاً في أثناء ما انقطع اليه من الترجمة في غرقتي (البانسيون) . فاستطعت ان أحل هذه العقدة بأن رضيت معي صاحبة البانسيون ، أم جورج الفاضلة ، أن تقدم الي وجبة الصباح فقط . فيحق لها عندي اجارة البانسيون ومقابل هذه الوقعة ، لمدة أربعة أشهر ديناً ، وذهبت الى السيد سليم الحداد ، لبناني الأصل مقيم في فلسطين من قبل الحرب العامة الأولى ، وهو صاحب « فندق فلسطين » و « مطعم فلسطين » وهو يعرفني جيداً منذ جئت فلسطين ، وعرضت عليه مثل ما عرضت على أم جورج ، ولكن مطلوبي منه أن اتغدى عنده الغداء فقط ولا عشاء ، لمدة أربعة أشهر ديناً ، فرضي

بكل طيبة خاطر . وبهذه الطريقة يمكنني أن أحمل السير بالعمل ، سواء تيسر العشاء بطريقة أخرى أم لم يتيسر .

* * *

ترجمته في مئة يوم :

سلخت في عمل الترجمة مئة يوم^(١) بالتام . وكنت أنهض صباحاً وارتب شؤوني الخاصة بحيث أكون في الثامنة الى منضدي ، كافي اعمل في دائرة رسمية . فأبيض ما ترجمته في اليوم السابق ، ثم اشرع في ترجمة الحصّة المينة لي ، وهي ٣ صفحات لا أكثر ولا أقل ، ولا حدود لوقت انتهاء عملي بعد الظهر أو العصر ، فقد انتهى في الثالثة ، وعلى أقصى حد في الرابعة . بعد هذا الوقت اخرج الى لقاء اصدقائي وعلى الغالب في « قهوة بريستول » عند السور في باب الخليل . وفي المساء أوي الى مخدعي فأطالع الصفحات الثلاث الجديدة وأنا في السرير ، وأحلّ عقدها اذا كان هناك من عقد ، ثم أنام فأنهض في الصباح لاستأنف العمل على الوتيرة نفسها .

(١) لاحظت أن الاستاذ الفاضل احمد الشرباصي ذكر في كتابه المحيط القيم « امير البيان شكيب ارسلان » في الجزء ٢ ص ٥٠١ اني امضيت في ترجمة حاضر العالم الاسلامي سنتين ، وذكر في الحاشية المصدر وهو جريدة الشورى عدد ١٦ ابريل ١٩٢٥ . والمدة التي انفتحتها في الترجمة هي مئة يوم على ما فصلت هنا ، ولكن الامير شكيباً بقي يبيض على العالم الاسلامي تعليقات مدة سنتين ، ولعمل المقصود هذا بالاصل . رحم الله امير البيان وأعلى مقامه في الجنان .

وأما أجوبة بريدي فأكتبها ليلاً . وأما وجبات الطعام فقد الفتها على الترتيب الذي وصفت .

* * *

كنت مدركاً وأنا أترجم الكتاب اني لا أستطيع الانفاق على طبعه ،
وإذا عرضته على المطابع سخرت منك المطابع اذ تعلم انك خالي الوفاض .
والذين كان يقع لهم ان يطلعوا على الكتاب في اثناء الترجمة ، كانوا يدهشون
من محتوياته ويحاولون تزويدي بأراء خيالية تتعلق بالمال اللازم للطباعة .
وبعد المئة يوم ، وضعت الاوراق مكانها في الغرفة ، وعلي ان اواجه
شيتين : وفاة « المطعم » لسليم الحداد ، واجارة البانسيون لأم جورج ،
ولكن المدة المتفق عليها اربعة اشهر فبقي من الأجل شهر تقريباً . وفي
خلال هذه المدة زارني في فندق فلسطين عضو المجلس الاسلامي الاعلى
عبد اللطيف صلاح ، (وكنت قد عرفته في دمشق سابقاً) وتكلم معي
بشان العمل في المجلس الاسلامي الاعلى ، ورئيسه سماحة الحاج محمد امين
الحسيني . فاتفقنا وشرعت اعمل في المجلس ، وكتاب « حاضر العالم
الاسلامي » حبر على ورق في غرفتي الخاصة . فاذا ما جئت ليلاً وراجعت
بعض الفصول ، اقلتها ثم قلت : ومتى يحل وثائق ايتها الاوراق ! متى
تجدين سبيلك الى المطبعة ؟

* * *

المطبعة « السلفية » في مصر

شرعت اتصل بالمطابع . في القدس ، مطبعة « دير الروم » وهي مطبعة كبيرة قديمة الطراز غير مناسبة . فطبعت فيها نشرة تعريف بالكتاب لاوزع هذه النشرة على الذين يريدون الاشتراك في نسخة يدفع ثمنها مقدماً ، فوجدت هذا الاسلوب عقيماً . والمطابع الاخرى في فلسطين لم اجد فيها بغيقي . فكاتبت « دار الهلال » في مصر ، واظن « المقتطف » ايضاً ، وبينما انا في هذا ، هبط القدس خالد الحكيم احد رجالات سوريا الوطنيين واخبرني ان المطبعة « السلفية » في مصر مستعدة لكل ما اريد وصاحبها الاستاذ محب الدين الخطيب نعم الأخ الصادق في هذا الباب . والاستاذ محب الدين كنت اسمع به في دمشق ايام فيصل ولم اجتمع به بعد.

* * *

ونظرت في النفقات الطباعية فبدأ لي من اهل الخبرة ان مشروع طبع هذا الكتاب لا يكلف اكثر من ١٥٠ - ٢٠٠ جنيه مصري (الجنيه الورق كان كالذهب) ، وتقل هذه التكاليف أو تزيد تبعاً المقدر المراد طبعة من النسخ .

وقررت اني مستعد بكل طيبة خاطر ان ابقى سنة أو سنتين أو ثلاثاً اعيش عيشة التقشف ، حتى أفي الدين الذي يلزمني من وراء طبع الكتاب . وكنت اذا استرسلت في حسابات التكاليف المالية ملت الى الخوف لعلني اعجز عن الوفاء ، واذا جئت الكتاب وقرأت منه طائفة

من اي فصله من فصوله ، انقلبت^١ مستصغراً حساب ارقام التكاليف مها
تعظم واستسهلت الصعاب .

طلبي من الامير شكيب ان يضع مقدمة :

والامير شكيب قبلتي في تفكيري وأنا في الترجمة . فقلت الآن
(وصارت السنة ١٩٢٣ والكتاب ظهر ١٩٢١ وبقي عندي في غرفتي سنة
مكنوزاً اطل^٢ عليه ويطل^٣ علي بصمت) اكتب الى الامير شكيب اطلب
منه مقدمة في عدة صفحات تكون قلادة في جيد الكتاب . فكتبت اليه ،
وأرسلت نسخة من تلك النشرة التي ذكرتها . وكانت هذه المكتبة مني
اليه الاولى بعد ١٩١٦ . فاذا بالامير على جناح السرعة يقول بعد المقدمة ما
اوجزه في هذه الفقرات وما استمر في بيانه :

١ - بعيد أن وصله كتابي ، جاءه شبلي الجمل^(١) وقال له : يا امير
شكيب !! صدر كتاب بالانكليزية يبحث في أحوال العالم الاسلامي
لكاتب اميركي عبقرى ، أليس من سبيل الى نقله ؟

٢ - وصادف أن الامير شكيباً كان ماراً في أحد شوارع جنيف
فرأى في الواجهة الكتاب الذي حدثه عنه السيد الجمل ، مترجماً الى
الفرنسية .

(١) شبلي الجمل من أعيان فلسطين في بيت المقدس ، كان عضواً في الوفد
الفلسطيني الأول الى لندن للدفاع عن قضية فلسطين ، وكان في جنيف وقتها
في مهمة الوفد ، وهو يتقن الانكليزية ، مفكّر ، كثير النظر في الكتب ،
واسع الثقافة وكان معظم عمله العناية بفن السياحة وترقيتها .

٣ - فاقترح الأمير - بعد علمه باتفاقي مع السلفية في مصر - ان ارسل اليه الترجمة فيطلع عليها ويقيد لديه ما يعن له من تعليق أو شرح أو ملاحظة بشكل حواشٍ حول النقاط التي تحتاج الى هذا . ثم يعيد اليّ الترجمة مع الحواشي فارتب ذلك وابعث به الى السلفية . واما المقدمة فامرها يسير ، تكتب بعد الفراغ من التعليق . ورقصت طرباً ، وحسبت أول الأمر ان التعليقات مهما تغزر وتتسع ، فرحباً بها اذ لا يعقل أن تزيد على ٤٠ - ٥٠ صفحة . واعلمت الاستاذ محب الدين بهذا الترتيب وشرعنا في العمل .

٤ - وبقي تقدير النفقات في نظري لا يحتاج الى تعديل يذكر حتى مع اضافة التعليقات . وليس بيدي شيء من فضلة المال . ومررتي الذي اتقاضاه من المجلس الاسلامي الأعلى لم يكن فوق ' المتواضع ' ومع هذا لم يضعف من العزم . فسالت سماحة رئيس المجلس أن يمديني بقرض ٧٠-٧٥ جنيهاً لكي اقدمه عند ابتداء المشروع الطباعي الى السلفية ، فتفضل به ولم استطع أن افيه هذا القرض الاّ بعد سنتين أو أكثر ، ولا أنسى هذه اليد في سبيل ' حاضر العالم الاسلامي ' فذهبت الى مصر وقرأنا بسم الله الرحمن الرحيم .

٥ - ولما جمعت التعليقات تطرد ، وتستطرد ، بقيت السنة الأولى غير هيّابٍ حساب المطبعة . ولكن في السنة الثانية صرت أعجز من أن أستطيع جعل مدفوعاتي توازي المطلوبات مني ، فبت أخشى الانهيار قبل أن ينجز طبع الكتاب ، وأحياناً كان الأستاذ محب الدين يستنجزني

التعليقات ، ويسألني أيمكنني أن أنجده بشيء من الدرهميات ، مهما تكن
قليلات ، وعندما تشتدُّ بي الأنواء ، ويجفّ من جراري الماء ، أجيبه بأن
ليس عندي غير صلاة الاستسقاء . وسلخنا في هذا سنتين من ١٩٢٣ -
١٩٢٥ وغير المبلغ الأول الذي اقترضته من سماحة رئيس المجلس ، لم
استطع أن أرسل الى الأخ محب الدين إلا ما هو في حدود العشرة جنيهاً
أو الخمسة عشر وأحياناً كنت أرسل اليه تنمة المبلغ طوابع بريد دولية .
وفي مرتين أو ثلاث لا أكثر استطعت أن أرسل اليه كل مرة فوق الثلاثين
جنيهاً .. وفي أثناء السنتين لم يسألني الأمير شيئاً يتعلق بمسيري المالي ،
ولا أنا شكوت اليه شيئاً من مصير يضعض أحوالي ، وبقيت الوقت كله
استعذب الشدة الحرساء الصامتة ، وأجد لذّة ، في تحملها في سبيل الفيض
الذي كان يفيضه الأمير .

لما انتهى طبع الكتاب في ربيع ١٩٢٥ كان حساب السلفية قد بلغ
ما يزيد على سبع مئة جنيه مصري وخمسين جنيهاً . وعجزت عن
التسديد ، فرضي الاستاذ محب الدين أن نسدد الباقي من المبيع . وقد كان
ذلك . وقد طبع من الكتاب ثلاثة آلاف نسخة^(١) ، (النسخة جزء آن)
وكانت ، التعليقات كلها من حرف صغير . عكس ما هو الحال في الطبعة
الثانية ، وكنت أحياناً استقرض من الاصدقاء ما أرسله الى « السلفية »
في أثناء الطباعة ، ومن هؤلاء الاصدقاء الشيخ عبد القادر المظفر
والاستاذ عوني عبد الهادي رحمهما الله تعالى ، ولم استطع أن أفيها
(١) كانت الطبعة ، الأولى تباع بمجدة ، وثمان النسخة ٧٥ قرشاً مصرياً .

القرضين الا بعد مدة ليست بالقصيرة جزاها الله في الجنان خيراً . ولما انتهى طبع الكتاب سألت الامير كم يريد منه لنفسه فقَالَ خمس مئة نسخة ، فتسلمها في القاهرة الامير عادل رحمها الله . هذه قصة « حاضر العالم الاسلامي » وكيف خرج هذا الكتاب من القوة الى الفعل ، احببنا بسطها بمحقاتها على هذا الوجه لنتقل بعد ذلك الى الردّ على من قال من الفضلاء انه لو فصلت التعليقات التي وضعها الامير عن المتن الاصيلي الذي وصفه المؤلف الاميركي ، لكان ذلك اجدى على القارىء ، من حيث التيسير عليه أن يطالع كتاباً منسّق الجهاز ، ليست موضوعاته تقاريق في مواضع شتى ، وأجدى على الامير إذ كان ينطلق بعبقريته الفيّاضة الموسوعية الى أفق مستقل في بموكبه الوهاج الذي يكون منه هنا ، كما كان منه هناك في امهات كتبه الأخرى « كالحلل السنوسية » أو التعليق على ابن خلدون .

* * *

اسباب فوضى التعليقات على « حاضر العالم الاسلامي »

وتقول :

١ - هناك اسباب دعت الامير شكيباً أن يطلق لفوضى تعليقاته العنان في « حاضر العالم الاسلامي » وكان ذلك خيراً وبركة فاني في كتابي المخطوط لتاريخ حياته الذي وصفته ، وسيطبع قريباً ان شاء الله ، بيّنت هذا ، وانما هنا أوجز هذه الناحية ايجازاً إذ المقصود بيانها

لا تفصيلها. فان الامير بعد اصدار كتبه الأدبية الاولى^(١) وآخرها سنة ١٨٩٨، وكان قد بلغ الثلاثين أو اجتازها، عند صدور الكتاب الرابع^(٢)، صارت «السياسة اللبنانية» «اليزبكية الجنبلاطية» تشغل به أكثر فاكتر،

(١) وهي «الباكورة» او ديوان شعره ١٨٨٧ سنة وفاة والده الامير حمود - «الدرة البتيمة» لابن المقفع ١٨٩٣ - «رواية آخر بني سراج» ١٨٩٧ - «رسائل ابي اسحق الصابي» ١٨٩٨ - ونعتبر في أمر هذه الكتب طبعاتها الاولى وان تجدد طبع بعضها بعد الحرب العالمية الاولى .

(٢) سنة ١٩٠٢ اتفق الامير شكيب وصديقه نجيب سمرق الثري اللبناني على القيام بمشروع انشاء جريدة عربية في القاهرة يتولى تحريرها الامير شكيب، ويعاونه فيها صديقه امين ناصر الدين صاحب «الصفاء» في «عبيه لبنان» وناصر الدين من أئمة الأدب والشعر وتخرج اول أمره في الصحافة على شكيب زيمدة استاذة . وتم كل شيء . ولكن حدث بعد ايام قلائل أن الامير مصطفى ارسلان قائمقام «الشوف» اعتزل المنصب ، فعين المتصرف نعوم باشا ، صديق الامير مصطفى ، الامير شكيبا للقائمقامية ، وذلك لأول مرة ، محل عمه الامير مصطفى ، فوقف مشروع انشاء الجريدة في مصر . ولم يطل وجود شكيب في القائمقامية ، اذ بعد قليل انتهت مدة نعوم باشا ، وجاء المتصرف الجديد مظفر باشا (١٩٠٢ - ١٩٠٧) فتنكر لشكيب وما زال يضايقه حتى اضطره الى ترك المنصب غير آسف عليه . ويبدو ان المهاز الاول في هذه الفكرة ، انشاء جريدة بمصر ، كان رغبة شكيب في ان يكون في ملاذ استاذة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الدعوة والاصلاح والابقاظ ، على نحو ما صنع صديق شكيب السيد محمد رشيد رضا من الهجرة الى مصر من طرابلس الشام وانشاء «المنار» سنة ١٨٩٨ ولو تم مشروع شكيب لكان للاستاذ الامام لسانان يترجمان افكاره : «المنار» «الشهري» والجريدة اليومية . انتقل الاستاذ الامام إلى رحمة ربه سنة ١٩٠٥ .

مسانداً لعمه الامبر مصطفى (ت ١٩١٤) كما تشغل بله في الوقت نفسه « السياسة العثمانية » بوجه الحصر والخلافة قائمة ، و « السياسة الاسلامية العامة » المراد تقويتها لصد المطامع الغربية . فكان الامير شكيب في لبنان يدور في فلك وحده تقريباً ، في متابعة هذه الاتجاهات ومناصرتها . نعم كان له اعوان وانصار ، ولكنه هو الحادي واليعسوب . ولما اعلن الدستور العثماني ١٩٠٨ انفتحت آفاق جديدة امام الامير ، وطلعت الحركة الطورانية فدعت الى خلق الحركة العربية . وامتد هذا التيار ست سنين الى الحرب العامة ، ثم جاءت الحرب بويلاتها وكوارثها ، وكان هو قد اصبح نائب حوران في البرلمان العثماني منذ ١٩١٣ وشغلته فتكات « السفاح » احمد جمال باشا بالمغرب فانتقل الى الآستانة اواخر ١٩١٦ وبقي هناك وفي اوروبا الى نهاية الحرب وما بعدها ، وسدت عليه طريق الرجوع الى سوريا ولبنان ، وحتى الى العالم العربي كله لتقاسم امر الاستعمار فيه بين الدولتين الكبيرتين فرنسا وبريطانيا .

فهذه مدة لا تقل عن ٢٤ سنة اتقطع فيها الامير عن التأليف^(١) ، ولكنه بقي من حيث المراقبة لسير الأحوال في اوروبا والعالم الاسلامي ، عيناً ساهرة وقلباً تارة يثن وطوراً يطرب ، ونبضه أبداً كقطعة من

(١) الا ما كان من أشياء لا تمتد تأليفاً ككتابه « مظفر باشا » الذي ينسب اليه قطعاً ، ووضعه سنة ١٩٠٧ وطبعه في الاسكندرية طواه على نقد عهد هذا « المتصرف » الذي حكم لبنان سبع سنين هوجاء وقال هذا المتصرف من الارسلانيين كثيراً فانتقم منه الامير شكيب بهذا الكتاب .

نور الشمس . فأصبح صدره شديد الامتلاء بالمعلومات الاسلامية خاصة ، ولم تواته الفرصة بعد ، لينقل شيئاً من ذلك الى التسجيل أو التدوين أو التأليف . وأمسى كاساً دهاقاً ولم تكن لتفرج عنه المقالات الصحفية مها تطل وتنوع .

٢ - ان الاحتلالات الأجنبية المستعمرة لبلاد العرب الآسيوية باسم « انتداباً »^(١) ، مزيفة ، بعد ١٩٢٠ زادت الأمير مشاغل ومشاده ابتلغته ابتلاءً ، ولكنه لا يستطيع الانصراف الى التأليف لسببين : ضيق الوقت ، ولافضلة مال لديه للانفاق على الطبع وما اليه . ولنلاحظ ما يتعلق برودده المفحمة بعد الحرب على النفر العاق الشارد الذين راحوا يتهمونونه بأنه كان عوناً « للسفاح » احمد جمال باشا ايام الحرب من سوريا ولبنان في أعمال التنكيل والنفي . فان « السفاح » طلب من الاستانة بعد أن رأى شكيباً مجاهراً بجوره ، أن يبطش بالارسلانيين شكيب وأخيه عادل كما بطش بغيرهما ، فلم توافقه الاستانة . واستطاع شكيب النجاة من الطاغية إذ أتاه خبر من صديقه عبد العزيز جاويش ان اخرج من سوريا فخرج وسليماً ، ولا عبرة انه بعدئذ اجتمع بالسفاح في فروق ، فاحترق الأمير شوقاً الى الرد على اولئك المتزئرين عليه ، وبقي هكذا حتى لقي صديقه وأخاه القديم السيد محمد رشيد رضا في جنيف في المؤتمر السوري

(١) ان فكرة خلق طريق جديدة بعد الحرب الأولى للاستعمار ، وهي « الانتداب » هي من صنع الصهاينة ليتدرج مشروع التهويد تحت اسم « انتداب » .

اللسطيني سنة ١٩٢١ وكانت التيارات السياسية قد فرقت بينها تسع سنين ، فاتفق الاثنان على أن تنشر بمجلة « المنار » في مصر للأمير ما عنده من الكشف والبيان حول مآسي الحرب . وبقيت « المنار » تنشر هذا سنة ١٩٢٢ تحت عنوان « كوارث سورية في سنوات الحرب من تقطيل وتصليب ومخمصة ونفي - مشاهدات ومجاهدات شاهد عيان ، هو الامير شكيب ارسلان » لمدة لا تقل عن سبعة أشهر . وكان أولى لو أن ما نشر في « المنار » عاد فطبع في كتاب على حدة ليعم انتشاره ، فلم يكن على ما يظهر من سبيل الى هذا ، واما فكرة هذا الكتاب فلا يعقل انها غابت عن الأمير . ولعل السبب الحقيقي عدم توفر المال .

٣ - فلما كتبتُ اليه أرجو منه مقدمة للكتاب ، وبيّنت له اني مهاجر الى الله فيه ، واطلع على ما قال ستودارد في فصوله ، فكأنني قد قدّمت الى الأمير ندى الله ثراه ، وجعل الجنان مثواه ، « مفتاحا » للسد العظيم الذي يحمله في صدره ، وارجو من القارئ ألا ينسى ما قلته من غبطتي بذلك .

نضيف الى هذا « المفتاح » :

١ - حصافة المؤلف وعدله في الاحكام مما يغري القارئ المنصف بالسير في قافلته الى غاية الشوط ، فكيف اذا كان هذا القارئ هو الامير شكيب الصائم عن التأليف ٢٢ سنة وأكثر .

٢ - ستودارد ليس بمسلم ليحيط بكل الدقائق ، مع اجادته

التقرير والوصف . والأمير شكيب ميزان العالم الاسلامي
فع ارتياحه الى ستودارد احب تصحيح النقاط التي تحتاج الى
تصحيح .

٣ - من فطرة الامير شكيب انه اذا لبس ، لبس من الالف الى
الياء .

٤ - فاندفق يكتب سنتين ، وهنا انحلت معه عقدة الوقت لانه
أي عمل أقدس من هذا العمل ؟

٥ - وأما نفقات الطبع ، فما كانت من وقتها من جهتي تصطك
لها الركب في السنة الاولى كما ذكرت .

٦ - فعاد الى الكتابة وأي كتابة ؟ أحب الكتابات اليه - جاء
موعدا

٤ - لولا ان يسوق القضاء والقدر اليّ هذا كله ، لما كان هناك شيء
من « حاضر العالم الاسلامي » سوى ستودارد ، ومهما علا في بابه وأثنى
عليه الناس ، فانه يبقى ستودارد . ولكن لما اقترن الغرب بالشرق كان
هذا الكتاب .

فكرة الفصل بين المتن والتعليقات

منذمة بعد البناء

أودّ من القارىء ان يتذكر ما قلته بشأن « المقدمة » التي طلبتها من الامير ، وجوابه ، رحمه الله .

لما راح الأمير فيفيض ، كانت امانينا ان يفيض ما شاء . والمهراز ، هو ستودارد ، فالصلة بين المتن والتعليق غير قابلة للقطع أو العزل ، وليست هي هنا الاولى من نوعها في عالم الكتابة والتأليف . الا شيئاً واحداً كان بالامكان عمله لو كان الاطلاع على الغيب مستطاعاً : وهوان نطبع كل تعليقات الامير ، بعد طبع الاصل لستودارد ، في اجزاء متتابعة ، مبتدئين بجزء حاضر العالم الاسلامي للمؤلف . ولكن الامير نفسه لم يكن يعلم ان يقف او ان ينتهي . ولا حصر قلمه في نطاق ستودارد . بل كان اما ان يحمل ستودارد على منكيهه ويطوف به من الصين الى غرب افريقيا ، واما ان يدعه مستريحاً في عشه ، ويطير الامير وحده كل مطار . مهاميز ستودارد عادت لا تكفي ، ولكن هذا العالم الاسلامي الذي يتغنى به شكيب منذ اكثر من ٤٢ سنة ، اصبح بين يديه « دار الاسلام » في رقعة متأسكة ، تتطلع الى غد واحد .

ولكن بعد ان انتهى الفيض ، وجاء الكتاب في طبعته الاولى والثانية على ما رأينا ، ابتدأت « الفكرة » الهندسية تقترح ، واول من اقترحها

السيد محمد رشيد رضا طيب الله ثراه وعرض هذه الفكرة على الامير مراراً وتكراراً ، غير ان الامير لم يأخذ بهذه الفكرة . وقد وردت هذه المسألة في عدة مواضع من رسائل الامير الى السيد رشيد في كتاب « السيد رشيد رضا او اخاء اربعين سنة »^(١)

واما طبع المادتين ، الاصل والتعليقات ، على الوجه الذي ذكرته هنا ، فأمر ممكن في أي وقت متى ما تيسرت اسبابه المالية .

فكرة تنمية الكتاب الى « موسوعة او معلمة اسلامية » .

اني لا اعلم ان هذا الخاطر خطر بيال الامير وقت بدأ يكتب التعليقات ولكن لما جمعت هذه المعلومات القيمة ، من صدر الامير ومن الكتب التي اقتناها من اجل هذه الغاية ، صارت ذات صبغة موسوعية ضمن نطاق اسلامي محدود ، وليس قلب الكتاب كله ، اصلاً وتعليقاً ، الى شكل موسوعي ، امراً سهلاً ، ولكن مما يسهل الاستفادة منه والرجوع اليه هو الفهرست المنظم ، وقد احتوت عليه هذه الطبعة الثالثة ، اما الثانية فقد خلت من أي فهرست ، واما الاولى فقد اشتملت على فهرست كامل .

(١) علفت من الرسائل المتبادلة بين الامير والسيد رشيد مما هو مفشور في كتاب السيد رشيد رضا او اخاء اربعين سنة « للامير » وفي كتاب « امير البيان شكيب ارسلان » بلائذ الشرباصي ، ان السيد رشيد سأل شكيباً لو كنت اطبع الكتاب بمطبعة المنار ، فاجابه شكيب اني اتفقت مع السلفية وانتهى الأمر .

التعليقات كلها كتبت خصيصاً

« لحاضر العالم الاسلامي »

ذكر المؤلف الفاضل الاستاذ احمد الشرباصي حول « حاضر العالم الاسلامي » والتعليقات عليه ، والتوسع والاستطراد ، في الجزء الثاني من كتابه امير البيان شكيب ارسلان :

« وقد حدثني الاستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة « الفتح » ان اغلب تعليقات شكيب على كتاب « حاضر العالم الاسلامي » لم تكتب خصيصاً للكتاب ، بل كانت عنده من قبل ، والتمس لها المناسبات في الكتاب ووضعها ،^(١) .

ولما كانت هذه النقطة ذات بال ، وهي في نظرنا ضرب من الوهم ، فاننا مطالبون بحكم امانة التاريخ ان نزيل هذا الوهم بما لدينا من علم بالموضوع كله ، ولما كان لنا من صلة مباشرة بواضع التعليقات رحمه الله ، فنقول :

١ - بينت الطريقة التي كانت بها تقدم الفصول والتعليقات الى المطبعة السلفية ، فكل ما خطه قلم امير البيان من تعليق كان يرسله إليّ أولاً (في بيت المقدس) فانسخته ثم أبعث به الى الاخ محب الدين . لم يرسل الامير كلمة واحدة ، منه الى المطبعة توأ . والكتابة كلها بخط يده ، وأما التصحيح فقد كان يتولاه الاخ محب الدين .

(١) كتاب « امير البيان - شكيب ارسلان » تأليف الاستاذ احمد الشرباصي الجزء الثاني ص ٥٠٣

٢ - والكتابة كلها بكر ، ونسجٌ جديدٌ إلاّ ما كان سبق لامير البيان الكتابة في موضوعه طول حياته الماضية ، فقد يشير اشارةً الى سبق علاجه الموضوع ، وهذا يكون واضحاً ، وعلاجه الجديد بكلام جديد

٣ - الأمرة واحدة ، وهو يكتب عن « الاسلام في الصين » أرسل اليّ بضع صفحات من « المقتطف » تحتوي على بحث له في هذا الموضوع نشر في أول هذا القرن . وغير هذا لا أذكر شيئاً آخر من قبيل تقديم تعليق ميباً من قبل . هذا في الطبعة الأولى ، أما في الطبعة الثانية ١٣٥٢ فقد ازدادت اجمات الاسلام و المسلمين في الصين زيادة كبيرة ، حتى بلغت على تنوع موضوعاتها ٨٩ صفحة . وقال الامير في حاشيته في ص ٢٢٩ من الجزء الثاني ان هذا البحث كان قد نشره في المقتطف سنة ١٩٠١ ثم اضاف اليه معلومات مستجدة .

٤ - لم يسألني الأخ محب الدين شيئاً يتعلق بهذه النقطة ، ولو سألتني لأجبتّه بما لا يزيد علماً إذ كان هو رحمه الله ، يصحح الملازم ولو كان معظم التعليقات مهيباً من قبل ، لما احتاج الامير الى سنتين وهو يكتب ، ولكان الكتاب أنجز طبعه قبل ربيع ١٩٢٥ بوقت طويل . رحم الله من علّق وصحّح . وكنت قد استعدت من « السلفية » جميع الاصول أو معظمها بعد الفراغ من الطبع لأبقيها من ذكريات الامير عندي ، وسنة ١٩٤٨ ذهب كل هذا مع مكتبتي وبيتي في القدس الى اليهود . حمى الله فلسطين من القوم الباغين .

وهذه الطبعة الثالثة نرجو أن يتقبلها العالم الاسلامي بقبول حسن

كما تقبل الطبعتين الأوليين ، فقد أسى هذا الكتاب من كتب التراث الاسلامي ، وإذا لم يبلغ بحسن التنسيق في فصوله وتعليقاته المبلغ الذي يرضي فن التأليف ، فإن مادته العلمية وهي التبر احيانا ، والذهب المصفى احيانا أخرى ، باقية على جوهرها . وكلما طال الزمن وامتدت الايام ، كثر البحث عن هذه الناحية أو تلك من نواحي الأمير شكيب . فالاحتفاء بكتبه ودراستها وتقدها^(١) ، عسى أن يتسع حتى يشمل دراسة حياته في آماله وآلامه .

شكر « دار الفكر » في بيروت :

واني أشكر « لأصحاب دار الفكر » في بيروت ، مزيد عنايتهم باخراج هذه الطبعة الثالثة على ما يرى القارىء من الاتقان . وما هو فوق هذا قيمةً ، تجنّدهم الروحي لخدمة العالم الاسلامي عن طريق نشر هذا الكتاب ، وبفشره يضاف سفر خالد الى مكتبة التراث الاسلامي .

(١) المحبّون « لحاضر العالم الاسلامي » خاصة ، ولكتب الأمير شكيب عامة ، وهم موزعون في العالم الاسلامي ، والقارات كلها ، يحدون طلبتهم على خير وجه في ثلاثة كتب تسمى في الطليعة :

١- « محاضرات عن الأمير شكيب ارسلان » القاها الدكتور سامي الدهان في معهد الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية ١٩٥٨ .

٢- « أمير البيان شكيب ارسلان » تأليف الأستاذ أحمد الشرباصي في جزئين مجموع صفحاتها ٩٣٣ صفحة ١٩٦٣ .

٣- « ذكرى الأمير شكيب » صنفا ووقف على طبعها الأستاذ محمد علي الطاهر - ١٩٤٧ وفي هذا الكتاب اكبر مجموعة للأقوال والآراء في الأمير شكيب من عارفيه في العالم بميد وفاته رحمه الله .

صفوة ترجمة لوثرروب ستودارد Lothrop Stoddard

مؤلف « حاضر العالم الاسلامي »

ولد سنة ١٨٨٢ في بروكلين ، في اميركا ، وكان ابوه خطيباً واعظاً
جوالاً ، وبعد قليل وقع الفراق بين ابيه وامه ، فاحتضنته امه وهو صغير
وكانت تحب الرحلات وتصطحب وليدها معها ، وهي كانت عليلة فغلبت
على الولد محبة العزلة والمطالعة الهادئة ؛ ولما ترعرع صار يميل الى دراسة
البيئة وملاحظة حياة الناس ، وظهر منه ميل شديد الى تحصيل اللغات
ولا سيما الالمانية في داخل جامعة هارفرد . ١٩٠١ وامتاز بالآداب .

وكان ابوه يريد ان يكون محامياً ، فشاء الله ان يجعله كاتباً اجتماعياً
ومؤرخاً لكثير من الثورات وحركات التطور في العالم . وتخرج من
هارفرد سنة ١٩٠٥ واضطر ان يتابع رغبة ابيه فدخل جامعة بوستن
ونال شهادة دكتور في الحقوق سنة ١٩٠٨ وقبل ان يشرع في ممارسة المحاماة
قام برحلة الى اوروبا دارساً مدققاً ، فهاله اذ رأى ان اوروبا تقترب من
فوهة بركان ، وبعد قليل كانت الحرب الاولى .

ورغم دفع ابيه له نحو ممارسة المحاماة فانه عاد الى ما هياه الله له ،
وبدا الكتابة ، فالف بين ١٩١٤ و ١٩٤٠ سبعة عشر كتاباً ، فكان « حاضر
العالم الاسلامي » الخامس من كتبه سنة ١٩٢١ .

من كتبه هذه وقد اشتهرت :

- « الثورة الفرنسية في سانتو دومنجو » (١٩١٤)
- « نهضة الشعوب الملونة » (١٩٢٠)
- « الثورة على الحضارة » (١٩٢٢)
- « الطبقات الاجتماعية في اوروبا بعد الحرب » (١٩٢٥)
- « الانسانية تحت سيطرة العلم » (١٩٢٦)
- « الحظ : شريك الصامت » (١٩٢٩)

وسنة ١٩٢٤ قام بسياحة الى الشرق الأوسط وزار فلسطين والاردن
ومصر وتركيا وغيرها . واجتمعنا به في بيت المقدس وكانت بيننا
احاديث مفيدة ، ودعاه سماحة رئيس المجلس الاسلامي الاعلى الحاج محمد
امين الحسيني الى وليمة فاخرة تكريماً له في بيت المقدس ، وصحبته الى
الاردن ضيوفاً على الملك عبدالله اربعة ايام ، فعرفت فيه علو تهذيبه وبعد
نظره وسعة علمه . ولما قفل راجعاً بطريق أوروبا ، زودته بكتاب الى
الامير شكيب في سويسرة ، ولكنه لم يلقه اذ كان الامير خارج البلاد ،
فاجتمع به بعد ثلاث سنوات في اميركا لما لبى الامير دعوة الجالية العربية
لحضور مؤتمرها هناك سنة ١٩٢٧ وكان لقاؤهما لقاءً لقاء الصديقين العالمين
جمعهما الله في كتاب واحد .

وكانت المكتبة بيني وبين ستودارد كل فترة واخرى تنبثني عن
الزيد من الفضل فيه . وكان يهديني كتبه مما ذكرت هنا وغيرها ويرسل
الي نسخة من كل مقالاته الفريدة في « ساترداي ايغنز بوسط » المشهورة .
ولكن انقطعت الكتابة بيني وبينه في خلال الحرب الثانية ، فلما وضعت
الحرب اوزارها ، عدت الى مراسلته ، وكان ذا صلة حسنة برجال التمثيل
الدبلوماسي العربي في اميركا .

تزوج مرتين . وسنة ١٩٥٠ انتهت حياته فرثاه كثيرون في الصحف
والمجلات . اوسع كتبه انتشاراً هو « حاضر العالم الاسلامي » اذ ترجم
الى التركية والالمانية والفرنسية ، فضلاً عن العربية .

وكان يريد اخراج طبعة جديدة منه ، مستوعبة صفوة التطور
الاسلامي الى منتصف القرن ، اذ مساقه في علاج القضايا والمسائل يقف
عند ١٩٢١ ، فعاجلته المنية ، جزاه الله خيراً .

عجاج نوحض

ربيع الثاني ١٣٩١

(رأس المتن - لسان)

حزيران (يونيو) ١٩٧١

فَهْرَسْت

المجلد الاول

من كتاب حاضر العالم الاسلامى

- مقدمة المؤلف فى نشوء الاسلام وارتقائه وانحطاطه من صفحة ١ — ٢٣
- الفتح العربى للامير شكيب أرسلان من صفحة ٢٤ — ٣٠
- البعثة المحمدية وأقوال جبهة من العلماء والفلاسفة والمؤرخين الاوربيين فى النبى ﷺ
- المنصف منهم والمغرض للامير شكيب أرسلان من صفحة ٣١ — ٤٢
- السيرة النبوية وكتاب « حياة محمد » لأميل درمنغهم وتعليقات للامير شكيب أرسلان
- من صفحة ٤٣ — ١٠٤
- تلليل المؤرخين الاوربيين لسقوط مملكة فارس والمملكة الرومانية بيد العرب صفحة ١٠٥
- الحضارة الاسلامية ورقى العرب الفكرى فى القرون الوسطى للامير شكيب أرسلان
- من صفحة ١٠٦ — ١١٧
- لماذا الاسلام راق يذاته والشعوب الاسلامية غير راقية وأقوال البرنس جوفانى الايطالى
- والفيلسوف كوندوسه الفرنسى فى المقارنة بين نظام الاسلام والكثلكة من صفحة
- ١١٧ — ١٢٧
- مدنية الاسلام من صفحة ١١٨ — ١١٩
- الرد على حساد المدينة الاسلامية المكابرين من صفحة ١٢٠ — ١٢١ للامير شكيب
- اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها من » ١٢٢ — ١٢٤ »
- سبب تأخر أوربة الماضى ونهضتها الحاضرة من » ١٢٥ — ١٢٧ »
- المدينة العربية وخدمة العرب لعلم الطب للامير شكيب أرسلان من صفحة ١٢٨ — ١٣٦
- الحركة العلمية فى الحضارة العربية كما يصفها الفيلسوفان ولز الانكليزى ودابر الأميركى
- من صفحة ١٣٧ — ١٥٥ للامير شكيب

العصية الفارسية والاسلام - مهيار الديلمي و بديع الزمان الهمداني - للامير شكيب ارسلان
صفحة ١٥٦

نظريه « القومية العنانية الاسلامية » و « القومية التركية الطورانية » للامير شكيب
ارسلان من صفحة ١٥٧ — ١٦٠

اسلام الفرس ومبدأ التشيع للامير شاكيب ارسلان من صفحة ١٦١ — ١٩٣
المتاوله والشيعه للامير شكيب من صفحة ١٩٣ — ١٩٨

التشيع أيهما فيه أقدم الشام أم العجم للامير شكيب من صفحة ١٩٩ — ٢٠٤
ترجة القرآن الى غير العربية للامير شكيب من صفحة ٢٠٥ — ٢١٣

محاضرات العرب للقسطنطينية للامير شكيب من صفحة ٢١٤ — ٢١٨

فتح الترك للقسطنطينية وخلاصة خططها للامير شكيب من صفحة ٢١٨ — ٢٣٧

التسامح والتعصب بين الاسلام وأوربة للامير شكيب صفحة ٢٣٨ — ٢٣٩

الفرق بين الخلافة والملك - هدى الخلفاء الراشدين - سيرة عمر بن الخطاب للامير شكيب
من صفحة ٢٤٠ — ٢٥٨

الفصل الأول من الكتاب في اليقظة الاسلامية من صفحة ٢٥٩ — ٢٧٧

المبشرز و عمر ومفترياته للامير شكيب من صفحة ٢٧٨ — ٢٨٢

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده للامير شكيب صفحة ٢٨٣

الاستاذ الأكبر السيد محمد رشيد رضا للامير شكيب من صفحة ٢٨٤ — ٢٨٦

الفصل الثاني من الكتاب في الجامعة الاسلامية من صفحة ٢٨٧ — ٣٢٨

الدول المستعمرة والاسلام للامير شكيب من صفحة ٣٢٩ — ٣٣١

آثر الروسيات في الشرق قديماً وحديثاً للامير شكيب من صفحة ٣٣١ — ٣٣٣

الفتوحات الاسلامية في الهند والتقسيمات الجغرافية وعند مسلمي كل ايلة للامير شكيب
من صفحة ٣٣٤ — ٣٣٧

الاسلام في جاوى - المستشرق هورغرونه وسياسته نحو الاسلام - مسألة الحضارة

للامير شكيب من صفحة ٣٣٨ — ٣٥٧

مسلمو الفيليين للامير شكيب من صفحة ٣٥٨ — ٣٦٣

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية - محاضرة السيد اسماعيل العطاس من صفحة ٣٦٤ — ٣٧٥

مقدمة

الطبعة الثانية

بقلم الامير شكيب ارسلان

ظهرت ترجمة هذا الكتاب الى العربية مع حواشيتها سنة ١٣٤٣ هجرية وفق سنة ١٩٢٥ ميلادية ، فانتشرت في جميع العالم العربي انتشاراً عجبياً ، ولم يمض على طبع الكتاب أربع أو خمس سنوات ، حتى نفذت نسخة بأجمعها ، وصارت تؤدّى على النسخة الواحدة أضعاف قيمتها الأصلية ولا ينزل عنها مالكمها . ولقد سدوا في مصر ألف نسخة برسم المدارس ، فلم يجدوا ولا عشر نسخ . وعليه تقدم أناس يريدوننا على تجديد طبعه ، ونعميم نفعه ، فبادرنا الى الاجابة ووجدنا في ذلك عين الصواب وبعد الأخذ والرد قسم الله للسادة الأمانئ عيسى افندى البابي الحلبي وشركائه القيام بهذه التفتحة الجديدة للعالم الاسلامي والطرفة النفيسة للحقيقة والعلم

ولما كان قد مضى على الطبعة الأولى سبع سنوات تامات ، جرى خلالها حوادث ومهمات ، ووقائع هامات ، وحصل مايسوء وما يسر ، وطرأ ما هو حلو وما هو مرّ ، وبالاجال تجددت قضاياهم التاريخ العام ، فضلاً عن تاريخ الاسلام ، وذلك لأن الحرب العامة كانت أشبه بزلزال جيولوجي عام ، كاد يأتى الأرض من قواعدها ، فكثرت على أثرها الانقلابات والتحويلات ، وازدادت قابلية الأمم للتأثرات ، وتمّ في هذه السنين السبع بين طبعي الكتاب الأولى والثانية ما لا يحصل أكثر منه في الحقب الطوال ، كان لا مندوحة لنا عن مراجعة النظر في الحواشئ التي علقناها على الكتاب أول مرة ، لنضم إليها ما جدّ من الوقائع التي جرت خلال هذه الأعوام ، الأخيرة وزدّف الأول بالآخر ، والأصل بالفرع ، وتكون الحواشئ التي توخينا تعليقها على موضوع موضوع من مباحث العلامة ستودارد قد جاءت بتام البحث ، ووفت بالعرض ، ونقعت الغلّة ، ولم تبق في النفس حاجة ، وأنت بصورة الوقائع متسلسلة من الأول الى هذه الساعة . ثم انه لم ينحصر الأمر في سرد الوقائع ، ولا في تقييد

ما تجد في هذه الاعوام الأخيرة من الحوادث ، بل تعداه الى اكمال مباحث كان ضيق الوقت قد قضى باختصارها، ومطالب ألبأ تحرج المسكان دون استنزافها الى أصبارها . فاطلقنا هذه المرة فيها للقلم عنانا ، وأرهننا للتحقيق سناناً ، وأكلنا ما كان قضى ضيق الوقت بابقائه ناقصاً ، أو برده عن محله ناكصاً . ولسنا ندعى مع ذلك ، أننا لم نبق في القوس منزعا ، ولم ندع الى الموضوع مرجعا ، ولا نقول ان كل مبحث قد استوفى من الاحفاء قسطه الأوفى ، فلا يجد القارئ للزيادة موضعاً . حاشا أن نقول ذلك ونحن ندرى وكل أحد من أرباب العلم يدري ، أن كتابا يتوخى فيه صاحبه الاحاطة بأخبار العالم الاسلامي على وجهها ، والاتبان بالمسائل الاسلامية كلها من فصتها ، لا مناص من أن يملا بالأقل ثلاثين مجلداً من قطع الجزئين اللذين ظهر بهما الكتاب في طبعته الأولى ، والأجزاء الأربعة التي يظهر بها في طبعته الحاضرة وعند ذلك يصح أن يقال ان في اللغة العربية انسيكلو بيديا اسلامية أشبه بموسوعات العالم التي عند كل أمة من الأمم الراقية التي يقتدى بها

وهذا الأمر وهو وضع معلمة اسلامية وافية ضافية ، لا يجوز أن يغيب عن نظر الحكومات الاسلامية ، التي تبغى الفلاح ، وتنشد الرقي والطيران الى النجاح بجنح ، فانه وان كانت كتب التاريخ في الاسلام أكثر من أن يحصها العدت وكان المسعودي ذكر في مقدمة مروج الذهب نحواً من سبعين مؤرخاً مع أنه لم يكن مضى على الاسلام الا ثلاثة قرون ، وان كانت سعة التأليف في الاسلام أعظم من أن يتصورها العقل (١) وكان الذين لهم مئات من التأليف في الاسلام يحصون بالعشرات ان لم يكن بالمئات وكان الطبري يعرض التاريخ على تلاميذه في ثمانين ألف ورقة ، وكان ابن عروة الحنبلي يؤلف تفسيراً في ١٤٠ مجلداً كبيراً ، وكان المؤرخ سيديو صاحب الكتاب الافرنسي المشهور عن مدينة العرب يقول : « ان منهم كاليوطى مثلاً - من صنف من الكتب أكثر مما قدر كثير من الافرنج أن يقرأوا في حياتهم ، وكان صبح الأعشى في عصره كتاباً نادر النظر في باب ، فلا تقدر أن نقول ان للاسلام انسيكلو بيديا متناسبة مع مقامه بين الأمم ، أو مع الدور الذي مثله في التاريخ البشري محشودة فيها جميع الموضوعات المتعلقة بالاسلام والمسلمين ، بحيث يستغنى بها الباحث عن مراجعة المئات والألوف من المصنفات . فهذا الذي ينبغي للمسلمين أن يهتموا بازاحة علته

(١) سبق لنا مقالة منذ ثلاثين سنة في مجلة « المشرق » اليسوعية في بيروت عنوانها « سعة التأليف في

الاسلام » أتينا فيها بأمثال مدعشة في هذا الباب

وسد حاجته ، وان يكون الا بتأليف لجان يكون فيها نخبة من الأفراد المتخصصين كل في فنّه والأفذاذ المبرزين كل بين أهل قرنه ، ولا تقدر على ذلك في رقتنا الشرقية اليوم الا الحكومات والدول فأما الأفراد فليسوا له بمقرنين . وكذلك ليس في العالم الاسلامي جمعيات خيرية ولا علمية تستطيع أن تبذل البذل الذي يبذل هذه الخلة وان وجد فلا يزال في مهد الطفولية .

أما كتابنا هذا في أجزائه الأربعة هذه المرة ، فانه الى أن يتاح للاسلام حظ هذا العمل الكبير ، يكون من الكتب التي تقي بجانب من هذا العوز ، ويجوز أن يقال انه معلمة اسلامية صغيرة ، بل هو في المباحث الجغرافية والتاريخية والاحصائية عن أقطار الاسلام النائية وبها عمير المجهولة فنّ في بابها ، وكذلك يمتاز هذا الكتاب بالمباحث السياسية التي قبض محررها أن يعلمها من عين صافية ، وأن يقف على الرواية الوثيقة منها بطول خبرته ، وقرب سنده ، واستمرار مزاولته لهذه الأمور من ٤٧ سنة . وفيه بعد تراجم وأخبار ، لم يسجلها كتاب ولا جرى بها قلم ، فلا يبجدها الناشد في غيره اذ هي نتيجة مشاهدات الكاتب وما رآه بالعين وما سمعه بالأذن وما كان له فيه أخذ وردّ . وعلى كل حال ففي هذا الكتاب من الطريف ما لا يسع انكاره الجاحد ، ولا يضيره مرء الحاسد . ولا شك في أن الأمة الاسلامية الناهضة الى تجديد تاريخها ، النازعة الى النهاء بجميع فروعها وشماليها ، ستنتظن الى كل ما يعوزها من هذه المقاصد الجليلة ، ومن جللتها تأليف المعلمة الكبرى التي هي من ضرورات رقيتها وأشراف نموها . وبالله التوفيق ومنه نستمد الهداية الى أقوم طريق وصلى الله على النبي العربي العريق وعلى آله ومحبه وسلم

شكيب أرسوز

جنيف في ١٥ ذي القعدة ١٣٥١

مقدمة الطبعة الاولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لولية ، والصلاة على نبيه ، والسلام على كل هادي الى سوية . وبمد فان الاوربيين الذين يغورون في كل امر ، ويختلون كل سر ، ويوسعون كل قضية درسا ، ولا يسأمون في أطراف الأرض بحثاً ولا خصماً ، يذهبون الى ان في العالم الاسلامي حركة شديدة ، وغلياناً عظيماً ، وان آسية وإفريقية ماخضان بحوادث خطيرة يكون من الجهل تجاهلها ، ومن الخرق الاستخفاف بها . ومنهم من يفلو في تقدير هذه الحركة وتوسيع دائرتها ، فيرى الاسلام من أقصاه الى أقصاه متحسناً للقيام ، والشرق من أوله الى آخره متحفزاً للصراع ، ويجد العالم القديم كله مستوفزاً يريد ان يقتني اثر اليابان ، ليسترد مجداً سالفاً ، ويستجد عزاً آتفاً ، ويشحط عنه كل غريب ، ويكشف كل مغير ، وان الشرقيين لا سيما المسلمين منهم ، يأبون الا استرجاع أملاكهم المنصوبة باصبارها ، واحراز حقوقهم المهضومة بحذافيرها ، كما أن نفراً تراهم بالعكس ، يقولون ان الاسلام جسم متفكك الاجزاء ، متقطع الأوصال ، عاجز عن الصراع ، فاقد لأسباب الدفاع ، ينقصه العلم ، كما يعوزه السلاح ، لا يريش ولا يبرى ، ولا يقدر على ثورة ذات بال ، فن أحق الحق وأسفه السفه أن تقيم أوربا للاسلام وزناً ، وأن تحسب للشرق — حاشا اليابان — حساباً ، وأن تمهل الاسلام في استصفاء ما تبقى له على الاستقلال ، الى ان تكون عصت مقادته على الراكب ، وعست فئاته على الغامز ، فالأحزم والأحوط هو مضاء أوربا في سياستها المبنية على الفتح ، غير مبالية بصخب ولا اعتراض ، ولا متحرجة عن تفجير الدماء في قمع ثورة أو منع انتفاض . ولهذا تجد هذه الفتنة معنة في مطاعمها ، مستمرة في غلوائها ، مطبوعة في اختلاس الممالك دواعي أهوائها ، لاتنظر الى العواقب ، ولا تتصرف في أمر تصرف محاذر ولا مراقب . وكان الناس يظنون أن الحرب الكونية بما أتت به من المثلاث والعبء ، وأجرتة من جداول الدماء وسيول لعبء ، ونزفته من أمواه الحياة ، ونسفته من أركان العمران ، وأنفدته من القناطير المقنطرة ،

وطيرته من المجاهيد الموفرة ، ووضعت من الاعباء على كاهل البشرية ، وأورثته من الانسراق في كل عضو من أعضاء الهيئة الاجتماعية ، قد تُنبه رجال الدول الى سير القصد ، ومراعاة الحق وإيثار الرفق ، والصدوف عن ترهات الحيف ، والتكلم بغير نغية السيف ، لأنه من المقرر أن هذه الكاتنة العظمى ، والطامة الكبرى ، كانت لها جملة عوامل أهمها التهاوت على الاستمرار ، والنساق على اقتسام الأقطار ، والظن بأن كل ما هو غير أوربي فإما هو آلة للاستغلال وموضوع للاستثمار . نخب أيضاً الأمل بالانعاط بهذه الحرب التي لم ير التاريخ لها مثالا ، وأخطأت الفراسة بأن هذه المصائب والأحوال تلهم ساسة الدول الغربية رشداً واعتدالا . بل رانت للطامع على البصائر ، وغلب الجشع على الحجى ، وطمست الاهواء الالباب . مع أنه كان يكنى هؤلاء مثله معاهدة « فرساي » التي لو كانت مبنية على قاعدة الانصاف لما احتيج اليوم الى لجنة الخبراء ، ولما وقع ما هو واقع وما سيقع من الخصاص والمرء ، وما سيفضى يوماً الى حرب ثانية ، ومصائب نالية . وكذلك معاهدة « سقر » التي اضطر واضعوها أن يمزقوها ، بعد تلك الدماء التي أراقوها ، والبلدان التي غادروها خرابا وزرعوها أسنة وحراباً . فع أنهم رأوا خطأهم صراحية ، ومع أن زرعهم لم يثمر إلا شوكاً ، ومع أن العداوة قد لقت من ذى أذى ، وإن دواعى الحرب علت أكثر مما بدأت ، لا يريدون أن ينتهوا عن ضلالمهم القديم ، ولا أن يربعوا على ظلمهم الجديد ، ولا أن ينظروا الى ما عليهم من الديون المجهضة الاحال ، ولا يفكرون فيما على ظهورهم من أمثال الجبال ، وإنما يعولون في حياة مطاعمهم على النيران المحرقة ، والقنابر المصحقة ، وعلى الحرب الجوية ، بأعداد الألوف المؤلفة من الطيارات التي يرونها أخصر طريقاً وأخف مؤونة وأوسى قتلا . ولا يلاحظون ما في قتل النساء والأطفال من الفظاعة التي لا تليق إلا بالتوحشين الذين يأكل بعضهم لحم بعض ، وما في تدمير المساكن على رؤوس الأبرياء والوادعين من مخالفة دعوى الانسانية التي يزعمون أنهم حمايتها في الأرض .

فالعالم الاسلامى الذى لا يزال محور سياستهم قهره واعناته ، وتجريده من السلاح بكل وسيلة ، والحيلولة بينه وبين الاتحاد والتهاك بكل حيلة ، احتياطاً من وراء رسةقمانه في قيوده الحاضرة ، وأماناً على ديمومة خنوعه لسلطتهم القاهرة ، لا يصح أن يقال انه بلغ من النهضة الدرجة التي تكفل له حطم سلاسله الثقيلة ، واسترداد ممالكه العريضة الطويلة ،

واستئناف معاليه الخالية ، ومصيره مع العالم الأوربي الى حالة متساوية . ولا أدرك بهذه السنين القلائل من اليقظة ما يكفي لتجديد ما أخلق من حله ، واستشأن من شأنه ، بل لا يزال وباللاسف الجهل محبباً على أكثر آفاقه ، وما برحت العصبية الجاهلية عاملة عملها في تفكيك عراه وبعثرة أجزائه ، كما أن الرعب من سطوة الأجانب الا من رحم ربك ملء الجوانح ، واليأس من استطاعة القيام فاش في الأفكار والخواطر . وكأنه الى هذه الحالة بعينها نظر النبي ﷺ حينما قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع . قالوا : أو من قلة منا يومئذ يارسول الله ؟ قال : لا . ولكنكم غثاء كغثاء السيل يُجمل الوهل في قلوبكم وينزع من قلوب أعدائكم ، من حبكم الدنيا وكرهتكم الموت » أو كما قال . نعم صار المسلمون ، الا الأقل منهم الى زمان لا تغنى عنهم كثرتهم شيئاً بل صارت الفئة القليلة من غيرهم تتحكم في الفئة الكثيرة منهم ، وتختبطهم بكل عصا ، وهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، وراح الأجنبي يفتح بلدانهم بهم ويسلط بعضهم على بعض ، ويقتل هذا بذلك مستفيداً من قتل الاثنين : الذى يقاتله والذى يقاتل معه . واذا سالت أحدهم لماذا اعطاء هذه المقادة كلها واقتحام الموت في سبيل الأجنبي الذى تغلب عليه ، أجابك انه انما يساق الى الموت رغماً . والحال أن الموت الذى يخشاه في عصيان الأجنبي ، هو ملاقيه في طاعته ، فهو من خوف الموت في الموت ، ومن حذر العذاب في أشد العذاب . فلا بد لاستقلال الاسلام من زوال هذه الأوهام ، ومن انتشار المعارف التى لا تجتمع مع الذل في مكان ، ولا تبرح دون تلك الغاية مصاعب وقصم ، ومصائب وطمم ، وليال مظلمة طوال ، ومعارك تشيب لها ذنائب الأطفال . وانما الذى يخطئ فيه سكارى العز ونشأوى الساعة الحاضرة من الأوربيين ، اعتقادهم أنها حالة ستبقى على الدهر ، وان ثلثية وأربعين مليوناً من المسلمين سيلبثون الى الأبد رهن اسارهم وفريسة استعمارهم ، ووقود نارهم ، واعتبارهم الشرقيين عملة يسمن الشرقيون بهزالمهم ، ويسعدون بشقائهم ، ويقوون بضعفهم ، ويحيون بحتفهم ، حقاً لقد تجاوزوا الحد ضلالاً وغروراً ، واستكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ، وظنوا أنهم انما كتبت لهم السيادة خالصة من دون الناس وأمنوا جفوات الأيام ، وأخذوا الطريق على الفلك الدوار فلا يدور لهم الا بحسب المرام . كلا هذا منهم خيال زائل ، ووهم أرق من شبح باطل ، فلن يبقى الشرقيون أبداً الدهر مدقة

هينة عليهم نفوسهم ولن يصبروا أكثر مما صبروا على أن يلي أمورهم من ليس منهم ، ولا بد أن ياتي الزمن الذي يصبح كلُّ فيه سيداً في دياره ، مانعاً لذماره ، مساوياً في الارض لمن ظن سلطانه سرمداً ، ودوره مؤبداً ، وعمل اليوم عمل من لا ينظر ما يكون غداً ، لا سيما المسلم الذي يقرأ كل يوم في قرآنه ما يجعله بكل جارحة من جوارحه رجلاً ولا يرضى له بالاستقلال بدلاً ، وينفخ فيه من روح الانفة ما يصور الفذل كفراً ، ويلقي في روعه من حب العلم ما يصير الجهل وزراً ، ويحتم عليه من الأخذ بأسباب القوة ما يخيل الضعف شركاً . كلالن يلبث الشرق لدى دول الاستعمار هو الشحمة الرقبي ، والامم التي لا تملك لأنفسها حقاً ، ولا تنفض عن أعناقها رقاً ، ولا يمكن أن يظل الاوربي سيد الارض غير مدافع وصاحب الحكم غير مزاحم مطلقاً على ما في الدنيا من الجهات النفيسة ، مستأثراً بما بين المشرق والمغرب من الجنّبات الرئيسة ، فلم يبرح الدهر قلباً ، والدوام محالاً ، والتاريخ يركب الامم طبقا عن طبق ، ويلحق من تأخر بمن سبق ، وما من بهشة الا وراءها جهشة ، وقد كذب من طمع في صفو بلا كدر ، وصعود بلا حدّ . ومن أعظم الخطا الظن بأن الشرق لا يعلم على شعث ، وان آسية وافريقية لن تنهضا من عثار وهما ثلثا العالم ، ولقد سار الشرق في مدة وجيزة عقبات جيّداً ، واجتاز أزمات شداداً ، وهو ماض في سيره الى الأمام لا سبيل بعد اليوم الى تعويقه ، ولا حاجز يمكن أن يقف في طريقه بدسائس تلقى ، ومبالغ سرية تنفق ، وأخلاق تفسد ، وذم تشرى وأشرار تبت ، وأسياف تُسل . ولا المحلقات في الجو تقدر على كم الأفواه ، ولا الغازات السامة تقوى على إطفاء نور الله ، وما تزيد هذه الوسائل تلك الأمم المستضعفة الاشوقاً الى الحرية ، ونداء الى الثارات واصراراً على الضغائن ، ومهما يكن من حيل العباد فللكون سنن هو سائرهُ ولله أمر هو بالعه .

وقد كتب كثير من المؤلفين الأوربيين على الحركة الاسلامية بعد الحرب ، ففهم مخطئ ومنهم مصيب ، ومنهم من خلط قولاً سيدداً وآخر بعيداً . ومنهم من تكهن بالشر وأنذر بالويل . ومنهم من أحسن الظن وهدي الى الطيب من القول . ولا شك في كون خيرة ما ألفت في هذا الباب ، ونبلة ما خيض من هذا العباب ، هو الكتاب المسمى « بالعالم

الاسلامى الجديد^(١) « تأليف العلامة الحضيف البليغ المستر ستودارد الأمريكى الذى أخرجه كتابا جامعا وشهاباً لامعاً ، وحصيله بحث دقيق ، ونتيجة احفاء عميق ، فهو فى هذا الموضوع أفضل المؤلفات على التحقيق . توخى صاحبه العدل فى الحكم والاعتدال فى الوصف والوقوف عند اعتراض الشك ، وأبى القاء الكلام على رَسِيْلَاتِهِ وازناً الأمور بميزاتها غير مقصّر ولا مشطّ ، ولا مفرطٍ ولا مفرطٍ وهو الأمد الذى يكبو دونه جواد غيره من المصنفين ، والناية التى لا تتاح الا للافذاذ من صِيَابَةِ المحققين . وضعه محرره باللغة الانكليزية وترجه بعضهم الى الفرنسية وربما ترجمه الى غيرها من اللغات الاوربية ، ونقله أحد أمباء الترك الى التركية ، ولكن أكثر من أعجب بهذا الكتاب هم أدباء العرب ، فقد تبارى عدة من أفاضلهم فى تعريبه خدمة لقومهم ونصحاً ، وانبرت أقلامٌ مرهفة لجلاء عرائسه على منصة هذه اللغة الفصحى ، وانما سبق غيره الى الاتمام ، الشاب الأديب الكاتب الناهض عجاج افندى نوبهض ، فأبرزه فى حلة من نسيج الضاد تشد بها نُطقُ النطق ، وتقرن بها حلاوة العبارة بلسان الصدق . وكان قد كتب الىّ فى العام الماضى وأنا فى أوروبا يلتمس منى تصدير هذا الكتاب بمقدمة تليق بمقامه الخطير ، وتكون فى أوله مقدمة وهى فى الحقيقة من ورائه ظهير ، وكنت قبل ذلك اطلعت على هذا الكتاب ووقفت على ما فيه من جلال مناج ، وسداد آراء ، وسمعت حسن الاحدوثة عنه ممن يعرفون الحجر من الخلل من القراء ، فرأيتنه لاضطراره الى الاجال ، وعدم تعرضه لكثير من المسائل الاعلى سبيل الايمان ومن قبيل الاستشهاد ، يحتاج فى بعض المظان الى الاكمال أو الايضاح . فعلقته عليه بما أملاه الخاطر الفاتر حواشئ رجوت أن تكون طرازاً لخبره ، ونظاماً لدرره ، وأوردت فيه من أخبار العالم الاسلامى ما لا يزال مجهولاً عند أكثر المسلمين ، ومعظم الشريكين ، بعلّة تنأتى البلاد وتراخى الابعاد ، وضرب الدول المستعمرة بالاسداد فكانت طريقي فى هذه التعليقات ترك ما استفاض العلم به وتواتر الخبر عنه ، ولو كان فى حد ذاته جلالاً الى البحث عما خفى شأنه ، وعمى خبره ولو كان أمره فُرُطاً ، فاعتنيت بقدر الطاقة

(١) هو بالانكليزية The New World Of Islam وقد رأينا أن ترجمته ب « حاضر العالم الاسلامى » أوفى بالردا فى الغربية وأدل على الفرض من العالم الاسلامى الجديد ، أو انعام الاسلامى الحديث ، أو عالم الاسلام الجديد ، أو عالم الاسلام الحديث . (المترجم)

بتحرير المواضيع الغامضة والمسائل الغريبة ، وتحريث أبناء الاصقاع النائبة ، دون البلدان القريبة . اذا ما من فائدة في البحث عن قضايا تساوى الخاص والعام في فهم معناها وسرد أخبار لم يبق قصريٌّ ولا عميُّ الا رواها أو علم خواها ، فتحاشيت في هذه الحواشي التواريخ المشهورة المكررة ، والمعلومات التي في كل يوم منها خبر في الصحف المنشرة ، فجاءت بأبكار من المواضيع لم تجلها الاقلام لحدائنه وأخرى من أخبار زوايا من بلاد الاسلام عميت أحوالها لانقطاعها وبعدها ، وقد اخترت فيها كلها التلخيص اذ لو أرخى فيها الكتاب عنان القلم لما حوتها اجلاد ، ولا وفي بها جلد ولا اجتهاد . هذا وان رأينا الذي نعول عليه أولاً وآخرأ ، ونرجع اليه باطنا وظاهراً ، ان الشرق أجمع سيتنبه من رقدته ، وينهض من كبوته ، وانه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أميركا باسرها ، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بعروتها وزرثها ، وانه لا تمضي الثمانون سنة الباقية لتنام هذا القرن حتى يلي الاسلام بلاده ، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده ، ليس هناك كهانة ولا عرافة ، ولا هي مقاصد تدرك بالرقى أو العيافة ، ولكن يُعرف المستقبل من الحاضر ، ويبدل الاول على الآخر . هذا وان نهوض الشرق هو الشرط الاول في سؤدد السلام ، وراحة الانام ، وحقق السماء الحرام ، وحفظ موازنة العالم واستواء الاقسام . ومادام الغربيون يرون الشرق لجيوشهم بجالا ، والاستعمار لدول أوروبا دليلاً تقفوه يمينا وشمالا ، فالحروب بين الدول قائمة متتابعة ، الى قيام الساعة ، والاختراعات التي تفتخر بها المدنية مصروفة الى استئصال البشر وناهيك ما في مدنية كهذه من الشناعة ، وما دامت جمعية الامم مثل العروض بحراً بلا ماء ، ما وجدت الالئبس الاعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الاسماء ، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحمك على قوى متجاوز ، فكيف يغطي الحق بالثرثرة والحقن أبلج ، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ، فلا مندوحة للامم الشرقية عن الاقتداء باليابان في التماس المنعة ، ومضارعة الدول الغربية في ارتياد العلم واقتباس الصنعة ، حتى اذا قرع التبع بالنبع ، ووقع النصل على النصل اقتنع كل بدياره ، وأمسك الجار عن هضم جاره ، فان المال السائب هو الذي يعلم الناس الحرام . وان الخوان المدود هو الذي يبعث الاشتهاه الى الطعام . فليحرص الشرقيون من كل فريق أن يكونوا أولى قوة مانعة ، وان يوحسوا كلمتهم فيجعلوها كلمة جامعة ، فان بقوتهم خلاص الغرب والشرق ، والادالة من الحرب للسلم ومن الباطل للحق ، بحول الله وكرمه .

مقدمة المترجم

« حاضر العالم الاسلامي » كتاب حديث الوضع ، نُقل الى عدّة لغات أوروبية وشرقية ، و بعد إخراج طبع غير مرّة في الانجليزية ، فذاع في أمريكا وأوربة ، ذوبوا عظيمها ما كان مثله لكتاب غيره في بابها ، فأحلّه كثير من الساسة والمنصفين وأهل البحث والعلم المحل الأرفع ، وأقبلوا عليه ، واهتدوا به في الاطاحة الحقّة بكثير من طبائع الاسلام ، والانتقال الاسلامي على اختلافه في آسية وافريقية قبل الحرب العامة وبعدها ، واتخذوا منه عوناً على تدبر ما بين العالم الاسلامي وبين الدول الغربية المستعمرة من صلات وعلاقات ، حق التدبر . وقد شهد المحققون للعلامة ستودارد الامريكي ، بصحة القول ، وإصابة العدل والحق في الحكم . ومما قالته (مجلة المجلات) الانكليزية عند صدور الكتاب ان صاحبه « ارميا القرن العشرين » لكثرة مؤلفاته .

وقدر أيت في نقل « حاضر العالم الاسلامي » الى العربية خدمة بارّة ، رجوت اذا وفقت الى القيام بها أن يتقبّلها كل قارئ كريم بقبول حسن . فاستأذنت المؤلف في الترجمة ، فأجابني الى ذلك طيب خاطر . وأمدني باذن خاص منه ومن شركتي الطبع الامريكية والانكليزية فأشكره هذا شكراً كبيراً

و بعد الفراغ من ترجمته طلبت من حضرة العربي الكبير ، والسياسي الشرقي الضليع الثقة في الشؤون الاسلامية ، كاتب العصر صاحب السعادة الأمير شكيب أرسلان ، رعاه الله وأطال بقاءه ، أن يتفضل بكتابة مقدمة يُطرزها جيد الكتاب ، فتفضّل سعادته ، وهو على أسفار متلاحقة بين الشرق الأدنى وأوروبة ، بتليية الطلب على النحو الذي مر بك في المقدمة السابقة التي وضعها سعادته غير قاصر فضله على وشل ما طلبت ، دون فيوض الفصول الممتعة ، والتعاليق الجامعة ، التي منها ما هو تحت المن ، ومنها ما هو وارد مستقلا مع سبق الاشارة اليه . فجاء الكتاب بعد ذلك جامعا للحسنتين : حسنة الوضع للعلامة ستودارد الامريكي الغربي ، وقد بلغ من التوفيق في كتابه علماً وتحقيقاً ، مبلغاً عز على غيره من سبق الواضعين . وحسنة المزيد من فرأند الفصول والحواشي والتعاليق ، لصاحب السعادة الأمير شكيب ، الحججة السياسي الشرقي ، جزاه الله عما بذله في هذا السبيل خير جزاء ونفعنا بعلمه الواسع ، واضطلاعه الجامع . وكان الكتاب مجلداً واحداً ففعدا بعد

المزيد أربعة مجلدات

عجاج نور هضي

تمهيد للمؤلف

ان العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، قد تغلغلت فيه عوامل الانقلاب أبعد مُتغلغل ، وانبتت في عروقها فواعل التبدل أوسع مُنبث ، حتى كمل اختباره وتم استعداده ، فراح يجتاز هذا البور الخطير في التحول ، نوار القوي الى مالا حد له . فاذا ما سرحت بصرك نحو العالم الاسلامي رقة رقة ، من مراکش حتى الصين ، ومن تركستان الى الكونغو رأيت ال ٤٠٠٠ ، ٣٠٠٠ من المسلمين ، قد نارت نفوسهم مشتدة الحركة والانفعال ، نازعة الى كل صرَب جديد من ضروب الآراء والافكار ، والمطامح والآمال . وان عقبي هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جداً ، وستأثر بنتائجها العميمة أمم الارض جمعاء ، والله الامر من قبل ومن بعد .

على ان العامل الاكبر في هذا الانقلاب هو الحرب العامة . ولكن منشؤه ليراه المستقصى اقدم عهداً وأبعد أصلاً ، اذ ان بذوره قد القيت في ترب العالم الاسلامي قبل الحرب الكبرى بمئة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البنور تنمو مزداة الاستعداد والقوة الحيوية ، نمواً منسراً المنهج ، بطيء الحركة في أول العهد ، ثم على التوالي أوضح سبيلاً وأوسع انتشاراً ، وما زال الانقلاب الاسلامي على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامة التي قد تضعع منها الكيان ، فكانت عامل الثورة فجأة في المعمور الاسلامي ، فطلق بنور ويهتاج منتقلاً من حال الى حال ، مريد الجو بقام السحب ، لا يسمع فيه السامع الا القواصف .

وان وصف هذا الانقلاب العجيب ، ودور التحول العظيم ، وما اليهما من مختلف الاسباب والعلل والنتائج ، هو غرضنا الذي قد ابتغيناه من اخراج هذا الكتاب للناس . وقد كنا في ذلك من الذين يصورون الشيء كاملاً تاماً فأبتنا على بيان كل صور الانقلاب من دينية ، وتهذيبية ، وسياسية ، واقتصادية واجتماعية وفي كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكوينها ، ونشوتها وترقيتها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة انسياق وعامل . أضف الى هذا أننا نأقل ايضاح ما في بعض المواضع من الاختلاف

بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث اتنا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والصفة الكلية ، مما هو مصاحبٌ لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ما هناك من وحدة متوخاة في هذا الانقلاب الاسلامي

ان موضوع الكتاب وان كان مختصاً بالعالم الاسلامي في المقام الاول ، غير أنه تناول الكلام على غير المسلمين ، كالعناصر الهندوية (الهندوس) في الهند وسواهم استيفاه للغرض من جميع الوجوه التي لها صلة بالموضوع . لذلك جعل الكلام كافياً وافياً في شأن الشرفين الأدنى والأوسط . أما الشرق الاقصى فلم نتناول الكلام في أحواله مباشرة ، ولكننا قد أشرنا الى ما هو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه وبين العالم الاسلامي في الماخرات العامة اشارة ينبغي للقارئ أن يقيم لها وزناً

لوتروب ستورارد

مَقَالَتُهُ

للمؤلف

في نشوء الاسلام وارتقائه وانحطاطه

بِفَضْلِ الْبُرَايَا وَيَأْتِي الْوَقْتُ مُخْتَلِفًا

لِيُخْرِجَ الدَّهْرُ تَارِيحًا مِنَ الرَّيِّمِ

« شيلر (في وليم تل) تريب الراهم »

كلاذ يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الاعجب الذي دون في تاريخ الانسان . ظهر الاسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعفة الكيان ، وبلاد منحطة الشأن ، فلم يمس على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ، مزمقاً ممالك عالية النرى مترامية الأطراف ، وهداماً أدياناً قديمةً كررت عليها الحقب والأجيال ، ومغيراً ما بنفوس الأمم والأقوام ، وبانياً علماً حديثاً متراس الأركان — هو عالم الاسلام .

كلما زدنا استقصاء باحثين في سر تقدم الاسلام وتعاليمه ، زادنا ذلك العجب العجيب بهراً فارتدنا عنه باطراف حاسرة . عرفنا أن سائر الأديان العظمى انما نشأت ثم أنشأت تسير في سبيلها سيراً بطيئاً ملاقية كل صعب ، حتى كان أن قبض الله لكل دين منها ما أراد له من ملك ناصر وسلطان قاهر اتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذب عنه حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه . بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية (اسوكا) ، والمزدكية قياكسرو ، كل منهم ملك جبار أيد دينه الذي اتحل بهما استطاع من القوة والأيد . انما يس الأمر كذلك في الاسلام ، الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحلة التي لم تكن من قبل ربيعة المكاثة والمزنة في التاريخ ، فليسرع ماشرع يتدفق وينتشر وتوسع رقعته في جهات الأرض ، مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات ،

دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود ، وعلى شدة هذه المكاره فقد نُصر الاسلام نصراً مبيناً عجيباً ، اذ لم يكده يعضى على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى بانت راية الاسلام خفاقة من ﴿ البرانس ﴾ حتى ﴿ جلایا ﴾ ، ومن صحارى أواسط أسيه حتى صحارى أواسط أفريقيا .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق، عوامل ساعدت عليه، أكبرها أخلاق العرب، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العامة التي كان عليها المشرق المعاصر في ذلك العهد . ان العرب ، وان كان ماضيهم مابرح منذ عهد متطاول في القدم حتى عصر الرسالة ماضياً غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمةً استودعت فيها قوة عجيبة ، تلك القوة السكامة التي بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر جليةً الى عالم الوجود . فقد ظلت بلاد العرب أجيالاً طوالاً من قبل محمد ، مباءة يشتد فيها تزخر القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية . كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم ايفالاً في الشرك والوثنية . وانقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ايس بالقليل حتى استحات عناصر أمزجتهم من شدة ذلك كله فصاروا تواقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم الى تبديل حالهم وتحسين شأنهم . هكذا كانت حالتهم العقلية والنفسانية ، حالة الاستحاة الكبرى ، والانقلاب العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صاح فيهم نفيير الاسلام . ان محمدٌ وهو عربي من العرب ، الا روح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع محمد ، وهو يبشر بالوحدانية تبشيراً عارياً عن زخارف الطقوس والأباطيل ، أن يستثير حق الاستثارة من نفوس العرب الغيرة الدينية ، وهي الغيرة السكامة متمكنة على الدوام في كل شعب من الشعوب السامية . واذ هبَّ العرب انصرة دعوة ابن عبدالله ، من بعد ما ذهبت من صدورهم الاحن المزمته ، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبلُ الذهاب بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم الى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة في رأسه نور للناس وهدى للعالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحارهم في شبه الجزيرة ، ليفتحوا بلاد الاله الأحد الفرد الصمد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقى في سبيله جواً روحانياً خالياً ، في ذلك العهد كانت كتنا مملكتي فارس وبوزنطيه باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فارق عوده ، لانموً فيه ولا حياة ، وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صار

ذنباً زرى عليه ويسخر منه . أما في فارس فقد كان دين « الزردكية » القديم قد انحط انحطاطاً كبيراً حتى أصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدي الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فكره الناس ذلك الدين في الباطن كرها شديداً ومقتوه مقتاً عظيماً .

وأما في القسم الشرقي من المملكة الرومانية، وهو مملكة بيزنطية فقد ألبس الدين فيها لباساً غير لباسه الأول فاستحال الى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزعبلات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فعدت النصرانية عبثاً وسخرية . وعلى الجلة فقد كانت البمع والضلالات قد مزقت « الزردكية » الفارسية والنصرانية البيزنطية شرمزق ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الممجية والعداوات الوحشية ، فعدت تلك البنور نمواً هائلا . ولا يفربن عن البال انه كان على رأس كل من بوزنطية وفارس سلطان مستبد فاهر ، وملك عات أرهق الرعية ارهاقاً لا قبل لأمة باحتمال مثله ، فانت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والأخلاص للدولة . زد على جميع ذلك ان هاتين المملكتين كاتتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة التظت نيرانها بينهما خرجت كلاهما منها مفتوتاً في عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار ترى أن العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لا بد منه ولا منتدح عنه ، وجميع مافي الأمر ان كتاب المملكة الرومانية الشرقية، ومدرة فارس ، كانت من قبل خواصة حرب فتاة كة ، لم تقو الآن على صد حملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشي والاعياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم حساً أبطلاً ، بل ان هذه الأمم التي كانت حتى الفتح الاسلامي مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستسلمة ، فقام عديد أرباب البسوع يتهللون فرحاً وسروراً أنتجاتهم من نير المضطهدين المقوتين . ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجاً ، ايثاراً له بجدته وسنابته على ذينك الدينين اللذين صارا غاية في الانحطاط والتدنى . وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدنى الحكم ويوثق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها في أيديهم . فالعرب لم يكونوا

فطأمة تحب اراقه الدماء وترغب فى الاستلاب والتدمير ، بل كانوا ، على الضد من ذلك ، أمة موهوبة جليل الاخلاق والسجايا ، تواقه الى ارتشاف العلوم ، محسنة فى اعتبارهم التهذيب ، تلك النعم التي قد انتهت اليها من الحضارات السالفة . واذ شاع بين الغالبين والمغلو بين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة - الحضارة العربية ، وهي جاع متجدد التهذيب اليونانى والرومانى والفارسى ، ذلك الجماع الذى نفخ فيه العرب روحاً جديدةً ، فنصر وأزهر ، وألقوا بين عناصره ومواده بالعبرية العربية والروح الاسلامية ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً . وقد سارت الممالك الاسلامية القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارةً ورقياً ، وتقدماً وعمراناً ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العامية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومخترن علومهم ، يشعان اشعاعاً باهراً . طول هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامى يضىء على الغرب النصرانى نوراً ، ثم غابت كواكبه ، وأقلت أنجمه ، حتى أدركته لاليه السوداء وأجباله المظلمة .

لم يكده يستهل القرن العاشر حتى تبنت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذى أخذت فيه الحضارة العربية فى الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر انكذب فيما دلت عليه ، غير ان تلك الحضارة انما كانت فى أوائل عهد الانحطاط تهبط دركةً دركةً ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربى منذ القرن العاشر ، فقد دامت الحضارة العربية جلدة تنتزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعاً ، وسابقة للغرب النصرانى ، حتى حلول النازلة الكبرى التى حلت بساحتها فى القرن الثالث عشر . وكانت الأسباب فى انحطاط الحضارة الاسلامية جمةً ، أشدها أن روح الشقاق القديمة الأصل ، تلك الروح التى كانت على الدوام آفة سياسيةً تنخر فى جسم الدولة ، عادت فظهرت اذ نشأ التنازع على امارة المؤمنين ، وهذا التنازع قد أفضى الى فتن دموية ، وهذه الفتن وما فيها من حوادث الاغتتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التى عرفت فى صدر الاسلام ، فقام مقام الأبطال الأول ، مثل أبى بكر وعمر حاملى لواء الاسلام الأولين ، أمراء دنيويون اتخذوا الخلافة وسيلة للجور والظلم ، والتباهى بمتاع الدنيا وأعراضها . وكانت الخلافة فى المدينة فى الحجاز ، ثم نقلت الى دمشق فى سورية ،

ثم الى بغداد في العراق . أما في الحجاز فلم يكن البغي ولا الاستبداد هناك مستطاعاً ، لأن عرب الصحراء الأشرار ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ولا الانقياد لأمر مرهق ، وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى ، فقال لهم قولاً مبنياً : (إنما المؤمنون اخوة)^(١) وقد كانت الخلافة في الحجاز شوروية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة وأركانها . فالأمة هي التي اختارت أبا بكر وعمر وولت كلا منهما عليها خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأى الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التي أوحى الله بها الى نبيه محمد وهي القرآن الكريم

وأما في دمشق ، ولا سيما في بغداد، فقد تحولت الأحوال وتبدلت الأمور، ولا يعجزن من ذلك والعرب الصحراء الافحاح، الجارى في عروقهم الدم العربي البحت، الدم المتحدّر اليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، انما كانوا فئة قليلة في أفواج الناس وطوائف الخلق الذين لا عداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المنتحلين الاسلام حديثاً ، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجمع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة . ولما كانت هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت كلها الذل من ملوكها السابقين فعادت بسبب ذلك لا تقوى على احتمال الارهاق والصبر على المحنة ، لحدثان مادانت خاضعة مضافة للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالي يسطعون ويستكفون من هذه الرعايا عمالاً وحاشية ، وبالتالي جنداً لحراسة سياج الملك والذب عن حياض الدولة . وما زال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربي ماعراه من النوائب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم، يتقاص الى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب الى مطية من مطايا الاستبداد الشرقي . ولما نقلت الخلافة الى بغداد بقيام دولة بنى العباس (٧٥٠ م) ازدادت كلمة الفرس نفوذاً وامتد شأنهم وسلطانهم الى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون الرشيد^(٢) ، بطل « اللب

(١) هذه آية قرآنية وليست حديثاً نبوياً — المرء

(٢) نعم كان هارون الرشيد جباراً سفاكاً للدماء على نعط غيره من ملوك الشرق المتبدين . وقد كاد يبطش بالامام الشافعي لتهمة أنه يميل الى أولاد علي . وكان ولده المتصم أمر بضرب الامام احمد بن حنبل لانكراه القول بخالق القرآن . وكما ان مالك بن انس امام دار الهجرة ضرب في أيام النصور لقوله ليس لمكره عين . فاذا كان هذا هو العسل مع مثل اولئك الأئمة النظام؛ مصايح الاسلام الذين أناروا براهينه وشرعوا قوانينه ، وكانوا من العلم والزهده والتقوى بالمكان الذي لا يخفى؛ فاطنك بحالة غيرهم من الامة . والحقيقة

لية ولية»^(١) الا الملك العربي على شاكلة ملوك الفرس مثل قبا كسرو وكسرى أنوشروان، خلافاً كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر. وفي بغداد كما في غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقوضاً لأركان البولة أيما تقويض، فحدا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين، والأعيب بين أيدي الخطايا، لا يستطيعون القيام بعد بعبء من أعباء السلطان ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية

ما انفكت المملكة تهبط وتتهقر حتى تقطعت أوصالها، وتفككت أجزاؤها، وسلبت منتها، فصارت الوحدة السياسية مما لا استطاع دوامه لافتقار الدولة الى قواد محنكين، ولغفاء ذلك المزاج الاسلامي الصافي الجامع لسجاياء عرب الصحراء الأول. وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التي انتشر فيها ظلم أكاسرة الفرس وقياصرة الروم، يتزعون منزعاً قومياً ويحاولون نهضة وطنية، فجاء الفتح الاسلامي طامياً، قاضياً على جميع هذه المنازعات، أما الآن، والمملكة الاسلامية محتضرة في النزاع، فأني استطاع المجيء بمسعى به في صدر الاسلام؟ استطاع الاسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم، ينتحلون الرسالة المحمدية ديناً، ولكنه لم استطع أن يجعل هذه الملايين الى صورة اسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة، فاعترض الازدراد شجاً، وساء الهضم فسأت نتيجة. دعا محمد العرب فلبوا دعوته حقاً، لأنه أناهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالفطرة لقبوله أحسن قبول، وناداهم مستفزاً هزتهم وحيثهم، وهم اخوان نخوة سجية وخلقاً، فاستجابوا نداءه طائعين. فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية في الاسلام، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر بموسى غريزته رسالة النبي، على ما يلائم منازعه الشعبية وميوله التقليدية الخاصة، ويوافق روح التهذيب الذي كان عليه، فنتج عن جميع ذلك ان الاسلام الحقيقي الذي شاهده العالم في أول منشاءه قد

ان الخلافة لم يستقم أمرها على مراد الشارع إلا مدة الخلفاء الراشدين رضی الله عنهم ثم عادت بعد أن صارت بالارت ملكاً عضواً «ش»

(١) كتاب «الف ليلة ولية» الوارد فيه ذكر هرون الرشيد مراراً عديدة قد ترجم الى أكثر اللغات الغربية وله عند الغربيين مقام أدبي رفيع لما حواه من وصف الميعة الريفية وعادات العرب الصرفة أيام العصر الذهبي في بغداد، ورجال الأدب من الفرنجة على الجملة يصدونه ذخراً من علم الأدب الخالد في العالم.

اعوج والتوى . ولنا أبجلى دليل على هذا ما حدث في بلاد فارس حيث استعالت الوجدانية التي نادى بها محمد ، الى مذهب الشيعة ؛ فبنت أهل فارس الشيعة على صلات واهية تكاد لا تربطهم بعالم السنة الاسلامي واستعالت الوجدانية أيضاً عند البربر سكان البلاد المغربية الأفريقية وغيرهم الى حال عبتت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المسلمين في الهند . على ان جميع ذلك لما شدد النبي في تحريره والنهي عنه نهياً قاطعاً .

وما كفى ما حدث من الاختلافات الدينية، وما أصعب صورة الرسالة النبوية؛ حتى سمعت البلوي بن مئى الاسلام يتمزق الوحدة السياسية والانشقاقات الزمنية. فأول ما حدث من هذا النوع كان في أوائل عهد الدولة اذ فر أحد المظطهدين من بني أمية الى الاندلس حيث انشأ في قرطبة خلافة^(١) منافسة لتلك التي في بغداد ، فأعترف مسعود الاندلس قاطبة بهذه الخلافة حتى وبرابرة شمال افريقية . ومن بعد ذلك بعهد أنشئت خلافة أخرى في مصر؛ هي الخلافة الفاطمية، وخلفاؤها منحرون على ما زعموا من فاطمة بنت الرسول. أما الخلفاء العباسيون في بغداد فما برحوا يهبطون دركك الانحطاط ، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيداً مطاوع بين أيدي الترك — العنصر الغريب الداخل عليهم .

وقبل أن نشرع في بيان كيفية انتقال الدولة من أيدي العرب المهجاء، ذوى الممزيج ، الى أيدي الترك ؛ وخطورة ذلك عظيمة في تاريخ الاسلام ؛ نؤثر أن نقول كلمة في أسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عند العرب ، ذلك الانحطاط الذي افقه تمزق الوحدة السياسية في جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربي.

كان العرب في عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق ، سليمة الطباع ، نيرة السجيا ؛ مقاديرهم يركبون كل صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غلايتها ، وتبعث فيهم عزماً شديداً

(١) الحقيقة هي ان عبد الرحمن الأموي الذي فر من وجه بني العباس الى الغرب ، وعلق بالاندلس وأسس ملكا ودولة مستغلا بها عن بني العباس ولقبه النصور العباسي بصقر قریش ؛ انصر في دولته على الامارة ولم ينافس العباسيين في الخلافة العامة بل كانت تتلى الخطبة في مساجد الاندلس باسم خلفاء بناد امام الملوك من بني أمية الى أيام عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الذي استنحل شأنه ، واتسع سلطانه ، واستولى على عدوتي الاندلس وأفريقية؛ واوغلت جيوشه في بلاد الافرنجة ، وصار أعظم ملوك زمانه ؛ فهو أول من قلب من الأمويين في الاندلس بالخليفة وبايعه مسعود المغرب بالخلافة « ش »

وغيره متوقفة. كانوا أشداء العصبية الدينية، وهي العصبية المعروفة في كل جيل من الأجيال السامية، وعلى شدة هذه العصبية، فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى؛ بل كانوا مستبصرين يستنبرون بنور العقل وهداياته، و متمسكين تمسكاً شديداً بمعتقدات دينهم وأركانهم وأصوله، غير ان دينهم هذا انما كان ديناً سهلاً الاكتناء والمأخذ؛ واضحاً جليلاً؛ كان جوهر تعاليم محمد الوحداية مع السنة المعلومة. فلاعتقاد كل الاعتقاد بأن لا الله الا الله؛ وبأن محمداً رسوله (١) من لدنه كما أنزل في القرآن، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة؛ كالصلاة، والصوم، والحج، انما هذا غصبٌ هو جلة الأركان التي تألف منها الاسلام الذي كان عليه العرب يوم أصعدوا في الأرض يفتحون العالم الشرق

فلاسلام، وهو هذا الدين البين الصريح ما كان ليقيد عقل العربي و يلقى عليه سجوفاً فوق سجوف. والعربي كان قد أدرك حلالاً ثار فيه جده، واشتعلت غيرته، فبات تواقفاً الى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها، والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها، والتكليف على حديث مقتضياتها، والخروج بها عما ألفه أزماناً في فيا في الصحراء وكشبانها. لهذا لما نشر العرب فتوحهم ومدوا سلطانهم على الاقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التمتع بالنعيم المادية واستلذاذ الترف ورياء العيش لحسب، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة. فنشأ عن جميع هذا الجد والترقيات ان أخرج للناس تهذيب عربي سام. فاضاءت العقول وازدهرت ازدهاراً كان نغز الحضارة العربية، وواسطة قلاذتها ودرة تاجها. وكان ربح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشمس، يانعة الثمار، وارقة الظلال. فسادت الحرية العقلية، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية، ووضعت التواعد والأصول، واستنبطت الأحكام. يسد ان هذا لم يكن من صنيع العرب وحدهم، بل شاركهم فيه كثير من كانوا متظلمين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامي ينوقون الأعراس، ويسامون خسفاً شديداً في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البوزنطية والمجوسية الفارسية

(١) الرسالة النبوية هي من عند الله. وهي غير الالهية إذ لم يقل محمد انه إله بنفسه بل كان يتعاشى قولاً مثل هذا؛ فقال انه آخر الانبياء والمرسلين؛ أولهم آدم ثم فن على أثره موسى ثم عيسى؛ ثم محمد خاتم المرسلين كافة.

على أنه كان لهذا العصر الزاهر حد وقف عنده، ثم عراشمه كسوف فظلام مطبق، فظهرت فرق رجعية، فأبرحت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى تغلبت عليها، ثم أنشأت تسود سيادة شديدة ممتدة. وانقضت الأيام التي قامت فيها الفرق الحرة المعروفة على العموم بالمعتزلة^(١) مستمسكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح، وذاهبة الى أن العقل انما هو مقياس كل شيء. وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة الى ان النقل والسنة انما هما مقياس كل شيء. وأخذ من هم على هذا المذهب، وفيهم كثير من التصاري الذين دخلوا في الاسلام وكانت أمزجتهم ما برحت مشربة روح دينهم البنظي القديم، يفسرون القرآن الكريم ويؤلونه، ثم يؤولفون بين هذا التفسير والتأويل ريبين السنة التي نقلتها الصحابة عن النبي، وأوغلوا في ذلك ايغالا بعيداً. فنتج عن ذلك أن أصيب الاسلام بمثل ما أصيبت به النصرانية في الأجيال المظلمة، من تليس الدين عقائد غير عقائده، ونسبة الآراء الدينية الجافقة اليه وهو براء منها. فلا غرو اذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال عهده بين الذين اعتمصوا بالسنة والنقل ففاسوا عليهما، وبين الذين جعلوا العقل نفسه مقياساً لكل^(٢) شيء. واذ قد انتهى الحال بالاسلام الى مثل هذا، فالقلبة الأخيرة انما بانّت متوقعة وهي غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل. وفي الواقع ان تاريخ السنة والتقاليد^(٣) في كل بلد من بلاد الشرق انما هو تاريخ السير نحو أدوار الاستبداد وعواقبه المشؤومة. كانت قد تلبت في سماء الشرق سخب سوداء قاتمة، فلما أشرفت عليها شمس الاسلام الأولى من الصحراء حقة من الزمن، مزقتها وبددتها، وكيف لا تضمحل تلك

(١) يقصد المؤلف بالمعتزلة جميع الفرق الحرة التي نشأت في الاسلام — « العرب »

(٢) لا شك في ان الكثيرين من علماء السنة غلوا في التقليد والمحافظة على النقل، ولكن بما لا شبهة فيه أن مرجع الايمان عند الجميع هو العقل، وهو مشرق الدين؛ ومناطق اليقين؛ وبدونه لا يقوم اسلام ولا يستد بايمان، والقرآن العظيم من أوله الى آخره يناشد بالعقل، ويحاكم الى العقل؛ ويبيب بالخلق الى التأمل والنظر؛ وقد رأينا كثيرين من الأئمة مثل حجة الاسلام الغزالي وغيره ممن ليسوا بمعتزلة يقولون اذا تناقض العقل والنقل أول النقل حتى يطابق العقل

(٣) ان لعقائد السنة والنقل والتقليد عوامل وراثية عنصرية؛ ومكانية اقليمية، ولبئية والوراثة تأثير شديد في نشوء الانسان وتحوله في الفرق على الخصوص. وليس هنا موضع الاثبات على بيان هذه العوامل انما يمكن مرید الاطلاع أن يخف على ذلك حق الوقوف في مؤلفات العلامة (البسورث منتقن

السحب وقد سادت الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرية ، عادت القباوة والعقائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولى على عقول أبنائه . وبما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى السياسية الصحيحة الى الاستئثار بالاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد في الدولة ، وجاوز أفقها بعيداً ، أخذت آثار ذلك تبدو جلية في موضع موضع ، والاستبداد بطبائعه هو عدو الحرية وقائلها أينما وجدت ، سواء كانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل . وكان بعض الخلفاء من بنى أمية في دمشق ، وقد استهواهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر ، يوسعون في حرية الفكر ويرتاحون اليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة ، اجفلوا منها أيما اجفال وأضمرها لها القضاء عليها فالمعتزلة حقاً لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية حسب بل تنحطت ذلك فأنشأت ترفع عقيرتها منادية بالرجوع الى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين يُنتخب للإمامة انتخاباً ولا يرثها وراثته وهو منقاد لرأى الأمة ونازل على حكمها وشوراها . وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد العرب عصبية يؤيدون ترأثم من حرية الصحراء ويذودون عنه وينادون بتوسيع نطاقه ، غير معترفين بسلطة الخليفة ، ولا مباليين بهيبة أمير المؤمنين^(١) وذاهبين في السلطة الى أبعد من الحكم الجمهورى نفسه

(١) أول من خرج على الامام بل على الأمامة من حيث هي؟ قائلين لا حكم إلا لله ولا لزوم لنصب الخليفة ثم الفرقة التي قاتلت سيدنا علياً رضى الله عنه ، ومن هناك بدأ تاريخ الخوارج الذين لعبوا دوراً عظيماً في الاسلام وكانوا فرقا متعددة ، يختلف بعضها عن بعض بمبادئ مطومة ، ولما طال النزاع بين علي ومعاوية على الخلافة ، نهض من هؤلاء الخوارج من قتلوا قد تمادت هذه الفتنة التي فجرت جداول من السماء بين المسلمين وما السبب فيها سوى علي ومعاوية ، ثم هناك عمرو بن العاص الذي هو من موقدي نارها ، فلنقتل هؤلاء الثلاثة ولنرح الاسلام منهم . فأتدب لذلك منهم ثلاثة قصدوا اغتيال الثلاثة أما معاوية فنجا بكونه يوم أريد قتله لم يأت الى المسجد لصلاة وبعد ذلك جعل لنفسه مقصورة ليكون بمنجاة من المكيدة ، وأما عمرو فاشتبه على القاتل برجل اسمه خرقة فقتل خرقة خطأ بدلا عنه ؛ وأما أمير المؤمنين فأصابه القاتل وفدحت به الصيبة كما هو معلوم وقال الشاعر :

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شات من البصر

وكان قد رسخت روح الفوضوية في الخوارج الى أن صاروا يتفلون السلوك وأرباب السلطة مفادن

فنشأ عن ذلك ان الخلفاء أخذوا يستندون اتباع الفرق المحافظة ويقربونهم منهم ، ويعتقدون بهم، ويقصون عنهم الفرق الحرة كالمعتلة ويشددون عليها التكبر، ويستعينون بالمشايخين لم من العرب المهجناء ويشدون بهم أزرهم ، مؤثرينهم على العرب الصرحاء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة في الدولة العباسية حكومة دينية مستبدة ، فرسخت عقائد الدين ملبسة اباس التقاليد وقوّرت حدودها ، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا قتيلاً . وما كاد يكون القرن الثاني عشر من التاريخ المسيحي حتى انحمت كل معالم الحضارة العربية ، وقوّضت أركانها ، وجف كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر، ورأى مبتنع . وعلا لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجم العقل الاسلامي هجمته الطويلة ، وما زال مرفقاً فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى مذعوراً .

في أوائل القرن الحادى عشرم . تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسماً تاماً . وبعد ان اختفت الروح العربية الأولى التي هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب المهجناء يرون ملكهم السياسي يذهب من أيديهم الى أيدي غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك . والترك هم العرق الغربي من الجبل الطوراني ، جبل القبائل الرحلة التي كانت منذ عهد لا يعرف أوله تجوب أنجاد أواسط آسية وشرقها ، ولما كان العرب يفتحون فارس ، تحاكت قوادهم وجنودهم بالترك الرحلة ، وهؤلاء عهدئذ يعوجون المغاوز محاولين جواز حدود فارس الشمالية الشرقية ، غير أن العرب وهم في ابان سلطانهم ، ويخضع غالب قطين الأرض لذكر خلفائهم ، ما كانوا ابرهبول الترك أو يحسبوا

بأنهم متابعين بيلاهم مترقين الأجر على معلم حتى فال بعضهم في عبد الرحمن بن ملجم قاتل على كرم الله وجهه :

فه در المرادي القمي اخترمت يناء مهجة شر الخلق انساء
ياضربة من مرید ما أراد بها إلا ليبلغ من ذمها المرش رضوانا

ولا أحسب هذا القول إلا من شدة ولهم بمناهضة السلطة ، ولجورد غلوم في انكسر الأملعة التي كان على مثالها ، والا فقل ان وجد في التاريخ البعري مثل علي بن أبي طالب في كمال صفاته ، وكثرة فضائله ، وعلو نزاهه ، ومن كان يمدح أن يقول في علي شيئاً ، فأنت ترى ان هذه المنازع الفوضوية وروح مطالبة السلطة التي نراها في الغرب الاوربي اليوم قد عرفها العرق أيضاً

لهم حساباً ، بل رأوا في الترك نفعاً لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئاً أكثر من طاعة أمرهم والقتال للجائنين ، فلهذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر بل أخذوا يستأجرون منهم جنداً من الطراز الأول لاعزاز الجيش والذود عن دمار الدولة ، ويستكثرون منهم بطانة وحرساً .

قلنا ان العرب ما كانوا ليرهبوا الترك في أول الأمر ، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ريجها تحولت الحال فآلت غير مال ، اذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول في كل موضع قوى من مواضع الدولة ، ولا سيما في الجيش العربي ، فانشأوا يتصرفون تصرف السيد الأمر والحاكم المطاع ، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية، ومهدوا السبيل تمهيداً لأبناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدفقون كاللوج وعلى رؤس طوائفهم قواد أمراء ، وطفقوا يعيشون في البلاد أحراراً أنى شاءوا ، و يقيمون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجعون ويفتكون .

ولما شرع الترك يدخلون في الدولة كانوا يقبلون سريعاً على الدخول في الاسلام أيضا ، بيد أن الاسلام لم يدمث من جفائهم ولم يقوّم من أودهم كثيراً ، ومتى ماجئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين ، سكان القسطنطينية وآسية الصغرى . فان الترك العثمانيين اليوم ، انما يجرى في عروقهم دم مزيج ، بعضه أوروبى وبعضه الآخر اسىوى غربى ، ويخالط مزاجهم عنصر غربى ، وعنصر شرقى عربى ، فهم والحالة هذه ، يختلفون اختلافاً كبيراً ، تهذيباً وخلقاً ، عن آبائهم وأجدادهم الأولين . وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين ما برحت فيهم السيم الطورانية الخنثة التي يتميز بها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركان عمن سواهم من الترك المقيمين في غربى آسية

فكيف كان التركي القديم بطباعه وسجاياه ياترى ؟ انما كان في المقام الأول جنديا مجرداً ومقاتلاً باسلاً ، وهو لم يكن في ذلك العهد ذا فكر ثاقب وعقل مبتكر ، بل كان فيه شىء من حب الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية في شؤون القتال ، فالطاعة العمياء ثم الطاعة العمياء وقتال الاستبسال حسب ، هما جميع ما كان عليه التركي يوم تقدم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربى الضعيف ، الواهن العظم .

حقاً ، مدهى الاسلام وسائر العالم معاً ، مثل هذه الداھية ، وما نزل بالحضارة العربية

مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية، لم يكن الرقي مستطاباً في ظل دوانها^(١)، فبات ضرباً من ضروب المستحيل . أجل ، لا ينكر أن الاسلام قد اعتز بقوة حربية ، كبيرة جديدة ، ولكن قد سىء التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنائيات هائلة ، وجرحته جروحاً كبيرة فبات نزيهاً يتقهقر سريعاً . وأول عمل قام به الترك الزاحفون هو اكتساحهم آسية الصغرى ، واستيلاؤهم على بيت المقدس في أواخر القرن الحادى عشرم^(٢) . غير أن جانباً من آسية الصغرى ما برح حتى اليوم قسماً من العالم النصرانى . ولما أخذ سيل الفتح العربى يتدفق فى القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فما يزال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس ، فصدمه الروم هناك ، اذا استجمعت الامبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن تقف الفتح العربى عند حد ، عند تلك الجبال ، على عناء ونعب شديدين . أما الآن فاجتاز الترك الحدود البوزنطية ودوتخوا آسية الصغرى تدويحاً ، وأخذوا يهدون القسطنطينية وهى الحصن الشرقى الحريز النصرانية^(٣) . وكانت بيت المقدس فى أيدي المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر بنى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيمارعاية^(٤) ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلا ضيقوا على النصرارى ولا نالوا بمساءة طواقم الحجاج

(١) كما أن المؤلف وغيره من كتاب الافرنجية يعملون انحطاط الاسلام نتيجة استيلاء الاتراك عليه ، كذلك بعض الاتراك الجدد يعملون سبب انحطاط تركيا هو صبغتها الاسلامية ، وعلى الاخص صبغتها الاسلامية العربية ، ويقولون اذا وجب أن نبى مسلمين وجب أن نزع من اسلامنا ديابجته العربية . وعلى هذا بدأوا فى هذه الايام بقراءة الخطب فى صلوات الجمع بالتركية . ولنا الآن فى مقام تقديره مزاعم هذهالفة .

(٢) اكتسح الترك آسية الصغرى بعد انتصارهم على الجيش البوزنطى ، فسحقوه سحقاً فى معركة « مزيكيرت » سنة ١٠٧١ م . واستولى الترك السلجوقيون على بيت المقدس سنة ١٠٧٦ .

(٣) وقد كان العرب حصروا القسطنطينية ست مرات ، واستشهد أبو أيوب الانصارى فى حصارها . ومقامه معروف فيها « سلطان أيوب » وأسس لهده العرب جامع غلطة

(٤) لما فتح المسلمون القدس جاءها عمر رضى الله عنه وطاف فى معاهدتها المقدسة . ولما كان فى كنيسه القيامة جاء وقت الصلاة ، فابتنى محلا يصلى فدهاه البطريرك صفرونيوس الى مكان يصلى فيه داخل الكنيسه فقال له : لا ، يأتى المسلمون بمدى فيقولون هنا صلى عمر فيدعون بالكنيسه . وخرج عمر من كنيسه وصلى فى مكان بنى فيه جامع فيها بعد .

الوافدين كل عام الى بيت المقدس من كل فجج من أبحاج العالم النصرانى ، بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد ، لم يجرؤا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم ، فالترك لما كانوا لا يرون لذة فى غير السلب وكره غير المسلمين ، أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ، ويمتهنون حرمة النصرى ، ويحولون دون الحج ، فبات الحج مستحيلًا

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معاً ، انما نزلا نزول الصاعقة على النصرانية ، فقامت لهذا الخطب وقعت ، وطفقت أوربة تئيد من أقصاها الى أقصاها مشتعلةً بغضا دينياً ومحتدمة غضباً وحنقاً ، وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور ناراً دينية ويحضون على حاية بيت المقدس وقبر المسيح ، حتى جن الغرب النصرانى جنونه الكبير ، والتهبت الغيرة الدينية فى كل جوارحه من جوارحه وعرق من عروقه ، وغشى التعصب على أبصاره ، فهب يبعث البعوث الصليبية ، والجحافل الجرارة داركاً ، لقتال الشرق الاسلامى فى سبيل الصليب .

فدهاية الترك ، ونازلة الحروب المقدسة الصليبية ، كاتتا شر طعنة طعن بها صدر العالم ، وسبباً داءً فى سوء العلاقات بين الشرق والغرب^(١) . فى سنة ١٠٠٠ م . كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيراً منبئاً بالكف عن العداء ، ومبشراً بازدياد تحسن الحال وخير المصير . وكانت الأحقاد ، التى نارت على أثر تدفق الاسلام ، على حال التلاشى والاضمحلال ، وظهر عهدئذ ان الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقر ، فليس أى الفريقين يطمع بعد فى الخروج على الآخر ، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الاندلس ، حيث كان هناك مصطدم الاسلام والنصرانية المصطدم الأخير ، بل على كل كانت الاندلس اذ ذلك قد باتت تعدُّ حداً فاصلاً بين العالمين ، وعلى الجملة فقد كانت علائم ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجليةً واضحةً ، وناحية منحي جيداً ، فلو قدر هذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم الى أخيه ، لكانت أنت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية . فالعالم الاسلامى كان ما برح حتى ذلك الأوان سابقاً لاوربة الغربية سبقاً بعيداً ، وفاثقاً عليها علماً وتهذيباً ،

(١) لم تكن أوروبا فى وقت من الاوقات أقل تعصباً من الترك وان ظن بعضهم خلاف ذلك (ش)

بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكف يدوان عليها، في الحين الذي طفت فيه نفس الغرب النصراني تجيش، ونهمته تشد، للافلات من ريق جهله، والخروج من ظلمته وبربريته. فأى خير كان أعظم من ذلك الخبر الذي كان يرجي من الود الوليد الذي ظهر في القرن الحادى عشرم. بين الشرق والغرب فيما لو قيص له النمو أمدأ بعيداً؟ بل ياترى أى نفع كان أجل من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السراء والضراء؟

أجل، لو كان ذلك لكان به نجاهة كبيرة، ولكانت الحضارة العربية الاندلسية، وفيها علوم اليونان والرومان، قد أيقظت نهضتنا من مرقدها قبل استيقاظها بعهد طويل، وامكانت روح الغرب التي تمشت في جوارحه في الأجيال الوسطى، تلك الروح الجبارة، هبت فتناوت الشرق وتغلغت في أحشائه متغلغلها في الغرب، فنجت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها في ذلك الخلك الداجي الذي طال عهده.

غير ان القدر جرى بغير ذلك. فقد اختفى العرني الدمث الخلق، اللبن العريكة، وجاء من بعده التركي المتعصب الحشن القاسي، فعاد الاسلام يثيب ويهتاج، ولكن شتان بين احتياجه الأول بالأمس، واحتياجه اليوم! أما بالأمس فقد كانت تحرك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا، وأما اليوم فأى يحرك الترك إنما هو روح الطمع والفتك وحافز الاستيلاء والعصب. ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتد، وناره تنقد بين الدولة التركية، والحضارة الغربية التي كان نشوءها مرجواً لها عهدئذ، ودام هذا العراك قروناً. وماكانت الحروب الصليبية سوى رد الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستمائة سنة، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٢٨٣م وقد كان من الطبيعي أن تأصل العداة، واستحكمت الشنأة، واستقر التعصب بين الاسلام والنصرانية، مما مارحت جرائمه حية، وسموم ثماره نامية حتى الآن. وهذا النضال الذي تتلو أنباءه في صحف الأخبار اليوم، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتلته الوطنيين، وبين اليونان في آسية الصغرى، إنما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية، حلقتها الاولى كانت في فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة، وحلقتها الأخيرة الى اليوم هي هذه الحروب بين الترك واليونان في أغوار الاناضول وناحجها.

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نبحث في تلويح الحروب التي قامت بين الترك والنصرانية ، ولكن ما يجب حفظه في البال هو ان تلك الحروب ظلت الى اليوم عداء زمناً ، وعلة دائمة بين الشرق والغرب

أما الشرق الاسلامي فقد قدر له بعد أن دارت الأيام بمحضته العربية ، وحنا عنقه للترك الثقيل، أن يلاقى فوق ذلك أهوالاً أشد وأفح ، منهالةً عليه كغيرها من الجبل الطوراني . ففي أواخر القرن الثاني عشر، هبت العروق الشرقية من الجبل الطوراني ، ملتفة ملتزمة حول بعضها بعضاً ، مكونة وحدة دامت مدةً ، وعلى رأسها زعيم جبار علت هو جنكيزخان . اتخذ هذا الطاغية « الطاغية الذي لا يظلب » لقباً له ، وطفق يزحف ناهبا العالم نهياً . فاكسح في أول أمره الصين الشمالية وأنزل بها هولاً شديداً ، ثم اتجه غرباً ، زاحفاً مدمراً ، وناهباً مخرباً ، فرأى العالم من بلاته ما لم ير مثله من علت قبله . هذا هو النهوض الذي نهضه المغول في ذلك العهد ، وهذا اسمهم ما برح حتى اليوم اذا ماجرى على الألسنة ، وجفت له القلوب واقتضرت منه الأبدان .

زحف جنكيزخان بكتائب من الجند لاصحى ، مستصحباً مهرة المهندسين الصينيين لصنع البلرود في تخريب المدن والحصون فكان وفرسانه سيلاً جلفاً ونراً آكلةً ، وأعظم بلاء حلّ بالشرقية لم تكن غاية المغول الفتح والاستيطان، حتى لا التئم ولا الاستلاب لغسب، بل هراقة الماء ، وتغذيب الأرواح ، ودرس البلاد وملاشاة العمران . فذبحوا الشعوب تذييحاً ودكوا المدن . ذكاً بحيث لم تنج بلاد حل فيها المغول من الهول ، وكان شأنهم في قطر شأنهم في سائر الأقطار .

ولم تزل جنكيزخان بعد بضع سنوات من زحفه هذا، فقام خلفاؤه من بعده واتسهبوا نهجه في الزحف وتعميم النازلة . فالمغول حقاً طعنوا الاسلام والنصرانية معاً طعنة خارقة ؛ اذ حاق بأقطار شرقي أوربة مثل ملاحق بغيرها من الأقطار الآشوية ، وتلك آثار الهول المغولي في روسية ما برحت شاهدة على بربرية المغول وهمجيتهم . غير أن الهول الذي نزل بالعالم الاسلامي كان أشد منه في العالم النصراني ، فالمغول بزحفهم على روسية لم يجاوزوا تخوم بولندة قط ، فنجت بذلك أوربة الغربية ؛ لكن ما أريد لأوربة الغربية من النجاة لم يرد مثله لجانب من العالم الاسلامي . ان العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقي في آسية

استطاعت أن تطبق العالم طراً ، من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارية كل شيء في سبيلها . وقد كانت فارس ؛ وهي اذ ذلك ما برحت منهب الكتابب التركية ، تحاول النجاة بحضارتها الوليدة فدهمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ، فتلاشت قوة فارس وتضعف كيانها أيما تضعف ، ثم تقسم المغول نحو العراق ليعطوا بغداد ، مدينة الحضارة والتهذيب ، نصيبها من الهول . وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزها ومجدها ، فنوت نضارتها من بعد هارون الرشيد ، وتنكر الدهر لذلك المليون من السكان ، بيد أن بغداد ، على كل هذا ، كانت ما برحت مدينة عظيمة وعاصمة كبيرة ، فيها كرسى الخلافة ومركز الحضارة العربية ، فانقض عليها المغول سنة ١٢٥٨ م وأعملوا فيها أيدى التخريب والتدمير فذبحوا أهلها نذيحاً . وكادوا يمحونها محواً من على وجه الأرض . على أن هذا لم يكن جميع البلاء . كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت ما برحت في العراق سدود الرى العجيبة من فجر التاريخ^(١) ، تمثل مهارة بناتها الأولين وقدرتهم ، وتقى البلاد من مهاب أعاصير الصحراء . فكان العراق على الدوام وفيه هذه السدود الكبرى جنة الأرض وهوى العالم . وقد تعاقب الفاتحون الكفار في البلاد دوراً بعد دور وعصراً بعد عصر فكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه السدود ، لا بل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبر كل الاعتبار قدر نفعها وخيرها للبلاد . فلما غشى المغول العراق سرعان ما قوضوا هذه السدود تقويضاً بحيث لم يقوا منها حجراً على آخر . فعفت أقدم حضارة عرفها العالم ، وخُرب مهد التهذيب البشرى ، ومحيت آثار أعمال جدت في سبيلها البشرية ثمانية آلاف سنة على الأقل ، فخوى العراق خواءه هذا المشهود حتى اليوم ، وبات مرتدياً حلة من الجفاف المحرق ومنشأ لأوبئة الحمى المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراه الحقيرة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابه رحالة من البسو ، يرعون ماشيتهم أرضاً كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب .

فالنزلة التي حلت ببغداد إنما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولا سيما في الشرق . وكانت هذه الحضارة قد أصيبت ، من قبل نازلة المغول ، بضربة أخرى في الغرب

(١) يوجد في العراق ترعة دارة منسوبة الى الرشيد . حدثنا بعض مهندسي الامان الذين زاروا تلك البقاع أيام الحرب أنها مما تعجز الحكومات الحديثة عن القيام بعمل مثله في السق والطول والعرض «ش»

وهي نازلة الأندلس العربية. وموجز ذلك أن الإسلام بعد انتشاره في جميع افريقية الشمالية، جز البحر وطبق اسبانية من أقصاها الى أقصاها، خفقت فيها أعلامه وأشرقت شموسه وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الأندلسية ازدهاراً كاد لا يُرى مثله في أى قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية. وكانت قرطبة عاصمة الأندلس. وفيها كرسى الخلافة الغربية. فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغاً كبيراً، حتى اعلها كانت تفوق بغداد عينها رقياً وحضارة. وقد عاش مُلك العرب في الأندلس قروناً عديدة ملكاً زاهراً آمناً، والعرب حاصرون للنصارى في الكور الجبلية الشمالية من البلاد. فلما بدأ سلطان العرب يضعف ويونى، وقوتهم تهين، أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوباً مستردين منهم البلاد كورة فكورة. وكانت معركة « تولوز » سنة ١٢١٣ م غضت فيها شوكة العرب، وفت في عضدهم فتاً كبيراً. ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة في أيدي المستردين من نصارى اسبانية المتعصبين، فبادر هؤلاء الى استئصال شأفة الحضارة العربية الأندلسية، على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ في الشرق. فنهب الأندلس من أيدي المسلمين، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذى كان زاهراً سوى رقعة صغيرة واقعة في الطرف الجنوبي من البلاد وهي غرناطة، التى بقيت فى حوزة المسلمين حتى استكشاف كولب بلاد املاكة، ثم بعيد ذلك طردوا منها، فاخفت على الأثر معالم الحضارة العربية فى الغرب.

وكان الشرق الاسلامى مازال يشقى وتتوالى عليه فجائع المغول وأهوالهم وأماننا الآن آخر داهية من دواهيهم، وهى زحف تيمورلنك فى أوائل القرن الخامس عشرم. ففى هذا العهد كان المغول الأول الغربيون قد صاروا مسلمين، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم واقنق تيمورلنك آثار جنكيزخان فى تدييح الخلائق وتدمير البلاد، فما كانت نفسه تغتبط بشيء اغتباطها بمنظر الاهرام من جاجم البشر، وأى هرم أكبر من ذلك الذى شيده تيمورلنك من سبعين الف ججمة بعد تخريبه مدينة أصبهان فى بلاد فارس وانقضى عهد المغول الهائل فى الشرق الاسلامى، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين. الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التى جاءت آسية الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البونظلية. وغاب الفضل فى تشييد المجد الذى شيده وعزهم الذى

بنوه انما هو عائد الى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحدوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طفقت فتوحاتهم تمتد شرقا وغرباً . وفي سنة ١٤٥٣ م . ذك الترك صرح الامبراطورية البوزنطية ذكاً ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن نال فتحوا الشرق الاسلامي من فارس حتى مرا كش (١) ، ودوخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها الى أقصاها ، وتغلغلوا في أحشاء هنغارية (٢) حتى بلغوا أسوار « فينا » . واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم فبنوا مملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية وذلك لبعدهم عن روح التهذيب والتثقيف ، فانهم لم يبرعوا في شيء براعتهم في فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدّها قوة وبأساً ومراساً ، ولما كانوا في ابان مجدهم وسلطانهم كانت خيانتهم ورجائتهم من أفضل طراز الجيوش التي شهدها العالم ، فارعبوا بها أوروبا رعباً شديداً .

وفي هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تستيقظ وتسير سير التقدم الصحيح ، وتنشئ حضارةً متدرجةً مدارج الرقي والثبات ، وبينما كان الشرق الاسلامي يشن من الأهوال المغولية والفتوح التركية ، كان الغرب النصراني يشعل مصابيح النهضة ، ويعد أسباب استكشاف أماركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد وبما يزيد خطورة هي الحالة التي كانت عليها أوروبا في ذلك العهد ، فانه لما كان كولب وفاسكود وغاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر ، كانت الحضارة الغربية محاصرة في نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربي من أوروبا الوسطى ، وهي اذ ذاك في أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية . كانت روسية تمزقها سنايك خيول التتر المغول (٣) ، وكان الترك ، وهم ثملون بشوكتهم الحربية يغيرون منتصرين

(١) استولت الدولة العثمانية على جميع شمالي أفريقية من بوغاز السويس الذي صار اليوم ترعة الى آخر حدود ولاية وهران من الغرب الأوسط ولكن المغرب الاقصى بقي في حوزة أصحابه «ش»
(٢) بقية بلاد المجر في حوزتهم ١٥٠ سنة وفيها حمامات ممدنية من بناهم الى يومنا هذا وقبور بعض المجاهدين «ش»

(٣) كانت روسيا هذه التي صارت فيما بعد أعظم دول الأرض تدفع الجزية للفنول وملوكها يذهبون صاغرين الى حضرة ملوك الفنول لأجل تهلديم ملكهم . وقد أوغل الفنول بعد اسلامهم في بلاد الروسية

من الجنوب الشرقى مهددين قلب أوروبا شر تهديد^(١). هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسية وشمالى أفريقيا وشرق أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهى طفلة فى المهد تستقبل حكم القضاء النازل فإما لها وأما عليها. وعلى الجملة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع فى سبيل بقائها أشد منازعة، موية ظهرها السور العظيم - سور الاقيانوس. فلذلك لانكاد نستطيع أن نتصور حق التصور كيف واجه أجدادنا الاقيانوس، وشرعوا بمخرون عبابه فى تلك الليلة الظلماء والفترة العصبية من الأجيال الوسطى. لاجرم، كانت أوروبا فى تلك الحقبة انما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة وبأس، وترد عنها غاشية البربرية الاسيوية، وما هى الا ليلة وضحاها، فاذا بليل الخطر الاسيوى وقد انجلى، وبالاقيانوس بات طريقاً آمنة، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيدة البحار، ثم سيدة العالم بأسره.

فضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان، فبعد أن ركبت أوروبا متن البحار، سارت تستهزى بجبارة آسية وغتاتها، وكانت من قبل بردح من الزمن ترى النصر عليهم أبعد مثالا من الجوزاء. ثم أخذت موارد الثروة نفيض على أوروبا من وراء البحار، فانتد نشاط القارة واشتعلت قوتها. ولا يعجب من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن أبكار بلدان فأخذت تستورد منها خيرات لا نفاذ لها، غذاء طيباً لحياتها وصناعتها، فباتت والشرق شتان ماهما. فأى موارد كانت للشرق الاسلامى الحرب المهتم، ازاء أماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند؟ هكذا دبت الحياة ديبها الهائل فى الحضارة الغربية، فانتفضت وهبت من مرقدتها، وأخذت تخطو الى الأمام خطوات الجبارة، محطة أغلال أجيالها الوسطى تحطياً، وقابضة على طلسم العلوم، جادة نحو العصور الحديثة وعلى كل هذا، فقد ظل الشرق الاسلامى جامداً ساكناً، ملتقاً بخلقان الحضارة

الى الغرب حتى وصلوا الى بولونيا وليتوانيا، ولا يزال الى يومنا هذا بضع عشرة قرية فى ليتوانيا أهلها مسلمون يلبقون بضعه عشر الف نسمة، وأكثر منهم باقى بولونيا، وقد سألت بعض أديابهم عن أصلهم فقالوا انهم من بقايا الغارات المغولية

(١) لما نزلت بحرية الترك فى طولون ويزيس نجدة لفرنسيس الأول ملك فرنسا الذى دخل فى ذمة سليمان القانونى، أمسك أهل تلك البلاد عن قرع أجراس كنائسهم احتراماً للترك وبقيت القوة البحرية العثمانية أعظم قوة فى البحر المتوسط متصرفه بزمام هذا البحر وأوروبا كلها ترعد منها فرقا الى واقعة ليبانت فى زمان سليم الثانى، وهى الواقعة التى اجتمعت فيها أساطيل النصرانية على الأسطول العثمانى فدمرت. ولم ينج منه إلا القليل مع أنه كان أقوى منها بأجمعها وكان النصر متوقفاً له لاله

العربية التي طال على خوائها الأمد، ومتسكعاً في ديجور الظلام ؛ ولم يكن ذلك جيع شقانه حتى تضعفت قوته الحربية وبلغت حد التلاشي ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستغرقوا في انحطاطهم ، فصاروا لا يستطيعون بحجارة أوروبا اختراعاً وارتقاء ، ولا تحسين فن من فنون القتال . وقد كرت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالاً عنيفاً فلم يستطع الحلة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علواً كبيراً ، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م . ردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جند العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل . ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكرُّ على المملكة العثمانية الكرة بعد الأخرى ، منتاشاً منها ما استطاع ؛ ولولم تشب نار الحسد بين الدول الغربية ، فطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لولم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة ، لمزقت الامبراطورية العثمانية شرمزق ، منذ عهد عهيد .

ثم توالى الأيام على العالم الاسلامي وهو هاجع لا يستيقظ ، حتى كان القرن التاسع عشر فتامل في مهجعه مستقلاً وطأة الغرب ، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامي ، وتخضع لها الأقطار ، في شرق أوروبا وجزائر الهند ، وأما جل العالم الاسلامي ومعظمه ، من مرا كش حتى أواسط آسية ، فقد ترك وشأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظل مستغرقاً في هجعته ، مستهزئاً « بكفرة » أوروبا ، راضياً مسلماً أن شقاه انما هو بمشينة من الله ، لا يقم لرق أوروبا وزناً ولا بحسب مستنبطاتها حساباً^(١) .

هكذا كانت حالة العالم الاسلامي لما استيقظ استيقاظه في مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبا تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججةً بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، وبين يديها الغاشمتين الطبيعة مسخرة ، مفضوحة أسرارها ، وآلات حربية جهنمية لم يعلم أحد من البشر بمثلها من قبل .

فكانت النتيجة المتوقعة ، اذا لما شرعت جلات أوروبا تعشى الشرق الاسلامي ، أخذت

(١) نعم كانوا يدلون انحطاطهم الذي هو نتيجة كسلهم وفساد أخلاقهم بكونه قدراً مقدوراً لا حيلة فيه

أقطاره يسقط الواحد منها نلو الآخر في أيدي الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامي ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وعبرت روسيا القوقاس و بسطت سلطانها على أواسط آسية ، وفتحت فرنسا شمالي أفريقية ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، وما زالت الحالة هكذا ، حتى جاءت الحرب الكونية العظمى فكان شاهداً على آخر دور من أدوار اذلال الشرق الغرب . ولما وضعت شروط المعاهدات بعد أن وضعت الحرب العامة أوزارها ، قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتم إخضاع العالم الاسلامي - ولكن على القرطاس !!

اجل، تم ذلك على القرطاس لحسب . والسبب في ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر ، اسرعان ماهبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلمامن قبل . كان الشرق الاسلامي طول هذه المئات من السنين التي كرت عليه وهو حان عنقه للغرب ، تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيماً وينفعل بعضها ببعض انفعالاً كبيراً ، حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلاً .

وهذا المد ، مد بحر المطامع الغربية الطامى ، قد غالى في ايلام الشرق مغالاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً !! ودار الشرق الاسلامي حول نفسه فرأى نعاسة حاله وما هو حاله بساحته . فاخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه ثور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقع العالم الاسلامي ، فهب ال ٢٥٠ من اتباع النبي محمد ﷺ من مراكز حتى الصين ، ومن تركستان حتى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها .

(١) المسلمون اليوم عددهم يزيد على ٣٠٠ مليون . والسبب في كون صاحب هذا الكتاب اعتبرهم ٢٥٠ مليوناً هو متابته لغيره من المؤلفين الاوربيين الذين لا يزالون يحسبون المسلمين اليوم على معدل احصاءات جرت منذ عشرات من السنين مع أن عدد المسلمين ازداد بهذه الاتناء كثيراً فالعلامة نانسن الالمانى كان يحزر مسلمي أفريقية وحدهم بنحو ٧٦ مليوناً ، وهذا منذ ٣٠ سنة ثم كثيرون من الجغرافيين لا يزالون يحسبون مسلمي الجاوى وسومطرة ٢٥ مليوناً والحال أنهم ٣٥ مليوناً وكذلك مسلمو الصين هم من ١٠ الى ٢٠ مليوناً ومسلمو الروسية هم ٣٥ مليوناً وكثيراً ما يحصونهم ٢٠ مليوناً وهم جراً . وش .

قدح الزناد في صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، ثم أخذ الشرر يتطاير الى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى ، اذ في الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية في مطلع القرن التاسع عشر ، وهى دعوة الاصلاح الاسلامى ، ثم كان من أمرها ان ترقى واتسعت حتى بلغت في نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالى بالجامعة الاسلامية .

ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحويلات في العالم الاسلامى مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب ، بل ان هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تندفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يث في الشرق الاسلامى روح الاستيقاظ والثوران ، من ذلك عقائد الحكومة النيابية ، والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

فتوران العالم الاسلامى هذا الثوران ، وشدة التضييق الاوروبى الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حد ، يزيدان في هيجانه فيشعلان فيه روح الحركة والعمل . ان الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ؛ فانشأ الاسلام يمد و يضطرب ، ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلا من حال حاضر الى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غايته تجدد عالم اسلامى حديث .

ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمرهما في عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب .

الفتح العربي

للامير شكيب

حدث الفتح الاسلامي بهذه السرعة التي اتسق بها ، لم يسبق له مثيل في التاريخ ، حتى قال الكثيرون ان العرب فتحوا في ثمانين سنة أ أكثر مما فتح الرومان في ثمانمائة سنة . وكان نابليون يقول : ان العرب فتحوا نصف الدنيا في نصف قرن . وقد تحسّر المؤرخون والاجتماعيون الاوربيون في تعليل سرعة هذه الفتوحات ، فذهبوا فيها مذاهب شتى وأخطأوا وأصابوا ، وليس من الممكن حصر تعليقاتهم في هذا الشأن نظراً لكثرتها ، وانما يمكننا أن نشير ولو بطريق الإيماء الى بعضها . فنابليون الذي كان ينظر الى الحوادث من الوجهة العسكرية التي هو عبقرئها الأكبر ، كان يذهب الى ان العرب قبل الاسلام كانوا ذوى بصائر بالحرب ، أكثر مما يظن الناس ، وان حروب القبائل العربية بعضها مع بعض كانت قد نجحت^(١) في القتال الى الحد الذي صيرها أمةً محاربة من الدرجة الاولى ، كما انه كان يظن ان الامم التي تغلب عليها العرب بهذه السرعة العجيبة ، كانت مصابةً بعلل اجتماعية كثيرة ، لم يحققها جميعها المؤرخون ، وان ثمة أسراراً لا تزال خافية عنهم . على ان نابليون كان يوفر القسط الأعظم من الحرمة الشخصية لمحمد ﷺ وعمر رضى الله عنه ويرى انه ما انتشر الاسلام الا بفضلهما ولقد بلغ من اعجابه بمحمد ﷺ ان نوى وهو في مصر ان يدين بالاسلام ، وان يحمل عليه جيشه . ولقد سأله عن ذلك المؤرخ « لاكاز » الذي رافقه الى جزيرة « سنت هيلانه » وقيدّ جميع ماسمعه من أحاديثه ، فاعترف له بأنه كان عزم على الدخول في الاسلام ، ويحمل جيشه عليه ، ولكنه لم يكن يريد أن يفعل ذلك الا بعد أن يصل بجيشه الى الفرات ، بحيث يتمكن باسلامه من الاستيلاء على الشرق . ثم ان

المسيو « اتيان دينه » المسلم الفرنسي الذي له المقامات العالية في النضال عن الاسلام، والذي أدي فريضة الحج رحه الله سنة ١٣٤٧ هو وتلميذه الحاج سليمان بن ابراهيم باعمر ، قد نقل في كتابه الذي ألّفه عن الحج ، ووصف به الحرمين ، وناقى رسمية عن قضية اسلام نابليون ، منها وثيقة مؤرخة في ٩ فروكتيدور سنة ٧ أى ٢٦ اغسطس سنة ١٧٩٨ وهى مكتوب نصه : انى أشكرك على ماقت به من تعظيم نبيّنا . الامضاء : بونارت . نقلها دينه عن كرىستان شرفيلد : Bonaparte et l'Islam ونقل عنه خطاباً الى الشيخ المسيرى عن المقر العام فى القاهرة تاريخه وفق ٢٨ اغسطس سنة ١٧٩٨ . نصه : « انى أرجوأن لا يطول الوقت حتى أجمع جميع عقلاء البلاد ومهذّبيها وافرر معهم نظام حكم مبنياً على مبادئ القرآن التى هى وحدها المبادئ الحقيقية والتى هى وحدها الكفيلة بسعادة البشر . الامضاء : بونارت »

ونقل جملة عن كتاب « جورنال غير مطبوع » Journal inédit . الجزء الاول الصفحة ٣٤٨ وهى « كان المشايخ يقولون لى دائماً انى ان أردت أن أكون اماماً فلا بد من أن يدخل الجيش فى الاسلام وأن يلبسوا العمام . ولقد كانت هذه نيتى . الامضاء : بونارت »
ونقل عن نقولا من الصفحة ١٢٢ من كتابه النسخة العربية وذلك قول نابليون : « حقاً قد قلت لكم مراراً وأعلنت مراراً فى خطبى انى أنا مسلم موحداً مجدّ النبي مجدداً وأحب المسلمين . الامضاء : بونارت »

فالذى يعلم تاريخ بونارت حق العلم يفهم ان رجلاً كهذا أوتى من القدرة العقلية ، ومن العزيمة أقصى ما قدر لابطال العالم ، لا يعجب بالاسلام هذا الاعجاب كله الا بعد اقتناعه بأن هذه الفتوحات المادية والمضوية التى قام بها الاسلام فى ذلك الوقت القصير ، كانت حادنا غير مسبوقة المثال فى التاريخ العام ، وبأن فضائل الاسلام ونبيه وأصحابه كانت باهرة . ولننقل لك الآن بعض ما قيل فى هذا الموضوع فى التآليف التى ظهرت حديثاً لأنها نخلت المسئلة نخلأً دقيقاً فمنها كتاب « مدنيت الشرق » للمسيو غروسه الافرنسى

Les civilisation de l'Orient par René Grousset

جاء فيه فى القسم المتعلق بمدنية العرب ما يلى :

« معركتان فى أجنادين واليرموك فتحتا للعرب سورية وفلهين من مملكة البيزنطيين

ثم تبعتهما مصر . ومعركتان أخريان في القادسية ونهاوند مهدتا لهم فارس بأسرها . فالسلطنة الرومانية بعد أن انتزعت منها سورية ومصر وافريقية ، بقيت لها لذلك العهد آسية الصغرى (الاناضول) بالاقبل ، ولكن السلطنة الفارسية الساسانية سقطت في أيدي الفاتحين بتامها . وهكذا امتد سلطان العرب في بضع سنوات من افريقية ومن جبال طوروس الى سيحون وجيحون ، ولم يلبث ان قطع بعد قليل الى ماوراء النهر ، وفتح بلاد الدول التركية الإيرانية التي كانت تابعة للصين . وقد كان الخلفاء الأربعة الذين في أيامهم اتسقت هذه الفتوحات المدهشة ، متمسكين بمبدأ محمد وباو ابد قومهم . كانوا عرباً وبقوا عرباً شيوياً في الصحراء بدون ترف ، ولا زخرف ، ولا قصور ملوكية ، ولا احتياجات . بل كانوا أشداء على أنفسهم كما على الآخرين عاشين في المضارب كسائر القبائل الخ .

وظهر تاريخ في هذه السنة اسمه « تاريخ العالم » Histoire du monde للعلامة غودفروا دموبين Gaulefroy Demombynes الاستاذ بمدرسة اللسن الشرقية بباريز ، والعلامة بلاتونوف من أعضاء اكاديمية العلوم الروسية ، تحرى فيه مؤلفاه الى أقصى آمان التحرى ، وذهبا الى أن تاريخ الفتوحات الاسلامية لم يبدأ بالاشراق على ناشديه الا في هذه السنين الأخيرة ، فقد كان مهّد طريق معرفته المستشرقون الذين سبقوا مثل دساي De Sacy وكاترمار Quatremère وكوسين دورسفال Caussing de Perceval ورينو Reinaud ودوسلان De Slane الخ واقتنى آثرهم علماء مشتغلون ، وفوا التمهيص حقه منهم من جاء بأراء خاصة وجيبة استقلّوا بها ، ومنهم من تقدم كثيراً لكن في الطريق التي كانت مفتوحة امامه ، وربما أدّى جزمه بما اعتقده ، وغلوّه فيما ذهب اليه الى مناقشات ممتعة . وقد عدّ المؤلفان المذكوران من هذه الخلبة دوزى Dozy ونولدكه Noldke وفيلهاوزن Wellhausen ودوغويه De Goeje وغولدسيهر Goldziher وسنوك هركرونه Snouck Hurgronje الخ

وبما ذهب اليه أصحاب هذا التأليف الجديد انه يجب العدول عن فكرة كون انتشار الاسلام حصل على أيدي الاعراب أو البدو الدافقين من الصحارى لاجل الغزو . قالوا : ان الاولى بان يقال هو ان الحركة حركة مدر لاحركة وبر . وذلك ان طائفة من الناس اجتمعت حول النبي في المدينة من بعد الهجرة ونسبت بمبادئه ، وصرفت جميع همها الى الدين ،

وعاهلت الله ورسوله على نشر عقيدة الاسلام . وهؤلاء هم المسلمون . ثم انضمت اليهم طبقت أخرى في زمان الخلفاء الراشدين ، وتقوت بهم عصاة هؤلاء المتدينين العاكفين على تلاوة القرآن ، الذين بنيتهم المتواصل بنوا الاسلام الاول الذي لم تطرأ عليه المؤثرات الخارجية ، والمجادلات الكلامية ، وهو الاسلام القرآني الصرف »

(انظر صفحة ١٤٠ من الجزء السابع من هذا التاريخ القيم) ثم قالوا :

فهذه العصاة المتدينة التي نشأت في المدينة ، جعلت من المسجد النبوي في المدينة مركز حياة « دينية » ، أخذ ينمو ويتسع الى أن انبثقت منه أتوار المعارف الكلامية والفقهية في القرن الثامن (القرن الثامن للمسيح هو مبدأ القرن الثاني للهجرة) . وظهر اولئك الأئمة في علم الشريعة . فالمدينة كانت في القرن السابع (للمسيح) هي قاب الاسلام ومنها كان مبدأ نموه

ولكن كانت خلية الاسلام تعسل أيضاً في أثناء الفتوحات بين الجيوش وفي الخيميات وذلك ان من الجند من كانوا حافظاً للقرآن فاهمين لمعانيه فتأمنت منهم في وسط الجهاد حلقات عبادة وعصابات زهد وتقوى ، محضت الاسلام خلوفاً لا حد له ، وصرفت معظم حياتها الى العمل لاستحقاق الثواب الاخرى . فكانت هذه العصابات تبث العقيدة ، وتحت على التقوى وتجاهد في طلب سعادة العقبى . وكانت مواعيد الله تتأيد بانعمل في هذه الدار الدنيا قبل الآخرة ، فكان المسلمون يعلون في الأرض ويعزّون ، وكان غير المؤمنين يسفلون ويدلّون ، وانقلبت غزاة البدوي حرباً مقدسة قد أمر بها الله لاعلاء كلمته . وقد كانت تلك النفوس المثلثة بالحياة الدينية لا تتبع الاماعتقده ، وما يختلج في صدورهما من فهم القرآن الى حد أن عمر ثم عثمان كانا يتحذبان الخلاف بين المؤمنين من أجل القراءة (هذا صحيح فقد روى عن ابن عباس انه نهى عن أن يتسارع الناس في القرآن فساء كلامه هذا الخليفة عمر فسأله : لماذا قلت هذا ؟ فاجابه ابن عباس : يا امير المؤمنين متى سارعوا اختلّفوا ومتى اختلّفوا اقتتلوا . فقال له عمر : لله أبوك لقد كنت اكتبها للناس) . فقد كان اذا رأى عالم ديني يدير حياة المجتمع الاسلامي ، بل سياسة الأمة الاسلامية . ولقد رأينا في وقعة صفين كيف اتفق أناس من جيش علي مع آخرين من جيش معاوية على طلب التحكيم . ثم لما هدأت ريح الفتوحات وسكن الناس عادت حلقات قراء القرآن الى مساكنها وعاداتها

الحضرية ، وتألف منها حول الخليفة وحول ولاية الأمصار مجالس الشورى التي يعتمد عليها الامام ، والتي كانت مركز الرأي العام ، انتهى

وهذا الرأي هو ما نراه نحن . وهو أن الاسلام لم ينتشر الا بالقرآن وعمارته الصدور به الى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التي مكنتهم من نواصي الامم . وهذه القوة المعنوية هي الأصل ، وهي التي بدونها لا تنهض أمة . وما القوة المادية ، مهما دقت أو غلظت ، الا تبع لها ، وهي بالنسبة لها كالبدن بالنسبة الى الروح . فكل ما يقال من أن سبب الفتوحات الاسلامية الباهرة هو مراسم العرب للقتال أو حب البدو للغزو ، وغرامهم بالغنائم ، أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكماها ، وغير ذلك ، فهذا تضيق للمعنى الحقيقي ، وزيف عن شاكلة الرمية ، وانما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة ، وبقوة معنوية أحدثها في النفوس ، خارقة للعادة . ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان ، وكان الأعراب مغرمين بالنهب والكسب من أعلى أيام الجاهلية ، فلماذا لم يفتحوا البلدان الا بعد بعثة محمد ؟ ولقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يرى فتوحات أمته من بعده ، ورؤى عنه حديث : « زويت لى مشارق الأرض ومغاربها ، وسيلبلغ ملك أمتى ملازوى لى منها » .

وقد قال امام المستشرقين غولد سيهر في كتابه « عقيدة الاسلام وشريعته » في الفصل الأول منه ، قولاً فصلاً في قضية : هل كان النبي نبياً قاصراً دعوته على العرب كما يذهب اليه بعض من يريدون تنقُص الاسلام ، أو كان معتقداً برسائه الى العالمين كافة من الأحر والأسود وأورد الأدلة التي تفحم كل مجادل ، على كون محمد رأى نفسه مبعوثاً الى البشرية ، وأنه في آخر حياته جعل يرسل الملوك الذين خارج الجزيرة بما لا يبقى معه شك في نيته دعوة جميع الخلق الى الاسلام . قال : ولقد لفظ « نولدكه » أن محمداً كان قد رسم خططاً لم يكن يرتاب في أن يجد الرومان على طريقه فيها أعداء محاربين ، فان آخر غزاة أغزاها كانت الى أراضي الدولة البيزنطية . ثم ان الغزوات التي غزاها من بعده خلفاؤه وأدري الناس بقاصده نبي* بكونهم علموا أن بعثته كانت عامة لا محصورة في الجزيرة

ولقد قرأت في تواريح كثيرة ما يدل على حيرة المؤلفين في هذا الحادث العجيب ، الا وهو سرعة نمو الاسلام وتبسطه ، ومنها تأليف حديث العهد اسمه « العالم الاسلامى » لكتاب

اسمه «ماكس مايرهوف» قال فيه :

« يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف ان أعراباً منقسمين الى عشائر، ليست عندهم العدد والاعتدة اللازمة ، يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الاعداد والعتاد ، وكانوا يقاقلونهم وهم كاتائب منظمة »
والجواب ان هذا المستحيل بزعمه ليس في الحقيقة بمستحيل اذا نظر الى القوة المعنوية التي أوجدها القرآن في اتباعه .

وقد جاء في الفصل الرابع من الجزء السابع من « تاريخ العالم » المتقدم الذي للاستاذين «غودفروا دموبين» و « بلاتونوف » أن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأعمار، لم يكونوا عصاب لا تحصى ولا تُعد تدفقت على الشرق المتمدن. فقد أحصى مؤرخو العرب الجيش الأول المسلمين في اليرموك بثلاثة آلاف ، ثم أرسل اليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل ، وأخيراً تمام عددهم ٢٤ ألفاً . وأما عدد الروم فقال العرب انه كان مائة الف وقيل ١٢٠ ألفاً ، وقيل ٢٠٠ الف مقاتل . ولم يزد مؤرخو بيزنطية على ٤٠ ألفاً . وعلى كل حال كان العدد الاكبر لأعداء العرب. وهكذا في حروب فارس . فالسبب في ظفر العرب برغم قلة عدد جيوشهم، بالقياس الى أعدائهم، هو ما جاء في الفصل الثالث من ذلك الجزء . وهو أن قوة الايمان ونهضة التحمس الديني كاتتا متصلتين بحب الغنائم الذي يحجب الى هؤلاء القوم الغزوات والغارات . ولكن العرب في هذه الفتوحات التي علمتهم أشياء جديدة لا تحصى ، أثبتوا لأنفسهم مزاي ناشئة عن طبيعة حياتهم الاجتماعية ، من الصبر والقناعة والحذق وحسن التخلص وشدة الحماة في حال النصر الى أن يعاوا على درجات أنفسهم . ولئن لم يكن زال من بينهم حب المنافسات الشخصية التي هي معروفة بشدة بينهم ، فقد كان دخل بينهم عنصر وحدة لم يكن معهوداً من قبل، ألا وهو عامل الوحدة الدينية ، وطاعة الرسول ، فأصبح البدو الذين لم يعرفوا الطاعة لمخلوق يمثلون أوامر قوادهم . وكان العرب بطبيعتهم أهل باؤ وخيلاء ، يبنلون النفوس والنفائس لأجل الفخر ، فانضم الى خلقهم هذا اعتقادهم الجديد بانهم شعب الله الخاص الذي بعث الله منه خاتم رسله

اتهى

وقال « ولز » الفيلسوف الكاتب الانكليزي الشهير الذي لا يزال حيا وذلك في

الصفحة ٣٠٣ من كتابه « مختصر التاريخ العام » :

«إذا كان الفارئ يتخيل أن موجة الاسلام قد غمرت بهذا الفيض الذي فاضته بعض مدينتا شريفة فارسية أو رومانية أو يونانية أو مصرية ، فيجب أن يرجع عن خياله هذا حالاً . فإن الاسلام قد ساد لانه كان أفضل نظام اجتماعي وسياسي تمخضت به الأعصر . وأن الاسلام قد ساد لانه في كل مكان وجد أمماً استولى عليها الخول ، وكان فاشياً فيها الظلم والنهب والفساد ، وكانت بدون تهذيب ولا ترتيب ، فلما جاءها الاسلام لم يجد الا حكومات مستبدة مستأثرة ، منقطعة الرابطة بينها وبين رعاياها . فأدخل الاسلام في أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية وأحيى فكرة سياسية عرفها البشر ، ومد الى البشرية يد المعونة . وقد كان لدن ظهور الاسلام نظام رأس المال في السلطنة الرومانية مبنياً على الاسترقاق ، وكانت الآداب والثقافة والأوابد الاجتماعية آخذة بالانحلال . ولم يبدأ الاسلام بالانحطاط الا عندما بدأت البشرية تشك في صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة »

يريد ولز أن يقول أن الاسلام يرى ، مما عمله المسلمون الذين لم يحسنوا تمثيله .

ففي هذا القدر مقنع لمن أراد أن يخوض هذا البحث بقطع النظر عن العقيدة الاسلامية ، بل بالوقوف موقفاً متحايداً لا للاسلام ولا عليه . فاذا وقف الفارئ هذا الموقف من الحيدة كان لا بد له من أن يحكم للاسلام وأن يحكم بتحمل أعدائه عليه بغضا وعدوانا .

البيعة المحمديّة

وأقوال جبهة من العلماء والفلاسفة والمؤرخين الاوربيين

فى النبي صلى الله عليه وسلم

المنصف منهم والمعرض

للشيخ

منهم : —

Grousset	غروسه
Montet	موتته
Dinet	ايتان دينه الفرنسى المسلم
Dozy	دوزى
Noldeke	نولدكه
De Goeje	دوغويه
Sprenger	شبرنغر
Snouck- Hurgronje	سنوك هركرونيه
Grimme	غريم
Margoliouth	مارجليوث
Huart	هوار
Goldziher	غولدسيهر
Gaudefroy Demombynes	غودفروا دمومبين
Wells	ولز
Voltaire	فولتير
		وسواهم : —

قال غروسه صاحب «مدنيت الشرق»: «كان محمدٌ لما قام بهذه الدعوة شاباً كريماً نجداً، ملائحاً حاسماً لكل قضية شريفة، وكان أرفع جداً من الوسط الذين كان يعيش فيه. وقد كان العرب يوم دعاهم الى الله منغمسين في الوثنية وعبادة الحجارة، فزرم على نقلهم من تلك الوثنية الى التوحيد الخالص البحت، وكانوا يفتنون في الفوضى وقتال بعضهم بعضاً، فاراد أن يؤسس لهم حكومة ديمقراطية موحدة. وكانت لهم عادات وأوابد وحنية تقرب من المهجبة، فاراد أن يلطّف أخلاقهم ويهدّب من خشوتهم الخ.»

وقال الاستاذ «موتيه» Montet استاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف في كتابه «محمد والقرآن» مايلي: «أما محمدٌ فكان كريم الاخلاق حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم صادق اللفظ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصرامة اللفظ، والافتناع التام بما يعمله ويقوله.»

وقال الاستاذ موتيه في كتابه المذكور صفحة ١٨ مايلي بالحرف: —

«ان طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الاخلاص. فقد كان محمد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة، ولم يقم الا بعد أن تأمل كثيراً وبلغ سن الكمال بهاتيك الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع أنوار الانسانية في الدين وهو في قتاله الشرك والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه كان في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني اسرائيل الذين زاهم كباراً جداً في تاريخ قومهم.

ولقد جهل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه وذلك لانه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقاتها»
وقال في صفحة ٢٢ مايلي:

«ان الديانة الاسلامية كمقيدة توحيد، ليس فيها شيء مجهول في ديانات التوحيد الاخرى الا ان ظهورها في جزيرة العرب بروح عربية عالية جعل لها طابعاً جديداً باهراً وقد سماها محمد «الاسلام» اشارة الى تمام الانقياد لارادة الباري تعالى وهي في هذه المقيدة مشابهة للمسيحية الا ان عقيدة هذا الانقياد لارادة الله تتجلى من القرآن بقوة لاتعرفها النصرانية.

وقد بقي في الاسلام من عادات العرب القديمة تمدد الزوجات والرق الا ان الاسلام جعل

للاولى حداً ، وللثانية شروطاً من حسن المعاملة ، وقد بلغ من محمد التزام هذا التلطيف من معاملة الرقيقين ان قال : ما خلق الله شيئاً أحب اليه من تحرير الرقيق ولا حلل شيئاً أكره اليه من الطلاق

وقد منع القرآن الذبائح البشرية ، ووأد البنات والخمر والميسر ، وكان لهذه الاصلاحات تأثير غير متناهٍ في الخلق بحيث ينبغي أن يعدّ محمد في صف أعظم المحسنين للبشرية .
ثم ذكر موته أركان الاسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج وقال ان حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هي ابقاء الانسان من الصباح الى المساء تحت تأثير الديانة — ليكون دائماً بعيداً عن الشر — وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبتهنوات الجسم وزيادة القوة الروحية في الانسان ، وحكمة الحج هي توطيد الاخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية .
قال موته : « فهذا هو البناء العظيم الذي وضع محمد أساسه ، وثبت ولا يزال ثابتاً بازاء عواصف الدهور الدهارير »

ولا يزال الاستاذ موته حياً يرزق وهو من علماء جنيف ومن كبار أساتيد جامعتها ومن أكابر المستشرقين وله ترجمة بديعة للقرآن .

ومن أطف الكتب في السيرة النبوية كتاب للمسيو « اتيان دينه » الافرنسي الذي أسلم وحج وألّف كتاباً عن حجته الى البيت الحرام من أبداع ما كتب في هذا العصر كما ان كتابه عن حياة النبي ﷺ لا يقل عن كتابه في الحج في سلاسة عبارته ، ودقة معانيه ، وقوة حجته ، مع التزام خطة الاعتدال والجدال بالتي هي أحسن . ومن بدائع تأليف « دينه » Dient كتابه في الرد على لامنس اليسوعي ومؤلفين آخرين ممن تنقصوا الاسلام والرسول عليه السلام وهو المسمى « انك لني واد وانا لني واد »

فالمسيودينه يبين فساد طريقة هؤلاء الاور بين الذين حاولوا أن يحلوا السيرة المحمدية ، وتلريج ظهور الاسلام بحسب العقلية الاوربية ، فضلا بذلك ضللاً بعيداً لان هذا غير هذا ولأن المنطق الاوربي لا يمكن أن يأتي بنتائج صحيحة في تاريخ الانبياء الشرقيين قال « دينه » ان هؤلاء للمستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي بهذا الاسلوب الاوربي البحث لبشوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون بزعمهم ، حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة العميقة أن يتمكنوا من

هدم الآراء المقررة ، والروايات المشهورة من السيرة النبوية ، فهل نسئى لهم شئء من ذلك ؟
الجواب : لم يتمكنوا من اثبات أقل شئء جديد .

بل اذا أتعتنا النظر فى الآراء الجديدة التى أتى بها هؤلاء المنتشرون ، من فرنسيس وانكليز وألمان وبلجيكين وهولانديين الخ . لانجد الا خلطاً وخبطاً ، وانك لترى كل واحد منهم يقرر ما نقضه غيره من هؤلاء المدققين بزعمهم أو ينقض ما قرره .

ثم أخذ « دينه » يورد الأمثال على هذه التناقضات فنها أن المنتشرق دوزى الهولاندى قال ان محمداً لم يكن يشبه قومه ، فقد كان ذا تصور قوى ولم يكن عند العرب مثل هذا التصور ، وكان ديناً بطبيعته ولم يكن العرب دينين .

وان لامنس قال بازاء ذلك ان محمداً كان شبيهاً بقومه وان هذه المشابهة هى التى كانت سر نجاحه بينهم .

وقال دوزى ان محمداً كان ميالاً الى الصمت والكآبة يحب العزلة والهيام فى الأودية البعيدة ، ويطيل التأمل فى الليالى .

وعارض لامنس فى هذا الرأى وقال انه لا ينطبق على الميهود من كراهية محمد للعزلة ومن شهرة نفوره من النسك .

وقال « نولدكه » ان سبب الوسى النازل على محمد والدعوة التى قام بها هو ما كان يتنابه من داء الصرع .

وقال الاستاذ « غويه » De Goeje ان هذا الافتراض ايس بصحيح لأن الذاكرة عند المصابين بالصرع تكون معطلة ، والحال هى بالعكس عند محمد الذى كان يتذكر كل ما يسمعه فى أثناء هذه النوبات .

ويقول الاستاذ « شبرنغر » Sprenger انها نوبات هستيرية . ويرد عليه الاستاذ سنوك هركرونى Snouck Hurgronje بقوله انها ليست من هذا النوع .

ويقول الاستاذ غريم Grimme ان مبادئ محمد اشتراكية لادينية . وانما جعل لها صبغة دينية لأجل تمكينها .

ويرد عليه سنوك هركرونى قائلاً بان مدار نبوة محمد هو البعث واليوم الآخر .
ويزعم « مارغليوت » Margoliouht وهو أخبث المنتشرقين وأشدهم بغضا لمحمد وهو

الذي اعتمد عليه الدكتور طه حسين في النظرية الساقطة بان شعر الجاهلية موضوع بعد الاسلام - ان محمداً كان يمارس الشعوذة وكانت له مجالس سرية أشبه بمحافل الماسونية وعلامات يتعارف بها مع أصحابه وكانوا يرخون عذبة العمامة فوق مناكبهم الخ وقد رد على مرغليوث هذا جون باركنسون Parkinson في المجلة الاسلامية Islamic review سنة ١٩١٥ ونسب لامنس اليسوعي الى محمد الاكثر من الطعام ، والشرة ، والاسترسال في اللذات البدنية وقال انه مات بالبطنة . وزعم « ينه سانغل » Binet Sanglé انه كان سيء الغذاء صابراً على الجوع متقشفاً ومات من الضعف . كتب هذا في كتابه المسمى « بمجنون يسوع » في الجزء الثاني من هذا الكتاب (هذا الكتاب أربعة أجزاء) وقال « هوار » Huart انه توفي بذات الجنب . وقال الأب باردو زعيم مبشرى الصحراء انه مات مسموماً سمته امرأة يهودية .

قال « انيان دنيه » وان أردنا استقصاء هذه التناقضات التي نجدها بين تمحيصات هؤلاء المحصين بزعمهم يطول بنا الأمر ولا نقدر أن نعرف أية حقيقة ولا يبقى أماننا الا أن نرجع الى السير النبوية التي كتبها العرب . نعم انهم كتبوها بأسلوب شرقى ساذج . وأودعوها تفاصيل قد تكون من أثر الحب والتحمس الا أن الذي يفهم أسلوبها يعلم ما بها من الحقائق المدهشة . فأما المؤلفون الذين زعموا أنهم يريدون ترجمة محمد بصورة علمية ، شديدة التدقيق ، فلم يتفقا منها ولا على نقطة مهمة ، ورغم جميع ما نقّبوه ونقروه ، وحاولوا كشفه بزعمهم ، فلم يصلوا وان يصلوا الا الى تمثيل أشخاص في تلك السيرة ليسوا أعرق في الحقيقة الواقعة من أبطال أقاصيص فالترسكوت واسكندر دumas . فهؤلاء القصاصون تخيلوا أشخاصاً من أبناء جنسهم يقدرّون أن يفهموهم ولم يلحظوا الا اختلاف الأدوار بينهم أما أولئك المستشرقون ففسوا أنه كان عليهم قبل كل شيء أن يسدوا الهوة السحيقة التي تفصل بين عقليتهم الغربية والأشخاص الشرقيين الذين يترجونهم وانهم بدون هذه الملاحظة جديرون بأن يقعوا في الوهم في كل نقطة .

هل يتوقفون عند هذه الملاحظة ويعلمون أن طريقتهم هذه لا تنفذ الى حقيقة ؟
الجواب : لا نظن ذلك . وهو لأنهم مولعون بحب الطريف يحاولون الاتيان ببديع غير مسبوق .

ثم نقل « دينه » قول « سنوك هركرونيه » عن كتاب « غريم » في ترجمة الرسول وهو أن غريم أراد الابداع والاطراف فجاء بصورة غير صحيحة .

ثم ذكر « دينه » كيف ان الأب لامنس اليسوعي في أول كتابه عن محمد صاح متأوها من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الانجيل التي كانوا بدأوا يذوقونها ، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب ادخاله في الاسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر واستتبابه الى يوم الناس هذا ينمو وينتشر في افريقية وآسية بمراى ومسمع من المبشرين المسيحيين . فلذلك زعم الأب لامنس أن يشنها على الاسلام غارة شعواء ويحمل عليه حجة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الاسلام ! الا أن حالة عقلية كهذه يقول « دينه » أنها لا تلتئم مع بحث علمى مبنى على تجرد محض من الهوى وتنزه عن البغض . ثم جاء « دينه » رحه الله بالأدلة القاطعة على سفطات لامنس وسردها مع ردها واحدة واحدة مما لا يتسع له هذا المكان الذى لا تتوخى فيه الا الاشارة والدلالة محيلين من شاء التوسع في هذا البحث على الكتب نفسها .

ان الكتابات في أوروبا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ودينه ، وشرعه ، والملة الاسلامية بجزر لا ساحل له وفيها الف والتمين ، والحالى والعاقل ، والحقى والباطل ، ومن مؤلفيها المحب والقالى ، والمنصف والمتسفف ، والناصح والكاشح كما هو الشأن في كل أمر . ولكن العصر الأخير في أوربة أنصف الرسول ﷺ كثيراً بالانتباس الى الأعصر التي سبقت كما يظهر من الشواهد التي أتينا بها من قبيل انمودجات . ولو كان المسلمون استيقظوا من سباتهم وتعلموا من الاوربيين روح « التضحية » كما يقال ونشروا للاسلام دعاية منظمة وأنفقوا عليها عن سعة لأمكنهم أن يصححوا أباويل كثيرة وابدؤوا أوهاماً كثيفة تتعلق بهم ودينهم وبنبيهم ، ولاهتدى في أوربة الى الاسلام خلق كثير أثروا تأثيراً محسوساً في مجرى السياسة العامة

واكسبنا مع الأسف لا يزال بعيدين عن درجة هذا الانتباه ولا يزال أعداء الاسلام يناصرونه القتال في كل سهل وجبل وفي كل بر وبحر ولا تبرح مكافئة الاسلام لهم هي في نسبة الخردل الى الجنبل . ففى ينشط الاسلام من عقاله ويستأذت همته الأولى ؟ هذا مالا يجابوب عليه غير المستقبل . انتهى

وقال المؤرخ الفرنسى الشهير « لافيس » « انه كان مشهوراً بالصدق منذ صباه حتى كان يلقب بالأمين الخ » .

وقال « غولد سيهر » سيد المدققين ، وحجة المستشرقين ، فى كتابه « عقيدة الاسلام وشريعته » فى الصفحة الثالثة من هذا الكتاب الجليل ما يلى :

« ان دعوة النبي العربى كان فيها نخبه مبادئ دينية اعتقدها هو بالاختلاط مع اليهود والنصارى وغيرهم ، واقنع بها ، وراها جذيرة باحياء الشعور الدينى بين قومه . ولقد كانت هذه المبادئ المقتبسة من الأديان الأخرى فى نظره ضرورية لشىء سير الانسان بحسب الارادة الالهية ، فتلقاها هو بصدق وأمانة ، وبمقتضى الهام أيدته فيه المؤثرات الخارجيه وجاءه حياً الهياً كان هو مقتنعاً بكونه حياً الهياً نازلاً على لسانه »

اننا ننبه قراء هذا الكتاب الى أن هؤلاء الذين نحن نستشهد بكلامهم فى حق محمد ﷺ ليس فيهم واحد مسلم ، وذلك اننا لانرى حاجة الى الاستشهاد على صدق الرسول عليه السلام بكلام المسلمين المؤمنين بالله ورسوله . وانما يزيد أن تقيم الأدلة من أقوال علماء الأوربيين الذين ليسوا بمسلمين يقال فيهم انهم قالوا ما قالوه متأثرين بعقيدتهم التى نشأوا عليها ، وانما هم من العلماء المنصفين الذين نشدوا الحق ، وبغوا التحرى جهد طاقتهم . وقد كانت خلاصة آرائهم وزبدة أقولهم أن محمداً كان صادقاً ، وكان أميناً ، وكان معتقداً بان الله ابتعته لهداية قومه ، وارشاد سائر البشر الى الدين القيم ، وكان مقتنعاً بان الله تعالى يوحى اليه ، وأنه لم يقل شيئاً الا وهو مقتنع به . وهذا هو الرأى السائد الآن بين العلماء المحققين من أهل أوربة ، ولم يبق فيهم من يقيم وزناً لتلك المطاعن التى كان أحبارهم ورهبانهم وأعداء الدين الاسلامى منهم يوجهونها الى شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، ويطبعون بها ناشتهم ويجعلونها مداراً لدعاتيهم .

وأما قول « غولد سيهر » ان الاسلام فيه نخبه مبادئ أصلها من اليهودية والمسيحية فليس فيه شىء يدعو الى الانكار ، وما جاء القرآن المصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل ، والاسلام انما هو ملة ابراهيم حنيفاً ، وقد جاء محمد بتأييد تلك الملة لا بنقضها كما لا يخفى .

وقال « ماكس مايرهوف » فى كتابه « العالم الاسلامى » الصفحة العاشرة : « ان محمدأ فى سنة ٦١٠ للمسيح كان كثير التفكير ، والانفراد ، وكان يقصد الى البادية ويخلو بنفسه فى

جبل حراء بقرب مكة . فرأى ذات يوم رؤيا ، هي أن الملك جبريل تجلى له وناوله كتاباً ، وقرأ عليه هذه الآيات التي هي السورة السادسة والتسعون من القرآن : (اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فنزل عليه هذا الكلام وحياً وجاء فأخبر امرأته بما وقع له . ثم جاءه وحى آخر فيما بعد ، فلما شعر به تغطى بثوب وسمع هذه الكلمات : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبُّكَ فَكْبَرٌ وَّيَبَّابِكُمْ فَظَهَرَ وَالرَّجَزُ فَأَهْجُرْ وَلَا تَمْنُنِ تَسْتَكْبِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) ومذ ذاك الوقت اقتنع بان الله اختاره مبشراً بعقيدة جديدة ، ونسبى برسول الله ، ليدعو الى الله بلسان عربي مبين . الى أن يقول : « أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلاً مصاباً بمرض عصبي ، أو بدء الصرع ، ولكن تلريح حياته من أوله الى آخره ليس فيه شئ يدل على هذا ، كما ان ما قام به فيما بعد من التشريع والادارة يناقض هذا القول »

وأما « غودفروا دسبومين » و« بلاتونوف » في « تاريخ العالم » فقد وصلا من التدقيق والتمحيص الى حد لا أعرفه لمؤرخ وبلغ منهما ذلك أن قالا : « ان النصرانية لا يزال أصلها مجهولاً » كما انى رأيتهما في كثير من الأمور المجمع عليها في الاسلام لا يرحان متوقفين في الصفحة ١٣٢ من الجزء السابع من تاريخهما نجدهما يقولان : « انه غير ممكن الجزم بصورة حقيقية لمحمد ، ولا بصورة حقيقية لأحد من كبار رجال العالم . وكل ما هناك انما هو الروح التي تتجلى لهم في تواريخهم التقليدية وفي كيفية تمثيل الخلف لصورهم . ولا شك في أنه يكون من باب الفلسفة العليا أن تميز الحقائق الراهنة عن الاعتقادات ولكننا نجد أنفسنا عاجزين عن ذلك هنا . وغاية ما نقدر أن نجزم به هنا هو تبرته بمحمد من الكذب ومن المرض . وانما كان محمد رجلاً ذا مواهب الهية عليا ، ساد بها أبناء عصره ، وهي رابطة الجأش ، وطهارة القلب ، وجاذبية الثمائل ، ونفوذ الكلمة . وأنه كان عابداً عظيماً ، وأنه نظير جميع العباد العظام كان يجمع بين حرارة الاعتقاد بالرسالة التي هو مأمور بها من جانب الحق تعالى ، وبين ملكة الأعمال الدنيوية ومعرفة استخدام الوسائل اللازمة لنجاح تلك الرسالة »

وجميع هؤلاء - تقريباً ، وولز الانكليزي أيضاً ، وهو ممن تناول النبي ﷺ بشئ

من النقد ، قد أجمعوا على أن من أنصح الأدلة على صدقه كون أهله وأقرب الناس إليه هم أول من آمنوا به . فقد كانوا مطلعين على جميع سرأيره ، ولو ارتابوا في صدقه ما آمنوا .
وبرغم انتقادات « ولز » التي حادفها عن الصواب ، لم يستطع أن ينكر كثيراً من الحقائق مثل قوله : « ان ديانة محمد كان فيها روح حقيقية من العطف ، والكرم ، والاخاء ، وكانت بسيطة ، مفهومة ، سائغة ، وكانت ملائمة بكارم الأخلاق ، وعلو النفس ، والمعالي التي يشغف بها أهل البادية »

وقال العلامة هوار « Huort » أستاذ الألسن الشرقية بباريز وصاحب « تاريخ العرب » المتداول بين الأيدي وذلك في الصفحة ٩٤ من الجزء الأول :
« كيف نعرف محمد الى خديجة وكيف أمكنه أن يحصل على ثقته ويتزوج بها ؟ الجواب على الشك الأول لا يزال غير معروف عندنا . وأما على الثاني فقد انفقت الأخبار على أن محمداً كان في الدرجة العليا من شرف النفس ، وكان يلقب بالأمين ، أى بالرجل الثقة المعتمد عليه الى أقصى درجة ، أى كان المثل الأعلى في الاستقامة » ثم انك لا تجد في « تاريخ العرب » للاستاذ « هوار » كلمة واحدة تدل على أن محمداً كان مرآياً أو مداجياً ، أو كان يقول مالا يعتقد أو يعتقد مالا يقول .



وقد ذكر « كلرادوفو » المستشرق الافرنسي الفاضل صاحب كتاب « مفكرى الاسلام » les penseurs de l'islam في الجزء الثالث من هذا الكتاب حياة صاحب الرسالة ﷺ وتحري فيهما مزيد التحري ، ودقق أشد التدقيق ، وانهى الى القول « بان محمداً من سن الخامسة والعشرين الى الأربعين كان كثير التفكير ، هادئاً ، ساكناً ، وكان حليماً ، تقياً ، حسن الأخلاق ، وأنه عند ما بلغ الأربعين توجهت جميع قواه العقلية الى جهة التأمل في جوهر الألوهية ، والبحث عن الحقيقة الدينية ، ومذ ذلك الوقت أخذ يعتزل الناس ويخلو بنفسه في غلر بقرب مكة اسمه حراء . وكان محمد أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يكن فيلسوفاً ولكنه لم يزل يفكر في هذا الأمر الى أن تكونت في نفسه بطريق الكشف التريجي المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالفضاء على الوثنية »
فهذا أيضاً من المستشرقين المتبحرين الذين لم يدينوا بالاسلام ، ولم يعتقدوا بالوحي

المنزل على محمد ﷺ لكنه ذهب الى أنه عرف الحق بطريق التأمل ، والفذف في الروح ، مما لا يعد كثيراً عن العقيدة التي عليها المسلمون .
 ولقد تعرض « كلرادوفو » الى خرافة الراهب بحيرا التي يزعم بعض المسيحيين أنه هو الذي كان علم محمداً العقيدة وهو الذي ألّف القرآن ، وقال ان هذه الأسطورة موجودة ، وأنها مكتوبة بالعربي ، وأنه كان نشر عنها فضلاً في مجلة « الشرق المسيحي » ولم ير فيها شيئاً يستحق الاعتبار ، ولكنه لا يزال في سورية قسيسون من الفئة التابعة لرومة يعتقدون بأن بحيرا كان معلماً لمحمد ، وأنه هو الذي لّفنه القرآن وقد ذكر « كلرادوفو » ما قيل عن بحيرا انه كان راهباً من انطاكية ، ذهب سائحاً الى جنوبي سورية ، وتوغل في صحراء سينا ، ثم ذهب الى بلاد العرب يعلمهم دين جدهم اسماعيل الخ الا أنه ينعت هذه القصة كلها بقوله « خرافة » .

وكيف لا تكون خرافة القصة التي تجعل مثل بحيرا الراهب الاعجمي ينطق بمثل القرآن الذي عجزت عنه مصافح خطباء العرب ، وغزول شعرائهم أفصح وأبلغ ما كانوا ، ولعل أصل هذه الخرافة التي لا يتحجل بعض الناس من روايتها أو الاشارة اليها، ما يرويه المؤرخون من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب مع عمه أبي طالب الى الشام في قافلة ، وكان في الثانية عشرة من العمر ، وأنه لما مر أبو طالب والقافلة ببصرى دعاهم الى الطعام راهب اسمه بحيرا . فلما صاروا حول الحوان قال الراهب انه معكم صبي لا يزال غائباً فلماذا لا يحضر؟ فاستدعوه فحضر . وطقق الراهب يساله أسئلة ويستحلفه بالللات والعزى أن يجاب عليها فأجابه الصبي بما يشعر اقشعرار بدنه من ذكر اللات والعزى ، ووجد الراهب من أجوبته ومن سيئاته أنه هو النبي الذي رأى صفته في الكتب ، والذي سيكون خاتم الرسل . وأوصى الراهب أبا طالب بان يتخذ علي ابن أخيه من اليهود .

قد نقل هذا الخبر ابن هشام في السيرة النبوية . ونقلها أصحاب « الانسيكلو بديا » الاسلامية عن ابن هشام . وقالوا ان بعضهم يزعم أن أبا بكر كان في هذه الواقعة . ثم قالوا ان المسعودي ذكر ان اسم الراهب كان سرجيوس وأنه كان من عبد القيس . وذكر الحلبي أن اسمه كان سرجيوس أو جرجيوس .

وقرأت في تاريخ أبي الفرج الملقب . الأسقف المسيحي ، ان الراهب لما رأى محمد ﷺ مع عمه تفرس فيه وقال : سيكون لهذا الصبي شأن عظيم ويذيع شكره في المشارق والمغرب

وجاء في « الانسيكلو بيدا الاسلامية » أن اسم « بحيرا » الذى كان الراهب يعرف به هو اسم آرامى معناه « المنتخب » وقد تواردت هذه القصة فى السير الاسلامية لاثبات ان رهبان النصرى كانت عندهم علامات على ظهور النبي ﷺ قال أصحاب « الانسيكلو بيدا » المذكورة فى ترجمة الراهب بحيراً ان مؤرخى بيزنطية قد ذكروا هذا الراهب من قديم وقالوا ان بحيرا كان اسمه سرجيوس وفقاً لما ورد فى كتب المسلمين .

الا ان هناك اختلافاً فى سرد الخبر :

وذلك ان تيوفانس وجيورجىوس فرانتس ، يقولان فى تاريخيهما انه لما خيل لمحمد ظهور الملك جبريل لأول مرة ، وأصابته تلك الرعدة ، خافت عليه زوجته خديجة ، وذهبت الى راهب مبتدع كانت قد طردته الكنيسة اسمه سرجيوس ، فروت له ما حصل لزوجها ، فقال لها انه لا يظهر الملك جبريل الا للانبيا .

وأما قصة بحيرا التى نعتها « كارادوفو » وجميع المحققين بلفظة « خرافة » ويقول أصحاب « الانسيكلو بيدا الاسلامية » أنفسهم — وهم غير مسلمين ولا مدافعين عن الاسلام — ان مقصد من كتبوها هو اثبات عدم صحة النبوة المحمدية لاغير فهى قد ظهرت فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر للمسيح ، ولها نسخة بالعربى ونسخة بالسريانى ، وقد ذكر أصحاب « الانسيكلو بيدا » ان اسم مؤلفها « ايشوياب » وانها تنقسم الى ثلاثة أقسام : الاول ذكر الدول المالكة الاسلامية التى كوشف بها الراهب بحيرا وهو على جبل سيناء . الثانى ملاقة سرجيوس مع محمد فى بادية يثرب وتعليمه اياه العقائد والشريعة ، والقسم الذى ألقه له من القرآن . الثالث كهانات سرجيوس وما حكاها من أمور الغيب التى تحققت على نحو ما جاء فى القسم الأول .

وبالاختصار اخترعوا هذه الاكاذيب اختراعاً على أمل ادخال الريب والشبهات فى نبوة محمد ﷺ ، وفى نزول الوحى عليه ، وفى كيفية دعوته الى الاسلام ، وفى نشوء ملته وشريعته ، ولكنه لم يخف افتراؤهم هذا على قومهم ، فردّوه بالاجماع تقريباً ، وسلموا ان أصل القصة قد يكون هذه الكلمة التى قالها هذا الراهب عن محمد لما جاء صبيّاً مع عمه الى الشام ، ورآهما الراهب فى بصرى . وهى كلمة تزيد الدلالة على صحة رسالته ﷺ

(وَبَابِيْ اِلٰهِي الْاَنَّ اَنْ يُتِمَّ نُوْرُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُوْنَ)

ولو أردنا أن نورد كل ما جاء في كتب المحققين من الاوربيين من الشهادات بصدق محمد ﷺ لما أمكننا أن ننتهي ، وانما أردنا بعض هذه الامودجبت مثلاً نكتفي به عن غيره . ويقال ان « كارليك » الكاتب الانكليزي الشهير قد كان من الاوربيين الأوائل الذين شدوا التكبر على المطاعن الاثيمة والأكاذيب التي كان رجال الكنيسة قد أصغوها بأذهان الاوربيين في حق الرسول العربي الكريم .

وسأختم هذه الحاشية بنقل مقاله « فولير » رأى ملاحدة اوربة بحق محمد ﷺ وذلك ان « البرنس تينسنندروف » النمسوى الذى تولى حكومة النمسا في أواخر أيامه كان في أيام شبابه جاء الى سويسرة ، وزار كلاً من « فولير » و « جان جاك روسو » ، وذلك في شهرى سبتمبر و اكتوبر سنة ١٧٦٤ ، وله مذكرات عن هذه الزيارات غير مطبوعة ، محفوظة في دار الآثار الوطنية في ثيناً ، قد اطلع عليها المسيو « لوزال » الافرنسى ، وأرسل عنها مقالة الى جريدة الطان مؤرخة في ١٤ اكتوبر ١٩٢٤ . وقد نقلت أنا هذه المقالة تلخيصاً ونشرت ذلك في مجلة « الزهراء » عددها المؤرخ في ١٥ صفر سنة ١٣٤٤ والمهم منها ان فولير في أحد مجالسه مع البرنس « تينسنندروف Zinzendorf » أجرى ذكر « لوتير » و « كلفين » فقال للبرنس : « انهما لا يستحقان أن يكونا صانعى أحذية عند محمد » ومن المعلوم ان الاوربيين لاسيا الامم البروتستانتية منهم ، يعتقدون انه لولا الاصلاح الدينى الذى قام به « لوتير » و « كلفين » لما انبت فجر الحرية في اوربة ، ولكانت القرون الوسطى قد امتدت الى عصرنا هذا . فأمّا « فولير » فقد رأهم مقصرين رجعيين ناكسين على الاعقاب ، لأنهما لم يتجاسرا على اعلان الحقائق التي أعلنها محمد ، مع انه قد تقدمهما في الزمن . وهذه شهادة ملحد لم يقرب به أحد في ملاحدة الدهر ، ولا تمارى أحد في كونه العامل الأعظم في الثورة الافرنسية .

ولقد ذكرت في مقدمة مقالتي هذه في « الزهراء » أسباب اهتامي لهذه الجملة التي قالها « فولير » عن مقايسة « لوتير » و « كلفين » الى محمدهى : ان بعض النشء الجديد لا يعتقدون بشىء ولا يحفظون بأمرٍ مالم ترو لهم فيه كلاماً عن فيلسوف اوربى عظيم ، لاسيا اذا كان من كبار الملاحدة .

وأى فيلسوف لعمري أعظم الحداداً ، وأى ملحد أشهر فلسفةً ، من « فولير » الذى لم يتقدمه ولا تأخر عنه في هذا الباب مثله ، ولقد انطقه الحق بما نطق به كما رأيت .

السيرة النبوية

وكتاب

« حياة محمد » لأميل درمنغم

Emile Dermenghem

للأمير شكيب

— • —

- الحديث والتحديث .
- تفاوت الأئمة المجتهدين في الاكثار والاقبال منهما .
- درمنغم يصف أول ما أنزل على النبي ﷺ من الوحي .
- قضية صلب المسيح واختلاف الاسلام والنصرانية في كفيتهما .
- مقارنات بين عقائد اسلامية ومسيحية في عيسى عليه السلام .
- جمع القرآن وكيفية ثبوت مصحف عثمان .

مباة محمد لأميل درمنغم .

قد أثار الانباه لهذا الكتاب المؤلف بالفرنسية مانشره الدكتور حسين بك هيكل تحت عنوان « حياة محمد لدرمنجم نقد وتعليق » في ملاحق جريدة السياسة الفراء الذي يوالى نشر مقالاته في أعدادها الأدبية وردده على درمنغم مما جعل كل من يقرأ مقالات الدكتور هيكل في اشتياق الى معرفة ماكتبه درمنغم لأنه لم يأتي بشئ مما قال درمنغم بل علق ونقد بدون أن يترجم مقاله بخلاف الأمير أبقاه الله (الناشر)

ومن كتب في هذه السنين الآخيرة في موضوع السيرة النبوية المحمدية الميوايميل درمنغهم Emile Dermenghem من كتاب الفرنسيس ومن أقام بيلاذ المغرب وخطل المسفين وهو وان كان مسيحياً كاثوليكياً ، فن المسحين ذوى الوجدان والميل الى الانصاف . ولما أقدمت الحكومة الفرنسية في المغرب على الغاء الشريعة الاسلامية ، من بين البربر ، وأخذت تنشب بالوسائل المتعددة لأجل اخراجهم من الاسلام وتربيتهم في النصرانية ، كان هذا الكتاب من أقاموا التكبر على هذه السياسة ورآها مخالفة لمصلحة فرنسا وماسة بكرامتها في العالم ، وقد نشر رأيه هذا بدون محاباة في الجرائد .

فأما كتابه في السيرة النبوية فقد أسماه « حياة محمد » وهو من أهم الكتب وقد صدره بمقدمة يقول فيها : « انه لا يوجد واحد في الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ، ولكن وُجد من ينكرون بعض ما جاء في ترجمة محمد في الكتب العربية . ومن الناس من يتجاوز الحد في التقذ والاعتراض حتى يقع في الظلم ، أما أنا فقد جعلت كتابي سيرة حقيقية مبنية على المنابع العربية الأصلية بدون اهمال جيع ما وصلت اليه تدقيقات المتخصصين في هذا الموضوع في الأزمنة الأخيرة . وقد أردت أن أمنل لمحمد صورة مطابقة له بقدر الاستطاعة كما فهمته من الكتب التي قرأتها وأنعمت النظر فيها ومن مشافهة الأحياء من المؤمنين به . فاذا كانت كل حياة بشرية تنطوى على تعليم ، وكانت كل حادثة تشتمل على مشهد يمثل حقيقة من الحقائق ، فكم يكون مؤثراً ومفيداً التلاق مع رجل من الرجال الذين يقتدى بهم جانب عظيم من الانسانية » . وقال : « ان من المنابع الاولى لسيرة محمد القرآن والسنة فالقرآن هو أوثقها سنداً ، ولكنه غير شامل الشمول الكافي في هذا الموضوع ، وأما الحديث فبرغم جيع ماتجره المحدثون ، لاسيا البخارى ، في جع أقوال الرسول والاحاطة بأقل اشارة من شاراته و ترجمة الرجال الذين روى عنهم الحديث مسلسلا ومقنعناً ، لا يزال فيه كثير مما هو محل للشبهة ، وما هو موضوع ، ومن الجملة انهم نسبوا الى النبي معجزات كانت نسبتها اليه بعد موته . والحال انه معروف كون النبي نفسه ما ادعى المعجزات . وليس بالسهل تمحيص جيع الأحاديث ومعرفة الصحيح فيها من غيره ، ولكنه ليس من المستحيل معرفة ذلك لمن كان قد وقف على علل التحريف والوضع . وما لاشك فيه انه بعد الغرابة التامة يبقى عدد كبير من الأحاديث محققاً تحقيقاً رياضياً وذلك بمقارنته بشواهد أخرى

و بتطبيقه على المكان والزمان والبيئة والاضاع التي كانت . كما ان منها ما يرجع صحته . وقد قال المستشرق سنوك هركرونه Snouck Hurgronje انه ليس من السداد في شيء انكار حديث لا يمكن تبين السبب الذي يقال انه وضع لاجله ولا توجد علة تاريخية تنقذه . أمّا السير النبوية كبيرة ابن هشام عن ابن اسحاق وهي أهمها ، وكتاب الواقدي ، وطبقات ابن سعد ، والسيرة الحلبية ، وتاريخ أبي الفداء ، والطبري ، والمسعودي الخ ففيها بأجمعها أحاديث ضعيفة . الا انه لا ينكر أصلاً وجود روايات فيها هي غاية في الصراحة والثقة . وانما كثرت المبالغات في الأعصر الأخيرة . ثم جاء اناس مثل ابن خلدون فأثروا بآراء خاصة بهم . ثم جاء المحدثون مثل الشيخ عبده في مصر ، وتلاميذه والسيد أمير على الهندي ، وأصحاب مجلة « اسلاميك ريفيو » فجعلوا للنبي صورة اجتهدوا في تقريبها من ذوق هذا العصر . وربما تكلموا عن عيسى بما لا يرضاه محمد نفسه . أما من الجهة الاوربية فقد كانت الأوهام والعداوات الدينية تحول دون درس حقيق علمي لفضية منشأ الاسلام الى أن نبغ في القرن التاسع عشر رجال أراحوا هذه العلة مثل كوسين دورسيغال Coussin de Perceval وموير Muir وفأيل Weil ومرجوارث Margoliouth ونولدكه Noldcke وشبرنجر Sprenger وسنوك هركرونه Snouck Hurgronje ودوزي Dozy ومن بعدهم كاتاني Catani ولانسن Lamens وماسينيون Massignon ومونتيه Montel وكازانوفو Casanova وبيبل Bell وهوارت Huart وهوداس Houdas ومارسييه Marçais وArnold وارنولد وArnold وغريم Grimme وغولديزهر Goldziher وغود فروا دمومبين Godefroy Demombynes وغيرهم .

الا أن بعضهم تجاوز الحد في التمهيص الى أن سقط في النقي المطلق ، فانقلب الأمر الى ضده وصار هدماً بدلاً من أن يكون بناء . أما أنا فقد جئت وسطاً بين الروايات العربية المأثورة التي يمثلها المسيو دينيه Dinet وسليمان بن ابراهيم ، والطريقة العصرية التي جرى عليها بعض المستشرقين المحدثين ، فكننت دائماً أنظر الى هذه الجهة والى هذه الجهة . وقد وجدت مع الأسف نتائج تدقيقات المحدثين ناقصة الى الآن . وكثيراً ما وجدت سلبية محضة ومتناقضة بعضها مع بعض . فالستشرق الفلاني يحكم بأن محمداً كان أعلى من أبناء عصره ، والآخر يقول انه كان شبيهاً بهم من كل وجه . وهذا يقول انه توفي على أثر تحفة ، وآخر

يقول انه أصابته حصى منشؤها كثرة الصوم ، وقال « لامارتين » انه لم يكن الها ولكنه كان أكثر من رجل أئى كان نبياً . وزعم « سبرنغر » هناك وجود هستيريا شديدة . ولكن « باينسكى » هدم هذه النظرية تماماً . و « ماسينيون » نفسه صرح بأن محمداً كان على تمام الاعتدال فى مزاجه . وأما الاب لامنس وهو وان كان من أحدث المستشرقين العصرين وأكثرهم اطلاعاً فلا ينكر أنه من أشدهم تعصباً . وقد ذهبت بهجة كثير من تحقيقاته بشدة تحامله على الاسلام ونبية . وقد استعمل لامنس فى تاريخه للاسلام عين التعنت والطرق الاتقادية التى استعملها كثير من النقاد العصرين للصرانية . فلامنس اذا مرَّ بمحدث مطابق لما فى القرآن . يزعم انه انما هو نسخة عن الآية التى فى القرآن ، ومن الغريب أن يكون تطابق شهادتين ، موجباً لتساقلهما بدلا من أن يكون موجباً لزيادة الثقة فيهما ، وانضرب مثالا على ذلك : يقولون ان الحديث المنسوب للنبي فى فضل العسل انما وضعه المحدثون تأييداً للقرآن الذى فيه كلام على فوائد العسل فنجيب لماذا ياليت شعرى لايجوز أن يكون القرآن قد نوّه بفوائد العسل وأن يكون محمد أيضاً أحب العسل ووجده صحياً وأوصى به ؟ وهو فى الحقيقة شراب صحى لاشبهة فيه وما يجب أن يوصى به . فهل تكون رواية شىء كهذا عن النبي ، مع عدم وجود أى شىء منطقي أو تاريخي أو مختص بالموضوع نفسه يمنع صدوره عنه ، من الروايات التى تتضمن ما يوجب الشبهة ؟ اننا لانفهم هذا وان كنا لاننكر الفوائد الكثيرة التى فى كتب لامنس لاسيا كتابه « مهد الاسلام » الذى فيه معلومات كثيرة عن حالة مكة زمان البعثة . فلذلك قد حذف كل ما رأيت غير ثابت من الروايات وكذلك المعجزات التى وُضعت أخبارها بعد الرسول بقرنين . و بقيت أشياء لم أستطع الجزم بصحتها ولا بعلمها فأشرت الى ما فيها من احتمال أحد الامرين « انتهى

قد نقلنا كلام هذا الكاتب الكاثوليكي على علته ، حتى لا ينسب الينا الاستشهاد باقوال رجل ذى ضلع مع الاسلام ، فها نحن أولاء نتقل عنه ما ذكره فى الصفحة ٥٢ عن النبي ﷺ من أنه كان بعد أن تزوج بخديجة ، قد أصبح معروفاً فى قومه وكان الناس يجلبون أوصافه ، ويمجدون سيرته ، ويلقبونه بالأمين أى الصادق الذى يُتَمَد عليه ، وتنتقل فى صفحة ٥٦ أنه لما اختلفت فريش فى قضية بناء الكعبة وأى غنذ منها يجب أن يعهد اليه

بوضع الحجر الأسود في مكانه وكادوا يقتتلون . اتفق الجميع على أن يهدوا بذلك الى محمد ابن عبد الله الهاشمي قائلين : هذا هو الأمين . ثم ذكر مبدأ البعثة ولم يقل شيئاً يشتم منه أدنى شبهة في صدق محمد ﷺ . ففي صفحة ٦٢ يقول هكذا : « كان محمد في حالة بخران فكان ينشد السكون في تلك الجبال التي كان يذهب فيخلو فيها بنفسه متأملاً في السماء ذات السكواكب مُنصتاً الى ما كان يسمعه من أعمق أعماق قلبه وهو الرجل الامي الفطري الصادق وذلك الصوت هو صوت الحقيقة الأبدية الخارج من قلب الأشياء نفسها . انه كان يرى تلك الأشياء الجارية في عصره على غير استقامة وقد كان هو لا يطبق غير الحق والحق الذي لا جدال فيه . وكان لا يقدر أن يعيش الا في علم الحقيقة وكان يرى أن كل ما حوله من الأحوال لم يكن بحق . فالحياة التي عليها قريش لم تكن حياة صحيحة : متمولون يعيشون بقوافل للتجارة ويربحون أرباحاً فاحشة ، وبوادٍ يشنون الغارات ولا يعرفون الا القوضى ، وأفأقون يفعلون كل ما ينخطر ببالم ، وكل هؤلاء لا يحيون حياة صحيحة ، وينسون أن الأصنام المصفوفة في الكعبة ليست الا معبودات باطلة وان الهبل ذا اللحية الكبيرة لم يكن الا باطلا . »

ثم قال في صفحة ٨٠ : « لم يكن محمد عن لا يعرف العالم الباطني نعم لم يكن متصوفاً بالمعنى المعروف ، الا أنه كان ممن يرى أن الأمور التي في الغيب أعظم من الأمور التي تحت الحس وان المشهود أدنى درجة من المحجوب . فالنظام الروحي في نظره هو الأهم وهو الوجود الحقيقي ، فمحمد قد قبض على هذه الحقيقة بيده ونادى الخلق ليتمسكوا بها . جاء بقلب خالي من كل كذب ، ومن كل ثقافة باطلة ، ومن كل نخفخة فارغة وأمسك بكلمات يديه بالعروة الوثقى ، ولا يمنع هذا من أنه كان عملياً تام المعرفة بأحوال العالم المادي بل كان ذلك التجرد الروحي أعون له على ادارة أمور الدنيا وهكذا كان كبار الروحيين في العالم يتغلبون على العالم المشهود بالعالم غير المشهود . » اهـ

فأنت ترى أن هذا الرجل الكاثوليكي لم يتهم محمداً بريبة ، ولا حل دعايته الى الله على مارب دنوي ، ولا رماه بشيء من الأكاذيب التي طالمرأه بها كثير من الاوربيين عن بفض وعماية قلب أو جهل ونقص اطلاع . نعم هو غير معتقد بصحة كثير من الأحاديث حتى الوارد منها في الصحيحين . وهذا مشرب من المشارب الفكرية لا تقدر أن تؤاخذ

عليه لا سيما ان كثيرين من المسلمين ومن ذوى الحمية الاسلامية وامن لا ينقصهم شيء من الإيمان والايقان يشاركون المسيو « درمنفهم » في هذا الرأى ، ولا يجعلون المعجزات شرطاً في التصديق بنبوة محمد ﷺ الذى معجزته الكبرى القرآن . وكذلك لا يرون من الواجب الدينى الإيمان بكل ما جاء فى الصحيحين وغيرها من الأحاديث لاحتمال أن يكون تطرق اليها التبديل والتغيير أو دخلها الزيادة والنقصان ، اذ من المعلوم أنهم كانوا يروون الأحاديث بالمعنى . واذا روى الحديث بالمعنى لم يخلُ الأمر من أن تنطرق اليه زيادات كثيرة قد يتغير بها المعنى أو يبعد عن أصله . واذا قلنا ان رجال الحديث الذى يروى عنهم البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، كانوا بمن يوثق بروايتهم وامن لا يخالج الناس الشك فى صدقهم وان المحدثين غربلوا الأحاديث كلها وأبثوا منها ما رأوه ضعيفاً ، وقوفاً ما رأوا أسانيد مستوفية لشروط الصحة ، وعوغلوا على هذا الضرب من الحديث ، وجاء الفقهاء فأخذوا منه الشريعة ، وجعلوه مرجعاً للاجتهد ، وانهم كانوا أبصر بأحاديث الرسول من أن يبنوا على غير أساس متين . فالجواب على ذلك أنه ايس كلام هذه الفئة هو اطلاق القول على جميع الأحاديث ولا مقصدهم الاشباه فيها بأسرها بل هناك أحاديث متواترة يستحيل التواطؤ على وضعها وأحاديث مشهورة وصلت من توثيق الرواة وتصحيح العلماء وقيام الأدلة والقرائن من الأحاديث الأخرى والأحوال الجارية يومئذ على صحة وقوعها الى حد أن أصبحت كالحقائق الرياضية مما لا خلاف فيه . ولكن الأداة التى تستظهر بها هذه الفئة على وجوب عدم القطع بأكثر الأحاديث ولزوم التوقف فى كثير مما يسارع الناس فيه ، هى ما يلى :

أولاً — عدم امكان رواية الأحاديث الا للنادر الأندر بدون زيادة أو نقصان مما يعرفه كل انسان من نفسه وذلك أنه ان أراد أن يهيد كلاماً سمعه ولو بعد سماعه اياه بساعة من الزمن تعذر عليه سرده بحرفه .

ثانياً — ~~كثير منهم يقولون ان~~ ما لا يكاد يحصى من الأحاديث مروى بالمعنى . فيتغير فيه كثير من ~~الاحاديث~~ .

ثالثاً — ~~جواز التساهل والتفريط~~ مما لا يخلو منه انسان ولا يمكن الجدال فيه أصلاً .
رابعاً — كون النبي ﷺ نفسه أشرف الى وضع الأحاديث عليه فى أيامه وانه من أوثق

الأحاديث قوله : لقد كثرت عليّ الكذابة ، فمن كذب عليّ فلينبأ مقعده من النار .

خامساً — مما رواه عبدالله بن الزبير عن أبيه قال : قلت للزبير مالك لاتحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان قال : اما اني لم أفارقه منذ أسلمت ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كذب عليّ فلينبأ مقعده من النار . والقرينة فائتة على صحة رواية عبد الله بن الزبير هذه لأن الزبير كان من أكابر الصحابة ومن العشرة ولم يحدث . وعن السائب بن يزيد أنه سحّب سعد بن أبي وقاص من المدينة الى مكة قال : فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ حديثاً حتى رجع . وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد : أنهم دخلوا على سعد بن أبي وقاص فسئل عن شيء فاستعجم فقال : اني أخاف أن أحدثكم واحداً فتزيدوا عليه المائة . وسعد أيضاً من العشرة ومن أكابر الصحابة ولم يحدث . فالقرينة اذاً تؤيد هذه الرواية عنه . وروى عمرو بن ميمون قال : اختلفت الى عبد الله بن مسعود سنة ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ﷺ ولا يقول فيها : قال رسول الله ﷺ . الا أنه حدث ذات يوم بحديث جرى على لسانه : قال رسول الله ﷺ فعلاه الكرب حتى رأيت العرق يتحدر عن جبهته ثم قال : ان شاء الله اما فوق ذلك واما قريب من ذلك واما دون ذلك . وعن علقمة بن قيس : أن عبد الله بن مسعود كان يقوم قائماً كل عشية خيس فما سمعته في عشية منها يقول : قال رسول الله غير مرة واحدة قال : فنظرت اليه وهو معتمد على عصا فنظرت الى العصا تززع . وجاء في طبقات ابن سعد رواية عن مسروق : أنه حدث يوماً حديثاً فقال سمعت رسول الله ﷺ ثم أردد وأرعدت نياحه ثم قال : أو نحوذا وشبه ذا . قلت وكل هذا ناشئ عما يملون من كثرة تطرق التفسير الى الأحاديث وعن تورعهم عن الزيادة فيها أو النقصان منها مهما كان الزائد أو الناقص قليلا .

سادساً — جاء في طبقات ابن سعد عن معمر بن الزهري : أراد عمر أن يكتب السنن فاستخار الله شهراً ثم أصبح وقد عزم له فقال : ذكرت قوماً كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه وتركوا كتاب الله . وورد في الطبقات خبر آخر : سئل عمر عن شيء فقال : لولا أني أكره أن أزيد في الحديث أو أتقص منه لحدثكم به .



ورى الامام السيوطى فى تاريخ الخلفاء نقلاً عن الامام النووى أن كل مارواه أبو بكر

الصديق عن رسول الله ﷺ من الأحاديث مائة حديث واثنتان وأربعون حديثاً . قال وقد روى عن أبي بكر أكبر الصحابة عمر وعثمان وعلي وابن عوف وابن مسعود وحذيفة وابن عمر وابن الزبير وابن عمرو وابن عباس وأنس وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وأبو هريرة وعقبة بن الحارث وعبد الرحمن ابنه وزيد بن أرقم وعبد الله بن مغفل وعقبة ابن عامر الجهني وعمران بن حصين وأبو برزة الأسلمي وأبو سعيد الخدري وأبو موسى الأشعري الخ

قلت وهو شيخ أصحاب رسول الله وأكثرهم له ملازمة وليس فيهم من يفوته في الثقة والأمانة وكان رضى الله عنه نسبة عصره وأخبر الناس بأمور القبائل وكل هذا يقتضى قوة الحفظ . فان كان الصديق لم يحدث كثيراً فلا شك في أن ذلك لم يكن الا من خوفه من الزيادة والنقصان . ثم نقل السيوطي في تاريخ الخلفاء الأحاديث المائة والاثنتين والأربعين التي رواها أبو بكر بعينها .

وقال ابن خلدون في المقدمة ان الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الاكثار والاقلال من الحديث فأبو حنيفة رضى الله تعالى عنه يقال بلغت روايته الى سبعة عشر حديثاً أو نحوها ومالك رحمه الله انما صح عنده ما في الموطأ وغايتها ثلاثمائة حديث أو نحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده حسون ألف حديث ولكل ما أداه اليه اجتهاده في ذلك . قال : وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين أن منهم كان قليل البضاعة في الحديث فلماذا قلت روايته . قال : ولا سبيل الى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها وانما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترض فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم في الأكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ويكثر ذلك فنقل روايته (الى أن قال) : والامام أبو حنيفة انما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني اذا عارضها الفعل النفسى وقلت من أجلها روايته فقل حديثه لأنه ترك رواية الحديث متعمداً خاشاه من ذلك وبدل على أنه

من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً وقبولاً. اهـ

- *** -

وبعض الجهلاء أو المتعنتين من غير الجهلاء يعميون على علماء الاسلام كثرة الاعتناء بأسانيد حديث الرسول وغيره ، والاستقصاء في العنقة والعزو الى فلان عن فلان والمبالغة في البحث عن رجال الحديث الذين وصل الى الناس من طرقهم وغير ذلك مما يمل منه القارى بزعمهم وكان بعضه يجزى عن كله . وهذا القول مردود بتأمله لما في الحديث من الأهمية من حيث انه منسوب الى النبي ﷺ أو الى أصحابه الكرام ، ومن حيث انه هو مناط التشريع والمرجع بعد القرآن في الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام ، فهما بالغ العلماء في التحرى للوصول الى الحقيقة من جهة صحة صدور الحديث عن صاحب الرسالة عليه السلام فلا يكون كثيراً . بل قد رأينا أن العلماء قالوا في الحديث انه « علم انطبخ ، حتى احترق » وانه لم يشتغل طلبة العلم في الاسلام بشيء أكثر من اشتغالهم بالحديث وان التحرى واستيفاء شروط الثقة قد بلغا فيه الدرجة التي ليس وراءها مطمع لمزيد ، ولا يزال مع ذلك الشك يحوم حول أحاديث كثيرة واردة في الصحاح . وهذا الشك ليس من جهة عدم الأمانة في النقل . وقد احتاط لها أصحاب هذه الكتب لاسيما البخارى ومسلم ، بما ينفي كل شبهة ، وانما من جهة عدم استطاعة البشر الا ما ندر من رواية كل يسمعون بحرفه أو من وصف كل حلالة كانوا فيها كما وقعت بلا زيادة ولا نقصان . وقد يكون اثنان في حلالة من الحوادث وروياها كل واحد منهما بشكل مختلف قليلاً أو كثيراً عن الآخر .

ولما كان التحرى معروفاً أيضاً عند الاوربيين ، وكانوا مولعين بما يسمونه «التمحيص» critique وكانوا يذهبون من هذا التمحيص كل مذهب حتى في المسائل التي لا تتعاقبها عقائد ولا أحكام ولا معرفة حلال ولا حرام كان من العجب أن يعترض الماترضون وأكثرهم من المتفرجة على مبالغة المسلمين في نخل الأحاديث .

ولقد اطلعنا منذ سنتين على مبحث لعالم أوربى في جريدة « جورنال دو جنيف » يذكر فيه كتاباً اسمه «شهود» Témoins من تأليف عالم فرنسى اسمه الميسو «جان نورتون كرو» Jean Norton Cru ألقه على وقائع الحرب العامة وتحرى فيه الى أقصى درجات التحرى

وانتهى بعد التنقيب الطويل الى تقسيم الروايات الى ما قسمها علماء المسلمين من ثابت وحسن وضعيف وساقط وكان تأليف هذا الرجل نتيحة نخله ثلاثمائة مجلد لمائتين وخسين مؤلفاً من أمم وطبقات مختلفة . وفي هذه المؤلفات جرائد وكتب تدكارية وكتب ملاحظات ورسائل وأفاصيص وكلها من أقلام أناس شهدوا بالعيان من جنود وضباط وقواد

فالمسيو « كرو » لم يحكم على هذه التأليف بمجرد الاطلاع عليها بل راجع تراجم أصحابها وسيرهم الشخصية واجتهد أن يعرف مقدار مدة اقامتهم بساحة الحرب وأن يعلم صفتهم المدنية أو العسكرية . وهذا فيه شبه من علم الرجال الذي هو من العلوم اللازمة للحديث في الاسلام . ثم لم يقتصر على هذا بل قارن بين الروايات وتحري في معرفة المواقع ابرى هل تنطبق عليها أم لا ؟ وما درجة انطباقها ؟ وهل هذه المقارنات والمعارض بكل ما فيها من التدقيق تنتهي الى القول بنفي الحوادث المستثناة التي جاءت على خلاف القاعدة . وعد كل مالم ينخل بهذا المنخل غير واقع ؟ فالجواب على ذلك ان هذا أيضاً محل للسؤال

ولقد عنى المسيو « كرو » في مقدمة كتابه بنفي الأخبار الواهية والتصورات الباطلة التي انتشرت عن حوادث كثيرة من الحرب

وبعد ان نخل جميع الروايات نخلاً دقيقاً استخلص قواعد مقررة طبقتها على الحوادث تطبيقاً جازماً — أشبه بالشروط التي يضعها رجال الحديث للحديث فاذا استكملت فيه جزموا بصحته — وكانت خلاصة تدقيقاته أن قسم المائتين والخمسين مؤلفاً الى ست درجات . فالدرجة السادسة هي التي ليست لها أدنى قيمة تاريخية — أشبه بدرجة الحديث الموضوع — والدرجة الخامسة هي التي لها قيمة ضئيلة جداً — أشبه بالحديث الواهي المتناهي في اللين والدرجة الرابعة هي الضعيفة . ومن هذه الدرجة أكثر الواصفين لحوادث الحرب وهم نحو ٢٦ في المائة من اولئك الذين غر بل المسيو كرو كتاباتهم . أما الدرجة الثالثة فهي التي يقال انها حسنة — كالحديث الحسن — وأما الدرجة الثانية فهي التي تضاهي درجة الصحيح في علم الحديث . وأما الدرجة الأولى فهي التي تقابل الحديث المشهور . والثانية منها ١٩ في المائة والأولى ١٢ في المائة . وهو يعبر بالفرنسية عن الدرجة السادسة بقوله aucune valeur documentaire وعن الدرجة الخامسة Très faible وعن الدرجة الرابعة Médiocre وعن الدرجة الثالثة Assez bon وعن الدرجة الثانية bon وعن الدرجة الأولى excellent

ولا يوجد مانع من أن يكون اطلع « كرو » على تقسيم المسلمين للحديث ففسج على منوالهم وان كان هو لم يذكر ذلك .

قال « كرو » ان رواج الكتاب وشهرته وبراعة كتابته لادمخل لها في درجة صحته . ولهذا عنده كتاب مشاهير كتبوا عن الحرب مثل « رينه بنيامين » في الدرجة السادسة لانه ليس المقصود هو سحر البيان بل صحة الرواية . وقد وضع « باربوس » و « دو هاميل » و « دورجليس » في الدرجة الرابعة . وبعكس ذلك عنده من الدرجة الأولى ٢٩ مؤلفاً أسماؤهم مجهولة عند الجمهور بل مجهولة عند المتخصصين . وكلام كرو هذا صحيح لا غبار عليه

قال صاحب مقالة « جورنال دو جنيف » على هذا الكتاب : انه وان كان المسيوكرو قد استخلص من تدقيقاته وجوب الحذر ومزيد التثبت في نقل الأخبار فقد دنا على الطريقة الوحيدة الموثوق بها في الأخبار

قلت : وهذه الطريقة هي الطريقة الاسلامية ليس في أحاديث الرسول والصحابة فقط بل في جميع أجليدهم ، وأخبارهم ، وتواريخهم وانما أتقنها المسلمون الى حد أن أصبح الناس يملونها ملهم من العمليات الحسابية ولم يبلغ منها الا فرنج شيئاً من درجة الاتقان التي عند المسلمين فيها .

وربما كان تأليف المسيوكرو هذا فذاً في بابه .

فمن هذا لا يكون عجباً أن لا يتلقى رجل أجنبي عن الاسلام جميع ماورد في الصحاح بالقبول . ولتعد الى سيرة الرسول عليه السلام حسبما وصفها هذا المفكر المسيحي الذي مذهبه التقريب بين الاسلام والنصرانية ، واثبات ما بينهما من الصلات الكثيرة . وهو مذهب حسن ومشرب محمود ، وان كان هو فيه يركب بعض الأوقات مركباً صعباً . قال في صفحة ٦٥ ماملخصه : —

« في نواحي سنة ٦١٠ للمسيح بلغ البحران النفسى بمحمد أشده ، فكان لا يقدر أن يتصور بدون أن يتألم حالة قومه وكان يرى ان أمراً ضرورياً جداً ينقصه وينقص قومه . وكان يرى العرب كل قبيلة منهم عاكفة على صنمها وكانوا يقولون بالجن ، والاشباح ، والغيلان ، ولكنهم يتعمون عن الحقيقة الواحدة وهي الحقيقة الالهية . ربما لم يكونوا ينكرون هذه الحقيقة ولكنهم كانوا في غفلة عنها ، وكانت هذه الغفلة هي الموت الروحي .

فكان قلب محمد قد خلا من كل فكر غير الفكر في الله . وكان قد تجرد من كل قوة غير هذه القوة . وكان قد نفى جميع الكائنات التي ليست في نظره بظل للواجب الوجود الأحد الصمد . وكان هو قد عرف الله وعرف العقيدة بالله عند نصارى سورية أو مكة ، وعرف ان هناك كتباً سماوية وأن رسلاً موحى اليهم كانوا يكلمون أقوامهم بلسان الحق تعالى ، وانه كلما ضل الناس عن الصراط المستقيم كانت تأتي رسل فتھيب بهم اليه وتذكهم بالحقيقة السرمدية . فالديانة التي كان يبعث الله بها الرسل لم تزل واحدة وإنما كان البشر يحرفونها عن مواضعها فيعود المرسلون ويردونها الى أصلها . فالأمة العربية كانت لذلك المهدي في ابان ضلالها أفلم يكن هذا هو الوقت الذي حانت فيه رحمة البارئ تعالى أن تدارك هذه الأمة ؟

وأحب محمد في تلك الفترة العزلة ، فكان يشعر في خلوته بجبل حراء بسرور عميق يتزايد يوماً بيوماً ، فكان يقضى هناك الأسابيع وليس معه الا قليل من الغذاء لأن نفسه كانت تلتذ بالصوم والتهجد ، وترتاح الى التأمل والتبصر ، وأصبح سوءاً عند الليل والنهار والحلم واليقظة . وكان يقضى ساعاتٍ طوالاً جاتياً على ركبته في جوف الليل أو مضطجعا في عين الشمس ، وأحياناً يمضى في شعاب تلك الجبال وبينما كان يسير كان يسمع أصواتاً خرجة من تلك الصخور وكانت تلك الصخور تناديه « يا رسول الله »

وعندما كان يعود الى بيته كانت خديجة تغمّ لما تراه عليه من حالة الاضطراب والصمت . وكان يغيب أحياناً عن حسه ويصيبه سكات وينقطع نفسه ولا يزال حتى يأخذه الوبس فيهجم ثم يعود وقد تصاعدت أنفاسه فيرى فيها رى التأم شخصاً ملاً الأفق فوق رأسه ، ودنا منه وفتح له ذراعيه يريد أن يمسه فيستيقظ محمد مذعوراً والعرق يتصب منه . فتأخذ خديجة بمسح جبينه وتساله عن حاله بصوت هادئ لثلاً تدعره فلا يجيبها أو يجيبها بكلمات لا تفهمها

ويقى نحووا من ستة أشهر على هذه الحالة الى أن ضنى جسمه ، وصار يتخلّج في مشيه ، وانتشر شعره ، وتغير نظره ومنظره ، فاستولى عليه الجزع . وخشى أن يكون أصابه مس ، وصارت تجرى على لسانه كلمات بدون اختيلر كان يخشى أن تكون من الشعر الذي يوسوس به الجن وكان هو بفطرته يكره الشعراء الذين في كل واد يهيمون

ويقولون مالا يفعلون. وأخيراً قال خديجة : انى أخاف أن يكون بي مس ، وقد صرت لا أقدر
 أن أحمل هذا العبء ، وانى أرى نفسى كأنى بي لئماً ومن كان يظن انى سأصبح شاعراً
 أو يستولى على الجن . لا تقولى هذا لأحد أصلاً .

وكانت خديجة تنتظر هذه النجوى بأمل وبوجل . وما كانت تقدر أن تطمئن قلبه
 وهى نفسها فى قلق عليه . ولكن هذه المرأة كانت كأنها قد خلقت لتؤيده ، ولتشرى
 عنه من همومه ، وكانت فيها مائة الحلائل الفاضلات والأهيات الملامى بالحنان ، فقد كان
 هذا الرجل أفتى منها سناً فعمطت عليه بكل مافى قلبها من الحب والرحمة ، وازداد حنوها
 عليه لأنها رأته بهذه الحلة من الضعف والمزال ، بعد أن كان ذلك الرجل القوى وذلك الزوج
 الحبيب . فكيف يمكنها أن تتأخر عن تثبيت فؤاده بكل مايمكنها فقالت له :

يا أبا القاسم ! أنت أنت الأمين كما سماك الناس ؟ أنت بالرجل الصادق المخلص المعتمد
 عليه . انك أنت الذى لم تفسد أحداً فلا يمكن ان الله يتخلى عنك . أفلم تكن أنت الرجل
 الصالح الصابر البرّ الكريم . أفلم تكن رءوفاً بأهلك ؟ أفلم تطعم المسكين ؟ وتكسر العريان
 وتضع ابن السبيل وتحم الضعيف ؟ انه لن يدعك الله عرضة لوسوس الشياطين الكاذبين
 ولا للجن اللاعين . فقال لها : اذن من هذا المخلوق الذى جاءنى ولا يزال يظهر لى ، من
 ذا الذى لا يقول لى اسمه ولا أقدر أن أتولرى منه ؟

وبينا كان يقول لها هذه الكلمات اشتد به البحران وارتجف ، وعلت وجهه الحرة ،
 ثم عقبها الصفرة وسمع بأذانه دوياء واتسعت أحداقه وقال : هذا هو قد جاء
 وكان حينئذ مستيقظاً ولم يكن نائماً ليقال ان ذلك حلم من الأحلام . فجاءت خديجة
 وغطته بكساءها وضمتها اليها وسألته أفلا تزال ترى ؟ فقال لها : لم أعد أرى

اذن هو ليس هذا من الجن الخبيث ولا من الشياطين . أفلا تراه احتشم طهارة
 النساء وذهب . اذن ليس الاملكا من ملائكة الله

ثم جاء شهر رمضان وتكامل الهلال ونأق ثم أخذ يتراجع . فى احدى الليالى بينا
 كان محبداً نائماً فى أحد كهوف حراء ، عاد فتجلى عليه ذلك الشبح وفى يده قطعة من الحرير
 عليها كتابة ، وقال له ذلك الشخص : اقرأ . فأجاب : لست بقارئ فالتى الشبح نفسه عليه
 ووضع له قطعة الحرير حول عنقه ثم أعاد عليه القول : اقرأ . فأجاب لست بقارئ ، فأعلاها

عليه نائمة اقرأ : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »

فردد محمد هذه الكلمات وأحس بالنور قد أنشرق على قلبه ورأى قطعة الحرير المطاة بالاشارات أمام عينيه ، ورغم أنه كان أمياً رأى نفسه يفهم تلك الكتابة وقُدُف في رُوعه بمجموع كتاب ملائِن بالأسرار الالهية . وكان هذا الملك قد ثبت كل ما كان يجول في أفكاره منذ أشهر فأنه تعالى قد خلق الانسان وأوحى اليه حقائق تتجاوز مسافة عقله الطبيعي . لذلك الله قد علم الانسان بالقلم وعلمه ما لم يعلم . هذا هو سرّ الوحي وهذا هو سرّ الكلمة المكتوبة الذي كان شديد التأثير في الرجل الأمي ، لا سيما وقد كانت الكلمة المكتوبة وحياً إلهياً إذ أن العرب سيكون لهم بعد اليهود والنصارى كتاب مقدس يقرأونه ، ترتيباً وشرعية الالهية تهديهم الى طريق النجاح

ثم ذهب ذلك الشبح الذي تجلى على محمد فاستيقظ وهو موقن بان كتابا قد كتب في قلبه نخرج من الغار يجري بين الشعاب ، ووصل الى ذروة الجبل فسمع صوتاً من السماء يقول له : « أنت رسول الله » فرفع محمد عينيه فاذا الملك في الأفق بصورة بشرية وهو يتلأأ نوراً خفول وجهه فبقى يرى المنظر نفسه وكان كيف توجه يرى الملك أمامه مائلاً مُتلاًئاً الى حد أنه أصبح يرى الملك أمامه دائماً ينظر اليه ويحدق فيه ببصره . فوقع الرعب في قلب محمد وجنا على الأرض ووضع يديه على رأسه وغاب عن حواسه . وكانت خديجة قد استبطأت رجوع زوجها الذي كان ذهب وما معه الا زاد قليل فأرسلت في أثره أحد عبيدها فبحث في الجبل ونادى هنا وهناك ولم يجد أحداً وعاد فأخبرها فازدادت قلقاً . وبينما هي على تلك الحالة اذ دخل محمد وعلى وجهه علامة الاعياء ، ونظره غريب وأتوابه متشعبة ، وبدون أن يتكلم بكلمة واحدة رمى نفسه في حجر خديجة واضطجع على ركبتيها أشبه بالولد الذي يمسّه الجهد فسألته خديجة : أين كنت يا أبا القاسم فقد أرسلت في أثرك ووصلوا الى الجبل فلم يجدوك . فأخبرها بكل ما وقع معه وأفضى اليها برُعبه واضطرابه وشكوكه . فقالت له : قسماً بمن نفس خديجة بيده اني لأرجو ان تكون أنت رسول الله . فأنه لا يسمح بان تكون أنت على ضلال . أفلم تكن برأً وفيأ صادقاً تقياً واصلاً للرحم ، مؤثلاً للضعفاء ، محسناً للفقراء ، قارياً للضيوف ؟ كلا ان الله لن يخذلك . فأصابت محمداً رعدة وعاوده

الرب . وقال لها : بادري بتغطيتي وكرري عليها القول فألقت عليه كساء من الصوف غطى جميع جسمه . وما زالت بجانبه الى أن أخذته النوم . فعند ذلك ذهبت خديجة الى ابن عمها ورقة ، وكان يعرف كتب اليهود والنصارى ويعلم الحكمة ويمكنه أن يُرسل من حبرتها . وكانت خديجة تحب بطها حباً جاً وتؤمن به : ولكنها شاهدت هذه المرة شيئاً عجباً حير عقلها . فلما أخبرت ورقة هتف قائلاً : ان كان ما قلته صدقاً فمحمد سيكون نبي هذه الأمة . وهو لا شك الرسول المنتظر ، وان الملك الذي تجلى عليه هو الناموس الأكبر ، وهو الذي كان يبعث الله الى موسى وهو الذي بواسطته يوحى الله الى الأنبياء . ثم قال ورقة لخديجة : ثم ماذا قال الملك لمحمد ؟ أمره بان يبلغ دعوته ، أشار اليه بتبليغ رسالة مبيّنة ؟ أتلقى اليه أن يدعوا الناس الى الله ؟ فانتى أود أن أعرف ذلك حتى أكون أول من آمن بمحمد . اذهبي الى زوجك وسكتي فؤاده وأزيلي مخاوفه .

فرجعت خديجة الى بيتها فرأت محمداً لا يزال هاجعاً ففكرته على حاله واذا به يرتجف عوداً على بدء والعرق يتصب منه ثم جلس وهو يضطرب ، وكان الملك قد جاءه ثانية فقال له : قم . فقال محمد : قت فأصنع ماذا ؟ قال الملك : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتَّبَايَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْبِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » . فقالت له خديجة لماذا لا تضطجع وتسترجح ؟ فقال لها محمد : قد ذهب النوم وذهبت الراحة وقد عاد الملك وهو يأمرني أن أدعو البشر الى الله وأن أعبده . فمن أدعو ياترى ومن يؤمن بي ؟ ثم حتى رأسه حزينا وسكت . فقالت له خديجة : ان لم يؤمن بك أحد آمنت بك وحدي

وبعد ذلك عدة ذهب محمد الى الكعبة فصادف ورقة يطوف فسأله ورقة عما جرى معه فأخبره بالقصة كلها فما آمها حتى هتف ورقة قائلاً : « والذي نفسى بيده أنت رسول هذه الأمة وما جاءك الا الناموس الذي جاء من قبل الى موسى ، انتى سأكون معك وأخذ بيدك فيما سيحل بك من النوائب وسأنصرك على قومك »

فقال له محمد : وماذا تريد أن تقول بهذا ؟ فقال له ورقة : نعم لم يأت أحد بما أثبت به الا عودي ، فسيفاتلونك قتلاً شديداً ، وسيفرؤونك ، وسيقولون انك مجنون وانك

كذاب . آه لو كنت في ذلك الوقت شاباً أو لو كنت أحياناً الى ذلك الحين ! ثم أخذ رأس محمد وقبله وسكن من روعه .

وكان محمد محتاجاً الى جمع قواه ، وكان يجاهد نفسه قبل أن يحتاج الى مجاهدة الناس . وكان الوحي قد انقطع ولم تتجدد معه تلك الرؤية التي رآها فوقع في حيرة عظيمة ، وصار يحدث نفسه : أفتراني كنت في حلم ! وثقلت عليه هذه الحالة جداً فرجع الى جبل حراء يريد أن يعلم هل تعاوده تلك الرؤية التي رآها قبلاً أم لا ! واشتد عليه الأمر جداً وصار يرى نفسه خلاء بعد أن كانت ملاء . فأخذ يهيم في الجبال وجعلت تتقاذفه أمواج الريب وهو لا يرى منفذاً مما كان فيه الى أن تمنى الموت . ولكن بينما هو في أقصى درجات الشدة يكاد يقذف بنفسه في مهاوى الجبل ، اذ سمع صوتاً يقول له : أنت رسول الله حقاً ، فالتفت فاذا بالملك يسكه أن يقع وقد تكرر عليه هذا الصوت مراراً فعاد الى بيته فأخبر خديجة بما رآه وسمعه . فأخنت خديجة ثبث فؤاده . ثم بعد ذلك بمدة جاءه الملك فتلاً عليه « وَالضُّحَى وَالْبَيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »

فما كان أعظم تلك البشرى لتلك النفس التي لم تكن تستطيع أن تعيش الا في اليقين . فلم تكن حلاوة تلك التعزية بما نزل عليه من لطف الوحي هي المؤثر الأكبر فيه وانما كان زوال الحيرة وتحقق المصير . لقد أمر بأن يحدث بالنعمة فهو سيحدث بها . ولقد أوحى اليه الملك الصلاة والعبادة وأفهمه أن الانسان لأجل أن يصل الى الله تعالى يجب أن يكون طاهراً الخ



وأكمل « درمنفهم » قصة مبدأ الاسلام على الوجه الذي يعلم منه القاري أنه لم يشك في أن محمداً كان صادقاً وانه لم يتحمله عرض من شك في آخر الأمر بزول الملك عليه والوحي اليه .

ولتقابل مقاله بروايات أصحاب السير ، فنجد ابن سعد في الطبقات الكبرى يذكر أنه نزل الملك على رسول الله عليه السلام بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان

ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة . وكان أول ما بدى به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . فكث على ذلك ما شاء الله وحبب اليه الخلوة فلم يكن شيء أحب اليه منها . وكان يتخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى يخاف الحق وهو في غار حراء . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان باجساد اذ رأى ملكاً واضعاً احدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح يا محمد أنا جبريل يا محمد أنا جبريل . فدعّر رسول الله من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه الى السماء ، فرجع الى خديجة فأخبرها خبره وقال : يا خديجة والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيء قط ولا الكهّان ، واني لأخشى أن أكون كاهناً . قالت : كلا يا ابن عمّ لا تقل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبداً انك تصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة وان خلقك اسكريم . ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهي أول مرّة أته فأخبرته ما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة : والله ان ابن عمك صادق وان هذا لبدء نبوة وانه لياتيه الناموس الأكبر فرّيه أن لا يجعل في نفسه الا خيراً . وقالوا ان رسول الله قال : يا خديجة انى أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً . فقالت : ان الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله انك تصدق الحديث وتؤدى الأمانة وتصل الرحم . ويسند آخر عن ابن عباس : يا خديجة انى أسمع صوتاً وأرى ضوءاً واني أخشى أن يكون فيّ جنّ . فقالت : لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله . ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك فقال : ان يك صادقاً فهذا ناموس مثل ناموس موسى . فان بعث وأنا حى فساّ عززه وأنصره وأومن به .

وقالوا ان أول ما أنزل على النبي عليه السلام : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » . قالوا : وانه لما نزل عليه الوحي بحراء مكث أياماً لا يرى جبريل فخرن حزناً شديداً حتى كان يغدو الى نير مرة والى حراء أخرى ، يريد أن يلتقى نفسه منه ، فيينا رسول الله كذلك عامداً لبعض تلك الجبال اذ سمع صوتاً من السماء فوقه صخفاً للصوت ، ثم رفع رأسه فاذا جبريل على كرسي بين السماء والأرض متربعا عليه يقول : يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل . فانصرف رسول الله وقد أقرّ الله عينه وربط جأشه ثم تتابع الوحي وحى . وقالوا انه سمع :

يا محمد لتنم عينك وتسمع أذنك وليع قلبك . قال النبي ﷺ : فنامت عيني ووعي قلبي
وسمعت أذني . وكان النبي إذا نزل عليه الوحي كرب له وتربّد وجهه . وقيل : كان إذا
أوحى اليه وقد لذلك ساعة كهيئة السكران وروى عن رسول الله ﷺ : كان الوحي يأتيني
على نحوين يأتيني به جبريل فيلقبه عليّ كما يلقي الرجل على الرجل فذلك يتفلّت مني
ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخاطب قلبي فذاك الذي لا يتفلّت مني . وسأله الحارث
ابن هشام : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس
وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي
ما يقول . قالت عائشة : لقد رأيت يهزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان
جبينه يتفصد عرفاً . وقال ابن الأثير : قالت عائشة رضی الله عنها كان أول ما ابتدئ به
رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح ثم حجب اليه الخلاء
فكان بغار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع الى أهله فيتزود لثلثها حتى يخافه
الحق فأتاه جبريل فقال : يا محمد أنت رسول الله فقال رسول الله ﷺ : جئت لركبتي ثم
رجعت ترجف بوادري فدخلت على خديجة فقلت : زملوني زملوني . ثم ذهب عني الزرع .
ثم أتاني فقال : يا محمد أنت رسول الله فلقد هممت أن أطرح نفسي من حلق قنبداء لي حين
همت بذلك فقال : يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله . قال : اقرأ . قلت : وما اقرأ . قال :
فأخذني فغطني^(١) ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق .
فقرأت فأتيت خديجة فقلت : لقد أشفقت على نفسي وأخبرتني خبري فقالت : أبشر
فوالله لا يخزيك الله أبداً فوالله انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة
وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت بي الى ورقة بن
نوفل وهو ابن عمها وكان قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل
فقال : اسمع من ابن أخيك . فسألني فأخبرته خبري فقال : هذا التاموس الذي أنزل على
موسى ابن عمران إيتني حياً حين يخرجك قومك قلت : أمخرجني هم ؟ قال : نعم انه
لم يجيء أحد بمثل ما جئت به الاعودى ولئن أدركني يومك لأنصرتك نصراً مؤزراً . ثم
ان أول ما نزل عليه من القرآن بعد اقرأ ، ن والقلم وما يسطرون ، وبأهنا المدثر ، والضحى .
وقالت خديجة لرسول الله فيما أكرمه الله به من نبوته : يا ابن عم أنت تخبرني

(١) غنه منه شديداً حتى يكاد يخنقه

بصاحبك هذا الذي يأتيك اذا جلهك؟ قال: نعم. فجاءه جبريل فأعلمها. فقالت: قم فاجلس على نخدي اليسرى فقام ﷺ فجلس عليها فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحوّل فاقعد على نخدي اليمنى. فجلس عليها فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. فتحسرت فألقت خاها ورسول الله ﷺ في حجرها. قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت: يا ابن عم ائب وأبشر فوالله انه ملك وما هو بشيطان هـ

يتأمل القارئ في شهادة خديجة لرسول الله بصدق الحديث وتأدية الامانة وسائر مكالم الأخلاق وتواتر ذلك عنها وهي أعلم الناس به وأقربهم اليه وطالما اعترف مؤرخوا الافرنج المنصفون بأن هذا من أوضح الدلائل على صدق محمد وأماته.

ثم نعود الى كلام « درمنغم » فهو يقول ان محمداً لم يعتمد في نبوته على المعجزات وكانوا يقولون له: ان كنت نبياً فأعمل لنا من خوارق العادات ما هو كذا وكذا، فكان يجيبهم ان رسلا كثيرين جلهوا بالمعجزات وكذبهم البشر، وأنهما جئتكم بالمعجزات فلن تؤمنوا مادامت قلوبكم قاسية، وما معجزتي الا القرآن الذي هو موسى الى رجل أمي وما تقدر الانس ولا الجن أن تأتي بمثله.

ثم هاجم محمد الأصنام التي كان يعبدها العرب كالهبل، ومناة، واللات والعزى، وهزأ بها وعن يعتقد بها وبصنم العجين التي كانت تعبده بنو حنيفة وتأمنه اذا جاءت، وبالأنصاب والأزلام، ونهى عنها وعن الفسق والفجور والقسوة والطمع والربا وأحدث انقلاباً في المجتمع الجاهلي الى آخر ما ذكره عن مبادئ الاسلام.

وانا لذا كرون بعض ما جاء به هذا الكتاب المسيحي الكاثوليكي من الملاحظات التي تستحق الاعتبار وتدل على انصاف صاحبها للاسلام. فقد ذكر ما جاء في القرآن من وصف النعيم وما في الجنة من الأشجار والمياه الصافية والفاكهة، وأنهار العسل واللبن، والخور العين قاصرات الطرف اللاتي لم يطمسهن انس ولا جان الى غير ذلك فمقب على هذا بقوله: ان الناس يأخذون هذه الأوصاف على ظاهرها وعلماء الاسلام، عدا بعض المتصوفة، لا يفرقون بين جنة آدم والجنة التي وعد الله بها الأبرار. ولا يزال هذا الأمر أيضاً غير موضح في المسيحية نفسها. ولا يجب أن يؤخذ من هذا أنه لا يوجد في الاسلام من يعتقد بكون هذه

الأوصاف انما هي اشارات ورموز ، وكذلك لا يؤخذ منه أن جميع ملاذ الآخرة هي حسيّة فقد جاء في القرآن ما يفيد أن أفضل النعيم هو مغفرة الله لآثام البشر ثم سلام الله وصلواته على المتقين والوجود في الحضرة الالهية . وقد قال محمد كما قال القديس بولس : ان الله قد أعدّ لعباده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد جاء في القرآن :
(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا)

ذكرنا هذه الملاحظة من ملاحظات هذا الرجل المسيحي لأن كثيراً من قومه يعيبن القرآن في الوعد الذي فيه لمتقين بالذات الحسية ، وينسون أن الخلق لا يفهمون غيرها وان أمور الآخرة مع ذلك ليست من أمور هذه الدنيا . وينسون ما في القرآن من الآيات الدالة على أن أعظم النعيم هو رضا الله (ورضوانٌ من الله أكبر) وان رؤية الحق تعالى هي مما وعد به أهل الجنة .

وقد ذكر ملاحظة أخرى وهي أن القرآن أذن المسلمين في الزواج بالمسيحيات وان هذا كما قال الشيخ عبده من علامات الاغواء ، وان في الاسلام مبادئ كثيرة قد اعتقدت بها النصرانية منها خروج آدم من الجنة لكونه عصى أمر ربه في الأكل من الثمرة المنوعة . وكذلك قضية سقوط ابليس الذي استكبر أن يسجد لآدم في عقيدة الاسلام مماثلها في النصرانية سقوط الشيطان الذي أبى أن يعتقد بالكلمة المتجسدة . ومما اتفقت فيه العقيدتان رسالة نوح و ابراهيم وموسى والأنبياء والكتب المقدسة والملائكة والمسيح والدجال واليوم الآخر والبعث والحشر والحساب . وترى الاسلام في هذه كلها أقرب الى النصرانية منه الى اليهودية .

قال وبين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين مشابهة شديدة في تحمّل الاضطهاد وفي حب الموت لاجل الدين أى الاستشهاد .

قال : أما القول بأن الاسلام يتضمن كالنصرانية عقيدة التجسّد والغذاء والحبل بلا دنس الخ . فهذا فيه نظر . الا أنه مما لامشاحة فيه أن القرآن يقول بمسيحية عيسى وولادته من بطن عنراء بدون أب ورسالاته ومعجزاته وصعوده الى السماء والانخارستيا أى سر القران المقدس اذ فيه سورة المائدة .

قلنا ليس التشابه واقعاً بين ما يقوله النصراني — الا البروتانت — في سر القران

المقدس واستحالة الخبز بمجرد التقديس الذي يقدمه القيس الى جسد الرب، واستحالة الخمر الى دمه فعلاً لا رمزاً، وبين قول القرآن في المائدة . والذي قاله تعالى في المائدة هو هذا : « إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » فانت ترى أن استحالة الخبز والخمر الى جسد الرب ودمه ليس لها أثر هنا . وان كان المقام مقام مائدة . ولعل بعض الصوفية ينظرون الى هذه المائدة لا بمعناها الظاهر بل بالمعنى المجازي .

ثم يقول « درمنغهم » ان القرآن يطهر مريم تطهيراً عظيماً من كل دنس . قلت : نعم قال الله تعالى « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) . ويقول ان لعيسى عليه السلام مكاناً مستثنى في القرآن ذلك بأنه مولود على غير الأحوال البشرية المعتادة ، وانه رسول الله الوحيد الذي في القرآن يخاطب الحق ويجاوبه ، وانه كلمة الله الحية وليس بمجرد واسطة للرسالة . قلنا : ان حكم عيسى بن مريم عليه السلام في القرآن ظاهر لا يحتمل التأويل ، وهو أنه خلقه الله مباشرة على غير المعتاد من ولادة البشر ولكنه رسول الله وعبد من عبدة الله لا يزيد على ذلك وكونه كلمة الله وروحاً من افه غير نافع عبوديته لله الواحد الذي لا اله غيره قال الله تعالى « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكُنِيَ بِأَبْنِ اللَّهِ وَكَيْلَانِ يَسْتَنكِفُ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَخَشْنَاهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا »

ثم يقول « در منغم » ان تأييد روح القدس لعيسى عليه السلام ليس مجرد تأييد ظاهر قاصر على تبليغ الشريعة مؤيدة بالمعجزات كما جرى لموسى عليه السلام ، ولا بالانجيليات العليا والعلوم اللدنية كما جرى لمحمد عليه السلام ، وانما هو تأييد تام تنزه به عيسى عن الخطأ على حين ان محمداً لم يدع لنفسه العصمة

والذى نعلمه ان الاسلام يعصم الأنبياء جميعاً عن الكبائر وهذا لا يمنهم من ان يستغفروا الله بكرة وأصيلاً . وقد كان محمد ﷺ من أكثرهم عبادة واستغفاراً وكان يصلى حتى ترم رجلاه .

ثم يقول « در منغم » ان القرآن يقول في المسيح ماتقول الكنيسة ، أى انه كلمة الله وروح الله نزل في بطن مريم كما أنه بشر تام البشرية . وانما ينتقد التجسد والتثليث على ما كانوا يعتقدون يومئذٍ بهما ، وبحسبها كان يقول المبتدعة — وفي الأصل الهرطقة — ولا يستطيع المسيحي الا أن يوافق على مايقول القرآن من أنه كبر مقتاً عند الله القول بثلاثة مؤلف منها الاله ، مريم والمسيح والله : (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله) فلقد كانت في الشرق تحلّ تعبد مريم عبادة حقيقية وقد روى القديس ايبانوس ان الكولوريديين Collyridiennes كانوا يقدمون خبزاً لمريم على سبيل العبادة ثم يأكلونه

اننا ذكرنا قول « در منغم » هذا لا لتوافقه فيه جميعه بل لتبين ان القرآن لم يخطئ فيما جاء فيه من الاشارة الى عبادة مريم بل الذين خطأوا القرآن في ذلك مخطئون . فقد وجبت تحلّ تعبدها في القديم ولا تزال في أيامنا هذه يصلى لها صلوات خاصة بها وكيف تكون العبادة غير هذا ؟ والاله هو المعبود . هذا معناه بالعربية . فقوله تعالى : (أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين) يعني : أنت قلت للناس اتخذوني وأمي معبودين

ثم يزعم « دو منغم » أن قول المسلمين بان القرآن غير مخلوق هو كقول المسيحيين ان المسيح كلمة الله موجود من الأزل ، قال وقد كان القديس يوحنا الدمشقي يقول : اذا قلت ان الكلمة وروح الله هما غير مخلوقين فنحن معكم على وفاق . وان قلت انهما مخلوقان أفتريدان أن تقولوا الله كان وقت من الأوقات كان الله فيه بدون كلمة وبدون روح ؟ وهنا بدون أن ندخل في هذا البحث الطويل العريض الذى ربما لايتهى وبدون

أن نذكر قول المسلمين ما خلا المعتزلة بعدم خلق القرآن ، وقول النصارى بكون الكلمة هي من الأزل وأنها هي المسيح ، نكتفي بأن نقول ان قوله تعالى ان عيسى عليه السلام هو من روح الله معناه أنه آية من آيات الله وان الله أوجده رأساً بلا أب وان قوله « كلمة الله » معناه انه وجد بكلمة التكوين « كن » وفي هذا فرق كبير عما يعتقد المسيحيون من أزلية الكلمة ومن ثمة بأزلية المسيح^(١) وكيف نطبق أزلية المسيح على قوله تعالى : « قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا » وقوله تعالى : « إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقد حاول « درمنغهم » أن يوفق بين الدياتين في عقائد كثيرة الى أن وصل الى قضية الصلب فقال انها أشدُّها اشكالا ، وذلك أن الاسلام التاريخي لا يعرف سر الفداء . وربما لم يجد حاجة للكلام على الفداء لانه موجود في الانجيل والانجيل مصدق بالقرآن .

وعلى كل حال لا ينظر الاسلام الى المسيح كخُلص للبشر بدمه ولا يعرف قضية الحب الالهي لخلقه الى حد أن يبعث الله ابنه الوحيد لخلاصهم فان الاسلام يريد أن ينزه الالهية تزيها عظيماً ويجعل الله باثنا عن خلقه الا أنه بهذا وقع في التجريد التام وفاته ذلك المبدأ العظيم في النصرانية وهو « ان الله محبة »

فالمسلمون لا يقرون أن يعتقدوا ان الله الذي يحب المسيح يتركه يصلب ، كما ان اليهود لا يقرون ان يفهموا المسيح الا ملكاً أرضياً فاتحاً . على ان القرآن يقول ان من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً وهذا فيه ما يشير الى قول بولس الرسول وهو « انه بخطينه واحد قد عمّ الذنب الجميع كذلك بكفارة واحد يتطهر الجميع وتحصل الطهارة التي هي مصدر الحياة »

نقول ان كل هذه المباحث اذا أخذ بها الانسان لا تنتهي وكتابنا هذا كتاب تاريخ لا مشار جدل وحبنا أن نسرده أقوال الفرق المختلفة مع الملاحظات الضرورية فقط فلا نستطيع هنا أن نستخرج من قوله تعالى : « أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِفَيْرٍ نَفْسٍ أَوْ قَتَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا » الدليل

(١) راجع في هذا البحث كتب المتكلمين والمفسرين ولا سيما تفسير النار لجمعية الاسلام وأستاذ مصر السيد رشيد رضا

الذي حاول «درمنغهم» استخراجيه . بل معنى هذه الآية صريح وهو مبدأ العدل التام الشامل فقتل نفس بغير حق هو قتل لجميع العالم بغير حق . وهذا امرٌ بديهى لا جدال فيه لأن النفس هنا تمثل النوع الانسانى . وكذلك من أحيأ نفساً فكأفأ أحيأ الناس جميعاً لأنه يكون قرر الحياة لا للفرد بل للجمع ، وهذا الاحياء هو باجراء العدل التام الشامل وهو من باب (ولكم فى القصاص حياة) وليست هذه المسئلة فى شئ مما قاله بولس الرسول الذى يقول بما يسميه المسيحيون بالخطيئة الاصلية أى معصية آدم الشامل وزرها لجميع أبنائهم ، مما استلزم ارسال الله ابنه الى الأرض وصلبه فداء لأبناء آدم ، وتخليصاً لهم من تبعة معصية ارتكبها أبوهم . نعم هذا ركن العقيدة المسيحية ، لكنه لا يلتزم أصلاً مع عقيدة الاسلام التى لا يؤاخذ فيها انسان الا بذنبه ، ولا يسرى وزره لا من والد الى ولد ولا من ولد الى والد ولا من أخ الى أخ (ولا ترز وازرة وزر أخرى) فالعقيدتان متباينتان أشد التباين

ثم يقول «درمنغهم» ان الاسلام ينبنى موت المسيح مصلوباً مهيناً بل يقول ان الله قد دفعه اليه ولم يبق فى أيدي اليهود الا شجراً أو شجراً آخر شبهة بالمسيح . يقول : فهذه العقيدة التى هى مستغرقة عقلاً وتاريخاً ، وهادمة لأجل قصة معروفة فى العالم ، والتي بحسبها تكون النصرانية مبنية على وهم من الأوهام ، مستفادة من آية قرآنية متشابهة هى هذه :

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »

قال : فالمعنى الحقيقى الوحيد لهذه الآية التى تثبت قيامة المسيح أكثر مما تنكر موته ، وتعنى برفعه اليه ، وفاته هو ان الله قد ضلل كيد اليهود وان عيسى لم يقع فى أيديهم بل خرج منها مؤيداً منصوراً . وهذا هو عين ما تقولوه النصرانية فان اليهود بحسب قول النصرى ، قد أرادوا قتل المسيح وهدم عمله ، وينا يظنون أنفسهم قضوا عليه اذا به قد عاد فعاش ، وما كان عملهم الا انفاذاً لمشيئة الله وما قصدوا الا الشر فكان من عملهم هذا نجات العالم .

قال «درمنغهم» : فقول القرآن « وَاكُنْ شِدَّةَ لَهُمْ » يذكّرنا بأقوال العهد الجديد

وبواس الرسول عن حمل الله المكفّر عن سيّات البشر وعن آدم الجديد الذى جاء بدل القديم . فاذا فكرنا فى أن المصحف الخالى تاريخه من زمن عثمان والحجاج ، وان سائر المصاحف قد أبطلت ، وان المصحف نفسه لم يكن فيه شكل ولا نقط ، فيقرأ منه كثير على وجهين أمكننا أن نساءل هل هذه الآية القرآنية المنقوضة بآيات أخرى والتي تؤكد موت المسيح وقيامته وصعوده الى السماء بدون تصريح بعدم وقوع الموت والقيامة الى الآن ومع تعليق ذلك باليوم الآخر هي كافية لحفر هذه الهوة العميقة بين ملتين كل شئ ما عدا هذه العقيدة جامع موحد بينهما ؟ ان « درمنهم » لا يراها كافية

ثم قال : بل اتناو فرضنا وجوب أخذ هذه الآية على ظاهرها ، فلا مانع من ذلك بحسب عقيدة الكنيسة نفسها ، لأن آباء الكنيسة ما زالوا يقولون انه لبس ابن الله هو الذى صلبه اليهود وأماتوه على الصليب ، وانما الطبيعة البشرية التى فى المسيح . وهكذا لا يكون اليهود قتلوا كلمة الله الأبدية ، ولكن يكونون قتلوا الرجل الذى يشبهها واللحم والدم المتجسدين فى بطن مريم .

قال فلا يكون القرآن فيما قاله بشأن الصلب الا مؤيداً لعقيدة الكنيسة الكبرى ، وهى أن فى المسيح طبيعتين الهية وبشرية ، وان القتل وقع على الطبيعة البشرية فقط وان المسيح سينزل عند قرب الساعة وغير ذلك ، وما كان رد القرآن هذا الاعلى أقوال الهرطقة مبتدعة النصارى الذين كانت مذاهبهم منتشرة وأقوالهم شائعة حتى فى جزيرة العرب ، الى (أن يقول) : ان أحد آباء الكنيسة من أهل القرن الخامس قال : ان جزيرة العرب كانت مجعاً للبدع المسيحية فكان فيها السابليون Sabellians والدوسيتيون Docetes الذين كانوا ينكرون الطبيعة البشرية فى المسيح ويقولون ان جسده لم يكن الا شعباً محضاً ، والارويستيون الذين كانوا ينكرون ألوهيته ، والايثوخيون واليعاقبة الذين كانوا ينكرون وجود الطبيعتين فيه ، والنساطرة الذين كانوا يرون فيه شخصين ، والمريميون والكلويريديون Collyridians الذين كانوا يعبدون مريم العنراء وأضداد المريميين الذين كانوا ينكرون بكارتها الدائمة الخ . وكانت جميع هذه الفرق فى نزاع دائم وكما يقول المثل الحبشى : « لم يتفق النصارى على شئ الا على ولادة المسيح » .

ولا يريد أن نفرغ من هذه المسئلة بدون أن نعلق بعض الملاحظات على ما قاله « درمنهم » فيها فأماً ذهابه الى أن مراد القرآن بآية الكريمة (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) انما هو وقوع القتل على الجسد فقط ، وان الله بعد ذلك رفعه اليه ، فان له وجهاً وجيباً لا سيما وان آية أخرى (اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعتك الى مطهرتك من الذين كفروا) تعزّز هذا الرأى وان كان جمهور أهل الاسلام على أن القتل لم يقع لإعلى الروح ولا على الجسد وان الذى قتل انما هو رجل آخر وان قوله تعالى (انى متوفيك) هو من توفاه الله أى استوفى مدة أجله فى الدنيا .

ومن الناس من يرى أن الصلب وقع ، ولكن الموت على الصليب لم يقع ، وان المسيح قد أُنزل عن الصليب وهو حى ودفن فى المغارة ، على أنه مات وهو لم يكن مات ، فلذلك عند ما جن الليل خرج من المغارة وذهب ، ثم بعد أيام جاء وتلاقى مع الحواريين . ولكن الذين يرون هذا الرأى يخالفون الاسلام والنصرانية معاً . أما الاسلام فلكون القرآن لم ينف القتل فقط بل نفي الصلب أيضاً ، ولأن الاسلام يثبت أن الله رفع المسيح اليه ونجّاه من اليهود . وأما النصرانية فلا تُمدّ مدارها كلها على موت المسيح مصلوباً فداءً عن البشر . فان لم يكن مات مصلوباً انهدمت العقيدة المسيحية كلها . وجواب من يرى هذا الرأى أن آية (وما قتلوه وما صلبوه) لا تنفى الصلب نفسه بل تنفى الموت على الصليب ، وان قوله تعالى (وما صلبوه) أشبه بأن تكون توكيداً لقوله تعالى (وما قتلوه) لأن المقصود ليس نفي رفعه على الخشبة وانما نفي موته عليها ، وان الأظهر أن يكون رفعه على الخشبة ساعات ، ثم أُنزل عنها وهو حى ، وأخذ الى المغارة ووضع فيها ، وذلك على هيئة أنه مات وانه دفن . والحقيقة أنه لما أُنزل عن الخشبة لم يكن مات وانما شبه الموت لليهود وشبه لهم الدفن وان المسيح بعد أن جن الليل خرج فى جوف الليل ومضى الى حيث توارى مدة من الزمن ثم عاد فظهر للتلاميذ وتعثّى معهم العشاء السرى .

والذين يرجحون هذا الرأى يخالفون عقيدة النصرانية ورواية الأناجيل لكنهم لا يرون رأيهم مخالفاً للاسلام . وذلك لأنهم يقولون ان قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) معناه وما قتلوه مصلوباً . وإس بنافٍ أن يكون رفعه على الصليب موقفاً تشبيهاً على اليهود

الذين كانوا يطلبون جزماً قتل المسيح . وكذلك خروجه من المغارة ليلاً واختفاؤه عن
العيان ليسا بما ينفي رفعه الى السماء بعد ذلك .

وأدلة هؤلاء على هذا الرأي هي :

أولاً ان بيلاطس البنطي كان قد حاول انقاذ المسيح بكل جهده هو وامرأته وانه
أخذتهما عليه شفقة زائدة ، ولكن لما اشتد صخب اليهود طالين قتله اضطر أن يأمر
بصلبه وهو مكره ، فيجوز أن يكون أوصى قائد المائة بأن يعلق عيسى عليه السلام على
الصليب الى أن يكون أظلم الوقت فينزله ويجعله في المغارة على أنه ميت ويشير اليه بأن يفر
من المغارة ليلاً ، ويذهب الى حيث لا يعلم به اليهود . وهكذا يكون أنقذه من الموت
ولكن مع اتهام اليهود أنه قتله .

ثانياً — ان الصلب وقع نهار الجمعة بحيث انه في مساء ذلك النهار يدخل السبت ويقر
اليهود في بيوتهم فيسهل على الذي تولى قضية الصلب أن يوارى عيسى في المغارة ويسهل
له النجاة بدون أن يشعر اليهود .

ثالثاً — ان من العادة في المصاوين أن تكسر أرجلهم تعجيلاً لموتهم اذا طال نزعمهم
وقد ثبت أن القائد الذي عهد اليه بصلب عيسى لم يكسر له رجله مع أنه كسر أرجل
المصاوين الآخرين الذين صلب عليه السلام بينهما . فعدم تكسير رجلي عيسى عليه
السلام دليل على نية استحياؤه .

رابعاً — ان الصلب كان سبة كبيرة عند اليهود يفدون بها بكل تمكن ولذلك جاء أناس
من محبي عيسى وبذلوا كل جهدهم لدى بيلاطس لمنع صلبه مثل يوسف حارميتحايم ومثل
نيقوديموس ومن هؤلاء من رافقوه الى مكان الصلب وهم الذين أنزلوا الجثة بحسب رواية
الصلب فلو لم يكن لهم أمل في انقاذه لم يرافقوه الى هناك .

خامساً — انهم لما جاءوا الى المغارة نهار الأحد وجدوا الحجر مدرجاً ولم يجدوا
جثة المسيح بل وجدوا ثيابه . فان قيل ان تدحرج الحجر وخروج المسيح من القبر لا
ينفيان كون المسيح قد مات لأن المسيح عليه الصلاة والسلام قد قام من الموت بعد أن صلب
ومات ودفن وهذه هي العقيدة المسيحية وعند ما قام في اليوم الثالث خرج من القبر ودحرج

الحجر ، فيرد على هذا أن النسي يقوم من الموت بمعجزة يمكنه أن يخرج من القبر بدون فتح القبر ولا دحرجة الحجر ، ولا سيما إذا كان قد صعد الى السماء ، والصعود هنا بالروح لا بالجسد .

سادساً — ان وجود الثياب في القبر دليل على أنه قد نزع ثياب الدم التي كانت عليه عند الصلب ، وانه جيء اليه بثياب نظيفة وخرج بها عندما خرج ، والا فما معنى وجود الثياب الملوثة بالدم في القبر بعد فقد الجنة ، فان قيل يصعد بها الى السماء فيجانب بأن الصعود الى السماء انما هو بالروح فليس يحتاج الى تبديل ثياب وما وجود الثياب الا علامة على تبديلها ، وما تبديلها الا علامة على أن المسيح خرج من القبر ايلاً بجسده وتوارى عن أعين اليهود ، وذلك بصورة ليس فيها معجزات ولا خوارق عادات

سابعاً . . ان وضع المسيح عليه السلام في مغارة ، بدلاً من دفنه في ضريح تحت الأرض . وهيل التراب عليه هو من جملة الأدلة على ارادة بيلاطس عدم قتله لأنهم لو كانوا دفنوه في خد تحت الأرض لما أمكن بقاءه في الحياة ، وأما دفنه في غار فليس الا تجنبة الى أن يكون أطم المليل

ثامناً . . ان اجتماعه بالتلاميذ بعد الصلب دليل على أنه لم يكن مات وان قيل انه مات ثم عاش كما هي العقيدة المسيحية فنحن انما نتكلم الآن عن رأى فئة لا تريد أن تتابع العقيدة بما يصحبها من المعجزات وانما تنظر في الحادثة الى المعقول والطبيعي بدون معجزات ولا خوارق عادات . فهذه الفئة ترى أن المسيح صلوات الله عليه قد اجتمع بالتلاميذ بعد حادثة الصلب وانما أكل معهم وان توما اشبه فيه وطلب منه علامة على كونه هو المسيح الذي صلب ولما كان يعلم أنه كانت في صدره طعنة حربة سألها عنها فأطلععه المسيح عليها ووضع توما فيها اصبعه حتى تحققها . وهذه الفئة ترى من هذا الاجتماع أن الموت على الصليب لم يقع وان « التشبيه » الذي في القرآن في آية (ولكن شبه لهم) لم يكن بقتل شخص آخر يشبه المسيح وانما هو تشبيه الصلب الذي جرى بالموت بحيث يسكت اليهود الذين حكم مجلسهم الروماني على عيسى بالقتل صلباً وكانوا يأبون الانفاذ هذا الحكم . نفيل لهم الرومانيون أنهم قتلوه والحقيقة أنهم لم يقتلوه بل رفعوه على الخشبة وعند الساعة الرابعة بعد الظهر أنزلوه عنها ودفنوه المغارة حيا . وكان اليهود دخلوا في السبت فلم يعملوا بشيء

وبعد أن بدّل المسيح في المغارة ثيابه خرج منها ليلاً وذهب متوارياً ويوم الأحد وجد الناس المغارة خالية وجد المسيح عليه السلام مفقوداً ، والحجر متدحرجاً ، وليس هناك غير الثياب الملتصقة بالدم . فذهب جماعة من اليهود الى ييلاطس وشكوا اليه الالهام الذي وقع في هذا الأمر وقالوا له ان الشائع هو كون النصارى جماعة عيسى قد أخذوا جسده ايلاً ومنهم من قال له : بل الشائع كون قصة موته على الصليب غير صحيحة وانه أنزل عن الصليب حياً^(١) ووضع في القبر على صورة مدفون ، ثم في جوف الليل فرّ من المغارة . ومن جملة الروايات أنه بعد أن ظهر للتلاميذ وأكل معهم فارقهم الى حيث لم يرجع الى فلسطين ، وذلك خوفاً من أن تقبض عليه السلطة مرة ثانية وتصلبه وتقتله هذه المرة فعلاً لا تشبيهاً ومن فلسطين ذهب الى الهند أبعد ما يمكنه أن يبعد وانه في الهند ودفن في شمالي الهند حيث له الآن هناك قبر زائر . وهذا القبر معروف من قديم الزمان وهذه الروايات هي مجرد حدس وتخمين يعززهما قرآن وأدلة في نظر من لا يعتقد بالمعجزات أو من يظن أن هذه الحادثة جرت مجرى طبيعياً لا معجزة فيه . فأما الذين يعتقدون بالمعجزات فانهم يحلون اشكالات هذه القصة كلها بالقدره الالهية . والنصارى يقولون انها حادثة مقدرة مقررة منذ الأزل وان النصرانية مبنية عليها .

وأما الذين كتبوا حياة يسوع مثل « رنان » وأمثاله ولم يكونوا يقولون بالوهيته ولا بمعجزاته ولا بتقررّ الفداء من الأزل فقد ذهبوا الى أن الصلب والموت على الصليب وقعا فعلاً ولكن القيامة من القبر لم تقع ووجود شاب لابس ملابس بيضاء في القبر يقول ان المسيح قام من الموت هذا لم يقع وإنما زعم التلاميذ ذلك من شدة تخيلهم وهيامهم في حب المسيح الى حد أنهم ظنوه نزل عليهم . وأكل معهم ، وان كل ما ورد من ذلك في الأناجيل لم يقع وإنما هو خيال في خيال حلمهم عليه الحب . وبالاختصار النصارى يقولون ان المسيح مات مصلوباً ودفن في المغارة وفي اليوم الثالث قام وصعد الى السماء ، وانه بعد قيامه تجلى للتلاميذ وتعمّس معهم وأمرهم بنشر دينه وودّعهم والمسلمون يقولون انه لم يكن هو المصلوب وإنما صلب شخص آخر عوضاً عنه ، وان الله رفعه اليه . وهناك رأي من الآراء هو أنه في قوله تعالى (وما قتلاه وما صلبوه) لا يقصد نفي القتل والصلب عن الجسد وإنما يقصد انهم ان

(١) اقرأ عن هذه المسئلة كتاب اميل لودفيغ الألماني المشهور في علم تراجم الرجال وذلك في آخر كتابه عن المسيح

كانوا قتلوا الجسد فلم يقدرُوا أن يقتلوا الروح وان الله رفع تلك الروح اليه . ورأى آخر انه رُفِع . على الصليب الى أن أقبل الظلام فأنزل الى القبر حيا ولكن بصورة ميت . وبعد أن أدخل المغارة جئى اليه بثياب فلبسها وترك الثياب المملوطة بالدم . وكانت مريم أم عيسى ومريم المجدلية وبعض نساء وبعض رجال لم يفارقوا يسوع منذ صلب الى أن خرج من المغارة فلأرجح أنهم هم الذين أتوه بالثياب ليبدلها ثم ان عيسى بعد ذلك بمدة قصيرة جاء واجتمع بتلاميذه وتعمش معهم ثم فارقهم وأبعد في الأرض خوفاً من الوقوع في يد الحكومة مرة ثانية وقيل انه ذهب الى الهند وتوفاه الله هناك. وهذا الرأي الأخير مخالف لرواية الاسلام والنصرانية معاً كما أن الرأي الذي قبله وهو الذى معناه أن قول القرآن (وما قتلوه وما صلبوه) لا ينفي موت جسد المسيح على الصليب وإنما يعنى روحه ويعنى عمله في الأرض هو الرأي الوحيد الذى يمكن به التوفيق بين عقيدتى الاسلام والمسيحية . وهو الرأي الذى يحاول تأييده « درمنغهم » لأنه رأى فيه التوفيق بين الديانتين في أهم ما اختلفتا فيه . وأحسن ما كتبه المسلمون في مسألة الصلب رسالة للعلامة السيد رشيد رضا صاحب المنار فمن شاء فليرجع اليها .

وقد ظهر في السنة الماضية كتاب عنوانه « لأجل فهم حياة يسوع » وفيه بحث تحليلي لانجيل مرقس ألّفه الاستاذ بروسبر الفاريك Prosper Alfariك المدرس بجامعة استراسبورغ ذهب فيه الاستاذ المذكور مذهب من يرى ان أكثر ماورد في الانجيل المذكور مطبّق عمداً على نبوءات سابقة في العهد القديم ، سواء كانت الحوادث المروية صحيحة أو غير صحيحة ، وذلك من قبيل الدعاية لا التاريخ . وقد اجتهد هذا المؤلف أن يظهر كل ما هناك من التناقضات تارةً ومن الأخبار المخالفة للطبيعة طوراً وذلك مثل ان الدنيا كلها أظلمت من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة أثناء احتضار السيد المسيح على الصليب . وانه انشق حجاب الهيكل وغير ذلك من الاخبار . ولكن هذا المؤلف هو بمن لا يشتبهون في موت المسيح على الصليب

وفي هذه السنة ظهر كتاب جديد اسمه « حياة يسوع » لسيو موريس غوغويل Goguel من علماء فرنسة توجّى فيه الرد على الدكتور كوشو Couchoud الافرنسي

وغيره من العناء الامان والانكليز والهولانديين الذين لم يجدوا في الاناجيل حقائق تاريخية
قابلة للتحصيل ، بل وجدوا فيها دعاية دينية محضة ، واتسها الى القول بان المسيح لم يوجد
أصلاً وانما كان رمزاً . فلميسو غوغويل يبين في كتابه مافي هذه الاقاويل من المبالغات ،
ويذهب الى أن وجود عيسى محقق ، وان الأخبار الواردة في الاناجيل يمكن ربط بعضها
ببعض وأخذ نتيجة تاريخية صحيحة منها . وهو يرى ان ادعاء ان المسيح رمز فيه من
المشكلات التاريخية أكثر من القول بأنه وجد بالفعل . نعم الميسو موريس غوغويل
يعتقد ان كثيراً من روايات الاناجيل غير واقعية بل هي مطبقة على التقاليد النصرانية
تطبيقاً لمجرد الدعاية أو بحسب الاعتقاد وان هذا في واد والتاريخ في واد . ورنان في كتابه
الشهير « حياة يسوع » يعترف بتطبيق بعض الروايات عمداً على النبوات السابقة الا أنه
يعتقد موت المسيح على الصليب كما يموت سائر الناس .

ثم اننا ملاحظة أخرى على قول « درمنهم » بشأن المصحف . وظننه ان هناك
مصاحف غير المصحف العثماني قد أبطلت اقلان كلاماً كهذا يدور كثيراً في كتب الأوربيين
ومنهم من يزعم ان المصحف تعاوره الحذف والتبديل ، وأن الخلفاء الراشدين زادوا فيه
ونقصوا كما أرادوا . وهم مطلقون العنان لخيالاتهم في هذا الموضوع بحسب عاداتهم ويحبطون
خطأ كثيراً كما هو دأبهم اذا تكلموا عن الشرق والاسلام . وإس بشئ مما يظنونه
بصحيح . وكل هذا امّا جهل بتاريخ القرآن واما تجاهل مقصود منهم فالقرآن كان محفوظاً
في صدور ألوف من الرجال وفي صدور عدد كبير جداً من الصحابة ممن يستحيل توطؤهم
على الكذب . ولما جرت حرب الردة في اليمامة استحرقت القتل في الصحابة ، رضوان الله
عليهم ، فجاء عمر الى أبي بكر وقال له ، ان القتل قد استحر يوم اليمامة باناس ، واني لأخشى
أن يستحر بالفراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن الا أن يجمعه واني لأرى ان
يجمع القرآن . فقال أبو بكر : كيف أفضل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر : هو
والله خير . قال أبو بكر : فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدرى ، فرأيت
للذي رأى عمر . قال زيد بن ثابت : وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : انك شب
عاقل ، ولا تهملك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتبّع القرآن فاجمه ، قال

زيد : فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ . فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتبعت القرآن اجتمع من الرقاع ، والاكتاف ، والعُصْبُ وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمية بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخرها فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضی الله عنها ، نقل هذا جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء ثم أردف ذلك بقوله : واخرج أبو يعلى عن عليّ قال : أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ان أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين وذكر أبو الفداء هذه القصة كما يأتي :

« ثم دخلت سنة ثلاثين وفيها بلغ عثمان ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق ، فانهم يقولون قرأنا أصح من قرآن أهل الشام ، لانا قرأنا على أبي موسى الأشعري وأهل الشام يقولون قرأنا أصح لانا قرأنا على المقداد بن الأسود ، وكذلك غيرهم من الأنصار . فأجمع رأيهم ورأى الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة أبي بكر رضی الله عنه . وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي ﷺ ، وتحرق ماسواه من المصاحف التي بأبدي الناس ، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلاً منها الى مصر من الأمصار ، وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام الخزومي ، وقال عثمان : ان اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان فريش فانما نزل القرآن بلسانهم »

ولقد رأينا أجمع ما كتب في هذا المقام كلام الاستاذ الكبير مفخرة العرب ، وحجة الأواخر على الأوائل في علو طبقة الانشاء ووفرة الأدب ، السيد مصطفى صادق الرافعي في كتابه « اعجاز القرآن » فانه جمع فأوعى وأصاب المحز وطبق المفصل وهاهوذا مقالته بجاحظي بيانه نأثره بحرفه قال :

« وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداءً من أنفسهم أو بأمر من النبي ﷺ ، فيخطونه على ما اتفق لهم يومئذ من العصب (١) والكرانيف (٢) واللحاف (٣)

(١) جمع عيب جريدة النخل كانوا يكشطون الخوص عنه ويكتبون في الطرف العريض

(٢) جمع كرافة بالكسر وبالضم وهي أصول السعف الغلاظ (٣) جمع لحفة وهي صفائح الحجارة

والرقاع ، وقطع الاديم ، وعظام الاكتاف والاضلاع من الشاة والابل ، وكل ما أصابوا من مثلها مما يصلح لفرضهم يكتب كلُّ منهم ما يسر له أو يسرته أحواله . ولكن مما ليس فيه ريب ان منهم قوماً جمعوا القرآن كله لذلك العهد، وقد اختلفوا في تعيينهم بيد انهم أجمعوا على نفر: منهم على بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود . وهؤلاء كانوا مادة هذا الأمر من بعد . فان للمصاحف التي اختلفت بالنقطة كانت ثلاثة : مصحف ابن مسعود ، ومصحف أبي ، ومصحف زيد ، وكلهم قرأ القرآن وعرضه على النبي ﷺ . فأما ابن مسعود فقرأ بمكة وعرض هناك . وأما أبي فانه قرأ بعد الهجرة وعرض في ذلك الوقت . وأما زيد فقرأه بعدها وكان عرضه متأخراً عن الجميع وهو آخر العرض اذا كان في سنة وفاته ﷺ ، وبقراءته كان يقرأ عليه الصلاة والسلام وكان يصل الى أن لحق بربه . ولذلك اختار المسلمون ما كان آخراً كما ستعرفه .

وأما على بن أبي طالب ، فقد ذكروا ان له مصحفاً جمع لما رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي ﷺ . وفي الفهرست لابن النديم انه رأى عند أبي يعلى حزة الحسيني مصحفاً بخط على يتوارثه بنو حسن . ونحن نحسب ذلك خبراً شيعياً لأنه غير شائع . . .

وقبض رسول الله ﷺ والقرآن في الصدور وفيما كتبه عليه ، ثم نهض أبو بكر بأمر الاسلام وكانت في مبدته حروب أهل الردة ، ومنها غزوة أهل اليمامة ، والمحاربون أكثرهم من الصحابة ومن القراء . فقتل في هذه الغزوة وحدها سبعون قارئاً من الصحابة (ويقال سبعمائة) وكان قد قتل منهم مثل هذا العدد بئر معونة (موضع قرب المدينة) في عهد النبي ﷺ . فقال ذلك عمر بن الخطاب ، فدخل على أبي بكر رحهما الله فقال : ان أصحاب رسول الله ﷺ باليمامة يتهاقنون تهافت الفراش في النار ، واني أخشى أن لا يشهدوا موطناً ألا فعلوا ذلك حتى يقتلوا وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن ويُنسى ولو جعلته وكتبته . فنفر منها أبو بكر ، وقال أفعل ما يفعل رسول الله ﷺ . فتراجعا في ذلك . ثم أرسل أبو بكر الى زيد بن ثابت . قال زيد : فدخلت عليه وعمر مسر بل فقال لي أبو بكر : ان هذا قد دعاني الى أمر فأبيت عليه وأنت كاتب الوحي فان تكن معي اتبعتكما وان توافقني لأفعل . فاقصص أبو بكر قول عمر وعمر ساكت ، فنفرت من ذلك وقلت يفعل

مالم يفعل رسول الله ﷺ الى أن قال عمر كُلمة : وما عليكما لو فعلتما ذلك . فذهبنا ننظر فقلنا : لاشيء والله ما علينا في ذلك شيء . قال زيد : فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأدم وكسر الاكتاف والعُسْب .

وهذا الذي فعله أبو بكر كأنما استحيا به طائفة من القراء الذين استحروهم القتل بعد ذلك في المواطن التي شهدوها لم يعد به ما وصفنا . ولذا بقي ما اكتتبه زيد نسخة واحدة وهو قد نتبع مافيها من الرقاع والعسب والمخاف ومن صدور الرجال وإنما اتسنته أبو بكر لأنه حافظ ، ولأنه من كتبة الوحي ، ثم لأنه صاحب العرصة الأخيرة ، وربما كان قد أعانه بغيره في الجمع والتتبع ، فإن في بعض الروايات أن سالم مولى أبي حذيفة كان أحد الجامعين بأمر أبي بكر . أما الكتابة فهي لزيد بالاجماع .

وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر ينتظر بها وقتها أن يمحن حتى اذا توفى سنة ١٣ صارت بعده الى عمر فكانت عنده حتى مات ، ثم كانت عند حفصة ابنته صديراً من ولاية عثمان . ويومئذ اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر فأخذ أهل مصر عن رجل من بقية القراء

فأهل دمشق وحصن أخنواعن المقداد بن الاسود . وأهل الكوفة عن ابن مسعود . وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري — وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب — وقرأ كثير من أهل الشام بقراءة أبي بن كعب ، وكانت وجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الاحرف التي نزل عليها كما سيمر بك ، فكان الذي يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الامصار اذا احتوتهم المجمع أو التقوا في المواطن على جهاد أعدائهم يعجب من ذلك أن تكون هذه الوجوه كلها على اختلاف ما بينها في كلام واحد . فاذا علم ان جميع القراءات مسندة الى رسول الله ﷺ وانه أجزأها ، لا يمتنع أن يعبك في صدره بعض الشك ، وان ينطوى منها على شيء اذا هو كان قد نشأ بعد زمن الدعوة وبعده أن اجتمع العرب على كلمة واحدة ، فلا يلبث أن يجرى ذلك الاختلاف مجرى مثله من سائر الكلام فيرى بعضه خيراً من بعضه ويظن منه الصريح ، والمدخل ، والعالى ، والنازل ، والافصح

والنصيح ، وأشبهه ذلك ويعتدّ ما رآه في القرآن من القرآن . وهذا أمره ان هو استفاض فيهم ثم مردوا عليه خرجوا منه ولا ريب الى المناقضة والملاحاة والى أن يردّ بعضهم على بعض هذا يقول : قرأتى وما أخذت به . وذلك يقول : بل قرأتى وما أنا عليه . وليس من وراء هذا اللجاج الاتفكير والتأنيب ولا جرم انها الفتنة لانفتاً بعد ذلك من دم .

واند نجت هذه الناشئة يومئذٍ فلما كانت غزوة ارمينية وغزوة أذر بيجان ، كان فيمن غزاهما مع أهل العراق حذيفة بن اليمان فرأى كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءة وانهم لا يجرون من ذلك على أصل في الفطرة اللغوية كما كان العرب يقرأون بلحونهم ورأى ما يبدر على ألسنتهم حين يأتي كل فريق منهم بما لم يسمع من غيره اذ يتأرون فيه حتى يكفّر بعضهم بعضاً ، ولم ير عندهم تكبيراً لذلك ولا اكباراً له بل كانوا قد ألقوه بين أنفسهم ، وصار من عادتهم وأمرهم . ففزع الى عثمان (بن عفان رضى الله عنه) فأخبره بالذى رأى . وكان عثمان قد رفع اليه ان شيئاً من ذلك يكون بين المسلمين الذين يقرءون الصبّية ويأخذونهم بحفظ القرآن ، فينشأون وبهم من الخلاف بعضهم على بعض . فأعظم ، رجه الله ، أمر هذه الفتنة وأكبره الصحابة جميعاً ، لأن الاختلاف في كتاب الله مدرجة الى مخالفة ما فيه ، ومتى أهملوا بعض معانيه لم يكن بدّ أن يتصرفوا ببعض أفاظه ، وانما هو اجترأ واحد فيوشك أن يكون من ذلك مساعٍ للتحريف والتبديل . فاجعوا أمرهم أن يتسخروا الصحف الاولى التي كانت عند أبي بكر وان يأخذوا الناس بها ويجمعوهم عليها حذار تلك الردة المشبهة ، واشفاقاً على الناس أن يصبروا كلما رُدّوا الى الفتنة أركسوا فيها . فأرسل عثمان الى حفصة فبعثت اليه بتلك الصحف ، ثم ارسل الى زيد بن ثابت ، والى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . فأمرهم أن ينسخوها في المصاحف . ثم قال للرهب القرشيين الثلاثة : ما اختلفتم فيه أتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فانه نزل بلسانهم .

وفي رواية أخرى عن زيد بن ثابت ان عثمان أمره أن يكتب له مصحفاً بعد أن رفع اليه أمر الاختلاف وقال : انى مدخل معك رجلاً ليلاً فصيحاً فاكتباه وما اختلفتما فيه فارفعاه الى جعل معهما ابان بن سعيد بن العاص . فلما بلغا في الكتابة قوله تعالى : (ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت) قال زيد : فقلت : التابوت . وقال ابان بن سعيد : التابوت .

فرفعنا ذلك الى عثمان فكتب : التابوت .

وفي رواية ثالثة لابن عساكر ان عثمان خطب في الناس يومئذٍ وعزم على كل رجل عنده شيء من كتاب الله لما جاء به فكان الرجل يجيء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ثم دعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم : أسمعتم رسول الله ﷺ وهو أملاء عليك فيقول : نعم . فلما فرغ من ذلك عثمان قال : من أكتب الناس ؟ قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت . قال : فأئى الناس أعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص . قال : فليمل سعيد . وليكتب زيد .

ونحسب أن اختلاف هذه الرواية وما جاء بمعناها من وجوه أخرى إنما بعث عليه تصور الرواة لابلغ ما يكون من صور الثقة في هذا الأمر حتى يحكموه من نواحيه كلها فانك لا ترى منها رواية الا وفيها مبالغة في التحرى ليست في الاخرى . والذي يخبر بمثل ذلك الخبر عن القرآن إنما يخبر بأمر شديد اذا هو لم يمكن فيه لموضع الثقة ولم يحصنه أشد التحصين حتى لا تجد الشبهة اليه سبيلاً . وظاهرانه من المحال أن تكون كل هذه الروايات هي الواقع قال زيد (في بعض الروايات عنه) : فلما فرغت عرضته عرضة فلم أجد فيه هذه الآية « **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** » قال فاستعرضت المهاجرين أسألم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم ، ثم استعرضت الأنصار أسألم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم حتى وجدتها عند خزيمه يعنى ابن ثابت فكتبتها . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه هاتين الآيتين : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم** » الى آخر السورة فاستعرضت المهاجرين فلم أجدها عند أحدٍ منهم ثم استعرضت الأنصار أسألم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم حتى وجدتها مع رجل آخر يدعى خزيمه أيضاً فأثبتها في آخر « **براءة** » . ولو تمت ثلاث آيات لجملتها سورة على حدة . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئاً . ثم أرسل عثمان الى حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة وحلف لها ليردنها اليها فأعطته فعرض المصحف عليها فلم يختلف في شيء فردها اليها وطابت نفسه وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف فلما مات حفصة أرسل الى عبد الله بن عمر في الصحيفة بعزمه فأعطاهم اياها ففصلت غسلاً .

قلنا وكلام زيد نص قاطع في أنه كان يحفظ القرآن كله لم يذهب عنه شيء منه إذ كان يعرض مافي المصحف على ماربط في صدره وثبت في حفظه ، ثم هو نص كذلك على أن زيدا كان لا يكتفي في نفسه بل يذهب يستعرض الناس حتى يجد من يؤدي اليه كيلا ينفرد هو بالحفظ خشية أن يكون موضع ظنة وان كان الصحابة رضى الله عنهم قد اجتمعوا على الثقة به فلم يثبت ما أثبتته الا بشاهدين أحدهما من حفظ غيره والآخر من حفظه

ثم بعث عثمان في كل أفق بمصحف من تلك المصاحف، وكانت سبعة في قول مشهور ، فأرسل منها الى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً وهو مصحفه الذي يسمى الأمام — الأصل في هذه التسمية ما جاء في بعض الروايات من أن عثمان لما بلغه اختلاف المعلمين في القرآن كما أوردناه آنفاً قال : عندي تكذبون به وتلحنون فيه فن نأى عنى كان أشد تكديباً وأكثر لحناً . يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس اماما — ثم أمر بما عدا ذلك من صحيفه أو مصحف أن يحرق ولم يجعل في عزيمته تلك رخصة سائفة لأحد وكان جمع عثمان في سنة ٢٥ للهجرة ، وانما أراد عثمان بذلك حسم مادة الاختلاف لأنه أمر يمد مع الزمن وتنشعب الأيام به وهو ان أمن في عصره لم يدر ما يكون بعد عصره . وقد أدرك ان العرب لا يستمرون عربا على الاختلاط والفتوح وان الألسنة تنتقل واللغات تختلف ثم هو رأى موقف في الشعر وروايته وان الاختلاف كان باباً الى الزيادة والابتداع فلم يفعل شيئاً أكثر من أنه حصن القرآن وأحكم الأسوار حوله ومنع الزمن أن يتطرق اليه بشيء وجعله بذلك فوق الزمن .

ولم تكن المصاحف التي كتبت قبل مصحف عثمان على هذا الترتيب المعروف في السور الى اليوم فانما هو ترتيب عثمان — وكان تقسيم المصحف ثلاثين جزءاً زمن الحجاج — أما في ما وراء ذلك فقد رووا أن رسول الله ﷺ كان اذا نزلت سورة دعا بعض من يكتب فقال ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا ، فكان القرآن مرتب الآيات غير أنه لم يكن مجموعاً بين دفتين ، فلا يؤمن أن يضطرب نسق مجموعه في أيدي الناس باضطراب القطع التي كتب فيها تقدماً وتأخيراً . ولم يلزم الناس القراءة يومئذ بتوالي السور وذلك ان الواحد منهم اذا حفظ سورة أو كتبها ثم خرج في سريته — هي عندهم من خمسة أنفس الى ثلاثمئة — وأوربعاته — فنزلت سورة أخرى فانه كان اذا رجع ياخذ في حفظ ما ينزل بعد

رجوعه وكتابه ويتبع ما فاتته على حسب ما تسهل له أ كثره أو أقله فمن ثم يقع في ما يكتبه تأخير المقدم وتقديم المؤخر . فلما جمعه أبو بكر برأى غمركتبه على ما وقفهم عليه رسول الله ﷺ ثم كانوا في أيام عمر يكتبون بعض المصاحف منسقة السور على ترتيب ابن مسعود وترتيب أبي بن كعب وكلاهما قد سرده ابن النديم في كتابه الفهرست . وقال ابن فارس ان السور في مصحف على كانت مرتبة على النزول فكان أوله سورة اقرأ باسم ربك ثم المدثر ثم نون ثم المنذر ثم تبت ثم التكوير وهكذا الى آخر المسكى والمدنى ولا حاجة بنا أن نتبع في استقصاء هذا الخلاف

أما ترتيب مصحف عثمان فهو نسق زيد بن ثابت وهو صاحب العرصة الأخيرة ولعله كان ترتيب مصحف أبي بكر أيضاً لما مر في الرواية عن زيد من أنه قابل بين الاثنين معارضة والله أعلم . ويرجح أن ترتيب زيد الذي نقرأ به اليوم هو مرضيه رسول الله ﷺ ما روى عن عوف بن مالك وعن حذيفة من أنه عليه الصلاة والسلام تهجد ذات ليلة فاستفتح فقراً في نافذته البقية وآل عمران والنساء والمائدة في أربع ركعات سورة سورة على هذا النسق وهو الذي عليه ترتيب زيد . وهذا الخبر يظهر بما ورد في معناه وانعقد به التصديق من أن ترتيب الآي إنما كان توقيفاً منه صلى الله عليه وسلم ومن قصص زيد عن نفسه في تلك الرواية تعلم انه كان يحفظ القرآن على ترتيبه آية فآية وسورة فسورة — ولم يكن بعد انتشار المصاحف العثمانية وانتساخها على هيئتها الا أن استوتفت الأمة على ذلك بالطاعة وأحرق كل امرئ ما كان عنده مما يخالفها ترتيباً أو قراءة وأطبق المسلمون على ذلك النسق وذلك الحرف ثم أقبلوا يحدون في اخراجها وانتساخها . ولقد روى المسعودي انه رفع من عسكر معاوية في واقعة صفين نحو من خمسمائة مصحف وهي الخدعة المشهورة التي أشار بها عمرو بن العاص في تلك الواقعة ولم يكن بين جمع عثمان الى يوم صفين الا سبع سنوات

وهنا أمر لا مذهب لنا دون التنبيه عليه وذلك أن جمع القرآن كان استقصاء لما كتب واستيعاباً لما في الصور فكانوا لا يقبلون الا بشهادة قد امتحنوها أو حلف قد تقوا من صاحبه والا بعد العرض على من جمعوا وعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الصحابة كانوا لا يحسنون التهجى ، وقد يكتبون غير ما يقرأون على وجه من وجوه الكتابة أو يكتبون بحرف من القراءات كالذي رواه ابن فارس بسنده عن هاني قال : كنت عند

عثمان رضى الله تعالى عنه وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة الى أبى بن كعب فيها « لم يتنن » و « أهل الكافرين » و « لا تبديل فى الخلق » قال فدعى بالدواة فمحي احدى اللامين وكتب « خلق الله » ومحي فأمهل وكتب « فهل » وكتب « لم يتسنه » ألحق فيها هاء والقراءة على هذا الرسم

فذهب بعض أهل الكلام ممن لا صناعة لهم الا الظن والتأويل واستخراج الأساليب الجدلية من كل حكم وكل قول الى جواز أن يكون قد سقط عنهم من القرآن شئ حلالاً على ما وصفوا من كيفية جمعه وهو باطل من الظن لما علمته من أنباء حَقَّظته الذين جمعوه وعرضوه ثم لما رأيت من تنبتهم فى ذلك حتى جعلت لهم الصحة من أطرافها ثم لاجماع الجيم الغنغير من الصحابة على أن ما بين دفئى المصحف هو الذى تلقوه عن رسول الله ﷺ لم يأت به الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا اقتطع منه الباطل شيئاً

ونحن فما رأينا روايات تختلف فى شئ من الأشياء فضل اختلاف وتنسبم فى الرد والتأويل كل طريق وعركما رأينا من أمرها فيما عدا نصوص الفاظ القرآن فان هذه الألفاظ متواترة اجاعاً لا يتدارأ فيها الرواة من علامتهم ومن نزل وانما كان ذلك لأن القرآن أصل هذا الدين وما اختلفوا فيه الا من بعد اتساع الفتن وتألب الأحداث وحين رجع بعض الناس من النفاق الى أشد من الأعرابية الأولى وراغ أكثرهم عن موقع اليقين من نفسه فاجترأوا على حدود الله وضربتهم الفتن والشبهات مقبلاً بمدبر ومدبراً بمقبيل فصار كل من نزع الى الخلاف يريد أن يجد من القرآن ما يختلف معه أو يختلف به وهيهات ذلك الا أن يتدسس فى الرواية بمكروه يكون معه التأويل والأباطيل والآ أن يفتح الكلمة السبئة ويبالغ فى الجمل على ذمته والعتف بها فى أشياء لا ترد الى الله ولا الى الرسول ولا يعرفها الذين يستنبطون من الحق بل لا يعرفون لها فى الحق وجهاً . ونحسب ان أكثر ذلك مما افترته الملحدة وتزيدت به الفتنة الغالية وهم فرق كثيرة يختلفون فيه بغيماً بينهم وكلهم يرجع الى القرآن بزعمه ويرى فيه حجته على مذهبه وينتسب على دعواه . ثم أهل الزيغ والعصبية لآرائهم فى الحق والباطل . ثم ضعاف الرواة ممن لا يميزون أو ممن تعارضهم الغفلة فى التمييز وذلك سواد كله ظلمت بعضها فوق بعض ومن لم يجعل الله له نوراً فاله من نور . وقد وردت روايات قليلة فى أشياء زعموا أنها كانت قرآناً ورفضت على أن رسول الله ﷺ كان

يقرر الأحكام عن ربه اذا لم ينزل بها قرآن لأن السنة كانت تأتي مأتاه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « أوتيت الكتاب ومثله معه » يعنى السنن

وعلى هذا الحديث يخرج في رأينا كل ما رووه مما حسبه كان قرآناً فرفع وبطلت تلاوته على قلة ذلك ان صح لانه يكون وحياً وليس كل وحى بقرآن . على أن ماورد من ذلك ورد معه اضطرابهم فيه وضعف وزنه في الرواية وأكبر ظننا أنها روايات متأخرة من محدثات الأمور وان في هذه المحدثات لما هو أشد منها وأجدى بشأته . ولو كان من تلك شئ* في العهد الأول لرويت معها أقوال أخرى للأئمة الأثبات الذين كان اليهم المفرع من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا يومئذ متوافرين وكلهم مُقرن لذلك قوى عليه وكانوا يعاملون أن المرء في القرآن كفر وردة وانكار بعضه انكاره بالجملة . وقد أجمعوا على ما في مصحف عثمان وأعطوه بذل السننهم في الشهادة أى قوتها وما استطاعت من تصديق . ونحن من جهتنا نمنع كل المنع ولا نعبأ أن يقال انه ذهب من القرآن شئ* وان تأولوا لذلك وتمحلوا وان أسندوا الرواية الى جبريل وميكائيل ونعتد ذلك من السوء الصلحاء التي لا يرحضها من جاء بها ولا يغسلها عن رأسه بعد قول الله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ولا يتوهم أحد أن نسبة بعض القول الى الصحابة نص في أن ذلك المقول صحيح البتة فان الصحابة غير معصومين وقد جاءت روايات صحيحة بما اخطأ فيه بعضهم من فهم أشياء من القرآن على عهد رسول الله ﷺ وذلك العهد هو ما هو ثم بما وهل عنه بعضهم مما تحدثوه من أحاديثه الشريفة فاخطأوا في فهم ماسمعوا ونقلنا في باب الرواية من تاريخ آداب العرب^(١) أن بعضهم كان يرد على بعض فيما يشبه لم انه الصواب خوف أن يكونوا قد وهموا . وثبت أن عمر رضى الله عنه شك في حديث فاطمة بنت قيس بل شك في حديث عمار بن ياسر في التميم خوفاً لوهم مع أن عماراً ممن لا يتهم بتعمد الكذب ولا بالكذب وهلة اصحبتة وسابقتة مع رسول الله ﷺ ولذلك أذن له عمر في رواية هذا الحديث مع شكه هو في صحته .

على أن تلك الروايات القليلة في ما زعموه كان قرآناً وبطلت تلاوته ان صححت أسانيدها

(١) هو كتاب لم يصنف في باب نظيره من تأليف الاستاذ الرافى الذي نقل عنه هذا الفصل

أولم تصح فهي على ضعفها وقتلها مما لاحفل به مادام الى جانبها اجماع الأمة وتظاهر الروايات الصحيحة وتواتر النقل والأداء على التوثيق . انتهى

وخلاصة القول انهم جمعوا القرآن من الادم والعصب والكرانيف واللخاف وعرضوه على ماني صدور الرجال لا عرضة واحدة بل عرضات متعددة وكان ذلك بين مئات وألوف يستحيل تواطئهم على الكذب أو على زيادة أو على نقصان ولذلك اطمانت النفوس وثلجت القلوب واقتنعت العقول بان هذا هو القرآن كما أنزل وأصبح ما يروى خلاف ذلك لا يعاب به وأما الاختلاف في وجوه القراءات فهو شئ آخر لا يتعلق بالكلام الالهي نفسه بل بكيفية قراءته وقد كانت لهجات العرب تختلف بعض الشيء كما لا يخفى

ثم نعود الى «درمنغم» الذي يحاول في جميع كتابه التألف بين الاسلام والمسيحية فهو يقول في صفحة ١٣٤ : « ان نفساً قوية طاهرة نظير نفس محمد في اتصال مع الحقائق التي وجدها هذا الرجل في نفسه في أثناء خلواته العظيمة في الصحراء والجبال كانت تشعر بأن الديانة ليست عبارة عن تأمل مجرد وعن محاضرة ملقاة بل هي حقيقة يراها الانسان من نفسه وكل من البشرية تمثل الله تعالى كما يقدر ولكن المهم أن يكون ملائ شعوراً بالحقيقة الالهية وأن يعلم نفسه لله وهذا هو الاسلام»

ثم قال : ان الهوة التي قد احتفرها المسيحيون والمسلمون فيما بينهم لم تكن في الحقيقة بين الاسلام والنصرانية وانما كانت نتيجة المنازعات المبنية على سوء التفاهم . فأهل الكتاب كانوا يادى ذى بدء أنصاراً لمحمد ثم لم يفتنوا أن أبوا الاعتراف بنبوته وأن هزأوا به كما أن المسلمين هم أيضاً من جهتهم تباعدوا ما أمكنهم عن النصرانية . مفسرى القرآن بدلاً من أن يظهروا ما بين الديانتين من الموافقات اجتهدوا في اثبات ما بينهما من المفارقات . فالقرآن اقرب كثيراً الى النصرانية من السنة المروية وعلى كل حال الأحاديث المنسوبة الى الرسول هي التي حفرت هذه الهوة بين الديانتين وفي هذه الأحاديث من الروايات المدخولة والموضوعات ما هو معلوم (هكذا زعم درمنغم)

ثم قال : ولما نشبت الحروب مدة قرون متطاولة بين المسلمين والمسيحيين ازداد بينهم سوء التفاهم واشتدت البغضاء كثيراً ، ومما يجب أن نعترف به أن أكثر البغضاء كان من

جهة المسيحيين فقد كان البيزنطيون يحقرون الاسلام بلا تأمل ولا بحث وجميعهم ما عدا
 يُوحناَ الدمشقي لم يحملوا أنفسهم على درس عقيدة الاسلام وانما حلوا عليه بالظن والقذف
 بلا فحص وأخذوا يصورون محمداً بصُور غريبة جداً ويشوهون من هذه الصورة ما أمكنهم.
 (وذكر هنا المطاعن التي كانوا يُوجهونها الى النبي ﷺ مما أئبنا نقله نظراً لسخفه وسفاهته
 وسقوطه من نفسه حتى ان درمنفهم نفسه هزأ كثيراً بهذه المطاعن بالرغم من كونه
 مسيحياً معتقداً) فالتناقض الذي بين الملتين كانت قواعدهُ الأساسية أخباراً واهية مثل أن
 محمداً كان صنم من ذهب وأن مساجد المسلمين هي هياكل ملائى بالهاتيل ! وقد ورد في
 أغنية اسمها « أغنية أنطاكية » ما يفيد أن ناظم تلك الأغنية قد رأى في تلك الهياكل
 محمداً بشكل صنم من ذهب وفضة ، راكباً على فيل ، وهذا الفيل على قاعدة من
 الفسيفساء ، ثم ان الأغنية السماة بأغنية « رولان » والتي تمثل فرسان شرلمان وهم
 يحطمون أصنام المسلمين فيها ان المسلمين يعبدون ثلوثاً مؤلفاً من ترفاعات Tervagant
 ومحمد وأبولون (كل شيء خطر في الببال الان نسبة عبادة الثالوث الى المسلمين) ثم ان
 قصصاً يسمى قصص محمد Roman du Mohamet ورد فيه ما يفيد أن الاسلام يجيز اشتراك
 جلة رجال في زوجة واحدة !

ولقد طال أمد هذه البغضاء وهذه الأباطيل كثيراً منذ أيام «رودلف دولودهم»

Rudolph de Ludheim الى أيامنا هذه أيام « نيقولا دو كوز Nicolas de Cuse
 و « فيفيس » Vives و « مرائى » Maracci و « هوننجر » Hottinger و « بيليندر »
 Bibliander و « پريدو » Prideaux فقد مثل هؤلاء محمداً كرجل كاذب ، والاسلام
 كعجل من أعمال الشيطان ، والمسلمين كقوم همج ، والقرآن ككتاب منسوج من أوله
 الى آخره بالمحالات . وكانوا يزعمهم لا يجدون حاجة الى الأخذ والرد في هزه كهذا . ثم ان
 « بيير لوفينر ابل » Pierre Le Vénérable مؤلف أول كتاب في أوربا ضد الاسلام ترجم
 مع ذلك في القرن الثاني عشر القرآن الى اللاتينية. ثم في القرن الرابع عشر ظهر
 « بيير باسكال » فعمل عن الاسلام أكثر من غيره . ثم ان « البابا اينوشانيوس الثالث »
 قال عن محمد انه المسيح الدجال . ولكن في القرون الوسطى بدأوا ينظرون اليه كرجل مبتدع
 عن يقال لهم المهرطقة . ثم ظهر « ريموند لول » Raymond Lulle في القرن الرابع عشر

و«غليوم بوستل» Postel في القرن السادس عشر و«رولان» و«غانيه» Roland & Ganier في القرن الثامن عشر والأب «دوبروغلي» de Brogli و«رنان» Renan في القرن التاسع عشر وكانت أحكامهم في هذا الموضوع متفاوته ليست على وتيرة واحدة . أما فولتير فقد كان كتب الرواية المسماة برواية محمد وبنائها على غير تحقيق . ثم عاد فصحح فيما كثيراً مما وهن فيه ، وقد ارتكب «مونتسكيو» Montesquieu بعد «باسكال» و«مابرائش» أغلاطاً كثيرة فيما يتعلق بالاسلام نفسه الا أنه كانت له آراء سديدة وأحياناً عادلة فيما يتعلق بعادات المسلمين ثم ظهر الكونت «دوبالانفيليه» De Boulainvilliers و«شول» Scholl و«كوسين دوبرسفال» Caussin de Perceval و«دوزي» Dozy و«سبرنجر» Sprenger و«بارتلمي سانتيلير» Barthelemy Saint-Hilaire^(١) و«دوكاستري» de Castries و«كارليل» Carlyle وهؤلاء كانوا على وجه الاجال موافقين للاسلام ولنبي الاسلام ، وربما أنشوا عليهما غير أن «دروتي» Droughty في سنة ١٨٧٦ و«فoster» Foster سنة ١٨٢٢ قد أخذنا في الطعن في الاسلام وفي محمد ولا يزال للاسلام الى يومنا هذا أعداء شديداً والعصية

أما المسلمون فانهم وان كانوا من جهتهم قد درسوا في دور ازدهار المعارف عندهم الديانة النصرانية درساً أشبه بدرس فواتير معتمداً على الأدلة السطحية فقد كانوا هم أيضاً يرمون الى التباعد لا الى التقارب . وكانوا لا يريدون أن يبحثوا في النصرانية من شدة ازدرائهم بها . وقد صاروا يلقبون «بالكافرين» أهل الكتاب وتلاميذ عيسى الذين جاء في القرآن أنهم أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا . وحتى هذه الساعة يفضل المسلمون أن يروا أولادهم أمواتاً على أن يروهم مسيحين

فهذه الحواجز الصنعية غير الطبيعية كلن علينا نحن أن نهدمها بأيدينا بازاة الأوهام لأن النور يكفي لازالة الأشباح . ويجب علينا أن نفهم أن العبرة انما هي بروح الموضوع فقط . فالعلاقات النسبية لا تزال الحقيقة المطلقة ، والوحى الالهى يخرج من الأفواه البشرية على حسب الأمكنة والأزمنة . فلا يمكن أن تأتينا الحقيقة دفعة واحدة أو أن تهبط علينا كلها كاملة وانما يحياها ويكملها فينا استعدادنا النفسى . قال : ولكل من الديانات المترلة

(١) هذا الرجل قال ان عمداً من أعظم المعبرين الذين أنجبهم البشرية

خاصة تمتاز بها . فالاسلام مظهره التوحيد وهيمنة الخالق ، وجبروته ورحته ، والمسيحية خاصتها المحبة ، والوثنية نفسها لا تنكر الالهية ولكنها تراها تحت أشكال أخرى مبعدة مشوهة ، منحرفة عن الصراط المستقيم ، وبالجملة فالنصرانية تتضمن الاسلام وتزيد عليه بعض أشياء ولكن كلتا الديانتين غير مناقضة الاخرى كما يُظن . وكان يجب على أتباعهما بدلاً من أن يتصارعوا ويتقاولوا أن يتنافسوا في العبادة والفضيلة ونحن نراهم على العكس من ذلك ، لا يشتغلون بتمجيد البارئ تعالى ، كما يشتغلون بمعادة بعضهم بعضاً

وقد جاء في القرآن شيء لا من التساؤل عما اذا كان الله نفسه لم يشأ تقسيم البشر مللاً ونحلاً الى حد محدود لكن بدون تعصب وشناَن . فقد قال : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ مُمْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحِمِ رَبِّكَ) ثم يقول : (إِيَّا اللَّهَ مَرَجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) . وقال : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلِّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْفِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

ثم أخذ درمنغهم يذكركم في الاختلاف أحياناً من الفائدة وقال ان المبادئ قد تختلف بالضرورة بحسب الزمان والمكان فيكون اختلافها موافقاً للرقى البشرى . وقد كان الأنبياء بحسب النوراة يتزوجون بزوجات متعدداً . وكان المسيحيون الأولون يقاثلون الوثنية والأوثان أشد قتال الا أنهم بعد أن زال خطر الوثنية رجعوا يقدمون للقديسين شيئاً من العبادة وهذا ان بقي ضمن حدود الاعتدال ، لا يخلو مما يقيد الحياة الروحية . ولقد منع الاسلام التماثيل والتصاوير فامتدت صناعة الاسلام في النقش الى ما لا نهاية له في تمثيل المخلوقات غير الحية كما أن النصرانية أخذت بالصناعة اليونانية في تمثيل الأجسام البشرية . وكل من الفريقين اتقن الصناعة التي اعتمد عليها ، فكان من ذلك نتيجة سعيدة جداً في باب المدنية ولم تكن كذلك لو بقيت الصناعة منحصرة في طرز واحد

ثم قال درمنغهم ان الفتوحات الاسلامية كانت جزءاً وفقاً للمسيحية الشرقية التي استرسلت الى المجلدات الدينية وطالما كان في العقاب فوائد ، فان ظهور الماسين في الشرق أهاب بالمسيحيين في أوروبا الى الاتحاد لأنهم وجدوا أنفسهم تحت الخطر ان لم يصلحوا أنفسهم وان لم ينهضوا عن المستوى الذي كانوا فيه

ثم قال ان القرآن يؤيد دائماً التوراة والانجيل فلا يمكنه أن يناقضهما وقد جاء فيه

خطاباً للنبي: (فإن كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك
لقد جاءك الحق فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون
من الخاسرين) ثم ذكر درمنغهم قول القرآن في ابراهيم: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا
وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وعمل ذلك بقوله ،
ان ملة ابراهيم هي ملة جميع المؤمنين بالله



ولغد آتينا تلخيص هذا الفصل من كلام درمنغهم وان كنا لا نوافق على كل ما فيه بنامه
وذلك لأن فيه معلومات كثيرة جلية يجدر بالمسلمين أن يطلعوا عليها ومن جلتها الأكاذيب
التي بقى الافرنج قروناً متطاولة يروجونها في حق محمد ﷺ ليصرفوا أنظار شعوبهم عن الاسلام
ومن جلتها اعتراف المؤلف المذكور برغم كونه مسيحياً كأنوايكياً مؤمناً بدينه ان أكثر
العداوة بين المسيحيين والمسلمين انما جاء من قبل المسيحيين . وكأنه يرى ذلك غربياً جداً
من قوم ، يأمرهم متبوعهم الديني بأن يحبوا أعداءهم . ولم يكن درمنغهم الفرنسي هو
الأوربي الوحيد الذي اعترف بأن المسيحيين هم أشد الفريقين عداوةً وشنائاً وان
المسلمين أقرب الى التسامح . فقد قرأت هذا في مواضع كثيرة من تأليف الاوربيين ومن
جلتها تأليف اسمه « مائة مشروع تقسيم لتركيا من سنة ١٢٨١ الى سنة ١٩١٣ » للسيو
« دجوفارا » Cent projets de partage de la Turquie (1281-1913) Djuvara من وزراء دولة رومانيا مصدر بمقدمة بقلم المسيو لويس رينولت Renault من علماء
الحقوق بفرنسة . وقد جاءت في المقدمة وفي الكتاب معلومات هي في الدرجة
القصوى من الأهمية قد نلّم ببعضها في المظان اللازمة . وانما نذكر الآن قول « دجوفارا »
في الصفحة الثالثة من كتابه وهو : « ان أردنا أن نعدل ونقول الحق وجب علينا أن نعترف
بأن هناك عداوة قد نزل بها القضاء بين المسيحيين والمسلمين وأثقلت دائماً العلاقات التي بين
الفريقين وانه برغم روح التسامح الديني في العصر الحديث لا يزال خبير هذه العداوة بين
هذه الأمم ولا سيما من جهة المسيحيين » وهذا يخالف ما لا يزال يردده بعضهم من ذكر
« التعصب الاسلامي » وضربهم به المثل .

ومن أحسن ما في كلام درمنغهم حسن النية وخلوص الطوية وكون هذا الرجل

عمل بكل ما في قدرته لازالة شدة هذا التنافر الذي بين المسلمين والمسيحيين . ومن يقدر أن لا يحمّد عملاً كهذا لأن عداوات الأديان بما خالطها من مفاسد السياسة ومن مطامع الرئاسة كانت من أعظم المصائب على البشرية . وقد نقل درمنهم السيرة النبوية عن كتب المسلمين بدون أدنى تحامل ولا تحريف ولا مكابرة ولا محاولة تعمية أو تغطية للحقائق وكان يستنتج ما يريد استنتاجه بحسب ما يؤديه اليه اجتهاده ولكن بدون غرض ولا خبث وفي صفحة ١٨٣ ذكر أنه وان كان بعضهم يعيب محمداً بشدة ميله الى النساء فانه مما لا مشاحة فيه ان محمداً لم يكن شرهاً ولا غفوراً ولا متعصباً ولا منقاداً للطامع ، بل كان حليماً رقيق القلب عظيم الانسانية وأحياناً متردداً اذا لم يكن ثمة عنده ما يعتقده وحيماً اهلياً اليه . وكان بشوشاً دمث الأخلاق حسن العشرة ساذج المعيشة يكنس غرفته بيده ويصلح ثيابه ، ويخفف نعله ، ويحلب شياهه ويضطجع في أرض المسجد وينهض ويفتح الباب لأجل هرّة تريد أن تدخل ، ويعالج ديكاً مريضاً ، ويمسح ببردته عرق جواده ويوزع الصدقات بمجرد ما يدخل في يده شيء من المال ويتجنب كل شيء يظهر فيه بمظهر ملك دينوي . وكان يمنع الناس أن يجعلوه سيّداً ولم يكن عنده لا بلاط ولا وزراء ولا شيء من أهبة الملوك وانما كان عنده بعض أعوان يستشيرهم وبعض كتبة يكتبون له وخاتم من فضة منقوش عليه محمد رسول الله

وقال أيضاً ان محمداً كان يقضى أكثر أوقاته في الصلاة سواء في الخلوات أو الجلوات وفي الوعظ وفي الشغل ويقضى نصيباً من وقته مع نسائه ولم يكن يكره التسلى والتفريج عن القلب ، وفي ذات يوم عرض على عائشة أن تذهب وتشاهد أناساً من السودان يلعبون بالسيف والترس فذهبت عائشة بجانبه وتسلت بهذا المشهد وكان عمر أراد أن يطرد هؤلاء اللاعبين فاتهره محمد وقال له : دعهم فلكل أمة أعياد وملاه وهذا هو عيدنا اليوم . وكان أبو بكر أراد منع جاريتين من جوارى المدينة من الغناء أمام عائشة لقصائد فيها ذكر الحروب الماضية الا أن محمداً خافه في ذلك وسمح بالغناء . وكان محمّد يحب الأطفال كثيراً ويلعب معهم ويترك أولاد بنتيه يركبون على ظهره حتى في الصلاة ويلعبون على المنبر وهو يخطب . وكانت مرة فتاة صغيرة لابسة قيصاً أصفر تلعب بين يديه وهو يداعبها ويمدح لها ذلك القميص ويستحسنه فلتت اصبعها الى ما بين منكبيه ولست الشامة

التي يقال لها خاتم النبوة قاتهرتها والدتها فقال لها محمد دعها . وكذلك كان يجب أن يضع الحلى للبنات الصغار وقد وضع مرة عقوداً وأسورة ايتيمتين من المدينة وتأسف أن لا يكون أسامة بن زيد الحب فتاة فكان يغطيه في الحلى من رأسه الى قدمه وكان يعجب من كون أهل البادية لا يقبلون أولادهم وكان يقول ان البنات يقين والدهن من نيران جهنم . وكان أنس خادم محمد مدة عشر سنوات ملازماً له وكان يذكر عجيب صبره ويقول انه ما وبخه ولا مرة وكان حسن العشرة مع الجميع حتى مع الذين لم يكن رأيه فيهم حسناً ولم يكن ينطق بكلمة غليظة أصلاً . وكان بابه مفتوحاً للجميع الا أنه كان يجب أن يحافظ على خلواته وقد نهى القرآن عن الدخول على الرسول بدون اذن وعن مناداته من وراء الحجران . (يشير

درمنفهم الى ماورد في سورة الحجرات : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفُؤْا أَسْوَاتِكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْعُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَحَنَّ اللَّهُ فَلَؤَلَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْرِفَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَسَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

ومما قاله وهو بحث جليل أشار اليه ابن خلدون في مقدمته وهو ان سلطة النبي برغم علو منزلته عند العرب لم يكن من السهل اجراؤها دائماً على تلك الأقوام التي هي بفطرتها صعبة القيادة . قال انه قل أن يوجد في البشر رجل مطاع كما كان مطاعاً محمد . ولكن العرب المعتادين الفوضى لم يكونو يعلمون شيئاً من النظام وكان يصعب عليهم جداً الانقياد فكان من معجزات محمد أن جمعهم جميعاً في دائرة الاسلام . وكان في المدينة المنافقون الذين كانوا في الباطن أعداء للرسول وكان الأضار الذين لم يكونوا يتفقون دائماً مع المهاجرين وسواء كان الأضار أو المهاجرون فكان الجميع لا يتلفون مع الأعراب أهل اليربوع وكانت المنافسات والمفاخرات والنخوة سبباً للمخاصمات المستمرة وكذلك كانت تقع المخاصمات من أجل دعاوى المالية ومن أجل تقسيم الغنائم وكان محمد يصلح جميع هذه الأمور اما بالوحي واما بحسن السياسة . وكانت نزاهته الشخصية مثلاً يقتدون به . وكان محمد شديد الاهتمام بالأعراب وكثيراً ما عنى بايظاتهم المدينة وكان يطالبهم بأن يسكنوا في المدينة ولا يعودوا للبادية واقتنى أثره في ذلك الخلفاء الراشدون فكانوا يشدون على البوادي واذا سكن

أحدهم في المدينة لم يسمحواله أن يبرحها حتى قيل ان بدأياً اتسحر من شدة حنينه الى نجمه . وكان النبي يخشى على امته مايقال له « اللبن » أى عيشة الرعاة وبعبرة أخرى البداوة . فأنت ترى كم ظلم بعضهم الاسلام في اتهامهم اياه بالليل الى البداوة . وطالما أطرى الرسول معيشة المدينة رغم الحى التى كانت فيها والتى اشتكى منها المهاجرون كثيراً . وطالما تحمل النبي من غلظة البدوى وصبر عليها وقيل ان أحد البدو بال في المسجد فأرادوا أن يضربوه فنهاهم الرسول وقال لهم دعوه وصبوا سطل ماء حيث بال . وجذبته مرة اعرابي^١ جذبة شديدة آذاه بها قائلاً له قل لهم يعطوني نصيباً من مال الله الذى بيدك فأنفت نحوه الرسول باسماً وقال لهم ليعطوه نصيباً . ولا شك في أن البوادى من أبعد الناس عن الديانة وقد ورد هذا المعنى في القرآن كثيراً ولذلك سكان الحواضر أقرب الى الاسلام من سكان البوادى .

ومما قاله درمنفهم : قال محمد ان الشهيد هو الذى يبذل نفسه في غير امور الدنيا وقال أيضاً : الجنة تحت ظلال السيوف . وقال بولس ان الموت هو العدو الأخير الذى سيهزم ولا شك ان الأديان انما تزكو وتنمو بدماء الشهداء فالاسلام في آخر الأمر اختار الجهاد بالسيف لأجل نشر دعوة الحق ولم يكن محمد من الكويكر^(١) بل كان يرى ان من الأشياء مالا مناص فيه عن الجهاد والقتال وانه في هذه الدنيا الملائى بالشرور لا يكون استعمال القوة القاهرة غير جائز الا اذا كان مبنياً على الظلم والبغضاء وليس من الممكن أن يقف الانسان مكتوف الأيدي أمام الشر الصائل . وقد بقى المسلمون مدة عشر سنوات يتحملون ألوان الانتقام في مكة وأخيراً اضطروا الى هجرة وطنهم وسكنوا المدينة . وكانت قريش تأتمر بمحمد لتقتله وتتحدث بمهاجة المدينة للقضاء عليه وعلى الاسلام فمن ذلك الوقت وجب على المسلمين أن يقتلوا ويقتلوا وصار القتال في سبيل الله من أفضل القربات ومن طرق الشهادة (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) ولا يخلو الأمر من مشاهة بين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين في الاستباق الى الشهادة ولا شك في ان الشهيد المسيحي الأول القديس اتيانوس الذى كان يدعو لفاتليه يستحق من الاعجاب أكثر من الشهيد المسلم الأول خبيب

(١) طائفة انكليزية تريد الوصول الى الحق بسلام

الذي كان يدعو على أعدائه (ان الرسول طلبادعا أيضاً لأعدائه أن يهديهم ويردهم الى الصواب) ولكن الفريقين كانوا يموتون في سبيل إيمانهم معتقدين بأنهم سيكونون شهداء فلبداً واحد ولكن الأحوال مختلفة . ففي السلطنة الرومانية كان المسيحيون الأوائل في بلاد متمدنة ذات ادارة منتظمة رعايا لفيصر الذي أوصاهم المسيح بأن يعطوه ماله فكان لا بد لهم من أن ينقادوا لأحكام الدولة كما انقاد سقراط نفسه لحكم دولته . فأما في بلاد العرب التي كانت فوضى وكانت كلها قبائل في قتال دائم ولم يكن الواحد يخرج الامتقلاً سيفه أو متكباً قوسه فكان لا بد بضرورة الحال من أن يلجأ المسلمون الى القتال اذ لم يكن أمامهم غير الأسمه مركباً . وهنا نقل درمنغهم كلاماً عن السيو ماريتين Maritain في كتابه « أواية التأثير الروحي » وهو ان المسيحيين في القرون الأولى من النصرانية لم يكونوا يفكرون في هدم السلطنة الرومانية لأنهم كانوا عاجزين عن اقامة سلطنة مسيحية مكانها . فلذلك لم يكونوا يفكرون الا في الحياة الأبدية وفي مصالح الآخرة فكانت نورتهم عقيمة لاثمرة لها الا مجرد الاضطراب الداخلي فلم يبق أمامهم الا نبيل الشهادة وهو في الواقع أحسن حل للسألة في مثل تلك الحال التي كانوا فيها .

وكان محمد يقول يجب أن يتم هذا الأمر حتى يقدر الفارس أن يسير من صنعاء الى حضرموت بدون أن يخشى شيئاً سوى الله على نفسه والذئب على غنمه . ولم تكن قضية الجهاد ترمي الى هداية البشر تحت التهديد بالسيف كلا بل جاء في القرآن : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) . وجاء في القرآن النهي عن الاعتداء . وكل ماورد فيه مما يتعلق بالجهاد في آيات متعددة متفرقة هو موقوف على حوادث خاصة معينة وقعت مع النبي وأصحابه . ولا يكون موافقاً للواقع أن يتخذ منها قاعدة عامة يجب تطبيق أحكامها على جميع الأحوال . وبما لاينكر أن الجهاد قد دخل فيه مطامع في غير الجهة الروحية واتخذ بعض المسلمين وسيلة لكسب حظوظ الدنيا ولكن القرآن يقيم التنكير على هذه الأمور وان كان يسمح بمقابلة الشدة بمنلها . وكثيراً ما حلم محمد وعطف وتجاوز عن السيئات . وفي ظفره الأخير قد أظهر من علو النفس مايندر نظيره في التاريخ وكان يأمر جنده بأن يتجنبوا الضعفاء والأطفال والشيوخ والنساء ويحظر عليهم أن يهدموا البيوت أو أن ينتهبوا الغلات أو ان يقطعوا الأشجار المثمرة وكان يأمرهم بأن لايسلوا السيوف الا عند الضرورة المطلقة

وكثيراً ما أنكر أعمال بعض أتباعه وجبر مما كسروه وكان يقول لأن يهدى الله نفساً واحداً خير من جميع مكاسب الدنيا (لأن يهدى بك الله رجلاً واحداً أحب إلي من حمر النعم). وكانت الغنائم في ذلك الوقت هي نتيجة الحرب الطبيعية وكانت هي والتجارة ورعاية المواشي جميع منابع رزق العرب فبدىهي أن يكون محمد أباح الغنائم للمسلمين في حال ضعفهم ولكنه قد جعل للغنائم قواعد وخصص جانباً عظيماً منها بالصدقات وبميرة الجيش وحظر في تقسيم السبي فصل الاولاد عن امهاتهم ولم يكن في وسعه أن ينقل العرب عن طباعهم التي فطروا عليها دفعة واحدة وانما كان يهذب منها بقدر امكانه وكثيراً ما كان يحض على العفو عند المقدرة وقد روى عنه حديث ان الذي يغفر السيئات يقرب من درجة النبوة . ولا ينكر أن كثيراً من الصحابة أصبحوا أغنياء وافرين مما غنموه من كنوز الالكاسرة وفتح مصر وغيرها وكان أناس من البدو قد أصبحوا بتلك الفتوحات يلبسون بحلى الملوك الساسانيين وقيل ان الزبير بن العوام مات عن تركة تبلغ نحواً من خمسين مليوناً^(١) وكان الرسول يقول لأصحابه وهو يفكر في المستقبل ما أخشى عليكم من شيء مثل مكاسب الدنيا الفانية . ولما قتل مصعب بن عمير في وقعة أحد كان من الفقر بحيث لم يجدوا ما يكفونوه به الا خرقة قصيرة لم تكن لتوارى من بدنه الا القسم الأعلى فغطوا سائر بدنه بالعشب . وذكر عند عبد الرحمن بن عوف فقال ، كان خيراً منا نحن الذين أفاض الله علينا من خيرات هذه الدنيا افتراه تعالى اكنفى انا بها عن الآخرة ؟ وأخذ بيكي

ثم ذكر درمنفهم في صفحة ٢٧٣ قول « غوته » أكبر شعراء الالمان وهو « ان كان هذا هو الاسلام أفلسنا كلنا مسلمين ؟ »

(١) الصحيح أن الزبير رضى الله عنه لم يترك الا اراضى أمر ولده عبد الله بأن يطرحها للبيع لا يباه ديونه وكان عبد الله ابن الزبير يظن أن ثمن هذه الأراضى لا يكفي لا يباه الديون التي كانت على أبيه الا أنه عند بيع الأراضى كانت أثمانها قد ارتفعت كثيراً فتمكنوا من ايهام جميع الديون وبقي شيء من الأراضى لورثة الزبير . وكان عثمان ابن عفان وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف وغيرهم من الصحابة اصحاب يسار تام وكانت لهم عقارات وأموال ومواشي تحملهم في صف الأغنياء حتى في هذا الضر ولكنهم برغم هذه الثروة كلها لم يكونوا يعيشون معيشة التمتع المعروفة للمترفين بل كانوا يتفقون أموالهم في الدين وللروء والرغد وقضاء مفارم الضعفاء

ثم قال : لا جرم ان محمداً قد نهض داعياً العرب الى الدين الوحيد اللائق بالاله الواحد ليوقظ بدينه هذا جانباً من آسية وافريقية وليحطم قيود التقليد ولينبته فارس التي كانت نائمة ونصرانية الشرق التي كانت ممزقة بالمجادلات الدينية . ولا جدال في ان الأنبياء في العالم هم أشبه بالقوى الطبيعية العظيمة المحسنة الهائلة التي هي من قبيل الشمس والمطر والزواجر التي تهز الأرض ثم تغطيتها خضرة ونضرة . فيجب على الناس أن يعرفوهم بشعرات أعمالهم وأصدق الشهود عليها هي الصدور النالجة باليقين والقلوب المطمئنة والعزائم الناهضة والنفوس الصابرة على البلاء والاسقام الأديبة الزائلة والصلوات الطاهرة الصاعدة الى السماء .

وهؤلاء الأنبياء منفردين بدون قوة مادة وبدون أيدي — سوى الأيدى الإلهية — ورغم مقاومة الكبر البشري لم تجددهم يأتون بكشف سر الحرية في أسمى معانيها يقولون بطاعة الخالق لا الخلق وبالمساواة التامة امام الخالق تعالى وبتقديم المعنى على اللفظ . وهكذا ظهر محمد لا يعرف شيئاً من العلوم غير العلم الأعلى أمياً طاهراً سلاج الطبيعة طليقاً من قيود الأوهام ، فدعا العلماء أن يفهموا ما يقولون ونبه الذين يقال انهم حكماء الى سلوك السبل المستقيمة وكان الناس اذا سمعوا ما ينطق به مثل : (إِنْ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) يعودون فيلسوف سر الحياة الذي يحيط بهم متواضعين لله تعالى متوجهين اليه ويعلمون هناك قاعدة تفرق بين الطاعة والمعصية مما يعجز عن الأتيان بمثله الفلاسفة ومدبرو الممالك .

قال درمنفهم : ان محمداً جاء في أشد الأعصر ظلمات حينما كانت المدينيات بإجماعها قد تداعت الى الخراب من بلادالغال اليروفتنجية الى بلاد الهند وكان الاضطراب شاملاً قسمي محمداً (١) وتلقب بالنبى الأسمى . وكان يرى نفسه أداة للوحى ومبلغاً واعياً يسمع ما يلقي اليه من فم الشخص النوراني الذي يشاهده ومن الصوت الذي يسمعه فيلقيه الى الناس (ما على الرسول الا البلاغ) وهذا الوحى هو الكلمة الإلهية القديمة التي هي « أم الكتاب » المحفوظة في السماء السابعة تحرسها الملائكة المسبحون وانما اتخنت بالقرآن قالباً أرضياً — الى أن يقول : اتنا نرى القرآن نازلًا بحسب الوقائع موسى به يوماً فيوماً وشيئاً فشيئاً وفقاً

(١) اشارة الى ما ورد في التوراة من مجيء البارقليط الذي اسمه أحد

للضرورات المتجددة ولمصلحة الأمة وكثيراً ما نسخ منه الآخر الأول بحسب ضعف البشر واجابة لرغائبهم وعلى كل حال فكانت الرسالة في نظر محمد أسمى من الرسول وكانت سورة واحدة من كلام الله أفضل من النبي وعترته . ولما كان لكل نبي معجزة كانت معجزة محمد القرآن .

ومعلا يقبل المرء ان في القرآن من سحر البيان ما لا يوجد في كلام غيره على الاطلاق وان فيه من قوة التأثير والعمل في القلوب ما لا يبرح الى اليوم سراً مغلقاً حتى انه يقنف بالخشوع في قلب أقل الناس خشية وأبدهم عن التقوى . وكان محمد يتحدث عبقرية العرب أن يأتوا بسورة من مثله . ولم يكن اعجاز القرآن في مزيج اللغوية من جهة ما يسمى اليوم بالأدب بل كان هذا الضرب مما يحتقره محمد وكان يكره الشعراء ويرأ أن يكون منهم وانما كان اعجاز القرآن في شدة التأثير وعجز الناس عن الاتيان بمثله

قال درمنغهم : انه لم يبق أدنى شك في صدق محمد . فان جميع حياته برغم بعض أغلاط قد اعترف هو بها تدل على كونه معتقداً بكلية الرسالة التي عهد بها اليه وأنه وجد من الواجب عليه أن يقوم بهذه الرسالة مهما آده من حلها . وأن جميع ماظهر من هذا الرجل من قوة ايجاد وتناهي عبقرية وحدة ذكاء ومواجهة تامة للحقائق وضبط نفس وشدة ارادة وحسن تدبير واتقان عمل وبالجملة جميع حياته تمنع من أن ينظر الى هذا الملمه الصافي الذهن كرجل مصاب بصرع . اهـ

يشير درمنغهم بهذا الى مايزعمه أعداء الاسلام من كون حركة الوحى التي كانت تحصل للنبي ﷺ انما هي من علة جسمانية فيه قال بعضهم انها مرض الصرع . ولكن أكثر الاور بين اليوم رجعوا عن هذه الفكرة وعلموا أن ﷺ لم يكن مصاباً بمرض الصرع ولا بمرض عصبي آخر وأنه كان معتدل المزاج كامل الخلقه لاشابة فيه ومن جملة من صرح بهذا القول المستشرق ماسينيون الافرنسي الذي هو كاثوليكي النزعة مثل درمنغهم . أما ما ذكره درمنغهم من أن النبي أغلاطاً كان هو يعترف بها فالمسلمون يقررون العصمة للنبي وجميع الانبياء صلوات الله عليهم وذلك في الامور الدينية وهم ينزهونهم عن الكبر . فوجب ايضاح العقيدة الاسلامية في هذا الشأن . وأما الكاثوليك فيجعلون العصمة للبابا في الامور الدينية شرطاً من شروط دياتهم

ثم قال درمنغهم : ان محمداً لم يكن يلتزم أن يجنب قومه الى عقيدته بجميع الطرق
وإن يكن همه أن يسهل عليهم الامور ليتبعوا دعوته وانما كان يبلغهم رسالته لامعة كالسيف
القاطع وكان يفرق بينها وبين آرائه الشخصية . ويقول بعضهم انه لم يكن في المدينة النبي
الخالص الصابر الذي كان بمكة . وجواب هذا ان الاحوال قد تتغير وانه كان حتماً عليه أن يغير
من خطته لاجل تثبيت دعوته . وربما يكون أخطأ في بعض أعماله لأن العمل غير النظر
واكنه على كل حال بقى صادقاً في دعوته ثابتاً متيناً وان كان قد أخطأ فانه لم يكن قط .
وكيف يكون قد كذب ورسالته كانت تتأيد كل يوم وتثمر ثمرات لا تكون الا للحقائق .

قال وكانت عظمة محمد الحقيقية هي العظمة الآتية له من الله بالالهام الالهي الذي كان يقف
في روعه . وأما فيما عدا ذلك فكان يشمر بضعفه وعجزه . وكان يتهجّد الليل ويستغث
بالله ويسأله تعالى دائماً أن لا يخله . وقالت له زوجته أم سلمة مرة : لماذا لا تفتأ تقول هذا
والله قد غفر لك ماتقدم وما تأخر من ذنبك . فاجابها : كيف لا أخشى الله وقد تخلى مرة
عن يونس . وكان يدعو الله قائلاً : اغفر لي ذنوبي الحاضرة والماضية والظاهرة والباطنة
وطهرني من آثامي تطهر اللج واجعل قلبي كما يغسل قلبك بيني وبين الأمم مسافة
ما بين المشرق والمغرب .

وكان يلقي الى الناس ما يوحى اليه من القرآ من التوبيخ في مثل قصة الاعمي
(عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يُزَكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ اللَّهُ كَرِي
مًا مَنْ اسْتَفْتَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ الْأَيزُكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ
يَحْسَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) وفي مواضع أخرى مثل حذته في خطاب أعدائه وغير ذلك .

واند تغنن بعض علماء النفس من الاوربيين في تفسير حادثة محمد والوحى الذي كان يلقي
اليه فذهب بعضهم الى أنه صرع وذهب آخرون الى أنه شدة تخيل وكلهم غفلوا عن الوسط
الذي كان فيه وعن معيشة الخيم في البادية ونسوا مقتضى البيئة التي كان فيها وما من شك
في أن محمداً كان الى وقت بعثته كسائر الناس ليس فيه شئ من شئ وكان مزاجه بغاية
الاعتدال وكذلك كان بعد البعثة في غاية التوازن الا ما كان يحصل له من التغير عند
زول الوحي .

وهذا شيء غير خاص به بل معهود في جميع الالاهيين الحقيقيين وفي أنبياء بني
اسرائيل . وقد كان ازميئا يقول : أرزى قلبي قد تدرس وجيع عظامي مضطربة وأرأني
كالكسرة وذلك بسبب الاله والكلمات المقدسة. وكذلك كان عموس وهو مدبر كما كان محمد
مدبرا يقول الكلمات نفسها . ولم يكن يرى محمد تلك المرائي لأنه كان مريضا بل كانت
تحصل له تلك الحالة العصبية من بعد تلك المرائي. ولا شك أنه يوجد تشابه بين المرضى بالامراض
العصبية وبين أصحاب المكاشفات من الالاهيين الحقيقيين . ويمكن أن يقال ان البنية
الضعيفة هي أكثر استعدادا للأحوال الروحية كما أن هذه الأحوال تزيدها ضعفا . ولكن
لم يكن يوجد أثر من هذا الضعف في محمد وبقى الى أن بلغ الكهولة من أكمل الناس صحة
وأقواهم جسما . فلم يكن يشعر بشيء الا ما كان يحصل له من التغير في حالة نزول الوحي ،
نعم حصل له مرتين أو ثلاثا شيء من ضربة الشمس على أثر السفر في الضحى وكان هذا
يزول بالحجامة أو بالعلق . أما الوحي فكان يحدث له ألما شديدا كثيرا ما كان يتجلد له
ويخفيه عن الناس بقدر امكانه فلاحظ أبو بكر مرة الشيب قد بدأ في لحيته فقال له محمد :
انما هي هود والحافة والقارعة وأخواتها هي التي شيبتني . وكان يحصل له بعد الوحي نقل
في رأسه يعالجه باللنقات والمراهم ، وكان اذا أحس بدنو الوحي يغطي نفسه ويتنفس تنفسا
شديدا ويسمع له غليظ وتحصل له شدة . واذا كان حتى في الشتاء يتصب منه العرق. وطلب
يعلى بن أمية من عمر أن يرهبه النبي في حال نزول الوحي فجاءه الوحي وهو في الطريق الى مكة
وكان أحدهم ألقى سؤالا عن مناسك الحج فلم يحجر محمد جوابا ثم لم يلبث أن جاءه الوحي
وتغطي بغطاء فدعا عمر يعلى بن أمية ورفع الغطاء عن النبي فاذا به يتنفس تنفسا شديدا
ووجهه شديد الحرارة . ولما فصم عنه نهض وقال : أين الرجل الذي ألقى على السؤال ؟ ثم
أخذ يتلو الآيات النازلة عليه حينئذ وكان نزول الوحي عليه يختلف في الشكل فكان يسمع
أحيانا كصلصلة الجرس أو كحفيف الأجنحة أو كدوى غير مفهوم تماما ولم يكن يبى كل
ما يسمع الا بعد انقطاع تلك الحكبة وكان هذا أشده عليه وأغربه مظهرا ، وأحيانا كان
الملك يأتيه بصورة بشرية ، كصورة دحية الحلبي وكان من أجل أهل زمانه أو كصورته هو ،
وكان يلقي عليه القول فيفهمه بدون عناء ، فكان الوحي بالاجال على شكلين وقد نهى
محمد في القرآن عن أن يحرك به لسانه ويجهده نفسه ليعي تماما الآي التي كانت تلقى عليه

ولم يكن محمد هو الذي صنع القرآن ، ولا كان مُختلراً في تنزيل الوحي بل كان يطول عهده به ولا يرى شيئاً . وطالما تمنى أن يأتيه الملك فلم يأتيه

الا أن درمنغهم يعتقد مايعتقده غيره من الاوروبيين من أن القرآن كسائر الكتب المنزلة يمرر الا بعد نزوله بكثير وانهم حلوا الناس على نسخة واحدة من المصحف وأحرقوا ما عداها وان كثيرا من الآيات لم يقع فيها الترتيب اللازم وانه لا يُعلم بالتمام هل أدخل في القرآن شيء من الحديث النبوي الذي قاله الرسول من نفسه لا على أنه وحى . وروى أن جعفر قال : انه كان في القرآن أسماء سبعة رجال من قريش فلم يبق منها الا اسم أبي لُهب . ثم ان الشيعة يتهمون أهل السنة بأنهم حنفوا من القرآن كل ما كان فيه من الآيات الموافقة لعلى ثم أنهى درمنغهم كلامه في هذا الموضوع قائلا انه لا يقدر أن يجزم في هذه المسئلة وانه على وجه الاجال يرى المصحف الحاضر صحيحا لا شائبة فيه الا ما يتعلق بترتيب الآيات والسور . ولكن لا يرى الأحاديث النبوية كلها صحيحة ويجزم بأن قسما كبيرا منها موضوع وهذا يوافقه فيه كثير من المسلمين

ثم انه يقول ما يلي : ان محمداً لم يكن يقول في الصفات الالهية ما يقوله المتكلمون أو اللاهوتيون من التعليلات الطويلة بل كان محمداً تماماً لا يرى حقيقة غير الله فأنه عنده هو الحقيقة وهو واجب الوجود . ولم يكن العرب ينكرون وجود الله وانما كانوا يتخيلونه بعيدا عنهم ويتخنون له وسائل من هؤلاء الأصنام فجاء محمد وقلب ذلك الاسلوب في العبادة وجعل الله حاضرا أمام العقول بدون واسطة وردت تلك الوسائل من أصنام وجنة وملائكة الى الورداء وعلم الناس أن الله أقرب الى المرء من حبل الوريد . وكانت عقيدته أنه لا بد من وجود ثابت في وسط تقلبات الحوادث وكأن خلفه يهيمن على جميع ما يقع في هذا العالم ولا حول ولا قوة الا بالله وانا لله وانا اليه راجعون والله أكبر والله الأول والآخر والباطن والظاهر والأحد والحي القيوم ، القادر الخالق ، العلى الكبير ، المالك المجيد ، ذو الجلال والاكرام ، العظيم القوى الصمد ، الحكيم القدوس ، أحكم الحاكمين ، النعم ، الأبدى ، الوارث ، الشاهد ، المدبر ، الهادي ، الأمين ، الحافظ ، الناصر ، المعطي ، الرزق ، سميع السامع الحاسب ، القابض ، الباسط ، العفو ، الغفار ، الرحمن الرحيم . وكان من عقيدة محمد أن الانسان عاجز عجزاً تاماً أمام الله تعالى وانه لا عذر له بين يديه ولكن الله تعالى يعفو

عن كثير وقد كتب على عرشه أن رحمة غلبت نعمته وهو يغفر لمن يغفر ويسرُ رجوع آثم واحد الى الهدى كسرور اعرابي فقد بعيره في الفلاة وما زال في أثره الى أن وجده أمامه . ومن عقيدة محمد أن الانسان لا يوجد في هذه الدنيا الا لعبادة الله تعالى وأن الله غني عنه وأنه يجب عليه أن يطلب وجه الله تعالى في كل شيء وان كل شيء هالك الا وجهه تعالى وان في اشراق النور الالهي على الانسان سلام النفس الداخلي ورضاها ورضى الله تعالى وأن أصل ذلك كله الايمان وان الوصول الى هذه الحالة يكون بالصلاة وبالايتار أي باعطاء ما يعز على الانسان ولو كان به خصاصة

ولئن لم يكن القرآن يقول ما قال يُوحنا : ان الله كله محبة فلم يكن محمد يهمل قاعدة أن الله تعالى يحب مخلوقاته كما تحب الأم ولدها . وكان يقول ان الله يُضاعف الحسنات مائة مرة وقد جاء في القرآن : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » وكان عنده أن الايمان بدون المحبة وبدون الأعمال يكون ايماناً ميتاً . وكان ينهى عن الغضب والبغضاء والحسد والكبر والغيبة وكان يقول ان أحسن الناس أكرمهم انيظه « وَالْكَاطِبِينَ الْغَيْظَ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ » وكان يقول ان المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . وكان يقول ان المهاجر هو من يفر بما حرم الله ؛ وكان يقول احبوا بعضكم بعضاً في ذات الله ؛ وكان يقول ان العبد ينال رضا الله بالمحبة وانه تعالى قريب من الداعي اذا دعاه وانه رءوف رحيم . وكان يدعو ربه ويقول في دعائه : انني ألبأ اليك من ضعفي وعجزتي أنت يا أرحم الراحمين وملجأ الضعفاء الى من نسكني ان أنت خذلتني . وكان عنده أن الدين الحق هو العبادة بالعقل وأن الأعمال انما هي بالنيات وان الذي لا يريد أن يترك الكذب ولا يظهر نفسه فاته في غنى عن صيامه وجاء في القرآن : « أَيْسَ الْبِرِّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاللَّيْطَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّائِلِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِمَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » وجاء في القرآن بشأن الضحايا والقرابين « لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دَمَآهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ » . وكان محمد يقول : انصر أخاك ظالماً أو مظلوما قيل له

بارسول الله فكيف تنصره اذا كان ظالماً . قال : نَزَدَعُهُ عن ظلمه . وكان مرة عائداً من غزاة جاهد فيها المشركين فقال رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر في أنفسنا . وقال : يجب أن يحب الانسان جميع الناس وجميع المخلوقات فان أصغر الطير يسبح باري السماوات والأرض يبسط جناحيه

وقد أثرت مواعظ محمد هذه في العرب تأثيراً عظيماً وأحدثت انقلاباً كبيراً في المجتمع العربي وفي البيئة الصحية وارتفع شأن المرأة عما كانوا عليه وأبطل البغاء وأبطل المخادنة ولم يبطل الرق ولكن وضعت له شروط . وجعل محمد عتق الرقاب من أعظم الفضائل وقال من أعتق رقبة فان الله يعتق من النار جميع آعضائه . وكان يقول عبيدكم اخوانكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تحمّلوهم فوق طاقتهم . وكان ينهى عن أن يقال عبدي وكان يقول لا مؤلى غير الله . وسأله سائل : هل عند الله ثواب على الرافة بالحيوانات ؟ فقال له : نعم ، يُثيب الله كل من يرؤى ظمأ مخلوق ذى قلب ومن حفر بئراً فله ثواب لكل يعير يشرب منها . وطالما نهى محمد عن العنف في سوق الدواب وعن قتل الحيوانات الا لموجب . وذكر ابن عمر من أقواله أن الحيوانات يحضرن يوم القيامة للشكوى من ظلمهن وان امرأة تحمشها هرمة في النار بلا انقطاع لأنها أغلقت عليها الباب حتى ماتت جوعاً وان مومساً تدخل الجنة لكونها سقت على حافة بئر كلباً كان سيموت عطشاً .

وقد أقبل المتكلمون والأخلاقيون والمتصوفة والفقهاء على أقوال الرسول ومواعظه فأخذوا منها أسس تعاليمهم كل فريق في الجهة التي سار فيها ولكنهم بقوا واضعين القواعد العامة نصب أعينهم . واذا كان وقع بينهم اختلافات فلأنهم قد اعتمدوا على أحداث مختلفة وكل فريق صحح الحديث الذى يزويه . مثال ذلك القدرية والجبرية في اختلافهم كل فريق يجتهد أن يتوكأ على شىء من القرآن والسنة . وهذا بعينه قد حصل بين المسيحيين فتجد في هذه المسئلة الاختلاف بين اللاهوتيين مثل توما الاكويينى وبوسويت والجانسينيين والموليين (١)

(١) الجانسينيون Jansinistes نسبة الى جالدين رجل هولاندى كان أستاذاً لهم اللاهوت في باريز في أوائل القرن السابع عشر وله كتاب اسمه « اوغسطينوس » اشتغل في تأليفه نحواً من ٢٠ سنة وشرج فيه مذهب القديس اوغسطينوس في النعمة (اللطف الخزون) والاختيار وعقيدة القضاء والقدر وكان

فالقرآن يقول ان كل شئ من الله ولكنه ينسب الشر الى ضلال الانسان وقد تجد فيه ما يقوى حرية الانسان وتجد فيه ما يخالفها . فهنا طرفا السلسلة التي لم يقدر الناس الى اليوم أن يعرفوا الحلقات المتوسطة بينهما . ولئن كان المسلمون لا سيما في عصر الانحطاط أخذوا يميلون الى القول بأنه لا خيرة للانسان في أعماله فالحقيقة أن القرآن لا يقول بالجبرية وسأل اعرابي محمداً هل يعقل نافته أم يفلتها متوكلاً على الله فقال له : اعقل وتوكل وكان اذا قيل له : اذا كان كل شئ مقدراً عند الله من الأزل فما فائدة السعي ؟ يكون جوابه : اسعوا فيسهل الله لكم الأمور . وبعبارة أخرى : أعن نفسك يعنك خالقك

ومن المأثور عن النبي ﷺ اعمل للأخرة كأنك تموت غداً واعمل للدنيا كأنك تعيش أبداً . فهذه في الحقيقة هي الحكمة وهي جاع الفضائل كلها . ومن أقوال النبي ما معناه ان أفظن المسلمين هو من فكر في أمر الآخرة واستعد لها ما وراءها .

ومن الناس من يقابل الآداب الاسلامية بالآداب المسيحية ويجد هذه أروع من تلك ولا شك أن الاسلام أسمح من المسيحية فيما يتعلق بميول الجسد . وهو لا يطالب الانسان بالمبالغة في قهر نفسه وهو يرى الصلاة أحسن وصولاً الى الله اذا صدرت عن رجل متمتع بلذاته المشروعة . الا أن هؤلاء الذين يرون الطهارة المسيحية أعلى درجة من الطهارة الاسلامية ينسون تقدم زهاد المسلمين في الطهارة وانهم لا يقولون في هذا الأمر عن أحد من نساك الملل الاخرى . وكذلك ينسون تحريم الاسلام للخمر وفرضه صيماً أشد من كل صيام آخر وتشديده على النساء في صيانته عفتهن وفي ملابسهن ما لا يشده دين غيره . وفي هذه المقاييس بين الأديان لا يجوز الاكتفاء بالنظر الى المبادئ نفسها بل يجب النظر أيضاً الى أحوال الزمان والمكان . فلما كان المسيحيون في أواخر الدولة الرومانية المنغمسة في الترف كانوا يتجنبون الشهوات التي ابتلى بها غيرهم . ولما ظهر الاسلام على يد أولئك الأعراب البداة الذين كانوا في شدة من العيش أسرعوا في اللذات بقدر سداجتهم الا أنه

مذهبه هذا موافقاً لمذهب الصلح البروتستانتى كلفين وغير مطابق لحرية المرء في الاختيار وقد تبه في ذلك علماء مشاهير منهم باسكال من أعظم البعيرين الذين ظهروا في فرنسا . وكان مولين اليسوعي يقول بخلاف قول جانسين فاهتم اللاهوتيون الى قسمين واشتد الخلاف وطال ودخل في أدوار مختلفة ولكن الكنييسة قضت على العبيدة الجهنسية)

لما تكون المجتمع الاسلامي وتأطد مست الحاجة الى كبح عنان الشهوات البدنية وظهرت الزعة الصوفية وعلا مقام الزهد

ثم قال درمنغهم : ان القرآن ردد كثيراً معنى كون الدنيا زائلة ومتاعاً قليلاً وانها لم تكن الا عمراً للآخرة . وكان سلمان الفارسي يقول ما قاله باسكال وهو ان المؤمن أشبه بالمرضى الذى يمنعه الطبيب من أن يأكل ما يلذه لأنه يضره . وكان النبي يقول : لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . وعاد النبي اعريباً مريضاً فقال له : هذا تطهير لك . فقال له الاعرابي : بل هذه حى ستأخذنى الى القبر . فقال له النبي : هذا الذى أردته . وكان النبي يتهدج كثيراً ويقنت ويجمع نساءه ويعظهن . وكان أصحابه كثيراً ما يتعبدون ويتقشفون وقد بالغ بعضهم فى العبادة والزهادة والصوم الى أن نهام النبي عن هذا الغلو فى العبادة وفى قهر الأنفس .

ولم يكن محمد يرى خيرات هذه الدنيا علامة على المحبة الالهية وكان يقول لأصحابه : ما أخشى عليكم شيئاً أكثر من خيرات الحياة العاجلة (وما عند الله خيرٌ وأبقى) . فقال له أحد أصحابه أيمكن أن يأتى من الخير شر فتوقف محمد فى الجواب وكأنما جاءه الوحي وأخذ العرق يتصب منه ثم سأل قائلاً : أين السائل ؟ ثم قال له : أترى شيئاً من خيرات هذا العالم يستحق هذا الاسم . وكان يقول ان خيرات هذا العالم ليست بخيرات ان لم تكن آتية بطريق حلال ولم تكن تُنفق فى سبيل البر فان لم تكن كذلك فهى باب للشروان أغناكم فى هذه الدنيا سيكفونون أفقركم فى الآخرة ان لم يكونوا أنفقوا أموالهم فى سبيل الله . وكان يقول : ان جهنم تقول بلاء فيها : انى أنا أضم المتكبرين والأغنياء والجبارين . وكثيراً ما كان محمد ينهى أصحابه عن الطمع فى الدنيا ويدمر على الذين يجمعون الأموال ويحرضون عليها وعلى المرابين وعلى التجار الذين لا يراعون وجه الله فى مكاسبهم وعلى الحكام الذين يميلون مع الأغنياء فى أحكامهم . وكانوا فى صدر الاسلام يكرهون الترف والتنعيم فى الدنيا وربما وصلوا الى تحریم كل ثروة تزيد على اللازم الضرورى فى حياة الانسان . نعم انهم فيما بعد لم يتقيدوا بهذه القاعدة ولكن روح الاسلام الأصلية كانت هى هذه وكانت عظمت محمد شديدة التأثير فى أصحابه حتى انه وصف عذاب القبر مرة فكاد الحاضرون يصعقون من هول الوصف . وكان يجد أيضاً فى وصفه صوراً فى غاية الرقة تدخل الى أعماق القلوب اذا

وصف رحمة الله التي لا تنهاى وما أعد من النعيم للتقين

وقد أشار درمنغهم في آخر كتابه عن النبي ﷺ الى تعدد أزواجه وأورد هنا ما يعترضه المعارضون لينتقصوا من قدره ﷺ فقال انه كسائر سادات العرب استكثر من النساء فتزوج بعضهم عن مجرد عاطفة ، وتزوج بعضهم ليتألف بزواجه قلوب القبائل وتكلم عن زواجه بزینب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة الذي كان النبي قد بنأه وكان مراده بذلك أن لا يجعل من يتبناه الانسان في حكم ابنه الحقيقي ولا يحرم عليه الزواج بمطلقته . وقال درمنغهم ان محمداً وان كان وسع دائرة الحلال فقد ضيق دائرة الحرام . ثم استوفى درمنغهم سيرة النبي ﷺ بدون أدنى تحامل وان كنا لاتتفق معه في جميع الأفكار . ولم تكن الآن نستوفى ترجمة كتابه كله وانما نريد أن نختار منه بعض مواضع على سبيل الاستشهاد لأن الكاتب المذكور لم يكن مسلماً ليقول انه كان ينتصر للإسلام حية على دينه ولم يكن من الكتاب الاوربيين المعروفين ببغض النصرانية ليقول انه انما امتدح الاسلام بسائق بغضائه للدين المسيحي . وانما كان درمنغهم هو من الكتاب المسيحيين المعتقدين بدينهم ولذلك نقلنا كلامه على ما هي عليه ، بدون أن نجتهد في تحقيق ما أخذها من السنة ورواية الأحاديث الواردة في المواضيع التي تكلم عليها . فانظر كيف يقول عن قضية النساء في الاسلام : ان الاسلام قد رفع شأن المرأة في بلاد العرب وهذه قضية لاتقبل المراء وكان عمر يقول اننا لم نكن نعدنا شيئاً في الجاهلية ولم نزل كذلك حتى نزل كلام الله في حقهن . وكان الرسول يقول ان أفضلكم أحسنكم معاملة لزوجته . وكان يوصى النساء بأن يكن طوع ارادة أزواجهن ولكنه كان يشدد جداً على من يغلظ في معاملتهن وينهى عن تزويج البنات بدون ارادتهن وكان يقول : ان أجر الانسان في الانفاق على زوجته أكثر من أجره في الصدق على الفقراء أو الجهاد في سبيل الله . وكان يقول : اذا وضع للزوج يده في يد زوجته تساقطت الذنوب من بين أصابعهما . وكان يقول الجنة تحت أقدام الأمهات . وكان النسوة في الجاهلية لا يرثن شيئاً فجعل محمد للمرأة نصف حظ الرجل في الارث ، ومنع القرآن وأد البنات . وكان لا يمل من التوصية بالنساء والأيتام وتكلم عما يعدّه الله من الثواب لمن ربى أمة وحررها وتزوجها وقد أجاز محمد تعدد الأزواج ولم يكن يمكنه غير ذلك في بلاد ابراهيم ولكن محمداً لم يأمر بالتزوج بأكثر من واحدة

واشترط القرآن العدل التام بين النساء حتى لو أعطى الزوج لاحدى نساءه ابرة وجب أن يعطى مثلها للآخرى وأجاز الطلاق ولكنه قال انه ما من حلال أكره الى الله تعالى منه (أبفض الحلال الى الله الطلاق) ولا يجوز أن ننسى أن الشريعة الموسوية في العهد القديم لم تكن تمنع تعدد الزوجات فان كان الاكتفاء بزوجة واحدة قد صار هو القاعدة في النصرانية فما ذاك الا لأن الاكتفاء بالزوجة الواحدة كان هو المألوف في البلاد الغربية التي انتشر فيها الدين المسيحي

ونقل درمنغهم على «دوكا ستري» في كتابه الاسلام صفحة ١٠٩ قال: مما لاشك فيه بحسب قول ريفيل Rëville اتنا اذا نظرنا الى الزمان والمكان اللذين وُجد فيهما محمد لم نجد اصلاً أشرف ولا أجراً من الاصلاح الذي قام به محمد بحق النساء فالمرأة في الشرق مديونة كثيراً لمحمد. وأما مونشكيو في روح الشرائع فقد قال: ان تعدد الزوجات في الشرق واحتجاب النساء والبلوغ قبل الوقت ودخول النساء في الهرم قبل الوقت، كل ذلك من الأمور التي نشأت عن تأثير الاقليم.

ثم قال درمنغهم انه هناك محل نظر في الاعتراض على تعدد الزوجات في الاسلام فهل هذا التعدد الرسمي هو أسوأ من التعدد غير الرسمي^(١) ومن محاسن تعدد الزوجات منع البغاء وتيسير الزواج لجميع النسوة بحيث تصان الأعراض يقول درمنغهم هذا، ولكن يغلب عليه مشربه الغربي فيقول: كنا نود لو ان محمداً لم يجزُ تعدد الزوجات أصلاً. وينكر درمنغهم أشد الانكار قول بعض الناس بأن المرأة ليس لها مقام في الاسلام ويقول ان هذه التهمة أشبه باتهام النصرانية أنها جعلت المرأة ملعونة وأصلاً ومنبعا للشرور. قال: ويكفي أن يذهب الانسان الى بلاد الاسلام ليعلم ما هناك من محبة عائلية وحرمة للنساء خلافاً لما يتقوّل به بعض الاوربيين. ثم ذكر درمنغهم في آخر كتابه حجة الوداع وقال ان النبي شعر بدنو أجله فخطب المسلمين في ذلك اليوم خطبة وداع وقال لهم: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» وكأنه علم ان امته ستشر عقيدته في الحافقين

وقد وقع ذلك بالفعل وخرج العرب ففتحوا الأقطار واختلطوا بالشعوب ولم يكن يخلو علمهم من شدة ولكنهم كانوا على جانب عظيم من الحكمة وكان فيهم استعداد ليرثوا ممالك

(١) يشير الى ما عليه القوم في أوروبا من المخادنة

الفرس والروم المحتضرة ولم يكونوا كالفاندال والجرمان في الميل الى العبث والتدمير فتناولوا مصابيح العلم من أيدي الروم والفرس وسلخوا بها في فتوحاتهم فكان الاسلام في احدى يديهم والمدنية اليونانية والفارسية في الأخرى. وكانت الخلافتان الأموية والعباسية من أجد أدوار التاريخ. وقد نجح الاسلام في دعوته لأنه كان مستحقاً للنجاح فانه قد أتى الشرق بالعلاج الذي كان هذا يحتاج اليه . وقد تحمل المسلمون قبل الهجرة ماتحملاوه من الانتقام حتى اذا ظفروا عاملوا أعداءهم بالتسامح

نعم ان الشرك لم يكن ليعفو الاسلام عنه . ولكن أهل الكتاب أى اليهود والنصارى كانوا أحراراً أن يعيشوا في بلاد الاسلام متمتعين بحقوقهم . وكان محمد يقول من آذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة . وانا ترى القرآن والأحاديث ملأى بالنهي عن الاكراه في الدين . وقد عمل الفاتحون المسلمون بهذه القاعدة وما دخل الناس في الاسلام أفواجاً الا لما رأوا فيه من التسامح ولما دخل عمر الى القدس لم يسمح بالحاق أدنى أذى بالمسيحيين وترك لهم كنائسهم بأيديهم وأحسن معاملة بطريقتهم وأبى أن يصل داخل كنيسة القيامة لئلا يأتي المسلمون فيدعوها قال : فلنقابل بين هذه المعاملة وعمل الصليبيين عندما دخلوا الى القدس وذبحوا المسلمين وغاصت الخيل في الدماء الى صدورها . قال روبرتسون : ان أتباع محمد هم الأئمة الوحيدة التي جعت بين التحمس في الدين والتسامح فيه أى أنها مع تمسكها بدينها لم تعرف اكراه غيرها على قبوله . وقال الأب ميشون Michon في كتابه « رحلة دينية الى الشرق » : انه من المحزن للأئمة المسيحية أن يتعلموا التسامح الديني من المسلمين . قال درمنغهم : ان في هذا الكلام مبالغت لان النصرانية أيضاً تأمر بالتسامح الديني وأحياناً تفوق الاسلام في ذلك . ولكن المبالغة أيضاً واقعة في اتهام الاسلام بالتعصب . وقال الشيخ محمد عبده ان التوراة والانجيل والقرآن كتب متطابقة وبها يتم التعليم الالهي وتشرق الديانة الحق . وقال مونتس Montaigne : انا نشط كل النشاط ونفعل العجائب عندما تكون أنفسنا متمزعة الى الشرور من البغضاء والقسوة والطمع والشح وحب التدمير وبعكس ذلك تفتقر همتنا في الخير وحب الاعتدال وقد وجدت دياتنا لمنع الرذائل فكانت النتيجة أن صارت هي التي تحميها وتغذيها

وقد تكلم درمنغهم عما كان يفهمه من رسالته الى الخلق فقال انه خلق امرأ ناهياً لكنه لم يكن يتقاضى الناس الطاعة لأوامره الا بواسطة يبلغهم أو امر الله تعالى . وكان يقول

ان الأمر لله وحده وكان ينهى الناس أن يعاملوه معاملة الملوك . وقد ظن بعض من كانوا من أعدائه في البداية انه لما فتح مكة ستقلب المسئلة من النبوة الى الملك لكنهم أخطئوا في هذا الزعم وبقى محمد على مشر به الأول من سناجة الحال . وكان يقول : لست ملكاً ولكنى رجل من قريش . ولم يسكره الظفر ، بل عفاً عند ما قدر ، ولم يكن المال ولا شئ من غنائم هذه الدنيا ذا قيمة في نظره وكان يفضل عليها كلها اهتداء رجل واحد الى الاسلام . ولم يكن يؤله الا شئ واحد كان يجده في أعماق نفسه وهو عدم فهم الكثيرين المقصود من رسالته وانضمام كثيرين اليه لاحقاً بها بل التحاقاً بالحزب الغالب . وختم درمنهم كتابه بقول الأب دو بروغلي Dr Broglie في كتابه « أسرار تاريخ الديانات » وهو : « جاء في التوراة أنه من اسمايل يخرج شعب عظيم هكذا في سفر التكوين » . فانتشار الاسلام هو من جهة ما أنجز الله به وعده لأبي المؤمنين

تعليل المؤرخين الاوربيين لسقوط مملكة فارس

والمملكة الرومانية بيد العرب

أكثر المؤرخين الاوربيين يعللون سقوط مملكة فارس وجانب عظيم من السلطنة الرومانية في أيدي العرب بهذه الأسباب التي ذكرها ستودارد . ثم يذكرون لنجاح العرب السريع أسباباً من شهامة العرب وميلهم الى مكارم الأخلاق ، وسرعة قبولهم للدين ، وحسن جمعهم بين السيف والقلم وبين الحشونة والرفقة . وبعضهم يعترف بتأثير العقيدة الاسلامية في هذا النجاح ، ويقدر قدر سواغها في العقول السليمة وخلوها من الأسرار غير المفهومة ، الا أن أعداء الاسلام يميون عليها هذه المزية ويجمعون خلوها من غير المفهوم «سناجة» ويعبرون عن ذلك بلفظة « Simptisme » وكثيراً ما تقرأ هذا الوصف في انتقادهم للاسلام ويكرروه كثيراً وهم يزعمون ان انتشار الاسلام بين الأقوام الذين لا يزالون على الفطرة الأصلية ، انما سببه هذه السناجة في تعاليمه . وبالجملة أعطوا المنطق السديد اسم «سناجة» وجعلوا السائق في العقل السليم نزلاً عن درجة الاسرار التي تعلى شأن الأديان بكونها غير مفهومة بزعمهم وركبوا بهذا مركباً صعباً أصبح مركزهم فيها حرباً ، لاسيما في هذا العصر الحديث بدأ فيه أتباع الأسرار غير المفهومة يقلون شيئاً فشيئاً ، وصار المطالبون بالدليل والتزعمون الى الجلاء هم امة المستقبل

الحضارة الاسلامية و رقى العرب الفكرى

فى القرون الوسطى

د. بشير شبيب

- العواصم الاسلامية وعمراتها فى آسيا وافريقية والأندلس
- العلوم والفنون والصناعات
- أقوال المستشرق ما كس مايرهوف الألمانى فى كتابه « العالم الاسلامى »
- فن العبارة الاسلامية

اتفق المؤرخون العصريون من أهل أوربة ، على أن بغداد فى القرن الثالث للهجرة كانت أرقى مدن ذلك العصر حضارةً ، وأزخر عمراً ، وأعظم ثروة ورفاهية ، وأن هارون الرشيد كان أكبر سلاطين ذلك الدهر ، وأن عبد الرحمن الناصر فى القرن الرابع كان أرقى ملوك الغرب من مسلمين وافرنج ، وكانت الأندلس فى أيامه أرقى الممالك كلها .
ويحسن أن أنقل هنا جلة مختصرة حررتها فى رسالتى : « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ » وهى هذه :

« قد بلغت بغداد فى دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال الحضارة ، واستبحار العبارة وتناهى الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان^(١) وكانت البصرة فى الدرجة الثانية عنها وكان أهلها نحواً من نصف مليون .
وكانت دمشق ، والقاهرة ، وحلب ، وسمرقند ، واصفهان ، وحواضر أخرى كثيرة

(١) وهو عدد يندر اليوم فى سكان كبريات العواصم

من بلاد الاسلام ، أمثلة تامة وأقيسة بعيدة في استبحار العمران .

وكانت القيروان ، وفاس ، وتلمسان ، ومرابكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر أو أن يكثرها مكثر في أوربة حتى هذه القرون الأخيرة . وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف نسمة . وكان فيها نحو من ألف وسبعمئة جامع ، عدا المسجد الأعظم الذي لما زرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الاسبانيولية ، انه يسع بحسب القياس المضبوط خمسين ألف مصل في الداخل ، وثلاثين ألفاً في الصحن ، جملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين !

ولما ذهبنا الى قصر الزهراء ، رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلنا انها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً ، في ثمانمائة متر عرضاً . والأسبانيول يقولون لها : مدينة الزهراء . وقال لي المهندسون الموكلون بالحفر في آثرها ، انهم يرجون الاثيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة ، في آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها ، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الأسبانيول نصف مليون نسمة ، ولم يكن وقتئذ في أوربة عاصمة تحتوي نصف هذا العدد . وجرأ غرناطة لا تزال يتيمة الدهر الى اليوم . هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه . والا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم ننع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقاً فوق ضبق .

وأنا أضيف الى ذلك هنا أن المهندسين الأسبانيول الذين أشرت اليهم ، ذكروا لي أنهم كانوا قد ألقوا لجنة مهندسين طافت في جميع أسبانية للتنقيب عن آثارها القديمة ومبانيها ، فأحصت عدد القلاع التي فيها سبعة آلاف قلعة وحصن ، ثلاثة أرباعها من بناء العرب ، وأنهم لخطوا حصون العرب كلها مبنية على خطوط واحدة يحمي بعضها ظهر بعض يتدكل خط من الحاضرة من احدى جهاتها ويليه خط آخر من جهة أخرى ، وخط آخر من جهة أخرى وهلم جرا وكل خط تجد الحصن فيه على مساواة الحصن متصلة الى ثغور الافرنجة .

وتأمل فيما قاله « كلود فارير » الكاتب الافرنسى المعروف في مقدمة مجموعة اسمها « افريقية الشمالية » جمت فيها صور أبداع مباني العرب في تونس والمغربين الأوسط والأقصى وهو هذا :

« قصور وجوامع وأبراج وحواضر مألثة جميع هذه الأرض التي انتزعتها نبيّ الإسلام من ذرية سبيون الروماني . لعمرى ان المسلم هو خلافاً لما يزعمه كثير من الجاهلين ليس بالرجل المدتر . بل انك تجد من تونس الى طنجة وفي فاس وفي مكناس ومراكش ، كما في القاهرة والقيروان ، بدائع آثار عريية مألثة في كل محل بجانب بدائع آثار رومانية تزيدها ولا تنقصها » .

ثم وصف من جلة ما وصف من آثار العرب في المغرب ، مدرسة دخلها من مدارس فاس ، فقال انها كأجل ما وجد من هياكل يونان القديمة ، لأن جميع قوانين منطلق البناء مرعية فيها أشد الرعاية . وقال الكاتبان الافرنسيان المعروفان جيروم وجان تارو : « من لم يشاهد مقبرة الملوك السعديين في مراكش لم يدرك الى أى أمد وصلت مدنية الإسلام من البداعة » .

واقراً في « الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى » عن آثار الموحدين ثم آثار المنصور السعيدى في مراكش تجد فيه ما تقرُّ به الأعين .

وأهم من هذا في هذا الباب « كتاب تحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » تأليف المؤرخ العلامة القطريف الشريف ابن الشريف أمير العلاء وعالم الأمراء مولاي عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية في المغرب الذى فيه أوسع وصف لمباني جده مولاي اسماعيل الكبير ، سلطان المغرب الذى استمرت سلطنته نحواً من خمس وستين سنة ، وبنى في مكناس وغيرها من القصور والابراج والحصون ، ونسق من الجنان والحدائق ، ما ندر أن سمى الى مثله همة ملك من ملوك العالم .

ومن أجدوا في وصف العبارة الاسلامية الفيلسوف الافرنسى « غستاف لوبون » المشهور في تأليفه المتعددة وفي الأيام الأخيرة « رينه غروسه » الذى اشتهر في علم المدينة الشرقية .

وقد ظهر حديثاً عن المدينة الاسلامية في المغرب كتاب تمتع اسمه « مراکش ومدن الفن » Le Maroc et les villes d'art طنجة ، وفاس ، ومكناس ، ومراكش ، والرباط ، مؤلفه « بيار شامبيون » Pierre Champion قد حوى من هذا الباب خلاصة مايلزم وتضمن ٢٢٧ صورة من صور المباني الممتازة برونقها ، وبداعة انشائها في بلادالمغرب الاقصى ويظهران للمؤلف اطلاعاً على العريضة لنقله كثيراً من الفصول عن تواريخ المغرب ، « كلاستقفا » و « روض القرطاس » وغيرها ، فضلاً عما نقله عن ابن خلدون الذي لقبه بارسطو القرن الرابع عشر . ولقد كان أكثر ماحدث عنه مبانى المرينيين في فاس ، والموحدين والسعديين في مراكش ، والانديسيين في الرباط

« وبما ذهب اليه أن صناعة البناء في المغرب ترجع الى أصول غربية بيزنطية ، وقوطية وسورية ، جاءت من الشرق الى القيروان ، فتلسان ، فالاندلس ، ثم عادت أدراجها من الاندلس الى افريقية . قال وان ماعليه الناس اليوم في المغرب هو أن صناعة البناء وزخرف المساكن انما هي صناعة أندلسية في أصلها وان أحسن قصور المغرب وأبهائه هو مايناه الصناع الاندلسيون . قال وقد كان هذا هو الرأى من زمان ابن خلدون الذي ذكر من جلة كلامه أن فن البناء انما يبقى محفوظاً في الحواضر الكبيرة ، التي يزخر عمرانها ، وأنه في زمانه انما هو محفوظ في الاندلس . فالصناع الاندلسيون لا يعملون في بلادهم فقط بل تجدهم يعملون في تونس ، والقاهرة ، وغيرها وانك تعرفهم من سائر أهالى البلدان الأخرى »

ولعل الفقرة التي نلخصها « شامبيون » هذا عن ابن خلدون هي مايلي نقلاً عن المقدمة :

« وأما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لغوتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس ، وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعاً وكرهاً ، وكانت من اتساع النطاق ماعلمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ، ومعظمها من أهل الاندلس ، تم انتقل أهل شرق الاندلس عند جالية النصرى الى افريقية ، فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آنلراً ، ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر ، وما ينتقله المسافرون من عوائدها ، فكان بذلك للغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة الخ »

أو هو قد استخلصها من هذه الفقرة الثانية من كلام سيد فلاسفة الاجتماع وهي :
« وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد ، فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها
مستحكمة راسخة في جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كاللبناني ، والطبخ ، وأصناف الغناء
واللهو ، ومن الآلات ، والأوتار ، والرقص ، وتنضيد الفرش ، في القصور ، وحسن الترتيب
والأوضاع في البناء ، وصوغ الآنية من المعادن ، والخزف ، وجميع المواعين ، واقامة الولائم ،
والأعراس ، وسائر الصنائع التي يدعو اليها الترف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها وأبصر
بها ، ونجد صنائهما مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع
الأمصار وما ذاك الا لرسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط ،
وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جراً . فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر الاما يُنقل
عن العراق والشام ومصر أيضاً لطول أماد الدول فيها ، فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت
جميع أصنافها على الاستجداء والتنميق ، و بقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران ، لا تفارقه ،
وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم
وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال ، وان كان ذلك دون الاندلس ، الا
انه متضاعف برسوم منها تُنقل اليها من مصر ، لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من
قطرها الى قطر مصر في كل سنة ، فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر
لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس ، لما ان أكثر ساكنيها من شرق الاندلس حين الجلاء
لعهد المائة السابعة الخ »

وبعد أن نقل المسيو شامبيون ما نقله عن ابن خلدون في هذا الباب قال ان الصناعة
المغربية والصناعة الاندلسية هما من أصل واحد ، وان كثيراً من القصور والبنيات في العدوتين
هي شقائق وأخوات مثل مدارس فاس ، وقصر اشبيلية ، وجرآء غرناطة ، لكن عاده فقال
ماملخصه : ان مباني فاس تمتاز بالصلابة عن مباني اسبانية ، فان قصور اسبانية يكثر فيها
الجبص والجصين والقرميد ، وانك تجد جدرانها مغطاة بهذه الأشكال ، وانه يكثر فيها تقليد
تعاريج الكهوف ، وتضاريس الفيران ، وخلايا النحل ، وما أشبه ذلك وكله مصنوع في المادة
الرخوة التي تجمد فتصير كالحجر ، وليس الأمر كذلك في المغرب ، فان الطريق فيه هي النحت
في الحجر رأساً ، وتتمتاز صناعة البناء في المغرب بكثرة الخشب الذي يفتنون في ترزينه

وترصيعه وتوشيعه الى النهاية ، ويساعدهم على ذلك وجود خشب الأرز الكثير في جبال الأطلس ، وهو الخشب الذى لا يفتنى . وأنهى المسيو شامبيون كلامه في هذا الموضوع بعدما ذكر بدائع المغرب لاسيما آثار بنى مريين قائلاً ، ان آثار المغرب قد بقيت محفوظة أكثر جدا من آثار الأندلس .

قال ونحن في المغرب بازاء صناعة مدينة قديمة قد تداعت الى السقوط ، الا أنها لاتزال ماثلة وهى الصناعة الأندلسية . ولقد كانت تمتاز بالصلابة والمتانة في عصر الجهاد الاسلامي السابق ثم ازدادت ميلاً الى النحافة في القرن الرابع عشر ، ثم كسبت رونقاً لامعاً في القرن السادس عشر ، ثم كسبت عظمة وقوة تأثير في القرن السابع عشر ، ولكنها عادت فالتحدرت في أواخر القرن الماضى . وهذا التقسيم يؤيده المسيو برسير ريكار Prosper Ricard الذى هو من المتخصصين في معرفة الصانع الوطنية في المغرب . ثم ذكر في محل آخر أن المغرب القديم لا يزال حياً ، وأن من جال فيه يجد أحيانا من طرائقه القديمة ما يجذب به بل ما يدهشه ، فانه قطر طويل عريض ، تتكسر على سواحله الغربية أمواج الاطلنطيك المتلاطمة وفيه السهول الواسعة الممتدة بجذاء جبال من أعلى جبال الأرض ، تشرق عليه شمس شديدة اللعان الا أنها لطيفة الوقع ، وهناك أمة ذات جبال قديم كما وصفها بهذا الوصف أوجين دولاكروا Eugène de La Croi تلبس أطهاراً بالية الا أنها أطهار شريفة ، وأينا ذهبت في قراها وأريافها تجد من المناظر ما يؤثر في النفس ، ويعيد لك ذكرى التوراة . وتجد في المدن جوعاً وأعياداً ومواسم مستمرة ، تخيل لك تلك البلاد متحفاً دائماً مفتوحاً . وأهم من كل شئ هذه الحواضر الكبيرة المعمورة التي هى كلها تقريباً مدن صناعة وفن ، وكأن المدن كلها أسواق مضت عليها القرون نلو القرون ، وهى مدخّر للأرزاق ، والمؤونات والمواعين والأدوات ، تصونها صيانة الكنوز جدران عالية وأسوار شاهقة فكل هذا يؤثر في النفس ويعلق في القلب ويجعل هذه الحواضر المغربية شخصية خاصة بها . (انتهى ملخصاً)

ولم يقسم لى الحظ أن أزور بلاد المغرب وأرى آثار الموحدين والسعديين في مراكزش وبنى مريين في فاس والاندلسيين في الرباط ومولاي اسماعيل في مكناسة وهو الذى آثاره تحاكي آثار رومة العظمى ، كما قال بعض الأفرنج ، وانما بعد السياحة الى الأندلس نمكنت من زيارة طنجة وتطوان ، ومكثت فيهما أيام قلائل برغم انقباض الفرنسيين من وجودى

هناك ، فساهمت في طنجة من المباني السلطانية ما يستحق التنويه ، ولكن قصر الوزير المنهجي في جبل مرشان من تلك المدينة الفريدة في نحر البحر ، التي هي طنجة ، هو قصر نادر المثال في دقة الصناعة ، ونيقة الزخرف ، وتمثيل المدينة العربية بأبهى مظاهرها ، وقد شاهدت في تطاون أيضاً من منازل سمرات البلدة كآل بنونه ، وآل الطوريس ، وغيرهم ما خيل لي اني لم أزل في الأندلس بين أبهاء غرناطة أو مقاصر اشبيلية ، وراقني جداً أن الحكومة الأسبانية شادت داراً للعجزة ومدرسة للصنائع وغير ذلك على النسق الأندلسي المغربي المستفيض في أبنية أكبر المغرب ، وما لا ينكر في هذا الباب أن المرشال ليوتى الذي هو أعقل مستعمر افرنسي ولربما كان أعقل مستعمر أوربي على الإطلاق ، قد بذل جهده أيام تمثيله الحكومة الفرنسية في المغرب في المحافظة على الآثار العربية القديمة وفي احياء صناعة البناء العربي الأنيق بحيث تجددت فيها الرغبة ووضعت فيها الكتب وتقيدت منها النفائس بالتأليف والتخليد مما يمكننا أن نذكره بالشكر ، لأنه من قبيل الأوصاف الذي طبعت الجليبة البشرية على استحسانه وياليت الأوربيين اطردوا الأوصاف في سائر الأمور



ويجدر بمن أراد أخذ صورة مجملية في موضوع العمران الاسلامي أن يقرأ « تاريخ التمدن الاسلامي » لزيدان و « حضرة الاسلام في دار السلام » لجليل المدور ، وغيرهما من الكتب اللخمة . وقد أوردت أنا بعض أمثلة في هذا الموضوع في رحلتي الحجازية المسماة « بالرسائل اللطاف في خاطر الحاج الم أقدس مطاف »

ولما كان أعداء الاسلام يريدون أن ينتصوه بأي شكل من الأشكال ، فقد حاولوا انكار أن يكون له مدينة خاصة به وزعموا أنه ملازداً على أن يقل ونسخ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل . ولقد رأيت أن أثقل أيضاً الى هذه الحوائث جلة أوردتها في رسالة « لماذا تأخر المسلمون » وهي هذه :

« وكم حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدينة الاسلام » كتباً قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار . وان أشد مؤرخي الافرنجة تحاملاً على الاسلام لا يتعدى أن يحول التصغير من شأن مدينته ، بانكار كونه هو أبا عنترتها . فقصرى هذه الفئة أن يحبسوا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً ، وسبقوا الى نظريات صلت خاصة بهم ، وغايتهم أن

يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على ان تقفوا وأذاعوا ، وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب ، وهذا القول على اطلاقه مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها ، وحقائق كشفوها ، وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما وشوا طرازه ودبججوه ، وما نشره من قبره وما تقفوه . ولنفرض انهم أخذوا عن غيرهم فن استرق شينا ، وقد استرقه ، فقد استحقه .

وبعد فلا يعلم الخلق مدينة واحدة من مدنيت الامم الا وهي رشح مدنيت سابقة ، وراث أقوام درجوا ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات الباب متباينة الأجناس .

وانى لناقل هنا بعض ماقاله المستشرق المحقق « ماكس مايرهوف » الألمانى الذى أتقن هذا الباب فى كتابه « العالم الاسلامى » Le Monde Islamique وهو من نظار المؤرخين ومن كبار الأطباء . فالاستاذ « مايرهوف » يقول ماملخصه : ان العرب لم يحملوا معهم الى العالم لدن الفتح الا اللسان العربى الذى كان اذ ذاك ، برغم ثرته ، وتعدد مناحى التعبير فيه ، محتاجاً الى الألفاظ العلمية . فبدأ العرب أولاً بخدمة اللغة ، ومن أجل فهم القرآن وضعوا علم النحو . ثم اتقنوا علم الرواية لأجل حفظ أشعارهم من الجاهلية فما بعد . ونبغ منهم بعد الاسلام شعراء كبار مثل عمر بن أبى ربيعة ، والأخطل ، وجبرير ، والفرزدق ، ثم أبو العتاهية ، وابن المعتز ، وأبو تمام ، والمتنبى وغيرهم . قال : وعلى وجه الاجمال ، فشعر العرب لا يلائم ذوق أهل الغرب ، فان مبالغت شعرائهم فى أوصاف محاسن الفوانى ، واغراق أبطال البادية فى المفاخرة ، ليس مما تستعذبه أذواقنا . وبعكس ذلك الوزن ، وحسن النسق ، ومملكة التعبير التى عند العرب فهى عذبة الى الغاية وانه من الممكن للشاعر العربى أن يقول ماشاء من طوال القصائد على روى واحد ، ثم ذكر « مايرهوف » فن التصوير ونحت التماثيل ، وقال : انه لا يوجد فى القرآن منع صريح لهذه الفنون ، الا أنه يوجد فى الأحاديث النبوية ما يمنع تمثيل المخلوقات الحية ، وهو لا يجزم بصحة اسناد هذه الأحاديث ، ويعتقد أن هذا التحريم راسخ الى الاسلام عن شريعة موسى . وعلى كل حال ، فقد تأبى المسلمون أن يمثّلوا البشر بالحجر ، وحصروا صناعة التصوير فى المخلوقات غير الحية وفى

« م ٨ - اول »

النباتات . قال : وقد وجدت أبنية من صدر الاسلام مثل قُصَيْرِ عَمْرَةَ ، الذى يرجع تاريخه الى بنى أمية ، وفيها تماثيل يدل وجودها على أنهم لم يكونوا يتشدّدون فى منع التمثيل الى الحد الذى وصلوا اليه فيما بعد . فأما الشيعة ، فقد ذكر « مايرهوف » أنهم لا يتحرجون من قضية التصوير ، واستدل على ذلك بالدول الشيعية التى لم تكن تمنعه أصلاً . قال وقد أفضى منع صناعة التصوير والتمثيل الى حصر جهود مهندسى الاسلام فى اتقان صناعة البناء وذكر فى هذا الباب أمثلة ، منها قببة الصخرة فى المسجد الأقصى ، وبين ما أخذ أسلوب البناء فى الاسلام ، وتتبع تاريخ هندسة البناء الاسلامية ، والأطوار التى مرت بها ، وأورد أمثلة من آثار سامراء ، والرقة ، وجامع ابن طولون بمصر وجامع القيروان بافريقية ، وجامع قرطبة بالأندلس ، وجامع تلمسان فى الجزائر ، وذكر صناعة البناء الاسلامية فى بلاد العجم ثم فى بلاد الترك ، وأورد أمثلة بارزة كجامع الفاتح فى القسطنطينية ، ثم جامع السلطان سليم فى أدرة الذى هو من هندسة سنان المشهور ، وقال : ان لسان هذا ثلاثمائة وثمانية عشر أثراً من أجل الآثار . ولم ينس « مايرهوف » ذكر حراء غرناطة ، وقال : انها من أشهر مباني الدنيا ، وشهد أيضاً بتناهى الذوق فى صنعة بناء المساجد الاسلامية الحديثة فى شمال افريقيا

قال : وبالرغم من حرمة التصوير فى الاسلام فقد ازدهرت هذه الصناعة فى القرن الثامن للمسيح فى العراق وفى فارس ، وكانوا يخرجون كثيراً من الكتب المصوّرة ، وهذا ناشئ من عدم تشديد الشيعة فى منع التصوير . ولكن اعتماد المسلمين فى النقش والتزيين كان على تمثيل الخلائق غير الحية ، وقد أتقنوا هذا الفن الى الغاية ، سواء فى الحجر أو فى الخشب أو فى النسيج ، وأورد فى هذا الموضوع فوائد قلماً توجد فى الكتب ، وكنا نود لو فسح المقام لآبرادها ، ولكن هذه الحواشى لا تسع كل ما يجب الاطلاع عليه ، الا أننا نتقل عنه ما ذكره بشأن ترصيع النحاس والفولاذ ، وتخريم الذهب والفضة ، فقد قال ان أسواق اصفهان ودمشق والقاهرة آتت فى هذا الموضوع ببدائع تفوق الوصف ، ومثلها حفر العاج وتقطيع البلور ، وزخرفة الآنية ، وتطريز جلود الكتب ، فانها بأجمعها صناعات امتاز بها المسلمون وقلدهم فيها أهل ايطالية وهكذا دخلت الى أوربة .

قال : ومن الصناعات التى أتى بها الاسلام الى الغرب صنعة الورق ، وقد أخذها

المسلمون عن الصين . وفي سنة ٧٩٤ مسيحية أنشئ في بغداد أول معمل للكاغذ ، وانقطع استعمال الرق والبردى . وقد كانت صنعة تجهيز الطيوب والعقاقير والتجارة بها من خصائص العرب . وأظهر « مايرهوف » اعجاباً شديداً بمهارة العرب في الأخذ والعطاء ، وبُعْد همتهم في التجارة ، وقال انهم كانوا يستجلبون الجلد والفرو من أقصى البلاد الشمالية كروسيا وبلاد السكندناف ، يستدل على ذلك بكثرة ما وُجد من النقود العربية في تلك البلاد . قال : وانهم كانوا يركبون البحار ويبلغون أقاصيها . فقد وصلوا الى أقصى جنوبى افريقيا جنوباً ، والى جزائر الخلدات غرباً ، والى الهند والصين شرقاً .

قال : وان العرب وسائر الشعوب الاسلامية من غير العرب بلغوا شأواً بعيداً في علم التاريخ . نعم انه يوصف مؤرخو الاسلام بعدم طلاوة الروايات ، وبضعف ملكة النقد ، ولكنهم حريصون جد الحرص على تقييد جميع ما يسمعونه ، وضبط شوارذ التاريخ وهم بالاجال ثقات فيما يروونه لا سيما عما شاهدوه في زمانهم ، فتواريخهم عمدة لا يستغنى عنها لأجل معرفة تاريخ القرون الوسطى ، وقد ذكر من مشاهير مؤرخيهم الطبرى ، والمسعودى ، وابن مسكويه ، وابن الأثير ، وأبا الفداء ، والمقرزى ، والسيوطى ، ثم ابن خلدون ، وقال عن هذا انه فيلسوف واجتماعى أكثر مما هو مؤرخ .

ثم ذكر « مايرهوف » تاريخ الفلسفة العربية ، وهو لا يخرج عما رواه سائر المؤرخين من أنهم نقلوا فلسفة يونان ، وترجموا كتب هذه الأمة ، وقال : ان أول فيلسوف عربى هو الكندى وجاء بعده الفارابى وهو تركى الأصل ثم جاء بعدهما ابن سينا وهو فارسى ثم اشتهر من فلاسفة العرب ابن رشد من أسبانيا ، وقد ألّف هذا كتباً كثيرة لم يبق أصلها العربى ولكن بقيت تراجمها اللاتينية . قال : وكان لكتب فلاسفة العرب أعمق تأثير فى اللاهوت المسيحى ، وقد كان فلاسفة العرب يرمون الى التوفيق بين الفلسفة اليونانية ومبادئ الدين الاسلامى

ثم ذكر علم الطب فقال ان العرب قلدوا فيه اليونانيين أيضاً ، وذكر مشاهير أطباء العرب كلرازى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن زهر ، وأبى القاسم الزهراوى ، وقال : ان طب العرب كان يعمل به أهل أوربة فى القرون الوسطى ، وأشار الى كتب طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة الذى ترجم فيه أربعمائة طبيب منهم كثير من اليهود والنصارى .

قال : وان فضل العرب في الكيمياء قد فاق فضلهم في الطب مع بلوغهم في هذا غاية بعيدة : وان معرفة الحوامض المعدنية ، والأمونياك السائل ، وغير ذلك من المواد الكيماوية انما بدأت عندهم . فالعرب في علم الكيمياء كما في علم الطبيعيات كانوا معتمدين على التجارب وهكذا تمكنوا من كشف حقائق كثيرة

قال : وأما في الرياضات فان العرب فاقوا أساتيدهم اليونانيين ، وناهيك ان علم الجبر اسمه عربي ، وان محمد بن موسى هو الذي وضع هذا العلم سنة ٨٢٠ ميلادية ، كان البيروني الفارسي وضع علم المثلثات سنة ١٠٠٠ وقد كان للعرب الفضل في وضع ما يسمى : « بالجيب والسهم » و « الخط المماس للدائرة » ، وهم الذين اخترعوا الاسطرلاب ، ووقفوا به الى أقيسة فلكية وأرضية في غاية القيمة . وقد عرفوا أيضاً دائرة الأرض بحسب ما هدتهم اليه تحقيقاتهم هذه ، وهم الذين أدخلوا الأرقام الهندية الى أوروبا . ولذلك تسمى بالأرقام العربية . ثم ذكر طول باعهم في علم الفلك ومن اشتهر من الفلكيين منهم والامراء والملوك الذين كانوا يغنون بهذا العلم ويننون المراصد الفلكية وتكتب لهم الأزياج . قال : وقد عرف فلكيو العرب حركة الأرض حول الشمس ولكنهم لم يوقفوا لتبينها لعدم اطلاعهم على قانون جاذبية مركز الأرض الذي انكشف لغاليله فيما بعد . قال . وقد افان الهيثم المتوفى في القاهرة سنة ١٠٣٩ ميلادية كتاباً في علم المناظر مفصلاً ، لم يبق منه الا ترجمته اللاتينية ، ولهذا العالم الكبير مؤلفات في المراءى الكروية والعدسية وغيرها ، ثم ذكر اختراعات كثيرة لهم في الميكانيكيات وقال ان كتبهم في هذا الفن كانت مشهورة في القرون الوسطى . قال : وان اتساع العالم الاسلامي قد أوسع معارف العرب الجغرافية فخذوا العروض والاطوال ، واتخذوا ابرة المغناطيس ، وذكر منهم مشاهير الجغرافيين كالادريسي وأبي الفداء ، والفزويني ، والدمشقي ، ثم ذكر أصحاب الرحلات المشهورة كابن جبير وابن بطوطة وأثنى كثيراً على كتاب « معجم البلدان » لياقوت . قال : وكانت للعرب اليد الطولى في زمانهم في علوم المعادن والنباتات والحيوان ، وكانوا يعتمدون في جميعها على التجارب ، وقد تلقى الغرب عنهم معارف وعلوماً كثيرة ، وعرف ما لم يكن يعرفه في ذلك الوقت الى آخر ما قرره الدكتور « مايرهوف » المذكور وهو الماني الجنس ، مشهور بطب العيون ، وله اليد الطولى في الاستشراق ، وقد أثنى لي عليه وعلى معارفه كثيراً المستشرق الا شهر « سنوك هير كرونييه »

الهولاندى ، وعلت ان الدكتور ملهروف مقيم اليوم بالقاهرة . وأكثر ما أعجبنى من كلامه فى وصف علوم العرب قوله انهم كانوا يعتمدون فى العلم على التجربة وهذا يخالف مذهب بعض الشعوب المتشعبيين الذين لا يفتأون يقولون ان العرب كانوا يعتمدون فى علومهم على الأسلوب الفئى ، وعلى التخيلات ، وما أشبه ذلك من الأقاويل الفارغة .

لماذا الاسلام راق بذاته

والشعوب الاسلامية غير راقية ؟

وأقول البرنس جيوفانى بورغيزي Giovanni Borghese الايطالى والفيلسوف كوندوسه Condooet الفرنسى فى المقارنة بين نظام الاسلام والكثككة

للأمير شكيب

نشر البرنس « جيوفانى بورغيزى من مشاهير رجالات ايطاليا منذ بضع عشرة سنة كتاباً جليلاً أسماه « ايطاليا الحديثة » أحاط فيه بجميع الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والأدبية المتعلقة بايطاليا وذكركل ما بهم ايطالياً معرفته وعند ما وصل الى المثل الأعلى الادبى صفحة ٢٧٥ نقل فقرة من كتاب « تقدم العقل البشرى » للفيلسوف الديموقراطى الافرنسى « كوندوسه » جاء فيها ما يلى مترجماً بالحرف :

« سأذكركيف أن ديانة محمد التى هى أبسط الديانات فى قواعدها وأقلها استحالة فى شعائرها وأكثرها تسامحاً فى مبادئها تظهر كأنها هى السبب فيما عم قطعة كبيرة من الكرة الأرضية من عبودية دائمة وبلاد ملازمة على حين أننا سنرى تألق أنوار العلم وأشعة الحرية تحت ظل أشد الخرافات استحالة وفى محيط التعصب الدينى البربرى » انتهى
قال البرنس بورغيزى : ان مراد الفيلسوف كوندوسه بالخرافات المستحيلة والتعصب الدينى البربرى هو الكثككة . ولترك الآن الخوض فى أفكاره هذه الشخصية بحق الكثككة وهو المعروف بمبادئه الثورية الشديدة ولنكتفِ باقراره بالدور الاجتماعى

العظيم الذي ادارته الديانة الكاثوليكية . قال بورغيز : « ان هذا الدور كان من العظمة الى ما لا نهاية له فبينما قواعد الكشلكة نبي بحاجة الخلق الى النظام العام فبإيديها الأدبية قد حررت المدينة الاوربية من الرق ووطدت كرامة العائلة ومقام المرأة بالاكتفاء بالزوجة الواحدة وأجلت الاثر البشرية بدعوة البشر الى مشاركة المتألمين في آلامهم » اه
 ونحن نترك أيضاً للبرنس بورغيز تقديراته هذه بشأن الكشلكة ولا نعترضه فيما يبس من بحثنا ولكننا نتكلم على هذا اللغز الذي أعيا كثيراً من علماء الاجتماع حلّه وهو تأخر المسلمين في الأعصر الأخيرة برغم الوسائل الكثيرة التي يقبضها الدين الاسلامي للترقى .
 وحقيقة الحال أن بلجيع الأمم عثرت ونهضت ان تصفحت التاريخ لا تجد أمة قد خلت منها وقد كانت ديانتها في دورى التأخر والتقدم واحدة . ولما كنا قد حررنا في هذا البحث رسالة نشرناها في العصام الماضي تحت عنوان « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم (١) » فاننا نحيل من شاء معرفة جوابنا في هذا الموضوع عليها . ولا نرى بأساً في أن ننقل الى « حاضر العالم الاسلامي » فصلاً منها عنوانه « مدينة الاسلام » فان كثيراً من الناس يوردون ذلك الاعتراض على الاسلام ويقولون ان الشجرة تعرف من ثمارها :

مدينة الاسلام

أما زعم من زعم أن الاسلام لم يتمكن من تأسيس مدينة خاصة والاستدلال على ذلك بحجانه الحاضرة ، فهو خرافة يمويه بها بعض أعداء الاسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل . أما القسم الأول فلاجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الاوربية ، وأما القسم الثانى فلاجل أن يزرعوا في العالم الاسلامي بذور الالحاد ، ونحن لا ننكر تأثير الدين في المدينة ولكننا لا نسلّم بأنه يصح أن يكون لها ميزاناً ، وذلك لأنه كثيراً ما يضعف تأثير الدين في الأمم فتفتلت من قيوده وتفسد أخلاقها وتنهار أوضاعها ، فيكون فساد الأخلاق هو علة السقوط ، ولا يكون الدين هو المسؤول : وكثيراً ما تطرأ عوامل خارجية غير منتظرة فتتغلب على ما أثلته الشرائع من حضارة وتزلزل أركانها ، وقد تهدمها من بواحيها ،

(١) « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » وهو جواب اقتراح كتب لجلّة المنار خاصة وطبع في رسالة خاصة سنة ١٣٤٩ وأعيد طبعه للمرة الثانية في ١٣٥١ وهو من خير ما كتب في هذا الباب «التاخر»

ولا يكون القصور من الشريعة . فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة ، أو من عدم اجراء أحكامها كما ينبغي . ولما كانت الشريعة جارية على حقتها كان الاسلام عظيماً عزيزاً

ومدنية الاسلام قضية لا تقبل المباحة اذ ليس من أمة في أوربة سواء الألمان أو الفرنسيين أو الانكليز أو الطليان الخ الا وعندهم تأليف لا تحصى في « مدينة الاسلام » فلو لم تكن للاسلام مدنية حقيقية سلمية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته ما كان علماء أوربة حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الاسلام يكثر من ذكر المدينة الاسلامية ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدن ، ومن تبيين الخصائص التي انفردت هي بها .

فالمدينة الاسلامية هي من المدن الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام ، والتي تصف سجلاتها الخالدة بانوارها الباهرة . وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشد والمأمون من احتفال العمارة ، واستبحار الحضارة ، وتناهي الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان . وكانت البصرة في الدرجة الثانية عنها ، وكان أهلها نحو نصف مليون .

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند واصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الاسلام أمثلة تامة ، وأقيسة بعيدة في استبحار العمران ، وتطاول البنين ، ورفاهة السكان وانتشار العلم والعرفان ، وتآمل الفنون المتهذبة الأفتان ،

وكانت القيروان وفاس ونلمسان ومرآ كش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر ، أو أن يكثرها مكآثر في بلدان أوربة حتى هذه القرون الأخيرة .

وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف مليون نسمة ، وكان فيها نحو سبعمائة جامع عدا المسجد الأعظم الذي لما زرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الاسبانية : انه يسع بحسب مساحته خمسين ألف مص في الداخل و ٣٠ ألف مص في الصحن ، جملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين .

ولما ذهبنا الى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلنا أنها

تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً في ثمانمائة متر عرضاً، والاسبانيول يقولون: مدينة الزهراء وقال لى المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها: انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة في آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة نضاهيها ولا تدانيها وكان فيها عندما سقطت في أيدي الأسبانيول نصف مليون نسمة . ولم يكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوربة تحتوى نصف هذا العدد ، وجرأ غرناطة لارتال يتيمة الدهر الى اليوم هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه ، والا فلواستقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة ، المرصوفة طبقة فوق طبقة

وكم حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدينة الإسلام » كتباً قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار . وان أشد مؤرخي الافرنجة تحاملاً على الاسلام لا يتعدى أن يحاول التصغير من شأن مدينته ، وأن ينكر كونه أبا عنزتها . فقصارى هذه الفئة أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب . وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها وحققوا وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما نشروه ونقلوه ، ومن استرق شيئاً وقد استرقه فقد استحقه .

و بعد فلم نعلم مدينة واحدة من مدنات الارض الا وهي رشح مدنات سابقة ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات ألباب متباينة الاجناس

الرد على حساد الدنية الاسلامية المكابرين

أينسى حساد الاسلام والمكابرون في عظمة فضله ، الزاعمون أنه انما نقل وتعلم وقد واقتدى وانه انما صلى وراء غيره : أن الدنية الشرقية يوم ظهر الاسلام كلن أخنى عليها الذى أخنى على لبد . وأنه هو الذى جردها وأحيا آثارها ، وأقال عثرها ؟ وأنها بعد ان كانت

قد احدثت ولحقت بالفاخرين، أبرزها من اصداقها، وجلاها من بعد ان كانت ملفوفة بفلافها، ونشرها بالخافقين ، وبلغها كغلق الصبح لكل ذى عينين ، وأضنى عليها لباس الاسلام الخاص ، وديجها بديباجة القرآن ، التي لم تفارقها في شرق ولا غرب ، ولا سهل ولا وعر ، حتى حل ذلك كثيراً من علماء الافرنج ممن لم يعمه الهوى ، ولم يجد في التحقيق عن مهيع الهدى ، على أن اعترفوا بان مدينة الاسلام لم تكن نسخاً ولا نقلاً وانما هي قد نبعت من القرآن ، وتفجرت من عقيدة التوحيد ؟

فأما مارجته حضارة الاسلام من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادته في فتوحاتها من منازع جيلة ، وطرائق سديدة ، فلا يقدح ذلك في بكارتها الاسلامية ، ومسحتها العربية ، لان هذا شأن الحضارات البشرية باجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ، ويكمل بعضها بعضاً ، فالعلم الحقيقي ينحصر في هذا الحديث الشريف : « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولو في الصين » (١) وهذه من أقدم قواعد الاسلام

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر ان الاسلام كان له دور عظيم في الدنيا سواء في الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية ، وان هذه الفتوحات قد انتقت له في دور لا يزيد على ثمانين سنة ، مما أجمع الناس على أنه لم يتسقى لأمة قبله أصلاً . وكان نابليون الأول لشدة دهشته من تاريخ الاسلام يقول في جزيرة سنتييلانة : ان العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لاغيره

وتأمل أيها القارئ في أن قائل هذا القول هو بونابرت الذي لم تكن تملأ عينه الفتوحات مهما كانت عظيمة :

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظام

فهذا رجل عظيم جداً استعظم حادث العرب الذي لم يسبق نظيره في التاريخ ، وقد بقى دور العرب هو الأول في وقته ، ولبشوا وهم المسيطرون في الأرض ، لا يضارعهم مضارع ، ولا يخالهم مغالب ، مدة ثلاثة قرون أو أربعة . ثم أخذوا بالانحطاط ، وجعلت ظلالهم تتقلص

(١) هذا مضمون حديثين أحدهما « الحكمة ضالة المؤمن غيث وجدها فهو أحق بها » رواه الترمذى من حديث أبي هريرة ، ورواه غيره بمناه مع اختلاف في اللفظ. والثاني « اطلبوا العلم ولو بالصين . فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه العقيلي وابن عدى والبيهقي وابن عبد البر عن أنس وفيه عند الأخير زيادة أخرى في فضل العلم وله طرق يقوى بعضها بعضاً

عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً ، وذلك بفتور الهمم ، وديب الفساد الى الأخلاق ، ونبذ عزائم الدين ، واتباع شهوات الأنفس ، وأشد ما ابتلوا به التنافس على الامارات والرئاسات ، — ولا سيما بين القيسية والبيانية — مما لولاه لدانت لهم القلعة الأوربية بأجمعها ، وكانت الآن عربية كما هو المغرب . فالصائب التي حلت بالمسلمين انما هي مما صنعتها أيديهم ، وما حادوا به عن النهج السوي الذي أوضحه لهم القرآن الذي بلا كانوا عاملين بمحكم آية علوا وظهروا وكانت لهم الدول والطوائف ، فلما ضعف عملهم به وصلوا بقرأوته بدون عمل ، وانقادوا الى أهواء أنفسهم من دونه ، ذهبت ريحهم ، وولى السلطان الاكبر الذي كان لهم ، وابتغصت الأعداء أطراف بلادهم ، ثم قصدوا الى أوساطها .
ولنضرب الآن بعض أمثلة عن الأمم الأخرى لأجل المقابلة بيننا وبينهم اذ كانت
بضدها تتبين الأشياء

— اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها —

كان اليونانيون قبل النصرانية أرقى أمم الأرض أو من أرق أمم الأرض ، وكانوا واضي أسس الفلسفة ، وحاملى ألوية الآداب والمعارف ، ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشرية في العلم والفلسفة الى يوم الناس هذا .
وكان الاسكندر المقدوني أعظم فاتح عرفه التاريخ أو من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ، حاملاً للأدب اليوناني ، ناشراً لثقافة يونان بين الأمم التي غلب عليها . وما كانت دولة البطالسة التي لمعت في الاسكندرية بعلمها وفلسفتها الا من بقايا فتوح الاسكندر . ثم لم تزل هذه الحالة الى أن تنصرت يونان بعد ظهور الدين المسيحي بقليل ، فذدانت هذه الأمة بالدين الجديد بدأت بالتردى والانحطاط ، وفقدت مزايها القديمة ، ولم تزل تنحط قرناً عن قرن ، وتندهور بطناً عن بطن ، الى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جملة ولايات السلطنة العثمانية . ولم تعد الى شيء من النهوض والرقى الا في القرن الماضي ، وأين هي مع ذلك الآن
ما كانت قبل النصرانية ؟

أفيجب أن نقول ان النصرانية كانت المسؤولة عن انحطاط يونان هذا؟؟

ان القائلين بان الاسلام قد كان سبب انحطاط الأمم الدائسة به لا مفر لهم من القول بان النصرانية قد أدت أيضاً الى انحطاط يونان التي كانت من قلبها عنوان الرقى

ثم كانت رومية في عصرها الدولة العظمى التي لا يذكر معها دولة ، ولا يؤبه في جانب صوانها لصونية ، ولم تزل هكذا هي المسيطرة على المعمور الى أن تنصرت لعهد قسطنطين . فخذ ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى ، الى أن انقرضت أولاً من الغرب ، وثانياً من الشرق . ولم تسترجع رومية بعد انقراض الدولة الرومانية شيئاً من مكائنها الأولى ، وبقيت على ذلك مدة ١٥ قرناً حتى استأنفت شيئاً من مجدها الغابر . وما هي الى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأو الذي بلغته أيام الوثنية

أفنجعل تنصر الرومان هو العامل في انحطاط رومة وتدرجها عن قمة تلك العظمة الشاهقة ؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون كما قال آخرون مثل هذه المقالة في الاسلام ، وكلا الفريقين جائز حائد عن الصواب

فان لسقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ولسقوط اليونان من قبلهم بعد أن تقبلوا دعوة بولس الى النصرانية أسباباً وعوامل كثيرة من فساد الأخلاق ، وانحطاط العلم ، وانتشار الخنى والخلاعة ، وشيوع الأهلاد والاباحة ، ومن هرم الدول الذي يتكلم عنه ابن خلدون ، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة اليها غلات البرابرة من الخارج ، فكانت ثمة أسباب قاسرة مؤدية الى للسقوط الذي كلن لا بد منه ، فلو فرضنا أن النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث ولا تحطتهم نتائج تلك الأسباب

فدعوى بعض المؤرخين الأوربيين أن تغلب المسيحية على اليونان والرومان أخطى على عظمها ، وذهب بمدنيتها ، ليس فيه من الصحيح الا كون الأوضاع الجديدة تذهب بالأوضاع القديمة ، سنة الله في خلقه ، وانه في هيعة هذا التحول لابد من اضطراب الاحوال وانحلال القواعد واستحكام الفوضى ، والا فلا أحد يقدر أن يقول ان الوثنية أصلح للعرمان من النصرانية (١)

(١) علماء المسلمين يحدون أن النصرانية على ما طرأ عليها من الوثنية بالثبوت الوثني القديم أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ولكنها ليست أصلح ولا أقبل للعرمان المدني الذي تتنافس فيه أوربة وغيرها لأنها ديانة مبنية على المبالغة في الزهد والخضوع لكل حكم دينوي ، والعرمان لا يتم ولا يسو الا بالسيادة والملك والنفى ، ومن قواعد الإنجيل أن الجهل اذا دخل في سمباليرة فالنبي لا يدخل ملكوت السموات ،

وهذه الدعوى كانت تكون أشبه بدعوى أعداء الاسلام الذين يزعمون ان الشرق كان رانعا في مجامع العمران ، فجاء الاسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة !! لولا أن الحقيقة هي كما قدمنا ان المدنيات الشرقية كانت كلها قد انقضت أو انحطت قبل ظهور الاسلام بكثير ، وأن الاسلام وحده لا غيره هو الذى جدد مدينة الشرق الدارسة ، واستأنف صوته الذاهبة الطامسة ، وبعث تلك الحواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخارى ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جرا ، ولئن كانت قد بقيت للشرق آثار مدنيات قديمة فإن الاسلام هو الذى وطد بوانيها، وطرز حواشيتها ، وحمل السيف بيد والقلم بيد الى أبعد مآصوره العقل من حدود الاقطار التي لم يسبق لشرقي أن يطأها بقدمه فاذا كان الافرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول اولئك الجراد المنتشر من الشرق ، قد تبرؤا ماعلا الاسلام في تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر ، وكانت منافسات ملوك الاسلام الداخلية واتباعهم للشهوات ، وامعانهم في الضلالت ، ومجدهم عن جادة القرآن القويمة ، وفقدهم مايزرعه في الصدور من الاخلاق ، العظيمة ، قد قضت في الداخل ، على ماعجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذنب في هذا التقلص ذنب الاسلام ، ولا التبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وإنما الذنب هو ذنب المممج من الافرنج ، وجناية ذلك الجراد الزحاف من المغول ، وإنما هي تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمناً قليلا ، الا النادر منهم

وأيا فقد تنصرت الامم الاوربية في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، و بقيت اسم في شرقي أوربة الى القرن العاشر حتى تنصرت . ولم تنهض اوربة نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجاً من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن الا من نحو أربعائة سنة . أى من بعد أن دانت بالانجيل بالف سنة . ومنها بعد أن دانت به

واعتقد أيضا أن جميع ما جاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حق وكان البفر في أشد الحاجة الى ما فيه من المبالغة في الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والتعور وأن هذا كان تمهيدا للاسلام الدين الوسط المعتدل الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة لما ذكرناه من اعتقادنا يتضمن اعترافنا بحقيقة دين المسيح في نفسه وبكونه من عند الله تعالى مع التضارب بينه وبين ديننا الناسخ له ومن وظيفتي أن أبين هذا في حاشية مقال كتب للنار باقتراح من أحد تلاميذ النار على أمير البيان

بسبب سنة . ومنها بثمانمائة سنة الخ وهذه هي القرون المسماة في التاريخ بالقرون الوسطى . ولا نقول ان الاور بين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلمات بعضها فوق بعض . بل نقول ان العرب كانوا أعلى كعباً منهم بكثير في المدنية باقرار مؤرخيهم ، وبرغم أنف لويس برتران واضرابه . ومن الكتب المخرجة حديثاً الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف الانكليزي « ولز » و « تاريخ مدنيات الشرق » لمؤلف افرنسي متخصص في التواريخ الشرقية اسمه « غروسه » فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي واحدة في هذا الموضوع لم يظهر ما ينقضها ولن يظهر ، وهي : ان العرب في القرون الوسطى كانوا أسانيد الاور بين ، وكان الواحد من هؤلاء اذا تخرج على العرب نباهى بذلك بين قومه

— سبب تأخر اوربة الماضي ونهضتها الحاضرة —

أفنجعل هذا التأخر الذي كان عليه الاور بيون في القرون الوسطى مدة ألف سنة ناشئاً عن النصرانية التي كانت دينهم الذي يعضون عليه بالتواجذ ؟
نعم ، ان الأمم البروتستانية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية لا النصرانية من حيث هي . وتزعم أن نهضة أوربة لم تبدأ الا بخروج (لوثير ، وكلفين) على الكنيسة الرومانية .

وأما فولتير ومن في حزبه من أقطاب الملاحدة فلا يفزقون كثيراً بين الكاثوليك والبروتستانت ، وعندهم ان جميع هذه العقائد واحدة وانها عاتقة عن العلم والرقى ، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عند ما ذكر لديه لوثير ، وكلفين ، قال : « كلاهما لا يصلح أن يكون حذاء لمحمد » يريد أن مجدداً عليه السلام بلغ من الاصلاح مالم يبلغا أدناه ، مع اعتقاد الكثيرين أن مذهبهما كان جفراً أو توار أوربة (١)

(١) ونحن نعتقد هذا وكان شيخنا الاستاذ الامام وأذكياء مرديه كعبد باشا زغلول يعتقدونه ولكن بمعنى سلمي وهو أن هذا المذهب أضغف حجر الكنيسة على العقول البصيرة وتهييدها بتعاليمها وفهسها للدين ورأيها في الدنيا ، وكان سبب هذا المذهب مأسرى الى اوربة عقب الحروب الصليبية بمحاشرة المسلمين من استغلال العقل في فهم الدين وعدم سيطرة أحد عليهم فيه كما بينه شيخنا في كتاب الاسلام والنصرانية « الناشر »

والحق الذي لا رتاب فيه ان النصرانية نفسها لم تكن هي المسؤولة عن جهالة الافرنج المسيحيين مدة الف سنة في القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل في تهذيب برابرة اوربة وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون . ومنهم من هم على مذهب بوذا . ومنهم من يقال لهم طاويون ، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصيني كنفوشيوس . ولقد مضى عليهم نحو النى سنة ولم تكن لهم هذه المدينة الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الامم . ثم نهض اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم ، وعلا قدرهم ، وصاروا الى ماصاروا اليه ولم يرحوا وثنيين

فلا كانت الوثنية اذاً سبب تأخرهم الماضى ، ولا هي سبب تقدمهم الحاضر ، وقد تفاوتت اليابان والروسية وتجاربتا فتغلبت اليابان على الروسية . مع ان اليابانيين فى العدد هم نصف الروس ، ولكن مما لاشك فيه ان اليابانيين أرقى من الروس ، والحال ان الروسية عريقة فى النصرانية واليابان عريقة فى الوثنية

فليترك اذاً بعض الناس جعل الأديان هي المعيار للتأخر والتقدم (١)

أفتقول من أجل هذا المثال : ان الانجيل هو الذى أخر الروسية عن درجة اليابان ، وان عبادة الآلهة ابنة الشمس هي التي جذبت بضعب اليابان حتى سبقت الروسية ؟

ان لهذه الحوادث أسبابا وعوامل متراكمة ترجع الى أصول شتى . فاذا تراكت هذه العوامل فى خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد ، وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بازاء شرها ، كما أصبحت معائب أسخفها غير مؤثرة فى جانب خيرها

ولسنا هنا فى صدد أسباب تقدم اليابان السريع حتى نبين ان اعتقاد عامتهم « وجود حصان مقدس يركبه الاله فلان » لم يقف حائلا دون تقدمهم المبني على ماركب فى فطرتهم من الحاسة ، وما أوتوا من الذكاء ، وما أورثهم نظام الاقطاع القديم من التنافس فى المجد والقوة

وعندنا أمثلة كثيرة لانكاد نحصى فى هذا الباب اجترأنا منها بما ذكرناه . ولم تكن

(١) هنا صحيح فى جملة الأديان الا الاسلام فقرأته وتاريخه بستان انه هو سبب تقدم أهله حين اعتصوا به وسبب تأخرهم حين أمرضوا عنه ، كما بين هذا أمير الكتاب فى رسالته هذه فأظلم الظلم أن يجعل سبب تأخرهم « الناشر »

لنتعرض لهذا المقام لولا حلات القسوس والمبشرين وكثير من الاور بين على الاسلام ، وزعمهم انه هو عنوان التأخر : وانه رمز الجود ، وتحديثهم بذلك في الأندية والمجامع ، ونشرهم هذه الافتراءات في المجلات والجرائد ، وقولهم ان الشجرة تعرف من ثمارها ، وان حالة العالم الاسلامي الحاضرة هي نتيجة جود الاسلام ، وتحجر القرآن ! « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا »

وحسبك أن الميوس « سان المقيم الافرنسي السامي » في المغرب ينشر في العدد الأخير من « مجلة الاحياء » الافرنسية مقالة يتكلم فيها عن يقظة المغرب بعد « ايسل الاسلام » ! هكذا تعبيره

فان كان تأخر احدى الممالك الاسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه « ليل الاسلام » فكم كان ليل النصرانية طويلا عند ما بقيت أوربة المسيحية زهاء ألف سنة وهي في حالة الهمجية أو ما يقرب من الهمجية

لماذا أبها الناس تدخلون الأديان فيما هي براءة منه؟ ولماذا تقحمونها في موضوع يكذبكم فيه التاريخ بأمانيله الجمة

ان ادخال الأديان في هذا المعترك وجعلها هي معيار الترقى والتردى إس من النصفة

في شيء

المدنية العربية

خدمة العرب لعلم الطب

للشيخ

جاء في مجلة المستشفيات الافرنسية Gazette des Hopitaux بعدها المؤرخ ب ١٩ مارس ١٩٣٢ أى العدد الصادر منذ شهر لتحري هذه الاسطر نص محاضرة ألقاها الاستاذ الكبير والجراح الشهير البروفسور فورغ Fosgue الذى يُعد من أشهر جراحي فرنسا ان لم يكن أشهرهم وذلك في تاريخ الطب عند الاسبانيول وما للامة الاسبانيولية من المعارج العالمية في هذا العلم . وقد بدأ الاستاذ محاضرتة بقوله : ان المستشفيات والمستوصفات ومراكز التعليم الطبي في اسبانية قد أصبحت كلها عصرية بتام المعنى وملكت من الأدوات والأدوية جميع ما يملكه غيرُها في سائر أوربة وليس في برشلونه مثلاً معمل أو مُتَمَل يفترق في شىء عن المعامل والمُعَمَلات التى في فرنسة . ولكن ليس هنا معترك الرأى ولا المقام الذى يمكننا فيه أن نقدر مزية الامة الاسبانيولية قدرها في الطب والجراحة ، بل يجب علينا أن نرجع الى الوراء فنصفح الكتب القديمة ونزور المستشفيات على ما كانت عليه في شكلها السابق ونقرأ تاريخ الجامعات الاسبانيولية القديمة ونستقصى الحركة العلمية عند جيراتنا هؤلاء ونخالط نفوسهم ونُدْأخلُ أوساطهم فإذا اطلعنا على ذلك الماضى ازددنا معرفة بهذا الحاضر وعلنا أن اسبانية هي في غربى اوربة أرض قائمة بنفسها لها مزاياها وخصائصها وانها تمتاز بميزات لا يشاركها فيها غيرُها وأن فيها قوةً حيويةً قومية غير معهودة لكثير من الأمم وان لتلك الأدمغة الحارة من سُرعَة الفكر والاستعداد للنضال ما يجعل هذه الأمة فريدة في بابها ، ولأجل أن نفهم هذه الحالة النفسية عند الاسبانيول وجب علينا أن نفهم هذه الحقيقة التاريخية وهي اسنبلاء العرب على اسبانية وسلسلة الوقائع التى لا تحصى بينهم وبين الاسبانيول الى أن تمكن هؤلاء من استرداد بلادهم . فكما أن بلاد الغال بقيت

نحو من حسة قرون تحت حكم الرومان فقد بقيت اسبانية أيضا زهاء ثمانية قرون الى أن تخلّصت من حكم العرب ، وهكذا يمكن قياس درجة اتصال الامة الاسبانية بالمدينة الاسلامية هذه المدينة التي كانت حلقة الاتصال بين العالم الاسيوى وأوروبا الغربية .

قال ليبرى Libri : احذف العرب من التاريخ يتأخر عصر التجدد في أوروبا عدة قرون الى الوراء . في سنة ٧١١ شن العرب الغارة بقوة ضئيلة (سبعة آلاف مقاتل) على اسبانية فنزلوا بها وفتحوها بسرعة الصاعقة واستصفّوا تلك البلاد في سبع سنوات ولبثوا فيها ثمانية قرون وما زالوا الى ١٤ يونيو سنة ١٢١٢ حتى بدأ في التاريخ دور تراجعهم أي ان الجزر لم يبدأ الا بعد حسة قرون من المدّ وذلك في واقعة لاس نافاس دوطولوزا^(١) Las Navas de Tolosa وقد رأيت بعيني في دير هولغاس Houlgas بقرب برغاش Bergas إحدى الولايات التي وقعت في يد الأسبانيول في تلك المعركة وشعرت بما عند الاسبانيول من الاحترام لتلك الذكرى والنخوة بها . وكانت طليطلة قد عادت للاسبانيول سنة ١٠٨٥ فصارت مركز الاتصال بين المدينتين الاسلاميه والمسيحية وسنرى مقدار تأثير هذه البلدة كمركز تبادل للبضائع العقلية وكتب للترجمة يحجج اليه طلاب العلوم من كلّ فج . ثم في القرنين الأخيرين انكفأ العرب من اشبيلية وقرطبة الى غرناطة فصارت معقلاً للانكماش واجتمع فيها فلول العرب . فأصبحت عاصمة ولبعت فيها أنوار شعله المدينة الاسلامية للمرة الأخيرة . وفي ٢ يناير سنة ١٤٩٢ كان سقوط غرناطة وجلاء العرب الأخير فتركوا كما قال « كلود فرير » من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فيها القرون والحقب دهرأ طويلا كما ان طليطلة بقيت خزانة كتب تغنت بترجمتها الفكرة البشرية أعصرأ مديدة . لا جرم أن هناك تاريخا نادر المثل لم ينقصه شيء لا من العظمة ولا من طول المدة . ولنتأمل الآن كيف أن هذا العمل المدينى أو الحرف الفكرى قد تمّ وبأية الوسائل قد تمّ وما ذا كان من تأثيره في ترقية المعارف الطبية

لقد كانت هذه المدينة في بدأ نشأتها كما قال الأخوان « طارو » Tarroud مدينة يونانية لاتينية ، اقتبسها العرب سريعا وطبعوها بطابعهم الخاص . وبهذا المبدأ الشريف

(١) هذه واقعة الغاب التي ظهر بها ملوك أسبانية التحدون جميعا على جيش الموحدين ، ولم تم بدعا للسفين في الأندلس قائمة محمد

الذي بدأ به العرب باقتباس تلك المدنية ، تظهر جميع المعالي الأديبه التي في المدنية الاسلاميه فانك ترى شعباً من القبائل الرُّحَّل رُعاة الابل ، بسائق دعوة دينية يحملون على الأمم فيفتحون نصف العالم في مدة قرن واحد. ثم يكون أعظم همهم ، بعد أن وطدوا هذا الملك الطويل العريض ، أن يضموا الى عظمة الفتح عظمة العلم وكما قال لوكلرك Leclerc (١) الذي تأليفه مثال في النقد الدقيق والاطلاع الواسع : لم يكمل القرن التاسع حتى كان العرب قد ملكوا جميع علم اليونانيين فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في الدنيا وتعدت فيها مكاتب الترجمة ، ثم صارت طليطلة في القرن الثاني عشر ما كانت عليه بغداد في القرن التاسع فهما إذاً أهم مراكز الترجمة وانتقال الآراء العلمية . وقد كان في بغداد نحو مائة مترجم ينقلون كتب يونان الى العربية والسريانية فنقلوا تأليف ابقراط وليؤس فوريدوس وجالينوس وروؤفوس وأوريباس وبولوس الأجيبي وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة في أسبانية هي مركز الترجمة ، وصارت المدنية الاسلاميه تُعيد للعرب الديون العقلية التي كانت افترضتها من مسيحي الشرق فعادت الافكار اليونانية الى أوروبا بواسطة العرب على يد مترجمي طليطلة لا سيما جرارد دو كريمون Gérard de Cremona . أما كيفية هذا النفوذ العلمي الذي اخترق الاقطار الاسلاميه واستضاءت به مراكز المدنية الاسلاميه في أسبانية بالأشعة الآتية من بغداد فان الاقرب الى العقل في أسبابها أن هذه المملكة كانت متصلة من الهند الى المحيط الاطلانطيكي وكان لها نصف سواحل البحر المتوسط فكان الاتصال دائماً بين افريقية وأسبانية من جهة والشرق وبغداد من جهة أخرى . ولا شك أن الحج كان ذا تأثير شديد في نقل الافكار والآثار ولم تكن الرحلة الى الحج فقط . بل كانوا يعملون الرحلة في طلب العلم نفسه . وقد عيّن لركرك حوادث من هذا القبيل فقال : ان محمد ابن عبدون ذهب من الأندلس الى مصر وكان يمارس التلييب في مستنق الفسطاط وان ولدئى يونس الحراني ذهباً يُحصلان الطب في بغداد وبقيا عشر سنوات وعمرو بن حفص ذهب الى القيروان لا لتحصيل وكما كان يذهب أطباء من الغرب الى الشرق كانت الأطباء تأتي من الشرق الى الغرب وتقصد سلاطين الاسلام في أسبانية فكانت الكتب نظير اللطائف الحريرية والحلى والجواهر يؤتى بها من الشرق الى الأندلس حتى اجتمع في

(١) طبيب شهير نشأ في جنيف في القرن السابع عشر وله تأليف كثيرة منها تاريخ الطب

خزاة قرطبة زهاء ستائة ألف مجلد في فهرس يقع في أربعة وأربعين مجلداً . وكان القرن العاشر هو القرن الذي بلغت فيه المدينة الاسلامية في الاندلس أوجها فأقبل الناس على العلم في جميع أنحاء المملكة العربية وتعددت مصادر الأشعة ولما انفصلت قرطبة عن بغداد كان ذلك سبباً لزيادة لمعانها باستقلالها وأخذ العرب بالتقدم الى الأمام فلم يكونوا يكتفون بمعرفة علوم يونان غيب، بل حرنوا هذه العلوم وكشفوا طرقاً جديدة وازداد عدد علمائهم كثيراً كما ان عدد علماء المسيحيين عاد قليلاً . وظهر علماء من اليهود وأخذ عددهم يتزايد وانتقل المسلمون من دور الترجمة الى دور التوليد، ومنهم ظهرت نوابع لذلك العهد مثل الجراح الشهير أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوى فان هذا الرجل كان فذاً من الطبقة الأولى به بُدئ تاريخ الطب الاسلامى في أسبانية وكان فذاً منقطع النظير في الجراحة العربية واليه انتهت الرياسة في علم الجراحة في القرون الوسطى (١) وكان مولده سنة ٩٣٦ مسيحية في الزهراء المدينة التي شادها عبد الرحمن الناصر وكانت لقرطبة أشبه بفرساي بليريس . وقد بالغ مؤرخو العرب في وصفها وأصاب لويس بيران بقوله انها مبالغت خيالية فقالوا ان قصر الزهراء كان يحتوي نحواً من ثلاثة آلاف من الصبيان ونحواً من ستة آلاف من الجولرى وانه وُضع في بنائها أربعة آلاف عمود من المرمر وانه كان فيها حوض ماء مزين باثنى عشر تمثالاً من الذهب مرصعة باللازلى ٥١ .

اتسهى كلام الاستاذ فورغ هنا وقبل أن نكمل ترجمة محاضراته هذه، نحب أن نذكر ملاحظة على ما كتبه بشأن قصر الزهراء أو مدينة الزهراء كما هو الاخرى فنقول ان لمؤرخى العرب ولقبرهم مبالغت في الوصف لا سيما اذا كان الموصوف خرقاً للعادة مثل قصر

(١) من الغريب أن ترجمة خلف بن عباس الزهراوى قد وردت في طبقات الأطباء لكن بصورة مختصرة جداً فهو يقول : خلف بن عباس الزهراوى كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والركبة ، جيد العلاج وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوى ولخلف بن عباس الزهراوى من الكتب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف وهو أكبر تصانيفه وأشهرها وهو كتاب تام في مناه . اهـ ولكن قد ترجم ابن أبى أصيبعة صاحب هذا الكلام من أطباء الاندلس عدداً كبيراً جداً يستدل به على درجة رقي الطب في الاندلس تلك العهد كما قال لوكيرك والأستاذ فورغ

الزهراء . ولكن لويس بيرتران المشهور بعداوته للاسلام كاذب فيما يزعم من ان قصر الزهراء لم يكن كما وصفه العرب . نعم ان قضية حوض الماء الذي عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب مرصعة بالثالي لم نجد فيها قرأناه من أوصاف مؤرخي العرب للزهراء ولكن بما اتفق عليه المؤرخون ان بناء الزهراء استغرق أربعين سنة من خلافة الناصر وانه كان يشتغل فيها كل يوم عشرة آلاف من العملة وكان يُحْمَل اليها كل يوم الف وخمسة جمل من مواد البناء وأنه كان في الزهراء عدة آلاف من الحصيان وعدة آلاف من الجوارى وكانت فيها أجناد ووُصَفَاء لا يأخذهم الاحماء . وبالاجال كان قصرُ الزهراء مدينة ومن شاء مراجعة ماجاء عن الزهراء في الكتب فعليه بنفع الطيب وبغيره من الكتب المؤلفة على الاندلس وان أقل المؤرخين مبالغة وأكثرهم تدقيقاً في الأخبار ابن خلدون قد وصف الزهراء وصفاً مدهشاً لم يكن ليكتبه لولا تيقُّنه أن الزهراء كانت كما وصفها . ولقد شاهدت أنا بعيني خرائب الزهراء سنة ١٩٣٠ في سياحتي الى الاندلس وكان معي يومئذ المهندس الأسباني هيرنانديس الموكل بعمليات الحفر في الزهراء والدكتور رفائيل كاستيجون من أعضاء أكاديمية قرطبة فشاهدنا مكان الزهراء والآثار التي انكشفت منها بالحفر وعلمنا ما بقى منها محجوباً فقال لنا العالمان الاسبانيان ان الذي انكشف من الزهراء في مدة عشرين سنة أى منذ باسروا الحفر هو جزء من عشرين من مجموعها وقالوا انهم يُحْمَدُونَ بخمسين سنة الوقت اللازم لكشف جميع أنقاضها على نسبة العمل الذي عملوه الى الآن . وليس بمستغرب أن يكون ذلك كذلك لأن طول مكان الزهراء يبلغ تسعمائة متر وعرضه يبلغ سبعمائة وكله مغطى بالأنقاض كما أنه ليس بمستغرب أن يقال انه كان فيها أربعة آلاف عمود من المرمر وذلك بالنسبة الى سعة المكان مما يشاهده الانسان بعينه فضلا عن مقابلة ما يشاهده بما يقرأه . وفي أعلى الزهراء متحف مؤقت مجموع فيه كثير من قطع الحجارة المحرَّمة والآثار النفيسة وقد شاهدنا بين الأنقاض، وهي القسم القليل الذي انكشف كثيراً من الرخام ومن القرميد الأحمر وقال لنا الاسبانيون ان أكثر البلاط النفيس والاساطين الثمينة قد نقلت من الزهراء الى أمكنة أخرى فالدير الذي في سفح الجبل مبنى أكثره من حجارة الزهراء وعند مارعوا جسر قرطبة أخذوا كثيراً من حجارتها ولا تكاد يوجد كنيسة مبنية في قرطبة الا وفيها من حجارة الزهراء وقد كانوا أخذوا من أنقاض الزهراء الى اشبيلية والى غرناطة . بل كان

الموحدون في أثناء استيلائهم على الاندلس أخذوا من أعمدة الزهراء الى مراكز .
 وبالأجل فان الزهراء كانت من أعظم مباني العالم وهي أعظم من الأسكوريال وأجل ،
 على حين أن الاسكوريال هو أيضاً من أعظم مباني الدنيا . ولا يجوز أن يوصف بالمبالغة
 ماورد من وصف قصر الزهراء الذي يسميه الاسبانيول بمدينة الزهراء والذي أجمع المؤرخون
 على أنه كان يحتوي على بضعة عشر ألف نسمة من رجال ونساء . ثم تعود الى ترجمة الاستاذ
 فورغ للجراح العربي الشهير المسمى بأبي القاسم . قال : انه كان بحاجته مثابراً على الشغل ،
 كتب في حياته مايقع في ثلاثين مجلداً ، وكتابه في الجراحة هو أهم تأليفه وهو يستحق
 أن يكون في تاريخ الطب المظهر الأول من مظاهر الجراحة كعلم مستقل مبنى على أساس
 من الحقائق التشريحية . قال أبو القاسم : اذا كان الطبيب يجهد التشريح يقع في الخطأ
 ويقتل المريض فقد رأيت طبيباً جاهلاً يشرط خراجاً في عنق مريض ففتح له شرايين
 العنق وما زال الدم يفيض حتى مات لساعته . وما امتاز به أبو القاسم أنه أول من اخترع
 الجراحة المنصورة فقد جاء في كتابه نحو مائتي صورة عملية . ومن هذا أصبح هو العلم
 المشار اليه بالبنان في هذا الفن . وفي القرن الثاني عشر عندما ترجم جيرار دوكريمون
 كتاب أبي القاسم الى اللاتينية صار هو الكتاب المتداول في أيدي الجميع . وما يدل على
 قيمته العظمى ان أستاذنا القديم غوي دوشولياك Guy de Chauliac من مدينة مونبيليه
 استشهد بكتاب أبي القاسم أكثر من مائتي مرة . فلا شك اذن ان الجراحة العربية التي
 تنمي الى أصل يوناني قد كانت نمت نمواً عظيماً في الغرب وحسب شاهداً على رقي الجراحة
 العربية كملت الازدراء التي قالها « لانفرانك » Lanfranc في أواخر القرن الثالث عشر
 فانه كان ذهب الى ايطاليا واطلع فيها على ترجمة تأليف أبي القاسم ورجع الى باريس فقال
 عن جراحه بباريس : انهم جهلاء ولا يكاد يوجد فيهم جراح واحد عالم بصنعتهم .

عند ما نصل الى طليطلة يستولى علينا تأثير المنظر الطبيعي بكان طليطلة العجيب
 المشرف على نهر « تاجه » مضافاً الى منظر الأبنية الباهرة . ولكننا ننسى طليطلة القرن
 الثاني عشر والثالث عشر مدينة العلم الفاضلة ، مستودع الكتب العربية ، مقر الترجمة الذي
 منذ بدأ الاحتلال الاسلامي يتقلص من هناك أصبح مقصداً لحجاج العلم ووراد منابع
 العقلية التي كانت لذلك العهد غير معروفة عند المسيحيين . فقد صارت طليطلة في الطرف

العربي من المملكة العربية نظيرة لبغداد مركزاً للترجمة والتأليف بعد ثلاثة قرون من عهد ازدهار بغداد

قال لوكلرك مؤرخ الطب : انه في ذلك الوقت كان حصل حادثان عظيمان في قطبي العالم الاسلامي أحدهما الحرب الصليبية التي سافت الى الشرق نحواً من مليون مسيحي والثاني زحف الافكار الاسلامية على الغرب بواسطة الاندلس . فقد كان قصداً مكاتب المسلمين في أسبانية كثير من طلاب العلم من جميع أنحاء النصرانية عطاشاً الى تلك المناهل فوجدوا في خزائن المسلمين في الاندلس من التأليف والتراجم العربية ما أحيا بينهم الفلسفة القديمة التي كانوا جهلواها . وكان للفرنسيس يد في نشر هذه المعارف البشرية لأن اسقفاً فرنسياً هو ريموند داجن Raymond d'agen صار سنة ١١٣٠ رئيساً لأساقفة طليطلة فحق له الفخر بترجمة رسالة الروح لابن سينا اذ بعث في الناس مهمة الترجمة لكتب العرب فخرج منها ثلاثمائة ترجمة من العربي الى اللاتيني . وهكذا انتشرت بين الأيدي الكتب الحاوية لفلسفة يونان وفلسفة أعظم حكماء العرب . وهكذا انسدت النقص المظلم الذي كان واقعاً في الفكر البشري في القرون الوسطى وتقدمت مدارس الغرب الى الأمام . ولقد ذكر لوكلرك ان من هذه التراجم الثلاثمائة كان يوجد تسعون كتاباً مترجماً من العربية الى اللاتينية في الطب منها أربعة تأليف لأبقراط وخمسة وعشرون لجالينوس والباقي لحكماء الاسلام كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن زهر . وكان جبرار دوكريمون وهو أعظم المترجمين مهمة ومن أذكي رجال القرون الوسطى قد أكل في مدة خمسين سنة ثلاثة وسبعين ترجمة أكثرها لكتب طبية ومن جملة هذه الكتب قانون ابن سينا الذي كان كافياً أن يشغل وحده حياة انسان . ومنها كتب أبي القاسم في الجراحة التي عملت في سير هذا الفن في أوربة الى الأمام العمل الاكبر فقد بقيت طليطلة اذن مدة قرنين كاملين معهداً للتأليف والترجمة من اللغة العربية واشترك في ذلك اليهود الذين كانوا يُحسنون العربية ومن هذا المركز العلمي الذي هو طليطلة توزع مجموع تأليف وأفكار عامة للمعارف البشرية ، وكان لعلم الطب منه الحصة الكبرى

فاذا ألقينا بنظرنا بصورة مجمة على هذه المدنية الاسلامية في أسبانية يأخذنا العجب كما قال لوكلرك وكما ورد في بحث جرى مؤخراً من أن بعض الكتاب المعاصرين أخذوا

ينكرون على العرب العبقريّة العِلْمية . والحقيقة أن هذه الملكة العلمية وأن هذا البحث والتقيب قد أثبتتها العرب لأنفسهم من البداية في بغداد حيث قرر علماءها من ذلك الوقت تقريراً صريحاً المبادئ التي ينبغي أن يسير عليها العلم وهي السير من المعلوم الى المجهول وعدم قبول شيء على أنه حقيقة الا بعد ثبوته بالتجربة . اذن منذ القرن الحادى عشر أثبت العرب أنهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلمية الصحيحة ، وليس بصحيح القول أنهم ما أتوا بشيء جديد ، ولا أضافوا شيئاً يُذكر على التراث اليونانى اللاتينى ، ولا جرم أنهم بالبداية كلن أساس عملهم الترجمة من الكتب القديمة ولكن ليس من العدل أن تقول انهم لم يكونوا الا وسطاء وأنهم لم يكونوا يعلمون ما يترجون ولم يكن عندهم رُوح التوليد . وعلى هذا أجاب الفيلسوف الألماني «هومبولد» Humboldt بقوله : «ان العرب لم يقتصروا على حراسة كنز المعارف الذى عثروا عليه بل أضافوا اليه وأوسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث فى أسرار الطبيعة »

وكلن أطباء العرب أكثرهم من كبار الفلاسفة ومما لا جدال فيه أن أبأ القاسم وابن رشد كانا من الدرجة الاولى فى رجال العالم وكانا من العلماء الواضحين وأبو القاسم هو الذى سبق الى سدّ الشرايين عند العمليات واخترع طريقة تفتيت الحصى فى المثانة وطريقة استخراج الحصى من مثانات النساء . وأشار عند حصول الفساد المسمى بالفنْفَرِيَّة بالقطع العاجل . وأما ابن رشد الفيلسوف القرطبي الذى كلن يشتغل ليلاً ونهاراً وقيل انه لم يَحُلْ من الشغل بالعلم الا ليلية زواجه و ليلة وفاة والده ، فقد كلن مفسر فلسفة أرسطو . وفى كتابه الكليات فى الطب أشار الى النبوة السموية . واذا شاء الانسان أن يزن بحق وعدل مقدار تأثير البضائع العربية فى معاهد الطب فى أوربة فما عليه الا بمراجعة برنامج مدرستنا الطبية فى مونيخ . فانتا نجد فى أواخر القرن الثالث عشر من مجلة الكتب التدريسية جدول تراجم لاتينية لكتب عربية جاء بها الأطباء اليهود الذين هاجروا أسبانية الى جنوبي فرنسا وكلن فى ذلك الجدول لحكام اليونانيين كتب من تأليف أبقراط وجالينوس ولحكام العرب كتب من تأليف ابن سينا والرازى وقسطنطا واسحاق وحسين . وفى سنة ١٣٤٠ قرر المجمع الطبى الأوربى لجالينوس وابن سينا وفى سنة ١٥٠٠ حكموا بالسبق لابن سينا فى خمس محاضرات من أصل عشر لجالينوس فى أربع ، ولا بقراط فى واحدة وفى سنة ١٥٣٤

كانت تأليف العرب الطبية هي المعتمد عليها في مدارسنا ولم تزل الحالة هي هذه الى القرن السادس عشر حيث أخذوا يترجون ابقراط من اليونانية رأساً ولم تُحذف تأليف العرب من برامج التدريس عندنا الا في أواخر القرن السادس عشر. قال المؤرخ الكبير جرمان German من مونيخ اننا نشهد لكتّاب العرب الذين كتبوا في المواضيع العلمية بمزية الايضاح التام والطريقة التعليمية. نعم ان هؤلاء العرب الذين يرجعون الى نصاب قديم من مدينة اليمن كانت فيهم قابلية عظيمة للثقافة العليا ولم يكن فيهم شيء من البربرية

اتسهى كلام الاستاذ فورغ فيما يتعلق بالعرب وبعد ذلك أنهى محاضراته بما يتعلق بحركة علم الطب عند الاسبانيول وقد رأينا مناسباً نشر شهادة هذا الجراح الافرنسي الكبير للعرب في خدمة العلم عموماً والطب والجراحة خصوصاً وفضلهم في ذلك على العالم وقوله ان العلم العربي كان مبنياً على التجربة والاختبار ونظن في شهادات مثل هؤلاء الفحول « لوكرك » و « همبولد » و « جرمان » و « فورغ » وعدد لا يحصى من أمثالهم مقنعا لمن يريد أن يتحقق قضية فضل العرب على أوربة ويعرف هذين أولئك الثرثرين الذين يحاولون انكار هذه الحقيقة أو يزعمون أن العرب بنوا معارفهم على « الاسلوب الغيبي » وانهم لم يكن للتجربة نصيب من علومهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا

الحركة العلمية في الحضارة العربية

كما يصفها الفيلسوفان

ولز الانجليزى و درابر الاميركى

للأمير شكيب

وعمّن رأى رأياً عظيماً في الحضارة العربية الفيلسوف الانكليزى الكاتب المشهور ولز الذى يعد في طليعة مفكرى هذا العصر . وقد سبق لنا الاستشهاد ببعض كلامه في شان البعثة النبوية ، وقولنا انه اصاب في بعض الآراء لافي جميعها. وها نحن أولاء نذكر خلاصة رأيه في حضارة العرب . قال في كتابه « تجربة في التاريخ العام » في مبحث الاسلام ما تلى ترجمته :

« قبل أن نأتى على ذكر الأتراك وعلى ذكر الحروب الصليبية الكبرى التي جعلت النصرانية تقف وجها لوجه بازاء الاسلام ، والتي جعلت كلاً من هاتين الملتين تعادى الاخرى الى هذه الساعة عداوة غير معقولة ، يجب علينا أن نلاحظ جيداً الحياة الفكرية التي كانت عليها الأمم الناطقة بالعربية ، والتي كانت قد بدأت تنتشر في الاصقاع التي كانت الثقافة اليونانية مدت عليها رواقها . فنقول : انه في القرون التي سبقت ظهور محمد كان الفكر العربى أشبه بانثار تحت الرماد . فلما انكشف عنه الرماد بالفتح الاسلامى ، لمع لمعانا لم يمهّد أن فاقه فيه الا الفكر اليونانى . وهذا في أسنى أحواله . فجاء الفكر العربى بشكل جديد ، وبقوة جديدة ، وعالج علاجاً شريفاً تنمية العلوم الصحيحة نظير ما عالج اليونانيون ولقد كان اليونانى أباً للعلم فجاء العربى وحل محله في هذه الابوة . وكانت طريقة العربى هي أن ينفذ الحقيقة بكل استقامة ، وبكل بساطة ، وان يجعلها بكل وضوح وبكل تدقيق ، غير تارك منها شيئاً في ظل الإسهام . فهذه الخاصة التي جاءتنا نحن الأوربيين من اليونانيين

وهي نشدان النور إنما جاءتنا عن طريق العرب ولم تسقط الى أهل العصر الحاضر من طريق اللاتين .

فانه لما فتح العرب فتوحاتهم اتصلا بفلسفة يونان ، لا مباشرة بل بواسطة النصارى النسطوريين الذين كانوا في شرقي النصرانية ، وكانوا أرقى فكراً من نصارى يزنطية المشغولين بعلم اللاهوت ، وكان سوريّ تثقيفهم أعلى جداً من النصارى اللاتينيين في الغرب فهؤلاء النساطرة كانوا لعهد الفرس الساسانيين أحراراً في ثقافتهم ، وجاء الاسلام فلم ينزع منهم هذه الحرية . وكانوا قد أخذوا جانباً عظيماً من طب يونان ، ثم عزّزوه بتجاربهم . ولما ظهر الاسلام ، صاروا هم الأطباء في قصور الخلفاء . وبما لا شك فيه أن منهم من كانوا يمارسون الشعائر الاسلامية ، ولا يرون فيها حرجاً على أفكارهم . وكانوا قد حفظوا جانباً من مقالات ارسطو مترجة الى السريانية، وكانت عندهم معلومات قيمة في الرياضيات. فإذا كانت بجانب علومهم معلومات القديس بنديكتوس مثلاً ؟ فالعرب القادمون من الصحراء بتلك العقول الذكية المولعة بالاطلاع ، اعتمدوا على هؤلاء النساطرة وتعلموا منهم وأضافوا الى ما تعلموه علوماً جديدة .

ولم يكن النساطرة هم المعلمين الذين انفراد العرب بالأخذ عنهم . بل كان اليهود في جميع حواضر الشرق منتشرين . وكانت لهم تفاقفة خاصة بهم ، ومملكة راسخة في العلوم ، فكان كل من الفكر اليهودي والفكر العربي يؤثر في الآخر تأثيراً عائداً للخير العام . ومن المعلوم أن اليهود هم ممتازون بسهولة تعلم اللغات ، فقد كانوا قبل الاسلام بألف سنة يتعلمون اليونانية في الاسكندرية ، ويؤلفون بها الكتب . وهامم الآن بعد ظهور الاسلام يتقنون العربية ويؤلفون بها . ولقد اختلط العرب باليهود بحيث لا نقدر أن نعرف في الثقافة العربية أين ينتهى اليهودى وأين يبدأ العربي .

وكان للعرب منبع آخر للعلم ، لا سيما ما تعلق منه بالرياضيات وهو الهند ، فما لا شبهة فيه ان الفكر العربي استفاد كثيراً من تلك الجهة .

ولقد بدأت مظاهر الحركة الفكرية العربية في دور بني أمية ، الا أنها في دور بني العباس آنت أشهى ثمارها . ولما كان التاريخ هو مبدأ كل فلسفة صحيحة وكبدها ، وكان الرأس والقلب لكل أدب كبير ، كان أكبر كتاب العرب مؤرخين ، ومحرفي تراجم ،

وشعراء مشتغلين بالتاريخ. ولما صار التعليم عاماً ولم يعد خاصاً بطبقة دون طبقة، ظهرت للعرب مؤلفات في النحو والصرف واللغة لا تحصى.

فكان العالم الإسلامي سابقاً للعالم الأوربي بنحو قرن في المدنية. وكانت المدارس الجامعة في البصرة، والكوفة، و بغداد، والقاهرة، وقرطبة، وانبثت أنوارها في العالم كله، وقصدها الطلاب من المشرق والمغرب. وقد كان كثير من طلبة العلم في قرطبة من المسيحيين. ودخلت فلسفة العرب الى أوربة من طريق أسبانية، وظهرت في جامعات باريز وأكسفورد، وشمالى ايطالية، وأثرت كثيراً في مجرى الفكر الأوربي ولا سيما فلسفة ابن رشد القرطبي (١١٢٩ — ١١٩٨) التي بلغت الذروة العليا من هذا الموضوع. وكانت فلسفة العرب مبنية على مذهب أرسطو وعلى وضع حد فاصل بين الحقيقة العلمية والحقيقة الدينية مما حرر المباحث العامة من رق التحريجات الدينية اللاهوتية التي كانت تعوقها سواء في النصرانية أو في الإسلام. ونبغ في الإسلام فيلسوف آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ — ١٠٣٧)

وكانت الوراقة والصحافة من أزهر الصناعات في حواضر الإسلام، مثل دمشق، و بغداد، والقاهرة، والاسكندرية. وفي سنة ٩٧٠ (مسيحية) بلغ عدد المدارس الحرّة التي تأسست لتعليم الفقراء مجاناً في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة.

قال « تاتشر » Tatcher و « شفيل » Schwil في تاريخ أوربة العام : ان العرب انما بنوا في العلوم الرياضية على أساس اليونانيين، وأما أصل الأرقام التي يقال لها الأرقام العربية فلا يزال غامضاً. وقد كان « بونيفوس » في زمان تيودوريك الكبير (ملك القوط الشرقيين الذي كان في ايطالية) استعمل بعض اشارات تشبه الأرقام التسعة التي نحن نستعملها الآن. وكان أحد تلاميذ « جربت » يستعمل أيضاً اشارات أشد مضاهاة لأرقامنا الحاضرة. وأما الصفر فبقي مجهولاً الى القرن الثاني عشر (المسيحي) اذ اخترعه عربي اسمه محمد بن موسى كان أيضاً هو أول من استعمل الاشارات للكسور، وجعل للأرقام قيمة متعلقة بموضعها. ولم يزد العرب شيئاً في الهندسة على ما قرره اقليدس الا أن الجبر علم هم الذين انفردوا بوضعه. وكذلك أوسعوا علم مساحة المثلثات الكروية، واخترعوا « الجيب » و « الخط المماس للدائرة » وكان لهم في الطبيعيات اختراع رفاض

الساعة ، وكتبوا في علم المرآئ ، وتقدموا كثيراً في علم الفلك ، وبنوا المراصد الفلكية ، وأحدثوا الآلات اللازمة لهذا العلم ، والتي لا تزال معتمد الناس الى اليوم . وهم الذين حسبوا زاوية سمت الشمس ومبادرة نقطة اعتدال الليل والنهار . فكانت معارفهم الفلكية واسعة فعلاً .

وأما في الطب فقد بلغوا شأواً فأتوا فيه اليونانيين بكثير . وقد درسوا الفسيولوجيا وعلم الصحة ، وكانت طرق طبهم العملية نظير طرقنا الحاضرة . ولا تزال نحن الى يوم الناس هذا نستعمل كثيرا من أدويتهم . وكان جراحوهم يعرفون التخدير ويعملون العمليات الجراحية الصعبة ، وبينما كانت الكنيسة في أوربة تمنع ممارسة الطب وتعتمد في شفاء الاسقام على الطقوس الدينية لا غير ، كان العرب ذوى ملكة حقيقية في الطب . وكان لهم نصيب وافر من علم الكيمياء ، فقد كشفوا كثيراً من المواد التي لم تكن معروفة كالسكر ، والبوتاس ، ونيترات الفضة ، والسلياني ، وكثيراً من الحوامض . وأما من جهة الصناعة فكانوا أرقى من وجد الى ذلك الوقت يتفنون في صنع ما يريدونه في الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد والفولاذ . وكانوا يصنعون الزجاج والخزف الفاخر ويعلمون جميع أسرار الألوان ويتقنون الصباغة ، ويعملون الكاغد للكتابة ويهينون الجلود بصور متنوعة ، وكانوا يصنعون أنواع الأشربة ، ويستخرجون السكر من القصب . ثم انه كانت لهم القدم الراسخة في الزراعة يجرون فيها على طريقة علمية ، وكانت لهم أساليب راقية في الري^(١) ومعرفة بخواص الأسمدة ، وكانوا يلائمون بين الحبوب وطبيعة الأراضي ، ويعلمون من أصناف التلقيم في الفواكه والأزهار ما لا يعلمه سواهم ، وهم الذين أدخلوا الى أوربة أشجاراً ونباتات لم تكن تعرفها ، وحرروا في علم الزراعة كتباً قيّمة .

ومن أهم ما أتقنه العرب ، وكان له أعظم تأثير في الحركة الفكرية البشرية ، صناعة الكاغد . والذي يظهر أن العرب أخذوها عن الصين وألقوا بها الى الاوربيين . وقد كانت الكتابة الى ذلك الوقت على الرق والبردى . ثم لما فتح العرب مصرأ انقطع ورود البردى

(١) ولا تزال طرق الري العربية هي الجارية في أسبانية الى اليوم لم يزيدوا عليها شيئاً

الى أوروبة ولهذا تأخرت المدنية الاوربية قرونا عن سائر المدنيات فانه بدون ورق للكتابة يستحيل أن تنتشر المعارف انتشاراً مذكوراً »

وختم وز فصله عن حضارة الاسلام بجملة نستجلب اليها أنظار القراء ولو كانت الحقيقة التي فيها مؤلمة
قال :

« ان كل هذا النشاط الفكري حصل في العالم الاسلامي في وسط الاضطراب السياسي والقلق فان العرب لم يوقفوا في وقت من الأوقات الى نظام حكومي ثابت آمن غوائل الاضطراب والانتقال ، بل جميع الحكومات التي أسسوها كانت مطلقة عرضة للزلازل والمكابد والغيلة والعوارض التي هي من لوازم كل حكومة مطلقة التصرف »
قال :

« الا أنه برغم هذه الهزاهز المستمرة ، وهذا القتل الذي يكاد يكون متصلاً ، وهذه العن الطويلة العريضة بين الأحزاب ، كان لروح الاسلام نظام خاص ، مطرد بادي التأثير في حياة الأمة ، ماسك بمحجزاتها عن التهور . ولقد عجزت السلطنة اليزنطية عن زعزعة أركان المدنية الاسلامية . وطول ما كان التركي غير متصرف بأزمة الاسلام ، كانت حياة الاسلام الفكرية غضة . ولعل الاسلام كان في ذات نفسه مغتبطاً بأن تكون حياته العقلية مستمرة مطردة برغم ما كانت عليه حياته السياسية من التخبط والتهور »

ولقد ذهب وز الى أن الاسلام كاد يفتح العالم أجمع لو بقي سائراً سيرته الأولى ، ولولم تنشب في وسطه من أول الأمر الحرب الداخلية . فقد كان هم عائشة أن تقهر علياً قبل كل شيء . وقد كان هم كل من الفريقين العلوي والأموي أن يستولى على الخلافة قبل همه في بسطة الاسلام في الأرض ، الى غير ذلك من الآراء التي نجدتها في أكثر كتب المحققين من علماء التاريخ والتي لا تقدر مع الأسف أن نقول انها غير صحيحة .

ومن أعظم المؤلفين الذين أجلدوا في موضوع اسلام العلامة « درابر » الأميركي المشهور صاحب كتاب « اختلاف العلم والدين » فقد كتب كتاباً نادر المثال في تاريخ الحركة الفكرية العلمية في العالم ، وما كان بازائها من العقائد والأديان وما وقع من

المصارعة بين المبدأ العلمي والمبدأ الديني .

وكنت اطلعت على هذا الكتاب اذ كنت في الثامنة عشرة من العلم وأجعت ترجمة الى العربية ، ثم أنجزت ذلك نقلاً عن نسخته الافرنسية التي كان يسهل على الترجمة عنها أكثر من النسخة الانكليزية . ثم اني لأجل زيادة التدقيق والضبط أطلعت عليها العلامة الشهير أستاذ أساتيد العصر الدكتور فاندريك ، الذي كان لي عليه تردد كثير ، وكان له نحوي ميل شديد وكنت عن يستضيء بأرائه . فالدكتور فاندريك والاساذ الامام الشيخ محمد عبده طيب الله ثراهما ، هما اللذان صححا عزمي على ترجمة هذا الكتاب ، وباشرت ذلك وصرت آتي من الترجمة الى الدكتور بكراس كراس ، وهو يطالعها ويراجعها ويصحح ما يراه محتاجاً الى التصحيح . وقد كان تصحيحه للألفاظ العلمية والاصطلاحات الفنية التي لم أكن لذلك العهد أركن الى نفسى فيها . ولا تزال تصحيحات الدكتور فاندريك بخط يده على حواشي المخطوط . وان يسر الله طبع هذا الكتاب فساطيع عبارات تصحيحه كما كتبها هو أى منذ ٤٣ سنة . ولقد شهد لي الدكتور بومندر بصحة الترجمة وقال لمن سأله عنى فيها هكذا : « جاء بالصحة »

وانى لناقل الآن بالحرف قول العلامة « درابر » من كتابه المذكور تحت عنوان .
« الفصل الرابع : في تجمد العلوم في الجنوب » مترجماً بقلمى القاصر منذ ثلاث وأربعين سنة مصححاً بقلم الدكتور العلامة الأشهر فاندريك الاميركاني عفا الله عنه وجزاه خيراً : —

« قال الامام على : لاحظت كثيراً في مدة حياتي الطويلة أن الناس يزمانهم أشبه منهم بأبائهم . ولعمري ان هذه الملاحظة الفلسفية البعيدة المرمى التي آتى بها صهر محمد ، لمي عين الصواب . فانه مهما كانت ملامح المرء وتقاطيعه دائة على نسبِهِ فان البيئة التي يوجد فيها لمي منفاً طبيعته الفكرية وحد وجهته العقلية . ولما فتح عمرو بن العاص نائب الخليفة عمر ، أرض مصر ، وضمها الى المملكة العربية ، وجد في الاسكندرية نحوياً يونانياً اسمه يوحنا فيلوبونوس ، ومعناه « محب النخل » فحصلت بينهما مودة ، ورغب هذا الرجل الى عمرو أن يتخلّى له عن بقية المكتبة الكبرى ، ممّا لم يكن أخشى عليه الدهر ، ولا ذهب به التمصب ولا أفتته الحروب . فاستأذن عمرو الخليفة في ذلك فأجابه :

« هذه الكتب اما أن تكون موافقة للقرآن ، أو مخالفة له ، فان كانت موافقة فنحن

في غنى عنها ، وان مخالفة فهي ضارة وواجب احراقها « فوزعت على حمامات الاسكندرية و بعد ستة أشهر لم يبق شئ منها ^(١) »

ومهما وقع من المراء في هذه المسئلة فما لا شك فيه صدور هذا الأمر عن الخليفة ، لأن عمر لم يكن من الطبقة المشتغلة بالعلوم ، ولم تكن الجماعة التي حوله الا من الرجال المتحمسين في الدين الذين ليس لهم هوس بشئ آخر . فعلم عمر قد حقق ملاحظة على . ولا ينبغي أن يظن أن الكتب التي كان طمع فيها « محب الشغل » كانت كتب الخزانة الكبرى المنسوبة الى البطالسة ، والى أومانوس ملك برغام ، بل كان قد مضى الف سنة على العهد الذي ابتداء فيه فيلادلفيوس بجمع كتبه . وكان يوليوس قيصر قد أحرق أكثر من نصفها . وكان بطارقة الاسكندرية قد سعوا سعياً حثيثاً في احراقها . وقد روى أوراسيوس أنه كان قد شاهد قطرات المكتبة فارغة ، قبل ان صدر أمر الامبراطور لتاوفيلاوس عم القديس كيرلس ، باحراق الكتب بمدة عشرين سنة . وعلى فرض عدم جريان هذه الأحوال . على هذه المكتبة ، فان طول الاستعمال ، وكثرة الممارسة ، وما هناك من العوارض والحوادث اليومية ، والسراقات على طول مدة عشرة قرون متوالية ، لمن الأسباب التي تخنى على كثير من موجود المكتبة . ولا جرم أن يوحنا النحوى لم يكن له طاقة بنصف مليون مجلد . ولم يكن ليقتدر أن ينفق عليها انفاق البطالسة والقيصرة . هذا وان المدة التي زعموا استغراق الحريق اياها لا ينبغي أن تكون قاعده للحساب ، فان ورق البردى سهل الوقود ، ولكن الرق لا يتقد بسهولة ، ولهذا لم يكن الجاميون يؤثرونه ما وجدوا غيره . وقد كان القسم الاكبر من كتب مكتبة الاسكندرية من الرق المذكور .

وأصح وأوثق من احراق عمر لمكتبة الاسكندرية ، احراق الصليبيين لمكتبة طرابلس الشام التي قيل انهم وجدوا فيها نحواً من ثلاثة ملايين مجلد . فقد كانت المسئلة دينية من الجانبين . ويقال ان الصليبيين لما دخلوا القاعة الأولى من المكتبة الطرابلسية ، لم يجدوا الا المصاحف ، فظنوا الأمر كذلك في سائر القاعات فاضرموا النار في الجميع . وليعلم ان خبر هاتين الواقعتين لا بد أن يكون وقع فيه شئ من المبالغة . ولكن لا بد أن

(١) كتب الدكتور فانديك على حاشية هذه الجملة : هذه القصة حكاهما غريغوريوس أبو الفرج وعليها

يكون له أصل من الصحة . وهكذا لا يزال التحمس الديني له هذه الأمثال . أفلم يحرق الأسبانيول في المكسيك قطع الكتابات البروغليفية تلك الحسارة التي لاتعوض . أفلم يحرق الكردينال كسيمينس في ساحة غرناطة ثمانية آلاف كتاب عربي ، قسم كبير منها تراجم للعلماء والمؤلفين^(١)

ولقد رأينا تأثير الحروب في انتشار العلوم لعهد البطالة وما أيقظته غزوات الاسكندر للفرس من الهمم في طلبها ، وقد كانت النتيجة نفسها لغزوات المسلمين . ومن الصداقة التي انعقدت بين عمرو بن العاص ، ويوحنا النحوي ، يظهر لك مقدار ميل العرب بطبيعتهم الى حرية الفكر . فانهم ماخرجوا من وثنية الجاهلية الى التوحيد المحمدي حتى استعنت قرائح جميعهم للعلوم الفلسفية ، والفنون الأدبية ، وكان نساطرة سورية ، ويهود مصر ، هم الذين ينهجون لهم السبيل لذلك . ولقد كنا أشرنا الى ما أصاب نسطور وأصحابه من الانتقام بسبب قولهم بوحدانية الخالق ، تبارك وتعالى ، وانكارهم وجود سماء ذات آلهة والهات ، وقولهم نفوذ بالله من الاعتقاد بملكية السموات مريم العنراء .



فهذه العقائد التي كان عليها النساطرة ، سهلت جداً علاقتهم مع المسلمين . ولم يكتفِ هؤلاء من مودتهم بمجرد المجاملة ، بل قلّدوهم المناصب في المملكة . وكان النبي نفسه يوصى بهم خيراً . وكذلك الخليفة عمر . وكانت لها عهود بحسن معاملتهم . ثم في دور العباسيين وضع هرون الرشيد دور العلم العامة تحت نظارة يوحنا بن ماسويه^(٢) وزد على

(١) الذي قرأته في بعض كتب الاسبانيول ان الذي أحرقوه في غرناطة من الكتب العربية أكثر من هذا العدد بكثير قيل مائة الف كتاب وقيل أكثر وانهم أحرقوا كل الكتب بدون استثناء ، سوى كتب الطب والطبيعة والحساب

(٢) قال في طبقات الاطباء : كان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب ، سريانياً ، فلهه الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد باقراً وعمورية وسائر بلاد الروم حين سبأها السلجون ووضعه أميناً علي الترجمة وخدم هرون والأمين والمأمون وبقى علي ذلك الى أيام التوكل . وكانت بنو هاشم لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم الا بمحضته

الناصرة اليهود ، فان هؤلاء عندما مالت النصرانية الى الأخذ عن الوثنية ثم دخلت فيها عقيدة التثليث ، ازداد نفورهم من النصرانية ، ولم تزدهم القرون الطويلة التي مضت عليهم بالمصائب والتكبات الا استمساكاً بعقيدتهم التوحيدية ، ومقتناً للبادئ الوثنية التي أشر بواكراهيتها أيام أسره في بابل . فترجوا هم والناصرة مؤلفات كثيرة يونانية ولاتينية الى السرياني، ثم نقلت هذه الكتب الى العربي وسار الناصرة يعلمون أولاد أمراء الاسلام واليهود أطباء لهم .

وهذا الائتلاف كسر من سورة التعصب الاسلامي ، ودمت من أخلاق المسلمين ، وأعلى من مستواهم الفكري ، فجابوا عمالك الفلسفة والعلم بأسرع مما جابوا ولايات المملكة الرومانية ، وعدلوا عن الافكار العامة الى الحقائق العلمية

والحاصل أنه في ذلك العالم التي أغارت عليه الوثنية ، لم يبق آخذاً بنار الوحدانية الالهية الا سيف المسلمين . وما أغان كثيراً على حصول هذه النتيجة عقيدة القضاء والقدر التي في القرآن « أينا نكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في روج مشيدة »

وقد قال علي : لا ريب في أن جميع أعمال العباد هي بيد الله وحده . فالسالمون الحقيقيون هم الذين يخضعون لمشيئة الله فيوقفون بين الاختيار المطلق ، وسبق قضاء الله قائلين : « قدّر علينا القضاء وعلينا وضع أوانه » ويقولون : « اذا شئنا التسلط على قوى الطبيعة لم يلزمنا أن نحاول مقاومتها رأساً ، ولكن تعديل للقوة الواحدة بالآخرى » . فهذه العقيدة هيأت ذوبها للقيام باكبر الأعمال فتبدلت بالياس الاتكال ، واحتقرت الآمال « اليأس حرُّ والأمل عبد »

على أن خوض الغمرات أظهر للمسلمين أن في الطب مع ذلك تخفيفاً للآلام . وفي الجراحة ضمداً للجروح . وان الذين أشفقوا على الهلاك يمكنهم بواسطة العلم أن يعودوا (باذن الله) الى الحياة . وتقرر أن للاختيار المطلق مدخلاً عظيماً في الحياة الشخصية ، وان الانسان يمكنه الدرجة معلومة أن يصور بأعماله الاختيارية اقدار نفسه ، أما الجماعات فليس لها ضامن شامل ، وانما تحمي في ضمن مملكة التواميس الثابتة

وكان اختلاف بين المسيحية والمحمدية في هذا المقام عظيماً . لأن المسيحي كان مؤمناً بدوام التدخل الالهي ولم يكن يعتقد بناموس أزلي أبدي يدور عليه الكون ، وكان يرجو

صلواته تغيير سير الأشياء ، وإن لم تكن صلواته مما يستجلب فصولات مريم العذراء والقديسين ، وبحرمة النخائر المقدسة . وكان اذا رأى صوته ضعيفاً التمس ذلك من الكهنة والاشخاص المشهورين بالقوى ، وأضاف الى صلواتهم الهدايا والنسور والصدقات . وكانت النصرانية بأسرها تعتقد بإمكان انقلاب العالم بحذافيره بواسطة الخوارق والمعجزات . فاما الاسلام فكان بالعكس ، معتمداً على التسليم الطاهر للإرادة الالهية . فكانت صلاة المسلم عبارة عن الشكر لله تعالى على ما قدره للعبد وصلاة المسيحي تضرعاً لأجل الانعام بالخيرات للرنجاة وكلاهما اعتاض بالصلاة عن رياضات الهنود واستغراقهم في التأمل . فليس الوجود عند المسيحي الاسئلة حركات لجانية وحوادث قد تجيء متناقضة بتأثير الصلوات والقداسات التي تتجاذبها . وليس الوجود عند المسلم الاسئلة مفاعيل وعلل آخذ بعضها برقاب بعض . فما حركة جسم من الاجسام عند المسلم الا نتيجة حركة سابقة ، وما الفكر عنده الا وليد فكر آخر . ولكل حادث تاريخي عنده منبع في حادث قبله ولكل عمل بشري أصل في عمل آخر . ولم يحدث في العالم الانساني شيء الا وقد أُعِدَّ من قبل . فهناك تسلسل منطقي مطرد . وان القضاء هو أشبه بسلسلة من حديد كل حادث فيه بمثابة حلقة منها . وهذه الحلقة قد وضعت موضعها منذ الأزل ونحن جئنا الى الدنيا ولا علم لنا ونخرج من الدنيا رغم ارادتنا فلم يبق علينا الا أن نكون منتظرين

وبنا عدا هذا الرأي بشأن سير الحياة البشرية ، جده عند المسلمين رأى آخر بشأن تكوين العالم العضوي . فقد كانوا في الاول يفهمون من ظاهر القرآن ان الارض رقعة مسطحة مربعة الزوايا ، محاطة بجبال عالية ، وهذه الجبال هي التي تنوط الارض بقبة السماء وتحمل ذلك أيضاً^(١) فيجب أن تأمل تأمل الزهاد في هذه الفترة الالهية التي بسطت هذه الرقعة الفسيحة الثلاثة التي لا نجد فيها خللاً ولا سقطاً وفوقها السبع الطباق ، وفوق السبع الطباق الله تعالى مستوٍ على عرشه ، تحت صورة رجل عظيم القامة الى النهاية ، عند رجليه ثيران ذات أجنحة نظير ملوك أثور الاقدمين^(٢)

(١) انما يصدق كلام دوائر هذا على أفكار الرومان من المسلمين ومن المعلوم ان أفكار الرومان

لا يبدأ بها .

(٢) وهذا أيضاً كلام عوام بل أكثر الرومان لا يبلونه وقد وجد في الاسلام فرق ذليلة مجسة

الا أن تجسيها مقرون بعدم تعبيه صفات البارئ تعالى بصفات البعير وبأن الكيف مجهول

وهذه الافكار لم تكن خاصة بالمسلمين بل وجدت عند غيرهم . وهي مما ينشأ عند الانسان في بعض أطوار نموه . ولم يطل أجلها في الاسلام ، بل تبدل بها المسلمون أفكاراً علمية صحيحة . وكما جرى في البلدان المسيحية لم يتم هذا الأمر بدون مقاومة حادة المبادئ الدينية . فان المأمون لما عرف كروية الارض أصدر أمره لمن كان عنده من الرياضيين بقياس درجة من الدائرة الارضية ، فقام بعض علماء الدين وعدوا ذلك فسقاً وخروجاً عن الدين ، وأرادوا أن يثيروا العامة عليه ، لكن المأمون لم يبال ما قالوه وثبت في عمله وأمر جبرى القياس على شواطئ البحر الاحمر وفي سهول سنجلر بواسطة الاسطرلاب . وتقرر ارتفاع القطب فوق الافق بمزلتين مسافتها درجة على دائرة نصف النهار ، ثم قاسوا بعد المسافة بين المزلتين فوجدوها مائتي الف ذراع هاشمي فحصل من ذلك لدائرة الارض أربعة وعشرون الف ميل انكليزي . وهو حساب لم يكن بعيداً كثيراً عن الحقيقة

وأمر الخليفة ، استزادة من العلم واستقصاء في التحقيق ، باجراء قياس آخر بقرب الكوفة فانقسم الفلكيون المأمورون بهذا الامر الى فرقتين ، كل منهما سارت من نقطة معينة ففاست قوس درجة واحدة ، احدهما في نحو الشمال والاخرى في نحو اليمين ، ومن ثمة اتصلاوا الى نتيجة معاومة . فان كان الذراع الذى جعلوه مقياساً هو الذراع السلطاني فيكون طول الدرجة ثلث ميل . ومن هنا استدل الخليفة على كروية الارض

ومما ينبغي التنبيه عليه ان التعصب الدينى في الاسلام لم يلبث أن أذعن لحرارة البحث العلمى ، و بعد ان كان القرآن في ظاهر الحال حاجزاً دون تقدم العلوم صار هو الكتاب الكفيل بأعظم الاعمال الممكنة ، وأصبح دليلاً على صحة الدعوة المحمدية^(١)

(١) انه مما تفضى به امانة النقل ان أثبت هنا ما كتبه الدكتور فأنديك بخطه في حاشية هذه العبارة فقد قال : ان القرآن يوافق الترفض مع الترفضين وفيه مهرب أو مهارب لمن طلب العلوم . ولا تقدر أن نوافق الدكتور فأنديك مع جلالة قدره علي كون القرآن وافق في شيء من الأشياء علي رفض العلم . كما اننا لا تقدر أن نوافق علي كون الأماكن الكثيرة الصريحة التي حث فيها القرآن علي طلب السلم وعظم فيها الحكمة هي مما يقال له مهرب أو مهارب ينفذ منها طالب العلم . اننا لا تقدر أن نؤول هذا القول من العلامة فأنديك الا اذا تذكرنا انه كان قسياً بروتانتيماً ، وان الشهادة الصريحة للقرآن لا تسهل علي ذي مقام رسمي في الكنيسة الا انه مما يجب التنبيه عليه أيضاً ان العلامة فأنديك سر بجميع ما قاله درابر بحق الكنيسة بدون أن يعلق أدنى اعتراض

انه بعد انتقال النبي الى ربه بنحو من عشرين سنة . تنهت الأفكار واتسعت الاختبارات بما جرى من فتح سوريا وآسيا الصغرى ومصر ، وشرع الخليفة علىّ ينشط العلوم ، ويروج سوق المعارف الأدبية ، كما ان معاوية رأس الأمويين قلب صورة الحكم ، فصيره ارضياً بعد أن كان اتخائياً . ونقل كرسى الخلافة من المدينة الى دمشق وهو موقع أحسن توسطاً وأمكن مركزاً وأدخل في موكبه الزينة والإبهة وكسر قيود التعصب الشديد وأحب العلم وأهله . وكان أحد مرازبة الفرس قد جاء لينظر عمر بن الخطاب في المدينة فبصر به مضطجعاً أمام جامع المدينة ، بين المساكين ، ولو دخل على معاوية كما كان يدخل سفراء الملوك لآه في قصر فاخر باهر الياش مزخرف النقوش العربية بين الحياض والأزاهر ولم يمض نصف قرن على وفاة محمد حتى نقلت الكتب اليونانية المشهورة الى اللسان العربي ، كما انها ترجمت المنظومات الشعرية كالإلياذة ، والأوديسا الى اللغة السريانية وخصمت هذه باستعمال العلماء دون غيرهم لما كان فيها من الأخبار الميتولوجية المنافية للعقائد الاسلامية . ثم نقل الخليفة المنصور (٧٥٣ - ٧٧٥) قاعدة ملكه الى بغداد وصيها عاصمة زاوية زاخرة ، وقضى كثيراً من أوقاته في درس علم الفلك ، وشاد مدارس طبية وفقهية . واحتذى على مثاله حفيده هارون الرشيد (٧٨٦) فأصدر أمره بإضافة المدارس الى المساجد في كل أقطار المملكة ، لكن عصر العلم السعيد انما كان في خلافة المأمون الذي جعل دار السلام حاضرة العلم الكبرى وجمع خزائن كثيرة للكتب وعكف على مدارس العلماء ومثاقفة الحكماء . وقد بقي هذا الذوق المكتسب عند خلفاء العرب الى ما بعد انقسام المملكة العربية الى أقسامها الثلاثة فكان العباسية في آسية والفاطمية في مصر والأموية في اسبانية لايتنازعون الرياسة الدنيوية فقط ، بل يتناظرون في العلوم والمعارف والآداب وينسابقون في ميدانها .

وكان العرب في الأدب عارفين بجميع الفنون التي تشخذ الفكر وتهنب العقل ، وتروض الخاطر : وحق لهم الفخر فيما بعد بأنه نبغ فيهم من الشعراء والأدباء أكثر مما نبغ في جميع الأمم معاً . وأما تفوقهم في العلوم فقد كان بالطريقة التي تلقوها عن يونان الاسكندرية ، وليس عن يونان اوربة ، وذلك انهم أدركوا ان مجرد التأمل بعيد عن أن

يبلغ بالانسان الغاية المقصودة ، وأن هذه الغاية لا تُنال الا بمراقبة الأمور واختبار الأشياء أى الطريقة التجريبية . وكانوا يرون الجبر والرياضيات آلات للنطق ، ويُلمحظ من تأليفهم الكثيرة فى جر الأثقال (الميكانيك) وعلم موازين السوائل (الهيدروستاتيك) وعلم البصريات ، أن حلهم للسائل العلمية كان دائماً بطريقة الاختبار المباشر أو بالمراقبة الآلية . وهذا هو السبب فى وضع العرب لعلم الكيمياء ، واختراعهم عدة آلات للتقطير والتصعيد والتنويب والتصفية . وكذلك هو السبب فى استعمالهم فى مراقبة الفلك الآلات المدرجة كالربوع المجيئة والأسطرلابات . وقد استخدموا فى الكيمياء الميزان الذى أتقنوا معرفة قاعدته وأنشأوا جداول للتقل النوعى . ولهم الزيجات الفلكية الشهيرة مثل زيجات بغداد ، وقرطبة ، وسمرقند ، وكان ذلك من أعظم وسائل نجاحهم فى الهندسة والمثلثات ، وتوصلهم الى ابتكار علم الجبر ، واتخاذ طريقة الرقم الهندى ^(١) وذلك كله نتيجة اتساع العرب مذهب ارسطو فى الفلسفة دون مذهب أفلاطون لأن الأول تفصيلى والثانى اجالى .

واعتنى العرب كثيراً بجمع الكتب وبنوا لها الخزائن العظيمة ، وقيل ان المأمون استجلب الى بغداد مقدار مائة حل جمل من الكتب . وكان من جملة شروط معاهدة له مع الامبراطور ميخائيل الثالث ، أن يتخلى له عن احدى مكاتب القسطنطينية . وكانت وُجدت فى بعض الخزائن رسالة بطليموس فى الرياضيات السماوية فأمر المأمون بنقلها الى العربية باسم المخطوط . ومازال المأمون يُعنى بأمر المكاتب حتى كانت خزانة كتب القاهرة تشتمل على أزيد من مائة ألف مجلد جيدة النسخ والتجليد . وكان منها ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى فنى الطب والفلك لاغير . وكان قانون هذه الخزائن لا يمنع اعارة الكتب للدارسين المقيمين بالقاهرة . وكان فيها كرتان احدهما من الفضة الصلبة ، والأخرى من النوع المسحى بسبك الرمل ، يقال ان الاولى من صنع بطليموس وبلغت قيمتها ثلاثة آلاف دينار . ثم مكتبة خلفاء اسبانية وكانت تشتمل على ستمائة ألف مجلد وكان برنامجها وحده فى أربعة

(١) قد كتب الدكتور فاندريك بنطه فى حاشية هذه البارة مايل : هذا خطأ لأن العرب لم يخترعوا الجبر بل أخذوه عن الهنود كما أخذوا منهم الأرقام الهندية . والحقيقة ان هذا رأى من الآراء وقد ندم لنا قبل كلام عدة من علماء الاوربيين الذين يذهبون الى كون الجبر من اختراع العرب

وأربعين مجلداً ، وكان ماعداها في الأندلس سبعون خزنة عامة للكتب وكثير من الخزائن الخاصة . ويقال ان أحد العلماء رفض يوماً دعوة سلطان بخارى للإقامة ببلاطه ، معتزلاً بأنه يلزمه لنقل كتبه لا أقل من أربع مائة رجل (١)

وكان في جميع هذه المكاتب الكبيرة أماكن للنسخة والترجمة بل كان مثل ذلك في المكاتب الخصوصية فإن حنين بن اسحاق الطيب النسطوري كان اتخذ لنفسه في بغداد مقاما من هذا النوع (٨٥٠) وترجم ارسطو وأفلاطون وابقراط وجالينوس . وأما في التأليف الأصلية فكانت عادة الأساتيد لقاء المواضيع على الطلبة ، ثم جمعها رسائل . وكان عند كل خليفة من الخلفاء رواة وقصاصون ، وناهيك بقصصهم التي منها ألف ليلة وليلة ، دليلاً على ما أوتي العرب من قوة التصور . وعمّ التصنيف جميع الفنون والمواضيع كالتاريخ والفقه ، والسياسة ، والفلسفة ، وتراجم الرجال ، وأوصاف الخيل والجمال ، وكانت جميعها تنتشر بدون معارضة الدولة . ولم يحدث الأمر بشأن كتب العقائد ومنع بعضها إلا بعد ذلك بكثير . وكان العرب يتأثفون الى الغاية في الورق وألوانه ، والخبر وأنواعه ، ويزينون فوائج الكتب ، ويموهون منها بالذهب على أنواع وأشكال لا تحصى .

فاتلات المملكة الاسلامية في مدة قصيرة بالمدارس والمكاتب من بلاد المغول شرقاً الى مراكش واسبانيا غرباً ، وارتفع في الطرف الشرقى من هذه المملكة التي كانت تفوق المملكة الرومانية في مساحتها مرصد سمرقند ، وفي الطرف الغربى منها مرصد الخالدة في اسبانية (٢)

قال جيبون في كلامه على ما كان من تنشيط العرب للمعارف : ان امراء المقاطعات كانوا يناظرون الخلفاء في محبة العلم ، وبسعيهم انتشر العلم من سمرقند وبخارى الى فاس وقربطبة . وقد أنفق أحد الوزراء مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد ، أجرى عليها خمسة عشر ألف درهم سنوياً ، وكانت هذه المدرسة عمومية يقرأ فيها ستة آلاف طالب ،

(١) هذا هو صاحب بن عباد كان وزيراً لمؤيد الدولة ابن بويه ، ولاخيه نغر الدولة بعد مؤيد الدولة . وكتب اليه الملك نوح بن منصور الساماني يرض عليه الوزارة في مملكته فأجابته معتزلاً وكان من جملة أعذاره استنزاف قتل كتبه لاربعمائة رجل
(٢) هو الذي يسميه الاوربيون بالجبرئيل في اشبيلية

يدرسون معامن ولد السيد الرفيع الى ولد الصانع الوضع وكانوا يُجرون النفقات على التلاميذ الفقراء ، ويؤدون الرواتب الجمة للعلمين ^(١) وكنت ترى العلوم والآداب رائجة الأسواق في جميع المدن والأمصار ، وكانوا كثيراً ما يعهدون بإدارة المدارس الى النساطرة واليهود مما يدل على روح التسامح لذلك العهد فلم يكونوا ينظرون الى وطن العالم ، ولا الى دينه بل الى جهة فضله . وكان الخليفة المأمون يقول عن العلماء : انهم صفوة الله في خلقه ، ونخبته من عباده ، صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة ، فكانوا مصاييح الدرجى وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم .

واقنتت جميع المدارس الطبية العربية بمدرسة القاهرة في تشديد الامتحان على المخرجين منها ، فلم يكونوا يأذنون بممارسة الطب الا لمن أتقن التحصيل ، وامتحن امتحانا تاما ، وأول مدرسة طبية في اوربا اقتنت بمدارس المسلمين مدرسة ساليرنا . ولعلنا نخرج عن حدود هذا التأليف لو شئنا تفصيل هذه الحركة العلمية التي وُجعت عند العرب . فانهم وسعوا نطاق العلوم القديمة ووضعو علوماً جديدة ، وأدخلوا طريقة الهند الحسابية ، وهى من الاختراعات العقلية البديعة لاشارتها الى الأعداد بأرقام عشرة ذات قيمتين ، المستقلة والنسبية ، وتيسيرها قواعد بسيطة لجميع الحسابات . وأما الجبر أو الحساب المعمم الذى موضوعه الكميات غير المعروفة ، والبحث عن علائق الكميات من أى نوع كان حسابياً كان أو هندسياً فقد أخرجه من ضمن الحدود التى كان حصره فيها ديوفانتوس . وبسط محمد بن موسى حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، وعمر بن ابراهيم حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة . والمسلمون هم الذين أوصلوا علم المثلثات الى صورته الحالية ، واعتاضوا بالجيوب عن الأوتار وجعلوه علماً مستقلاً . ومحمد بن موسى الذى ذكرناه هو بعينه مؤلف رسالة المثلثات الكروية . وللبغدادى رسالة فى مساحة الأراضى فى غاية الابداع حتى ظن كثيرون انها نسخة من بعض تأليف اقليدس . وأما فى الفلك فلم ينشئ العرب اذياً فقط ، بل رسموا صفائح للنجوم المنظورة وسموا النجوم الكبرى التى فى الكرة السماوية بالاسماء التى تعرف بها اليوم ، وقاسوا مساحة الأرض وطول الدرجة كما تقدم الكلام

(١) يشير درابر هنا الى المدرسة النظامية التى شادها الوزير نظام الملك فى بغداد وشهرتها غنية عن التعريف

عليه ، وفضلوا مسألة انحراف دائرة البروج عن خط الاستواء ونشروا صفاً مرسومة عليها حركة القمر والشمس وهي صحيحة . وقرروا مدة السنة الشمسية وحققوا حركة مبادرة الاعتدال .

وقد أظنب « لآبلأس » في ذكر رسالة علم النجوم تأليف البتاني وذكر رسالة أخرى جلية لأبن يونس الذي كان فلكي الحاكم في مصر سنة ألف للمسيح تحتوي على سلسة اختبارات من زمن المنصور في الكسوف والاعتدال والانقلاب وقران السيارات واحتجاب الكواكب . وهي مراقبات فلكية جلية أضاءت الأسباب في مسائل تغيرات الكرة الساهوية . وعكف الفلكيون العرب على اتقان الآلات الفلكية وقياس الزمان بالساعات المختلفة منها المائية ومنها الشمسية وهم أول من استعملوا لذلك الساعة الكبيرة ذات الرقاص

وأما في العلوم التجريبية ، فهم الذين وضعوا علم الكيمياء وكشفوا خواص الجواهر التي يتوصل بها الى معرفة طبائع الأجسام ، والحمض الكبريتيك ، والحمض النيتريك ، والكحول ، وجعلوها في الطب . وهم أول من استعملوا الأقراباذين ، وافتتحوا الصيدليات المجانية وجعلوا فيها المستحضرات المعدنية . وأما في الميكانيك ، فعرفوا قاعدة سقوط الأجسام وقيلاً من الجاذبية . وكان لهم علم بالديناميك أي حركة الأجسام وأنشأوا في علم السوائل جداول لبيان الأثقال النوعية . وكتبوا رسائل في الاجرام الطافية والراسبة . وعدلوا في العلم البعري عن القول اليوناني القديم بذهاب التور من العين الى الجسم المنظور ، الى القول بانعكاس الأشعة وانحرافها ، وكشف الخازن انحناء الشعاع المار بالكوة الهوائية ، محققاً اننا نرى الشمس والقمر قبل وجودهما حقيقة فوق الأفق وبعد غيابهما تحت ، وظهرت نتائج هذه الحركة العلمية الكبيرة في الصناعات فاستفادت منها الزراعة في رى الأراضي وتدميلها وتربية المواشي وانتشرت للفلاحة قواعد مضبوطة فنية ، وأدخلت زراعة الارز والسكر والبن ، واتسعت أعمال المعامل فيما يتعلق بنساجة الصوف والحريز والقطن وصنع الورق والجلد في قرطبة ومراكش ، وأسيلت الجوامد واستخرجت المناجم وتسلطت الأبدى على أنواع المعادن وكان لمعمل السلاح في طليطلة شهرة طائرة .

ولما كان للعرب ولوع خاص بالفناء وقرض الشعر، قضوا كثيراً من أوقاتهم بمباشرة هذه الملاذ العقلية، وهم الذين عرفوا الأوربيين بالشرنج والهبوا فيهم حب الاقاصيص. وكانت للعرب قدم راسخة في آداب أسمى من هذه كعلم الاخلاق، والزهد، والنسك، ولهم التواليف النفيسة في زوال العظمت الدنيوية، واضمحلال المجد الباطل، وعواقب الكفر وأصل الكون، وبقائه، وانهائه. وانا لنعجب غاية العجب بما نجده أحياناً في كتبهم من التصورات والافكار التي كنا نظنها عصرية محدثة فاذا بهم قد سبقوا اليها. وذلك كذهب النشوء والارتقاء في الكائنات العضوية، فقد كان هذا المذهب يعلم في مدارسهم وكانوا يذهبون فيه الى أبعد مما نذهب اليوم باطلاقه على الجواهر غير العضوية^(١) وكان عندهم مبدأ الكيمياء الأساسي هو التركيب التدريجي في الاجسام المعدنية قال الخازن: « ان الجهلة حينما يسمعون بتحول بعض الاجسام بطريق التكامل الى ذهب يفهمون انه مرّ بصور الاجسام المعدنية الاخرى أي أنه كان رصاصاً، ثم صار قصديراً، ثم صار من نوع سكب الرمل، ثم فضة، الى أن انتهى ذهباً. ولا يدركون ان الفلاسفة يريدون بما يقولونه الانسان أيضاً. اذ لم يصل الى الحالة التي هو فيها الآن بالانقلاب السريع بل بالتدريج كأن مرّ بصورة العجل، فالجمل، فالفرس، فالقرد، الى أن انتهى انساناً ». انتهى.

وقد جاء ذكر مدينة العرب أيضاً في كتاب درابر في الفصل السادس المتعلق بطبيعة العالم والمقايضة بين ما كان عليه الأوربيون في القرون الوسطى وما كان عليه العرب قال: « وقد مضى القسم الأكبر من هذه القرون على النصرانية بالمنازعات على الطبيعة الالهية والاختلاف على السلطة الكنسية ». وهذه كانت تجد كل حقيقة داخل الاسفار المقدسة فتنبط الناس عن كل بحث. واذا اتفق لزوم النظر في مسألة فلكية مثلاً كان يرجع فيها الى فصل للقديس اغسطينوس أو لاكتانسيوس، ولم يكونوا يجحدون حاجة الى مراقبة الاحداث الجوية. وعلى هذه الحال استمر ترجيح العلم الديني على العلم الدنيوي مدة خمس عشرة مائة سنة اذ في كل هذه المدة لم يولد في النصرانية فلكي واحد أما المسلمون فقد كان عملهم في هذا المقام أحسن جداً، فقد بدأوا يعتنون بالعلوم

(١) راجع مقصدة ابن خلدون

منذ افتتحوا الاسكندرية (٦٣٨) فلم يمض على ذلك قرنان حتى درسوا جميع علوم يونان وترجوا كتبهم ، وكان المأمون أمر بترجمة كتاب بطليموس الى العربية ومن بعدها قاس العرب قطر الارض ، ووضعوا جدولاً للنجوم المرئية ، وسماوا الكبرى منها بالاسماء التي تعرف بها الى الآن . وقرروا مدة السنة الشمسية ، واخترعوا الساعة بالرقاص ، وكشفوا انكسار النور ، وفعله برؤية الاجرام السماوية ، وقاسوا ارتفاع الهواء الكروي ، وقرروا انه يبلغ ثمانية وخسين ميلاً . وكذلك عرفوا مسألة النور الشفقي وتألق الكواكب . وهم الذين بنوا أول مرصد فلكي في أروبة . وقد صح كثير من رصدهم واعتمد عليه أربع علماء الرياضة المحدثين . ذكر لابلاس في كتابه « نظام العالم » ان ارساد البتاني تقيم الأدلة الساطعة على اهليلجية فلك الارض ، وان تحقيقات ابن يونس تثبت تغير ميل دائرة البروج على خط الاستواء وانحراف سير المشتري وزحل

كل هذا الذي نذكره ليس الاجزاء يسيراً من الخدمة الجزيلة التي قدمها فلكيو العرب للعلم ، والعناء الذي عانوه لحل المسائل الطبيعية . هذا ينبا ظلمات الجهالة مطبقة على النصرانية وأهلها لا يفكر منهم أحد بهذه الأمور ، وانما عنايتهم منصرفة كلها الى المشاجرات الدينية وعبادة الصور وتحول الخبز جسداً ، والخرمداً ، واستحقاقات القديسين والمعجزات والاعاجيب وشفاء الامراض بالتخائر المقدسة . وبقى هذا الجهل محجماً على أروبة الى غاية القرن الخامس عشر ، ولم يقع التقدم بعد ذلك الى طلب العلم من جهة حب العلم لنفسه والولوع بكشف الحقائق . ولكنه بدأ بمنافسات تجارية وظهر الزحالات الثلاثة كريستوف كوليبوس ، وفاسكو دوغاما ، وفرديناند مجلان ، وبأسفارهم تفررت كروية الارض .

وقد حدث كوليبوس عن نفسه بأنه انبعث الى السفر قاصداً الهند من طريق الاطلانتيك وذلك بمطالعة كتب ابن رشد . ووجد بين أصحابه رجل فلورنتي اسمه «توسكانلي» درس الفلك وجاهر بالقول بكروية الارض . ولما ظهر مشروع كوليبوس قام الاكلابروس الاسبانيولى وقعد وحكم عليه بجمع طلعتكة Talamanche بالكفر وانما عرضوا مذهبه عند المحاكمة على مقالات القديسين يوحنا فم الذهب ، وأغسطينوس ، وأيرونيوموس ، وغريغور يوس ، وباسيليسوس ، وامبروسيسوس ، ورسائل الرسل والانجيل والنبوات والزامير والتوراة الخ .

هذا ما اخترنا نقله من ترجمة كتاب درابر « اختلاف العلم والدين » وهو كتاب شهير مشحون بالفوائد اذا اتدح لنا الوقت قد نعيد النظر عليه ، ونطبعه مع تعليقات العلامة الدكتور فاندريك الذى طالع الترجمة كلها

ومن تكلم على مدينة العرب وأجاد واشتهر كتابه فى كل ناد ، الفيلسوف الفرنسى للدكتور غستاف لويون الذى توفى منذ نحو شهرين أو ثلاثة عن ٩١ سنة جزاء الله عن العرب وعن الاسلام خيراً . ولقد لخصت كتابه فى رسالة وجيزة تذكرة لنفسى ، ثم بلغنى ان الكاتب المصرى المعروف السيد محمد مسعود قد ترجم الكتاب الى العربية ترجمة تامة ، فلهدا فضلت طي رسالتى هذه على غرّها ، منتظراً ظهور الترجمة الكاملة . ولقد كان غستاف لويون من الافرنج المنصفين الذين لم يدافعوا عن حضارة الاسلام فحسب ، بل دافعوا عن حقوق المسلمين وانتقدوا سياسة القهر والهضم التى تصفهم بها الدول الاوربية المستعمرة . وقد كتب كتابات شافية فى انتقاد قومه الفرنسيس بما يعاملون به مسلمى الجزائر من الظلم ، والارهاق ، ونزع الاراضى ، والتشريد الى الصحراء وغير ذلك . ولقد عرفت هذا الرجل بنفسى منذ أربعين سنة ، وذلك فى باريز اذ ذهبت اليه لاشكره على كتابه الذى كان أخرجه حديثاً عن حضارة العرب ، فقال لى وقتئذ انى كنت ثانى رجل مسلم جاء وحدته فى هذا الموضوع ، وشكره على صنيعه . ولم تساعدنى الاقدار على ملاقاته أكثر من تلك المرة ولكنى كنت أنتج كتاباته وأتمتع بتصانيفه الكثيرة المفيدة وهو من الفلاسفة الاجتماعيين الموددين فى هذا العصر

العصبية الفارسية والاسلام

مبيار الديلمي وبديع الزمان الهمذاني
على ذكر المؤلف استيلاء العرب على فارس

للهمذاني

يذهب بعضهم الى كون استيلاء العرب على فارس وابدانهم ملك كسرى ، معها كان سابقا من العداوة بين هاتين الامتين منذ احقاب متطاولة ، قد كان من نتائجها ايضار صدور العجم على العرب و تربصهم بهم الدوائر حتى يأخذوا منهم بثأرهم . ولما كان دين الفرس المجوسية قد تلاشى أمام الدين العربي المبين ، وعجز عن أن يكون عنصراً للمقاومة ، انتهز الفرس أول فرصة شقاق وقعت في الاسلام نفسه ونصروا الفتنه التي وجدوا أكثر العرب ضدها وهي الشيعة ، ولعبوا دوراً عظيماً في توسيع هذه الفتنه بين العرب من طريق الدين فشقوا احتهم من العرب لما كان هؤلاء أزالوه من سلطانهم بدون أن يقاوموا نفس الاسلام الذي رأوا برهانه أسطع من أن يكابر ، بل بمقاومة احدى فنتيه التي هي السنة والجماعة والتي كان منها جهور العرب . لهذا تجدد الفارسي يكره العرب ويحتقر كل شئ لهم الا الدين . وترى مبيار الديلمي يقول (قد جمعت المجد من أطرافه : نسب الفرس ودين العرب) ومع كون الدين الاسلامي يمنع العصبية للأجناس ويضع فوقها اخوة المؤمنين خاصة كانت لا تزال ترى آثار العصبية الفارسية في بلاد العجم بالرغم من مزج الاسلام للأجناس حتى قال صاحب بن عباد ، وهو فارسي الأصل خاض العقيدة الاسلامية عند ما جبه أحد الفرس وتلا الأبيات التي يفتخر بها على العرب وجلوبه عليها بديع الزمان الهمذاني : ما رأيت رجلاً يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية ينزع اليه . ولما رسخت قدم الاسلام في العجم وزال كل عرق للمجوسية منهم عشقوا التشيع عشقاً كان أعظم عوامله كره العرب ، الى أن كاد الانسان يراهم شيعة قبل كل شئ . وبما ينسب الى الفيلسوف الفرنسي رنان : ان الفرس هم شيعة أولاً ومسلمون ثانياً . ولا شك أن في هذا القول مبالغة وانما

يصدق على كثير من عامتهم . وبهذه الأيام الأخيرة نجم عندهم كما عند غيرهم من الامم الاسلامية فئة تدّين بالقومية وتحارب الجامعة الاسلامية ، ولكنها لا تزال ضعيفة بالقياس الى السواد الأعظم الذي عمدته الاسلام ، بل قد زال من بينهم أكثر النفرة التي كانت عندهم لاهل السنة بما هو نتيجة انحطاط القوة السياسية الاسلامية بأجمعها وشعور العجم بالحاجة الى التضامن مع سائر المسلمين ، سنة الله في المستضعفين ولن تجد لسنة الله تبديلا

نظرية « القومية العثمانية الاسلامية »

و « القومية التركية الطورانية »

على ذكر المؤلف الترك العثمانيين والطورانيين

للأمير شكيب

هذه نظرية الفئة الكبرى من علماء الترك العثمانيين الذين درجوا وقد وافقهم عليها كثير من أدباء الترك المعاصرين مثل عبد الحق حامد بك الملقب بالأديب الأعظم ، وسليمان نظيف بك وأخيه فاتح على ، وجناب شهاب الدين بك ، وجلال نوري بك ، والشاعر محمد عاكف ، وأتور باشا المؤرخ^(١) واسماعيل حقي بك الديار بكري ، واسماعيل حقي بك الازميري، ورضا توفيق الفيلسوف ، ومنهم على كمال الذي قتله السكايون في أزميد لحيايته وجم غفير من كتابهم ومفكرهم ووزرائهم وشيوخهم ، وهي أن الأتراك العثمانيين وان كانوا من الترك أصلاً ومحدثاً فقد أصبحوا باختلاط دمهم بسائر الأمم التي ساكنوها من قرون في غربي آسيه وجنوبي أوروبا من فرس وعرب وكرد وجركس وكرج وروم وأرمن وبلغار وأرناووط وبشناق الخ ، أمة قائمة بذاتها قد ابتعدت كثيراً عن الترك الأصليين ولا سيما من المغول الذين يقال لهم ياجوج وماجوج ، والذين قد اشتهروا بفتح المنظر وغلظ الطبع وكره الحضارة والشغف بسفك السماء وتخريب الديار ونسف العمران ، مما اتفق المؤرخون شرقاً وغرباً على أنه دأبهم، حال كون الأتراك العثمانيين قد عرفوا بصباحة الوجوه وكرم الأخلاق ودماثة الطبع وحب المدينة والجمع بين شدة البأس ورقة الشمايل ، ويزيدون

(١) هو غير أنور باشا ناظر الحرية وهذا أيضاً من يقول بهذه النظرية

على ذلك أن الثقافة التركية العثمانية والأدب التركي العثماني (١) هما خاصان بآراك آل عثمان لأنهما مقتسبان من الآداب العربية والفارسية ، لأن لغة العرب ولغة الفرس كانتا لغتي العلم والشعر عند الأتراك منذ هاجروا الى غربي آسية ، فلذلك قيل للغة الدولة اللغة العثمانية لافتراقها كثيراً عن لهجة آتراك أواسط آسية ، ولكونها لا تشبه في شيء لغة المغول فهذه الفئة وإن كانت لا تبرأ من الترك المسلمين سكان التركستان الروسى والتركستان الصينى وشمالى فارس ، فهى تبرأ من المغول وتعلن تاريخهم وتقول انهم هم كانوا سبب بوار الشرق وانحطاط الاسلام ، وانهم هم الذين نسفوا عمران البلاد التركية خراسان وما وراء النهر والبلاد الفارسية والبلاد العربية ، فأهلكوا الملايين ودمروا العواصم الكبرى ، ولم تقم للشرق بعد مصيبتهم قائمة . وبعض هذه الفئة مثل أنور باشا المار الذكر يزعم أنه لا يوجد أدنى صلة نسب بين الترك العثمانيين والمغول ويميل الى أن الترك هم أصلاً من الجنس الابيض الآرى ، وانما اختلطوا بسبب الجوار بالجنس الاصفر المغولى ، وقد وصف بعض مؤرخى الترك أمثال جنكيز وهولا كوقومهما بمثل ما وصفها به مؤرخو العرب والفرس والافرنج والروس ، لا بل ألت لهذا العهد رجل اسمه طاهر المولوى كتاباً خاصاً بقطائع جنكيز وهولا كوجانتهما ، وقال ليس للترك أن يفخروا بمثل هؤلاء المفسدين فى الارض العائتين المدمرين الذين كانوا علة انحطاط الشرق عن الغرب ، وأعظم بلاء وقع على الانسان ، واذا أراد الأتراك المسلمون أن يراجعوا محيفة احسابهم فيراجعو تاريخ آل طولون بمصر وتاريخ السلاجقة وآل زنكى الاتابكى والدولة العثمانية . وقال جلال نورى صاحب التصانيف الاجتماعية العديدة : الترك العثمانيون هم مسلمون أولاً وترك ثانياً

وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية ، تتخالف الفئة الاولى فى كل هذه النظريات وأشهر دعائها ضيا كوك الب ، وأجد أغاي ، ويوسف آقشورا اللذان قنما من الروسية ، وجلال ساهر ، ويحىي كمال ، وجد الله صبحى رئيس وبقاق « ترك يوردى » ومجد أمين بك الشاعر الملى ، وكثير من الادباء والمفكرين وأكث الطلبة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرفها مجدأ وأسبقها الى الحضارة ، وانهم هم والجنس المغولى واحد فى الاصل ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ،

(١) وم يسمون ذلك بالمرت

ولم يقتصر فيها على الترك الذين في سيبيريا وتركستان الروس وتركستان الصين وفارس والقوقاس والاناطول والرومى ، بل مبدأهم مد هذه الرابطة الى المغول في الصين والى المجر والفلانديين في أوروبا وكل من يقال انه ينسب الى أصل طورانى ، وهم يقولون بخلاف ما يقول الاولون ، فهم ترك أولاً ومسلمون ثانياً . وشعارهم عدم التدين واهمال الجامعة الاسلامية الا اذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة في الطورانية حتى قالوا : نحن أترك فكعبتنا طوران . وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ولا يتكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظمون الاناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزية إيطبعوهم على الاعجاب بها ويرقوا مستوى نفوسهم بزعمهم ، وقد سألت صديقى ورفيقى في مجلس الامة محمد أمين بك الشاعر الملى ، وهو من أحسنهم أخلاقاً ومن لا يبلغ بهم نزوع العرق الطورانى أن يشأ العرب وينصب لهم العداوة ، كما هو شأن كثير من رفاقه ، بل عن سبقت لهم خطب في المجلس ينوه فيها بفضل العرب ، فقلت له : كل شئ فهمته وانكم طورانيون وانه ينبغي لكل أمة أن تمسك بجماعتها القومية وتحببها في صدور أبنائها وان ذلك لا ينافي الاسلام لأن الجامعة الطورانية باعتبار أن الترك مسلمون تقوى الاسلام ولا توهنه ولكن الذى لم أفهمه الى اليوم هو افتخارهم دائماً بجنكيز مع عينه وتدميره وما جرى من قومه من نكس العمران واكتساح البساط . فقال لى : « نفتخر به لكون تشكيلاته العسكرية كانت في غاية الانتظام » تشكيلات عسكرية سى مكمل ايدى » وما يعزى الى المغول من العيث والدعارة فلا يزيد على ما جرى في الحرب العامة من التخريب الذى اقتضته الدواعى الحربية أفلا ترى ما فعل الألمان في شمالى فرنسا مع أنهم أرقى أمة متمدة » هذه هى نظريتهم من جهة ما اشتهر به المغول من العيث والفساد فى الأرض ، وليس هنا محل تبين الفرق بين تخريبات المغول وتخريبات الألمان فى شمالى فرنسا

وقد امتد الخلاف بين هاتين الفئتين فى الترك الى مواضع آخر من أهمها مسألة الرجوع الى اللغة التركية القديمة ، وعلى رأيهم « تصفية » اللغة التركية الحاضرة من الأناطاز العربية والفارسية ، والاعتياض منها بألفاظ تركية مهملة بعدم استعمالها بين الأتراك العثمانيين مع ان استعمال العربى والفارسى هو مما يضعف القومية الطورانية ، وعلى فرض

أن هناك معاني لا توجد بازائها كلمات تركية صرفة فيمكن الأخذ من العربي والفارسي على شرط تترك هذا المستعار من تينك اللغتين ، وقد دارت على هذه المسئلة الجلي مباحثات ومناقشات طويلة ، ولا تزال دائرة ، وحزب التصفية هذا هو كما لا يخفى هو الحزب الطوراني كما أن حزب العربي والفارسي هو الحزب الاسلامي ، واستعملوا في الاستانة لفظي « تركجي » و « اسلامجي » للدلالة على هذين الحزبين

وبرهان الحزب الاسلامي في مناهضة التصفية هو أولا ان اللسان التركي وان كانت فيه متوفرة أسماء الامور المادية وأفعال الحركات البدنية ، فهو لسان فقير في الامور العقلية ، قليل الألفاظ المؤدية للعاني المجردة ، ان أمكنه أن يني بحاجة أمة في حال البداوة وطور السذاجة فلا يمكنه الوفاء باحتياج أمة راقية ودولة عظيمة ، فلا بد له والحال هي هذه ، من الاستعارة من لغة العرب والتوكؤ على لغة الفرس ؛ لاجل الكمال ما نقصه من تلك الجهة .

ثانيا ان الادب التركي الذي نشأ ونما وحررت فيه الكتب الممتعة ، وقصدت القصائد البليغة وصار أدباً معدوداً ، وجال في ميدانه خفول من الكتاب ونوايغ من الشعراء هم مفاخر أمة الترك انما هو هذا الأدب المقتبس من الفارسي والعربي والذي صار أدباً قائماً بذاته ، أفبحسن أن يغير أسلوبه وتبدل ديباجته ، ويحرم الناس طلاوته ويعدل عنه الى أدب تركي يحتم يرجع الى لغة ليس فيها شيء من الاستعداد لتكوين أدب بالغ درجة الرقي كالأدب العثماني الحاضر ؛ وعلى فرض المحال أنه تبسر ذلك أفلا يلزم حقب متطاولة لتأسيس أدب جديد ؟ أما كون استعمال العربي والفارسي هو مما يضعف القومية التركية والحال أن مقصد الترك الجند هو ايقاد شعلتها في النفوس فالحزب الاسلامي هذا لا يجد الأدب العثماني هذا حائلا دون نمو الفكرة التركية بل يجد تقرب التركية من العربية والفارسية ، عدا كونه أزين لها وأزيد في محاسنها ، أنفع للاتراك من الجهة السياسية لانه يؤكد الروابط التي تربط العرب والفرس وسائر المسلمين بالامة التركية مما يزيد لها قوة ومنعة اذ كان هذا الحزب لا يزال دستوروه في السياسة هو الاتحاد الاسلامي ، ويرى الاسلام فوق كل شيء ، وقد كان أنور باشا ناظر الحربية يقول اذا كان أترك التركستان مرتبطين بنا فليس ذلك لكوننا أتركا مثلهم بل لكوننا مسلمين فحسب

اسلام الفرس ومبدأ التشيع

للأمر شكيب

- العرب والعجم
- القومية الفارسية
- قول المسيو دومومين صاحب كتاب « تاريخ العالم » .
- الشرع الاسلامي والقوانين الرومانية (استطراد) .
- نظرية الحقوق في الاسلام لصاوا باشا الرومي .
- العلاقات بين العرب الفاتحين والأُمّ المغلوبة
- أقوال الكونت دوغوينو صاحب كتاب « الأديان والفلسفات في أسية الوسطى »
- الفرق الشيعية في فارس الاخبارية والمجتهدية والشيخية .
- مبدأ الشيعة .
- أبو ذر الغفاري ومعاوية في الشام .
- التشيعُ عند العرب والعجم .
- النزعة الحالية عند الشيعة وأهل السنة الى الوحدة الاسلامية العامة .
- المؤتمر الاسلامي العام في بيت المقدس .
- مع حاشية « المناولة أو الشيعة في جبل عامل »

ومن الغريب أن كثيراً من العجم مع تدينهم بالاسلام ، وشدة استمساكهم بالتشيع لآل البيت ، لا تزال تجد فيهم في الأحياء آثار البغضاء للعرب ، وهم يعلمون أن آل البيت الذين يقصدونهم هذا التقديس كله هم عرب أقحاح ، بل هم سنام العرب . ولقد حدثني من أتق به أنه وُجد من الإيرانيين علماء مجتهدون في مذهب الشيعة ، قضاة حياتهم في خدمته والدعوة إليه إلى أن حانت وفاتهم ، فينتاهم يلفظون أزواحهم تكلموا بما ينبغي عن شدة بغضائهم للعرب وكان هذا كلامهم الأخير في الدنيا وهذا هو القياس البعيد في الشنآن بين الأقوام . وقد كنت أحدث احدي المرار رجلاً من فضلائهم ، ومن ذوي المناصب العالية في الدولة الفارسية ، فوصلنا في البحث إلى قضية العرب والعجم ، وكان محدثي على جانب عظيم من الغلو في التشيع إلى حد أني رأيت له كتاباً مطبوعاً مصدراً بجملة « هو العليّ الغالب » فقلت في نفسي لا شك أن هذا الرجل لشدة غلوه في آل البيت ، ولعلمه أنهم من العرب ، لا يمكنه أن يكره العرب الذين آل البيت منهم ، لأنه يستحيل الجمع بين البغض والحب في مكان واحد . ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . ولقد أخطأ ظني في هذه أيضاً ، فانتى عند ما سقت الحديث إلى مسألة العربية والعجمية وجدته انقلب عجمياً صرفاً ، ونسى ذلك الغلو كله في عليّ عليه السلام وآله ، بل قال لي هكذا وكان يحدثني بالتركية : « إيران بر حكومت اسلاميه دكلدر بالكردين اسلامي اتخاذايتمش بر حكومتدر » أي إيران ليست بحكومة اسلامية وإنما هي حكومة اتخنت لنفسها دين الاسلام » وكنت أتحدث مرة أخرى إلى الأمير «فرمان فرما» عبد الحسين ابن عم الشاه مظفر الدين ، ووالد الأمير فيروز ناظر الخارجية الإيرانية لعهد الشاه الأخير من آل قاجار ، وقد كانت بيني وبين الأمير فرمان فرما المشار إليه مودة أكيدة واجتماعات كثيرة ، وكنت أرى فيه أيضاً شيعياً غالباً ، وأحسب أنه لتشبعه الشديد لا يمكنه أن يكون شائناً للعرب ، وقد غلظت في هذه أيضاً ، فقد رأيت يجمع بين الأمرين يحب آل البيت أشد الحب ، ولا يجب العرب الذين آل البيت منهم . وقد صرح لي قائلاً : ان العرب عند ما استولوا على فارس أفدوا أخلاق العجم ، وبذلك أسقطوا تلك الأمة الفارسية العظيمة التي استولوا عليها وأدخلوها في دينهم ، فلم أستطع على كلامه صبراً ومع أني كنت أيام معرفتي بهذا الأمير شاباً وكان

هو كهلاً ، وكان عندنا ضيفا في جبل لبنان ، لم أملك نفسى من الحدة وقلت له : لا شك أن أخلاقكم كانت فاسدة من قبل ، ولو لا ذلك ما تغلب عليكم العرب وأتم أمة منظّمة ، وهم أمة آتية من الصحراء من تحت الخيام ، وقد اتفق المؤرخون والعلماء الاجتماعيون أن العرب لم يفتحوا تلك الفتوحات السريعة ، ولم يستولوا على ممالك الفرس والرومان والهند والترك والبربر وغيرهم الا بما كانوا عليه في صدر الاسلام من الأخلاق العالية .

فانقطع بعد ذلك عن الحديث . وقضيت مما سمعته من هذين الرجلين من كبار العجم أشد العجب ، لأنى كنت أراها في غاية التمسك بالاسلام ، وهما يعلمان أن الاسلام عربى المنبت ، وكنت أراها في غاية العصبية لعترة على ، وهما يعلمان أنها من بنى هاشم من صميم العرب ، وأراها مع ذلك اذا جرى الكلام في القوميات انقلبا فارسين متشددين ، لا يريدان أن يعلمنا عن العرب شيئاً ، فكأن الواحد من هؤلاء له نفسيتان احداها اسلامية والاخرى فارسية ، وأغرب من هذا أن هذين الرجلين ليسا من الجنس الفارسي الآرى بل من الجنس الفارسي التركي ، لأن فارس كما لا يخفى ترجع الى سلاتين منها السلالة الايرانية الآرية ، ولغتها الفارسية ، ومنها السلالة التركية المغولية ولغتها التركية . ولكن السلاتين اندمجتا أمة واحدة تحت ظل الدولة الفارسية وصارت الفارسية هي اللغة الرسمية للجميع كما أن التشيع غالب على الفريشين . ولا أقدر أن أقول ان هذه الحالة الروحية في العجم هي عامة لهم ، وان جميع مجتهديهم وعلمائهم يضمرون العداوة للعرب برغم معرفتهم أن آل البيت هم من فريش ، وبرغم ذهاب الألوف منهم في كل سنة حجاجاً الى البيت الحرام في مكة ولكنى لأشك في أمر واحد وهو أن القومية الفارسية لم تندثر بالديانة الاسلامية التي جاءت من العرب ، وان هناك عوامل خاصة تجعل الفرس يميلون الى آل البيت ، منها ما تقدم ذكره من أن استيلاء العرب على فارس أوجد في العجم مناوأة للدولة ، التي استولت على بلادهم ، وأزالت ملكهم ، فلذلك رأيتهم اتصروا لبني العباس والعلوية ، يوم كانوا يبدأ واحدة في حرب بنى أمية الذين كلن مركزهم الشام . وما زالوا حتى حولوا الخلافة الى العراق وصارت الدولة العباسية كما يقول كثير من المؤرخين مطبوعة بطابع المدنية الفارسية

ومن الوسائل التي يمت بها العجم الى الاسلام نسب سلمان الفارسي الذي كلن من

أ كابر الصحابه ، وهو منهم وقد جعله النبي ﷺ من آله فقال : سامان منا آل البيت . وقد لحظت أنه لما قتل اللعين أبو لؤلؤة الفارسي سيدنا عمر رضى الله عنه وقام عبيد الله بن عمر بعد وفاة أبيه فقتل المارزبان ، وهو الأمير العجمي الذى كان أسيراً بالمدينة وأسلم ، وكان قتل عبيد الله اياه بتهمة أنه كان ذا يد خفية فى دفع أبى لؤلؤة الى قتل عمر ، كان من على رضى الله عنه أن احتج أشد الاحتجاج على قتل عبيد الله بن عمر للمارزبان ، بدون ثبوت تلك التهمة التى وجهها عبيد الله اليه . فكانت هذه القضية من أسباب انحياز عبيد الله الى معاوية . وهى على كل حال مما يتخذها العجم دليلاً على سابق محبة على لم

وكان على بن الحسين بن سيدنا على وهو الملقب بزین العابدين يمتُّ الى الفرس بنسب ، لأن أمه هى بنت يزدرج آخر ملوك فارس . ويقال نقلًا عن أبى القاسم الزنجشمرى فى كتاب « ربيع الأبرار » أنه لما حجى الى المدينة بسى فارس فى خلافة عمر ، كان فيهم ثلاث بنات يزدرج ، فباعوا السبايا وأمر عمر ببيع بنات يزدرج . فقال له على : ان بنات الملوك لا يُعاملن معاملة غيرهن من بنات السوق ، فقال كيف الطريق الى العمل معهن قال : يُقوِّمن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن . فقوِّمن ، فأخذهن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فدفعت واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لمحمد بن أبى بكر وأزوج الثالثة ولده الحسين فكان له منها ولده زين العابدين .

هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى ، اقتداء بالأُم الأوربية فى الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتدُّ أكثر من ذى قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك ، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الأبيض الذى كانوا يعبدونه ، حتى صوروه فى بعض كتبهم الحديثة وقال لهم المرحوم موسى كاظم شيخ الاسلام — وهو الذى أخبرنى بذلك — ان العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان ولكنهم اقتلعوها بالاسلام وافتخروا بان الله لطف بهم ، وأنقدم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات . وأما أتم فتريدون أن تناسوا الاعتقاد بالبارى تعالى ، وتذكروا عبادة الذئب الابيض . . . فياللاسف

فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشئتهم يبحثون عن أديانهم

القديمة التي منها الكيومرتية أى تعظيم النور والتحرز من الظلمة ، ومن هنا جاءتهم عبادة النار . ومنها فرقة زرادشت الذى كان يدعو الى وحدانية الله ، ويقول انه خالق النور والظلمة ، وان الخير والشر انما حصلا بامتزاجهما ، وانهما لو لم يمتزجا لمسا كان وجود للعالم ، الى غير ذلك من العقائد والأوابد والآثار التي كانت عند قدماء الفرس كالثنوية ، والزرذشية ، والمانوية ، ومنهم من يبحث عن المزدكية التي كانت تدعو الى الاخلاص والاباحة .

والذى يظهر ان الميل الى هذه العقائد ليس بجديد في فارس ، بل انه كانت لم تزل له عقايل منذ زمان ابن العباس . وقد دلنا التاريخ على ذلك من قيام بابك الخرمي — نسبة الى خرمة كسكرة بلدة بقرب اصطخر — الذى ثار في أيام المعتصم العباسي وكان يرى رأى المزدكية من المجوس الذين كانوا خرجوا قبل الاسلام وأباحوا المحرمات ، وقتلهم أنو شروان ، ثم ثاروا بعد الاسلام بالمبادئ نفسها وعليهم بابك هذا ، فقتل جند الخلافة واستولى على الحصون ، فسرّح اليه المعتصم جيشاً تحت قيادة أبي سعيد محمد بن يوسف ، فاستخلص منه بعض ما كان أخذه . ثم سار اليه الافشين حيدر بن كاوس ملك أشروسنة وكان أبوه أسلم في زمان المأمون فهزم بابك في وقعة أرشق ، وفرّ بابك الى موقان ، ولكن جرفته لم تحمد . وفي سنة ٢٢١ ظهر « على بفا » الكبير في وقعة هشداس ولحق الافشين بفا بالامدادات . وفي السنة التالية وجّه المعتصم الى الافشين جعفر بن دينار مدداً ، وأتبعه بإيتاخ ، ووجه معه ثلاثين الف صدرهم ، وألح الافشين على بابك بالحصار ، واستنزله من معقله بعد حرب تشب لها نواصي الاطفال ، واحتوى على معسكره ، وأحرق قصوره بالنفط ، وسبى أولاده وعياله ، ولكن بابك أفلت من يده بدخوله في غياض قريبة ملتفة الدوح ، لا تسلك فيها الخيل ، ونفذ من هناك الى جبال أرمينية ، فوقع في يد سهل ابن سنباط من رؤساء تلك الناحية فأسلمه الى الافشين وقدم هذا به وبأخيه على المعتصم فأمر بقتلها ، وكافأ الافشين بتاج من الذهب ، ووشحه بوشاحين من الجواهر ، ووصله بعشرين مليون درهم وعقد له على السند . وكافأ ابن سنباط بالف درهم ومنطقة ذهب مرصعة بالجواهر ، وبتاج البطرقة .

ولابى تمام الطائي في هذه الوقائع القصائد الطنانة التي هي من أجزل شعره بل من

أجزل الشعر بأسره .

وقيل ان المعتصم أخرج في حرب بابك الخرمي من الدراهم خمسمائة وقر؛ وقيل أخرج مالا يدخل تحت الحصر . وكل هذا يدل على ما كان لتلك الزعة الجوسية من الخطر فضلاً عن ان بابك راسل ملك بيزنطية وأغراه بغزو بلاد الاسلام ؛ وسار ملك الروم تيوفيل ابن مينخائيل وأوقع بالمسلمين وأوجف في ديارهم ؛ والمعتصم مشغول بحرب بابك ، فاضطر المعتصم أن يغزو الروم تلك الغزاة الشهيرة التي فتح بها عمورية . ولما انتهى المعتصم من أمر بابك الخرمي ظهر له ان الافشين نفسه كان يكيده سراً للاسلام ؛ ويجتهد في هدم الدولة ونقلت له عنه أشياء فيما يتعلق بعقيدة المجوس . جاء في كتاب « العيون والحدائق في أخبار الحقائق » : انه لما نجي الى الخليفة المعتصم خبر دسائس الافشين وما كان يرسل به أهل أشروسنة ؛ أمر بالقبض عليه وعلى ولده الحسن ؛ ثم أخرجه من حبه وأحضر جماعة من الاشراف والوجوه ليناظروه على أشياء ؛ وأتى بمازيار ، فقيل للافشين : هل كاتب مازيار؟ قال لا ، فجاء به مازيار فقال . كتبت الينا تقول : ان هذا الدين يعني دين الاسلام ان اتفقنا أنا وأتمم بحونا أثره ؛ ونعود الى دين آباؤنا المعجم ، فانكر ذلك ؛ فاحضر محمد بن عبد الملك الزيات رجلين وكان هو الوزير والمناظر فقال للافشين : لم ضربت هذين ظهرأ وبطنا وهذا امام وهذا مؤذن كان في أشروسنة . قال : نعم ضربتهما لانهما اتخذا بيتاً للاصنام فجعلاه مسجداً وكان بيني وبين الصغد عهد فغشيت من نقض العهد . قال : فما كتبتُ عندك قد زيمته بالحرير والجوهر فيه كفر بالله تعالى ؟ قال : هو كتاب ورتته عن أبي فيه آداب الملوك ؛ وهو دين القوم الذي هو اليوم كفر ؛ فكنت أسمع الأدب وآترك سوى ذلك ؛ ووجدته محلى؛ ولم تكن لي حاجة الى أخذ الحلية التي عليه ؛ فزكته بحاله ككتب كلية ودمنة ، وكتاب مزدك . وشهد عليه الموبذ وقال انه كان يأكل الخنوقة ، ويعملني على أكلها ، ويقول انها أرطب لحماً من المذبوحة ، وقال : اني قد دخلت لهؤلاء القوم (يعنى المسلمين) في كل ما أكرهه ، وقد أكلت الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير اني الى هذه الغاية لم تسقط مني شعرة يعنى أنه لم يمتحن

ثم وافقه المرزبان بان أهل أشروسنة يكتبون اليه بلسانهم كتابا معناه : الى الله الالهة من عبده فلان بن فلان . قال : بل كذا كانوا يكتبون الى أبي وجدي . قال محمد بن

عبد الملك الزياد : فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه : « أنا ربكم الأعلى » . ونوثر على أشياء مثال هذه تدل على فساد دينه وفساد دياته في الاسلام بطول شرحها .

ثم أمر المعتصم باعادته الى محبسه وبقى فيه نحواً من سنة الى أن مات وصلبوه بعد موته على باب العامة ، ثم أحرق هو والخشبة التي صلب عليها ، وحل الرماد فطرح في دجلة ووجد في داره تمثال انسان من خشب عليه حلية كثيرة من جوهر ، وكتب فيها دياته

وقال الذهبي في كتاب « دول الاسلام » : سنة ٢٢٢ التقى الافشين وبابك . فانهزم بابك ولم يزل الافشين يعمل عليه حتى أسره ، وكان بابك بطلاً شجاعاً جبلاً عنيداً ملعوناً أراد أن يقيم دين الجوس ، واستولى على توزر ، والسدائن ، وقد أنفق المعتصم بيوت الأموال في حرب هذا . فانفق في ذلك العام الف الف دينار . وفتح الله مدينة بابك بعد حصار شديد فاخفى بابك وأسرجع حاشيته وأولاده وبعث اليه المعتصم بالأمان فزقه وشم ثم صعد في الجبل وانفلت الى جبال ارمينية ، فنزل عند بطريق فاغلق عليه البطريق واسلمه للتحف فجاء جماعة قتلوه . وكان المعتصم جعل لمن أسره حياً مائة الف دينار ، ولمن جاء برأسه نصف ذلك ، فكان يوم دخوله بغداد وهو على جبل يوماً مشهوداً . ثم قال الذهبي : سنة ٢٢٦ غضب المعتصم على الافشين وسجنه ثم صلبه الى جانب بابك اتهم بعبادة صنم وكان افلت وخافه أيضاً المعتصم هـ . وقد حصلت في فارس ثورات متعددة غير ثورة بابك الحرابي اعربت فيها الفارسية المزدكية عن ذات نفسها

والحاصل ان العجم بعد أن دانوا بالاسلام بمدة طويلة ، بقيت أقوام منهم تحن الى دينها الاصل ، وينزع بها عرق الجوسية . وفي هذا شيء من العداوة التي بين العرب والعجم ومن استكبار العجم الخضوع لدين أصله من العرب . ومثل هذا أيضاً الحنين الذي عند بعض شبان الترك الى دياتهم القديمة والى عبادة الذئب الأبيض استكباراً لاتباع الأمة التركية ديانة صادرة عن العرب . وقد بلغنا أن بعض ناشئة المسلمين من أمة الجاوي يبحثون كثيراً عن مذهب بودا الذي كان مذهب الجاوي قبل أن أسلموا ، ويدرسونه وكأنهم يريدون أن يحبوا آتاره . كذلك في الهند شبان كثيرون من المسلمين يكرهون الجامعة الاسلامية ويفضلون عليها الجامعة الهندية اتباعاً للهنداك .

وعند بعض الناشئة المصرية نزعته محسوسة الى الأوابد المصرية القديمة ، والحضارة

الفرعونية ، وميل الى التفصي من النسبة العربية والحضارة العربية . وكل هذا تعصباً من هؤلاء الأقوام لقومياتهم بزعمهم وشعوراً منهم بشئ من الكبر عن أن يتبعوا ملةً ليست من سلالنهم . والحال أن الاسلام ليس بدين يفرق بين عربي وعجمي وأن مبدأه الاساسى (انْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) وأن النبي محمدآلم يبعث الى العرب وحدهم بل الى البشر كافة ، فان كانت المساواة تامة في دين من الأديان أمام الخالق تعالى فهى في الاسلام .

وبعد فإنا نرى الأوربيين وهم اليوم أرقى الأمم والغالبون على أكثر الكثرة الارضية وهم يعلمون أنهم جميعاً من الجنس الآرى ، يتبعون ديانة رجل يهودى من الجنس السامى المحض ، ولا يستكفون عن أن يعبدوه وعن أن يؤطوه . ومنهم من يعبد أمه ولا يجردون في ذلك غصاصة ، ولا تأخذهم العزة في قوميتهم الآرية ، ولا يقولون : مالنا وعبادات الساميين ! هل سمعنا ان أحداً من الافرنج استكبر ان يتبع سيدنا عيسى عليه السلام كلا . أفلم يكن في ذلك عبرة للعجم والترك وغيرهم ممن يأبى كبر بعضهم أن يتبعوا دين النبي العربى وهم غير مكلفين أن يؤطوه ولا أن يقدسوه تقديس الافرنج للمسيح . ان هذا والله لعجب عجاب . وأعجب منه ان هذه الفئة سواء من الترك أو من العجم تجعل الافرنج قديمتها في كل شئ . فياليتها اقتدت بالافرنج في عدم ادخال العقائد في القوميات .

ولنعد الى قضية العجم وعلاقتهم بالعرب فنقول اتنا رأينا فصلاً في هذا الباب للسيو « غودفروا دوموبين » صاحب « تاريخ العالم » الذى سبق لنا ذكره ، وهو فصل فيه تعليقات كثيرة على نسق الافرنج المولعين بهذا الاسلوب في التاريخ ، ولو خطوا فيه ، الا ان تعليقات « دوموبين » يشبه بعضها أن يكون صحيحاً وفي بعضها نظر . فهو يقول ماملخصه : ان الأمة الاسلامية في أيام الخلفاء الراشدين بعد أن دان الاعاجم بالاسلام ، لم تكن أخذت شكلاً عاماً ، ولا رست قواعدها على وحدة تامة ، وانما كانت شعوباً متباينة ، ودخل بنو أمية وهذه هى الحال . ووربما أرادوا أن يجعلوا لهذه الأمة نظاماً كافلاً وحدتها . الا أن دولتهم لم تطل كثيراً . وكان العرب مبعثرين في البلدان التي فتحوها

وكانت منهم فئة هنا وفئة هناك ، ولا يمكن حصر عدد العرب الذين خرجوا للفتوحات . وإنما يقال نحو ٢٠٠ ألف رجل ، وقد اختلطوا بالاهالي الاصليين بالزواج ، وفاضت عليهم الخيرات من الغنائم وغيرها ، فانغمسوا في الترف . وكان العمل كله من زراعة وصناعة في أيدي الشعوب المغلوبة ، وكان العرب يرون أنفسهم أكرم الشعوب ، وانهم الأمة المختارة لأجل هداية البشر ، وأنه يجب أن يكونوا جيئاً مسلمين . ولهذا ثقل عليهم بقاء قسم من بني ثعلب ، وغسان ، وكندة ، على النصرانية ، وأرادوا حلهم على الاسلام ، ولكن الخلفاء لم يشاءوا حلهم عليه بالصف ، وضربوا عليهم نوعاً من الجزية : لكنهم ميزوهم في ذلك عن الاعاجم ^(١) انتظراً لاسلامهم

أما الاعاجم أى البرابرة — ومعنى اللفظتين واحد فالاعاجم بالنسبة الى العرب هم البرابرة بالنسبة الى الرومانيين — فان العرب لم يكونوا ينظرون اليهم كقوم مساوين لهم . ولم يكن عليهم الا أن يؤدوا الجزية ، وهكذا يكونون آمنين على دماهم ، وأموالهم ، وعقائدهم . فأما اشراكهم في شرف الملة الاسلامية ومنافع الاسلام في الدنيا والاخرى فلم يكن في نظر العرب ضرورياً لانهم قوم منبسطون عن درجة العرب . وحسب الاعاجم حريتهم الدينية لانهم أهل كتاب . فأما المساواة مع العرب فغير مطلوبة ، والعدالة انما هي بين المسلمين فقط . اهـ

نقول ان كلام « دوموميين » هنا لا يخلو من الخلط لاسيما عند ظنه ان العرب لم يكونوا مهتمين بادخال العجم في الاسلام ، وانما كان همهم الوحيد اسلام العرب . نعم انه لما كان الخلفاء سائرين على مقتضى الآيه الكريمة (لا اكرهوا في الدين قد تبين الرشد من الغي) لم يعترضوا أحداً من الكتابيين في دينه . وهذا في الحقيقة من مفاخر الحكومات الاسلامية لأنه لا يوجد أئزه ولا أشرف من الحكومة التي لا تستعمل قوتها القاهرة في سبيل استجلاب الأمم التي تحت حكمها الى دينها . وأما ان الخلفاء ورجال الأمة العربية ، لم يكونوا يرتاحون الى دخول الاعاجم في الاسلام ، حتى لا يشركوهم في منافع الاسلام الدنيوية والأخروية . فلعمري هذا هو الخلط بعينه . فقد كانت جميع سياسة الخلفاء لاسيما الاتقياء منهم تدور على محور نشر الاسلام . ولما شكوا أحد العمال بمصر من نقص

(١) راجع فوح البلدان للبلانزي تجد من هذا البحث ما فيه بلاغ

الجباية بسبب اقبال أهل الذمة على الدخول في الاسلام أجابه الخليفة عمر بن عبد العزيز :
ويحك ان محمداً جاء هادياً ولم يجيئ جايياً . وجاء في فتوح البلدان للبلاذري انه : لما
استخلف عمر بن عبد العزيز كتب الى ملوكة ماوراء النهر يدعوهم الى الاسلام ، فاسلم
بعضهم . قال : ورفع عمر الخراج على من أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم . ثم بلغه عن عامله
على خراسان ، الجراح الحكمي ، عصبية ، وكتب الى عمرانه لا يصلح خراسان الا السيف
فانكر ذلك وعزله . وجاء أيضاً في فتوح البلدان للبلاذري ان أمير المؤمنين المأمون اغزا
السغد وأشروسنة وفرغانة وكان قد أُلح عليهم بالفارات أيام مقامه بخراسان ، وبعد ذلك
وكان مع تسريته الخيول اليهم يكتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما . ثم قال
ان المأمون كان يكتب الى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من
أهل ماوراء النهر ، ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان ، وأراد الفريضة من أهل
تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرّفهم واسنى صلاتهم
وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من
جند أهل ماوراء النهر من السغد والفرغانة والأشروسنة ، وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه ،
وغلب الاسلام على من هناك .

قال وحدثنى العمري عن هيثم بن عدى عن ابن عياش ان قتيبة اسكن العرب ماوراء
النهر حتى اسكنهم أرض فرغانة والشاش . اهـ

قلت : قتيبة بن مسلم الباهلي ولاء الحجاج بن يوسف الثقفي خراسان ، ففتح فيما
وراء النهر الفتوحات الكبار ، فهو العربي الكبير الذي فتح بلاد الترك . وكان ذلك مبدأ
دخول هذه الأمة في الاسلام . وأما اسكانه العرب فيما وراء النهر فقد كانت هناك جماعات
كثيرة من العرب لدن الفتح طال بها العهد فيما بعد واتقطع ما بينها وبين الأمة العربية
فنسبت لفتها واستتركت . وقد حدثني بعض اهالي كاشغر من التركستان الصيني انه من
المعروف عندهم كون كثير من أهالي تلك البلاد يرجعون في نسبهم الى اولئك العرب الذين
فتحوا بلاد الترك . وسمعت مثل هذا من بعض أمراء الطاغستان التي كان العرب يسمونها
باب الأبواب . وقالوا لي ان أكثر العائلات الشريفة والعائلات التي كانت حاكمة في الطاغستان
هي من سلال العرب الفاتحين .

ثم نعود الى كلام المسيو « دومومين » في موضوع ثورة العجم على العرب بعد استقرار الاسلام وبقائه بجرانه على بلاد الأعاجم ، فهو يقول معجمته : ان العرب كانوا يرون أنفسهم أعلى درجة من الأمم التي دانت بدينهم ، ولذلك نجد الاسلام نفسه ميّز المسلم في القصاص على الذي ، كما كلن الشأن في رومة بالنسبة الى البرابرة . وأما في القضايا المدنية ، فقد كانت أمور أهل الذمة عائدة للقضاة الذين يوليهم اختلافاء . وهكذا دخلت أمور أهل الذمة في المحاكم الاسلامية ومن هنا كلن تأثير القانون الروماني في التشريع الاسلامي دخل شيئاً فشيئاً .

وهذه مسألة مما وهم فيه « دومومين » كغيره من مؤلّفي الأفرنج الذين لم يقدرُوا أن يتبعوا سير التشريع الاسلامي وكيفية استنباط الفقهاء للأحكام من الكتب والسنة ، والاجاع والقياس ، فظنوا خطأ ان ماخذ التشريع الاسلامي من القانون الروماني ولقد ألق في هذه المسئلة صاوا باشا الرومي من علماء الحقوق في أيام المحولة العثمانية كتاباً يمتعا بالفرنسية اسمه « نظرية الحقوق في الاسلام » Théorie Du Droit Musulman

قال في أوله انه هو أيضاً يكن يعتقد هذا الاعتقاد نظير غيره ، ويبني ذلك على مايعرف من كون بنى أمية لبثوا في الشام مدة طويلة يعملون بالأحكام التي كانت باقية من أيام الرومانيين . فلا عجب في أن يكون هو وغيره قد توهموا أخذ قسم المعاملات في الشريعة الاسلامية من القانون الروماني الذي كلن به العمل في سورية ، الا أنه أحب أن يدرس هذا الموضوع درساً دقيقاً ، ويتعرف كيفية نشوء التشريع في الاسلام ، فاستجد بعض علماء أصول الفقه من الأتراك — وسامهم — وقرأ الفقه الحنفي جيداً — وذكر الكتب التي طالما أراجعها — وتجرد لمعرفة هذا الأمر مدة طويلة ، فوجد هذا الرأي الذي معناه ان التشريع الاسلامي مأخوذ من القانون الروماني رأى ضعيف أشبه بأن يكون خيالاً من أن يكون حقيقة .

قال صاوا باشا في صفحة ١٦ من كتابه :

« ان الصناعة والتجارة ، لم تكونا مهملتين في الحجاز . وكلن الأشراف يعتنون بهما ، وطالما كانوا يعملون الرحلة الى الشام ، ويجلبون منها مايلزم لبلادهم ، اذ كانت

المدنية السورية وقتئذٍ أكل من مدينة الجزيرة العربية ، وكان أشرف قرش الذين من عاداتهم التردد الى دمشق وسائر مدن سورية ، يطلعون على الأوضاع الرومانية التي بها معاملاتهم . ولهذا كان مما يرد على خواطر الناس ، حتى الذين منهم يعظمون شأن الشريعة المحمدية ، ان الأحكام التي يتألف منها الفقه الاسلامي انما هي مستعارة من التشريع الذي كان العمل به جاريًا قبل الهجرة . فالخطأ في هذه المسألة له وجه لا يخفى . فالذي لم يطلع حق الاطلاع على منابع الفقه الاسلامي وتاريخ هذه الشريعة هو معذور اذًا ، اذا ذهب به الظن هذا المذهب فان الأسباب التي تحمل عليه كثيرة أشرت الى بعضها وسائير الى البعض الآخر » ثم قال :

« ان الخصومات التي كانت تتولد في الاسلام في السنين الأولى من تبسطه في الشام والعراق ، كانت تنفصل بحسب القانون الروماني نفاذياً من وقوف سير العدل ومن الخلل في الأحكام . فالفتاح المسلم رأى أن يوسع القانون الذي جاء به من الحجاز بما استعاره من القانون الذي وجدته في البلدان التي فتحها ، ولهذا ذهب أكثر علماء أوربة الى كون الخلافة الاسلامية أدخلت في فقهها أحكاماً كانت احتاجت الى استمدادها من قانون رومة ، لفصل القضايا بين رعاياها . وبما لامرية فيه ان كثيراً من المعاملات التي كانت معروفة في الشام والعراق لاسيما مما يتعلق بالايجار والرهن لم يكن معروفاً في الحجاز . فامراء الاسلام كانوا معنورين في الأخذ من القانون الروماني الذي كان مكتملاً في سورية وكان يدرس في أشهر مدرسة للمحقوق في ذلك العصر الاوهي مدرسة بيروت التي أسسها الامبراطور يوستينيانوس وكان يدرس فيها « دوروتي » مساعد « تريبونين » الفقيه المشهور .

هذه هي المقدمات التي بنى عليها العلماء الاوربيون اعتقادهم بأن تشريع فقهاء الاسلام الذين بدأوا التشريع في أيام الخلفاء العباسيين الأوائل انما هو مجموعة أحكام تضاها ما كان جاريًا به العمل في سورية قبل الفتح الاسلامي . فأنت ترى الأسباب التي حلت على هذا الظن وهي معقولة . الا أن الحقيقة هي غير ما فكروا به في أوربة . ويكفي أن ينظر الانسان الى هذه المسألة نظر المدقق ويتابع سير الشريعة الاسلامية في تقدمها وفي أطوارها حتى يعلم استقلال الشرع الاسلامي واصالة منبعه وان هذا ليس من ذلك .

ولا شك أن لكل تشريع منبعاً مختلفاً عن الآخر . فلفقه يوستينيانوس هو عمل

مبنى على العقل السليم البشرى ، وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية . وأما فقه الامام الأعظم فهو مبنى على كتاب الله (القرآن) وسنة الرسول ولن ترى في الفقه الاسلامى حكماً واحداً غير مدغم على هذا أو هذه . فاختلاف المنبعين لاريب فيه يظهر لكل من درس تاريخ فقه يوستينيانوس وفقه أبى حنيفة »

ثم دخل صاوا باشا في الموضوع ، وأورد خلاصة اجتهاد الامام أبى حنيفة وأصحابه أبى يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ، وزفر ، ثم من بعدهم من الأئمة ، وخلص تاريخ التشريع الاسلامى وبين ماآخذه كلها ، وأثبت فلسفة الفقه الاسلامى المعبر عنها بعلم الاصول وقال انه لايقدر انسان أن يعلم مأخذ الشرع الاسلامى ان لم يقرأ أصول الفقه ، وقال انى أدعو من يهمه هذا الموضوع ان لايحكم فيه قبل أن يطالع هذا التاريخ المتسلسل للفقه الاسلامى مطالعة كافية ثم قال : انى أنا مسيحي معتقد بديني ولكن المسيحي الحقيقي هو الذى يعامل جميع الناس بالحق . ولهذا أنا أخص الشريعة الاسلامية خص رجل مسيحي وأقدرها قدرها بدون ضلع ولا ميل فأجدها لذلك جديرة بأعظم الاحترام

وكتاب صاوا باشا هو أحسن كتاب قرأته بلغة أوربية في هذا الموضوع . والفرق بينه وبين غيره من المؤلفين انه يبنى حكمه على أدلة وبراهين ووثائق ونصوص وحقائق تاريخية وان أولئك يبنون على ظنون وتخربات . وعلى نظر من جهة واحدة ، وعلى قولهم : لا بد أن يكون كذا . وهناك أسباب تدعو الى الظن بأنه كذا وكذا . ومن بدرى فقد يكون كذا وكذا . وهذه أشياء لاتصح أن تكون مداراً للأحكام ، ولا يقال لها تمحيص وانما يقال لها تخمين . وما أصدق الآية الكريمة « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً »

ونعود الى كلام « دومومبين » الذى قاطعناه مرتين للرد عليه نظراً لشهرة مكاتبه في التاريخ ، فهو يقول : ان العلاقات بين العرب الفاتحين وبين الأمم التى غلبوا عليها لم تكن مبنية على قاعدة المساواة ، وانه من زمان بنى أمية كان أهل الذمة مضطربين أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام ، ويقدموا لهم المؤن وتحليلهم العلاف ، وانه بعد ذلك في أيام المتوكل

العباسي حصل ضغط على النصارى واليهود ، وانه بالاجال كان موقف أهل الذمة موقف ذلّة ولم يكونوا ليتحملاه الى الآخر فلم يكن لهم مناص من أحد أمرين اما الخروج على الحكومة الاسلامية أو الدخول في الاسلام . وكان الخروج على الاسلام أصعب عليهم لأنهم كانوا متفرقين ، وكانت تعوزهم الأسلحة والأعتدة ، وتعوزهم القوة المعنوية ، أيضاً فاختار أكثرهم الشق الثاني ، وهو الدخول في الاسلام . وبعد أن دخلوا في الاسلام وصار لهم الحق في المساواة شرعوا يخاصمون خلافة أهل السنة والجماعة فكانت كل حركة دينية فيها مناهضة للسنة وللخلافة مرجعا لهم يسارعون اليها ، وكانوا هكذا يأخذون بثأرهم في داخل الاسلام أكثر مما يأخذون بثأرهم في الخارج عنه .

ثم يقول « دومومين » يظن الناس أن ظفر الاسلام كان ظفراً محتملاً وفتيحة منطقية للتوحيد السامي على النصرانية اليونانية التي تناسب طبائع الاوربيين أكثر من الساميين . ولكن لا يجب أخذ هذا القول على اطلاقه . فقد كانت آسية الصغرى من قبل التاريخ المسيحي ميداناً لصراع مديّنات مختلفة ، وآلهة متعددة . ثم ان أفكار هذه الأمم المتعددة التفت في أحد الأيام حول رجل يهودي كان مليئاً من تقاليد قومه صلب العقيدة بدينهم ، الا انه كان ساخطاً على المظالم الاجتماعية التي كانت في أيامه كما انه كان ساخطاً على رجال الدين لما كانوا عليه من الرياء . وكان قلب هذا الرجل مفتوحاً لآلام الشعب ناسياً نفسه كلها لا يرى لنفسه عليه حقاً ، فكانت نفسه من الجهة الأدبية نفساً الالهية . فدانت آسيا الصغرى بالمسيحية وعبدت له هذا الرجل الذي كادت تترج فيه الطبيعة الانسانية بالطبيعة الالهية . ولم يكن الشعب مهتماً أن يخوض في قضية كنه هذا الامتراج الا أن الكهنة حاولوا أن يفهموا هذا المسيح بحسب أفكارهم وأن يؤسسوا له كنيسة . ومن هناك أخذوا بالخوض في هذه القضية المعقدة مستخدمين لها الفلسفة اليونانية من جهة والفقه اليهودي من جهة أخرى . فدخلوا فيها لانهاية له من تحليل هذه المسألة والتعريف بما كان الالهياً و: كان انسانياً في طبيعة عيسى وتحديد الفاصل بينهما من الزمان والمكان . وجاءوا في هذه المجادلات الدينية بغلظة وعنف وصلف وتعصب لا يحيط بها الوصف ، ودخل معهم في ذلك الملوك واستخدموا هذه المشاحنات لأغراضهم الدنيوية فانقسم القائلون بالنصرانية الى ملل ونحل مختلفة متعادية . فكان الآراميون في العراق وما بين النهرين نساطرة ، وكان نصارى

سورية يعاقبة ، وكان قبط مصر ملكيين ويعاقبة ، وكانت الشعوب بدون شك تشترك في هذه المباحثات بدون أن تفهم منها شيئاً ، وربما كان كثير من الخلق قد ملوا وسمموا من هذا التهادى كله في الجدال على طبيعى المسيح الالهية والانسانية .

ولقد تقرر ان الاسلام هو عبارة عن كتاب نزل بالعربية على رسول من العرب ، الا أنه من المقرر أيضاً ان عناصر هذه الديانة العربية مشتركة مع عناصر الديانتين اليهودية والمسيحية فهي أخت لها ، وقد جعل الاسلام عيسى ابن مريم أكبر الأنبياء بعد محمد والذي سيأتى في آخر الزمان ويؤذن بدينونة البشر . وحفظ الاسلام لمريم أم عيسى مكانا من الطهر عدياً لم يتضاءل هذا المكان الا بعد أن أخذ المسيحيون يعبدونها عبادة حقيقية ، وبالجملة فان المسيحيين واليهود الذين كانوا يدخلون في الاسلام لم يكونوا يرون أنفسهم دخلوا في دين جديد . ولا نعلم تاريخ دخول النصارى واليهود في الاسلام ، وغاية ما نعلم ان بنى أمية لم يكونوا معتنين بنشر الاسلام بين أهل الكتاب ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز انه عنى بهذا الأمر خاصة ، لكنه لم يلبث في الخلافة أكثر من ثلاث سنوات ، فإذا يقدر أن يصنع في مدة قصيرة كهذه ؟ ولم نعلم كيف كان دخول هذه الأقوام في الاسلام هل بدأ بدخول الرؤساء فانقادت لهم العامة كما حصل بين البرابرة في أوروبا ، أم دخلت الجماعات في الاسلام فوراً ؟ وعلى كل حال كان الفتح الاسلامى قد قطع مواصلات الأمم المسيحية في آسية مع القسطنطينية مرجعها الطبيعى . وكانت نار الاسكندرية قد انطلقت أيضاً . فلم يبق ما يأتى من الخارج بما يوطد العقيدة المسيحية .

وأما اسلام الفرس فقد بدأ بالامراء وأصحاب الاقطاع الذين بدأوا بالعلاقات مع رجال الدولة العربية وصار لهم مقام في الدولة الا ان اسلام الفرس لم يكن كاملاً . بل بقيت بينهم فئات مزدكية تظهر بصور مختلفة . وأما في مصر فبقيت أمة من القبط . كما انه بقي في سورية جماعات من المسيحيين على غير اتصال بمركز الكنيسة العام .

فدخول أهل الذمة في الاسلام قد أحدث انقلاباً عظيماً في الأمة الاسلامية ، لأن المسلمين الجدد تطلبوا المراكز في السولة وتغيرت باسلامهم أنظمة الأراضي والجبایات والجيش وحدث لذلك تأثير كبير في المجتمع لاسلامى . وكثرت الطبقة التي يقال لها « الموالى » . ثم

هناك مسألة أخرى وهي مسألة الرِّق . فالاسلام يعرف الرق الا انه يحث على تحرير الارقاء . وكان الفاتحون المسلمون يفضلون أن يجدوا أمامهم من يؤدون الجزية واذا وجدوا أقواما من الوثنيين يوجب عليهم الدين الاسلامي أن يُجبروهم على الاسلام أو يستأصلوهم فكانوا يتجنبون اجبارهم على الاسلام كما يتجنبون سفك دماهم في أكثر الأحيان . وكانوا يتأولون لهذا الأمر بأن مثل هؤلاء هم « صابئة » فالذين ليسوا بنصارى ولا يهود ولا مزدكيين ، كان يقال لهم الصابئون . وأما الارقاء فلما كثرت عقوم تولدت منهم طبقة جديدة . وكان الموالي أيضا يمتون بالولاء الى رؤساء من العرب . وكل ماجرى من هذه الأمور كان مؤدياً الى المساواة بين طبقات الأمة الاسلامية . وهكذا ضعف العرب تدريجاً ، وبضعفهم ضعفت الدولة الأموية فانتشر بنو العباس فرصة هذا الخلل وهذا الانقلاب اللذين دخلا على المجتمع الاسلامي وأخذوا بالكيده لبنى أمية ودمس الدساس لقلب دولتهم . ولم يكن أبو مسلم الخراساني لينجح في ثورته على الأمويين لولم يوافق ذلك استعداداً عظيماً في نفوس الأمم التي أسلمت من غير العرب .

ثم قال « دوموبين » ان الحياة تكاملت في المملكة العربية في النصف الأول من القرن الثامن المسيحي (أي أوائل القرن الثالث للهجرة) فظهرت الجدالات الكلامية واشتدت وتولدت الفرق . وذكر ان أشرف العرب عادوا فتمسكوا بالدين أكثر من ذي قبل ، وقال ان بنى أمية كانوا اجلاً متدينين . واستند في هذا القول على كلام العلامة غولدسبير المستشرق المجري المشهور الذي كلامه حجة . والحال ان كثيرين من المستشرقين نسبوا اليهم ماعدا واحداً منهم أو اثنين رقة الدين . و « دوموبين » نفسه سبق له ان أشار الى عدم اهتمامهم حاشا عمر بن عبد العزيز بنشر الدين .

ثم قال « دوموبين » انه كان لطائفة قراء القرآن لذلك العهد نفوذ عظيم في المجتمع الاسلامي

وقال ان المركز الديني لعهد بنى أمية كان الحجاز ، لاسيا المدينة ، وان من الغريب كونها جعت وقتئذ بين التقوى ، والورع ، وطهارة العقيدة ، وبين اللهو والغناء وأسباب السرور ، فان أشهر الغنيين كانوا بالمدينة كما كان أشهر الفقهاء فيها . وهذه ملاحظة صحيحة . قال : اما اهتداء غير العرب الى الاسلام فنه ما كان في أصله من باب المصانعة ، الا ان

منه ما كان بحسب رأيه من باب الاقتناع الوجداني . وقد كان لهؤلاء المهتدين تأثير عظيم في تقوية الاسلام وتوطيده . وهو يرى ان علم الحديث وتحرير السيرة النبوية ، قد كانت بدايتهما في زمان بنى أمية . ومن رأيه ان الدين الاسلامي دين حضري Religion Citadine وانه توطد بالمساجد الجامعة وهناك كلن يجتمع المسلمون والمهتدون الذين اعتادوا مثل هذا الاجتماع في الكنائس قبل الاسلام

ثم جعل « دوموميين » مقابلة بين تنصر البرابرة الذين دخلوا في السلطنة الرومانية و اسلام الأعاجم وغير العرب ، فقال وهو من أكثر كلامه صواباً :

« ان البرابرة الذين هجموا على السلطنة الرومانية في الغرب ، انما كانت غراتهم لأسباب معاشية أى ان ذلك كان حادثاً اقتصادياً صرفاً ، فكانت هذه الأقوم تدخل الى بلاد الرومان ارتياداً للرزق وحباً براحة المعيشة . وكانت كلها منحطة في الأفكار والعقائد ، وكانت أديانها وثنية . فعندما احتلت انقاض السلطنة الرومانية وجدت جهازاً حياً هو الكنيسة فانضوت اليهودات بالنصرانية عقيدة الأمة الرومانية المغلوبة وصار البرابرة أنفسهم هم حماة النصرانية .

أما العرب فكانت حادثتهم على العكس من هذه . قد جاءوا بعقيدة دينية أناهم بها رجل عظيم منهم فلما غزوا الروم والفرس لقنوا هذه العقيدة أعماً كانت أعلى منهم كعبا في المدينة . فالغلوب في الشرق اتبع دين الغالب ، حال كون الغالب في الغرب اتبع دين المغلوب .

قال : وان الذين دخلوا في الاسلام من النصرى واليهود أدخلوا فيه ما كان في حقائبهم من المباحث اللاهوتية فتولد منها علم الكلام الاسلامي . فقد كانت قبل الفتح الاسلامي مراكز لاهوتية وفقهية شهيرة مثل انطاكية ، وبيروت واورفة ، واسكندرية ، وغزة ، والذين أسلموا أدخلوا علومها في الاسلام ، وجعلوا تأويل آيات القرآن وفق الحكمة اليونانية وصارت للاسلام فلسفة عالية اشتهرت شرقاً وغرباً الخ

فهنا نظن المصنف استرسل الى الافتراضات ، والتخرصات على عادة الاوربيين ، اذ انه لم يأت بشاهد واحد معين يثبت افتراضه . والافتراض وحده لاتولد منه حقيقة مقطوع بها . وقصارى ما نقوله نحن ان الأفكار مشتركة بين البشر ولا سيما اذا كان صقع المفكرين

واحدا ، وكان الاتصال كثيراً . وما لاشك فيه ان علم الكلام الاسلامي كان مؤيداً بالمنطق وان علم المنطق هو من العلوم التي تلقاها العرب عن يونان فاستعملوها في أقيستهم العقلية ومباحثهم الدينية ولكن المنطق منه ما هو طبيعي أيضاً يكتفي فيه العقل السليم . وما كان المنطق اليوناني الذي يدرس في المدارس الا الأسماء والاصطلاحات التي وضعوها للصور الفكرية القائمة في النفوس . هذا هو الفرق بين المنطق المطبوع والمنطق المسموع

ويعجبني أكثر من كلام « دومومبين » في هذا الموضوع كلام الكونت « دوغو بينو » Comte De Gobineau صاحب كتاب « الأديان والفلسفات في آسية الوسطى » فهذا الكتاب هو ثالث ثلاثة لكتابين آخرين أحدهما « ثلاث سنوات في آسية » والآخر « الأخبار الآسيوية » من تأليف « دوغو بينو » المذكور الممدود في مقدمة العلماء الذين أجادوا التأليف في أحوال ايران وأواسط آسية . ولقد ظهر كتاب « دوغو بينو » « الأديان والفلسفات في آسية الوسطى » Les Religions et les philosophies dans L'Asie centrale سنة ١٨٦٥ ثم أعيد طبعه سنة ١٨٦٦ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٠٠ ونال شهرة عظيمة في ألمانيا ، ولا سيما أن الاستاذ شيان L. Scheman الألماني صدره بمقدمة اعترف فيها بأن الكونت « دوغو بينو » هو من أكبر مفكري العصر ، وانه لما ترجمت تأليفه الى الألمانية ، عدّه كثير من الالمان من أعظم كتّاب القرن التاسع عشر . ونقل عن بعضهم أنه قال : « اننا لا نعرف كاتباً أوربياً فهم حقيقة الشرق الحديث فهم هذا الرجل ولا وصفه بمثل هذا البيان الفصيح » ويقول الاستاذ شيان : اننا لا ندرى في كتابه هذا « الاديان والفلسفات في آسية الوسطى » أي شيء نسفح أكثر من الآخراصة أنظاره أم عمق غور أفكاره أم غزارة معلوماته أم متانة رواياته أم سمو بيانه أم لطف أحاديثه الخ وقد بدأ « دوغو بينو » كتابه هذا بقوله :

« ان جميع أفكارنا وجميع الطرق التي نفكر بها كان منشؤها في آسية » والشاهد الذي نحن في صده من كتاب « دوغو بينو » الذي أقام ثلاث سنوات في بلاد فارس ونقّب عن علومها وآثارها واصر صدرآ لا يبارى في معرفة شؤون الامة الفارسية هو تاريخ اسلام العجم وأسباب غلبة التشيع عليهم فهو يقول تحت عنوان « الاسلام الفارسي » ما يلي ملخصاً :

« ان الديانة الاسلامية التي هي مشتملة على عقائد كثيرة سابقة لها هي موافقة الى الغاية لعقل الشرقيين ، ولكل طبيعة فكرية شرقية. وبهذا السبب نجد الاسلام يتقدم هذا التقدم المدهش في افريقية . وليس الأمر كذلك في أوربة حيث هذه العقيدة لا تصادف اقبالاً ولا نعلم أن من الاوروبيين من تقبل الاسلام غير جماعات من الارنويوط والبشناق . أما في الهند فان الفاتحين من العرب والغزنويين والمغول والافغان قد لبثوا زمناً طويلاً حتى أدخلوا في دينهم هذا العدد الذي دخل فيه من أهل الهند . وليس جيع مسلمي الهند من أصل هندي كما أنه ليس أكثر مسلمي الصين من أصل صيني بل أكثرهم متحرون من أصول فارسيين وآبائهم كانوا عملة في خدمة جنكيز وقوبلاي .

وإذا أردنا أن نفصل بين العقيدة الدينية والضرورة السياسية التي طالما عملت باسم العقيدة لا نجد ديناً أسمح من الاسلام بل نقدر أن نقول لا نجد ديناً متحيداً فيما يتعلق بأديان الآخرين أكثر من الاسلام . وفيما عدا الاحوال المستثناة التي اضطرت فيها الحكومات الاسلامية الى اتخاذ الوسائل الممكنة لتوحيد عقيدة رعاياها فعلى وجه الاجال كان التسامح وكانت الحرية الدينية هما أساس الشرع الاسلامي ، وذلك بسبب أن القرآن يعلم الناس أن معرفة الحقيقة لا تتعلق بإرادة الانسان بل بإرادة الله .

وما زال المصنف يشرح هذا المعنى الى أن قال : ان الذي يلتزمه الاسلام من الاعتقاد هو وجود اله واحد يوحى ارادته الى خلقه بواسطة الانبياء . فهذا هو الالف وهو الباء في هذا الدين وما اعتقد الانسان بالله ورسله فانه يبقى متحتماً بتمام الحرية في قضايا وجدانه ويجوز له أن يختلف عن سائر المسلمين في آراء كثيرة وجدانية ويبقى مع ذلك معدوداً من المسلمين ما دام معترفاً بالله ورسله لا يجحد هذه العقيدة علناً . فنتيجة هذا المبدأ العظيم قد كانت أن يقبل كثير من أبناء الملل الأخرى على الدخول في الاسلام ، ويشاطروا الأمة الفاتحة منافع الايمان به ، وكذلك ان تدخل تحت هذا الغشاء الرقيق من الاسلام آراء وعقائد ومذاهب قديمة لم تكن من الاسلام في شيء ، ولكن الاسلام وسعها . ومن أجل هذا تعدت المذاهب الاسلامية ولم تكن في العدد أقل من مذاهب النصرانية ومنسوب الى نبي الاسلام لقول بأن أمته ستفترق الى فرق كثيرة .

وانه لمن الصعب موافقة القائلين بأن الدين الاسلامي مانع للترقي الفكري بل الذي

يظهر لنا ان القضية هي بالعكس ، فان ديانة جاءت فيها هذه الجلة : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء . وجاء فيها ان الانسان في اليوم الآخر يحاسب بقدر ما أعطى من العقل . وقد مرت من ظهورها في القرن السابع الى أواخر القرن السادس عشر بادوار سعادة مادة عظيمة مصاحبة لحالة رقي علمي وأدبي لسنا في الحقيقة محيطين بها كلها لا يمكن أن يقال انها ديانة مانعة للترقى الفكرى . واذ قيل انه في العهد الأخير ظهر الاسلام بمظهر انحطاط من هذه الجهة ، فان أسباب هذا الانحطاط لا يؤاخذ بها الاسلام نفسه . فليتأمل الانسان فيما اذا استمرت في قطعة من أوربة ادارة عسكرية ، مستبدة غاشمة متشصرة مدة مائتين وخسين سنة ، كما جرى في تركيا . أو استمر حكم ممالك غرباء من كرج وشركس وترك وأرنووط كما جرى في مصر . أو كما حصل قبل سنة ١٧٣٠ في فارس من غارات الأفغان ومن حكم نادرشاه العسكرى والمظالم التي رافقت تأسيس دولة آل قاجار الحالية ، فلا شك ان هذه القطعة مهما كانت أوروبية فانها لا تثبت أمام هذه الحوادث ، وان ما لها يكون الى الانحطاط . ولهذا لا أجد تعليلاً غير هذا التعليل لما نراه من انحطاط البلدان الشرقية ، ولا أرى من العدل أن نلقى على الاسلام مسئولية حالة كهذه واتى أردكل الرد نسبة تقييد العقول الى ديانة لمعت في ظلها للعقل البشرى أدوار سنيمة . ولا يقدر في هذا الأمر أن يكون موجوداً في الاسلام عند من المشايخ الجبهلاء أو الجامدين . أقلم يوجد مثل هؤلاء وأشد منهم تعصباً وأحط فكرياً بين خدمة الدين المسيحى في أوروبا ؟ انه مما لا مشاحة فيه أن روح النقد والبحث والأخذ والرد ، قد رافق الاسلام من بداية أمره وبدأ من محمد نفسه . والآن في فارس نجد الشيعة الذين هم الأكثرية في البلاد منقسمين الى ثلاثة أقسام : الاخبارية والمجتهدية والشيخية . ولكل من هذه الفرق الثلاث آراء جديدة مبنية على مقتضيات الوسط التي تعيش فيه . فالأخبارية يقبلون جميع الأحاديث والآثار المنقولة عن الأنبياء والأئمة ، وبمقتضى هذا المبدأ يمكن هذه الفئة أن تقبل مبادئ وآراء لم يكن أصلها من القرآن، وذلك بأنه اذا ورد في الأحاديث النبوية ما يوافقها فقد أصبحت مقبولة عند هذه الفرقة . نعم في هذا المذهب سعة لا تنكروا ان كان الاخباريون يرون أنفسهم أخلص الشيعة ، ويخاضون محذئ العرب والترك من أهل السنة في شدة تمحيص الأحاديث ، وتجد في الاخبار التي يعتمدون عليها ويطبقونها على الاسلام أقوالاً باقية من الديانات الفارسية

القديمة والساسانية ، وتراهم يذهبون في حشر الأجساد مذهباً يخالف الظاهر من الاسلام ، فلا يقولون بأن الاجساد تعود بعد الموت كما هي ، بل يقولون ان البشر بعد الحساب انما يكتسون مظاهر نورانية . وسواء كان الابرار أو الفجار فلا يظهرون في الابدان التي كانت لهم في الحياة الدنيا ، وسواء كان نعيم أولئك أو عذاب هؤلاء ، فكله هناك من طبيعة عقلية محضة لامادية . وفئة الاخباريين هذه ينتسب اليها كثير من الطبقة الوسطى في الشعب ، فهما وجد من الأفكار الغريبة عن الاسلام ، وأمكن وضعه تحت اسم واحد من الأئمة تقبلوه بدون مراجعة . ولهذا تجد كبار علماء الدين يردون عليهم ويفندون مزاعمهم لاسيما في طهران .

وأما الشيخية فان لهم صلةً بكثير من مبادئ الاخبارية ، وهم وان كانوا يقولون بحشر الأجساد كما في الاسلام ، فانهم يتابعون الفيلسوف ابن سينا في قضية معراج الرسول الى السماء ، وفي معجزة انشقاق القمر ، ويقولون انه لا يجب تلقي هذه الامور بحسب ظاهرها ، بل يجب حلها على المجاز ، ففي مسألة المعراج يقولون انها كانت رؤيا . وهذا الرأي على ضعفه موجود في الاسلام قال به كثيرون وينسب الى معاوية رضى الله عنه وأما في مسألة انشقاق القمر فيقولون انه كناية لفظية . ومؤسس الطريقة الشيخية هو الشيخ أحمد البحريني ، عربي الأصل . كان يدرس في تبريز وتوفى في كربلاء ، وله تأليف في علم الكلام لم يصرح فيها بشئ من هذه المبادئ ، ولكن يقال انه كان يستعمل الكتان ، وانه كان على جانب عظيم من الجراءة في آرائه . وللعقيدة الشيخية أنصار كثيرون في الطبقة العالية من رجال الدين وهم يناصرون الاخباريين العداوة ويتقدونهم أشد انتقاد في قبولهم جميع الاحاديث والاخبار بدون نقد ولا تمحيص ويحتجون عليهم بالقواعد التي وضعها أئمة الحديث والتي تقتضى مزيد التحرى . وهم في هذا المعنى قريبا من أهل السنة . وقولنا قريبا من أهل السنة لا يبنى أن يؤخذ منه أنهم أميل الى السنة من غيرهم بل هؤلاء أيضا يرون أنفسهم من أخلص الشيعة وأصلبهم عقيدة ، فهم في الحقيقة وسط بين تدقيق أهل السنة الزائدي في الحديث ، وتساهل الاخباريين فيه وهم أشبه بفرقة Puséytes « الانكليز الذين هم من أشد الفرق كراهية للكثلكة ، وهم في الواقع أقرب من غيرهم اليها .

أما فئة المجتهديه فانهم ينتقدون الاخباريين في سرعة تهاقهم، وسهولة تلقيهم للاخبار بدون تمحيص ويقولون ان الخبر يجب ليكون معقولاً بموجبه أن يستوفي شروط التمحيص المنصوص عليها في كتب الأئمة ؛ فن الوجهة النظرية لا تجدهم يتساهلون في هذا الموضوع أصلاً وأما من الجهة العملية فتجدهم بالعكس يقبلون كثيراً من الروايات عن معجزات الرسول والأئمة ؛ ولا يحبون أن ينازعوا فيها أو أن يتحروا في أسانيدها؛ وكذلك لا يقبلون كلام الشيخية في حملها على المجاز؛ ويرجحون فهمها بحسب ظاهرها؛ اذ يرون ارضاء العنان في التأويل بالمجاز والكناية مفضياً الى هدم الدين نفسه ويرون تحكيم العقل في كل شئ منافية للإيمان وهم كأسويين يؤمنون بالمعجزات . وأكثر المجتهدين والاجتهاديين هم من طبقة القضاة ؛ وأمورى الادارة ؛ والذين يشتغلون بالعمل أكثر من النظر . وكثيراً ما يتحول الانسان في فارس من مذهب الى مذهب فيينا هو من الشيخين مثلاً اذ تراه تحول اجتهادياً أو اخبارياً . أما مذهب السنة فهو ضئيل في فارس والشعور القومى هناك ضده وقد ازداد بغض الشيعة للسنة من أيام الدولة الصفوية ؛ وكان العامل في هذه العداوة سياسياً أكثر مما كان دينياً . وبالاجال لا توجد ديانة أكثر فرقاء من الاسلام وذلك لسببين الأول : كثرة عدد الفرق، والمعروف بصورة رسمية انها من الاسلام ، والثانى : ان الانسان يمكنه أن يقبل في جانب مبادئ القرآن آراء كثيرة لم يكن أصلها منه . فسبب هذه الحرية العظيمة التي تجدها في الاسلام والتي هي منشأ الأخذ من الخارج هي بساطة العقيدة ووجازتها فهي تنحصر في قول الانسان : لا اله الا الله محمد رسول الله . فن صرح بهاتين الشهادتين فهو مسلم

ثم أخذ المصنف يذكر تاريخ البعثة النبوية وما قام به الرسول ﷺ من تصحيح العقائد السابقة وأطال في هذا المقام وقال ان الرسول كان مصلحاً معتدلاً في اصلاحه . وقال ان الرسول لم يأخذ ماعلمه عن اليهودية من التوراة رأساً وإنما أخذ عن التلمود وعمما كان دائراً في عصره بين اليهود . وكذلك قال ان محمداً كان مصيباً في قوله ان النصارى حرفوا الانجيل لان النصارى في عصره وجد منهم من حرف الانجيل قال : فنبى الاسلام في نفسه كان يحترم ملتي موسى وعيسى أشد الاحترام الا أنه كان يشدد التكبير على اتباعهما الذين أفسدوا العقائد التي كانا قد أتيا بها . فالاسلام بالكتب الثلاثة التوراة بدون تبديل والانجيل

بدون تحريف ، والقرآن الموحى الى محمد بواسطة جبريل ليس الا اعادة دين العرب القديم الى نقاوتہ الأصلية ، واحياء ملة ابراهيم كما كانت ، وقد ذكر « دى غوينو » سيرة الرسول الشخصية فى صفحة ٤١ من كتابه فقال : انه كان بين العرب بل بين جميع معاصريه رجلاً متحلياً بشمائل زكية ، رصيناً ، محباً للعدل ، محباً للانسانية ، حليماً ، نزيهاً ، الى الدرجة القصوى

وأما الفتح الاسلامى وكيف تحولت به فارس مملكة اسلامية وبقيت فارسية فى نفسها وهو الموضوع الذى نحوم حوله الآن فقد علّله بالأسباب التى سبق ان أوضحها بصور مختلفة وهو ان الاسلام مبدأ سهل سمح يسهل أن تدخل تحته مبادئ جديدة طارته عليه من الخارج أو راسحة اليه من السابق . وأعظم دليل على هذا الأمر هو التشيع الذى هو دين فارس اليوم . قال : فالعرب عند ما هدموا ملك كسرى فى وقعة القادسية كانوا قد صادفوا أمة فارسية خامرها الفساد فى أخلاقها كما خامر الأمة البيزنطية . وليس هذا بقادح فيما ثبت للعرب الفاتحين حينئذٍ من البسالة الفائقة والحاسة الدهشة وجميع الفضائل العسكرية من اخلاص وصبر وقناعة وعلو نفس وبعدهمة وبصيرة بالحرب . وإنما نقول انهم لو صادفوا امامهم فى الشرق ماصادفوه فى الغرب من أمم متعلقة بحكوماتها وأقوام مخلصة لأمرائها لما كانت أمكنتهم تلك الفتوح التى فتحوها فى الشرق بهذه السرعة الغريبة . وكان عمرو ابن العاص وخالد بن الوائد وأمثالهما اضطروا الى العودة الى قفارهم . الا أن المملكة البيزنطية كانت قد تخرّبت بفساد الأخلاق وتمزقت بالمجادلات الدينية . وكذلك فارس لم تكن أحسن منها حالاً .

ثم ذكر أحوال ديانات العجم يوم ظهور الاسلام فقال ما محصله : ان المجوس كانوا قد أسسوا فى ظل الدولة الساسانية ملة رسمية ، زعموا أنه لا يجوز أن يكون غيرها فى المملكة وهو خطأ لم يقع فيه الزارديشتية من قبل . ولم يلاحظ المجوس ما كان قد تطرّق الى بلادهم من المذاهب الغربية ، فان العقائد اليونانية والاشورية والمبادئ الافلاطونية الدينية التى تولدت فى الاسكندرية كانت قد شاعت فى جنوبى فارس وغربها . وأما فى شمالى فارس فالقبائل التى هناك كانت لم تخضع للديانة المجوسية الا على شرط حفظ شعائرها القديمة التى من جلتها عدم وجود طبقة كهنوتية خاصة . وكانت هذه القبائل تتمسك بعاداتها من أن رئيس

العائلة هو الكاهن الوحيد لها . وكان قد دخل في فارس أيضاً عقائد مسيحية ويهودية كان لها تبع كثيرون منهم أمراء وقواد ذوو سلطان ، ودخلت أيضاً البوذية والمناوية والبراهمية وهذه الأخيرة كانت منتشرة في كرمان ومقاطعات هرمز . وكانت المجوسية الفارسية توخت ارضاء جميع المذاهب وفتحت صدرها لكثير من العقائد المسيحية واليهودية والكلدانية . ورأت نفسها ديانة سَمحة تريد أن تتفادى المنازعات والمجادلات الدينية ، فاصابها في آخر الأمر ما يصيب كل ملة تقصد التوسُّع فتقع في التضيق ، وذلك انها اضطرت أخيراً الى الاكراه والاضطهاد . ولما كانت هي دين الحكومة صار كل ساخط على الحكومة ناغم عليها سوء الادارة ساخطاً على الديانة أيضاً فلما جرت وقعة القادسية واتصر العرب على العجم جاءت فرجاً لكثير من اليهود والمسيحيين الذين كانت الحكومة الفارسية تضطهدهم ، وكان الدين العربي الجديد يعدُّهم أهل كتاب ولا يكلفهم الا أداء جزية تريحهم من التكاليف العسكرية . وكذلك جاءت القادسية فرجاً لاصحاب المهن والصناعات الذين كانوا يغرِّمون غرامات فاحشة بحجة أنهم يهينون النار أو الماء أو التراب وهو مما لم يكونوا يقدرون أن يتجنبوه لأجل صناعاتهم . فما كان أسرع مثل هؤلاء بطبيعة الحال الى الدخول في الاسلام قال : ولا يزيد أن نقول بهذا ان الديانة المجوسية كانت قد فقدت كل حكمها بعد أن وضعت يدها على الدولة مدة أربعة قرون ، بل كانت قد بقيت لها عروق واشجة في البلاد . ولما انهزمت في معركة القادسية كان انهزامها مرافقاً لانهزام الدولة والوطن . ولم يمس على ذلك زمن حتى صارت هي الممثلة للوطن الفارسي . فقد كان بقي للسلطة القديمة بقايا ذات بال ، وكان من أمراء فارس من لم يزل متمتعاً بماله وجاهه ونفوذ كلمته ، ولم يكن المسلمون يضطهدونهم كما يظن بعض المؤرخين ، فبقيت شوكتهم قوية . فلما جاء بعض أمراء الترك ينازعون خلفاء العرب الملك ويستقلّون عنهم بامارات لهم خاصة ، وجدوا من استعداد زعماء العجم ماوافق سياستهم حتى ان أشد هؤلاء الأمراء اسلاماً مثل محمود الغزنوي مثلاً كان يقوى العجم على العرب وكان الأدب الفارسي لا يزال الا في صور معلومة فارسيّاً في ديباجته فتأيّدت بذلك النزعة الفارسية ، ثم انطلقت الحرية للشعب الفارسي فصاروا يلغون العرب علنا بلا تكبير حتى دخل في ذلك أحفاد الذين كانوا أول من ابتهجوا بمقدم العرب . وكانت قد تنوسيت الأحفاد القديمة على السلطة السابقة ، بل كان

الشعب الفارسي رجع يتذكرها ويتأوه على ذلك المجد القديم الغابر . ولم يكن بقى لبيت الملك الفارسي الأخير سلالة ليلتفّ الفرس حولها ولكنه كان من الممكن احياء القومية الفارسية نفسها من جديد وتجديد رياسة دينية شبيهة بالتي كانت بفارس قبل الاسلام . وبالجملة شرعت الوطنية الفارسية تظهر في نِشْدان صيغة دينية خاصة بها شبيهة بما كان لها من هذا القبيل قبل ان دخلت في دين العرب .

ولم يكن نما يرد على الخطر أن تنتقض فارس على الاسلام نفسه فان العالم وقتئذ في نظر الشرق كان ينبغي أن يكون مسلماً . فالاسلام كان يمثل القوة السياسية والمجد والحضارة معا . وقد يجوز لهم أن لا يبقوا منه الا الاسم فقط ولكن هذا الاسم كان لا بد منه . فالفلاسفة كانوا يعملون تحت اسم الاسلام بجميع قواهم لبث مبادئهم ولو خالفته . والأمرء الساسانيون والفرزونيون والديلمة مثل نبي بويه كان كل منهم يعمل على شاكلته ولكنهم كانوا جميعا ينطوون ظاهراً تحت لواء الاسلام . فكانت الحالة هناك كما هي الحالة الآن في الغرب : كثير من الناس لا يشهدون المراسم الدينية المسيحية ولا يعتقدون بدين المسيح . ولكنهم في الوقت نفسه لا يرحون يتزعمون بذكر « المدينة المسيحية » و « العالم المسيحي »

وكان جل مقصد العجم صدم وحدة الدولة العربية لانهم كادوا يختنقون تحت سلطان هذه الخلافة العربية المنبسطة على البلدان من اسبانية الى الهند . وكانوا يعملون لاستقلال فارس بنفسها استقلالاً داخلياً فأول ما فكروا به هو انكار مشروعية خلافة أهل السنة ، والظهور بمظهر المناصرة لحقوق آل البيت المهزومة ، متمسكين بمبدأ شرعي هو بزعمهم أعظم مشروعية وأعرق في الاسلام من المبدأ العربي نفسه ، فكانهم صاروا عرباً أكثر من العرب ومسلمين أكثر من خصومهم . قاموا يستظهرون على العرب بمبادئ لا يمكن هؤلاء أن ينكروها بتاتاً ، وهكذا كان منشأ مذهب الشيعة في ايران وقد صحب منشأه معارك وملاحم لا تحصى ولكنه خدم فارس كثيراً في قضيتها القومية وجدّد كثيراً من منازعها القديمة .

كان النزاع في ظاهر الحال دائراً على حق العباسيين في الخلافة وعدمه . ولكن في الحقيقة كانت النهضة نهضة فارسية محضة . وأخذت كل بلدة تؤلف لنفسها طبقة دينية خاصة

ولما كان وجود طبقة دينية خاصة — كما في الدين المسيحي مثلاً — غير متفق مع مبادئ القرآن ولا مع سنة الرسول وكان كلٌّ من المسلمين بحسب الكتاب والسنة غير مقيّد في عقيدته بأوامر رجال الدين نزع هؤلاء المسلمون من العجم الى طريقة جديدة وهو أن يقولوا ان القرآن لا تسوغ تلاوته ولا تفسيره الا لعلماء الدين الذين يقال لهم اليوم « ملأ » وهذا منزع أخذه الايرانيون عن فلاسفتهم القدماء وعن مؤابذتهم المجوس ، وهي حصر الخدمة الدينية في طبقة معينة لا تتعداهم . وهكذا مجدّدت الديانة الساسانية بشكل اسلامي هو مذهب الشيعة . ولما تأسست الدولة الصفوية فيها بعد لم تكن سوى دولة ساسانية مسلمة . وان تعمقنا في حقائق الأشياء نرى ان التشيع عندهم هو القول باله أزلي أبديّ واحد لا بداية له ولا نهاية . قد خلق الكون على قواعد ثابتة ، وبين خلقه شروط النجاة والهلاك وسيكون الرجوع اليه ، والرسول هو أكل مخلوقات والقرآن غير مخلوق بل وُجد منذ الأزل بالارادة الالهية ، وبالجملة فالله والرسول والقرآن يذكروننا هنا بالعقيدة الفارسية القديمة المسماة « الزروانه اكرنه » أى الزمان بدون حد . وأما العمل فهو للأئمة آل البيت فهم الذين يحفظون العالم ويهدونه الى صراط مستقيم وليس في الخارج عنهم الا الظلمات . فالاقداء بهم هو النجاة ، والانحراف عنهم هو الهلاك . وهم اثنا عشر اماماً . واذا تأمل الانسان ، يجد اعتقاد العجم المسلمين في عليّ أشبه باعتقاد العجم القدماء في هرمزد المخلص الحافظ القيوم ، كما أن ذريته أشبه باللائكة الصالحين الذين في ديانة زردشت يقفون الأرواح الخبيثة . وأما قضية الشيطان والقتال الدائم بينه وبين الأئمة فهي أشبه بقضية أهرمان في المجوسية القديمة . ولذلك تجد أهل السنة يكرهون هذه الاعتقادات أشد الكره ويرون فيها الاعتقادات المجوسية القديمة ، ولعمري ليسوا بمخطئين . ولكنهم لا يقدرّون أن يلوموا الا أنفسهم نظراً للسعة التي في مذهبهم فانهم قد حاولوا أن يدخلوا في الاسلام من الخلق بقر استطاعتهم ولم ينظروا الى ما كان المسلمون الجدد يحملون في حقائبهم ويدخلون به على الاسلام . انتهى

هذه خلاصة ما ذكره الكونت « دوغو بينو » وقد يكون اطلع على أحوال العجم أكثر من كل أوروبي . ولكننا لا نقدر أن نتلقى جميع قضاياهم بدون فحص وان أصاب في كثير منها : وما لا مشاحة فيه ان أهل فارس يفنون في علي وآل البيت أكثر جداً من

الشيعة العرب ، كلزيدية في اليمن ، والمتاولة في الشام ، والشيعة في العراق ولكننا لا نقدر أن نقول ان هذه الخصائص التي لآل البيت وهذه العصمة للأئمة الاثني عشر غير معروفة أصلاً عند الشيعة من العرب . فان كانت الأسباب السياسية وحدها هي التي حلت أهل فارس على النزوع الى مذهب الشيعة ليقبموا منه خصماً لمذهب السنة ويجددوا النولة الفارسية التي كان العرب قد قضاوا عليها ، فاذا نقول في شيعة العراق وشيعة الشام وشيعة اليمن وكلهم عرب اقحاح ينزع بهم عرق العربية كما ينزع بأهل السنة بدون فرق .

اني لا أخالف هذا المؤلف في كون الفرس نقلوا كثيراً من عقائدهم القديمة الى الاسلام ، ولا أخالف أيضاً في كونهم اتقضوا على العرب مراراً ، وغاولوا تأسيس ممالك فارسية في وجه الخلافة العباسية ، وأهمهم أيضاً احتفظوا باللسان الفارسي في وجه اللسان العربي ، وأن تشيعهم للعلوية انما كان أكثره ناشئاً عن أغراض سياسية في أصلها ، المقصد منها مقاومة الحكم العربي . ولقد تقدم لي هذا البحث بعينه في هذه الحواشي ولم أكن اطلعت عندما حررت ذلك البحث على كتاب الكونت دوغو بينو فأننا اذن متفق معه في المبدأ ، وانما أخشى أن يكون مبالغاً في بعض الأمور وذاهاً في اطلاق الحكم مذهب الأور بين بني جلدته ، فيما يتكلمون به عن الشرق . فالتشيع لم يبدأ في فارس بل بدأ في الحجاز نفسه أي في موطن العرب ، وظهر بعد ذلك في الشام بواسطة أبي ذر الغفاري ، وقد سبق لي بحثٌ وافٍ في هذا الموضوع نشرته في مجلة المقتطف سنة ١٩١٠ مسيحية وجاذبي فيه الحبل المجتهد الكبير ثقة الاسلام التبريزي الذي استشهد بيد الروس عند مادخلوا اذر بيجان العجم بعد ذلك التاريخ بأشهر قلائل .

وكذلك نشر الاستاذ المحقق الشيخ احد رضا من علماء جبل عامل مقالات متمعة في المقتطف عن أصل التشيع في القطر الشامي ذكر فيها أنه لما نفي أبو ذر الغفاري من المدينة الى الشام بأمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنهما ، أقام أبو ذر في دمشق ينشر دعوته العلوية ، وآراءه الاشتراكية في عدم جواز استئثار الأغنياء بالأموال دون الفقراء ، واستجاب دعوته قوم في دمشق لا تزال أعقابهم الى اليوم . ثم انه كان يخرج الى الساحل فكان له مقام في قرية الصرند القريبة من صيداء ومقام آخر في قرية ميس المشرفة على غور الاردن وكتنهما من قرى جبل عامل . والمقامان الى الآن معروفان . فكان له من ذلك

الوقت في هذه الديار من استجاب دعوته في التشيع وكان معاوية استغاث بعثمان من أبي ذر وكتب اليه ان أبا ذر أفسد علينا الشام فأمره بردّه الى المدينة ، فأرسله اليها مهاناً على بعير ضالع بلا غطاء ولا وطاء ، بعد أن شتمه ونال منه ما اشتهى ، كما ذكر ابن الأثير في كامله ، والطبري في تاريخه ، وان كرها أن يذكر أسباب نفيه بعد ذلك الى الربذة ، الا مانسباه الى أبي ذر من الآراء الاشتراكية . قال صديقنا الاستاذ الشيخ احد رضا : ولا يمكن التسليم بان الأمر الذي أخرج معاوية فأخرجه عن حمله حتى فعل بأبي ذر ما فعل هو رأيه هذا وحده ، بل هو أمرٌ أهم من هذا وأعظم ، وهو الدعوة الى العلوية التي كانت تقضى على آمال معاوية كلها . قال : وكان أبو ذر معروفاً بميله الشديد الى الهاشميين عامة والى علي خاصة ، وكان ممن تخلف مع علي عن البيعة يوم السقيفة ، على مارواه أبو الفداء وغيره ، بل هو أول من أطلق عليهم اسم الشيعة . ورد في كتاب الزينة في تفسير الألفاظ المتداولة بين أرباب العلوم لأبي حاتم الرازي كما نقله عنه صاحب الروضات : « ان أول اسم ظهر في الاسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الشيعة ، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة وهم : أبو ذر وسامان الفارسي والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر ، الى أن آن وأوان صفين فاشتهر بين موالى على عليه السلام »

قال الشيخ احد رضا : « أما الشيعة في ايران وانعجم فقد كان مبدأ أمرها في أوائل الدعوة العباسية ولم تكن يومئذٍ ثابتة الأركان ولا في زمان بني بويه ، والدولة العلوية هناك الى أن انقضى أمر الخوارزمية في ايران ، وأقام المغول حكومتهم في قلب ايران ، وتعاقت ملوكهم الى زمان السلطان الجايغو محمد المغولي المنقب بشاه خدا بنده ، فهو الذي أظهر التشيع في ايران ودعا اليه وأمر بان يحطّب بأسماء الأئمة الاثني عشر على المنابر . (الى أن قال) : ولكن دولة العجم لم تصح شيعة محضة قبل زمن الشاه عباس الكبير الصفوي الذي كان في القرن العاشر (للهجرة) وكان صاحب الفتيا لديه بل مرجع ايران في زمانه المحقق الكركي العاملي . ويقول جودت باشا في تاريخه ان الشاه عباس هو الذي بث مذهب التشيع في ايران وأقام الدولة الصفوية على أساسه . اهـ

أقول ان هذه الروايات التي نقلها الاستاذ الشيخ أحد رضا العاملي من أعضاء مجعنا العلمي العربي تطابق المشهور والمأثور في التواريخ المعتمدة ، الا اني لأعلم من أين نقل ان

أبا ذر الغفارى رضى الله عنه كان يختلف الى الساحل والى مشارف النور هل عثر لذلك على نصوص أم هو من الأخبار المتواترة بين شيعة جبل عامل ؟ لست أعلم .

أما الذى فى طبقات ابن سعد من خبر أبى ذر الغفارى ، فهو أنه جاء الى دمشق وأنه اختلف مع معاوية . قال : أخبرنا هشيم قال أخبرنا حصين عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة (١) فاذا أنا بأبى ذر قال : فقلت ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية « وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قال معاوية نزلت فى أهل الكتاب قال : فقلت نزلت فىنا وفيهم . قال فكان بينى وبينه فى ذلك كلام . فكتب يشكونى الى عثمان . قال فكتب الى عثمان : أن أقدم المدينة ، فقدمت المدينة وكثر الناس على كآتهم لم يرونى قبل ذلك . قال : فذكر ذلك لعثمان فقال لى : ان شئت تنحيت فكنيت قريباً فذاك أنزلنى هذا المنزل ولو أمر على حبشى سمعت ولأطعت .

وروى ابن سعد حديثاً آخر قال أخبرنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين أن رسول الله ﷺ قال لآبى ذر : اذا بلغ النبأ سلماً فاخرج منها ونحا بيده نحو الشام ولا أرى أمراءك يدعونك . قال يارسول الله : أفلا أقاتل من يحول بينى وبين أمرك ؟ قال : لا . قال : فما نامرنى قال : اسمع وأطع ولو لعبد حبشى . قال : فلما كان ذلك خرج الى الشام فكتب معاوية الى عثمان : ان أبا ذر قد أفسد الناس بالشام . فبعث اليه عثمان فقدم عليه ثم بعثوا أهله من بعده فوجدوا عنده كيساً أو شيئاً فظنوا انها دراهم فقالوا ماشاء الله فاذا هى فلوس (قطع نحاسية صغيرة) فلما قدم المدينة قال له عثمان : كن عندى تفدو عليك وتروح اللقاح . قال : لاجابة لى فى دنياكم . ثم قال : اننن لى حتى أخرج الى الربذة ، فأذن له فخرج الى الربذة وقد أقيمت الصلاة وعليها عبد لعثمان حبشى فتأخر فقال أبو ذر تقدم فصل فقد أمرت أن أسمع وأطيع ولو لعبد حبشى فأنت عبد حبشى . قال ابن سعد : أخبرنا يزيد بن هارون قال أخبرنا العوام بن حوشب

(١) الربذة من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز اذا رحلت من فيند تريد مكة وبهذا الموضع قبر أبى ذر الغفارى رضى الله عنه واسمه جندب بن جنادة وكان قد خرج اليها معاضباً لعثمان بن عفان رضى الله عنه فأقام بها الى أن مات فى سنة ٣٢ . عن معجم البلدان بحرفه

قال حدثني رجل من أصحاب الأجر عن شيخين من بني ثعلبة رجل وامرأته قالا : نزلنا الربذة فرأى بنا شيخ أشعث أبيض الرأس واللحية فقالوا : هذا من أصحاب رسول الله ﷺ . فاستأذناه أن نغسل رأسه فأذن لنا واستأنس بنا فبينما نحن كذلك إذ أتاه نفر من أهل العراق ، حسبته قال من أهل الكوفة فقالوا يا أبا ذر : فعل بك هذا الرجل وفعل ، فهل أنت ناصب لنا راية فلنكمل رجال ماشيت . فقال : يا أهل الاسلام لانعرضوا على ذاكم ولا تذولوا السلطان فانه من أذل السلطان فلا توبة له ، والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو أطول جبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ، ورأيت ان ذاك خير لي . ولو سيرني ما بين الافق الى الافق أو قال ما بين المشرق والمغرب ، لسمعت وأطعت ، وصبرت واحتسبت ، ورأيت ان ذاك خير لي ، ولوردني الى منزلي لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذاك خيراً لي . قال أخبرنا الفضل بن دكين قال حدثنا جعفر بن برقان عن ثابت بن الحجاج عن عبد الله بن سيدان السلمى قال : تناجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما ثم انصرف أبو ذر متبسماً فقال له الناس : مالك ولأمر المؤمنين ؟ قال : سامع مطيع ولو أمرني أن أتى صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت . وأمره عثمان أن يخرج الى الربذة . هذا وقد نقل ابن سعد بأسانيد متعددة قول رسول الله ﷺ : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر . ولهذا الحديث في بعض الروايات تامة وهي : من سره أن ينظر الى زهد عيسى بن مريم فليتنظر الى أبي ذر . ونقلوا عن أبي ذر انه قال أوصاني خليلي بسبع : أمرني بحب المساكين والدنويين منهم ، وأمرني أن أنظر الى من هو دوني ولا أنظر الى من هو فوق ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أصل الرحم وان أوديت ، وأمرني أن أقول الحق وان كان مرراً ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من لاحول ولا قوة الا بالله ، فانهم من كثر تحت العرش . وكان ينفق كل ما بيده ويقول : ان خليلي عهد الى أي مال ذهب أو فضة أو وكى عليه ، فهو جر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله . ولقي أبو موسى الأشعري أبا ذر فلزمه ، فجعل الأشعري يقول له : أنت أخي ومرحبا بأخي . وجعل أبو ذر يقول له : اليك عنى لست بأخيك انما كنت أذاك قبل أن تستعمل .

لقد نقلنا هذه الأحاديث مكتفين بها عن غيرها من أخبار أبي ذر لاجل أن نعرف

القارىء بحقيقة حال أبي ذر فقد ثبت انه كان شديداً في الحق لا يخاف فيه لومة لأثم ، وانه كان زاهداً في الدنيا ، وكان على منزع اشتراكى يميل الى الفقراء والمساكين ، ويكره ادخار الأموال ، لكنه برغم خلقه هذا كان يرى الطاعة للسلطان ، كأنه كان يذكر دائماً ما أوصاه به الرسول ﷺ وهو : اسمع وأطع ولو لعبد حبشى . فأما ذهابه الى الشام فالتابع ان عثمان نفاه اليها وليس في الطبقات الكبرى لابن سعد تصريح بأنه نفاه الى الشام وإنما هناك إيماء بأنه رأى مالم يعجبه وهو في المدينة فخرج الى الشام ، ثم اختلف في الشام مع معاوية . فكتب معاوية الى عثمان يقول له : ان أبا ذر أفسد الناس علينا . فأمره برده الى المدينة . ولم أفض على أثر في الطبقات لكتابه بجبل عامل وساحل صيداء ، ولكن قرأت خبراً يدل على أن أبا ذر جاء بيت المقدس .

وعلى كل حال خبر أبي ذر الغفارى بأنه كان من شيعة علي* خبر شائع بين الناس ، ومن الثابت ان التشيع بدأ عند العرب قبل العجم ولكن الغلو في التشيع بدأ عند العجم . ويجوز أن يكون هذا الغلو في التشيع ، وهذا الاعتقاد في عسمة الأئمة ، والقول بان ادارة الكون هي في يدهم ، من آثار البيانات الفارسية القديمة كما ان الأسباب السياسية التي أثمرنا اليها سابقاً من نزوع العجم الى الأخذ بثأرهم من العرب كانت أيضاً عاملة في نشر التشيع في فارس . وأما كون غلبة التشيع الحقيقية على تلك المملكة لم تقع الا في عهد الدولة الصفوية ، فهذا يقع الاجماع عليه ويؤيده الكونت دوغوبينو في كتابه الذى ذكرناه ويصرح به الاستاذ الشيخ احمد رضا ومن قبل هذا الدور لم يبلغ التشيع هذه الدرجة من القوة في فارس بل نجد في التواريخ ما يدل على العكس

وفي رسائل أبي بكر الخوارزمي رسالة الى جماعة الشيعة بنيسابور يعدد فيها جميع ماجرى من المحن والمظالم على آل البيت ولو اتدب أحد علماء التاريخ لشرحها لجاه منها كتاب كبير وفيها يقول : « ونسأل الله أن لا يحشرنا على نصب أصفهاني ولا على بُغض لأهل البيت طوسى أو شامى » وهذا يدل على ان التشيع لم يكن غالباً على تلك البلاد كما هو اليوم . بل كان في العجم نواصب وكان بلد كبير مثل أصفهان معروفاً بشدة العداوة لآل البيت وهذا بشهادة رجل من كبار المتشيعين وأدباء عصره كابي بكر الخوارزمي . أما الدلائل التي يستخلصها الانسان من التواريخ على استعداد العجم للتشيع فهو اتفاق

المؤرخين على كون الخلافة العباسية انما قامت بالأعاجم أيام كانت الدعوة الهاشمية واحدة لم يفترق فيها بنو العباس عن بنى أبى طالب . وانغد قال المسيو هوار المستشرق الفرنسى صاحب « تاريخ العرب » ان العجم فى وقعة الزاب أى الوقعة التى انهزم بها مروان بن محمد آخر بنى أمية ، أخذوا بثارهم عن يوم القادسية . ثم انه ظهر أن آل برمك برغم كل ما كانوا عليه من الخطوة فى زمان المنصور والرشد كانوا فى الباطن يميلون الى آل البيت ، حتى قيل ان سبب نكبتهم هو اطلاق جعفر بن يحيى البرمكى سبيل يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم بدون اذن الرشيد ، بعد أن دفعه الرشيد اليه وجعل اعتقاله فى داره . وكذلك يعلم الناس أن بنى بويه كانوا شيعة وانهم بعد استيلائهم على بغداد والتزامهم نصره الخلافة العباسية والعمل تحت لوأئها لم يزالوا شيعة .



أما الحالة الراهنة الآن فى فارس وهو الذى يهم التعريف به ، اذ كان من أهم موضوعات حاضر العالم الاسلامى ، فهى ان الدولة الفارسية لاتزال دولة اسلامية وحامية للتشيع فى الاسلام . ولما كان ضعف الأمة الواحدة يزيل ما بين أحزابها المختلفة من الأحقاد فقد كان من نتائج ضعف الأمة الاسلامية فى العصر الحاضر ، زوال كثير من البغضاء التى كانت عند العجم لأهل السنة ، وزوال مثل ذلك من أهل السنة للشيعة ، وقد يورث الخير شراً والشر خيراً ، ولقد لحظ كل من ساح فى بلاد العجم حتى من الاوربيين ان الأمة الفارسية فى العصر الحاضر تشعر بشعور العالم الاسلامى جميعه ، فتهتم بزكيا ، وبلاد العرب ، ولصر ، وللغرب ، واكل بلاد الاسلام اهتماماً أكيداً ، ويكرهها ما يكره المسلمون ، ويسرها ما يسرهم ، وسمعت مرة الأمير العلامة الجليل أرفع الدولة رضاخان ممثل فارس فى جمعية الأمم يقول من خطبة له فى جلسة عمومية : ان فارس تمثل فى عصبه الأمم الاسلامى المؤلف من أربعمائة مليون نسمة . وقد كان من دلائل القرب بين الشيعة والسنة عقد الحكومة الفارسية الحاضرة معاهدات صداقة بينها وبين تركيا ، وبينها وبين العراق ، وبينها وبين الحجاز ونجد ، وبينها وبين مصر ، وكلها حكومات سنّية . وفى أواخر السنة الماضية عندما انعقد المؤتمر الاسلامى فى القدس الشريف شهده جماعة من أعيان الشيعة كالسيد الطباطبائى ، والسيد الحسين آل كاشف الغطاء ، وجماعة من علماء الشيعة فى العراق ،

وجاعة من علماء الشيعة العاملين منهم الاستاذان الشيخ سليمان ظاهر، والشيخ احد رضا وغيرهم، وقد صلى أعضاء المؤتمر الممثلون لجميع العالم الاسلامي مرتين بامامة المجتهد الكبير السيد حسين آل كاشف الغطاء، ولم يخطر ببال أحد الاعتراض على ذلك بل ابتهج به المسلمون جميعاً وصرح رياض بك الصلح مفخر شبان سوريا بأنه اليوم قد انبثق فجر الوحدة الاسلامية.

نعم ان في فارس اليوم نزعة لادينية تبحث في وقت واحد عن الاخلاص في الدين، وعن تاريخ فارس القديم، وتريد التجدد العصري بزعمها، واحياء الفارسية التي مرت عليها ألوف من السنين أى الحديث الأحدث مع القديم الأقدم تحاول الجمع بينهما ولكنها لا تبلغ درجة الفته الماثلة لها في تركيا من جهة الغلو في التجدد مع احياء التركيبة القديمة. وكنتا القنطين لا تقدران على زعزعة الاسلام لاني فارس ولا في تركيا

وهذا ما كنا نشرناه في مجلة المقتطف عن الشيعة تحت عنوان « المتاولة أو الشيعة في جبل عامل (١) » :

اطلعت في المقتطف على ما كتبه حضرة الفاضل الشيخ أحد رضا من أدباء جبل عامل بشأن طائفة الشيعة المعروفة بالمتاولة في هذا الجبل وتأملت فيما أورده من تاريخ ظهورها فيه مع سبب اشتهاار الشيعة في بر الشام دون غيرها باسم « المتاولة » الى غير ذلك من التنقيبات الحرية بالاعتبار فآثرت أن أضف الى هذا البحث بعض ما خطرت لي فيه تماماً للفائدة ووفاء بالبلاغ لامن قبيل الاعتراض ولا على جهة المحاجة بل من قبيل اضافة رأى الى الآراء والقاء دلو بين الدلاء فأقول :

ذكر الكاتب أن لقب متاولة مشتق على غير القياس . من تولى أى اتخذ ولياً لانهم تولوا آل البيت النبوى رضوان الله عليهم أى اتخذوهم أولياء أو هو مشتق من توالى أى تتابع نظراً لتواليهم خلفاً عن سلف في موالاته العترة المصطفوية . والذي أراه أن التوجيه الأول هو الأقرب وانه هو الاصل في التسمية فان تولى يأتي في اللغة بمعنى اتبع كما يأتي بمعنى انصرف فكأنه من الاضداد وهذا منزع معروف للعرب وقد جاء منه في الكتاب العزيز بمعنى الاعراض « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم » وجاء بمعنى الاتباع : « ومن يتولهم منكم

فانه منهم « أى يتبعهم وينصرهم . والشيعه قد تولوا آل البيت أى اتبعوهم فقيل فى اسم الفاعل متولى وتحرفت الكلمه بطول الزمن على ألسنة العامة فقيل « متوالى » وجمعه متاوله وكان الاولى أن يقال فيه متولىة . والوجه الثانى هو من توالى فى حب آل البيت أى تتابع فيكون اسم فاعله « متوالى » ولا تحريف عندئذ فيه من جهة مفرده لكن يبقى التحريف فى جمعه اذ لا جمع لمتوالى على متاوله بل جمعه الصحيح متوالية وقد سمعت وجهاً ثالثاً من فم استاذنا الامام الشيخ محمدعبد المصرى أكرم الله مشاوه وهو أنهم كانوا يقولون للعلوى «مُتٌ ولياً لعلوى» وكان يحرض الشيعة بعضهم بعضاً على الثبات فى حب آل البيت بهذا الكلام فصيغت من ذلك كلمه «مُتَوَلَّى» ثم صارت بتوالى الأيام مُتَوَالَى وكلها وجوه غير بعيدة والقرابة ليست فيها بل فى كون هذه اللفظة غير معروفة الا لشيعة بر الشام بل لشيعة جبل عامل وجبل لبنان وبلبك . فى العراق سبعة لا يقال لهم متاوله وفى اليمن شيعة يقال لهم الزيدية ولا يقال لهم متاوله وفى العجم شيعة أكثر من كل محل ولا يقال لهم متاوله و بين مسامى الهند ملايين من الشيعة ولا يعرفون بلقب متاوله . وأغرب من هذا أن فى نفس دمشق الشام محلة يقال لها الخراب سكانها من العلويين ويقال لهم هناك روافض ولا يقال لهم متاوله وبالاجال فالشيعة فى جميع بلاد الاسلام تحت ألقاب شيعة وعلوية وامامية وجعفرية وزيدية واثنا عشرية وغير ذلك وكلمة متاوله مخصوصة بشيعة بر الشام

على أن المجانسة فى المعنى بين التشيع والموالاة ظاهرة بل المعنى واحد فى اللفظتين . والولى أو المتولى هو المشايخ أو المتشيع ورد فى كتاب « غاية الاختصار فى أخبار البوتوات العلوية المحفوظة من العبار » للسيد الشريف تاج الدين بن محمد بن زهرة الحسينى نقيب حلب قوله كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيعة وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره ويقال شايعه كما يقال والا من الولى والمشايخ

هذا ما حضرلى الآن من جهة كلمة متاوله وأنا موافق لصاحب البحث على كونها حديثه العهد جرت على الألسنة منذ مائتى سنة فقط لأن المؤرخين لم يذكروا هذه اللفظة عند ذكر شيعة بر الشام مع كون هذه الطائفة موجودة فى القطر منذ أوائل الفتح الاسلامى أما ما ذكره من جهة مبدأ التشيع فى الشام وانه من سيدنا أبى ذر الغفارى الذى نفاه الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنهما الى الشام وكان يخرج الى الساحل وله مقام بقرية

الصرفند ومقام آخر في مشارق النور الى غير ذلك فهو قول متواتر بين الناس وربما كان أقرب الاقوال الى الصحة ولكن كنت أحب أن يكون الكاتب أورد النصوص التاريخية من أمهات الكتب أو نقل من الروايات ما فيه زيادة تفصيل وشفاء للغليل فان التاريخ المعروف لدينا قصير العبارة جداً عن هذا الحادث وهذه الظلمة فيه هي التي أصلت كثيراً من المؤرخين في حقيقة أصل الطائفة الشيعية في جبل عامل ، وحلت بعضهم على الظن أنهم قوم أتوا من العجم فلا انكار أن أبا ذر كان موالياً لعلي أي كان شيعياً وانه من المتخلفين عن مبايعة الصديق يوم السقيفة وله في ذلك شركاء من الصحابة نصت على ذلك الأمهات . فأما مقامه بالشام فغاية ما ذكروه فيه أنه كان ينكر على معاوية جمع الأموال ويشنع عليه بهذا السب حتى شكاه معاوية الى عثمان فنفاه الى الربذة . ذكر أبو الفداء في حوادث سنة ٢٥ وفاة أبي ذر الغفاري واسمه جنذب بن جنادة قال : « وكان بالشام ينكر على معاوية جمع المال ويتلو « وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » الآية فكتب معاوية الى عثمان يشكوه فكتب اليه عثمان أن اقدم المدينة فقدم الى المدينة فاجتمع الناس عليه وصار يذكر ذلك ويكثر الشناعة على من كثر الذهب والفضة فنفاه عثمان الى الربذة » أما تسمية هذا الجبل بجبل عامل أو جبل عاملة فلم أجد الكاتب تعرض لها مع أن فيها ما يثبت كون سكان هذا الجبل عرباً لا عجمياً وذلك لأن مؤرخي العرب اتفقوا على كون حير وكهلان وأشعر وعمرو وعاملة هم ولد قحطان وان أباهم هو يشجب ابن يعرب بن قحطان وان من حير التابعة وبنى شعبان وقضاة وسن كهلان الازد وطى ومذحج وهمدان وكندة ومراد وانمار . ومن كل من هؤلاء بطون وأخاذ كثيرة . وأما أشعر فهي القبيلة التي ينسب اليها أبو موسى الأشعري وأما عمرو فمنهم غم وجذام وأما عاملة فخرجوا الى الشام ونزلوا بالقرب من دمشق بجبل عرف بجبل عاملة ، ومنهم عدى بن الرقاع الشاعر وعلى هذا يكون أصل مكان هذا الجبل من عرب اليمن وربما يكون نزل فيه أيضاً قوم من السكاسك وهي قبيلتان على ما حققه ابن الجوزي النسابة. الاولى من كندة والثانية من حير وهم بنو زيد بن وائلة بن حير ويلقب بزيد السكاسك وكلاهما باليمن والذي حلني على هذا الظن وجود أرض يقال لها السكسية الى الجنوب من الصرفند على سيف البحر

وقد ورد ذكر جبل عامل في مواضع كثيرة . قال ياقوت في معجم البلدان عند ذكر هونين: بلد في جبال عاملة . وقال عند ذكر تبنين : بلدة في جبال بني عامل المطلّة على بلد بانياس بين دمشق وصور . وورد في تاريخ ابن الأثير عند ذكر حصن الافرنج تبنين : ان الملك العزيز خرج من مصر لنجدة المسلمين في الشام ورحل هو والعساكر الى جبل الخليل (الخليل) ويعرف بجبل عاملة

ومن الغريب أنه لم يرد في الكتب القديمة ذكر هذا الجبل باسم بلاد بشارة كما هو معروف به اليوم والشيخ احمد رضا يقول ان نسبة هذه البلاد هي الى أحد حكامها في العصور الوسطى قيل انه من الأمراء بنى معن وقيل هو بشارة بن مقبل الفحطاني وان كل ذلك لم يبق عليه برهان وقوله هذا هو الصحيح أما الامراء بنو معن فلم نجد في تاريخهم من اسمه بشارة . وأما بشارة بن مقبل الفحطاني فبدا لو ورد شيء من تاريخه لنعلم أين كان مقره ومن كان صاحب هذا الاسم اذ لو عرفنا شيئاً من أمره لكال يمكن ترجيح هذه الرواية على غيرها وما دام صاحب هذا الاسم مجهولاً فالأولى أن تكون هذه البلاد منسوبة الى حسام الدين بشارة من أمراء الدولة الأيوبية قال ابن شداد في سيرة صلاح الدين يوسف انه أتى عكا فأقام بها معظم سنة ٨٥ ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بمارة السور ومعه حسام الدين بشارة وقال أيضاً انه في سادس عشر جادى سنة ثمان وثمانين وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر أنه تخلف في صور مائة راكب وانضم اليهم من عكا خسون وخرجوا لشن الغارات في البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف وجرى بينهم قتال شديد

وقد ورد ذكر حسام الدين بشارة مرة ثالثة في تاريخ ابن شداد عند حلف اليمين للافضل بن صلاح الدين بعد وفاة والده وظهر من كلامه أنه كان من أكبر أمراء تلك الدولة فلا يمنع أن يكون تولى هذه البلاد ونسبت اليه وهو أقرب وجه في هذه النسبة حتى يقوم ما يدل على رجحان خلافه

أما كون التشيع في جبل عامل هو أقدم من العجم بل في كل قطر حاشا الحجاز فمن الحقائق التي لا خلاف فيها بل التشيع في العجم أحدث منه في سائر بلاد الاسلام . فجودت باشا في تاريخه يقول ان الشاه عباس هو الذي بث مذهب التشيع في ايران وأقام الدولة

الصفيوية على أساسه . والمجبي يقول ان الشاه عباس بن السلطان محمد خدابنده بن طهماسب ابن الشاه اسماعيل بن سلطان حيدر ينتهى نسبه الى الامام على وان أول من بالغ في التشيع وأظهره هو السلطان حيدر وكان ذلك سنة ست وتسعمائة وهذا مخالف نوعاً لما قاله جودت باشا وعلى كلا القولين فالتشيع في العجم غير قديم كما أنه في العرب وفي بر الشام لم يكن ظاهراً بل كانت الشيعة تتمسك بحبال التقيّة خوفاً على أنفسهم . ولذلك نجد المؤرخين يتجانفون عن نسبة علماء الشيعة الى التشيع الا اضطراراً فقد ترجم المجبي محمداً بن على بن محمود الشامي العالمي المعروف بالمشغري ونقل عنه مقاله بن معصوم في السلاقة من البناء والاطراء وذكر أنه خرج من الشام الى العجم ولم يذكره بتشيع ولا رفض وكذلك ترجم حسناً ابن زين الدين الشهيد العالمي الشهير بالشامي ولم ينسبه الى التشيع وذكر حفيده زين الدين ابن محمد بن حسن كذلك . انما في ترجمة محمد بن على بن احمد المعروف بالحريري وبالحر فوشى العالمي الأديب الشاعر ذكر اخراجه من دمشق وسى يوسف بن أبي الفتح عند الحكم بقتله بنسبة الرفض اليه وانه سار الى بلاد العجم وان سلطانها الشاه عباس صيره رئيس العلماء في بلاده . كذلك عند ما ترجم محمد الخ العالمي الشامي نقل عن ابن معصوم صاحب السلاقة أنه قدم من مكة في سنة سبع أو ثمان وثمانين وألف وفي الثانية منهما قتلت الأتراك جماعة من العجم لما اتهموهم به من تلاويث البيت الشريف وان المترجم خاف على نفسه فالتجأ الى السيد موسى بن سليمان بنجنا . وذكر المجبي أن ممن قتلوا بتلك التهمة السيد محمد مؤمن وكلن رجلا متعبداً الا أنه معروف بالتشيع

ولما وصل الى ترجمة فريد عصره بهاء الدين العالمي صاحب الكشكول ذكر أنه ولد بيبلك غروب شمس الأربعاء ثلاث عشرة بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وخسين وتسعمائة وانتقل أبوه الى بلاد العجم وما زال يتسرج في سلم الفضل الى أن ولى مشيخة الاسلام في تلك الديار . وقال « وغالت تلك الدولة في قيمته واستمطرت غيث الفضل من ديمته فوضته على مفرقها تاجاً وأطلعت في مشرقها سراجاً وهاجاً وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس واستنارت بشموس رأيه عند اعتكار حنادس الباس فكان لا يفارقه حضراً ولا سفيراً الخ » ثم نقل عبارة الطالولي في حقه التي أطراه فيها بما لم يسمح به لأحد وقال ان شاه عباس طلبه لرياسة علماء بلاده لكنه لم يكن على منهج الشاه في الزندقة لانتشار صيته في

سداد دينه الا أنه غالى في حب آل البيت . وذكر المحبي أنه لما نزل الشام نزل بمحلة الخراب وهي الآن محلة الشيعة . ونقل في حقه عبارة للشيخ أبى الوفاء العرضى وهي أنه لما قدم حلب في زمان السلطان مراد بن سليم حضر دروس الوالد أى الشيخ عمر وهو لا يظهر أنه طالب علم حتى فرغ من الدرس فسأله أدلة تفضيل الصديق على المرتضى فذكر حديث ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبى بكر فرد عليه وأخذ يذكر أشياء كثيرة تقتضى تفضيل المرتضى فشتمه الوالد وقال له (رافضى شيعى) وسبه فسكت ثم ان صاحب الترجمة أمر بعض تجار العجم أن يصنع وليمة يجمع فيها بين الوالد وبينه فصنعها ودعاها فأخبره أن هذا هو المنلا بهاء الدين عالم بلاد العجم وقال للوالد : شتمونا فقال له : ما علمت أنك المنلا بهاء الدين . ثم قال : أنا نسئ أحب الصحابة ولكن كيف أفعل سلطانتا شيعى ويقتل العالم السنى . قال المحبى ولما سمع بقدمه أهل جبل عامل تواردوا عليه أفواجا أفواجا خاف أن يظهر أمره فخرج من حلب

ومن هنا يظهر أن الشيعة كانوا لا يزالون معتمدين بالتقية مكتمين لأمرهم مئين من السنين لأنه لا جدال في كونهم موجودين في الشام من أوائل الفتح الاسلامى ومع هذا فالمؤرخون لا يذكرون هذا الأمر الا عَرَضاً وربما لم يذكروه أصلاً . وما يدل على القمم والتكتم كون الاسماعيليه والدروز قد خرجوا من الشيعة ويقال انهم خرجوا من الشيعة السبعية أى الفائلين بالأئمة السبعة وقع ذلك في أواخر القرن الرابع للهجرة وأوائل القرن الخامس في أيام الدولة الفاطمية الغالية في التشيع . فالشيعة كانوا في هذه الجبال قبل هذه الطوائف التي خرجت منهم ومنازل الفريقين لا تزال متناوذة مما يستدل على وحدة الجرثومة فضلا عما بين كثير من عشائر الفريقين من القرابات والكلالات والانساب المتحددة في الأصل متواتراً ذلك خلفاً عن سلف يؤيد كون هذه الطوائف راجعة في أصلها الى العرب والله تعالى من وراء العلم

التشييع

أيها فييه أقدم الشام أم العجم^(١)

طلعت ما ورد في المقتطف من أحد فضلاء تبريز جواباً على ما سبق لى ولأحد افندى

رضا من أدباء جبل عامل بان التشيع هو في الشام أقدم منه في كل قطر حاشا الحجاز فالفاضل التبريزي يريد أن مجرد الاستدلال العقلي على أقدمية التشيع في الشام باقامة أبي ذر الغفاري في نواحيه ومخالفته خليفته عصره هو غير سديد اذ أهالي مصر حينئذ يجب أن لا يتأخروا عن أهل الشام في التشيع لأن محمد بن أبي بكر كان عندهم وهو من ألد الخصوم لعنمان (رضى الله عنه) ويقول أيضاً ان مبدأ التشيع في العجم هو في أيام الدعوة العباسية اذ معلوم ما ظهر من ميل أهل خراسان الى تأييد أمر العلوية وان تلك البلاد كانت منذ ذاك الوقت مركزاً لعلماء الامامية. وانه اذا ورد في تاريخ المجي وتاريخ جودت باشا ظهور التشيع في فارس في أيام السلطان حيدر أو الشاه اسماعيل فربما كان مقصدهما عموم التشيع جميع ايران وجعله منهجاً رسمياً

والجواب على ذلك أن التشيع بدأ منذ أيام سيدنا على كرم الله وجهه فلما وقعت الحرب بينه وبين سيدنا معاوية انقسم المسلمون حتى الصحابة الكرام (رضى الله عنهم) قسمين قسم كان مع على وقسم كان مع معاوية ووقع هذا الانقسام نفسه في الحجاز ثم في الشام التي لم يطبق جميع أهلها على مناوأة على يومئذ فكان منهم من بقى على موالاته فلهدا قلنا ان الشام في التشيع أقدم من فارس

ولم يكن الاسلام نفسه لذلك العهد قد تبسط في فارس حتى ينبسط فيها مذهب من مناهبه فان لم يكن ثبت الأصل فكيف يثبت الفرع ؟

نعم ظهرت الدعوة العباسية في خراسان ومروفي وأواخر الدولة الأموية حينها هب بنو هاشم لاستعادة الخلافة من بني أمية فوجدوه في ذلك السواد وهو خراسان مليئاً لدعوتهم وناصراً لكلمتهم ، وتم الخروج على الأمويين ، ودالت الدولة للهاشمين فأخذها منهم أبناء

العباس وكانوا في الأول يداً واحدة مع أبناء عمهم العلوية ، ولكن لا يصح أن يقال ان الدعوة العباسية هي نفس الدعوة العلوية ، بل يقال هما شعبتان من أصل واحد ، وان الدعوة العباسية هي غير التشيع . وعلى فرض كان ذلك كذلك فأين الأيام التي يقول عنها مناظرنا الفاضل وهي أيام اجابة العجم لدعوة بنى العباس من ايام انقسام أهل الحجاز والشام بين علي ومعاوية . فان بين المهديين نحواً من قرن واحد فقد كانت خلافة الامام على سنة ٣٥ وكانت خلافة أبي العباس السفاح العباسي سنة ١٣٢

فذا ثبت ان أهل الشام انقسموا بين علي ومعاوية في أثناء حرب صفين فقد ثبت ان التشيع ظهر بينهم لذلك العهد ، وأما التشيع في بلاد العجم فلو عدنا القيام بأمر بنى العباس تشيعاً علوياً محضاً وهو ليس كذلك فلم يظهر الا في أواخر دولة بنى أمية أيام مروان ابن محمد . ولهذا حكمنا بسبق الشام للعجم في تاريخ الشيعة . وهناك دلائل آخر . وهو انه لو كان أهل فارس مشايعين لآل علي في قيامهم بدعوة بنى العباس لما قاموا بمبايعة رجل عباسي حين كان يوجد من العلوية من يطلب هذا الأمر لنفسه وانما كان القائمون يومئذ بنصرة العلوية هم من العرب لامن العجم

فما وقع الانقسام بين العلوية والعباسية وخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين (الحسن) بن علي بن أبي طالب وهو الملقب بالنفس الزكية وبالمهدي على أبي جعفر المنصور أخى السفاح تبعه أهل المدينة وقاتلوا من دونه حتى قتل ولم يكن خروجه في العجم ولا قاتل معه أحد من فارس ثم خرج أخوه إبراهيم في البصرة طالباً البيعة له قبل أن يبلغه خبر قتله وأجلب دعوته خلق وانهمزم من أمامه سفيان بن معاوية أميرها واستولى على الاهواز وواسط وسار الى الكوفة وقد أحصى ديوانه مائة ألف وكاد يتم له الفوز لولا ما قضى الله من هزيمته أخيراً وقتله وذلك سنة ١٤٥ ولم نقرأ انه قام بنصرته أحد من خراسان ولا في مرو ولا في جميع فارس

ثم خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضوان الله عليهم أجمعين) وذلك في خلافة الهادي بن المهدي العباسي ، وكان ظهوره في المدينة والتف عليه جماعة من آل البيت ومن أهل المدينة وبايعوه وخرج الى مكة فالتقى بجماعة من بنى العباس ومعهم من حج من رجالهم وقوادهم فاقتتلوا ووقعت الهزيمة على الحسين وقتل

وانهزم أصحابه وأفلت منهم ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأتى مصر ، فارسله واضح عامل البريد وكان شيعياً على البريد الى المغرب . وبلغ ذلك الهادي فضرب عتق واضح . ومات ادريس بالمغرب وولده ادريس الأصغر الذي أسس دولة الأدارسة بالمغرب مما ليس هنا محل تفصيله . ولم يكن لفارس أهل نصيب من هذه المظاهرات لآل البيت يومئذ بل انحصرت في الحجاز والعراق والمغرب

وسنة ٢٠١ عندما أوصى المأمون بولاية عهده الى الامام علي بن موسى الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولقبه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الخضره شعار العلويين وكتب بذلك الى الأفاق صعب ذلك على بني العباس وامتنع بعض أهل بغداد عن البيعة وأدى الأمر الى فتنة وبويع ابراهيم بن المهدي بالخلافة وكان المأمون في مرو فسار الى العراق وجرت حروب وانهزم الثأرون على المأمون فلم يسمع ان عرقاً في العجم نبض لهذه الحادثة مع ان المأمون دخل بغداد ولبسه الخضره وطاوعه الأكثرون وصار أهل العراق يدخلون عليه في الثياب الخضراء ويحرقون كل ملبوس يرونه من السواد . ولولا وفاة الامام علي الرضا سنة ٢٠٣ لم يبق المأمون على عزمه في التخلي عن الأمر للعلوية . فلو كان التشيع يومئذ واشج العروق في أرض العجم لما سبقهم أحد الى الموالاته وانظاهرة ولتقدموا فيه على العراقيين الذين هم أولى بنصرة بني العباس

ولما ظهرت الدولة العلوية الفاطمية وهي أول دولة علوية حقيقية استوثق لها الأمر ولم تكن أيامها نزق نائر ولا فتنة خارج بل دولة راسخة متأثرة زاجت دولة بني العباس بالمناكب ابتدأت سنة ٢٩٩ واستمرت الى سنة ٥٦٧ كان أول ظهورها في افريقية وامتدت منها الى مصر والشام والحجاز ، حتى خطب بدعوتها الأمير الساسيري في العراق وعلى منابر بغداد مدة غير قصيرة فكان العرب هم القائمين بالدعوة الفاطمية يومئذ ولم يكن العجم القائمين بها

ثم لن عبد الله القداح الذي كان من كبار دعاة هذه الدولة سار من نواحي اصفهان الى الأهواز والبصرة ثم الى سلمية من أرض حصص داعياً فكان قعداه بلاد العرب . وبديهي انه لو وجد في بلاد العجم يومئذ مشاراً لدعوة أو مستورى لزند لما رحل عنها الى

غيرها ثم خلفه ابنه احمد فصحبه رستم بن حوشب من أهل الكوفة فاختر ابث دعوته اليمن وهناك التقي ابن حوشب بأبي عبد الله الشيعي فاصطحبا وانفقا على بث الدعوة في افريقية فسار أبو عبد الله الشيعي اليها وأجابت دعوته قبائل كتامة وقاتل بنى الأغلب فقهروهم فكانت هذه البلاد منبتا لأكبر دولة علوية شيعية وذلك قبل الدولة الشيعية الصفوية القائمة ببلاد العجم بستمائة سنة .

وفي سنة ٢٥٠ عند ماظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة واستولى عليها ولكن خانه السعد فظفرت به جيوش العباسيين وقتل وحُمل رأسه الى الخليفة المستعين ولا نعلم فيما يحضرنا من التاريخ وان يكن ما نعلمه فيه أقصر من أن يسمى علماً ، ان دولة علوية قامت في العجم فعلا الى زمان الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي قام بطبرستان وكثر جمعه واستولى على طبرستان وجرجان وسمى بالداعي الى الحق وذلك سنة ٢٥٠ وقتل سنة ٢٨٧ وقام بعده الناصر الحسن بن علي المعروف بالاطروش وتوفى سنة ٣٠٤ وقام من بعده الحسين بن القاسم العلوي ويلقب بالداعي وقتل سنة ٣١٦ وانقرض بموته ملك العلويين في هاتيك الديار

ولا أريد أن أقول بهذا ان التشيع لم يعرف في العجم الا في هذا العهد بل انما أقصد كونه عرف هناك بعد الشام كما قدمنا وانه أيضاً لم يكن في العجم شائعاً كما هو اليوم يشهد بذلك التاريخ وظهور الجهم الفقير من أئمة أهل السنة من بلاد العجم . أما ابتداءه في العجم فيرجع الى أواخر القرن الأول قال ياقوت الحموي عند ذكر قم " مايتى : ذكر بعضهم ان قم بين اصبهان وساووه وهى كبيرة حسنة طيبة وأهلها كلهم شيعة امامية ، وكان بدء تمصيرها في أيام الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ وذلك ان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس كان أمير سجستان من جهة الحجاج ثم خرج عليه وكان في عسكره سبعة عشر نفساً من علماء التابعين من العراقيين فلما انهزم أتى الأشعث ورجع الى كابل منهزماً كان في جلة اخوة يقال لهم عبد الله والأحوص وعبد الرحمن واسحق ونعيم وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعري وقموا الى ناحية قم وكان هناك سبع قرى اسم احداها كندتات فنزل هؤلاء الاخوة على هذه القرى حتى فتحوها وقتلوا أهلها واستولوا عليها واتقوا اليها واستوطنوها

واجتمع اليهم بنو عمهم وصارت السبع قرى سبعة محال بها وسميت باسم احدهما كندت فأسقطوا بعض حروفها فسميت بتعريبهم قُمًا ؛ وكان مُقدّم هؤلاء الاخوة عبد الله بن سعد وكان له ولد قد ربي بالكوفة فانتقل منها الى قم وكان اماميا وهو الذي نقل التشيع الى أهلها فلا يوجد سني قط . ومن ظريف ما يحكى انه ولي عليهم وال وكان سنياً متشدداً فبلغه انهم لبغضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم بلغني انكم تبغضون صحابة رسول الله ﷺ وانكم لبغضكم اياهم لاتسمون اولادكم بأسمائهم وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندي انه اسمه لأفعلن بكم ولأصنعن . فاستمهلوه ثلاثة أيام وقتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا الا رجلاً صلوكا حافياً عارياً أقبح خلق الله منظرا اسمه أبو بكر لأن أباه كان غريبا استوطنها فسماه بذلك فجاءوا به فشتهم وقال: جثمتوني بأقبح خلق الله تتنادرون عليه وأمر بصفعهم فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير اصنع ماشئت فان هواء قم لا يجيء منه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا . فقلبه الضحك وعفا عنهم ٥١ .

وقد سمعت هذه النادرة نفسها من فم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رواية عن

استاذ الامام الكبير الشيخ جلال الدين الافغانى أكرم الله منواهما

وعلى هذا فيكون التشيع في بلاد العجم مخصوصا بقم وبعض أماكن وكانت تقع بين الشيعة وأهل السنة هناك الحروب والفتن كما يستدل عليه من التاريخ . وفي الثلث الأول من القرن الرابع غلب بنو بويه على العراق واستبدوا بأمر الخلافة وصار الخليفة آلة في يدهم وكانوا شيعة وأصلهم من الديلم وبقيت دولتهم الى سنة ٤٤٧ ؛ ولكن لم يظلب بواسطتهم التشيع على بلاد العجم ولا على بلاد العراق . وما غلب التشيع على الأقطار الإيرانية وصار مذهب الدولة الرسمي الا في أيام الملوك الصفوية في أواخر القرن التاسع كما ذكر المحبى وجودت باشا وغيرهما من المؤرخين

أما التشيع في جبل عامل وأطراف جبل لبنان من بلاد الشام فلا تزال الأدلة تقوم على كونه فيها من لدن الفتح . وقد يأتي التاريخ في أثناء سرد الحوادث وتأتى كتب السير والتراجم بما ينبئ عن استتبابه فيها منذ ظهوره الى الآن . من ذلك ماورد في طبقات الشافعية للعلامة السبكي في ترجمة الفقيه أبي الفتح نصر بن ابراهيم المقدسى المعروف بابن أبي

حافظ وهو قوله تفقه على الفقيه سليم^(١) ثم دخل الى ديار بكر وتفقه على محمد بن بيان الكازروني ودرس العلم ببيت المقدس مدة ثم انتقل الى صور وأقام بها عشر سنين ينشر العلم مع كثرة المخالفين له من الراضنة . ثم ذكر وفاته في سنة ٤٩٠ هـ بدمشق .
وقال ياقوت الحموي عند ذكر الكرك : قرية في أصل جبل لبنان وليس هو القلعة التي يقال لها الكرك بفتح الراء ونسب اليها أبا الرضا الكركي . وقال كان ثقة في الحديث ، متقناً لما يكتبه الا أنه كان رافضياً مات سادس عشر ذى الحجة سنة ٥٦٢ هـ
كذلك في رحلة ابن بطوطة في القرن الثامن ما يدل على وجود الشيعة في هذه الأماكن^(٢) ومن هنا استدللنا على كون التشيع معروفاً في جبال الشام من أيام أمير المؤمنين على كرم الله وجهه الى يومنا هذا فلا يسبق الشام في هذا المعنى قطر الا الحجاز ولا يساويها فيه الا الكوفة

وكتب الاستاذ الشيخ احمد رضا في خطط الشام المجلد ٦ ص ٢٥١ بعنوان (الشيعة) (بلا توقيع) نقي به مقاله بعض الكتاب من أصل مذهبهم من بدعة عبد الله بن سبا وتبسط قليلا في الدليل على وجودهم في زمن علي عليه السلام في جبل عامل
وعما جاء به ماورد في كتاب الروضة والفضائل لشاذان بن جبرائيل القمي رواية مسندة الى عمار بن ياسر وزيد بن ارقم تدل على أنه كان زمن خلافة علي عليه السلام قرية في الشام عند جبل الثلج تسمى « أسعار » أهلها من الشيعة . وأسعار هذه خرابة بين مجدل شمس وجبانا الزيت . وهناك نهر يعرف بنهر أسعار وهي على طريق القادم من الشام الى جبل عامل .
وذكرت منازل الشيعة في بر الشام . ثم معتقدات الشيعة وما خالفوا فيه أهل السنة أو خالفهم فيه أهل السنة .

(١) يريد سليا الرازي الشهر بصور

(٢) (الفتاوى) وقد ورد ذكر الشيعة في رحلة ابن جبير وكان في دمشق سنة ٥٨٠ هـ للجمرة قال :

« والشعة في هذه البلاد أمور عجيبة وم أكثر من السدين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وم فرق شتى منهم الراضنة وم السبايون ومنهم الامامية والزيدية وم يقولون بالفضل خاصة ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وم كفرة فانهم يزعمون الالهية لعلى رضى الله عنه ومنهم النرايسة وم يقولون ان علياً رضى الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من النراب بالنراب »

ترجمة القرآن الى غير العربية

على ذر المؤلف الترك وعلاقتهم بالاسلام والحضارة الاسلامية

للأمير شكيب

- الترجمة الى التركية
- قصة محمود بن سبكتكين .
- فتوى الشيخ محمد بنحيت مفتى الديار المصرية .
- مقال الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر سابقا .
- ما لجواز الصلاة بالترجمة من التأثير فى الأمم الاسلامية غير العربية .
- مقابلة بين العربية للمسلمين واللاتينية للامم الكاثوليكية

ثم فى سنة تجديد طبع هذا الكتاب أى سنة ١٩٣٢ مسيحية بدأوا يجربون اقامة الصلاة نفسها باللغة التركية ، ويقرأون القرآن بالتركية مترجماً وقد أحدثت هذه المسئلة ضوضاء فى تركيا وفى العالم الاسلامى كما لا يخفى . ورأى الأتراك الجسد هو أن الأتراك لا يقدرّون أن يفهموا القرآن بالعربية فما صلاة انسان لا يفهم ما يتلو؟ ورأى الأتراك المحافظين وسائر المسلمين هو أنه لا بأس فى ترجمة القرآن الى التركية ، وتفسيره بالتركية ، ليفهمه الترك الا أنه لا بد من الصلاة به فى أصله العربى ، وذلك لأن الترجمة قد تنحرف بالكلام الالهى عن معناه الأصلى ، ولأن الترجمة تفقد الأصل كثيراً من فصاحته وبلاغته ، وعلى كل حال يرى هؤلاء أن الصلاة بالقرآن مترجماً الى التركية بدعة سيئة . وأنصار الصلاة بالقرآن المترجم يحتجون على جوازها برأى الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه . ومن الناس من يقول : ان أبأ حنيفة كان أجاز الصلاة بقرآن مترجم ، الا أنه رجع عن رأيه هذا فيما بعد .

ولقد نقل ابن خلكان في وفيات الأعيان قصة جرت أمام السلطان محمود بن سبكتكين وهو أنه جمع العلماء بين يديه في مدينة مرو واتدبهم للمقابلة بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي فقررُوا أن يصلي أحدهم ركعتين على مذهب أبي حنيفة ، وآخر ركعتين على مذهب الشافعي لينظر السلطان فيهما ويختار فصلَّى الفقهاء المروزي صلاة الشافعي بالطهارة المسبغة ، وأتى بالأركان والهيئات والسنن والآداب الخ وقال : هذه صلاة لا يجوزُ الشافعي غيرها . ثم صلى صلاة الحنفية وتساهل في الطهارة واللبس والنية والائتيان بالاركان والهيئات الى غير ذلك مما حكاه ابن خلكان ، نقلًا عن امام الحرمين أبي المعالي الجويني ، ومن جملة ذلك أنه قرأ آية من القرآن بالفارسية « دوبركك سبز » ثم قال : هذه صلاة أبي حنيفة . فأنكر علماء الحنفية أن تكون هذه صلاة أبي حنيفة ، فطلب الفقهاء احضار كتب أبي حنيفة فأحضرت وقرئ ما يتعلق منها بالصلاة فوجد طبق ما فصل الفقهاء فأعرض السلطان عن مذهب أبي حنيفة وتمسك بمذهب الشافعي رضى الله عنهما . وهذه الرواية التي رواها ابن خلكان فيها نظر من جملة وجوهه ، الاول ان كل من قرأ « وفيات الأعيان » من أوله الى آخره يلحظ عند ابن خلكان تحاملاً ظاهراً على أبي حنيفة ، والحنفية ، وتعصباً شديداً للشافعية ، الثاني أن امام الحرمين ، والفقهاء المروزي ، كلاهما أيضاً شافعي يريد اظهار مزية مذهبه ، الثالث أننا لا نعتقد جواز صلاة الحنفية على الوجه الذي زعمه الفقهاء الا في حال الضرورة . وليس هذا بقادح في المذهب الحنفي اذ كان الاسلام كله يراعى الضرورات ويقدرها بقدرها ، ولذلك جاء في الحديث « انما بعثت بالحنيفية السمحة » . يقي أن ترجمة القرآن الى الألسن الأخرى لا خلاف في جوازها عند الحنفية . أما الصلاة بالترجمة فلو كان هذا الرأي هو المعول عليه في المذهب الحنفي لكان الأتراك منذ ألف سنة أى منذ اسلامهم يصلون بالتركية وليس الحال كذلك ولقد بلغنا أن مشيخة الأزهر بمصر ألفت لجنة خاصة بموضوع ترجمة القرآن للبحث فيه واصدار القرار الذي نطمئن به خواطر المسلمين في هذا الشأن وسنرى ما يكون من هذه اللجنة . أما « دوبركك سبز » فهي ترجمة وركعتين خضراوين أى قوله تعالى (مدهامتان)

وأما الترجمة التي أخرجوها بالتركية للقرآن الكريم فلا يكاد التركي نفسه يقرأها لا لراكا كتبها في نفسها بل لراكا كتبها في جانب الأصل

ولما كانت مسألة ترجمة القرآن قد أخذت دوراً عظيماً في هذه الأيام ، وكان الامر جداً ليس بهزل ، أحيينا أن لا يتخلو هذا الكتاب من خلاصة أثيرة في هذا الموضوع . فإباحة ترجمة القرآن والصلاة بالترجمة يتولد عنها محاذير كثيرة ، لان القرآن ينبغي أشد المحافظة على أصله ، وهو قد نزل بلسان عربي مبين ، ولا يمكن فهم حقيقة اعجازه وخوارق فصاحته وبلاغته الا باللسان العربي الذي نزل به ، فاذا تعاورت الايدي كتاب الله بالترجمة مع ما فيها من الوعورة ومن تعذر تطبيقها على الأصل ومن اختلاف مناهج البيان بين اللغات لم يتخل الأمر من وقوع تحريف في كتاب الله . كما أن تحريم الترجمة البتة ومنع الصلاة بها حتى للعاجز ، يكونان من العقبات في وجه انتشار الاسلام الذي أربعة أخماس أتباعه وربما أكثر من ذلك هم من الأمم الأعجمية ، فكانت الحكمة تقضي بالتوسط بين الأمرين ، وهذا ما فعله الامام الاعظم أبو حنيفة رضى الله عنه . نعم انه في أول الامر قد أفرط في التوسيع والرخصة وعلى ما يظهر أجاز الصلاة بالترجمة حتى لغير العاجز ولكنه عاد فيما بعد الى رأى صاحبيه أبي يوسف ومحمد ، وهو منع الصلاة بالترجمة على القادر الذي يمكنه أن يتلو ما يسر من القرآن نفسه واجازة ذلك للعاجز .

ومن حيث انه قد سبق هذا البحث منذ بضع سنوات وصدرت فيه فتوى للاستاذ العلامة الشيخ محمد نجيت مفتي الديار المصرية فلا بأس من أن نورد هنا خلاصة هذه الفتوى فقد نقل الاستاذ نجيت ما قيل في قضية ارشاد المسلمين لاهل الكتاب ، وتعليمهم القرآن ، فقال ان أبا حنيفة يرى جواز تعليم الحربى والذمى القرآن والفقهاء رجاه أن يرغبوا في الاسلام . وقد أخذ أبو حنيفة هذا من قوله تعالى « **وَإِن أَحَدًا مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** » ومن أنه روى كونه النبي ﷺ مر على ابن أبي ، قبل أن يسلم ، وفي المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين فقرأ عليهم القرآن . وأما الامام مالك فنفع تعليم القرآن غير المسلمين . وأما الامام الشافى فله في المسئلة قولان . ويظهر أن الشافى يبيح تعليم القرآن لمن يُرْجى منه الرغبة في الاسلام ويمتنع اذا حصل الظن بأن المقصود منه هو الطعن في الدين

والذى يظهر من كلام الشيخ نجيت لا مجرد ترجيح الجواز لترجمة القرآن فقط بل

الحث على ترجمة كتاب الله ترجمة صحيحة ، تفاديا من التحريف والتشويه اللذين يتعمدهما أعداء الاسلام ، وعلماً بأن كثيرين من الملل الأخرى يتشوقون الى الاطلاع على حقيقة القرآن ، وهذه التراجم الفاسدة المنتشرة في أوروبا تضل عليهم الطريق التي بها يتصلون الى الحق . ويقول الشيخ بحيث ان ترجمة القرآن للتعليم والتفهم والتعلم والتفهم والانذار والتبليغ قد أجازته الحنفية والحنابلة وأجازته الشافعي في قول بلا تفصيل ولكن منعه مالك . وأما اعتياد قراءة القرآن بغير العربية التي نزل بها ، أو كتابة المصحف بلغة أخرى غير العربية ، أو بالعربية مخالفة لحط المصحف العثماني ، فهذا ممنوع أشد المنع اتفق الأئمة في ذلك . وقضية ألفاظ القرآن وكتابته وترتيب سوره وآياته انما تؤخذ بطريق النقل عن الشارع ، أما الصلاة بترجمة القرآن ، فان كان قادراً على أن يتلو شيئاً منه لم يجز له أن يقرأ بالترجمة ، وأما ان كان عاجزاً عن قراءة أى شئ، منه بأصله جازت الصلاة بالترجمة . وهذا الجواز للعاجز في قول الحنفية فقط . أما عند غيرهم فلا يجوز مطلقاً . ولا يسقط فرض الصلاة عن المكلف اذا أقامها بالترجمة

أما الاستاذ الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر سابقا فقد نشر في هذه الايام مقالا طويلاً استقصى فيه هذه القضية ، ونقل عن شمس الأئمة السرخسى هذه العبارة : وأصل هذه المسئلة اذا قرأ في صلاته بالفارسية جاز عند أبى حنيفة رحمه الله ويُكرهه ، عندهما أى عند صاحبين لا يجوز اذا كان يُحسن العربية . واذا كان لا يُحسنها يجوز . وأبو يوسف ومحمد رحهما الله قالا : القرآن مُعجز والاعجاز في النظم والمعنى . فاذا قدر عليهما فلا يتأدى الواجب الابهما ، واذا عجز عن النظم آتى بما قدر عليه ، كمن عجز عن الركوع والسجود يصلّى بالايما ، وأبو حنيفة رحمه الله استدل بما روى أن الفرس كتبوا الى سلمان الفارسى رضى الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية ، فكانوا يقرأون ذلك في صلاتهم حتى لانت أسنتهم للعربية

ونقل الشيخ المراغى عن شرح الكنز للزيللى هذه العبارة : وأما القراءة بالفارسية جائزة في قول أبى حنيفة . وقال أبو يوسف ومحمد لا تجوز اذا كان يحسن العربية لان القرآن اسم لمنظوم عربى لقوله تعالى : (اِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) . وقال تعالى : (اِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) والمراد نظمه ، ولأبى حنيفة قوله تعالى : (ان هَذَا لَقِيَ الصَّحُفِ

الأولى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) وصحف إبراهيم كانت بالسريانية ، وصحف موسى كانت بالعبرانية فدلّ على كون ذلك قرآناً : الى أن يقول : ويجوز بأى لسان كن وهو الصحيح لأن المنزّل وهو المعنى عنده لا يختلف باختلاف اللغات . والصحيح ان القرآن هو النظم والمعنى جميعاً لانه معجزة للنبي ﷺ ، والاعجاز وقع بهما جميعا الا أنه لم يجعل النظم رُكناً لازماً في حق جواز الصلاة خاصة رُخصة ، لأنها ليست بحالة الاعجاز . وسُئِلَ عمر النسفي عن لا يحسن الفاتحة بالعربية ويقدر على التكلم بالفارسية أو لغة أخرى يتأدى بها معنى القرآن ، هل يكلف تعلم تلك اللغة غير العربية فقال نعم ، لان تعلم القرآن فرض لا قامة الصلاة . ومذهب أبي حنيفة أن القرآن لا يختص بالنظم العربي في قوله الأول الذي رجع عنه فيفرض عليه تحصيل ذلك كما يفرض عليه تعلم القرآن بالنظم العربي لمن قدر عليه . وعندهما (أى عند الصحابين) تجوز قراءة القرآن بغير العربية اذا كان لا يحسن العربية فقد وافقاه أى ان الصحابين وافقوا أبا حنيفة في أنه يصبر قرآنا عند العجز عن أدائه فيفرض ذلك عليه بالاجماع في هذه الحال

نقل المراغي أن الحبيب العجمي صاحب الحسن البصري قدس الله سرهما كان في الصلاة يقرأ القرآن بالفارسية لعدم انطلاق لسانه بالعربية . ونقل أيضاً عن أبي حنيفة في الرجل يفتتح الصلاة بالفارسية أو يقرأ بالفارسية أو يذبح ويُسمى بالفارسية وهو يحسن العربية قال الامام : يجزئه في ذلك كله .

وقال أبو يوسف ومحمد : لا يجزئه في ذلك كله الا في الذبيحة ، وان كان لا يحسن العربية أجزاء . قال الصدر الشهيد في شرحه على الجامع الصغير لمحمد بن الحسن . وهذا تنصيص على أن من يقرأ القرآن بالفارسية لا تفسد الصلاة بالاجماع ، ونقل عن معراج الدراية ان ترجمة القرآن تسمى قرآناً مجازاً ، فيقال ليس ذلك بقرآن وانما هو ترجمة . قال : وانما جوازناه للعاجز اذا لم يُحَلْ بالمعنى لانه قرآن من وجه ، باعتبار اشتباهه على المعنى فالتيان به أولى من الترك اذ التكليف بحسب الوسع وهو نظير الائمة .

والشيخ مصطفى المراغي يرى فيما يظهر في هذه المسئلة رأى الصحابين أى جواز الصلاة بترجمة القرآن للعاجز قياساً على جوازها بالائمة لمن عجز عن القيام . ولكن الشيخ المراغي لا يقطع بكون أبي حنيفة رجع عن رأيه الأول اذ يقول ان رواية الرجوع رواها أبو

بكر الرازي مرة ، ورواها نوح بن مريم وعلى بن الجعد ، وقد أغفلت مرة واحدة في كتاب الامام محمد . وأغفلت أيضاً في شرح المبسوط للسرخسي وفي كتب قاضيخان

والشيخ المراغي لا يريد بهذا ترجيح عدم رجوع أبي حنيفة ولكنه يقصد أن رجوع أبي حنيفة الى رأى صاحبيه لم تتفق فيه الروايات . قال : فإذا نظرنا الى ذلك نراهم ، أي علماء الحنفية ، متفقين على أن التكليف بالوسع ، وأن الترجمة للعاجز هي التي في وسعه ، وانها خلفت عن النص العربي يقام مقامه عند العجز كما يقام الائمة عند العجز مقام الركوع والسجود ، ولم نعهد في التشريع ان المكلف مُخَيَّرٌ في الخلف . بل الذي عهدناه أن الخلف يأخذ حكم الأصل ويحل محله . واذا تأملت قولهم : ان المعنى لا يختلف باختلاف اللغات تراهم يريدون أن لا تخلو الصلاة من القرآن اما بلفظه ومعناه واما بمعناه فقط فهم حريصون على أن تكون المناجاة لله بكلامه أو بمعنى كلامه وهم حريصون على تحصيل المقاصد ، وجعل الصلاة صورة حية مملوءة بالشعور بجلال الخالق وعظمته ، وفي معاني القرآن الكريم من العظات والعبر ما يملأ القلب روعة ورهبة وخشية ، وبركتها لا يمكن أن تذهب بنقلها الى لغة أخرى والمناجاة بالمعاني خير وأبقى من وقوف المكلف صامتاً .

ثم أورد الاستاذ المراغي عدداً من الآي الكريمة وقال انه لا يتردد لحظة واحدة عن القول بان جلال معاني هذه الآيات لا يمكن أن يفارقها في اللغات الاخرى ، نعم قد تضعيع روعة هذه الألفاظ ، ولكن تبقى روعة المعاني والمناجاة محتاجة الى هذه الروعة ، ولا يسع مُصَفِّاً الا الاعجاب بآراء فقهاء الحنفية في هذه المسئلة والله هم حيث قالوا : ان الصلاة حالة مناجاة لا حالة اعجاز وللعالم الاسلامي الحق في أن يفخر باولئك العلماء الذين استنبطوا هذه القواعد وهذه المدارك الدقيقة . وفي الحق ان فقهاء الحنفية هم الملجأ دائماً في حل المضلات الاجتماعية ولا نستطيع أن نفيهم حقهم من الثناء

واعترض الاستاذ المراغي على من قال بصدم جواز الصلاة بالترجمة بناء على أن الترجمة ليست قرآناً وان ما كلن كذلك كلن من كلام الناس . قال المراغي : وهو غير صحيح ، لان الترجمة وان كانت غير قرآن بالانفاق ، تحمل معاني كلام الله ، ومعاني كلام الله ليست كلام الناس ، وعجيب أن نُسب من معاني القرآن صفاتها ، وجالها ، وتوصف بأنها من جنس كلام الناس بمجرد أن نلبس نوباً آخر غير التوب العربي كأن هذا التوب هو كل شيء .

ونحن نوافق الشيخ المراغى فى أن الصلاة بالترجمة للعاجز خير من السكوت ، ومن عدم تلاوة شئٍ لا من الأصل ولا من المعنى . ولكننا نخشى من أنه إذا فُتِح هذا الباب على مصراعيه ، كثر العدول عن أصل القرآن الى الترجمة لما فى ذلك من السهولة على الأعاجم . ويؤيدُ ذلك الشعبيةَ ممن يكرهون العرب لما رُب سياسية ، فينتهى الأمر أخيراً بـعدول مئات ملايين من المسلمين عن الصلاة بالقرآن الأصلى الى الصلاة بترجماتٍ مهما بالغ المترجمون فى تحريرها والتدقيق بها ، فلن تكون شيئاً بالنسبة الى الأصل .

وقول الاستاذ المراغى ان للمعانى روعة لا يسلبها اياها اختلاف الالفاظ ، نُجيب عليه بأن روعة المعانى لا يبقى منها الا القليل اذا لم تُلبس القوالب اللاتقة بها . وقد أُجمع أرباب البيان فى الشرق والغرب على أن النقل من لغة الى أخرى يذهب بأكثر فصاحة اللغة المنقول منها لا سيما اذا كانت الترجمة حرفية . فاصرار القائلين بعدم جواز ترجمة القرآن مبنى على خوفهم من تعدد القرآن وعلى ما يلاحظون من دخول السياسة فى هذا الموضوع أى ان أقواماً أرادوا الابتعاد عن الاسلام من أصله ، فعجزوا عن ذلك لتمكن الاسلام فى صدور الأمم التى يديرون هم شئونها ، فرجعوا الى أسلوب آخر وهو ترجمة القرآن والصلاة بالترجمة لتكون لهم الخطوة الأولى فى الابتعاد عن العرب وعن الاسلام معاً .

وربما كان الاستاذ المراغى لا يعلم من هذا الأمر كل ما نعلمه نحن ، فهذه المسئلة ليست بمجدية ، ولقد بدأت المناقشة فيها بين رجالات الأتراك فى أيام الحرب العامة . وكان منهم نفرٌ جاهر بوجوب التفصى من الاسلام من أصله ، فقام الآخرون عليهم التكبير ، وبينوا لهم استحالة هذا الأمر وأن التثبث به يفضى الى ثورة تأتى على الحرث والنسل ، لان الأتراك لا يرضون بالاسلام بدلاً . فعند ذلك قال اولئك الملاحدة الذين كانوا يريدون القضاء على الاسلام : اذا كان لا بد من أن نبقى مسلمين . فليكنُ اسلامنا تُركياً . ولترفع منه كلٌ ما فيه رائحة عربية

وكان رأس القائلين بهذه المقالة الفاسدة ضياء كوكُكُ ألب المفكر المشهور عندهم الذى توفى بعد الحرب واللهُ المستعان ، وقد بقيت هذه الافكار تعمل فى تركيا الى أن انتهت الحرب ، ثم الى أن تأسست أنقرة وأخذت بالسياسة اللادينية المحضة التى يكون من العبث محاولة تغليبها والمكابرة فيها — كما يفعلُ بعضهم — فكان من جملة ما قامت به الفئسة الكيالية من الأعمال الرامية الى ابعاد الترك عن الدين الاسلامى والثقافة العربية ، السى

بترجمة القرآن الى التركية واجازة الصلاة بها . وهم لا يقيدون هذا الجواز بالعجز ، بل يريدون أن يجعلوه عاباً للقادر والعاجز معاً حتى يصير هو القاعدة ، وربما ينقلب الى الضد اذا طالت أيام الملاحدة في أفترة فصير الصلاة بالقرآن الاصلى ممنوعة ، وربما يعاقب حينئذ عليها كما يعمنون الآن عرب ولاية اطنه من التكلم بالعربية والكتابة بها . ولنا شواهد على ذلك منع حكومة أنقرة الحجج ، وهو من أركان الاسلام ، والفاوهم الشريعة الاسلامية بأسرها في المعاملات ، واقامتهم الأمة التركية على القانون السويسرى المدنى . فن يفعل هذه يفعل تلك ولا يبعد عنه شئ . واذا جازت عادة الصلاة بالتركية في الاناضول عمت جميع الأمم التي لا تتكلم بالعربية ، كسلى أوربا من أرنا، وط وبنناق وأترك وتتر ، ثم صارت الى العجم والى الهند والصين والجاوه . ولو كانت قضية الصلاة بالترجة هي بتلك الدرجة من السهولة عند علماء الحنفية الذين لم يكونوا يجهلون رأى الامام الاعظم وصاحبه ، لكانوا أجازوا الصلاة بالتركية من قديم الزمان ، والحال انهم لم يكونوا يصلون الا بأصل القرآن ولا يزلون كذلك . وكانوا يرون أن الانسان مهما بلغت به الأمية والسذاجة فلا يعجز عن حفظ بعض آيات يلقنه اياها والداه أو شيخ محلته أو رجل من اخوانه .

وبالاختصار فنحن على رأى أبى يوسف ومحمد الذى رجع اليه أبو حنيفة من جواز الصلاة بالترجة للعاجز ، لكن بعد أن يتحقق عجزه التام عن حفظ شئ من القرآن وهو مع ذلك مكلف أن يتعلم شيئاً منه يقيم به صلاته ولكننا لارى التوسع في الجواز لما نخشى فيه من انقلاب المسئلة الى دسيسة سياسية قومية ينسج خرقها باسم المذهب الحنفى ، وزى أن الأولى باخواننا الترك أن يستمروا على ما كانوا عليه الى الآن من أمر الصلاة بالعربية ، وأما اذا كانوا يريدون فهم معانى القرآن وهو أمر لازم فيقتدرون أن يترجوه وأن يترجوا تفاسيره الكثيرة فيفهموا من معانيه ما يستعجم عليهم . وهانحن أولاء نرى الأمم الكاثوليكية ومنها أمم راقية في سلم المدنية ، وراقية جداً ، مثل الفرنسيس والبلجيك والنسويين ، وما يزيد على الثالث من الألمان ، ونحو من الربع من الهولانديين ، ثم امة المجر ، وأمة التشيك ، والبولونيين ، ثم الايرلانديين ، ثم الامة الايطالية ، والامة الاسبانيولية ، والامة البرتغالية ، وجميع سكان أميركا الجنوبية ، وأهل أميركا الوسطى ، وخسة وعشرين مليوناً من أميركا الشمالية ، وجميع هذه الأمم تقيم شعائرها الدينية الكاثوليكية باللغة اللاتينية ، بلون أن تفهمها ولا يفهمها من كل أمة منها الا نزر لا يذكر ، وانما يفسرون لهم ما يريدون

فهمه من الشعيرة الدينية من اللاتينية الى ألسنتهم ، اذن هذه سبيل ليس الاسلام فيه بأوحد ، فكما ان اللغة اللاتينية هي لغة دينية ثلاثمائة وخسين الى أربعمائة مليون مسيحي كاثوليكي فاللغة العربية هي اللغة الدينية ويجب أن تبقى اللغة الدينية ثلاثمائة وخسين الى أربعمائة مليون مسلم . بل العربية أولى بهذا التخصص لأن كتاب الاسلام السماوي انما نزل بها ، ولم يكن كتاب النصارى السماوي قد كُتِبَ باللاتينية من أصله ، بل اللاتينية هي لغة الكنيسة الرومانية ، قد ترجوا الانجيل اليها من اللغات السامية . ثم ان العربية هي لغة حية يتكلم بها نحو سبعين مليوناً من البشر ، واللاتينية لم يبق واحد في الدنيا يتكلم بها بل صارت من قبيل الآثار التاريخية .

ثم أورد الاستاذ المراغي أقوالاً عن الصدر الشهيد ، وعن شارح الهداية وعن الزبلي ، وعن أبي يوسف ما يُستظهر به على جواز قراءة شيء من ترجمة القرآن بعد تلاوة الفرض من النص العربي ، وقال ان هذه النصوص صريحة ، لا تختمل التأويل ، دالة على جواز ضمّ الترجمة الى النصّ العربي ، المفروض للقادر على العربية ، ولكنه أورد نصوصاً أخرى على عدم جواز قراءة الترجمة مع الأصل ، ويظهر أنه وقع خلاف بين الفقهاء في ذلك ، وقد رجّح صاحبُ الفتح فساد الصلاة التي تكون بهذه الصفة اذا كان المقروء من الترجمة قصةً أو أمراً أو نهياً وقال بالجواز اذا كان المقروء ذكراً أو نكرة ، والاستاذ المراغي يرى رأى صاحب الفتح هذا اذا لم يكن هناك عُذر من عدم احسان النطق بالعربية .

وأما الترجمة من حيث هي فانتا نوافق الشيخ المراغي والشيخ بخت وغيرهما عن أجازوها استناداً على أقوال العلماء والأئمة والسلف الى سلمان الفارسي ، ونقول مع الشيخ المراغي انه قد استفاد من ترجمة القرآن كثيرون من العلماء الذين لم يكونوا يدينون بالدين الاسلامي ، فبعضهم آمن به وخرج من الظلمات الى النور ، وبعضهم لم يصل الى تلك الدرجة لكنه غيّر رأيه في الدين الاسلامي وفي النبي ﷺ ، ووضع الاسلام موضع الكرامة وبحث فيه البحث اللائق بحلاله . قال : وأظنني أعبت اذا شرعت أبين الفوائد التي تعود على الاسلام نفسه من اظهاره ونشره على الأمم المحتضرة ، بلغاتها ، ولكن يجب أن تُراقب تلك التراجم . قلنا : في عصر كالعصر الذي نحن فيه لا يختلف في هذه المسئلة اثنتان .

محاصرات العرب للقسطنطينية

على ذكر المؤلف تهديد الترك للقسطنطينية قبل فتحها

المؤلف

ان العرب منذ فتحوا الشام فكفروا في فتح القسطنطينية لأنها كانت لذلك العهد عاصمة النصرانية ، وكان الاسلام لو فتحها تغلب على شمالي اوروبا بلا نزاع . ومن الأحاديث النبوية المروية : « انفتححت القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » وهذا الحديث على ضعفه متداول بين الناس . ويقال انه مذكور في الجامع الصغير للسيوطي . وهو منقوش على الحجر في جامع آيا صوفيا باسطنبول . وكيف كان الأمر فالمسلمون تنهبوا من بدء الاسلام لأهمية القسطنطينية ، وسنة ٦٥٣ جهز العرب اسطولا عظيما في ميناء طرابلس الشام ، عقدوا له لبسرين أبي أرطاة لأجل غزو القسطنطينية . فتلاق هذا الأسطول بأسطول الروم وهزمه . الا أن الاسطول العربي في هذه الغزاة لم يبلغ القسطنطينية . وفي سنة ٤٤ للهجرة وفق ٦٦٤ للمسيح غزا الاسطول العربي القسطنطينية بقيادة بسرين أبي أرطاة المذكور ، ووصل اليها كما رواه الطبري . ثم ان فضة بن عبيد غزا خلقيدونية — ماجاور البوسفور من آسيا الصغرى — حيث وافاه يزيد بن معاوية ، وقد جعل المؤرخ تيوفان هذه الغزاة في سنة ٦٦٦ للمسيح ولكن الياس الزبي قال : ان السنة التي حاصر فيها يزيد بن معاوية القسطنطينية كانت سنة ٥٩ للهجرة وفق سنة ٦٧٢ مسيحية . وقد جاءها يزيد برءا ، وكان بسر بن أبي أرطاة ماسكاً البحر ، وقد انتشرت السفن الحربية العربية على طول ساحل بحر مرمرة ، وهاجم العرب القسطنطينية بين شهري ابريل وسبتمبر ، ولم يتمكنوا من فتحها فلما جاء الشتاء انكمشوا الى جهة « قيزيقيا » في الشمال الغربي من آسيا الصغرى . وفي الربيع عاودوا حصار تلك العاصمة ، ويقال انهم لم ينصرفوا عن القسطنطينية الا بعد حروب استمرت سبع سنوات ، وكان أعظم عامل في فشلهم النار الاغريقية التي أحرقت جانبا من الاسطول كما ان جانبا آخر منه غرق في أثناء الرجوع .

وليس عندنا كل التفاصيل اللازمة عما جرى من الوقائع في هذه السنوات السبع. والمرجح ان الجيش العربي الذي جاء من البر بدأ بالحصار سنة ٦٦٧ وأن الاسطول أقبل عن القسطنطينية سنة ٦٧٣ ومؤرخو العرب يجعلون غزاة القسطنطينية هذه من سنة ٤٨ الى سنة ٥٢ للهجرة ومنهم من يمد ذلك الى سنة ٥٥ ويقولون ان أبا أيوب الأنصاري رضى الله عنه توفي في حصار القسطنطينية سنة ٥٠ ومنهم من يقول سنة ٥١ ومنهم من يقول ٥٢ والذي في الطبقات الكبرى لابن سعد انه توفي سنة ٥٢ وهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد ابن عوف من بلخارث بن الخزرج شهد بدرأ ، وأحدأ ، والخندق ، والمشاهدة كلها مع رسول الله ﷺ وخرج غازياً في زمان معاوية . قال في الطبقات : فرض فلما نقل قال لأصحابه ان أنا مت فاحلوني ، فاذا صافتم العدو فادفوني تحت أقدامكم ، وسأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لولا ما حضرني لم أحدثكم سمعت رسول الله ﷺ يقول : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . قال ابن سعد : ولما مرض أناه يزيد بن معاوية يعوده فقال : حاجتك ؟ قال : نعم ، حاجتي اذا أنا مت فاركب بي ثم سغ بي في أرض العدو ما وجدت مساعفاً ، فاذا لم تجد مساعفاً فادفني ثم لرجع . فلما مات ركب به ثم سار به في أرض العدو وما وجد مساعفاً ثم دفنه ثم رجع . قال ابن سعد أخبرنا عمرو بن عاصم قال أخبرنا ممام عن عاصم بن بهللة عن رجل من أهل مكة ، ان أبا أيوب قال ليزيد بن معاوية حين دخل عليه : أقرئ الناس مني السلام ولينطلقوا بي فليبعدوا ما استطاعوا . قال حدث يزيد الناس بما قال أبو أيوب ، فاستسلم الناس فانطلقوا بجنائزه ما استطاعوا قال محمد بن عمر : توفي أبو أيوب عام غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية سنة ٥٢ وحلى عليه يزيد بن معاوية ، وقبره بأصل حصن القسطنطينية بأرض الروم فلقد بلغني ان الروم يتعاهدون قبره ويرمونه ويستسقون به اذا قحطوا انتهى ماجاء في الطبقات .

ثم ان الأتراك عند ما فتحوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ بقيادة السلطان محمد الفاتح عثروا على قبر أبي أيوب الأنصاري وبنوا عليه قبة وجعلوا عنده جامعاً وجاء في الانسيكلو بيديه الاسلامية ان ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبي أيوب . قلت كانت وفاة ابن قتيبة في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وقيل ست وسبعين ومائتين على ماني وفيات الأعيان . والحال ان وفاة محمد بن سعد صاحب الطبقات كانت يوم الأحد لأربع خلون من جادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين أي قبل وفاة ابن قتيبة كما في وفيات الأعيان أيضا . فيكون جزم أصحاب

الانسكلوبيديا الاسلامية بأن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبي أيوب الانصارى هو بغير محله ، لأن ابن سعد سابق لابن قتيبة وأنت ترى انه قد ذكره ، وأما قضية كون الروم حفظوا قبره وكانوا يستسقون به في الفحط فقد جاء في الانسكلوبيديا المذكورة نقلها عن الطبرى وابن الأثير وابن الجوزى والقزوينى والحال انها المذكورة في طبقات ابن سعد الذى تقدم في الزمن هؤلاء جميعاً . وقد جاءت هذه القصة مع ترجمة أبي أيوب في كتاب تركى للحاج عبد الله اسمه « الآثار المأجدية في المناقب الخالدية » طبع استانبول سنة ١٢٥٧

وجاء في الانسكلوبيديا الاسلامية ان الهدنة بقيت بين العرب والروم نحواً من أربعين سنة الى أن تولى سليمان بن عبد الملك فاعمل في غزو القسطنطينية وجردها جيناً كثيفاً عقد عليه لأخيه مسلمة فجاءها من البر وجاء الأسطول العربى من البحر وكان الخليج المسمى بقرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية ، فاستمر هذا الحصار سنة كاملة وكان ابتداءه في ٢٥ اغسطس سنة ٧١٦ وهذه المرة خاب العرب أيضاً فيما قصدوا اليه وذلك بفقد الاقوات وبزحف البلغار من جهة الشمال مناصرين للروم . وقد جاء ذكر هذه الغزاة في تاريخ الطبرى وتاريخ ابن الأثير واستوفاهما ابن مسكويه ويقال انه وجدت عين ماء اسمها عين مسلمة عند الوردنيل حيث كان الأمير مسلمة قد خيم بعسكره ذكر ذلك المسعودى وابن خردادبه وقيل ان مسلمة بنى جامعاً في ذلك المكان . وذكر ابن قتيبة ان رجلاً اسمه عبدالله بن الطيب سئل سيفه وأثبتته في باب القسطنطينية. وهذا الرجل كان من أصحاب مسلمة . ولم ينصرف مسلمة من حصار القسطنطينية حتى اجبر امبراطور الروم على التمهيد ببناء بيت لأسرى العرب بجوار قصر الامبراطور . وكذلك كان مسلمة هو الباقى لأول جامع في القسطنطينية نقل ذلك المقدسى وابن الأثير ويقال انه هو الذى بنى برج غلطة ، وروى « حاجى خليفة » في تقويم التواريخ انه هو الذى بناه سنة ٩٧ للهجرة انتهى

قلت ذكر المسعودى في مروج الذهب خليج القسطنطينية فقال انه يضيق عند المدينة فيمير عرضه نحواً من أربعة أميال وعليه العائر وينتهى في ضيقه الى الموضع المعروف بالاندلس^(١) وهناك جبال ، وعين ماء كثير ماؤها موصوف تعرف بعين مسلمة بن عبد الملك . وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية وأنته مراكب المسلمين في فم هذا

(١) هذا تحريف لفظة الوردنيل فيما يظهر لنا أو غلط طبع في النسخة المطبوعة بالمطبعة الازهرية

الخليج مما يلي بحر الشام . ومنتهى مصبة مضيق (هو الدردنيل) وهناك برج يمنع من فيه من يرد من مراكب المسلمين في الوقت الذي للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الاسلام والله الأمر من قبل ومن بعد . انتهى كلام المسعودى وهو مما حرره سنة ٣٣٠ للهجرة . فكيف كان يقول لو عاش لهذا العصر ؟

ثم جاء في الانسيكلو بيديتية الاسلامية ان العرب حاصروا القسطنطينية في زمن هرون الرشيد ووصل الجيش العربى الى اسكدار ، أى القسم الاسيوى من المدينة فاضطرت الامبراطورة « ايرانه » — والمسعودى يقول لها اربين — التى كانت كافلة ابنتها قسطنطين السادس لصغر سنه ان تطلب الصلح وتؤدى للخليفة الجزية . روى ذلك نيوفاؤوس ، والبلاذرى ، والطبرى ، وابن الأثير . وقال هؤلاء ان هذه الفزاة جرت سنة ١٦٥ للهجرة . قلت ان البلاذرى يذكر ان المهدي أغزاه ابنه هرون الرشيد الروم سنة ١٦٥ فزل على الخليج . ثم نقلت الانسيكلو بيديتية عن « اوليا » عن محي الدين الجالى ان العرب حاصروا في أيام المهدي والرشيد القسطنطينية أربع مرات .

وأما الجامع المنسوب الى مسلمة بن عبد الملك في القسطنطينية فلم يعرف مكانه . وقيل انه هدم في أثناء فتنة ، وذلك سنة ١٢٠٠ مسيحية . وقيل ان الصليبيين انتهوه سنة ١٢٠٣ وذكر ابن الأثير ان الأمبراطور قسطنطين « مونوماك » كان قد رمم هذا الجامع بناء على رغبة طغرل بك السلجوقى وذلك سنة ٤٤١ ، وقال أبو الفداء انه سنة احدى وأربعين وأربعمائة أرسل ملك الروم الى السلطان طغرل بك هدية عظيمة وطلب منه المعاهدة فأجابها اليها وعمرمسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك . هـ .

وقال ابن خلكان في الوفيات في ترجمة السلطان طغرل بك : « ومن محاسنه المسطورة انه سير الشريف ناصر الدين بن اسمعيل رسولا الى ملكة الروم وكانت على الروم اذ ذلك امرأة فاستأذنها في الصلوات الخمس بجامع القسطنطينية وبالجماعة يوم الجمعة فأذنت له في ذلك صلى وخطب للإمام القائم (العباسى) وكان رسول المستنصر العبيدى صاحب مصر حاضراً فأكثر ذلك وكان من أكبر الأسباب في فساد الأحوال بين المصريين والروم »

وجاء في الانسيكلو بيديتية الاسلامية نقلاً عن المقرئى ان الأمبراطور ميخائيل « بالبولوغ الثامن » بنى سنة ٦٦٠ للهجرة في القسطنطينية جامعاً أهدى اليه الملك الظاهر بيبرس مقروشات نفيسة

فتح الترك للقسطنطينية

و خلاصة خططها

للشكيب

ومضى على حصار العرب للقسطنطينية واحتلامم لصفاف البوسفور ستامة سنة قبل أن حاصرها الأتراك لأول مرة لهمد بايزيد الأول العثماني ، وذلك سنة ١٣٩٦ . وبينما كان بايزيد الأول ماسكا بخناقها بلغه قدوم جيش افرنسي مجرى تحت قيادة سيجيسموند الأول ملك المجر لنجدة القسطنطينية فنهد اليهم بجيشه والتقى الجمعان في نيقوبوليس من بلاد البلغار الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٣٩٦ فكانت الدبرة على الفرنسيس والمجر . واستوصل جيشهم قتلا وأسراً . وقرأت في بعض تواريخ الفرنسيس انه حصلت في تلك البلدة معركتان احدهما سنة ١٣٩٣ انهزم فيها سيجيسموند ملك المجر . والثانية سنة ١٣٩٦ انهزم فيها المجر والافرنسيس معاً . وعاد بايزيد الى التصييق على القسطنطينية الى أن ارتضى امبراطور الروم بشروط ابن عثمان ، وذلك سنة ١٤٠٠ وكان من جملة تلك الشروط التخلي عن حلرة في تلك العاصمة لتكون مسكناً للمسلمين ، والاذن في بناء مسجد جامع ، ونصب قاضٍ شرعى لفصل دعاوى المسلمين . ولما جاء تمرلنك وتغلب على السلطان يلدرم بايزيد وأخذنه أسيراً نشقت فروق نسيم الفرج الا أن ذلك لم يستمر الى الآخر بل سنة ١٤٢٢ جاء السلطان مراد الثاني وحاصر القسطنطينية وضيق عليها فلم يقدر له فتحها فارتضى بالصلح مع الامبراطور . وخلفه ابنه محمد الثاني فزحف اليها سنة ١٤٥٢ وبنى بجانبها حصن « روملى حصار » وبدأ الحصر في ٩ ابريل سنة ١٤٥٣ وافتتحها في ٢٩ مايو وكان أكثر الحاح الأتراك في الهجوم من جهة البر بين باب طوبوقو وباب أدرنة

فان مدافعهم الثقيلة فتحت نُلماً تعذر على الروم سدّها . وكان خليج قرن الذهب مسوداً بسلسلة حديدية فنقل الترك أسطولهم من جهة طولبه بفجعه وأصعدوه في البر الى أكمة بك أوغلي وأزلوه الى الساحل المسمى بقاسم باشا وأزلقوه على الشحم الى الخليج واستولوا عليه وكشف المولى آق شمس الدين قبر أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه . واتهب الأتراك البلدة ثلاثة أيام ثم دخلها السلطان محمد الفاتح في اليوم الرابع ، وارتفع النهب وعم السكون ، ونودي بالأمان ، وصلى السلطان الجمعة في كنيسة أياصوفيا بعد أن حولها جامعا . وكان الجنويون في غلطة ولم فيها عملة خاصة بهم فنسلها الأتراك منهم . وجاء تاريخ فتحها مصادفاً بحساب الجبل لآية « بلدة طيبة » أى (٨٥٣) وهى سنة فتحها بالحساب الهجرى . ولم يملك الاسلام فى الحقيقة بلدة أجل منها ، ولا خطة أهم موقعا ، ولا مدينة أطيب نجمة . وقيل ان أجل مدن العالم منظراً اذا أقبل المسافر عليها ثلاث نابولى فى ايطاليا ، وأشبونة عاصمة البرتغال ، والاساتنة وهذه أجل الثلاث . وأما أهميتها الجغرافية والسياسية فلم تكن لبلدة أخرى فى العمور واقعة بين البحرين الاسود والأبيض ، وواصله بين البرين آسية وأوربة أمامها بوغاز ووراءها بوغاز ومن ملكها فقد نبواً ملكا كبيرا وكرسيا عالياً منيفا ومن شرقها البوسفور ومن غربها بحر مرمره المنتهى بمضيق الدرديل ، واذا تحصن كل منهما كما يجب أصبح العبور منهما فى حكم المستحيل تقريباً . ولقد تمكن الأmirال الانكليزى^(١) دو كوفورت من اجتياز الدرديل بفتة ووصل الى الاساتنة ولم يجزأ أن يهاجها وقفل راجعاً ولكن حصون الدرديل لم تكن وقتئذ فى المنعة التى صارت اليها فيما بعد . وقد ظهر أن فرنسة وانكلترة وجهتا فى الحرب العامة الى الدرديل جيوشاً جرارة وأساطيل قاما اجتمعت فى حرب بحرية وانهما بذلنا لاختراق هذا المضيق من الجهود ما ندر مثله فى تاريخ الحروب وانتهى الأمر بأن الجيوش العثمانية دحرتها الى الوراها واضطرتها الى الرجوع والانقلاع أخيب ما كاتتا ، بعد أن فقدنا بين قتيل وجريح وضائع ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل^(٢)

(١) فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٨

(٢) راجع الكتاب المؤلف على حرب الدرديل التابع للسلة وثائق الحرب العامة بالفرنسية)

فالعرب في صدر الاسلام لم تخف عنهم أهمية هذه المواقع ولذلك زحفوا اليها عن أبعاد شاسعة ، وأعملوا في غزوها قوات هائلة . ولما ملك آل عثمان بلاد الأناضول ثم اجتازوا البحر الى الرومى حصروها من البرين ، ولم يزالوا يعملون في استخلاصها لأنفسهم الى أن قبض الله ذلك الفتح العظيم لمحمد الثانى ابن مراد ، وكان من أعظم السلاطين تولى الملك في حداثة سنه في عهد أبيه وأصلى الأعداء المارك الكبرى ، مثل معركة قوصوه التى هزم بها المجر والامم البلقانية ، ثم انه جلس على كرسى السلطنة بعد وفاة أبيه وهو ابن ٢٢ سنة وفتح القسطنطينية العظمى وهو ابن ٢٤ سنة .

قال البارون « كارادوثو » Baron Carra de yaux فى كتابه « مفكرو الاسلام » فى الجزء الاول منه عند ترجمة محمد الفاتح : ان هذا الفتح لم يقبض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسر بمجرد ضعف دولة يزنطية ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له كل ما كان فى عصره من قوة العلم . فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد بالايجاد ، فأعمل فى تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجرباً ركب له مدفعاً كان وزن الكرة التى يرمى بها ٣٠٠ كيلو ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيل انه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل ومعه مدفعية هائلة وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر ١٢٠ سفينة حربية . وهو الذى من قرينته تصور سحبه جانب من الاسطول من البر الى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم ٧٠ سفينة أترظها فى البحر من جهة قاسم باشا . وبعد حصار ٥٠ يوماً هدمت مدافعه أربعة أبراج ، وفتحت ثلثة عظيمة من جهة باب سان رومان وقام السلطان بالقحمة الأخيرة بنفسه وسار على رأس جيشه وبيده قضيب من حديد الى أن دخل قصر امبراطور الروم فأنشد قول الشاعر الفارسى : العنكبوت تنسج خيوطها فى القصر الملوكى والبوم يسمع صدها على أبراج افراسياب ولما دخل كنيسة أياصوفيا لم يسمح بمحو الفسيفساء التى بها صور أشخاص وانما أمر بأن تغطى بالحص الخ «

وازدادات عمارة فروق في زمان آل عثمان ، وأسكن فيها محمد الفاتح أقواماً من أطراف مملكتهم لا سيما من بلاد القرمات ومن الجزر وعلا اليها كثير من الروم الذين كانوا غادروها ، و بعد وفاة الفاتح جاءها اليهود المطرودون من أسبانية ومعهم جماعة من العرب . وما زالت هذه البلدة تنمو وتكبر حتى صارت عاصمة العالم الاسلامي ومن عظميات عواصم العالم كله وبلغ عدد سكانها في هذا العصر مليوناً ومائتي ألف نسمة. الا أنه من المؤسف كون حكومة تركيا الجمهورية الحاضرة قد أهملت هذه البلدة الطيبة التي لا نظير لها اهمالاً زائداً ونقلت مقر الحكم الى أنقرة فرجعت الاستانة القهقري ونزل عدد سكانها من مليون ومائتي ألف الى سبعمائة ألف وقيل الى ستائة ألف وان اهمال الحكومة التركية لمثل الاستانة لمن الأغلاط السياسية التي لا جدال فيها .

ولقد شاد بنو عثمان في الاستانة أو اسطنبول من الجوامع والقصور والأبراج والحصون والمدارس والتكن والمعاهد الخيرية ما يليق بعاصمة فريدة نظيرها ، وأهم ما فيها من المباني الجوامع التي لا توجد في سواها والتي تجد منائرهما العديدة سامقة في الفضاء من كل جانب فتكسب بها اسطنبول منظراً لا يجده ناظر في غيرها لا شرقاً ولا غرباً

ومن أهم هذه الجوامع جامع الفاتح الذي أتم بناءه هو رجه الله سنة ٨٧٥ للهجرة وبنى بجانبه ثمانى مدارس وعنده القبة التي دفن فيها الفاتح ومدافن أخرى لآله يقال ان منها مدفن الاميرة الصربية ماري ابنة جورج برانكوفيه التي كان تزوج بها مراد الثانى وماتت وهي باقية على دينها .

ثم جامع بايزيد بقرب باب السرعسكرية وفيه مدفن السلطان بايزيد بن محمد الفاتح وبعض عائلته .

ثم جامع السليمية بناه السلطان سليم الأول مشرف على محلة الفنار وفيه تربة السلطان المذكور ، وتربة السلطان عبد المجيد ، والد السلاطين مراد وعبد المجيد ومحمد الخامس ومحمد السادس .

ثم جامع الشاهزاده بناء السلطان سليمان سنة ٩٥٥ للهجرة وهندسه المعمار سنان المشهور وفيه مدفن الأمير محمد بن السلطان ومدفن أخيه جهانكبر .

ثم جامع السليمانية ، وهو من أجل وأشيق وأنعم جوامع الدنيا بناء السلطان سليمان القانوني وكان المهندس له المعمار سنان ، واتخبت له أعلى قمة من الجبال التي عليها الاستانة وبنى حوله أربع مدارس وعمارات أخرى وفيه مدفن سليمان الأول القانوني وسليمان الثاني وأحد الثاني . وهذا الجامع فيه من الصنعة الهندسية في بنائه ما لا يوجد في أيصوفيا

ثم جامع السلطان أحمد بناء أحد الأول وهو قريب من أيصوفيا وله ست منائر وفيه مدفن السلطان أحمد الأول وولديه عثمان الثاني ومراد الرابع

ثم جامع « بنى جامع » بقرب الجسر الواصل بين اسطنبول والغلطة وقد بدأت به السلطنة كوسم ثم أكملته السلطنة خديجة والدة محمد الرابع وذلك سنة ١٠٧٤ للهجرة وفي هذا الجامع مدافن السلاطين محمد الرابع ومصطفى الثاني وأحد الثالث وعثمان الثالث . ولا تزدهم الجماعات في مسجد ما تزدهم في هذا الجامع نظراً لقربه للجسر ومركز حركة الخلق .

ثم جامع النور العثماني بدأ ببناءه محمود الأول وأكمله عثمان الثالث .

ثم جامع لاله لي وفيه مدفن سليم الثالث

ثم زيرك جامع وأصله كنيسة حوگه القابع الى جامع .

ثم جامع محمود باشا بقرب النور العثماني بناء أحد الصدور العظام سنة ٨٦٨ للهجرة

ثم جامع مراد باشا بناء أحد وزراء القابع سنة ٨٧٠

ثم جامع وفا بناء بايزيد الثاني سنة ٨٨١ للشيخ مصطفى وفا .

ثم جامع داود باشا على بحر مرمره تاريخ بنائه سنة ٨٩٠

ثم جامع خوجه مصطفى باشا في سماطيه أصله كنيسة يزناطية تحولت جامعاً سنة ٨٩٥

ثم جامع عتيق علي باشا في شميرلي طاش بنى سنة ٩٠٢

ثم جامع مهرماه ابنة السلطان سليمان في أعلى نقطة من المدينة بقرب باب ادرته بنى

سنة ٩٦٥ وهندسه المعمار سنان

ثم جمع رستم باشا عند الخليج بناء رستم باشا الصدر الأعظم في زمن سليمان الاول وهذا الجامع هو من بناء سنان أيضاً وفيه من صنعة الخرف القاشاني نقاش لا توجد في غيره .

ثم جامع الصدر الأعظم « الصوقولى » كمل بناؤه سنة ٩٦٩ .

ثم جامع فتحية أصله كنيسة تحول جامعاً في زمان مراد الثالث سنة ١٥٨٧

ثم جامع جراح باشا كان بناؤه سنة ١٠٠٢ للهجرة .

وفي اسطنبول القديمة نحو من خمسمائة جامع وبديهي أنه غير داخل في هذا العدد الجوامع التي في غلطة وبك اوغلى وبشكطاش ونشان طاش والقرى التي على البوسفور من الجانبين فهناك جوامع أيضاً تخصى بالثلاث . ومنها جوامع في الغاية من الاتقان والبداعة وكلها لها المناظر الرفيعة المستديرة الضاربة في الهواء البالقة الحد في البهاء والتي هي زينة هذه العاصمة . ومن أشهر هذه الجوامع « النصرية » في الطوبخانة وجامع « جهانكير » في « الفندقلی » وجامع « بشكطاش » وجامع « بلديز » وغيرها .

ولنتكلم الآن على جامع أيا صوفيا وهو الدرة الدهماء واليتمة الطائر ذكرها في

العباء فتقول :

ان هذا الجامع لا يزال أعظم جامع في القسطنطينية ، كما أنه كان أعظم وأجل كنيسة في الشرق ، ومن أعظم وأجل كنائس العالم . والأصل في هندسة قبة المشهورة بعظمتها مأخوذ من الهندسة التي كانت معروفة قديماً في العراق أى انها هندسة آسيوية لا أوربية كان أتى بها البتاؤون من العراق الى بلاد الروم وغلبت على كنائسهم ، وعدلوا بعدها عن طرز البناء اليونانى القديم . أما حلية أيا صوفيا الداخلية فهي من الصناعة السورية . فهي اذاً من جميع الوجوه تضرب في بنائها الى عرق آسيوى . ولقد صار طرزها هو المعول عليه في بناء الكنائس الارثوذكسية كلها ولا سيما في الروسية . ولم يحدث في الهندسة طرز يفوقه وجاء في الانسيكلو بيديا الاسلامية ان بعض كنائس الغرب أيضاً مثل كنيسة مار مرقس في

البنديقية مبنية أيضاً على طرز أيا صوفيا . قالت : وان أجل جوامع الأتراك في الروملى — كجوامع أدرنة مثلاً — لا تخرج عن طرز أيا صوفيا الا قليلاً .

وأول من أسس أيا صوفيا هو الامبراطور قسطنس ابن الامبراطور قسطنطين الكبير وذلك سنة ٣٦٠ مسيحية ، وكانت تسمى حينئذ بالكنيسة الكبرى . ثم أصابها جوائح من حريق وزلزال ثم أعيد بناؤها سنة ٤١٥ ثم احترقت في أثناء فتنة احترق بها جانب كبير من المدينة . وعندها قرر الامبراطور يوستينيانوس تجديد بنائها والسجاء عليها بالأموال الطائلة وحشد لها الصناع وجمع مواد البناء من أطراف المملكة لاسيما من انقاض المباحل القديمة التي كان النصرارى قد دمروها بعد تنصر الدولة . واستجداد يوستينيانوس لهنسة الكنيسة مهندسين من أشهر بنائى ذلك العصر وكل عصر وهما « اينتميوس تراليس » و « ايزدوروس ميله » فتوخيا فيها الطريقة التي تقيها الحريق وتأثير الزلازل التي تكثر في القسطنطينية وعقدا لها هذه القبة العجيبة . وتم بناء أيا صوفيا سنة ٥٣٧ واحتفل يوستينينوس بافتتاحها في يوم عظيم أبلغ فيه الأبهة منتهاها وهتف يومئذ : سليمان قد غلبتك . ولم يكن في قوله هذا مبالغا . ثم حصلت زلزلة سقط بها جانب من القبة وذلك في زمن يوستينيانوس نفسه ، فجددوا بناءها ورفعوها نحو ٢٠ قدماً واحتفلوا بافتتاح البناء سنة ٥٦٣ . ويقدر داخل أيا صوفيا بخمسة وسبعين متراً طوالاً وسبعين متراً عرضاً ويقدر علو القبة بستة وخمسين متراً ، ولما كانت الجدران لا تكفى لتوطيد القبة الى الدرجة المطلوبة فقد أرسلوها أيضاً على أساطين أربع مرتبطة بعضها ببعض بأعمدة أصغر منها وبقسى شديدة وعدد أعمدة الكنيسة التي يتوكأ عليها البنيان ١٠٧ أعمدة كلها من ذوات الألوان النادرة والرخام المجزع . وكانت القبة والحيطان مزينة كلها بالفسيفساء المنهبة الآخذة بالأبصار وعلى الحيطان صور عيسى ومريم عليهما السلام والأنبياء والرسل والملائكة وان القلم ليعجز عن اعطاء تلك المناظر حقها من الوصف . وكان القسوس والوقفة^(١) الذين يخدمون في أيا صوفيا لعهد يوستينيانوس ٤٢٥ شخصاً وكان لها مائة بواب . وقيل انه لما فتح الأتراك القسطنطينية كان وقفة أيا صوفيا ٨٠٠ شخص

وسنة ٩٨٩ مسيحية حصل زلزال أضر بقبة أيا صوفيا ثم ترممت . وسنة ١٢٠٤ انتهب

الملائين الصليبيون هذه الكنيسة وجردوها من حلالها وذلك في أثناء مقامهم بالقسطنطينية وأكثرت رميات أيا صوفيا للعهد البيزنطي وقعت في القرن الرابع عشر اذ بنيت حول الكنيسة جدران وأجنحة جديدة لتوطيد الجدران القديمة .

وجاء في الانسيكلو بيرية الاسلامية أن أول مسلم كتب عن أيا صوفيا هو أحمد ابن رست من رجال القرن الثالث للهجرة وذلك في كتابه « كتاب الأعلام النفيسة » وكان يسمى أيا صوفيا بالكنيسة العظمى ويصف كيفية ذهاب امبراطور بيزنطية الى الكنيسة أيام الآحاد والاعياد بذلك الاحتفال العظيم وكيف كان الاسرى المسلون يؤتى بهم الى تلك الحفلة ليهتفوا للملك قائلين : « أطال الله حياة الملك » وذكر هذا الكاتب شيئاً في غاية من الدقة فقال انه يوجد في مدخل الكنيسة الغربي مجلس وأربعة وعشرون باباً صغيراً فكلمها مضت ساعة من الأربع والعشرين ساعة ينفتح باب من هذه الابواب من نفسه ثم ينغلق لنفسه . ولم يذكر هذه النادرة أحد غير أحمد المذكور . ولم نجد بعد ذلك لأحد من مؤلفي الاسلام كتابته عن ايا صوفيا حتى القرن السابع للهجرة فقد جاء لشمس الدين محمد الدمشقي كلام وجيز على أيا صوفيا . ثم جاء ذكر أيا صوفيا في رحلة ابن بطوطة الذي زار الاستانة لكن ابن بطوطة يقول انه لم يدخل الى داخل الكنيسة لأنه كان من العادات المرعية عندهم ان كل من دخل اليها لا بد له من أن يسجد للصليب وهو أتي أن يفعل ذلك .

ولما دخل الاتراك القسطنطينية في ٢٩ مايس ١٤٥٣ التجأ جميع الاهالي الذين لا يحملون السلاح والنساء والأولاد الى أيا صوفيا وهم يعتقدون أنه متى وصل الترك الى عمود قسطنطين الكبير يظهر ملك في السماء فينهزمون نكوصاً على الأعقاب ويعودون من حيث أتوا . ولكن الترك دخلوا الكنيسة وأخذوا جميع تلك الخلائق أسرى . وليس بصحيح ما يزعمه بعضهم من أنهم ذبحوهم . فالترك لم يذبحوا هناك أحداً وما لبثوا أن أطلقوا سبيل أولئك الأسرى . ولما جاء محمد الفاتح رجلاً عن جواده ودخل أيا صوفيا وارتفع صوت الأذان في داخل الكنيسة وسجد السلطان ومن معه للاله الواحد وتحول هيكل قسطنس ويوستينيانوس مسجداً للإسلام .

أما ما أدخله المسلون من التغييرات على أيا صوفيا فهو أنهم غطوا الصور التي كانت على الحيطان والفسيفساء البديعة الباهرة المبثوثة على الجدران والاقبية وذلك بالجلس الذي يمنع

من ظهورها للعيان لما في دين الاسلام من تحريم الصور في أما كن العبادة وكذلك رفعوا الحاجز الذي كان بين القيسيين والاهالي . ولما كانت الكنائس البيزنطية موجهة في بنائها الى القدس وكان المسلمون في صلواتهم يولون وجوههم شطر مكة كان لابد للمسلمين في أياصوفيا من أن ينحرفوا قليلا عن الجهة الشرقية الى الجهة الجنوبية . ولقد دعم المسلمون أياصوفيا بجمدران جديدة فبنى محمد الفاتح دعائم لتقوية الحائط الجنوبي الشرقي من المسجد وبنى أيضاً إحدى المنائر الأربع الموجودة الآن والتي هي من أجل ما يرى في سماء الاستانة ثم بنى سليم الثاني المنارة الثانية وبنى مراد الثالث المنارتين الأخيرتين فتتأمت أربع منائر . وكان لمراد الثالث في أياصوفيا آثار كثيرة فهو الذي جعل عند الباب حوضين يسع كل منهما ١١٥٠ ليتراً من الماء لأجل الوضوء وجعل في الداخل مصطبتين عاليتين يتلى فوق احدهما القرآن طول النهار ويؤذن بالصلاة فوق الأخرى ووضع مراد الثالث محل الصليب الذي بأعلى القبة هلالاً أنفق على ترميمه بالذهب أموالاً طائلة وقطر هذا الهلال خمسون شبراً فهو يرى من مسافات بعيدة.

وقد بنيت الى الجنوب من المسجد قباب لأجل دفن السلاطين أقدمها قبة سليم الثاني وبجانها مدفن ابنه مراد الثالث وحفيده محمد الثالث . وهناك أيضاً مدفن مصطفى الأول ثم ابن أخيه السلطان ابراهيم . ومن اعتنى أشد الاعتناء بأياصوفيا السلطان مراد الرابع فشقاد عضائد كثيرة للجدران وفي أيامه كُتبت على الجدران الداخلية من المسجد الآيات القرآنية بتلك الحروف التي لا يوجد أكبر منها وكلها موهة بالذهب وهي من خط ذلك الخطاط الشهير يشكجي زاده مصطفى شلبي فن هذه الأحرف حرف الالف مثلا طوله عشرة أذرع وهذا عدا بداعة الخط واشتبك حروفه ، وتعليق بعضها على بعض ، مما يدعش الابصار ويتنافس به أدباء الترك ، وقد كتبت أيضاً بهذا الخط نفسه أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة . أما المنبر الذي في أياصوفيا فهو إحدى يتائم الصنعة وهو أيضاً من آثار مراد الرابع . وقد شيّد أحمد الثالث مقصورة لصلاته مرتفعة مشبكة من جهة المسجد . ثم ان السلطان محمود الأول جعل بجانب المسجد سبيلا للماء ومدرسة وذلك الى الجنوب منه وجعل أيضاً خزانة للكاتب هي في نفس الجامع . ومن بعد مراد الرابع فاتح بغداد تأخرت أحوال أياصوفيا بالناظر العام الذي أصاب المملكة وبقيت الحال على ما هي عليه الى أيام السلطان

عبد المجيد الذى سنة ١٨٤٧ عهد الى الاخوان « فوساطى » من البنائين الطليان بترميم مايجب ترميمه من المسجد فلبشوا مدة سنتين يشتغلون ولم يبقوا على الحيطان الا الحص الذى يججب الصور البشرية وجللوا الحيطان المموهة بالذهب والنقوش الساطعة ، وكذلك فى زمان عبد المجيد جرى رفع المنائر الأربع وبالجملة فكان ترميم السلطان المشار اليه لجامع أيا صوفيا من أجل ماآثره .

ولقد تواتت الزلازل على الاستانة المعروفة بكثرة زلازلها ولم يصب أياصوفيا من هذه الاهتزازات الارضية منذ القرن الخامس للمسيح الى الآن اذى يذكر وذلك بفضل الدعائم الكثيرة التى أقامها البيزنطيون سابقاً والأتراك لاحقاً وشدوا بها جدران الجامع صفاً وراء صف . وأجل ما يكون مسجد أياصوفيا فى شهر رمضان اذ تحتشد الألوف من المصلين لصلاة العصر وكذلك الألوف لصلاة التراويح بعد العشاء وأعظم حفلة تقع فيه فى الليلة السابعة والعشرين من رمضان أى ليلة القدر . وكان السلطان عبد المجيد الثانى يأتى الى أياصوفيا فى أواسط رمضان بعد الاحتفال المعروف بزيارة البردة الشريفة فى سراى « طوب قيو » .

وقد كتبت على مسجد أياصوفيا تأليف خاصة به ، منها كتاب ظهر فى زمن الفاتح من تأليف احمد بن احمد الجيلانى مأخوذ منه قسم عن اليونان وقد حرره المؤلف بالفارسى . ثم ترجمه أديب اسمه نعمة الله الى التركى وهذا التأليف تجده فى خزانة أياصوفيا تحت رقم ٣٠٢٥ ، وروى الكاتب شلبى صاحب كشف الظنون أن الفلكى علياً بن محمد الكشجى ألف أيضاً لمهد السلطان الفاتح كتاباً آخر بالفارسى على أياصوفيا لكننا لم نتحققه . ثم انه يوجد فى خزانة كتب برلين تأليف ثالث عهده ٨٨٨ للهجرة فى الموضوع نفسه هو ملحق بتاريخ الدولة العثمانية الا أن اسم المؤلف غير مذكور فيه

ثم هناك مجلد اسمه « تواريخ قسطنطينية » فيه كتابان فى الموضوع وفيه أفاصيص كثيرة تتعلق بالجامع وأسباب بناء هذا المعبد فى الاصل والاموال التى أنفقت عليه . ثم انه موجود تأليف آخر اسمه « تواريخ قسطنطينية وأياصوفيا » لعلى العربى الياس بدأ به سنة ٩٧٠ لمهد السلطان سليمان القانونى . ويقول على العربى الياس ان البناء الذى هندس بناية أياصوفيا يأمر الامبراطور يوستينيانوس كان اسمه اغناطيوس وبالجملة نجد تاريخ هذا الرجل أو فى الكتب بموضوع أياصوفيا وان كان مقصراً عن الوفاء بتحقيقانا المصرية . اهـ

هذا ما نقلناه عن الانسيكو بيديه الاسلاميه بشان اياصوفيا أشهر جامع في القسطنطينية وذلك على وجه الاختصار . وفي الاستانة غير بعيد عن هذا الجامع جامع آخر اسمه اياصوفيا الصغير بناه أيضاً الامبراطور يوستينيانوس باسم القديسين سرجيوس وياخوس . وقد تحول في زمان محمد الفاتح أيضاً الى مسجد .

ثم ان تاريخ اياصوفيا الذي اشارت اليه الانسيكو بيديه من تأليف الجيلاني قد جاء ذكره في كشف الظنون وجاء ذكر التاريخ الآخر للكشجبي قال : « تاريخ اياصوفيا مختصر نقله احمد بن احمد الجيلاني حين الفتح من اليونانية الى الفارسية وأهداه للفاتح . ثم نقله نعمة الله بن احمد من الفارسية الى التركية وللولي الفاضل على بن محمد الكشجبي المتوفى سنة ٨٧٩ تأليف لطيف بالفارسية ألفه للفاتح المرحوم »

وفي القسطنطينية جوامع أخرى كانت كنائس منها « كليس جامع » و « كول جامع » أى جامع الورد وغيرهما . ولا يزال فيها خمسون كنيسة منها كنائس باقية من القرن الثالث عشر .

وأما الجامع المسمى « بسلطان أيوب » في الخليج الذي هو أقدس مكان عند الأتراك فهو الجامع المبني على ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب خالد الانصاري رضى الله عنه . وقد تقدم لنا خبر وفاة أبي أيوب في أثناء حصار القسطنطينية وما أوصى به يزيد بن معاوية من جهة دفنه ، ثم انه لما جاء محمد الفاتح وحصر هذه البلدة الطيبة وفتحها انكشف للولي آق شمس الدين ضريح أبي أيوب ، وشاد الفاتح رحمه الله سنة ٨٦٣ جامعاً عند ضريح الصحابي المجاهد . ثم في سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٥ تجدد بناء هذا الجامع على صورته الاصلية ، وكان من عادة سلاطين آل عثمان أنه عندما يتولى أحدهم السلطنة يذهب الى جامع أبي أيوب المشار اليه ويتقلد فيه السيف باحتفال عظيم ، ويكون تقليد السيف من يد الشليبي شيخ الطريقة المولوية التي مركزها قونية .

هذه هي العادة التي أدركناها عليها الا أنه لما تولى السلطنة السلطان محمد وحيد الدين الملقب بمحمد السادس ابن السلطان عبد المجيد بن محمود وهو الذي أعلنت تركيا الجمهورية

بعد خلعه كان الذى قلده السيف السيد احمد الشريف كبير السادة السنوسية والمجاهد الشهير بهذا العصر.

هذا وبحوار جامع أبى أيوب مقبرة فيها مدافن كثير من أميرات آل عثمان ، وكثير من الوزراء والعلماء والشعراء ورجال الدولة نظراً لكون الناس فى الاستانة يتبركون بهذا المكان المنسوب لصاحب رسول الله ﷺ ويعجبون أن يدفنوا فيه . ومن جملة من دفنوا فيه أحد أعمام محرر هنه السطور وهو العالم الكبير المرحوم الأمير محمد الأمين الارسلانى الذى كان عضواً فى مجلس شورى الدولة وتوفى فى الاستانة شاباً عن ٣١ سنة وذلك سنة ١٢٨٨ هجرية (١)

ومن المدافن الشهيرة فى الاستانة مدافن السلاطين مثل « سلطان محمود تر به سى » فى « ديوان بولى » وفيها دفن السلطان محمود الثانى المتوفى سنة ١٨٣٩ مسيحية وولده السلطان عبد العزيز المتوفى سنة ١٨٧٧ ، وتربة السلطان عبد الحميد الأول المتوفى سنة ١٧٨٩ وهى فى « بفتح قبوسى » وفيها دفن السلطان مصطفى الرابع المتوفى سنة ١٨٠٧ ومن الأمكنة الدينية المشهورة فى الاستانة التكايا ، وهى التى يقال لها الزوايا عند العرب . وهذه كان يبلغ عددها ٢٦٠ تكية فى البلدة وقرى البوسفور أشهرها تكية المولوية فى « بنى كوى » وتكية السنبل فى جوارها ، ثم تكية هذه الطريقة فى « بك أوغلى » وهى من أشهر تكايا تركيا وأقدمها ، بنيت سنة ٨٩٧ للهجرة ثم احترقت منذ مائة وسبع وستين سنة وأعاد بناءها بشكلها الحاضر السلطان سليم الثالث وذلك سنة ١٢١٠ وفيها قبر احمد باشا المهتدى الافرنسى الذى كان اسمه الكونت دوبرنال de Bonneval والذى هو من آل « ليموزين » العائلة العريقة المعروفة بفرنسة من القرن الحادى عشر والتى اشتهر منها عدة من القواد الأبطال ، ومنهم « كلود اسكندر » هذا الذى ولد سنة ١٦٧٥ وتوفى سنة ١٧٤٧ وكان فى الجيش الافرنسى فحرت معه حادثة أوجبت غضبه ففارق فرنسة ودخل فى خدمة أوستريا واشتهر فى محاربة الأتراك ، وبعد مدة من الزمن وقع أسيراً فى أيديهم فى بوسنه ثم أسلم وجعله الأتراك قائداً باسم احمد باشا . ولما مات دفن فى هذه التكية . ومن المدفونين فيها اسماعيل الأتقروى شارح المثنوى

(١) راجع ترجمة الأمير محمد ارسلان عند ذكر الأمراء الارسلانيين فى دائرة المعارف للبستانى

وأما المدارس القديمة التي تعلم فيها العلوم الشرعية والآداب الشرقية فكانت نحو ١٧١ مدرسة أشهرها مدرسة أياصوفيا وفيها ١٥٠ طالباً ومدرسة السلطان احد وفيها ٢٠٠ طالب والسليمانية وفيها ٦٥ طالباً والمحمدية وفيها ٩٠ طالب وكان مجموع طلبة هذه المدارس نحواً من سبعة آلاف



ولما آل الحكم في تركيا بعد الحرب العامة الى مصطفى كمال باشا وانقلب من السلطنة الى الجمهورية والى جمهورية لادينية Laïque أفضت هذه الجمهورية التكايا وألغت الطرق وأغلقت المدارس الدينية والشرعية، ورفعت التعليم الديني من مكاتب الحكومة، وقامت بأعمال وأحداث كثيرة من هذا القبيل مما سيأتى ذكره في محله.

وفي الاستانة مستشفيات ودور لاجانين كانت من القديم تابعة للجوامع ثم جعلتها الحكومة التركية على الطريقة العصرية

أما خزائن الكتب فهي ٤٥ خزانة فيها ٦٤١٦٢ مجلداً كلها كتب اسلامية أكثرها مخطوط بالقلم. وأشهر هذه الخزائن الخزانة التي في سراي السلاطين في طوب قيو. ثم خزانة أياصوفيا. ثم خزانة الفاتح. ثم خزانة النور العثماني. ثم خزانة أسعد افندي. ثم خزانة الكوبريلي. ثم خزانة راغب باشا. ومن الخزائن المعروفة خزانة بايزيد وفيها كان بعض أجزاء كتاب الاكالايل النادر الوجود للهمداني الهاماني. وخزانة عاشر افندي بقرب «بني جامع» وفيها وجدت أنا منذ أربعين سنة رسالة «الدرة اليتيمة» لعبد الله بن المقفع ورسائل أبي اسحق الصابي رئيس كتاب ديوان الخلافة لعهد الطائع العباسي ونسخت هذين المخطوطين بخط يدي وطبعتهما وكانت هذه طبعتهما الأولى. ولقد علمنا أن حكومة تركيا الحاضرة جعلت أكثر هذه الكتب في مكتبة واحدة بدار الفنون. وأما مكتبة السراي فمنها قسم في الخزانة الخاصة بها ومنها قسم في «بغداد كوشك» ويقال ان فيها مخطوطات لاتينية ويونانية ذات قيمة عظيمة. ولقد أتبع لي أن أدخل الى هذه المكتبة والى خزانة التحف السلطانية وأن أرى كثيراً من الكتب النفيسة في أجلادها المذهبة وخطوطها التي تحير العقول، ولا عجب فمن الملوك ولا نسل. وأى الملوك: سلاطين آل عثمان الذين ملكوا نحواً من سبعمائة سنة مملكة من أكبر ممالك العالم. وكذلك الجواهر والدرر اليتيمة التي في خزانة آل عثمان قلما

يوجد مثلها في خزائن الملوك . ولا شك في أنها تقوم بملايين كثيرة من الجنيهاً . وفي أثناء الحرب العامة نقلت الدولة الجواهر التي كانت في « الحرم النبوي بالمدينة » المنورة الى خزنة طوب قبو . وفي السراي من النفائس مالا يحصى ومن جلتها ١٢ ألف قطعة خزف صيني من النادر الأندر الذي صار مثله كالكبريت الأحمر كان المرحوم على الباشا بنه التونسي قد عهد اليه بجمعها وتنظيفها لسعة معرفته بالخزف المذكور وهو الذي قال لي انه لا يظن في الدنيا كلها مجموعة خزف صيني في نقاسة هذه المجموعة لا في الكيفية ولا في الكمية



وأما المخلفات النبوية التي أخذها السلطان سليم العثماني من آخر خلفاء بني العباس عندما فتح مصر ، فلها في سراي طوب قبو كوشك خاص بها وأهمها البردة الشريفة ، التي أعطها الرسول ﷺ كعباً بن زهير عندما أنشدته « بانت سعاد » وهي في سفظ ثمين كان السلطان سليم رتب عندها ١٢ حافظاً يقرأون كتاب الله بالنوابة بحيث لا تنقطع التلاوة لا ليلاً ولا نهاراً . وكان السلاطين يحتفلون بزيارتها في وسط رمضان في يوم مشهود يكون فيه السلطان وأمراء الأسرة المالكة والوزراء والقواد وأعضاء مجلسي الأعيان والنواب وقد حضرت هذه الحفلة مراراً وكان السلطان يجلس على دكة وأمامه الصندوق الذي فيه السخط الذي فيه البردة وهم يقولون لها « خرقة سعادت » . ثم يتقدم الرجال المدعوون للحفلة واحداً بعد واحد بالترتيب بحسب برنامج معلوم فيرقى الواحد منهم درجة الدكة ويصير أمام الصندوق ، وينحني ، ويقبل الصندوق من أعلاه ويكون السلطان قد تناول منديلاً مسح به على وجه الصندوق فيناوله اياه وينصرف سائراً من غير الجهة التي جاء منها . فيرقى غيره وهم جراً الى أن تنتهي هذه المراسم والسكوت التام والخشوع العظيم سائذان عليها بحيث لا يسمع الانسان فيها الا صوت قارئ يتلو القرآن في وسط البهو الذي فيه الحفلة . لعل اخواننا الوهابيين يستهجنون هذه المراسم ولا يرون تقبيل الآثار النبوية أو الأصوات التي فيها مما يستحب شرعاً الا أنه ليس شيء من هذه الأمور منوياً به غير مجرد التذكرة والتبرك وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى .

ثم ان سراي طوب قبو هذه هي في الواقع عبارة عن بلدة كبيرة في طولها وعرضها ومبانيها وحدائقها وميادينها وساحاتها وفيها اكنسك وقصور ومصروح بغاية الأبهة اذا طاف

بها الانسان طول النهار لا يأتي على آخرها . وفيها مساكن حرم السلاطين والغرف الخاصة بكل واحد منهم وبما أدهشني وأنا أطوف فيها اني لم أجد أمرًا بفرقة ولا ببهو ولا بأيوان من هذه القصور الملكية الا رأيت على جدران ذلك المكان آيات قرآنية أو أحاديث نبوية بأجل الخطوط المذهبة . وقد رأيت القصيدة المعروفة بالبردة الشريفة منقوشة بأحرف كبيرة موهبة بالذهب من أولها الى آخرها في ايوان واحد . ومن شاء أن يزور هذا المكان لم يكن له بد من أن يطوف به بمعرفة دليل يعرفه تاريخ كل محل ونسبته ووقت بنائه ومن كان من السلاطين يسكن في هذا القصر وأية حادثة وقعت في تلك الساحة وأي اجتماع جرى في ذلك البهو الى غير ذلك . وقد كان دليلا يوم طفنا في سراي طوب قبو المؤرخ العليم بالخطاط احمد رفيق بك المشهور الذي كان يشرح لنا كل ما يتعلق بكل محل من الوقائع فشهدنا بواسطته التاريخ مجسماً .

وللسلاطين العثمانيين ، عدا سراي طوب قبو ، سرايات كثيرة متناهية في الفخامة ، منها سراي « طوليه بئجه » التي كان يسكن فيها المرحوم السلطان محمد رشاد ، وفيها البهو الكبير العديم النظير الذي تجرى فيه مراسم الأعياد وتستقبل به الملوك . ومنها سراي « جراغان » وقد احترق جانب منها . ومنها سراي « يلديز » التي كان يسكنها السلطان عبد الحميد الثاني وهي على رابية من أبداع روابي الاستانة ولها حديقة واصله الى البحر . وكان يصيف فيها السلطان رشاد أيضا . وقد وقعت لنا مقابلة السلطان رشاد مرتين في سراي يلديز ومرة في سراي طوليه بئجه هذا عدا المقابلات الرسمية . ومن السرايات الفخمة في الاستانة سراي « بكر بك » في الشاطي الاسيوي من البوسفور وهي التي مات فيها السلطان عبد الحميد الثاني بعد خلعه . ومنها كوشك « كوك صو » وغير ذلك من السرايات والقصور والصروح والمقاصف التي تدهش كل من رآها وفي الاستانة نكبت عسكرية كثيرة لانكاد نحصى الا أن أعظمها السكنة السليمية في اسكدار يقال انها من أعظم نكبت الدنيا .

وفيها « الطوبخان » وهي معمل المدافع والأسلحة وأول من أسس الطوبخان محمد الفاتح ثم زاد فيها سليمان القانوني . وما زالت السلاطين تهتم بها وتزيد فيها . وسنة ١٩١٢ زرتها بنفسي وتفقدت أعمالها وكان مديرها رجل اسمه ناظم باشا فعلت منه انها تصنع في كل اسبوع عشرة مدافع و ١٢٠ بندقية ومقداراً من العلف للبنادق ومن القنابر للدافع ،

ولكن ذلك لم يكن شيئاً بالنسبة الى احتياجات السلطنة فلذلك كانت الدولة العلية توصي على مدافعها وبنادقها في معامل ألمانيا . وقد علمت ان الدولة قد كانت أوسعها في أثناء الحرب العامة وأدخلت فيها زيادات كثيرة .

وفي الخليج « الترسانة » وهي محرفة عن « دار الصنعة » وكان العرب يسمون كل مكان تبنى فيه المراكب البحرية بدار الصنعة فأخذ هذه الكلمة الافرنج وحرّفوها وقالوا « ارسنال » وأخذها الترك وحرّفوها وقالوا « ترسانة » وقد كان مؤسس الترسانة في اسطنبول السلطان سليم الأول سنة ٩٢٢ (١٥١٦) ثم زاد فيها القانوني ثم زاد فيها حسن باشا الجزائري في زمن عبد الحميد الأول ثم زاد فيها حسين باشا في زمن سليم الثالث . وهناك دار نظارة البحرية العثمانية . وأما الآن فقد جعلت حكومة أنقرة دار الصنعة في خليج ازמיד .

وفي الاستانة مكاتب ودور علم كثيرة أشهرها دار الفنون في اسطنبول ومكتب « غلطة سراي » في بك اوغلي ، والمكتب العسكري في « شيشلي » ومكتب البحرية في جزيرة « خلقي » في بحر مرمره . وكلها قد نبغ منها الألوّف من رجال العلم والأدب والسيف والقلم .

وفي الاستانة أسواق عظيمة شهيرة لا توجد في حاضرة شرقية غيرها . منها السوق الكبيرة التي بدأها محمد الفاتح وسوق مصر التي بناها سليمان القانوني وغيرها . وكذلك فيها خانات شهيرة مثل خان « والده سلطان » و « بيوك نبي جامع » وفيه ٣٥٠ غرفة و « سنبللي خان » و خان محمود باشا وغيرها ، ويقدر عددها فيها من الخانات بمائتين .

ثم ان القسطنطينية من قديم الزمان كانت في حاجة لياه نظراً لوفرة سكانها وضخامة عمراتها . فقيصرة الروم كانوا جلبوا لها المياه من الخارج على الحنايا والقناطر العظيمة أو لهم الأمبراطور هادريان ثم فالنس . ولما جاء المسلمون ازداد احتياج الأهالي الى الماء كما هو بديهي جُرباً اليها الفاتح ميهاً جديدةً ثم جُرب لها القانوني بواسطة مهندس سنان خسة ينابيع عقد لها خسة مجار فوق القناطر وجعها في حوض كبير . وبنى عثمان الثاني حوض برغوس سنة ١٦٢٠ وبنى أحمد الثالث السد — والأتراك يقولون بند — الذي في الوادي المسمى بغابة بلغراد . وسنة ١٧٣٢ بنى محمود الأول سد « بغنجه كوي » الذي منه مياه بك اوغلي وغلطه والطوبخانه . وفي طرف بك اوغلي الى جهة شيشلي محل يقال له « تقسيم »

منه تقسيم المياه التي جرها محمود الأول .

وفي الاستانة حياص مياه قديمة من عهد الروم دثر أكثرها واعتيظ منها بالعيون التي هي من أجل ملأته العيون والسبل المبنية بالمرمر البالغة الحد في بداعة الصنعة مثل سبيل السلطان أحد الثالث الذي بقرب « باب همايون » الذي تاريخه سنة ١١٤١ .
ويقدر عدد حمامات الاستانة بنحو من ١٥٠ حماماً عدا حمامات القرى الملحقة بالاستانة .

هذا وكان العرب يقولون للقسطنطينية « فروق » كصبور وقد وردت كذلك في معاجم اللغة وكأنهم أخذوها من قوله تعالى (وَإِذْ قَرَّبْنَا بَبِكُمْ الْبُحَيْرَ) أى فلقناه فان البحر يفرقها بين آسية وأوربة بمضيق البوسفور ثم يفرق القسم الاوربي منها بالخليج المسمى بقرن الذهب الذي فيه دار الصنعة أو الترسانة وفي آخره قبر خالد الانصارى رضى الله عنه .

وهذا الخليج يفرق بين القسم المسمى باسطنبول الأصلية وغلطه . وكانت غلطة من أيام الروم مسكن الجنوية وأصناف اللاتين . ولما فتح الترك الاستانة انتقل كثير من الروم والأرمن إليها ، ثم لما بنيت الطوبخانة وهي من قسم الغلطة جاءها كثير من المسلمين وهكذا تحولت كنيسة ماربولس جامعاً منذ سنة ١٥٢٥ وقيل ١٥٣٥ وهي المسجد الذي يقال له اليوم « عرب جامع » ويقول بعضهم انه كان جامعاً في أثناء حصار العرب للقسطنطينية . وتحولت كنيسة مارا فرنسيس الى جامع سنة ١٦٩٧ وهو المسجد المسمى بجامع الوالدة . وللأتراك ١٤ جامعاً في غلطة منها أربعة كانت كنائس .

ولقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان هذه العاصمة الشهيرة وقال انها دار ملك الروم ، وان الحكايات عن عظمها وحسنها كثيرة ولكن ياقوت لم يعطها حقها وربما كتب في وصف بلدة لا تبلغ مقدار حارة من حارات القسطنطينية أكثر مما كتب عن القسطنطينية ، ولعله تجنّب الأطناب في شأنها خشية أن ينسب اليه التعصب للرومية لأنه روى وخشى أن يقال انه لا يزال فيه عرق من الرومية ينزع اليه . وقد روى ياقوت ثلاثة أبيات جاء فيها ذكر القسطنطينية قال انها لأبي العيال الهزلى روى ابن عم له قتل في القسطنطينية وهي هذه :

ذكرت أخى فعاودنى رُداع القلب والوصب
أبو الأضياف والأيتام ساعة لا بعدت أب
أقام لدى مدينة آ ل قسطنطين وانقلبوا

قال ياقوت وهى اليوم بيد الأفرنج غلبوا عليها الروم وكان ياقوت حيا فى أوائل القرن السابع للهجرة . ولنختم كلامنا على القسطنطينية بذكر قضية ينبى أن تعرف فى العالم الاسلامى وهى انه لما تقررت فى معاهدة لوزان المتعقدة بين تركيا ودول الحلفاء سنة ١٩٢٣ مباداة السكان بين تركيا واليونان بحيث يخرج المسلمون الذين فى بلاد الروم الى تركيا ويخرج الأروام الذين فى تركيا الى بلاد اليونان ، وجرت المباداة بالفعل استثنى من ذلك الأروام الذين فى القسطنطينية وهم يناهزون مئتى الف نسمة واستثنى بمقابلتهم المسلمون الذين فى تراقيا الغربية لأن الدول الأوربية واليونان أبتنّ اخلاء القسطنطينية من المسيحيين فابت تركيا أن تجعل ذلك بدون عوض ولما كان مسلمو تراقيا يعز عليهم فراق وطنهم جعلوا هؤلاء فى مقابلة هؤلاء .

فهذا ما اكتفينا به من أخبار هذه البلدة الطيبة أدامها الله دار اسلام . ولقد رجعت الحكومة التركية الآن تطلق عليها اسمها القديم استامبول وأعانت انها لاتقبل المكاتبات التى ترد عليها تحت اسم القسطنطينية Constantinople وأوجبت أن يكتب استامبول Stamboul وذلك لأن الأتراك يرون فى اسم القسطنطينية تذكراً لملك الروم فيها ويرون اسم استامبول هو الاسم الذى يطلقه الأتراك عليها . وحقيقة الحال ان اسم استامبول كان معروفاً للقسطنطينية من عهد الروم وقد نقل ياقوت الحموى عن ابن خرداذبة انه يقال لها اسطنبول ومن المعلوم ان ابن خرداذبة عاش فى أوائل القرن الثالث للهجرة وكان فى أيام الخليفة المعتمد العباسى ويقال انه كتب كتابه المسالك والممالك فى نواحى سنة ٢٣٢ . اذاً يكون اسم استامبول أو اسطنبول قديماً ومن العجيب أن ينفر الأتراك الأنفريون من اسم القسطنطينية بحجة انه اسم غربى وهم يحبون أن يقلدوا الأوربيين فى كل شىء وقد أخذوا يكتبون اللغة التركية بالحروف اللاتينية وأدخلوا فيها كلمات لاتخصى من اللغات الأوربية وهذه الكلمات ليست من الأعلام بل من الكلمات المعتادة التى كان يمكنهم الاستغناء عنها لوجود ألفاظها فى العربية فآسروا الألفاظ الأوربية على الألفاظ العربية حبا بالتفريغ لا غير،

فكيف نوا هذا كله ورجعوا يحاولون اثبات تركيتهم في احياء لفظة واحدة هي لفظة « استانبول » أو اسطنبول . ان هذا المنطق الانقرى لعجيب

هذا ولما كانت ألسن البنيان هي أدل الدلائل على هم الملوك فلا شئ أدل على علو هم السلاطين العثمانيين من هذه الجوامع العظيمة التي شادوها في اسطنبول آيات باهرة للناظرين وآثاراً خالدة في الأولين والآخرين .

فهذه الجوامع عدا فأندتها المعنوية من جهة الصلاة التي هي عمود الدين وكونها مجعاً للالوف وعشرات الالوف من جماعات المصلين هي أيضاً الملاجئ الوحيدة في الاستانة عند نزول التوازل سواء كانت من حريق أو زلزال أو حرب أو آفة سماوية أخرى . ومن المعلوم ان القسطنطية في القديم والحديث عرضة للزلازل ولا تزال الزلازل تختلف اليها ، ولذلك اعتمد أهلها على البناء بالخشب لأن خطر الأبنية الخشبية في الزلازل أقل جداً من خطر الأبنية الحجرية . ولكنهم بهذا الأمر تعرضوا لخطر آخر هو الحريق الذي لا تحلوا منه الاستانة ليله واحدة . وكثيراً ماحدث من الحرائق ما أفنى قسماً كبيراً من تلك العاصمة ، ومرة احترق ثلث الاستانة في حريق واحد . وفي أيامنا هذه جرت حرائق كان يبقى بعدها مائة الف نسمة أو يزيدون بدون مأوى . فعند ماتحصل حرائق كهذه لم يكن للاهالي الباقين بدون مأوى وهم ألوف أو عشرات الألوف ملجأ الا الجوامع والمدارس التي حو لها فانها مبنية كلها بالحجر الأصم المنحوت بناء هو المثل البعيد في الاحكام بحيث مضت عليها القرون ولم تتأثر لا بقديم ولا بزلزال ولا بحريق فتجدها كالقلاع بل أشد متانة ، ولولا هذه الجوامع وهذه المدارس لكان مصير أمهات البيوت المحترقة لاسيما في فصل الشتاء من أجمع ما يتصوره العقل فان بيوت الافراد لتعجز عن استيعاب خمسين ألفاً ومائة ألف من النسمات الباقية بدون مأوى . وكذلك في أثناء الحروب كان يهاجر المسلمون الذين في ثغور المملكة الى الاستانة بعيالهم وهم ألوف مؤلفة فتضيق عليهم الارض بما رحبت ولا يسعهم غير هذه الجوامع . ولقد شهدت أنا بنفسى هذا الأمر في أثناء الحرب البلقانية فقد كانت مصر أرسلت بعثة للهلل الاحمر المصرى لأجل مداواة الجرحى العثمانيين على رأسها المرحوم محمد باشا الشريبي وكامل باشا جلال ، وجاءنى أنا أيضاً من الأمير محمد على توفيق رئيس الهلال الاحمر المصرى تفويض بان أكون من المراقبين على أعمال تلك البعثة في الاستانة .

وفي ذلك الوقت تقدمت عساكر الدول البلقانية واخترقت حدود تركيا فاجفل الاهالى المسلمون من أمامها والتجأوا من كل صوب الى الاستانة لايلون على شئ ولم يكن فى أيديهم شئ تقريباً فدخل الاستانة نحو من مائة وثلاثين ألف نسمة مسلحة من الرومى فأزنانهم الحكومة فى هذه الجوامع التى لولاهالكان خطيبهم لايوصف ولكن كانت الحكومة أو انشد باحتياجها لمثونة جيوشها عاجزة عن اعاشة هؤلاء المهاجرين القادمين بغثة وليس بأيديهم شئ يسد أرقامهم . فعند ذلك توات برقياتى الى الامير محمد على توفيق رئيس الهلال الاحمر المصرى والى الامير عمر طوسون رئيس لجنة اعانة الدولة بمصر والذى نجده على رأس كل مأثرة فى خدمة الاسلام ، فى الحال أرسلوا مبلغ وافر من المال وأمكنا أن نوزع على هؤلاء البؤساء اعانت أصاب النفس الواحدة منها ثلاثة ريات مجيدية فكانت العائلة المؤلفة من عشرة أنفس تقبض ثلاثين رياتا مجيدية ، وكانت بعثة الهلال الاحمر المصرى بالاشتراك مع لجنة من قبل امانة البلدة توزع هذه الأموال على المهاجرين بموجب قوائم كانت تعد من قبل بعددهم وبأسمائهم ، ومن حيث انى كنت دائماً حاضراً تلك التوزيعات أمكننى أن أشاهد أكثر تلك الجوامع وتلك المدارس التى كانت هذه الألوف المؤلفة من المهاجرين قد أنزلت بها وعلمت أى غناء تغنيه هذه المباني الخالدة وتاملت فى فضل أولئك السلاطين الذين لولم يؤثروا فى الأرض الا هذه الآثار العظيمة وحدها لكفاهم ذلك نفراً فى هذه الدنيا وأجرأ فى الآخرة . فكيف وقد ضموا الى هذه الآثار الباهرة تلك الفتوحات التى انصت الزمان بذكرها وارتعدت لها الدول الاوربية بأجمعها وعاش الاسلام زمناً مديداً آمناً فى ظلها فلا ينكر فضائل هذه الاسرة الا المكابر الجاحد الذى يحاول أن يستر نور الشمس بيده ولكن التاريخ شاهد خالد أمين لا يكذب أهله .

التسامح والتعصب بين الاسلام وأوربة

على ذكر المؤلف بلوغ الترك أسوار فينا سنة ١٦٨٣

المؤلف

مازلنا نؤكد أن الأوربيين في عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أهل من الترك تعصباً ولا جفاء وأن تاريخهم في الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس من ذبح ٧٠ ألف مسلم في المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل الى صدورها في الدماء ومن استنصلم شأفة المسلمين من الأندلس ، وصقلية وجنوبي فرنسا وسردانية ؛ مع أنهم كانوا يحصون في هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة ما نقول ، فقد عني الأوربيون كل أثر للاسلام في أوربا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد ، حال كون الترك الذين يقال انهم برابرة بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون في أوقات عديدة أن يتصلوهم أو ان يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب . وقد يقال ان الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الاسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الاكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية وقالوا ان السلطان سليمان القانوني كان فكر في سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم في الممالك العثمانية ، وأحب اخرجهم ، وقيل بل السلطان سليم ؛ وكان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الاسلام ويقول : ليس لنا عليهم الا الجزية . والجواب قد يكون ذلك ويثبت ان الاسلام هو الذي هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم ، فلماذا يابئ شعري لم يهذب الانجيل الشريف أقوام أوربا ولم يمنع البابا اسكندر السادس وأساقفة الكنيسة في اسبانية ، والملك فرديناند ، والملكة ايزابلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكنيسة من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع في العرب واليهود ممن بقي على دياره سراً الى أن جلاهم باجمعهم عن ذلك القطر الذي اوطنه العرب

رهاء ٨٢٠ سنة ، مع أن الانجيل كما لا يخفى لا يميز شيئاً من هذه الأفعال بل يوصي الناس بحب الأعداء فكيف تتألف مع شريعة الانجيل التي هذا مبلغ وداعتها وتسامحها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم

لا نريد أن نفزوا الى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأوربيين انصافاً وتحريماً ، ولكن ثمة أمور لا يزال الأوربي مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلاً عنها أو هو لما يعتقد من علو قومه وكونهم مجبولين من طينة هي غير طينة الآخرين ، لا يقدر أن ينظر الى عيوب قومه وآثام بني جلدته بالعين التي يرى بها عورات غيرهم من الأقوم . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة في موضوع التسامح وعدمه ، فكنا نراهم يعتقدون أنه لا يوجد في الدنيا أقل تسامحاً وسجاجة من أهل الشرق فإذا ذكرناهم بما فعلوه بعرب الاندلس قالوا : ذلك شيء آخر . والى الآن لا نفهم لماذا هو شيء آخر . وبعضهم يقول هذه حوادث جرت في القرون الوسطى . فإذا سلمنا بكونها جرت في القرون الوسطى فإذا يقولون في المورقات والفظائع التي جرت من الجنس الأبيض الاوربي في هذا العصر نفسه سواء في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين مما فعلوه في مستعمراتهم بأفريقية الوسطى وشمال أفريقيا والكونغو والسودان المصري وبما فعلوه في الهند وغيرها من آسية ، بل بما وقع بمعرفة منهم في الرومى أثناء الحرب البلقانية بل بما أوقعه بعضهم ببعض في الحرب العامة هذا كله لم يقع في القرون الوسطى ، ولا في الجاهلية الاوربية ، بل جرى في عصر النور وبحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الاوربي . نعم لا نفهم كيف اذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشاً وبربرية وتمتلى الصحف بألفاظ القسوة واللوحشية والهجسية ، وتقوم القيامة ، فاذا ذبح البلقانيون مسلمي الرومى واستباحوا حرمهم ، أو الأروام مسلمي غربي الاناضول ، لم نجد شيئاً من تلك القيامة ولا هاتيك النعرة وان عبر عنها بشيء قبل انها حوادث مؤسفة أو ماجريات لا تخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتداءآت سبقتة ويحتهد كل الاجتهاد في تغطيتها وجر ذبول النسيان عليها. هذا الذي نعترض عليه وقلنا نجد عليه جواباً سديداً ولكن ليس صاحب هذا الكتاب بالذي يتعمد تسمية الحقائق

الفرق بين الخلافة والملك

— * —

هدى الخلفاء الراشدين

— * —

سيره عمر بن الخطاب

على ذكر المؤلف الخلافة الراشدية والنورى الاسلامية

لعمير شكيب

الخلافة فى الاسلام ليست ملك ولا سلطنة ، وانما هى رعاية عامة للامة لاقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضيف فى الداخل ، وصيانة الاسلام ودفعة المعتدى عليه من الخارج . وهى لا تنعقد الا بارادة الأمة. والسلطان الذى يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لا سلطان له عليها الا منها . وقد فهم لوثروب ستودارد هذا الباب حق الفهم وعرف الخلافة التعريف الصحيح بخلاف كثير من الاوربيين الذين يتبجحون بزعمهم أن مبدأ كون السلطان القومى من الأمة انما هو من الأوضاع القربية الاوربية قاتلهم الله ما أجهلهم بتاريخ الشرائع ، وما أجراهم على الخلط . ومن أغرب الامور أن كثيراً من الشرقيين ومن المسلمين أنفسهم يتابعون الافرنج فى هذا الوهم ولا يعلمون قاعدة الاسلام فى هذا الموضوع . ولو تأملوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، وهو أشد صور الحكم الاسلامى انطباقاً على الشرع ، لرأوه أمراً شعبياً محضاً وديموقراطياً بحتاً وأبعد شئ عن السلطان المطلق والقرآن صريح فى قوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » وقوله « وأمرهم شورى بينهم »

نعم ان الخلفاء الراشدين لم يقع انتخابهم الى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات ولم يكن العرب لذلك العهد بسذاجة البداوة يعرفون هذا الضرب من الحكم ولكنه لا جدال في أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الاوربيين ولم تكن له مزية شخصية على سائر الامة وكان اذا أخطأ يقيد من نفسه . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة بل كانوا يلقونها عن ظهورهم القاء من يريد الخلاص من تبعها فاذا كان الانسان يريد أن يعرف ثمار شجرة الاسلام فليتأمل في سيرة الخلفاء الراشدين فانها المرآة الحقيقية لروح الاسلام . ويناسب أن نذكر هنا بعض الآثار الواردة فيما كان الخلفاء الراشدون يفهمون من هذا الامر . جاء في الطبقات الكبرى لمحمد ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثني قيس بن الربيع ، عن عطاء بن السائب عن زاذان عن سلمان أن عمر قال له : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : ان أنت جيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر . ثم قال أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثني عبد الله بن الحارث ، عن أبيه ، عن سفيان بن أبي العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك ؟ فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم ، قال قائل : يا أمير المؤمنين ان بينهما فرقا ، قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ الا حقا ولا يضعه الا في حق فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يصف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا . فسكت عمر . ولما بويع أبو بكر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فاني وليت هذا الأمر وأنا له كلره والله لو ددت أن بعضكم كفانيه ، ألا وانكم ان كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله ﷺ لم أقم به . كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحي وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فراعوني فاذا رأيتموني استقمتم فاتبعوني وان رأيتموني زغت فقوموني » وكان عمر فيما روى قد خطب الناس وقال لهم : « من رأى في اعوجاجاً فليقومه » فقام واحد من سمعوه من الجمع وقال له : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسوفنا . فقال عمر : « الحمد لله الذي جعل في هذه الامة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » . ولما بويع أبو بكر كان منزله بالسُّنْح في ضواحي المدينة فأقام هناك بعد ما بويع له ستة أشهر أحياناً يذو على رجله الى المدينة ويركب أحياناً

فرسا له وبقى زمنا بعد الخلافة يغدو الى السوق فيبيع ويتاع بنفسه وكان قبل الخلافة يحلب أغناماً لجيرانه فلما بويع له بها قالت جارية من الحمي: الآن لا تحلب لنا متاع دارنا . فسمعها أبو بكر رضى الله عنه فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم واني لأرجو أن لا يغيرنى مادخلت فيه عن خلقى كنتُ عليه ، فكان يحلب لهم فربما قال للجارية : يا جارية أتحيين أن أرغى لك أو أصرح . فربما قالت أرغى وربما قالت صرّح . فأى ذلك قالت فعل . فكث كذلك بالسُّنْح ستة أشهر ثم نزل الى المدينة فأقام بها ونظر فى أمره فقال : لا والله ما يصلح أمرَ الناس التجارةُ وما يصلح لهم الى التفرغ والنظر فى شأنهم واستنق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم وكان الذى فرضوا له كل سنة ستة آلاف درهم فلما حضرته الوفاة قال : زدوا ما عندنا من مال المسلمين فانى لا أصيب من هذا المال شيئاً وان أرضى التى بمكان كذا للمسلمين بما أصبتُ من أموالهم ، فدفع ذلك الى عُمَرَ وأقروح وعبد صيقل وقטיפفة فقال عمر لقد أنعبَ من بعده .

يمثل هذه العفة ويمثل هذه الطهارة ويمثل هذه البساطة فى المعيشة تولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قيادة الأمة العربية لأول ظهورها بالاسلام وظهور الاسلام بها . وسار على أثره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان آية الله الكبرى فى العدل والزهد والاعلاظ فى الحق والشدة على الأقوياء والرافة بالضعفاء وبأخلاقه هذه اتسق للاسلام ما اتسق من الفتوحات كما أنه بنبات أبى بكر عجزت الردة أن تجرى مجراها فى العرب . وكان عمر من سداجة العيش بالمقام الذى لا يصلح اليه أحد . سئل عمر عما يستحله لنفسه من بيت مال المسلمين فقال : يحل لى حلتان حلة فى الشتاء وحلا فى القبط وما أحجّ عليه . وأعتمر من الظهر وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغنهم ولا بأفقرهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم . وقال عمر مرة : انى أنزلت نفسى من مال الله منزلة مال اليتيم ان استغنيت استعفت وان افتقرت أكلت بالمعروف .

وورد فى الآثار أن عمر مكث زماناً وهو فى الخلافة لا يأكل من المال شيئاً حتى دخلت عليه فى ذلك خصاصة وأرسل الى أصحاب رسول الله فاستشارهم فقال قد شغلت نفسى فى هذا الأمر فما يصلح لى منه فقال عثمان بن عفان : كلْ وأطعمْ . وقال مثل ذلك سعيد

ابن زيد . فقال عمر لعلّي : فا تقول أنت في ذلك . قال ، غداء وعشاء . فأخذ عمر بذلك . وجاء في طبقات ابن سعد أن عمر كان يقوت نفسه وأهله ويكتسى الخلة في الصيف ولربما خرق الأزار حتى يرقعه فما يبدل مكانه حتى يأتي الأبان وما من عام يكثر فيه المال إلا كانت كسوته فيه أدنى منها في العام الذي قبله . فكلّمته في ذلك حفصة ابنته فقال لها : انما أكتسى من مال المسلمين . وقالوا ان عمر كان يستنفق كل يوم له ولعاليه درهمين فقط ، ثم ان عمر حج البيت فأنفق في حجته ستة عشر ديناراً فقال لابنه عبد الله : يا عبد الله ابن عمر أسرفنا في هذا المال ، وكان الدينار باثني عشر درهماً ، ومن الروايات عن زهد عمر أن أبا موسى الأشعري أهدى لعائلة عمر طنفسة نحو ذراع وشبر فدخل عمر الى البيت فقال : أتى لكم هذا فقالت امرأته : أهداها لنا أبو موسى الأشعري . فأخذها عمر فضرب بها رأسها ثم قال عليّ بأبي موسى الأشعري وأنعموه . فأتى به قد أتعب وهو يقول : لا تعجل عليّ يا أمير المؤمنين . فقال عمر : ما يحملك على أن تهدي لنسائي . ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه فقال : خذها فلا حاجة لنا فيها

ومن أخبار عمر في زهده وتشفه انه لما كان عام الرمادة ، وهو عام المجاعة ، ركب دابة فرانت شعيراً فأراها عمر فقال : المسلمون يموتون هزلاً وهذه الدابة تأكل الشعير لا والله لا أركبها حتى يحجي الناس ، وتواترت الروايات على انه ما أكل سمناً ولا زيتاً ولا ذاق لحماً حتى انتهت المجاعة . وروى أنس بن مالك انه حرّم على نفسه السمن عام الرمادة وكان يأكل الزيت وانه تفرق بطن عمر يوماً فنقر بطنه بأصبعه وقال : تفرق انه ليس لك عندنا غير هذا حتى يحجي الناس . وكان في أثناء المجاعة يختلف الى بيوت الفقراء ويحمل لهم الطعام على ظهره ، وجاء حديث عن عياض بن خليفة قال : رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون ولقد كان أبيض فنقول ميمٌ ذا ؟ فقالوا انه كان يأكل السمن واللبن فلما أمحل الناس حرّم ذلك على نفسه فأكل بالزيت وأجبع نفسه كثيراً فتغير لونه . وقالوا يومئذ انه لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت همماً بأمر المسلمين . ونظر عمر عام الرمادة الى بطيخة في يد بعض ولده فقال بئح بئح يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وامة محمد هزلي فخرج الصبي هارباً وبكى . فسأل عمر كيف حصل الولد على هذه البطيخة فعمل انه

اشتراها بكفة من نوسى . وكان عمر يُطعم عام الرمادة (فى المدينة) بضعة آلاف كل يوم على سفرتة ، ويرسل القوات الى المحاويع الذين لا يقدرّون أن يأتوا اليه والى المرضى والصبيان ، وكان عدد هؤلاء نحواً من أربعين ألفاً .

وأخباره فى الزهد والتشف كثيرة متواترة فمن شاء استقصاها فعليه بكتب السير . وقيل انه دخل مرة على رجل فاستسقاها وهو عطشان فأناه بعسل فقال ماهذا فقال : عسل فأبى أن يشربه وقال لا يكون فيما أحاسب به يوم القيامة . وحدثت يسار بن تميم قال : ماتخت لعمر الدقيق قط الا وأنا له عاص ، وحدثت السائب بن يزيد قال : رأيت على عمر ابن الخطاب ازاراً فى زمن الرمادة فيه ست عشرة رقعة . وقال أنس بن مالك : رأيت عمر ابن الخطاب وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رقع بين كتفيه برقع ثلاث لبدّ بعضها فوق بعض . وحدثت على بن زيد عن أبى عثمان النهدي قال : رأيت ازار عمر قد رقعته بقطعة من أدم . وأبطأ عمر جمعة بالصلاة فخرج فلما ان سعد المنبر اعتنر الى الناس فقال انما حبسنى قيصى هذا لم يكن لى قيص غيره ، كان يحاطله قيص سُنبلانى لا يجاوز كفه رُنع كفيه . وحدثت عامر بن عبيدة الباهلى قال : سألت أنساً عن الخز قال : وددت ان الله لم يخلقه وما أحد من أصحاب النبي ﷺ الا وقد لبسه ما خلا عمر وابن عمر . وحقيقة الحال ان مشرب عمر هذا فى التشف والتفتير على نفسه انما كان مشرباً خاصاً يحمله عليه شدة الورع ونصوره ، وهو أمير المؤمنين ، ان فى أمته أناسا كثيرين يعيشون فى شظف فكان يأبى أن يكون فى رعيته من يجوع وهو يشبع ومن يأزر بالادم وهو يلبس الخز . والا فان عمر رضى الله عنه لم يكن يجهل ان الله تعالى قد أحل الطبيبات من الرزق وانه لو حل نفسه على الرفاهية بدون اسراف لجاز له شرعاً .

وما ذكرنا هذه التنف من أخبار زهد عمر وشظف معيشته وخشونة مأكله وملبسه وتورعه الزائد فيما يستحقه من بيت مال المسلمين الا لتظهر ما بين الخلافة والملك من الفرق وثبت ان الخلافة فى الاسلام انما هى رعاية لا بد منها لحفظ المجتمع وليس للرأى فيها أدنى مزية على الرعية فى شىء عائد الى شخصه . وقد كان الخلفاء الراشدون بما تلقوه من تربية النبي ﷺ لم يفهمون حق هذه الرعاية ويعلمون أنهم انما هم خدّمة للامة ومستولون

عن الدقيق والجليل من أمرها . وكان عمر يقول لومات جبل ضياعاً على شط الفرات
لخشيت أن يسألني الله عنه ، وكان يقول : « أياً عامل لي ظلم أحداً فبلغتني مظلمته فلم أعبرها
فأنا ظلمته » . وكان يقول : « الرعية مؤدية الى الامام ما أدى الامام الى الله فاذا راع الامام
رنعوا » . وخرج عمر بن الخطاب الى مكة فاضرب فسطاطاً حتى رجع لأنه كان يستظل
بالنطع . وقال عامر بن ربيعة : صحبت عمر بن الخطاب من المدينة الى مكة في الحج ثم رجعنا
فاضرب فسطاطاً ولا كان له بناء يستظل به انما كان يلقي نطعا أو كساء على شجرة
فيستظل تحته ، وحدث الربيع بن زياد الحارثي قال : شكا عمر طعاماً غليظاً أكله فقال
الربيع : يا أمير المؤمنين ان أحق الناس بطعام لين ، ومركب لين ، وملبس لين لأنت .
فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال : أما والله ما أراك أردت بها الله وما أردت بها
الامقاربي هل تدري مامنلي ومثل هؤلاء ؟ قال : وما مثلك ومثلهم . قال : « مثل قوم
سافروا فدفعوا نفقاتهم الى رجل منهم فقالوا له : أنفق علينا . فهل يحل له أن يستأثر منها
بشيء » قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : « فكذلك مني ومثلهم » . ثم قال عمر : « اني لم أستعمل
عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم ، وليشتموا أعراضكم ، ويأخذوا أموالكم ، ولكني
استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، فن ظلمه عامله بمظلمة فلااذن له عليه ، ليرفعها
الي حتى أقصه منه » . فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين رأيت ان أذب أمير رجلا من
رعيته انقصه منه فقال عمر : وما لي لأقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من
من نفسه . وحدث الأحنف قال : كنا جلوساً بباب عمر فمرت جارية فقالوا سرية أمير
المؤمنين فيبلغ ذلك عمر فدعانا فأتيناه فقال : ماذا قلتم . قلنا لم نقل بأساً ، مرتت جارية
فقلنا هذه سرية أمير المؤمنين فقال : ماهي لأمير المؤمنين بسرية وما تحل له انها من مال
الله . فقننا فاذا يحل له من مال الله فقال : أنا أخبركم بما أستحل منه : يحل لي حلتان
حلة في الشتاء وحلة في الصيف وما أحج عليه وأعتمر من الظهر وقوتي وقوت أهلي كقوت
رجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم .
وكأم الناس حفصة أن تكلم أباهما بأن يلين من عيشه شيئا فقالت : يا أمير المؤمنين ان
قومك كلوني أن تلين من عيشك فقال : غششت أبالك ونصحت لقومك . وأبي عمر أن

يجعل الخلافة في ابنه وقال : ان أقواماً يأمروني أستخلف وان الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته والذي بعث به نبيه فان عجل بي أمر فالخلافة شوري بين هؤلاء للرهن الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . وكان من جملة وصاياه قبل وفاته : «أوصيكم بكتاب الله فانكم لن تضلوا ما اتعتموه ، وأوصيكم بالمهاجرين فان الناس يكثرون ويقولون ، وأوصيكم بالأنصار فانهم شعب الاسلام الذي لجأ اليه ، وأوصيكم بالأعراب فانهم أصلكم ومادنتكم» . وقد جاء في هذا الحديث رواية أخرى وهي أصلكم ومادنتكم واخوانكم وعدوكم ، وأوصيكم بأهل الذمة فانهم ذمة نبيكم وأرزاق عيالكم .

ولما طعن أبو لؤلؤة الفارسي عمر وهو يصلى قال : من قتلني فقيل له غلام المعيرة ابن شعبة وكان نجاراً فقال عمر : قاتله الله ، والله لقد كنتُ أمرت به معروفاً ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعى الى الاسلام . ثم قال لعبد الله بن عباس : لقد كنتُ أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج في المدينة . فقال له ابن عباس ما يفيد انهم ان شاء أخرجوهم من المدينة فقال له عمر : أبعدهم ما تكلموا بكلامكم وصلوا بصلاتكم ونسكوا نسككم . ولما أيقن بالموت قال لابنه : يا عبد الله بن عمر أنظركم على من الدين . خسبه فوجده ستة وثمانين ألف درهم فقال : يا عبد الله ان وفي لها مال آل عمر فأدّتها عني من أموالهم وان لم تف أموالهم فاسأل فيها بنى عدى بن كعب^(١) فان لم تف من أموالهم فاسأل فيها قريشاً ولا تعدهم الى غيرهم . وقالوا له حين حضره الموت : استخلف . فقال : لا أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فإيهم استخلف فهو الخليفة من بعدى فسمى عليا ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعداً . ووردت رواية أخرى في وصاته عند موته في معنى الرواية السالفة ولكنها تختلف ببعض ألفاظ قال عمر : أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله والمهاجرين الأولين أن يحفظ لهم حقهم ، وأن يعرف لهم حرمتهم وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فانهم رده الاسلام وغيظ العدو وجبابة المال أن لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضئ منهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوأوا الدار والايمان أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً فانهم

(١) بنو عدى هم الفخذ الذين من قريش ينسب عمر بن الخطاب اليهم

أصل العرب ومادة الاسلام ، وأن يؤخذ من حواشي أموالهم فيرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بمهدهم وأن لا يكلفوا الا طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم ودعا الستة الذين جعل الأمر شورى بينهم فلم يكلم منهم الا عليا وعثمان فقال يا علي لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبي ﷺ وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم ، فان وليت هذا الأمر فاتق الله فيه . ثم دعا عثمان فقال : يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك فان وليت هذا الأمر فاتق الله ولا تحملن بني أبي مغيط على رقاب الناس . ثم قال : ادعوا لي صهيبا فدئعي فقال : صل بالناس ثلاثاً وليدخل هؤلاء القوم في بيت فاذا اجتمعوا على رجل فمن خالفهم فاضربوا رأسه .

قلت فمن تأمل في قول عمر : وان يؤخذ من حواشي أموالهم فيرد على فقرائهم رأى فيه منزعاً اشتراكياً لا ريب فيه الا أنه منزع اشتراكى حكومى يصدق عليه ما يبرعنه الافرنج اليوم بلفظة Etatismة ثم ان الدول الاوربية اليوم قد اضطرت كلها الى سلوك هذه السبيل وما هذه القوانين الاجتماعية التي يسمونها Lois sociales والتي معناها أن يؤخذ من الميزانية المالية العامة لاغاثة المعوزين والمرضى منهم والباقيين بدون عمل Chomeurs أو Trbeitlos الا من هذا الضرب

ثم روى ان سعيد بن زيد قال لعمر : لو اشترت برجل من المسلمين اتمنك الناس فقال عمر : قد رأيت من أمحبابي حرصاً سنياً وانى جاعل هذا الأمر الى هؤلاء نفر الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . ثم قال : لو أدركنى أحد رجلين فجعلت هذا الأمر اليه لو ثققت به سالم مولى أبي حذيفة ، وأبي عبيدة بن الجراح . وقيل انه قال : من أستخلف لو كان أبو عبيدة بن الجراح فقال له رجل : يا أمير المؤمنين فأين أنت من عبد الله بن عمر فقال : قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا أستخلف رجلاً ليس يحسن يطلق امرأته ؟؟

قلت : أما أبو عبيدة عامر بن الجراح فقد صح عن رسول الله ﷺ انه لما قدم عليه أهل اليمن وسألوه أن يبعث معهم رجلاً يعلمهم السنة والاسلام أخذ بيد أبي عبيدة بن الجراح وقال : هذا أمين هذه الأمة . وعن أنس بن مالك ان النبي ﷺ قال : الا أن لكل

أمة أميناً وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وفي حديث عن أبي هريرة ان النبي ﷺ قال : نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح . وقيل ان عمر قال : جلسائه مرة : تمتوا . فتمنى كل واحد بما حضره فقال عمر : لكني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح . وعن شهر بن حوشب أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح فاستخلفته فسألتني عنه ربي لقلت : سمعت نبيك يقول : هو أمين هذه الأمة . وعن ثابت بن حجاج أنه قال . لاستخلفته وما شاورت فان سُئلت قلت : استخلفت أمين الله وأمين رسوله . وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد : في ترجمة أبي عبيدة بن الجراح : ان عمر بن الخطاب أرسل اليه بأربعة آلاف درهم وأربع مائة دينار : وقال للرسول : أنظر ما يصنع . قال فقسمها أبو عبيدة . قال ثم أرسل الى معاذ بن جبل بمثلها وقال للرسول مثلها قال فقسمها معاذ الا شيئاً قالت امرأته نحتاج اليه . فلما أخبر الرسول عمر قال : الحمد لله الذي جعل في الاسلام من يصنع هذا .

وكانت وفاة أبي عبيدة رحمه الله في طاعون عمواس في خلافة عمر سنة ١٨ وكان أمير الجيش الذي فتح الشام ودفن في غور يسان المنسوب اليه ، وبلغ من بره بأهله أنه قال : وددت اني كبش فذبحتني أهلي فأكلوا الحى وحسوا مرقي

وهو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر أوى من قريش ، ورؤى عنه رضى الله عنه أنه قال وهو أمير على الشام : يا أيها الناس اني امرؤ من قريش وما منكم من أحد أحر ولا اسود يفضلني بتقوى الا وددت اني في سلاخه (١) .

وأما سالم مولى أبي حذيفة فعلى احدى الروايات هو ابن عتبة بن ربيعة ، وعلى رواية أخرى سالم بن معقل من أهل اصطخر كان مولى ثُبَيْتَةَ بنت يعار الانصارية ، وهو يذكر في الانصار لعتق ثبينة اياه ، ويذكر في المهاجرين لكونه مولى أبي حذيفة زوجها الذي تبناه ورباه حتى صار يقال له سالم بن أبي حذيفة . وعن مالك بن الحارث كما ورد في الطبقات ان زيد بن حارثة كان معروفاً بنسبه ، وأما سالم مولى أبي حذيفة فلم يكن يعرف نسبه ، فكان يقال سالم من الصالحين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد آخى بينه وبين أبي

(١) يريد أن يكون في جلده أى يريد أن يكون ذلك الرجل .

عبيدة بن الجراح

ومرادى بهذا الذى نقلته في عرض البحث عن حقيقة الخلافة وفي عرض الكلام عن عمر بن الخطاب وعن أبي عبيدة وعن سالم مولى أبي حذيفة رضى الله عنهم انه ليس من أمة على وجه الارض بلغت بها الديموقراطية ما بلغته في الاسلام، فأنت ترى ان الامام عمر الذى يقول الرسول فيه : « لو كان نبيٌّ بعهدى لكان عمر » قد رشح لخلافته على المسلمين مولى أصله اعجمي وقيل ان نسبه الاصلى غير معروف وهو سالم مولى أبي حذيفة . وأنت ترى ان أمين الامة أبا عبيدة بن الجراح يقول انه قرشى لكنه يمتنى أن يكون في جلد زنجي اذا كان هذا يفضله في التقوى . وقد جاء في الأثر انه لما قدم المهاجرون الأولون من مكة الى المدينة نزلوا بالعصبة الى جنب قبأء فأمرهم سالم مولى أبي حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآناً ، وكان ينهم يومئذٍ مثل عمر بن الخطاب وأبو سلمة بن عبد الأسد . فقد ثبت من هنا انهم لم يكونوا يعملون الا بآية (ان) أكرمكم عند الله أتقاكم وان التقوى هي الزية الأولى في الاسلام لا يعد لها حسب ولا نسب . ومن أقوال عمر المشهورة : والله لو جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فلا ينظر رجل الى القرابة ويعمل لما عند الله فمن قصر به عمله لا يسرع به نسبه

ولعمري ان الذين يجزمون بأن الخلافة لا بد أن تكون في قريش ويذهبون الى أن كل خلافة ادعاها غير قرشى فهي غير صحيحة ، مهما كان من فضله ، وكفايته قد يجدون في قول عمر (لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته أو لاستخلفته) ما لا ينطبق عليه جزمهم وما يجعلهم يتفكرون

ثم نعود الى حديث الشورى فنقول ان عمر أوصى عثمان بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى أبي معيط على رقاب الناس ، وأوصى علياً بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى هاشم على رقاب الناس ثم قال للسته : قوموا فتشاوروا فامرؤا أحدكم . قال عبد الله بن عمر : فقاموا يتشاورون ، فدعاني عثمان مرةً أو مرتين ليدخلني في الامر ولا والله ما أحب اني كنت فيه علماً انه سيكون في أمرهم مقال أبي والله لقلماً رأيته يحرك شفثيه بشيء الا كان

حقاً^(١) فلما أكثر عثمان على قتلى : ألا تعقلون أتومرون وأمير المؤمنين حي . فوالله لكأنما يُقظت عمر من مرقد . فقال عمر : امهلوا فان حدث بي حدث فليصل بكم صهيب ثلاث ايام ثم أجمعوا أمركم فن تأمر منكم على غير مشورة من المسلمين فأضربوا عنقه

ولما طعن أبو لؤلؤة عمر ثلاث طعنات وطعن من يليه قال عمر : أدركوا الكلب فقد قتلتني . فادركوه فاتحروا أبو لؤلؤة بنحجره الذي طعن به الامام ثم أدرك عمر النزف فقال : قولوا لعبد الرحمن بن عوف ليصل بالناس . فاحتمل الناس عمر الى بيته وفيهم عبد الله بن عباس قال ابن عباس : فلم أزل عند عمر ولم يزل في غشية واحدة حتى أسفر الصبح فلما أسفر أفاق فنظر في وجوهنا فقال : أصلى الناس ؟ فقلت : نعم فقال : لا اسلام لمن ترك الصلاة . ثم دعا بوضوء فتوضأ ثم صلى ثم قال : أخرج يا عبد الله بن عباس فسل من قتلتني ؟ فخرجت حتى فتحت باب الدار فاذا الناس مجتمعون جاهلون بخبر عمر . فقلت : من طعن أمير المؤمنين ؟ فقالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة . فدخلت فاذا عمر يبئ في النظر يستأني خبر ما بعثني اليه فقلت : أرسلني أمير المؤمنين لاسأل من قتله فكلمت الناس فزعموا انه طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ثم طعن معه رهطاً ثم قتل نفسه . فقال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط ما كانت العرب لتقتلني

ويقال ان عمر لما طعنه أبو لؤلؤة أول طعنة ظن كلبا قد عقره ولم يعلم أن رجلاً طعنه الا عند الطعنة الثالثة . وكان أبو لؤلؤة من سبي نهاوند أى فارسياً وكان اذا جاء السبي الى المدينة نظر الى الصغار منهم وجعل يمسح رؤوسهم ويبكي ويقول : ان العرب أكلت كبدي . فظاهراً أنه ما حمله على قتل عمر الاحب الانتقام من العرب الذين كانوا هزموا العجم لا سيما في واقعة نهاوند وأزالوا ملك الأكلسة وكان كل ذلك في زمان عمر . فهي احنة في صدر فارسي عن زوال ملك قومه وسبي من سبي منهم واستدلال العرب اياهم فتشقى

(١) قلت وما تحقق من كلامه رضى الله عنه ان ألرب عثمان رضى الله عنه عتوا في أيامه فكانت

تلك الفتنة التي أدت الى قتله والى ماعقب ذلك من الفتن والمصائب التي وقتت بغير الاسلام الى الامام ، ولم تزل تغفل في هذه الأمة ضلها الى اليوم

منها بقتل أمير العرب الذين أذلوا قومه . وكان عمر لما دخل عليه أمراء العجم أسرى وفيهم
الهرمزان قد قال لهم : الحمد لله الذي أعز الاسلام وخذلكم . فيظهر أنها بقيت هذه الكلمة
تعمل في قلوبهم . وكان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب اليه المغيرة
ابن شعبه وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده صنغاً ويستأذنه أن يدخله المدينة ويقول
ان عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس انه حداد نقاش نجار فأذن له عمر في ارساله الى
المدينة وضرب عليه المغيرة مائة درهم كل شهر فجاء الى عمر يشتكى اليه شدة الحراج فقال
له عمر : ماذا تحسن من العمل فذكر له الاعمال التي يحسن فقال له عمر : ما خراجك
بكثير في كنه عمالك فانصرف ساخطاً يتنمر فلبث عمر ليالي ثم مر به العبد فدعاه فقال له
ألم أحدث أنك تقول لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح ؟ فالتفت العبد ساخطاً عابساً الى
عمر ومع عمر رهط فقال : لاصنعن لك رحى يتحدث بها الناس . فلما ولي العبد أقبل عمر
على الرهط الذين معه فقال لهم : أوعدني العبد أنفا . فلبث ليالي ثم اشتمل أبو لؤلؤة على
خنجر ذي رأسين نصابه في وسطه فكمهن في زاوية من زوايا المسجد في غلس السحر فلم
يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر فلما دنا منه عمر وثب عليه فطعنه ثلاث
طعنات احداهن تحت السرة خرقت الصفاق وهي التي قتلته ثم انحاز أيضاً على أهل المسجد
فطعن من يليه حتى طعن سوى عمر أحد عشر رجلاً ثم اتحرج بخنجره . وعن عمرو بن
ميمون قال : شملت عمر حين طعن ، أتاه أبو لؤلؤة وهو يسوى الصفوف فطعنه وطعن
اثنى عشر معه هو ثالث عشر فأنا رأيت عمر باسطاً يده وهو يقول : أدركوا الكلب فقد
قتلني فاج الناس وأتاه رجل من ورائه فأخذه ومات ستة أو سبعة ممن طعنهم فحمل عمر الى
منزله فأناه الطيب فسقاه نبيداً فخرج من احدى طعناته فسقاه لبناً فخرج فقال له الطيب :
أوص بما كنت موصياً فوالله ما أراك تسمى . وفي رواية أبي الحويرث أن أبا لؤلؤة عندما
قال له عمر : الاتجعل لنا رحى ؟ أجابه : بل أجعل لك رحى يتحدث بها أهل الأمصار .
ففرغ عمر من كلمته وكان على بن أبي طالب معه فقال له عمر : ما تراه أراد ؟ فقال : أوعدك
بأمير المؤمنين . قال عمر : يكفيناه الله قد ظننت أنه يريد بكلمته غوراً .

وقالوا انه لما طعن عمر اجتمع اليه البديون المهاجرون والأنصار فقال لابن عباس :

اخرج اليهم فسلمهم عن ملاء منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني . فخرج ابن عباس فسألم فقال القوم : لا والله لوددنا أن الله زاد في عمرك من أعمارنا . ولما طعن عمر كان كلامه : وكان أمر الله قديراً مقدوراً وقال : ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا من العالج أحداً فغلبتموني . ولم يترك عمر صلاة الفجر بعد أن طعن وصلى وجرحه يشعب دماً ، وقال عند ذلك : لاحظ في الاسلام لمن ترك الصلاة . ولما أيقن عمر بالموت وارتج البيت بكاء قال : والله لو أن لي ما على الأرض من شيء لافتديت به من هول المطلاع . فقال ابن عباس : والله اني لأرجو أن لا تراها الا مقدار ما قال الله ﴿ وان منكم الا وارثاها ﴾ ان كنت ما علمنا لأمير المؤمنين وأمين المؤمنين وسيد المؤمنين تقضى بكتاب الله وتقسم بالسوية فأعجبه قوله واستوى جالساً وقال : أنشهد لي بهذا يا ابن عباس ؟ قال نعم . وفي رواية أخرى أنه لما شرب عمر اللبن وخرج من جرحه بكى وأبكى من حوله فقال : هذا حين لو أن لي ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلاع . قالوا : وما أبكك الا هذا ؟ قال : ما أبكاني غيره فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين والله ان كان اسلامك لنصراً وان كانت امامتك لفتحاً والله لقد ملأت امارتك الأرض عدلاً ما من اثنين يختصمان اليك الا اتهميا الي قولك . فقال عمر : أجلسوني فلما جلس قال لابن عباس : أعد علي كلامك . فلما أعاد عليه قال : أنشهد لي بذلك عند الله يوم تلقاه ؟ قال ابن عباس : نعم ففرح عمر بذلك وأعجبه . وحق عمر أن يفرح بشهادة مثل عبد الله بن عباس

وروى عن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قال حين طعن عمر : مررت على أبي لؤلؤة ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى فلما بغتهم ناروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر ؟ فوجدوه الخنجر الذي نعته عبد الرحمن بن أبي بكر فانطلق عبيد الله بن عمر حين سمع ذلك من عبد الرحمن ومعه السيف فأتى للهرمزان فقال له امض معي حتى ننظر الى فرس لي فلما مضى بين يديه علاه بالسيف قال عبيد الله بن عمر : فلما وجد حر السيف قال لا اله الا الله . وأما جفينة ، فكان من نصارى الحيرة وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص ، وكان يعلم الكتاب بالمدينة فجاءه عبيد الله بن عمر وقتله أيضاً ، ولما علاه بالسيف صلب بين عينيه ثم انطلق فوجد ابنة صغيرة لأبي لؤلؤة تدعى

الاسلام فقتلها فاجتمع عليه المهاجرون والأنصار ونهوه وتوعده فازداد غضباً وعرض
بعض المهاجرين فلم يزل عمرو بن العاص به حتى أخذ منه السيف . ثم أقبل سعد بن أبي
وقاص فنشاجر هو وعبيد الله وتناصبا حتى حجزوا بينهما . ثم أقبل عثمان بن عفان قبل
أن يبيع فتناصبا أيضاً فحجز الناس بينهما . وأظلمت الأرض على الناس ذلك اليوم . ثم
بيع عثمان بالخلافة فدعا المهاجرين والأنصار فقال : أشيروا عليّ في قتل هذا الرجل الذي
فتق في الدين ما فتق . فاجتمع المهاجرون على كلمة واحدة يشايعون عثمان على قتله ، وجلُّ
الناس الأعظم مع عبيد الله يقولون عن الهرمزان وجفينية : أبعدهما الله ويقولون : أما كفى
قتل عمر فتريدون أن تتبعوا عمر ابنه . فكثير في ذلك اللفظ والاختلاف الى أن جاء عمرو
ابن العاص الى عثمان فقال له : يا أمير المؤمنين ان هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك على
الناس سلطان فأعرض عنهم فسمع عثمان كلامه ووُدِّي الرجلان والجارية وأمسك
عثمان عن قتل عبيد الله بن عمر وتفرق الناس وكان عثمان يقول لعبيد الله بن عمر
وهو يناصيه : قاتلك الله قتلت رجلا يصلي^(١) وصبية صغيرة وآخر من ذمته رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما في الحق تركك^(٢) . وقيل ان عثمان وسعداً كانا يومئذ أشد أصحاب
رسول الله على عبيد الله بن عمر وما كفَّ عثمان عن قتله الا بما قاله له عمرو بن العاص .
وأما دفن عمر رضى الله عنه بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق
رضى الله عنه فان عمر استأذن عائشة في ذلك فأذنت له ، ثم دعا ابنه عبد الله بن
عمر فقال له : يا بُنَيَّ اني قد أرسلت الى عائشة أستأذنها أن أدفن مع أخويّ فأذنت لي وأنا
أخشى أن يكون ذلك لمكان السلطان فاذا مت فاعسلني وكفني ثم احلني حتى تقف بي على
باب عائشة . فتقول هذا عمر يستأذن الخ فان أذنت فادفني معهما والا فادفني بالبيع . قال
ابن عمر فلما مات أبي حُملناه حتى وقفنا به على باب عائشة فأذنت بدفنه بجانب رسول الله
وبجانب أبيها وكان قد دفن أبو بكر على مساواة منكب رسول الله ﷺ فدفن عمر على
مساواة حقويه . وكانت وفاة عمر عن ثلاث وستين سنة وقيل عن ٦٠ وقيل عن ٥٥ سنة

(١) يعني الهرمزان

(٢) يعني بالأخر جفينية الصراني

وقد طعنه أبو لؤلؤة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ وكانت مدة خلافته ١٠ سنوات وخسة أشهر واحدى وعشرين ليلة — وأبو الغداء يقول عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام — من متوفى أبي بكر رضى الله عنهما

تولى الأمر عشر سنوات فلا بها الأرض فتوحات ونصب للإسلام بضعة عشر أتاب منبر، فياليت شعرى ماذا كان تم للإسلام من الظهور لو عاش في الامارة ٢٠ سنة أو ٣٠ سنة أو أكثر وقبل أن فاضت روح عمر بساعة قال لأبي طلحة الأنصارى : يا أبا طلحة كن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فانهم فيما أحسب سيجمعون في بيت أحدهم فقم على ذلك الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم ولا تتركهم يمضى اليوم الثالث حتى يؤمروا أحدهم اللهم أنت خليفتى عليهم . فاذا دفن عمر حتى عمل أبو طلحة بما أوصاه به الى أن بويع عثمان بن عفان . وغسل عمر ثلاثاً بالماء والسدر وكان أوصى بأن لا يغسلوه بمسك وصلى على عمر في مسجد الرسول بين القبر والمنبر، وكان المصلى عليه صهيب ، قيل ان عمر أوصى بأن يصلى عليه صهيب ففعلوا بوصيته . ولما صلى عليه جاء عبد الله بن سلام فقال : لئن سبقتموني بالصلاة عليه لا تسبقوني بالثناء عليه فقام عنده سريره وقال : نعم أخو الاسلام كنت يا عمر جواداً بالحق بخيلاً بالباطل ترضى حين الرضى وتعضب حين الغضب ، عفيف الطرف ، طيب الظرف ، لم تكن مدحاً ولا مقتاباً ، ثم جلس . وأورد محمد بن سعد في الطبقات حديثاً عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ساقه من ثلاثة عشر طريقاً بأسانيد مختلفة مع اختلاف قليل في لفظ الحديث وهو : أتى عليّ وعمر مسجياً فقال : ما على وجه الأرض رجل أحبّ الىّ من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى . وقال عبد الرحمن بن غنم يوم مات عمر : اليوم أصبح الاسلام مولياً ما رجل بأرض فلاة يطلبه العدو فأتاه آتٍ فقال له : خذ حنرك بأشدّ فراراً من الاسلام اليوم . وعن زيد بن وهب : أتينا عبد الله بن مسعود فذكرنا عمر فبكى حتى ابتلّ الحصى من دموعه وقال : ان عمر كان حصناً حصيناً للاسلام يدخلون فيه ولا يخرجون منه فلما مات عمر اتلم الحصن فالتساس يخرجون من الاسلام . ومما قال ابن مسعود : لو اعلم عمر يجب كلباً لأحببته والله انى أحسب العِضاه قد وجد فقد عمر . وبكى سعيد بن زيد يوم مات عمر

وقال : اليوم همى أمر الاسلام . وفي رواية قال : على الاسلام أبكى ان موت عمر نلم الاسلام ثلثة لا تترق الى يوم القيامة . ولأبى عبيدة بن الجراح فى عمر بن الخطاب كلام قد صح كله قال : اذا مات عمر ررق الاسلام ما أحب أن لى ما تطلع عليه الشمس أو تقرب وانى أتى بعد عمر فقال قائل : ولم ؟ قال : سترون ما أقول ان بقتيم اما هو فانه ولى وال بعد عمر فاخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطع له الناس بذلك ولم يحملوه وان ضف عنهم قتلوله وعن الحسن بن على : أى أهل بيت لم يجملوا فقد عمر فهم أهل بيت سوء . وعن حذيفة : كان الاسلام فى زمن عمر كل رجل المقبل لا يزداد الا قرباً فلما قتل رحه الله كان كل رجل المدبر لا يزداد الا بعداً . وقال أنس بن مالك نقلاً عن أبى طلحة وقد رأى أصحاب الشورى وما يصنعون : لأننا كنت لأن تدافعوها أخوف منى من أن تنافسوها فوالله ما من أهل بيت من المسلمين الا وقد دخل عليهم فى موت عمر نقص فى دينهم وفى دنياهم وقيل فى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا الرثاء :

جزى الله خيراً من أمير وباركت يد الله فى ذلك الأديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناحى نعامه ليذكر ما قد مات بالامس يسبق
قضيت أموراً ثم غلرت بعدها بوائق فى أكلها لم تفتق

ولم يعرف قائل هذه الايات . وقيل انها سمعت فى موسم الحج قبل وفاة عمر . وعلى كل حال فهى من الشعر الذى يصح أن يوصف بقوله :

وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

فانه قلما وجد امام أجدر بسلام الله من هذا الامام . وانه مهما جد الخلفاء والملوك العادلون فلم يدركوا شأوه . أما البوائق التى أشار اليها صاحب الايات الثلاثة فقد بدأ ظهورها فى زمن عثمان رضى الله عنه بسبب أقاربه بنى أبى معيط وتفتت فى حرب الجبل وحرب صفين ، وغير ذلك من الفتن التى عقلت الاسلام عن التقدم فى الارض بعد أن كاد يغلب عليها .

وعمر بن الخطاب هو أول من سعى بامير المؤمنين ، وهو أول من كتب التلويح فى شهر ربيع الاول سنة ست عشرة كتبه من هجرة النبى ﷺ من مكة الى المدينة وهو أول من جمع القرآن فى المصحف وهو أول من سن قيام شهر رمضان ، وجمع الناس على

ذلك وكتب الى الآفاق في شهر رمضان سنة أربع عشرة وجعل للناس بالمدينة قارئين قارئا يصلى بالرجال وقارئاً يصلى بالنساء . وهو أول من ضرب في الحجر ثمانين جلدة واشتد على أهل الريب والنهم ، وأحرق بيت رويشيد الثقفي وكان حانوتاً ، وغرّب ربيعة بن أمية بن خلف الى خيبر وكان صاحب شراب فلحق ربيعة بأرض الروم وارتمد . وكان عمر أول من عسّ في عمله بالمدينة وكان له عصا اسمها الدرّة يؤدّب بها ولقد قيل بعده : لدرة عمر أهيب من سيفكم . وهو أول من فتح الفتوح وهي الأرضون والكور التي فيها الخراج والنيّ ففتح العرق كله السواد والجبال واذر بيجان وكور البصرة وأرضها وكور الأهواز وفارس وكور الشام ما خلا أجنادينّ فانها فتحت في خلافة أبي بكر الصديق ، وفتح عمر كور الجزيرة والموصل ومصر والاسكندرية وقتل رجه الله وخيله على الزى بفارس وقد فتحوا عانتها . وهو أول من مسح السواد وأرض الجبل ووضع الخراج على الأرضين والجزية على جاجم أهل الذمة ، فوضع على النخعي ٤٨ درهماً وعلى الوسط ٢٤ وعلى الفقير ١٢ درهماً وبلغ خراج السواد والجبل في عهده ١٢٠ مليوناً . وهو أول من مصرّ الأمصار الكوفة والبصرة والجزيرة والشام ومصر والموصل وأنزلها العرب . وهو أول من استنقى القضاء في الأمصار وهو أول من دوّن الديوان وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم الأعطية من النيّ وقسم القسوم في الناس وفرض لأهل بدر وفضلهم على غيرهم ، وفرض للمسلمين على أقدارهم وتقدمهم في الاسلام . وبدأ بالأقرب للأقرب لرسول الله ﷺ بنى هاتم ثم بنى تيم ثم بنى عدى . فجاء بنو عدى رهط عمر فقالوا أنت خليفة رسول الله فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم قال : يخربخ بنى عدى أردتم الأكل على ظهري لأنّ أذهب حسناتي لكم لا والله حتى تأتيكم الدعوة ولو أن تكتبوا آخر الناس والله ما أدركنا الفضل في الدنيا ولا ما نرجو من الآخرة الا بمحمد ﷺ فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ثم الأقرب فالأقرب . وكان القوم اذا استووا في القرابة برسول الله ﷺ قدم عمر أهل السابقة وكان أبو بكر قد سوّى بين الناس في القسم فقيل لعمر في ذلك فقال لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه . فبدأ بمن شهد بدرأ من المهاجرين والأنصار وفرض لمن كان له اسلام كاسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ، ومن شهد أحدأ فرضاً واحداً وكان عمر أول من حسل الطعام في السفن من مصر الى الحجاز وكان يخاف على المساميين

في بلدي الأمر من ركوب البحر فنهاهم عنه اشفاقا عليهم ولكنهم ركبوه فيما بعد عند اتساع الفتوحات وكان اذا بعث عاملا على مدينة كتب ماله واذا عزل عاملا قاسمه ماله وجعل ذلك القسم في بيت المال ومن هؤلاء الذين قاسمهم مالم سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة. وكان يستعمل مثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والغيرة بن شعبة ويدع من هو أفضل منهم مثل عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف وذلك لاشراف عمر على أولئك وهيتهم له وقيل له: مالك لا تولى الأكبر من أصحاب رسول الله عليه السلام فقال: أكره أن ادنسهم بالعمل. واتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والنمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع والضييف ينزل بعمر. ووضع في السبل بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء الى ماء. وزاد عمر في مسجد رسول الله ﷺ ووسعه لما كثرت الناس بالمدينة ووضع نصب عينه أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان فأجلى اليهود منها الى الشام، وأخرج نصارى نجران وأنزلهم ناحية الكوفة وأعطاهم بدل أملاكهم في نجران. وخرج الى الشام سنة ست عشرة وقسم الغنائم بالجالية وحضر فتح بيت المقدس، وأبقى كل شيء هناك على حاله وأمتع المسيحيين واليهود بحريتهم الدينية، وأبى أن يصلح في كنيسة القيامة عندما أدركته الصلاة مع أن البطريرك دعاه لذلك بل خرج من الكنيسة وصلح في مكان آخر حتى لا يأتى المسلمون من بعده فيقولوا هنا صلى عمر فإخفوا الكنيسة من أيدي النصارى. وحج عمر بالناس عشر سنين. ولم يكن عمر يريد اشتغال المسلمين في الزراعة ولم يكن ذلك منه اهمالاً لهنه بل كان أول من يهدر لها قدرها ولكنه لم يشأ أن يشغلهم في ذلك الوقت عن الفتوحات، وكان يعلم أنهم لو اشتغلوا بالزراعة لأحبوا أراضيهم ففترت همهم وتحلفوا عن الجهاد وهو يعلم أنه اذا اتسعت الفتوح وضرب الاسلام بجرانه في المشرق والمغرب أسكن المسلمين فيما بعد أن يتعاطوا الفلاحة ويمسكوها. وكان عمر يقول عن الامارة انها أمر لا يصلح الا بالشدّة التي لا تجبرية فيها وباللين الذي لا وهن فيه. وكانت هبة عمر في صدور الناس فوق تصور العقل لما كانوا يعلمون من أنه لا يرعى في الحق خليلاً. واجتمع مرة على، وعثمان، وطلحة، والزبير، وقالوا لعبد الرحمن بن عوف وكان أجراً الصحابة على عمر. يا عبد الرحمن لو كلمت أمير المؤمنين فانه يأتي الرجل طالب الحاجة فتمنعه هيبته أن يكلمه في

حاجة حتى يرجع ولم يقض حاجته . فدخل عليه فكلمه فقال : يا أمير المؤمنين لئن للناس فانه يقدم القادم فتمنعه هيتك أن يكلمك في حاجته حتى يرجع ولم يكلمك قال : يا عبد الرحمن أنشدك الله أعلى وعثمان وطلحة والزبير وسعد وأمروك بهذا قال اللهم نعم قال : يا عبد الرحمن والله لقد لنت لهم حتى خشيت الله في الدين ثم اشتدت عليهم حتى خشيت الله في الشدة . وكان رحمه الله من أشد خلق الله تواضعاً وأخشعهم لله قيل انه رقى المنبر ذات يوم حمد الله ثم قال أيها الناس لقد رأيته ومالي من اكال يأكله الناس الا أن لي خالات من بنى مخزوم فكنت أستعذب لهن الماء فيقبضن لي القبضات من الزيب . ثم نزل من على المنبر فقيل له ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين فقال : اني وجدت بنفسى شيئاً فأردت أن أطلأطي منها . وكان مرة ماراً بضحيان فقال لأصحابه لا اله الا الله المعطى ماشاء من شاء كنت أرى ايل الخطاب في هذا الوادي في مدرعة صوف وكان فظاً يعربنى اذا علمت ويضربني اذا قصرت وقد أصبحت وليس بيني وبين الله أحد . وقال مرة أحب الناس الى من رفع الي عيوني . ورأى الهرمزان عمر ناعماً في المسجد فقال هذا والله الملك الهني .

هذه نبذة من سيرة عمر بن الخطاب رضی الله عنه أكثرها متواتر أجمعت عليه الرواة وان وقع اختلاف في بعض الروايات من جهة اللفظ فلم يقع من جهة المعنى بحيث لا يخامر الانسان شك في أن سيرة عمر كانت هي هذه كما وصفها الناس بالتواتر خلفا عن سلف ، ولولم تكن هذه سيرته حقاً لما كانت هيبة الاسلام بلغت تلك الدرجة التي بلغت في أيامه ولولم يكن عمر ذلك الأمير العادل الذي لاتأخذه في الحق لومة لأثم لما كان العدل العمري مثلاً سائراً بين الناس الى يوم الناس هذا . ولقد أردنا بنقل هذه الشواهد من سيرته رحمه الله تعريف حقيقة الخلافة في الاسلام واثبت أنها ليست في شيء من الملك العضوض الذي جد بعد الخلفاء الراشدين والذي عليه ملوك الأعاجم فيرة عمر هي مثال بارز يأخذ منه القارئ صورة حقيقية عن كيفية الاسلام في زمان الخلفاء الراشدين وعن روح الامارة التي أمرهم بها الشارع ﷺ فكانوا كلما تمسوا عليها أفلحوا وسادوا وكلما انحرفوا عنها وهنوا وفسلوا (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

الفصل الاول من الكتاب في اليقظة الاسلامية

فى القرن الثامن عشر كان العالم الاسلامى قد بلغ من التضعف اعظم مبلغ ، ومن التدننى والانحطاط اعمق دركة ، فارتدت جوه وطبقت الظلمة كل صقع من اصقاعه ورجا من ارجائه وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربى ، واستغرقت الأمم الاسلامية فى اتباع الاهواء والشهوات ، وماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتتيال ، فليس يرى فى العالم الاسلامى ذلك العهد سوى المستبدىن الغاشمين كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول فى الهند ، يحكمون حكماً واهناً فاشى القوة متلاشى الصبغة ، وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التى هم فى حكمها وينشئون حكومات مستقلة ولكن مستبدة كحكومة الدولة التى خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون اخضاع من فى حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثرت السلب والنهب ، وفقد الأمن ، وصارت السماء تمطر ظلاماً وجوراً ، وجاء فوق جميع ذلك رجال الدين المستبدون يزيدون الرعايا ارهاقاً فوق ارهاق ، ففلت الأيدى ، وقعد عن طلب الرزق ، وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة ايما اهمال .

وأما الدين فقد غشيتة غاشية سوداء ، فالبلت الوحداية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجعاً من الخرافات وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عديد الأذعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان الى مكان يحملون فى أعناقهم التأمم والتعاويد والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم فى الحج الى قبور الأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون فى كل مكان ، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء . ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرها

من سائر مدن الاسلام ، فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي على من استطاعه ضرباً من المستهزآت ، وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطاً بعيد القرار ، فلو عاد صاحب الرسالة الى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدهى الاسلام ، لغضب وأطلق اللعنة على من استحقتها من المسلمين ، كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان (١)

وفيما العالم الاسلامي مستغرق في هجمته ومدجج في ظلمته ، اذا بصوت قد يدوى من قلب صحراء شبه الجزيرة ، مهدد الاسلام ، يوقظ المؤمنين ويدعوهم الى الإصلاح والرجوع الى سواء السبيل والصرط المستقيم ، فكان الصارخ هذا الصوت انما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب الذي أشعل نار الوهابية فاشتعلت وانتقدت ، واندلعت ألسنتها الى كل زاوية من زوايا العالم الاسلامي . ثم أخذ هذا الداعي يحض المسلمين على اصلاح النفوس واستعادة المجد الاسلامي القديم والعز التليد ، فتبدت تبشير صبح الإصلاح ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الاسلام .

ولد محمد بن عبد الوهاب في نجد الواقعة في قلب الصحراء العربية ، حوالى سنة ١٧٠٠ م وكانت نجد في ذلك العصر ، على انحطاط العالم الاسلامي وتدليه ، أنقى البلدان اسلاماً وأطهر الأقطار ديناً . وقد عرفنا فيما أسلفنا من الكلام كيف كانت تنتقل الخلافة من دور الثورى الى دور الاستبداد الشرقى وكيف أخذ على أثر ذلك للعرب الأحرار أباة الضيم يعودون أدرأجهم الى الصحراء حيث امتنعوا بحريتهم في حرز بلادهم وموطنهم ، وصدوا عنهم كل حامل عليهم . فلا خليفة ولا سلطان غرر بنفسه يوماً لاختراق تلك الصحارى الرملية المحرقة والتوغل في فيافيها المهلكة حيث الموت الكريه كامن على اللوام لكل طامع غريب دخيل . فالعرب هناك لم يعرفوا قط حاكماً عليهم ، بل دأبهم دوماً الحل والترحال وارتباد المنتجعات في مختلف الواحات في قلب الصحراء . وفي هذا الحصن المنيع

(١) لو أن فيلسوفاً تقريباً من فلاسفة الاسلام ، أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية ، أراد تشخيص حاله في هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يعيب الهز وأن يطبق الفصل تطبق هذا الكاتب الأميركي ستودارد . (ش)

استطاع العرب منذ القديم الاحتفاظ بفضائلهم الدينية لا تشوبها شائبة ، ورابطتهم السياسية لا تنفخ في بنيانها ريج . أما البسو الرحل فالزعامة فيهم لشييوخهم الذين يتولون القيام على أحكامهم وتدير شؤونهم . وأما الحضرة في الواحات فالزعامة فيهم على الغالب لشيوخ الأسمر العليا منزلة ومكانة ، بيد أن مبلغ ما في أيدي هؤلاء الشيوخ من السلطة المطاعة حق الطاعة إنما هي سلطة صورية واهنة ، لا تقوى على الدوام على الوقوف في وجه تيار العادات القومية والعرف . وجل ما استطاع الترك اخضاعه من بلاد العرب هو أنهم بسطوا شيئاً من سلطانهم على الأماكن المقدسة الحجازية وساحل البحر الأحمر . أما نجد ، البلاد الداخلية ، فقد ظلت حرة مستقلة . وما برح عرب الصحراء فيها يغالون في الاحتفاظ بما يتحدر اليهم من آباؤهم وأجدادهم من فضائل الدين ووحدة السياسة وعروة الجامعة ، فلذلك ما انفكوا قط ينعمون على العالم الاسلامي سقوطه فيما نهت الرسالة عنه وهم يزيدون استمساكاً بالاسلام على أصله وجوهره ولبابه ، وذلك حقاً مما يلائم طبائعهم ويتفق مع أمرجتهم .

هكذا كانت حالة نجد لما ولد فيها ابن عبد الوهاب . واذ كان منذ أول شأنه شديد الميل الى الاطلاع والتفقه في الدين ، لسرعان ما اشتهر ذكره وذاع اسمه ، فعرف بعلم وافر قواماً على التقوى . فخرج الى مكة في أوائل عمره وطلب العلم في المدينة المنورة ، وساح الى كثير من البلاد المجاورة حتى فارس ثم عاد الى نجد مشتتلاً غضباً دينياً لما رآه بأمر عينه من سوء حالة الاسلام ، فصحت عزيمته على القيام بدعوة الإصلاح . فقضى سنين عديدة راحلاً من بلاد الى بلاد في شبه الجزيرة ، فبشر بالدعوة ، موقفاً النفوس ، حتى استطاع بعد جهاد طويل أن يجعل محمداً بن السعود ، وهو أكبر أمراء نجد وأعلى زعمائها كعباً وشأناً يقبل الدعوة ويدخل فيها ، فاكتسب ابن عبد الوهاب بذلك مكانة أدبية عالية ومنزلة اجتماعية رفيعة وقوة حربية لا يستهان بها ، فاستفاد من ذلك استفادة جلية قد مكنته من بلوغ غايته وادراك غرضه . فتكونت على التوالي وحدة دينية سياسية في جميع الصحراء العربية شبيهة بتلك الوحدة التي أنشأها صاحب الرسالة ، وفي الواقع فإن المنهج الذي نهجه ابن عبد الوهاب ليشبه شبيهاً كبيراً ذلك الذي نهجه الخلفاء الراشدون كأبي بكر وعمر . ولما مات سنة ١٧٨٧ خلفه ابن السعود فكان خير خليفة للمصلح الاسلامي الكبير ، واقتفى الوهابيون آثار خلافة الراشدين ، وعلى ما كان في يد ابن السعود من القوى الحربية

العظيمة ، فان ذلك ما كان ليصرفه عن أن يكون على الدوام نازلاً على رأى الجماعة وشوراها ، فلم يمتحن حرية أتباعه وبنى قومه ، وكانت حكومته على عنفها مكينة عادلة فانقطع التعدى وأمن الناس السرقات وانتشر الأمن وسادت الطمانينة والراحة . وعكف على العلم والتهديب ، فكان فى كل واحة مدرسة ، وفى كل قبيلة بدوية عدد من المعلمين

وبعد أن أخضع ابن السعود نجداً ، وتم له الأمر فى كاملها : أخذ يستعد ليقوم بعمل أكبر ألا وهو إخضاع جميع العالم الإسلامى . ونشر الإصلاح فيه . فجعل نصب عينيه فى المقام الأول تحرير الأماكن المقدسة الحجازية . ففكر على الحجاز فى صدر القرن التاسع عشر بمقاتلته الشجعان المشتعلين غير « دينية » . وكان له ما أراد من الاستيلاء على الأماكن المقدسة ؛ فلم تستطع قوة الوقوف فى وجه الوهابيين وهم يحملون على الترك ، والترك فى نظرهم أهل الارتداد والجحود ؛ ومغتصبو الخلافة اغتصاباً ؛ وحققا أن تكون أبدأ فى العرب . وبينما كان ابن السعود سنة ١٨١٤ يعد العدة لفتح سور يهيمته متينة ؛ كان يحيل الى العالم منه أن الوهابيين متدفقون على الشرق تدفقاً ؛ وصانعون ما شاء الله من الإصلاح فى الإسلام

غير أن ذلك ما قدر ليكون . فلما أيقن سلطان تركية أنه لا يستطيع القضاء على الوهابيين استصرخ بطلا من مشاهير الأبطال ، وهو محمد على ، واستكفاه أمر القضاء عليهم وكان هذا المقدم الالبانى سيد مصر وأميرها ، وواقفا حق الوقوف على قدرة أوربة وشدة بأسها وتفوقها ، فدعا اليه ضابطاً من أهل الغرب فنظموا له جيشاً قويا ، ودر بوه تدريباً على الطراز الغربى ، وجهزوه بمعدات الاسلحة الغربية . وكان غالب هذا الجيش مؤلفاً من المقاتلة الألبانيين الأشداء ، فسرعان ما أجاب محمد على نداء السلطان فأيقن حينئذ أن الوهابيين على شدة غيرتهم الدينية وحاستهم لن يستطيعوا بعد الوقوف فى وجه البنادق والمدافع الأوروية يطلق عيارها جنود مجربون . وما هى الامدة قصيرة حتى استردت الأماكن المقدسة الحجازية ، ورد الوهابيون على اعقابهم فانقلبوا الى الصحراء ، فاختفت الامبراطورية الوهابية الوليدة للحال اختفاء السراب ، وأرخی الستار على الدور السياسى

(١) الوهابي

يبد أن خاتمة هذا الدور السياسي كانت فاتحة الدور الديني، فقد ظلت نجد بذرة تشتعل فيها نار الفيرة الدينية، ومنبثق نور تنبعث منه الاشعة الوهاجة الى كل ناحية من نواحي الأرض، وما فتئ الوهابيون منذ قضى على قوتهم السياسية يشنون روح الحركة الدينية في مئات الألوف من الحجيج الوافدين كل عام الى مكة والمدينة من كل قطر من أقطار العالم الاسلامي، فيقتبس هؤلاء نارا وهابية ثم يعودون الى اوطانهم يشعلون بها ما استطاعوا اشعاله في سبيل الاصلاح. وهكذا قد استطاع الوهابيون أن يبثوا بذورا تلاها الاختيار الشديد للثورة الدينية في كل فج اسلامي، حتى بلغت دعوتهم الدينية أقصى المعمور فقام في شمالي الهند الزعيم الوهابي المغالي السيد احمد (٢) مستنقرا مسلمي بنجاب وأنشأ دولة وهابية. فكان هذا الزعيم بعد عدته لفتح سائر شمالي الهند فحالت منيته بينه وبين ذلك، واضمحلت الدولة الوهاية الهندية سنة ١٨٣٠ غير أنه لما جاء الانكليز يقتحمون البلاد عانوا الأمرين من بقايا النار الوهاية الكامنة في الرماد، وظلت هذه النار مخبوءة الى ما شاء الله فكانت عاملا من عوامل « الثورة الهندية »، ثم استطار من شررها ما تناول أفغانستان وسائر القبائل الهندية عند الحدود الشمالية الغربية فأشعلها أيما اشعال. وفي تلك الغضون قام السيد محمد بن السنوسي في الجزائر وآتى مكة ورضع أفوايق الوهاية فيها، ثم أخذ يجاهد في سبيل انشاء الطريقة الدينية المعروفة باسمه تمهيدا للجامعة الاسلامية. وفي ذلك الأوان أيضا نشأت الدعوة البابية (البهائية) في بلاد فارس، وهذه الدعوة وان كانت بتعاليمها بعيدة عن تعاليم الوهاية، غير أنها بلا مشاحة حاملة روحا كروح الوهاية كأنها منعكس لها.

وخلال جيل تلا اتسعت الدعوة الوهاية بأفقتها ومضطربها اتساعا كبيرا، وتطورت تطورا عظيما حتى صارت تعرف باليقظة الاسلامية، ثم اتسعت دعوة اليقظة الاسلامية بأفقتها أيضا حتى تعدت متجهاتها ومناحيها، وأهم هذه المتجهات انما هي الدعوة الكبرى

(١) اقرأ ما يأتي في الدعوة الوهاية وحركتها:

الاسلام بالقرن التاسع عشر A Le Chatelier, l'Islam au XIXe siècle (Paris 1888)

مقصد الوهاية A. Chodzko "Le d'isme des Wahabis" Journal Asiatique

(٢) هو غير « السر السيد احمد » من عليكرة السلم الهندي المر المودود من رجال منتصف القرن

التاسع عشر

المعروفة بالجامعة الاسلامية . وانا سنفرد قسماً مخصوصاً في غير موضع من هذا الكتاب للكلام على هذه الدعوة الكبرى نبين فيه سيرها وخطورتها السياسية ، مكتفين الآن بالكلام على سائر وجهات اليقظة الاسلامية ومبلغ مكاتبتها الدينية والتهديدية (١)

فالدعوة الوهاية انما هي دعوة اصلاحية خالصة بمحتة. غرضها اصلاح الخلق ، ونسخ الشبهات ، وابطال الأوهام ، ونقض التفاسير المختلفة والتعاليق المتضاربة التي وضعها أربابها في عصور الاسلام الوسطى ، ودحض البدع وعبادة الأولياء ، وعلى الجملة هي الرجوع الى الاسلام والأخذ به على أوله وأصله ، ولبابه وجوهره، أي انما الاستمساك بالوحدانية التي أوحى الله بها الى صاحب الرسالة ، صافية ساذجة ، والاهتداء والاتهام بالقرآن المنزل مجرداً وأماماسوى ذلك فباطل وليس في شيء من الاسلام . ويقتضى ذلك الاعتصام بكل الاعتصام بأركان الدين وفروضة وقواعد الآداب ، كالصلاة والصوم وغير ذلك ، والكون على الساذجة التامة في أحوال المعيشة ، وتحريم اتخاذ الملابس الحريرية ، والتأثق في الأطعمة ، وشرب الخمر والقهوة ، والأفيون والتبغ ، وغير ذلك مما بعضه من أسباب السرف وبعضه الآخر من الضار المفسدة لسلامة العقل ، وليس هذا جميع مافي الأمر ، بل عد الوهايون المباني الدينية المزخرقة من نواهي الاسلام . فهموا قبة قبر الرسول في المدينة المنورة ، وخربوا ما آذن المساجد ، فهم على ايغالهم في الاعتصام بالفروض الدينية وقواعد الآداب ، كانوا على ضعف شديد في المدارك وبعد في التعصب . فلذلك كان من حسن حظ الاسلام أنهم باءوا بخسران سلطتهم السياسية ، فقصروا مساعيهم ودعوتهم على التعاليم الدينية الأدبية فحسب

وقام على أثر ذلك عدد من النقدة، اتخذوا الوهاية دليلاً لكلامهم وقالوا انما الاسلام بجوهره وطبائعه غير قابل للتكيف على حسب مقتضيات العصور وعماشة أحوال الترقى والتبدل ، وليس الغأ لتطورات الأزمنة وتغيرات الأيام ، بيد أن تقدم هذا لفساد باطل ولا

(١) لا ينكر أن الوهاية هي نهضة في الاسلام عظيمة ممتدة في أكثر بلاد العرب وفي الهند والقائمون بها أولو نصب شديد، وربما أفرطوا في مبادئهم وغلوا في عقائدهم شأن جميع المناهبات التي لا يخف أتباعها عند الهدى الذي وضعه أصحابها . ولكن المقرر أنها حركة اناية الى العقيدة الحقى وهدي السلف الصالح واقتفاء أثر الرسول (ص) والصحابة ، ونبذ الحرافات والبدع ، وحظر الاستغاثة بغير الله ، ومنع التسبح بالقبور والتبذ عند مقامات الأولياء ، ولذلك يسونها عقيدة السلف، ويلقب الوهايون أنفسهم سلفين ، وأكثر اعتمادهم في الاجتهاد على الامام احمد بن حنبل ، والامام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية . (ش)

سوغ له . لاذ قد فاتهم أن الدور الأول لكل إصلاح ديني إنما هو الرجوع الى حالة أصل ذلك الدين المراد اصلاحه ، والاستمسك به على حاله الأولى استمسكاً لا يمتثل نقد نافذ ولا اتهام منهم . فالصلح الديني لا يرى سبيلاً للقيام بالاصلاح وبلوغ الغاية ، الا بنسخ جميع البع والأوهام اللاصقة بالدين ، دون اعتبار صفاتها وماهيتها . ليعتبرن العاقل اللبيب أنه لما بدأ الاصلاح البروتستنتي عندنا إنما كان مبدؤه على هذه الطريقة ، فقد نبذ المتعصبة المتشددة من البروتستنت المعروفين « بالمتطهرين » المصلح الكبير « أراسيموس » (١) واتهموه بالباطل ، وشددوا عليه النكير ، متعامين قائلين ان الحركة الاصلاحية إنما هي افتراء على الدين الصحيح ، ولا شأن لها سوى ابدالها « البابا » المصوم بالتوراة المصومة وأخذت اليقظة الاسلامية تنتشر انتشاراً مزداداً، ومبادئ التجدد والاصلاح الحقيقي تنمو نمواً مطرداً. وكان مما لاشك فيه وأمره طبيعي أن عادت الحرية العقلية الى الظهور شيئاً فشيئاً ، فلم يجهد المصلحون المسلمون في أوائل القرن التاسع عشر كثيراً حتى أدركوا المعتزلة ، فاستكسفوا دقاتها ونفخوا فيها نعمة روحية فصارت الى الحياة . وقد سبق لنا فأنبأنا على وصف النزاع الذي قام مشتداً بين أرباب مذهب النقل والسنة والتقليد من جانب وأرباب مذهب العقل أعنى المعتزلة من جانب آخر في أوائل عهد الاسلام ، فكانت الغلبة لأتباع المذهب الأول ، فاختلفت المعتزلة وامت آثرها امحاء حتى عادت فظهرت اليوم الى الوجود بظهور المصلحين الأحرار ، الذين ما فتئوا يؤيدون مذاهبهم وآراءهم الاصلاحية يراهن أولئك الجهابذة السابقين من المعتزلة ، وبأحدث وبآيات من الكتاب . فمن ذلك استنهادهم على قبول الاصلاح في الاسلام بما هو مأثور عن صاحب الرسالة من قوله : « إنما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشئ من رأيي فأنما أنا بشر » . رواه مسلم بهذا اللفظ عن رافع بن خديج . وقوله أيضاً « انكم في زمان من ترك فيه عشر ما أمر به هلك ، ثم يأتي زمان من عمل منهم عشر ما أمر به نجا » رواه الترمذي عن أبي هريرة . وروى أحمد في مسنده عن أبي ذر مرفوعاً : « انكم في زمان علمائهم

(١) هو سيدريوس اراسيموس (١٤٦٧ - ١٥٣٦ م) أحد الابطال الثلاثة في الاصلاح الانكليزي على عهد آل تودور . وزميله يوحنا هكوكف (١٤٦٦ - ١٥١٩ م) وتومامور (١٤٧٨ - ١٥٣٦ م) - (المرب)

كثير وخطبائه قليل من ترك فيه عشر ما يعلم هوى - أو قال هلك - وسيأتي على الناس زمان يقل علماءؤه ويكثر خطبائه ، من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا (١) »

وقبل أن نشرع في الكلام على آراء هؤلاء المصلحين المسلمين وما قاموا به من الاعمال في سبيل الاصلاح ، يجدر بنا أن نبحت ببحث المخلص الخبير في تقود النقدة الغربيين ، القائلين ان الاسلام بطبائعه غير قابل للاصلاح ، وبماهيته غير مستعد لايلاف روح العصور المترقية بترق الحضارة والعلوم ، اذ لم ينفرد الجدليون النصارى (٢) وحدهم في هذه التقود وما يدور حولها آخذاً ورداً بل شاركهم في ذلك غيرهم في أبناء الفرنجة كأتباع مذهب العقلية وفيهم « رينان » الفرنسي (٣) ونفر من أعظم الرجال الذين تقلدوا مناصب الأحكام العالية في العالم الاسلامي نظير اللورد كرومر (٤) واضرا به . أما هذا الأخير فقد أوجز رأيه بقوله : « الاسلام غير قابل للاصلاح ، أعني ان الاسلام مجدداً مصلحا إنما هو غيره حاضراً بل هو شئ آخر »

وعلى هذا فيجب علينا أن تدبر حق التدبر أقوال هؤلاء النقدة لوقوفهم أكثر من غيرهم على شؤون الاسلام ، ولأن منهم من عرف المسلمين في ديارهم عهداً طويلاً . على أنه بعد اقامة الوزن لهذا كله لا يتردد الباحث المقارن في تاريخ الأديان ، ولا سيما في آراء المصلحين المسلمين الحدباء ، وما استطاعوا القيام به من الاصلاح من القرن الماضي ، أن يدحض جميع هذه التهمات احصاء ، ويحبه أربابها بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة جيباً يجب ألا يغربن عن البال أن الاسلام في يومه هذا إنما يجتاز دوراً كذلك الدور الذي قد اجتازته النصرانية في أوائل عهد الاصلاح في القرن الخامس عشر . فالدوران حقا

(١) هلنا هذه الاحاديث بنصها المحرف كما أرشدنا إليها حضرة الاستاذ العلامة السيد محمد رشيد رضا

(٢) اقرأ كتب القس المرسل س . م . زويمر Rev. S. M. Zwemer الآتية : -

« بلاد العرب أو مهد الاسلام » Arabia, The Cradle of Islam (Edinbourg' 1900)

« مفندات الاسلام » Reproach of Islam. (London 1915) و « العالم الاسلامي اليوم »

The Mohammedan World of To-day وهي مجموعة محاضرات وخطب تليت في مجمع المرسلين

البرستنت المطود في القاهرة سنة ١٩٠٦

(٣) كتاب « الاسلام والعلم » Renan, l'Islamisme et La Science (Paris 1883)

(٤) كتاب « مصر الحديثة » Cromer, Modern Egypt. Vol 2 (London 1908)

متشابهان من حيث سيادة عقيدة النقل والتقاليد على عقيدة العقل سيادة مطلقة ، ومن حيث العداء المنتشر للحرية الفكرية والعلوم الطبيعية الصحيحة ، لا ينكر أن الواقف على كتب الشريعة الاسلامية والتاريخ الاسلامي للاءق الاخير ، يبدو له على الجملة أن الاسلام لم يتفق كل الاتفاق مع الحضارة الحديثة ، والتقدم العصري ، ولكن نقول أفلم تكن النصرانية على مثل هذه الحالة عينها في صدر القرن الخامس عشر ؟ فن يقارن بين الشريعتين الاسلامية والنصرانية من جميع وجوههما ، ير أن روح الأولى اليوم : وروح الأخرى بالأمس ، انما هي روح واحدة . فلننظر في شيء من هذا ، وهو تحريم الربا في الشريعة الاسلامية تحريماً لو أبيض لكان من شأنه القضاء على التجارة والصناعة باعتبار معنيهما اليوم . وقد كان من أمر غالب هؤلاء النقدة أن يذكروا غير مرة تحريم الربا هذا دليلاً على جود في الاسلام جوداً يمكك به عن مجارة الحضارة العصرية بيد أنه يجب الا يند عن البال أن الشريعة النصرانية قد حرمت الربا أيضاً تحريماً لا يوصف ، وقد كانت متشددة في ذلك ما استطاعت ، فكانت نتيجة الأمر أن اليهود انبروا للبدان وظلوا قروناً عديدة محتازين التجارة الأروبية وجناة ثمراتها ، لا يشاركون في ذلك مشارك ولا يزاحم مزاحم . وحدث أن « البرديين » أقدموا حيناً على التداين بعض التداين ، فعدوا هراطقة النصراني وكفرتهم ، واتهموا بارتكاب النواهي ، واضطهدوا شر اضطهاد . ولننظر في شيء آخر يزدد الأمر تحقفاً وانجلاء . يقول متعصب النقدة أن الاسلام يجافي الحرية الفكرية ، وينكر استكناه الحقائق العلمية الطبيعية فلعمر الحق لو شاء الاسلام أن يحتاج على النصرانية ويرد اليها افتراءها ، لكان لديه حجة أدمغ وبرهان أقطع مما هو مدون في صحف التاريخ النصراني ان « غاليلو » المشهور قد جلد وعذب ، وأذيق الهول أشكالاً ، منذ أقل من ثلثائة سنة ^(١) بحضرة المجلس « البابوي » ، ليرتد عن تعطيله وهرطقته التي جاهر بها يومئذ ان الأرض تدور حول الشمس ؟

أيليق بنا بعد جميع هذا أن تتعالم عما قاله محمد في شأن العلم ؟ وأن تنسكركر يمه له كل التكريم ، وهذه كلماته البليغة مازالت شاهداً على ذلك خالداً ، وهالك بعضها : —
« اطلبوا العلم ولو في الصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » . رواه العقيلي في

« الضعفاء » ، وابن عدى فى « الكامل » والبيهقى وابن عبد البر عن أنس رضى الله عنه
« اطلب العلم من المهد الى اللحد (١) » .

« لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة (٢) » .

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء (٣) » .

« العلماء ورثة الأنبياء (٤) » .

« أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال عزّ

وجلّ : وعزّى وجلالى ما خلقت خلقاً أكرم علىّ منك ، بك آخذ ، وبك أعطى ، وبك
أثيب وبك أعاقب (٥) » .

فهذه الأحاديث وكثير غيرها إنما هى برهان على ن الأحرار من المصلحين المسلمين
يؤيدون اصلاحهم الحرّ بالنصوص الدينية المأشوية لكلّ عصر ، والصالحة لمقتضيات كل دور
ولست أعنى بهذا أن دور هذا الاصلاح فى عالم الاسلام ؛ بحق كونه دوراً اصلاحياً حرّاً ،
سائراً سير التقدم والترقى ، فهو لا محالة مدرّك غاية الظفر وبالغ محجة النجاح التام . فالتاريخ
إنما يحوى بين دفتيه كثيراً من أخبار الأمم التى فشلت بعد جهد وجبّطت عقب نصب . وقد
علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نشأت المعتزلة الحرة فى أوائل الاسلام ، وكيف ذوت نجفت
فذهبت ريحها . بيد أن الحقيقة الكبرى التى ينبئنا بها التاريخ ، وليس باستطاعة أحد
انكارها ؛ أنه متى ما حان ميقات اليقظة الحقيقية فى أمة ؛ وأنشأت الصبيّة الجنسية تدبّ فى
عروق أبناء تلك الأمة ديباً مستمراً ، أصلح الدين لا محالة ؛ ونفض عنه غبار التقليد
الصوق به ؛ وحرّر من عهد رسفانه ؛ وحلّ محلاً يلامّ روح اليقظة ؛ وأخذ به أخذاً متفقاً
مع متجّه النهضة . فهل من أمة من أمم الأرض يقظت يوماً هذه اليقظة فهبت فسارت فى
سبيل العلىّ ثابتة الخطى رابطة الجأش ؛ فكان الدين حجر عثرة أو علة فشل لها ؟ اللهم لا .
قد تبلغ تلك الأمة فترةً تقف فيها مدلّةً صعباً من الصعاب ؛ أو حالةً اربعة من الارب ، أو

(١) أفادنا الاستاذ السيد رشيد رضاه أنه لم يره حديثاً نبوياً

(٢) رواه ابن عبد البر عن حديث أنس ، وفى بعض ألفاظه « مائة ركعة » ورواه آخرون بألفاظ أخرى

(٣) رواه ابن عبد البر عن الشيرازى عن أبى الرداء رضى الله عنه

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن أبى الرداء .

(٥) وفى رواية « ما خلقت شيئاً أحسن منك » .

مريحة عقبة قائمة في السبيل . ثم ما تزال مستحثة ركابها ومعملة المهاميز في مطيها ، حتى تبلغ الغاية وتقطف ثمرة الجهاد يانعة . وعلى ذلك فليعلم أنه ليس من الممكن بعد أن العالم الاسلامي يبنى عزمه فيتقاعس عن السير الدراك ما دامت روحه نائرة وعزمه متقدماً ، وهو فوق ذلك كله يزداد مساساً مع الحضارة الغربية ، واقبالاً عليها وأخذاً عنها . ان العالم الاسلامي لن يستطيع بعد اليوم البقاء على عزله كما كان فيما مضى ، حتى ولو شاء هذا ، اذ جميع ما فيه اليوم انما يبرهن على انقلاب شديد وانفعال عميق وتطور من حال الى حال . يقول النقطة مثل اللورد كرمر ان الاسلام منقحاً ليس الاسلام حاضراً ، بل شيئاً آخر ، أليس هذا ترى العجب كل العجب ؟ فلماذا لا يظل الاسلام اسلاماً ؟ إذا شاء المسلمون أن يظلوا الى ما شاء الله مسلمين ، وأن يظل دينهم دينهم ، وأن يستنبوا أبدأ بروح الرسالة المحمدية ، أنكرنا عليهم اسمهم كأنه شيء ، يجب أن لا يكون ؟ هذه النصرانية الحديثة تختلف اختلافاً بعيداً عما كانت عليه في الأجيال الوسطى ، وأكثرها اليوم يبيان أ كثرها بالأس ، وهناك تناف واسع الشقة وتباين شديد بين بعض الكنائس والبعض الآخر ، ناهيك بهما من تناف وتباين بعيدى المضطرب والغور ، وعلى هذا كله لجميع الطوائف النصرانية ما برحت تدعى نصرانية ، فبأنه علام هذا التعامى في حق الاسلام ؟

وقد حان لنا الآن بعد الذى تقدم أن نسط الكلام على قادة الاصلاح من المسلمين ، مدققين النظر في ذلك بتجرد عن الهوى بحيث يجب أن تكون أحكامنا مبنية على ما قاله هؤلاء المصلحون القادة من الأقوال وما قاموا به من الأعمال ، وليس على ما هو مدون عنهم في بطون الكتب والتواريخ التي ذهب واصفوها فيها مذهب الغرض ، فقد قال أحد المصلحين المسلمين وهو جزائرى^(١) قولاً سديداً : — « لا تقاس حضارة أمة بما في كتبها الدينية من السطور والعبارات ، بل بما تقوم به تلك الأمة من الأعمال . »

أنشأ المسلمون الأحرار المتأخرون مذهبهم الحر على الأسس التي وضعتها المعتزلة منذ ما يقرب من ألف سنة خلت . ومن تدبر تاريخ الاسلام حتى التدبر ، أيقن كل الايقان أن الاسلام لم يخل يوماً في جميع ماضيه حتى في أشد عصوره حلكاً من بعض المصلحين الأحرار ذوى العقول النيرة والمدارك الثاقبة والهمم الصادقة ، الذين انما كانوا يتوالون الحقبة بعد

الحقبة ، فيصرخون في المسلمين صرخات الاصلاح الشديدة ، ويرفعون علما من أعلام الهدى والارشاد ، واليك مثالا من هذا ، فقد كتب القراني المشهور ، وهو من رجال القرن السادس عشر : « ليس بعزير على الله عز وجل أن يكشف لعباده المخلمين في المستقبل ما لم يكشف مثله لغيرهم فيما مضى من العصور ، وان ينزل من نعمه الروحانية على مستحقيها من الحكماء في كل دور ، النعم التي تفيض نوراً على أبصارهم وبصائرهم فتهدبهم سواء السبيل »

فهذه الصرخات التي تواتت والمصاييح التي أوقلت في فترات مختلفة طيلة جميع الأجيال التي كرت على الاسلام من بعد انحداره عن الأوج ، قد كان من شأنها أن تمهد السبيل بعض التمهيد للمصلحين المتأخرين ، اذ لم ينتصف القرن التاسع عشر ، حتى كان قد قام في كل بلد من بلدان المسلمين في الرقعة الاسلامية عدد من رواد الاصلاح ودعاته ينهون ويوقظون ، ويحضون ويستحثون ، يبد أن هؤلاء كانوا نزرأ في بدء عهد الاصلاح الحديث فلاقوا في سبيل ذلك مثل ما لاقى غيرهم من الذين ساروا سيرهم ، اذهب رجال الدين ^(١) وسواد السذج يرمون المصلحين بالمروق من الاسلام ، فكان من طبيعة الأمر ظهور النزاع والمناجاة بين المسلمين في سبيل الاصلاح . وقد كانت الهند أول رقعة اسلامية رفعت فيها أعلام الاصلاح ، فقام فيها عصبة من المصلحين ، ذوو عزم شديد وعلى رأسهم « السر » السيد أحمد خان ، وانبروا يجاهدون في سبيل الدعوة الكبرى للاصلاح الحر ، فألفوا الجمعيات ونشروا الكتب والصحف ، وأنشأوا الكلية العلمية الاسلامية في عليكرة وأما « السر » السيد احمد خان فهو خير مثال من المصلحين الأحرار المتأخرين ، وكان مذهبه مذهب المحافظين المتمسكين بفضائل الدين ، فبكى حالة الاسلام ، وأعظم شقاء المسلمين

(١) كره صاحب الرسالة أن يبين وظائف دينية يتولى القيام بها رجال مخصوصون ، فالاسلام من حيث الأصل لم تنس كتبه الفرعية من من المسلمين يتولى القيام بالوظيفة الدينية ، علي حد ما هو الأمر في النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها . فأى مسلم كان يستطيع أن يقوم في المصلين اماماً ، يبد أنه على توالي الأيام نشأت طائفة من القوم العارفين بالأصول الفرعية والفقهاء الاسلامي ودرجت تتولى المناصب الدينية حتى عرفت بالتالي رجال الدين ، ثم نشأت طوائف أخرى كطائفة « الدراويش » وأمثالها . على أن الاسلام لم يكن يعرف شيئاً من هذا في أول عهده .

متقدماً غيرة وهابية. وكان يعتبر قدر الحضارة الغربية، ويحض أبناء قومه على ورود منها، وأخذ الصالح منها، فقد كتب سنة ١٨٦٧ في هذا الشأن يقول: «يجب علينا أن ندرس الكتب العالمية الغربية، وإن كان مؤلفوها ليسوا بمسلمين، وكان فيهما ما يخالف القرآن الكريم، وأن نأخذ إحداه العرب في أوائل عهد ملكهم، فانهم لما شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا ألبتة في دراسة كتب فيثاغورس وكتب غيره من فلاسفة اليونان».

ثم أخذت دعوة الإصلاح الحرّ تنمو نمواً سريعاً في الهند وتزداد قوةً ورسوخاً، وقام فيها من القادة المشهورين عدد كبير أعزوا شأنها اعزازاً كبيراً مثل مولوى شيراغ على والسيد أمير على العبقريين اللذين اشتهرا في العالم كله بما أخرجاه للناس من الكتب القيمة الباحثة في شئون الاسلام وروحه، وقد كتبها هذه الكتب^(١) باللغة الانكليزية الفصحى فذاعت ذبوفاً قل أن يعرف له مثيل، وهذان البطلان وغيرها أمثالهما في الهند لقبوا نفوسهم «بالمعتزلة الجديدة»، وشرعوا يجاهدون جهاد المصلحين العظام في سبيل الإصلاح ذائدين عن حياضه ومؤيديه بكل حجة دامغة وبرهان قاطع، ومنادين بوجوب استقصاء الشريعة الاسلامية واستمرار خيرها واستتار الأوفق منها لمقتضيات العصر، لأن لا سبيل لتجدد الاسلام التجدد الصحيح الباقي غير هذا السبيل، وقد كتب أحد هؤلاء القادة العظام وهو السيد «خدا بخش» في بعض كتبه يقول: «ما كان النبي ﷺ يبغض شيئاً بغضه للشرائع والقوانين الجامدة التي تقيد العقل فتقوده صاغراً أعمى. ليس القرآن الكريم الا كتاب هدى للمؤمنين. وليس عثرة في سبيل ترقى المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية». ثم جاء على كلام نبي فيه حالة الاسلام منه: «لعمري ان هذا الاسلام اليوم ليس هو الاسلام الذي أتى به صاحب الرسالة، بل ان الاسلام الذي جاء به النبي لبرئ من هذه السلاسل المؤلفة من حلقات الوظائف والمناصب الدينية^(٢)، وعار عن

(١) لعل خير ما كتبه السيد أمير على كتابه «روح الاسلام» (لندن ١٨٩١)

The spirit of Islam» (London 1891)

(٢) كنت مرة في المدينة المنورة فشاهدت فيها شيخ الحرم النبوي (وكان يومئذ زبور بك مدير المذاهب في الاستانة سابقاً) وبعض خدمة الحرم في ساعة مخصوصة بعد العصر، يدخلون الحجرة الفريفة

هذا النصب القائل والجهل الشديد ، والأوهام والأباطيل الكفرية . ثم أنهى كلامه قائلاً : « هل الاسلام عدو للترقي والتقدم ترى ؟ انى لأعوذ بالله من قائل نعم ، فتى وضع الاسلام في البوتقة وأخرج منه ما علق به من جيع هذه الأباطيل الخداعة ، كان ذلك الدين الساذج الحلو المساغ . فالاسلام على أصله ووصفه انما هو ركنان لا ثالث لهما : توحيد الله تعالى ، والايان بأن محمداً هو رسول الله ، وما عدا ذلك فليس من الاسلام »

وفي ذلك العهد كانت دعوة الاصلاح الحر قد طفقت تنتشر في كل من الأقطار الاسلامية ، فهبّ المصلحون الأحرار في كل بلاد يبشرون بالدعوة ويجاهدون في سبيلها بجد قوى وعزم أكيد فقد ظهر الأحرار في تركية وكانوا القابضين على أزمة الدولة خلال غالب المدة بين حرب القريم والعهد الحميدى ^(١) ، ومدبرى شؤون المملكة وساسة أمورها . وقام في أحرار انترك عظماء مثل الوزيرين رشيد باشا ^(٢) ومدحت باشا ، المجاهدين الكبيرين في سبيل تحرير الدولة العثمانية من ربقة ذلها ، وقائديها نحو التجدد والترقى . وظل الدعاء الأحرار في تركية يغالبون الأحوال مغالبة ويعانون من الاستبداد الحميدى مالم يعان مثله غيرهم ، فقتلوا تفتيلاً ، وأهبطوا جوف الأرض وقاع البوسفور ، ونفوا وعذبوا حتى كانت

لايماد الشموع والقيام بيض الخدعات المرسومة ، وقبل دخولهم يلبسون جيمهم وشاحاً أبيض شفافاً ، وكانهم يريدون بذلك زيادة التعظيم والتوقير ، فذكرنى ذلك بالأوشحة التي هي من النوع نفسه يلبسها بعض رجال الأديان الأخرى التي فيها ما ليس في الاسلام من الرتب الدينية والدرجات الكنية ، وذلك عند ما يدخلون الى معابدهم ، وم لا يلامون على ذلك لأن لخدمة الدين طبقة مخصوصة عندهم بخلاف الاسلام ، وصادف أن كان هناك السيد أبو بكر خان من عظماء الهند أحد أعضاء مجلس الهند الأعلى وهو ليس ممن يحسن التركية ولا العربية ولا يعرف من اللسن الاسلامية الا الفارسي ، وجميع تحصيله كان في انكلترة ، ولكنه كان يهيم روح الاسلام جيداً . فجاها وكاشفني بما وقع في نفسه من انكار هذه العادة . ولكن :

« لتبين سنن من قبلكم شيراً بشير وفراعاً بفراع حتى لو دخلوا جعر ضب لخنتموه » حديث شريف .

(١) ١٨٥٦ الى ١٨٧٨

(٢) مصطفى رشيد باشا أعظم رجال الدولة العثمانية في القرن الماضي ، تولى الصدارة في زمان السلطان محمود الى زمان السلطان عبد الحميد ، ونبغ له تلامذة في السياسة لم تعرف الدولة أمثالهم منهم أمين على باشا المشهور ، ونده فؤاد باشا الذي ليس بأقل شهرة منه ، ومنهم مدحت باشا أبو القاتون الاساسي أو الحاكم الفعوى الذي يقال له عند الاتراك « مصروطيت » (ش)

ثورة سنة ١٩٠٨ فذهبت عاصفتها بصرح الاستبداد وقوضت أركانها تقويضاً ، فبرزت « ترقية الفتاة » الى الوجود . وفي مصر كان لواء الاصلاح خفاقا يحمله أبطال عظام مثل الشيخ محمد عبده ، مصلح جامعة الأزهر ، وصديق اللورد كرومر الجيم . وفي سائر بلاد المسلمين كبلاد التر الروسية ، كانت دعوة الاصلاح تنتشر فيها انتشاراً سريعاً ، فكثير عديد الأحرار ورواد الاصلاح ودعاة التجدد (١)

على أن هؤلاء المصلحين الأحرار الذين أتينا على ذكرهم انما هم على مذهب الاعتقاد بوجود تنشئة الاصلاح في المسلمين تنشئة متدرجة مماشية لمقتضى العصر، وبأن الاسلام لقبيل أحسن قبول لكل تحول ونطور ، ومستعد بطابعه لا يلا ف تبدلات العصور والأدوار ، والتكيف على حسب ترقى الحضارات . فهم من هذا النحو محافظون كل المحافظين ، مستمسكون جهدهم واستطاعتهم بالاسلام الصحيح ، وهو عندهم من المجتمع روحه وغذاؤه ومن العمران مادته الحيوية ومنهله العنب

وهناك فريق آخر من المسلمين الذين بلغت منهم مؤثرات الحضارة الغربية مبلغاً عظيماً ، ووجل فيهم تيارها موعلاً كبيراً ، فأقبلوا على كل شئ غربي أغنا كان أم سميئاً ، وولوا ظهورهم جميع ماضيهم بحيث صاروا لا يحفلون بمفخرة من مفاخر تاريخهم ولا ببالون بذكري من ذكريات سالف أيامهم ، ففي كل من البلاد الاسلامية المترقية ، ولا سيما في البلاد التي ما زالت منذ عهد طويل في حكم الغرب كالعهد ومصر والجزائر ، عدد من أبناء المسلمين الذين طلبوا العلوم في الغرب ونشأوا نشأة الغربيين أخلاقاً وتهذيباً ، فباتوا لا يكتفون لشأن من شؤون الدين الذي ولدوا فيه ، ولا يهابون المصارحة بالتعطيل والاحداد ، فتلاشت في نفوسهم حرارة الاسلام وذهبت منهم عصبية الايمان ، وقد وصف اسماعيل حامد الجزائري حال مثل هؤلاء من أبناء قومه بقوله : « كان للاحداد الغربي مبلغ كبير من التأثير في جمهور ليس بالقليل من مسلمي الجزائر الذين وان كانوا ما برحوا مسلمين في الظاهر ، فهم يجهلون حد ما وصلت اليه روحهم الدينية من التلاشي . ان هؤلاء لا ينكرون الاسلام دينهم

(١) للاطلاع على حركة الأحرار في بلاد التر الروسية اقرأ كتاب أرمينيوس فباري ، « التهذيب الغربي

Arminius Vambery. « Western Culture
in Eastern Lands » (London 1950)

في الأقطار الغربية »

ومعتقدم ، غير أنهم قد أضحوا من فتور الغيرة الدينية في نفوسهم بحيث غدوا لا يبالون ألبتة بنشره في الناس وبال دعوة اليه في غير المسلمين . فالاسلام عندهم انما مقصور على من يأتي من بعدهم من الأولاد والاحفاد لحسب ، وليس يتناول أحداً سواهم من الخلق أجمعين فالحق أن الاسلام لبراء مما هم فاعلون ، وليس ذلك هو الحرية الفكرية على ما يزعمون ، بل انما هو الفتور فالتلثي (١) »

وانه لمن الغرابة بمكان أن نرى فريقاً آخر من المسلمين يختلفون عن الفريق الذي تقدم ذكره اختلافاً بعيداً وفي ذلك من التناقض والتباين ما يقضى بالعجب الشديد ، فان أتباع هذا الفريق الآخريهم من الناشئة الاسلامية ، متشبعون آراء الغلو الغربي كالألحاد والاشتراكية والبلفشية وغيرها . وغلوهم هذا لا يقل عن مبلغ ما هم عليه من التعصب الديني الكثير ، وهم يسعون جهدهم لعقد عروة اتحاد بينهم وبين فريق الرجعيين ، حتى اذا ما عقدت هذه العروة ، وكانت محكمة موثقة ، وتألقت منها تلك القوة الكبرى ، كانت نتيجتها الهلب صدور المسلمين كرهاً ومقتناً للغرب . ولما كان هؤلاء الغلاة يمدون نفوسهم في كل بلادهم فيها ، انهم انما قادة سواد الأمة بحق ، لذلك تراهم أبدأً نهماً أشد النهم في الظهور الى عالم السياسة والقيام على شؤونها كما يتسنى لهم بلوغ الغرض من ذلك سيطرة الغرب المنتشرة في الشرق الاسلامي دكاً . فهم والحالة هذه من غلاة الوطنيين لا يألون في السعي وراء تحقيق غايتهم ، ولا سيما بأشد الوسائل الرجعية في سبيل الجامعة الاسلامية ، وقد رأينا غير مرة كيف يجد هذا الفريق الملحد في استنارة الروح الاسلامية وهياج النعرة القومية ، فقد كتب السيد بخش يصف رجلاً من هذا الفريق بقوله : « انى أعرف سيداً مسلماً ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، موفق الحال كبير النجح ، انما في يديه أداة يستعين بها على عمله ، ولولاها لما حاز شيئاً مما هو حائر عليه من هذا التوفيق والنجح ، وما تلك الاداة الا الدين . فهو يبالغ في الظهور في بنى قومه مظهر المسلم المتمسك بشعائر الاسلام المتشدد فيها ، وكثيراً ما يقوم في الجوع خطيباً مرشداً حاضاً مستثيراً ، غير أنه على ما أعتقد في نفسى ليشتمل في

(١) كتاب اسماعيل حمد « الملون الفرنسيون في شمال افريقية »

نفسه على آراء في الاسلام وصاحب الرسالة مما ينبو عن سماع مثله سمع (فوثير) ولم ينطق بمثله لسان (غبن) »

واتنا سنسهب الكلام في فصلي « الجامعة المصرية » و « العصبية الجنسية » من هذا الكتاب على بيان أعمال هذا الفريق ، بيدأن ما يجب الاشارة اليه في هذا الموضوع اشارة مخصوصة ، انما هو التباين في المنهج والوسائل لتحقيق الاصلاح العام في العالم الاسلامي ، بين هذا الفريق ، وبين المصلحين المخلصين الصادقين الذين أتينا على ذكرهم من قبل ، ناهيك به من تباين ضار يفسد الاصلاح . فعلاة الوطنيين ، والضرر الذي ينتاب الاصلاح انما ناشئ من جانبهم ، دأبهم استنارة الروح الدينية في قلوب سواد الأمة ، وحل هذا السواد على مقت كل شئ غربي يروونه في بلادهم ، وعداء القرب في كل أمر سوى ما يؤول الى ترقية القوى العسكرية الاسلامية ، وفي هذه القطعة المقتطفة من مقال لأحد عطاء رجال « تركية الفتاة »^(١) يخاطب اوروبه ، مثال يبين على هذا : —

« أجل ، الدين الاسلامي لم يبرح ولن يبرح على عداء حضارتكم وتقدمكم . فاعلموا يا جهاذة القرب أن النصراني ، سواء أرفيعاً كان أم وضيعاً دينياً ، فانه بمجرد كونه نصرانياً ، ليس له عندنا منزلة ولو حقرت مهما حقرت من منازل الانسانية . وهذه مقاتلتنا لكم سهلة واضحة : ان من ضل سبيله فانكر وحدانية الله الواحد الأحد ، واتخذ له من دون الله أرباباً ، فقد ضرب بالبله والخبال ، فان رماصلته كان ذلك منا احتقاراً لديننا وانكاراً لبارئ الكائنات : وعلى ذلك فالتخذ الهأ غير الله والجاهد الوحدانية ، لمستحق للجنة الأبدية . وليس ذلك جميع الأمر بل ان أقدس عمل يقوم به المؤمن هو قتاله لهذا المنكر الجاحد ، حتى يحمله على الدخول في الاسلام ، أو يستأصل شأفته من على وجه الأرض . هذا ما يأمرنا به الهنا الواحد الذي لا اله الا هو . نحن لا نعرف في هذا العالم سوى المؤمن أو الكفار ، أما نحن المؤمنين ، فتصل صلات المحبة والاحسان والاخوة بعضنا ببعض ، وأما أنتم الكفار ، فاننا لكم ماقتون ومبغضون ومقاتلون . وشركم انما الذي يقول بوجود الله من حيث يعتقد بولادته من البشر ، فأشد هذا الضلال ، وما أبعد شقة الخلف بيننا وبينكم ! ان وجود مثل هؤلاء الكفار منكم بين طهرانينا لآفة في كياننا ولا غرابة فمعتقدكم انما هو

(١) كتبه الشيخ عبد الحق في جريدة شريف باشا « مشروطة » آب سنة ١٩٢١

غض من دين التوحيد ، ومعاشرتمكم ليست مما تطهر به ومعاملتكم عذاب لنفوسنا .
«وعلى هذا كله ، فإنا ننذركم نذراً من حيث ندرس أنظمتكم السياسية والعسكرية ،
فكأنكم والحالة هذه تدفعون إلينا أسلحتكم لنقاتلكم بها فشتد قوة بازائكم ونعظم
شوكه ، فوق ما تجود به علينا العناية الأزلية من العون عليكم في عصر أشعلتم فيه نار
غيرتنا الدينية وهجتم فينا ذكرى شهدائنا وأبطالنا المسلمين الذين استشهدوا في سبيل الدين
فنحن جميعاً على اختلاف مذاهبنا ومناهجنا متحدون على مقتكم وكرهكم ؟ وبعد هذا
كاه أيقودكم الوهم الى الظن أننا صائرون نحو حضارتكم يا أبناء الفرنجة ؟ نعوذ بالله من
ذلك ومنكم !»

ولاشك في أن مثل هذا المقال يلاقى في جمهور المسلمين وسوادهم آذاناً صاغية
وقلوباً واعية^(١) . وفي هذا الموضوع ينبغي ألا يذهب عن البال أن المصلحين الأحرار
ما برحوا الأقلين عدداً ، وإن كانت قوتهم متوالية الازدياد والاشتداد ، إذ يفوقهم السواد
الجاهل من الأمة ، السواد المجتازون اليوم دوراً من أشد أدوار التمخض والانتقال
والخروج من الظلمة الى النور ، أضف الى هذا أن من أظهر صفات السواد اعجابهم بشأن
بلادهم فيرونها خير البلدان وجنة الدنيا بلا مرء ، ويعدون كل بلاد سواها مستحقة المقت
والازدياء ، وإن اعترف المسلمون الذين على هذا الطراز بسلطان الغرب وتفوقه على الشرق
فإنما يفعلون ذلك على غل في القلب واحتدام الحفيظة — لذا تراهم يكرهون كل شيء
جديد ، ويشتعلون غيظاً وتأساً من جراء ما يشعرون به ويرونه حولهم من شدة خناق
السيطرة الغربية . وعلى الجملة فإن هذا السواد الجاهل هم بين أيدي قادة الجامعة الاسلامية
وغلاة الوطنية ، يتصرفون بهم كيفما شاءوا تصرف الخراف في صنع الطينة بين يديه .

فلاسلام اليوم تتجاذبه قوتان : قوة المصلحين الأحرار ، وقوة الغلاة الرجعيين . أما
الاولى فيها مناهج الآمال في الفوز بالاصلاح على ما تقتضيه سنة سير العمران والترقي ، ولها
من الزمن أكبر عون ونصير ما دام العالم الاسلامي لا حيدة له عن قبول مؤثرات الحضارة
الغربية ، لا بل ما دامت هذه الحضارة ثابتة الأركان بعيدة عن الانهيار والانقراض . وعلى
كل حال فالمتوقع أن الذين سيرفعون علم الظفر والغلبة بالتالي انما هم المصلحون الأحرار .

(١) في هذا المقال غلو عظيم لا ينبغي على أحد ، ولكن الغلاة لا تخلو منهم أمة ولا أتباع طريقة (ش)

ولكن من يستطيع الرجم بالغيب والكشف عن مخبآت المستقبل لينبئنا ما لعله نائى؟ فى السبيل من عقبات وما يقوم به الرجعيون الغلاة من وضع العثرات؟ وصفوة القول ، فلا أدوار الاصلاح فى عالم الاسلام اليوم ، ولا العلاقات بين الشرق والغرب بمعزل عن الأخطار الحاملة أجنة البلايا ، تلك الأخطار التى سنأتى على بيان أدلتها فى الفصول التالية من هذا الكتاب.

بقى علينا أن نذكر الحقيقة الكبرى التى يجب ألا تغفل ، وهى أن فى كل قطر فى أقطار العالم الاسلامى جهوراً من المصلحين الأحرار يزدادون عدداً ويستنون قوة وينضم الى لوائهم رجال من سائر الأحرار الخبراء الراسخين علماء بأسرار نهضات الأمم وتقدمها ، والى جانب هذا الفريق فريق المحافظين ، وجيهمهم ، وقد رأوا حالة الاسلام والمسلمين ، انما يعملون غضبا متحدة متماسكة الأطراف فى سبيل الاصلاح العام فى المعمور الاسلامى ، منتهجين المناهج القويمة والسبل السديدة ، شاعرين حقاً بان الفترة لعصيبة وعلمين أن الدور دور انتقال شديد وحاسبين فوق جميع هذا ان جهادهم هذا الجهاد هو من أشد الأعمال نبالة والمقاصد مفخرة والواجبات شرفاً . أما ما يتوقع من التطور فى الشريعة الاسلامية وقوانينها ازاء هذا الاصلاح ، فليس من شأننا البحث فيه فى هذا المقام . انما التاريخ ينبئنا أنه متى اقتضت سنة النشوء اصلاً ، وأعدت أسبابه وعلله ، واجازته دوراً اختمرت فيه عناصره ، كان ذلك الاصلاح واقعاً ولا تبدل لسنة العمران البشرى .

وعما لا مرأى فيه أن روح الاصلاح ، على اختلاف مظاهرها وصورها ، قد تغلفت فى الاسلام وددت فيه ديباً هائلاً وفشت فى كل عرق من عروقه فحركته فتحرك ، فأخذ ينفعل انفعالا عظيماً . فعالم الاسلام اليوم هو غيره منذ عشرة عقود . قد استطاعت الوهابية التى ظهرت منذ أكثر من مئتي سنة أن توقظ الاسلام فاستيقظ مدعوراً ، فإكانت تلك العصية الدينية الا الضرم فى النار أو الفريسة نمت لجأء بأطيب الثمار ، أضف الى هذا أن روح الحرية والحركة ، والمؤثرات الغربية فى زائد انتشار وانبثاق فى كل رقعة من الرقاع الاسلامية وان كانت المخاوف والمحنورات تقرأ فى جبهة المستقبل ، فى جبهة المستقبل أيضاً تقرأ الآمال الحسان .

المبشر زويمر ومفترياته

للذكريتين

اشتهر زويمر هذا بعداوة الاسلام ، وحرر كتباً افترى فيها على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ما شاء وأودع فيها من التدليس ومن التزوير ومن قلب الحقائق ومن كل ما ينفر الطباع من الاسلام ما حقه أن يكون سمة عار باقية على الدهر في جبهة التبشير بكتاب شريف كالانجيل هو أعلى من أن يتوسل المتوسل الى نشره بالكذب والافتراء . ولقد اطلعت له مؤخراً على كتاب عنوانه « الاسلام . ماضيه . حاضره . مستقبله » فيه معلومات كثيرة عن مساعي المبشرين في أقطار الاسلام كلها قطراً فقطراً ، وعن درجة نجاح تلك المساعي وحبوطها ، مما هو حرى بالاطلاع بل بانتباه العلماء والمفكرين من أهل الاسلام لمقاومة دسائس تلك الجمعيات المنبئة في جميع تلك الأقطار ، تحت أشكال متنوعة ، منها رسالات دينية ، ومنها بعثات جغرافية ، وأكثرها مستشفيات ومصاح وملاجئ لافقراء ، وزويمر هذا من رأيه في طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية — حيث يعلم أن قلعتهن ثمة منيعة — بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم ، واستمالة أهوائهم ، وتمريض أجسامهم ، ومؤاسة فقرائهم ، وبالاختصار استئثار أمراضهم وعللهم وكروبهم وخصاصاتهم ، ولا ينكر أن هذا الرأي هو رأى مجرب خيرساح في جزيرة العرب وفي كثير من بلاد الاسلام وعلم ما يعوز الاسلام من وسائل التعليم والتمريض ، وما عليه المسلمون من اهمال هذه الجهات بالرغم من كثرة الأوقاف التي يأكلها نظارها ، والمعاهد الخيرية التي درس معظمها ، وصارت أترا بعد عين .

وقد استوفى زويمر تاريخ التبشير وسيره في البلاد الاسلامية من مشرقها الى مغربها وجدد الله على نجاح الرسالات الدينية المسيحية في كثير من الأصقاع لا سيما في بلاد الجاوى ، حيث معدل من ينتصرون كل سنة من المسلمين هو ٥٠٠ نسمة ، وقد بلغ مجموع المنتصرين بزعمه في الجاوى نحو ١٨ ألفاً ، وزعم أن الهند أيضاً شاهدت من نجاح هذه الرسالات شيئاً

كثيراً ، وأن ٢٠٠ مبشر يطوفون اليوم في شمال الهند هم من متنصرة الاسلام . ومع كون زويمر هو برتستانياً قحاً^(١) فهو لا يفرق بين أحد من رسله ، وهو يغتبط بمساعي الرسالات الارثوذكسية الروسية بين التتر ، ومجاهيد البعثات الكاثوليكية في افريقية ، ويدعو النصرانية كلها الى توحيد العمل وشن الغارة على الاسلام من كل جهة ، ويحث على اغتنام فرصة الضعف العظيم الذى حل بالاسلام على أثر الحرب العامة ، وانهيأر قوته السياسية ، لأجل جوب أقطاره ، والجوس خلال دياره ، وتأسيس مرا كز التبشير في البلدان الاسلامية التى كان دخول المبشرين اليها ممنوعاً . ويقول ان أول خطوة جرت لأجل توحيد الأعمال واشراك الحركات بعضها مع بعض هى المؤتمر التبشيرى الذى انعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ واجتمع فيه ٦٢ مبشراً ونحوهم من المدعوين بالنيابة عن تسع وعشرين جمعية من أوربا وأميركا ، غايتها كلها تبشير المسلمين ووضع هذا المؤتمر أوزاره عن نداء عام الى العالم المسيحى بأجبه لاستجلاب نظر اهتمامه الى هذه المهمة العظمى وهى حل المسلمين على الانجيل^(٢) وعقب هذا المؤتمر مؤتمرات آخران أحدهما في « لوكناو » بالهند والثانى في « اديمبورغ » بانكلترة .

ويقرع زويمر الحكومات المسيحية على تصغيرها من أجل ملاحظات سياسية في عضد رسالات التبشير ، ويعقد مناحة عظيمة على ترك انكلترة ولاية « كافرستان » (شرقى افغانستان) لعبد الرحمن خان أمير الأفغان حتى بعث اليها أحد قواده غلام حيدر فحمل أهل تلك الولاية على الاسلام فاسلموا قاطبة . ويقول ان أهالى مقاطعة كيلان في بلوجستان لبسوا مسلمين الا بالاسم فالبدار البدار الى تنصيرهم قبل أن يصيروا مسلمين متعصبين . . . وفى جزيرة بورنيو من البحر المحيط لا يزال جيل اسمهم « الداياكس » على الوثنية ولكن يحيط بهم المسلمون ؛ فتجب المبادرة الى منع دخول الاسلام بينهم قبل فوات الفرصة لئلا تعظم النفصة .

والطامة الكبرى عند زويمر هى فى أواسط افريقية ، فانه يذوب لهفأ على انتشار الاسلام فى تلك الأجزاء بهذه السرعة الغربية ، ويتأوه على كونه فى السودان كله لا يوجد

(١) أصل نسبه من نورماندية بفرنسا ولما طردوا البرتانتان من فرنسا فى زمان لويس الرابع عشر ارتحل سلفه الى هولانده ثم الى أميركا

(٢) مع أنهم يعتقدون بالانجيل بدون حاجة الى عناء زويمر وأمثاله

أكثر من عشرين مبشراً ، وينقل بعض شواهد من مجلة التبشير العالمي (Missionary Review of the World.) بتاريخ ١٩٠٦ ثم بتاريخ ١٩٠٧ معناها أنه في سنة ١٨٩٨ كان عدد المسلمين قليلاً جداً في اده (Iddah) على النيجر وأنه في سنة ١٩٠٦ كان يوجد منهم في كل مكان الى أبو (Abu) وأنه اذا بقيت الحال على ذلك المنوال فلا يرجح أن تبقى قرية وثنية على طول (النيجر) الى سنة ١٩١٠ (فاظنك الآن ونحن في سنة ١٩٢٣ ؟) وبالأجمال يقول ان نحو ٥٠ مليوناً في أواسط افريقية وأطرافها قد أسلموا بالرغم من مساعي المبشرين الذين لم يعرفوا من أين تؤكل الكتف .

ويتكلم عن مجاهيد الجمعيات التبشيرية في عدن ، والشيخ عمان منذ سنة ١٨٨٧ . وفي بغداد والبصرة والبحرين ومسقط منذ سنة ١٨٨٩ . ولكن فيما يظهر لم تحصل الجمعيات في البلاد العربية هذه على شيء من النجاح الذي صادفته في الهند والبنجاب وبلاد الجاوى ويقول ان بعثة اسوجية احتلت بخارى وخوقند وكاشغر وياركاند ولا يوجد بعثة بروتستانية غيرها في آسيا الوسطى ولكن بعثة الروس الارثوذكسية قامت بأعمال جليلة بين مسلمي الروسية .

ويقول ان الجمعيات التبشيرية لا تزال غير قائمة بواجباتها فيما يتعلق بمسلمي بلاد العرب الداخلية ، والقوقاس ، وجنوبي فارس ، وتركستان ، وأفغانستان ، وبلوچستان ، والصين وجزر الفيلين . ويشكو مر الشكوى من كون بلاد الأفغان لا تزال بكراً لم تطمئن قدم مبشر ، وأن الأفغان يمنعون المبشرين من دخول أرضهم ، الا أنه يعنى نفسه بأن حكومة أفغانستان لا بد أن تسمح للمبشرين بالدخول ، ويقول ان الجمعية البرسيبتيرية الأمريكية قد هيأت برنامجاً لذلك وستجمل مشهد على (شمالى أفغانستان) مركزاً للحركات^(١)

ومما يروى أنه في مؤتمر « ادنبورغ » قدم أحد الأعضاء الذين جاؤوا الصين تقريراً يتضمن البرنامج اللازم لمشروع تنصير مسلمي الصين الذين هم منتشرون في ١٥ ولاية من أصل ١٨ من هذه المملكة العظيمة .

وهو يرجو أن ثمرات التبشير في السنين المقبلة ستكون أعظم منها فيما مضى ، ولا ينكر أن تنصير السود هو عقبة كأداء نظراً لبعض الزوج للجنس الأبيض الاوربي على

(١) الذى نقله أن أفغانستان مصمة أن لا تدع بعثة دينية أجنبية تدخل أرضها .

اطلاقه ، وتضامنهم في وجهه ، ولكنه يوجب على أوروبا اجتياز هذه العقبة وعدم المبالاة بالصعوبات التي تلقاها من جانب السود ، وأن تعلم أن هذه الفرصة اذا ضاعت فلا تعود أبداً فينبغي أن تكون هزيمة الاسلام في الحرب العامة اتصراً للكنيسة المسيحية (هكذا بالحرف) وينتقد طريقة بعض الحكومات المسيحية التي - أحياناً بدون روية - تصلح ادارة الاسلام الدينية ، وتنظم أوقاف المسلمين ، مع أن هذه الأوقاف جسيمة دارّة ، يمكن بها عمارة المساجد وتسهيل العبادة وتعزيز قوة الاسلام الدينية ؛ وقد شوهد كيف زادت سكة حديد الحجاز عدد زوار المدينة ، وكيف زادت خطوط الترامواي زيارة كربلا ، وصارت شركة كوك تسفر أغنياء المسلمين الى مكة . وأما من جهة التعليم فاذا اتبعت الحكومات الأوربية برنامج التعليم التي هي جارية عليه في السودان والنيجّر^(١) . وفي كلية غوردون في الخرطوم فان هذه الخطة هي مما تزيد الحواجز بين الاسلام والنصرانية . . . ثم يقول أما المدارس العليا التي تأسست لمكافأة الصادقين من المسلمين^(٢) فلمعمرى أكثر الأحيان لم تكن تلك الصداقة حقيقية بل هي مداواة منهم ؛ ولا يكون لتلك المكافآت ثمرة سوى زيادة تمسك المسلمين باسلامهم بل احتقارهم لسادتهم الاوربيين الذين يرونهم قد أصبحوا يتبصصون لهم^(٣)

وأخيراً يقول ان الاسلام قد تلاشت قوته ، وانهارت دعائمه ، وسقطت مكاته الأولى ومشت سكة الأجنبي في حقله ، فلا تناسب زيادة قهره واعنائه والظهور بمظهر الشماتة به لئلا يحرك ذلك من عصبية أهله ، ويشير من نخوتهم ، ويؤجج من نيران احقادهم ، فينهضوا ويشوروا للقاومة ، بل يلزمنا أن نأخذهم بالوداعة والملاطفة وبذرف الدموع لأجل أن نستل سخائم صدورهم ، وتمكن من حرث ذلك الحقل الذي صار مباحاً أمامنا . . . على أنه لا يؤخذ من ذلك أنه يجب سلوك مسلك الضعف مع الاسلام والعدول الى التهيب ، اذ لا يعقل أنه اذا دعى الانسان الى بيت لم يبق له أبواب ولا نوافذ أن يضع وقته في احتشام أصحاب ذلك البيت ومعاملتهم برقة الأدب والكياسة . . . انه يتحتم سوق الحملة بحكمة ومهارة

(١) يظهر أن الظروف قضت عليها بالترخيص بمحة من التعليم الديني

(٢) أي الصادقين للحكومات الاوربية

(٣) من رأى زوير اذاً أن الحكومات الاوربية يجب أن تستخدم دماء من تلى عليهم من المسلمين وأموالهم ومجاهديهم وتحفر من أن ترمى خواطرمهم بعقش يشرون منه أنها تهم لهم وزناً .

ولكن يتحتم سوقها بشدة ويجب أن الكنيسة تعي جميع قواها من الشرق الى الغرب، ومن الشمال الى الجنوب، تحت راية مؤسسها وتشن هذه الغارة على الاسلام الى أن تصل الى غايتها الخ.

هذا مما قطفناه من كلام زويمر مع تلطيف كثير من العبارات وحذف كثير منها . ونحن نجواب المستر زويمر وأمثاله ممن فيهم من هو مقتنع بعمله مبتغ وجه الله في جهده، انه ان كان المقصود دعوة الاسلام الى الانجيل فالمسلمون يؤمنون بالانجيل الشريف ورسالة المسيح صلوات الله عليه وسلامه وان كانت الدعوة هي الانجيل في الظاهر والسيطرة الاوربية في الباطن فهذا حلم من أحلام المبشرين، اذ لا بد للاسلام أن يستعصى على هذه الدعوة ويقف في وجهها سداً منيعاً. وان كان مقصد هؤلاء المبشرين هو خلاص النفوس والاشفاق من هويها في النار الحاطمة، والعياذ بالله، فالأولى بهم أن يذهبوا الى الوثنيين الذين هم أكثر من المسلمين عدداً في الدنيا، وأحوج الى الارشاد، بل أن يهدوا الملايين العديدة من أنفس المسيحيين الذين نبذوا الدين ظهرياً ودانوا بالتعطيل والاحاد وأخذوا يحاربون الكنيسة. فعلى الانسان أن يدبر بيته قبل أن يمد يده لتدمير بيت جاره. أما المسلمون فلا حاجة الى تبشيرهم لأنهم يعبدون الاله الحق ولا يشركون به أحداً، ولأن شريعتهم ملاءم بالفضائل والآداب ومكارم الأخلاق واقامة ميزان العدل حتى مع العدو وتحت على العلم والانسانية والحضارة وانعامة الملهوف وحب القريب، وعند اللزوم تذرف الدموع أيضاً على البائسين.

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

للإمام شكيب

أستاذنا فريد عصره ، ووحيد مصره ، حجة الاسلام الشيخ محمد عبده ، أكرم الله مشواه ، تعرف اليه محرر هذه الحواشي في عهد الطلب ، أيام كان هو منفيًا في بيروت على أثر الحادثة العراقية وذلك سنة ١٨٨٦ ، ولا زمته وأخذت عنه واستفدت منه بقدر ما وسع فتور خاطري ، واستفقت من بحر حكيمته ما أمكن أن يناله قصور عارضى ، ووجدت فيه الضالة التي كنت أُنشدها ، والبغية التي كنت أبحث عنها ولا أجدها ، ورأيت في فهمه العقيدة الاسلامية الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل الى هذه الحال ، وان يقبل عثاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لا تقال . وما زلت بعد أن عاد الى وطنه مصر الى أن أدركته الوفاة رحمه الله أجاذبه جبل المكاتبه ، وأقف على رأيه في أكثر الأمور جزئياً وكلياً ، وأستطلع منه طلع الأحوال ، وهو يث الى مالا يبش الى غيرى من سوانح فكره ، وذوات صدره وبينما كان بعض حساده يتهمونه بمباشرة الدولة المحتلة ومواقفة اللورد كرومر كان يكتب الى قائلا : « الأحوال هي مما يتعاطل له الأمل ، ويعجز عن وصفه القلم » فكنت أعلم أنه ما أراد الاتخفيف الداء ، وتقريب أجل البلاء ، وتمهيد طريق الجلاء وما زال شأنه يعا ، وحقيقته تظهر ، وجوهه ينجلي بالحلك ، وعقيدة فضله تتمحص من الشك ، الى أن اتفق الناس على كونه أحد أفذاذ الشرق الذين قلما جاد بهم الدهر ، وواسطة عقد الصلحين المجددين في هذا العصر ، وظهر أن طريقته الاسلامية العصرية سترداد مع توالي الأيام انتشاراً ، وتكون هي طريقة المستقبل ومعول الآتي

ولقد كان جامعا بين العلم والعمل ، فلا تجد ما يساوى فضله وبلاغته وثقوب أفكاره ، وقوة ملكته في الفلسفة ، سوى علو مبادئه ، و بعد همته ، وغزارة مروءته ، وطهارة أخلاقه ، وهيئات أن يأتي الزمان بمثله

ومن حسناته الكبرى ، وأياديه التي ملأ بها طباق العالم الاسلامي براء، أخذته بيد الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا في نشر مجلة « المنار » التي هي لسان حال ذلك المصلح العظيم وترجان أفكاره . فهي والحق يقال أحسن مجلة ظهرت في باب الاصلاح الديني وتطهير الاسلام من شوائب البدع واعادته سيرته الأولى في عهد السلف . وتأليفه مع المدينة الحاضرة . كما أن الاستاذ السيد رشيداً المشار اليه هو الأولى بأن يخلف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مشروعه وفقه الله وسدد خطاه .

الاستاذ الاكبر السيد محمد رشيد رضا

رشيد رضا

و يطول العهد بعد الأستاذ الأ كبر السيد رشيد فصح الله في أجله حتى يقوم في العالم الاسلامي من يد مسده في الاحاطة والرجاحة وسعة الفكر وسعة الرواية معاً والجمع بين العقول والمنقول والفتيا الصحيحة الطالعة كفلق الصباح في التوازل العصرية والتطبيق بين الشرع والأوضاع المحدثه مما لا شك أن الأستاذ الأ كبر فيه نسيج وحده اتهمت اليه الرئاسة لا يدانيه فيه مدان مع الرسوخ العظيم في اللغة والطبع الریان من العربية والقلم السیال بالفوائد في مثل نسق الفرائد والخبرة بطبائع العمران وأحوال المجتمع الانسانی ومناهج المدنية وأساليبها وأنواع الثقافات وضروبها الى المنطق السديد الذي لم يقارع به خصما مهما علا كعبه الا أخمه وأزمره ولا نازل قرناً كان يستطيل على الأقران الا رماه بسكاته وأجله . وأجدر بمجموعة « المنار » أن تكون المعلمة الاسلامية الكبرى التي لا يستغنى مسلم في هذا العصر عن اقتنائها كما أن التفسير الذي وفقه الله به لكشف أسرار كتابه العزيز هو من آياته الباهرة التي خللت اسمه في هذه الأمة وقرته بكبار الأئمة وله من المواقف الشريفة في النضال الديني عن الاسلام والمرامة عن عقيدته الصافية ومن الكتب الجمدلية في رد شبهات أعدائه من أبناء الملل الأخرى ومن الملحدة والمعطلة ما لا يقدر أحد في عصرنا هذا أن يدرك فيه شأوه ولا يستطيع جهبذ من جهاذة الاسلام أن يبلغ فيه مدته ولا نصيفه . انه الرجل الذي لودعا كل مسلم باطالة حياته حباً بخدمة الاسلام والمسلمين لكان بذلك جديراً . وليس في كلامنا هنائش من الاطراء ولا ثمة ما يدعونا اليه وانما أمرنا بأن لا نبخس الناس أشياءهم وهو أمر الهى صريح كما أننا لسنا ممن يرى المعاصرة حججاً عن تقدير الفضائل فمرها بل ترى أن النصف يجب أن يزن أقدار الناس في الحياة وبعد المات بجزان واحد وان كان من ضرائب البشرية أن تقسو على الأحياء وأن تحنو على الأموات وأن لا تعطى الانسان حقه غير منقوص الا اذا فات

ولقد حرر السيد رشيد تاريخ أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله في مجلدين كبيرين يزيدان على أثنى صفحة وسيعززها بمجلد ثالث فيكون من الفضول أن نقول انه لاتاريخ للشيخ محمد عبده غير هذا التاريخ وهو الذي فيه ترجمة حاله بتفاصيلها وحياته من المهد الى اللحد مع ذكر منازعه بدفانها وعقائده بحقائقها ومنشأته بنصوصها وأخبار الحوادث التي خاضها والمسائل التي راضها وقد دخل في هذا الكتاب تاريخ السيد جمال الدين الافغانى وسير أعلام آخرين وتلخيص الحوادث العربية في مصر وروايات كثيرة عن الخديوى السابق ووثائق تاريخية لا توجد في كتاب آخر ومباحث عقلية وشرعية وسياسية وأدبية ولفوية لا يعثر القارئ على مثلها في غير هذا الكتاب . وللقدير اليه تعالى راقم هذه الأسطر في الجزء الأول من هذا السفر الجليل فصل عن حياة الأستاذ الامام ايام كان في بيروت وكنا متصلين به وهو نحو من ١٤ صفحة ولهذا الفصل تمة وعد الأستاذ الرشيد بنشرها في الجزء الذي لم يظهر بعد

ولما كان الأستاذ السيد رشيد من كبار المحدثين وله في هذا الفن من الطول ما ليس خافياً عن أجدد فقد امتزج خلق التمهيص بدمه ولجه وأصبح لا ينشرح صدره الى الخبر الى اذا وثق بأسانيده وآمن بامانة رجاله . وقد يسوق الرواية من جملة طرق الى أن يتلج بها الصدر ويطمئن لها الفكر . وهذه طريقة السلف عندنا لا يروون شيئاً لا من الأحاديث النبوية وأخبار الصحابة فحسب بل لا يروون شيئاً من الأشعار والآداب وسير البشر والحكايات الا عنعنوه مسلسلاً وربما أشاروا الى درجة رجاله فقووا وليتوا كما لا يخفى على من طالع كتبهم وكانت له ألفة بطريقتهم . وهذه الطريقة هي اليوم طريقة الاوربيين أيضاً لا يروون خبراً ولا ينقلون جملة ولا أثراً الا وضعوا في الحاشية مأخذها والكتاب الذي أخذوها عنه مع ذكر الصفحة ومع ذكر طبعة الكتاب وتعيين المطبعة احياناً وكل ذلك توثيقاً للنقل ونصحاً بالتبليغ وتمهيداً للحكم الصحيح الذي لا ينهأ للقارئ الا بعد مقدمات صحيحة وبيانات رجيحة

ومن نفائس نأيفه السفر الذي أخرجه مؤخراً تحت عنوان « نداء الى الجنس اللطيف » فيه بيان حقوق النساء في الاسلام وتحقيق مسائل اجتماعية تدور أكثر من كل المسائل في هذا العصر مثل تعدد الزوجات والنسرى والحجاب والسفور والطلاق وما يتعلق بأزواج النبي ﷺ من الأحكام والحكم وتكريم النساء وبر الوالدين وترية البنات وغير

ذلك قد جاء الأستاذ في هذا الكتاب بالآيات بينات على حكمة الشرع الاسلامي وغفلة
المعارضين عليه جهلاً أو تجاهلاً. ولا يسعني الا توصية الخلق بمطالعة هذا الكتاب اذ ذلك
أحسن ما يمكن وصفه به. ان الجواد عينه فرأه. ولكني أورد شذرة واحدة من هذا
الكتاب من قبيل التمثيل ليقس القارئ عليه قال في باب التسرى الصحيح في الاسلام:
«كل ما كانت عليه الأمم القديمة وكل ما عليه الامم الحاضرة من التسرى واتخاذ
الأخذان فهو في شرع الاسلام من الزنا المحرم قطعاً الذي يستحق فاعله أشد العقاب وكل
من يستبيح هذا الفجور الخفي وما هو شر منه من السفاح الجلي فهو برئ من دين الاسلام
» وأما التسرى الشرعي المباح في الاسلام فهو خاص بسبايا الحرب الشرعية اذا أمر امام
المسلمين الأعظم خليفة الرسول ﷺ باسترقاقهن وانما يكون له أن يأمر بذلك اذا ثبت عنده
بمشاورة أهل الحل والعقد أن المصلحة فيه أرجح من المنّ عليهن بالعتق ومن افتداء أسرى
المسلمين وسباياهم بهن ان وجد عند الأعداء سبايا وأسرى منا. فليس الاسترقاق واجبا في
الاسلام لكنه يباح اذا كان فيه المصلحة التي لا يعارضها مفسدة راجحة. ولكل حكومة
اسلامية أن تمنعه بل منعه من مقاصد الاسلام العامة والاسترقاق المعهود في هذا العصر للسود
والبيض كله باطل في الاسلام فالتسرى بالنساء اللاتي يحتظفن النحاسون أو يبيعهن الآباء
والأقربون أو يفريهن التجار والقوادون كله عصيان لله ولرسوله»

فن مطالعة هذا المثال تعلم أن ما يفهمه السيد رشيد رضا من أسرار الشرع لا يفهمه
غيره. ولو كان أحد الفقهاء الجامدين وسئل عن هذا الأمر لأجاب بلا تأمل: ان
الاسترقاق مباح لا بل حرام منعه وان سبي نساء الكفار جائز بلا نزاع وحرام منعه وهكذا
جاء الاسلام والأمور الشرعية لا تعمل بل يجب أن تقبلها على علاتها. فان قلت له: ان هذه
الطرق غير مألوفة في هذا العصر وان الاستمرار عليها مضر بالامة الاسلامية وبما يجز لها
المقت والعداوة قال لك قولاً واحداً: هذا هو ديننا ولا نعلم غير هذا. ولم يفكر فيما وراء
هذه الأحكام بهذا العصر من الضرر بالاسلام والخطر عليه

أما الاستاذ السيد فانه يصرح لك بما يحفظ من النص ويفهم من روح الشرع بأن
الاسترقاق مباح الا اذا عارض ذلك مفسدة راجحة وان لكل حكومة اسلامية أن تمنعه لأن
منعه هو من مقاصد الاسلام العامة. ثم يفتيك بأن السبي في الاسلام لا يجوز الا باذن
السلطان وهذا الاذن من السلطان لا يصح له بمجرد رأيه بل يجب أن يؤخذ فيه رأى عقلاء
الامة الخ

الفصل الثاني

في

الجامعة الاسلامية

اليقظة الاسلامية شأن كل انقلاب عظيم ، نشأت نشوءاً ملتبسا فاشتبه بعض متجهاتها ببعض اشتباهاً كبيراً. ولا عجب فذلك انما هو من طبيعة كل دور من أدوار اليقظة والتنبه وأطوار الانتقال والتحول . فقد بدأت اليقظة الاسلامية بالدعوة الوهابية الدينية الاصلاحية ، ثم أخذت تحتاز أدواراً عديدة منشعبة المناسخ وأحياناً متناقضة الصفات . وقد سبق لنا فبسطنا الكلام في الفصل السابق من هذا الكتاب على متجه الاسلام اليوم ومسيره ومنتجائه في سبيل الاصلاح المترقى على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وأوضحنا أن روح الاصلاح ما فتئت تدب في كل عرق من عروق العالم الاسلامي ديباً طبيعياً هائلاً ، فتدفعه الى الأمام دفعاً متواصلاً ، ولم تغفل مبلغ ما للحضارة الغربية من التأثير في ذلك . وقلنا فوق جميع هذا ان المصلحين الأحرار الذين تناط بهم الآمال في احراز الفوز والغلبة ، مابرحوا الاقلين عدداً ، بينا سواد المسلمين ما انفكوا ينتفضون مزمقين حجب الجهل ، ويستيقظون من هجمتهم استيقاظ المنعور ، يقودهم قادة يختلفون كل الاختلاف عن المصلحين الأحرار قادة هم أميل الى ركوب خطط العنف والمساكنة ، منهم الى انتهاج مناهج الرفق والموادعة يؤثرون بحفاة الغرب والاعراض عن الأخذ عنه ، الى مقاومته وايغار الصدور عليه . بيد أن هذا التيار الذي يثيره ويوقد ناره هؤلاء القادة وأمثالهم ، وشأنه شأن كل تيار مرافق لحال الانقلاب مصاحب لدور الانتقال ، لم يستقر على قرار ، ولا عرف لأفقه حد ، ولا وضع مجراه ولا بان متجهه بيباباً تاماً بعد ، وهو على اختلاف صفاته ومنقلباته لا يخرج عن وقوعه في مضطرب « الجامعة الاسلامية » و « العصبية الجنسية » وهاتين باسطلون الكلام على :

﴿ الجامعة الاسلامية ﴾

الجامعة الاسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام انما هي الشعور بالوحدة العامة

والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الاسلامي . وهي قديمة بأصلها ومنشؤها منذ عهد صاحب الرسالة ؛ أي منذ شرع الرسول يجاهد فالتف من حوله المهاجرون والأنصار معتصين معه بعاصمة الاسلام لقتال المشركين . وقد أدرك محمد ﷺ خطورة الجامعة وعلو منزلتها في المسلمين حق الإدراك ؛ وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن وجلل المقام في قلوب المؤمنين ؛ فغرس غريستها بيديه في نفوسهم ؛ فتمت وتغلقت ، وامتدت جنورها وبقت أغصانها وفروعها وبنعت ثمارها . فقد كر عليها أكثر من ثلاثة عشر قرناً فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الاسلامية جانباً ولا ضعفت لها كيانا ؛ بل كلما تقادم عليها العهد وتناسخ الملوان ازدادت الجامعة شدة وقوة ومناعة واعتزازاً . حقاً ان الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصراني والنصراني . ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعض قتالاً شديداً ؛ بيد أن هذا الجدل ليس له من الشأن أكثر مما لأحقر نزاع ينشأ بين أفراد الاسرة الواحدة ؛ المشتبكة الارحام ؛ اذ لا حقد في الاسلام فعند الشدائد تذهب الاحقاد من بين المسلمين ؛ فيصطلحون على الأمر الذي فيه يختلفون ويتألبون جوعاً متراساً متهاسكة لقتال العدو المهاجم ورد الخطر الداهم . ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أزراده الاسلام من غرض الجامعة وغايتها فليتنظر الى حال المسلمين اليوم والى تيار هذا التعاطف والتشاكى يعلم سر الجامعة ومكاتها في نفوس المسلمين . وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العسامة والاستمساك بعروتها كدين الاسلام . ان المسلمين قد افتتحوا بلاداً عديدة ورقاعاً كبيرة في الأرض منتزعيها من النصرانية والبرهمية^(١) واستأصلوا شأفة الجوسية وعلى امتداد هذه الفتوحات واتساع آفاقها ؛ فلم يسمع قط أن شعباً قليلاً كان أو كثيراً اتحلل الاسلام ديناً ثم ارتد عنه . قد حدث أن أجلى المسلمون عن بعض البلاد التي كانوا قد فتحوها وشيدوا فيها ملكاً ودولة كالأندلس غير أن اجلاءهم عن مثل هذه البلاد ليس بالسائق اعتباره جعل بعض المسلمين يرتدون عن الاسلام

(١) لم تستمر الفتوحات الاسلامية بعد أن رسخت في الهند استقراراً لزمت حدوده . بل جاوزت الهند الى جزيرتي جاوى وصومطرة العظيمتين . فسطل الاسلام دين البرهمية فيها وجعل أهل الجزيرتين فاطبة مسلمين

ان الوحدة الاسلامية انما هي قائمة على ركنين هما أساسها ولا ثالث لهما : الحج الى بيت الله الحرام في مكة المكرمة ، والخلافة . وقد غلب على رأى الكثيرين من رجال الغرب وهم في هذا الموضوع ، فهم ما برحوا يخالون الخلافة ، لا الحج ، العامل الأكبر والأشد الذي يسببه يتشارك المسلمون ميولا وعواطف تشاركاً مؤدياً الى اعتزاز الوحدة وازدياد منعها وامتدادها وانتشارها . على أن هذا لمن الوهم الصرف فالأمر حقاً على الضد منه . ان محمداً ﷺ قد فرض الحج على من استطاعه فرضاً مقدساً ولذلك ما زالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعاً يجتمع فيه كل عام أكثر من مائة ألف حاج وافدين من كل رقعة من رفاق العالم الاسلامي ، وهناك أمام الكعبة المقدسة في مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس ، ويتباينون العواطف الدينية ، ويتباحثون في الشؤون الإسلامية ثم ينقلون الى أوطانهم نائلين لقب « الحاج » ، لقباً يعرف صاحبه بالتقوى فيجمله اخوانه المسلمون ويعلمون منزلته بينهم ما دام حياً .

فالمفاد والأغراض السياسية التي يناها المسلمون على يد الحج الممهدها السبيل انما هي معلومة لا تحتاج الى كبير إيضاح . بل يكفي أن نقول ان الحج انما هو المؤتمر الاسلامي السنوي العام ، فيه تتباحث الوفود الاسلامية والنواب المسلمون الطارتون من أقطار المعمور الاسلامي كافة في مصالح الاسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام والذب عن حياض المسلمين ، ونشر الدعوة في سبيل الرسالة . وفي هذا المؤتمر العظيم ، كانت قلوب قادة اليقظة الاسلامية وأبطالها ، كعبد الوهاب ، ومحمد بن السنوسي ، وجمال الدين الأفغاني ، تشعر بجلافة الواجب الاسلامي المقدس ، وتتقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الاسلام والمسلمين

أما الخلافة فقد كان لها حقاً شأن تاريخي عظيم ، ولا سيما في أوائل عهدها . وقد بسطنا الكلام في موضع سابق على ما كان ينتابها من الخطوب وما أفضت اليه في النهاية ، إذ أطنق سراجها الوهاج فانقلبت الى صورة وهمية بعد أن نزل هول المغول ببغداد ، ثم ما برحت هكذا حتى جاء السلاطين الترك فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة ، فاعترف عالم السنة الاسلامي لهم بهذه الخلافة ^(١) الاسمية . بيد أن سلاطين الترك في القسطنطينية ، وما كانوا

(١) لم يعترف الشيعة في فارس بخليفة من خلفاء السنة . واعتاد أهل البلاد الغربية في شمال أفريقيا أن يعترفوا لسلاطينهم الاشراف بالسيادة الروحانية .

ليحزروا من المكاة الدينية في العالم الاسلامى مثل ما أحرزه من قبلهم الخلفاء الراشدون وأكبر خلفاء بني العباس في بغداد .

أضف الى هذا أن العرب ما انفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شزراً ويعدونهم المعتصين للخلافة اغتصاباً^(١) وقد جهد السلطان عبدالجيد جهداً كبيراً لحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلالة والهيبه والخطورة في العالم الاسلامى ، فنال ما ناله ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الدينى ، بل بسبب الشعور العام الذى ظهر واشتعل في صدور المسلمين لانشاء الجامعة الاسلامية الكبرى . لهذا كان عطاء قادة الجامعة الاسلامية الحديثة على قسمين : فمنهم من اعترف بالسلطان عبد الجيد خليفة على المسلمين، ومنهم من ناصبه العدااء كالسنوسى^(٢) . هذه حقيقة غابت عن عقول كثير من ساسة أوربته حتى وجلوا من عبدالجيد فحسبوه في الاسلام كالبابا في النصرانية. وما زلنا نرى حتى اليوم

(١) ان الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة الا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن الا ملكاً عضواً قد يوجد فيه السبب العادل والسبب النائم ، وما اتقادت الأمة الى هذا الملك الضوض الخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، الا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج (ش)

(٢) كون السنوسى ناصب السلطان العداوة هو خبر من الأخبار تهافت على تصديقه كثير من الأوربيين من جملتهم مؤلف هذا الكتاب . والحقيقة أن سيدى محمد بن على السنوسى وولده المهدي وجميع السادة السنوسية ، كانوا مواليين للسلطان ومؤيدين للدولة الثمانية باعتبار أنها ملجأً للاسلام ، وبأن السلطان هو أكبر ملوك المسلمين . ولأبى النصر مقرب شاعر الحضرة السنوسية قصيدة يمدح بها سيدى المهدي من جملة آياتها :

ولا بد أن تأتي جيوش بيرقة	تفضى غواشيا الميون الغواشيا
قبائل من سام وحام تحممت	وما جمعت الا الأسود الضواريا
زوية أهل المجد من يأت حبيهم	يرالز في نادى زوية باديا

زوية هي القبيلة التي تطنن واحة الكفرة وهي بمثابة المرس الحاس للسادة السنوسية ، ثم يقول :

وكم بدوى في الفلا خلف نوقه	يول على الأعقاب أشمت حافيا
تلاواه في وادى الضلالة هاوياً	فأصبح نجماً في الهداية عاليا

ثم يقول :

ولو لا انتظار الأذن من سيد الورى وسلطاننا الفزازي لأصبح غازيا

أى لا يمنعه من أن يثزو ضعف في النة ولا تخور في الزيمه وإنما هو انتظار الأذن من السلطان الأعظم

أكثر ساسة الغرب يهيمنون في ذلك فيخالون الجامعة الاسلامية انما كان مستقرها ومنبعها الخلافة ، و نرى أيضاً غالب حملة الأقلام يفيضون في الكلام فيها اذا استبقيت الخلافة في السلطان التركي على ظلعه ، أو نقلت الى شريف مكة ، أو قضى عليها القضاء الأخير ، وأى هذه الوسائل تكون خيراً لطبى جناحى الجامعة الاسلامية ، ان هذا وأيم الحق لغاية ما يرتكب من الخطل . لا ينكر أن الخلافة ما برحت رفيعة المكانة في عيون المسلمين بلا ريب ، غير أن قادة الجامعة الاسلامية الحديثة ، ذوى العقول الثاقبة والذكاء المتوقد ، ما فتشوا منذ عهد بعيد بمجدون في سبيل الجامعة الاسلامية في نطاق أوسع وأفق أبعد ، وقد أيقنوا كل الايقان أن القوة الكبرى التى تستمدتها الجامعة الاسلامية اليوم ليست من مركز الخلافة ، ولكن من بيت الله الحرام ، حيث الحجيج اذ يأترون كل عام مؤتمراً عظيماً ، ومن انشاء الطرق الدينية المؤدية الى الجامعة الاسلامية كالطريقة التى أنشأها السنوسى ، ونحن شارعون في الكلام عليها ^(١) في موضع قريب .

من شأننا الآن أن نتتبع الأدوار المختلفة التى اجتازتها « الجامعة الاسلامية » الحديثة مبتدئين في الكلام على الدور الأول الذى ظهرت فيه للعالم ظهوراً ينياً ، وهو دور الدعوة الوهابية . أنشأ عبد الوهاب حكومته على أساس الشورى كتلك الشورى التى اشتهرت في عهد الخلفاء الراشدين . ولما تم لسعود خليفة عبد الوهاب الاستيلاء على الأماكن المقدسة في الحجاز ، خال استيلاءه هذا الخطوة الأولى في سبيل فتح العالم الاسلامى قاطبة ، فتحاً اصلاحياً دينياً تتلوه الوحدة السياسية العامة بين جميع الممالك الاسلامية . لكن لما سقطت الوهابية دون مبتغائها العظيم ، أخذ الاضطراب السياسى على أثر ذلك يشند في العالم الاسلامى اشتداداً واسع المضطرب . وقد سبق لنا فتكلمنا على ما حدث في شمال الهند وأفغانستان ،

(١) اقرأ السرو . موير — « كتابه نشوء الخلافة وتواعيها وسقوطها » ايدنبرغ ١٩١٥

Sir W. Muir, "The Califate" Its Rise, Decline and Fall."

وهو خير ما كتب في شأن الخلافة

والسر مارك سايكس — كتابه : « تراث الخليفة » لندن ١٩١٥

Sir Mark Sykes, "The Caliph's Last Heritage" (London 1915)

و « وفد الخلافة الهندي » وهو رسالة نشرت ملحقاً لمجلة « الشؤون الاجنبية »

"The Indian Kbilafat Deligation", "Foreign affairs"

Special supplement

عما كان في الواقع منبعثاً عن الروح الوهابية ، ويعد باعتبار الحقيقة والغاية نعيًا على الممالك الإسلامية انحطاطها السياسي ، وعلى الحكام والأمراء المسلمين فقدانهم الهيبة والسلطان . فلهذا لم يكن الوجع من الغرب أو العداء له الباعث كل الباعث على انتشار الاضطراب الإسلامي في أول عهده ، لأن أوروبة لم تكن حتى ذلك العهد قد حاولت فتحاً كبيراً في العالم الإسلامي ، سوى استخلاصها بعض الأصقاع من تركية الأوربية وجزائر الهند ، وأما هول الفتوح العظمى فلم يكن قد ظهر بعد ، غير أن أشباحه كانت تقرب شيئاً فشيئاً . وما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى تبدلت الحال تبديلاً تاماً ، ففتح الفرنسي الجزائر واستولت روسيا على عبر القوقاس ، وبسطت انكفرتا نفوذها على الهند من أقصاها الى أقصاها ، جميع هذا مما جعل قادة المسلمين الحكماء في كل صقع يوقنون كل الايقان أن الاسلام انما يحق به خطر عظيم ، وبلاء شامل ، من جراء انتشار سيطرة الغرب عليه ؛ وفي هذه الفصول أخذت الجامعة الإسلامية تسير في تيار غايته مقاومة الغرب وصدده وعداؤه ، وهي ما برحت تسير هذا المسير حتى اليوم . وقد كانت المقاومة في بادئ الأمر في موضع موضع ، وغير منظمة تنظيمًا مرئبط الوسائل كل الارتباط ، فهب أبطال من المسلمين مثل عبيد القادر في الجزائر وشامل في القوقاس وغيرها ، يقاتلون الفاتحين الغربيين قتالاً شديداً فكان ذلك القتال على استمراره أشبه بمضغ يزيد العالم الإسلامي جروحاً فيزداد تأمناً وصراخاً ، بيد أن قتالاً مثل هذا ما كانت القلبة فيه لابطل المسلمين ، وذلك لو هن قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعمد تناولهم مدداً ونصراً يستعينون بهما على المضى في القتال

وما انفكت روح العداء للغرب تهيج وتشتد ، حتى بات العالم الإسلامي قاطبة يغلي غليان المرجل على النار ، فشبث في الجزائر الثورة المعروفة بثورة « الكايل » سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالأولياء في كل بلاد من بلاد افريقية الشمالية يستنبطون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهاد ، ومن هذا النوع كانت ثورة المهدي في السودان المصري ، وهي الثورة التي دامت طويلاً وفتت في عضد الانكليز فتناً كبيراً ، وأنزلت بهم خسائر فادحة ، وما خلت نراها حتى قبض « لكنتشر » الاستيلاء على الخرطوم ، وذلك قبيل ختام القرن التاسع عشر . وانفجر في أفغانستان بركان حقد وعداء للغرب عظيم ،

فتناولت حمه مسلى الهند فألهمت صدورهم الهاباً ، فهبوا يشقون عصا الطاعة على الانكليز الذين ما استطاعوا تسكين العاصفة الا بعد شق الأنفس وركوب الهول . وحدث مثل هذا فى أواسط آسية حيث ظهرت « الطريقة النقشبندية الدينية » فأخذت تمتد وتنتشر شرقاً حتى بلغت الأقطار الصينية فنار مسلمو الصين ثورتهم الكبرى فى « تركستان الصينية » و « ينان^(١) » واشتعلت فى جزائر الهند الشرقية الهولندية نار الثورات المتوالية ، وأشهرها ما عرف « بالحرب الانشيه » التى ما برح بعضها متقدماً حتى اليوم .

فجميع هذه الثورات التى كانت تشب معاً فى هذا الدور فى مواضع مختلفة، عداء للغرب وسعياً وراء غاية واحدة ، انما كان ينقصها التنظيم والتمشية على خطط مقررة ، وربط حلقاتها المفردة المبعثرة سلسلة واحدة ، وفوق جميع هذا كانت تموزها القوة المركزية الثابتة للقيام بتدير الأمور وانشاء الوسائل الدائمة .

وقد كانت الثورة المهديه من البواعث على شوب هذه الثورات ، والمهديه هذه لم تكن معروفة فى صدر الاسلام ، وما ورد لها ذكر فى القرآن ، غير أنه جاء فى الأثر أن الرسول أنبأ أن رجلاً يدعى المهدي سيظهر للناس ليملا الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً^(٢) ومنذ عهد بعيد كان ينتظر ظهور هذا المهدي لينصر الاسلام ، ويقتل الكفار ، وينيل المسلمين العادة خالدين فيها . على أن المتدبر المستقصى يعلم أنه قد كان لهذه العقيدة تأثير ظاهر فى تاريخ الاسلام فقد قام كثيرون فى عصور مختلفة يدعون المهديه فتبعهم عدد كبير ، فهذا أمر المهديه فى الاسلام يشبه أمر « مسيا » فى اليهودية وقد كان من طبيعة الحال أن المسلمين ، وقد شدت على أعناقهم خناق السيطرة الغربية ، أتوا يعطون نفوسهم بظهور المهدي ، فلما ظهر المهدي ، لم يأت ظهوره بالنتيجة التى تنبئ المسلمين السعادة المنتظرة ، فكان مثل المهدي مثل النار هبت فى الهشيم وسرعان ما خمدت .

ولما وصلت الحال فى العالم الاسلامى الى هذا الحد ، أدرك قادة الجامعة الاسلامية

(١) سياتى ذكر هذه الثورات فى بحث الاسلام فى الصين (ش)

(٢) أحسن خلاصة لحديث المهدي وما ذاق قبل فيه ما تراه فى فصل خاص بذلك من مقدمة ابن خلدون

الحكام جميع هذا وباتوا يوقنون أن الثورات المحدودة المضطرب تشب في موضع تقوم بها أمة من المسلمين دون الأخرى في قطر من الأقطار لا يمكن أن توهن شيئاً من قوة الغرب تلك القوة الحربية المنظمة على أحدث الأصول والفنون ، وأدركوا حق الإدراك أنه اذا رام العالم الاسلامي حقاً تحرير نفسه من النير الغربي ، وتحطيم هذه السلاسل الثقيلة التي يرسف فيها منذ عهد بعيد ، ودك هذه السيطرة المنذلة دكاً ، وجب عليه أن يعمل عملاً منظمًا شاملاً ، ويسعى سعياً أكيداً ثابتاً ، جامعاً للوحدة العامة والرابطة الكبرى . وأيقن هؤلاء أيضاً أنه لا بد للعالم الاسلامي اذا شاء هذا ، من دراسة علوم الغرب ، واكتناه عظمته وقوته وتقدمه ، ونهج مناهجه ، وسلوك سبيله في جميع ما يؤدي الى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلم وأركانه ، فانما هذا هو السبيل الذي لا سبيل الا هو للافلات من ربة استعمار الغرب والتحرر من حكم الفرنجة . وفوق جميع هذا أيقن قادة الجامعة الاسلامية أن استقلال العالم الاسلامي عن الغرب النصراني الاستقلال السياسي ، يجب على كل حال أن يسبقه التجدد الروحي العقلي العلمي الأدبي ، والتربية النفسانية الصحيحة ، وانه متى صلحت نفوس المسلمين وزكت وطابت واعتزت وباتت تعاف الذل وتأبى الضيم ، سهل اذ ذاك كل عمل في سبيل التحرر والاستقلال .

وعند هذه النقطة من الدائرة ، التقت غاية دعاة الجامعة الاسلامية ، وغاية الأحرار ، اذ أدرك الفريقان كلاهما استفحال الخطب الجلل والشقاء الاكبر في العالم الاسلامي ، وما يعانيه المسلمون من الذل والهوان ، فابتغوا تجدد الروحاني واصلاح النفساني ، غير أنه نشأ الخلاف بينهم في وسائل هذا التجدد والاصلاح وكيفيةهما ، فقال الأحرار ان المسلمين لا مندوحة لهم عن الأخذ عن الغرب ، واقتباس الأفكار منه ، واتباع طريقته في جميع ما هو لازم وضروري لبلوغ الغاية العليا . وقال أرباب الجامعة الاسلامية ان الاسلام بذاته لصالح كل الصلاحية لكي يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك ، فلهذا ينبغي أن يقصر أمر الأخذ عن الغرب على محاماته في انتهاج مناهجه العملية ، والاستعانة بوسائله المادية بحسب .

وكان مبدأ سير الجامعة الاسلامية السير المنظم على الخطط المقررة ، حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، اذ كان للجامعة أسنان قامت عليهما ، هما الطرق الدينية الحديثة

النظام كالطريقة السنوسية ، والدعوة التي قامت بها فرقة من جلة العطاء وأكابر المفكرين الحكماء ، يرأسها السيد جمال الدين الأفغاني ، واتا بنسب الكلام على هذين الأسين ، بادئين بالأول منهما :

ان الطرق الدينية في الأقطار الاسلامية هي بنت قرون . وجميعها على نوع واحد من حيث انشاء « الزوايا » على رأس كل منها وازع يعرف « بالمقدم » ، ذى سلطة كبيرة على سائر اخوان الزاوية ، وقد كانت هذه الطرق في عهدها الأول ، قبل انشاء نظام الطرق الحديثة ، منصرفه عن شؤون الدنيا ، الى شؤون الدين والانتقطع للعبادة ، فكان لكل حلقة من الاخوان رئيس يعرف « بالدرويش » . فلذلك لم يكن لهذه الطرق في دورها الأول شأن سياسي ، ولما كان التباغض والتعادى منتشرأ بين كل طريقة وأختها ، فقد بات العمل المشترك لغاية واحدة متعزراً ، حتى ان طرقاً هذه صفاتها ما برحت حتى اليوم كثيرة ، ولكن ليس لها ولن يكون لها شأن سياسي يذكر مادامت على نظامها القديم .

أما النظام الحديث للطرق الدينية فقد أنشئ حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، وأهم الطرق الحديثة هي الطريقة السنوسية بلا مشاحة ، تلك التي أنشأها محمد بن السنوسى ولد السيد محمد في محل بالقرب من « مستغانم » حوالى سنة ١٨٠٠ في بيت عريق في المجد الاسلامي والشرف العربي ، وحسبه مجدأ أنه متحدر من السلالة النبوية الطاهرة . وقد عرف السيد محمد منذ حداثة بشغفه بالعلم وسلوكه مسلك التقوى ، فدرس العلوم الدينية في جامعة فاس^(١) ، ثم أخذ يسبح في أقطار شمالي افريقية ، داعياً الناس الى الاصلاح الدينى ، وبعد ذلك حج بيت الله الحرام في مكة المكرمة حيث قضى مدة يأخذ عن الأسانذة الوهابيين ، فزاد بذلك علمه فانتقدت روح الاصلاح فيه . فلم يزابل مكة حتى وضع خطة ورسم طريقة للقيام بالاصلاح الذى نواه واستعان الله عليه ، ثم عاد الى شمالي افريقية سنة ١٨٤٣ فأقام بطرابلس الغرب ، وابتنى له زاوية على جبل بالقرب من « درنا » عرفت « بالزاوية البيضاء » . وقد كان السيد محمد رجلاً شديد الهيبة ، بعيد الهمة ، عظيم الاقتدار على التنظيم والاصلاح ، فقصده الناس أفواجاً من كل صقع من الأصقاع الافريقية

النمالية ، بيد أنه لم يمض غير اليسير من الزمن ، حتى باتت الحكومة التركية في طرابلس تخشى أمره وتقوم وتتعهد لثأته ، فسات العلاقات والشؤون بينه وبينها ، فنقل مقامه الى واحة « جفبوب » الواقعة للجنوب من صحراء ليبيا ، وجعل مقره هناك . ولما توفى سنة ١٨٥٩ كانت الطريقة التي أنشأها قد انتشرت انتشاراً عاماً في معظم الرقعة الافريقية الشمالية .

وخلف « سنوسى المهدي » أباه السيد محمد السنوسى ، فأخذ يجاهد في سبيل اعزاز الرابطة وتقوية الاصلاح . وخير مثال تدرك به الروح السنوسية وتتجلى تجلياً بيناً في كيفية صيرورة سنوسى المهدي خليفة لأبيه . فقد كان للسيد محمد ولدان ، المهدي أصغرهما ولما كانا لم يزالا غلامين أراد والدهما بلاءهما وعجم عودهما ليرى أيهما أوثق ايماناً وأشد اقداماً ، فدعاها اليه ذات يوم بحضور جميع أهل الزاوية ، ثم أمرهما بأن يتسلفا نخلة باسقة . فلما بلغا عاليها استحلفهما بالله ورسوله الكريم أن يهويا للحال بنفسيهما الى الأرض ؛ فهوى المهدي بنفسه فأدرك الأرض سالماً ، ولبت الآخرى فى على النخلة فقال السيد محمد بلجبع من كان حوله : « الاخلافة من بعدى انما هى لولدى هذا المهدي الذى لم يتردد فى تسليم نفسه لمشيئة الله عز وجل » ، واقتفى السنوسى المهدي آثار والده جميع حياته فكان حاكماً عادلاً نقياً ، وعاملاً كبيراً فى سبيل الطريقة الدينية السنوسية ، وفى أواخر حياته نقل مقره الى واحة « الجوف » للجنوب من « جفبوب » فى صحراء « ليبيا » وتوفى سنة ١٩٠٢ خلفه ابن أخيه أحد الشريف ، وهو سيد الطريقة ورأسها الحالى وهو ذو اقتدار وكفاية .

وقد انقضت مدة أكثر من ثمانين سنة والطريقة السنوسية تزداد انتشاراً ووثاقاً ، وما برح الجهادى فى سبيلها على غير انقطاع ، حتى غدت اليوم عاملاً كبيراً فى تيار الحركة الاسلامية وبات لها أتباع فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى ، فالسنوسيون فى بلاد العرب كثير عددهم ، وليس هذا جميع ما فى الأمر بل ان الطريقة السنوسية قد كانت عاملاً شديد التأثير فى الحياة الدينية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وما زالت أقطار نمالى افريقية من أقصاها الى أقصاها مستقر السنوسية ومضطربها ، فمن مرا كس حتى الصومال ترى البلاد مرصعة « بالزاويا » ، وهذه « الزوايا » تستمد قوتها من الزاوية المركزيه الكبرى

حيث مقام السيد السنوسي في « الجوف ^(١) » الواقعة في قلب صحراء « لبيبة ». ولم يستطع أحد من الغربيين الوصول الى هذا المكان ^(٢) سوى رجل واحد ^(٣). وتحيط بالجوف الصحراء ، وعلى بعد عدة فراسخ من الجوف آبار الماء ، وأما طرق الصحراء المؤدية الى مقر السنوسي تلك الطرق الملتأمة ، فلا يستطيع السير فيها الاكل خربت خبير من رجال السنوسي ، أمير البلاد وسيدها المطاع

فسلطان السنوسي حقاً سلطان كبير . والسبب في ذلك أن هذه « الزوايا » عظيمة وشأنها أكبر مما يبدو للقارئ عند أول وهلة . فعلى رأس كل زاوية « مقدم » وفوق المقدم « وكيل » ووظيفته كوظيفة الحاكم المدني ، وكلا « المقدم » و « الوكيل » ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جيعاً والقبيلة كافة ^(٤). فالامر الذي يصدره أحدهما مقر ونا باسم السيد

(١) يريد بها زاوية التاج في واحة الكفرة التي في قلب الصحراء الكبرى (ش)

(٢) قامت الرحلة الانكليزية روزينا فوربس Rosita Forbes برحلة كبيرة الى صحراء لبيبة سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ وكان رفيقها السيد أحمد محمد بك حسين الرحالة المصري المشهور الذي قام هو لوحده برحلة عظيمة هذه السنة (١٩٢٣) الى صحراء لبيبة . ووضعت الرحلة فوربس كتاباً بالانكليزية وصفت فيه رحلتها مؤيدة بالبرهان ومشاهدة العين أن القوة السنوسية في افريقية تقوم لها وتصد كل دولة مستعمرة هناك وسمت كتابها هذاب « أسرار الصحراء » The Secret of the Sahara وقد وضع أحمد محمد بك حسين كتاباً فيها لرحلته هذه . « المترجم »

(٣) هو المستكشف نختيغال Dr. Nechtigal

(٤) الزاوية فيما مقدم هو القيم عليها ، وهو الذي يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات بينها ، ويبلغ الأوامر الصادرة من السيد السنوسي . وبإيه وكيل الدخل والمخرج وإليه النظر في زراعة الأراضي وجميع الأمور الاقتصادية . ومن عاداتهم أن على كل فرد من أفراد القبيلة أن يتبرع بجماعة يوم وحصاد يوم وحراسة يوم في أرض الزاوية ، فلذلك يسهل عمران الزاوية بدون نفقة كبيرة ، ثم هناك الشيخ الذي يقيم الصلاة في مسجد الزاوية ويعلم أحداث القبيلة القراءة والكتابة ، ويقعد في القبيلة عقود النكاح ويصلي على الجنائز الخ . والزوايا السنوسية هي الملاهي الوحيدة في الصحراء للمسافرين والتائهين والواردين والشاردين ولا يوجد هناك مساكن مبنية بالحجر غيرها . وقد سرنا - في طريقنا الى جهاد طرابلس - نحو شهر من ظاهر اسكندرية عند منتهى الخط الحديدي حيث زاوية سيدي هرون القناشي الى موطن الحرب بسهل الفيض أمام مدينة بنغازي ، فكنا بعد كل مرحلة ثلاث ساعات أو أكثر نجد زاوية سنوسية ، هذا عدداً زوايا كثيرة ليست مصابة للعاريق السلطاني . فان لكل قبيلة زاوية هي مرجعها في الدين والدنيا ، واذا تمددت فروع القبيلة كالبيدات مثلا ، فلعل نجد منها زاوية ، فلعلنا نمتور زاوية ،

النوسى ، إنما هو أمر واجب الطاعة على الجميع . وفي الواقع ان وراء الحكومات الغربية الاستعمارية في شمال أفريقيا ، من انكليزية وفرنسية وإيطالية ، حكومة سنوسية شديدة المراس قوية الشكيمة ، وهي من عزة الجانب بحيث لا تجسر احدى هذه الحكومات الاستعمارية المذكورة على مس جانبها في أمر من الأمور . أو اخراجها في شأن من الشؤون . فلذلك سياسة الحذر واللين متبعة ازاءها على النوام

والحكومة السنوسية أيضا على حذر من الاصطدام باحدى الدول الغربية ، على أن هذه السياسة سياسة التروى الشديد والاحتراز لتقضى بالعجب العجاب فابرحت الطريقة السنوسية منذ نصف قرن تقوى وتعظم ، وتمتد وتنتشر ، غير أنها ماركت يوماً مركباً خشناً ، أو سلكت مسلكا وعراً فيه شئ من الخطر على كيانها السياسى ، وفي جميع الثورات التى هبت في أقطار شمال افريقية العديدة ، كان السنوسيون المقيمون بنواحي البلاد يشتركون في القتال ويشدون أزر الثائرين ، كما حدث في الحرب الإيطالية في طرابلس الغرب وفي الحرب العالمية الكبرى ، ولكن الطريقة السنوسية نفسها كانت تحتجب الحرب جهدها ، اجتناباً رسمياً على أتم قدر .

يبد أن موقف السنوسية هذا الموقف من الاحتراز والاجتناب ، ليس متخذاً تجاه الدول النصرانية وحدها ، بل تجاه الدول الاسلامية أيضاً ، اذ ما انفك السنوسيون طيلة عهد الطريقة يذودون عن حريتهم التامة ، التى هى عندهم أعز شئ لديهم ، فيبذلون جميع ما يستطيع بدله في سبيل صيانتها وحماية سياجها . وعلى ذلك لم تكن العلاقات بين السنوسيين والدولة العثمانية جارية مجرى الود والاخلاص ، بل كثيراً ما جهد السلطان عبد الحميد ، وهو

ولمائلة مريم زاوية ، ولعائلة جازية زاوية ، وللبناين زاوية ، وللعواكله زاوية وهلم جرا ، وان الغرب أو السابل أو الفقير المترلينزل بزواوية من هذه الزوايا فيقيم ما يشاء ويتصرف ما يشاء ولا يسأله أحد عن شئ . وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجل البقاع وأخصب الأرضين ، وفيها الآبار التى لا تنزح من كثرة ماؤها وفي الجبل الأخضر هي بجانب عيون جلرية وأهر صافية ، كزاوية ماره وزاوية مرطوبه وزاوية أم أرزم بقرب درنه وزاوية شحات في مدينة سيرنا القديمة الخ ، وأينا حل السنوسية عمروا وثمروا ، ووجدت الأرض اهترت وربت وأبنت من كل زوج بييج ، وقل ان مررت بزواوية ليس لها بستان أو باتين فيها من كل أنواع الفواكه والثمار ، وأصناف البقول والحضرة يزيد قيمتها مصادفة الانسان لها في تلك البقاع القاصية عن العمران المحفوفة بالفلوات ، وقد قيدت في دفتر عندى يحتوى معلومات كثيرة على برقة اسماء نحو ١٢٠ زاوية سنوسية في تلك الديار وما جارورها الى السودان وليس ذلك العدد هو كل ما عندهم من الزوايا . (ش)

في ابان مجده وسطوته ، والبطل الاكبر المجاهد في سبيل الجامعة الاسلامية ، لاستتالة السنوسى اليه وارضائه ، فا استطاع الى ذلك سبيلا ، بل جميع ماأجاباه السنوسى على ذلك هو بعض عبارات تدل على شدة الدهاء . وقد يؤثر عن السنوسى قوله : « الترك والنصارى انى أقاتلهم معا وأضربنهم ضربة واحدة^(١) » . ولما قام محمد أحمد زعيم المهديّة ، يناهض الانكليز في السودان المصرى وينتصر عندهم ، أنفذر سولا الى السنوسى يطلب منه نصراً في الحرب ، فرفض السنوسى ذلك وأجاب مستهزئاً : « من هو هذا الفقير المكين من « دنقلة » (يعنى محمدأحمد) ألاستطيع ان أكون المهدي اذاشتت ذلك^(٢) » ،

فجميع هذا انما يبرهن على أن السنوسى لاينفخ في غير ضرر ، بل انه البرهان الذى لا يرد على أن السنوسى جاد جدا غير منقطع في اعداد ما يستطيعه من الوسائل والذرائع الكفية للإصلاح الدينى والتهذيب النفسانى والخلقى نخطه التى ينوى القيام بها بعد اكتمال العدة التى يجاهد فى سبيلها الآن ، انما هى افتتاح جميع البلاد الافريقية ، ثم سائر الاقطار الاسلامية ، ثم جعل العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ملكة واحدة ، على رأسها خليفة واحد . وهذه المملكة العظمى يرتبط بعضها ببعض بالجامعة الاسلامية الكبرى ، على أن السنوسى لموقن حق الايقان أن تحرر المسلمين التحرر السياسى من ربة السيطرة الغربية النصرانية ، يجب أن يسبقه انتشار التجددالروحانى والدعوة الاخلاقية فى المسلمين ، فهذا هو لايفتأ يجاهد نحو ادراك هذه الغاية بتهديب اخلاق رعيته وترقيتها ، وابتناء نفوسها التربية الصحيحة ، وتنشئتها على الفضائل الاسلامية العليا ، وهو لم يقصر الأمر على هذا فحسب ، بل يجتهد ايضا جاداً اقتصاديا في سبيل تحسين أسباب المعاش وتوفير وسائل الكسب فكثرت فلاحه الواحات الخصبة ، ونمت الزراعة ، واحتفرت الآبار الحديشة وابتنت الأزال على طريق القوافل ، وشرع فى انشاء وسائل التجارة على نطاق رحب .

جميع هذا يوضح لنا أن الطريقة السنوسية قد بلغت مبلغا من الاعتزاز والمناعة لم يسبق له مثيل من قبل . وهذا هو السبب الذى اقتضى أن تسير السنوسية سير الاتناد ، مزداة القوة مشتدة البأس ، محترزة على الدوام المجازفة بشئ من قوتها الحربية قبل اكتمال العدة اللازمة

(١) هذه الرواية ترجع أنها مدخولة (ش)

(٢) السنوسى أعلن تكذيب المهدي الودانى (ش)

وحينوة الأجل المرتقب . وينا نير السنوسية على هذا الجهد الشديد ، تراها تنشر المدارس وتقيم المآوى والأكنان في جميع البلاد الافريقية الشمالية . وتعلم الناس طاعة « الوكلاء » و « المقدمين » وفوق جميع هذا . فانها قد اتجهت وتغلقت جنوباً في القارة الافريقية . مبشرة بالرسالة المحمدية . حيث هناك الملايين من الزنج الوثنيين طففوا يقبلون أيما اقبال على الدخول في الاسلام أفواجاً^(١)

ولا شيء أدل على هذه النهضة الاسلامية الحديثة الكبرى ، من هذه اليقظة الروحانية الدينية التبشيرية ، الناشئة والمنتشرة خلال مئة السنة الاخيرة ولاغرابة في ذلك فقد كان الاسلام على الدوام دين هداية الناس واخراجهم من ظلمات الشرك الى نور التوحيد هذا التاريخ شاهد حق على ما قام به المبشرون المسلمون في أول عهد الاسلام من الأعمال الجليلة التي لم يقم بمثلها غيرهم من المبشرين . ولا ننسى أن روح التبشير ونشر الدعوة في سبيل الرسالة لم تبرح حية على الدوام ، على انحطاط الممالك الاسلامية وتدليها . فلذلك ما انفك الاسلام طيلة القرون الوسطى ينتشر في الهند والصين^(٢) ، وبينما كانت الرسالة المحمدية تنتشر في نأى تلك الأصقاع ، كان الترك ينشرونها ويرفعون أعلامها في شبه جزيرة البلقان.

(١) اقرأ الكتب الآتية في شأن السنوسية وغيرها من الطرق الدينية : —

« الطريقة الدينية الاسلامية لسيدى محمد بن على السنوسى » — باريس ١٨٨٤

« La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed Ben Es-Sénoussi »
H. Duveyrier, (Paris 1884)

و « الطرق الدينية الاسلامية » في الحجاز « باريس ١٨٨٧

« Les Confréries Musulmanes du Hedjaz. A. Le Chatelier, (Paris 1887)

و « الصبية القومية الاسلامية » قسنطينة الجزائر ١٩١٣ ..

و « السنوسية » (وهو مقال بقلم أحمد عبد الله وهو من أشياع السنوسية) . مجلة ذا فورم

مايو ١٩١٤ (The Forum) May 1914 " The Sennussiyeh "

و « السنوسى وجهاده المهدد » — مجلة « القرن التاسع عشر » عدد مارس « آذار » ١٩٠٠

T. R. Threlfall, " Senussi and His Threatened Holy War, (Marsh 1900)

و « الخطر الاسلامى » — مجلة « القرن التاسع عشر وما بعد » سبتمبر « ايلول » ١٩٠٧

H. A. Wilson, " The Moslem Menace ..

(٢) اقرأ الفصل الوارد في هذا الكتاب على الاسلام في الصين — « الحرب »

و بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ، كان المبشرون المسلمون يفتحون بلاد غربى افريقية (١) ، وجزائر الهند الهولندية ، وجزائر الفيلبين ، فتحاً دينياً مبيناً . غير أنه فى القرن الثامن عشر ، أمسى العالم الاسلامى مرتدياً رداء الجول ، ففترت وبردت حرارت المبشرين المسلمين ، وسكنت تلك الروح النائرة الجوابه .

ولبت الاسلام هكذا ، حتى تبشير اليقظة الحديثه ، فعادت تلك الشرارات الكامنه فى الرماد تستطير ، وماهى الافترة يسيرة حتى اشتعلت نار التبشير ثانيا ، فأخذ الاسلام يعجز حدوده وينبث فى كل صقع من أصقاع العالم الاسلامى ماعدا أوروبا . وعند اعتبار شأن انتشار الاسلام هذا الانتشار ، يجب أن نعلم العلم اليقين أن كل مسلم هو بفرزته ومبشر بدينه ، ناشره بين الشعوب غير المسلمة ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وعلى ذلك ان نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم ، هكذا ، بل شاركهم فيه جماعات ، عديد من السياح والتجار والحجاج ، على اختلاف الأجناس . ولا يؤخذن من هذا انه لم يقم فى المسلمين مبشرون ارتشفوا كووس الحام فى سبيل الدعوة الاسلامية ، فعميد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهر بين فى أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج الى برهان ، بل أى دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، المحس الغير ، الذين خرّجتهم زوايا الصحراء وهم يعدون بالالوف المؤلفه ، وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنية مبشرين بالوحدانية ، داعين الى الاسلام . وهذه الاعمال التى قام بها المبشرون المسلمون فى غربى افريقية وأوسطها خلال القرن التاسع عشر الى اليوم لعجيبة من العجائب الكبرى ، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر ، فقد قال أحد الانكليز فى هذا الصدد منذ عشرين سنة : « ان الاسلام ليفوز فى أواسط افريقية فوزاً عظيماً ، حيث الوثنية تختفى من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات » . وقال مبشر بروتستنتى فرنسى : « مابرح الاسلام يسير اليقدمية منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يعثر فى سبيله الا القليل ، وما زال يسير فى جهات الأرض حتى بلغ قلب افريقية مذلاً أشق المصاعب ومجتازاً أشد الصعاب ، غير واهن العزم فالاسلام

(١) اقرأ الفصل الوارد فى هذا الكتاب على الاسلام فى افريقية - « المغرب »

حقاً لا يهرب في سبيله شيئاً ، وهو لا ينظر الى النصرانية ، منازعته الشديدة ، نظرة المقت والازدراء ، فلماذا هو حقيق بالظفر والنصر ، اذ بينما كان النصارى يحملون بفتح افریقیة في نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يقظتهم (١) »

واما السبيل الذي يسير فيه الاسلام جنوباً في افریقیة فهو من الرائع الغريب . منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية ، على غير ماتوقع ، على أن المبشرين الساميين مخترقون « نياسلندة » دعاء الى الرسالة المحمدية ، و بعد البحث والاستقصاء واذكاء العيون ، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين انما هم من عرب زنجبار ، قد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ ، وأنه بعد مضي عقد من السنين على شروعهم في جهاد التبشير ، كانت كل قرية في جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ومدرسة اسلامية ومعلمون مسلمون . ومع أن هذه الدعوة كانت ، كما هو ظاهر من أمرها ، وسيلة شديدة لتضعف سلطة المستعمرین وسيطرتهم ، فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها في الاقطار الأخرى . ويقول بعض المفكرين الغربيين في هذا العصر ، انه لن تضي مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الإسلام قد اجتاز « زمبازي » وانتشر في جنوب افریقیة انتشاراً عاماً ، فيطبق القارة بأسرها .

وليس ظفر الاسلام في افریقیة مقصوراً على الوثنية حسب ، بل على النصرانية الافريقيّة كذلك ، اذ ترى الآن الذين تنصروا في غرب افریقیة على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عدداً تناقصاً فاحشاً ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم في الاسلام . زد على ذلك أن للنصرانية في الحبشة ، انما باتت في خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعد ما كانت فيما مضى سداً منيعاً في وجه الاسلام . والغريب في هذا كل الغرابة أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون في الاسلام أفواجا متلاحقة ، لاعلى يد فتوح حربية بل فتوح سلمية دينية . وقد قال أحد الثقات الغربيين حديثاً : « منذ خمسين الى ستين سنة خلت كنت ترى قبائل الأحباش العديدة ، لا يكاد يرى فيها مسلم واحداً ، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية . »

(١) للاطلاع على مجاهد التبشير الاسلامي في افریقیة اقرأ كتاب — :

ج . بونه موري — « الاسلام والنصرانية في افریقیة » (باريس ١٩٠٦)

وربما كان ظفر الاسلام في افريقية اليوم أعظم ظفر لاقاه المبشرون المسلمون حديثاً، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الاسلامي بل هناك غيره مثله في سائر أنحاء العالم . وقد أتينا في الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الاحرار السياسية في بلاد التتر الروسية، بحيث بقي علينا الكلام على النهضة الدينية العجيبة التي رافقت تلك اليقظة التتريّة . كان التتر مابرحوا منذ عهد بعيد في الحكم الروسيّ ، وقد جهدت الكنيسة الارثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت في بعض المواضع بعض النجاح الذي لا يذكر ، غير أنه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، ووصل ماوصل منها الى بلاد التتر في أوائل القرن التاسع عشر ، هب التتر للحال يستردون اخوانهم المنصرين الى الاسلام ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فاتحلوا دين الرسالة ، على جميع ما بذلته الكنيسة الارثوذكسية من العناء الاشقّ ، ولجأت اليه من مختلف الفرائع والوسائل ، لتحول دون ذلك ، فلم تلق شيئاً من النجاح ، بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكراه^(١) . على أن المبشرين المسلمين التتر لم يقصروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا في نشر الاسلام في القبائل التركية الفنلندية الأمية ، المقيمة في الشمال من بلاد التتر ، غير مبالين بمقاومة حكام الروس لهم ولولاقوا من وراء ذلك من الهول مالاقوا .

وكانت النهضة الاسلامية في الصين عجيبة لامثيل لها ، فيقتضى الحال أن نبسط كلمة في شأنها . كان بلوغ الاسلام الصين منذ عهد بعيد ، على يد التجار العرب وكتائب جنود عربية مرتزقة . فصار على توالي الايام يختلط العرب الغرباء بالصينيين تزواجاً وتعاوناً في أمر المعاش وغير ذلك ، بيد أنه على جميع هذه القرون التي كرت حتى اليوم ، لم يبرح المسلمون الصينيون يتميزون عن سواهم تميزاً حافظاً لأنسابهم العربية التي يختلفون بها ميولاً واخلاقاً عن عامة الصينيين اختلافاً بعيداً ، وهم أبدأ يدعون لنفوسهم ميزة الشرف والعلو على غيرهم من السكان ، أما موطنهم في مقاطعات « بنان » الجنوبية وما يليها من المقاطعات الداخلية ، وهناك بلاد مسلمة في الصين غير هذه ، هي بلاد تركستان الشرقية التي فتحتها الصين في القرن الثامن عشر ، وأهلها مسلمون متسلطون نسباً من العروق التركية القديمة . وقد ظلّ المسلمون الصينيون جيمعاً على اختلاف أجناسهم يعاملون معاملة الحسنى والرفق ،

(١) اقرأ الفصل الوارد في آ هذا الكتاب على المسلمين في بلاد الروسية في عهد البلاشفة — « المرب » .

حتى العهد الأخير ، اذ طفقوا يشمخون بأنوفهم نخراً وكبرياء ، فأفلق ذلك الحكومة الصينية؛ فانقلبت عن الاحسان الى الاساءة اليهم واضطهادهم. لكن لما أخذت اليقظة الاسلامية العامة تجوب آفاق العالم الاسلامي بانتشارها المطبق في القرن التاسع عشر ، فبلغت الصين كما بلغت غيرها ، هب المسلمون الصينيون هبة الذعر فهاجت فيهم النعرة الدينية الاسلامية ، فأخذوا يوقدون الثورة نلو الاخرى ، حتى كانت الثورة الكبرى المشبوبة نارها سنة ١٨٧٠ في «بنان» وتركتان الشرقية ، فأظهر هؤلاء المسلمون من شدة الاستيصال والمغامرة في القتال ما لم يسمع بمثله من قبل . وقام في تركستان زعيم كبير ، وقائد مجرب ، هو يعقوب بك فاستطاع هذا الزعيم المقدم أن يجعل تركستان و «بنان» بلاداً مستقلة استقلالاً محلياً - السياج عدة سنوات؛ فكان يخيل الى الكثير من رجال الذهن في الغرب عهدئذ ، ان الثورات لمتحدون جميعا اتحاداً منيعاً وثيقاً ، ومنشئون دولة اسلامية ثابتة الاركان في الصين الغربية ، ثم شارعون يفتحون المملكة الصينية رقعة رقعة . وقد اشتهر يعقوب بك اشتهاراً بعيداً ، فداع اسمه وذكره في جميع العالم الاسلامي . وقد أعجب به السلطان العثماني وعظم بأسه وحسنه ؛ فأنعم عليه بلقب « أمير المؤمنين » في تلك الديار . و بعد أن طال القتال شديداً عدة سنوات وكثر وقوع المذابح الهائلة ، استطاعت الحكومة الصينية أن تحصد شوكة الثائرين ، ولكن بعد أن جلت خسائر المسلمين في النفوس ، اذ ما برحوا حتى اليوم في قوتهم دون ما كانوا عليه من قبل . وأما من حيث حالتهم الروحانية والأدبية فما زالوا يشتملون في نفوسهم على صفات ومزايا من اباة الضيم وعباء القتل ، قلما اشتمل على مثلها سواهم . وأما عددهم اليوم فيبلغ أكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠٠ . وعلى هذا يجب ألا يندت عن البال ان المسلمين في الصين بالبنون من الشأن في عالم اسلام الغد مبلغاً عظيماً وصارون الى شأن كبير .

ولو شئنا لتوسع في الكلام على النهضة الاسلامية العامة حتى يتناول جميع فروعها في القرن الماضي ، لاستغرق ذلك الأسفار الضخام ، ففي الهند ما برح الاسلام ينتشر انتشاراً متوالياً ، وكذلك في جزائر الهند الهولندية . أما الدول الغربية الاستعمارية فانها لا تستطيع غير أن تدع هذا الانتشار الاسلامي وشأنه ، دون أن تحاول الوقوف في وجهه أو صد تياره ، والسبب في ذلك أن المسلم اليوم قد ألق الاتفعا من المتحدثات الغربية كالعطر الحديدية والبرد والمطابع في سبيل نشر الدعوة الاسلامية ، وفي ذلك من المنافع الاقتصادية التي تجتنيها

هذه الدول مما لا يخفى على أحد .

واذ بلغنا الى هذا الموضوع في الكلام على الأس الأول للجامعة الاسلامية ، ننتقل للكلام على الأس الآخر ، وهو الدعوة الكبرى التي قام بها جلال الدين الأفغاني وقد عرفت به من بعده .

ولد السيد جلال الدين الأفغاني في مطلع القرن التاسع عشر في « أسد آباد » بالقرب من همدان في بلاد فارس . وهو أفغاني الأرومة لا فارسي ، يتحدر نسباً ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العترة النبوية الطاهرة ، ويمجى في عروقه الدم العربي البحت الكريم .

كان جلال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداية من أعظم الدهاة ، دامع الحججة قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن في ناسوته أسرار المغنطيسية . فلهمذا كان المنهاج الذي نهجه عظيماً . وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة في المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواه . وكان سائحاً جواً بآطاف العالم الاسلامي قطراً قطراً ، وجال غربي أوربة بلداً بلداً ، فاكنتب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع في سير العالم والأمم ، علماً راسخاً ، واكتنه أسراراً خفية ، واستبطن غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عوناً كبيراً على القيام بجلائل الأعمال التي قام بها . وكان جلال الدين يعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعياً مسلماً كبيراً فكأنه على وفور استعداده ومواهبه انما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فخب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جلال الدين الا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخبو نارها ولا يتبدد أوارها . وكان يختلف عن السنوسي منهاجا ، فخال انكب على السياسة وشؤونها ، وذلك على علوم الدين وترقيتها . غير أن السيد جلال الدين الأفغاني كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الاسلامي ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها وامتدت حياتها ، ورسخت في تربة الشرق ، وأدرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائية الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها . فهب جلال يضحي نفسه ويفنى حياته في سبيل ايقاظ العالم الاسلامي ، وانذاره

بسوء العقبي ، ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير ، فلما اشتهر شأن جلال خشيته الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب ، فنفثه بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تحض دولة جلالا وتضطهده مثل ما خافته واضطهده الدولة البريطانية ، فسجنته في الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه لجاء الى مصر حوالي سنة ١٨٨٠ وكانت له يد في الثورة العربية التي أوقدت نراها في وجه الغربيين ، فلما احتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جلالاً للحال ، فزابل مصر وأنشأ يسبح في مختلف البلدان حتى وصل الى القسطنطينية ، فتلقاها عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالبرّة والكرامة ، وقر به منه ورفع منزله ، فسحر جلال السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة فقلده السلطان رياسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية . ويغلب أن ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح في سياسته في سبيل الجامعة الاسلامية ، إنما كان على يد جلال الدين المتوقد الهمة المشتعل العزم ، والتحق جلال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخاً وعاملاً كبيراً في سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه .

وهاك ملخص تعاليم جلال الدين : —

« العالم النصراني ، على اختلاف أئمه وشعوبه عرقاً وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

« الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها ، متغلغلا في أحشائها ، وتمتمياً في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة الى الاسلام نظرة العداة ، والحق ، والتعصب الديني الممقوت (١) . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان في كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

(١) اقرأ التليق الخطير الشأن ، الوارد في هذا الكتاب رداً على مقالة « الاسلام والجنود السوداء »

للكاتبها روجر لوبون في (مجلة باريز) عدد ابريل ١٩٢٣ - (العرب)

« تنتحل الدول النصرانية أعذاراً لها في كرمها وهجومها وعدوانها على الممالك الاسلامية واذا لاهلها واكرهاها ، بقولها ان الممالك الاسلامية هذه انما هي من الانحطاط والتدلي بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شؤون نفسها بنفسها . وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتندرع بألوف الذرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الاصلاح والنهضة

« جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقعة على عداة الاسلام ، وروح هذا العداة متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الاسلام سحقاً .

« تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم وآماله ورغباته التي تجول في صدره ثم تملها بصور الجزء والسخرية والعبث والازدراء . فان ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصباً منموماً محرماً ، هو عندهم في بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة ، والوطنية المعبودة ، وان ما يدعونه عندهم في الغرب اباءة النفس ، والشتم ، والشرف الوطني ، والعزة القومية ، يعدونه في الشرق غلواً مكروهاً ، وافراطاً في حب الوطن ضاراً ، ومقتناً وشناة للاجنبي الغربي .^(١) »

« جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الاطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى هذه الغاية الكبرى انما يجب عليه اكتناء أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته^(٢) »

هذه دعوة جمال الدين على الايجاز ، التي أفنى حياته في سبيل نشرها بالبلاغة الساحرة

(١) منقول من مقال بتوقيع « x » موسوم ب (الجامعة الاسلامية والجامعة التركية) نشر في مجلة العالم الاسلامي) مارس ١٩١٣ ويقول كاتبه انه قد استفاد من مسلمة كبيرة المنزلة والشأن .
 «Le Pan - Islamisme et la pan - Turquisme» - Revue du Monde musulman.
 ومن أراد التوسع في الاطلاع على أعمال جمال الدين فليقف على كتاب (العصبية الجنسية الاسلامية) لسرفيه .

(٢) اقرأ التعليق الوارد في هذا الكتاب على السيد جمال الدين الافطاني حكم المرق (العرب)

والحجج الدامغة ، فكانت كالميث الجود أصاب التربة الجدياء . ولا عجب أن يكون جلال الدين ذلك الرجل الموقظ الكبير ، وتكون كل نسمة نفخها في المسلمين عاصفة زرعها ، وقد بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها وبغيها منتشراً في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي ، فتفانم الخطب واشتد البلاء . على أن جلالاً ما كان يقوم بجميع هذا وحده ، بل كان غيره أيضاً من قادة المسلمين لم يرحوا منذ منتصف القرن التاسع عشر يشنون الدعوة في سبيل الجامعة الإسلامية ، وأحد هؤلاء الدعاة العظام هو عالي باشا التركي الكبير ، الذي يؤثر عنه قوله : « ما يحتاج اليه المسلمون الاحتياج الأشد إنما هو لزيادة العزة الدينية فيهم ، لاتناقضها فاضمحلالها » . وقد أثر هذا القول عنه ارمينيوس فاميري ، المستشرق المنغاري الكبير ، والعلامة المشهور ، وذلك بعيد حرب القرم ، وكان هو قد شهد بنفسه مجلأً من مجالس الجامعة الإسلامية في منزل عالي باشا ، حضره رسل ووفود ونواب من جميع أقطار العالم الإسلامي .

على مثل هذه الأسس بنى السلطان عبد الحميد بناء الجامعة الإسلامية وشيد أركانها وأضاف اليها كل مطعم بعيد وغاية جلية . فبعد الحميد في الواقع داهية من أعظم دهاة العصر الحديث ، وسياسي في منتهى الحصافة ، غير أنه على كل هذا كان ذا أطوار خلقية عجيبة تفضى به وسواسه أحياناً الى حد الهم

فقد اختط الخطط الكبرى لتحقيق مشروعاته العظمى ، ثم طفق يسي وراء ذلك بمتنوع الوسائل سعياً وان كان قائماً معظمه على شدة الخندق والدهاء فانه لم يخل في بعض المواضع من ضروب العبث وكان سلطاناً مستبداً طبعاً وسجية ، ظنين السوء بعالمه ، مولعاً بأن تكون صغائر الشؤون وعظائمها معلقة على ارادته النافذة . وفوق جميع هذا ، فقد كثر من حوله الوشاة والمداهنون الذين وقفوا على سريره وعرفوا مشربه ، فجعلوا يحسنون له أهواءه ويجارونه مع محض رغباته

وكان ارتقاؤه الى العرش سنة ١٨٧٦ في ان شديد عصب ، فقد كانت الدولة على أبواب الحرب العنانية الروسية ، وكانت الحكومة في أيدي عصابة من الساسة يسعون سعى المصلحين في تجديدها على الطراز الحديث ، والنهج بها على المناهج السياسية الدستورية الغربية . فلما أخذ عبد الحميد بأزمة الأمور نقض جميع ذلك نقضاً ، واهتبل سانحة تضعف الدولة عند

الخروج من الحرب الروسية ، فألقى مجلس النواب وجعل نفسه السلطان المطلق لا تعلق يده يد ، له الأمر والنهي وحده . ولما استوتق له الأمر ، شرع يقوم بسياسته الخاصة التى نحا بها منذ أول الأمر منحي الجماعة الاسلامية .^(١) فعقد عزمه على أمر لم يعقد عزمه على مثله أحد من أسلافه الأقربين ، وهو التدرج بالخلافة لبلوغ أغراض سياسية عظيمة ، واذ أبان للبلاد كافة ، أنه فوق كونه سلطان الدولة العثمانية ورئيسها السياسى الوحيد ، فهو الخليفة الدينى للمسلمين أجمعين ، أخذ يستصرخ الأمم الاسلامية فى كل رقعة من رفاق العالم الاسلامى لتمديد العون اليه ، وتشد أزره بالالتفاف من حوله ، قاصداً بذلك فنف الرعب فى روع الدول الغربية التى خالها ربما كانت تأتمر فيما بينها وتتناور ، وتتخذ الوسائل وتقوم باتدبيرات ، للانقضاء على المملكة العثمانية . وكان منذ عهد بعيد يدبر أمر نشر الدعوة للجماعة الاسلامية تديراً نائى المضرب واسع النطاق ، غالبه بالوسائل الخفية الهائلة . فعدت القسطنطينية مكة ثانية ، يلوذ بها جميع ذادة الاسلام المشهرين بأعمال المقاومة للدول الغربية مثل جبال الدين وأنداده .^(٢) ، ومن القسطنطينية صارت توفد الوفود وتنفذ الرسل جاعلت دراكا الى جميع الأقطار الاسلامية ، حاملة رسالة الخليفة ، ألا وهى رسالة الامل المحقق فى النجاة من خطر حكم الفرنجة الكافرين .

(١) كان الكاتب الفرنسى المشهور غبريال شارم أول من استشف سياسة عبد الحميد وغايته ومقصده فى الدعوة للجماعة الاسلامية ، فحصل ينشر الفصول الممتعة فى هذا الصدد منذ سنة ١٨٨١ . وفى سنة ١٨٨٣ وضع كتابه (مستقبل تركية والجماعة الاسلامية) أودع فيه جميع ما رجمه بالنيب .

Gabriel Charms " L'avenir de la Turquie - Le Pan Islamisme ..

(٢) جمع السلطان اليه كثيرين من مقدمى العرب وزعمائهم ، ومشايخ الطرق فيهم ، من الحجاز ، والشام ، والعراق ، ونجد ، واليمن ، ومصر ، وطرابلس ، وتونس ، والمغرب ؛ وآخرين من زعماء الأكراد وآخرين من زعماء الارناووط ؛ لا لزوم لتسميتهم ، وأقرم فى الاستانة ؛ وأجرى عليهم الأرزاق كما هو معروف . قال فى أثناء الحرب كبير أولاده الأمير محمد سليم افندى : « كان الأرنالووط فى يد والدى يهدد بهم أوستريا وجميع دول البقان . كما أنه كان يهدد بخيالة الأكراد الروسية بعظمتها كلها ؛ فتحسب للآليات الحميدة حساباً . وكان يهدد بالعرب الدول الغربية بأسرها ؛ فظن هذه الدول أنه بالعرب يخاف لها مشكلات لا تنتهى . فالآن أصبنا ؛ والارناووط قد خرجوا من السلطنة بسد قتال شديد منا . والاكرد بدل أن يجاهدوا أمام الدولة فى الروس ؛ صار يلزمنا أن نوق المساكر لتطويهم حينئذ كركنا همى فى ملحمة كبرى مع الروس . وأما العرب فبعد أن كانوا عدتنا وسلاحنا لمقاومة الدول الغربية ، اقبلوا عوناً للدول الغربية علينا . » انتهى . ومراده بذلك انتقاد سياسة تركيا فى الستين الاخيرة . (ش)

وظلت دعوة عبد الحميد للجامعة الاسلامية تسير سيراً متوالياً مدة تقرب من ثلاثين سنة . غير أنه لمن الصعب الشديد أن يستطاع تحديد المفعول الذي كان لهذه الدعوة الكبرى تحديداً ييناً ، والسبب الأكبر في ذلك هو أنه لما حدثت ثورة «تركية الفتاة» سنة ١٩٠٨ ، وخلق عبد الحميد توقف مجرى الدعوة للجامعة الاسلامية وفترة سيرها في المنهج الذي كانت تسير فيه . زد على ذلك أن تركية على عهد عبد الحميد لم تخض نغمار حرب بينها وبين دولة غربية من الدول الكبرى ، لهذا يتعذر الوقوف وقوفاً صحيحاً على مبلغ ما كانت عليه الأمم الاسلامية من الاستعداد والأهبة لاجابة نفي الجهاد . على أن عبد الحميد قد أفلح حقاً في حل أمراء المسلمين وقادتهم على الاعتراف بسلطته الروحية ، فولوا وجوههم شطره وحسبوه قبلة آمال العالم الاسلامي ، وفسدوا مقامه تقديساً ، وغدا العظماء والكبراء يتقاطرون الى فروق من كل فجج من أجاج العالم الاسلامي لمبايعة الخليفة الأعظم أمير المؤمنين وحامي بيضة الاسلام ، الذي ملكته مملكةُ حصن الاسلام والمسلمين . ولم يستطع عبد الحميد مع كل هذا أن يستميل اليه قائداً كبيراً من قادة العالم الاسلامي أعنى به السيد السنوسي ، الذي كان يخامر قلبه الرب في مقاصد السلطان وأغراضه البعيدة ، وكذلك كان الأحرار في كل مكان يعرضون عن نصرة السلطان لاستبداده الشديد . وعلى الجملة فانه ليس باليسير أن يتيقن هل كانت الأمم الاسلامية متأهبة لتلبية دعوة السلطان عبد الحميد للقيام بالجهاد الاسلامي المقدس ، فيما لو كان دعاها يوماً الى ذلك .

وفوق جميع هذا فقد استطاع عبد الحميد أن ينشر الدعوة في سبيل الجامعة الاسلامية الكبرى في أوسع آفاقها ، ويحيي الشعور بالوحدة العامة والضمائم المستمسك بعضه ببعض ، في جميع الأمم الاسلامية ، احياء نشيطاً . ولم يكن يساعده على ذلك كونه خليفة الاسلام فحسب ، بل ما كان يبسطه ويبيئه من جميع ماتسكنه وتظهره الدول الغربية من أنواع العداة ، والمقت للمسلمين والتحامل عليهم . هذا هو السبب الأكبر في أن الدعوة التي أنشأها ودرها عبد الحميد في سبيل الجامعة الاسلامية كان لها من التأثير الشديد في نفوس المسلمين ما برح يزداد وينمو .

فلما حدثت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تبدلت الحال تبدلاً كبيراً في العالم الاسلامي ، فتلث الثورة الترككية ثورة ايران ، ثم أختت شرارات الثورات تبدو فيعقبها الانفجار

في كثير من الأقطار الشرقية ، وعلى آثر ذلك شرع يتبدى في وقت قريب في كل قطر اسلامى تيار جديد هائل ، وظواهر اجتماعية لم تعهد من قبل ، كستلب الحكومات النيابية ، واحياء روح الجنسية والقومية وما أشبه ذلك ، مما رافقه تطور اجتماعى كبير — تطور كانت عناصره منذ أمد بعيد تزداد اختاراً في العالم الاسلامى حتى حان أجل ظهوره فظهر راتعاً . واتنا سنفضل الكلام على هذا التطور بأنواعه في الفصول التالية من هذا الكتاب ، غير أن ما يجب تدبره بجملا في هذا المقام هو ما كان لهذا التطور الكبير من التأثير في مجرى حركة الجامعة الاسلامية ، فوينت في سيرها بعض الونى مدة كان فيها الاضطراب السياسى والقلق الاجتماعى ينتشران انتشاراً عاماً في جميع بقاع العالم الاسلامى .

ولم تكن هذه الفترة طويلة . ففي سنة ١٩١٢ عادت الجامعة الاسلامية تستأف سيرها ومجراها ، وكان الباعث على ذلك هو اشتداد اعتداء السول الغربية . ففي سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا معتدية على طرابلس الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ماعلة سوى الاستعمار . وفي سنة ١٩١٢ تألبت الدول البلقانية النصرانية وأوقدت نار الحرب على تركية ، خسرت تركية في هذه الحرب جميع أملاكها الأوربية ، فلم يبق من جميع ما كان لها في أوروبا غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شرتهديد^(١) . وفي تلك الغضون انفتحت انكلترة وروسية على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على آثر معضلة « أغادير » تحرق الارم ، فعضت على مرا كسش بالنواجذ وأنفنت فيها المخالب ، وهكذا في خلال سنتين توات الحملات الأوروية تترى على العالم الاسلامى ، حلات العدوان والاعتداء المحض ، فزقت ما كان باقياً منه حتى ذلك العهد سليماً شرمزق .

فنزول ذلك على الأمم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة يصبم الآذان دويها . فأخذ العالم الاسلامى في المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتتلاً غضباً وحنقاً . فعادت الجامعة الاسلامية الى سابق حالها تجرى مجرى سريعاً . وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبئ به على غير انقطاع دُعاة الجامعة الاسلامية منذ خسين سنة — الحرب الصليبية الجديدة لدك الممالك الاسلامية دكاً . وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الأفغانى ، الحكيم العظيم .

(١) عند ما أعلنت الدول البلقانية الأربح الحرب على تركية ، نصرت بلانغا لم يشك قارئه أنه بلاغ ملوك الصليبيين في أفر و الوسطى . . . أى اعلان حرب دينية ولم نجد من الأروبيين من أنكر هذا الامر. (ش)

وأخذت تتأجج الجامعة الإسلامية تنبدي، ففي طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقانلون جنباً الى جنب بروح عجيبة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الإسلامية، من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال من الازورار والتنافر شديدة فلقى المعتدون الطليان أمامهم مقاتلة مستبشرين ملء صدورهم ضرم من التعصب لا يطفأ، ضرم يزيد العالم الإسلامي وقيداً^(١) مما حل ساسة الغرب على الجزع والارتباك شديداً، فأخذوا يتساءلون في الخطب الكبير، وفي الذي عساه أن يتفجر انفجاراً عاماً في مشرق العالم الإسلامي ومغربيه . فقال « غبريال هانوتو » وهو وزير فرنسي من وزراء الخارجية السابقين : « بالله لماذا وجدت ايطاليا طرابلس غير المحصنة كوكرك الزناير الساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركية وحدها بل العالم الإسلامي أجمع . فإيطالية جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاتها » ولم يكن خلق انكلترة وروسية لثورة ايران ، ومحق فرنة لاستقلال مرا كثر بأقل استنارة للعالم الإسلامي من حرب طرابلس ، فزادات نار الغضب احتداما .

غير أنه لمسانبت الحرب البلقانية ، طفح الكيل وبلغت الروح التراقي . فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو ، يرتقبون أنباء الحرب ونتيجتها ، وقلوبهم على أحر من جمر الغضا ، فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية في البلقان أجفل العالم الإسلامي للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء . فقال أحد مسلمي الهند في نداء وجهه الى بني قومه : « يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء الروسية في بطرسبرج لرفع الصليب وشكته على قبة مسجد « آجيا صوفيا » فاليوم هم يأتمرون ويتشاورون في هذا الخطب ، وغداً يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب - المسجد الأقصى في بيت المقدس . »

« أيها المؤمنون الاخوة ! اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . فان

(١) عند ما كنا في مسكر أنور بين منصور بأعلي درنه ، كنا نهد مجاهدين لا من بركة ، ولا من طرابلس فحسب ، بل من تونس ؟ والجزائر ؟ والمغرب الأقصى ؟ ومن السودان ، ومن مصر ، ومن الشام ، ومن بلاد الترك ؟ وقدم علينا ٥٠ مجاهداً من بلاد الافغان وذكر النور جويلتي في خاطراته التي نشرها مؤخراً ؟ وكان أيام الحرب الإيطالية رئيس نظار ايطالية ، أن انكلترة ألحت عليه بالانفاق كيما كان مع تركية ، انها لهذه الحرب التي أثارته جميع العالم الإسلامي ، حتى وردت على انكلترة الاحجاجات ليس من الهند فقط ، بل من كل بقاع العالم الإسلامي حتى الصين : (ش)

الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم الى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد في سبيل الذود عن حياض الاسلام والمسلمين .

وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطباً الدولة البريطانية : « اتنا تنادي الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تفلح عن سياستها العدائية لتركيا ، انقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين ، انفجاراً يجر البلاء عظيماً »

وأعجب ما بدا ، أن أخذ المسلمون بوجهون النداء تلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسية ، يدعونها الى التآزر والائحاد ازاء الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وايم الحق غريباً في بابه لم يسبق له مثل منذ نشوء الاسلام . فان محمداً ، وقد جاء بالقرآن مصدقاً للتوراة والانجيل ، وقال انه هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ؛ أمر المرسلين باحترام النصارى واليهود وسماهم « أهل الكتاب » ، تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان . وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبينهم حتى هذا العهد الأخير ، فإ كانوا فقط يوماً مبغضين للنصارى بضمهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكنفوشوسيين أهل الشرق الاقصى (١) .

(١) ان الاسلام ، هو كما هو معلوم من القرآن الكريم ، يرى النصارى أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا ، وان القرآن جاء مؤيداً ، للانجيل والتوراة ، وكان ضلع المسلمين في صدر الاسلام هو مع النصارى بالتخصيص ، بدليل انه لا وقت الحرب بين الروم والفرس وطلب الفرس على الروم ، حزن الصحابة يومئذ حزناً شديداً ، فنزلت الآية الكريمة « غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيظفون في سبع سنين » فلما صدق قوله تعالى ينظف الروم على الفرس بعد سبع سنين ، فرح الصحابة فرحاً شديداً ولم يكن ذلك لكون الروم أقرب اليهم جنساً من الفرس ، بل الروم والفرس بالنسبة الى العرب على السواء ، بل لكون الروم أهل كتاب والفرس يومئذ عبدة نار لم يكن الله شرح صريح للاسلام . ولما عزا العرب الشام ، أوصى الخليفة أبو بكر الصديق بالنصارى ورهبانهم خيراً في خطبة مشهورة . ولما حضر الخليفة عمر بن الخطاب الى بيت المقدس كان من حسن معاملته للنصارى ما هو مشهور أيضاً في التواريخ . وروى المؤرخون ان الامام عمر زار كنيئة القيامة وبينها هو فيها أدركته الصلاة فأراد أن يخرج من الكنيئة يصل فدعه البطريرك صفرونيوس الى العمل داخل الكنيئة يصل فيه ، فأبى فألج عليه بالرجاء فأجابته : كلا . يأتي المسلمون بحدى يقولون هنا صلى عمر فيجبون هناك مسجداً في وسط كنيستكم . وهكذا كان الخليفة الأول والثاني يريعات حرمان النصارى ، وندوب الى سيدنا عمر عهد عبده الى النصارى فيه من البر بهم ما ليس فوه مزيد . ولكن سياسة أوروبا من أيام الصليبيين الى هذه الساعة ، تدكمرت هذا الصفاء ، وما زالت تكدره حتى بلغ من حق المسلمين اليوم أن صاروا البواحدنا مع البراهمة في الهند ، والبوذيين في الصين ، لابل القسيسين في أواسط افريقية على الأوربيين . (ش)

بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ ، اذ ظفرت اليابان ، الدولة الشرقية الوثنية « الكافرة » ، على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنقها دقاً ، فهب غالب المسلمين يتهبجون لانتصار اليابان هذا ، ابتهاجاً ملؤه الفخر الشرق والحاسة الاسلامية ، وتمنى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعاتها لو ينتحل أبطال اليابان الاسلام^(١) وشرع في تحقيق هذا الأمر العظيم ، والتمست وسائل التقرب من اليابان ، ثم أنشئت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامي الكبير ، فأوفد السلطان وفداً الى اليابان على بارجة حربية ، وأخذ العالم الاسلامي بسبب ذلك يلهمج بحدث اسلام اليابان ، ويتناقل الأنباء في هذا الصدد ، ويتباحث فيه ويحبهه أشد التحيز . قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « ان بريطانيا العظمى ، وفي حكمها ستون مليوناً من المسلمين ، لتخنى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذي اذا كان ، تغير على الأمر مجرى السياسة الاسلامية العامة تغيراً كلياً هائلاً . » وقال شيخ من شيوخ مسلمي الصين : « اذا شاءت اليابان أن تترك منزلة لم تترك مثلها دولة فيما مضى ، وأرادت أن ترفع شأن آسية على شأن سائر القارات ، فلا يتم لها ذلك بته الا بتحاها الاسلام ديناً . »

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلاً ، وأحلته محل الرعاية والاكرام ، بيد أنها لم تكشف عن رغبة في الدخول في دين الرسالة . وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة في آسية . وما زاد في ذلك التقرب ، فأخذت عرى الولاء تتوثق ، الحرب البلقانية وما تجلب فيها ومن حولها من المطامع الاستعمارية الهائلة . ويمكن العلم بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت اليه من الاضطراب

(١) جاء أحد أسراء الأسرة المالكة في اليابان ، في أيام السلطان عبد الحميد الى الاستانة ، فبينما هو في الحديث مع السلطان ، اذ جاء ذكر الأديان فقال له السلطان : « بلني أنكم تبخون عن دين ، فان كان الخبر صحيحاً ، فأنا أوصيكم بالاسلام . » فقال له الأمير الياباني : « ليس الخبر كما بلغ جلاتكم ، بل نحن منسكون بديننا » قد سمعت ذلك من فم العلامة المرحوم منيف باشا ، ناظر لحارف الشهير ، في أيام عبد الحميد ، وكان صدوقاً حراً ، ثقة في كل ما يرويه ، ومع ما كان عليه من شرف الطباع ، لم يمكن منظاراً بالتدين . فليسع ذلك من يزعمون أن اليابان لم تترك في المدينة الامداد ان خلعت الدين ، وبذته ظهرياً . (ش)

والاهتياج يومئذ ، بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التي أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) . ومثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم بـ « رسالة الشرق » جاء فيه ما يأتي : —

« يا روح الشرق !! ألا هي من مرقدك وادفى عن الشرق هذا الطوفان الغربي ، طوفان عدوان الفرنجة وبغيهم واعتدائهم !! »

« ايه ابناء هندستان !! كونوا لنا عوناً ونصراً بحكمتكم ، شدوا أزرنا بمخاضاتكم ، وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بجبال قوتكم ، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم . دعوا قوة الأرواح السكائمة في قم جبال جلجلا تنبثق فقد حان لها ، وحق من أوجدها ، الانبثاق ، املأوا الجو بصلواتكم الى اله الحرب لينصر الحق على القوة العاشمة ، وبزق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ، وارفعوا أصوات دعواتكم في هيا كل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين »

فمن تدبر هذا المآل الذي آلت اليه حالة المسلمين ، ولا سيما تقرهم من « الكفرة » ، وتوثيق عرى الولاء بينهم وبينهم ، لا يسعه الا تكبير هذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستغراب ، ولم يكن هذا التبديل الهائل مقصوراً على مسلمي الهند وحدهم ، بل شمل أيضاً مسلمي الصين . فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو الى اتحاد الصينيين قاطبة اتحاداً وطنياً مبنياً للوقوف في وجه الغرب المعتدى ، ما يأتي : « ان أوروبة قد بلغت من الطغيان والجور مبلغاً لا حد له ، فهي لا تنفك تنازعنا على حريتنا التي هي أقدس شيء لدينا ، وأوروبة ثم أوروبة ضاربتنا الضربة القاضية اذالم يستنصر بعضنا بعضاً ، ونهبنا معاً في يوم آت هبته المدافعين عن الأوطان دفاع الابطال » . وفي الدور الأول من النورة الصينية ، نفص مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا الى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشوسيين يقائلون معهم مستبشرين ، في سبيل الوطن ، وقد أنشئ الدكتور « صن - بات - سن » الزعيم الجمهوري الكبير على مسلمي الصين بقوله : « ان الصينيين لن ينسوا أبداً نصر اخوتهم المسلمين لهم في سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحررتها (١) »

(١) كان للمسلمون في حرب البوكسر يداً واحدة ، وظهرت واحدة مع أبناء وطنهم البوذيين وكان لهم عمل كبير في تلك الحرب ، حتى التمس الدول من السلطان عبد الحميد ارسال وفد من قبله ينصح مسلمي الصين باسم الخلافة أن يمنحوا الى السلم . (ش)

فلما نشبت الحرب الكونية العظمى ، كان العالم الاسلامى أجمع مضطربا اضطرابا عميقاً ، ومهدداً حثيثاً على الغرب المعتدى ، وشاعراً بضرورة اتحاده اتحاداً مكيناً ، وساعياً جد السعى لعقد المحالفات بينه وبين غيره من الدول الآسية ، ليتسنى له بذلك القيام بمجاهده المنوى فى سبيل التحرر من ربة الغرب

وربما يرى بعضهم من دواعى الاستغراب ، أنه لما دخلت تركيا فى معمعان الحرب العامة فى أواخر سنة ١٩١٤ ، وأعلن السلطان دعوته للجهاد لم يهبّ على أثر ذلك العالم الاسلامى هبته الكبرى المتوقعة . فلا يجب أن يؤخذ من ذلك أن دعوة السلطان هذه للجهاد المقدس انما كانت صرخة فى واد ، أو نفخة فى رماد ، كما حلت أبناء الحلفاء الغرب على هذا الاعتقاد فى ذلك الحين ، فالأمر فى الواقع كان على الضد مما شاع ، فقد كان الاضطراب هائجاً شديداً أيما شدة فى كل بلاد اسلامية فى حكم الحلفاء ، ونحن ذاكرون بعضاً من هذه البلاد . فصر باتت تقلى فيها عوامل الثورة غليان المرجل على النار ، وصارت على مقربة من الزوبعة الهائلة^(١) ، فلولم تملأ بريطانيا بلاد النيل أجناداً لاعداد لها ، لحدثت فى مصر الأهوال . وطرابلس ثارت ثورة عمياء ردت بها الطليان على أعقابهم حتى ساحل البحر ، وإيران كانت على وشك الاتحاد مع تركيا لولم يحل دون ذلك تدخل روسية وبريطانية وهيهما جناحها ، والهند الشمالية الغربية غدت ميدان قتال عنيف لم تقف رحاه حتى سافت بريطانيا اليه متئين وخسين الفاً من الجنود البريطانية الهندية . وقد اعترفت الحكومة البريطانية اعترافاً رسمياً بأن جميع البلاد فى حكم الحلفاء فى آسية وافريقية ، كانت خلال سنة ١٩١٥ قد وقفت من الثورة العامة والبركان الهائل على قيد خطوة .

حقاً لو نطق قادة المسلمين فى سائر الاقطار الاسلامية بالكلمة الاخيرة ، لكان بركان العالم الاسلامى قد انفجر وملاً الجوى حمماً . بيد أن تلك الكلمة لم ينطق بها ، وقام عدد عديد من زعماء المسلمين خارج البلاد العثمانية يستهجنون دخول تركيا فى الحرب كل الاستهجان ، ويعدونه خرقاً فى السياسة الرشيدة ، ويبسئلون غاية ما فى طوقهم لتسكين النفوس الثائرة والخواطر الهائجة . وقد دل عمل هؤلاء القادة والزعماء على حصافة فى الرأى كبيرة . فانهم أيقنوا

(١) ثورة دارفور التى قتل فيها على بن دينار سلطان دارفور كانت من أثر اعلان الجهاد وثورة الصومال ايضاً . (ش)

أن هذه الآونة ليست بالتي توفد فيها نار الحرب العامة في العالم الاسلامى ، ولا بالساحة التي نغتم للدعاء حتى على الجهاد الاكبر لتقويض سيطرة الغرب على الشرق . والسبب في ذلك أن الامم الاسلامية لم تكن قد استوفت جميع الاهدب المادية اللازمة لها بعد . ولم تحكم عرى النفاهم التام بعضها مع بعض من ناحية ، ولا بينها وبين حليفاتها من الأمم الكهى غير الملمعة من ناحية أخرى . وكانت الصلات المعنوية الاديبة في الامم الاسلامية على حال غير مستوفاة الشروط . زد على جميع هذا أن قادة المسلمين أنفسهم أدركوا حق الادراك أن تركية باتت صنعة طيبة بين يدي ألمانيا نزل على أمرها اقبالا وادباراً ، وأن « تركية الفتاة » غنت ندير دقة سفيتها عصبه من الجحدة الغربيين ، غالبهم ليس من المسلمين ، أوليسوا مسلمين الا اسماً ، بل هم من زنادقة اليهود^(١) وعلى ذلك لم يكن من رأى عقلاء المسلمين الاصطلاء بنار ألمانيا ، ولا الموافقة على مارسمته من الخطط وأبدنه من المطامح البعيدة للاستيلاء على العالم ، اذلاطائل للمسلمين في ذلك سوى ابدال أنيار بأنيار ، بل عولوا أن يترك الغرب وشأنه ، يقاتل بعضه بعضا فيضع كيانه وتسلبمنته ، ويهن عظمه ، وتنجلى مخبات مقاصده ومكنوناته نحو المستقبل . يتناهبسبل العالم الاسلامى فرصة نزاع الغرب هذا النزاع الشديد ، فيستجمع من قواه ما كان مبعثراً ، ويشدد من بأسه وحوله وقوته ، ويعد العدة حتى اذا ملحات الساعة المرتقبة ، وثب وثبة الأسد المصور ، فاتصف له من عدو عنيد .

وكان مؤتمر « فرسايل » كاشفاً عن مقاصد الدول الغربية ، تلك المقاصد التي كان يتوقع ظهورها دعاء الجامعة الاسلامية . فلما ظهرت واضحة طفقوا يحدون في سبيل اعداد برنامج العمل اعداداً تاماً لا عيب فيه ، وتوثيق الروابط المعنوية ، واحكام الوحدة الأديبة بين الأمم الاسلامية ، وفي مؤتمر « فرسايل » حسرت الدول الغربية الظافرة الشام عن جبينها ، وبينت غاية التبيين أنها لاننزل عن مطمع من مطامعها الاستعمارية ، ولا تروم الرفق ولو أقله بالأمم الشرقية ، ولا التقليل من وطأة السيطرة الشديدة الضاربة في الشرقين

(١) في سلايك طائفة يقال لها « الدعوة » اى المائون النييون ، أصلهم يهود من مهاجرى اسبانية ، الذين خرجوا منها مع عرب الأندلس . وقد أسلموا منذ نحو اربعمائة سنة ، ولكن اسلاما مشوباً ببعض عقائد الأصلية . ولما كانوا الثل الجيد في الحصافة والذكاء ، والقيام على الأمور المالية بنوع خاص ، كان الدور الذى يتولونه في الهيئة الاجتماعية التركية ، أعظم جداً مما يستحقه عدمه . وكان أثرهم في حركة الاعلاب الدستورى مهياً . فكان منهم أناس يمدون أركاناً في جمية الاتحاد والترقي . (ش)

الأدنى والأوسط . فقد قامت هذه الدول المنصورة واقتسمت بعضها مع بعض المملكة العثمانية ، على مقتضى طائفة من المعاهدات السرية التي كانت قد أبرمتها فيما بينها خلال الحرب العامة ، وكانت تلك المعاهدات السرية في الواقع أساساً بنى عليه الصلح الذي عقد في مؤتمر فرساييل . زد على جميع ذلك ، فقد كانت بريطانيا قد أعلنت في أوائل الحرب أن مصر صارت من البلاد البريطانية المحمية ، وقبيل انفضاض مؤتمر فرساييل ، ظهرت بفترة معاهدة جديدة بين بريطانيا والعجم ، من مقتضاها أن هذه البلاد الاخيرة بانت في باطن الامر على الأقل ، ان لم يكن في باطنه وظاهره معاً ، معدودة من البلاد البريطانية المحمية أيضاً فكان مؤدى هذه النتائج جميعها أن دول الحلفاء قد غلت الشرقيين الأدنى والأوسط بأغلال من السيطرة السياسية الثقيلة غير مسبوقه المثل .

غير أن للأمر وجهاً آخر نقيضاً لما تقدم . ذلك أن قام ساسة الحلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية ، ان الغاية الكبرى الوحيدة في هذه الحرب الدموية المخوضه الغار ، انما هو انشاء نظام عالمي حديث ، قائم البديان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة والقواعد الشريفة . كرعاية حقوق الأمم المستضعفة ، واطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم في اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، وامتلاك مذكراتها . فداعت هذه التصريحات في الشرق أيما ذبوع ، واختزنتها الأمم الشرقية لا بل حفظتها عن ظهر قلبها وأخذت ترتلها ترتيلاً . فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شيء من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولا على مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سراً وخفاء معاهدات الجشع الاستعماري والحكم والفتح ، لحدثان ما احتدم غضباً ، يكبر نوازل الجور والبني ، ويعظم سوم هذا الخسف والذل ، فأخذت مراحل العداء تشتد غلياناً في كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهر الجوى وقصفت الرعود منترنة بأهول الصواعق . ولم يكن هذا بالحادث المستغرب ، اذ قد سبق للكثير من الخبراء العقلاء الغربيين ، الراسخين علماء بالأمور الشرقية ، فأندروا الدول الغربية المرة تلو المرة قبل انفضاض مؤتمر « فرساييل » بسوء العقبى الواقعة في الشرق ، وبانفجار عظيم لا بد منه ، من هؤلاء المندرين « ليون كايثاني دوق سرمونيه » وهو ثقة من ثقات الطالبان في شؤون العالم الاسلامي ، فقد قال في ربيع سنة ١٩١٩ في مجلة حديث له

ذكر فيه نتيجة الحرب العامة في الشرق : « ان الحرب الكونية العظمى ، قد هزت شجرة الحضارة الشرقية فاهتزت اهتزازاً بلغ أقصى الجذور في التربة ، وبعثت فيها روحاً عجيبة . ان الشرق أجمع ، من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط ليميد ميداناً عنيفاً في كل رفعة و بلاد ترى نار العداء للغرب مشبوبة في مراكش الفتنة ، وفي الجزائر الثورة ، وفي طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهياج ، وفي مصر و بلاد العرب وليبية وسائر الأقطار الاسلامية الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متماثلة الصفة العامة ، وموحدة الغاية : تماسك العالم الشرقى الاسلامى بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع الى ذلك سبيلا . »

فكانت هذه الكلمات كأنها رؤيا صادقة ، فاخذت تتحقق في العالم الاسلامى . غير أنه لما كانت الواقعات الأخيرة التي تقوم بها الأمم الاسلامية انما تظلم عليها صفات القومية لوطنية فاننا سنبسط الكلام عليها في فصل (العصبية الجنسية) من هذا الكتاب . وما يجب رعايته حق الرعاية في هذا المقام هو أن العصبية الجنسية الاسلامية والجماعة الاسلامية ، ولو كان ما كان بين بعض وجوهها والبعض الآخر من الاختلافات ، فانها بجمليتها متحدة متجهة نحو غرض عام واحد : هو القيام في وجه السيطرة الغربية المرهقة ، وتبديدها وتمزيقها ، وتحرير الأمم الاسلامية من قيود السلطة الأوروية السياسية . واذ وعينا هذه الحقائق وتدبرناها ، فاننا نأتى للكلام على حاضر الجامعة الاسلامية وواقعها المشهور :

قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجاً هائلاً ، وثار ثوراناً عجبياً ، في هذه الآونة الأخيرة والباعث على هذا انما هو الارهاق الغربى ، المتوالى الشدة والزيادة منذ الزمن البعيد . ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية ما لم يستمر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب ، وهو الصلح الذى سبق لنا فأبنا قواعد وأركانه الفاسدة وما دهي العالم الاسلامى بسببه من النوازل والفواجع ، ولا يغربن عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها ، يجب ألا تعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب رداً لاعتدائه ودفعاً لجوره حسب ، بل ان منشأها الأسمى هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة ، في المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التي قلنا فيها

قبلا انها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقاً بين النصراني والنصراني . فان عرى هذه الجامعة لبست دينية فقط ، بل انها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية . وان القوانين والقواعد التي تتألف منها وتقوم عليها حياة الاسرة الاسلامية ، على مختلف العادات والأقاليم لا تتغير في موضع عنها في موضع آخر في جميع الممور الاسلامي . قال (السر موريسون) : - « ان الحق الذي لا يمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد ودين . انما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها . وقد انقضى ما انقضى من العهد الذي ما برح فيه الاسلام والنصرانية على نضال وزراع ، فأعرى وهن جانباً من جوانب الاسلام قط ، بل ما انفك على الدوام يشتد بعضه مع بعض متماسكا متعاضداً ، حتى صار وحدة جامعة ، نامية نمو الجسم العضوي ، سائراً سيره بفعل نظامه الذاتي المستقر فيه . »

فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه الحضارة ربطاً وثيقاً لا انفصام له . وباعتبار هذا المعنى ، فانها الجامعة الاسلامية انما هي عامة ، قائمة البناء في جميع العالم الاسلامي ، حتى ان المسلمين الاحرار ، على ما يحبذون من الآراء الغربية التي يردون شرعتها ، من حيث لا يرتاحون الى دعوة الجامعة الاسلامية السياسية لتمشيها على الطرق الرجوعية ، يعتقدون كل الاعتقاد في وجوب الوحدة الاسلامية الشاملة المبنية على أصول الحرية وقواعدها . قال امام حر من أئمة زعماء المسلمين في الهند ، وهو أغا خان ، ما يأتي : (ان هناك جامعة اسلامية حقة صريحة ، ينضم الى لوائها الحركة كل مسلم مؤمن مخلص ، أعني بذلك الرابطة الروحية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الاسلامية . فهذه الوحدة ، الاسلامية الروحية التهذيبية ، يجب أن تتعهد فتتعمد أبدأ ، لانها عند أتباع النبي أس الحياة وجوهر النفس .)

فإذا كان هذا شعور المسلمين الاحرار الواقفين حق الوقوف على حضارة الغرب ، وتقدمه ، ورفقه ، وعمرانه ، والقائلين بوجوب الاقتباس منه والأخذ عنه ، فأشد شعور سواد المسلمين ، وهم الجاهلون الرجوعيون المتعصبون ؟ أضف الى هذا ما هو معروف في عامة المسلمين من الشنأة لاعتداء الغرب وحضارته ، الشنأة التي ليس منشاها في كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل مجرد الافراط والغلو في التعصب . وقد كان للحوادث السياسية

في العالم الاسلامي خلال العقد الأخير تأثير كبير في هذا الافراط والغلو، كالتعب والتهايا بالغا الحد تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية وتجمعه صفة واحدة متائلة متمكنة في نفس كل مسلم، فبات السلم العامة في العمور الانساني مهددة من ناحية العالم لاسلامي. هذا هو الواقع، الذي يجب علينا أن نعترف به، وألا نخدع نفوسنا فنستغفر شأن هذه الحالة العصبية اليوم وما يحتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى في الغد القريب.

وعلى ذلك ليس من اصابة الحقيقة في شيء أن يقال ان تركية قد سبق لها فطعت المسلمين واستصرختهم الى حرب عامة، وحاولت جهدها اقتداح زند الجهاد المقدس سنة ١٩١٤، نزولا على أمر المانية، فلم يكن هناك الابراء المراد فذهب الاقتداح باطلا، بل كان دليلا على أن الجهاد الحقيقي في العالم الاسلامي بات ضرباً من المحال. ان من حله الوهم على هذا فهو على خطل شديد. ان الجهاد لممكن أبداً كل الامكان. قال ضابط الماني كان من أركان الحرب في الجيش التركي خلال الحرب العامة قولاً صريحاً وهو: « ان الجهاد الذي أعلنته تركية قد حبط حبوطاً لانه في الواقع لم يكن جهاداً بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين ». وقد سبق لنا فأبنا كيف هب قادة المسلمين خارج تركية فأخذوا يستهجنون دخولها في الحرب. وبسطنا ماذهب اليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال.

فلسلة الاعتداءات الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة، وتقرر الصلح على الاسس والاركان التي ذكرنا صفاتها الفاسدة، تقرريراً كان من شأنه أن بات العالم الاسلامي أجمع خاضعاً خضوع الذل والخنوع للسيطرة الغربية. جميع هذا أشمل قلوب المسلمين، فهبوا هبوب العاصفة تقتلع كل شيء في سبيلها. أضف الى ما تقدم ان الاهدب المادية ما برحت تزداد وتستوفي. وقد سبق للمستشرق الكبير العلامة ارمينيوس قمبراري الخبير حتى الخبيرة بشؤون العالم الاسلامي، فأبذر الغرب انذاراً منذ أكثر من عشرين سنة، قال فيه ان السياسة الاستعمارية النهضة انما هي السبب في نشوء المخاطر العظمى في الشرق، واليك بعض ما جاء في مقاله الذي نشره سنة ١٨٩٨ « ان الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد في الشرق ازدياداً عظيماً على توالي الأيام. ولا يغيب عن البال أن روح العداء والمقاومة قد اشتدت، والصدور وغرت، والحفاظ اتضت، أعني بذلك ان الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعوراً عاماً، نامياً،

منتشراً في جميع الشعوب الاسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل ، فباتت الحالة اليوم غيرها منذ عشر سنين الى عشرين سنة .

« وليس من المستغرب أن تقدم على تنبيه الصليبيين في أواخر القرن التاسع عشر الى الميزة العالية التي أدركتها الصحافة الاسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، والى عام انتشارها في آسية وافريقية ، وما لعظاتها البليغات وانذاراتها الموقظات من التأثير الشديد في نفوس قارئها المسلمين . فللصحف الوطنية ، السيارة والدورية ، في تركيا والهند وفرنسا وأواسط آسية وجاوة ومصر والجزائر مفعول عظيم ، اذ كل ما فتكر فيه أوربة وتقرره وتقوم على انفاذه على ما ينافي المصلحة الاسلامية ، تنتشر اناؤه في جميع هذه الاقطار بسرعة البرق ، وتحمل القوافل هذه الانباء الى كل جهة شاسعة وصوب سحيق في الرقاع الاسلامية ، حتى الى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتلقى مثل هذه الانباء معظمين مكبرين . فالشراة التي تستطير من مجمع من مجامعنا ، أو ناد من انديتنا ، أو وليمة من ولائتنا ، فما تزال في مستطارها ومسبحها في الفضاء ، حتى تجوب أفاصي العالم الاسلامي فتقع وقوع الرعد القاصف . وما تنشره صحيفة «ترجان» في القريم مثلا ، تردده صحيفة «اقدام» في القسطنطينية ، ويرن صدها عظيما في صحيفة «الحوادث الاسلامية» في كلكتا في الهند

« فالجامعة الاسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء ، غير ان اعتداء الغرب على غير انقطاع ، وعسفه التوالى الذي يزداد اشتداداً على الدوام ، سيحملان على استجماع هذه العرى بعضها الى بعض فتتماسك وترتبط ، فتصير الجامعة الاسلامية كالبنيان المرصوص منبع الاركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب علمية مشبوبة في انحاء المعمور لاتبقى ولا تندر .»

منذ نشر فامباري انذاره هذا حتى اليوم ، ما برح الأمر يتفاقم والنصرة الاسلامية تنور في وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد في هذا زيادة كبيرة النهضات القومية ، والحركات الوطنية الاسلامية التي كانت تكاد لاتعرف في القرن الماضي ، وهي قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام ، والكفاية من أسباب الذبوع والدعاية . ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الاسلامية وهي التي أشار إليها فامباري ، فقد تعاضمت تعاضماً غير مسبوق المثل . ففي سنة ١٩٠٠ لم يكن في العالم الاسلامي أكثر من متنى صحيفة دعوية ، فبلغ هذا

العدد سنة ١٩٠٦ حد الخسامة صحيفة ، وأربى سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فانسلمون
 يرحبون فى بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرد والبرق والقطر الحديدية ، وغير ذلك
 مما يساعدا على تطير الانباء ونقل الاخبار . وكل بلاد من بلاد المسلمين هى على اتصال دائم
 مع سائر البلدان الاسلامية ، اما توأ على يد الرسل ، والسعاة ، والحجيج ، والسياح ، والتجار
 والبردا ، واما على يد الصحف الاسلامية والكتب والنشرات والمجلات . فى القاهرة ترى صحف
 بغداد وطهران وبنار ، وفى البصرة و بومباى ترى صحف القسطنطينية ، وفى المحمرة وكر بلاء
 و بورت سعيد ترى صحف كلكتا . واما الوسائل الكبرى للدعاية فى سبيل الجامعة الاسلامية
 فهى الطرق الدينية التى سبق لنا الكلام عليها وهى حقا كالسبل الطامى فانها ما أدركت أمة
 مسلمة الاستولت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانقياد الى تعاليمها . وترى دُعاة هذه
 الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء
 المتسكرة تجاراً ووعاظاً ومرشدين وعلماء وطلبة واطباء وعملة ومتسولين وفقراء ومساكين ،
 حتى ومشعوذين ودجالين ، وحيثما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الراحب
 والسعة ، واخفهوم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية . »

زد على جميع هذا أن ساد اليوم فى العالم الاسلامى سيادة عامة ، الاعتقاد الذى يؤيده
 الأحرار والفلاة والمحافظون وسائر الأحزاب معاً ، أن المسلمين اليوم هم فى دور النهضة ،
 والاتقال ، والتجدد ، يستردون مجدهم الاسلامى الفاتى ويستعيدون عزهم التليد . قال
 السرنيور موريسون : « ليس من مسلم يعتقد ان الحضارة الاسلامية فانية أو غير متجددة
 مترقية ، انما يعتقد ان قدرتها قهقرى قصيرة حسب فقصر المسلمون أمرهم على التطوح
 فى الاشادة بمجد الجدود ، وتمصبوا فى ذلك وغالوا شديداً ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف
 فى صفته عن الحال التى كانت سائدة فى أوربة خلال القرون الوسطى ، يوم كان ديجور الجهل
 مطبقا جميع البلاد النصرانية يعتقد المسلم اليوم أن العالم الاسلامى سائر فى طريق استئناف
 الارتقاء ، يأخذ عن الغرب ما يزيد فى استحثائه ويبعث فيه عزماً واقداماً ، ونشاطاً ، فتطورت
 الحياة تطوراً تبنت دلائله فى كل قطر اسلامى . »^(١)

(١) ذكر المؤلف فى هذا الموضع كلاما مقتبسا من كتاب (بظفة الشعوب الاسلامية فى القرن الرابع عشر
 للهجرة) لمؤلفه يحيى صديق ، اضربنا عن ترجمه — (المترجم)

فاذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء ويصرخون تلك الصرخات في مفتتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العامة مصداقاً لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم ان قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة واندفاعاً . أضف الى هذا ان الغرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنه ، واهن القوة المادية وهناً كبيراً ، ثم جاء الصلح مبنياً على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبيين بعضهم مع بعض نشوباً قوض مكانهم تقويضاً وقضى القضاء الأخير على منزلتهم في عيون الشرقيين . وقد كان من شأن النزاع والمشادة بين كل من بريطانية وفرنسة وإيطالية في الشرق ، ان ساعد المسلمين مساعده جليلية على زيادة تساندهم وتماسك بعضهم مع بعض ، فاشتد ايقانهم بادراك المبتغى ثم ان هذا التعادى الذى قام به الحلفاء في الشرق قد سبب اضطراباً سياسياً عظيماً في الغرب فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف . قال أحد كتاب الفرنسيين في الآونة الحديثة ينذر أوروبة انذاراً شديداً : « ان العالم الاسلامى بات لايعترف بمحمود أملاكنا الاستعمارية ، والعاقل الذى يريد اعتبار الحقيقة لايعجب من ذلك أقل عجب مادامت الدعوة الكبرى التى نشرها ورفع علمها جال الدين في المسلمين تير سيراً دراكا . »

وأى شئ أدل على هياج الاسلام ، وغليان مراحل حقهه من ذلك الثوران الهائل الذى يقوم به السبعون مليوناً من المسلمين في الهند ، احتجاجاً على تجزئة المملكة العثمانية؟ والأمر الأخطر ان هذا الثوران الاسلامى ليس مقصوراً على الهند فحسب ، بل انه شامل المعمور الاسلامى ، وعلى ذلك فلم يغال السر نيودر موريسون بانذاره : « لقد حان وأيم الحق للامة البريطانية أن تعتبر وتتدبر خطورة ماهو جمل في الشرق ، فان العالم الاسلامى أجمع ليعج غضباً ، ويحتدم حنقا ، من جراء تجزئة تركية . وما هذه اللوامع النارية التى تبدو في كابل والقاهرة الا البرق الذى تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة . انى قد أقت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمتي البريطانية بشرعقبى هذا الثوران الاسلامى الناشئ عن تجزئة تركية التجزئة المنوية . فان ساسة مؤتمر فرسايل قد خلوا تركية في الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامى ، فليس من شعب يغضب لها ، ولا من أمة تغار عليها . فما أسوأ هذا الخيال الباطل والوهم القاتل ! ! فن شاء البرهان فلينظر الى هذه الوفود الاسلامية

العديدة ، الحالة بين ظهرانينا في لندن كأنها الهب لا يصطلى به . فالمسلمون قاطبة في الهند ، من « بشاور » حتى « أركوت » قأمون قاعدون لما يرونه قد حل بساحة تركية والمسلمين حتى باتت النساء المسلمات يعولن اعوالاً شديداً ، ويبكين حالة الاسلام بكاء الأمهات أطفالهن ، وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة من مزاوله الشؤون السياسية يفرون من حوائنهم ومتاجرهم خفافاً الى حيث ينظمون رفاتح الاحتجاج ويطيرونها بالبرق الى أنحاء العالم ، وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين ، المتشددين ، المضروب بهم المثل في شدة انقطاعهم عن جرى الحوادث في العالم ، يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليستركوا في القيام بالظاهرات والاحتجاجات .

وأغرب مافي الحالة ان الأحرار قد أخذوا ينظمون أكثر فأكثر في عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهباً مخالفاً لقلادة الجامعة الاسلامية وأرباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعسف الاوروبي ، فهم ازاء هذا الخطب الكبير يسعون في رده بموالاته الأحزاب الأخرى والتحالف معها ، ولو الى حين ، مع علمهم ان الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة الاسلامية اذا أنارت حرباً عامة باسم الجهاد ، فن شأن هذه الحرب أن تفجج غوراً بعيد المهوى بين الشرق والغرب ، وتقضى على تلك العوامل والمؤثرات السارية من هذا الى ذاك ، وهي التي ترى اليوم دابة في كل عرق من عروق العالم الاسلامي باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضاً أن حرباً كهذه تشعل نار التعصب الرجوعية في المعمار الاسلامي ذلك التعصب الذي اذا عاد فاتقد أو هن حركة الاصلاح الحديث في الاسلام اهباناً شديداً فأخرها مدة مديدة .

ولعل الذي عرف حتى اليوم من ثوران الاسلام لا يعد أكثر من مقدمة لما سيحدث في السنين المقبلة . ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للاصلاح الديني في الاسلام اصلاحاً ضاربا الى التعصب ، أما الأولى فهي دعوة « الاخوان » التي نشأت منذ نحو عشر سنين في نجد قلب بلاد العرب ، وهي الوهابية عينها التي كانت نشأت منذ مئتي سنة خلت ، وهذه الوهابية الحديثة ما برحت تنتشر انتشاراً سريعاً حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير أعنى به ابن السعود ، خليفة سعود الذي كان رأس الدعوة

الوهابية منذ مئة سنة . وأما « الاخوان » الجدد فعلى نصب شديد منقطع النظر ، وخطتهم هي حلم الوهابية القديم من الاصلاح الديني العام في العالم الاسلامي . وأما الأخرى فهي الدعوة « السلفية » التي نشأت في الهند منشأ يشابه دعوة « الاخوان » في نجد ، غير انها قد انتشرت في هذه السنين الأخيرة انتشاراً عم كل رقعة اسلامية . وغرضها كغرض الوهابية من حيث الاصلاح المزيج بروح التعصب . وغالب اتباعها من حلقات « الدراويش » هذه هي الحالة التي مع ما تطوى عليه من مختلف العوامل المبسطة الذكر تنخر نخرًا متغلغلا في سلم الشرق .

واذ قد بلغنا في الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتها الدينية والسياسية الى هذا الحد ، يجدر بنا أن نقول كلمة في الجامعة من حيث وجهتها التجارية والصناعية ، وذلك ما يعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية :

ان السبب في انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية ، هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة في الشرق . فن قبل حسين سنة خلت كان العام الاسلامي يتسكع في « اجياله الوسطى » ، فكانت الشريعة الاسلامية ، وما فيها من تحريم الربا ، مرعية حتى الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالي مبسورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة انما كان غالبة في أيدي النصارى واليهود من أهل البلاد . زد على هذا ان الترامم الغربي جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، اذ ان فتح أوروبا للعالم الاسلامي الفتح السياسي كان يماشي الفتح الاقتصادي جنبا الى جنب ، وربما كان هذا الاخير آتم نظاما وأكمل عدة ، فبات كل صقع شرقي في طوف من البضائع والحاج البخسة الأثمان ، المنقولة من أوروبا ، ووراء ذلك رؤوس الأموال الغربية متدفقة لانهصى ، تنسرب في البلاد وتنتشر بأخضع الصور وأملق الأساليب ، كالكروض ، والامتيازات التي من شأنها متى ما عقدت أن تكون تمهيدا لاستقرار السيطرة السياسية الغربية .

فنصر أوروبا الذي نالته في فتحها هذا الفتح السياسي الاقتصادي التام كان باعنا للشرقيين على العدا والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسلامي غضبان فباله مارآه في دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأثى بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقدر حوله لزاء حول الغرب الجبار العاقى فأدرك شقة البعد ، فطلق للحال يجمد في سبيل التحرر الاقتصادي

جده في سبيل التحرر السياسي من ربق الذل والاستعباد . ثم أنشأ حكما المسلمين ، وأرباب الدراية فيهم والرأى السديد . يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى ، التي من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامي رقا اقتصاديا جليلا ، فنسخت الأساليب والمناهج الغربية ، ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سداً في وجه النهضة ولا لتحول دون مجراها .

فنتج عن ذلك تطور عظيم في الحياة الاقتصادية أخذ ينمو ويزداد ، ناهجا منهاجا اقتصاديا غربيا . ولكنه حتى اليوم مابرح يجتاز الدور الأول من أدواره ، وهو أظهر وأبين في البلاد التي هي أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالعهد ومصر والجزائر . أما متجهه فواحد في كل قطر اسلامي ، وسنفصل الكلام على هذا في فصل التطور الاقتصادي . فما يجب اعتباره في هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الاسلامية وميزته فيها . وهذا الشأن هو عظيم جداً . لأن أوثق وحدة ، وأمتن صلة ، ظهرت في المسلمين حتى اليوم إنما هي الوحدة الاقتصادية بلا مرء . ولا يعزب عن البال ان الروابط الدينية والصلات الخلقية التهذيبية التي تجمع بين المسلم والمسلم ، ما انفكت تزيد في تواق المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم في المعمور الاسلامي أمة واحدة بعضها يغار على بعض وجانب يساند آخر . دع ماهو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل ، المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار الى كل جهة أرادوا ، فازداد بذلك تعارفهم واستمكت أو اصبرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، ابناءوه مقاديم ، بعداء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصارفة ، والسامسة حتى وأرباب المصانع والمعامل ، بمن لم ير أمثالهم في المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا . وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتوائق . تربط بعضهم ببعض الروابط الاسلامية ، ويحملهم التزام الغربي المنتشر في بلادهم على شدة التضامن ، فلهم في الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ما ليس مثله للساسة المسلمين ، اذ في الأفق الاقتصادي يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والفلاة وسائر الأحزاب الوطنية على آتم وتام . فلا خلاف بينهم في هذا الميدان يفضى بهم الى الانقسام لعلة اتباع احدى السياسات ، كسياسة الثورة أو الجهاد ، انقساماً يحملهم على تهديد أوروبا المسلحة ، أو يؤدي بهم الى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال ، بل هم جميعا في نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدو

الكلمة ، يجدون في سبيل الحياة الاقتصادية الاسلامية ، متوخين في ذلك الطرق والأساليب التجارية التي لايجرؤ الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف في وجهها .

فا هي غاية الجامعة الاسلامية الاقتصادية ترى ؟ انما هي : ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الاسلامي هي لهم يتمتعون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهي نقض اليد من رؤوس المال الغربية والاستعاضة عنها برؤوس مال اسلامية . وفوق جميع هذا ، هي تحطيم نواجذ أوروبة تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجارك ، العقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الاسلامي فهو يظل عالة على الغرب .

هذه هي أغراض الجامعة الاسلامية الاقتصادية ، وجميعها حديث الميثاق ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة في العالم الاسلامي - السيطرة التي تتكلم عليها في الفصل التالي من هذا الكتاب .

الدول المستعمرة والاسلام

للأمير شكيب

من الغريب أن فارس عرضت على إنكلترة المحالفة ، والدخول الى جانب الحلفاء في الحرب العامة ، فأبت إنكلترة مساعدة فارس هذه . وهذا أمر صرحت به جريدة الطان ، لسان حال فرنسا أثناء مؤتمر الصلح بباريز . وأن مصر عرضت نفسها أثناء الحرب العامة أن تقاوم في جانب الحلفاء بشرط الجلاء الانكليزي عن مصر بعد الحرب ، فأبت إنكلترة أيضاً ذلك . وان الشريف حسيناً بن علي ، ملك الحجاز اليوم ، كان عرض نفسه لمحالفة إنكلترة منذ بدأت الحرب العامة ، فأبت إنكلترة محالفته يومئذ كما أبت محالفة مصر والعجم . وأغرب منه أن تركية نفسها بينما هي في أول الحرب العامة ترددت في الميل الى أي الفريقين المتصارعين ، ويتجاذبها عاملان أحدهما الى الحلفاء ، والآخر الى الألمان ، صرحت لسفراء الحلفاء في الاستانة انها تخشى اذا اعتزلت الحرب من أن يتفق الفريقان عليها ، ويعقدوا الصلح على ظهرها . فقالت لهم لا بد لنا من محالفة . وعرضت على الحلفاء أن تكون معهم ، بشرط أن تأمين شروهم في المستقبل . فأبى الحلفاء قبول محالفة تركية لهم ، وكل ما طلبوه منها كان التزام الحياد التام ، وبمخالفة ذلك تتعهد الروسية بأن لا تهاجم تركية مدة ثلاثين سنة (تأمل) وتنال تركية بعض مساعدات أخرى ليس لها كبير طائل . وبدهي أن رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامي مبنى على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الاسلامية أثناء الحرب العامة ، لما كان لاتفاقاً أن يقسموا فيما بعد الحرب بلاد الاسلام الباقية الاقسام الأخير ، كما كانوا ينوون أثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب . فلورضوا بدخول تركية معهم في الحلف وقبوا عضدها لهم في ذلك الموقف ، لما كان يجوز بعد الحرب انفاذ برنامج التقسيم الذي كان مقررأ بين إنكلترة وفرنسا منذ ١٩١٢ . ومن جلته قسمة سورية وفلسطين . ولورضوا بدخول العجم في الحلف وقبلوا معاومتها ، لما كان يحل أن يجهزوا عليها الاجهاز الأخير بعد الحرب كما

كانت النية ، بل كان ديناً عليهم اخلاء العجم ، وهذا ما لا يريدونه . ولو قبلوا اقتراح مصر في الدخول في الحرب الى جانبهم ، لتعين عليهم الجلاء عن مصر بعد الحرب على وجه المكافأة ، مع أن المراد بعد الظفر الأخير هو استلحاق مصر تماماً لا اعطاؤها حريتها . وكانوا يرون أنهم قادرون أن يستخدموا رجال مصر ويرتفقوا بأموال مصر بالثروة والفسر ، بدون أدنى منة لأهل مصر ، وبدون تعهد بالجلاء عن مصر على حد ما قال أبو الطيب :

من أطاق اغتنام شيء غلاباً واغتصاباً لم يفتنمه سؤالا

ولقاتل أن يقول : لكن ينقض نظريتك هذه ، أن الحلفاء حاقفوا سنة ١٩١٥ الشريف حسيناً ، وهذا ملك من ملوك الاسلام . والجواب أنهم ما قبلوا التحالف معه باديء ذي بدء اظنهم أنهم يستفنون عنه ، ولا يتقيدون معه بعهد يمنهم بعد الظفر من أخذ بلاد العرب . فلما طالت الحرب ، وظهر من تركية ما ظهر من القوة التي لم تحظر لهم على بال ، ورأوا الحرب ستسوم أعواماً ، وتأتي على الحرث والنسل وان العالم الاسلامي كله في هيجان عليهم ، عادوا الى قبول مخالفة الشريف حسين أملاً بفصل العرب عن الترك ، وباستمالة جانب من المسلمين ، وبتخفيف حمة كان الحلفاء بدأوا يشعرون بثقلها ، ومع هذا كله فقد ملأوا عهدهم للشريف ابهاماً وغموضاً ، حتى يتفصوا منها في المستقبل ، فما وضعت الحرب أوزارها حتى ظهر للشريف ولسائر العرب ، أنه مع ككون قسم من العرب حالت الحلفاء مخالفة فتت في عضد الأتراك ، وكانت من جملة أسباب انكسارهم لأسباب عديدة ، فقد عومل العرب بعد الحرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم ، والذي هو باق منها بدون احتلال فعلا ، فانية وضع اليد عليه عند أول فرصة . وربما كابر بعض الناس في ككون الشريف عرض التحالف من أول الحرب ولم يقبلوا ذلك منه ولا مجال هنا للكبرية فالمصحيح أنهم لم يقبلوا التحالف معه حتى احتاجوا عضد العرب وطالت الحرب فأرسلوا اليه بعض معتمدين لمفاوضته فيه من جلتهم الجنرال حداد باشا ، وان حداد باشا صرح لنا بهذه الحقيقة التاريخية أمام جماعة كثيرين من أعيان السوريين والفلسطينيين وربما كابر آخرون في ككون الحلفاء أبوا مخالفة تركية وطلبوا منها الحياد لا غير في الحرب العامة ، والجواب هذا شيء يشهد به المستر مورغانتو سفير اميركا في تركية لاول

نشوب الحرب . ذكره في خاطراته وقال ان أقصى ما طالب الحلفاء به تركية هو لزوم الحياد فحسب والحاصل أن الحلفاء طلبوا اثناء الحرب العامة العون من كل دولة ، وعرضوا التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أميركا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة من الدول الاسلامية علما بما ينوونه للاسلام وجميع حكوماته في المستقبل وفراراً من مكافاة دولة اسلامية بالابقاء عليها . فهذا من الحقائق الكلية التي ينبغي أن يتفطن لها المسلمون ولا يغيبوها عن نظرهم ، وليعلموا ان الدول المستعمرة لا تقبل من الاسلام حتى ولا الصداقة ، وانها لا ترضى من المسلمين في جانبهم بذل الأرواح والأموال الا مجانياً .

أثر الروسيا في الشرق قديماً وحديثاً

لأمير شكيب

حرر مؤخراً العالم الاجتماعي الكبير ، غويفيلمو فريرو Guglielmo Ferrero مقالة في جريدة «الايلاوستراسيون» عنوانها «أوربة وآسية» بين فيها ان الحرب العامة أحدثت انقلابات متناقضة ، فباعدت وقربت بين القارات وانه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة ظافرة من حرب من الحروب ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها ، عن ذى قبل . والحال انه بعد ان خرجت انكلترة ظافرة من أكبر حرب في الدنيا ، ثارت في وجهها افغانستان ، والهند ، ثم مصر وبعدها كانت تركية اضمحلت سنة ١٩١٨ ، عادت فنهضت وردت انكلترة وحليفاتها على أعقابهن . وكذلك الصين بالرغم من الثورة التي تمزق احشائها ، تطلب استرداد البلاد التي اخلت منها وعدم مس شيء من استقلالها . فآسية تقوم على أوربة على حين هي آخذة بمبادئ أوربة ، وليست تأخذ من أوربا وأميركة أسلحة فحسب ، بل مبادئ وافكاراً تقاثلها بها . قال : « ومسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية ، فان أوربا كانت عام ١٩١٤ كتلة متحدة ، متينة ، متاسكة ، بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التي كانت فيما بين أجزائها . فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرتين في آسية ، ولكن من جهة أخرى ، كنت ترى كل واحدة منهما شاذة أزر الاخرى . وكانت أوربة بأجمعها تستفيد من الرعب

الذى تلقىه الروسية في قلب آسية ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدءاً خلاص آسية « وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ ٨ حزيران سنة ١٩٢٣ الى مقالة فريرو هذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذى كان مبدءاً تحرير آسية ، وهذا عين ماورد في مقالة روجرلابون التى ترجمناها عن « مجلة باريز » . وكان أحد الروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة في جريدة روسية تصدر في برلين فخررنا في ذلك الوقت له مقالة نيين بها الأسباب الداعية الى الاتحاد بين الروس والشرقين ، ونلوم سياسة الروسية الماضية التى كانت عبارة عن قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية ، لفائدة الدول الغربية ، فكان جل الخسائر بالمال والرجال على الروسية ، ومعظم الفوائد لانكثرة وفرنسا ، لأنه من المحقق لولا نقل حمل الروسية على ظهر العثمانيين وكونهم أصبحوا من عداوة الروس بحالة لا يملكون معها قبضاً ولا بسطاً ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على تونس ، ولا ايطالية دخول طرابلس ، ولا انكثرة احتلال مصر والسودان بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حياة هذه البلدان ، لاسيما في بداية الأمر فالروسية هى التى كانت سبب سقوط الشرق وواسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحول الحكومة القيصرية الى البلشفة هو الذى مكن اليوم الشرق من أن يتنفس . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . فهذا المعنى كنت أوضحته قبل أن ابسأ الكتاب الأور بيون ينيهون اليه .

ثم ان هناك جملة وردت في كلام العلامة فريرو فيها معنى كبير يبنى أن ينعم النظر فيه جميع الشرقيين ألاوهى قوله : « ان الروسية وانكثرة مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شادة أزر الأخرى » . ومعنى ذلك أن الروسية كانت تقم أظفار الأتراك ، والفرس ، والصينيين ، وبملاشاة قوتهم أصبحوا لايقدرون على اغائة الهنود ، والافغان ، والمصريين والعرب الذين مدت يدها اليهم انكثرة بالبطش والغصب . وكذلك انكثرة باستيلائها على هؤلاء قدعطلت منهم كل قوة حربية ، فأصبحوا لايقدرون أن يؤيدوا الدولة العثمانية ، ولا الدولة الفارسية ، ولا تركستان ، ولا الصين بشئ ، فكانت كل من الروسية وانكثرة قدشدت احدهما أزر الأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن ، وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل . ومن الأمور التى تؤيد هذاذ وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ ليس بين أوربا والروسية القيصرية فحسب ، بل بين أوربا والروسية البولشفيكية

نفسها ، مع شدة العداوة التي بين الفريقين . فان الدول القريبة أنارت على البولشفيك الاميرال كولشاق ، والجنرال دينيكن ، والجنرال يودينيش ، والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت اثاره الأرمين ، والكرج وكل قوم ترجو فيهم النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية ، التي ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الاوربية . وقد بذلت انكلترة وفرنسا في تسليح هذه الأقوام ، وسوقهم على الروسية مئات الملايين ، ولا تزالان الى هذه الساعة ترصدان الفرص وتربصان بالبولشفيك السوأثر .

لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر ، من أن تحرك على البولشفيك قوة اسلامية . فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركية وتسليحها وسوقها على الروسية من جهة القوقاس ، حيث ينضم الى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والتتر فلم يقبل الحلفاء هذا الرأي أصلا . ولا راق لهم تسليح العجم ، ولا الافغان ، ولا بخارى ، ولا خيوه ، ولا فرغانه ، ولا غيرها من تركستان . ولا يرى البولشفيك بهذه القوات كلها وماذاك الا لانهم يرون الخطر الاسلامي أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيما . ومن الأدلة البارزة على ذلك انه لما نقر المرحوم أنور من البولشفيكيين ورحح موسكو سنة ١٩٢١ الى باطوم ، ومنها انسل الى بخارى وأنار ثورة تركستان الهائلة التي حشد البولشفيكيون فيالق جرارة لقمعها لم يفكر أحد باوربا في امداد أنور على البولشفيك ، بل عند ماسقط أنور شهيداً في أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تحض الجرائد الانكليزية سرورها . وفي هذا مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوربا بازاء الشرق .

الفتوحات الإسلامية في الهند

التقسيمات الجغرافية وعدد مسلمي كل ايلة

المؤلف

افتتح العرب المسلمون الهند وجانباً من الهند في صدر الاسلام ، ثم أكل الفتح محمود بن سبكتكين الغازي الشهير ، ورسخت قدم الاسلام في الهند من بعده . ثم استولى الاسلام على كل الهند بدون استثناء ، ودانت له جميع ملوك الهندوس ، يقال لم يبق خارجاً عن طاعة الاسلام في الهند سوى مملكة يقال لها (اودبور) لها ملك يقال له (مهرانا) وهو لقب أكبر من مہراجا . وسبب تفرده بهذا اللقب أنه هو الوحيد من ملوك الهند قاطبة الذي لم يخضع لسلطة الاسلام ، ولذلك هو الى يومنا هذا يتقدم في الاحتفالات الرسمية جميع نظرائه .

وقد بلغ عدد المسلمين في الهند في تاريخ تجديد الطبع لهذا الكتاب ٧٨ مليوناً وعددهم الى الامام لا الى الوراة
و بمناسبة الهند هذه نذكر ملخص تقسيمات تلك البلاد العظيمة ليكون للقارئ تصور عام بها :

فهي ثلاثة أقسام : القسم الأول هو المستقل تماماً ، وهو عبارة عن مملكتين في الشمال (نيبال) و (بوتان) ، وأهل نيبال خمسة ملايين كلهم هندوس ، وأهل بوتان مليون واحد هندوس أيضاً فيهم قليل من المسلمين ، وكلهم أمة محاربة مشهورة بالشجاعة ، وأشهر عساكر الهند الانكليزية هم من أبناء هاتين المملكتين ، يتطوعون في الجندية نظراً لفقر بلادهم ، ووعورة أراضيهم . وللانكليز هناك وكيل مقيم لا يكاد يكون له نفوذ ثم القسم الثاني وهو الذي تحت حماية انكلترة ، وهو يدفع خراجاً سنوياً لها ، وملوكه وأمراؤه مضطرون أن يحضروا حفلة تتويج ملك انكلترة امبراطوراً على الهند ،

وعدد هذا القسم ٧٠ مليوناً ، أى سكانه مع سكان القسم المستقل لا يزيدون على ربع الامبراطورية الهندية

وبقية الهند تديرها الحكومة الانكليزية مباشرة كسائر أملاكها

فالامارات التي هي تحت الحماية هي ما يأتي : (حيدر آباد الدكن) ، أهلها ١٣ مليوناً أكثرهم من الهندوس ولكن عاصمة البلاد أكثرها مسلمون وسلطانها مسلم يقال له (النظام) ، وفيها وزير مقيم من قبل الانكليز لكن نفوذه على الملكة محدود . وهناك جيش عدده ٣٠ ألفاً أكثره عرب من (حضرموت) . ولحيدر آباد نوعان من الجند : الأول يستقل به سلطان البلاد ، والثاني مرصد للاشتراك في حماية الملكة الهندية كلها وهذا قواده من الانكليز . والخراج الذي تدفعه حيدر آباد لانكلترا زهيد ، واستقلالها الداخلي يكاد يكون تاماً

وقد حدث بين نظام حيدر آباد وانكلترا خلاف في السنين الأخيرة من أجل ولاية كبيرة يدعى النظام أنها تابعة لمملكته ، ويزعم الانكليز أنها مما ينبغي أن يلوه هم رأساً . ولا نعلم كيف انتهى الأمر بينهما ولكننا نعلم أن انكلترا لازال مصرة على الاستئثار بتلك الولاية

ونظام حيدر آباد أوسع ملوك الاسلام ثروةً ومن أغنى ملوك العالم ، وقد كانت له اليد البيضاء على آل عثمان والخليفة عبد المجيد بن السلطان الخليفة عبد العزيز الذي طرده الأتراك السكاليون وأجأوه الى أوربة لا يملك شروى تغير تقريباً فأقام أولاً بمونترو من سويسرة ثم انتقل الى نيس من ساحل فرنة على البحر المتوسط (والعرب تقول نيقة) وبلغ نظام حيدر آباد أن الخليفة قد يصل من الإحتياج الى حد يمس بكرامة الاسلام ورأى أنه لا يليق بالمسلمين أن يصير السلطان الذي كان خليفتهم بالأمس الى حالة كهذه من البؤس والهوان فرتب له ثلاثمائة جنيه في الشهر وحفظ شرفه من أن يذل وكان له بذلك اليد الممودة عند الجميع لا سيما أن الخليفة عبد المجيد هو بمن يستحقون كل خير وانه من خيار الملوك في طهارة أخلاقه واستقامة مبادئه وسعه عقله ومعارفه وإخلاصه للإسلام والمسلمين

ثم انه في أوائل هذه السنة ١٩٣٢ افرنجية ازدادت العلاقة بين الخليفة عبد المجيد ونظام حيدر آباد بزفاف كريمة الخليفة على نجل النظام ، ولم يحسن وقع هذه المصاهرة في

انقرة لأن الكهالين خافوا من أن يتوكأ الخليفة على ثروة النظام في بث الدعاه في تركية لا عادة الحكم الملكي اليها ، وكذلك لم يحسن وقع هذه المصاهرة في انكثارة لأن الانكليز خشوا ، ان يجعل عبد المجيد مركزه في حيدر آباد فتجتمع مسلمو الهند من حوله وتخلق هذه المسئلة لهم مشكلاً جديداً ، والحقيقة ان خوف الفريقين بغير محله فلا نظام حيدر آباد مستعد للبلد في سبيل الدعاه للملكية في تركيا ولا الخليفة سيكون مركزه في الهند . ولن يقع انقلاب في تركيا الا بحدوث غير عادية تحصل في داخل تركيا . وما يرجح في العقل أن انقلاباً كهذا لا يقع الا بعد وفاة مصطفي كمال

ثم (ميسور) وهي أرقى مملكة في الهند وأهلها مختلطون مسلمون وهندوس ، والملك - ويقال له مهراجا - هندوسى وفيها مجلس ندوة

ثم (كشمير) وعدد أهلها بحسب الاحصاء الأخير أربعة ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف مسلمون ونصف مليون هنالك . ولكن المهراجا هندي . وهي في شمال الهند كما أن ميسور في الجنوب . وقد حصلت في كشمير فتنة شديدة بين المسلمين والهنداك في العام الفائت سببها أن الحكومة التي هي في يد الهنداك أهانت بعض المسلمين وجرحت شعورهم الديني وذلك بما قيل انه بعض الشرطة أجبرت أناساً من المسلمين بالسجود للاصنام قهراً لم فهاج للمسلمون في شمال الهند وزحفت منهم عصائب على كشمير وأقامتها وأقعدتها ولم تسكن الفتنة الا بدخول جيش انكليزي تمكن من اعادة الراحة بينا الحكومة أخضت تفحص عن شكاوى المسلمين . ولا يزال هؤلاء يطالبون بعزل المهراجا الهندكي وأن يتولى كشمير أمير مسلم بناء على كون أ كثيرة كشمير من المسلمين . ولكن ان لزم العمل بهذه القاعدة كان لا بد من فقد المسلمين لعرش حيدر آباد التي فيها المسلمون نحو من مليونين والهنداك ١١ مليوناً

ثم (ترافتكور) وأهلها أربعة ملايين أكثرهم هندوس ومعهم مسلمون ، ولهم مجلس ندوة ، وعليهم مهراجا هندوسى
ثم (بروده) عدد أهلها مليونان هندوس ، ولها مهراجا هندوسى وهي مملكة راقية غنية وفيها مسلمون

ثم (غواليار) وأهلها مسلمون وهندوس ولكن المهراجا هندوسى ، وعدد أهلها مليونان ونصف مليون ، ومكانها في وسط الهند ، وهي معدودة من البلاد الراقية ، وعندها جيش منظم

ثم (ايندور) وهى فى قلب الهند أيضاً ، وأهلها مليونان هندوس ، وملكهم منهم ثم (أودبور) التى مر ذكر سلطانها أنه يتقدم جميع ملوك الهندوس وهى فى وسط الهند أيضاً .

ثم (رامبور) وهى امارة اسلامية ، عدد أهلها نصف مليون أو يزيدون ، عليهم ملك مسلم يقال له النواب

ثم (جهور) وهى نصف مليون أيضاً ، وأهلها مسلمون لهم نواب ثم بهوبال وأكثر أهلها هنداك ، ولكن الأمير مسلم ، وكان لهم ملكة يقال لها (بيكم) ويقال لها الرئيسة كانت متزوجة بالعلامة المجتهد الشهير ذى التصانيف العديدة الممتعة باللغة العربية السيد صديق حسن خان بهادر ، وقد كان فى مبدأ أمره كاتباً عندها ، وقيل ان الانكليز كانوا نعموا على السيد صديق خان كتابات له تثير الهند عليهم فأرادوا قتله فنارت هذه الملكة بهم وذكرت لهم موافقها فى ثورة الهند الكبرى وانقاذها عدداً كبيراً من الانكليز كان الهنود على وشك الفتك بهم وما زالت بهم حتى أفكدهنهم عن قتل صديق حسن خان ، وأثبتت ما كان عندها من قوة ارادة

وقد خلفت « البيكم » المذكورة (بيكم) أخرى ، ثم ماتت هذه من سنتين وتولى الحكم ابنها الأمير الحالى وهو رجل عاقل محمود السيرة وطنى الأزعة ، ولقد كان فى العام الماضى بلندن فى المؤتمر الهندى المسمى بالمائدة المستديرة وقد عرفنا من رجاله الأمير أحمد خان ناظر حربية بهوبال وهو من أمثال من عرفنا من رجال الهند

ثم (بها وليور) فى شمالى الهند ، عدد أهلها مليون وهم مسلمون ولهم نواب مسلم أيضاً ثم (جبور وجود بور وآور و بيكانير وجلسمار وكونا) ، وكلها امارات هندوسية ، وتونك وأهلها مسلمون ، وريفا وبانياالا ونابها وجبن وكولاور وسكانها مختلطون مسلمون وهندوس

وأما القسم الثالث الذى تليه انكثرة مباشرة فعند سكانه ٣٣٠ مليوناً وأهم بلادها (البنغال) و (البنجاب) و (اغرا) وولايات (مدراس) و (بمباى)

ولقد آثرنا ذكر تقاسيم الهند هذه - ولو بصورة مجملة - لأن القارئ قلما يجدها فى الكتب العربية . ثم لأننا أحييناً أن نذكر نسبة عدد مسلمى الهند الى عدد الهندوس . وأن نبين أما كنهم فى الهند

الاسلام في جاوى وماجاورها

للشيخ

١ — المستشرق هورغرونيه وسياسته نحو الاسلام

٢ --- مسألة الحضارة في جاوى

ولما كان المؤلف أشار في حاشية كتابه الى تسرب الاسلام من الهند الى جزائر الأوقيانوس واستيلائه على جزيرتى جاوى وسومطره العظيمتين رأينا من الضروري أن نقول كلمة في هذا الموضوع وهى :

ان الاسلام بدأ ينتشر في هاتيك الجزائر في أواسط القرن الثامن للهجرة أو القرن الرابع عشر للإيلاد وفى بلدة (غريزيك) من بلاد سورابايا من الجاوى قبر مولانا ملك ابراهيم أحد كبار المجاهدين الذين سبقوا الى نشر الدعوة الاسلامية في تلك الجزر القاصية ، ووفاته وقعت في ١٢ ربيع الأول سنة ٨٢٢ الموافق ٩ ابريل سنة ١٤١٩ ، وكذلك في بلدة « بازه » قبر (الأمير محمد بن عبد القادر) من ذرية (الخليفة المستنصر العباسى) توفى في ٢٣ رجب سنة ٨٢٢ الموافق ١٥ أغسطس سنة ١٤١٩ . وما زال الاسلام يتغلب في هاتيك الأقطار حتى بلغ عدد المسلمين فيها ٣٥ مليوناً أى نحو نصف عدد مسلمى الهند وهم في الفقه على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه

وهذا الاحصاء هو الاحصاء الرسمى الهولاندى منذ نحو ١٥ سنة ، فلا بد أن يكون عدد المسلمين ازداد اليوم على ما كان في ذلك التاريخ ، ولقد نشرت (مجلة العالم الاسلامى) الفرنسية في سنة ١٩١١ أربع محاضرات على سياسة هولاندة الاسلامية للعلامة المستشرق الهولاندى (سنوك هورغرونيه) مستشار نظارة المستعمرات الهولاندية في المسائل الاسلامية والعربية وهو من الافئذ الذين وقفوا على أحوال الاسلام عموماً وبلاد الجاوى خصوصاً وأقام بتلك الديار ١٧ سنة فتسل فيها أمورها علماً ، ويقال انه دخل مكة والمدينة

في موسم الحج متكرراً فهو الذي يحقق في تلك المحاضرات أن عدد المسلمين الخاضعين في جزائر الاوقيانوس ، لسلطة هولانده هو ٣٥ مليون نسمة وقد ازداد هذا العدد كثيراً حتى بلغ الاحصاء الاخير خمسين مليوناً أى في سنة ١٩٣٢ بلغ مسلمو المستعمرات الهولاندية هذا العدد ، وكانوا من ١٢ سنة ٤٥ مليوناً ، فتكون زيادتهم في هذه الاثنى عشرة سنة خمسة ملايين نسمة ، فأنت ترى أن عدد ٣٥ مليوناً هو قديم العهد قد يكون بموجب احصاء مضى عليه ثلاثون سنة بالاقبل

وفي السنة الماضية نشر « جورنال دوجنيف » رسالة لمكاتب له كان في بلاد الجاوى واطلع على أحوالها اسمه المسيو « بول بوردارى » Paul Bourdarye زعم فيها أن الاحصاء الذى أجرته الحكومة الهولاندية سنة ١٩٣٠ أثبت أن عدد المسلمين في مستعمراتها تزايد جداً وأنه بلغ الآن ٦٤ مليون نفس وعليه خطأ محض احصاء بعضهم سلمى تلك الجزائر بعشرين مليوناً كما رأيت مرة في احدى المجلات العربية المطبوعة بمصر وكان هؤلاء المسلمين هناك سلاطين وأمراء مستقلون فما زالت هولانده تتغلب على واحد بعد واحد منهم حتى أخضعتهم لسلطانها تماماً ، وكان استصافاؤها بقية استقلالهم في اخضاع توابع كو محمد دافوت سلطان آتسه الذى دخل تحت حياية هولانده سنة ١٩٠٣

ولقد كان انتشار الاسلام في تلك الديار - بحسب تحقيقات العلامة هورغرونيه - بواسطة تجار مسلمين طرأوا عليها من الهند مقتفين آثار تجار الهندوس الذين كانوا يترددون الى تلك البلاد ويطعمون أهلها بطابع مدينتهم البرهمية ، فجاء الاسلام واستألم اليه وما زال يتقدم فيهم حتى غلب على جميعهم تقريباً ، كل ذلك بطرق سلمية ، وبدون أذى قهر ولا عنف منها الا ما حصل من أهالى شرق جاوى الذين غلبوا بعض مجاورهم بالقوة فن جاوى امتد الاسلام الى سومطره والى قسم من بورنيو وسيليب والجزر التى الى الشرق . وابن بطوطة الرحلة الشهير امتدح ملك سومطره في القرن الرابع عشر بأنه جاهد في الكفار .

ولم يزل الاسلام ينتشر في البقايا الباقية على الوثنية حتى احتج كثير من الهولانديين على تساهل الحكومة الهولاندية في ذلك وكيف انها تسمح للاسلام باكتساب هذه البقايا . وأكثر من صخب لذلك هي جميات التبشير المهودة ، ولكن المستشرق هورغرونيه يفصل هذه المسئلة بالكلام الآتى مترجما عن محاضراته السابق ذكرها :

« يجب على الحكومة أن تحسن من وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالاسلام في البلدان التي أهلها وثنيون ائلا نكوف قد ساعدت على نشر الاسلام بدون قصد منها . وهذا المحنور قد وقع فيه الألمان أنفسهم في المستعمرات الألمانية بشرق افريقية . ولكن الخطر عندنا أعظم لأن المأمورين الوطنيين من أهل الجاوى هم في الغالب من المتعلمين والمطلعين على أصولنا الادارية ، وليس عندهم تعصب مفرط في الدين ، فلا يسهل الاستغناء عنهم ، وقد تميل الحكومة الى استخدامهم ، فلا ينكر أنه مع تمدى الزمن يؤثر وجود هؤلاء المأمورين المسلمين في مسألة نشر عقيدتهم بين الوثنيين كما يؤثر جولان التجار المسلمين فيما بينهم . ولعمري لا يمكن منع هؤلاء التجار أن يجولوا في تلك الديار بحجة أنهم يدعون الى الاسلام اذ يكون ذلك عملاً مخالفاً للعدل ، ولكن يجب تدبر الأمر واستعمال الحكمة فيه بحيث لا نكون نحن قد ساعدنا بأنفسنا على اسلام غير المسلمين »

فأنت ترى أيها القارئ أن العلامة هورغروني - الذي هو معدود في الأقلين تعصبا ، والذي من أول محاضراته الى آخرها ينبه حكومته الى خطر الانقياد الى طلب جمعيات التبشير المسيحية من جهة الضغط على حرية الاسلام الدينية - هو نفسه يحسن نفس تلك الحكومة من استكفاء المأمورين المسلمين مدة طويلة في بلاد الوثنيين ، ولولم يكن عندهم تعصب مفرط ، لثلا يؤثر ذلك في عقائد الوثنيين فيشرح الله صدورهم للاسلام .

وبعبارة أخرى ان مصلحة هولانده - وأوربا كلها - تقضى بتبرجيج بقاء الأهالي وثنيين على أن يصيروا مسلمين . هذا ظاهر لا يقبل أدنى جدال . فهل يأتري يجهل الأوربي أن نقل الانسان من عبادة الضم الى عبادة الواحد الأحد هو أولى بالانسانية وأجدر بأن يكون هدف مساعي الأمم المتقدمة ؟ كلا . لا يجهل الأوربي ذلك ولكنه يعلم جيداً لاسيما المستشرق العظيم الذي هو مثل هورغروني أن الاسلام لا يجتمع مع الذل في قلب واحد ، كما جاء في العروة الوثقى بقلم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وأن الشريعة القرآنية قد ضمنت لتبعتها كل شروط الحرية وانتظمت له جميع أسباب الاستقلال ، بحيث لا يقدر أن يحكم في رقبته أجنبياً الا اذا مرق من أحكام تلك الشريعة . فلذلك لا يجتمع حب الاستعمار الأوروبي والميل الى الاسلام في قلب واحد لأن المستعمرين يملكون ما وراء الأكمة ولذلك أهم شيء

تناصبه الدول المستعمرة الحرب هو نشر الدعوة الدينية وحفظ الشريعة الاسلامية والأخذ بعزائم الاسلام . وان كان بعض عقلائهم مثل هورغرونيه ينصح باعطاء الحرية الدينية وينهى عن التعرض للمسلمين في عقائدهم فذلك انما هو من خوفهم الثورة والاتقاض ووقوع الدول المستعمرة في المقيم المقعد من جراء هذا الأمر ، فترى مثل هذا النفر ينصحون بالاعتدال وعدم مصادمة المسلمين في عقائدهم من باب اختيار أخف الضررين لا غير ومع ذلك فلا يطلقون هذه الحرية على أرساها بل يجملون الحنر لها رقيباً والاحتياط رائداً ، وبالجملة فيجتهدون بأن تكون مقاومتهم للاسلام في الأمور السياسية علنية لاضراء فيها ، وأما في الأمور الدينية فيجعلونها خفية لا بجاهرة فيها بحيث لا تدعو الى الاضطراب ولا تبعث على الانتقاض

هذه هي سياسة العقلاء من المستعمرين ، فأما سياسة التهويرين فهي معلومة لاجابة الى الكلام عليها لا تعرف لمسلم حقاً ولا حرية وقد اعترف العلامة هورغرونيه بأن حزباً في هولانده ممالثا لجمعية التبشير بحث الحكومة أن تحصل مسلمي الجاوى على النصرانية فيين الخطر العظيم من ممالأة جميعات التبشير على مساعياها هذه في تنصير المسلمين وطعن في مزاعم بعض النواب في الندوة الهولاندية كون اسلام أكثر أهل الجاوى والجزائر النيرلاندية لا يزال اسماً فلا بأس بمعاملتهم بغير ما يعامل به المسلمون وقال : ان هذا القول هو في منتهى الخماقة وانه يجب على كل وطنى هولاندى يهيمه مستقبل وطنه أن يرده بتانا ويحذر الحكومة من سوء عواقبه . وهو ينبه الى كون الضغط يورث الانفجار . وأن حكومة هولانده كما أنها متهمه عند جميعات التنصير بالتسامح مع المسلمين فهي متهمه لدى المسلمين باضطهاد الاسلام فلا يجوز أن تؤيد بعملها حجة من يرمونها بذلك .

ومن رأى هذا العلامة أن الحكومة الهولاندية تخطف اذا أقامت عقبات في طريق الحج لاسيما أن مسلمي الجاوى وسومطره هم أشد المسلمين محافظة على هذا الركن من أركان الدين وأن تصعب الحج عليهم لا يأتي هولانده بغير اثاره الخواطر وقلق الأفسكر وهو يرد على بعض النواب الهولانديين الذين يسترسلون الى الخيالات من أمر الحج ويطنون أنفسهم قد أحسنوا صنعا في حل الحكومة على منع الحج أو تصعب سبيله . ويقول : ان على الحكومة الهولاندية أن تسلك سبيلا وسطا فلا تحت على فريضة اسلامية

ولا تنهى عنها . وأنها قد أحسنت صنعاً في الطريقة التي اتبعتها في فريضة الزكاة فقد أعلنت أنها تعتبرها من قبيل الصدقة الاختيارية فلا تحصل عليها أحداً بالقوة ولا تمنعها بالقوة .

وأما من جهة القضاء فهو يذهب الى عدم سن قوانين مأخوذة من الشريعة الاسلامية كما خطر ببال بعضهم بل ينبى حل المسلمين على القانون الهولاندى الا ما تعلق بالأحوال الشخصية كالنكاح والطلاق والميراث فهذه يجوز أن تفصل بحسب شريعتهم . وغرضه من ذلك عدم تقوية هذه الشريعة التي يحول تطبيقها بأسرها دون الصبغة الأوربية التي ينبى أن تكون مجاهيد هولانده مصروفة الى نشرها تدريجاً . فان هورغونيه يقول : ان سلامة المستعمرات الهولاندية متوقفة على نشر المدنية الغربية والثقافة الهولاندية في مسلمى تلك الجزائر الى أن يصيروا في هذا الباب كالهولانديين أنفسهم فيكون هولانديون في الشرق كما يكون هولانديون في الغرب ولا يرى ذلك مستحيلا ولا يجد الاتحاد في الدين شرطا في اتحاد الوطنية بل يقول : انه كما لم يمنع اختلاف الهولانديين البروتستانت مع الهولانديين الكاثوليك والهولانديين اليهود ثم مع الملاحدة والمعلطة من الهولانديين أن يكونوا جميعا أمة هولاندية فلا يمنع اختلافهم في الدين مع مسلمى الجاوى وسومطره أن يكون هؤلاء في يوم من الأيام وطنيين هولانديين وذلك بحمل هؤلاء المسلمين على الثقافة الهولاندية التي تتغلب في نفوسهم على أثر الدين . وهو يتمشى في جميع آرائه على هذه النظرية ، وكأنه يعلم أن مهاجرة المسلمين من جهة العقيدة رأسا أمر عقيم لا يأتى بأدنى فائدة ، ولا يعود على هولانده الا بالضرر ، فلا يألُو جهداً في تحذير قومه من سلوك ذلك المسلك الصعب ، ويشير الى صبغ الأمة الجاوية بالصبغة الهولاندية من طريق العلم والترية .

أما حيث تجدد هورغونيه متشدداً الى الدرجة القصوى فهو في السياسة النووية فانه ينه جهاراً بدون أدنى محاباة الى قطع كل علاقة سياسية بين الجاويين وسائر الحكومات الاسلامية ، لأنه يقول ان الخلافة ليست عبارة عن بابوية لا شأن لها في السياسة بل هي رئاسة سياسية من أراد الاعتصام بها من المسلمين لم تمكنه طاعة حكومة مسيحية .

وهو يتأسف من كون مسلمى تلك الجزائر مقلدين في ديانتهم وعاداتهم وآدابهم مسلمى مصر وحضر موتوجزيرة العرب ، عاكفين على مطالعة التأليف التي تحرر في البلاد العربية ،

وأنة الى اليوم لم يوجد عاطفة جاوية قومية تناهض هذه النزعة الدينية العربية يظهر من هنا اتفاق الاوربيين على بث روح القومية بين أمم الاسلام أملاً بنشظة عصا الجامعة الاسلامية . فالتاقد رأينا أثر هذه السياسة في مواضع كثيرة من بلاد الاسلام فكأن الاوربيين يرون خطر القومية أخف جدا من خطر تلك الجامعة — ولذلك هويرى أن لاهوادة مع المسلمين الجاويين فيها لو أرادوا أن يتضامنوا في السياسة سائر مسلمي المعمور وأنه يجب منع قنصل تركيا الذين يتمثلون هناك بصفة وكلاء دولة الخلافة من أية مداخلة كانت مع الاهالي . وأغرب من هذا أنه ينصح بمنع الاشتراك في الاعانات لسكة حديد الحجاز وعدم اباحة أية اعانة كانت لجرسي العساكر العثمانية أولأرامل جنود الأتراك وأيتامهم — يقيم التكبير على ذلك بكل تصريح وينسى مافي ذلك من مخالفة مبادئ الانسانية — ويحث حكومته على منع ذكر السلطان العثماني في خطبة الجمعة وعلى مراقبة التعليم الديني حتى لايقع فيه شيء من الدعوة الى اتحاد الاسلام — وكأنه يريد أن ينحصر في المواعظ وأحكام الصلاة وذكر نواقض الوضوء مثلا — ويطلب حنف باب الجهاد من الشريعة وبالاختصار فهو مع ماانصفه من الاعتدال يريد أن يمحوا أثر كل تضامن اسلامي مع المسلمين التابعين لهولانده ، وأن ينسخ من التعليم الاسلامي كل مافيه رائحة الدفاع عن الامة ، وفي هاتين النقطتين لايرعى في المتنام خليلا ...

ثم ان هناك مسألة مهمة يقال لها مسألة الحضارة ، وهذه تكريث الحكومة الهولاندية اكثر من كل مسألة سواها في الجاوى لأنه معلوم كون اهل حضر موت من أقدم اهل الارض على الاسفار ، وان فقر بلادهم مع مضاء عزيمتهم يمحملانهم على جوب الآفاق ، واكثر ماينتشرون في جزائر الجاوى والبحر المحيط ، فكانت الحكومة الهولاندية تحب لهم حساباً كبيراً واند مايضيق صدرها بهجرتهم الى تلك البلاد خشية أن ينشروا الدعوة الاسلامية أو ينبهوا الاهالي السذج الى الامور التي لولا الحضارة ربما لاينتبهون اليها ، فازالت تضع الحواجز امام نزولهم في تلك الديار وتراقب حركاتهم وسكناتهم ، وهي تحتج لذلك بكونهم في الاكثر أفاقين لا يأتون الى الجاوى بشيء من رؤوس الاموال وانهم هم يمنعون غير المسلمين من دخول بلادهم حضر موت فلا يحق لهم اذاً ان يطالبوا بدخول بلاد هولانده — لأن جزائر الجاوى وسومطره وبورنيو وملحقاتها هي ملك هولانده وهي أولى من الاهالي ببلادهم ...

— وبناء على ذلك فقد ضيق الحضارتموغيرهم من العرب في قضية المهاجرة الى المستعمرات الهولاندية أو النيبرلاندية كما يقولون ولكن لم تخل الحال من كون كثيرين من الحضارمة تمكنوا من الدخول وأوطنوا تلك الديار وصاروا من اهلها ، فترتب على ذلك ان الحكومة الهولاندية التي هي من الاصل غير مرناحة الى وجودهم بين مسلمى الجاوى لكيلا تطر حاصفتهم على سذاجة هؤلاء ويوقفوهم من غفلتهم التي هي درة الحلب الاستعمارى قد جعلت قضيق عليهم في غدواتهم وروحاتهم وتنغص عليهم عيشهم وتفعل ما شاءت انحملهم على ترك تلك الديار

فلاستاذ هور غرونيه يتكلم على هذه المسئلة بما يلي ترجمته :

« ان عدم قبولنا للحضارمة من الاصل لم يكن مخالفاً للعدل وكانت له اسباب يمكن أن يبنى عليها ، فلم تنتبه له الحكومة ، وسمحت لهؤلاء بالدخول على شروط يسهل عليهم القيام بها . لكنها بعد ان سمحت لهم بالاقامة جعلت تراقب حركاتهم بصورة لانطاق ، وربما كان لسياسة المأمورين الذين تحتفانظار بعضهم عن بعض في الشدة وعدمها مدخل في تشديد هذا الخناق على الحضارمة بحيث أصبح العربي هناك لايمكك شيئاً من الأمان على حالهواستقباله . فاضطر بعض ذوى الشأن من هؤلاء العرب الى رفع امرهم الى الخلافة (تركيا) وملاًوا الجرائد الاسلامية بشكاويهم حتى يتمكنوا من تنفيس الخناق الذى هم فيه ويتعاطوا تجارتمهم ومرفقهم بدون تلك القيود الثقيلة التي هي حجر عثرة في سبيلها ، ولكن مما لا يرب فيه ان تلك الشكايات فيها مبالغة كبيرة »

ومن شاء التوسع في هذا الموضوع ومعرفة ماهى عليه حالة اسلام الجاوى وماهى سياسة هولانده هناك وكيفية نظرها الى مستقبل تلك المستعمرات ، اذ كانت كل دولة مستعمرة لايهمها شئ ، مثل الاستيثاق من مستعمراتها والأمان الأبدى عليها ، فعليه بمطالعة مجموع المحاضرات التي القاها هذا الاستاذ والتي تجرد في آخرها جملة لا بأس بنقلها وهى :

« ان الاسلام والنصرانية يمكنهما الاجتماع واحتمال احدهما الاخرى في ممارسة الحياة الوطنية على شرط أن يمكن رفع فكرة الاتحاد الاسلامى . ولقد رأينا مقدار مساعدة الأحوال ثاقى تحقيق مشروع ادخال المسلمين الجاويين في الامة الهولاندية بدون اثاره المسئلة الدينية .

ولعمري ان كثيرين منا يمكنهم أن يأخذوا دروساً من التسهل الديني عن اولئك الاهالي «
وكفى بهذا شهادة

وقد اعتنى علماء هولاندة جد الاعتناء بتمحيص تاريخ الجاوى وجغرافيتها نظراً
لكونها من أبداع وأغنى بلاد الله ولكونها من هولاندة بمكان الهند من انكثرة فألفت
على تلك الجزر مئات من الكتب والرسائل ونحن لا نتقل هنا سوى ما تعلق بدخول
الاسلام فيها وأحوال المسلمين على وجه الاجال .

قالوا ان الذين أدخلوا الاسلام الى تلك الجزر هم العرب وذلك بواسطة التجارة
والملاحة فانهم نزلوا أولاً بالثغور البحرية وبالمراسى الشهيرة وأخذوا ينتشرون منها شيئاً
فشيئاً الى الداخل وكانوا لا يلبون على شئ سوى الأخذ والعطاء ولم يظهر أصلاً انهم قصدوا
بأدى ذى بدء تأسيس ملك ولا فتح بلدان ولكن عند ما صارت الأمة الماليزية تناظرهم
وتسد عليهم طريقهم التجأ هؤلاء العرب الملاحون المرابحون الى القوة المسلحة حفظا
لحريتهم ووقاية لمرقهم فكانت مملكة دماك Demak وهى أول فتح عربي في الجاوى .

وكان جغرافيو العرب قد عرفوا من زمن قديم بلاد ماليزيه وثبت انه في القرن
العاشر والحادى عشر والثاني عشر طاف كثير من سباح العرب في سواحل الهند والصين
والجزر الماليزية . قال المسيو يارغونو Pierre Gonnaud صاحب كتاب « الاستعمار
الهولاندى للجاوى » ان المدينة الاسلامية في القرن العاشر كانت تلمع باسطع أشعتها
وكان الخليفة يتولى سلطنة قوية سعيدة وكانت من جميع الجوانب تمتد طرق التجارة
فيتلاقى في وسط مملكة الخليفة الشرق والغرب وقد أصبحت تلك الطرق بين الغرب والشرق
فكانت خسا الاولى من البحر الاحمر الى الحجاز وجدة الى الهند والهند الى الصين والثانية
من انطاكية الى بغداد الى الابله الى الهند والثالثة من جهة بحر الخزر الى الشرق والرابعة
كانت تبدأ من طنجة في الغرب فتخترق أفريقية الشمالية الى مصر الى الشام الى بغداد
فالبصرة فالاهاواز ففارس فكرمان الى الهند فالهند فالصين والخامسة كانت شمالية تبدأ من
ألمانية فتمر بالروسية الى بلاد ماوراء النهر الى الصين . وكان انتشار قوة الاسلام اقتضى
توسع المعلومات الجغرافية فوجه زعماء الاسلام عنايتهم الى جوب جميع البلدان التي

دخلت في حوزتهم واندأصاب الميورينو Reinaud في قوله : « ان فتوحات الاسلام الأولى تأت بدون برنامج معين وعلى طريق الاتفاق ولكن كان المسلمون كما فتحوا قطراً حدوداً حدوده وخططوا مسالكه واجتهدوا في معرفة موارد حياته .

ثم قال ان المسعودى قد عرف الجاوى وذكر استيلاء الهند على الجانب الغربى منها وأشار الى وفرة الجبال النارية فيها . وما قاله : انه لا يمكن معرفة حدود سلطنة مهراج الزيج أو الجاوى وجيوشه لآحصى وينبئى للآناس سبر ستين حتى يأتى على جميع ممالكه . وفى بلاده جميع أنواع الأفاويه والعمطور مما لا يوجد عند ملك غيره و يصدر منها الكافور والطيب والقرنفل والسنبل الخ وبمالك المهراج يحدها بجزر لا آخره يصل ببلاد الصين . انتهى فكانت الجاوى يومئذ معدودة فى ممالك الهند وفى القرن الحادى عشر والثانى عشر

ازدادت الفتوحات وازدادت معارف المسلمين الجغرافية وأصبح الارخبيل الماليزى معروفاً ومنذ أوائل القرن الحادى عشر ظهرت روح الدعاية الدينية بشدة عظيمة فى الحروب الصليبية واشتدت المصارعة بين جنود الخليفة والبارونية الافرنج . الى أن قال : انه فى القرنين التالين صارت الدولة ملوك طوائف وانفصلت بعضها عن بعض وتغيرت الطرق التى كانت بين المشرق والمغرب وسافت هذه الأحوال مهاجرى العرب الى بحر الهند . وفى القرن الحادى عشر زار أبو الريحان محمد الهند وكتب عنها . وفى العصر الذى يتلوه كان الادريسى فى بلاط روجر صاحب صقلية وكان يأخذ عن تجار العرب الذين يترددون على بلرم وهو أول من سمي باسم الماليز أحد الشعوب الساكنة فى الجاوى . وذكر ما بين هذه الجزيرة وجزيرة ماداغسكر من العلاقات ووحدة الجنس . ولكن لسوء الطالع كانت معلوماته فى الاطلس الجغرافى لا تزال على ما كانت عليه معلومات بطليموس فكان يجعل قارة افريقية ممتدة جداً الى الشرق . على أن هذا الاطلس نفسه الذى أنبأنا عنه الميورينو يدل على التبسط العظيم الذى تبسطه العرب فى جميع أصقاع الاقيانوس الهندى ونقل ابن سعيد (أبو الحسن نور الدين على) المولود سنة ١٢٧٤ أخباراً كثيرة عن رجل اسمه ابن قاطمة ساح فى سواحل افريقية الغربية حتى بلغ الرأس الأبيض وطاف فى السواحل الشرقية حتى بلغ سواحلها . ونحن نعلم أن السواحل الشرقية هذه كانت دائماً محط رحال العرب وانه كان فى أواخر القرن الخامس عشر فى ساحل موزامبيق جالية اسلامية جليلة عا كفة عن أشغال البحر

بصيرة جيداً بمهب الرياح ومجزى الأبحر المجاورة وبين أيديها خرط بحرية وآلات متنوعة متعلقة بصنعة الملاحة . وأحسن من وصفها بلاد الجاوى من هؤلاء الجغرافيين أبو الفدا فمكون معلوماته ليست في نهاية التمحيص فلم يكن أحد يقدر على ما يقدر عليه في وقته من الاطلاع والتنقيب فقد حجج الى مكة ثلاث مرات وعرف الشام والعراق وكان كثير الاختلاط بصاحب الديار المصرية فاطلع على أحوال الجاوى والجزر المجاورة لها ونشر كل ما عنده من العلم في عصره عن هذه الجزر العجيبة فقال ان الجاوى لها عدة أسماء . وذكر ابن سعيد ان جزائر الرانج اشتهرت بما روى عنها التجار والسياح . وأكبرها جزيرة السريرة التي طولها أربعمائة ميل من الشمال الى الجنوب وعرضها مائة وستون ميلاً الخ . ثم يقول أبو الفدا : في جنوبي الاقليم الأول جزيرة كبيرة في البحر الأخضر ذكر ابن سعيد أن سلطانها لا يوجد له نظير في ملوك الهند في كثرة الكنوز والذهب والأفيال وقاعدة ملكه في الجزيرة الكبرى وقال المهلبى ان جزيرة السريرة معدودة من الصين الخ .

وبالاختصار فالى عهد استيلاء الأوروبيين على هذه الديار كان العرب لهم معرفة تامة بها وبخبراتها وبمسالكها وبالبراكين التي فيها وكانوا يعلمون أن فيها ممالك عظيمة مثل مملكة المهرج يصفها ابن خرداذبة وأبو الفدا بسعة الملك والحول والطول . ولما وصل العرب الى تلك الجزائر لم يفكروا في فتحها بالسيف كما فتحوا آسية الصغرى وأفريقية وأسبانية لأنه لم تكن بأيديهم قوة كافية بازاء هاتيك الممالك وانما كانوا تجاراً ومرزقين منتشرين هنا وهناك ولكن كما قال فان در برغ van der Berg صاحب كتاب «حضرموت والمستعمرات العربية في الارخبيل الهندى» : لما كانوا أعلى درجة في المدينة من أهل تلك الأقطار جعلوا لأنفسهم مقاماً ممتازاً حفظوه الى يومنا هذا في وسط الشعوب الآسيوية التي اتجمعوا بلادها . وهذا المقام العالى الخاص بهم الذى له أسباب خلقية وطبعية انضمت اليها عوامل أخرى تجارية ومزايا كسبتهم اياها الاغتراب وطول السفار هي التي كانت الأصل الاصيل في نجاح العرب وفلاحهم وتبسطهم من السواحل الى الداخل ونشر عاداتهم وعقائدهم حيث نشروا تجارتهم . هـ .

قال المؤرخون الأوربيون : لم تكن العلاقات التجارية مهما كثرت وانتشرت تشكفى في نيل العرب هذه السيادة الاجتماعية والأدبية على جزائر عظيمة كهذه فياضة الخيرات

زاخرة العمران بل كانت معهم قوة أعظم من هذه وهي قوة العقيدة المحمدية التي هي من الجلاء والبساطة بحيث يفهمها الخالص والعام وما لا يشك فيه أنها متضمنة فضائل لم تكن في دين من الأديان المعروفة في الجاوى فقد كانت البراهمية والبوذية هما الديانتين السائدتين هناك وهما عبارة عن تمجيد متصل لقوى الكون ومجادلة دأمة بين مصدرى الخير والشر فكان في ذلك من التعقيد وصعوبة التفهم ما فيه لأن هذه العقائد تسلم بوجود الهين متساويين في القوة بأيديهما ادارة مخلوقات أحدهما للنفع والآخر للضرر فكانت تفضل الافكار وتقسم قوى النفس البشرية وتساعد على تمدد النحل وتدفع بعضهم الى ناحية براهما والآخرين الى ناحية سيفا أو فشنو وتحمل المعتقدين على اختيار الآلام وحب العذاب وعدا ذلك فإن في هذه الديانات من تفاوت الطبقات ووضع بعض الناس في أعلى عليين وبعضهم في أسفل سافلين ما يحرم المعتقدين من كل مساواة حتى في الحضرة الالهية . فالدين الاسلامى أتى أهالى الجاوى بما كانوا يشعرون بالحاجة اليه من المساواة التامة فضلا عن كون عقيدته صافية واضحة مختصرة سهلة الشعائر تنحصر في الإيمان بالله واحد أوحى شريعته الى الخلق بواسطة واحد من رسله . غفلص الناس بذلك من هذه الثنائية التي تجمل قوتين خالقتين في صراع دائم وتخير الأفكار وتقلق الخواطر . فالاله الاسلامى واحد لا شريك له مهيم على الخلق وجميع الناس أمامه سواء ولديه صلاة الصلوك كسلاة الملك فلا درجت ولا طبقات ولا فواصل غير قابلة للوصل بين العباد . وهو أكثر ملاءمة لوجود حكومات متحدة قوية ذات مركز واحد مما كان يحن اليه أهالى الجاوى من زمن طويل وحسبك أن الاسلام كله ينحصر في كتاب واحد هو القرآن فاذا كان البراهمي يعيش بين الأمم القريبة منفرداً لاهم له في التأثير فيهم ولا في حملهم على مناسطرنه تلك السعادة التي يرى نفسه متمتعاً بها وكان البوذى لا يرى تحقيق نعيمه الا في التأمل والتبتل والرهبانية فإن السأمح المسلم في أى بلد وجد وقرآته يمينه يمكنه أن يعلم من اختلط بهم ديانة سهلة الفهم سهلة الدخول في العقل من شأنها بث الدعوة ومن فضائلها النشاط والعمل والاختلاط مع سائر البشر وزد على ذلك أن المدينة الاسلامية كانت أرقى جدا من مدينة أهل الجاوى وان العرب لما وطمثوا هاتيك الشواطىء جاءوا بمعلومات قيمة كانت مجهولة عند الجاويين وأهل الشرق الأقصى مثل علم الهيئة والتقويم والجغرافية والعروض والأطوال

لتحديد الأقاليم وكان فن الملاحة بالغا عند العرب الدرجة العليا من الاتقان وكانوا قوامين على الاسفار خيرين بأحوال الأمم ويقال انهم كانوا عرفوا ابرة المغنطيس وكانوا ينشئون الجوارى كالأعلام ويقطعون البحار بزيد الجرأة والاقدام وكانت لهم خبرة زائدة بالطرق البحرية والمراسى ونقاط الحط والاقلاع حتى كان السباح الاوربيون لأول عهد دخولهم الى آسية مفتقرين اليهم^(١) وقد خلق العربي تاجراً بفطرته خيراً بالعمليات المائية والحسابية وبأساليب الأخذ والعطاء فتعلم المايزيون من العرب أصول التجارة وطرق البيع والمساومة وطريقة تحديد آثمان الحبوب والبضائع وتأسيس المستودعات التي هي الوساطة بين الزارع والصانع وبين التاجر والمشتري وطريقة السفنجة أو الحوالة التي كانت عند العرب كما هي عند الاوربيين اليوم .

فلهذه الأسباب انتشرت في الجاوى عقيدة الاسلام وحضارته ومع شدة تأثيرها كان سيرها بطيئاً في البداية وما عمت الجزيرة كلها حتى وحتى . كذلك لم يكن نجاحها متساوياً في جميع أفاق الجزيرة فيوجد فرق بين غربي الجاوى وشرقيها كما قال الدكتور شريبر Schreiber لأن الاسلام كان أسرع تقدماً في الجهة الغربية بين الجنس المسحي بالسونداني منه بين الجنس الجاواني والى هذا اليوم تجد السوندانيين أشد تمسكاً بدينهم وأعرف به من الجاوانيين الذين في الغالب لا يعرفون القرآن وكذلك ترى النصرانية لم تجد من سهولة الانتشار بين السوندانيين ما وجدته بين الجاوانيين الا أن هذا الفرق نفسه قد بدأ يضمحل اليوم بروسوخ الاسلام في شرقي الجاوى كما هو في غربيها .

ولم تتوفر عناية العرب في الجاوى على تشييد المساني الدينية الضخمة كما كان شأن البراهمة والبوذيين بل كان معظم همهم في الفتوحات الروحية فليس في الجاوى ما في سائر البلاد الاسلامية من المساجد التي تبهر الأنظار ببديع الصنعة وغمامة البناء ولكن الجوامع كثيرة العدد ولا يخلو منها بلد وعدد الذين يحجون بيت الله الحرام كل سنة كثير جداً ولقب « حاجي » هو في نهاية الاعتبار .

يقدر المؤرخون تاريخ دخول الاسلام في الجاوى بخمسة قرون بتبدي من القرن الثاني عشر الى أن تنتهي باحتلال الهولانديين لبتافيا في القرن السابع عشر . وقد حقق

(١) مثل ابن ماجه الذي كان دليلاً لبرهقال

المؤرخ فت Vet ان المسلمين لم يقتصروا على فتح الجاوى الأدبى بل نشروا المدنية الجاوانية الى أقصى جزر الارخبيل .

وكانت أعظم سلطنة هناك مملكة « ماجاباهيت » كانت تنضوى تحتها امرات عديدة فلما جاءت الدعوة الاسلامية أخذ أولئك الامراء والمهراجت يولون وجوهم شطر الاسلام فكان كما كسب بدأ انتقل الى الذى بجانبه فاستصفي مملكة ماجاباهيت ودخل الى المالاغ ثم الى بلاد السوند وأخذ يزداد عدد المسلمين يوماً فيوماً وكانت ثروتهم تنمو بنمو عندهم وهم دائماً في علاقات مع تجار العرب الذين كانوا أول ما ينزلون في سواحل الجاوى الشمالية وما زالوا يتكاثرون هناك حتى أسسوا سلطنة دماك .

وكانت ماجاباهيت هذه أول سلطنة هندية سقطت بعلو الاسلام في تلك الديار وكانت واسعة الأطراف تشتمل على الأقسام الجنوبية والشرقية من الجاوى يحدها من الغرب بلاد جانقاله وغريس ومن الشرق بلاد تنغر ولكن نفوذها كان يمتد الى بلاد « ماتارام » والى حدود مملكة « باجايران » وكانت فيها حواضر عظام مثل مدينة ماجاباهيت ومدينتا « برانبانان » و « مندويت » ولكن الاسلام تمكن منها بسهولة واثتر في نشره هناك حسين الدين حليف سلطان دماك في سنة ١٤١٨ من التاريخ الجاوانى الموافق ١٤٨٨ من التاريخ المسيحى دخلت سلطنة ماجاباهيت في خبر كان . وأعظم سلطنة تأسست للاسلام في الجاوى كانت في قطر ماتارام وقد بقيت في شوكتها الى القرن الثامن عشر فبدأت تساقط تحت هجمات الهولانديين .

فالعرب لم يؤسسوا في الحقيقة سلطنة اسلامية جامعة في بلاد الجاوى لأنه كان يحول دون اتحاد السلطنة هناك حوائل كثيرة وانما أسسوا هيئة اجتماعية اسلامية مانعة يمكنها أن تبقى ثابتة من فوق الممالك المتداعية الى السقوط فالآن يوجد امة ماليزية محمية قد وحدت الاسلام بين اجزائها واورثتها قوة جعلتها تقف في وجه الغزاة الذين حاولوا فك أوصالها ومكنتها تمكيناً في تلك الأرض فليس في الجاوى قوة سواها (عن يار غونو ملخصاً) .

أماجزيرة الجاوى فهي معدودة من ارخبيل السوند تنفصل شمالاً عن جزيرة بورنيو ببحر الجاوى وغرباً عن سومطرة بيوغاز السوند وشرقاً عن بالى بيوغاز بالى وامامها من الجنوب الاوقيانوس الهندي وموقعها بين ٥٢ ر ٨ و ٤٦ ر ٨ من العرض الجنوبي و ١٢٠ ر ٤٠

١١٢ من الطول الشرق طوطا الف كيلومتر من الغرب الى الشرق وعرضها من ١٠٠ الى ١٥٠ كيلو متراً من الشمال الى الجنوب ومساحتها مع « مادوره » مئة وواحد وثلثون الفا وخمسة كيلومتر . وفيها جبال كثيرة وبراكين متأججة وجبالها مغطاة بالأشجار وفيها معادن غير مستخرجة وسهولها خصبة وتروىها المياه السائلة من الجبال وهوؤها حار رطب وأهلها خمسة وعشرون مليوناً و ٦٧ الف نسمة منهم ٢٤ مليوناً و ٧٥ الف نسمة جاويون و ٥٠ الفا اوربيون و ٢٥ الفا صينيون و ١٥ الفاعرب وجميع الأهالي الجاويين مسلمون ، وتجارة الجاوى تقدر بأكثر من ٥٠٠ مليون وفيها ١٨٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية وهي مركز المستعمرات النييرلاندية وعاصمتها بانافياو بها يقيم الحاكم العام من قبل هولاندة ومن مدنها بوينزورغ وهي كرسى الحكومة الصيغى ثم سامارانغ وسرايه وسراكلارته .

ومن جزر الارخبيل المالايزى بورنيو وهي اكبر جزائر لابل اكبر جزيرة فى الارض بعد غينية الجديدة . مساحتها سبعمئة وستة وأربعون الف كيلومتر مربع وهي من بلاد خط الاستواء والاشجار تغطى جبالها الى أعلى القطن ومن رؤوس جبالها ما ارتفاعه ٤١٧٥ مترأ وهو فى المحل المسمى « كينابالو » فى شمالى الجزيرة ومنها فى وسط الجزيرة « غونونغ ريا » علوه ٢٢٧٨ مترأ . وتكثر الامطار فى هذه الجزيرة فسيل فيها أنهار كبيرة منها نهر الكابواس والسامباس مما عرضه ١٥٠٠ متر فى بعض الأماكن ومنها أنهار أخرى مثل الكهاجان والبارتيو فى الجنوب والمهاكام والكاجان فى الشرق والبارام والباتانغ رجانغ والباتانغ لوبار فى الشمال وجداول وأنهار صفار لانحصى . وفى هذه الجزيرة معادن كثيرة وجواهر كريمة ويستخرج منها زيت البترول بكثرة .

والجزيرة منقسمة بين انككترا وهولاندة فنها مساحة ٥٥٣٣٠ كيلومتر مربع فى الشرق والجنوب والغرب لهولاندة . ومنها ١٩٧٥٠٠ كيلومتر مربع فى الشمال لاسكترة . فأما القسم الهولاندى فينقسم الى قسمين : جهة غربى البورنيو وقاعدته « بونتياناك » وجهة الجنوب الشرقى من البورنيو وقاعدته « بانجر ماسين » وأما القسم الانكليزى فهو عبارة عن امارة « سرافاك » وأراضى الشركة الانكليزية فى شمالى بورنيو وجزيرة لابوان ومدينة بروناى .

فأما البلاد التى نحت سلطة هولانده ففيها ممالك « سنامباس » و « مانباوه »

و « بونياناك » و « كوبرو » و « سيمبانغ » و « ماتان » و « لاندك » و « تاجان مليو » و « سانفو » و « سيكادو » و « سنيتانغ » و « سيلات » و « سوهيد » و « سالينبو » و « بياسه » و « جونغ كونغ » و « بونوت » وكل مملكة من هذه عليها رئيس يسمى سلطانا أو باعماهان أو بايجران وهم باجمعهم تابعون لهولاندة وعند كل منهم مجلس مؤلف من امرء الاسرة المالكة وأشرف البلاد .

وكان لبورنيو علاقات بالصين من جهة الشمال وبالهند وكثير من ملوك بورنيو هم من أصل هندي وفيها هياكل كثيرة للعبادات الهندية . ولم يدخل الاسلام الى بورنيو الا في أواسط القرن السادس عشر انتشر من البانباغ الى السوكادانه والماتان . وفي سنة ١٥٩٠ صعد أول سلطان مسلم وهو « غيرى كوزوما » على عرش سوكادانه وفي أيامه بدأ الأوربيون يتطلون الى هاتيك الاقطار .

وحفظت ممالك بورنيو استقلالها مدة طويلة فتأخر استيلاء الاجانب عليها عن جميع جزائر الارخبيل الماليزي فلبت الاوربيون ثلاثة قرون من رتقالين واسبانيول وهولانديين وانكليزي مجوبون في تلك الديار متجربين ومعاضين ولا يتعرضون للسياسة . وأول مملكة فقدت استقلالها هي بانجارماسين فان الهولانديين اعتدوا عليها في أواسط القرن الثامن عشر . أما سوكادانه فبقيت مدة تابعة لمملكة باتام من الجاوى ثم انفصلت عنها سنة ١٧٢٥ بمعاونة اهالي جزيرة « سيلاب » وهم جنس يقال لهم البوغينيزيون انتشروا في السواحل الغربية من بورنيو وملك منهم عدة امرء في هذه الجزيرة . و بقيت سوكادانه مستقلة تمام الاستقلال الى سنة ١٧٨٦ اذ سقطها الهولانديون بالاشتراك مع سلطان بونيتانك ولم يبق لها سوى بلاد الماتان . أما سلطنة بونيتانك فاصلها اماره رجل عربي اسمه الشريف عبدالرحمن بن الشريف حسين بن احد القادري الذي فبره زرار في بلدة منباوه فيقال انه بدأ حياته بالغازات وغصب السفن الى أن غضب عليه أبوه الذي كان صالحا ورعاً فرحل من منباوه وجاء بمصابته الى جهة لاندك وكابواس و بلباقته ونشاطه أسس مركزاً تجارياً لم يزل ينمو ويتقدم حتى صار مدينة هي مدينة بونيتانك الحاضرة . وسنة ١٧٧٩ نودي به سلطانا واعترفت بسلطنته الشركة الهولاندية للهند الشرقية وعاهدته ولم يزل الملك في أعقابه الى هذا اليوم ولكن هولاندة أخذت على أيديهم ولم تبق لهم من الملك سوى الاسم .

وأما سلطنة سانباس التي قاعدتها سانباس فقد أسسها ماليزيو جوهور . سنة ١٦٠٩ عقدت معاهدة مع الشركة الهولندية للهند الشرقية . وفي النصف الأول من القرن السابع عشر غلب رادين سليمان بن الراجا تنغا أمير « بروناي » على ملك سانباس وطرده وكانت امه من بيت ملك سوكادانه مقيمة بسانباس . وملك رادين سليمان تحت اسم السلطان محمد حتى الدين وهو أول ملوك الاسرة المالكة الى زمتنا هذا .

وأما إمارة سرافاك التي قاعدتها كوتشينغ فأصلها أن بحريا انكليزيا اسمه جيمس بروك وصل بسفينة تحميه الى بلدة بروناي فوجد الحالة فيها لا تطاق من الظلم والصف وفقد الامن وتبليس الناس من أموالهم . وكان هناك أمير يقال له مودا حسن فاعتمد على الربان جيمس الانكليزي وفوض اليه الأمور فأصلح الأحوال ووطد الأمن وفي سنة اعترف سلطان بروناي هذا للضابط الانكليزي جيمس بالامارة على سرافاك فصار جيمس أميراً واستخدم الوثنيين في مقاومة المسلمين (١٨٤٢) وأمدته الحكومة الانكليزية ببعض النجيدات في وقائه مع العرب والماليزيين ولم يدخل في حكومته الا عدداً قليلا من الاوربيين وسوى في المصاهرة بين الاوربيين والوطنيين^(١) فسدت أهالي تلك الامارة واتعت حدودها وعظم شأنها . سنة ١٨٩٣ مات جيمس خلفه ابن أخيه كلرس بروك وقد ورث ملكا عريضاً يمتد الى حدود نهر لينبانغ ودخلت هذه المملكة تحت حاية بريطانية العظمى .

وأما سلطنة « كوتاي » على الساحل الشرقى من بورنيو فقاعدتها « تنغارون » ومينلؤها « سامارينده » فقد كانت تابعة لسلطنة موجوبا هيت الجاوية ثم صارت الى تبعية مملكة بنجارماسين . وفي أثناء القرن التاسع عشر اضطر سلاطين كوتاي الى الاتفاق مع هولاندة على شروط تحل باستقلالهم وتجعل لها هي السيطرة .

أما احصاء نفوس بورنيو فيبلغ مليوناً وسبعمائة ألف نسمة من هذا العدد نحو ستين ألف صيني وبضعة آلاف عربي ونحو ألفي أوربي فهي قليلة الساكن بالقياس الى مساحتها لاذ لا يسبب الكيلو متر المربع فيها أكثر من واحد الى ثلاثة من السكان . وهم من جنس يقال له الدايك يسكنون في الداخل ومن الماليزيين المسلمين الذين يسكنون في الساحل .

(١) باليت حكومته وسائر الحكومات الأوربية تهدي به في هذه المحطة

والدايك هم من أصل ماليزى ولكنهم منحطون في المدنية منقطعون في البرارى والجبال والسيدة دائماً للسلمين عليهم . ومتى أسلم واحد من الدايك صار معنوداً من الماليزين . وأما السواحل فهي مأهولة بالمسلمين الماليزين بعضهم من لسلالة الماليزية الخالصة وبعضهم مختلطون بالامة البوغيزية . ومن جهة أرض كابواس يوجد ماليزيون كثيرون تمتدون الى الداخل وهم هناك يتزوجون من الدايك والغالب على هؤلاء الماليزيين حب التجارة وصيد البحر وقصص الوحوش وليس عندهم ميل الى الزراعة والصناعة ولكن تشكيلاتهم السياسية بسبب وحدة العقيدة الاسلامية هي أمتن وأقوى من غيرها فقد سادوا بها على سائر سكان بورنيو فتجدهم هم الماسكين بافواه الانهر التي هي طرق المواصلات قابضين على زمام التجارة من كل جهة . ومنهم من يتغفلون في أحشاء الجزيرة في طلب محمولات الأراضي الحرجية مثل الكاوتشوك وغيره فيصلون الى أقصى مساكن الدايك السابق الذكر ويطعونهم بطابع الاسلام . وأما السواحل الجنوبية من بورنيو فيسكنها جيسل يقال لهم البانجاريزيون وهم ماليزيون مختلطون بدم جافاني لهم في بلاد بنجارماسين هيئة اجتماعية جديرة بالذكر وهم أهل ذكاه واقدام . كذلك على السواحل الشرقية يكثر الجبل المسمى بالبوغيزيى وهم من أقوم الأقوام على التجارة والسى وفيهم نشاط وهمة فائقة ولهم مكانة عظيمة سياسية واقتصادية في هائيك الأرجاء

وفي الأرخيبيل الماليزى جزيرة يقال لها سيلاب Célèbes هي الجزيرة الثالثة في العظمة والبسطة مساحتها ٣٧٢٨ كيلومتر مربع وفيها جبال عالية جداً ارتفاع قممها يبلغ ٣٤٥٠ متراً وأرضها كلها جبلية تقل فيها السهول وتكثر فيها البراكين وفيها بحيرات متعددة .

وسيلاب تابعة لدولة هولاندة باجمعها وإنما ادارتها مقسومة الى قسمين أحدهما ولاية « منادو » ويتبعها النصف الشمالى من الجزيرة مع شبه الجزيرة الشرقى والثانى مايق من الجزيرة . ولا يزال فى أشباه الجزر الشمالية والجنوبية امارات وطنية مثل « غوفا » و « بونه » و « لوفو » طرد أمراؤها سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ولم ينتصر لهم أحد من الأهالى . واملرات أخرى مثل « تانيت » و « سوبنغ » و « سيد نغرنغ » لا تزال مستقلة فى داخلها الى اليوم

وكانت جزيرة سيلاب مجهولة أكثر من سائر جزر هذا الأرخيبيل نزل بها الماليزيون سنة

١٥١٢ والبرتقاليون سنة ١٥٣٢ وفي القرن السادس عشر تغلب ملوك الما كاسار أصحاب دولتي « غوفا » و « تلو » على جنوبي سيلاب وقسم من أوساطها وعلى الجزر الصغيرة من أرخبيل الصوند . وفي زمان الملك « تونيجالو » الذي تولى الأمر من سنة ١٥٦٥ الى سنة ١٥٩٠ تقرب « باب الله » ملك « ترنات » وكان مسلماً الى مملكة غوفا وعقد معاهدة مع تونيجالو وأراد أن يحمله على الاسلام ولكن لم يوفق حينئذ الى ما أراد . فلما آل الأمر الى ابن تونيجالو شرح الله صبره للاسلام على يد رجل ماليزي اسمه « داتورى باندانغ » من بلدة يقال لها « منانغ كابو » من جزيرة سومطرة فأسلم (سنة ١٦٠٣) وتلقب بالسلطان علاء الدين وأسلم معه وزيره « كارانغ ماتوفيا » وتبعهما سائر الأهالي وانتشر الاسلام بين جميع الشعوب العديدة المسماة بالما كاسار والبوغينيز لا سبأ أن مملكة غوفا في ذلك الوقت كانت قد وسعت حدودها وزادت بسطة عزها .

وكان الهولنديون والانكليز والدانمركيون منذ سنة ١٦٠٥ بدأوا يناظرون البرتغاليين في التجارة ويزاحونهم على محاصيل البهارات والفلافل في عاصمة الما كاسار . وقد عقد الهولنديون معاهدات تجارية مع أمراء تلك النواحي تضمن لهم امتيازات خاصة بهم ثم لم يخل الأمر من وقوع بعض الخلل بهذه المعاهدات فاتخذت هولاندة هذا الخلل ذريعة لمناجزة تلك الحكومات الوطنية القتال والاتفاق مع مملكتي بون وترنات زحفت العساكر الهولندية في سنة ١٦٦٧ ثم في سنة ١٦٦٩ وفتحت أوساط مملكة الما كاسار وأجبرت أمراءها على امضاء معاهدة « بانغابا » التي حلت على امضائها فيما بعد جميع ملوك القطر الجنوبي من جزيرة سيلاب وبموجبها أطاعوا دولة هولاندة . وكانت بلاد « ميناهازه » من هذه الجزيرة ذات علاقات كثيرة مع الاسبانيول وكان لهؤلاء عندهم مرا كز أسسوها منذ القرن السادس عشر فاستعان الميناهازيون بالشركة الهولندية على الاسبانيول وأخرجوهم .

أما عدد أهالي سيلاب فيبلغ مليونين وهم من العائلة الماليزية البولينيزية وذهب بعضهم الى وجود جنس آخر في داخل الجزيرة اسمه « توالا » وأصني جنس من هؤلاء السكان هم « التورابا » وهم جيل وثنيون في داخل الجزيرة ومنهم أقوام في شبه الجزيرة الغربي اختلطوا بالمالييزيين فتكون منهم الما كاسار والبوغينيز . أما جنس الميناهازه

فيستدل من أشكالهم ولغتهم على كونهم ذوى قرى مع الماليزيين أهل الفيليين وفورموز واليابان . وأشهر المدن التجارية الماكاسار فيها ١٠٥٩ أوريباً و ١٤١ عريا و ٤٦٧٢ صينياً و ٢٠١٧٨ من الأهالي أكثرهم بوغينزيون . ثم منادو وفيها ٥٠٠ عربي و ٥٧٦ أوريباً و ٢٧٨٤ صينياً و ٦٦٦٩ من الأهالي . ثم غوروتالو وفيها ٣٢٧ عريباً و ١٤٥ أوريباً و ٦٠٦ صينيون و ٥٢٤٧ من الأهالي . ثم سينجه وأهلها ٣٥٧٨ وفيها ٥١ أوريباً و ٢٣ عريا و ١٠٨ صينيون . ثم بوتان وفيها ١٥٥ أوريباً و ١٩٧ صينياً و ٦٥٤٤ من الأهالي و ٣ عرب وهلم جرا . و جنس التوداجا زرايع ومنهم قناصون ويسكنون في قرى محصنة لكثرة ما يقع بينهم من الحروب .

وفي البلاد التي تصافى البلاد الساحلية حيث يكثر البوغينزيون دخل التوراجا هؤلاء في الاسلام اما النصرانية فتنمو في الجهة الشمالية .

والشعبان التوأمان المسلمان في جزيرة سيلاب هما الماكاسار والبوغينيز . كانا يسكنان في الارحاء الجنوبية ولكنهما انتشرا أخيراً في جميع سواحل سيلاب وفي أكثر جزر الارخبيل من الشرق الى الغرب وذلك بكون ابناء هذين الشعبين هم من اجراء الناس على البحر ومن اقدرهم على التجارة والماكاسار هم اصحاب الناحية الغربية من شبه الجزيرة الجنوبية داخلية في ذلك مملكة غوفا Gouva واما البوغينيز فانهم اصحاب الجانب الشرقى من شبه الجزيرة . ولما كلسار عداغوفا مملكة تانيت Tanette و ارخبيل ساليار Saleyer الجنوبي . وللبوغينيزيين Buginais ممالك بون Bone و فاجو Vadjo و لوفو Louvu و سوبنغ Sopeng و ما عدا هذه الممالك فيوجد حكومات صفار تابعة للحكومات التي هي اكبر منها . وعلى رأس كل من هذه الممالك ملك أو أمير أو ملكة أو أميرة يتقلد أو تتقلد الملك بالارث ولكل من الملك أو الملكة وزير ثم مجلس مؤلف من اعضاء بيت الملك . وامراء البلاد والأهالي قسمان منهم الأحرار ومنهم الأرقاء . وللاهلالي عادات ومنازع لا يزالون متمسكين بها بالرغم من انتشار الاسلام بينهم فالتولرت بحسب الشريعة الاسلامية غير جار الا في المسن . والزواج يجري وفقاً للشرع المحمدي لكن حفلات الافراح وثنية تقريبا . وأما المرأة المتزوجة فلها مقام ممتاز . وقد امتاز الماكاسار والبوغينيز بالنشاط والعمل وحب الكسب فتراهم ارقى اسم تلك الجزر في الأمور الاقتصادية وهم يتقنون التجارة والزراعة وتربية المواشى وعندهم صناعات

يدوية من النساجة والحدادة وبناء السفن يبلغون بها حد المهارة وكذلك لا يباريهم أحد في حرفة الملاحة وصيد السمك . ومعدل كثافة السكان من هذين الجبلين بالنسبة الى مساحة الأرض هو ٢٧ شخصاً في كل كيلومتر مربع كما في غوغا وفي تانت و ٢٠ شخصاً في بون . وأما في الاماكن التي تديرها هولاندة رأساً فهو ٥١ شخصاً في كل كيلومتر مربع . ولهذين الشعبين كتابة وحروف هجائية من أصل هندي . وعندهم كتب وتآليف وآداب لغوية غزيرة ونظم ونثر . ومن جملة الكتب المعروفة عندهم مجموع أحكام حقوقية اسمه «رابانغ» بلغة المالكسار و «لاتوقا» بلغة البوغينيز . ويوجد مراكز تجارية عظيمة للبوغينيز في جميع الارخبيل كالسواحل الشرقية والغربية من بورنيو وفي ارخبيل ريوف Riouv والجزر الصغرى من أرخبيل الصوند وفي شرقي جزيرة لونيوك وشمالى سومطرة .

أما الميناهازيون فانهم اليوم نصارى وقد انتشر العلم والتمدن بينهم بواسطة المبشرين ونمت ثروتهم واصلت كثافة السكان منهم بالنسبة الى مساحة الارض بمعدل ٣٨ شخصاً في الكيلومتر المربع ويوجد ناحية حول بحيرة توندا نو كشفتم فيها بمعدل ٨٣ في الكيلومتر . وأما جزيرة سومطرة فانها من الجزر الماليزية أيضاً وتعد من أعظمها بل من أعظم جزر العالم يفعلها عن بلاد الهند الصينية بوغاز ملقا وعن الجاوى بوغاز الصوند وهي بين ٩٢ و ٥٢ و ١٠٣ و ٤٣ من الطول الشرقى و ٥ و ٣٨ من العرض الشمالى و ٥ و ٥٨ من العرض الجنوبى وطولها ١٧٦٠ كيلومتراً بعرض يختلف من ١٦٠ الى ٤٠٠ كيلومتر ومساحتها ٤٣٠٠٠٠ كيلومتر مربع وفيها سلسلة جبال عالية ارتفاع قممها ٣٧٠٠ متر . وفيها أنهار كبيرة تسير فيها السفن وهوؤها حار رطب وفيها معادن الذهب والحديد والنحاس مثل جزيرة بورنيو . وفيها زراعة الارز والحبوب وتكثر فيها الحيوانات كالخيل والبقر والجاميس وعدد أهلها ثلاثة ملايين وخمسة وسبعون ألفاً منهم من اجناس هندية كاليانا والألا والكو بو ومنهم ماليزيون ومنهم ماليزيون مختلطون يقال لهم آتشينيون والماليزيون والآتشينيون هم مسلمون وهم أكثر أهالى الجزيرة . وسومطرة تابعة هولاندة منها مايليه الهولانديون رأساً ومنها امارات تحت الحماية ومنها امارات مستقلة . وأعظم مدنها بالانباغ وآتشين وبانانغ ومدان الخ .

والمسلمون في الجاوى وسومطرة و بورنيو وسيلاب وسائر المستعمرات الهولاندية هم

٣٥ مليوناً وبعضهم يقول ٤٠ مليوناً .

مسلمو الفيليين

الفيليين

وتنتهى القول بجزائر الفيليين وهى أرخبيل من الاوقيانوس المالىزى بين ٢١٤ و ٣٠٠ من العرض الشمال و ١١٤ ر ٣٠ و ١٢٤ ر ١٥٠ من الطول الشرقى بين بحر الصين غربا والاقويانوس الباسيفيكي شرقا وبحر سيلاب وبحر جولو جنوبا. وهذا الارخبيل يحتوى ١٢٠٠ جزيرة أشهرها لوسون Lucun فى الشمال وجزر بابوان Babuyanes وجزر يسايا Bissayus فى الوسط وجزر كالاميان Calamianes وبالاوان Palaouanes فى الغرب وجزيرة مينداناو Mindanaw فى الجنوب. وهذه الجزائر جبلية بركانية كثيرة الزلازل وهواؤها رطب حار وزراعتها الأرز وقصب السكر والبن والقنب وفيها مواش كثيرة كالخيل والبقر والجمالوس ومعادنها غير قليلة كالذهب والنحاس والقصدير وصادراتها تعدل بنحو ١٥٠ مليوناً والداخل اليها بنحو ١٢٠ مليوناً وفيها نحو ٢٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية ومساحتها ١٨٢ ر ٢٩٦ كيلو متر مربع. وعدد سكانها سبعة ملايين منهم المالايزيون الكاثوليكيون ويقال لهم التاغال والمالايزيون المسلمون ويقال لهم المورو والبولينيزيون وهم وثنيون وفيها زواج وفيها نصف مليون من الصينيين ومثنا الف اوروبى. وأعظم حواضرها مانيل ثم ايبا ثم بانانغ ثم بانانغا الخ وقد سميت هذه الجزر بالفيليين نسبة الى فيليب الثانى ملك اسبانية الذى فى أيامه جرى اكتشافها ودان اكثر أهلها بالانصرانية وذلك سنة ١٥٦٨ وبعد ان بقيت هذه الجزر مئات من السنين تحت حكم اسبانية ثارت عليها فضضت الجمهورية الامبركية الكبرى حركتهم فتملصوا من حكم اسبانية ولكنهم وقعوا تحت سلطة الولايات المتحدة فعادوا يثرون على هذه وأحوالهم لا تزال غير مستقرة.

ويظهر أن الأمريكين أرادوا استمالة المسلمين من أهل الفيليين ليتقوا بهم على الكاثوليك لجاه منهم وال سابق للفيليين الى الاستانة منذ ٢٠ سنة والنمس من الحكومة العثمانية ارسال مرشدين يهذبون مسلمي الفيليين وينورون أفكارهم نظرا لما هم عليه من

الجهل والغبوة ولما كانت الدولة العثمانية وقتئذ تعنى بأموار المسلمين بهدر امكانها أرسلت المشيخة الاسلامية أحد مأموريها وهو الفاضل المرحوم وجيه افندى زيد الكيلاني النابلسي وجعلته أشبه بشيخ اسلام في الفيليين فنهب الى هناك واستقبله المسلمون بفرح يفوق الوصف وبدأ بمهمته وعاونه الأميركيون عليها الا أنه مرض مرضاً قضى عليه بالعودة الى الاستانة فلما جاء قطعت المشيخة راتبه وأبت أن تعنى بهذا الأمر بعد ذلك فاضطر الى السفر ثانية على نفقته الخاصة وكان يتأوه كثيراً على حالة الاسلام في الفيليين ويذكر ما هم عليه من التحمس في محبة أبناء ملتهم لو أتيح لهم حظ من التعليم وأخيراً جاءنا نعيه بسبب العلة التي كانت تمسكت منه مع تغير الهواء عليه فذهب في شرح شبابه شهيد حيته وعلاومه وكان صديقاً جبالى فسألته رحمه الله عن أحوال المسلمين في تلك الجزائر النائية فأخبرني بأن عددهم هو من مليون الى مليونين وأن السواد الأعظم منهم في جهالة عمياء لا يعرفون من الاسلام سوى كونهم مسلمين ولا يكاد يعرف الصلاة منهم الا أقداماً قلائل ممن حجوا بيت الله الحرام فعسى أن يقيض الله من المسلمين جعية تحموا حنو الافرنج في التهذيب والارشاد فترسل الى تلك الديار من يكمل مهمة وجيه افندى الكيلاني التي لم تكند تبدأ حتى انتهت . لا تقطع الأمل بذلك ومن يقنط من رحمة ربه الأضالون

والفيليين هي ارخبيل أو مجموع جزائر في الاوقيانس الكبير تتألف من نحو ألف ومائتي جزيرة صغرى وكبرى . وهذه الجزر هي القسم الشمالي من ماليزيا اكتشفها ماجلان الملاح البرتغالي ودعيت باسم فيليب الثاني ملك اسبانيا وهي ممتدة على ١٥٠٠ كيلو متر من الشمال الشرق من بورنيو بين بحر الصين والمحيط الباسيفيكي وتبلغ مساحتها السطحية ٢٩٩٠٠٠ كيلو متر مربع وأهم محاصيلها البن والأبازير « البهارت » وقصب السكر والأرز والتبغ والقنب ومن بحرهما وأنهارها يستخرج عرق اللؤلؤ والدر بكمية ومناخها شديد ولذلك كان أهلها وعددهم زهاء سبعة ملايين نسمة أشدء أقوية . وقد اضمحل سكانها الأصليون الا قليلا بما دامهم من بأس الفاتحين من الماليزيين وأكثر سكانها تمدناً اليوم هم التاغال وعددهم مليون ونصف والفيزيا وعددهم مليونان ونصف والفيكول وعددهم أربعة ألاف والمورواي المغاربة وهم المسلمون وعددهم كثير في الجزائر الجنوبية وهم اخلاط من الماليزيين والصينيين والهنديين والعرب والجاكديين من

الأوربيين ويعد في جلة المسلمين قوم من الجوراماتادو يقدمون أرواحهم فدية قه ويتقربون اليه بقتل الكافرين وهم متعصبون على الجملة على ما وصفهم أكثر من كتبوا عنهم

ولقد استولت اسبانيا على هذه الجزر زمناً ولكنها لم تعمرها وغاية ما صرفت وكدها اليه تنصير السكان ايدينوا بالكنيسة فأصبح المتظاهرون بها والمتحلون لها تسعين في المئة من السكان ولما لقي التناغال والميتيون مالفوا من سيطرة رجال الدين وسوء الادارة قاموا يريدون تخفيف مانالم وأن يعاملوا بالساواة مع البيض فنشبت ثورة سنة ١٨٩٦ ولم تنطفي شعلتها الا بوعد زعيم الثائرين أن تقوم اسبانيا بالاصلاح المنشود ولما لم تقم هذه الحكومة بوعدا عاد ذلك الزعيم بيدي نواجذ الشر في السنة التالية بمعاونة الولايات المتحدة وبعد ان حاربت الحكومة الاميركية اسبانيا من أجل هذه الجزائر استولت على الفيليين وكوبا وهورتوريكو ونكست اعلام اسبانيا وراح الأميركان يستعمرونها فيحسون استمارها

ولما د السلام رواقه على هذا الارخبيل واتهى دور الكتاب والحمام جاء النور للكتب والأفلام وأخذت الجامعات العلمية تبعث رسلها للبحث والتنقيب لتتظرف تاريخ الفيليين واجتماعها وعمرانها فانقشر منذ سنة نحو عشرين مصنفاً في الكلام على هذه الجزائر ومن جلتها كتاب تاريخ المور وأى مسلمى الفيليين لوطينا الفاضل الدكتور نجيب صليبي

ولقد اطلبنا على مبحث في مجلة العالم الاسلامى الفرنسية اقتطفته من مصادر كثيرة ومنها كتاب جزائر الفيليين الذى ظهر مؤخراً بالانكليزية من قلم جون فورمان فآثرنا تحصيله للقراء ليقفوا على أحوال أولئك القوم ويعرفوا مبلغ عناية الغربيين بكل فرع من فروع العلم والاجتماع قالت المجلة الباريزية :

شغل المؤلف جزءاً عظيماً من كتابه بالكلام على المسلمين بعد أن اطلال عشرتهم وخالط زعماء الثورة ورجال الحكومة منهم جلاء من ذلك يبيان رأده الانصاف وسداه ولجته التحقيق وقد أبان في كتابه علاقة مسلمى الفيليين مع الاسبانيين سابقا ومع الأميركيين لاحقاً الى أواسط سنة ١٩٠٥

المسلمون اليوم هم عبارة عن ثمانية أو تسعة أعشار جزيرة مينداناو الكبرى وجميع

ارخبيل سولو مع جنوبي بالوان وكانوا منتشرين في الشمال من تلك البلاد على عهد الفتح الأسباني ولما زلت الحملة الاسبانية الأولى في جزيرة لوسون سنة ١٥٠٧ اختلطت لأول أمرها مع الراجا (حاكم توندو) وابن أخته الراجا سليمان في مانिला حاضرة الفلبين اليوم وكان قائد الجيش الاسباني العام اذ ذاك يرى سكان توندو ومانिला مسلمين ويطلق عليهم في مكاتباته الرسمية لفظ المورو (اى المغاربة) ولم يكن لأحد من الاسبانيين شك في ذلك لأن المغاربة لم يُطردوا الاخير من اسبانيا الا سنة ١٤٩٢

ولقد اختلفت الاقوال في دخول الاسلام الى تلك الجزر والمرجح أن الجزر الجنوبية مثل ميداناو وسولو انتشر فيها الاسلام لقربها من مسلمي شمالي بورنيو فاستولى المسلمون على سلطنة بورنيو عقيب أن خربوا مملكة الماهايهيت من بلاد جلوي سنة ١٤٧٣ ولم يتحارب الاسبانيون مع سلاطين المسلمين الا في سنة ١٥٧٧ وقد تقدم السلطان عبد القهار عدة ملوك مسلمين ومنه بدأ تاريخ الفتن بين المسلمين والاسبانيين . وبالجملة فان الاسلام انتشر في ميداناو و بورنيو بمساعي دعاة من العرب على أنه لم ينتشر حقيقة في جنوبي الفلبين إبان الفتح الاسباني ولم تنتحل سولو الاسلام الا بعد أن جدها دايكس من بورنيو وتزوج أحد زعمائهم المدعو اندازولان - وكان استولى أولاً على جزيرة بازيلان ثم على سولو - من ابنة زعيم من أعيان المسلمين في ميداناو واتحل الاسلام وأسس سلطنة سولو ثم قويت شوكته بانحاده مع بورنيو وميداناو

وعادت الاحقاد القديمة فتجددت بين الاسبانيين والمسلمين وحل الاسبانيون على هؤلاء مدفوعين بعامل السخط الشديد وفي سنة ١٥٧٦ نارلا كاندولا والراجا سليمان في جزيرة لوسون ولكن قوة الاسبانيين اذ ذاك حالت دون انتشار الكلمة الاسلامية وان بقيت اليوم بقية من ذرية لا كاندولا في بعض القرى فقد انحط مقامهم وأصبحوا نكرة لا تعرف حتى ان أحدهم كان خادما في مطعم فرنسوى في مانिला سنة ١٨٨٥

وقد بعثت اسبانيا سنة ١٥٩٦ حملة على ميداناو وقتل قائدها عند نزوله الى البر وأغلر والى سولو بنفسه سنة ١٦٣٨ فاحتل بعض المراكز في شاطيء ميداناو حيث لقب الراجا سيويجي سنة ١٦٤٠ بلقب السلطنة . ولم تكن هذه السلطنة وذاك الاحتلال الاسمياً لا حقيقة لها اذ بقيت الفتن قائمة قاعدة بين المسلمين الأصليين والمسيحيين الفاتحين ولا سيما في القرصة . فدامت الغزوات البحرية بين الفريقين بلا انقطاع مدة ثلاثة قرون

فريق يعتقد أنه يجاهد جهاداً مقدساً وهم المسلمون وفريق يدعى أنه يحارب باسم الصليب وهم المستعمرون الاسبانيون

وفي أواسط القرن الثامن عشر حدثت بين المسلمين والاسبانيين فترة غريبة ذلك بأن المفاوضات بينهم انتهت بأن يكتب ملك اسبانيا سلطان سولو الذي قاوم أحد اخوته مكانه فله مانيللا يطلب مساعدة حاكمها . ورأى السلطان محمد عليم الدين أن يتنصر فتعمد ولحقت به أسرته وبدأت تتعلم في مانيللا التعليم الاسباني المسيحي وبعد سنتين رُخص له بأن يذهب من مانيللا الى سولو وزامبوانكا في موكب له فاضطر أولاً أن يكتب الى السلطان محمد أمير الدين في ميندانا وينصح له بلسان شديد اللهجة أن ينضم الى الاسبانيين . وبعد سفره بقليل تبين للحاكم الاسباني أن العبارة العربية كانت مخالفة للعبارة الاسبانية التي كتبها بنفسه ووقع عليها ولذلك أمر بسجنه في زامبوانكا ثم أعيد الى مانيللا ولم يسع الوالى الاسباني الا أن يعود الى تصير ذلك الحاكم المسلم ولو صورة

ولما احتل الانكليز مانيللا سنة ١٧٦٣ وجدوا السلطان مسجوناً فأطلقوا سراحه فراح الى سولو وأقام على استئصال شأفة الاسبانيين في ميندانا وأصاب الانكليز أيضاً شئ من شره وان أحسنوا معاملته . وقد بعث الانكليز الى سولو بمئة وخسين رجلاً لتوطيد قدمهم فيها فدعاهم أحد زعماء المسلمين الى مأدبة وذبح منهم ١٤٤

وبعد أن انجلت انكلترا عن قاعدة تلك البلاد عدل الاسبانيون من معاملتهم للمسلمين فاعترفوا سنة ١٨٣٦ باستقلال سلطانهم هناك حتى اذا كان عام ١٨٨٤ سبروا عليه حملة واستولوا على حاضرة بلاده فراح السلطان وخاصة رجاله يحتفظون بأنفاسهم فأدرت حكومة اسبانيا عليهم رواتب ومشاهرات الا أن المسلمين لم يبرحوا يلبجأون الى الغارة والنهب في السواحل حتى قيل ان غارات المسلمين قويت شوكتها سنة ١٨٧٦ فلم يعد حكم اسبانيا في سولو الا اسماً

وهكذا جرت حوادث بين الحكام الاسبانيين والسلطين المسلمين يخضع هؤلاء تارة ويتنقضون أخرى مثل سلاطين باكات وبوهاين وكودارنكان المتحالفين مع داتواوتو ولما ضاقت اسبانياً ذرعاً ببعض القبائل المسلمة واتقاضها الهين بعد الآخر عزمت غداة ثورة سنة ١٨٩٦ أن تطرد المسلمين من عقردارهم وتكن فيها جماعة من المسيحيين الوطنيين ثم خضع بعض اولئك الأمراء للاسبانيين خضوع حب لان منهم من كان يقدر

المدنية الغربية قدرها ولذلك ظلوا على موالاته الأميركانيين أيضاً بعد ان استولوا على هذه الجزائر .

ويؤخذ مما كتبه فورمان أن الاحقاد القديمة بين الاسبانيين والمسلمين دامت على أشدها مدة ثلاثة قرون وظل المسلمون هناك يذكرون مآثرهم لآخواتهم مسلمي اسبانيا . وبما كانت تجرى الشروط عليه بين والي مانيلا الاسباني وحاكم سولو المسلم أن لا تمس شعائر المسلمين . وعلى ما حاولته اسبانيا من تنصير المسلمين فقد خرجت من الجزائر كيوم دخلتها ولم تفلح فيها قصدت اليه . ولا شك أن جمهورية الفيليبين تحسن معاملة المسلمين كالاسبانيين وكذلك المسلمون لم يكونوا أقل عداء لسكان البلاد المسيحيين من معاداتهم لليبيس .

ولما استولى الاميركيون على الجزائر لم يمساو المعتقدات الاسلامية ولا عملوا على نقض شرع أهل الاسلام وان كانوا ينكرون عليهم ترتيباتهم في حكومتهم وهي حكومة أعيان « لرستوقراطية » وقد انتقد أحدهم على حكومة الولايات المتحدة أن وطدت نفسها على انتظار ادخال تعديل في حال المسلمين هناك وتفليلها الأمل بأن نشر التعليم العام بينهم سيؤدي بعداً الى نتيجة حسنة . على ان الاميركلن كانوا يوجسون خيفة من نظام الاقطاعات الشائع بين المسلمين هناك . وقد نادى حكومة أميركياً بأن يظل أهل ولاية المسلمين يحكمون انفسهم بانفسهم ولم تتداخل الا بعض الشيء في حكومتهم وادارة بلادهم وتمتاز حكومة أميركياً عن اسبانيا بان طريقتها في حكم تلك الجزيرة والمسلمين من أهلها خاصة هو بتدريب الاهلين على المبادئ الديمقراطية اما اسبانيا فقد أرادت أن تحمل على الاسلام نفسه لتخلص من المسلمين . ولو اقترب بعض الزعماء المسلمين من الاميركلن سياسياً مع احتفاظهم بأخلاقهم من الوجهة الاجتماعية لما طال على البلاد عهد السلام

وقد عنيت الحكومة الاميركية بتنظيم شؤون المسلمين وتأسيس بلديات لهم في الجزر تقيم مع المجالس الوطنية وتعمل بالعبادات الوطنية ما أمكن وهي العادات التي لاتناقى عادات الشعوب المتعددة ولا اخلاقها وقد بلغ عدد جيش الاحتلال الاميركي النازل في جزيرة سولو وحدها ٤٨٣٩ رجلاً و ٢٩٤ ضابطاً على ان الحار بين من أهلها لا يتجاوزون العشرين ألف رجل . وفي تلك الولاية ٤١ مدرسة فيها ٢١١٤ تلميذاً و ١٥ معلماً أميركياً و ٥٠ معلماً مسيحياً وطنياً و ٩ معلمين مسلمين والمدارس خاصة بالتلاميذ والمعلمين حتى ان ٢٤٠ طفلاً من المسلمين حرموا من المدرس الآن فباتوا ينتظرون لان المدارس ملئت بالتلاميذ والطلاب من المسلمين

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية

محاضرة السيد اسماعيل العطاس

قد أهدانا نسخة من هذه المحاضرة الادبية حضرة الفاضل السيد اسماعيل العطاس من السادة الحضرم المقيمين بجاوى وكان القاها في نادى الشبان المسلمين بالقاهرة في ٦ يناير سنة ١٩٢٩ فحينما ضمها الى هذا الكتاب لأنها من افضل الخلاصات عن بلاد الجاوى وهذا فصها : —

قيل العهد التاريخى

ان اكتشاف بعض الأدوات الحديدية في الزمن الأخير في جاوى وبحث عماء الآثار فيها دلا على أن هذه الفؤوس ورؤوس الرماح هي من أدوات العهد الحديدي السابق للتاريخ خلاف ذلك اكتشف بعض أجزاء من هيكل المخلوق المسمى Pithecanthropus Erectus وهو من نوع الانسان القردى Human Monkey أو الانسان الفوسيلي Fossil-man الذى يظن بعض العلماء انه من الحلقة المفقودة The missing link هذه البقايا من العظام هي من العهد الفليوسينى phiocine period وانه من المحتمل أن هؤلاء الانسان الفوسيليين هم أصل السكان القسما في تلك البلاد ويظن بعض العلماء الدارسين في تاريخ جاوى أن من هؤلاء القوم توالد الشعب الذى سكن جزيرة جاوى قديما والمعروف باسم كالانج كالانج Kaling والمعنى عند غزاة الهند بالرشاكا Rashaka وكانوا يتعيشون من صيد السمك والحيوانات ولا يعرفون الزراعة ولا تربية المواشى وينتقلون من مكان الى مكان ويعيشون في تجاعات قليلة بين العشرة والأربعين وكانوا على أكثر الاحتمال من عباد الشمس مثل الشعوب الأقدمين في بابلونيا

العهد الهندو

لم يذكر في كتب الهندو المعروفة بالفيدا Veda شئ عن أول قدم الهندو الى جاوى أما الكتب الجاوية المسماة بالبلاد Bahad's فقد ذكرت أن — الهندو «أني كا كا» Aji Caka

زار جاوى فى حاشية عظيمة ويقال انه كان أميراً هندياً أو وزيراً أول أمير هندو وزيارته هذه تعد أول مبدأ عهد الهندو وأول سنتهم يوافق سنة ٧٥ أو سنة ٧٨ ميلادية وهو أول من أسس أول دولة هندية فى جاوى واليه ينسب لدخال أول حكومة منظمة وانشاء أول دولة هندية فى جاوى الوسطى المسماة ماتارام Mataram. ولا يعرف من تاريخ العهد الهندو الا القليل ولكن آثارهم ومعابدهم القديمة تدل على أنه وجدت دول هندية قوية فى جاوى أشهرها ثلاث

١ — دولة Mataram (ماتارام) المذكورة فى جاوى الوسطى

٢ — Padjadjaran (باجاجاران) فى غرب جاوى

٣ — Madjapahit (ماجابهيت) فى شرق جاوى

وكانوا يستعملون اللغة السنسكريتية كاللغة الرسمية والى الآن نجد هناك كثيراً من

كلمات الملايو المستعملة من أصل سنسكرى

وقد بلغت دولة الماتارام Mataram الفروة القصوى فى القرن التاسع الميلادى ومنها تخرج العمال الماهرون والبنائون الذين بهروا العالم ببناء المعابد الفخمة مثل بورو بودور Boro-Budur ومندوت Mendoet وشندى سيو Tjandi Sewoe والتي تعد آلى الآن من عجائب الدنيا وفيها برع العمال فى الصناعة القصدية وفى طريقة رى الحقول الأرزية التى لم تزال مستعملة الى الآن

وفى عهد دولة باجاجاران Padjdjaran أسلم أول أمير هندو واسمه حاجى بورا

Hudji Paera وذلك فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى

وفى عهد مملكة ماجابهيت Madjapahit نشر مولانا ابراهيم النباية الاسلامية فى

قرية لبران Leran القريبة من بلدة جريس Gresik وبعده أتى مبشرون اسلاميون

آخرون فأسلم على أيديهم بعض الامراء من دولة ماجابهيت Madajapahit وفى

النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى وجد ثمانية أمراء مسلمون من الأهالى بألقاب

ال « سوسوهونان » Susuhunan (سلطان). وقد دارت رحى الحرب بين دولة

ماجابهيت Madjapahit وبين الثمانية الأمراء المسلمين تحت رئاسة رادين فلتاه (الذى كان

أميراً من دولة ماجابهيت Madjapahit واعتنق الاسلام) وبعد حرب دارت أربع

سنوات انكسرت جيوش المسلمين ولكنهم لموا شعنتهم مرة أخرى وأخذوا ثأرهم فى موقعة

دلرت خمسة أيام فيها انكسرت جيوش دولة ماجافاهيت Madjapahit شر كسرة ولم تقم
 لم بعدها قائمة فكانت الضربة القاضية وذلك في سنة ١٤٧٥ ميلادية وبنقوط دولة
 الماجافاهيت الهندوية (البوذية) تدهورت الديانة البوذية رويداً رويداً وهكذا انتشر
 الاسلام بدخول الأهالي والأمراء فيه جماعات ووحداً

العهد الاسلامي

ان تاريخ الجزائر الهندية الشرقية في مدة الستمائة سنة الأخيرة هو من أحسن
 الفصول في تاريخ انتشار الاسلام بالدعوة والارشاد

اجتهد أنصار قليلون في نشر الاسلام والتوحيد والدعوة الى سبيل الله بالحكمة
 والموعظة الحسنة دون مساعدة في ابتداء الأمر من أمراء البلاد وفي بعض الأحيان لملم
 عداوة مسلحة وهم لا سلاح لهم الا القلوب المطمئنة بالايمان والاخلاص والمجادلة بالنبي
 هي أحسن

أما تاريخ دخول الاسلام في الجزائر الهندية الشرقية فغير معروف بالنهال ومن المحتمل
 أن الاسلام دخل بدخول تجار العرب الى هذه البلاد في أوائل القرون الهجرية . وهذه
 النظرية تتقوى بما هو معروف من أن العرب كانوا حاملين لواء التجارة بالشرق في الزمن
 القديم . ففي ابتداء القرن السابع الميلادي زادت التجارة مع الصين على طريق سيلان
 Ceylon حتى أنه وجد تجار عميديون من العرب في Canton كنتون بالصين في منتصف
 القرن الثامن الميلادي . وفيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الى حضور البرتغال
 Portugese لم يكن للعرب منازع في الراسة - التجارة الشرقية . لذلك يتقوى الاحتمال
 أن العرب قد ذهبوا بتجارهم الى بعض الجزائر الهندية الشرقية في ابتداء القرون الاولى
 من الهجرة كما فعلوا في أما كن أقرب وأخرى أبعد منها يننا بعض هذه الجزائر مثل
 سومطرا Sumatra واقعة بينهما .

انه وان لم يذ كر جغرافيو العرب هذه الجزائر في كتبهم - قبل القرن التاسع الميلادي
 الا انه في كتب التوقيم الصينية مذكور أن في سنة ٦٧٤ ميلادية كانت جالية عربية في
 الشاطي الغربي - من سومطرا

ويستنتج بعض العلماء من اتخاذ الاهالي الشافعية مذهباً لهم ومن انتشار المذهب الشافعي في شواطئ الكوروماندل Coromandel وشواطئ الملابار Malabar الآن كما كان سابقاً في منتصف القرن الرابع عشر - حين زيارة ابن بطوطة لهذه الجهات أن الاسلام دخل الى هذه الجزائر الهندية الشرقية من جنوب الهند ومن شواطئ الملابار وذلك لأن مذهب البلاد الاخرى المجاورة حنفي ولان موانئ الملابار يؤمها التجار قديماً من جلوى ومن الصين ومن اليمن ومن بلاد فارس ومن بلاد الهند أو من فارس دخلت الشيعة الموجود بعض بقاياها الآن في جلوى وسومترا

ومن ابن بطوطة نعم أن سلطان سومطرا Sumatra المسلم قد حسن العلاقات مع ملك دهلي Delhi وان من العلماء المسلمين المقربين الى السلطان السومطري اثنين من بلاد فارس أحدهما من شيراز والآخر من أصفهان وقبل ذلك بمدة كان قد كثرت تجارة الذهب كَن Daccan الذين احتكروا التجارة بين الممالك الاسلامية الهندية وبين الجزائر الهندية الشرقية - في موانئ هذه الجزائر وفيها زرعوا حبوب هذه المماتة الاسلامية السمحاء

قال هؤلاء التجار المبشرين النازحين من بلاد العرب والهند يرجع الفضل في تأسيس أول الجاليات الاسلامية من الأهالي وفي تحويلهم من عبادة الأصنام الى عبادة الله الواحد الرحمن فهم لم يدخلوا محاربه ولم يلقوا السيوف فوق الرقاب لا كراه الناس في الدين بل استخدموا اللطف والفكر والمعرفة في سبيل نشر الدين الاسلامي أكثر من استخدامهم ايها لطلب السعة في الرزق والنفي في المال

اذا كان دخول العرب الى هذه الجزائر غير معروف بالتمام فانه معروف أنهم دخلوها قبل البرتغاليين فقد قال ماركو فولو Marco Polo الذي صرف خمسة أشهر في الشاطئ الشمالي من سومطرا سنة ١٢٩٢ م ان كل السكان كانوا مجوساً وعباد أصنام عدا سكان البلدان في مملكة پارلاك Parlak الصغيرة الموجودة في الشمال الشرقي من سومطرا لأنهم اعتنقوا الاسلام بواسطة تجار العرب

ولما دخل ابن بطوطة سومطرا سنة ١٣٤٥ وجد هناك ملكا مسلما اسمه الملك الزاهر وتمتد سلطته على الشاطىء مسافة ايام سفراً وقد كان محبا للباحثة مع علماء الدين وكان فى حاشيته شعراء وعلماء

وقد تحصل العرب عموماً على احترام عظيم من الاهالى ونفوذ كبير فيهم سببا السادة والأشراف سلالة الحسن والحسين سبطى المصطفى عليه السلام فقد نباهى أمراء الأهالى وملوكهم المسلمون بالتقرب اليهم بمصاهرتهم وتزويج بناتهم منهم ويتفاخرون اذا ولدت منهم سادة وأشرافاً . وقد صار البعض منهم سلاطين ولم يزل منهم أحياء يرزقون مثل سلطان وأمراء فونتياناك Pontianak من جزيرة بورنيو Borneo

منذ القرن السابع عشر كان أكثر مهاجرى العرب الى هذه الجزائر حزام وكانوا يتعيشون من التجارة وبعده أضافوا حرفة أخرى هى الملاحة فكانت مراكبهم الشراعية تمخر البحار كالأعلام وكان قبطانهم ونائب القبطان والادارى من العرب أما التجار فكانوا من الاهالى وما لانزع فيه ان هذه المراكب كانت سببا فى ازدياد عدد المهاجرين الحضرميين الى هذه البلاد وفى زيادة ثروتهم . وقد بلغوا ذروة المجد فى الملاحة بين سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٥٥ حين احتكرت مراكب الحضارم ملاحه الموانى ومنذ ذلك الحين ابتدأت مراكبهم الشراعية فى الانحطاط بسبب منافسة المراكب البخارية الاوروبية والآن لم يبق عندهم من المراكب شئ

عدد العرب

كان عدد العرب قبل ادخال الاحصاء غير معروف أما بعد الاحصاء فكان عددهم

كما يأتى : —

سنة	فى جاوى (ومدورا)	فى خلافتها	المجموع
١٨٥٩	٤٩٩٢	—	—
١٨٧٠	٧٤٩٥	—	—
١٨٨٥	١٠٨٨٨	—	—
١٩٠٥	١٩١٤٨	١٠٤٤٥	٢٩٥٠٠
١٩٢٠	٢٧٨٠٦	١٧١١٥	٤٤٩٢١

عدد المسلمين الآن

في الجزائر الهندية الشرقية الهولندية فقط خسون مليون مسلم وكثيرون من
الاهالي الذين يعرفون الكتابة يتكاتبون بلغة الملايو بحروف عريية وفي لغة الملايو
نفسها ما يزيد على ٢٥٪ من كلماتها مأخوذة من العريية

دخول الاوروبيين

للحصول على البهارات والذهب والاحجار الكريمة وخلافها رأسا من منابعها
الشرقية بحث البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر عن الاراضي والبلاد التي
تخرج منها هذه الأشياء الثمينة وفي سنة ١٤٩٦ سافر فكواداجاما Vasco da Gama ووصل
الى مكان كلكتا Calcutta الحالية على طريق رأس الرجاء الصالح . ونجاحهم هذا وما يليه
شجعهم على زيادة البحث والاسفار ففي سنة ١٥١١ وصل البرتغالي اتونيو دي ابرو
Antonio de Abreu الى جاوى وامبون وبندا Java, Amboun & Banda وفي سنة ١٥٢٢
ارسل البرتغالي de Lerne الى Bantan (من جزيرة جاوى) التي كانت لم تزل حينذاك
هندوية بوذية . وحيث ان حاكم Bantan البوذي كان محاربا لأمبرشربون المسلم Cheribon
استجار الامير البوذي لما أحس بضعفه بالبرتغاليين ووعدهم بمكان لبناء معمل
Factory وبتحريم التجارة وبهدية سنوية قدرها ألف كيس من الفلفل مقابل قلعة بينها البرتغاليون
للدفاع عن الميناء ومساعدتهم اياه في حربه ضد أمير شربون المسلم . وبالرغم من اتفاقهم
على ذلك فقد سافر البرتغاليون واعدين بالرجوع بقوة أكثر . ولكنهم للارجعوا وجدوا أن
سلطان شربون Cheribon قد اتصر واستولى على Bantan باتان

وهذه البعثة كانت سببا في تاسيس التجارة بين البرتغال والجزائر الهندية الشرقية
التي احتكروها لأنفسهم فيما بعد وقد بلغت تجارتهم اقصاها بين سنة ١٥٩٠ وسنة ١٦١٠
وبلغ عدد مراكبهم ١٥٠ الى ٢٥٠ في الارسالية الواحدة . وفي أواخر القرن السادس
هشر كانت Lissabon لتسبوتة أغنى ميناء في اوروبا . وبينما كانت لتسبوتة مركز
التجارة كانت اللواني الهولندية اماكن التوزيع لشمال اوروبا وفي سنة ١٥٧٧ مر «دريك»
Drake الانجليزى في طوافه حول الأرض بجزائر الملوك Bantan & Moluceas

وفي سنة ١٥٩٤ منع البرتغاليون دخول المراكب الهولندية ميناء لشبونة فد باب التجارة امام الهولنديين الذين كانوا وسطاء بين البرتغال وشمال اوروبا . لذلك اجتهد الهولنديون في الحصول على المعلومات اللازمة لمعرفة الطريق التجارى الذى يوصل الى الجزائر الهندية الشرقية . وقد تمكنوا من ذلك بواسطة Cornelis Houtman هوتمان الهولندى الذى سكن البرتغال وعرف السر . وقد أسس تجار امستردام شركة للتجارة مع الهند الشرقية وسافرت اربعة مراكب هولندية ، وموريس Maurits ، Holandia محمول الواحد ٤٠٠ طن وامستردام Amsterdam ٢٠٠ طن و Duyfje ٥٠ طن تحت قيادة هوتمان المذكور فى ٣ ابريل سنة ١٥٩٥ ووصلوا باتم Bantam بجاوى فى ٢٣ يونيو سنة ١٥٩٦ ثم أرسل الهولنديون سنة ١٥٩٨ ارسالية أخرى تحت قيادة فان نك Jan Cornelis van Neck . واخرى بعدها. ولما رأى البرتغاليون نجاح الهولنديين أرسلوا ٣٠ مراكباً حربياً لمحاربة المراكب الهولندية الذاهبة الى الشرق الأقصى ولكن الهولنديين كسروا البرتغاليين وبذلك ماتت تجارتهم وأخيراً أخرجهم الهولنديون من الجزائر الهندية الشرقية وفى سنة ١٦١٧ عين جان بيترس كون Jan Pietersz Coen حاكماً علماً هولندياً وفى ١٢ مارس سنة ١٦١٩ سميت القلعة بتافيا وفى ٣٠ مارس سنة ١٦١٩ تكونت البلدة بتافيا التى لم تزل الى الآن عاصمة للجزائر الهندية الهولندية

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية فى الوقت الحاضر

الموقع الجغرافى والسكان

تتمتد الجزائر الهندية الشرقية الهولندية من آسيا الى استراليا بين درجة ٩٥ ودرجة ١٤١ من خط الطول شرقاً وبين للدرجة ٩ شمالاً من خط الاستواء و ١١ جنوباً منه وأطول خط من الغرب الى الشرق خمسة آلاف كيلومتر حيث تمخر فيها السفينة البخارية فى ١٤ يوماً فى وقتنا هذا ومسافة التهمة آلاف كيلومترهذه تعادل تقريباً المسافة بين الشاطئ الغربى لأرلندا فى الاطلسيقي وبين الشاطئ الشرقى للبحر الاسود فى آسيا وأبعد مسافة من الشمال الى الجنوب ٢٠٠٠ كيلومتر وتعادل المسافة بين البحر الأبيض الشمال وروما

ليمكننا أن تصور مساحة بعض هذه الجزائر يجب أن نعرف الحقائق من المقارنة الآتية:
 جلوى (مدورا) مساحتها ١٣١٥٠٨ كيلو مترات أو ٥٠٧٦٢ ميلا مربعا وتعادل
 مساحة إنجلترا بدون اسكتلندا وويلز واراندا

سومطرا ٤٢٠٠٠٠ كيلو متر أو ١٦٢٠٠٠ ميل مربع أى أكبر من مساحة بريطانيا
 العظمى .

بورنيو الهولندية فقط ٥٥٣٠٠٠ كيلو متر أو ٢١٣٠٠٠ ميل مربع تعادل فرنسا
 سيليس ١٨٥٠٠٠ كيلو متر أو ٧١٠٠٠ ميل مربع أكبر من ولاية واشنطن
 وتعادل مساحة نيوزيلند وسيلان معاً

نيوجينيا الهولندية فقط ٣٩٧٠٠٠ كيلو متر أو ١٥٣٠٠٠ ميل مربع مثل اليابان
 (دون ملحقاتها)

ومجموع مساحة الجزائر المذكورة وغيرها من الجزائر الهندية الشرقية الهولندية
 مليون وتسعمائة ألف كيلو متر مربع أو ٧٣٣٠٠٠ ميل مربع ويعادل مجموع مساحة
 الدول الآتية — بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وسويسرا
 والدنمارك والسويد أو نصف مساحة أوروبا تقريباً بدون روسيا

ومجموع طول شواطئ هذه الجزائر يعادل طول دائرة الأرض circumference of earth

عدد السكان حسب احصاء سنة ١٩٢٠

جلوى (ومدورا) ٣٦٦٤٠٠٠٠٠٠

سومطرا ٦٥٢١٨٦٠٠٠

بورنيو الهولندية ١٥٧٥٧٦٠٠٠

سيليس ٣٦٣١٤٦٠٠٠

الباقي ٣٦٣١٩٦٠٠٠

المجموع هو ٥١٠٠٠٠٠٠٠٠

الطقس

بلغ درجة الحرارة على الشواطئ في النهار عادة ٥ ر ٢٦ سنتجراد (يساوى ٨٠

فهرنيت) وبالليل ٢١ س (٧٠ ف) ويختلف الجو اختلافا عظيما بسبب الجبال الكثيرة العالية المكسوة بالخضر وبسبب الاودية فكما زاد العلو قلت الحرارة وزادت البرودة عادة بنسبة نصف درجة س في كل ٣٠٠ قدم أو درجة واحدة فكل ٣٣٠ قدما. فيينا نشعر بالحر على الشواطئ نحس باعتدال الريح في الاماكن المتوسطة العلو وبالشتاء في الاماكن الجبلية العالية وتارة لا فارق بين الصيف والربيع والشتاء الاساعت قليلة

الحكومة

ان الجزائر الهندية الشرقية الهولندية تكون جزءاً من المملكة الهولندية سياسيا والقوانين الهولندية هي أعلى القوانين ولكنها عادة لا تدخل الا في القوانين التي تؤثر في الأحوال الاقتصادية وخلاف ذلك فان الجزائر الهندية الشرقية مستقلة استقلالاً اداليا في التشريع والنفوذ الأعلى للملكة التي تحكم بموجب قوانين الحكومة. ونظر المستعمرات يتوب عن الملكة فهو الذي يشرف على الحكومة الهندية الشرقية الهولندية ويحكم الحاكم العام كذلك باسم الملكة ويساعده في التشريع والادارة مجلس الهند Road van India Council of Netherlands India ويمكن كذلك أن يستشير رؤساء الادارات وهي ادارة العدلية والمالية والداخلية والمعارف والزراعة والصناعة والتجارة والأشغال العمومية والأشغال الحكومية Gouvernment bedryven Industries والبحرية ثم السكرتارية العمومية

ومنذ سنة ١٩١٨ أنشئ مجلس الأمة Volksraad ونصفه أعضائه منتخبون والنصف يعينه الحاكم العام وهذا المجلس استشاري ويمكن للحاكم العام أن يستشير في كل الامور ولكنه مضطر الى استشارته في الميزانية Budget وسلف المستعمرة

للزراعة

لا توجد أرض في البلاد الحارة تزرع فيها مختلف المزروعات مثل الجزائر الهندية الشرقية الهولندية ولاسيما جلوى والزراعة هي أهم أسباب التقدم الاقتصادي فيها وأكثر الاراضي في جلوى مرتفعة الى علو ١٥٠٠ متر أو ما يزيد على ٤٥٠٠ قدم مزروعة ففي هذه الاماكن العالية يزرع البنخن والشاي والقهوة . وفي الأماكن

المتوسطة والتلوية يزرع الارز والفره والبقول والتمباك والبنان والبطاطس والكاوتشوك
يتناهي الاراضي الواطية يزرع قصب السكر والجوز الهندي والكاغور Kasioك ويمكن تقسيم
الزراعة الى قسمين: —

(١) لزراعة التي في أيدي الاوروبيين

(٢) لزراعة التي في أيدي الاهالي

والاولى للصادرات والثانية أكثرها للاستعمال في البلاد وكذلك للصادرات وأهم
زراعة الاهالي الارز ثم ال Cassava البطاطس والحبول الآتي يبين مساحة الارض المزروعة
بالهكتار والهكتار يساوي ٢٤٧١ و٢ فدان انجليزي وحاصلها بالطن ton الميتركي

الارز المائي	٢٦٩١٠٠٠	هكتار حاصلها	٦٥٠٥٧٠٠٠	طن ton
الارز غير المائي	٣٨٥٠٠٠	»	٤٣٥٦٠٠	»
القمرة	١٦٥٩٨٠٠٠	»	١٦٥٦٤٦٢٠٠	»
البطاطس	١٤٨٥٠٠٠	»	١٧٠٦٥٠٠	»

اما أراضي الزراعة التابعة للاوروبيين فتبلغ مساحتها ١٩٧٥ و٢٦٩١ هكتار منها
٩٠٧٦٥٦ هكتارا مزروعة ومن الأخيرة هذه ٢٢٢٦ و٥٧٥ هكتاراً في جاوى أى ٦٣ ٪
ومن الحبول الآتي نعرف اهميتها

قصب السكر يزرع شرقي جاوى وبموجب احصاء ١٩٢٥ كانت في تلك السنة ١٧٩
طبريقه اخربت ٢٥٣٠٠٠٠ مترك تن Metrie ton سكر من ٢٦٧ ر ١٧٦ هكتار أرض
مزروعة بالقصب وكان متوسط محصول الهكتار الواحد ١٢٧٨٠ كيلوجرام المطاط أو الكاوتشوك
أو Rubber في اوائل سنة ١٩٢٦ بلغ عدد العزب Estates ٨٧٥ منها ٤٨٤ في جاوى وبمجموع
المساحة المزروعة ٥٠٤٨٠٧ هكتاراً منها ٤١٤٩٤٨ هكتاراً مزروعة بال Hevea ومن المساحة
الأخيرة ١٨٠٤٧٨ هكتاراً في جاوى

القهوة

بلغ مجموع العزب estates في سنة ١٩٢٦ — ٣٦٠ منها ٢٧٠ في جاوى وبمجموع المساحة
١١٦٥٣٠ هكتاراً منها ٩٥٢٨٦٠ هكتاراً ذات محصول من ذلك ٩٥٣٥٧ هكتاراً في جاوى
منها ٨٠٧٤٦ هكتاراً ذات محصول والمحصول في سنة ١٩٢٥ — ٦١١٥٣ طناً منها ٥٧٦٩٣ أو
٩٤ ٪ من النوع المسمى روبستا Robusta Coffee

النشأ

أكثر النشأ مزروع فى غرب جاوى من ٢٨٥ estates ٢٦٠ فى جاوى و ٢٥ فى سومطرا و مجموع للمساحة المزروعة فى سنة ١٩٢٦ هى ٩٧٠٦٣١ هكتاراً

التمباك

المساحة المزروعة فى سنة ١٩٢٦ - ٤٥٦١١٥ هكتاراً منها ١٨٦٦٨٨ فى سومطرا والباقى فى جاوى cinchona ٩٠ ٪ من محصول الدنيا تخرج من جاوى و مجموع مساحة الأرض المزروعة ١٩٥٧ هكتار

بعض صادرات المحصولات للزراعية سنة ١٩٢٥ و أرقامها

الكاوتشوك	١٩٠٠٠٠٠	طن ثمنه	٥٦٦ مليون روبية
السكر	٢٦٠٠٠٠٠٠٠	» »	» ٣٦٧
تمباك	٩٢٠٠٠٠	» »	» ١١٠
الزنجبيل الناشف	٣٥٠٠٠٠٠	» »	» ١٠٢
القهوة	٦٩٦٧٣٥	» »	» ٦٨
النشأ	٥٠٠٠٠٠	» »	» ٧٤
الفلفل	٢٦٦٥٠٠	» »	» ١٩

أما مجموع أثمان الصادرات كلها فهو :

١٦٧٨٤٦٧٩٨٠٠٠ روبية أى ما يزيد على ١٤٨٠٠٠٠٠٠٠ جنبه انكليزى

المواصلات

نصف السفن التجارية التى تأتى وتخرج من هذه الجزائر هولندية وتليها السفن البريطانية واليابانية ثم الأمريكية أما السكك الحديدية فتوجد فى جاوى ٥٣٩٤ كيلو مترا وفى سومطرا ١٦٧٣ وأكثر هذه السكك الحديدية تابعة للحكومة و مجموع ايراد السكك الحديدية فى سنة ١٩٢٥ — ١١٩٥٩٢٢٥٠٠٠ روبية منها ٦٤٦٥٢٥٠٠٠ روبية للحكومة

نسبة بعض الحاصلات الى حاصلات العالم

تبنك	٩٠٪	من حاصل الدنيا	القصدير	٢٢٪	من حاصل الدنيا
كافور	٨٤٪	»	الشاي	١١٪	»
الفلفل	٨٠٪	»	السكر	٩٪	»
الكاوتشوك	٤٦٪	»	البن	٧٪	»

وإذا نسبنا مجموع الصادرات الذي هو ١٦٧٨٤٦٧٩٨٦٠٠٠ الى مائة فتكون نسبة اثمان الصادرات هكذا :

الكاوتشوك	٣٧٨٦٪	والسكر	٢٠٧٠٪	وزيت البترول	٩٠٦٩٪	والتبناك
٦١٩٪	والزجيلب الناخش	٥٧٤٪	والقصدير	٣٦٦٪	والشاي	٤١٧٪
٣٨٢٪	والفلفل	١٣٥٪	والكافور	١٢١٪	والقهوة	

فيكون المجموع هو ٨٧٪ وباقي الصادرات ٩٠٤٪ فالج مجموع ١٠٠٪ يساوي ١٦٧٨٤٦٧٩٨٦٠٠٠ روية

ونسبة توزيع الصادرات هكذا :

سنغافور	٢٦٦٨٪	هولندا	١٥٤٦٪
الولايات المتحدة	١٤٠٩٪	الهند الانجليزية	٨٠٤٪
بريطانيا العظمى	٦٨٤٪	هونغ كونج والصين	٥٦٦٪
اليابان كوريا ومورموزا	٥٥٠٪	فرنسا	٣١٢٪
ألمانيا	٢١٢٪	استراليا	١٩٤٪
باقى الدنيا	١٠٥٤٪		

في سنة	الصادرات	الوردات	زيادة الصادرات
١٩٢٢	١٢٠٠	٨٠٠	٤٠٠ مليون روية
١٩٢٣	١٤٠٠	٧٠٠	»
١٩٢٤	١٥٠٠	٧٥٠	»
١٩٢٥	١٧٨٤	٨٨٠	»

فهرست

المجلد الثاني

من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

- مسلمو الأندلس للامير شكيب من صفحة ١ - ٥٨
مصير الأنداسيين لسيدى محمد الطاهر عاشور من صفحة ٥٩ - ٦٣
طرابلس الغرب وايطاليا للامير شكيب من صفحة ٦٤ - ١٢٨
أربعة كتب واردة للسيد احمد السنوسى من ١٢٩ - ١٣٥
ما سبق فى التاريخ من استيلاء الافرنج على طرابلس الغرب من صفحة ١٣٦ - ١٣٧
عرب طرابلس بقلم عبد الستار الباسل بك من صفحة ١٣٨ - ١٣٩
السنوسية للامير شكيب من صفحة ١٤٠ - ١٦٥
الجزائر والأمير عبد القاد وفرنا للامير شكيب من صفحة ١٦٦ - ١٧٤
الجزائر وقبائل البربر للامير شكيب من صفحة ١٧٥ - ١٨٧
بلاد الطاغستان والشيخ شامل للامير شكيب من صفحة ١٨٨ - ١٩٣
المهدى المنتظر للامير شكيب من صفحة ١٩٤ - ١٩٦
أفغانستان للامير شكيب من ١٩٧ - ٢١٨
المسلمون فى الصين للامير شكيب من صفحة ٢١٩ - ٢٨٥
رأى كورديه فى حالة الاسلام فى الصين والهند وجاوى والفلبين من صفحة ٢٥٨ - ٢٦٣
حديث لرئيس البعثة الصينية الأزهرية من صفحة ٢٦٤ - ٢٦٧
حديث عالم مسلم صينى من صفحة ٢٦٨ - ٢٧٠
الاسلام فى الصين غابره وحاضره للاستاذ محمد مكين الصينى من صفحة ٢٧١ - ٢٨١

- المسلمون في الصين حديث للوفد الصيني من صفحة ٢٨٢ — ٢٨٥
- ملكو روسيا في عهد البلاشفة للامير شكيب من صفحة ٢٨٦ — ٢٨٨
- السيد جمال الدين الأفغاني للامير شكيب من صفحة ٢٨٩ — ٣٠٣
- الاسلام والجنود السوداء مقالة روجر لابون والتعليق عليها للامير شكيب
من صفحة ٣٠٤ — ٣٥٩
- لمحة على حالة الاسلام الحاضرة من صفحة ٣٠٥ — ٣١٤
- الاسلام الاسود من صفحة ٣١٤ — ٣٢١
- الاسلام عند السيفاليين من صفحة ٣٢١ — ٣٢٤
- الخلاصة من صفحة ٣٢٤ — ٣٢٦
- ادحاض الأباطيل والمفتريات للامير شكيب من صفحة ٣٢٦ — ٣٥٢
- الجنس الاسود والاسلامية للسيو بريفيه وتعليق الامير شكيب عليه
من صفحة ٣٥٢ — ٣٥٩
- الاسلام في افريقية للامير شكيب من صفحة ٣٦٠ — ٤٠١
- نهضة الاسلام في افريقيا وأسبابها من صفحة ٣٩٢ — ٤٠١
- الطريقة القادرية صفحة ٣٩٥
- الطريقة الشاذلية والطريقة التيجانية ٣٩٦
- الطريقة السنوسية صفحة ٣٩٨
- الزوايا السنوسية من صفحة ٤٠٢ — ٤٠٧

مسلمو الاندلس

المشركين

كأن المؤلف يريد أن يقول ان المسلمين لا يرتنون عن دينهم من أنفسهم وبمطلق اختيارهم والا لما ثبت تاريخياً ان مئات ألوف من مسلمي الاندلس قد تنصروا وان كثيرين من الأسبانيول اليوم لا سيما سكان جنوبي أسبانية هم من سلالة العرب وتجدهم يحفظون أنسابهم ومنهم من عندهم شجرات النسب ومنهم من يدلى بقربي الى بعض المسلمين في أفريقية .

وان كثيراً من الأسر النسيبة الأسبانيولية ينمى الى أصل عربي ولا يزال يحمل الى يوم الناس هذا أسماء عربية فتجد في اشبيلية مثلاً بنى أمية - وأحياناً يلفظها الأسبان خيمية - وتجدهم بنى عباد وبنى عمرو وبنى الفخار وغيرهم . وقد ناولني المستشرق الأسباني الغرناطي السنيور « ايزيدورو دولاس كاخيكاس » Isidoro de las Kajikas قنصل أسبانية في تطاون جدولا فيه أسماء عائلات اسبانيولية نسيبة متحدرة من أصل عربي مثل « عائلة البرقوقي » في طريف والأسبانيول يقولون Alburquerque وحدثني صديقي الحاج عبدالسلام بنونه الذي هو من أعلام المغرب وانجده الطالعة بأن في « انجرة » من جبال الريف عائلة البرقوقي أى أنه يوجد البرقوقي في طريف وفي العدة المغربية المقابلة لطريف . ومثل عائلة « القلعة » Alkala ومنها المركيز « الداما » ومنها عائلة « الكدية » Alkudia في « اتارفي » ومنها عائلة « المازان » Almazan في « بنالوه » ومنها عائلة « المناره » Almenara في « بناميسج » ومنها عائلة « المدور » Almodavar في « كسيرس » وهم منسوبون الى قلعة المدور عند قرطبة ويوجد في طنجة وتطاون بنو المدور . ومنها عائلة « بيانه » Baena نسبة الى بلدة بهذا الاسم . ومنها بنو « دانية » Dénia في « وادي اليازان » ويوجد بنو

دانية (تلفظ بالامالة) في الرباط وهم عائلات كثيرة. ومنها بنو «غرناطة دينا» Granada De Iga
 ومنها بنو «جريك» والأسبان يقولون «خريكا» ومنها «بنو مدينة سالي» Medinaceli
 وهكذا يلفظ الأسبانيون مدينة سالم على القطع بل يلفظون السين من سالم ثاءً ويقولون
 «مدينة نالي» ومنهم الكونت «دوكافيا». ومنها بنو «مدينة شنونيه» Medina Sidonia
 ومن هؤلاء الفيكونت «دولا البوراده» ومنها بنو «ناجره» Naejra ومنها بنو «سويقو»
 Succo ومنها عائلة المريكز «دو ابراده» De Abrada في «دلا مازان» ومنها عائلة الباتان
 Albatan. ومنها عائلة البلوطي Alholote لعلها عائلة القاضي مندر بن سعيد البلوطي
 الشهير قاضي الجماعة بقرطبة لعهد الناصر وكان ينسب الى خص البلوط. ومنها عائلة «القصر»
 Alcocévar في بلدة «قرزة» ومنها عائلة «البروس» Alborroces في «كانيشي» ومنها
 عائلة «الفراس» Alfarras في «قارش» Camares. ومنها عائلة «دولا الغابه»
 De la Algaba في «ديلار». ومنها عائلة «الغاره» Algara في بلدة «الش». ومنها عائلة
 «دولاغرفه» Algorfa في «وادي المينا». ومنها عائلة «الجه» Alhama في «إزياتي»
 ومنها عائلة «الهندين» Albendin في «مرشلينه» ومنها عائلة «المصوره» Almanzora
 في «تامريت». ومنها عائلة «المرسي» Almarza في «تاراسينه». ومنها عائلة «القبلة»
 Alkibla في «الزهره» Zahra ومنها عائلة «آرمونيه» Armunia في «صفرا» ومنها
 عائلة «باشرس» Bacaes في «زويه» ومنها عائلة «بيدس» Baides

ويقال ان رئيس جمهورية أسبانيا الحالي «القلعه سموره» Alkala Zamora هو
 من أصل عربي. ويقال أيضاً ان رئيس الوزارة الحالي Azania الذي يغلب أن يكون
 «السانيه» هو أيضاً من أصل عربي. وكذلك ناظر المعارف الحالي في أسبانية De los Rios
 هو حسبما يروي من أصل عربي. وقد تألفت في أثناء تجديد هذا الكتاب جمعية أسبانيوية
 اسلامية في مجريط عاصمة أسبانيا مقصدها التقريب بين المسلمين والأسبان رئيسها السنيور
 «خوشي فرانشي» نائب مجريط وخليفته الرئيس محرر هذه الأسطر والسنيور «اميليو بياندو»
 وفيها بضعة عشر شخصاً من نواب المجلس الأسباني ومن أدياء أسبانيا وساستها. وفيها
 من المسلمين عدا هذا الفقير الى ربه الأخ احسان بك الجابري زميلي في الوفد السوري
 الفلسطيني والحاج عبد السلام بنونه عين أعيان تطوان والسادة محمد القاسمي وأحمد

بلافريج وعبدالخالق الطوريس ومحمد الداود ومحمد بن الحسن الوزاني وهؤلاء هم نخبة شبان المغرب علماء ونجاة وتحصيلاً وسراوة . وفي هذه الجمعية السيد خليل بن أمية من صحافي اشبيلية والسيد « اريكي دورافولس » وهو أيضاً من أصل عربي يقول ان أصل اسمهم رحال ولما كان الأسبانيون كثيراً ما يقلبون الحاء فاءً فقد جعلوها « رفال » كما قالوا في البحيرة « البفيرة » في بانسية وبعد أن صار اسمهم « رفال » جعلوه « رفولس » فهو عربي المحدث بحسب قوله . ومن هذا النمط بنو سراج المشهورون في الأندلس من أعقابهم أناس بما لقة يقال لهم « بنو سراج » على عادة الأسبانيون في قلب الجيم خاء . وفي مدينة جنيف بسويسرة شارع « أبو زيت » Abouzit وهو منسوب الى المسيو « أبو زيد » الذي كان أعلم علماء زمانه وكان عربياً مشهوراً أصله من « تولوز » وأصل سلفه من جالية الأندلس الى جنوبي فرنسة كانوا أطباء وتنصروا على مذهب البروتستانت فيمن تنصر من تلك الجالية . ثم لما صدر أمر لويس الرابع عشر بمنع المذهب البروتستانتى من فرنسة جلا كثير من البروتستانت الى سائر البلدان مثل ألمانيا وهولاندة وسويسرة وجاء أبو زيد هذا الى جنيف وكان معاصراً لفلوتير ولروسو ولنيوطن وللينيتز وكان جميعهم يعجبون بسعة معارفه وكان فلوتير يستفتيه في عويص المسائل ويقول له « صديقنا العربي » . وفي سويسرة أكثر من اسم عربي وأما في فرنسة فهو كثير لاسيما في الجنوب ومن هذا القبيل المسيو « موروجافرى » المحامى نائب كورسيكا Moro Jafery وهو المغربي الجعفرى كما لا يخفى وتحرير هذه المسألة أنه لما غلب فرديناند وايزابلا على آخر مملكة اسلامية في أسبانية وهى دولة بنى الأجر من سلالة الخزرج الذين كان كرسيمهم غرناطة واستولوا على هذه النبلة سنة ١٤٩٢ عقدا مع المسلمين معاهدة ليس هنا محل تفصيلها وانما نلخصها حسبما جاء في نفع الطيب : تأمين الكبير والصغير في النفس والأهل والمال وابقاء الناس في أما كنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك . وأن لا يدخل النصرارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً . وأن لا يولّى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل . وأن يفكك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا وخصوصاً أعياناً نص عليهم . ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لاسبيل عليه لمالكة ولا لسواه

والسلطان يدفع ثمنه مالمسكه . ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ويجوزون في مدة عينت في
مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر ما لهم والكراء .
وأن لا يؤخذ أحد بدين غيره وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم . وإن
من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضره حاكم من المسلمين وآخر من
النصارى فإن أبى الرجوع الى الاسلام تهادى على ما أراد . ولا يعاقب من قتل نصرانيا أيام
الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة . ولا يكلف المسلم بضايقة أجناد
النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة . وترفع عنهم جميع
الظالم والمغارم المحدثه ، ولا يطلع نصراني للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ولا يدخل
مسجداً من مساجدهم ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله ، ولا يجعل علامة
كما يجعل اليهود وأهل الدجن ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه
ومن ضحك منهم يعاقب . ويتركون من المغارم سنين معلومة وأن يوافق على كل الشروط
صاحب رومة (أى البابا) انتهى

ولقد أوردت تلخيص هذه المعاهدة في كتابي « آخريني سراج » الذى ذيلته
بتاريخ الأندلس المطبوع أول مرة سنة ١٨٩٧ مسيحية فقلت : انها خمس وخسون مادة
تضمن من تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق وفي طيها من عهد المحاسنة والملاطفة والمراعاة
والمحافظة على أعراض القوم وعقائدهم وديانهم وأموالهم وكراماتهم وراحاتهم ما لا يفتى به
الانصه ، وقد تكرر في المادة الخامسة العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين
ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة وعدم التعرض لأموالهم الشرعية بل إعادة ذلك الى
فقهائهم وبالمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملابسهم وأن يبقى هذا العهد معمولاً به في
الأعقاب وأعقاب الأقباب

وفي المادة السادسة عدم سلب أسلحة المسلمين ولا مراكبهم ولا مواشيهم الا
الاسلحة النارية فتقرر أخذها . وفي المادة السابعة تسهيل السفر لكل من شاء الهجرة
بأمواله وأمتعته وفيما بعدها اجازته على نفقة دولة قشتالة من أى مرسى أراد . وتسهيل
معاملات بيع العقار لمن شاء الرحيل واذا لم يتهيأ البيع ووكل صاحب الملك وكيلاً تعتبر
وكالته ويساعد على استيفاء حاصلاته وايصالها اليه بمكانه من وراء البحر . وورد في المادة

الحادية عشرة تشديد مجازاة كل من يدخل من النصارى جامعاً بدون رخصة من الفقهاء .
 وورد في المادة الخامسة عشرة اعفاء السلطان أبي عبد الله وسائر أمراء المسلمين وقوادهم
 وفقهائهم من الضرائب والرسوم واقرار الجيع على امتيازاتهم كما كانوا لعهد ملوكهم وان
 تكون كلمتهم نافذة وقولهم مسموعاً . وورد في المادة السادسة عشرة والتي بعدها ما
 يتضمن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين ولا الملك ولا الملكة ومن خالف
 ذلك يجازى بشدة . وفي المادة الخامسة والعشرين اذا فر أحد من أسرى المسلمين المعتقلين
 في سائر الممالك ، ووصل الى غرناطة فقد نجح ولم يكن لشرطة غرناطة أن تمسكه لكن هذا
 الامتياز خاص بعرب الأندلس لا يتناول أسرى المغرب . وفي المادة الثلاثين أن من أسلم من
 النصارى قبل هذه الكاتنة فلا يعامل الا بالحسنى ولا يلقى أقل تحقير ومن خالف ذلك ينال
 من الجزاء شدة . وفي المادة الواحدة والثلاثين لا يجبر مسلم ولا مسلمة على قبول الدين المسيحي
 وفي المادة الثانية والثلاثين اذا كان المسلم متزوجاً بنصرانية وأسامت لا تجبر على الرجوع الى
 دينها الأصلي والذين يتولدون من هذا الزواج يعدون مسلمين ولو ارتدت الزوجة عن اسلامها
 وفي المادة الخامسة والثلاثين لا يرد المسلحون شيئاً مما غنموه أثناء الوقائع التي جرت الى يوم
 تسليم البلد وفيها بعدها لا يعاتبون على شيء مما مضى من تحقير الاسرى أو اهانتهم . وفي المادة
 الثانية والاربعين تفصل الخصومات بين المسلمين والنصارى في مجلس مؤلف من قائدين أحدهما
 مسلم والآخر مسيحي . وفي الثالثة والاربعين تعاد جميع اسرى المسلمين في مدة ثمانية أشهر من
 أي بلدة وجدوا فيها من اسبانية وفي مدة خمسة أشهر ان كانوا في بلاد الاندلس . وفي التي
 تليها ذكر اطلاق سبيل ابن الدرامي المأسور عند غونزالف هر نانديز وعثمان اسير كوند
 تانديله ورضوان اسير صاحب قبره واعادة الفقيه ابن محي الدين ورفاقه الذين غابوا على أثر
 حادثة ابراهيم بن سراج اينما وجدوا . وفي السادسة والاربعين تسهيل حركات سفن المغاربة
 في مراسي الاندلس واعفاؤها تلك المدة من دفع رسوم بشرط عدم نقلها اسرى من
 النصارى . وفي الثانية والخمسين عدم استخدام شرطة من النصارى لمراقبة شؤون المسلمين
 بل تكون شرطتهم من أنفسهم

وفي آخر هذه المعاهدة تعهد الملك فرديناند وامرأته ايزابلا صاحبا بممالك قشتالة واراغون
 وليون وصقلية بان يحافظا على نص شروطها حرفاً بحرف ويجريا جميع أحكامها من خاص

وعام وكلى وجزئى بكمال التدقيق وبدون ادنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الاسباب وان تبقى على شكلها وهيئتها ولا يتغير ولا يتبدل حرف منها الى الأبد . ولا يمكن أحداً من خلفاء الملكين المنار اليهما ولا خلفاء خلفائهم ولا حفدتهما ولا أولادهم الى ما شاء الله ان ينقضوا أقل حكم من أحكامها أو يبدلوا حركة من حركاتها . وأعطى الأمر بها الى الامراء والوزراء والقواد والأجناد والرهبان والرعية من حاضر وغائب وقاص ودان وكبير وصغير واعلم ان من يجرؤ على الخلل بشئ مما تضمنته هذه المعاهدة يجزى جزاء من أقدم على افساد البراءات المملوكية أو تقليد الحجج والسندات وذلك بدون أدنى تأخير

وأقسم الملك فرديناند والملكة ايزابلا وسائر من أمضوا الشروط على دينهم وشرفهم برعايتها الى الابد على الصورة الميئة وكتبت على رق غزال محلى ومطرز تحريراً فى ثلاثين من ديسمبر سنة احدى وتسعين واربعمائة والى من الميلاد

وحررها « فرناندو صفره » بامر الملكين وامضاهما الملك فرديناند والملكة ايزابلا وأولادهما الدون جان والدونة ايزابلا والدونة حنة والدونة ماريانة والدونة كتالينه ورئيس أساقفة اشبيلية الدون دياغو هرنادو ورئيس اساقفة صانثيا غو الدون الفونس وكبير فرسان صانثيا غو المسمى بالدون الفونس أيضاً والدون جان كبير فرسان القنطرة والدون الفارو زعيم رهايين ماريوحنا والدون يرو غو زالس كردينال اسبانية ورئيس اساقفة المملكة والدون هنرى كبير حكومة اراغون ومن ابناء عم الملك والدون الفونس من أبناء عمه أيضاً والدون الفارو مدير دائرة الملكين والدون بترو فرناندز رئيس جند قشتاله ويليهم نحو من اربعين دوناً كلهم من أبناء السلالة المالكة واساقفة البلاد وأمرائها وأعيانها وقوادها

وكتب ايضا معاهدة اخرى لسلطان غرناطة أبى عبد الله بن أبى الحسن متضمنة أربع عشرة مادة فيها تملكه الاقطاعات والاراضى والبلدان التى وهبها اياها الملكان معيناً كل منها بذاته والتعهد باعطائه اربعة عشر مليوناً وخمسمائة قطعة من السكة المعروفة بالمراويد وذلك عند دخولها قلعة الحمراء وقرار ملكيته لجميع العقار الموروث واعفاؤه من دفع الضرائب والرسوم وأداء المكوس عما يجلب من الأمتعة برسمه وانه فى أى وقت شاء يبيع هذه الأراضى والأملاك يشتريها كلها الملكان بقيمتها العادلة وان لم يشأ بيعها وأراد النقلة الى بر المغرب

فالوكيل الذي يعينه عليها يستوفى له حاصلاتها ويوردها عليه في أية جهة كان مما وراء البحر. وفي أثنى وقت عومل على الاجازة تنقله مع رجاله وعياله وأمواله سفن دولة قشتالة مجاناً . ولا يطالب بشيء ولا يكون مسؤولاً عن شيء مما حصل الى حين عقد الصلح ولا يسترد شيء مما غنمه . وجميع هذه الشروط كما هي جارية في حقه تجرى أيضاً في حق والدته وشقيقته وزوجته وزوجة مولاي أبي نصر . والمعاهدة الثانية مؤرخة في يوم تاريخ الاولى الا أنى وجدت أكثر المؤرخين يؤرخون امضاء هذه المعاهدات في ٢٥ ديسمبر وفق ٢٢ محرم سنة ٨٩٧ ولما كان الاسبانيول قد أعطوا المسلمين مهلة سبعين يوماً لأجل التسليم بناء على أمل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر ازداد الطاغية تيقظاً وسهراً وجعل الجيوش محيطة بقرنطة احاطة السوار بالمعصم وجع الأساطيل وبها في مراسى الأندلس وفي فرصة المجاز منعاً لكل مدد وارد فلم يطل أحد (تلك أمة قد خلت) وان أطل فلم يغب شيئاً لأن سلاطين الاسلام كانوا في ذلك الحين متشاغلين بقتنهم الداخلية ومحاربة بعضهم بعضا فضلا عن ان الذي أصبح مقررأ في أذهان عامة المسلمين ان لا أمل بحفظ مملكة الاندلس وتجديد دولة الاسلام فيما وراء البحر الى جهة العدو الاسبانية وان الجهاد في هذه السبيل عبث وهذا الأمر كائن لاحالة فتركوا الأمور وشأنها وأهل قرنطة يعلنون أنفسهم بلعل وعسى . ولكن ابتداء الجوع بعضهم بأنيابه فرأى أبو عبد الله ان انتظار آخر المدة مما لا يكون له نتيجة سوى زيادة الضيق والمجاعة ولا رجاء في ورود أقل مدد ولو كان في قيد الحياة تنفس . فشاور الرؤساء فأشاروا بالنسليم قبل انقضاء الأجل المضروب . وفي العشرين من ديسمبر أرسل وزيره يوسف بن كاشة مع الرهائن الى الملك فرديناند وأصحبه بفرسين كريمين وسيف ثمين على سبيل الهدية قبته . مقصده وعزم الجماعة على تسليم البلد قبل مضي الأمد . وفي اليوم التالي ظهر درويش اسمه حامد بن زارة فأخذ يطوف الأسواق مندباً بالجهاد مستنفرأ العامة الى الدفاع قائلاً لهم انسبرد اليهم نجدات من البشرات ومن بر العدو وان الأمل عظيم بالفرج لكن الملك أبا عبد الله والرؤساء خائنون وكثر القيل والقال في البلد وصبوا اللعنات على أبي عبد الله ورموه بالخيانة وبيع الدين والوطن فلنر نحو من عشرين الفا من أهل قرنطة وتقلدوا أسلحتهم وخرجوا في الأسواق بضوءاء ملائت الفضا عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو فاستمروا يوماً كاملاً وقسما من الليل

في هذه الحركة وإذا باعصار شديد قد عصفت بشدة فإلزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف وفي اليوم التالي خرج أبو عبد الله من الجراء محفوفاً برؤساء البلد وخطب الأمة قائلاً لهم : « لا ذنب الا ذنبي . أنا الذي عقتك والذى وجلبت الأعداء على المملكة لكن الله قد أخذني بجزائري وأنزل النعمة كلها على رأسي وها أنا ذا الآن قبلت بهذه المعاهدة لأجلكم يا قومي ضناً بدمكم أن يراق سدى وبأطفالكم أن يموتوا جوعاً وبسائكم وذرائعكم أن تنزل فيهن معرات الحرب وحفظاً لأموالكم وأملاككم وحريةكم وشريعتكم وديانتكم في ظل ملوك أسعد طالعاً من أبي عبد الله المشؤوم » فأثرت رقة كلامه في خواطر القوم وسكنت سورة حقدهم واستلت نعمة خطابه ماخضن في صدورهم فانفضوا الى أمكنتهم .

وفي الحال أرسل أبو عبد الله الى الملكين يعرض عليهما التسليم في اليوم التالي حذراً من تجدد الحوادث فرضياً بذلك وتأهباً لدخول الجراء كما ان أبا عبد الله وأسرتة وحشمه أحيوا الليل في التأهب للخروج وقد غسلوا ابهائ الجراء بدموعهم وملاً ونواحيها بنواحيهم وزموا حقائبهم بما فيها من النثار والاعلاق وجلوها البغال . وقبل أن تبليج الفجر انساب حريم أبي عبد الله وأهل القصر من أحد الأبواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المسلمين الذين بقوا متمسكين بعروة سلطانهم الى الآخر وساروا من أحد الأحياء المعتزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية . أما عائشة الحرة والدة أبو عبد الله فكانت متجلدة متجملة . وأما امرأته وسائر جواري القصر فقد قرح البكاء ما قيهن وخذد السمع خدودهن . ولما وصل الموكب الى إحدى القرى التي على طريق البشرات وقف ينتظر وصول أبي عبد الله وعند مطلع الشمس جاءت فرقة من الخيالة والمشاة يصحبها « هرناندو دولا نافيره » مطران افيلا ودخلت من أحد أبواب المدينة حسبما كان وقع عليه الاتفاق فالتقاهما السلطان ابو عبد الله وقال للمطران المذكور : « امض وتسلم هذه الحصون التي صيرها الله الى يديكم عقاباً للمسلمين على اعمالهم » ثم تقدم للاقافة الملكين وتقدمت العساكر فنحلت الجراء وكان فرديناند وايزابلا ينتظران رؤية اعلام اسبانية فوق أبراجها فضت مدة وأنظارهما شاخصة فلم يراها شيئاً خشياً وقوع حادث لكن لم يكن الا قليل بعد ذلك حتى خفقت راية الصليب فوق أبراج الجراء وبجانبتها راية مار يعقوب وعلا هتاف العساكر فلما رأى الملك ذلك بمكانهما على ضفة الشنيل خراً جاثين على ركبهما واقتدى بهما جميع الأمراء

والقواد والجند شكراً لله تعالى على مامن^١ به . وبعد انتهاء الصلوات استأنفوا المسير حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر فهنا التقوا بالسلطان أبي عبد الله الشقي^(١) فلما وقعت العين على العين أراد السلطان الترجل إجلالاً للملكين فنعاه من ذلك فهوى على يد الطاغية ليقبلها فلم يتمكن فرديناند من ذلك . وقيل ان الملكة أيضاً أبت أن ترسل له يدها وانها أحسنت تعزيبه وسلمته ابنه الذي كان مرهوناً عندها فضمه الى صدره وأخذ يقبله كأن الشفاء زاد من تعلق أحدهما بالآخر . ثم سلم أبو عبد الله مفاتيح البلد الى الملك قائلاً له « هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في أسبانية خذها فقد أصبح لك ملكنا ومتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى فتقبلها بالرأفة التي وعدت بها والتي ننتظرها منك » فأجاب فرديناند : « لاشك في اجراء ما وعدنا به وعسى أن يكون لك من صحبتنا الحظ الذي لم يكن لك من عداوتنا » ثم دفع فرديناند المفاتيح الى الملكة فدفعتها الى ابنيها البرنس جويان وهذا أعطاها الى الكونت تنديله الذي كان قد عين قائداً لقرنطة

ثم انفصل أبو عبد الله عن الملكين قاصداً المقر الذي كان قد عين له في وادي برشانة وسار الطاغية وامراته نحو المدينة وأصوات الموسيقى مسموعة الى بعيد ولم يدخلها يوم تسليمها خوفاً من الغدر وانتظرا ان تبوأها جميع العساكر لما كان يرعبهما من اسم قرنطة . أما سلطان قرنطة السابق فلما وصل الى مرقب عال على مسافة مرحلتين من المدينة يشرف عليها وقف يودع مدينته فلم تكن في عينه أجل منها في تلك الساعة فأخذ يتأمل في أبراجها وقلاعها ومناظرها الضاربة في السماء ومرجها النضير المنقطع النظير وقف وراءه حاشيته وجنده الذين لم ينفصلوا عنه وهم يتأملون سكوتاً قدأ بكلمهم الحزن وأخرسهم الهم واذا بالذنان قد ارتفع فوق القلعة ودوى صوت المدافع ايذاناً بأن المدينة دخات في حوزة الأسبانيول وانقطعت منها دولة الاسلام فعندها خفق فؤاد أبي عبد الله ولم يملك نفسه من البكاء فصاح « الله أكبر » وفسح مجال الدمع واستمطر ماء العيون فجادت بالنايب فقالت له أمه عائشة الحرة المشهورة بالشدة « عليك أن تبكي بكاء النساء ما عجزت أن تدافع عنه دفاع الرجال » وهي الكلمة الشهيرة التي تناقلتها جميع التواريخ . واجتهد وزيره

(١) في أثناء رحلتي الأندلسية سنة ١٩٣٠ وافلقتي خمسة عشر يوماً بقرنطة مررت بهذا المكان الذي نزل فيه أبو عبداقة مفاتيح عاصمة ملكة الأخير الى فرديناند ودلونى على مكان الجامع

يوسف بن كاشة في تعزيتة فلم يقبل قلبه العزاء و بقيت شؤون عينيه فائضه وزفراته متصاعدة وهو يقول : « أى شقاء مثل شقائى » وقد سمي الأسبانيول تلك الهضبة التي وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكي المنزل والحبيب « بأخر حسرات المغربى »^(١) ولما وقف فرديناند عن دخول البلد خوف القبلة الى أن تكون عساكره احتلت المواقع جميعها أرسل مركزيز « فيلته » وكونت « تسديله » بثلاثة آلاف فارس وجيش من المشاة مصحوبين بالأمر سيدى يحيى الذى سباه النصارى بعد تنصره بالدون « بدرو دو غرناطة » وعين للنظر في أمور المغاربة وبابنه الذى أطلقوا عليه اسم الدون « الوزو دو غرناطة » وكان أميراً للاسطول فتبوأوا جميع الأبراج ونشروا فوقها الاعلام الأسبانية

ولم يدخل الملكان المدينة الا في سادس يناير وكان الاحتفال بدخولها باهراً وظلاً سائرين الى مسجد غرناطة الأعظم فخلوا كنيسته^(٢) وأقيمت الصلاة شكرأ لله تعالى على هذا الفتح المبين وأقبل الأمراء والقواد وعظماء الأسبانيول على الملكين يقبلون أيديهما ويهنئونها على هذه النعمة التي اخنصهما الله بها وكرهما باحرازها . وبعد الخروج من الكنيسته سارا الى الحمراء الموصوفة فألقياها فوق ما كانا يتصوران من اتقان الصنعة ونفامة البنيان ورحابة الساحل ولطافة الرسوم والنقوش وأعجبا بما فيها من الزخرفة التي تتقطع دونها الأيدي والتألق البالغ حده سواء في الإبهاء أو المقاصير أو النوافر والصحاريح أو المداخل والتعاريح اذ يتعجب الناظر ما بين مرمر منون وعسجد مصون وسوار كآنها مفرغة في أحسن القوالب وسقوف كأنها السماء زينت بالكواكب . فاتخذ الملكان لها عرشاً فيها وجلسا للتهنئة حيث جاء أهل غرناطة والبشرات يقدمون لها واجب الاجلال ويقبلون أيديهما صاغرين . ووجد في غرناطة يوم دخول الملكين اليها خمسمائة أسير من الأسبانيول

هكذا انتهت تلك الحرب التي استمرت عشر سنين لم تغفر فيها الوقائع ولا نشفت

(١) وهذا المكان قد مررت به أيضاً في سياحتي الى جبال البعرات

(٢) وقد دخلت هذه الكنيسته وشاهدتها في أثناء زيارتي لغرناطة سنة ١٩٣٠ وشاهدت مدفن فرديناند وايزابلا قرب هذه الكنيسته ورأيت صوراً كثيرة على الحيطان منها صورة جماعة من مسلمي الأندلس من رجال ونساء يتصرون بين أيدي أجناب الاسبانيول وعلى وجوههم غبرة الموت

فيها الدماء ولا انقطعت المصارع وبنهايتها انصرم جبل الاسلام من بلاد الأندلس بعد ان استتب دونه فيها سبعة وثمانيا وسبعين سنة منذ انهزم لنريق على ضفاف الوادي الكبير الى تسليم غرناطة والله وارث الأرض ومن عليها

ثم نقلنا ماجاء في نفع الطيب عن هذه الكائنة العظيمة مما يقدر أن يراجعه من شاء اما في كتابنا « آخر بني سراج » المذيل بتاريخ الأندلس واما في نفع الطيب نفسه كما أنه يمكنه أن يراجع وصف هذه الكائنة في كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » لمؤلف لم يذكر اسمه يظهر من نسق روايته أنه كان حياً في ذلك الوقت وانه شاهد الوقائع بنفسه وهذا الكتاب مطبوع أيضا ذيلاً لآخر بني سراج . ثم قلنا :

« و بعد أن دخلت غرناطة في حوزة الأسبانيول انقطع السلطان أبو عبد الله بن الأحمر في أرضه بوادي برشانة حيث وفر له العاغية الاقطاعات وكذلك لوزيره يوسف بن كاشة الذي لزم بابه فأقام مدة هناك ذاق أثناءها طعم الراحة واتقضى من عوارض ما كان فيه من هياط ومياط . ولكن الأمر لم يطل به حتى عاد يذكر ماضى ملكه وعلياهه ويعن الى غابر حراره فتشور فيه الأشجان ويستشعر فؤاده الأحران . وفي هاتيك المدة لم يدع المكان وسيلة الا استعمالها لأجل صباهه عن دين آباهه وادخاله في النصرانية فأخفقت مساعيها وبقي بالهما مشغولاً من جهته اذ لم يزل وجوده هناك محلاً للخوف من انتقاض مساهمي الأندلس تحت رايته والتفافهم حوالبه ففي سنة ١٤٩٩ داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كاشة سراً في ابيغ أراضى مولاه بثنانية آلاف دوكان الذهب فتمت الصفقة وانعقد البيع بدون علم أبي عبد الله وبدون أن يعتنى فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكالة بل نقده المال ختمه البغال وسار الى البشرات فلما وصل بين يدي مولاه تزلزلت الدنياير أمامه قائلاً له :

« رأيت يامولاي أن بقاءك هنا معرض للخطر فان المغاربة أهل اقدام وثار وحمة أوتار ولا يبعد أن يشوروا مرة رافعين رايته وتعزى ثورتهم اليك فتقع في القيم المقعد . وما دمت في هذه البلاد يخطر في بالك أنك كنت أميرها على حين لا أمل في رجوع هذه الامارة لك . لذلك رأيت الأنجح في حقك بيع أراضيك وقبضت ثمنها وها هو لديك يمكنك أن تملك به أراضى واسعة جداً وراء البحر »

« فلما سمع أبو عبد الله هذه الكلمات استشاط غضباً واختلط سيقه وكاد يضرب به رأس وزيره فأسرع هذا إلى الفرار من حضرته وتقى أبو عبد الله وحده يتأمل في هذه المسألة ويقلب من وجوها فلم يلبث أن ذهب ما به وعاد إليه سكونه واستدل على أن هذه الصفقة لم تكن لتجرى لولا رغبة فرديناند في زياله من هناك وأن الحق قد يكون مع وزيره يوسف بن كاشة فأجمع الرحلة وشد حقائبه . وجمع أمواله وكنوزه وتحمل إلى أحد الثغور^(١) حيث شيعه كثيرون من قومه داعين له بالتسهيل^(٢) . فلما ركب السفين وغابت عن عينيه جبال غرناطة انهملت منها العبرات وتصاعدت من صدره الزفرات ونزل بمليلة ومنها سار إلى فاس نزياً على سلطانها متلهفاً على ماسلف . وفي بعض تواريخ الأفرنج أنه توفي قتيلاً في إحدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦ أي بعد ٤٤ حولاً من فراقه أسبانية ولذلك قال فيه أحد المؤرخين انه قتل في سبيل الدفاع عن مملكة سواه بعد أن جبن عن أن يقتل في الدفاع عن حوض مملكته »

وأما النصح فيقول في نهاية أمره ما يأتي :

« ثم احتال (أي الطاغية) في ارتحاله (أي أبي عبد الله) لبر العدو وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور فكتب لصاحب المرية : انه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدو ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له . فانصرف في الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر ونزل بمليلة واستوطن فاساً وكان قبل طلب الجواز لناحية مرا كس فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء و بلاء »

ويقول بعد ذلك : « والسلطان المذكور الذي اخنت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقضت بدولته مملكة الاسلام بالأندلس ومحيت رسومها ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم الانيقة وسلطان دولتهم على الحقيقة وهو المخالوع الوافد على الأصقاع

(١) وقد سردت بنفسى في سنة ١٩٣٠ بالمرسى الذي أقفل منه أبو عبد الله بن الأحمر من الأندلس

فاصدا المغرب

(٢) وقرأت أنه هاجر معه نحو من ألف لسة من مسلمى الأندلس

المرينية بفاس العائد منها للملكه في أرض الصنائع الرحانية العاطرة الأنفاس — وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب — ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان اسماعيل قائل سلطان النصرى دون بطرءه بمرج غرناطة ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الانصارى الخزرى رحيم الله تعالى جميعا . وانتهى السلطان المذكور بعد زواله بملية الى مدينة فاس باهله وأولاده معتزاً عما أسلفه متلهفاً على ما خلفه وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس رأيتها ودخلتها وتو في رحه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ودفن بازاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ولدين أحدهما اسمه يوسف والآخر أحمد . وعقب هذا السلطان الى الآن بفاس وعهدى بذريته بفاس الى الآن سنة ١٠٣٧ . يأخون من أوقاف الفقراء والمساكين ويعلمون من جملة الشحاذين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . انتهى

قلت : وقد قرأت في بعض كتب الافرنج انه كان للسلطان أبي عبد الله اخوة صغار من غير امه لبثوا في غرناطة بعد أخذ الاسبانيول اياها وتنصروا وتحولوا اسبانيولا ولكنى لم أطلع على خبر اسبانيول في الوقت الحاضر ينتسبون الى بنى الأجر . ولقد سمعت من الأخ الكريم الحاج عبد السلام بن العربى بنونه من عيون أعيان تطلون بل من عيون أعيان المغرب كله ان يبلدهم اسرة تنتسب الى بنى الأجر الى يومنا هذا . وقيل لى انه لا يزال منهم بفاس أيضاً

ثم انى أقول في ذيل « آخر بنى سراج » ما يلى :

« ولندكر حالة بقية مسلمى الاندلس بعد ذهاب ملكهم فنقول : ورد في تاريخ

« الاسلام فى اسبانية » تاليف « ستانلى لانبول » ما محصله :

« ان آخر أنفاس أبي عبد الله على تلك الربوة لم يكن باآخرحر أنفاس المسلمين فى

تلك الديار بل بداية أنفاس يرسلونها الصعداء وافتتح عهد انتقام وابتلاء وان اسقف غرناطة الأول « هرناندو دوتالافيره » كان رجلاً حليماً . عادلاً أحسن معاملة المغاربة وأبى الجور عليهم وتعلم العربى وكان يعلى به وعلى يده لرتد ألوف من المغاربة الى النصرانية قبل ان ثلاثة آلاف تنصروا فى يوم واحد . الا أن الكردينال « كسيميناس » الذى كان من القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة اعترف السبيل ومال الى العنف والاكره وأساء

معاملة المسلمين وحل الملكة ايزابلا على ما تبقى نقطة دهماً في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم واكراههم على التنصر فانار ذلك ساكنهم وأخرج كامنهم وفي احدى المرات حبست امرأة في البيازين لشأن من هذا القبيل فنار سكان البيازين وتحصنوا وجلوا السلاح وكادوا يفتكون بالجند وأوشك الدم أن يسيل بحمد الكردينال كسيميناس الا أن المطران هراندو الموصوف بالوداعة دخل روض البيازين بالسكينة والأنس مع نفر قليل من حاشيته بدون سلاح وسأل القوم عن شكاوهم وتقبلها منهم بالاستماع والاحتفال وهدأ روعهم واعاد طائر الأمن الى وكره وحجب السماء يومئذ . اما كسيميناس المشهور فلم يزل يغوى الملكة حتى أصدرت أمرها باكرام المسلمين على احدى الحطتين الجلاء أو النصرانية وذلك بانهم كانوا يذكرون المسلمين بانهم من سلالة النصارى في الأصل فاقفلت المساجد وأحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون وزبدة الحقب^(١) وأذيق المسلمون العذاب اشكلاً والواناً ففضل عامتهم فراق دينهم على فراق أوطانهم الا أن شعله من الحية الاسلامية بقيت تلعب في جبال البشرا حيث حتمهم أوعارهم من مضطهديهم

«وأول جيش أرسل اليهم كان تحت قيادة الدون «الوزودو اغيلار» البطل المشهور انهزم هزيمة شنعاء وذلك سنة ١٥٠١ وقتل الدون المذكور وقيل انه الدون الخامس المقتول من تلك العشرة في حرب المسلمين فازداد انتقام الاسبانيول من المغاربة بعد هذه الغلبة وهجم كونت «طنديله» على «قوجار» وهدم كونت «سرين» جامعاً على جماعة التجاؤا اليه من المسلمين بنسائهم وأطفالهم . وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال فن بقى حياً من التوارق الى مراكش ومصر والبلاد العثمانية وانهت الثورة الأولى في الجبال

«ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين في القلوب والمسلمون المنتصرون يعمدون أولادهم ظاهراً فاذا انصرف القيس مسحوا عن الولد ماء المعمودية واذا تزوج أحد الموريسك^(٢) اجرى القيس عقد الاكليل ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الاسلامية

(١) ذكر في بعض كتب الاسبانيول أنه أحرق في غرناطة في يوم واحد مليون مجلد وقيل بل مائة ألف مجلد وقرأت في بعض كتبهم أنهم أحرقوا كل الكتب الا التأليف المتعلقة بالطب والرياضيات
(٢) لقب المنتصرة من المغاربة

« وكانوا يتقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونونهم على اختطاف أولاد النصرى ويأتون غير ذلك من الأعمال انتقاماً فلو كانت ثمة حكومة عاقلة قوية ترعى عهدها لثي واثقت عليها عند تسليم غرناطة لم يكن محل لذلك البغض العميق ولكن حکام الاسبانيول لم يكونوا أهل عقل ولا أهل عدل وكانوا يزدادون بتأدي الأيام شرّاً ولم تلبث الأوامر ان صدرت باكره المسلمين على ترك ألبستهم الخاصة بهم ولبس البرنيطة والسراويلات الاسبانيوية وحظر عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداءً بغاليبيهم في احتمال الاقذار^(١) ثم منعهم من التكلم بالعربية وصدر الأمر بان لا يتكلموا بغير الاسبانيولي وبان يغيروا اسماءهم ويسيروا سيرة اسبانيوية ويسموا أنفسهم اسبانيولاً . وكان تصديق الامبراطور شريكان هذا الأمر الفظيخ في سنة ١٥٢٦ على انه لم يكن الظاهر منه اعتياده على اجرائه بالفعل لكن عماله اتخذوه ذريعة لاستنزاف أموال المومسين من الموريسك وصار ديوان التفقيش يحترف ويتجر بهذه المسئلة . ولما صار الأمر الى فيليب الثاني شدد في انفاذ الأوامر بحق الموريسك وسنة ١٥٦٧ عزز الأمر الصادر بشأن تغيير الزى واللغة باستيثاق غريب لأجل منع النظافة التي هي من سنن الاسلام وذلك بانه أخذ يهدم حمامات الحراء البديعة . فالطرق التي أخذوا بها لتكبير أحوال تلك الأمة البائسة كانت أشد من أن يتحملها أي قبيل دع سلائل المنصور وعبدالرحمن وابناء سراج ولذلك لم يطل الزمن حتى استطار الشر واشتعلت الفتنة ونار فرج بن فرج من نسل بني سراج بجماعة من ذوى الحية من غرناطة قاصداً الجبال قبل ان يسكنت الحامية من تعقيبهم ونودي « بهر ناندو دوفلور » من نسل خلفاء قرطبة ملكاً على أندلس تحت اسم محمد بن أمية وعمت الثورة في اسبوع واحد جميع جبال البشرات ووقع ذلك في ١٥٦٨ ولما كانت هذه الجبال من أصعب تضاريس الارض مرتقى واورعها مسلماً كان تدويخ سكانها من أصعب الأمور منالاً وكانت الفتنة فيها بعيدة المدى فاستمرت هذه المرة حولين كاملين حافلاً تاريخها بحوادث لاتحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاحتيال وذلك من الجانبين لامن جانب واحد لكنه حافل ايضاً بوقائع يسندر في تاريخ الفروسية وكتب الحاسة الظفر بامثالها وتبقى على صفحات السير نفراً للقرون والأمم . وكان

(١) كان من عادة الشعوب اللاتينية التفرغ من الطهارة والاستحمام وكانوا يبرزون السلم بقولهم « الذي يدخل الحمام » وكان الاسبانيول يهدمون الحمامات بالفرقة التي يهدمون بها الجوامع

المغاربة هناك في موطنهم الاخير والموقف الذي يحاولون فيه ادراك الثأر عن نحو من مائة سنة قضوها في البلاء العظيم والهون الذي ايس له نظير فهبوا جميعاً منادين باخذ الثأر واقتضاء الاوتار قرية بعد قرية وهدمو الكنائس واهانو اما فيها وفتكوا بالتسيبين وعذبوا النصارى الذين وقعوا في ايديهم واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والابرار ودافعوا دفاعاً شديداً . وكان مركز « مونتجارجة » قائداً في غرناطة فعمد الى المسألة واخذ بالملاينة وكادت الوقدة تنطفي لولا ما عاود الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء من المغاربة في حبس اليازيرين قيل ان ذبحهم وقع بغير علم المركز لكن الموريسك لم يقبلوا العنر ونشروا لواء الثورة وصار ابن امية اميراً بالفعل على جميع جهات البشريات الا انه لم يكن ممن يحسن السياسة فقام بعض اعوانه وقتلوه وبويع لرجل آخر موصوف بالنجدة والحاسة اسمه عبدالله بن أبوه

« فأرسلت دولة اسبانية لتدويج الثوار الون «جون الاوستري» أبا الملك وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر فباشر القتال في شتاء ١٥٦٩ الى ١٥٧٠ وأتى من الغنائم ما بلغت بانداده كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال امام عينيه وأحرق المساكن ودمر البلاد وكانت علامته « لاهوادة » واتهى الأمر باذعان الموريسك لكنه لم يطل واستأنف مولاي عبدالله بن أبوه الكرة فاحتال الأسبانيول حتى قتلاه غيلة وبقي رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة ثلاثين سنة . وأخس الاسبانيول في قمع الثورة بما أقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالسخان حتى أهلكوا من بقية العرب خلقاً كثيراً وخنع الذين نجوا من الموت لكنهم وقعوا في الرق وسيقوا بماليك وعبدانا ونفي منهم جملة فأخذ عددهم يتناقص . ولما كان اليوم المشهود والمذكور في التواريخ وهو عيد جميع القديسين سنة ١٥٧٠ بلغ عدد من ذهب منهم عشرين ألفاً والذين أخذوا منهم في معمة الفتنة صاروا الى الاستعباد وأخرج الباقون من البلاد مخفورين فمات كثير منهم على الطرق تعباً ومنهم من أجاز الى بر العدو وطافوا هناك سائلين لأجل قوتهم الضروري . ومنهم من لجأ الى بلاد فرنسة حيث استقبلوهم برّاً وترحيباً واحتاج اليهم هنرى الرابع لأجل دسائسه في مملكة أسبانيا^(١) ولم ينته اخراجهم تماماً الى سنة ١٦١٠ اذ وقع الجلاء

(١) الحقيقة ان هنرى الرابع أصدر أمراً بقبولهم في فرنسة لكن على شرط أن يتحولوا كاثوليكين وقد غدا الأمر وأجبر واعلى النصر الى أن طلب السلطان ابن عثمان اخراجهم من فرنسة الى بلاد الاسلام.

الأخبر ولم يبق في تلك البلاد مسلم واحد بعد أن وليها الإسلام ثمانية قرن . ويقال ان عدد من خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة غرناطة الى السنة العاشرة بعد الأب والسمائة يبلغ ثلاثة ملايين وان الذين خرجوا الآخر مرة يبلغ نصف مليون

«وأما الاسبانيول المساكين فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا فهموا أنهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة الذين اسبانية كانت بهم مركز المدينة ومبعث أشعة العلم قرونا . وقلما استفادت بقعة أوربية من حضارة الاسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد . فلما غلغرها الاسلام انكسفت شمسها وتسلط نجسها وان فضل مسلمي الاندلس ليظهر في هجبة هؤلاء القوم وتأخرهم في الحضارة وسقوط هذه الأمة في مكاتها الاجتماعية بعد ان خلت ديارها من الاسلام». انتهى كلام ستانلي لامبول ملخصا

وأستشهد في حاشية هذه الجملة بنقل لك درجة هذه الحقيقة وهو ان لملك حول مدينة غرناطة ضياعاً واسعاً ومزارع اضطروا الى بيعها سنة ١٥٩١ بسبب أنهم كانوا يخسرون عليها أكثر من غلتها مع ان هذه البقاع كانت لعهد العرب حدائق غناء وغياضاً ورافة الافياء وموارد ثروة ورخاء . ومن أراد أن يعرف ما كانت عليه تلك المزارع من الخصب والثناء في زمان العرب فاعلم ان يقرأ الاحاطة في أخبار غرناطة تأليف جوزير غرناطة الشهير لسان الدين بن الخطيب قال من جملة ما ذكر من وصف بساينها :

« وتحف صرورة هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى البسانين العريضة المستخلصة والأدواح الملتفة فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرائه . (الى أن يقول) :

فخرج أكثرهم وبقى منهم من اختار الإقامة بفرنسة مع الصراية ولا ظهر مذهب البروتستانت وكان منهم من اختار هذا المذهب وصدر أمر لوليس الرابع عشر بإخراج البروتستانت كما لا يخفى هاجر قسم من هؤلاء الى سويسرة وبينهم العالم العلامة الشهر «أبو زيد» Abouzyt الذي كان من أعلم علماء عصره في كل فن وكان صديقاً لثولثير وروسو ونيوطن ولاينيتر وكان ثولثير يقول عنه « صديقنا العربي » وطلالا كان ثولثير يستغني في عويس المسائل وكانت بينه وبين روسو مراسلات كثيرة جمعها أحدم في كتاب . وفي جنيف الآن شارع باسم ابوزيد تخليداً لذلك هذا العجزي العربي العظيم وكان أبو زيد من عائلة أطلباء عرية ساكنة في تولوز بجنوبي فرنسة

« فليس تعرف من جنباته عن الكروم والجنان جهة الامالا عبرة به مقدار غلوة أما ما حازره السفل من حومته فهي عظيمة الخطر متناهية القيم يضيق جسد من عدا أهل الملك عن الوفاء بأمانتها منها ما يغفل في السنة الواحدة نحو الألف من الذهب قد غصت منها الدكاكين بالخضر الناعمة والفواكه الطيبة والثمرة المدخرة يختص منها بمستخاص السلطان المدور طوقاً على ترائب بلده ما يناهز مائة منها الجنة المعروفة بعدان الميسة والجنة المعروفة بعدان عصام^(١) والجنة المعروفة بالعروى والجنة المنسوبة الى قداح بن سخوق والجنة المنسوبة لابن المؤذن والجنة المنسوبة لابن كامل وجنة النخلة العليا وجنة النخلة السفلى وجنة بن عمران والجنة التي الى نافع والجرف الذي يُنسب الى مقبل وجنة العرض وجنة الحفرة وجنة الجرف ومدرج نجد ومدرج السبك وجنة العريف^(٢) كلها لانظير لها في الحسن والريع وطيب التربة وغرقد السقيا والتفاف الأشجار واستجادة الأجناس الى ما يجاورها ويتخللها مما يختص بالأحباس الموقفة والجنان المتملكة وما يتصل بها بوادي سحل ما يقيد الطرف ويعجز الوصف قد مثلت منها على الأنهار المتدافعة العباب المنارة القباب واختمت من أشجار العاريات ذات العصير الثاني بهذا السقع ما قصرت عنه الأقطار الخ » اقتصرنا على هذه الجبل من وصف طويل

ولا شك أن جنان السلطان الموصوفة هذا الوصف كله والتي كانت تدر بالاموال والأرزاق أيام العرب هي التي آلت بعد فتح الاسبانيول لغرناطة الى ملك الاسبانيول وعادت لعهدهم لا تعطى من الغلة ما يفي بالنفقات اللازمة لها

وقال واشنطون ارثين في تاريخه الشهر لفتح غرناطة ما ملخصه :

« انه بعد دخول هذه البلدة في حوزة الاسبانيول بقيت الحال غير مستتبة تماما مدة سنوات الى أن وقع من اجتهاد رؤساء المذهب الكاثوليكي في حبل المسلمين هناك على

(١) الدنان بنتح اوله وتشديد ثانيه وقد يكسر اوله هو زمن الصوء وعهده وهو يقال لدور أصحاب المياه في سقيا البساتين وهذه اللفظة مستمدة في الشام بهذا المعنى وقد سرت الى الأندلس الذين اكثر عربيا كانوا شاميين

(٢) هذه التي يقول لها الافرنج Généralif

النصرانية^(١) ما أبأس مغاربة الجبال المتشددين في دينهم فثاروا برؤساء الدين الكاثوليكي وقبضوا على اثنين منهم وعرضوا عليهما الاسلام فامتنعا فقتلوهما . وقيل ان النساء والأولاد قتلوهما قصصاً بالعصى وشدخاً بالحجارة وأحرقوا جثثيهما فاتقم النصارى من هذه الفعلة بأن اجتمع منهم نحو من ثمانمائة فارس وساروا الى قرى المغاربة مخربون ويعيثون فاعتصم المغاربة بالجبال وانتشرت الفتنة في الجبال كلها لكن وسطها كان في جبل « برميجه » المصقب للبحر^(٢) فلما اتصل الخبر بالملك فرديناند أصدر أوامره بنقل المسلمين الساكنين في جهات الثورة الى قشتالة وأعطى الأمر سراً بأن من يدخل منهم في النصرانية يبقى في وطنه ثم رمى تلك الأمة بالقائد المشهور « الوزودواغيلار » ومعه جيش وهو الذى قضى معظم شبابه في قتال المغاربة فما اقترب من بلادهم حتى هرع جلة وافرة منهم الى رندة للدخول في النصرانية^(٣) وجرم الباقون منهم تحت قيادة فارس منهم اسمه الفهرى الى

(١) قد وقع في تاريخ الاسلام أن بعض ملوكه عززوا الاسلام وأجوا لفره بطرق سلبية ولكنه لم يقع ولا مرة أن المسلمين أكرهوا النصارى أو اليهود على قبول دينهم

(٢) لقد طفت يوم ذهابت الى اسبانية بهذه الجبال ورأيتها متدلخطة البحر مع علوها الشاهق وفهمت ما كان من السهولة على المسلمين من الثورة فيها والاتصال بالمسلمين الذين كانوا يجندونهم الفينة بعد الفينة من وراء البحر

(٣) عندما كنت في رندة سنة ١٩٣٠ وشاهدت آثار العرب الباقية فيها كالحمام والجسر والأبراج التي عند الباب وحنية المساء المجرورة اليها ولاسيا القصر الذي منه درج تحت الأرض منحوتة في الصخر تبلغ ٣٦٠ درجة نزولاً من القصر الى النهر وغير ذلك من الآثار قلت لما كنت هناك أحبيت أن أستلم عن منزل أبي البقاء صالح بن شريف الرندى فلم أقف له على أثر وقيل لي ان عمياً اسمه « لوزاو » هو أخير الناس بمخطوط رندة وله تأليف في تاريخها جاء وأطلنا على كثير من آثارها وأخبارها وسألته عما اذا كان معلوماً محل بيت صالح بن شريف الرندى الشاعر المشهور فاجاب بالنفي . ثم سأله عما اذا كان باقياً هناك عائلات عربية معروفة فقال انه كان في رندة أسرة عربية اسمها venega تحريف Benega انقرضت وانه كانت عائلة اسمها الزغري وانه بقرب رندة في تلك الجبال قرية اسمها venadali لعلها محرفة عن « بنى عدالي » أو ما أشبه ذلك معروف أن أصل أهلها عرب وقرية أخرى اسمها ben arrabat أو « بنى الرباط » وقرية أخرى اسمها ben alariah وهذه يرجح أنها محرفة عن « بنى رباح » وهؤلاء من أشهر قبائل العرب بالمغرب . وذكر لي اسم قرية اسمها Zara أظنها محرفة عن « صخرة » وقال لي انه توجد في قرية « خوريكة » أسماء عربية كثيرة

حيث يتعذر السلوك من تلك الأوغر رابطين شعب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول فتلاقى الجمعان أمام بلدة « مونارده » وانتشب القتال فيقال ان اللون « الوزو » مع ابنه اللون « بطره » وثلاثمائة من شجعانه صدقوا الحملة على المغاربة فأزاحوهم وتلاحقوا في الهزيمة فقتلهم الجند يضمون وينهبون ولما امتلأت أيديهم بالغانم كره عليهم الفهري بجماعة من أبطاله وعلت الصرخة فارتجت لها جوانب الأودية ودُعر الأسبانيول فتداعوا الى الفرار وثبت الوزو في مكانه يحرضهم ويضم من شئت شملهم فصر معه جماعة وولى الأكرتون ودخل الظلام وخيم النسق واشتد الخناق بالاسبانيول وجرح بطره بن الوزو فأمره أبوه بالرجوع فأصر على البقاء بجانب أبيه فأمر أتباعه بحمله الى معسكر كونت « أورينه » فاحتملوه مشحناً جراحاً ولبت اللون بمائتين من رجاله يناضلون الى أن فنوا عن آخرهم

« وتحصن اللون بين صخرين يتقى بهما فبصر به الفهري فقصده واستحرق الصراع وألح الفهري وطمع في قرنه وكانا متنازلين في ثبات الجنسان مع قوة الاضلاع وتوثق الخلق فصاح الوزو بخصمه : « لآتحسين نفسك وقعت على صيد هين فأنا اللون الوزو دواغيلار » فأجابه المغربي : « ان كنت أنت اللون الوزو فاعلم أني أنا الفهري » ثم كوره صريعاً ومات بموته مثال الفراسة الاسبانية وانمزوج الغشمشية في الأندلس . واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الاسبانيول ولم يتكفئوا حتى لاح الصباح فأجلى المعتزك عن قتل اللون « فرانسيسكو دوراميز » المجرى الذي كان قائد المدفعية الأكبر وكانت له المواقف المشكورة في حصار غرناطة لكن مصرع اللون الوزو دواغيلار أنسى الأحران جميعها . وعند وصول خبر هذه الفاجعة الى الملك زحف بالجيش الى جبال رندة فسكنت بحضوره النائرة واشترى بعض المغاربة ارواحهم فجازوا الى افريقية واحتسب آخرون بالنصرانية . وأما أهل البلد الذي قتل فيه فرسان الاسبانيول فسلكوا في سلسلة العبودية وبحت الملك عن جثة اللون فوجدها بين مائتي جثة فيها أجساد عدد من الأمراء والكبراء وحلت تجاليد اللون الوزو الى قرطبة في مشهد حافل بين مدامع كالسحاب الموطل ودفن في كنيسة مارهيويانو وندبه الاسبانيول دهرأ طويلاً . انتهى كلامه بجملاً

وذكر المؤرخ الشهير الفرنسي فيكتور دروي Victor Duruy في تاريخه ما يأتي ملخصاً :

« ان اسبانية تخلصت من العرب لسكنها بقيت حافظة عليهم احنة شديدة رُبَّتْها في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم في الحرب . وكان لذلك سكان الجزيرة اخلاطاً من مسلمين ونصارى ويهود فعول فرديناند على توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تعزيراً للدولة فأنشأ ديواناً جديداً للتفتيش وكان الملك هو الذي يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم . وكان هؤلاء في البداية من النصارى اليهوديين والمسلمين التنصرين ظاهراً الباقين باطناً امناء لمحمد ﷺ ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية كما شملت أهل البع الدينية . وسنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من اسبانية بعد أن سلبوهم أموالهم . وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الحادثة عدد من خرج منهم بثمانمائة ألف^(١) والقسم الأكبر منهم هلكوا وعذبوا بما لم يعذبه احد من العالمين وسنة ١٤٩٩ صدر الأمر بسلب المسلمين حريتهم الدينية التي تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفير ولم يتم خروجهم جميعاً حتى القرن التالي سنة ١٦٠٩ وهكذا فازت اسبانية بوحدها الدينية لكنها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كان العرب واليهود اهم عاملهما اه

وذكر مرة عند كلامه على شركان انه اكل مقصد فرديناند فآكره مبلى بلنسية على التنصر وأهل غرناطة على ترك زيهم والتكلم بغير لغتهم . وقال في عرض الكلام على فيليب الثاني انه اضهد المغاربة وضيق عليهم حتى اضطروا للثورة سنة ١٥٦٨ وأوقفوا نيرانهم على تلك الجبال ايداناً بالخروج وكان يمكنهم بما امسكوه من غنائق جبالهم الثبات طويلاً لو امتدت اليهم يد معونة من اخوانهم في افريقية . ففرق فيليب شملهم وبددهم في مقاطعاته ولم تمض سنون عشر حتى صاروا كلهم ارقاء

(١) منهم جماعة وافرة في أزمير وأفوام في الاسنانية وسلانيك هاجروا اليها في تلك الكتامة ومنذ خمس سنوات — وقد صارت المدة الآن ٣٥ سنة أى انها كانت خمس سنوات يوم طبعنا تأليفنا آخر بنى سراج معذبه في تاريخ الأندلس الطبعة الأولى — احتفلوا بعيد مضي الأربعمائة سنة على دخولهم بلاد النوبة الثانية أكثرها فيه من الدماء لسلطنة آل عثمان التي هي كهف الطارودين

ثم لندكر بحسب عادتنا في المقابلة بين تواريخ الافرنج وتواريخ العرب كلام المقرئ عن هذه الوقائع الأخيرة مع بعض تصرف . قال : « ثم ان النصارى نكثوا العهود ونقضوا الشروط عروة عروة الى ان آل الحال لهم المسلمین على التنصّر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم انهم قالوا ان القسيسين كتبوا على جميع من كان اسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً الى النصرانية ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا قوة لهم . ثم تعدوا الى امر آخر وهو ان يقولوا للمسلم ان جديك كان نصرانياً فأسلم فترجع انت نصرانياً . ولما خش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوه وهذا كان السبب للتنصّر : قالوا ان الحكم خرج من السلطان ان من قام على الحاكم فليس الا الموت الا ان يتنصّر . وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة . وامتنع قوم من التنصّر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى واما كن كذلك منها بلقيق واندرش^(١) وغيرها فجمع لهم العدو الجوع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً الا ما كان من جبل بلنقة فان الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة^(٢) وأخرجوا على الامان الى فاس بعيالهم وماخف من أموالهم دون النسائر . ثم بعد هذا كان من أظهر التنصّر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلى فشد عليهم النصارى في البحث حتى انهم احرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوه من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد . وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقبض الله تعالى لهم ناصرأ الى ان كان اخراج النصارى اياهم بهذا العصر القريب عام سبعة عشر والاب نفرجت الوف بقاس والوف آخر بتلسان من وهران وجهورهم خرج بتونس فسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا اموالهم وهذا ببلاد تلسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة

«وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكرياً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ماهو مشهور الآن وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات وهم الآن بهذا الحال ووصل منهم جماعة الى القسطنطينية

(١) هي البلدة التي ذهب اليها أبو عبادة بعد أن أخذت منه غرناطة

(٢) هو الوترودو اغيلار

العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام وهم لهذا العهد على ما وصف والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » انتهى ثم قلت فى ذيل آخر بنى سراج :

« ثم ان الأندلسيين المطرودين النازلين بىر العدة اتقموا من الاسبانيول ومن طوائف الفرنج عما أذاقوهم اياه من العذاب وذلك بجهاد البحر الذى اشار اليه المقرئ حيث انهم انتظموا فى سلك بحرية الجزائر وغيرها من بلاد المغرب ايام كان اهلها يلقبون بملوك البحر وكانت دول أوربة بأسرها تدفع لهم الجزية وتواصل الى والى الجزائر الهدايا دفعاً لغائلة السفن المغربية فكان من قطع المغاربة خصوصاً الأندلسيين منهم السبل البحرية على بحارة الاسبانيول وغيرهم من السبي والاسر والعيث على شواطئ أوربة لاسيما اسبانية ما ألف له الاوربيون تواريخ خاصة به وهو يدل على استحكام الاحن فى صدورهم . وفى الواقع لا ترى عداوة طال امرها وتوقفت جرها كالعداوة التى بين المغاربة والاسبانيول

« وقد اتفق الكتاب على ان الاندلسيين الجالين عن بلادهم الى بر العدة احتملوا معهم على أيديهم صناعة الأندلس وفى صدورهم هم اهلها ونقلوا ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة الى حيث القوا عصا تسيارهم . فاجتنت عنهم فنون وشاعت بواسطتهم صنائع وانتشرت بسببهم فوائد وكانوا مع رثانة حالمهم وتشريدهم من بلادهم صفر الايدى الامن زهد المتاع يمثلون حيثما حلوا قطعة من الأندلس ولا يزال على بيناتهم وأنواع معاشهم وسائر شؤونهم وما آخذهم مسحة اندلسية تمتاز بالذوق وتدل على الاصاله فى التمدن حتى ان الكاتب الافرنسى « فيليكس دوبوا » الذى ساح فى أواسط افريقية فى العام المنصرم (أى سنة ١٨٩٦) عثر على قبيل فى جوار تنبكتو يقال لهم الاندولوز حقق بما أخضه من اخبار اصول تلك القبائل انهم من جالية الأندلس كما يدل عليه اسمهم . وذكر انهم مع فقرهم تجدهم اسمى ذوقاً وأعلى طبقة فى المدينة من القبائل المجاورة لهم وان لهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة والنقش وغير ذلك والظاهر انهم مترامون الى السودان عن مرا كس وسبحان من بيده تصاريح الأمور . انتهى ماقلته فى ذيل آخر بنى سراج

ثم نفود الى موضوع تحويل الاسبانيول لعرب الأندلس من الاسلام الى النصرانية فنقول ان أهم ما عثرنا عليه فى هذا الباب وأدق هو ما جاء فى كتاب « الأنوار النبوية فى

آباء خير البرية « للعالم النسابة سيدى محمد بن عبد الرفيح الأندلسى المتوفى فى رجب عام اثنين وخسين وألف (١) وهو كتاب خطى عزيز الوجود نقل عنه العالم المؤرخ الشيخ أبو عبد الله محمد أبو جندار فصلاً بتمامه جليل الخطر فى هذا الموضوع وذلك فى كتابه « مقامة الفتح من تاريخ رباط الفتح » رعباً لكون جل انساب أهل الرباط اندلسية وأن البيونات النبيلة فيها كلها أوجها من بقايا جالية الأندلس واليك ما يقوله محمد بن عبد الرفيح :

« قد كثر الانكار علينا معشر أشرف أهل الأندلس من كثيرين من اخواننا فى الله بهذه الديار الافريقية من التونيين وغيرهم حفظهم الله تعالى بقولهم : من أين لهم الشرف وقد كانوا ببلد الكفار دمرهم الله ولم يثون من السنين كذا وكذا ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الاسلام وقد اختلطوا مع النصارى بعدهم الله . الى غير ذلك من الكلام الذى لانظيل به ولا أذكره هنا صوتاً لمرضهم ولحجى فيهم فأقول وبالله التوفيق وهو الهادى الى أقوم طريق : مع انى صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالاسلام وأهله بجاه النبي المختار ﷺ فقد أطلعنى الله على دين الاسلام بواسطة والدى رحمة الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل مع انى كنت اذ ذلك أروح الى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ثم أرجع الى بيتى فيعلمنى والدى دين الاسلام فكنت أنعم فيهما معاً وسنى حين جلت الى مكتبهم أربعة أعوام . فأخذ والدى لوحاً من عود الجوز كأتى أنظر الآن اليه ملمساً من غير طفتل ولا غيره فكتب لى فيه حروف الهجاء وهو يأتى حرفاً حرفاً عن حروف النصارى تدريباً وتقريباً فاذا سميت له حرفاً أعجمياً كتب لى حرفاً عربياً فيقول لى هكذا حروفنا حتى استوفى لى جميع حروف الهجاء فى كرتين . فلما فرغ من الكرة الأولى أوصانى أن أكتب ذلك حتى عن والدى وعمى وأخى وجيع قربنا وأمرنى أن لا أخبر أحداً من الخلق ثم شدد على الوصية وصار يرسل والدى الى قسطنطين ما الذى يملكك والدى فأقول لها : لاشئ . فتقول : اخبرنى بذلك ولا تخف لأنى عندى الخبر بما يملكك : فأقول لها : أبداً ما هو يعلمنى شيئاً . وكذلك كان يفضل عمى وأنا أنكر أشد الانكار . ثم أروح الى مكتب النصارى وآتى الدار فيعلمنى والدى الى أن مضت مدة فأرسل الى من اخوانه فى الله الأصفاء فلم أفر لأحد قط بشئ مع أنه رحمة الله تعالى قد أتى نفسه

(١) أى بعد الهلاء الاخير عن الاندلس بخمس وثلاثين سنة

للهلاك لا يمكن أن أخبر بذلك عنه فيحرق لا محالة . لكن أيدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده وأعاتنا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدين» اهـ

قلت فهنا من هنا أن هؤلاء الجماعة كانوا أجبروا على النصرانية طرأً وانما كانوا باقين في الغالب على الاسلام سراً وكانوا مضطرين أن يرسلوا أطفالهم حتى من سن أربع سنوات الى مكاتب النصارى ولم يكن يباح لهم أن يعلموا أولادهم شيئاً عن الاسلام ومن كان يقدم على ذلك وكانت الحكومة تعلم به كان يحرق بالنار . وبرغم هذا كله كان بعضهم حريصاً على تعليم أولاده عقيدته الاسلامية ولغته العربية فكان يعلمهم ذلك مع أشد الاحتياط والامتنان خشية أن السلطة تأخذ سر الأمر من الأولاد فتحرق أولئك الوالدين بالنار كما هو قرار ديوان التفتيش الكاثوليكي . ولكننا لا نظن ان عدد الوالدين الذين كانوا يعلمون أولادهم الاسلام والعربية سراً كان كبيراً وذلك لأن كثيراً من العوام كانوا اميين لا يعرفون الكتاب فلا يمكنهم التعليم ثم لأن كثيراً من المسلمين كانوا يخشون أن تطلع السلطة على السربواسطة الأولاد فيقعوا في الهلاك . ولذلك كانوا يجتنبون بدون شك التعرض لهذه الهلكة . وقد نشأ أولادهم في النصرانية باطنياً ظاهراً وهم لا يعلمون أن آباءهم كانوا مسلمين وان قلوبهم كانت مطمئنة بالايان وذلك نظراً لشدة كتمان الوالدين وخنفرهم اطلاع السلطة على حقيقة حالتهم ولكون شعائر الاسلام كانت كلها ملغاة وكان هؤلاء المسلمون المحمولون على النصرانية كرهاً والذين يقال لهم الموريسك مضطرين اذا ولد لهم ولد أن يستدعوا القسيس ليعمده واذا تزوج منهم متزوج أن يستدعوه لعقد الاكليل واذا مات منهم ميت أن يستدعوه للصلاة على الجنازة وكانوا جميعاً يلتزمون الذهب الى الكنيسة نهار الأحد فعلى هذه الحالة نشأ أولادهم في النصرانية وكان من الاسبانيول اليوم ملايين أصلهم من المسلمين بهذا السبب . ثم يقول :

« وقد كان والدى رحمه الله تعالى يعلمنى حينئذ ما كنت أقوله عند رؤيتى للاصنام وذلك أنه قال لى : اذا أتيت الى كنائسهم ورأيت الاصنام فاقراً فى نفسك سراً قوله تعالى : «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون» الى آخرها وغير ذلك من الآيات الكريمة وقوله تعالى :

وبكفرهم وقولهم على مرهم بهتاناً عظيماً وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه وانكمن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لني شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً . فلما تحقق والدى رحمه الله تعالى اني أكنتم أمور دين الاسلام عن الأقارب فضلاً عن الاجانب أجزئني أن أنكلم بأفشائه لوالدتي وعمي وبعض أصحابه الاصدقاء فقط . وكانوا يأتون الي يتنا فيتحدثون في أمر الدين وانا أسمع فلما رأى حزبي مع صغرسني فرح غاية الفرح وعرفني بأصدقائه وأحبائه واخوانه في دين الاسلام فاجتمعت بهم واحداً واحداً هـ

قلت ان الاسلام في الأندلس حسبما يظهر من هذا الوصف كان أصبح شبيهاً بجمعية سرية نكتم أمرها أشد الكتمان ولا يقدر الواحد من المسلمين أن يبوح بإسلامه الا لمن يكون قد ابتلى أمانته وامتنحن صدقه فكانوا يجتمعون سراً اذا كان بعضهم وانفا ببعض وينكلمون في أمر الدين في أشد الخفية . ثم يقول :

« وسافرت الاسفار لأجتمع بالمسلمين الاخيار من جيان مدينة ابن مالك (١) الى غرناطة والى قرطبة واشبيلية وطليلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء أعادها الله تعالى للإسلام فتلخص لي من معرفتهم أني ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يحدوثني بأمر عرناطة وما كان بها في الاسلام حينئذٍ وبما أقوله بعد وقلته قبل فسندى عال لكونه ماتم الا بواسطة واحدة بيني وبين الاسلام بها » هـ

ان من عرف كون ابن عبد الرفيح توفي عام ١٠٥٢ لا يخفى عنه أنه كان شاباً في أول سني الالف للهجرة أي منذ نيف وثلثمائة سنة . ويظهر له أنه منذ نيف وثلثمائة سنة كان في جيان وغرناطة واشبيلية وقرطبة أناس يدينون بالاسلام سراً وهم في الظاهر نصارى . وأعرب من هذا وجود مثل هؤلاء في طليطة المصافية لمجريط والتي كان مضى على استرجاع الاسبانيول لها يوم زارها ابن عبد الرفيح أكثر من خمسمائة سنة . أي انه بقي أناس مسلمون في الباطن في طليطة من بعد أن زال عنها حكم الاسلام بخمسمائة عام . ولقد علمت من كتب الاوربيين أن اللغة العربية بقيت هي لغة الثقافة عند الاسبانيول ولغة المعاملات والأخذ والعطاء وبها تكتب الصكوك والعقود الى سنة ١٥٨٠ أي الى العهد الذي

(١) محمد بن مالك الطائي الجياني صاحب الالية

كان فيه ابن عبد الرقيق الأندلسي شاباً فعند ذلك صدر الأمر من الدولة الإسبانية بمنع الكتابة والكلام بالعربي . ولقد سمعت ما هو أغرب من هذا وهو أنه بقيت قرى الى أوائل القرن التاسع عشر في نواحي بلنسية يتكلم أهلها بالعربي . أما تحجب النساء في بعض قرى بلنسية وفي بعض قرى الجنوب مثل طريف فباقر الى يومنا هذا . هذا ولدى مجموع وثائق كبير عدة أجزاء طبعه « انجل عوزاز بلنسية » من أساتيد الآداب في جامعة مجريط اسمه « المستعربون في طليطلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر »

Los mozarabes de Toledo en los siglos XII y XIII

وهو يتضمن صكوك بيع وشراء نقلت عن خطها العربي الأصلي بالزنكوغرافيا وجعلت

بإزائها ترجمتها بالإسبانيولى

نذكر مثلاً من هذه الصكوك وهو هذا :

« اشترى ربي بو اسحق بن نحيمش اليهودى من جبلة بنت فرج زوج البليوشى البنأ جميع خصها وهو النصف من الكرم المعروف بالقوجوال بحومة قرية جلنكش من قرى مدينة طليطلة وعلى الاشاعة فيه مع من يشركها بسايره وحده فى القبله الطريق وفى الجوف جبل لابن برطال وفى الشرق كرم ابن فرنجيل وفى الغرب الطريق وفيه بابه بثمان عدنه ثلاث مائة مثقال من الصروف الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ بما فيه عشر درهما بمثقال على سنة المسلمين فى ... (هنا كلمة لم تمكن قرائتها) بيوعهم فى رمضان المعظم عام خمسة وتسعين وأربعمائة (١) وعن أشهده على بن البليوشى بأجلزته وامضاته له واقاراره الألاحق له فى شئ من المبيع المذكور وبوجه من الوجوه ولاسبب من الأسباب وانه كان لوالدته جبلة الى أن باعته حيث وصف . ابراهيم على بن سعيد بن أبو الفتح اللحنى ، و ابراهيم بن وهب بن أبى .. و ... بن يوسف بن الربابى . ومحمد بن أحمد بن سعد ... وعبد الرحمن بن أحمد بن عفيف الفهرى . وأحمد بن محمد ... ومحمد بن عبد الله بن مظاهر الانصرى . وأحمد بن يوسف الانصرى و ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ... وسلعة بن يوسف الانصرى ويحيى بن عبد الله ... العافقى واليك مثلاً آخر :

« اشترى عبيد الله بن أسد من خلف بن عبد الله جميع الكرم الذى له فى أول منزل

(١) أى بعد سقوط طليطلة بيد الإسبان بمصرين سنة

رزين حده في القبلة نهر تاجه وفي الجوف كرم يشته الحريري وفي الشرق كرم لأبي خالد
وفي الغرب غروست السلطان أيده الله بثمان عدته ستون ديناراً من السبريزات الجارية
بطليطلة حين هذا التاريخ ، وفي شهر نونبر الكاين في سنة ثلاثين ومائة وألف من
تاريخ الصفر

«وما وجب الحاقه الى المدخل للكروم الموصوف فوق هذا على باب الكروم الذي
لدرريقه قيس السلطان . . الذي هو من ليون والباب المذكور مشترك بينهما اذ كان
الكرم في القرع واحد وعلى ذلك كله يقع الاشهاد

«عبد الرحمن بن زكريا . يوان بن خلف شاهد . سلم بن زكريا وكتب عنه . سليمان
ابن عمر شاهد وكتب عنه . وعلى بن الحرير . عبد العزيز بن خير . ولبر فيم . . . وعبدالله
ابتوال . وسليمان بن الجمال . اليان بن سعيد . وعبد الملك بن عبد الملك وكتب عنه وعليه
شهد عندي . وبخط عجمي جليانث بيطرس تشتا . وبخط عجمي سيكاه بن مشارك شاهد
وعلى كل اسم من العجمي معلم شهد عندي وبالعرابي خالد بن اصتر»
واليك مثلاً ثالثاً :

«اشترى خير بن ركوى من يحيى بن عبد السلام جميع الدار التي له بحومة رحبة
القشالي حد الدار في الشرق دار خلف بن جواد وفي الغرب دار جلبرت الفرنجى وفي القبلة
دار أبي الحسن بن زكري وفي الجوف دار مفرج بن عثمان بثمان عدته أربعون ديناراً
من الدنيرات الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ في شهر ابريل الكاين في سنة واحد
وثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر

«وشهود الأصل فيه وفرج بن عبد الله . ومسعود زرقون شهد وكتب . عبد الرحمن
ابن يحيى شاهد على ذلك . وعيسى بن الحسن شاهد وكتب عنه بأمره . وعيشون بن يحيى
شاهد . هذيل بن حكم شاهد وكتب . زكري بن عثمان شاهد وكتب عنه . وبالاعجمي
يشتنش فليش بطره تشتنش صحت هذه النسخة (الخ) في العشر الأوسط من شهر شتنبر
سنة ثلاثين ومائتين وألف للصفر . يوان بن يليان السقلى شهد . ويوانش بن مقابيل بن
عبد العزيز المشنارى . وباطره بن عمر بن غالب بن القلاس»

وهذه المجموعة تشتمل على ١١٥١ صكاً يفهم الناظر منها أن التعامل كان في طليطلة

بعد استيلاء الاسبان عليها^(١) لا يزال باللغة العربية وأن أكثر أهلها كانوا عرباً أو مستعربين وأن نزرأ منهم كانوا غير مستعربين وكانوا لا يعرفون أن يوقعوا أسماءهم بالعربي فكان يكتب أنهم وقعوا « بالعجمي » وبما يدل على أن العروبة قد كانت هي السائدة انه ان كان ثمة شاهد أو بائع أو مشتر افرنجي جرى تعريفه بلفظة « الافرنجي » ويرى الناظر في هذه المجموعة أن أناساً أسماؤهم مسيحية وأسماء آبائهم أو أجدادهم اسلامية مما يدل على كونهم تنصروا . ثم انه كان الطقس الكنسي في طليطلة بالعربي rite mozarabe وكان يختلف عن الطقس اللاتيني في ثلاث عشرة نقطة .

واند اطلعت في جزيرة ميورقة على صك مقاسمة الاسبانيول لأملاكها وأراضيها بعد أن استولوا عليها سنة ٦٢٨ وهو محرر بالعربي أيضاً مع أنه صك تقاسم بين جماعة لسانهم غير اللسان العربي . وهذا الصك محفوظ في خزانة البلدية في « بالمنا » على أنه لا يستغرب كل هذا أيام كان العهد بالعرب والعربية حديثاً . ولكن اللسان العربي بقى لسان أهل طليطلة الى سنة ١٥٨٠ وفي ذلك العهد كان يذهب اليها ابن عبد الرفيح فيجد اخواناً له باقين على الاسلام في الخفية . وقيل لى ان أحد المغاربة وقع في هذه الأيام الأخيرة ببعض قرى طليطلة فوجدهم يذبحون الأكباش يوم عيد النحر عندنا ويقولون انها عادة تولدوها عن آبائهم

ثم نعود الى كلام ابن عبد الرفيح الأندلسي فهو يقول :

« فباجتماعي بهم حصل لى خير كثير ونله المنه وقد قرأوا كلهم رحمهم الله على شيخ من مشايخ غرناطة أعادها الله للاسلام يقال له الفقيه اللوطورى رحه الله تعالى ونفعنا به فانه كان رجلاً صالحاً وياً بتفاضلاً زاهداً ورعاً عارفاً سالكاً ذا مناقب ظاهرة مشهورة وكرامات زاهرة مأثورة قد قرأ القرآن الكريم في مكتب الاسلام بغرناطة قبل استيلاء العدو عليها وهو ابن ثمانية أعوام وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلاء حسب الامكان لأن الوقت ضاق في السر والاعلان لشدة القتال والحصر الذى كان عليهم مع صفر سنه . ثم بعد مدة يسيرة انتزعت غرناطة من أيدي المسلمين أجدادنا وقد أذن العدو فى ركوب البحر والخروج منها لمن أراده وبيع ما عنده واتيانه لهذه الديار الاسلامية أبقاها الله تعالى عامرةً بالاسلام الى

يوم الدين وذلك في مدة ثلاثة أعوام . ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل بعد شروط
اشترطوها والزامات كتبها عدو الدين على أهل الاسلام . فلما تحركوا لذلك أجدادنا وعزموا
على ترك ديارهم وأموالهم ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم وجزا الى هذه الديار
التونسية والحضرة الخضراء بفتة من جاء اليها حينئذٍ ودخلوا في زقاق الأندلس المعروف
بهذا الاسم وذلك سنة اثنتين وتسعمائة وكذلك للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها
ورأى العدو العزم فيهم لذلك نقض العهد فردّهم رغم أنوفهم من سواحل البحر الى
ديارهم ومنعهم فهرا عن الخروج واللحوق باخوانهم وقرابتهم لديار الاسلام . وقد كان
العدو يظهر شيئاً ويفعل بهم آخر مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مراراً ملوك الاسلام
كللك فاس ومصر حينئذٍ فلم يقع من أحدهما الا بعض مراسلات ليقتضى الله أمراً كان
مفعولاً اه

قلت الذي يظهر من خبر الشيخ الصالح اللوطوري رحمه الله أنه نشأ وشب تحت حكم
الاسبانيول لكنه كان يعلم فرائض الاسلام سراً بقدر طاقته بعد أن أتى الاسبانيول
شعائر الاسلام من كل الأندلس وانه هو الذي أقرأ الأشخاص السبعة الذين ميزهم ابن
عبد الرقيق ممن كان يجتمع بهم ويتحدث معهم في النجوى بأمر الاسلام . وأما مسألة ان
العدو للمسلمين بالرحيل ثم منعه اياهم بعد الاذن فقد جاء هذا في التواريخ وربما كان العدو
توجس خيفة أنه ان خلت الأندلس من المسلمين وصاروا كلهم في بر العدو انقضوا على
السواحل الاسبانية وأزلوا بها المصائب أخذاً بالثأر هذا فضلا عن أن خروجهم جميعاً يخسر
الأندلس من جهة المال والجبايات ويخرب البلاد . ثم انه كان في نية فرديناند وايزابلا
اكرامهم جميعاً على ترك الاسلام فلم يكن الاسبانيول بعد هذا يخشون بقاء أناس على
الاسلام في اسبانية . وأما استنجد الأندلسيين بملوك الاسلام وعدم اجابتهم الا بالكلام فان
هذه النازلة وقعت في عصر كانت فيه دول العرب بانحطاط لا تكاد تسد الفتوق التي عندها
في داخل بلادها فضلا عن أن تسد الثغور البعيدة . وأما دولة الترك فكانت لا تزال قوية
الا أنها كانت في الجهاد الدائم مع الدول الأوربية كما لا يخفى فلم يكن من السهل عليها
التفرغ لأمر الأندلس . ورغم هذا قد ثبت أن خير الدين بربروس وغيره من ولاة الجزائر
طلما أرسلوا نجادات بالمال والرجال الى مسلمي جبال البشراة المشرقة على البحر .

ثم قال :

« ثم بقي العدو يَحْتال بالكفر عليهم غصباً فابتدأ يزيل لهم اللباس الاسلامي والجماعات والجمالت والمعاملات الاسلامية شيئاً فشيئاً مع شدة امتناعهم والقيام عليه مراراً وقتالهم اياه الى أن قضى الله سبحانه ما قد سبق في علمه فبقينا بين أظهرهم وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه أمانة الاسلام ويعذبه بأنواع العذاب فكم أحرقوا وكم عذبوا وكم نفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم فانا لله وانا اليه راجعون حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه وتعالى وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وألف لهجرته **ع** اهـ »

قلت من أدل الدلائل على وجوب تمسك المسلمين بأزيائهم ومشخصاتهم القومية وعدم استخفافهم بهذا الأمر ان أعداءهم عندما يحاولون اخراجهم من الاسلام يبدأون بجبارهم على تغيير أزيائهم وأوضاعهم التي نشأوا عليها . وذلك كما فعل الاسبانيول من اكراه مسلمي الأندلس على نبد اللباس الاسلامي وترك الذهاب الى الجماعات وما أشبه ذلك فالعمل الذي عملته حكومة أنقرة بمسلي تركيا في هذا العصر من اكراههم على لبس البرنيطة ودق عنق من لم يلبسها أو من اتقد لبسها ان هو الا مرحلة من مراحل خروج المسلمين الأتراك من الدين الاسلامي وعمل مشابه لما فعله الطاغيتان فرديناند وايزابلا بمسلي الأندلس بين يدي حملهم على النصرانية . نعم ان اللباس لا يتعلق بالدين والدين لا يتعلق باللباس ولكن لكل أمة مشخصات قومية ظاهرة ذات تأثير كبير في أحوالها الروحية الباطنة ومن ينكر ذلك يكن مكابراً ، ولو لا هذا التأثير ما كان الاسبانيول لتسهيل خروج مسلمي الأندلس من الاسلام بادروا بجبارهم على تغيير ملابسهم وعاداتهم وإيم الله لولا متانة الأمة التركية وشدة اعتصامها بحبل الاسلام لكان تأثير الأوضاع الجديدة التي حملتها عليها أنقرة عميقاً جداً ولا أزال أقول انه ان استمرت هذه الحالة مدة طويلة في تركيا كان على اسلام الترك خطر عظيم لا سبها بعد الغاء أنقرة كل تعليم ديني اسلامي من مكاتب الحكومة .

ثم قال :

« فخرج بعض أحبائنا واخواننا وهو الفقيه الاجل المدرس الشريف لامة أبو العباس أحد الخنفي المعروف بعبد العزيز القرشي ومعه أحد احواله رحمه الله تعالى الى

مدينة بلغراد من عائلة القسطنطينية العظمى فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد ابن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم فأخبراه بما حل باخواننا الأندلسيين من الشدة بفراصة وغيرها فكتب أمراً لصاحب فراصة دمرها الله بأعلام السلطان نصره الله بأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين الأندلسيين وخدام آل عثمان ويوجههم اليه في سفن من عنده معاً يحتاجون اليه »

قلت طالما ذكر المبعوضون للدولة العثمانية تقصيرها في نجدة مسلمي الأندلس الذين حل بهم كل ماحل وانزعت من أيديهم مملكة غرناطة أيام كانت هي في عزها وعنجبية أمرها. وأنا لأبرئ الدولة العثمانية من تبعه هذا التقصير واقول انها برغم ما كانت عليه من الحروب في البلقان ومن مجاهداتها يومئذٍ للامان والمجر والبولونيين والبنادقة وغيرهم كان في استطاعتها أن تجرد جيشاً ينزل في سواحل غرناطة ويفرج عمن هناك من المسلمين ولكن قدر الله أن لا تفعل ذلك وكان أمر الله قدراً مقدوراً ولكن بما لا يجوز انكاره أن أترك الجزائر سواء لعهد بربروس أو من بعده كانوا لا يفتأون ينجبون ثوار المسلمين في جبال البشيرات المتدلية الى البحر

ثم يقول :

« فلما قرئ الأمر السلطاني في ديوان الفرنسيين فسمعه من كان عنده مرسلًا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء وهو اللعين فيليب الثالث فأرسل لسيدته وهو يخبره بالواقع . وأن السلطان أحمد نجل آل عثمان أرسل أمره الى فرانسوا وأمر صاحبها بأن يخرج من كان عنده من الأندلس فقبل كلامه وأمر باخراج المسلمين وأذن لمن جاء من الأندلس بان لا بأس عليهم وان يركبوا عنده في سواحله مراكبه ويبلغهم الى حيث شاءوا من بلاد المسلمين » اهـ

قلت ان السلطان أحمد نجل آل عثمان الذي ذكره ابن عبد الرزاق الأندلسي هو السلطان أحمد الأول ابن السلطان محمد الثالث العثماني وهو السلطان الرابع عشر من سلسلة آل عثمان ولد سنة ٩٩٨ للهجرة (١٥٨٩) وتولى السلطنة وهو ابن أربع عشرة سنة وبقى فيها ١٤ سنة اذ توفي في ٢٢ نوفمبر سنة ١٦١٧ وهو ابن ٢٨ سنة لا غير . وله في استانبول جامع السلطان أحمد العظيم وسبيل الماء الذي في الطوبخانه .

« وفي أيامه عصى أهل البغدان وقمع نورتهم ونشبت الحرب مع العجم وعقد معهم الصلح وتقلب اسطوله على اسطول فرسان مالطة وذلك في بحر قبرص ودمره وكان مراد باشا صدرأ أعظم في أيامه فاضع الثوار الذين كانوا تصوا الدولة وهو الذي بواسطته أصدر السلطان أحد أمره بانقاذ الأندلسيين . وأما ملك فرانسة الذي في أيامه التجأ الى فرانسة الموريسك (أى مسلمو الأندلس) الذين أكرهوا على التنصر فهو هنرى الرابع المتوفى سنة ١٦١٢ وكان هذا الملك قد قبلهم في بلاده على شرط أن يقبلوا الدين الكاثوليكي . فلما أرسل اليه السلطان أحد العثماني باركابهم البحر الى بلاد الاسلام لم يسعه الا الاجابة وأركبهم البحر الى البلاد التي أرادوها من بلاد الاسلام و بقيت منهم بقايا في فرانسة اندمجوا في أهلها . ثم يقول .

« فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب اسبانية دخله الرعب والخوف الشديد وأمر حينئذ بجمع أكبر القسيسين والرهبان والبطارقة وطلب منهم الرأى وما يكون عليه العمل في شأن المسلمين الذين هم في بلاده كافة فبدأ الشأن في أهل بلنسية فأخذوا الرأى وأجمعوا كلهم على اخراج المسلمين كافة من مملكته وأعطاهم السفن وكتب أوامر وشروطاً في شأنهم وفي كيفية اخراجهم وشدد على عماله بالوصية والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس . نعم أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها وترجتها من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله في أوامره التي كتبها في شأن اخواننا الأندلسيين حين اخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرة من أمرهم وتعلم بعض الاسباب التي أخرجوا من أجلها على التحقيق لا كما يزعم بعض الحاسدين وليؤيد ذلك ما قدمناه آنفاً من أمر السلطان أحد المنصور بالله نجل آل عثمان نصرهم الله آمين ونكمل القائدة ولثلاث يساء الظن بنا معشر الأندلسيين فأقول وبالله التوفيق : قال الملك الكافر أبعده الله تعالى ووزله آمين : « لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لاجراج من يكثر المعاش على كافة الرعية النصرانية في مملكتها التي تعيش عيشاً رغداً صالحاً والتجربة أظهرت لنا عياناً أن الاندلسيين الذين هم متواسون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا وقتلهم أكبر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم لحومهم وتمزيقهم أعضاءهم وتعذيبهم إياهم بأنواع العذاب الذي لم يسمع فيما تقدم مثله مع عدم توبتهم مما

فعلوه وعدم رجوعهم رجوعاً صالحاً عن قلوبهم لدين النصرانية وانه لم ينفع فيهم وصايانا ورأينا عياناً أن كثيراً منهم قد أحرقوا بالنار لاستمرارهم على دين المسلمين وظهر منهم العناد بعينهم فيه خفيةً واستنجاجهم كذلك عون السلطان الثاني اينصرهم علينا وظهر لي أن بينهم وبينه مراسلات اسلامية ومعاملات دينية وقد تيقنت ذلك من اخبارات صادقة وصلت اليّ ومع هذا ان أحداً منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يدبرونه في هذه المدة بينهم وفيما سبق من السنين بل كتموه بينهم علمت بذلك ان كلهم قد انفقوا على رأي واحد ودين واحد ونيتهم واحدة وظهر لي أيضاً ولا ريب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعهم لهذا الأمر واستشرت ان من ابقائهم بيننا ينشأ فساد كبير وهول شديد بسطلتنا وأن باخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشئ من ابقائهم بمملكتي فارتد اخراجهم من سلطتنا جلة ليزول بذلك الكدر الواقع والمتوقع للنصارى الذين هم رعيتنا طائعين لاؤامرنا وديننا ورميتهم الى بلاد المسلمين أمثالهم لكونهم مسلمين « انتهى

قلت ظهر من هنا جلياً انهم كانوا نصر وهم كرها والمك معترف بذلك ومعترف بأكثر من ذلك وهو أنهم كانوا يحرقون بالنار من يلحظون عليه انه كان باقياً مسلماً في السر . وهذا أفضح عمل عرفه البشرى التاريخ . والمك يعجب أيضاً من كونهم راسلوا السلطان ابن عثمان سراً كسلمين يلتمسون نجاته مع ان ملك اسبانية كان يظن انهم بعد ان أكرهوا على النصرانية ومضت عليهم هذه الطويلة نحو من مائة سنة وترى أبناءهم وأحفادهم في مدارس النصارى قد آمنوا بالدين المسيحي ايماناً خالصاً وزال كل أثر للإسلام من قلوبهم فاراع الملك الا والأخبار تأتيه بأن هؤلاء القوم لا يرحون على دين آبائهم في دخائل نفوسهم وانهم يدبرون أموراً فيما بينهم ولا يوجد منهم من يأتي ويخبر حكومة الاسبانية بتدابيرهم الخفية مما يدل على كونهم بأجمعهم لا يزالون مسلمين فلهدا أجمع في الآخر طردهم

ثم يقول ابن عبد الرفيق :

« ولم أعرض لذكر شروط كتبها ودققها فانظر رجك الله كيف شهد عدو الدين الملك الكافر بأنهم مسلمون واعترف أنه لم يقدر على ازالة دينهم من قلوبهم وانهم متمسكون بهم به مع انه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ثم وصفهم بالعناد لرؤيته

فيهم لوائح المسلمين وأماراتهم فأى علامة أكبر من صبرهم على النار لأجل دين الحق ومن استنجداهم ملك دين الاسلام المؤيد لحياة الدين أمير المسلمين السلطان أحمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التي قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الفوث سيدى أبو الغيث القشاش نفعنا الله تعالى به دنيا وأخرى في بعض مكاتيبه التي كان يكتبها بها في بعض شأنهم حين قدمهم الى هذه الديار أدامها الله للاسلام فقال لى : «وسلم لى على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار فانه لا يحبكم الا مؤمن ولا يبغضكم الا منافق» انتهى بلفظه . ويؤيد كلام الأستاذ رحمه الله تعالى الأحاديث الشريفة السابقة في أول هذا الكتاب في الفصل الأول منه في النوع الثالث منها كحديث سلمان الفارسى رضى الله عنه وحديث على رضى الله عنه وهو قوله عليه السلام : لا يبغض العرب الا منافق وغيرهما وكما جاء في شأن قريش لتبوت نسب أكثرهم منهم ومن الأنصار الخزرج والاوز وغيرهما تعلقياً فضلاً عما هو منهم من الأشراف من ذرية الحسن والحسين والعباس وغيرهم رضى الله عنهم من بنى هاشم كما سيأتى ذكرهم ان شاء الله تعالى مع ما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم و به التوفيق فخرجوا كلهم سنة تسع عشرة وألف (١) ووجد في دفتار السلطان الكافر أبعد الله تعالى أن جملة من أخرج من أهل الأندلس كافة نيف وستمائة ألف نسمة كبيراً وصغيراً فكانت هذه الواقعة منقبة عظيمة وفضيلة عجيبة لجماعتنا الأندلسيين زادهم الله شرفاً بمنه وأمر أيضاً باخراج من كان مسجوناً في كافة مملكته وكل من كان أمر باحراقه فأخرجه وعفا عنه وزوده وأرسله الى بلاد الاسلام سالماً اه

قلت قد حرص الحق وظهر أن آل عثمان لم يهملوا تماماً مسلمى الأندلس وأن خلاص هذه الستمائة ألف الاخيرة من نفوسهم انما كان على يد السلطان أحمد الاول رحمه الله وكان مشهوراً بالتقوى والورع والحجة الدينية

هذا ولما كنا شارعين في تأليف كتاب اسمه « الحلة السندسية في الرحلة الأندلسية » يتضمن رحلتنا منذ سنتين الى اسبانية وما شاهدناه فيها من آثار العرب وعلماهم من تاريخهم فقد تركنا استقصاء أخبار الموريسك لذلك التأليف وانما نحب أن نلحق بهذا

(١) رواية صحح الطيب أن الخروج الأخير كان سنة سبع عمرة وألف فيجوز أن يكون وقم تحريف

في اللفظة لما بين تسع وسبع من التشابه

المبحث فصلاً جديداً عثرنا عليه في جريدة « آربايرتسايتونغ » *Arbeiterzeitung* جريدة العملة النمساوية الصادرة في فيينا عددها المؤرخ في ٣ يناير سنة ١٩٣٢ قد أتى فيه بمناسبة الكلام عن ثورات أهل العمل على خير موريسك بلنسية في أوائل القرن السادس عشر فقال :

« سنة ١٥١٩ نار الاهالي في مملكة بلنسية من بلاد أسبانيا وصادف ذلك زمان ثورة « الكومونيروس » في قشتالة وثورة الفلاحين في ألمانيا . وبدأت ثورة بلنسية هذه باتفاض أهل العمل . ولم يكن اتفاضهم على الملك نفسه بل على النبلاء أصحاب الاراضى . وكانت خلاصة مطالبهم المساواة في الحقوق مع الطبقات العليا وكان يتقدمهم يوان لورازو قائداً وما زالوا حتى أدخلوا اثنين من زعمائهم أعضاء في الهيئة الحاكمة في بلنسية . ولما كانت بلنسية تحت خطر غارات القرصان دائماً كان جميع الاهلين يحملون السلاح بدون حرج فساعد ذلك على نجاح الثورة كما أن العنف الذي كان يجري من الحكومة في قمعها قد زادها اشتعالاً وانتهى الامر بأن الاهالي تغلبوا على الحكومة والنبلاء وطردوهم من بلنسية . ولما كان الموريسك يومئذ مستعبدين يعملون في أراضى النبلاء كانوا هم في الجهة المعارضة لهذه الثورة ولما كانت هذه الأمة مختلفة عن الثأرين في الجنس والدين وكانت تقاوم الثأرين بالسلاح نشأ عن ذلك مذابح تقشعرت منها الأبدان وانفجر بركان التعصب الدينى بصورة هائلة كما لا يخفى

« ولقد كان العرب فتحوا بلنسية سنة ٧١٥ مسيحية و بقيت من جلة ولايات قرطبة مركز الخلافة . وفي أيام ملوك الطوائف استقلت بنفسها وذلك سنة ١٠٣١ ثم افتتحتها مملكة اراغون سنة ١٣١٩ و بقيت في يدها وبقى العرب في الأراضى مزارعين بعد ان كانوا مالكين وصار الملك للنبلاء . وكان هؤلاء العرب ذوى مقام معنبد الاسبانيول بسبب حسن قيامهم على الاملاك ومعرفتهم التامة بالزراعة وكانوا يؤدون ضرائب فادحة ولا يتكادهم ذلك لنشاطهم في العمل . ومن هناك جاء المثل الاسبانيولى : حيث لا عرب لا قائدة

Mi entras mas moros . nar ganancia

« فكان النبلاء أصحاب الاملاك يكرهون سياسة الكنيسة التي كانت تعمل دائماً لتحويل العرب الى النصرانية لان تنصر العرب كان يحرمهم فوائد جزيلة وسنة ١٥١٥

أمكنهم بشدة الحاحهم الحصول على أمر من شرلكان بأن لا يجبر أحد من العرب على التنصر وأن لا يطرد أحد منهم في كل أرض بلنسية . وهذا العصد الذى عضده النبلاء للعرب في أمر حريتهم الدينية جعل هؤلاء ينتصرون لهم بالسلاح عند ما تار بهم حزب العملة

« فتحولت المصارعة بين العملة والنبلاء الى مصارعة بين المسيحيين والمسلمين بهذا السبب وفي وقعة « غانديا » في يوليو ١٥٢١ بين الحكومة والتأثرين كان ثلث العسكر من العرب . ولهذا لأجل أن ينتقم التأثرون من النبلاء تعمدوا تعميم المسلمين بالقوة القاهرة لأن المسلمين المنتصرين كانوا يحصلون على حقوق المسيحيين أنفسهم ويعودون مالكيين بعد ان كانوا مزارعين وترفع عنهم ضريبة الجاجم الخاصة بالمسلمين . فصار الثوار يجوبون البلاد وينصرون أى مسلم صادفوه بالاكره وينهبون مزارع النبلاء . وقد ازداد ذلك بعد وقعة « غانديا » التى كان الظفر فيها للثوار تحت زعامة « فيسنتى بيريس » فكان حزب العملة يزحفون ويجمعون المسلمين بالقوة ويأتى القسيسون فيرشونهم بعماء المعمودية وما زال الأمر كذلك حتى تغلبت الحكومة على الثوار وذلك بعد وقعة شاطبة التى دافع فيها الثوار عن تلك البلدة دفاع اللبوث وقتل فيها « بيريس » زعيمهم . وقد كان المأمول ان يحصل الفرج للمسلمين بتغلب الحكومة فحصل العكس وذلك بأن المسلمين بعد تنصيرهم كرهاً صاروا تحت نظر ديوان التفتيش الذى تأسس سنة ١٤٨٠ وكانت مهنة هذا الديوان حرق من لم تثبت نصرانيتها بالنار . والحال أن جميع أولئك المسلمين الذين تنصروا بالقوة لم يكونوا يعلمون من النصرانية قليلاً ولا كثيراً . فكان وقوعهم في الائم في نظر ديوان التفتيش من أسهل الأمور . وبدأ اضطهاد هؤلاء المساكين بشكل لم يسبق له مثيل . وكان النبلاء يحاولون الدفاع عن مزارعهم المسلمين فيسترضيهم رجال ديوان التفتيش بأصناف المنح حتى لا يعارضوهم في عملهم الوحشى بحق المسلمين . وبعد ان كان المنتصرون متمتعين بحقوق النصارى الاصليين عادت الحكومة فسلبتهم هذه الحقوق وصاروا يؤدون الضريبة الخاصة بهم مثل ذى قبل ولم يعودوا أحراراً في منازلهم . وما برحت هذه الأعمال الوحشية تتفاقم بحق المسلمين حتى أخذت الرأفة بعض الاساقفة فراجعوا البابا سائلين اياه اذا كان التنصير تحت التهديد بالحريق جائزاً . وكان البابا بونيفاس الثامن فأجابهم: « بأن التهديد

بالموت لا يعد اكرهاً يبطل مشروعية التنهّر^(١) وأن الاكراه لا يكون اكرها الا اذا سبق المسلم الى المعمودية ويدها موفقتان ورجلاه مقيدتان وكان يصيح بأعلى صوته محتجاً على هذا العمل « وكان البابا يعلم جيداً أن المسلم الذي كان يحتج على تنصيره بهذه الصورة لم يكن يرفع صوته حتى يسقط صريعاً

« في هذه السنين التي وقعت فيها هذه الفظائع فرّ خمسة وعشرون ألفاً من مسلمي بلنسية الى افريقية فلاحق الضرر بالنبلاء في مزارعهم وراجعوا الامبراطور شارلسكان بشدة فاصدر امره بتأليف لجنة لحل هذه المشكلة . فبعد مذاكرات طويلة قررت هذه اللجنة قراراً غريباً جداً وهو ان تعمد المسلم بالقوة ذنب يعاقب فاعله الا انه لا ينبغي ان يزول به اثر التعميد . والمسلم المعمد بالقوة يجب ان يبقى نصرانياً^(٢) وان الله هكذا يكون جعل من الشر خيراً وبالاختصار رجع المسلمون الى نظر ديوان التفقيش وهم يجهلون اسط قواعد المسيحية

« فأخذ هذا الديوان ينقّب وينقر عن الكلية والجزئية من اعمال المسلمين ومنع جميع شعائرهم الدينية بل منع جميع عاداتهم ومذاهبهم في الحياة ولو لم يكن لها تعلق بالدين وعاقب على ذلك . وكان يعاقب أشد العقاب من علم عنه انه لا يأكل لحم الخنزير أو الميتة أو عرف عنه انه لا يشرب الخمر أو قيل انه ادرج ميتته في كفن نظيف . وكانت النظافة في ذاتها ذنباً يعاقب عليه . وفي سنة ١٥٩٧ وجد في طليطلة المسمى « موريسكو بارتولوم شانجه » فلحظ عليه القوم انه شيد التطهر فمذبوه عذاباً شديداً ومازالوا يعذبونه حتى اقرّ بان يتطهر عن عقيدة فحكموا عليه بالسجن المؤبد وبضبط جميع املاكه . ووجدوا قرآناً عند عجوز اسمها « ايزابلا زاسيم »^(٣) فقات انها لاتقدر ان تقرأه فلم ينفعها هذا القول وعذبوها ولكن لما كان عمرها تسعين سنة اکتفوا من اهانتها بحملها على حمار والطواف بها في الشوارع وعليها غطاء مكتوب عليه اسمها وأثمها... ثم زجّوها في السجن وبقيت فيه الى ان علموها قواعد المسيحية . وقد عزبت نساء كثيرات على اطعامهن لحم الميتة للكلاب

(١) ليتأمل الفارسي* في صدق هذا البابا وحرية وجدانه ...

(٢) ليتأمل الفارسي* في هذا الرثاء وهذا الطليل الفارغ ونحمد الله على ان تاريخ الاسلام خال من المرات التي تلوث بها غيره في باب الحرية الدينية

(٣) لعلها محرفة عن قاسم أو جاسم

بدلاً من اكلهن له . وكان من جملة الذنوب تخضيب الاظافر بالحناء . وكان اشد شيء على الموريسك ما كانوا يكرهونهم عليه من دفن موتاهم في وسط الكنائس ودينهم بأمرهم باضجاعهم تحت التراب . وكانوا يعاقبونهم بالغرامل الثقيلة وابتزاز املاكهم منهم واذا تكررت التهمة فبالحرق بالنار . وكان الذي ينجو منهم من الموت يحلف يمينا مؤكدة بأن لا يخبر أبداً بما جرى معه . وكان ديوان التفتيش يعمل العمليين بالمسلمين سراً وكان منهم من يختفي اشهراً . وكان منهم من يختفي سنين ولا يعلم احد به وكثيراً ما كان يؤتى بالرجل فيجد امرأته بعد ان كان فقدها ويؤتى بالاب فيجد اولاده بعد ان كان قد قدمه وذلك التلاقق بينهم عند محل الحريق . وقد حدث ان ابنة عمرها ١٩ سنة سعت بوالديها واهلها لدى ديوان التفتيش فاتوا بالاب فلم يقر بشيء فاحرقوه . واما الام فاقترت حكموا عليها بالسجن المؤبد . وكانت ضحايا وشاية هذه البنت ٢٥ شخصاً منهم أربعة ماتوا حرقاً بالنار والباقيون حكم عليهم بالسجن وأما أملاكهم فقد ضبطت بأجمعها

« ولقد انتهت هذه الفظائع الوحشية باجلاء جميع الموريسك عن اسبانية وقد كانت ثورة العملة في بلنسية هي السبب في اكراههم على التنصر جوعاً وتمسك ديوان التفتيش بذلك لأجل اتمام عمله الشنيع » انتهى

قلت ان مبدأ « الغاية تبرر الوسطة » معروف عند هؤلاء الجماعة وليس منحصرأ في رهبانية الجزويت وحدهم . وتحريره أن الدخول في الدين الكاثوليكي هو خير محض وخلاص من عذاب جهنم . وعليه فاذا ساءت الوسائل المستعملة لادخال غير الكاثوليك في الكنيسة فلا بأس لأن الغاية حسنة ... وهكذا أجازوا لأنفسهم ان يعملوا ماعملوه في اسبانية بالمسلمين واليهود وفي جنوبي فرنسا وفي بلاد اخرى بالمتدعين الذين يسمونهم بالهرطقة . وكل هذا جرى بأمر الباباوات ورؤساء الكنيسة وقلماً نازع فيه منازع منهم . ولهذا لما جرت في السنة الماضية مناقشة بين حزب الفاشيست في ايطاليا والفايتكان من أجل قول موسوليني رئيس الفاشيست ورئيس الحكومة : انه يجب على الفاشيست ان يكرهوا أعداءهم وقول جريدة الفاتيك ان هذا مخالف لمبادئ المسيحية اضطر موسوليني أن ينشر رداً تحت امضاء أحد أعوانه ذكر فيه مبادئ الكنيسة بشأن أعدائها وعدد أسماء الباباوات الذين أصدروا الأوامر بالقتل العام والحرق بالنار وأجازوا كل ألوان العذاب لأجل مجد

ازب... من هؤلاء الباباوات يوليوس واينوشنيوس وغريغوريوس واسندرس بورجيا وغيرهم

ومن طالع تاريخ هؤلاء وبخاصة تاريخ البابا اسكندر بورجيا واولاده وعلم ما كان يجري من الفظائع بامرءه في نفس رومة لم يعجب مما جرى بامرءه وأمر اخوانه على مسلمي الأندلس . ولاجدال في صحة هذه التواريخ لأن رواياتها متواترة وقد اجمع عليها المؤرخون حتى من انفس الكاثوليك

ثم اتنا نعود الى موضوع مسلمي الأندلس فنقول انه مما لامرية فيه أنه لما خرجوا من اسبانية خروجهم الأخير سنة ١٠١٩ أو ١٠١٧ وكانوا ستائة الف نسمة لم يكونوا هم جميع المسلمين الباقين بالأندلس بل بقيت منهم بقايا كثيرة في كثير من المدن والقرى انتهى أمرهم بان اندمجوا في الاسبانيول وصاروا نصارى فعلاً . ويقال ان رئيس جمهورية اسبانيا الحالي «السيور القلعة زمورة» Alcala Zamora هو من سلالة العرب . ويقال ان رئيس نظارها الحالي «السابة» Azania هو أيضا من أصل عربي وان اناساً من اسبانيول شاطبة ينتسبون الى الامام الشاطبي صاحب القراءات. وقد شاهدت اناساً من بلنسية قالوا لي ان اصلهم عربي . وشاهدت من غرناطة رجلاً اسمه «الفخارو» قيل لي ان اصله عربي أي «الفخار» وهذه اسرة معروفة في الأندلس وقيل لي انه يوجد في مالقة من ذرية بنى سراج . والاسبانيول يقولون لهم «سراخ» على عادتهم في قلب الجيم خاء . ولقد وجدت ذكر اعقاب السراجيين هؤلاء في كتاب رحلة الوزير الفسائي الى اسبانية في ايام السلطان الكبير مولاي اسماعيل صاحب المغرب . وكنت قرأت ترجمة هذه الرحلة باللغة الافرنسية وأعجبتني جداً على كوني لم أطلع أصلها العربي . ثم اتصل بعلم المؤرخ الكبير العلامة التحرير الشريف الانيل الاثير مولاي عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية العلوية بالمغرب أدام الله عزها ووقفها لخدمة الاسلام والمسلمين اني أبحث عن رحلة الوزير الفسائي الأندلسي الكاتب الذي سافر لهد مولاي اسماعيل الى اسبانية ففضل بكرم اخلاقه بان أمر باستنساخ نسخة من هذه الرحلة بنصها العربي الأصلي واهداني اياها في جلد محلى بالذهب أطال الله بقاءه ونفع به وعلمت ان الوزير الفسائي المذكور توفي في فاس سنة تسع عشرة ومائة والقب . واما اسم رحلته فهو «رحلة الوزير في افكالك الاسير» وقد عثرت فيها على ذكر بنى سراج عند

ذكر مدينة « اندوخر » من عمل قرطبة قال :

« وهي مدينة قديمة أثرها أثر الحضارة وهي على ضفة الوادى الكبير أيضاً وعلى هذا الوادى بقرب المدينة قنطرة من عهد الاسلام وبفحص هذه المدينة من الزياتين والغروس والبساتين وأراضى الحراثة مالا يحصى . وأهلها أهل حراثة وفلاحة والغالب على عمالها أنهم من بقايا الأندلس وجعلهم من أولاد السراج الذين كانوا تنصروا على عهد السلطان أبى الحسن آخر ملوك غرناطة . وذاك فيما يزعمونه النصارى وينقلونه في تواريخهم ان بعض أولاد ابن زكرى الفرناطيين كان وشى الى الملك بأحد أولاد السراج وذكر عنه أن له كلاً مع زوجة ابن الملك ومخالطة . فحنق الملك على أولاد السراج الذين معه بغرناطة فقتل منهم جماعة أعيان وكان أولاد السراج لذلك العهد هم أقوى جيش المسلمين وبلادهم « اندوخر » بيدهم باقية بعد تغلب الكفرة على قرطبة واحوازها بحاربون عليها ويذبون عنها فحينما بلغهم خبر من قتل من اخوانهم بغرناطة حملتهم الحية والأنفة والحنق والغيظ على أن ركبوا من ساعتهم وقصدوا طاغية الوقت فتنصروا على يده وخرجوا من عنده قاصدين غرناطة فأغاروا وحضروا بعد ذلك مع الطاغية في حروب غرناطة واحوازها فعوذ بالله من الضلال بعد الرشاد ومن الغواية بعد الهداية . وجل بقية هؤلاء المتنصرين الذين باندوخر يعد من أكبر أهل البلد غير أنه لا يعد عند النصارى مثل ما لم من الكبرة التي يتوارثها النصارى خلفاً عن سلف مثل البوك والقند وشبههما . وأكثراً ما يحصل لهم اليوم من الكبرة أن من يكون من نسل هؤلاء القوم الذين تنصروا أن يرث عمل الصليب على كتفه يرقه في ثوبه المتدثر به فتلك هي علامة الأكبر منهم . والخطط التي يتولونها بقايا هذا الجنس المذكور هي الكتابة وحكومة البلدان والشرطة وغيرها مما ليست وجهة كبيرة وولاية سنية مثل التصرف في المال^(١) أو الولاية للأقاليم الكبيرة والمدن القواعد مثل اشبيلية وما شا كلها . وعلى كل حال فهم في هذه النواحي كثيرون لا يحصون فمنهم من ينسب ومنهم من لا ينسب ومنهم من ينفر من سماعه الانتساب ذلك . والذين هم من هذه النسبة ويتأبى عنها ينسب الى جبال نبارة وهي جبال بعيدة من قشتالة^(٢) كان انحاز اليها من بقى من النصارى ساعة تغلب المسلمين على العدو ويتفاخرون

(١) جمع محلة أى مركز قيادة الجيش

(٢) لعله يعنى نائاره

بالانتساب إلى تلك الجبال وما والاها . والذين بيدهم ولاية أو خبطة من الخطط الخزنية (١) من أهل هذا الجنس لا ينفرون من الانتساب فلقد لفت يوماً بمدينة مديريد (٢) رجلاً أُسيتُ اسمه الآن راكبا ومعه جماعة من النساء صغاراً وكباراً لهم حسب وجال فوقف وسلم سلاماً كثيراً وأظهر هو ومن معه من النساء بشراً وترحيباً فقابلناه بما يجب وحين أراد الانصراف عرف نفسه بأن قال : نحن من جنس المسلمين من نسل أولاد السراج . فسألت عنه بعد ذلك فقيل لي انه من كتّاب الديوان وهو الذي يقرأ ما يحصل بالديوان من رقايع وعروض حال وشبهه . وكذلك أيضاً كانت جماعة من أهل غرناطة لهم بغرناطة ولاية وأحكام وسكانهم بمدينة مادريد ترد علينا محبة ضون (٣) « الوص » الذي هو من عقب ملك غرناطة (٤) وينتسبون إلى الجنس الذي كان بغرناطة وغلب عليهم الشقاء والعياذ بالله . ولقد كانوا يسألون عن دين الاسلام وعن أشياء منه فحين يسمعون ما نحبهم به عنه من البيانات وأحكام الطهارة التي بنى الاسلام عليها وغير ذلك يعجبهم ما يسمعون منه وينصتون إليه ويشكرونه بمحضر النصارى ولا يعاؤون بمن حضر . ولم يزالوا مدة مقامنا بمادريد يكثرزون التردد لدينا ويردون علينا المرة بعد المرة ويظهرون من المحبة والتحنن شيئاً كثيراً . ففسأل الله أن يهديهم إلى الصراط المستقيم ويرشدهم إلى الدين القويم » انتهى

ثم اننا ننقل من رحلة الفاضل الوزير الفسافي ما ذكره عن مدن أخرى أنس فيها رائحة الاسلام ولا عجب فان بين جلاء المدجنين الأخير وبين عهد هذه الرحلة نحواً من مائة سنة لا أكثر

قال عند ذكر مدينة « إيتارش » : « وبها من بقايا الأندلس النزر من سكانها » وقال عند ذكر مدينة اسمها « مورا » هكذا : « ومعناها المسلعة وسبب تسميتها بذلك والله أعلم انها ربما تأخرت عن جيرانها من المدة بشيء ما في التنصير »

(١) نسبة إلى الخزن ومعناه في المغرب والأندلس ما يقال له الحكومة اليوم في الفرق

(٢) والمغرب قديماً كانوا يقولون مجريط

(٣) أي الدون وهو من القاب الصرف عندم

(٤) بحسب هذه الرواية يكون من عقب أبي الحسن علي بن الأحمر من تنصر وتحول أسبانيولياً وهذا

يطابق ما قرأته من أن اخوة أبي عبد الله الصغار مذ سقط غرناطة تحولوا أسبانيولين

وقال عند ذكر مدينة « شريش » ما يلي :

« ومدينة شريش هذه تلقب بشريش الفرنطرية ومعناها المقابلة ويعنون بها المقابلة لبرّ الاسلام أعزه الله وجعل أهلها من أهل الأندلس وأعيانهم لأنهم تنصروا وهم أهل حرارة وفلاحة »

وذكر مدينة في جهات شريش اسمها « البربيجة » فقال : « وأنزلونا داراً لبعض أكابرهم وجعلوا ينالون علينا للسلام وفيها من انتسب لنا الى الأندلس بإشارة خفية لم يقدر على التصريح بغير كلام خفي . والغالب على جل سكانها انهم من بقايا الأندلس الا أن العهد طال عليهم وربوا في محبوبة الكفر فغلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله »

ثم ذكر مدينة « الطريرة » فقال من جملة كلام : « وجعل أهلها من بقايا الأندلس » ثم قال : « وأهلها ذوات عظام والغالب عليهم الحسن رجالاً ونساء ولقد شاهدنا ابنتين احدهما بنت حاكم البلد والأخرى بنت القاضي في غاية من الحسن والجمال والكمال لم تر عيني في جميع ما رأيت من بلاد أسبانيا على سعتها أجل منهما وهما من بنات الأندلس ومن دم ملك غرناطة الأخير الذي عُلب عليها وهو الملك المعروف عندهم « بالرى الشيكو » ومعناه السلطان الصغير . ولقد أخبرني بمدينة مادريد رجل يسمى « ضربن الوص » حفيد موسى أخي السلطان حسن ^(١) المتغلب عليه بغرناطة ان البنين اللتين باطريرة من دمه . وضون الوص هذا رجل حسن الأخلاق حسن الشباب له قوة وشجاعة معروفة عند النصارى وهو معرود من فرسانهم وشجعانهم ومع هذا فهو مائل الى من يلقاه من أهل الاسلام ويذكر نسبه ويعجبه ما يسمعه من الحديث عن الاسلام وأهله ولقد حدثني عن أمه أنها حين حلت به اشتتت أكل الكسكسون فقال لها أبوها : لعل هذا الجمل الذي في بطنك من صنّ المسلمين يداعبها بذلك اذ كانوا لا ينفرون من نسبتهم لهم من بيت الملك نعوذ بالله من الخذلان والغواية ونسأله التوفيق والهداية »

قلت انه بمناسبة الحسن والجمال قد لحظت وأنا في أسبانيا ان أهل الجنوب منها أرى أهل البلاد التي يقال لها الأندلس أجل من أهل الشمال أى قتالة وناار واراغون وبرشلونة . فلما كنت في غرناطة ذكرت هذه الملاحظة لأحد نهبائها فأجابني على الفور :

(١) لعلها أبو الحسن

« نعم لأتنا نحن عرب »

ثم ذكر الوزير الفسافي مدينة « مرشينة » فقال : « وأهلها أهل بشاشة ومنهم من ينتسب الى الأندلس انتساباً »

وذكر في موضع آخر من كتابه أن الذين تنصروا كانوا يعطون علامة الصليب يرقونها على ثيابهم فقال : « الذين هم من جنس الأندلس وكانوا أكبر قومهم وتنصروا لأغراضهم فأعطوا تلك العلامة وهي دالة على عراقتهم مع الاصلة لعهد اسلامهم وعلامة على كبرتهم الخ »

فن هنا وأشباهه تعلم أن الموريسك - أو المدجنين كما كان يقال لهم عند العرب - كان بقي منهم قسم عظيم بالأندلس وأنهم تنصروا أولاً بالقوة ثم اندمجوا مع طول الزمان في النصرى ولكنهم لبثوا يتذكرون أصلهم وزاهم حتى هذه الساعة يذكرون ذلك وفي أخريات هذه الأيام بعد أن انقلبت الحكومة الأسبانية من الملكية الى الجمهورية وانطلقت الحرية في أسبانية وجدنا كثيراً من أهل الأندلس يجاهرون بأن أصلهم من العرب ويطالبون الحكومة باعطائهم الأراضي التي هم مزارعون فيها قائلين ان هذه الأراضي كانت لأبائهم لما كانوا مسلمين وانه لما افتتح الأسبانيول الأندلس وانتزعوها من يد الاسلام أقطعوها النبلاء والكنائس وأبقوا العرب فيها كزارعين فلماذا هم يريدون إعادة هذه الأراضي اليهم . ولقد أجابت الحكومة الجمهورية طلبهم وسأت قانوناً بموجبه ترجع هذه الأراضي الى الفلاحين . ولما كان النزاع على الأراضي قد اختلط مع تذكار النسب العربي القديم كنت تجد عند هذه الطبقات العامة بالأندلس من كراهية النبلاء وبخاصة من كراهية القسيسين والرهبان ما لا نجد عند غيرهم . وطالما أحرقوا بهانين السنين الأديار والكنائس ودور الأساقفة ولولا محافظة الحكومة عليها لما كانوا أبقوا منها شيئاً فيما يليهم وليس هذا كله ناشئاً عن المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية كما يظن بل ثمة عرق عربي عاد فترع في الأندلس بعد اعلان الحكم الجمهورى . وكان بعض نبهاء الأندلس قد هبوا يطالبون باستقلال داخلى خاص بالولايات الأندلسية قرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة وقادس الخ وذلك على أن تنضم اليها منطقة الريف التي أهلها مسلمون بحجة أن بينهم وبينهم وحدة في الأصل والعادات والثقافة وكانت هذه الفئة تنزع الى تجديد الثقافة العربية في

الاندلس واحياء ذكريات العرب وقد خاطبني بعض زعماء هذه الفئة من أشبيلية قائلين انهم يرون أن عظمة الاندلس كانت لعهد العرب وانه لما برحها العرب ابتداء سقوطها فلهاذا هم يريدون إعادة الثقافة العربية اليها ويفكرون في إعادة مسجد قرطبة الأعظم للإسلام وفي بناء جامع في اشبيلية . وقد حدثني الأخ الحاج عبد السلام بنونة من أعيان تطاون بأنهم خاطبوه فيما اذا كانوا سيقومون ببناء الجامع في اشبيلية هل يساعدهم المسلمون في الكلفة فأجابهم بأنهم يساعدون بنصف الكلفة . وقد كان من نتائج الحكم الجمهوري الحر في أسبانية أن سياسة التودد الى الاسلام قد ظهر لها أنصار كثيرون وكل من يقاوم الكتلثة والحزب الملكي قد مال اليها . ويقال ان ستين نائباً في مجلس النواب بمجريط يميلون اليها . واند قدّم أحد نواب مجريط طلباً يقترح فيه إعادة مسجد قرطبة الى الاسلام مع بقائه مسجداً أسبانياً وذلك لان الوفد المغربي الذي كان قد ذهب من تطاون الى مجريط سنة ١٩٣١ يطالب ببعض الحقوق الأهلية في منطقة الريف قد طلب أيضاً إعادة مسجد قرطبة مسجداً تقام فيه شعائر الاسلام كما كان . الا أن الحكومة خافت من هيجان حزب الكتلثة ولم تعد الوفد المغربي بشيء من هذا الامر . وذهب بعضهم الى أنه يجوز جعل هذا المسجد أثراً تاريخياً لا تقام فيه شعائر الاسلام ولكن تخرج منه شعائر المسيحية وان كثيرين من الاسبانيول يرون هذا الرأي . ومما يدل على تقم سياسة التودد الى الاسلام في أسبانية أن بعض النواب والصحفيين والمفكرين في مجريط على رأسهم السنيور « ارجيلا » والسنيور « فولس » أسسوا جمعية اسمها الجمعية الاسبانية الاسلامية *Asociación Hispano Islámica* واتدبوا الوفد السوري الفلسطيني محرر هذه السطور وزميله احسان بك الجابري للدخول فيها وقد وافقناهم على رغبتهم ودخلنا في هذه الجمعية وانتخبت أنا الفقير اليه تعالى نائب رئيس ودخل فيها زميلي وغيره من كبار الاسلام أعضاء . ومن دخل فيها عضواً من أعيان المغرب وأدبائه ورجالاته الحاج عبد السلام بنونة والسيد محمد الداود والسيد عبد الخالق الطوريس من تطاون والسيد احمد بلا فريج والسيد مكي الناصري من الرباط والسيد محمد الفاسي والشريف محمد بن الحسن الوزاني من فاس ولا تزال هذه الجمعية دائبة في نشر دعايتها وتأسيس فروع لها وقد وفق السيد مكي الناصري لتأسيس فرع لها في غرناطة في هذه الايام الاخيرة كما أن أحد أعقاب بني أمية

من اشبيلية شارع بالاتفاق مع بعض أصحاب هذا المشرب هناك بتأسيس فرع في اشبيلية
 عود الى موضوع اختلاط الأمتين العربية والاسبانية: لما أُجلى بقايا المسلمين من
 الأندلس الى افريقية حسبما تقدم الكلام عليه كان فيمن جلا من المسلمين من أصلهم
 عربي ومن أصلهم اسبانيولى . فكما أنه باق في اسبانية ملايين تجرى في عروقهم دماء
 عربية يوجد في افريقية مئات ألوف تجرى في عروقهم دماء اسبانية . ولا تقدر أن نحصى
 جميع العائلات الأندلسية التي ارتحلت الى فاس والرباط وتطوان وتلمسان والجزائر وتونس
 وغيرها ولكننا نذكر بعضاً منهم على سبيل التمثيل

فن هؤلاء آل مرينو ذكرهم صاحب كتاب مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح
 وعدد جماعة منهم تولوا المناصب العالية من قيادة وقضاء وحسبة . وآل شنتياك Santiago
 وآل ابن طوجا . وأولاد التونسي . وأولاد القرطبي . وأولاد القصرى . وأولاد ابن عبدون .
 وأولاد الدك . وأولاد الولتيتي . وآل أبي جندار . وآل اللوشى . وصيرون . واشكلانظ .
 وكلهم ممن تولوا المناصب واشتهر منهم رجال . ومنهم آل بركاش وهم بيت مجد قديم وحسب
 صميم لم تنقطع الرئاسة من بيتهم ومنهم السيد عبد الرحمن بركاش باشا الرباط الحالى عرفته
 مرتين احداهما في باريس سنة ١٩٢٦ عند ما حضر مع المرحوم السلطان يوسف فاجتمعت
 معه بطريق المصادفة في فندق « ماجستيك » والثانية في قرطبة سنة ١٩٣١ وهذه أيضاً
 بطريق المصادفة وكان معه أحد أنجاله الأدياء وبعض من حاشيته وهو وأنجاله من سرة
 الاسلام وأمثال القطر المغربي سائرون على آثار سلفهم الكريمة ومنهم آل الزبدي . وآل
 غنام . وآل الزهرا . وآل النازى . وآل السويسى . وآل مارسيل . وآل فرج . وآل
 بلا فرج الذين منهم الشاب الناهض النابغ السيد احد بلا فرج حرس الله مهجته وهو من
 نخبة قتيان الأمة المغربية بل الأمة العربية بهذا العصر ومنهم بنو العوفير . وأبي عزه .
 والباشا . وقد ترجم المؤرخ أبو جندار جميع هذه العائلات وذكر الذين اشتهروا منها وذكر
 أفراداً آخرين من الطائفة الأندلسية مثل الرئيس ابن عائشة الرباطى سفير السلطان اسماعيل
 الى لويز الرابع عشر والسيد طاهر بنانى الرباطى سفير السلطان محمد بن عبد الله الى السلطان
 العثماني والحاج التهامي المدور سفيره الى بلاد السويد والرئيس العربي المستيرى سفيره الى
 انكلترا والحاج الهاشمى المستيرى والحاج العربي ملين والحاج العربي بنانى والسيد محمد

فريون والحاج عبد القادر المعموري والحاج محمد الأزرق والسيد ابن عيسى بن مسعود طريدانو والسيد محمد بن العباس الزكي والسيد الجيلاني المدلاني وغيرهم ممن تولوا نظارة الرباط أو الحسبة أو غيرهما من المناصب. ثم ذكر أبو جندار عدداً من أمراء النخضر وقواد البحرية اشتهروا في القديم من الأندلسيين الجالين الى المغرب منهم الرئيس مكي الشرفوني والرئيس على بريس والرئيس العربي المستيري والرئيس العربي حكم والرئيس محمد السبيع والرئيس محمد العتيق والرئيس لبريس والرئيس عاشور والرئيس الهاشمي المستيري والرئيس على التركي والرئيس ابن مبارك والرئيس لباريس والرئيس الحسن بناني والرئيس بركاش والرئيس بريتيل والرئيس المعطى وغيرهم

وأما في تطاون فقد كتب من أسماء العائلات الأندلسية التي فيها بني قشتليو وأصلها Castillio . وبني بايصه أصلهم من بسطة بالأندلس . وبني أراغون وهؤلاء يرفعون نسبهم الى الزبير بن العوام رضى الله عنه . وبني سالس . وبني القرطبي . وبني الغرناطي . ويقال الغرطوطي . وبني الطوريس الذين منهم الشاب الأديب الفاضل السيد عبد الخالق الطوريس وأخوه الماجد وجدهم السيد محمد الطوريس كان الوزير الأول بالمغرب وأصل بني الطوريس من جبال البشيرات بالأندلس وبني قردناش . وبني مورارش وبني الخطيب أصلهم من شاطبة بشرق الأندلس . وبني اللوقش من ذرية خلفاء بني أمية . وبني الدليروكل يقال لهم أبناء المسوس . وبني زريق أصلهم من اشبيلية . وبني الركينة منهم في تطوان مسلمون ومنهم لسبانيول نصارى لأن في تطوان جالية اسبانيولية . وعائلة الركينة كثيرة في اسبانية ومنها من بني ركينة المسلمين أحد ركينة ناظر احباس طنجة وبني مارين ومنهم مسلمون ونصارى على هذا الضرب . وبني مارتيل . وبني الصفار . وبني زكري . وبني الداود الذين منهم الشب السهم الفاضل الناهض الأستاذ محمد الداود مؤسس المدرسة الاهلية بتطوان . وفقه الله وبني طنانه . وبني الأبار اقارب الحافظ ابن الأبار البلنسي القضاعي صاحب ادرك بخيلك خيل الله اندلس . وبني مدينه . وبني مولتينه . وأصلهم من ثغر المرية بالأندلس . وبني اجزول . وبني البولولو وبني اللوشى من لوشة من مدن غرناطة . وبني بالامينو وأصلها بالومينو . وبني ضياغو . وبني دينيه منهم في تطوان ومنهم في الرباط . وبني مسطاسي . وبني مولاطو ومنهم في الرباط أيضا . وبني كرسبو . وبني سوباطا وأصلها ساباطا .

و بنى مندوسه وقد انقرضوا . وقد انقرض من أندلسية تطوان بنو غرسية . و بنو اشبيليانو . ثم ان من الاسر الأندلسية الشريفة بنو رزين الذين منهم صديقنا الوجه السيد محمد الرزيني وهؤلاء بحسب تاريخ البيان العرب لابن عذارى أصلهم بربر . وكانوا ملوك « شتمرية » الشرق بالأندلس

وذكر لي الاخ الحاج عبد السلام بنونه عائلات أندلسية في الرباط لم اجدها في «مقدمة الفتح» مثل عائلة قديره . وهذه العائلة هي التي منها المستشرق الاسبانيولى الشهير فرانسيكو كودره Codera استاذ المستشرق الشهير القيس آسين بالاسيوس . وعائلة فلورس وهي بالاسبانيولى Flores . وعائلة ميتجينوس واصلها بالاسبانيولى Montegenos وقال لي ان عائلة مارشيه معروفه في اسبانية ومنها أخذ مسلمون في تطوان وان من بنى مارتن اغذاً كثيرة في اسبانية وان منهم أخذاً مسلمين في تطوان . وان من بنى عباد اناساً في سرقسطة في شمالي اسبانية واناساً في فاس . وقال لي الاخ المشار اليه ان جبال الريف ملائى بالأندلسيين

وفي فاس أندلسيون كثيرون أشهرهم آل الفاسى وهم من بنى الجد الفهريين الذين كانوا في قرطبة ثم في اشبيلية ثم في ماقعة الى أن ارتحلوا الى فاس عندما لم يبق دار للإسلام في الأندلس . وفي كل من العدوتين حفظت هذه الاسرة مجدها وسراوتها وراثتها . ومنها الشاب الناهض السيد علال الفاسى والشاب الناهض الفاضل المدقق السيد محمد الفاسى وفقه الله وهو من نخبة شبان المغاربة وأنجم العرب الذين اتقوا تحصيلهم في باريز . ولم يتيسر لي الى ساعة تحريره احصاء للعائلات الأندلسية في فاس ولا للعائلات الأندلسية في تلمسان والجزائر وتونس . فحتى يتيسر لي ذلك أضمت الى المعلومات التي حررتها هنا وان فصح الله في الاجل نجعل ذلك في الطبعة الثالثة من هذا الكتاب

ولقد بحث لي الاخ المفضل نبيل النضال الاستاذ السيد أحمد توفيق المدني التونسي مولداً الأندلسى أصلاً المقيم الآن بمدينة الجزائر نفع الله به يقول لي في جواب على سؤال في هذا الموضوع ما يلي :

العائلات الأندلسية في شمالي أفريقية أكثرها بالمغرب الاقصى وتونس . ومنها قليل في تلمسان ومنها قليل ببقية البلاد الجزائرية . أما في نفس مدينة الجزائر فالمعروف منها عائلة

الشيخ الجليل أحد أئى الركائب وهو ابن عمنا متفرع من عائلة ابن عمر . وعائلة ابن عبد اللطيف

« وعائلة ابن الأمين . وعائلة ابن سوسان . وعائلة المرار التى كان منها الشيخ مصطفى المرار قاضى الجزائر عاش فى أواسط القرن الماضى . وعائلة السبىسى »
قال حفظه الله :

« وأما بالبلاد التونسية فالجاليات الاندلسية بقيت على حالها تقريباً ولها الى يومنا هذا بعض امتيازاتها حتى ان صناعة الناشية الاندلسية — الطربوش المغربى — لا يتولاها مبدئياً الا أعقاب العائلات الاندلسية ولا يمكن أحداً أن يباشر هذه الصناعة الا اذا كان عنده نيشان أحد أسلافه من الاندلس . وهذا النيشان هو نفس ما يسمى اليوم « ماركة مسجلة » ويسجل بالخط الاسود على نفس الطربوش من الداخل ويطبع على الورقة الخارجية مع اسم صاحبه »
قال :

« وفى البلاد التونسية مدن ودساكر اسمها الأندلس ولا يزال سكانها الى اليوم يعتزون بأصلهم الاندلسى سواء كانوا من المسلمين أو من اليهود وأشهر هذه المدن مدينة تستور بالشمال التونسى »

وقرأت فى بعض جرائد تونس أن الاندلسيين أتروا فى تستور ما أثر تاريخية كثيرة منها مأذنة جامعها الكبير فهى على أسلوب هندسى بديع ولا نظير لها فى العالم الاسلامى فان الناظر من أعلاها يرى قعرها لفراغ وسطها وكونه على شكل اسطوانى مع ضيقه وتنسيقه

ونختم هذا الفصل عن الاندلسيين الجالين الى افريقية والاندلسيين المدجنين الذين بقوا فى اسبانية حتى اندمجوا فى الاسبانية بذكر مكتوب من السلطان الكبير مولاي اسماعيل صاحب المغرب الى ملك اسبانية فى عصره يذكره فيه بغدر أسلافه بالمسلمين نشره السيد الشريف الصلامة مولاي عبد الرحمن بن زيدان فسح الله فى عمره وذلك فى كتابه « اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس » ولم يجتزئ بنشره بالحروف المطبوعة بل نشره بالفتوغرافيا فى جانب الطبوع بالحروف ونصه :

» بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم من عبد الله اسماعيل المتوكل على الله المفوض أموره الى الله أسير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسيني أيدته الله آمين (ثم الطابع الملوكي بداخله اسماعيل بن الشريف الحسيني أيدته الله ونصره . وبدأثرته : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

» الى عظيم الروم وملك أقاليم أصبانية وبلاد الهند والمتولى أمورها والمتصرف في أقطارها (دون كارلوس) السلام على من اتبع الهدى أما بعد فقد بلغنا كتابكم محبة خديمكم (دون منويل يردلون) وخديمكم (دون ايبيل مسيح) وهو الكتاب الذي وجهتم لنا جواباً عن كتابنا الذي أصدرناه اليكم ووصلكم محبة الغرايلى قبل هذا وبعد ان قرأناه وفهمنا لفظه ومعناه وألقى الينا خديمكم (دون ايبيل مسيح) ما في خاطرهم وما طلبتموه منا من فك هذه المائة من النصارى الذين وقع الكلام قبل هذا رددنا اليكم جواب كتابكم ووجهناه مع خديم دارنا العلية بالله كتابنا ومتولى الخط الأقرب من بساطنا السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير ولولا مزيتكم عندنا ومعرفتنا بمنصبكم ماسمحنا بفراق كتابنا عن بساطنا لمهمات أمورنا واذنا لخديمنا الأ كبر الأعز الأشهر أبى الحسن القساند على بن عبد الله أن يبعث معه رجلا من أصحابه فوجه خديمنا عبد السلام بن أحمد جسوس معاشراً له ومرافقاً وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الاسلام المظفر بالله على نصارى العرائش وفي علمه وعلى باله كل ما كان في ذلك من الكلام والاسباب وكيفية الخبر في ذلك فنقوا به وتعرفوا منه فانه حفظه ووعاه من أوله الى آخره لئلا يترتب لبساطنا العلى بالله في سائر أوقاته ونحن بلا شك كنا أعطينا القول لهذه المائة من النصارى بالسراح ولكن وقع من النصارى ما احتل به منهم من الاسباب ما يوجب عدم الوفاء لهم بذلك فمنهم من كان ينادى بلفظ مينا على رؤوسهم ومنهم من لم يرض بخروجهم على ذلك انلك القول وكاد يفتك بمن دخل اليهم من خدامنا الذين أوفدناهم عليهم وبعضهم ركب لجج البحر فلراً بنفسه حتى أدرك وقتل على الموج . وحاجتنا مع هذا كله كبار ملتنا وعلماء شريعتنا وأئمة ديننا بأن قالوا لنا بأن المسلمين كانوا أشرفوا على الغنيمة ساعتئذ ووقع القلب والظفر ولم يبق للنصارى الا الموت بالسيف أو بالفرق فلا وجه لسراحهم في الشريعة رأساً . وكنا

في أثناء هذه نلدة كلها نتراد الكلام مع هؤلاء العلماء حفظهم الله وقالوا لنا : هؤلاء المائة يكونون أسارى ويسترقون . من كل وجه كيف وقد أخذوا العرايش من أول وهلة بلا موجب بل أضغطوا الشيخ ابن السلطان الذهبي وقبضوا عليه حتى أنفقوا عليه أموالا عديدة ومسكوا أولاده بسببها حتى أعطاهم العرايش على ضغطٍ منه وعلى غير تأويل حقيقي في ذلك . وذكرونا في مسألة غير أسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم بما يزيد على الأربعين ألفاً بعد تعدد الشروط على ستين شرطاً ولم يوفوا لهم بواحد منها الى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الأندلس في كل بلد وقرية بعد بلد وقرية فألفيناهم ما تكلموا الا بالحق (الى أن يقول) : وذلك أن تعطونا في الحسين نصرانياً من هذه المائة خسة آلاف كتاب مائة كتاب عن كل نصراني من كتب الاسلام الصحيحة المختارة المثقفة في خزائنهم باشبيلية وقرطبة وغرناطة وما والاها من المدن والقرى حسبما يختارها خديمتنا المذكور من المصاحف وغيرها وتعطون خمسمائة أسير من المسلمين في الحسين الأخرى عشرة أسارى لكل نصراني وان لم توجد الكتب التي هي مرادنا فأجعلوا عوضها من أسارى المسلمين وأعطوهم لنا من الاسارى الذين في الأغربة وغيرهم وقبلنا منكم في العدد المذكور الرجل والمرأة والصبي الصغير والشيخ المسن من ايلاتنا وغيرها اذ مالنا قصد الا في الأجر والثواب في فكك اسرى المسلمين كيف ما كانوا ومن أى بلاد كانوا الخ »

فأنت ترى أنه كان مضى أكثر من مائة سنة على الغدر الفظيع الذي غدره ملوك الاسبانيول بمسلى غرناطة وسائر الأندلس . وكان المسلمون لا يزالون يتذكرونه ويتحرقون من أجله . ولم يقتصر مولاي اسماعيل في تفريع معاصريه من ملوك الافرنج على ملك اسبانية فقط بل تناول بالتفريع من أجل الخيس بالعهود لويس الرابع عشر أعظم ملوك فرنسة وهما ما ذكره مولاي عبد الرحمن بن زيدان حفيد مولاي اسماعيل في كتابه « اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » في الصفحة ٤٥ من الجزء الثاني قال حفظه الله

« ومن أكبر البراهين وأوضح الدلائل على ما كلن بينه وبين عظماء ملوك أوروبا من العلاقات السياسية ما وقفت عليه في عدة كتب ومخبرات صدرت بينه وبينهم ألم بكثير منها مؤرخ فرنسا الماهر الشهير الرحالة الفيلسوف الخبير الكنت دوكلستري في عدة من

كتبه واليك نصوص بعضها وصورها الفوتوغرافية وقد خاطب فيها لويس الرابع عشر ملك فرنسا وجاس ملك الانكليز ودون كرلوس ملك اسبانيا

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم من عبد الله تعالى الامام المظفر بالله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين انشريف الحسيني أيداه الله ونصره . (ثم الطابع) بداخله : اسماعيل بن الشريف الحسني الله وليه (وبدانته) : العز والاقبال » الى عظيم الروم بفراضيص لويس الرابع عشر من هذا الاسم السلام على من اتبع الهدى وبعده طريق النبي والردى أما بعد فاعلم أن الذي ظهر لنا انك ليس عندك قول صحيح ولا كلام رجيح ولا أظنك الا غلب عليك أهل ديوانك وصاروا يلعبون بك كيف شاءوا ولا يقي لك معهم ضرب ولا لقب ودليل ذلك اننا ما زلنا ماقبضنا منك محبة قول ولا أبرمت معنا شيئاً ففلامنك (أى ملكة هواندة) الذين ليس لهم رئيس وما عندهم الا الديوان نكلموا معنا كلمة وقبضناها عليهم ووفوا بها حين ذهب خديمتنا ابلادهم لما ان طلبوا منا ذلك فرحوا به واكرموا وبروا به واتي من عندهم بعشر مائة مكحلة وستة عشر مائة قنطار من البرود ومائة وسبعة من المسلمين أطلقوهم من الأسر لوجوهنا وعملوا من الخير ما عملوا مراعاة لنا وبتوا في قولهم ووفوا بكلامهم . وأنت لا زال لم يصح منك قول ولا وفاء واولئك الذين كانوا قدموا اليك من هذه البلاد ليس هم من خدامنا ولا من أصحابنا ولا من لهم معرفة معنا فالحاج على معين حيث أسره ولده لاذ بالبعض من خدامنا واستحرم به وقدم اليكم على شان اولئك المسلمين وجز على دار السباع ودار النعام واتى اليكم بما اتى ولا شعرنا به ولا عرفنا كم اخذ وقلنا انه ان وصلكم ولا بد تعملون له غرضه في اولئك المسلمين وتسرحونهم . فاذا به هو تحيّل على ولده الى ان جاء به واتم ما عملتم صواباً في غيره ولا صدر منكم مراعون لاجله . ثم بعد ذلك قدم لعل مقامنا صاحبكم انبشور واتانا بشئ من الخرق مع فاصوالحرير وهل نحن ممن يعجبه ذلك ويسره فتحن معشر العرب لانعرف الا الصحيح ولا يسرنا الا ما فيه مصلحة المسلمين كلهم ومع ذلك اعطينا لصاحبك عشرين نصراً نياً سيفطناها بها وطننا انك ولا بد تراعى الخير وتبعت لنا ولوعشرين مسلماً تجبر بها خواطرننا وتسكون هي الطريق للكلام الذي تريده منا . فاذا بك ما عملت شيئاً من هذا ولا جزيت باحسان . وثانياً قبضنا لك سفينة قبل ان يقع الكلام بيننا وبينك بثلاثة أيام أو أربعة على التحقيق وهي موسوقة

بالكر وتبغة وثقفتها نحواً من ثلاث سنين بقصدك ولا تركنا أحداً يمد يده فيها وقلنا انك تراعى خبرنا وتعمل لاولئك المسلمين طريقاً وتسرحهم وان كانوا ليس فيهم من هو خديمتنا ولا من هو محسوب من جيشنا ولا من هو معرفتنا فما هم الا من لاخلق لهم ولا يركب البحر عندنا الا أهل التمرين . ولو أطلقتمهم وان كانوا ليسوا بشيء فتكون عملت الخير بذلك وتقول انك عملت مسئلة تراعى عليها . وأعظم من ذلك كله هو ان رئيساً من بلادنا اسمه التاج كان أعطاه صاحبك الذى اتانا خط يده على انه يشتري سفينة من الجزائر يسافر بها قرصان وماعليه فيمن لقيه من فرضيص فلما ان اشتراها وسافر بها وغنم قطارمة موسوقة بالرخام والريال مع ما فيها من الحرير وغيره وبعثها مع أصحابه ستة وعشرين مسلماً وتعرضوا لها سفنكم واخذوها و ثقفتها انت اياماً ثم بعد ذلك مزقتها والمسلمون الذين كانوا معها خدمتهم فى الغراب. فلماذا لم تردّها أو ثقفتها ثلاث سنين كما ثقفتنا نحن سفيتكم وهل هذه هى صحة القول فهذا مما يدل على عدم صحة كلامك وما ثبت الاخلال بقولك وقلة وفائك لحنى الآن فالذى ظهر لنا انه ما يليق بنا معك الا الشر واذا أردت تثبيت المهادة و ابرام الكلام فيها وامضاء حاجتها فابعث لنا من عندك قونصو بالتفويض على الأمر ويجلس هنا فى أحد مراسينا ويكون الأئمناء معه فى هذا كله ونبرم معه هذا الأمر ويكون من أهل الحل والربط عندكم والا بان ظهر لكم خلاف ذلك فاعلمنا وعرفنا بما عليه عملك وما اضرته طويتك والسلام على من اتبع الهدى وفى التاسع من شعبان المبارك سنة خمس وتسعين والقب « انتهى

ولقائل أن يقول كيف يكتب السلطان اسماعيل مثل هذا الكلام الجاسى الى لويس الرابع عشر أعظم ملوك اوربة فى عصره بل الى هذا العصر ؟ والجواب أن السلطان اسماعيل لم يقل شيئاً غير صحيح وقد كان لويس الرابع عشر قليل المبالاة بالعهود لا سيما مع المسلمين وقد كان يستبقي اسرى المسلمين عنده سنين طوالاً لا يرضى بفكاكهم ولو أمكن أن يفك بهم بقدر عددهم من اسرى الفرنسيس . ولقد عابه بعض مؤرخى الافرنجة فى ذلك واظهروا ما بينه وبين مولاي اسماعيل من الفرق وقالوا ان مولاي اسماعيل كان يبذل ما عزوهان فى فكاك أسير مسلم أياً كان وطالما فادى وهادى لاجل استخلاص اسارى المسلمين الذين فى بلاد الافرنج غير مهم بالاستفادة من اسرى النصارى الذين كانوا عنده

وربما بلغ عددهم ثلاثين ألف أسير . أما لويس الرابع عشر فكان يهمة أن يوفر على خزينته وان يشغل في سفنه وأغرته اسارى المسلمين ولا يبالي أن يكون بقي في الاسر عند ملوك الاسلام اضعاف عددهم . قرأت هذا الاتقاد في كتب من تواريخ الافرنج المعتبرة فهان على مولاي اسماعيل أن يقرعه ولم يكن اسماعيل بالذى يهاب لويس وقد كان عند اسماعيل جيوش جرارة منها مائة الف أسمر يقال لهم جيش البخارى وان كان لويس الرابع عشر قد تولى ملك فرنسة رأساً أربعاً وستين سنة فان السلطان اسماعيل تولى ملك المغرب نجساً وستين سنة حتى كان أهل المغرب يسمونه بالحى الدائم

وليس لويس الرابع عشر أول من خاس باليهود بين ملوك اوربة بل أكثرهم كانوا لا يوفون بعهودهم ولا سيما مع من عاهدوا من المسلمين صدق فيهم قوله تعالى (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ) وهذه بينهم وبين المسلمين شنشنة قديمة فمن صدر الاسلام الى الآن المسلمون يوفون معهم بعهودهم الا ما ندر وهم يفترون بالمسلمين لمجرد البغض والشنآن وبناء على ذلك المبدأ الجزويتى الشهير (الغاية تبرر الوساطة) . أما الشريعة الاسلامية فليس فيها (الغاية تبرر الوساطة) ولا (الشر الذى ينشأ عنه خير هو خير) بل فيها أن الشر شر بنفسه الا ما كان من قصاص أو نكال شرعى . وفيها أن العهد لا بد من القيام به ولا يجوز الخيس به ولو مع الشركين وفيها « اَيْسَ الْبِرِّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا » الآية وفيها « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » وفيها « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْتُمَا إِيَّاهُمْ فَعَاهَدْتُمْ إِلَىٰ مَدَّةٍ بِهِنَّ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّقِيِينَ » وفيها « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » وفيها « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا » وغير ذلك من الآى الكريمة والأحاديث الشريفة مما لا يكاد يحصى . وقد عمل بذلك ملوك الاسلام وأمرأؤه الا ما ندر وكان تاريخ الاسلام من هذه الجهة ناصحاً طاهراً بالنسبة الى تواريخ الأمم الأخرى

وقد بلغ من وفاء المسلمين بعهودهم أنهم كانوا يوفون بها لمن سبق منه الغدر أحيانا روى البلاذرى في فتوح البلدان : ان الروم صالحت معاوية على أن يؤدي اليهم مالا وارثهن معاوية منهم رهنا فوضعهم في بعلبك ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهنهم وخالوا سبيلهم وقالوا : « وفاء بغدر خبر من غدر بغدر » . وهو قول الأوزاعي وغيره .

وروى البلاذرى في فتح قبرس أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك كان أجلى خلقا من أهل قبرس الى الشام لأمر انهمم به فأنكر الناس ذلك فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم وكان حيد بن معيوف الهمداني غزاهم في خلافة الرشيد (وكان أمير البحر لعهد الرشيد) لحدث أحدثوه فأسر منهم بشراً ثم انهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد برد من أسروا منهم فردوا . قال البلاذرى : وحدثني بعض أهل العلم من الشاميين وأبو عبيد القاسم بن سلام قالوا : أحدث أهل قبرس حدثاً في ولاية عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس في النغور فأراد نقض صلحهم والفقهاء متوافرون فكتب الى الليث بن سعد ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة وموسى بن أعين واسماعيل بن عياش ويعجب بن حزة وأبي اسحاق الفزاري ومحمد بن الحسين في أمرهم فأجابوه وكان فيما كتب به الليث بن سعد ان أهل قبرس قوم لم نزل تهمهم بغش أهل الاسلام ومناجحة أعداء الله الروم وقد قال الله تعالى « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » ولم يقل لا تنبذ اليهم حتى تستيقن خيانتهم وانى أرى أن تنبذ اليهم ويُنظروا سنة يأتعمرون فمن أحب منهم للحاق ببلاد المسلمين على أن يكونوا ذمة يؤدي الخراج قبلت ذلك منه ومن أراد أن ينتحى الى بلاد الروم فعزل ومن أراد المقام بقبرس على الحرب أقام فكانوا عدواً يقاتلون ويُغزون فان في انظار سنة قطعاً لحجتهم ووفاء بعهدهم . وكان فيما كتب به مالك بن أنس : ان امان أهل قبرس كان قديماً متظاهراً من الولاة لهم وذلك لأنهم رأوا أن اقرارهم على حالهم اذل وصغار لهم وقوة للمسلمين عليهم بما يأخذون من جزيتهم ويصيبون به من الفرصة في عدوهم ولم أجد أحداً من الولاة نقض صلحهم ولا أخرجهم عن بلدهم وأنا أرى أن لا تعجل بنقض عهدهم ومناذتهم حتى تتجه الحجة عليهم فان الله يقول : (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ) فان هم لم يستقيموا بعد ذلك ردعوا عنهم

ورأيت أن العذر ثابت منهم أوقعت بهم فكان ذلك بعد الاعتذار فرزقت النصر وكان بهم
الذل والخزى ان شاء الله تعالى »

وروى البلاذرى أن قوماً بجبل لبنان خرجوا على عامل بعلبك فوجه صالح بن على
ابن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلهم واقر من بقى منهم على دينهم واجلى قوماً من أهل
لبنان فحدث القاسم بن سلام عن محمد بن كثير أن الاوزاعي كتب الى صالح رسالة طويلة
حُفظ منها : « وقد كان من اجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن مماثلًا لمن خرج على
خروجه ممن قتل بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامة بذنوب
خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم . وحكم الله : أن لا تز وازرة وزر أخرى وهو أحق
ما وقف عنده واقتدى به . وأحق الوصايا ان تحفظ وصية رسول الله ﷺ فانه قال : من
ظلم معاهداً وكلّفه فوق طاقتة فانا حجيجهُ »

فتمثل أيها القارىء في هذه الآثار وقابل بينها وبين أعمال ملوك الاسبانيول وسائر
ملوك الافرنج في المسلمين وتأمل في فتاوى الاوزاعي رضى الله عنه وأمثاله من الأئمة في
النصارى وقايس بينها وبين فتاوى الباباوات والسكزادلة في أهل الاسلام : لا شك أن المسلم
له الحق بعد ذلك أن يهتف :

اولئك آباءى جئنى بمنلهم اذا جعتنا يا جريرُ المجمع

وانى لاختم كلامى ببعض جل ذكرها المؤرخ المصرى الفاضل محمد لبيب البنتونى
في كتابه « رحلة الأندلس » وذلك انه بعد أن أتى على ذكر كل ما ارتكبه الاسبانيول من
الفظائع في مسلمى الأندلس قال : « كان الخلفاء وهم في قوتهم وعصيتهم الدينية يحترمون
عقائد شعوبهم وكانوا يحترمون المتدينين من أهل الذمة وكانوا يوظفونهم في حكومتهم
فكان منهم الاطباء والوزراء . وكان المتوكل العباسى على صلاته في دينه يؤاخذ النصارى
على عدم تمسكهم بدينهم كما فعل مع طيبيه حنين وكان بلغه انه تغل على صورة السيدة العذراء
فحده وسجنه . وفي أيام المعتض بالله قامت العامة على رجل من النصارى اتهموه بأنه سب
النبي واحضروه بين يدى الوزير القاسم بن عبيد الله وطالبوه باقامة الحد عليه فصرفهم
لعدم تحققه صحة دعوام . وقد صلب الخليفة الحكم بن الناصر أحد عماله لأنه بلغه انه ظلم
أحد أهل الذمة »

ثم قال : « ان الدول النصرانية كانت تلجأ الى سماحة الاسلام وعدائه فقد أرسلت دولة المجر الى السلطان أحد الاول ترجموه أن يأخذ المجر تحت حمايته وقاية لها من ظلم النمسا المسيحية

» ولما فتح المسلمون الجزيرة (العراق) هربت قبيلة اياد (وكانوا نصارى) الى بلاد الروم فكتب عمر الى هرقل بردها . فأخرجها هرقل من دياره وكان على الجزيرة الوليد ابن عقبة فإني ان يقبل منهم الا الاسلام . فكتب اليه عمر : دعهم ان لا ينصروا وليدأ ولا يمنعوا أحداً من الاسلام . ثم عزل الوليد عنهم لشدة

» وفي مدة السلطان ابراهيم العثماني استولى الترك سنة ١٦٤٥ على خانية عاصمة جزيره كريد . وكان نصارى كريد يساعدون البنادقة على الاتراك فازاد السلطان ان يقتل نصارى كريد في مقابلة ذلك لكن المفتى أسعد زاده عارضه في هذا الأمر . معارضة شديدة قائلاً انه يخالف للشرع الاسلامي . فلم يقع سلطان العثمانيين في الشناعة التي وقع فيها ملوك الاسبان امام الله والتاريخ »

وتحرير ذلك انه لما غلب فرديناند ويزابلا على آخر مملكة اسلامية في اسبانية وهي دولة بني الأحر من سلالة الخزر ج واستوليا على غرناطة سنة ١٤٩٢ عقدا مع المسلمين معاهدة تتضمن لهم حقوقاً كثيرة ومن الجملة حريتهم الدينية التامة وفصل أمورهم الشخصية لدى قضاتهم وغير ذلك من الشروط التي أمضاها فرديناند وامرأته على أسل تسهيل الفتح وتقصير أجل المقاومة وهما ناويان باطناً نقضها منذ أمضاها - كما جرى هذه المرة في معاهدات الحلفاء أثناء الحرب العامة مع ملك الحجاز أمضوها مؤقتاً على نية نقضها فيما بعد - فلم يمض على تسليم غرناطة عدة اشهر حتى ذهبت تلك المعاهدة كأن لم تكن أو كما قال صاحب نفع الطيب « نقضها الطاغية عروة عروة » وتأسس ديوان التفتيش الشهير مؤلفاً من الأساقفة وبأمر من البابا وصار يسيطر على عقائد الناس فحمل المسلمين واليهود على النصرانية أو يجلبوا عن البلاد فجلا أكثر المسلمين الى مراکش وتونس والجزائر ووصل منهم أناس الى مصر والشرق وجلا أكثر اليهود الى مملكة ابن عثمان فأقاموا بالقسطنطينية وسانليك وازمير وهم فيها الى يومنا هذا القتهم الاسبانية وبقى عدد كبير عز عليهم فراق أوطانهم فتظاهروا بالنصرانية تخلصاً من الجلاء ولكنهم بقوا على عقائدهم

سراً فصار ديوان التفقيش يعمل عمله فيهم وارنكب تلك الفظائع التي يحفظها له التاريخ وقتل وصلب وأحرق بالنار كما هو مشهور . ومع هذا فبقى أكثر المسلمين نحو ٢٠٠ سنة وهم يحفظون ديانتهم سراً ويتظاهرون بالكثلكة وقد يزداد عليهم الضغط فيلجأون الى الثورة ولاسيما في جبال البشترات التي اعتصموا بها لمنتها جفرت بينهم وبين الاسبانيول وقائع عديدة الى ان انتهى أمرهم في زمان فيليب الثاني في أوائل القرن السابع عشر بجلاء البقية الباقية منهم الى افريقية . على انه مما لاشك فيه ان كثيرين من الآباء أجبروا على تعليم أولادهم الديانة المسيحية منذ الحداثة فنشأ هؤلاء مسيحيين وبطول الزمن صاروا اسبانيولا وهؤلاء هم الذين اليوم ينتسبون الى العرب تدل على ذلك خلقتهم وسحتهم وأسماؤهم وأماكنهم . وربما يقال ان مسلمي الاندلس أنفسهم لم يكن أصلهم كلهم عربا بل أسلم في الفتح العربي اسبانيول كثيرون وهذا جائز وهو ما كان يدعيه ديوان التفقيش ويجعله مبرراً لأعماله وان كان تاريخ المدينة انكرها ولقد اعتادت الدنيا هذا المد والجزر في الحكومات والديانات فخبذا لو خفت حدة هذا التباغض بين الناس من جراء القوارق الدينية لاسيما بين ارباب المذاهب التي تدعو جميعها الى عبادة الخلاق ومكارم الاخلاق

مسير الاندلسيين

للأستاذ الأكبر سيدي محمد الطاهر بن عاشور التونسي

وقد اطلعنا على محاضرة تحت عنوان « مسير الأندلسيين » بقلم الاستاذ الاكبر سيدي محمد الطاهر بن عاشور التونسي كبير أهل الفتيان من السادة المالكية بتونس جاء فيها خبر احتضار دولة الاسلام بالاندلس وفق ما جاء في النسخ وغيره ثم قال : قلنا ان عدداً من المسلمين اختاروا الخروج من الأندلس لما رأوا بوارق القدر والحياة . ثم عزم أكثرهم على الخروج حين أرغموا على التنصر وضيق عليهم في أمور دينهم وقد قدمنا أنهم كانوا اشترطوا على الاسبان في عقد الصلح أن من رام من المسلمين الخروج يخرجونه الى بر العودة من غير دفع كراء ولا مفرم .

فلما طلب جميع المسلمين الخروج لم يحضروا لهم الا قليلا من الاجفان حتى انوا عناء عظيما .

ولما صلحوا أهل جبل (بلقنة) على الخروج الى فاس أخرجوهم بعياهم وما خف من أموالهم دون الذخائر ثم لما أصدر فيليب الثالث أمره باخراج كل من اشتبه أمره من الموريسكو أمر بأن لا يخرجوا معهم نقود الذهب من المملكة وبذلك لم يجدوا فائدة في بيع أملاكهم فتركوا معظمها وأحضرهم قليل من المراكب وكان الخارجون على التقدير الصحيح ثلاثمائة ألف ومن المؤرخين من يقول نحو المليون فساfer كثير منهم الى فاس وتطوان وسلا والرباط وتلمسان وهران وتونس وعددهم يقرب من مائة وثلاثين ألفاً . ومات منهم في الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والتعب وخرج منهم الى بلاد فرانساً بمقدار مائة ألف فاشترطت عليهم الافرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا ذلك فردوا من حيث أتوا فاحتاروا في أمرهم وقصدوا المراسى الفرنسية للسفر الى المغرب فمات كثير في فرنسا ونجا قليل منهم وقد تسلط أعراب البوادي على كثير ممن خرجوا الى فاس وتلمسان في الطرقات ونهبوهم ولم يسلم من ذلك الا الذين خرجوا الى تونس

الأندلسيون في البلاد التونسية

علاقة الأندلس بتونس قديمة من وقت الدولة الحفصية فقد وفد منهم على تونس عدد كثير في مدة الحفصيين لاسيما في زمان السلطان المنتصر بالله الحفصي وكان لوفودهم على تونس أثر عظيم في انتقال حضارتها من البساطة الى الرقي والترف والرفقة قال ابن خلدون في ذكر المنتصر «وملت اليه ثغور القاصية من العدوتين^(١) يد الاعتصام بما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه (أبي زكرياء) من شاعر مفلح وكاتب بليغ وعالم نحري وفي أيامه عظمت حضارة تونس وكثر ترف ساكنيها وتأنق الناس في المراكب والملابس والمباني والماعون والآية» .

وكان بتونس في الدولة الحفصية جند من الأندلس خاصة وكان رجال شورى السلطان من الموحدين ومن الأندلس قال ابن خلدون عند ذكر نزول القرنيس على قرطاجنة «وتفاوض السلطان (أى المنتصر) مع أهل الشورى من الأندلس والموسدين - ثم قال - وملئت سواحل رادس بالمرابطة من جند الأندلس والمتطوعة»

وأيضاً قد كان بين تونس والأندلس ارتباط بولاية أبي حفص الهنتاتي جد الحفصيين امارة اشيلية من جهة عبد المؤمن بن علي ثم ابنه عبد الواحد ثم ابنه زكرياء لذلك لما انجلى المسلمون من الأندلس جلاءهم الأخير كانت البلاد التونسية من أول ما وقع نصب أعينهم في هجرتهم فركبوا اليها البحر ونزلوا بشطوطها والظاهر أن نزولهم كان بمرسى بنزرت و بمرسى المهديّة ومن هذين المرسيين قصدوا حاضرة تونس ثم تفرقوا في البلاد فاقتبلهم أهل المملكة بالترحاب ولم ينلهم في طريقهم نهب ولا ضرر كما قلنا آنفاً وقيل أن يفدوا على الحاضرة أرسلوا الى أهلها يستنبثون أيسمحون لهم بالدخول فوجدوا من أهل الحضرة رغبة في قدومهم وإكراماً لشواهم .

وقد وقفت على كتاب اسمه نور الأرماس في مناقب سيدي أبي الفيث القشقاش ألقه السيد المنتصر الحفصي وكان من مریدی سيدي أبي الفيث وهذا الكتاب موجود بـمخزنه جامع الزيتونة تحت عدد ٣٨٨٣ قال في أول الفصل الثاني منه ما نصه «لما جاء الأندلس لتونس كنت أنا بتونس برسم الزيارة وكنت ذات يوم خارجاً من باب بشرقي جامع

(١) هي عدوة الأندلس لأنها أبعد عنا من عدوة المغرب

الزيتونة فلقيت كبراء الأندلس ومناشئهم وفي أيديهم ورقة كاغد وهم يفتشون على من يقرؤها لهم فصادفوتني فقالوا أنت تقرأ خط الشيخ سيدي أبي الفيث فقلت لهم نعم فأطلبوني على ورقة مكتوبة بالأخضر فيها مكتوب « الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله الى ساداتنا الاندلسية خصوصاً منهم سيدي فلان وسيدي فلان الى أن سمي من أكابرهم عشرة رجال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فلا مزيد بحمد الله تعالى إلا خيراً وأنا داعي لكم بخير وما ذكرتم لنا على أنني أستخير الله تعالى لكم فاستخرت لكم عند والدي والثاني ليلة عند أستاذي سيدي محمد حذيفة والثالث إلهة عند والدي فرأيت لكم خيراً والمهدية مشتقة من الهدى وأنتم كما قال الشاعر:

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها كأنكم يبقاع الأرض أمطار

وذكر تكلمة الأربعة الآيات والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته من العبد الفقير أبو الفيث ثم أخذوا الورقة من يدي وساروا فرحين مستبشرين بكلام الشيخ اه « وهذه الحكاية صادرة من شاهد عيان وهي أجلى ما يمثل لنا جالية الأندلس ولا يعادها فقرات مثلها في كتب التاريخ ويستفاد منها أمور أحدها أن أهل الأندلس نزلوا بشاطئ المهديّة انقول الشيخ لهم والمهدية مشتقة من الهدى فتفاء لهم بذلك الثاني أنهم كانوا على حالة جهل حتى لم يستطيعوا قراءة كتاب الشيخ أبي الفيث الثالث ان اسناد رئاستهم الى عشرة كانت من الأمر المطرد فيهم في سائر أحوالهم ومنه كان رؤساء صناعة الناشية - وهي من مآثر الجلاء الأندلسي - عشرة يلقبون عندنا الى اليوم «بالعشرة الكبار» الرابع أنهم كانوا أوجسوا خيفة من سوء القبول فاوفدوا الى الشيخ من راجعه في شأنهم ولذلك استفسروا لما رأوا منه حسن القبول لأن الشيخ أبا الفيث في ذلك العصر هو معتقد أهل تونس من أمير ومأمور

وكان وفود الأندلس الى تونس في سنة ١٠١٧ في ولاية عثمان داي قال ابن أبي دينار في المونس « وفي سنة ١٠١٧ والتي تليها جاءت الأندلس من بلاد التصاري نفاهم صاحب اسبانية وكانوا خلقاً كثيراً فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا فاشترى المناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أما كن ومن بلدانهم المشهورة (سليمان . ويلي . ونيانو . وقرنبايه .

وتركي . والجديدة . وزغوان . وطبرية . وقريش الواد . ومجاز الباب . والسوقية . ونستور . وهي من أعظم بلدانهم وأحضرها والعالية . والقلمة - أي قلعة الأندلس - وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكرم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد ، ولم يذكر ابن أبي دينار من استوطن منهم بمحاضرة تونس و بلد بنزرت فأما تونس فزها منهم أهل الصنائع والفنون فأهل الصنائع الدقيقة سكنوا المدينة وهم أهل الثروة منهم وبنوا لأنفسهم حومة تعرف بزقاق الأندلس قرب جامع القصر . وأما أهل الصنائع الأخرى وبعض الفلاحين من أهل الحواضر فسكنوا ر بض باب السويقة وهم أول من بنى هناك خارج السور فبنوا الحومة المعروفة بحومة الأندلس ولم يزل من بقاياهم هنالك عائلات منهم عائلة الأندلوس .

ولما نزلوا تونس احتفى بهم أهل البلد قال السيد المنتصر في مناقب سيدي أبي الفيث القشاش « ولما أن جاء الأندلس الى تونس ضاقت بهم المحاجج والطرقات والأسواق والديار والمخازن والحوانيت وصاروا يأتون الى الشيخ والى سباطه وجرى معهم الشيخ رضى الله عنه كل ربح المرسله فى إطعام الطعام وكسوة العزيان حتى انى أحصيت ما يخرج لمؤوتهم اثنتى عشرة مائة خبزة من القمح وقفيزين من الدقيق والكسكسوئى يابس وشئ مسقى وزوج أحمال من الخروب - لعلف النواب - بخلاف اللبن واللحم رأسين بقر كل يوم هذا على حساب العام الكامل ضيقهم الشيخ ولما كثر الأندلس بتونس وعمروا اقليمها ودواثرها وعمروا الجزيرة وكثرت بلدانهم وكثر خيرهم وحرثهم وتأهلوا صاروا يأتون من كل بلد لهم زيارة الشيخ سيدي أبي الفيث ويأخذون على يديه العهد من كل بلد حزبا وكل حزب يجعل له نقيا والنقيب هو شيخ الفقراء ويعطيه علما - أى علما - أخضر ويوصيه بطاعة الله وكان الأندلس ممتلئين لأمر الشيخ سامعين له مطيعين فى كل أمر وكان يحسن إليهم ويواسيهم ويكاتبهم ويأخذ بخواطيرهم ويقضى حوائجهم فى كل ما يحتاجون إليه وكان أقربهم إليه سيدي محمد بن عبدالرفيع الأندلسى » اهـ

أما بلد بنزرت فقد سكنها الأندلس وبنوا بها حومة تعرف الآن بحومة الأندلس وأسسوا قربها قرية منزل جليل ومنزل عبدالرحمن والعالية وغلر الملح وكذلك نزلوا منازل من الجزائر القبلية غير ما ذكره ابن أبي دينار مثل منزل أبي زلفى ومنزل تميم بالدخلة وقرية

الفهري وقرية دار شعبان ونزل فريق منهم ببلد نابل
وقد نظم الأندلسيون لأنفسهم بهذه البلاد نظاما حفظ لهم عوائدهم وقوانينهم الأصلية
وأقاموا عليهم كبرا بلقب شيخ الأندلس فكانوا يحكمونه في فصل الخلاف بينهم ويرجعون
إليه في مهامهم ودام هذا الوظيف فيهم إلى مدة الأمير محمد باشا وآخر من وليها الشيخ مصطفى
شلي بعد سنة ١٢٧١

الأندلس بالمغربين الأقصى والأوسط

اتصال أهل الأندلس بالمغرب الأقصى قديم من عهد السولة اللثونية ثم الموحدية ولما
استولى الاسبان على غرناطة قصد سلطانهم أبو عبدالله بلاد فارس وتبعه جمع عظيم منهم ثم
لما نجلى الأندلسيون الجلاء الأخير قصت جوع عظيمة منهم بلاد المغرب واستوطن معظمهم
مدينة سلا ورباطها المعروف اليوم بالرباط أو بقلعة سلا وبنوا هناك قصورا ودورا وحمامات
واتفتح بهم ملوك المغرب في تعليم الصناعات وتدبير الحضارة وجندوا منهم جندا عظيما في
البر والبحر وبهم فتح الملك المنصور السعدي اقليم السودان فمن أجل ذلك لقب مسمو
السنغال عند الافرنج بلفظ مور^(١)

ويظهر أن جل أهل الثروة من الأندلسيين قصدوا المغرب الأقصى واستوطنوا فاسا
وبشوا هناك الحضارة الأندلسية في جميع مظاهرها ولاسيما فنون البناء والنقش والتزويق
وأساليب المعيشة وبث العلم

وكذلك تآمت علماء الأندلس قدا تنقل معظمهم إلى فاس وبشوا هناك العلوم فكان
دخولهم نهضة عامة في الحضارة العلمية والفنية بالمغرب الأقصى
وأما المغرب الأوسط فقد نزلوا منه بتلمسان وهران وانجاز إلى تلمسان طائفة من
أهل العلم فظهرت هناك أيضا نهضة في العلم والحضارة



والخلاصة أن ملحق مهاجري الأندلس من السعادة والعمران قد حصل نقيضه فيما أخلوه
من بلادهم التي سكنها الاسبان وما عمروها وعد المؤرخون إخراج الأندلسيين من وطنهم
أعظم خطيئة أخطأها فيليب الثالث على مملكته واشقى بها لأجل ذلك على الفقر والتأخر
وإذا نظرت إلى البلاد وجدتها تشقى كما يشقى العباد وتعد

(١) قلت وقد وجد في تبيكو قوم يقال لهم الأندلس من بنابا هؤلاء

طرابلس الغرب وإيطاليا

المؤلف

- (١) الكتب الواردة على السيد احمد الشريف السنوسي من لورد كشتنر والسير
مكاهون والجنرال مكسويل وهي ثلاثة .
(٢) ما سبق في التاريخ من استيلاء الافرنج على طرابلس الغرب
(٣) عرب طرابلس الغرب لعبد الستار بك الباسل

قد جرى بعد طبع الجزء الأول^(١) من هذا الكتاب حوادث كثيرة في طرابلس
الغرب ان لم يسعنا شرحها كلها فلا مناص من الاشارة اليها ولو على وجه الاختصار لأنها
من آلم ما ألم بالمسلمين في هذا العصر
منذ استولى على إيطاليا حزب الفاشيست تحت رئاسة موسوليني بدأ الاسلام في
طرابلس وبقية يؤول الى الانقراض التام

ومن المعلوم أن مبادئ الفاشيست هي الوصول الى أغراضهم بكل وسيلة وبدون
أدنى نظر الى ما يقال له « حقوق الأمم » و « حقوق الانسانية » وما أشبه ذلك مما انفقت
الأمم على مراعاته . بل يعلنون ويصرحون ولا يجمعون بأنهم لا يعرفون الحرية ولا
يقدمون للحقوق العامة عهداً وان كل شيء يروونه ضرورياً لأجل تعالي إيطاليا وبسببها
في الأرض أو لأجل توطيد دولة الفاشيست فهو عندهم سائق جائز طابق ذلك الحقوق
الانسانية والحقوق الدولية أو لم يطابق . ولوسوليني خطب كثيرة وكتابات بتوقيع تؤخذ
حسبها هذه المقاصد بدون اشكال فلماذا لم تنب في إيطاليا لا حرية قول ولا حرية كتابة وكل
شيء يصادم ارادة الفاشيست فهو ممنوع . ولما أراد البابا تأييد جمعيات كاثوليكية هب
الفاشيست في وجهه ومنعوه من تأييدها وأقفلوا أما كن هذه الجمعيات لا عداوة للكثلكة
التي هم أنصارها الأشداء بل خشية أن يوجد في إيطاليا حزب خارج عن حزب الفاشيست

(١) راجع صفحة ٢٩٠ من الجزء الأول

ولقد احتجّ البابا على استبداد الفاشيست به واشتد الخلاف بينه وبين موسوليني ولكنه حاب في مسعاه وذهبت احتجاجاته سدى وهذا بعد أن ألحق به الفاشيست اهانات كثيرة وبعد أن داسوا صورته بالأقدام غلنا في أسواق رومة

فالجزب الكاثوليكي الذي يهين البابا نفسه والحزب الايطالى الذى لا يجوز أن يكون فى ايطالية حزب سواه ولا يقبل فى تلك المملكة قانوناً غير الذى ينطبق على مبادئ الفاشيست لاشك أنه اذا تسلط على طرابلس الغرب كانت مبادئه أفضح وأشنع وأبعد فى الظلم مدى . فان الأمم الحرة الديموقراطية فى أوربة تجتهد مبلغ امكانها فى العدل والمساواة فى بلادها حتى اذا صارت بازاء المسلمين نسيت مبادئ العدل والمساواة وكالت بمكيال للاور بين و باآخر للمسلمين وأوضح دليل على ذلك حالة الادارة الافرنسية فى الجزائر وتونس والمغرب وحالة الادارة الهندية فى الجاوى وسومطرة ولا يستثنى من ذلك أيضاً حكم الانكليز فى الهند . فاذا كان هنا دأب الأمم التى تقيم للعدل والمساواة والحرية وزناً فما ظنك بالقوم الذين لا يعرفونها من الأصل ولا يتقيدون بها تجاه أبناء جنسهم أنفسهم ومن يقولون انهم لا يدنون بشئ الا بالوصول الى عرضهم لا جرم أن المظالم التى أوقعها الطليان الفاشيست فى طرابلس وبرقة هى مما لم يقع نظيره فى هذا العصر . وقد يكون نادراً حتى فى القرون الوسطى . وما أحسن مقاله الوطنى المصرى المشهور الاستاذ عبد الرحمن عزام فى إحدى مقالاته البليغة وهو (ان الناس يبحثون عن أخبار الأندلس وكيف أجرى الأسبانيول بالمسلمين هناك .. وما لهم وللأندلس وأمور جرت فى القرون الوسطى فأمام أعينهم طرابلس الغرب فليذهبوا ويشاهدوا بأعينهم فى هذه الأيام فظائع لا تقل عما جرى بالأندلس)

فالفاشيست قرروا تحويل طرابلس وبرقة بلاداً لاتينية وأجمعوا انزال مليونين أو ثلاثة من الطليان بها بزعمهم أن ايطاليا ضاقت بأهلها . والحقيقة أن انزال نصف مليون ايطالى بطرابلس وبرقة قد تعجز عنه ايطاليا لما يتقاضاها ذلك من النفقات الوجيعة ولكون الأراضى الجيدة فى تلك البلاد قليلة جداً وهى على كل حال لا تستحق الهجرة اليها ولا يعيش بها الا القنوع . والفاشيست انما يقصدون فى الحقيقة مجرد الافتخار والابتهار بأنهم فتحوا بلداناً واستعمروا أقطاراً لأنه لو كان المقصود مجرد استتباع الأراضى فى نفس ايطاليا أرضون مهملة هى أجود من أرض طرابلس وأقرب للطليان وجزيرة سردانية من

من اخصب البقاع وأوسمها وهي تكاد تكون خالية

ومن شاء أن يعرف مايعترض إيطاليا من الموانع الاقتصادية في استعمار طرابلس الغرب وما يوجد في نفس إيطاليا من الاراضي التي هي أولى بالاستعمار منها فليطالع للسنيور « نيتي » رئيس وزراء إيطاليا سابقاً ومن أعظم رجال السياسة والعلم في أوربة تأليفه الذي يبحث فيه عن الديموقراطية والفاشيستية والبلشفية فانه يزداد بمطالعة هذا الكتاب يقينا بأن استعمار طرابلس لم يكن الا لأجل مسابقة الدول الأخرى في ميدان الفتوحات والتمرينات العسكرية لا لأجل مقاصد اقتصادية كما يزعمون وأن طرابلس لم تكن ولن تكون بلداً تؤتي أكلها على أثر استعمار أو استثمار

وخلاصة القول أن اخواننا الطرابلسيين لأمر يريد الله ابتلوا من الاستعمار الإيطالي الفاشيستي بالداوية الدهماء والبلية الصماء التي مهما كثرت مصائب الاسلام في هذا العصر فلا شيء منها يشبهها

فقد حزر بعض الواقفين بعشرين الف نسمة عدد الذين شنقهم الطليان من أهالي طرابلس وبرقة منذ احتلالهم وكثيراً ما شنقوا اناسا بدون محاكمة بل بمجرد ارادة قائد أو بمجرد ارادة ضابط صغير . وقد وقع لهم انهم شنقوا نساء جردوهن من ثيابهن وأبقوهن مجردات عدة ايام . وقد وقع انهم كانوا يسلكون ستين أو سبعين شخصاً في سلسلة واحدة ويحبسونهم على هذه الصورة مدة الى أن يموتوا . وقذف البحر مرة عدة جثث الى ساحل السلام مربوطاً بعضها ببعض فرجع الناس انها من جثث أهالي طرابلس لكثرة ما ربط الطليان من اولئك المساكين بالحبال ورموا بهم في البحر . وقضية الفظائع التي ارتكبتها العسكر الطلياني بأهل المنشية في أول نزولهم بطرابلس هذه قد اقشعرت لها أبدان الاوربيين برغم انهم على وجه الاجال لا يشعرون بالآلام المسلمين . وقد حاول الطليان تبرير تلك الاعمال الوحشية بكون الطرابلسيين قد هاجوا العساكر الإيطالية من وراء بناهم يحاربون الجيش العربي اذى امامهم ولكن ألؤفا من الافعال الوحشية التي أقدموا عليها قد أقدموا عليها بدون موجب سوى حب الانتقام من المسلمين والعمل لاستئصال شأفتهم من طرابلس وبرقة إيدخلوا للطليان الجوبها ويسكنوها آمنين

ولما كانت اراضي الجبل الاخضر من برقة هي أجود قطعة من برّ طرابلس وفيها

المياه الجارية والعيون الصافية والغابات الملتفة والمروج المريعة توجهت انظار الطليان الى استثمار هذه القطعة قبل غيرها وأخذوا يفكرون في الطريقة التي تمكنهم من اسكان الجنس اللاتيني فيها بدون أن ينازعهم أحد عليها. فلم يجدوا طريقة سوى اجلاء القبائل العربية الساكنة في الجبل الاخضر وجوارره عن أراضيهم وجعوا منهم ثمانين الف نسمة رجالاً ونساءً وأطفالاً وساقوهم الى صحراء « سرت » في الأراضي الواقعة بين برقة وطرابلس على مسافة عشرة أيام من أوطانهم الأصلية وأزلوهم في معاطش ومجادب لا يمكن أن يعيش بها بشر ولا بقرغلات جانب كبير منهم جوعاً وعطشاً ومات مواشيهم بأسرها من فقد الكلاء والماء . وعند ذلك جعلت الحكومة الإيطالية لكل عائلة منهم فرنكين ايطاليين يومياً أشبه بما يسمونه « قوت لايوت » وارتفع صراخ هؤلاء الأهالي وراجعوا الحكومة الإيطالية وشكوا لها موت ذراريهم وموتان مواشيهم فازادها ذلك الامضاء في عزيمتها ولكنها جاءت فأخذت منهم الرجال الذين من سن البلوغ الى الخامسة والأربعين وأدخلتهم في سن الجندية . ثم عملت الى الاحداث من فوق أربع سنوات الى ١٢ سنة فأخذتهم قهراً من أحضان آبائهم وأمهاتهم في يوم تشيب من هول الأطفال ودفعتهم الى ايطاليا لأجل تربيتهم وتنشئتهم في النصرانية . وهذا هو العمل الذي لم تقدم عليه حكومة بعد في هذا العصر والذي يشبه عمل الاسبانيول بمسلى الاندلس منذ أربعة قرون قد أعاده موسوليني في هذا القرن ولم يبال صراخ أولئك الساكنين ولا بال مخالفة ذلك للحقوق البشرية العامة التي تجعل الأب والأم أوصياء طبيعيين على أولادها القاصرين . وقد زعمت الحكومة الإيطالية أمام الناس انها انما نقلت هؤلاء العرب من أوطانهم لتعزلم عن عصابة الثوار الذين كان يقودهم عمر المختار رحمه الله . وهو كلام فارغ لا يقبله عقل ولا عدل اذ كيف تقدم حكومة على نقل ٨٠ ألف نسمة من مسافر رؤوسها خشية أن يتصلوا بمحسباته ناثراً غير ثم ان الطليان تغلبوا على الثوار المذكورين وقبضوا على قائدهم عمر المختار الذي ما فتى يجاهدهم من عشرين سنة وشنقوه بمحضرم غير من أبناء جلدته فضى الى ربه شهيداً وبكاه العالم اسلامي بأجمعه وانطفأت الثورة من كل برقة ومع هذا لم ترض الحكومة الإيطالية أن تعيد هؤلاء الاهالي الى بيوتهم وأوطانهم بل اتخبت من بقاياهم أربعة أو خمسة آلاف وأرجعتهم الى الجبل الاخضر يحرقون ويزرعون لا كالكين بل

كعملة في الأملاك التي نزعها الحكومة الإيطالية منهم وسلمتها الى المستعمرين الطليان .
وبعبارة أخرى مثلت إيطاليا في هذه المسألة أيضاً دور الأندلس عندما انتزعت أراضي
المسلمين وسلمتها الى كبار الاسبانيول والى الرهبان ثم جعلت المسلمين أصحابها القدماء
اكرمة في نفس أراضيهم لحساب غيرهم . وهذا هو السبب الذي أثار فلاحى الأندلس اليوم
وحلهم على مطالبة الحكومة الاسبانية بعد سقوط الملكية وتأسيس الجمهورية فيها باعادة
هذه الاراضى ملكاً لهم بحجة أنها كانت لأبائهم الذين كانوا مسلمين في الأصل . ولقد
قررت الحكومة الاسبانية الحاضرة تملك فلاحى الأندلس هذه الاراضى ونزعت
أيدي الرهبان ونبلاء الاسبانيول الذين كانوا يملكونها . فالفاشيست اقتفوا آثار
فرديناند وايزابلا في الأندلس من كل وجه . ثم لما تارت اعتراضات المسلمين على ايطاليا
من أجل اجلاء الثمانين الف عربى عن اراضيهم واغتصابها اياها وتسليمها الى الطليان
قامت ايطاليا بتمويه آخر لا يقل عن التمويه الاول سخفاً وهو ان تقول : ان كثيراً
من الحكومات الاسلامية قد أجبرت القبائل الرُّحَّل من رعاياها على التحضر والعدول
عن الهيام في البرارى وانها هي اى ايطاليا انما أرادت حل هؤلاء العرب على قبول
الحضارة . كما فعلت الحكومات الاسلامية نفسها ولا نعلم لماذا يستلزم حلهم على ترك
البدو أن يجالوا عن أملاكهم وأراضيهم ويصار بهم الى فلاة قاحلة لاماء فيها ولا كلاً
تقريباً ؟ وهل كانت تعجز ايطاليا عن اجبارهم على ترك البدو وهم في وسط أراضيهم
الخصبة بالجبل الاخضر ؟ ان هذا التمويه لم يقنع أحداً وقد أشرنا اليه مراراً والى سائر
فظائع ايطاليا بطرابلس في مجلتنا العربية النهج الافرنسية الملهج السماء « بالامة العربية »
La Nation Arabe وزيد على ذلك قولاً نقوله عن علم وعن خبرة وهو اتنا في أوائل
غزاة ايطاليا على طرابلس ذهبنا بنفسنا ومعنا بعض من أتباعنا وجاهدنا مدة ثمانية أشهر في
درنه وبنغازى فاتيح لنا أن نجوب الجبل الاخضر والاراضى التي تمتد من عقبة السلام الى
سهل بنغازى من أولها الى آخرها وعرفنا السلام ودقنا وطبرق وغور الطنفة وسائر ما
يسمى بالبطنان ثم الجبل الاخضر بما اشتمل عليه من اراضى قبيلة العبيدات في درنه وعين
منصور ونيج مارة وترت وبشارة والقيقب وشحات مدينة سيرنا القديمة وأراضى قبيلة الحاسه
فيها وبعد ذلك اراضى قبيلة البراعمة في قلب الجبل بجوار الزاوية البيضاء وبعد ذلك

أراضي قبيلة الدرسا وأراضي العرقا والعبيد حول قصبه المرج الى أراضي العواقر والمغاربة بظاهر مدينة بنغازي . وقد تعرفنا الى كثير من رؤساء هذه القبائل ومن مشايخ الزوايا السنوسية التي منها لكل قبيلة زاوية أو زاويتان أو ثلاث بحسب عدد تلك القبيلة وقد زرنا أكثر تلك القبائل في نجوعها ولم نجد منها قبيلة واحدة يصح أن يقال فيها انها عريقة في البداوة بل جميعها أصحاب زراعات وجنان وبساتين ومنها من يسكن المضارب ومنها من يسكن المدر ولكن الجميع حراثون زراعون مستقرون لا يظعنون الى أماكن بعيدة وإنما يشتون ويصيفون في بلادهم على عادة الكثيرين من الفلاحين وسكان الحجر في جميع الدنيا . ولنفرض جدلاً ان ايطاليا شاءت تحضيرهم كما تزعم أفلم يكن ذلك ممكناً مع ابقائهم في أراضيهم ؟ أم كان من الضروري لأجل تحضيرهم اخراجهم من أراضيهم المريعة البدعية واسكانهم في فلاة قاحلة ليموتوا ؟ كل الأدلة متظاهرة من أعمال ايطاليا في طرابلس و برقة على ان مراد الفاشيست هو استئصال الشعب الاسلامي من ذلك القطر لاحتلال اللاتين محله . ولقد وصلت ايطاليا الى هذا الغرض ان لم يكن بتامه فالى جانب كبير منه . فلقد كان أهالي طرابلس و برقة قبل غارة ايطاليا عليهما مليوناً ونصف مليون من النسم فلم يبق منهم الآن بحسب الاحصاء الأخير سوى سبعمائة الف نسمة . فيكون قد تناقص عددهم الى النصف بالظلم والعسف والقتل وما نشأ عن ذلك من رحيل الأهلين منهم من قصد السودان ومنهم من دخل مصر ومنهم من تحول الى تونس ومنهم من وصل الى الجزائر . والطلبان مسرورون بان الجوب بذلك يخلو لهم مغرورون بان افريقية ألفت اليهم بقيادها بواسطة طرابلس . وكل هذا أوهم وأحلام وستبدى لهم جهلهم الأيام . ولكنهم تركوا في قلوب المسلمين من جراء أعمالهم في طرابلس جراحات لا تومى وحزازات لا تنسى ومن جملة أعمالهم فيها عدا ماتقدم ذكره انهم لما احتلوا واحة الكفرة في ١٣ يناير من سنة ١٩٣١ الماضية استباحوا قراها ثلاثة أيام فقتلوا من صادفوه من الأهالي . وكان من جملة القتلى بعض الشيوخ الأجلاء مثل السيد محمد بن عمر الفضيل والسيد حميد الفضيل والشيخ فضيل الديفار وغيرهم ممن قتلوه صبراً غير داخل في ذلك من قتلوا في المعركة التي جرت بين الأهالي وجيش الحملة الطليانية وهم ٢٠٠ شخص . ثم ان الطليان انتشروا في القرى والبساتين ونهبوا كل ما وقع في أيديهم ولم يرحوا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء وصادفوا الشيخ مختار الغدامسى وهو

شيخ فان بالغ ثلاثا وتسعين سنة ومن جملة علماء السنوسية خملوه مقيداً بالرجال على جبل ونفوه من الكفرة مات في الطريق . ثم اغتصبوا النساء في أعراضهن وقتلوا منهن كثيراً ممن دافعن الى الآخر عن أعراضهن . وكان نحو من ٢٠٠ امرأة من نساء الأشراف قد فررن الى الصحراء قبل وصول الجيش الايطالى فاسلوا قوة في اثرهن تتأثرهن حتى قبضوا عليهن وسحبوهن الى الكفرة حيث خلاهن ضباط الجيش الطلياني واغتصبوهن وهكذا أنزلوا المعرات بسبعين أسرة شريفة من أشراف الكفرة الذين كانت الشمس تقريبا لا ترى وجوههن من الصون والعفاف . وقد أشارت الصحف الطليانية الى هذه الحادثة وصرحت في باب الافتخار قائلة : « ان الجيش قبض على ٢٠٠ امرأة من نساء الزعماء » وقرأنا ذلك باعيننا ولحظنا ان مقصود البلاغ العسكري الايطالى التبجح بكون حلائل زعماء الكفرة صرن الى الضباط . الا اننا انتظرنا جلاء الاخبار من الجهة الثانية حتى نعلم ماذا جرى بعد التثبت فامضى شهر حتى وردت الاخبار من المهاجرين الذين دخلوا حدود مصر بان هؤلاء السيدات المقصورات الناشئات في أكرم مهود الطهارة والصون قد قبضوا عليهن في الصحراء وصرن الى أولئك الفجرة الذين لا يعرفون لصيانة العرض معنى ولا يقيمون للشرف وزناً . وعلما ان بعض شيوخ الكفرة الذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المذكورات قد أمر القائد بقتلهم . ثم لما هاج هائج العالم الاسلامى من جراء هذا الخبر وأشباهه أذاعت الحكومة الايطالية تويهاً ظاهراً زعمت فيه أن الجيش تأثر النسوة المائتين المذكورات شفقةً عليهن ولأجل أن يرجعهن الى بيوتهن آمنات وغير ذلك من الأفاويل التي قصت ايطاليا بها تحجدير أعصاب المسلمين الذين بلغهم ما كان جرى بالكفرة من هذه الفظائع من هتك أعراض مخدرات المسلمين ومن استباحة الزاوية السنوسية المسماة « بالتاج » وارقة الخور فيها ودوس المصاحف الشريفة بالأقدام هذا منضماً الى ما كان بلغهم من قبل من اجلاء ١٨ ألفاً من عرب الجبل الأخضر عن أوطانهم واماتتهم بالجوع والعطش وأخذ أطفالهم قهراً الى ايطاليا لأجل تنصيرهم والى ما كان بلغهم من فظائع صككيرة مثل حل الشيخ سعد شيخ قبيلة « الفوائد » و ١٥ شيخاً من رفاقه بالمباريات وقدهم بهم من الجوع على مشهد من أهلهم حتى اذا وصل أحدهم الى الأرض وتقطع ارباً صفق الطليان طرباً ونادوا العرب قائلين : « ليات محمد هذا نبيكم البسوى الذى أمركم بالجهاد ويتقدم من أيدينا » والى غير ذلك من

الأمر التي جرحت قلوب المسلمين فجرت مظاهرات في الشام وطرابلس وبيروت وفلسطين وانعقدت اجتماعات في كل مكان للاحتجاج على أعمال إيطاليا في طرابلس وأبرق المسلمون بالاحتجاجات الشديدة إلى جمعية الأمم بجنيف وإلى نفس موسوليني بالعبارات القاسية وقامت قيامة الجرائد العربية وحلت على توحش الفاشيست من كل جانب وامتلات جرائم مصر بالاحتجاج والظمن في إيطاليا إلى أن عطلت الحكومة المصرية بعضها اجابة لطلب الحكومة الإيطالية ووصل الصريح إلى الهند والجاوى وأضح المسلمون لهذه الأخبار وانعد في الجاوى اجتماع كبير حضره ألوف مؤلفة من المسلمين وخطبوا خطبا شديدة ودعوا إلى مقاطعة البضائع الطليانية وتدخلت الحكومة الهولندية في الأمر واتصرت لإيطاليا بمقتضى قاعدة التكافل الأوربي بوجه المسلمين وقاعدة التكافل الاستعماري بوجه الأمم المقهورة وأشاع قناصل إيطاليا ان كل هذه الاخبار عما حل بمسلمي طرابلس ملفقة لا أصل لها وبلغت بهم الفحة انهم كانوا يخاطرون الناس مخاطرة على أن يذهبوا إلى طرابلس بأنفسهم ليشهدوا كتب هذه الأقاويل وبلغ بهم البهتان انهم أشاعوا أيضاً أن إيطاليا اقترحت على جمعية الأمم أن ترسل إلى طرابلس لجنة من عندها للتحقيق عما ينسب إلى رجالها من الأعمال الشنيعة التي هم أبرياء منها . وكل هذا اختلاق محض قصدت به إيطاليا التمويه وتخدير الاعصاب وصرف المسلمين عن مقاطعة بضائعها وقد سكن كثير من المسلمين إلى هذه التكديبات وهدأ بالهم والحق خلاف ذلك . وكل ما شاع من الاخبار عن أعمال الطليان لا سيما بعد مجي دولة الفاشيست هو دون الواقع . ولو تأمل المسلمون فيما يأتيه الفاشيست في نفس إيطاليا من الموبقات ومن اغتيال أعدائهم السياسيين ومن حجز كل حرية ومن منع تأليف كل حزب يخالف حزبهم ولو نظروا إلى اهانتهم للبابا نفسه ومنعهم إياه من تأليف الجمعيات الكاثوليكية بحجة ان الحزب الفاشيستي الذي هو كاثوليكي الصبغة يعني عن تأليف أحزاب كاثوليكية أخرى لعلوا ان الذين يفعلون تلك الأفاعيل بأبناء أمتهم وملتهم ووطنهم لا يقال انهم لا يفعلون اضعافها بالمسلمين الذين يتورون هم استئصال شأقتهم من طرابلس لتحويل تلك البلاد إلى مملكة لا تينية كما كانت لعهد الرومان بزعمهم ولا يطان ثلاثة ملايين ايطالي فيها . على أن الأعمال الوحشية التي أتوها في

طرابلس وبرقة منذ بدء احتلالهم الى الآن والمظالم المتوالية التي أجروها من قتل وتغريب وحبس وضبط أملاك وانتزاع أراض وغير ذلك قد أصبحت في حكم المتواتر الذي لا يصح فيه المراء لاتفاق عشرات الألوف من الأهليين على روايته فقد نزع عن طرابلس وبرقة نحو من مائتي ألف نسمة وقيل من ٣٠٠ ألف نسمة منهم ٢٠ ألفا دخلوا تونس والجزائر ومنهم ٦٠ ألفاً دخلوا مصر ومنهم من شردوا الى السوادين ومنهم من تفرقوا في الصحارى وقد أطبقوا بأجمعهم على صحة هذه الأخبار ومشاهدتهم تلك الافعال بالعيان وانه ليستحيل اتفاق تلك الألوف المؤلفة على الكذب هذا فضلا عن كون لسان الحال أفصح من لسان المقال فلولا كون هذه المظالم حقيقة راهنة ما كان هذا العدد الكبير من الاهالي يترك وطنه ويهيم على وجهه في البرارى أو يلتمس الرزق عاملا في أرض غيره بعد ان كان سيداً في أرضه . ومن أغرب المتناقضات والتناقض من عادة كل كاذب أنه ينهنا عن عملو إيطاليا في بلاد الاسلام يذيعون أن من شاء أن يذهب الى طرابلس بنفسه ليتحقق ككذب تلك الاخبار عن فطائع الطليان فيها فان أبواب طرابلس مفتوحة لمن شاء الذهاب الى هناك وبيننا فصلهم في يروت يشيع ذلك في يروت وبيننا الحكومة الإيطالية تقول هذا القول لشوكت على الزعيم المسلم الهندي إذ بقيت إيطاليا مدة طويلة بعد احتلال الكفرة وحوادثها المؤلمة تمنع كل دخول وخروج بين الحدود المصرية والحدود البرقاوية لثلاً يقف أهل مصر على حقائق الاخبار فيزدادوا هياجاً . ولكن الحقائق لا بد أن تظهر ولا يمكن إيطاليا اخفاء كل ما تأنيه من الأعمال الوحشية في طرابلس وليس السامون وحدهم هم الذين شاهدوا أعمال الطليان وضجوا منها بل ثمة كثير من الافرنج شاهدها وأنكروها ومن ذلك المستر « فراسز ما كولا » الانكليزي الذي كان مرافقاً للجيش الايطالي في طرابلس عند الاحتلال وشاهد تلك الفطائع بعينه فقد قال :

« آيت البقاء مع جيش لاهم له الارتكاب جرائم القتل وان ما رأيت من المذامح وترك النساء المريضات العربيات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعة الطريق جعلني أكتب للجنرال « كانيفا » كتاباً شديد اللهجة قلت له : اني أرفض البقاء مع جيش لا أعدّه جيشاً بل عصابة من قطاع الطرق والقتلة »

ومن ذلك شهادة الكاتب الالماني « فون غوتبرغ » الذي قال : « انه لم يفعل جيش

بعده من أنواع العذر والخيانة ما فعله الطليان في طرابلس فقد كان الجنرال كانيغا يستهين بكل قانون حربى ويأمر بقتل جميع الاسرى سواء أقبض عليهم في الحرب أو في بيوتهم . وفي سيرا كوزه الآن كثير من الاسرى الذين لم يؤسر واحد منهم في الحرب وأكثرهم من الجنود الذين تركوا في مستشفى طرابلس »

وقد قبض الطليان على ألوف من أهل طرابلس في بيوتهم ونقوهم بدون أدنى مسوغ الى جزر ايطاليا حيث مات أكثرهم من سوء المعاملة وقرأ ما قاله « هرمان رنول » المراسل النمساوى الحربى فقد وجد في الباخرة التى نقلت جانباً من هؤلاء الاسرى فوصف تلك الحالة فقال :

« في الساعة السادسة من مساء كل يوم تكبّل هؤلاء المرضى بالحديد من اليد اليمنى والرجل اليسرى . حقاً أن موسى هذه البلاسل تنفق مع « المدينة » التى نقلتها ايطاليا الى افريقية . لا ريب أن الطليان قد أهانونا كثيراً فلم يكف أنهم أسقطوا منزلة أوروبا العسكرية في نظر افريقية حتى شوها اسم النصرانية أمام الاسلام » ثم قال :

« قد قتل الطليان في غير مدان الحرب كل عربى زاد عمره على ١٤ سنة ومنهم من اكتفوا بنفيه . وأحرق الطليان في ٢٦ اكتوبر سنة ١٩١١ حياً خلف بنك روما بعد أن ذبحوا أكثر سكانه بينهم النساء والشيوخ والاطفال » . قال : « ورجوت طبيين عسكريين من أطباء المستشفى أن ينقلوا بعض المرضى والمصابين المطروحين على الأرض تحت حرارة الشمس فلم يفعلوا . فلجأت الى راهب من كبار جمعية الصليب الاحمر هو الأب « يوسف بافيلاكو » وعرضت عليه الأمر وأخبرت شاباً فرنسياً أيضاً لكن الأب « بافيلاكو » حول نظره عنى ونصح للشباب بأن لا يزعم نفسه بشأن عربى في سكرات الموت وقال :

« دعه يموت ... »

قلت ليتأمل القارئ أن هذا الذى يقول هذا القول هو قسيس يزعم أنه ممثل المسيح على الأرض وأنه من رجال الصليب الأحمر أى الجمعية التى تزعم أنها تخدم الانسانية بلا استثناء !

ثم قال هذا المراسل النمساوى : « ورأيت على مسافة قريبة جندياً ايطالياً يرض جثة عربى برجله . وصباح اليوم التالى وجدت الجرحى والمضى الذين رجوت الراهب من

أجلهم قد ماتوا. وقد رأى ذلك معي فون غونبرغ الألماني وبكى من نأثره « ثم قال :

« رأينا طائفة من الجنود تطوف الشوارع مفرغة رصاص مسدساتها في قلب كل عربي تجده في طريقها قد نزع أكثرهم معاطفهم ورفعوا الكمام قصانهم كأنهم جزارون »
وقال فون غونبرغ في إحدى رسائله : « خرجت عصابة من الجنود وراء البيوت فلما دنوا منا وجدنا بينهم خمسة من العرب غلّت أيديهم خلف ظهورهم . ثم سمعنا صراخاً وإذا ببعض الجنود خرجوا من منزل يجرّون عربياً ضمّوه الى الحصة الأولين وقتلوهم رُمياً بالرصاص . فعلمنا أن ليس هناك محاكمة ولا عدالة عسكرية بل هناك مجزرة محضة . ولقد قيل لي ان الظليان قتلوا ٤٠٠ امرأة وولد في هذه الأيام الأخيرة وأربعة آلاف رجل . وكانوا يقتلون النساء ويقولون : ظنناهم رجلاً » قلت : وهذا لم يكن من الفاشيست بل من الظليان غير الفاشيست لأنه حصل في سنة ١٩١١ قبل أن يوجد الفاشيست

ثم قال : « في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١١ سرت في الطريق شمالي بئر « أبي مليانة » فأبصرت شابة عربية خرجت من بيتها ممككة بيدها طفلها الصغير . ثم ما لبثت أن سمعت ثلاث طلقات نارية ثم رأيت المرأة سقطت على الأرض ميتة أما الطفل فولى هارباً مذعوراً فلقيت حينئذ ضابطاً فقلت له : جنودك قتلوا الآن امرأة عند البئر . فقال : جنودنا لا يستطيعون التمييز بين الرجل والمرأة أول وهلة . فعلمت من هذا الجواب أن العرب مباح قتلهم سواء كانوا مجرمين أو ابرياء »

ثم قال « انه صادف ٥٠ جندياً يقودون ستة من العرب الى خرابة يستعملها الجنود لفضاء الحاجة ... ولما أدخلوهم اليها اشترك الضباط والجنود في قتلهم بالمسدسات والبنادق . قال : وما كدت أفرّ من هذا المشهد الهائل حتى رأيت ما هو أشد هولاً وهو طائفة من الجنود يسوقون ٥٠ عربياً بين رجال وأطفال . ضرب أحدهم بحربة بندقيته اثنين منهم فمات الواحد لوقته وسقط الآخر يتخبط في دمه فرفه أحد الجنود برجليه ثم أدخلوا الباقين الى مكان قد تهدم وبدأ الضباط يقتنصون هذا الصيد الكريه بمسدساتهم وبنادق جنودهم مدة عشرين دقيقة . وكلماسموا أنبناً من جثة أعادوا عليها النار الى ان انقطع الأنين »

وقال مراسل التاميس يومئذ - قلت ولا يجوز أن ننسى أن غارة إيطاليا على طرابلس كانت بالاتفاق مع فرنسا وانكسرت استرضاء لإيطاليا على أثر تقاسم انكسرة وفرنسة مصرأ

والغرب - : « ان فسوة الانتقام التي استعملها الطليان في وقعة يوم الاثنين يليق أن يقال عنها انها أعمال قتل عام فقد فتكوا بكثير من الأبرياء وستبقى ذكرى هذا الانتقام زمناً طويلاً ... » قلت ان كان بقي عند العالم الاسلامي ذرة من الشرف فلا يجوز له أن ينسى هذه الاهانات التي لحقت به مادام في الأرض شيء يقال له اسلام

وقالت جريدة « الدالي كرونكل » الانكليزية: « استمر الجيش الايطالي ثلاثة أيام يطلق الرصاص على كل من يلقاه من العرب فهلك عدد كبير من النساء والأطفال وبلغ مجموع القتلى بين الاثنين والجمعة أربعة آلاف عربي . وصدر الأمر بقتل كل من وجد خارج السور الى جهة « قرقارش »

وقال السيوكوسيرا مراسل جريدة « اكسيلسور » الباريزية :

« لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكوام جثث الشيوخ والنساء والأطفال يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور يحرق أمام مذبح من مذبح النصر الباهر . ومررت بمائة جثة بجانب حائط قضى عليهم باشكال مختلفة . وما فررت من هذا المنظر حتى تمثلت أمام عيني عائلة عربية قتلت عن آخرها وهي تستعد للطعام . ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها في صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها . ان الايطاليين فقدوا عقولهم وانسانيتهم من كل وجه »

وقد أشار الى الحوادث نفسها مراسلا « الدالي ميرور » المستر توماس كرات والسيدة فرانك ماجي . وقال المستر راليس اشמיד برتلت مراسل شركة روتر في رسالة بعث بها من مالطة يصف فيها ماشاهده بعينه هو والمستر كرات مراسل الدالي ميرور والمستر دانيس مراسل المورتنغ بوست وقد سجلت هذه الرسالة في دائرة رسمية انكليزية تحت توقيعهم : « صادفنا بمجرد خروجنا من المدينة جماعة بين رجال واولاد لا يقل عددهم عن السبعين قتلوا بدون محاكمة . وكنا نشاهد في طريقنا بعد كل بضع خطوات جثث القتلى في كل مكان قتل بعضهم برؤوس الحراب والبعض ضرباً وآخرون جرحوا وماتوا على أثر جراحهم . وأبصرنا على مسافة قريبة خمسين رجلاً وولداً هلكوا بالرصاص والسيوف وشاهدنا رؤوساً مهشمة . ومن المشاهد التي رأيناها :

١ - شيخ عربي عاجز بينا هو جالس بقرب مدرسة الزراعة اذ اتخذته طائفة من الجنود

الإيطالي هدفاً لرصاص بنادقها فلت

٢- سمعنا فجأة صوت عيار نارى فعلنا أنه أطلق على رجل خرج من منزله فسقط والدم يتدفق منه وخرجت زوجته ويدها اثناء فيه ماء — لعلها تريد أن تسقيه أو تغسل جراحه ... فلما رأنا نكصت على أعقابها خوفاً منا ...

٣- التقينا في أحد الشوارع بثلة من الجنود امسكوا ثلاثة من العرب وصفقوهم عند حائط واخنوا يتلهون باطلاق النار عليهم «

وقال المستر بنيت بورلى مراسل « الدالى تليفراف » :

« قتل الطليان في ٧ نوفمبر (١٩١١) اربعة آلاف شخص بينهم ٤٠٠ امرأة ورأيت رجلاً مقعداً قتله الجنود قريباً من فنصلية النسا »
وقال مراسل « فرانكفورتر تسايتونغ » :

« لقد رأيت بعينى فظائع هائلة لم تسمع أذن انسان بمثلها . ولقد بلغ الى الآن عدد المذبوحين من الأهالى سبعة آلاف من رجال ونساء وأولاد اذ أبيع للجنود قتل كل من يصادفونه »

قلت هذه اعمال جيش منظم هو جيش إيطاليا تحت قيادة قائد برتبة جنرال هو الجنرال كانيفا يقود ذلك الجيش الى طرابلس الغرب بحجة انها بلاد متوحشة وان إيطاليا تريد ان تمدنها وتدخل اليها مبادئ الانسانية ! ولذلك هاجتها بغيا وعدواناً وأوقعت باهلها كما يعلم كل احد . ولماذا هذا الانتقام الذى تأبى الوحوش الضواري الاتيان بمنله بحق الاهالى الوادعين المجردين من السلاح ؟ جواب ذلك ان المقاتلة من العرب دحروا الجيش الطليانى عند المكان المسمى بالمنشية وان طائفة من المقاتلة جاءت الجيش الطليانى من الورا على غرة منه فانكسروا تلف منه كثير . فاتقم الجنرال كانيفا لزيمة جيشه هذه بذبح الاهالى الوادعين المستقرين في بيوتهم رجالاً ونساء واطفالاً ولم يبال لاهو ولا حكومته شناعة هذه الأحمونة ولا مخالفة هذه الأعمال لقوانين الحرب الدولية وكيف يبالى وهو وغيره من الأور بين لاسيا الجنس اللاتينى يعتقدون ان الاسلام خرج عن الدائرة التى يجب ان تراعى فيها الحقوق الدولية وانه لانصيب له من ذلك وان كل مايعمل به وباهله جائز . وليس فى هذا شئ من المبالغة بل نحن أولاء نرى من الأور بين أما اسمى مقاماً اجتماعياً من الطليان نستدل من

كثير من اقوالهم وافعالهم ومن صريح كتبهم الحقوقية انهم لا يقبلون مبدأ المساواة بين الأوربي والمسلم ولا يرون الحقوق العامة التي يدعيها الأوربي مما يجوز ان يدعيه المسلم في المواقف الدولية . فلهذا تجدد جيوش هذه الأمم ترتكب في مستعمراتها لاسيما بالمسلمين ما يقرب من أعمال الجيش الايطالي في طرابلس ولا يمتاز عنه بكثير . ولقد ارتكب الفرنسي في هذه السنة عند احتلال واحة تافيلالت بالمغرب افعالاً بعيدة جداً عن الحقوق الدولية وعن الحقوق وهم وان كانوا اخفوا خبرها عن الناس ولم تصل بالجرائد فلم يمكن طمسها ولا نطمشها تماماً وهم بدون شك أعلى درجة في المدنية من الطليان . ومن غريب الأمراض التي ابتلى بها المجتمع الاسلامي في هذا العصر ان كثيراً من المعتزّين بزخرف الأقوال من المسلمين لا يصدقون بصور هذه الافعال عن الأوربيين ويكذبون أخبارها ويكبرون فيها ويقولون ان أعمالاً كهذه يستحيل أن تصدر عن أمم متمدنة . وهذا من أعظم البلايا التي أصيب بها المسلمون في هذا القرن وقد تفوق هذه البلية في عمائتهم عن الحقائق بليتهم بفظائع الاستعمار الأوربي . ولكن هذا التصور العالي الذي كان لهم بالمدنية الأوربية والانسانية الأوربية والزاهة والنبالة اللتين كانوا يمتقنونهما من اخلاق الأمم الغربية قد تناقص كثيراً بعد الحرب العامة عند ما احتل الجيش الافرنسي سورية وجزءاً من تركيا واحتل الانكليز العراق وفلسطين واسبانيا وظهر ما ظهر منهم بمصر واليمن وعند ما عمل الفرنسي ماعلود من تدمير دمشق واطفئ الجميع ما ظهر من أعمال الطليان في طرابلس القرب وبرقة مما لم يسمع به احد الا في القرون الوسطى ونعود الى ذكر تلك الفظائع فنقول ان الجمعية لطرابلسية البرقاوية في الشام قد نشرت في هذا العام كتاباً عنوانه « الفظائع السود الحمر » أو التمدين بالحديد والنار هو الحلقة الأولى من سلسلة فظائع الطليان في ذلك البر . وقد نقلت اخبارها بالوثائق ونقلت من كلام مراسلي الجرائد الكبرى كالتايمس والطان ووستميستر غازت وغيرها وعن كتاب « فظائع الطليان في طرابلس القرب » المطبوع في الاستانة سنة ١٣٣٥

ولقد ورد في هذا الكتاب ذكر فظائع أعمال الطليان بالتسلسل من بدء احتلالهم الى الآن سنة فسنة كل سنة مع ذكر ما ارتكبه فيها من الأعمال المنهجية الخارجة عن حدود الانسانية . وما جاء فيه اهانة الطليان للدين الاسلامي وتعرضهم أحياناً للمسلمين في مساجدهم

ودخول الجنود سكارى الى الجوامع يهزأون بعبادة المسلمين وما من وازع ولا رادع واجبارهم المسلم ولو كان في وسط صلاته أن يترك الصلاة ويحجى الضابط أو المأمور الايطالى أياً كان . وان احتقار الطليان للمسلمين يظهر في الدقيق والجليل من معاملاتهم لهم حتى اتنا قرأنا مرة برنامج مراسم أحد الأعياد الايطالية وكيفية الدخول على القائد الكبير في طرابلس فاذا به على هذا الترتيب : يدخل أولاً جالية الطليان وثانياً جالية الأوربيين من غير الطليان وثالثاً اليهود وأخيراً المسلمون . . .

ومن كان يهملُ الاطلاع على ما فعله الطليان في طرابلس - ويجب أن يهتم ذلك جميع المسلمين - فعليه بمطالعة هذا الكتاب من أوله الى آخره وهذا يغنيننا عن نقل كثير مما فيه على أننا ننقل منه بعض فقرات على سبيل التمثيل . ففي الصفحة ٥٩ تجد ما يلي :

« الحاج مفتاح مشلوف رجل طرابلسى ذهب الى الحج فأخذ معه من النقود نحواً من ألف جنيه لأنه رجل يجمل معاملته المصارف ولما عاد الى وطنه شعر الفاشيست بما معه من النقود فابتكروا مصادرتها حيلة سخيفة إذ ادعوا أنها اعانة جمعاً للجهاد السيد عمر المختار فرجا منهم أن يحققوا هذه القرية فأبوا الا أن يفتصوا أمواله بلا تحقيق ولا محاكمة وقالوا له : اجد الله على أن الحكومة لم تقتلك

« لاقية لأعراض الناس عند الفاشيست فطالما هتكوا حرمت وتجاوزوا على أعراض نساء شريفات . فن ذلك أن ثلاثة ضباط ايطاليين طلبوا ثلاث بنات من أهالى قضاء « جالو » للاستمتاع بهن فاغتصبوا منهن اثنتين والثالثة فرَّ بها أبوها ونجهاها من بران أولئك الوحوش المفترسة

« واحة جغبوب هي مركز السادة السنوسية وحصن عبادتهم الأمين والايطاليون شديدو الحرص على ابادته رجال الدين ومحو معالم الاسلام من تلك البلاد لذلك هاجوا هذا المركز وأجلوا عنه أهله وكان أكثرهم من العلماء وطلاب العلم مثل السيد حسين السنوسى شيخ زاوية جغبوب والشيخ أحد اليوسف والشيخ صالح المسارى والشيخ الفضيل الكيش والشيخ محمد أبى شهبه وغيرهم ونفوا معهم نساءهم وأطفالهم الى حيث لا يعلم أحد ويظهر أنهم أجلاوا « الى بردى سليمان » وقد سقط من السيارة فى الطريق الشيخ صالح المسارى فلم يهتموا له وكان من خلف السيارة التى تحمله سيارة أخرى داسته وذهبت بحياته

«أصدرت حكومة الفاشيست في لواء بنغازي أمراً بسد جميع الكتابيب التي تعلم الأطفال أمور دينهم وتحفظهم قرآنهم الكريم
 «فاجأ الفاشيست رجلاً يدعى الشيخ يونس بن مصطفي البرعصي وهو معتكف في غار بزواية الفايدية بالجبل الأخضر فدّوه عليه وأحرقوه مع عائلته المؤلفة من تسعة أشخاص تأويلاً لاعتكافه بالتجسس عليهم
 «تفان الفاشيست في التنكيل بالكان حتى انهم ألتوا جماعة منهم الشيخ عبد الحبيب أبا عمران البرعصي والشيخ المكدن العبيدي وأجد خليل السعطي من طيارة من علو ٤٠٠ متر في المكان المعروف بجدرس العبيد بالجبل الأخضر. وربطوا الشيخ مفتاح يحيى العبيدي وابن عمه صالح على بين سيارتين دفعوهما الى اتجاين مختلفين فتقطعت أجسامهما ارباً ارباً أمام قبيلتهما المسلسلة القاطنة بجوار المعسكر الفاشيستي في « تاكنس »
 هذا ما نقلناه عن صفحات ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ من هذا الكتاب . واليك أمثلة أخرى من صفحة ٦٣ :

« أسس الجنرال « غرسياني » محكمة عرفية سيارة تقطع البلاد على متون الطيارات وتحكم على الأهالي بالموت ومصادرة الأملاك لأقل شبهة فتمنحها لمرزقة الفاشيست الذين سدت في وجوههم أبواب المهاجرة الى أمريكا وغيرها . ومن أغرب ما يفعله الفاشيست أنهم يحكمون وينفذون ثم بعد ذلك يحققون . . . فقد أخبرهم أحد جواسيسهم أن احد عبد الهادي يقتني بندقية فحكموا عليه بالموت شنقاً وبعد أن نفذوا فيه الحكم فنشوا منزله فلم يجدوا فيه نوعاً من السلاح ثم ثبت لهم أن هذا الخبر مخنلق فلم يعاقبوا الجاسوس وكثيراً ما أزهقت أرواح بمثل هذه التهم الباطلة »

قلت ان تقديمهم التنفيذ على التحقيق هو ناشئ عن خوفهم من ظهور البراءة وعند ذلك تضيع عليهم فرصة ازهاق نفس مسلمة على حين أنهم يعتقدون أن كل مسلم يفارق هذه الدنيا في طرابلس يفسح مكاناً لطللياني مستعمر . ففي قتل المسلم بأي وجه كان مصلحة لهم بزعمهم ولهذا يسارعون في تنفيذ حكمه بدون تحقيق
 م انه جاء في هذا الكتاب صفحة ٦٤ :

« نزلت محكمة الطيارات العرفية في هذا العام ^(١) على الأهالي المحشورين في عين

الغزاة حكمت فوراً على ستة أشخاص بالقتل وعلى عشرين شخصاً بالسجن - وأقل مدة السجن ٢٠ سنة - وكان بين المحكوم عليهم الشيخ الطلحي الموالى للطلبان المقيم معهم بطبرق . فلما تلى عليهم الحكم همس أحد المحكوم عليهم بالجس ٢٠ سنة في أذن جاره قائلاً له : انهم ظلموا الطلحي بحكمهم هذا . فأحس بذلك أحد الجواسيس فأبلغه للحاكم فأقسم بأن يكون صاحب هذا القول أول المقتولين وأعدموه الحياة فعلاً . ثم في ساعة تنفيذ الحكم طلب المحكوم عليهم أن ينفذ الحكم بحمهم خفية عن أهلهم وأطفالهم فلم يسف طلبهم «

ثم جاء في صفحة ٦٥ :

« انتزعت حكومة الفاشيست من أيدي الأهالي ٢٠٠ ألف هكتار من الأراضي بلا مقابل فأعطت مائة ألف للمستعمرين وأوعزت الى اخوانهم المقيمين في الأرجنتين أن يبيعوا أراضيهم فيها ويأتوا الى طرابلس وبرقة حيث يأخذون بدلها مجاناً وقد صرح بذلك البنيور موسوليني في عدة خطبه له . وقال المارشال بادوليو والى طرابلس وبرقة في خطاب له : يجب على الذين تمنحهم الحكومة آلاف هكتارات أن يشمروا عن سواعدهم فانتا قد وفقنا الى استملاك الآلاف المؤلفه من الهكتارات ولم يحتاج أحد . . . »

لم يحتاج أحد طبعاً لأن الذي يحتاج جزاؤه الموت . الا أننا نقول : أفليست هجرة هؤلاء اليؤساء احتجاجاً عملياً على هذا الظلم الفظيع ؟
وفي صفحة ٥٤ جاء ما يلي :

« في قضاء زواره أرض خصيبة وبتاتين كثيرة فيها أنواع الفواكه وهي ملك «نبائل» النوائل» و « خويلد » و « السيفات » اغتصبها الفاشيست وسلوها الى مستعمرهم وأجبروا أصحابها على تركها والجلء الى البادية «
وجاء في صفحة ٦٦ ما يلي :

« من فظائع الابادة والافناء التي قام بها الجنرال « غراسياني » انه حشر كافة سكان الجبل الاخضر في بقعة ضيقة من الارض على الساحل بين المكانين « طلميثه » و « بنينه » بعد أن زج زعماءهم في السجن وألحق بهم من الاهانات ما لا يوصف وقتل من المشاهير رجلاً يدعى الشيخ سعيد الرافدي مع خمسة عشر شخصاً شر قتلة وذلك بان أمر باركابهم

في الطيارات والقائم من عن علو ٤٠٠ متر على مشهد من أهلهم وكما هوى منهم شخص صاح الضباط والجنود ساخرين منادين : « فليات نبيكم محمد البعوى الذى أغرامك بالجهاد وينتقدكم من أيدنا » ثم عزم على ترحيل سكان برقة الغربية فصدر نقودهم ومواسيهم وساقهم محاطين بفرسان وسيارات مصفحة ولم يسمح لهم بالانحراف عن الطريق ولولا الاستعانة ومن كان يحاول ذلك أو ينجح للاستراحة يعاقب بالقتل فوراً لا فرق بين رجل وامرأة وطفل الى أن حشرهم بهذه الحال المرحجة في صعيد ضيق على ساحل المكان المعروف بالمقطع .
 أما سكان برقة الشرقية (متصرفية طبرق) فلم يكن نصيبهم من الضرر باقل من نصيب اخوانهم حين نفو مع نسايمهم وأطفالهم الى ايطاليا . وهاك أسماء القبائل التي رُحلت لانفاتها عن بكرة ابيها : العبيدات والحاسه والمنفه والحوته والشواعر وحجون .

« وقد كانت مخيمة في أرض خصبة واسعة يحدها شرقاً السلوم والاراضى المصرية وغرباً وادى الثعبان وشمالاً البحر المتوسط وجنوباً الصحراء . ثم العواقر والمغاربة وعائلة المهنشى وأولاد الشيخ والفريبات والسعيط والفواخره والشهيبات وزويّه وجراره ومشيكات والزاوية . وهذه كانت مخيمة في الاراضى المحدودة شرقاً بمسوس وغرباً بالمقطع وعين الكبريت وخليج سرت وشمالاً بالبحر المتوسط وجنوباً بالصحراء . فهذه القبائل وغيرها البالغ عددها ٣٠ قبيلة وأنفسها ثمانين ألفاً حشرت بأجمعها في بقاع « بنينه » و « طلمينه » و « العقيلة » الضيقة الفاحلة ومنعت عن التجول خارج الاسلاك الشائكة التي ضربت حولهم بعد أن سلبت الحكومة الفاشيستية حيواناتهم ومواسيهم

« جمع الجنرال غارسيانى جميع مشايخ السنوسية ومتولي أوقافها وأئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء والسنة وسجنهم كلهم في مركز « بنينه » وهو بناء قديم لاسقف له ذاقوا فيه أمر العذاب جوعاً وعطشاً وعذاباً ثم نقلوا الى سجون ايطاليا وبعد أن مكثوا فيها مدة أعيدوا الى « بنينه » حيث أنفوا بالجبوع وغيره وهاك بعض أسماء الهالكين : عمر الكورى شيخ زاوية المرج . السنوسى بن جلؤل شيخ زاوية البراعصة . السنوسى بن ميلود شيخ زاوية المرازيق . السنوسى الهانى شيخ زاوية أمركبة . ادريس أبو فارس شيخ زاوية أم حفير . ولا ذنب لهؤلاء المساكين سوى أنهم يعلمون ابناء المسلمين كتاب الله وسنة رسوله الكريم »

قلنا ان استئصال الدين الاسلامي من طرابلس واجتثاث عروقه بمحو رجاله من هناك كان ولا يزال محور سياسة الفاشيست في ذلك القطر . وقد صرح قائد طبرق أمام جماعة من المسلمين انهم لا يمكنهم أن يصيروا بنى آدم ما دام هذا الكتاب الذي هو القرآن يبر أيديهم

ثم جاء في كتاب « الفظائع السود الحمر » ما يلي :

« أما الاخوان السنوسيون الفاطميون في جفوب فقد رحلواهم بعائلاتهم جميعاً مشياً على الأقدام الى قضاء « جالو » تحت رحمة الجنود الذين كانوا يسوقونهم سوق الانعام بقصد الحاقهم باخوانهم في سجون « بنينه » و « سلوق » وغيرها . وقد مات أكثرهم جوعاً وتعذيباً . وكان منظر الأطفال الصغار على جانبي الطريق يفتت الأكباد زيادة على مناظر الموتى من الرجال والنساء

« حدثنا ثمة ان الثمانين الف مسلم الذين نزلت من أيديهم بلاد الجبل الأخضر الحبيب وأرسلوا الى بادية « سرت » القاحلة التي تبعد مسافة ١٥ يوماً عن الجبل المذكور في منطقة ضيقة لا ماء فيها ولا كلاً مات أكثرهم من الجوع والعطش والابنة وهلكت أكثر مواشيهم وصارت الحكومة بقية ما كان عندهم من مال واثاث وحلى وتركوهم يفتشون القبراء ويلتحفون السماء بصورة لم يسبق لها نظير حتى في أظلم عصور التاريخ . زد على ذلك انهم جندوا منهم من يتراوح عمره بين ال ١٥ وال ٤٠ سنة ليحاربوا بهم اخوانهم في الدين والوطن وارسلوا أطفالهم الى إيطاليا لتبصيرهم

« ضبطت الفاشيست أولاً زوايا السنوسية وعددها يزيد على المائة مع أوقافها واعتصبوا أخيراً بجمع أراضي القبائل المنتسبة الى الطريقة السنوسية^(١) وهي قبائل الجبل الأخضر و برقة العبيدات وفروعها والبراعة والحاسة والدرسة والعرفا والعبيد والقوايد والمرابطين والعاوقر والمغاربة وغيرهم ونفوس هذه القبائل تزيد على ٢٥٠ ألف نسمة وقد أصبحت أراضيها ملكاً للحكومة الفاشستية بموجب أمر ملك إيطاليا^(٢) نشرته الصحف الأوربية برقياً عن

(١) قلت وجميع قبائل برقة منتسبة الى الطريقة السنوسية

(٢) قلت وقد نشرت هذا الأمر جرائد إيطاليا ونشرنا في مجلتنا الافرنسية اللغة « لاناسيون آراب »

مقالة خاصة في أحد أعداد السنة الماضية عن فظاعة هذا العمل

روما . واذ كان ملك ايطاليا وقع أمراً بانتزاع أراضي القبائل السنوسية واعترف المارشال « بادوليو » لندوب جريدة « زيوني كولونياني » بأن الحكومة أعطت أكثر من ٢٠٠ ألف هكتار من الأرض لأربعمائة من المستعمرين الفاشيست الذين أتوا من تونس بقصد الاستملاك وأذاعت ايطاليا في بلاغاتها الرسمية أنها قد أسكنت في برقة بضعة عشر ألف فاشيستي مستعمر وأنها ستسكن خلال ٢٠ سنة في برقة ٣٠ ألف فاشيستي وأعلنت على صفحات الجرائد بلسان أكبر رجالها أنها امتلكت أكثر من ٦٠٠ ألف هكتار وصرح موسوليني أنه سيسكن فيها من مليونين الى ثلاثة ملايين . اذا تم كل ذلك فغنى هذا كله أن حكومة الفاشيست انتزعت مع أراضي برقة والجبل الأخضر أراضي طرابلس ومصراته ومسلاته وزهونه وزابطن وغريان وأورفلة وسوكنة وغيرها حتى يبلغ العدد ستماتة ألف هكتار كما جاء في بلاغاتها الرسمية الخ »

وجاء في هذا الكتاب صفحة ٨٧ ما يلي :

« وقد وقفوا للناحية الأولى حيث شردوا ثلث مليون من السكان ونفذوا الناحية الثانية حيث أفنوا ثلث مليون آخر ونيط تنفيذ الناحية الثالثة بالمدارس الطليانية ولم يتركوا في طول البلاد وعرضها مدرسة غير طليانية وهكذا الأخلاق الإسلامية قد ضمنت المدارس الطليانية القضاء عليها بوسائل التعليم الاجباري . وتكفلت دور الفحش والدعارة بافساد أخلاق الشبان . وأما الناحية الرابعة وهي تنصير المسلمين ودفعمهم لاعتماد الكتلكة فقد صرح أحد سفراء الدول للامير الجليل شكيب أرسلان بأنه تحدث مع أحد رجال حكومة ايطاليا فقال له : اتنا نأمل كثيراً تنصير الجنس البربري من أهل طرابلس وبرقة »

نعم قد سمع محرر هذه السطور من سفير أوربي أعرفه من زمن طويل وأعرف أنه من الثقات في جميع أقواله

ان أرى في هذا النقل عن كتاب فظائع ايطاليا في طرابلس ما به مقنع وان كانت عقول بعض الناس لا تزال تستكف من قبول جميع هذه الروايات ونظنها من قبيل الغلو والاغراق في وصف مظالم الفاشيست . وما هي بغلو ولا اغراق بل هي بأجمعها وقائع قد جرت فعلاً

ولما حررت المقالة التي نشرتها عن جنائع طرابلس وبرقة سنة ١٩٣١ على أثر دخول

الطليان الى الكفرة وارتجف لها العالم الاسلامي غضبا وعلا الصراخ من كل جهة بجاهن من الشهيد الأكبر بطل الجبل الأخضر السيد عمر المختار الكتاب الآتي :

« انه من خادم المسلمين عمر المختار الى المجاهد الأمير الخطير أختنا في الله وزميلنا في سبيل الله الأمير شكيب ارسلان حفظه الله

« بعد السلام الآتم والرضوان الشامل الاعم ورحمة الله وبركاته قد قرأنا مادبجه يراعكم السبال عن فظائع الطليان وما اقترفته الايدي الاثيمة من الظلم والعدوان بهذه الديار فاني وعموم اخواني المجاهدين تقدم لاسمي مقامكم خالص الشكر وعظيم المنونية . كل ما ذكرتموه عما اقترفته ايدي الايطاليين هو قليل من كثير وقد اقتصدتم واحتظم كثيرا ولو بدكر للعالم كل ما يقع من الايطاليين لا توجد اذن تصفى لما يروى من استحالة وقوعه . والحقيقة والله وملائكته شهود أنه صحيح وأتانا في الدفاع عن ديننا ووطننا صامدون وعلى الله في نصرنا متوكلون وقد قال الله تعالى : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، في ٢٠ ذى الحجة ١٣٤٩ هـ انتهى

وما لاحظته الشهيد المشار اليه هو عين الحقيقة فان الناس يصعب عليهم أن يصدقوا أن جيلا على وجه الأرض يقدم على ارتكاب مثل الشناعات والدناءات والندالات التي أقدم عليها الطليان في طرابلس ولا سيما الفاشيست منهم . وان الناس لا يزالون يتوقفون عن تصديق هذه الروايات لغرابتها وفرط بعدها عن العقل بحيث كنا كثيراً مانعك عن الخوض في هذا الموضوع أمام بعض الاوربيين خشية أن تُتهم بالافتراء أو بالمبالغة والحقيقة ان كل مارويناه عنهم وما رواه كتاب « الفظائع السود الجر » هو قليل من كثير مما لا يمكن استقصاؤه من افعالهم في هذه العشرين سنة التي انصب فيها بلاؤهم على ذلك القطر الحزين . وهذا مما يجي دليلاً مؤكداً على ان الأوربيين عموماً واللاتين خصوصاً اذا ظفروا بالمسلمين لا يرقبون فيهم إلاً ولاذمة ولا يعرفون شفقة ولا رحمة

ولما اشتد غضب المسلمين على الطليان مما أنزلوه باخوانهم في طرابلس وتحذثوا في كل ناد بوجوب مقاطعة تجارتهم خشى الطليان عاقبة هذا الأمر وشرعوا يتوددون الى زعماء المسلمين وينفون لديهم كل ماشاع من أخبار تلك الفظائع . وكانوا من قبل قد امتنعوا عن الاعتراف بابن سعود ملكاً على الحجاز وأخذوا يتر بصون به الدوائر ... وقيل انهم مدوا أيديهم في الخفاء الى أعدائه ليكونوا بدأ واحدة عليه فلما أردادوا التزلف الى المسلمين لينسوهم

أفعليلهم باخوانهم في طرابلس أسرعوا الى عقد المعاهدة التي كانوا رفضوا عقدها مع الملك ابن سعود وكانوا تطلبوا لأجل ذلك شروطا نحن أدري بها لأن المذاكرة وقعت معنا في كل من سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ وما أمكن الاتفاق يومئذ بما اقترحوا من الصيغ التي لم نوافق على تحريرها في المعاهدة . ثم كانوا من أسرع الدول الى الاعتراف باستقلال العراق ومن أكثرهم مصانعة للملك فيصل بن الحسين . ولقد سمعنا أيضاً أنهم خففوا من وطأتهم في طرابلس وشرعوا يتزلقون الى المسلمين عالم يسبق لهم من قبل وأخذوا من بعض مشايخهم شهادات بأنهم راضون شاكرون ! فأما الثمانون الف عربي الذين أجلوهم عن أوطانهم البديعة وأراضيهم المريعة في الجبل الأخضر فما أعدوا منهم سوى خمسة آلاف رجل يقال أنهم انما أعدوهم اليها كعملة فيها لا كالكين . ولا بد أن ينجلى الغبار وتنكشف الأسرار ولو بعد حين . على أن الذي فعله الطليان بمسعى طرابلس لا يجوز للامة الاسلامية أن نساء أبد الدهر اذا كانت تريد أن تبقى في الوجود ولله در يزيد بن الطثرية القائل :

لا أتقى حسك الضغائن بالرقى فعل الدليل ولو بقيت وحيدا

لكن أجرد للضغائن مثلها حتى تموت وللحقوق حقوقا

ولما كنا قد دخلنا في بحث طرابلس وبرقة فقد رأينا أن تتم هذا الفصل بمعلومات احصائية وجغرافية عن تلك البلاد كما جمعناها في أثناء زهابنا بنفسنا الى الجهاد في برقة سنة ١٩١١ الى ١٩١٢ وأجمعنا ان نحررها في كتاب مستقل برأسه الا أن العوائق الكثيرة من توالى الاسفار وتحرير الاسفار وغير ذلك من الأشغال والمهمات لم تتح لنا أن نبرز هذا الكتاب الى الوجود . فرأينا الآن أن نلخص هذه المعلومات هنا في هذه الطبعة من هذا الكتاب كما أننا كنا في الطبعة الأولى منه قد ذكرنا كثيراً منها في عرض البحث عن السادة السنوسية وزواياهم . وهكذا لا نكون أقلتنا هذه المعلومات من قيد التسجيل ثم يعرف المسلمون بواسطة هذا الكتاب ماذا كان يوجد من السكان المسلمين في طرابلس وبرقة وكيف كانت معاهد الطريقة السنوسية وغيرها في ذلك القطر يوم شن الطليان الغارة عليه بحيث اذا تغيرت المعالم وتبدلت الاوضاع نعرف مقدار الحق الذي ضاع وعند العرب الذين خلت منهم تلك البقاع

فنتقول ان أهالي برقة ينقسمون الى قسمين حضر وبادية فالحضر هم أهل بنغازي

ودرنه . والبادية هم أهل الجبل الأخضر وما يجاوره . وهم في الحقيقة نصف بادية ولهم أراضٍ كراضى الحضرمي يحرثونها وحنان وأشجار يحرسونها وانما هم يعتمدون في الغالب على رعاية المواشى وعندهم المراعى التي يندر مثلها في البلدان ويصدرون الغنم والسمن والاقط الى الاسكندرية وغيرها

والبلاد التي تسمى « برقة » بتبديء من فم الفج من محل يسمى العصيدة على طريق سيدى عمر المشهش ممتدة الى غاية مقطع الكبريت من جهة عمل طرابلس . وثمة برقتان الحراء والبيضاء كلتاهما ضمن قضاء اجداية

ومن العصيدة الى غاية وادى ابى الضحاك الذى تتصبب مياهه الى درنة هذا هو الجبل الأخضر

ومن وادى ابى الضحاك الى عين الغزالة شرقاً يقاله الخرمة

ومن عين الغزالة الى وادى بلوك باش الى الشرق مايسمى بالبطنان

ومن وادى بلوك باش الى مركز السلم يسمى دفنة

ومن السلم الى الشرق صارت الديار المصرية فالى حجاج العقبية مايسمى بالعقبة

ومن رأس حجاج العقبية الى المحل الذى يقال له سيدى عبدالرحمن مايسمى بالعقبة

ومن سيدى عبدالرحمن الى غاية خشم العيش يقال له المقطوعة

ومن خشم العيش الى الاسكندرية يقال له مريوط

وأما من البحر المتوسط الى الداخل فاذا مسدت خطأ من البحر عند بنغازى الى

وادى الكفرة جنوباً فانها مسافة ٢٥ يوماً . وان مسدت خطأ من « دفنة » الى الجنوب

مستقيماً وقع في واحة جنجوب

وعلى مسافة ثمانية من ساحل البحر الى الجنوب قضاء جالو وأوجه التابع لبنغازى

وأهله نحو من ستة آلاف نسمة يقال لهم المجبرة ثلثان منهم في جالو وثلث في أوجه

وفي الجبل الأخضر مياه جارئة عذبة كياه جبل لبنان فنها نهر درنة وهو من وادى

ابى الضحاك ويقال له أيضاً وادى المنحر . وهو يجرى من عينين احدهما عين منصور .

وعلى مقربة منها بقى معسكر انور والمجاهدين مدة سنة فأكثر . وتدور على نهر درنة

الارحية وتكثر في درنة البساتين وكلها سقى . وفيها عدا النهر آبار عذبة . والى الغرب من

درتة نهر « ماره » يدبر الرحي أيضاً فيه ٢٥ عيناً وماؤه عند رأس نبعه في غاية البرودة والعنوبة تخاله نبع الصفا في لبنان وعليه بساتين ومزارع ومنه الى درتة مسافة خمس ساعات. ويوجد الى الغرب من درتة نهر « كرسه » على ساحل البحر. والى الغرب من كرسه وادى الارون لقبيلة الشواعر. ثم وادى القليعة. ثم وادى رأس الهلال. ثم وادى سوسة وهي قرية كان فيها مهاجرون من مسلمى كريد. ثم عين شحات أى سيرناً القديمة تبعد عن البحر مسافة ساعتين ونصف ساعة. وشحات جبل مشرف على البحر أشبه بجبال غرب لبنان أو جبال متن لبنان المناوحة للبحر والماء يتفجّر منه من مغارة في أعلاه ويتصبب من هناك في شفير عال أمامه الفضاء التام الى البحر. وعلو هذا الشفير المقطوع نحو من ٣٠٠ متر. ومنظر شحات باشراف جبلها واقبالها على البحر وعلو شفيرها الذى تجرى خلاله عين شحات وعيون أخرى هو من أجمل مناظر الدنيا. وأرض شحات لقبيلة الحامسة التى منها نفر في مرج بنى عامر بفلسطين. وفيها زاوية كانت أجل زوايا السنوسية مبنية على حافة ذلك الشفير الشاهق بنتا فيها ايلة يوم كنا في جهاد طرابلس سنة ١٩١١ وكان شيخها يومئذ سيدى الدردق من كبار الطريقة السنوسية وكان هذه الزاوية أحسن أراضي شحات. وشحات هذه أو « سيرناً » الشهيرة في التدم بناها التبريون من يونان سنة ٦٣٠ قبل المسيح وصارت مدينة عظيمة تضاهى قرطاجنة ونبغ فيها فلاسفة وحكماء منهم اريستيب Arystippe الذى نسبت اليه الفلسفة السيرنية وغيره. وقيل بناها اليونانيون سنة ٦٦١ قبل الميلاد وكان رئيس هؤلاء اسمه باتوس وبقيت دولتهم هناك ٢٠٠ سنة وخرج منها عشرون ملكاً أفضلهم باتوس الثانى. وهذا وغربى نهر ماره واد يقال له « الحيز » فيه عيون كثيرة منها عين اسكندر وعين الحى وعين القبة وعليها بناء قديم متقن. وقد بنتا عندها ليلة في أثناء اختراقنا للجبل الأخضر من معسكر المجاهدين في درتة الى معسكر المجاهدين في بنغازى. ثم عين أم قديح وعين زاوية بشارة وهي زاوية سنوسية مشايخها آل فركاش مررنا بها في ذلك السباحة. ثم عين الجريوله وأبو شمال في محل يسمى الفرش. وأرض الديراس فيها عيون جارية منها عين القيقب وهناك قصر قديم فيه بقايا مدافع قديمة رأيت على بعضها تاريخ سنة ١٨٠٤ فيما أتذكر. وللعين ميزاب من داخل القلعة وميزاب وحوض من خرجها وماؤها بارد كأحسن مياه لبنان. وقد بنتا عند قيصر

القيقب هذا ليلة واحدة ونحن صادرون عن سهل بنغازي الى جبل درنة . وكان ذلك في شهر أغسطس أي أبان الحرّ ومع هذا فقد اضطررنا أن نشعل النار أمام خيامنا طول الليل اتقاء البرد . ثم عين لالي فعين القيدية فعين زوية فعين باطية وكلها غربي درنة على مسيرة يومين للفارس وعليها زرائع وجنان وبساتين . هذا وفي سهل « دفنة » معطن ماؤه ينبع من الأرض ^(١) ومعطن في بلوك باش ومعطن في مرسي طبرق ومعطن في العودة غربي طبرق ومعطن في عقيلة أبي حسنا وكلها في سيف البحر . وعلى ساحل البحر أيضاً عين الغزالة والى الغرب منها معطن اسمه الشقيق ثم سانية التميمي قبلي خليج بمبا والى الغرب منها عقيلة التميمي ثم أم ارزم ^(٢) وهي عين ماء نضّخة عليها بستان عظيم وزاوية للسوسية بنتا فيها ليلة من ليالي رمضان منصرفنا من برقة في أوائل حرب البلقان . وجاعة هذه الزاوية عائلة مطرودة . ثم الخرية غربي أم مرزم وغربها زاوية أم عفين بها زاوية للسوسية وعين جارية تبعد عن الأولى نصف ساعة . وكل هذه الأما كن مناوحة للبحر على مسافة ساعة ونصف منه . ثم وادي جنين فيه معطن قبلي ملاحه رأس التين يبعد عن البحر مسافة ساعة ونصف ساعة أيضاً . والى الغرب من وادي جنين معطن السوينية . والى الغرب من السوينية وادي الغرابي فيه معاطن عدة . والى الغرب من الغرابي عين مرطوبة غزيرة جارية عليها أشجار وزرائع وهناك زاوية عظيمة للسوسية بنتا عندها ليلة في طريقنا الى معسكر انور في عين منصور . وغربي مرطوبة وادي بلقراف فيه معطن وهذه الاما كن هي على مسافة ثلاث ساعات من البحر . وغربي بلقراف وادي بالفا والى الغرب منه عيون البقر خمسة معاطن وثلاث آبار . وغربي عيون البقر وادي المنحر الذي فيه عين منصور الذي كان فوقها مخيم أنور أيام جهاد طرابلس سنة ١٩١١ الى ١٩١٢ مسيحية وجميع هذه المياه هي في أراضي قبيلة العبيدات

وأما مدينة درنة على ساحل البحر فهي بلدة شامية في مياهها وفواكهها وزرائعها وفيها التين والرمان والعنب والنخيل والتفاح والكمثرى ورماتها موصوف بمجودته . والعنب أنواع كثيرة منه الزبيبي ويض الحمام والتركي والبيوضي والسوادي وزق

(١) المعطن في اللغة مناخ الأبل حول الماء

(٢) والأرزم الريح ويجوز أن يكون أم مرزم وهي بمعنى للريح أيضاً

الطبر وغيرها

هذه نبذة مما علمناه من المعلومات الجغرافية المتعلقة بالجبل الأخضر وما أخذناه من أفواه الثقات من أهل تلك البلاد . وأما طول هذا الجبل من الشرق الى الغرب فقد سرنا من أول الجبل مما يلي زاوية مرطوبة الى سهل مدينة بنغازى فى ١٢ يوماً كل يوم كنا نسير من ست الى سبع ساعات . وقيل لنا ان عرضه من البحر الى الصحراء مسيرة يومين . وهو اسم طابق مسماه اذ كيف توجهت وقع نظرك على مروج خضر كلزمرى وغلب اشب متلفاً عظيم السرح فينان الدوح يسير الراكب مساوفاً طوالاً بالأيام لا بالساعات وهو فى ظل الشجر . وقيل لنا انه طالما شبت التيران فى الغابات بقيت تأكل منها أياماً ولم يشعر الناس أنه نقص منها شئ* . ويروى عن سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه لما فتح مصر ومنها سار الى برقة وطرابلس وفتحهما لم يعجبه مكان كالجبل الأخضر وقال : لولا أموالى بالحجاز ما اخترت مكاناً للإقامة الا الجبل الأخضر . وأكثر الشجر الذى هو فى هذا الجبل هو من الأرز والصنوبر والعفص وفيه غابات عظيمة من الزيتون البرى وفيه أشجار باسقة كثيرة متنوعة تعلو الشجرة منها نحواً من ٢٠ الى ٢٥ متراً . فلا عجب اذا توجهت رغبة الطليان الى استعمار هذا الجبل بنوع خاص وكانوا قد رأوا الوسيلة الوحيدة لانفرادهم بحيازته أن يجلوا عنه جميع قبائل العرب التى تسكنه . ويفضوا تلك الأراضى من أيديهم غصباً ويصير وهم الى فلولات لا ماء ولا كلاً الا ما ندر ليكون مصيرهم الانقراض ولا يبقى على الطليان خوف من كره العرب عليهم لاسترجاع أراضيمهم

وأما قبائل العرب التى هناك فكلمهم جاءوا من جزيرة العرب فى أيام الفاطميين كما سيأتى . ولقد تبدلت أسماء الكثير من بطونهم وأنغادهم بمرور الأيام ونحن نذكر الآن أسماءهم وتقاسيمهم على حالتهم الحاضرة ثم نقب ذلك بأسمائهم وتقاسيمهم فى الأعصر الماضية للمقابلة بين الغابر والحاضر فنقول :

هؤلاء العرب ينقسمون الى قسمين الأول يقال له « السعدى » والثانى يقال له المرابطون . والفرق بينهما أن السعدى أشبه بالعلاتلات الممتازة أو الحاكمة وأن المرابطين أشبه بالاهالى الذين تحت الحكم . وتسمية القبائل الممتازة بالسعدى هى أن عقار قلد هذه القبائل من سعدى وهى امرأة هلالية فيكون بنو هلال احوال السعدى

هكذا يروون . فالسعدى منهم القبائل التي يقال لها ولد على وكل هؤلاء في داخل الديار المصرية منتشرون من مربوط الى السلم . وهم ثلاث فرق أولاد على الأبيض وأولاد على الاحمر وأولاد على خروف . وهؤلاء أولاد على خروف من فروع أولاد على الأبيض . وأشهر بطون أولاد على الأبيض الصانقة والمقاورة والموانة والعجامة والافراد . وأما أولاد على الاحمر فهم القيسات والحشيبات والكميلات وأبو سنية وهؤلاء ينقسمون الى أخاذ العراوة والقطيعة والمحافظ

ولأولاد على مرابطون أى تَبِع كما للقبائل السعدى التي في برقة ومرابطو أولاد على هم العوامة والزعيرات والموالك وحبّون والحوتة وسمألوس والمنفة وكلهم في أرض مصر وأولاد على مع مرابطيهم يبلغون نحواً من مائة ألف نسمة ولهم نحو من عشرين زاوية يديرها السادة السنوسية كل فرقة منهم تختص بزاوية

ثم من السعدى القبائل المسماة « بالحرابي » وهم ضمن حدود برقة وهؤلاء ينتسبون الى حرب بن عقار من ولد سليم بن منصور من العرب العدنانية وهم عدة قبائل العبيدات والبراعة والحاسة والدرسة وفائد

فالعبيدات ينقسمون الى بطون منها عائلة غيث ومنها عائلة مريم الذين في جوار طبرق كان منهم شيخ مشهور يقال له المبرى استشهد في واقعة مع الطليان قبل وصولنا الى هناك بقليل . ومنهم البناني ومنهم العوا كة أى شاهين وعوكل وهذان البطنان يقال لهما عائلة عبيد . ومنهم مسعودة وهم عدة عائلات عائلة منصور وعائلة قابس وعائلة أبي ضاوى وعائلة مباركة وعائلة أبي جازية وعائلة عبدالكريم وعائلة رقاد وعائلة الميلط . ومن العبيدات أيضاً عائلة مزين (بضم ففتح) والعلاقة والمدال والشرايع وعبيد

وعدد رجال غيث نحو من أربعة آلاف مسكنهم من القيقب في وسط الجبل الاخضر الى حد دفنه شرقاً . وعائلة مريم عددهم ١٥٠٠ رجل مسكنهم من طبرق الى دفنه . والعوا كة عددهم أربعة آلاف مسكنهم من القيقب الى دفنه . والشاهين ثلاثة آلاف منزلهم من الخيلة الى السلم . وعائلة منصور من درة الى أم مرزم شرقاً وهم ثمانية آلاف وبالتقريب منهم قابس وهم خمسمائة . وأبو ضاوى زهاء ألفين منزلهم غربى درة بجوار زاوية بشارة . ومباركة عددهم ألف في ناحية القبة غربى أبي ضاوى . وأبو جازية شرفى درة في ناحية خليج بما

عند زاوية مرطوبة وهم ١٥٠٠ . ويليهم عبد الكريم وهم ألف وخمسة أيضاً . ويليهم
رفاد وهم كذلك ١٥٠٠ رجل . ويليهم الميلط وهم ٥٠٠ وكلهم في ناحية بما
وأما عائلة مزين ففي سبخة رأس التين من بما وعددهم زهاء ألفين . وأما العائلة
خمسائة منهم فريق بالفرش غربى درنة وفريق من البطنان غربى طبرق . والعدال ألف
رجل وهم ينزلون بقرب العائلة

ومن العبيدات عدد غير قليل في الديار المصرية . فالشرائع منهم ثلاثة آلاف ويقال
أكثر في الفيوم . ومن عبيد وعائلة مريم نحو من ١٥٠٠ في الفيوم أيضاً . ويقال ان من
العبيدات خذاً اسمهم الرزنا نحو من ١٥٠٠ في الفيوم أيضاً . ومن العواكلة في الفيوم
وفي كفر الزيات ١٥٠٠ رجل . ومن الشاهين فريق في الفيوم يقال لهم الثلقات . ومن
أبي جازية نحو ٥٠٠ في الديار المصرية . ومن رفاد زهاء ٦٠٠ في منهور ومن مزين ٥٠٠
في البحيرة ومن عائلة مريم ٥٠٠ في طنطا ومن العائلة في العقبة والفيوم والبحيرة ألف
وخمسة رجل ومن العدال ألف رجل في الفيوم وفي مروط

وبالجملة يبلغ عدد قبيلة العبيدات في الجبل الأخضر والديار المصرية من ٤٠ الى ٤٥
الف مقاتل هذا بحسب الروايات التي تلقيتها من المرحوم صالح مركيوه من وجوه درنه ومن
غيره من العرفين بأحوال ذلك القطر لأنى حيث حلت كنت أسأل وأبحث
وقد روى الى أيضاً ان العبيدات ينقسمون الى ضنى ببنه وضنى واعرفن ضنى ببنه
العواكلة والشاهين . وان العواكلة منهم عائلة بركات وعائلة خليل وعائلة سجيح وعائلة أبى
فسيخة وعائلة عبدالكريم وعائلة سعدى . ويقال ان أصل العواكلة من حرب من الحجاز .
وقيل لى ان العواكلة والحوتة والجرارة والترأكى كلهم من سليم بن منصور
وأما الشاهين فعائلة المجلوم وعائلة غاضرات وعائلة حبيب

بطون عائلة غيث عائلة الخادم وعائلة الفضيلة وعائلة حسين الفرخ وعائلة ابراهيم
الفرخ وعائلة الصغير وعائلة أبى نظارة وعائلة جبر وعائلة عويضة وعائلة عبد الله وعائلة محمود
وعائلة ابن صيت وزاويتهم زاوية ترت - وكان شيخها يوم كنا هناك سيدى محمد الغزالى -
وقيل لى انهم يناهزون عشرة آلاف رجل
وعائلة غيث هم من ضنى واعرف . وكذلك من ضنى واعرف مسعودة أى عائلة منصور

ورفاقها ومن ضئى واعر عائلة مزيم وعائلة مزين وعبيد . ويقال ان العلاقة والعدال ليسوا في الأصل من العبيدات وانما انضموا اليهم والتحقوا -

والعبيدات مرابطون كما تقسم . وهم كثير و العدد مثل العبيدات وربما أكثر فمنهم قبيلة القطعان وأولهم الرحمانه منهم ستة آلاف رجل بين دفنة والعقبة . ويليهم عائلة بريدان وهم ثلاثة آلاف رجل منهم الثلثان في العقبة ودفنة وثلث في أبي حص بمصر . ومن القطعان عائلة أبي سعيدة وهم زهاء الفين في دفنة والبطنان ومنهم نحو الف في مريوط والبحيرة . ومن القطعان الرخامى منهم ٥٠٠ بناحية بما ونحو من الف نازلون بين العقبة ومريوط . ومن القطعان المعابدة منازلهم من العقبة الى مريوط وهم نحو من ثلاثة آلاف . ومن القطعان عائلة الفزارة نحو من الفين في العقبة أيضاً . وما يرويه الناس هناك أن القطعان هم من ذرية كعب الأبحار

ومن مرابطى العبيدات المنفة وهم خمسة آلاف رجل منهم العلوم ومنهم مسيكة ومنازلهم من البطنان الى مصر . ومنهم عائلة الخائب زهاء خمسمائة في برقة ومنهم عائلة الحاج رجب المنفة في برقة وهم نحو من الف

ويقال ان اصل المنفة هؤلاء هم من بنى هلال الا عائلة المقورى فانهم أشرف هاشميون ومن مرابطى العبيدات الموالك منازلهم من دفنة الى مريوط ويقال انهم نحو من خمسة آلاف ومن مرابطى العبيدات عائلة عبد الواحد الجرامة مسكنهم بدفنة والعقبة وهم ١٥٠٠ رجل وعائلة عبد السميع عددهم الف رجل بين دفنة والبطنان . ومنهم عائلة أبي حلينة زهاء ٦٠٠ في البطنان ودفنة . والسينيات زهاء الف هناك أيضاً ومنهم أناس في بر مصر

ومن مرابطى العبيدات قبائل الحوتة منهم عائلة الديدانى الف رجل بالجبل الأخضر ثم الجبيهاة وعددهم أيضاً نحو الألف ومسكنهم بالقيقب في الجبل الأخضر . ثم الصوانع وعددهم ٥٠٠ رجل ثم الدقش وعددهم ٢٠٠ وهم أيضاً من سكان الجبل الأخضر . ثم الحوتة النغوفة أكثرهم في بر مصر ومنهم فرقة بالبطنان زهاء ٥٠٠ أما الذين في بر مصر فنزلهم من العقبة الى مريوط وهم يناهزون ستة آلاف رجل . ثم المرازقة وهم في البطنان زرتحو من ٥٠٠ ولكن في أرض مصر يبلغون خمسة الى ستة آلاف . ثم الشرسات وهم زهاء الفين من العقبة الى البحيرة

ومن مرابطي العبيدات الشواعر منهم الف نواب عددهم الف رجل وهؤلاء في دفنة
ومنهم الف أخرى في داخل حدود مصر . ومنهم شواعر قطيثة وهم أيضاً في دفنة وعددهم
يبلغ الالف ومنهم الف أخرى بين العقبة ومريوط . ومن الشواعر الوداس وهم زهاء ٢٠٠
في دفنة ومنهم ٥٠٠ من العقبة الى مريوط . ثم عائلة زائد الشواعر ٥٠٠ في وادي درنه و ٥٠٠
من العقبة الى مريوط . وقبيلة عمر الشواعر نحو من الف في الجبل الأخضر ومنهم نزر في
مصر . ثم اللامشة بالجبل الأخضر وهم نحو من الف والعصيرات وهم ٥٠٠ ومسكنهم في الجبل
الأخضر والطوارسة ومنهم الف في دفنة والبطنان والف أو أكثر من العقبة الى مريوط .
وكل هؤلاء هم الشواعر وهم جميعاً زهاء عشرة آلاف مقاتل .

ومن مرابطي العبيدات الزعيرات ومنهم ٢٠٠ في بجا و ٨٠٠ في برمصر وعائلة القررى
مسكنهم بجا وهم فيها ٥٠٠ ومنهم بمصر نحو من الف

ومن مرابطي العبيدات السلاوية ومنهم نحو ٢٥٠٠ داخل الجبل الأخضر و ٥٠٠ في
أرض بجا ومنهم الف في مديرية البحيرة بمصر . والتراكي وهم في الجبل الأخضر وعددهم
الف رجل . وهناك قبيلة اسمها القبائل منهم بالجبل الأخضر الفان وخسماته ومنهم بأرض
مصر ٥٠٠ رجل . وجميع مرابطي العبيدات في الجبل الأخضر ومصر يناهزون سبعين
الف مقاتل حسباً روى في الثقات وعليه يكون العبيدات مع مرابطيهم نحواً من مائة وعشرة
آلاف وأكثر أي يزيدون على أولاد على

وقيل لي في تقسيم العبيدات رواية أخرى تختلف عن الأولى وهي انهم من ثلاث
سلائل ضنى سعدى وضنى أبي امامة وضنى غيث . وقالوا : ان سعدى من بني هلال وزوجها
هو عبيد فالعبيدات أخواهم بنو هلال . قالوا : وضنى سعدى منصور وقابس ومباركة وأبو
ضاوى وعبد الكريم وأبو جازية ورفاد . قالوا وضنى أبي امامة عائلة مريم ومزين وحبيده
ويوسف والعبيدى والثور وفاطمة وأبو جود وصالح . قالوا : وضنى غيث هم عائلة عبد الله
وهو أكبر ولد غيث ثم عائلة محمود ثم عائلة الرجا ثم عائلة أبي فضيلة ثم عائلة ملضى ثم عائلة
الخدام ثم عائلة جبر عويضة ثم عائلة جبر مطيريد ثم عائلة ابراهيم الفرخ ثم عائلة حسين الفرخ
ثم عائلة بصيص الفرخ ثم أبو نضارة

قالوا : والبنان هم العواكدة والشاهين . فالعواكدة هم عائلة بركت بلجا وعائلة سميع

وعائلة عبدالكريم ودادى والابيع ودادى وخليل ودادى والهيّيب ودادى وعائلة مريكب وعائلة مقهور الطاقية والخالشة

والشاهين عائلة ذويب وعائلة المجوم وعائلة غاصرات وعائلة حبيب وعائلة جبيره وعائلة الأعور وعائلة أبي قفة وعائلة أبي قوبة

هذا وقد سألتنا صديقنا على افندى العواكله قائم مقام قصبه المرج أيام جهاد طرابلس عن نسبه فى العواكله فقال : على بن حامد بن سعيد بن صالح بن سميع بن فكبير بن بن سعيد ابن ادريس بن أبي عوكل بن عبيد بن حرب بن عفار من بنى سليم

وقيل لى فى مرابطى العبيدات انهم القطعان وهم الرحامنة وأبو سعيده والفرار والرخامى وزاغوت وأبو ترعى والمعابدة وبريدان والتراكي وقبيلة اسمها القبائل والمامشة وعائلة عمر الشواعر وعائلة زائد الشواعر وعائلة سليمان المرخى الشلاوية وعائلة على الشلاوية وعائلة الخواجه وعائلة اسرافيل وعائلة بركات وقبيلة الصوانع وعائلة النعيمه والجهدى وقبيلة الحوته منهم الجرارة والنوفه والمرازقه والطيره والمقامى والشرسات والعميرة وعائلة بلل والسنينات والديداني وكل هؤلاء ضنى حويت . وأولاد منيف أو المنفا وهم مسيكة وعلوم فلسيئة الكحشات وعائلة سباق والدبابسة وعائلة المسمود وعائلة أبي خديجة وعائلة المقورى والجحيشات . وأما العلوم فمائلة رجب وعائلة الجزائر وعائلة الخائب وعائلة علوش والعرابت والرقيووات وعائلة الغضارف وغيرها

هذا مانذ كره عن قبيلة العبيدات أكبر قبائل الجبل الأخضر ومرابطيها ونعود الى القبائل الأخرى من الحرابى وتسكلم عن الحاسة فنقول :

الحاسة ينقسمون الى قساسمة وقلابطه . فالقساسمة هم الشباركة والبخايت هم الذين منهم عقيلة الحامسى الزعيم المشهور الذى كان فى مرج ابن عامر بفلسطين ولا تزال ذريته فيها وهم الحمادة والمواسى . فالشباركة هم عائلة عبدالله وعائلة مغاثة ثم ان عائلة عبدالله هى عبارة عن عائلات غزالة وعقيلة وأبي قفة وناقف والأعور وشريعة والميار وجبر وشدة وأبي محجوبة وزلط وغويزى والمجدّم وأبي الكيرات .

وأما عائلة مغاثة فهى عبارة عن عائلات موسى الفيشى ومنى وسعيد والرقاعة وأبي

جعطيلة وخالد

وأما اللبخايت فهم عائلة غرير والتوازية . فعائلة غرير هم عائلات عمر وأبي حناء وأبي عيسى والنكاع والعبورة . وأما التوازية فعائلات الجماعة وعبد الصادق وبرعاص والطويل وعبد الحاكم وأبي قنتلة

وأما القلابطة فهم المحامدة وهؤلاء هم عائلة ابراهيم وعائلة المسائل فعائلة ابراهيم هم عائلات الربط وهيبة وكش والقريد . وأما المسائل فهم أبو كفيفة والدويلى والسليبخ وعائلة بالر بى وعائلة وافي

ثم از، القسم الثانى من القلابطة هم الموماسى وهؤلاء فريقان عائلة تقو وعائلة الحرار فعائلة تقو هم الرفادى وسعد وعائلة الحرار هم أبولوية وحويج وأبو سداة .

وأما الحاسه فكلمهم زهاء تسعة آلاف رجل منهم ثلاثة آلاف شباركة والغان بخايت رأربعة آلاف قلابطة نصفهم محامدة والنصف الآخر موماسى . ومنازل الحاسه أجل منازل الجبل الأخضر شحات وسوسه والدرباس غربى درنة

وللحاسة مرابطون منهم مسامير الرزقة منهم فى الجبل الأخضر ومنهم فى بما شرقى درنه وعددهم ألف وخمسة رجل . ومن مرابطيهم اسماعيل المسامير بجوار شحات زهاء خمسة رجل . ومنهم اسماعيل التراكى مائة رجل بجوار القيقب . ومنهم أبورفيعة ٢٠٠ رجل بجوار الفايدة

ومن أهم قبائل الحرايى قبيلة البراعصة

وهم قيمان احد وجليد . جليد تزوج خضرا ومغبرية . فولدت خضرا عائلة خضرا الذين بالقيوم . ومغبرية ولدت طامية الذين منهم حدوث وجلفاف وزائد والجوينى وعبد الرحمن وعائلة عبد ودائحه وحليمة واليتامى والمساعد وعائلة عريف وعائلة خزاعل . ومن بطون البراعصة أولاد أحد وهم الطلوح والظوافر وقندول ونائل وبلدان ومنهم عائلة حسين البراعصة . وعدد الجيع يتجاوز العشرين ألف مقاتل وقيل لى ان البراعصة فيهم أناس من بنى حجاز اشرف حسينية أصلهم من السوارقية بقرب المدينة المنورة وقيل لى ان أصل البراعصة هو هكذا :

شريف اسمه حميد بالتشديد من ذرية سيدى عبدالسلام بن مشيش من أولاد نائل من أهل السافية الحرا من المغرب الأقصى جاء قاصداً الحجز للحج فرز على الجبل الأخضر

وكانت امرأته حاملاً فلم يمكثها إكمال الطريق إلى الحجاز فتركها في بيت أجد الحرابي من أهل الجبل الأخضر وذهب إلى الحج وتوفي فيه وولدت امرأته بعده ولداً اسمه برعاص لأنه كان متحركاً جداً^(١) وهو طفل . فبرعاص ولد مسعوداً وحسيناً وعبد المولى ومخلب فن ذرية مسعود حليلة وطامية وجلفاف وحدث ومنهم عائلة عريف واليتامي وعائلة خزاعل وذرية حسين وذرية عبد المولى وقد انقرضت ذرية مخلب . وأما ذرية أجد الحرابي فهم الطلوح والظوافر وفندول

ولما كنت في معسكر أتور بعين منصور أردت السفر إلى معسكر بنغازي وكانت لي معرفة بسیدی محمد العَلَمی شیخ زاوية البراعة ومن أصحاب السادة السنوسية وكبار رجال هذه الطريقة فنكلمت معه في أن يجد لي من عزد جاعته ظهراً لنقل خيامي وأسبابي فاستأجر لي رجلاً من البراعة اسمه علي بن محمد من عائلة حسين وحمل هذا أبقانا على جاله وفي أثناء الطريق مال بنا على نبعه وسألته عن نسبهم في النجع الذي استرحنا فيه فقال لي : انه علي بن محمد بن علي بن يوسف بن أبي خشيم بن عبد بن القادر بن علي بن محمد بن حسين بن برعاص . فخرنا ان برعاص قد عاش في أواسط القرن الحادي عشر للهجرة . وللبراعة مرابطون السعيط والعواممة والحسانة والعلاوة وهم عدة آلاف

وأما الدرسة فيقال انهم أولاد ادريس ولد عقار بن حرب . ولقد خلف عائلة عادل وعائلة حامد والخشبات وعائلة مسعود وعائلة عبد وعائلة حسين أبي عوينه وعائلة السريريك وعائلة دغار وعائلة الشلماني وعائلة دايجه وعائلة الحجازات . ومجموع الدرسة نحو عشرة آلاف مقاتل وقيل ١٥ ألفاً ومنازلم عند زاوية القصرين والعرقوب ومنهم فريق إلى جهة بنغازي ولهم تسع زوايا من الزوايا السنوسية كل أخذ منهم له زاوية وأما قائد من الحرابي فمات رجل لاغير وكانوا قبيلة كبيرة لكن على أثر عداوة بينهم وبين العواقر جلا أكثرهم إلى مصر وهناك قبيلة البراغيث وهم برغوث الكبير والعبيد والسرطنة ويقال لهم البراغيث

الحر والبور والعبادلة وهم يتجاوزون عشرة آلاف
وبين مساكن البراعة من جهة الغرب وبين قصبه المرج قبيلة يقال لها المسامير
مستقلة بذاتها يقال أصلها من الاشراف

(١) تبرع اضرب وتحرك تحك وقيل التبرع هو اضطراب الضو المقطوع

هذه تقاسيم قبائل الخرابي ومرابطيهم بقدر ما وصل اليه علمنا . وهناك فريق آخر من عرب بركة يقال له الجبارنة أى أولاد جبرين وهم العواقر والمغاربة والعرفا والعبيد والعريبات ووطنهم بلاد بنغازى

فالعواقر ثلاث فرق : السيدى و ابراهيم ومطوع . فالسيدى أربعة عشر بطنا : عائلة سليمان وعائلة العبار وعائلة هويدى والفوارس والمهارة والحداثة وعائلة ماضى وعائلة رابع والتواجير وعائلة غريبيل وعائلة دينال وعائلة الاديرع والقطارنة وسعيط وعائلة ابراهيم هم عائلة اللوانى وعائلة القمق وعائلة النمر وعائلة هذيلة وعائلة الحلاق وعائلة قنفوذ وعائلة غازة وعائلة مشرى والبراغنة والبور وعائلة الغزاي وسعيط الشمول وأما مطوع فهم عائلة صالح والعشبات والكواديك وعائلة الوزرى والخفيفات وعائلة صالح ودرمام وعائلة زيد وعائلة على والفصيات والعبادة وعائلة درقة وعائلة فرغنى وعائلة القطعانية وعائلة الخشمى وعائلة السورى والمهامرة ومبيديل والشويطرة وعائلة معيوف وأما المغاربة فهم الرعيضات وعائلة على وعائلة عليوه وعائلة صبح والعقارب وعائلة الاسود وعائلة الباسل والقبائل والمشيطات والعريبات وأما العرفا فهم السلطنة والطرش . وأما العبید فهم عائلة شعوه واليتامى وعائلة السخانى وعائلة أبى شلوفة وعائلة حاد

والعواقر من أكبر القبائل يناهز عددها ثلاثين ألف مقاتل فأكثر وأكثرها عدداً السيدى ثم عائلة ابراهيم ثم مطوع ومنازلهم من مدينة بنغازى الى مسوس جنوبا وهى مسافة ٢٤ ساعة ومن الشرق الى الغرب مسافة ٣٠ ساعة . وأما المغاربة فيقال انهم ٢٥ ألف مقاتل ومنازلهم من اجداية الى عمالة سرت ومنهم كثير فى نفس سرت ويسير الانسان فى أراضيهم خمسة أيام من الشرق الى الغرب وأما العرفا فعدهم ألف وخمسة ومعلم المرج . وأما العبید فهم ثلاثة آلاف ينزلون قبلى المرج

وللعواقر قبائل تابعة او مرابطون فالسيدى مرابطوهم الشهبان وعائلة ابراهيم مرابطوهم الفواخر . ويقال ان الشهبان هم من ذرية الصحابى سيدنا عكاشة . ويقال ان الفواخر هم من عرب اليمامة . ومن مرابطى عائلة ابراهيم الجرارة ومن مرابطى عائلة صالح من مطوع بعض من المنفة . ومجموع مرابطى العواقر ٢٠ الف مقاتل

ومن عرب برقة الجلالات وهي قبيلة مستقلة بذاتها نحو من ٤٠٠ رجل
ولنذكر الآن قبائل عرب برقة حسبما كانت في القديم لنعلم مراجع أنسابها ونقابل
القديم بالحاضر فنقول :

جاء في كتاب « نهاية الارب في معرفة قبائل العرب للقلقشندي » مايلي :

« بنو أحد بطن من بني هيب من سليم من العدنانية مساكنهم مع قومهم هيب في
أطراف برقة مما يلي الغرب . قال ابن سعيد : ولهم اجدانية وجهاتها وهم يرمهم حجاج المغرب »
قلت : لا يبعد أن يكون بنو أحد هؤلاء هم أصل القبيلة التي تسمى اليوم المغاربة
والتي لها اجدانية وجهاتها . ثم ان من البراعة فرقة يقال لها بنو أحد هم أصل قبيلة البراعة
كما تقدم الكلام عليه . ويوجد في ترهونة من عمل طرابلس قوم يقال لهم بنو أحد
لا ندرى هل هم منهم أم لا ؟

قال : « وأولاد سلام بطن من لييد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن في برقة الحمراء عائلة سلام

قال : « أولاد محمد بطن من صبيح من فزارة من العدنانية ومنازلهم بلاد برقة وهم
فرق كثيرة » قلت : يوجد اليوم قوم اسمهم الصبيحات في الغوارشة في الطرف الغربي من
مدينة بنى غازى ويخرج منهم هناك ستامة مقاتل
قال : « البركات بطن من لييد من سليم من العدنانية ومساكنهم مع قومهم لييد
بلاد برقة »

قلت : يوجد الآن البركات في أطراف كينس غربي بنغازى على مسافة عشر ساعات
منها . ثم ان في ترهونة وفي مصرطة أقواماً اسمهم البركات وأهم بادية مصرطة منهم وكذلك
منهم أناس في سرت

قال : « البشره بطن من لييد أيضاً ومنازلهم مع قومهم برقة أيضاً »

قلت : لا نعلم هل الناحية المسماة « بشارة » في الجبل الأخضر في أرض العبيدات
منسوبة اليهم أم لا ؟ فيجوز أن تكون « بشارة » ممدودة من « بشرة »

قال : « البلايش بطن من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة »

ثم قال : « الجواشنة بطن من لييد من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة وهم غير

الجواشنة الذين مساكنهم الحوف من الشرقية بالديار المصرية لأن الجواشنة هؤلاء (أي الذين بمصر) هم بطن من الحميديين من هلبا سويد من جذام من العرب القحطانية »

قلت : يوجد الآن فرقة من قبيلة المغاربة المارة الذكر يقال لها عائلة أبي خادة منهم قوم اسمهم الجواشنة

قال : « الحدادة (بتشديد الدال الثانية) بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة »

قلت : يوجد الآن الحدادة من العواقر ويوجد حدادة في نفس بنغازي ويوجد حدادة في مصرطة

قال : « الحسانية بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم برقة »
قلت : يوجد الآن حساسة في جهات اجداية

قال : « الفحوص بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم بلاد برقة »
قلت : موجودة الآن عشيرة اسمها « الفحاصى » غربي بنغازي لعلمهم هؤلاء

قال : « الدروع بطن من لبيد من سليم من العدنانية مساكنهم بلاد برقة مع قومهم »

قلت : موجود الآن عائلة الاديرع من فرقة السديدي من العواقر . وما لا يجوز أن نساء أن أسماء العائلات والقبائل تتغير وقد تحرف عن أصلها . ثم ما لا يجوز أن نساء ان القبيلة كثيراً ما يدخل فيها أقوام ليسوا منها في الأصل ثم يندمجون فيها تماماً

قال : « الرقيعات بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد بلاد برقة »

قلت : في الحاسة اليوم عائلة الرقاعة

ثم قال : « الزراير بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « السبوت بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « السوالم بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن عشيرة اسمها السوالم في عائلة مطاوع من العواقر منهم بأرض

بنغازي ومنهم بمصرطة

قال : « الشبله بطن من لبيد من سليم من العدنانية بلادهم برقة »

قلت : يوجد الآن جماعة اسمهم « الشبله في قبيلة المغاربة باجدانية »

قال : « الشواعبة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : في قبيلة المغاربة عائلة اسمها الشعيات

قال : « الشعوب بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : في الدرسة الآن عائلة شعيب وفي المغاربة الشعيات فلا نعلم هل الشعوب هم

هؤلاء أم أولئك أم هو تشابه أسماء ؟

قال : « الشنقة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح

بلاد برقة »

قلت : لا نعلم هل هي بنون فعين أم بنون فعين أم محرقة وأصلها « شعمة » لأنه

سيأتي ان من فزارة بطننا اسمهم الشعمة

ثم قال : « الصريرات بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « العقيبات بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم

صبيح بلاد برقة »

قلت : في غربي بنغازي اليوم قوم يقال لهم العقيب.

قال : « العواسى بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح

بلاد برقة »

قلت : من العواسى اليوم في نفس بنغازي وفي ترهونة

قال : « العواكة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد بيرقة »

قلت : قد تقدم ان العواكة فرقة من العبيدات يسكنون القيقب وسط الجبل

الأخضر ومنهم الجبالية بكفر الزيات بمصر

قال : « العلاوة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد بيرقة »

قلت : بلغنى أنه يوجد علاوة في ناحية غريان بطرابلس ثم انه تقدم كون العلاوة

من مراتبى البراعمة في الجبل الأخضر .

قال : « العلاوى بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم

صبيح بيرقة »

قلت : وفي العواقر عائلة « عليوه » فربما كان العلوي هم هذه العائلة
ثم قال : « النشائمة بطن من صبيح من فزارة منازلهم مع قومهم صبيح برقة »
قلت : ويقول القلقشندى نفسه في صبح الاعشى : « ان فزارة هو ابن ذبيان قال
في العبر : وكانت فزارة بنجد ووادي القرى ولم يبق منهم بنجد أحد ونزل جيرانهم من طيء
مكانهم وذكر بأن بأرض برقة الى طرابلس الغرب منهم قبائل رواحة هيب وفزارة قال :
وبافريقية والمغرب منهم الآن أحياء كثيرة اختلطوا مع أهله (الى أن يقول) : ومنهم مع
سليم بافريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبي الليل من كعوب بنى سليم يستظهرون بهم
في مواقف الحرب وقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للولوك . (ثم يقول) : وفي برقة ببلاد
هيب جماعة منهم نازلون بها ومنهم طائفة بصحراء المغرب »

قلت : لم أجد اسم « هيب » الآن الا اسم فرقة من العواكلة يقال لها « الهيب » يغلب
على الظن انه بقية الاسم القديم الذي كان أعم وأشهر . والأسماء كالمسميات تشق وتسد
ثم قال : « القيسوس بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
بلاد برقة »

قلت : وفي أولاد علي مرء بنا اسم فرقة يقال لها القيسات إلا أن تكون مصحفة
ثم قال : « الواحى بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
بلاد برقة »

ثم قال : « المساورة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
بلاد برقة »

قلت : من المساورة الآن في نفس درنة وفي مصراطة
ثم قال : « السامير بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
بلاد برقة »

قلت : تقدم ذكر قبيلة مستقلة بنفسها اسمها السامير تنزل الجبل الأخضر ويطن
أن أصلها من الأشراف . فان كانت هي البطن الذي ذكره بحسب هذه الرواية ليست من
الأشراف الفاطميين الا أن يكون دخل فيها يت منهم كما يجري كثيراً بين القبائل . ثم من
مرابطة الحاسة قوم اسمهم السامير . فأى السامير هم الذين أشار القلقشندى الى انهم بطن
من صبيح ؟ الجواب عنه متعذر

ثم قال : « الواحدة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم بلاد برقة »

ثم قال : « المقادمة بطن من سليم مساكنهم الجيزة من الديار المصرية ومنهم يبرقة والامرة فيهم الآن لأولاد التركية من بنى فائد »

قلت : يوجد اليوم في العواقر عائلة اسمها « المقادمة » وأما « التراكي » فهي قبيلة من قبائل الجبل الأخضر تُعد من مرابطى العبيدات . وللحاسة مرابطون يقال لهم بنو اسماعيل التراكي

ثم قال : « والمواسى بطن من صبيح المقدم ذكرهم مساكنهم برقة »
 قلت : اليوم من الحاسة فرقة كبيرة اسمها المواسى . وفي المغرب الأقصى قبيلة اسمها المواسى

ثم قال : « الموالى بطن من لييد من سليم من العدنانية مع قومهم لييد يبرقة »

ثم قال : « النبله بطن من لييد من سليم من العدنانية مع قومهم لييد يبرقة »

ثم قال : « النحاحسة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مع قومهم يبرقة »
 قلت : النحاحسة وقد يلفظونها النعاعسة قبيلة معروفة اليوم في تاجورة بطرابلس
 قال : « النوافلة بطن من لييد من سليم من العدنانية مساكنهم يبرقة »

قلت : في جهات اجداية وسرت قوم اسمهم النوافلة

ثم قال : « بنو بعجة بطن من هلال بن عامر بن صعصعة . قال ابن سعيد : منازلهم بين مصر وافريقية »

قلت : سمعت أنه يوجد اليوم بنفس بنغازى عائلة بهذا الاسم

ثم قال : « بنو ذياب من سليم من العدنانية . قال في مسالك الأبصار : منازلهم من فاس الى طرابلس من بلاد المغرب . وذكر في العبر أن منازلهم ما بين فاس وبرقة »

قلت : سمعت أن منهم الآن في زوارة بطرابلس وجنوبي يفرن

ثم قال : « بنو زغب بطن من سليم من العدنانية ذكر ابن سعيد ان ديارهم كانت بين الحرمين ثم انتقلوا الى الغرب فسكنوا بافريقية بجوار اخوتهم بنى ذياب بن مالك ثم صاروا في جوار بنى هيب »

قلت: يوجد الآن قوم اسمهم الزغيبات في مدينة بنغازي
ثم قال: « بنو زنارة بطن من لواته من البربر. قال في مسالك الأبصار: مساكنهم
فيما بين الاسكندرية والعقبة الكبيرة وبرقة »

قلت: ويقول القلقشندي نفسه في صبح الاعشى عند ذكر نسب البربر: ومن لواته
هؤلاء زنارة (بضم الزاي) وتشديد النون والتف ثم راء مهمله مفتوحة وهاء الآخر) وهم ولد
زنارة من ولد بر بن قيذار بن اسماعيل عليه السلام. وقال انه اخو هوارة وأكثر زنارة
ببلاد المغرب ومنهم جماعة بالبحيرة وجماعة بالثوفية. وقد عدّ الحداني من بطونهم بالبحيرة
بنو مزديش وهم مزداشة وبنو صالح وبنو سام وورديفة وجرهان ولقالا. وزاد بعضهم
بنو حبون وواكدد وفرطيطة وجرجومه وطازوله ونفات وناطوره وبنو السعوية وبنو أبي
سعيد. وهم عرب بدر بن سلام. ومن لواته أيضاً مزاته (بضم الميم وفتح الزاي والتاء المثناة
فوق وهاء في الآخر) وهم بنو مزاته بن لواته الأصفر ومنازلهم من البحيرة الى العقبة
الكبيرة ببرقة »

قلت: وقبيلة حبون في دفنة وبنو سعيدة هم في تلك الجهات. ومن العواقر فرقة
يقال لها عائلة اللواتي

ثم قال: « وبنو سهاك بطن من العرب عديم الحداني في عرب البحيرة وبرقة والعقبة
الكبيرة ولم ينسبهم في قبيلة »

ثم قال: « بنو شامخ بطن من هيب من سليم من العدنانية قال ابن سعيد: منازلهم
بالمحصب من بلاد برقة مثل المرج وطميشة »

قلت: في قبيلة المغاربة اليوم عائلة الشامخ لا نعلم هل الشامخ والشامخ واحد أم هو
تشابه اسماء؟

ثم قال: « وبنو عوف بطن من بهمة قال الحداني: ومنهم بالصعيد والقيوم والبحيرة
أناس كثيرة وفي برقة الى الغرب مالا يحصى »

ثم قال: « بنو فزارة بطن من ذبيان من العدنانية ومن بطونهم الآن أولاد محمد
والجماعات والسماي والشعوب والشعمة والعقبان والعواسي والعلوي والتشاشمة والقيوس
والساورة والسامير والمقادمة والمواحدة والمواسي والنحاحسة. قال في العبر: وكانت فزارة

في نجد و وادي القرى ولم يبق بنجد منهم أحد ونزل جيرانهم من طيبي مكانهم وذكر ان بأرض برقة الى طرابلس منهم قبائل »

قلت : يوجد الآن في برقة أولاد محمد ويوجد « الجماعات » في سرت ويوجد في الحاسة عائلة الجماعة بالتشديد ويوجد « الجميحات » في اورفلة من عمل طرابلس وكذلك في أولاد سليمان من العواقر . وأما العواسي فقد تقدم أن منهم اليوم في بنغازي وفي ترهونة . وقد تقدم أن في درنة اليوم قوماً اسمهم المساورة . وكذلك يوجد اليوم في الجبل الأخضر قيلتان باسم المسامر . وأما القيوس ففي أولاد على الذين بين الاسكندرية والعقبة فرقة اسمها القيسات . وأما المقادمة فيوجد الآن في العواقر بطن اسمهم المقادمة . وأما المواسي ففرقة من الحاسة كما تقدم . وأما النحاحسة فيوجد اليوم في تاجورة من طرابلس من يحمل هذا الاسم كما سبق القول عليه

ثم قال : « بنو قطاب بطن من لبيد من العدنانية مساكنهم مع قومهم برقة »

قلت : يوجد اليوم بنو خطاب في الفواخر في برقة ولا نعلم هل هو الاسم نفسه محرفاً أم اسم آخر ؟

ثم قال : « بنو لبيد بطن من سليم من العدنانية مساكنهم برقة وهم خلق كثير لا يكادون يحصون منهم أولاد سالم والحواشبة وقطاب و بطون أخرى متسعة »

ثم قال : « بنو محارب من سليم من العدنانية ذكرهم في العبر ولم يرفع نسبهم وقال : ديارهم بركة في الشرق عن نبي أحد المجاورين لبلاد المغرب الى العقبة الكبيرة والصغيرة » قلت : يشبه أن يكون قاصداً يبنى محارب القبائل التي يقال لها اليوم الحرابي .

ثم قال : « بنو قرة بطن من هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية وذكرهم الحداني في عرب الديار المصرية وقال : بلادهم اخيم من صعيد مصر . وذكرهم ابن سعيد في عرب برقة وقال : منازلهم فيما بين مصر و افريقية . قال في العبر : وكانت منازلهم بركة وكانت رئاستهم أيام الحاكم العبيدي لماضى بن مقرب . ولما بايعوا الأبي ركة من بني أمية بالأندلس وقتله الحاكم سلط عليهم الحبوش والعرب فأفناهم واتقل من بقى منهم الى الغرب الأقصى فهم مع بني جشم هناك »

وذكر القلقشندي بنى هلال في صبح الأعشى فقال : « هم بنو هلال بن عامر بن

صعصة قال الحداني : وكان لهم بلاد صعيد مصر . وذكرهم ابن سعيد في عرب بركة وقال : منازلهم فيما بين مصر وافريقية . ثم ذكر ماورد في العبر مما جرى عليهم في أيام الحاكم العبيدي وقال ان بحلب طائفة منهم وانه صار لهم بلاد اسوان وما تحتها ولم يخص منهم بنى قررة الا عند قوله : و باخيم منهم بنو قررة الى عيذاب وبساقية « قتلته » منهم بنو عمرو و بطونهم وهم بنو رفاعة و بنو مجير و بنو عزيز و باصفون واسنه منهم بنو عقبه و بنو جيله »

وذكر القلقشندي نسب سليم الذي منه أكثر قبائل بركة فقال : « هو سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان قال الحداني : وسليم أكبر قبائل قيس . قال في العبر : وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خيبر . ثم قال : و بافريقية منهم حى عظيم قال الحداني : مساكنهم بركة مما يلي الغرب ومما يلي مصر وفيهم الأبطال الأجداد والخليل الجياد . قال في العبر : وقد استولوا على اقليم طويل منسح الأطراف » . قات : وقد ذكر في صبح الأعشى انه كان لسليم من الولد بهته (بضم الباء الموحدة في أوله وفتح المثناة بعد الهاء) ومنه جميع أولاده . وقد اتفقت الروايات على انه كان بنو سليم بن منصور بن عكرمة و بنو عقيل ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة و بنو تغلب بن وائل بن جديلة كلهم في البحرين وكانوا أعظم القبائل هناك وكان أظهرهم بالكثرة والغلب بنو تغلب . ثم اجتمع بنو عقيل و بنو تغلب على بنى سليم فأخرجوهم من البحرين وآل أمرهم الى أن نزلوا بصعيد مصر ثم تقسموا الى بركة واستولوا عليها واتجمعوا جبلها الأخضر ولم يتركوا بها ولاية ولا امرأة الا لمشايعهم . قال القلقشندي : « قال والدى رحمه الله : وقد عدتلى بعض عرب برقمين بطونهم أولاد سلام وأولاد سليمان الركب والبشرة والبلايش والجواشنة والحدادة والحوتة والدروع والرقيعات والزازير والبيوت والسوالم والشيلة والشواعة والصريرات والعواكة والعلانة والقنوة والنوافلة انتهى »

قلت: تقدم أن من العواقر عائلة سليمان والحدادة والرقيعات وتقدم أن الحوتة قبيلة من العرب المرابطين وتقدم ان العواكة هم من فرق العبيدات . وتقدم ان بنى سلام منهم باجدانية وأما سائر الأسماء فمنها ما تغير بمرور الأيام و ربما بقي ولكن لم يتصل الينا لأنه لا نقدر أن نقول ان الذين قد أعطونا هذه المعلومات قد أحاطوا بكل سكان بركة وطرابلس علما

قال المقرئى في « البيان والاعراب عن نزل بأرض مصر من الاعراب » : فاما بنو هلال فانهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ويقال قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وقال المقرئى : وأرض مصر عوف بن سليم بن منصور بن عكرمة بن قيس بن عيلان وهم نخد . وبنو عوف بن بهر بن امرئ القيس بن بهته نخد . وبنو عوف بن قالح بن ذكوان بن ثعلبة بن بهته نخد . وعوف هؤلاء في بلاد الصعيد وفي الفيوم وفي البحيرة وفي برقة الى بلاد المغرب منهم أم لا تحصر كثرة

وقال المقرئى : « ومن سليم بنو عوف بن بهته ما بين قابس وبلد العناب بالمغرب وبنو هيب بن بهته اخوة عوف بن هيب ما بين السدرة من برقة الى حدود اسكندرية وبنو أحمد لم عدد ويزجعون الى شباخ ولها العزفي هيب . ومن هيب سبال ومحارب ورناستهما في عزاز . ولهيب في سليم عزة لاستيلائها على اقليم طويل خربت مدنه وصارت ولايته لأشياخهم وتحت أيديهم خلق كبير من البربر وفيهم طائفة الأبطال الانجاد والامارة فيهم في أولاد عزاز بن مقدم »

قلت يغلب على الظن أن يكون « المقادمة » الذين هم من العواقر يرجعون الى اسم مقدم هذا وأن يكون « العازة » يرجعون الى عزاز : ثم ظهر من كلام المقرئى هذا انه كان في برقة بربر كثير وأن بعض القبائل العربية الآن مثل حبون مثلا أصلها بربر ثم قال المقرئى :

« وفيما بين الاسكندرية والعقبة الكبرى جماعة فائد وزنارة ومزانه وخفاجه وهواره وسمال ولبيد جماعة سلام وفزارة ومحارب والعلانة وقطاب والزعاقية والبشرة والجواشنة والبعاجنة والقبايص وأولاد سليمان والقصاص ومنازلهم من العقبة الكبرى الى سوسة . ثم جماعة جمعهم بنو عمر وهم المثانية والميامنة وعرعرة وعظيمه والعكمه والزاييل والمعزة ومن المعزة الجعافرة جماعة ابن عمر ومنهم البدارى أيضاً ومنهم السهاونة والجلده . وأولاد أحمد . ومنازلهم من سوسة الى يبر السدرة وهي آخر حدود ديار مصر مسافتها من الاسكندرية نحو شهر بسير القوافل »

قلنا : جماعة فائد منهم نزر اليوم بالجليل الأخضر وجماعة في الدير المصرية . ولقد

مرّ بنا أن زنارة هم بربر وهم أصل قبائل عدة مستعربة الآن مثل حبون . وأما خفاجة
ففي اجدابية . وأما الهوارة فقبيلة شهيرة أصلها بربر . وأما فزارة فقد تقدم ذكرهم بطن
من ذبيان واما محارب ففي هذا الزمان لا نعلم قبيلة في برقة وطرابلس اسمهم محارب الا ان
كان المراد بهم الحرابي . والعلاوة قد مر أنهم موجودون الآن كما ان الجماعرة مشهورون
في بلاد أورفلة من طرابلس ومشهور انهم من نبي سليم بن منصور . وأما القُصَّاصُ ففي
أورفلة وهون عائلة أبي قصيمة . أفتراهم هؤلاء ؟ الجواب لا يبعد ذلك . وأما البداري
فربما كانوا هم البدور الذين من العواقر . وأما أولاد أحمد والجلده فقد تقدم ان قبيلة
البراعصة أصلها أحمد وجليد فيظهر ان المقصود بهذين الاسمين البراعصة لأن النسبة الى
برعاص ابن الشريف المغربي غلبت عليهم . واما بنو سلام فمنهم في بنغازي

ثم قال : « وفي برقة احياء لبني جعفر وكان شيخهم أبو ذؤيب وأخوه حامد بن كحيل
وهم ينسبون في العرب تارة في بني كعب بن سليم وتارة في فزارة والصحيح انهم ينسبون الى
مصراطه أحد بطون هوارة . وفيها بين برقة والعقبة أولاد سالم . وما بين العقبة الكبيرة
والاسكندرية أولاد مقدم وهم بطنان أولاد التركية وأولاد فائد مقدم وسلام معاً وهم ينسبون
الى لييد بن علي بن هبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر . وقال في آخر الكتاب : قال
العلامة الشيخ حسن العطار . ما ذكر في هذه الرسالة من القبائل اختلط حالهم الآن فالبعض
لا وجود له والبعض صار معدوداً من جملة فلاحي مصر الا قبائل باقية على عدم اختلاطها
بغيرها » انتهى

قلت : هذا ما أمكننا أن نردّ من أسماء القبائل الحالية الى الأصول المعروفة في الكتب
ولا شك انه قد فاتنا منها كثير الا اننا نظن ان الذي ذكرناه من هذا الباب هو أوفى
ما ورد في كتاب مطبوع

ولنذكر الآن توابع برقة الى الجنوب داخل الصحراء فنقول :

ان أهم ملحقات برقة جعبوب وفيها زاوية سنوسية كانت هي مركز السادة وفيها
مدرسة وفيها مدفن سيدى محمد بن علي السنوسى مؤسس الطريقة رضى الله عنه . وقد
علمنا أن الطليان بعد احتلالهم جعبوب أغلقوا المدرسة نخلت جعبوب من الشيوخ والمريدين
والطلاب وأقفرت تلك الواحة . وقد استولى الطليان على جميع الزوايا السنوسية التي في

برقة وطرابلس مع أوقافها ثم جالو وأوجلة وقد تقدم ذكرهما

ثم واحة الكفرة الشهيرة وفيها زاوية التاج السنوسية مركز السادة وفيها أودية وجنان ومزارع كثيرة وسكانها أكثرهم من قبيلة « زوية » ويبلغ عددهم أربعة آلاف مقاتل ومن أودية الكفرة « الهوارى » و « الهوبيرى » و « الجوف » و « الزرق » و « الطلاب » و « الطليلب » و « ناهيده » و « بزيمه » و « ربيانه » وفيها كلها النخل والتين والعنب والرمان وقصب السكر ومن مزروعاتها الحنطة والشعير وعندهم عيون جارية وآبار وسوان

ثم « ترزبو » على مسافة خمسة أيام من الكفرة وأهلها زوية أيضاً

ثم « ون » وهي بلاد منها « بلتو » و « اهدة » و « دربته » و « الزوايه » وفيها أربعة آلاف من السكان

ثم « قرو » وهي واحة فيها ألف نسمة

ثم « عين كلك » محرّكة وهي واحة شهيرة فيها زاوية سنوسية كان الفرنسيس قد جاءوها بقوة من بلاد كاتم وقاومهم السنوسيون وجرت بين الفريقين معارك قرأت تفاصيلها في كتاب لأحد ضباط الفرنسيس ممن شهدوا المعارك وبعد ذلك تغلبت فرنسا على عين كلك.

وفي عين كلك وجوارها نحو من سبعة آلاف نسمة من السكان

و واحة « قورى » وهي على ثلاثة أيام من قرو وفيها ألف وخمسة نسمة و واحة

« أرضى » على مسافة يوم من قورى ويقال ان فيها أربعة آلاف ثم هناك « الوجنقات »

فالوجنقة الأولى على مسافة ١٢ يوماً من الكفرة الى الجنوب . والوجنقة الثانية على

مسافة يوم من الأولى وفيهما ألفاً نسمة

ثم « فرم » على مسافة نصف يوم من « ارضى » الى الغرب وفيها ٥٠٠ نسمة ثم

« بودو » على مسافة يوم من « ارضى » الى الجنوب ويقال ان اهلها سبعة آلاف

و « العميان » على مقربة من عين كلك وأهلها ألفان

والى الشرق من كلك « بيمية » وفيها ١٥٠٠ نسمة

و « البور » وأهلها من قبيلة نوية نحو من ألفي نسمة وهي عن كلك على مسافة

أربعة أيام الى الجنوب وعلى مسافة ١٦ يوماً من مملكة واداي و ١٤ يوماً من دارفور فى

السودان المصري وستة أيام من الوجنقات وستة أيام من قرو
ثم « وادي الاكوره » تابع كلك وهو من الوجنقات الى الجنوب وأهله عرب بادية
زهاء ثلاثة آلاف

و « ويته » بين الدور والوجنقات أهلها من جبل يقال لهم القرعان سودان فيهم
جال وهم هناك من ثلاثة الى أربعة آلاف

و « باكيه » من « ويته » الى الجنوب على مسافة يوم واحد وكلها مراعي وأهلها
قرعان نحو من ألفين

و « وادي ندو » على مسافة يوم من « باكيه » الى الشمال وهي مراعي أيضاً وأهلها
قرعان زهاء ألفين وهم يأكلون الخنظل يصلحونه حتى يقدروا على أكله

و « رشي » على مسافة يوم ونصف من باكيه الى القبلة كلها مراعي وفيها ثلاثة آلاف
قرعان وعندهم نبت اسمه الكريب له حب

و « بسكري » الى الشرق من « رشي » على مسيرة يومين وهي مراعي أيضاً وفيها
نبت الكريب أيضاً وأهلها ثلاثة آلاف قرعان

وكل أهل هذه الواحات اخوان سنوسية تابعون لزاوية كلك

ثم « أم جرس » على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من كلك أهلها سودان يقال لهم
البديات وهم خمسة آلاف

والى الشرق من أم جرس على مسيرة ثلاثة أيام « باو » وكلها مراعي وفيها المواشى
بكثرة وأهلها بديات عددهم ستة آلاف

و « جبل مردي » بين أم جرس وبادي الاكوره فيه ١٢ ألف مقاتل كلهم
قرعان يقال لهم المرادوايتموعندهم مواشى بكثرة

وأما « التيبو » فهم جيل من السودان الى الغرب وهم أعداد كثيرة وكانوا من
الجهل في أقصى مايتخيل العقل فهذبهم السنوسية وعلموهم الصلاة والدين وحفظوهم القرآن

وأما اعراب كاتم فبعد ان احتل الفرنسيس كاتم انكفأوا الى كلك والدور . وجبال
الدور وعرة جداً وفيها مراعي ومياه غزيرة وعندهم نخيل واشجار واللحم عندهم كثير

ولهم من الخليل والابل وسائر المواشى ما يذكر . وأهل الدور من زوية وهم أشد أهالي تلك

الجهات بأسأ . وكان شيخ الدور يوم أخذت هذه المعلومات منذ عشرين سنة صالح أبو كريمة الزويبي وأما شيخ الجبع في تلك الاقطار فقد كان شيخ زاوية عين كلك وكان وكيل الحضرة السنوسية وكان عنده خمسمائة مقاتل بمعاشات مرتبة ضمن الزاوية وكان للدولة العثمانية عسكر في كلك

ووجدت في كئناشاتي في مكان آخران « ون » تبعد عن مملكة واداي مسافة ٢٠ يوماً وفيها زاوية سنوسية وزهاء التي مقاتل ١٥٠ شيخاً سنوسياً . ومزروعاتها القمح والشعير والقطن وعندهم عيون جلرية وآبار . وكان الفرنسيس جاءوها ثم رجعوا عنها . ومن ون الى كلك مسيرة يومين . وفي كلك رباط نحو ٧٠٠ مقاتل من رجال السنوسى .

ومن كلك الى قرو مسافة سبعة ايام وفيها ١٥ وادياً جميع سكانها عرب . وفي قرو زاوية سنوسية يتبعها ٥٠٠ مقاتل . ومن قرو الى الكفرة الى الشرق مسيرة ٢٠ يوماً . وفي الطريق مياه استنبطها السيد السنوسى من عمق ٣٠ قامة
ومن كلك الى واداي ٢٠ يوماً . ومن كلك الى ون شمالاً يوم . ومن كلك الى قرو شمالاً خمسة أيام . ومن قرو الى الوجنقات ثلاثة أيام . ومن الوجنقات الى الكفرة ٢٠ يوماً . ومن الكفرة الى جالو ١٥ يوماً . ومن جالو الى بنغازى ثمانية ايام

ولما اتفق الفرنسيس والانكليز على تقسيم افريقية منذ سنة ١٩٠٢ وقعت واحدة الكفرة ضمن الحدود الانكليزية وجعلوا من السفرة الى جهة واداي التابعة لفرنسة مسافة ٤٤٠ كيلو متراً وجعلوا جميع الصحارى التي الى الغرب من جالو واولهه ضمن المنطقة الانكليزية وعدوا جالو واولهه آخر حدود المملكة العثمانية الى الغرب . ومثل ذلك انهم جعلوا الحدود العثمانية من مرزوق قصبه فزان الى الجنوب ٣٥٠ كيلو متراً فقط على حين كانت أحكام المملكة العثمانية جارية على مسافة ٨٠٠ كيلو متر الى الجنوب من الكفرة وكان العلم العثماني يخفق في كلك وون وقرو فضلاً عن الكفرة وتزربو
ونقيد في كئناشاتي الاحصاء الآتى :

كيلومتر	كيلومتر
١٠٠	٢٥٠ من خمس الى طرابلس
١١٠	٣٠٠ من طرابلس الى زواره
٦٠	٥٠ من زواره الى تخوم تونس
٥٠٠	٩٠ من حدود تونس الى غدامس في الداخل
٨٣٠	٦٢ من طرابلس الى مرزوق
٨٧٦	١٠٦ من درنة الى الكفرة خطأ مستقيماً
٧٧	٢٥٠ من الكفرة الى ترو
٤١٠	٩٢٠ من درنة الى اوجله

هذا ولنختم كلامنا على برقة بما قاله المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم لمعرفة

الأقاليم » :

« برقة قصبه جليله عامرة نفيسة كثيرة الفواكه والخيرات والأعسال مع يسار وهي ثغر قد أحاط به جبال عامرة ذات مزارع على نصف مرحلة من البحر في هوية قد أحاط بها تربة حراء^(١) شربهم من آبار وما يحوونه من أمطار في جباب وهي على جادة مصر يحسنون الى التراباء . أهل خبر وصلاح وأقل انقلاباً من غيرهم »
وذكر اجداية فقال :

« عامرة بنيانهم حجارة على البحر وشربهم من الأمطار و « سرت » كذلك ولها بوادٍ وشعاري . وأما المسافات فتأخذ من برقة الى الندامة مرحلة ثم الى تا كفت مرحلة . ثم الى المغار مرحلة . ثم الى حليمان مرحلة . ثم مخيل مرحلة . ثم الى جب المتلار مرحلة . ثم الى جناد الصغير مرحلة . ثم الى حي عبد الله مرحلة . ثم الى مرج الشيخ مرحلة . ثم الى العقبة مرحلة ثم الى خرائب أبي حليمة مرحلة . ثم الى خربة القوم مرحلة . ثم الى قصر الشمس مرحلة . ثم الى سكة الحمام مرحلة . ثم الى جب العوسج مرحلة . ثم الى حنية الروم مرحلة . ثم الى ذات الحمام مرحلة . ثم الى بومنبه مرحلة . ثم الى الاسكندرية مرحلة »

(١) أظنه يقصد بركة هنا مدينة بنغازي لأن هذا الوصف ينطبق عليها والهوية هذه قد عرفناها الى

ولند كر الآن شيئاً عن طرابلس أخت برقة والتي ينسب ذلك الفطر إليها فتقول
 طرابلس مدينة عامرة كانت مركز الولاية أيام الدولة العثمانية وهي الآن لعهد الطليان
 مركز الولاية وكان يتبعها نونلات اح جفارة وتاجورة وززور . ثم قضاء النواحي الأربع
 وهي ناحية هاني وناحية المنشية وناحية الساحل وناحية الرفيعات . ثم قضاء نجاد . ثم قضاء
 غريان . ثم قضاء أورفلة . ثم قضاء ترهونه . ثم قضاء الزاوية . ثم قضاء زوارة . ثم قضاء
 العزيزية . ثم قضاء العجيلات . ثم لواء ابده ويتبعه ناحية خنس وناحية الساحل وناحية
 تاورغه . ثم قضاء مصراطه . ثم قضاء زليطن . ثم قضاء مسلاته . ثم قضاء سرت . ثم لواء
 الجبل الغربي ويتبعه ناحية يفرين وناحية ككله وناحية الحوض وناحية مراده وناحية
 زتان . ثم قضاء فساطو . ثم قضاء غدامس . ثم قضاء نالوت . ثم لواء فزان يتبعه رأساً
 ناحية مرزوق ثم الوادي الشرقى ثم الوادي الغربي ثم الحفرة الشرقية ثم سبن وسمنو ثم زاء
 ثم قطرون ثم قضاء سوكنه . ثم قضاء الشاطي . ثم لواء غات مربوط به رأساً ناحية جانت
 وناحية البركة وقضاء تيبورشاده الجبله أربعة ألوية و ٢٠ ناحية

وقد كان في الدولة العثمانية لواء بنغازي يتبع طرابلس أحياناً وينفصل أحياناً وكان
 يتبعه أربع نواح ناحية البراعة وناحية سلوك وناحية قيمنس وناحية برسبس ثم قضاء
 درنة يتبعه ناحية السلام وناحية طبرق وناحية ميا وناحية القبة وناحية الحاسة . ثم قضاء
 المرج يتبعه ناحية الدرسة . ثم قضاء جالو وأوجله يتبعه ناحية بريقة . ثم قضاء أجدابية الى
 الغرب من بنغازي . ثم قضاء السفرة مع توابعها السالفة المذكور

ومما وجدته في كمنشاتي عن طرابلس ما يلي :

أول بلد من طرابلس الى الغرب من برقة سرت وهي مركز قضاء وهي سرت
 البيضاء وسرت الحمراء . وبعد سرت عين تاورغا ووادي بن وايد ومصراطه وهي مركز قضاء
 وزليطن قضاء أيضا والخمس متصرفية . ومصراطه تمتد مسافة يوم الى الجنوب وآخرها من
 الغرب زاوية محبوب عند مقام سيدي أبي رويه . وبأراضي مصراطه الزيتون والنخيل
 والتفاح والمان وجميع أهلها تقريباً خيالة لكثرة الخيل في بلادهم ويخرج منهم ألوف
 مؤلفة من الفرسان وهم بغاية الشدة . وينقسمون الى قروغلية ورعية . فالقروغلية تحريف
 « قول أوغلي » وهم أولاد العساكر والمأمورين الأتراك والأرناؤوط والجركس والبشناق

وغيرهم ممن كانوا يخدمون في الجيش العثماني والحكومة في طرابلس . والرعية هم الأهالي الأصليون . ومن الفروغلية في أكثر المدن كبنغازي ودرنة ومصراطة ومنهم يدّر ومنهم الزواوي والشواهدة والهجرا كسة . وأما الرعية ففي مصراطة يقال لهم زمورة ومنهم أهل قصر حمد وقزير وزاوية المحجوب وغيران والثتاتوة وأولاد الشيخ والمريشات . وفي مصراطة عشيرة اسمها خدام الزروق وهم الرعيضات وسور جابر وبلال والشويخات والحسون والفرجان ومعدان وبركت . وكل قبيلة من هؤلاء لها قرية هي مستقلة بها وبعض خدام الزروق يسكنون في المضارب . وزعماء الفروغلية عائلة الأدغم في نفس مصراطة وبنو المنتصر زعماء الآخرين ومزروعات مصراطة الحنطة والشعير والدخن وأرضها سهول وريال والحيل عندهم لا تحصى وماؤهم من الآبار والسواني ولكنه كثير

وأما سرت فأهلها أولاد سليمان وهم بدو وعشيرة يقال لها القبائل والغداذقة والفرجان وبركت ومعدان والحسون وزاوية . وحكل هؤلاء منهم بدو ومنهم حضر وفي آخر سرت إلى الغرب بلد تاورغا أهلها حضر وهم سمر الألوان مثل السودان . وفي تاورغا أنهر جارية وعين اسمها عين سمهود ماؤها وفي تاورغا النخيل والقمح والشعير وكان أهل سرت يوم جمعنا هذه المعلومات أزيد من ٢٠ ألف مقاتل أما الآن فلا نعلم الحقيقة وإنما نعلم أن أهل طرابلس وبرزقة منذ مجيء الطليان إلى الآن قد تناقصوا إلى النصف مما كانوا وذلك بالقتل والرحيل وتوالي المحن

وإلى الغرب من مصراطة قضاء « أورفلة » وأهلها بغاية الشدة يقولون « أورفلة ما يورلى » وهم جماعة سيدي عبد السلام ابن سليم الأسمر من أكبر أولياء الله . وأهل أورفلة منهم حضر ومنهم بدو وفي الصيف يأوون إلى بيوت الحجر وفي الشتاء يسكنون المنابر . وإلى الغرب من أورفلة بلاد زليطن ويقال لأهلها الفواتير وهم أشرف وسيدي عبد السلام الأسمر منهم وهؤلاء الفواتير يبلغون عدة آلاف ويوجد في زليطن قبائل أخرى كأولاد غيث والعاهم والبراهمة وغيرهم . وفي زليطن قروغلية كما في مصراطة . وإلى الغرب من زليطن الساحل وفيه نهر جلي يقال له عين كعاوه وأهل الساحل اسمهم الحوامد وعندهم زيتون ونخل وهم يزرعون الحنطة والشعير والذرة والقصب ومن الساحل إلى الغرب محل يقال له المرقب ثم مركز يقال له الخس كان مركزا للتصرفية لعهد الدولة العثمانية وكانت

سرت ومسراطه وزايطن و ترهونة تابعة لتصرفية تونس . وأما ترهونه فتمتد من المحل المسمى بالساحل الى تاجورة بقرب مدينة طرابلس وسكان ترهونة قبيلة يقال لها ترهونة أيضا وكانت كثيرة العدد جداً لأيام الدولة العثمانية وكان زعيم ترهونة على بك المُرِيض . وفي أيام الحرب الكبرى عندما انتقض أهالي طرابلس على الطليان وطردهم وحصرهم في مدينة طرابلس ومدينة بنغازي ومدينة درنة لا يقدرون أن يخرجوا إلى الخارج استقلت ترهونة بحكومة خاصة بها كما استقلت مسراطه واستقلت أورفله وغيرها . وبقيت الحال كذلك الى أن حضر نوري أخو أنور من جهات بنغازي على أثر اتفاق السيد إدريس السنوسي في ذلك الوقت مع الطليان وعقدهم معاهدة معه يعترفون له فيها بالامارة فجاء نوري منهزماً الى مسراطه ومعه الاستاذ عبد الرحمن عزام المصري فسلم له رمضان السواحلي الذي كان مستبداً بأمر مسراطه أمور تلك البلدة وبعد ذلك بحسن تدبير نوري ومستشاره عبد الرحمن عزام اتحدت جميع تلك الحكومات حكومة واحدة وصار برطرابلس كله تحت إمارة نوري الذي كان يمثل السلطان وكان أخوه أنور يرسل اليه بالامانات من الاستانة بواسطة الغواصات الألمانية وانحصر حكم الطليان في مدينة طرابلس وأما بنغازي فكانت الامارة فيها للسيد إدريس السنوسي ما عدا مدينتي بنغازي ودرنة . وبقيت الحال كذلك حتى جاء حكم الفاشست في إيطاليا فنقضوا المعاهدة التي كانت إيطاليا عقدتها مع السنوسي المشار اليه وفر السيد ادريس الى مصر حيث هو الآن وسلك الفاشست بمسعى طرابلس وبرقة المسلك الفظيع الشنيع الذي سلكوه ونقلنا طرفاً من أخباره في هذا الفصل

هذا والى الجنوب من ترهونه قضاء سلاته وكان لعهد الدولة العثمانية تابعا لتصرفية جبل غريان وفي سلاته قبائل كثيرة وأكثر محصولها العنب والزيتون ومن سلاته الى فزان عشرون مرحلة . وأما جبل غريان ففيه نحو من مائة قرية وفيه بيوت منحوتة في الصخر وهناك جبل يفرن وجبل نلوت وجبل فساطو وجبل شفانه والجبل الغربي وقصبة زوارا على البحر وأهل الجبل الغربي وزوارا أباضيه وكذلك أهل فساطو ونلوت وأكثر محصول جبل غريان التين . والى الغرب من بلاد طرابلس الزاوية الغربية ثم غدامس على حدود بلاد تونس وما وجدته أيضاً في كذاشاني أن طريقة سيدي عبد السلام الأسمر ولي الله الأكبر رضى الله عنه هي الطريقة العروسية وأنباعها كثير ون

هذا ما اخترنا ذكره عن طرابلس وبرقة ولأجل تمام الفائدة يجب أن نذكر خلاصة عن كيفية احتلال إيطاليا لطرابلس فليعلم القارىء أن مبدأ هذه النازلة كان احتلال الفرنسيين لغاشودة في منطقة السودان للمصرى جاءها من جهة السودان الغربى فاعتزمت عليهم انجلترا وحصل خلاف شديد بين الدولتين وأندرت انجلترا الفرنسيين بالحرب إن لم يرجعوا عن غاشودة فرجعوا عنها ولكنهم طلبوا تحديد الحدود بين المنطقة الانجليزية والمنطقة الافرنسية في السودان فبعد أن حددوا الحدود بدأ هاتين الدولتين أن تقاسما افريقية فيما بينهما سراً وكان ذلك سنة ١٩٠٢ فزلت فرنسا لانجلترا عن مصر والسودان المصرى وأوغندة وغيرها ونزلت انجلترا لفرنسا عن مرا كشي وشمالي افريقية والبلاد التي كانت فرنسا احتلتها في السودان الغربى وقد كان هذا التقسيم من أفظح ما سجله التاريخ لأن الدولتين تقاسمتا به بلدان الناس بدون علمهم وتجاوزنا على حقوق دول كثيرة مستقاة اعتداء محضاً وتسلطاً صرفاً وقد كان هذا التقسيم لافريقية بين فرنسا وانجلترا أكبر عامل في الحرب الكبرى لأنه على أثره قامت ألمانيا تعترض على سعى فرنسا بالانسلاء على المغرب وكذلك اعترضت دول أخرى كإيطاليا واسبانيا فاتهى الأمر بعقد مؤتمر دولى في الجزيرة الخضراء أمام جبل طارق وهناك قررت الدول استقلال سلطنة المغرب برغم ما كان بين انجلترا وفرنسا من الاتفاق السرى ولكن هاتين الدولتين وقعتا على معاهدة الجزيرة من جهة وبقيةا تعملان لتنفيذ الاتفاق السرى الذى بينهما وبناء على هذا الاتفاق تعرضت فرنسا للمغرب وساقط جيوشها وتجاوزت على هذه السلطنة من جهة الشرق واحتلت «وجدة» ثم أرسلت جيشاً نزل بالدار البيضاء وكان ذلك مبدأ لبسطها للحماية على مرا كشي كما لا يخفى . وقد كان أهالى المغرب رأوا في سلطانهم عبد العزيز ابن مولاي الحسن ضعفاً عن مقاومة الفرنسيين فباعوا أخاه عبد الحفيظ على أمل أن يقوم هو بالمدافعة عن البلاد ولم يبايعوه الا على شرط تنظيف البلاد من الأجانب ولكن الفرنسيين أعملوا القوة العسكرية من جهة والسياسة والمصانعة من جهة أخرى واتهى الأمر بافئاع عبد الحفيظ بقبول الحماية الافرنسية ولعب في ذلك الوقت قدور بن غبريط المشهور دوراً مهماً في افئاع السلطان عبد الحفيظ بقبول الحماية بعد ان كان هذا السلطان امتنع عن قبولها أشد الامتناع وأراد الاستعفاء من السلطنة . وخلاصة القول أن فرنسا وانجلترا من

ورأها ظهير نقضتا معاهدة الجزيرة بفعلهما . وكان ذلك مما أثار غيظ ألمانيا وحمل امبراطور ألمانيا على الجحى ، بنفسه الى طنجة واعلان أن استقلال المغرب لا يمكن أن يمس أحد ولولم يكن السلطان عبد الحفيظ قد قبل الحماية الافرنسية من نفسه لبقيت ألمانيا متمسكة بمبدأ استقلال المغرب التام . وهذا الذى دعاها قبل الحرب العامة بقليل الى ارسال بارجة الى مرسى أغادير يوم نار الخلاف بينها وبين فرنسا وكادت الحرب بينهما تنشب الا أن ألمانيا نكمت أو ائتذ عن الحرب لكون إنجلترا وعدت فرنسا بجعل الأسطول الإنجليزي تحت ارادتها فيما اذا نشبت حرب بين فرنسا وألمانيا . وقد كانت هذه من أمهات المسائل التى أوجبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ومقصدنا من ذكر هذه المقدمة أن إيطاليا بعد أن رأت تقسيم إنجلترا وفرنسا لأفريقية واستئثار كل منهما بمالك و بلدان طويلة عريضة واحتلال فرنسا لأفريقيا واعطاء قسم منه لاسبانيا اسكتاً لها عن الاعتراض قامت بطالبت فرنسا وإنجلترا بحصة لها في أفريقيا واقترحت أن تنزلاها عن طرابلس الغرب وبرقة وتم الاتفاق على ذلك بين هذه الدول الثلاث سرا وبعد ذلك هاجت إيطاليا طرابلس الغرب بغتة بدون أدنى سبب سوى أن فرنسا وإنجلترا تقاسمتا افريقيا وأنها هي إيطاليا دولة كبيرة فلا يمكنها أن تبقى بدون حصة من هذه القارة ولما هاجت إيطاليا طرابلس الغرب أبلغت تركيا أنها ان رضيت أن تتخلى لها عن طرابلس وبرقة تعوض عليها بعض تعويضات مالية وتبقى للسلطان العثماني السيادة الدينية ولكن العالم الاسلامي يومئذ نار ثأره لهذا الاعتداء الفظيع واضطر السولة الى المقاومة . نعم انه لم يكن للدولة قوة فى طرابلس أكثر من أربعة آلاف عسكرى على حين ان إيطاليا جهزت لاحتلال ذلك القطر مائة ألف عسكرى الا أن الاهالى ناروا بأجمعهم ورأى الباب السالى أنهم قوة قادرة على مقاومة الطليان فأمدهم بما أمكن من الأسلحة وجاء أنور متنكراً ودخل الجبل الأخضر من الحدود المصرية وجاء على فتحى ودخل طرابلس من الحدود التونسية وكان بلغ أهالى مصر وتونس استعداد أهالى طرابلس وبرقة للحرب فأرسلوا اليهم بالأرزاق وأمدوهم بما أمكن من الأموال وكانت الحماية الاسلامية فى ذلك الوقت غير ما آلت اليه بعد الحرب الكبرى فرأت إيطاليا ورأى العالم الأوروبى كله من مقاومة الطرابلسيين مالم يخطر لهم على بال . ولقد كانت إيطاليا تعتقد ان احتلالها لمدينك القطرين يتم فى خمسة عشر يوماً . وأتذكر أنى

قرأت بيانات للورد كتشيران هذا الاحتلال أصعب مما يظنون وانه قد يأخذ مدة ثلاثة أشهر... فكان من مقاومة الطرابلسيين أن استمرت الحرب بينهم وبين ايطاليا عشرين سنة تامة بدلا من ثلاثة أشهر ولم تنقطع الا في السنة الماضية بعد أسر الشهيد عمر المختار . وقد بلغت خسائر ايطاليا في هذه الحرب مدة العشرين سنة مائة وخمسين ألف قتيل وثلاثمائة مليون جنيه ذهب ولو تيسر للاهالي السلاح اللازم والعدة لكان يستحيل أن تتقدم ايطاليا من ساحل البحر الى الداخل ولو مسافة بضعة كيلو مترات ولكن الذي فت في أعضاد الأهالي هو فقد السلاح والذخيرة كما لا يخفى . وكان نزول الطليان في طرابلس النهار الرابع من اكتوبر سنة ١٩١١ وخرجت الحكومة العثمانية من طرابلس ومعها العسكر بقيادة نشات بك وخيموا في جهات غريان وكانوا ينتظرون الأوامر من الباب العالي بالتسليم وكانت ايطاليا تنتظر ذلك لعدم تصور العقل امكان ادنى مقاومة . ورأى الأهالي أن الدولة تركتهم نضعوا في أول الأمر للطليان وهؤلاء أخذوا يوزعون الأموال على وجوه الاهالي في طرابلس وناحيتها وفي بنغازي وفي درنه واستجلبوا كثيراً منهم وكان من جهة من خدم الطليان من أعيان بنغازي المعروفين منصور الكاخيا وكان منهم ابن المنتصر في مصراته . وفي ذلك الوقت بينا ظن الطليان أن الأمر استوثق لهم قام سليمان الباروني زعيم الاباضية الذي هو اليوم وزير امام الاباضية في مملكة عمان وقام معه فرحات وغيرهم من زعماء طرابلس واستنفروا الأهالي فأتوا بالسلاح وهددوا العسكر العثماني المنسحب الى خارج طرابلس بالقتال ان لم يصل الطليان الحرب فاشدد عزم العثمانيين وعلم الباب العالي أنه يقدر أن يعتمد على الاهالي وفي أواخر شهر اكتوبر المذكور كان المتطوعون منهم قد تكاثروا جداً فرحف العسكر العثماني والمتطوعون الى مدينة طرابلس وقاتلوا الطليان قتالا شديداً وفي أحد الأيام ظنوا أنهم مستولون عليها لا محالة . ولكن مدافع الطليان من البر والبحر حالت دون تحقيق هذه الأمنية . وكان قد لحق بالجيش العثماني أهالي ترهونه وأهل الساحل والمنشيه والرجيحيات تحت قيادة علي بك الشابي الذي امتاز في معركة يربطراس والتحق أيضاً بالجيش أهالي تاجوره بقيادة علي محمد كرموس ووجه أيضاً الطوارف والفزانية وأهالي زليطن وتاورغه وزمتان ورجبان ومزده وأهالي غريان وأورفله ومصراته وناوبر والزاوية وزنزور والعجيلات وغيرهم وبدأت الحرب

وجهه خمسة فارس من أولاد أبي سيف وهم سنوسية يسكنون في سكنه وكان جميع هؤلاء الأهالي مقبلين على الحرب كأنهم موفضون الى أعراس واستردت الأهالي جميع التواصي التي حول مدينة طرابلس حتى دخلت سيدي الهاني وسيدي المصري فشهد العالم بأجمعه من بسالة هذه الأقوام ما قضى بالعجب العجائب ولكن الطليان ضاعفوا قواتهم ومعداتهم وفي ٢٦ نوفمبر استرجعوا سيدي الهاني وسيدي المصري ثم بدءوا بتلك الأفعال الفظيعة وقد ذكرنا فيما تقدم مذبحه المنسوبة التي تبقّى عاراً على إيطاليا أبد الدهر . ولولا مدافع الطليان ومعداتهم ما كان يمكنهم أن يثبتوا في مدينة طرابلس فضلا عن أن يتقدموا الى الداخل وكان جميع المدافع التي في المعسكر العثماني سبعة مدافع فقط معها ثلاثون من المدفعية ولهم قائد اسمه أحد شكري قاوم جميع مدافع الطليان بمدافعه هذه ووصل الى مسافة كيلو مترين فقط من الطليان والى مسافة ستة كيلومترات من المدينة وكانت قنابره تسقط في حديقة البلدة وفي واقعة قارقايش قاوم أحد شكري هذا بأربعة مدافع جميع مدافع الطليان الهائلة وفي واقعة عين زاره بقى يقاوم مدافع الطليان مدة عشر ساعات إلى أن تمكن العثمانيون من الرجوع بانتظام . وقد وصل الينا ونحن في معسكر درنه المسيو دريمون مراسل جريدة الأستراسيون الصورة خدثنا عن وقائع الحرب التي شهدنا في طرابلس وقال إنه لم يجد قوما عندهم شغف بالنتال واستخفاف بالموت كهؤلاء القوم . وقرأت له مقالة في الأستراسيون أنه شاهد في المعسكر العثماني أمام طرابلس متطوعة من الطوارق ومن فزان ومن جبل غريان وزليطن وأورقلّة وترهونه ومن الساحل قال : «واذا سمع هؤلاء نداء الحرب قامت قيامتهم وندفقوا إليها كالسيول من الجبال وبالجملة فالجرب عندهم أشهى لذة تصورها عقولنا » ثم إن الدولة العثمانية جعلت معسكرا آخر في مصراطه بقيادة خليل بك عم أنور ونوري أخى أنور واشتعلت الحرب بينهم وبين الطليان الذين كانوا في قصر حد على البحر . وأما من جهة بنغازى فإن الحرب بدأت بعد ١٨ يوما من إعلان إيطاليا الحرب على تركيا . وفي الليلة الثانية من نزول الطليان في بنغازى هجمت عائلة إبراهيم والبراغنة بغتة على محلة يقال لها الصابري وسط نخيل بنغازى كان اللطليان أرسوا إليها جانبا من جيشهم لحصلت معركة شديدة انهزم بها الطليان الى محمل يقال له الزراب وتلف منهم ذلك اليوم نحو من تاورين . ووقعت واقعة أخرى يوم نزولهم اسمها وقعة جوليانة قتل منهم فيها

تلائماتة ومن العثمانيين سبعون وكان الطليان يضربون بنغازى بمقذوفات مدافعهم من البحر فقتل من الرجال والنساء والأطفال نحو أر بعامة وتمكنوا بمدافعهم من النزول الى البر لأنه لم يكن عند العثمانيين مدافع تحمي البلدة فزلت عساكر الطليان واحتات السكنة العسكرية فقاتلها الأهالى وسقط من الطليان جماعة فى ميدان السكنة . وخرجت الجنود التي كانت فى بنغازى مع قائدها شاكر بك الى سيل الهوارى على مسافة أربعة كيلو مترات من المدينة وبيت خمسة عشر يوماً فى الهوارى وكانت أر بعامة جنسى فقط تم تأخرت هذه التوبة الى الأبيار على مسافة ثلاثين كيلو مترا . وكان سيدى عمران السكونى شيخ الزاوية السنوسية فى قصبه المرج وقد عرفته يوم ذهبت الى بنغازى فرأيت فيه صنديداً من الصناديد رحمه الله وأكثر من مثله فهذا الرجل استنفر قبيلة العرفا التي هو شيخ على زاويتها وقبائل أخرى والتحق بالجند العثماني الذين بقيادة شاكر بك وزحفوا الى الطليان فكسروهم الى مدينة بنغازى ومن ذلك الوقت لبثوا فى بنغازى تحت حاية اسطولهم . وأقام المعسكر العثماني ومعه العرب بالمحل الذى يقال له الرجه . وكان الطليان قد قصدوا قرية الكوييفية على مسافة ساعة ونصف الى الشرق من بنغازى وعلى ربع ساعة من شاطئ البحر ولم يكن فى الكوييفية الا نزر من المقاتلة وكان الطليان عدة آلاف فانهزم الطليان وقتل منهم مئات وغنم منهم العرب بندق ومسدسات وأعتدة كثيرة

وفى ١٥ يناير سنة ١٩١٢ بعد حضور عزيز بك المصرى قائداً للمعسكر العثماني فى بنغازى جرت وقائع كثيرة نذكر منها أن أر بعامة عربى هجموا على استحكام اسمه شويليك دخوله من شاطئ البحر فذبجوا الطوبجية الطليان على المدافع وأحضروا المكاتب التي فى جيوبهم من أهلهم اليهم وفى ١٦ الشهر المذكور دخل سبعون عربياً الى استحكام الفويهات وقتلوا وغنموا مقداراً من البنادق وفى ١٨ منه جرت وقعة الزريعة اذ دخل من العرب ليلاً ٣٥٠ رجلاً بين استحكامين من استحكامات الطليان وقعدوا فى حفرة وقعد ٥٠ عربياً من الجهة الأخرى فسار الطليان فوقعوا فى الحفرة بغتة ونشب قتال شديد بين الفريقين وكانت أربع بوارج طليانية تطلق القنابر من البحر منعاً للعرب من امداد ذويهم ولكن أصيب الطليان ذلك اليوم برزايا فادحة وقتل منهم مئات وقيل ١٥٠٠ جندى وقتل من العرب ٣٥ مجاهداً وجرح ثمانون . ومن بعد هذه الوقعة ازداد اهتمام الطليان

بالاستحكامات ووضعوا حولها الأسلاك الشائكة

وفي ٣١ ديسمبر سنة ١٩١١ ذهب ٥٠ عربياً من قبيلة الفوارس ودخلوا استحكام

الفويهات وغنموا وقتلوا وقتل منهم ١٠ رجال وجرح ١٢ رجلاً

وفي ٢٢ فبراير سنة ١٩١٢ هجم العرب من جهة الثامه على الاستحكام الطلياني

الذي هناك فغنموا خيلاً قتلوا فرسانها وغنموا بنادق وأدوات

وفي ٢٦ منه اجتهد الطلياني في احتلال « غريونس » على شاطئ البحر جاءها من

جهة شويليك فردهم العرب وغنموا منهم ١٩ بندقية

وفي ١٢ مارس ١٩١٢ جرت وقعة الفويهات الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربي

دخلوا بين استحكامي الفويهات والبركة فنار في وجوههم الطلياني واشتدت الحرب وأحاط

الطلياني بهذه المائتي مجاهد من العرب وقصد عزيز بك المصري ومن معه من العرب امداد

هؤلاء فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابر التي كانت تنساق كالطمر من البر والبحر . فلبث

هؤلاء العرب يقاثلون مستميتين الى الظلام وعند ذلك نجح فلهم ولحقوا بالمسكر العربي بعد

قتال استمر طول النهار ويقال انه نجح ٨٠ رجلاً من المائتين . وأما الطلياني فقتل وجرح

منهم ألف وخمسة مائة مقاتل منهم ٢٨ ضابطاً برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء وأصيب بالجنون

عنة ضباط من هول تلك الوقعة . وكانت هذه الواقعة قد شقت كثيراً على العرب وقامت

النوادر تنسب أولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطلياني دون امكان نجاتهم . وبينما

العرب في مآتم على قتلاهم اذ وردت برقية من أنور القايد العام في درنه الى عزيز على

المصري قائد مجاهدي بنغازي عن برقية من الاستانة عن برقية من برلين عن برقية من

رومة تفيد أن وقعة الفويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطلياني خسروا فيها ألفاً

وخمسة مائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرين قتلوا وجرحي ومنهم من أصابهم الجنون من هول

ذلك اليوم . فلما بلغ العرب ذلك شق من حرقهم على أبطالهم وتحول حزنهم سروراً

وفي ٤ ابريل اشبكت دورية من العرب مع ثلاثة آلاف جندي طلياني في الفويهات

أيضا فانكشف الطلياني بغير انتظام وخسروا ٨٠ قتيلاً ولم يقع من العرب الا قليل من

القتلى والجرحي

وحصلت بين الفريقين وقعة اسمها وقعة السلماني وذلك أن ٦٠ عربياً هجموا على

استحكام السلياني نخرج الطليان ودارت رحى الحرب ووردت نجدات للعرب فكسروا الطليان والأزموهم داخل الاستحكام بعد أن تركوا مئات من القتلى على الحضيض . ثم وقعة البركة وهي أن الدرسة والعبيد دخلوا ليلاً بين الاستحكامات في راس عبيدة وكانوا ثلاثمائة مقاتل فدارت رحى الحرب طول الليل وأصبح الصباح عن ٣٠٠ قتيل من الطليان ولم يقتل من العرب سوى ثمانية مجاهدين وجرح ١٢ مجاهداً . وفي ١٩ يونيو جرت وقعة مع دورية الكوفية وكانت ٥٥ مجاهداً لا غير ففلاقت مع الطليان في سواني عثمان وكان هؤلاء نابورين من المشاة والاي من الفرسان ومعهم بطارية مدافع جبلية وبطارية ممرأوية وثبت العرب مع قلة عددهم نحواً من ساعتين الى أن وصلت اليهم النجدات فعند ذلك انهزم الطليان ونقلوا عشر عربات وثلاث سيارات كهربائية ملائى بالقتلى والجرحى منهم ثلاثة ضباط وغنم العرب أسلاباً كثيرة

وهكذا كانت وقائع بنغازي في بداية الغارة الطليانية واستمرت بعد ذلك بدون انقطاع الى أن جرت الحرب العامة وخدم الطليان بالاتفاق مع الانكليز السيد ادريس السنوسي نجح سيدي المهدي واعترفوا به أميراً على برقة وانقطع بذلك القتال وصارت الامرة في البركة للامير ادريس وبقي كذلك سبعاً الى ثمانى سنوات اذ جاء الفاشيست وتكثروا بالمهادنة واستأنفوا الحرب ففر الأمير ادريس الى مصر وتولى قيادة المجاهدين زعماء متعددون أشهرهم الشهيد عمر المختار الذي ثبت الى الآخر وبلغت مدة جهاده عشرين سنة وأما مبدأ نزول الطليان في درنه فهو أنهم جاءوا ودمروا فيها بيت التلغراف اللاسلكي ثم ضربوا المدينة بالقنابر . وكان في درنة ٦٠ جندياً عثمانياً لا غير تحت قيادة البيكباشي شاكر بك فانضم اليهم بعض الأهالي وجاء على افندي العوا كلى قائم مقام قسبة المرج ومعه عشيرته العوا كفة وبعض عائلة غيث فقاوموا الطليان بشدة لكن أهالي درنة اختاروا التسليم . وخرج شاكر بك بجنده الى عين « ماره » وأخذ الطليان يستجلبون الأهالي بالمصانعة ووزعوا أموالاً وكتبوا مشايخ الزوايا السنوسية ورؤساء القبائل ومع هذا فالعرب بقيت تآبي طاعتهم فأخرجوا نابور بحرية وثلاثة تواريخ مشاة وبطارية مدافع وصعدت هذه القوة الى رأس نبع درنه في الوادي المعروف بوادي الشواعر فصدتهم على افندي العوا كلى بقومه وتوافت اليه الاعراب فهزموا الطليان هزيمة شنعاء قتل منهم فيها

مئتا وجرح مئتا بعد أن استمر القتال ١٢ ساعة وغنمت قبيلة الشواعر ٨٠ بندقية والعواكلة ١٢٠ بندقية ومن الحيوانات وقرطاس البنادق شيئاً كثيراً . ولم يسقط من العرب الا ١٢ مجاهداً من العواكلة وستة من الشواعر . فاشتدت بهذه النصرات عزائم العرب وتقوت قلوبهم وكان أنور قد وصل الى « دفنا » يوم جرت واقعة وادى الشواعر هذه فكاد يطير فرحاً وعلم أنه يقدر أن يقاتل رجال كهؤلاء . وقبل واقعة وادى الشواعر لم يكن حصل الا مناوشتان مع العرب بنى جازيه من العبيدات قتل فيهما ٥٠ طليانياً . أما بعد وصول أنور فان الطليان امتنعوا عن الخروج مدة واعتصموا باستحكاماتهم وأخيراً خرجوا بقوة عظيمة وصارت الواقعة المسماة بواقعة « الصَّبَط » وألحوا على معسكر أنور ولكن العرب هزمتهم وتركوا مئتا من القتلى والجرحى وغنم العرب ١٣ بغلاً موقرة ومئتا من البنادق واستشهد من العرب ٤٠ مجاهداً . وكانت هذه المعركة في ٣١

ديسمبر ١٩١١

ثم في ١٧ يناير سنة ١٩١٢ جرت واقعة بين الطليان وجيش العرب الشرقي أي الحميم شرقي درنه فتفهمق العرب وقتل منهم ١٨ مجاهداً وأسرع الجيش الغربي لنجدته فوجد في طريقه نابورين من الطليان فهزهما وقتل منهما ١٥٠ جندياً . ثم في ٣٠ يناير هجمت قبيلة البراعصة على استحكام سيدى عبد الله ليلا وهو ملاّن بالمدافع الهائلة الكبيرة وكان هجومياً بجراًة نادرة المثال في تواريخ الحروب الا أن البراعصة لم يقدرها على الاستحكام ووقع منهم ٧١ شهيداً . وجرت واقعة في ٣٠ مارس ١٩١٢ استمرت طول النهار وانهمز الطليان وقتل منهم أربعائة منهم ثلاثة ضباط كبار وقتل من العرب ٣٧ وجرح ١٥٠ مجاهداً وغنموا ١٥٠ بندقية وثمانية صناديق ملاءى بالمقنوفات

وفي شهر مارس جرت واقعة كنتت أنا السبب فيها لأنى كنتت وصلت مجاهداً ومعى خمسة رجال من أخصائى من جبل لبنان باقى منهم فى الحياة واحد هو عجاج أعا عبد الصمد من عماطور فلما وصلت الى معسكر عين منصور تقابلت مع أنور ومصطفى كمال وغيرهما من القواد وصرت مترقباً نشوب واقعة لأشدها . فمضت أيام ولم يحصل شئ سوى مناوشات بين الطلائع . فبينما أنا أتحدث الى رشيد بك ابن المشير فواد باشا الجركسى (١) قال لى :

(١) استشهد رحمه الله فى حرب البلقان عند استرداد الثانيين لادرته سنة ١٩١٢

لن شئت زريك وقعة غداً . فنهبت أنا واياها الى ضلع جبل مناوح لاستحكام سيدي
 عبد الله وبينهما واد عميق وجميع تلك الهضاب مكسوة بالأشجار من عفص وغيره وقررنا
 أن تكون الوقعة هناك وجررنا مدفعين صغيرين من خسة مدافع صغار هي كل ما كان
 في جيش أنور ووضعناهما بازاء استحكام الطليان . وثاني يوم بكرنا الى ذلك المكان
 وجنمت العرب في المتاريس بازاء الاستحكام . وذهبت أنا وتقدمت وجنمت مثلهم وراء
 متراس . ثم جاء مصطفي كمال وكان يومئذ قائد ألف وثاني أنور في القيادة مجلس بجانبى . ثم
 جاء أنور رحمه الله ثم جاء رشيد بك ابن فؤاد باشا ثم جاء ضابط دمشق ذهب اسمه من بالى
 ثم جاء ضابط ألماني اسمه البلرون غومينبرغ من أنبل عائلات مونيخ وهو لا يزال في الحياة
 ومن أعز أصدقائى . وبعد أن أخذنا مقاعدنا بدأنا برى القنابر من المدفعين الصغيرين
 اللذين كنا وضعناهما هناك قبل الوقعة بيوم . فاكلت أصوات قنابرنا تدوى حتى انفتحت
 أقواء مدافع استحكام الطليان المسمى بسيدي عبد الله تقصف قصف الرعود وأخذت القنابر
 تنساق علينا كالطر وهي من نوع الشراييل واشتد رى الرصاص من العرب . فاستمرت
 الواقعة من الصباح الى الظلام لكن بقي كل فريق في أرضه فلا نجح زحفنا اليهم ولا هم
 زحفوا نحونا . ولما اتصف النهار اشتد بنا الجوع وكان مع مصطفي كمال رغيغ من الخبز
 قسمه بيننا وكنا خسة وراء ذلك المتراس فأصاب كلاً منا فرزدقة . وكان الهلال الاحمر
 المصرى قد جعلنى مفتشاً على بعثاته الطبية في تلك الحرب فلما رأوا في نجيم الهلال الاحر انه
 اتصف النهار والحرب مشعلة ولا تقدر أن تبرح المصاف أرسلوا لنا غداً تاماً فيه ما يكفي
 من الخبز والجبن والزيتون والصل وارسلوا زمزية ماء وجاء شاب صفا قسى اسمه على كنت
 استخلمته عندى ومعه الطعام فاخذ يدب بين المتاريس الى أن وصل الينا فنفجنا السفره
 وأكلنا وقد نال منا الجوع كل منال فلم أعهد في حياتى انى أكلت أكلة أشهى منها .
 وبعد الطعام غلب على النعاس لآنى نهضت ذلك اليوم من التعب لحضور الواقعة فأشار على
 مصطفي كمال بان أبيت في ظل شجرة عفص صغيرة على مسافة ٢٠ متراً من المتراس .
 فذهبت واضطجعت على التراب ومن شدة النعاس غلب الكرى على برغم قصف المدافع
 وأغفيت نحواً من ٢٠ دقيقة واذا بكتلة تراب غمرتنى جفاةً فاستيقظت مذعوراً فاذا بكرة
 شراييل سقطت بجانبى وانفجرت فأصابنى منها التراب الذى اطارته من الارض فقامت

وزيغت جلست الى جانب مصطفي كمال وانور وراء المتراس . واخذ البارون غومينبرغ بالتوغرافيا صورنا جميعاً ونحن هناك ولا تزال هذه الصورة محفوظة . ذكرت هذه القصة لأنها من ألد ذكريات حياتي ولأن رفاقي ذلك اليوم صاروا فيما بعد من رجال التاريخ أحدهم أنور أشهر من أن يذكر والثاني الغازي مصطفي كمال رئيس جمهورية تركيا الحالية ولم يقع منافي تلك الواقعة الا نزر من القتلى والجرحى

ثم جرت وقائع فيما بعد أشهرها واقعة قصر اللبن استشهد فيها من العرب ٤٠٠ وقتل من الطليان أكثر من هذا العدد . وما زالت المارك هناك تتوالى الى أن نشبت حرب البلقان فألح الأتراك على أنور بالرجوع الى الاستانة فرجع مكرهاً وسلم القيادة الى عزيز بك المصري الذي واصل قتال الطليان . ثم لما عقدت الدولة الصلح مع إيطاليا رأى عزيز بك نفسه مضطراً الى ترك القتال فسحب العسكر النظامي الذي كان في برقة وكانوا زهاء أربعمائة وأخذ الأسلحة التي أكتنها وأخذها وسار قاصداً الحدود المصرية . وهو بهذا لم يعمل الا بحسب الأصول الدولية ولكن المجاهدين السنوسيين تقموا عليه انه عطّل المدافع التي بقيت عندهم ودفن القراطيس والغدائق في الأرض . وهذه روايتهم التي رووها لجميع الناس وحرروها وقدموها الى الاستانة والله أعلم بها . ثم ان عزيز بك أبى أن يسلم العرب البنادق التي مع عسكره وذلك وفقاً للأصول الحربية التي تقضى بعد انعقاد الصلح بين تركيا وإيطاليا أن لا يسلم العسكر العثماني أسلحة لأعداء إيطاليا . ولكن العرب لم يقبلوا هذا العذر أيضاً ولم يفهموا كيف أن الدولة بعد أن عقدت الصلح مع إيطاليا مكرهة مرغمة بسبب حرب البلقان تعود فتسحب هذه القوة الضخمة التي كانت باقية لها في برقة ثم تأتي أن تترك لهم البنادق التي كان يحملها الأربعمائة عسكري الذين مع عزيز بك ؟ ولذلك أصرتوا على عزيز بك في تسليمهم البنادق وبدأوا أولاً معه بالجدال واتهوا أخيراً الى الجلاد . فوفقت حادثة مؤسفة . وثمة نرى من واجبات الأمانة التي تلزم المؤرخ عند ذكر الوقائع أن لاندعها مسكوناً عنها كيف كان الخطأ فيها . وذلك أن الاعراب يجهاهم عند ما قطعوا أملمهم من تسلم البنادق بالرضى أطلقوا الرصاص على العسكر العثماني وكان قد ختم في « دفنا » غربي السليم ولم يبق الا أن يصل الى الحدود . ولعلمهم قتلوا أو جرحوا بعضاً من العسكر . فأمر عزيز بك بمقابلتهم بالمثل فنشبت معركة سقط فيها أكثر من ستين قتيلاً من العرب وبضعة

عشر قتيلاً من الجند . وعند ذلك امتدّ صريح العرب بعضها الى بعض وأقبلت من كل صوب تريد الانتقام من عزيز بك وعسكره . وهذا كله في دفنا والأراضي المسماة بالطنان . وأخذت العرب تجتمع لمهاجة الجند النظامي . وكان السيد أحمد الشريف السنوسي في الجبل الأخضر وقد سفر الجو بينه وبين عزيز بك المصري بسبب سحب هذا للعسكر النظامي وتخليته لبرقة ولكنه لم يكن إرضى بأن تكون النهاية قتل المسلمين بعضهم بعضاً وان يوقع العرب بجند الدولة التي كانت تحافظ على بلادهم . فارسل السيد السنوسي الأكبر الشهيد السيد عمر المختار اتلقى الشر ومنع الأعراب من الهجوم فقطع عمر المختار مسافة أربعة أيام في يوم واحد مواصلاً الاغذاذ الى أن أدرك العرب قبل هجومهم فجز الشراً وبالتمهم . افي مقاتلة عسكر الدولة من الفضيحة والشماتة وسوء القالة وسد أبواب عواطف الدولة على عرب ضرابلس ومازال بهم حتى اقنعهم بأمر السيد السنوسي أن يتركوا ثأرهم ويعتدوا هذه الواقعة كأنها لم تكن . وبمقاتلة ذلك أخذ لهم فيما سمعت البنلاق التي كانت مسئلتها هي سبب الشر الذي وقع . ولكن عزيز بك على المصري وصل الى مصر ثم الى الاساتنة وقد امتلأ صدره وغراً على السنوسية كما أنهم هم أيضاً قسموا الشكوى بحقه الى الدولة بعد أن صار أتور ناظراً للحرية واتهموه بأشياء كثيرة أحواله الدولة من اجلها الى المحاكمة . ثم خلت بعد ذلك سبيله بشرط أن يغادر تركيا فغادرها الى مصر ووطنه في خبر ليس هذا محله لأنه يتعلق بموضوع الحركة العربية على تركيا أكثر مما يتعلق بطرابلس الغرب

وبعد أن خرج عزيز بك من برقة أصبحت القيادة الفعلية بيد السيد أحمد الشريف السنوسي كبير الطريقة السنوسية وكان أكثر اعتماده في الأمور الجهادية على عمر المختار . واهتبل الطليان غرة الحرب البلقانية مع تركيا فأوقفوا على السنوسية بقوتهم لعلمهم بدوخون ذلك القطر بتخلي الأتراك عنه فلم ينالوا أرباباً لأن السنوسيين صدوهم من كل جهة . ولبت الطليان منحصرين في المدن الساحلية . فلجأ الطليان الى الخديوي السابق واقنعوه بالتدخل في القضية لعل السنوسي يخضع لاطيالية بواسطته — ولقط الناس يومئذ بأن الطليان وعدوا الخديوي بأن يشتروا منه خط حديد مربوط الذي كان يخصه والله أعلم فأرسل الخديوي رسلاً من قبله عدة مرات يقترح على السنوسي الاتفاق مع ايطالية فاعتذر السنوسي عن قبول ذلك حسبما حدثني هو بضمه وأجب الخديوي بأنه هو لا يملك ذلك القطر

لينزل عنه لإيطالية وإن الإسلام يمنعه من تسليم البلاد للطلليان مادام فيه عرق ينبض . ولعل الخديوى السابق أراد بهذا التوسط تخفيف الشر ولم يكن له مقصد فى ضرر السنوسية إلا أن قضية بيع سكة مريوط من الطليان قد دارت على الألسن سواء كانت صحيحة أم لم تكن خفشت وجه الوساطة وأصمّت أذان السنوسية عن سماع الكلام . ثم إن الطليان لم يتمكنوا من شراء سكة مريوط نظراً لمعارضة الحكومة المصرية لذلك بالتواطؤ مع الانكليز سراً . ولقد أشار جيوليتى رئيس نظار إيطاليا الشهير فى «مذكراته» الى مساعدة الخديوى السابق لإيطالية فى الحرب الطرابلسية ولكنه لم يذ كر شيئاً من قضية سكة مريوط وإنما قال : « إن عباس حلمى الخديوى السابق كان مساعداً لنا من أول هذه الحرب وبواسطته أمكننا الاتفاق مع الادريسي فى عسير ويقول الخديوى انه أراد بما فعله مكافأتنا على حسن المعاملة التى لقيها منا أبوه عندما كان منفياً من مصر وأقام بنابولى »

ومن هذه الجملة يعرف القارئ أن جيوليتى لا يؤخذ كلامه قضية مسلمة افلا ترى انه يخلط بين والد الخديوى ووجهه اسماعيل باشا الذى كان هو المنقذ الى إيطاليا لا والد الخديوى ولا عجب فى هذا فإن جيوليتى حرر مذكراته بعد أن ناهز الخامسة والثمانين من العمر ومن علت سنه الى هذه الدرجة فأحرر به أن يروى عن زيد ما يكون أحياناً صدر عن عمرو . والله أعلم بالحقيقة

ونعود الى خبر برقة بعد أن تركها الأتراك فنقول ان السيد السنوسى أسس فيها حكومة سنوسية وبقى يجاهد فيها الطليان ويقمعهم فى الثغور البحرية بنغازى ودرنه الى الحرب العامة اذ بعث اليه أنور بأخيه نورى ومعه الأوامر بالزحف الى مصر لمشاغلة الانكليز فيها . وكان السيد غير مرتاح الى هذه الغزاة خوف الفشل وكان الانكليز كتنشر وما كسويل وغيرها يصنعونه ويقدمون اليه الهدايا اللطيفة يكتفون بها شره عليهم وقرأت عنده كثيراً من رسائل اللورد كتنشر والجنرال ما كسويل وهما يبالغان فى تمظيمه واسترضاء خاطرهما وما استجلب نظرى أكثر من الجميع مكتوب بالعربى من اللورد كتنشر محرر بعبارة بليغة وباسجاع رشيقة ويخط لم أجد أبعد منه فى حياتى يخاطب فيه اللورد كتنشر السيد أجد الشريف كما يخاطب الملوك ويلقبه بسلامة النبى الأعظم عليه السلام وكل هذا مداراة منهم له ليكف عن مهاجمة مصر . ولم يكن السنوسى قد تلسكأ عن الزحف الى مصر بسبب هذه الصانعات

الانكليزية وانما كان يعوقه ان القوة التي كانت بيده لم تكن كافية وكان يخشى أن تدور عليه الدائرة فلما رأى ما رأى من الخلق أنور ونورى وتوبيخ الوطنيين من المصريين اياه على التناقل اختار الزحف وكان من الأمر ما كان من الفضل الذي قد توقعه بما قد استوفينا شرحه في صفحة ١١٤ وصفحة ١١٥ وصفحة ١١٦ الى صفحة ١٢٩ من الجزء الاول من الطبعة الاولى من هذا الكتاب فمن شاء فليراجع هذا المبحث هناك ولكننا هنا ننشر مما وجدناه بين أوراقنا كتباً واردة من السير مكماهون معتمد انجلترا بمصر ومن اللورد كتنر ومن الجنرال مكسويل القائد العام للجيش الانكليزية بمصر الى السيد انسوسى أحد الشريف أخذنا نسخها من نفس السيد المشار اليه وهي من أهم الوثائق التاريخية المتعلقة بالحرب العامة

هذا وأحسن تاريخ عربي لطرابلس الغرب هو « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » تأليف أحمد بك النائب الاوسى الانصارى الطرابلسى أصله من جالية الاندلس في القرن السابع للهجرة وهذا التاريخ مطبوع في الاسنانه العلية سنة ١٣١٧ هجرية وأول رحلة قام بها أوربي الى طرابلس الغرب المسيو لومير قبصل فرنسة في طرابلس جولاً في تلك البلاد وكتب عنها رحلة بأمر لويس الرابع عشر ملك فرنسة . ثم اقتنى اثره بولس لوكس فزارها سنة ١٧١٠ ثم سنة ١٧٣٣ ثم الدكتور توماس شاو زارها سنة ١٧٣٨ ثم في سنة ١٧٦٠ جاءها من مصر فرنسى معلم طبيعيات اسمه غرانجه وفي سنة ١٧٧٢ زارها جنس بروس السائح الى الحبشة

وفي أوائل القرن التاسع عشر المسيحى ساح فيها الدكتور سرفلى الابطالى وتحرير ذلك أن والى طرابلس يوسف باشا القرمانيلى سير جيشاً لعقاب ولده الذى كان في درنه وعصاه . فكان في هذه الحملة الدكتور سرفلى وحرر أشياء مهمة نشرتها جمعية فرنسة الجغرافية . ثم عصى بعض العرب في جهة المرج بالجبيل الأخضر فرح اليهم والى جيشاً كان فيه طلياني آخر اسمه « دلاسل » فكتب رحلة ترجت الى الانكليزى سنة ١٨٢٢ ثم زار برقة والجبيل الأخضر الأب باسيفيك جاءها من طرابلس . وسنة ١٨٢٠ أراد جنرال بروسيانى أن يعمل سياحة في هذا القطر فاستصحب علماء وكتاباً وسار اليه من مصر لكنه فقد ثلاثة من أصحابه قبل أن وصل الى الجبل الأخضر فرجع أدراجه . وسنة ١٨٢١

ساح القبطان ييشى فى بر طرابلس وصور المواقع بالضبط وسنة ١٨٢٤ و ١٨٢٦ خرج باشو الفرنساوى وقام برحلة فى القطر الطرابلسى وكتب عنه أربعة مجلدات . وكان المسيو دوپورثيل قنصلا لفرنسة فى بنغازى وذلك سنة ١٨٤٨ نجح كثيرا من الآثار القديمة التى وجدها فى الجبل الأخضر وهى الآن فى متحف اللوفر . ثم ان الدكتور برث ساح فى طرابلس قبل أن ساح الى تنبكتو . سنة ١٨٥٥ ساح المسترجس هاميلتون من بنغازى الى أوجله الى سيوه الى مصر

وسنة ١٨٦٠ و ١٨٦١ أجرى هذه السياحة القبطان مردوك سميث والكومندور بورشر الانكليزيان وكتبا كتابا طبع سنة ١٨٦٤

وكان للقطر الطرابلسى من الصولة والمنعة وهبوب ريج العزفى البحر المتوسطما للقطر التونسى وللقطر الجزائرى وللقطر المراكشى وكانت له الأساطيل القاهرة وكان ولاية طرابلس يأخذون الجزى من السول الاوربية وتدفعها هذه لهم . وقد روى صاحب كتاب « المنهل العذب » السالف الذكر فى حوادث سنة ١٢١٣ ما يأتى :

« وفى هذه السنة كلف يوسف باشا (١) دولة الاسويج بدفع مائة ألف فرنك عطية وثمانية آلاف فرنك سنوية فرفض قنصلها هذا الاقتراح فأرسل يوسف باشا الأساطيل لهاجتها وبث السرايا على سواحلها والقبض على مراكب رعاياها التجارية فغنموا سبع سفائن فالتجأوا الى نابليون بوناپرت وهو وقتئذ بمصر . وسنة ١٢١٣ انعقد الصلح بواسطة مندوب بوناپرت على أن تدفع السويج ثمانين ألف فرنك غرامة وثمانية آلاف فرنك سنوية وتترك تلك السفائن للحكومة المحلية وتعاد أسارى الاسويج »

وذكر بعد ذلك وقائع كثيرة كانت تحصل بين دولة نابولى وطرابلس وبين دولة سردانية (٢) وطرابلس من أجل استنكافهما عن دفع الهدية السنوية لولاية طرابلس . وتلك الأيام نداؤها بين الناس

(١) أي الفرمانلى والى طرابلس

(٢) دولة آل ساقوى ملوك ايطالية الحاليين

الكتب الواردة

على السيد أحمد الشريف السنوسى

من اللورد كتنشر والسير مكاهون والجنرال مكسويل

* (١) *

من مصر القاهرة فى ٢٢ صفر ١٣٣١

بسم الله قبل كل شىء

من عبد الله المتوكل على الله سبحانه وتعالى لورد كتنشر المعتمد السياسى لجلالة

جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى بالانظر المصرى

الى مهبط اسرار الحضرة الربانية ومصدر صفوة الارشادات اللدنيّة صاحب التجليات
الأنسيّة والتفحات القدسيّة قطب دائرة أهل الفضل والكمال وخلاصة أرباب الحجا والجلال
التحلى بروحانية اسلافه الطيبين الطاهرين والمتجمل بصفات أهل الجلال واليقين والمتخلى عن
أوضار الاغيار فى مهجع عبادة رب العالمين دوحه الشجرة الهاشميّة وبضعة السلاة العلوية
خليفة صاحب ذلك النور القدوسى سيّدى أحمد الشريف السنوسى رضى الله عنه وايدّه
بروح منه

أما بعد فان الفرصة التى دعتنى الآن لمكاتبة السيد الجليل أحسبها من أشرف الفرص
وان كانت قصتها الداعية اليها ليست من أحسن القصص على أن السيد الجليل والشريف
النبيل خليفة ذلك الامام المهدي العظيم وولى الله الكريم قد يسره أن ترفع اليه الظلامات
ليحقق آمال رافعها وأن تصل اليه أصوات الضراعات ليكون ملجأ ضارعها ولهذا يسرنى
أن أكون الواسطة لديكم لرفع مظالم قد ارتكبتها من لم تخاطب هدايتكم قلوبهم ولم تستأصل
ارشاداتكم العالية من نفوسهم الخاطئة ذنوبهم ولذلك أكتب لمقامكم الجليل بما يلى :

قد ورد لى من سعادة حاكم السودان العام أن جماعة من عربان الكباشى التابعين
لحكومة السودان ويبلغ عددهم تسعة وعشرين رجلا قصدوا بير النظرون التابع لمديرية
دنقلا وينما كانوا عند البئر اذ انقضّ عليهم عدد عظيم من العربان بينهم نحو مائة من

(م ٩ - ثانى)

أهل فزان أتباع الطريقة السنوسية الشريفة والباقون من أهل زغاوة والبيات واعتدوا عليهم شر اعتداء وكان دافعهم الى هذا الشر وداعيمهم اليه قبل كل أحد زعيم الفزانين واسمه الشيخ محمد أبو دوشى الفزانى أحد الخاضعين لسلطانكم والمستظلين بظل حمايتكم واحسانكم اذ ذهب برجاله الى عربان زغاوة والبيات وطلب منهم الانضمام اليه لمقاتلة الكبايش وحرصهم على ذلك حتى انصاع اليه جمع منهم فباغ ذلك عدد عصابته التى أغار بها على ذلك النفر القليل زهاء مائتين وسبعة وأربعين رجلاً . أغار بهذا العدد الكبير على أولئك النفر القلائل ولم يخف سطوة الله عز وجل ولم يذكر أن عمله المنكر فضلا عن بونه يفضب الله وملائكته سيجلب عليه سخطكم وغضبكم الذى هو من سخط الله وغضبه وكأنه لم يكفه أن يكون عدده كثيراً كليليش الجرار بازاء جماعة الكبايش الذين كانوا عند البئر بل أخذهم غدرأ وفاجأهم على غرة منهم فيينا كانوا آمنين لا يحسبون للشر حساباً اذ أطلق عليهم رجاله من بنادقهم ناراً حامية كادت أن تحصدهم حصداً فلما رأهم قد وقفوا أمامهم برهة من الزمن حملوا عليهم بسيوفهم ورماحهم فطعنوهم فى صدورهم أنكى الطعنات وقتلوا بذلك ثمانية وجرحوا ثلاثة وأسروا اثنين وسلبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع ثم استاقوا جالهم وعددها مائة وواحد وأربعون بما عليها من الاحمال غير مبالين بأن يعدوا فى شر رعة الاسلام من العائنين فى الأرض فساداً وأن جزاءهم فيها اذا وجدوا فضاة عدولا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض الخ الآية الكريمة فىرى السيد حفظه الله ووفقه لاجراء عدله على حكم الله وسنة رسوله الأمين أن جماعة الفزانين الذين ينسبون أنفسهم لطريقكم الشريفة ويعتزون فى طول البلاد وعرضها بجزها قد خانوا الله وخانوا محجة رسول الله البيضاء وخانوا عهد طريقكم السمحاء ولم يبالوا بغضب الله ولا بغضبكم ولم يذكروا اليوم الآخر وحسابه وبطش الله وعقابه وهذا غريب جداً أيها السيد الكريم مع ما يعلم القصى والدانى من خضوع هؤلاء الأقوام لسلطوتكم وانثارهم بأوامرك ومع ما سارت الركبان والأمثال من أخبار عدلكم المشهور وشدة بأسكم على أهل البنى والعدايد وما تحلى به شخصكم الكريم من صفات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى انتهت اليكم ترانا عن أسلافكم العظام الأبا ذوى البأس الشديد واناريج المجيد فكيف مع هذا يمرؤ قوم أشداء كثيرى العدد

من أتباع طريقتكم الشريفة على الاعتداء على قوم مستضعفين قليلي النفر فيقتلون منهم
الأنفس ويسلبون الأموال والمتاع وهم مع هذا يرون أنهم من أتباعكم خليقون بحمايتكم
وحسن رعايتكم

لقد كان في وسع حكومة جلالة الملك أن تتخذ في مثل هذا الحادث اجراءات أخرى
عظيمة التأثير والأثر على أمثال أولئك الطغاة البغاة وتضرب بهم الأمثال للناس وهي لاتعدم
الوسيلة لذلك ولكني بما أعرفه عن سيادتكم من حب العدل والانصاف والغيرة على إقامة
معالم الشريعة الغراء في البلاد والجهات التي يصل لها نفوذكم وتمتد إليها سطوتكم قد فضلت
أن أراجع مقامكم السامي في هذه النازلة لرفعها طبق ما يقتضيه العدل الاسلامي الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه

فاذا شاء السيد حفظه الله تحقيق آمالي في عدله وانصافه فإسهل على حضرته أن
يأمر تابعيه بكف الاذى عن جيرانهم واخوانهم في الدين وأن يكف اولئك المعتدين برد
الجمال والاحمال التي سلبوها مع دفع التعويضات كما يراها السيد بالحق الدية للقتول والتعويض
للمجروح ظلما وعدوانا ولست أظن انه يوجد من الموانع ما يحول دون توقيع هذه
الجزاءات على مستحقيها عند فضيلة السيد ولكن اذا كان هناك مانع لا اعرفه فانتى أرجو
من حضرته السديمة أن تشرفني بإفادتي عن الطريقة التي يحسن اتباعها للوصول الى تلك
الغاية من غير ان يمس كرامتكم التي اودت أن أحافظ عليها دائما وأطلب من الله المزيد فيها
وقد أرفقت بكتابي هذا بيانا مشتملا على أسماء الاشخاص المعتدى عليهم من عرب
الكبايش ومن قتل ومن جرح منهم لتكونوا على بينة من الامر ولتروا العدل فيهم كما
أمر الله جعلكم الله ملاذا أعلى لتحقيق عدله بين خلقه وامدكم بروح منه مادامت احساناته
اليكم متواصلة وعنايته بكم شاملة ونفعنا الله ببركاتكم على الدوام آمين
(اللورد كفتنر باننا)

• (٢) •

مصر القاهرة في ١٥ يناير سنة ١٩١٥ — ٢٩ صفر ١٣٣٣

قطب دائرة أهل الفضل والكمال وخلاصة أرباب الحجي والجلال أمام المصلحين

وقدوة المرشدين الاستاذ الاعظم والملاذ الانعم السيد أحمد الشريف السنوسي أعزه الله

سلام الله الاسنى وتحياته المباركة الحسنى تخص مقام السيادة وبعد فائق بحمد الله ومعوته وصلت الى مصر نائباً عن جلالة الملك جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند الذى أعلن حاجته على هذا القطر السعيد ليحفظ سلطنته من اعتداء المعتدين ويرقى به وبأهله في معارج التقدم والفلاح . ولما كانت علاقة حكومة هذا القطر على الدوام ودية مع سيادتكم رأيت أن أبلغكم وصولي وأؤكد لكم ان العلاقات الودية التى كانت لكم ولاسلافكم الكرام مع الحكومة المصرية ستستمر في هذا العهد الجديد كما كانت عليه من قبل من الود والسلام

الامضاء

السيرمكمهون المهر الرسمى

* (٣) *

مصر القاهرة في ٣ ديسمبر سنة ١٩١٥ - ٢٥ محرم سنة ١٣٣٤

حضرة الاستاذ الأعظم السيد أحمد الشريف السنوسى الخطيب الادريسي الحسنى دام

وجوده الكريم

تحية وسلاماً وبعد فقد أدهشني ما وجدته بعد عودتي الى مصر من زيارة الجيوش المتحالفة في غليبولي — ان العلاقات بيننا قد حدث فيها تغيير . وان اتباع سيادتكم قد ارتكبوا أعمالاً عدائية ضد الحكومة المصرية .

وقد سمعت بارتياح انكم أرسلتم كبيراً من مستشاريكم الى البراتي ليسي في لرجاع بعض اتباعكم الذين عصوا أوامرهم ولكنني تعجبت اذ سمعت ان هؤلاء الاتباع قد تمادوا في العصيان حتى انهم لم يطيعوا الأوامر فقط بل أطلقوا الرصاص فعلا على جعفر أفندي . هذا وقد بلغني أيضاً ما همني وهو أن سبعين رجلاً من رعياء الدولة البريطانية الذين نجوا من مركب غرقته غوامة العدو قد حجزوا غرب حدودنا . فأسألكم برهاناً على العواطف الودية التي أظهرتموها لنا أن ترسلوا هؤلاء الرجل المنكودي الحظ حالاً بدون اذى الى مصرى صروح .

هذا ويظهر ان نفوذ نوري بك وأصدقائه الألمان عليكم يشبه نفوذ أنور باشا على جلالة سلطان تركيا . وهذا النفوذ الضار هو الذى زج تركيا في هذه الحرب المهلكة والتي

سنتهى حتما بزوال دولة الأتراك من الوجود إنكم تعلمون أن الحكومة المصرية والحكومة البريطانية عاملتا سيادتكم بكل اهتمام واحترام وأما الآن فقد اضطرتت بسبب المقاصد السيئة التي تحيط بسيادتكم أن استدعى رجالى من نقطة السلم واتخذ لهم مركزاً فى مرسى مطروح . وعليكم الآن أن تبينوا بأعمالكم وأعمال اتباعكم اذا كنتم تحبون بقاء العلاقات الودية أم لا .

ومن الآن فصاعداً كل رجل من أتباعكم يتعدى الحدود حاملا سلاحه أضطر أن أعده كمن له مقاصد عداية وأعامله كذلك . لقد سأتكم أن تظهروا مقاصدكم الودية بإبعاد الأشخاص الذين معكم الآن المعروفين بعداوتهم لنا وأنأسف أن أرى أنكم لم تتمكنوا الى الآن من ابعادهم .

انى لا أشك فى أن السيد محمد شريف الادريسي قد سلمكم كتابى وفاوضكم فى جميع الشؤون التى ولىج اليه مفاوضتكم فيها ولا أشك فى أنه بين لكم ان مقاصدنا نحوكم ودية محضة وان ما أوجب التغيير فى العلاقات بيننا هو اعمال صدرت من جهتم لا من جهتنا .

ولا يعنى الا الظن بأن الدساسين قد نقلوا اليكم أخباراً كاذبة عن الحرب الأوربية والحقيقة هى ان خسارة امبراطور الألمان وحلفائه بطيئة ولكنها أكيدة على جميع خطوط القتال والمستقبل يريكم ما أرادته الله .

وانى أسألكم ان تنعموا النظر فى الأمر وتعتبروا انه اذا اتخذتم لسوء الحظ خطة عداية فانكم لا تجلبون عليكم ايطاليا فقط بل فرنسا وانكلترا ومصر وتحملون مسئولية جميع النفوس التى تضيق فى هذا السبيل وتعرضون بلادكم للجوع اذ تسدّ عليكم طريق الزاد والمؤونة برأ وتحصّر الشطوط البحرية . واذا كان مستشاروكم يعتمدون على غواصات الأعداء فاعتادهم قائم على لا شئ وانى أبسط لكم ذلك كله ليس بقصد التهديد بل بقصد النصيحة كصديق . والأتراك يقضون بكم مأربهم ثم يبنونكم نبذ النواة وراء ظهورهم .

ان الحالة الحاضرة لا يمكن أن تبقى على ما هى عليه الآن ولذلك فانى أسألكم أن نبرهنوا حسن مقاصدكم بالأعمال وليس بالأقوال وأن ترسلوا حالا الى مرسى مطروح الرجال

الانكليز الذين نجوا من مركبهم وهم الآن غرب حدودنا. وأن تعيدوا العلاقات الودية معنا وتخرجوا من بلادكم المستشارين الأتراك والألمان أى نورى بك ومانسان وغيرهما من الذين لاشك في أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم بلاءً عظيماً .
ولى الرجاء انكم توفون هذه المسائل حقها من الاهتمام قبل أن يقع ضرر لا يمكن تلافيه والسلام

الجنرال السيرجون مكسويل

القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى بمصر

* (٤) *

مصر فى ٤ جادى الأولى سنة ١٣٣٤ الموافق ٨ مارس سنة ١٩١٦

حضرة صاحب السيادة الأستاذ السيد أحمد السنوسى الكبير

تحيةً وسلاماً وبعد فقد وصلتني كتابكم المرسل بيد رسولكم موسى وليس لى أن أزيد فى الرد عليه عما قلته فى كتبى السابقة . انى كنت دائماً أحذركم من خطر الاصغاء الى نصائح نورى بك وجعفر وغيرهما لأن مصلحة هؤلاء تناقض مصلحتكم على خط مستقيم . فانكم بالاصغاء الى نصائحهم قد أترتم حرباً على مصر ونسينم جيل بيت محمد على باشا الكبير الذى يمثله صاحب العظمة السلطان حسين سلطان مصر الحالى .
إنكم تعديتم الحدود ودخلتم الأراضى المصرية برجال مسايحة ومدافع وقد أطلقتهم نيرانكم على العساكر المصرية والانكليزية . وأظهرتم بكل جلاء ووضوح أن مقاصدكم عدائية .

تقولون انى صدقت مقالة سنوبك ولم أصدق ما قلتموه أتم . فما هو الصحيح ؟
إن جماعات من المحافظةية المسلحين كانت على الدوام تأتي الى الأراضى المصرية اما بلم منكم أو بغير علم منكم وتسيء معاملته العرب الذين تحت إدارتنا وتأخذ منهم ضرائب بالقوة وقد أطلق أتباعكم التيران على القواصات الانكليزية لغير ماسبب . وأزرت القواصات الألمانية الأسلحة والعساكر وغيرها بقرب برديّة وأطلقت نيرانها على طرادٍ لغفر السواحل وأغرقته وأتباعكم لم يطلقوا النار على القواصات الألمانية بل استقبلوها بالترحاب .
ثم انكم حفظتم فى الأسر جماعة من رعايا السولة البريطانية الذين غرقوا وابورهم ولجؤ الى سواحلكم . وقمهاجم أتباعكم نقتلنا فى البرّانى والسبيل وأسرو عساكر الحرس

وسرقو بنادقهم وقطعو خطوطنا التلغرافية وهددو تقطنا بالسلوم حتى اضطرت أن أصدر الأمر الى سنو بك بالرجوع الى مرسي مطروح وفي الوقت الذي كنتم فيه تصرّحون بأن علاقاتكم معنا على غاية الوداد كنتم تستبون وترسلون مع رسلكم كتابا كالتى أرفقها بكتابتى هذا وإنى مرسلها اليكم لتعلمو الحقيقة .

أرى انكم لازتم تذكرون أمر معاهدة عقدت مع الطليان ووجدت بين أوراق سنو بك . وأنا أعود فأكرر القول ان ذلك غير صحيح لسببين . الأول لأنه لم نعمل معاهدة مثل هذه قط والثانى لأن سنو بك لم يكن عنده السلطة لأن يعقد معاهدة كهذه .

ان جعفر الذى هو الآن أسير حرب يقول ان الانكليز الذين نجو من الواور والآن فى الأسر عندهم هم فى شقاء عظيم وليس عندهم ما يلزم من الثياب او الطعام . واتم تقولون انهم على أتم الراحة والأمان . فأى القولين أصدق .

إنكم تشكون من أنى حجرت رسلكم هنا وأنا لم أفعل ذلك الا بعد أن بادأتمونى بالعداء . إن الله وحده يعلم بالخفايا وما هو فى ضميركم . وكل ما يمكننى أن أقوله لكم ان أعمالكم كلها دلت على عدم تبصّر وروية ويلزم أن تحصدوا الزرع الذى غرستموه .

إنكم بأعمالكم قد وقفتم موقف العدو ومادام فى الأراضى المصرية رجل مسلح من رجالكم فانى أعتبركم عدواً وقد سبقت فأخبرتكم عن الشروط التى بها وحدها يمكننى أن أبدأ بالمفاوضة معكم . وهذه الشروط أرسلتها فى كتاب مؤرخ فى ٢٨ صفر سنة ١٣٣٤ الموافق ٤ يناير سنة ١٩١٦ وهى كما يأتى :

(١) أن تردّو بسلام جميع الأسرى البريطانيين أو الهنود أو الأوربيين الذين فى يديكم .
(٢) يجب أن تعدو كل الأتراك أو الألمان الذين عندهم . وإن كنتم تجدون صعوبة فى إبعادهم فيمكنكم أن تسلّموهم لى أسرى حرب .

(٣) يجب أن تخرجو جميع رجالكم المسلحين من الأراضى المصرية وتعهّدوا بعدم دخول رجال مسلحين الى الأراضى المصرية وإذا دخلو عوملو معاملة أعداء حيثما وجدوا .

(٤) يجب أن تجلو جلاء تاما عن سيوه والسلوم وعن جميع البلاد التى الى الشرق منها وتقيموا بسلام فى الجبجوب فاذا كنتم الآن تجيبون هذه المطالب وتظهرون بالأعمال أنكم تريدون أن تكونو على الوداد فانى مستعد للتساهل معكم أكثر مما تؤملون .

الجنرال السرجون مكسويل

المهر الرسمى

القائد العام لجيوش جلالة ملك بريطانيا العظمى

ماسبق في التاريخ من استيلاء الافرنج

على طرابلس الغرب

المؤرخ

عند ما ضعف شان العرب في صقلية وطردهم منها الملك رجار النورمندی واختلت إدارة أمورهم في تونس وطرابلس فكرر رجار في غزو طرابلس والمهدية فبعث بأسطول نازل طرابلس آخر سنة ٥٣٧ للهجرة فنقب الافرنج سور طرابلس وكادوا يستولون عليها إلا أن العرب انحدروا من الجوار فهزموا الافرنج وغنموا أسلحتهم ودوابهم ورجعوا خائبين . ثم ان رجار لم يقطع الأمل من تلك البلاد وصار يتربص الفرصة لغزوها وفي سنة ٥٤٣ للهجرة أرسل أسطوله بقيادة جورجى أمير البحر عنده فاستولى على المهدية بثلاثمائة مراكب ثم استولى على صفاقص وحصلت في طرابلس مجاعة أصاب الناس منها شدة عظيمة واختلت الأحوال وفتبت الحامية فاهتبل الافرنج الفرقة وجاء أسطول رجار ونازل طرابلس وقائلها الافرنج برا وبحرا وكان أهل طرابلس قد اختلفوا فيما بينهم وأخرجوا الأمير الذى كان عليهم محمد بن خزرون وولوا عليهم أميرا من لتونه وحصلت بينهم فتنة استفاد منها الافرنج فتمكنوا من البلدة وأغشوا في القتل والنهب ونجا كثير من أهل طرابلس الى الداخل وبعد أن تمكن الافرنج من البلدة نادوا بالأمان فراجع المسلمون إليها وأقاموا تحت حكم الافرنج وانقرض أمر بنى خزرون من طرابلس ثم ولى الافرنج أبي يحيى رافع بن مطروح على طرابلس وأخذوا رهنا منه على الطاعة ونادوا في صقلية بالمسير الى طرابلس كما ينادى الآن موسولينى بالمسير إليها لأجل استعملها فصار إليها أناس كثير من الافرنج واستولوا على بلاد الساحل كلها وضربوا على أهلها الجزية وصر لهم من طرابلس الى قرب تونس ولم يزالوا الى أن استنفذ تلك البلاد كلها منهم عبد المؤمن بن على سلطان دولة الموحدين وكان ذلك سنة ٥٥٥ إذ نقض يحيى بن مطروح طاعة الافرنج واستنصر عبد المؤمن بن على الذى طرد الافرنج من المهدية بعد حصار شديد

ثم إن الأفرنج رجعوا فغزوا طرابلس بعد ذلك بمائتي سنة . وكان فيها أمير اسمه ثابت بن محمد فجاءها الجنوية سنة ٧٥٥ وكانوا جمعاً غفيراً فنزلوا بالبلدة أولاً كأنهم آتون للتجارة ثم بيئوها ذات ليلة وصعدوا الأسوار وملكوها على الأهالي وهتف هاتفهم بالحرب ولبسوا السلاح فاستيقظ الأهالي من مضاجعهم فرأوا بلدتهم بيد الأفرنج فلم يكن منهم إلا النجاة بأنفسهم فاستباحها الأفرنج ونهبوها ثم داخلهم أبو العباس أحمد بن مكى صاحب قادس في فدائها فاشتروطوا عليه خسين ألف مثقال من الذهب العين فجمعها الأهالي من قابس والحامة وبلاد الجريد ودفعوها الى النصارى وأخرجوهم من طرابلس وبقيت أيضاً نحوا من مائة وخسين سنة خالية من الأفرنج . ثم غزاها الاسبانيول سنة ٩١٦ وكان أهلها قد استنماوا الى الدعة وأهلوا الدفاع عن بلدتهم فلما جاء الأفرنج لم يكن منهم إلا الفرار وبقى الاسبانيول فيها الى زمان بنى عثمان فأرسل أهالي طرابلس وفد آ سنة ٩٢٦ الى الاستانة العلية يستمدون السلطان سليمان القانوني رحمه الله لأجل إخراج الاسبانيول من طرابلس وكان الوفد الطرابلسي قد سهلوا الأمر على السلطان فأرسل معهم رجلا اسمه مراد آغا ومعه قليل من الجند فنزل مراد آغا في قرية تاجوره على اثني عشر ميلا شرقي طرابلس وحاصر طرابلس فعجز عن فتحها بتلك القوة القليلة ثم كان أهالي نابولي وجنوة غزوا المهديّة واستولوا على جزيرة جربة فأرسل السلطان سليمان أساطيله فأوقعوا بهم وطردهم ثم في سنة ٩٥٨ قدم طرغود بك أمير البحر الى طرابلس في مائة وعشرين سفينة وحاصرها وفتحها وجاء مراد آغا من تاجوره وتولى الأمر فيها وبعد ذلك رجع طرغود بك الى الاستانة ثم في سنة ٩٦٢ جاء طرغود بك بالأساطيل ونازل وهران وأخرج الاسبانيول منها ثم نازل بنزرت وأخرجهم أيضاً منها ثم غزا ميورقه وكورسكه ورجع الى الاستانة بفنائم وافرة

عرب طرابلس

(خاتمة : كنت رغبت الى حضرة الوجيه الأَخ الفاضل السيد عبد الستار الباسل أحد كبار قبيلة الرماح بالقيوم ومن سرارة بر مصر أن يكتب لى خلاصة عن عرب طرابلس لأن صاحب البيت أدرى بما فيه فأرسل لى بالخلاصة التالية ثبتها حرفياً) : —
 فى القرن الخامس من الهجرة رحلت قبيلة هلال من جزيرة العرب الى مصر .
 ورحل معها بطن من سليم خوولته فى بنى هلال . أقاما فى مصر ما أقاما ثم رحلا الى افريقية وكانت اذ ذاك تابعة لخلافة الفاطميين فى مصر

سبب الرحيل الى افريقيا

كان فى تونس عامل للفاطميين يدعى ابن باديس نزع طاعة الفاطميين وخطب للخليفة العباسى ببغداد ورفع شعار العباسيين على دور الحكومة . كلفت حكومة مصر هاتين القبيلتين بالذهاب الى افريقية ومحاربة ابن بارسى وفعلا رحلا الى تلك الجهة وطرأ ابن باديس ونصراءه من البربر وكانت زعامة قبائل البربر اذ ذاك فى زنانه . انتصرت هاتان القبيلتان على ابن باديس ومن معه وفتحتا البلاد وأرسلتا الى مصر بجبر هذا الفتح . ولبداوهما لم يطعما فى الحكم ولا فى الملك . بل سلما البلاد للفاطميين واكتفتا بأن تعيشا فى الصحراء كما كانتا تعيشان من قبل . ثم اقتسما الصحارى والمراعى بينهما فأخذت سليم صحراء طرابلس وأخذت هلال صحراء تونس . فى هذه القسمة غبن على سليم لأن صحراء تونس أخصب من صحراء طرابلس . والسبب فى ذلك أن سليم أقلية وهلال كثيرون لأن سليم لم ترحل من جزيرة العرب كلها كما رحلت هلال بل رحل بطن واحد منها وهو الذى خوولته فى هلال أما باقى سليم فبعضها فى الجزيرة الى الآن وبعضها فى السودان المصرى وهو ما يسمونه الآن (بعرب بقارة سليم)

سليم طرابلس

تقسم سليم فى طرابلس الى نخدين كبيرين . الكعوب وأبو الليل . أما الكعوب فهم ما يسكنون بين قصر سرت شرقا وحدود تونس غربا وتشمل الكعوب قبائل «المحاميد»

« وترهونه » و « أولاد سليمان » و « الرقلة » وقبائل أخرى صغيرة بعضها سكن مدن السواحل وبعضها اندمج في هذه القبائل الكبيرة

أما أبو الليل فهؤلاء المسمون الآن بالسعادي نسبة إلى امرأة تدعى سعدي من قبائل زناته بنت عظيم من عظامهم أخذت في حرب ابن باديس وتزوج بها زعيم سليم إذ ذاك (أبو الليل) وهؤلاء كانوا يسكنون بين قصر « سرت » غرباً وعقبة السوم شرقاً .

يقسم أولاد سعدي هذه إلى ثلاث قبائل (١) براغيث (٢) عقافرة (٣) سلالة

١ - السلالة أو بني سلام يكونون الآن ثلاث قبائل جميعها تسكن مصر وهم (١)

الهنادي (٢) بني عون (٣) الجبالية

٢ - العقافرة أو بني عقار . يكونون الآن أولاد على وهم جميعاً بمصر . والحرايبي

وهذه القبيلة يتكون منها خمس قبائل وهي البراعصة والعبيدات والدرسة والحاسة وأولاد فايد وهؤلاء فريق منهم في مصر وفريق في طرابلس

٣ - البراغيث وهم يكونون (١) الفوائد وهذه جميعها بمصر (٢) الرماح (قبيلتنا)

وهذه غالبيتها بمصر وقليل منهم في طرابلس (٣) الجبارنة أو أولاد جبريل وهم ثلاث قبائل

(١) العواقير وجميعها بطرابلس (٢) الجوازي وجميعها بمصر (٣) الغساربة وجميعهم

بطرابلس

٤ - العبيد وجميعهم بطرابلس

٥ - العرفاء أو أولاد عريف وكلهم بطرابلس

هذه هي قبائل سليم التي سكنت طرابلس وأول مجيء بعض هذه القبائل إلى مصر

في أواخر القرن الثاني عشر من الهجرة وأول من جاء منهم بنو سلام ثم بعدهم جاءت قبيلة

أولاد علي من العقافرة . ثم في أوائل القرن الثالث عشر جاءت بعض القبائل الأخرى وكان

ذلك بسبب حروب وقعت بينهم وبين إخوانهم الذين بقوا في طرابلس إلى حرب الطليان

هنا ياسيدي الأمير مختصر تاريخ هذه القبائل بعضها أخذته من ابن خلدون وصبح

الاعشى . أما بعد القرن التاسع من الهجرة فهي روايات تتناقضها الأبناء عن الآباء أخذتها

من الشيوخ نقلاً عن شيوخ قبيلهم مدعمة ببعض أشعارهم وأغانيهم

السوسية

السوسية

سبق ذكر مجمل الدعوة الوهاية ، وانها اصلاح ديني واثابة الى عقيدة السلف الصالح لولا ما أصابها من الغلو والافراط . أما السوسية^(١) فهي طريقة عمل بالسنة والشرعية بدون شرط ولا قصور . مؤسسها سيدي محمد بن علي السوسى الخطابي من عيون أعيان القرن الثالث عشر للهجرة ، أصله من الجزائر من قبيلة مجاهر من جهات مستغانم ، جده سيدي عبد الله بن خطاب المجاهري . واطلعت لم علي نسب ينتهي الى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضی الله عنهما ويقال ان عدد أبناء هذا الحى يبلغ ٧٠ ألف نسمة وانه ينتمى اليهم وينضوى حولهم نحو ٢٠٠ ألف أ كثرهم في (عمالة) و (حران) بجوار نهر شلف . وقرأت أن رئيس هذه القبيلة اليوم هو سيدي أحمد الشارف بن نلوك^(٢) وان سيدي احمد الشارف هو شيخ الطريقة السوسية بالقطر الجزائري . والذي أعلمه أن الحسومة الفرنسية في المغرب لا تسمح بنشر الطريقة السوسية التي تعدها خطراً عظيماً على الاستعمار ، وأنها تسمح لسائر الطرق مع المراقبة اللازمة لها لكنها لا تقبل صرفاً ولا عدلاً من جهة السوسية التي تعلم من قوتها ومن مقدرتها العملية ما تعلم .

أما سيدي محمد بن علي السوسى فقد كان عالماً عاملاً ، كبيراً مجتهداً ، خرج من الجزائر عند ما احتلها الفرنسيين . وطاف بالبلدان وحج البيت الحرام ولقي كبار الأشياخ من جلتهم والد الادريسي القائم بعسير . ويظهر أنه رأى القطر الطرابلسي أكثر استعداداً من غيره لقبول دعوته فابتدأ بتأسيس طريقته في طرابلس وعاونه على ذلك سيدي أبو القاسم العيساوي والد الشيخين الاجلين سيدي أحمد العيساوي شيخ زاوية السوسى بينغازى ، وصدقنا سيدي عبد العزيز العيساوي الذى أوفده السادة السوسية ثلاث مرات الى الاسنانة فيما يعرض لهم من الأشغال لدى الدولة ، آخرها في أثناء الحرب العامة . وقد

(١) راجع صفحة ٣٠٠ من الجزء الاول

(٢) ولا أعلم درجة قرباه من صديقي سيدي محمد الشارف ابن عم السادة السوسية وشيخ احدى زوايا دفنا من جهة السلوم

وفق الاستاذ السنوسى الأعظم الى نشر طريقته فى أكثر بقاع طرابلس وبرقة ، ولا سيما برقة فان أهلها فى الحواضر وقبائلها البادية بأجمعهم سنوسية مجاهدون وفى كل بلدة زاوية وعند كل قبيلة زاوية . واذا تعدت أنفاذ القبيلة فلنكل نخذ منها زاوية ، وكذلك زوايا السنوسى ممتدة الى مصر ، فلم زوايا عظيمة فى سيوة والواحات الداخلى الى الفيوم ؛ وزواياهم متسلسلة مطردة من بنغازى الى اسكندرية وعندهم نحو ١٧ زاوية فى نفس الحجاز لها تبع كثير من قبائل حرب وغيرها وزواياهم كثيرة فى السودان وانما أشهر زواياهم زاوية جغبوب على مسافة يومين أو ثلاثة من الحدود المصرية الى الغرب وهى بلدة تامة فى عظمها واتساعها وعدد سكانها . وكانت جغبوب واحة مالحة يأوى اليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العيث فى أنحائها فلما اختارها سيدى محمد بن على السنوسى مقرأ له وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهد امان ، ومركز عبادة ومشرق أنوار ومعلم هداية ففرس بها الأشجار ، ونسق الجنان واستنبط العيون ، وتوسع فى البناء ، وأسس مدرسة لتخرج مرهيدى الطريقة ، أجلس للتدريس فيها جلة العلماء . وكان مركزه بادئ ذى بدء فى الزاوية البيضاء من الجبل الأخضر على مقربة من شحات ، وهى قرية مبنية على خربة « سيرنا » عاصمة برقة أو « سيرنا بيك » فيها بقايا آثار من ايام يونان ومن قبلهم ومن بعدهم ، وموقع سيرنا هذه أو شحات على جبل عال مشرف اشرافاً قائماً على علو ثلاثمائة الى اربعمائة متر ومن حذاء هذا الجبل الى البحر مسافة ساعتين وهناك مرسى اسمه سوسة ولا مبالغة اذا قيل ان هذا الموقع هو من أبدع ما خلق الله فى أرضه ، لمح منظر ، وحسن هواء ، وطيب نجمة ، لاسيما وفى أعلاه مغارة تنبجس منها عين فياضة بمياه كذوب اللجين ، تنحدر من هناك فى مثل سلال الى أسفل الجبل حيث تنقى البساتين والعياض ، وأما الزاوية البيضاء فليست فى شحات بل فى هذه زاوية أخرى لقبيلة الحامسة^(١) يديرها سيدى محمد الدردفى ولكن الزاوية البيضاء على مسافة ساعة من شحات الى الجنوب مبنية فى وسط غابة من غاب الجبل الاخضر على مسافة خمس دقائق من مقام سيدى رافع الانصارى أحد الصحابة الذين فتحوا تلك البلاد ، وقد كان سيدى محمد السنوسى بناها وجعلها مقره ، وقد رأيتها رأى العين فى اثناء جهادى

(١) التى ينتسب اليها عقيلة الحامسى الشهير فى مرج ابن عامر من ديار فلسطين

بتلك الديار سنة ١٩١١ وبت مرة بتلك الزاوية فاذا هي عبارة عن مدرسة تحيط بصحنها
 الغرف لاقامة الطلبة وفيها جامع حسن ، وهي اليوم زاوية قبيلة البراعصة المشهورة بالشجاعة
 والنجدة ، وعهدى بمشيخة البراعصة ورئاسة هذه الزاوية لسيدى محمد العلمى الفهارى من
 ذرية سيدى عبدالسلام بن مشيش المدفون فى جهات طنجة من المغرب الأقصى ولكن هذه
 الزاوية فقدت كثيراً من رونقها بعد تحول السنوسى عنها الى جغبوب ، ويقولون انه كان
 قد شعر بدنو استيلاء الاجانب على تلك الديار فاختر الايغال الى الجنوب والاقامة بالصحراء
 فعمر زاوية جغبوب وتوفى بها رضى الله عنه وله فيها ضريح يزوره السنوسية من جميع
 الديار ، وولده بالزاوية البيضاء سيدى المهدي والد سيدى ادريس أمير بركة الحائى وسيدى
 الشريف والد سيدى أحمد الشريف نزيل الأناضول عند كتابة هذه السطور وامام الطريقة
 السنوسية كلها ، ولقد استخلف السنوسى واده المهدي وأنبأ بأنه سيكون له شأن عظيم .
 وصدقت فراسته فيه فانه أكمل عمل والده ، وبنى زوايا عديدة ، وذاع ذكره فى الأفطار
 وحسبت له دول الاستعمار حساباً كبيراً وحاولت أن تتقرب اليه بأنواع الوسائل ، وأصناف
 الاطاف ، فأعرض عن كل هذه المداخلات ، وعكف على عمله الذى هو بث الدعوة وإيقاظ
 الأمة ، وتأسيس الزوايا وربط الأهالى بها ، حتى هال أمره السلطان عبد الحميد فأراد أن
 يكتشف حقيقته ويستطلع طلع حاله ، فأرسل اليه بمقره فى جغبوب وفداً كان فيه صديق
 المرحوم صادق بك المؤيد من آل العظم فى دمشق وأحد حجاب السلطان ، فحدثني رحمه الله
 عن تلك الرحلة وعمما لقوه فى جغبوب وان السيد السنوسى لم يكن الاداعياً مرشداً ، وانه
 دائماً يدعو الله بتأييد الدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية ثم ان سيدى المهدي السنوسى
 تحول من جغبوب الى الكفرة ، وهذه هي واحة كبيرة تسكنها قبيلة اسمها زوية فى وسط
 الصحراء تبعد مسافة ٢٥ يوماً عن بنغازى الى الجنوب ، يمر السائر اليها فى طريقه على بلدتى
 جالو وأوجلة اللتين هما فى أول الصحراء على مسيرة ثمانية أيام من بنغازى فاختلفت الأقوال فى
 أسباب ترك السيد السنوسى مركزه الذى فيه قبة المقدس والده ، والمدرسة التى شادها مبعثاً
 لأشعة أنوار الشريعة والطريقة ، واختياره الأنواء فى الكفرة بمكانها من البعد عن
 العمران ، فقال بعضهم انه لما استقرت قدم الانكليز بمصر أجفل السنوسى ووضع نصب
 عينيه الايغال فى الصحراء ، واتجاع واحة تكون أقصى من جغبوب مكاناً وأغز مثلاً ،

وقال آخرون بل السنوسى منذ زمن مديد كان يتكهن بوقوع الحرب مع النابوليتان (الطليان) وان هؤلاء لابد في يوم من الايام ان يغزوا طرابلس وبرقة، فشرع يهيم اتباع طريقته للقاومة، ويعلم فضائل الجهاد، مما ظهر أثره في حرب ايطالية سنة ١٩١١ ظهوراً أدهش الشرق والغرب، وأثبت أن الطريقة السنوسية هي عبارة عن دولة بل كثير من الدول لا تملك ما تملكه الطريقة السنوسية من الوسائل الحربية وذلك بكونها طريقة عملية لا تعرف سوى العمل بالكتاب والسنة والافتداء بسلف هذه الامة، ومن جملة ما فكر فيه أن يجعل مركزه بعيداً ما أمكن عن مطارح انظار الدول الاستعمارية ليخلوله الجو في تجهيز قومه وبث دعوته، فانتبذ هذا المكان القصى من الصحراء في النقطة الوسطى بين ساحل البحر المتوسط والسودان. وقال آخرون بل ساءت له معاملة بعض مأمورى الأتراك في التحرى والتنقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية في الجبل الأخضر وشاع أن الدولة أخذت تشبه في أمره، وتتوجس خيفة ادعائه الخلافة فقصده أن يعتزلها الى الصحراء الكبرى، ولعل هذه الاسباب جميعها متوفرة في قضية تحوله الى الكفرة يضاف اليها انه من الكفرة كان يقصد القرب من السودان وبث دعوته في تلك الاقطار ونشر الاسلام في أواسط افريقية من طريق واداي، وبرنو، وكام، واداموا، والداهومي، وغيرها من أواسط افريقية وغربها مما كان ولا شك فيه للسنوسية اليد الطولى، فضلا عن كون اقامته بواحة الكفرة سببت عمران تلك الواحة وازدياد الغراس والفلاحة فيها وترقية عقول أهلها، فبنى فيها زاوية عظيمة سبها التاج وجعلها مقره وبنى في أماكن أخرى من تلك الواحة، وفي واح قريبة منها زوايا أيضاً وأسس مثلها في واحات الوجنقات التي تقع وراء دارفور الى الشمال، وأخرى في واحه ونّ وواحة قرو وزاوية في عين كلك التي وقعت فيها الحرب بين السنوسية والفرنسيس الذين قصدوها من واداي. وزوايا عديدة. عمرها واحات الصحراء الكبرى وآنس بها وحشتها، ونضر غربتها، وأيقظ غفلتها، وشغل أفكار الدول الاستعمارية من كل جهة؛ فانكثرة تحجب حسابها من جهة السودان المصرى، وفرنسا من جهة واداي ومستعمراتها في أواسط افريقية وشمالها وغربها. وابطاليا كانت تنزل اليه لعلها تنال سدوته فيما كانت تنويه من التجارة على طرابلس. ولم يخل الأمر من كون السلطان عبد الحميد الذى كان لا يهدأ له بال قد أراد أيضاً معرفة مقاصد

السوسى من ابتداء ذلك المحل القاصى . فبلغنى أنه أوفد اليه مرة ثانية المرحوم صادق بك المؤيد الى نفس الكفرة فأخذ منه الجواب بأنه لا يقصد سوى خدمة الاسلام ، وأبث الدعوة لطاعة السلطان . هذا ولم يزل سيدى المهدي السوسى يبث طريقته ويكمل أهبته ؛ الى أن مضى الى ربه منذ نحو ٢٠ سنة خلفه سيدى احمد الشريف ابن أخيه الذى اشتهر أثناء الحزب الطرابلسية وقام فيها المقام المحمود الذى لم يقمه أحد ، ولولاه لم يمكن أنور ولا غيره من أبطال الدفاع عن برطابلس أن يعملوا شيئاً ، واتصل جهاده من الحرب الطرابلسية الى ما بعدها فلم تخمد له نار الى الحرب العامة ، الى ان دخل الانكليز والطلبيان فى المفاوضات مع ابن عمه سيدى ادريس ابن سيدى المهدي وأقنعوه بالاتفاق معهم على أن يكون هو أميراً على داخل برقة ويكون الحكم للطلبيان فى مدينتى بنغازى ودرنه ، ويكون لهم احتلال بعض المراسى فانعقد الاتفاق على شروط معلومة كانت خلاصتها ما تقدم . ولما رأى سيدى احمد الشريف ذلك وكان الوثام بين أبناء البيت السوسى من القواعد المقدسة لم يستحسن فى باطنه خطة ابن عمه ولكنه لم يشأ أن يجاذبه الجبل وصبر على المرء ، وأرسل الى المرحوم أنور ناظر الحربية يومئذ وذلك سنة ١٩١٨ يطلب منه ارسال غواصة لنقله الى الاستانة فاستقبلها بحاشيته الى ترسته ومنها ركب قطار الحديد الى فينا ومنها جاء الى الاستانة واستقبله أهلها استقبالا فائقاً ، وأعظم السلطان محمد وحيد الدين قدومه وصادف ذلك بداية جلوس السلطان على عرش آل عثمان ، فاختر السيد المشار اليه لتقليده السيف فى الحفلة المعتادة لذلك فى جامع أبى أيوب الانصارى فى الخليج وهو الذى يسميه الأتراك جامع سلطان أيوب . ولما دخل الخلفاء الاستانة أقام بيروسة ثم لما احتلتها اليونان تحول منها الى قونية ثم ذهب الى حدود العراق العربى داعياً الى الوحدة الاسلامية . ولم أحصل الى هذا اليوم على شرف معرفته شخصياً وان كنت أمت اليه بصداقة أ كيدة وكانت المراسلة بيننا متصلة منذ سنين عديدة . أيدى الله وأبقاه ونفع هذه الأمة على يده

بعد تحرير ما تقدم بشأن السادة السوسية ، أسف القدر ، ووفى الدهر ، بعد أن غدر ، بتحقيق الامنية التى طالما كنت أتمناها ، وادراك الغاية التى كنت من سنين عديدة أتوآها ، وهى مشاهدة الحضرة السوسية ، واجتلاء تلك الأتولر الأنسية ، بعد ان حال بيننا وبينها طول السفار وتباعد الاقطار ، واحتلال الاعداء بعد الحرب الكونية أكثر

الديار . فلما كنت في معسكر الجبل الاخضر ، بعين منصور في ظاهر درنة سنة ١٩١٢ كان الاستاذ الأكبر سيدى أحد الشريف نجل سيدى محمد الشريف ، نجل سيدى محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية وخليفة عمه سيدى محمد المهدي رضى الله عنهم جميعاً ، لا يزال في واحة الكفرة الواقعة في وسط الصحراء على مسافة ٢٥ يوماً الى الجنوب من مدينة بنى غازى ، ترد منه الافادات والأوامر الى الادوار المرابطة في وجه الطليان ^(١) وهو بعد في زاوية التاج مركز السادة السنوسية ، ثم تقدم السيد من واحة الكفرة الى واحة الجغبوب ، ليكون أقرب الى ميدان الحرب ، ولتشتد به عزائم المجاهدين . فكان في ذلك الوقت قد وافق سفر هذا العاجز من الجبل الاخضر ، قاصدا الاستانة لهذا كره رجال الوزارة الجديدة وهي وزارة مختار باشا وكامل باشا وحسين حلمى باشا ، في أمر طرابلس وثني عزمهم عن التناهل فيها مع الطليان كما كان شائعاً . فلم يقسم لى القدر في تلك الآونة ملاقة الاستاذ السنوسى المشار اليه ، و بقيت العلاقات فيما بيننا بالمراسلة ، الى أن شبت الحرب الكبرى ، فانقطعت قليلا ثم استؤنفت يرد الغواصات التي كان المرحوم الشهيد أنور ينفذها الى سواحل طرابلس .

ولما قدم السيد الى الاستانة العلية بالغواصة سنة ١٩١٨ صادف وجردى بألمانية بمهمة التايف بين العثمانيين والألمان ، فيما شجر بينهم في بلاد القافقاس . فلما وصل السيد الى العاصمة لم يكن انتهى شغلى في برلين ، وما انتهى شغلى هناك الا وقد طلب البلغار الهدنة وبدأ الانهيار في أجرف ألمانية وحلفائها . فأبرق الى أنور يرقية رقية بواسطة سفارة الدولة ببرلين يترجاني سرعة الاوبة . فذهبت قاصداً الاستانة من طريق رومانية ، وركبت الباخرة من مرسى برايل على الطونة ، ومنها الى ميناء كوستنجه ، حيث تلقت الباخرة أمراً بعدم دخول البوسفور والانصاع الى اودسا . فذهبت مكرهاً وضاق صدرى جداً بهذا التأخير ، والمسافر عليل دواؤه الوصول . ولكن قد يمون الخير فيما كره الانسان ، « ولو اطلعت على الغيب لاحترمت الواقع » . اذ لو اكلت الباخرة الشقة الى الاستانة ، لم يلبث الحلفاء

(١) أهال طرابلس الغرب يسون المسكر دوراً، وأصل هذه التسمية - واحة أعلم - أن قبائل العرب تأتي الى الحرب بلناوبة ، كل قبيلة تعرض عليها خدمة كذا من الأيام أو من الاسابيع ، أو من الاشهر ، فتعزم بها أو ترسل عدداً معيناً يموم بها ، ثم تذهب الى مناجها وأتى الى محلها غيرها ؛ وهكذا بالتتابع . ان أن تكون نوبتها ثانية ، وهلم جرا ، فسمى المسكر الذى تخيم به تلك القبائل دوراً

أن قبضوا على مع رفاقي ، وغربوني الى مالطة . فكان في نكوص الباهرة عن اكمال الجرى الى دارالسعادة ، وذهابها الى اودسا ، وملاقاتي ثمة المرحومين الاستاذ الشيخ عبدالعزيز جاويش والاستاذ الشيخ صالح التونسي ، والأستاذ الشيخ خضر حسين التونسي ، ورفاقهم من مصريين وتوانسة ، وما علمت منهم من انسلال انور وطلعت وغيرها من الاستانة . ما غير وجهتي واعادني مغرباً بعد أن كنت مشرقاً ، بما سبق تحريره في موضع آخر .

قلهدا لم يتيسر لي وقتئذ لقاء سيدي احمد الشريف . وبقيت أ كاتبه من اوربا الى الاستانة ، ثم الى الاناضول . فلما يسر الله الاجتماع في هذه الايام الاخيرة ، حدثني هو بنفسه عن أمور كثيرة وحوادث جرت معه ، آثرت أن اخصها لقراء هذا الكتاب ، لكوني سمعتها من فم ، وأحسن التاريخ ما أخذته الانسان من فم صاحبه ، وأروى الروايات ما استقاه المؤرخ من رأس نبعه .

ذكر لي السيد ، حفظه الله ، خلاصة رحلته من طرابلس الى الاستانة ، الى الأناضول ، الى أن حصل في مرسين التي يقيم بها اليوم . وذلك أن أنور كان أنفذ أخاه نوري أثناء الحرب الكونية الى طرابلس الغرب قائداً عاماً ، وعززه ببعض ضباط وأسلحة وتقود ، وأمره باقناع السادة السنوسية بمهادنة الطليان ، ومهاجمة الانكليز في مصر ، حال كون سيدي أحمد الشريف اعتقد عكس هذه السياسة ، وهو مهادنة الانكليز ومطاردة الطليان . فشرع نوري يغادى سيدي أحمد ويراوحه في أمر الزحف صوب مصر ، والسيد ثابت في رفضه . حتى وقع الخلاف بينهما . وليس من المظنون أن يكون أنور أمل فتح مصر بتلك القوة الضئيلة ، وانما يقبل انها كانت سياسة المانية ، المقصود منها تحميل انكلترة خسارة جديدة ، وتحويل جانب من قوتها الى جهة السنوسية ، اذ كل ما يتحول من قوة الانكليز نحو الأقبام الاسلامية كان يخفف عن الألمان . حتى ان كثيراً من أركان الحرب يذهبون الى أن حلة التركة نفسها لم تكن على أمل كبير بافتتاح الديار المصرية ، وانما كان هدف الألمان منها تحويل جانب كبير من قوة انكلترة لحماية التركة ، التي هي مجرى نفس هذه الدولة . أما سيدي أحمد الشريف ، فلم يكن يعتقد بصواب الهجوم على مصر ، أولاً : لأنه كان يريد حصر قوة العرب في مجاهدة الطليان ، وعدم الاشتغال بغيرهم . ثانياً : انه كان يخشى فيما لوهاجم مصر ، أن يقع القشل في صفوفه ، لما كان يعلمه من عظمة الاستعدادات

الانكليزية . فاذا فشلت جلته على مصر ، فترت عزائم العرب ، وضعف فآلمهم . ثالثاً : انه كان يهيم بقاء الطريق مفتوحة بين مصر والجليل الأخضر ، خوفاً على العرب من الجوع ، ويعلم أنه لوهاجم مصرأ لسد الانكليز طريق مصر ، ووقع العرب في حيص بيص . وكان الجنرال ماكسويل الانكليزي يصانع السيد كثيراً . ويراسله دائماً ، ويتحفه ببعض الكتب ، ويتزلف اليه بكل الوسائل ، اتقاء غيرة من جهة السنوسية على مصر ، كما أن السيد كان يصانع الجنرال ماكسويل ، ويؤمنه من جهة السنوسية ، ويستخدمه في قضاء أغراضه ، وكان يستصنع في مصر ألبسة لتواير الجيش السنوسي ، وغير ذلك من لوازمه ، ولا يجد من جهة الانكليز حرجاً . فكل من الفريفيين كان في الواقع يتقي الآخر ، و وقعت في يد السيد أسرى انكليز ، نجوا الى بر طرابلس من بارجة انكسرت عند مالطة ، فقيدوا من ساحل طرابلس الى السيد وهو في السلوم ، فألبسهم وأكرمهم وبعثهم هدية الى الجنرال ماكسويل . وكان هذا ينفذ اليه من وقت الى آخر بعض كبارضباطه ، ممن يعرفون سياسة العرب ، ويعرض على السيد مخالفة انكلترة ، ويطمعه في مقام كثيرة ، بشرط أن السيد يطرد نوري أختانور من السلوم ، ويترك الأتراك . فكان السيد يصم أذنه عن هذه الاقتراحت ، ولا يعد الجنرال ماكسويل الا بالمسألة غيب . ولكن أنور كان يصدر الأمر نلو الامر الى أخيه ، بأن يتحرش بالانكليز ، ويستقبح زناد الحرب بينهم وبين السنوسية . ويكتب الى السيد ملحاً عليه بشد عضد نوري ، وأنه لا يقبل له عذراً في التباطؤ . ولما نلكتأ السيد عن غزو مصر وقع الخلاف بينه وبين نوري ، وشرع نوري يتحرك بالانكليز ، بدون معرفة السيد ، ويضرب بالقنابر سفانهم التجارية ، التي كانت تأتي بالبضاعة والأرزاق الى السلوم . فاغتاظ السيد من عمله ، وبين له سوء مغبة ذلك ، فلم يابه لكلامه وبقى على عمله ، بل كتب الى أخيه في الاستانة بأن سيدى أحمد الشريف لا يريد معاداة الانكليز ، بل انه عمالي لم سرأ ، وغير ذلك من الأقاويل . ثم أرسل نوري سعاة الى مصر يقولون ان السيد يأبى الزحف الى مصر مداراة للانكليز ، مع انه هو حضر من الاستانة لأجل اعداد حملة على مصر ، وانقاذها من أيدي الانكليز . فصارت تتوارد من مصر الرسل الى السيد ، تعاتبه على موقفه هذا ، وتبين له مايجالج المصريين بحقه من الظنون ، بسبب تخلفه عن الزحف . عند ذلك استدعى السيد نوري وقال له : هوذا أنا

حاضر لاسير ، فلانقدر أن تقول ان العائق كان منى ، وانما اذا فشلت هذه الحملة فلاأ كون أناالمسؤول . وركب السيد وسار بالجيش ، ومعه نوري قائداً أول ، وجعفر العسكري قائداً ثانياً^(١) وكان عدد كل ماجعوه من الجند أربعة آلاف . ولما أحس الانكليز بالحركة أخذوا منطقة السلام ثم بقى ، وانكفأوا الى الورا . ولكنهم بعثوا الى السيد ونورى انكم إن تجاوزتم سيدى برانى الى الشرق ، فليس بيننا وبينكم الاالحرب . فتجاوز العرب سيدى برانى ، ومازالوا حتى خيموا بزاوية أم الرخم غربى مرسى مطروح . وليلة ما كانوا هناك جاء أميرالاي انكليزى يحسن العربية متزيياً بزى بدوى متجسماً فدخل على نورى وأركان حربه ، فلم يعرفوا حقيقة أمره ، ونظر فى القوة التى معه ، فرآها ضئيلة ، وفى جوف الليل انسل من الخيم ، فأخبر قومه بالواقع . فكانت انكلترة جهزت ثلاثين الف مقاتل ، ومعها عدد كبير من المدافع ، وفيها كثير من كواكب الفرسان ، فصمدت الى القوة التى مع نورى ، فلم تقف هذه لها ، وتراجع المجاهدون الى الورا واحتشد منهم ألفان فى محل يقال له بئر تونس ، فطمع الانكليز فى أسرهم ، وساقوا عليهم ١٣ الف مقاتل ، فأرادوا أن يحيطوا بهم ، فخابوا ، وثار فى وجههم العرب ودحروهم وألحقوا بهم خساراً جنة . وكان السيد أحد الشريف بنفسه فى هذه المعركة . فلما ارتد الانكليز الى الورا ، رجع بمجاهديه هؤلاء الى السلام . وأما الانكليز فقصبوا الباقى من القوة التى تحت قيادة نورى فهزموها ، وأخذوا جعفر العسكري أسيراً ، وأقلت نورى من أيديهم بأعجوبة . ثم سار السيد الى سيوه ، وتقدم الى الواطى الدواخل على مسيرة سبعة أيام من سيوه نحو الفيوم . فجهز الانكليز قوة عظيمة لقتاله ، فاضطر أن يرجع أدراجه الى سيوه ، فتعقبوه الى سيوه ، فدافع عن نفسه فى سيوه دفاعاً شديداً ، ودحروهم وخرب عدداً من دباباتهم المصفحة والطرابلسيون يسمونها بالكهربات - جمع كهربا ، لكونها تسير بالقوة الكهربائية - وبعد أن ارتد الانكليز الى الورا أجاز السيد من سيوه الى الجغبوب ، وهى مسيرة ثلاثة أيام وتحصن بها . وكان الانكليز بعد أن قطعوا الأمل من سيدى أحد ، شرعوا فى مخاطبة ابن عمه سيدى ادريس ابن سيدى المهدي فى الصلح ، والاعتراف بامراته على برقة ، والجبل الأخضر بشرط أن يطرده نورى ومن معه من الأتراك ، ويشير الى ابن عمه سيدى أحد الشريف بالخروج

(١) هو جعفر باشا العسكري رئيس وزراء بغداد بالأمس ومن أعضاء الوزارة اليوم وهو من أعز

من تلك المنطقة ، وأبلغوه أنه ان بقي سيدي أجد في الجغبوب فانهم يهاجون الجغبوب ويستولون عليها . فأرسل سيدي ادريس بالخبر الى سيدي أجد ، ففارق الجغبوب مغزاً السير الى جالو ، وواجهه ، وهي مسيرة ١٢ يوماً من الجغبوب ، في صحراء يباب تباء ، لاعشب ولأماء ، وضادف رحيلهم جارةً فيظ فكدوا يهلكون من العطش ، ولم يتوقف السيد أجد في جالو وواجهه اتقاء الخلاف مع ابن عمه سيدي ادريس ، وهو أحرص الناس على الوفاق بين السنوسية ، لاسيما بيت الرئاسة ، الذي هو القدوة لجميعهم . فقصد السيد الغرب ، ونزل بسوكنه من برطرابلس ومعه ثلاثة آلاف مقاتل . واعصوب حوله السنوسيون الذين بتلك الليار ، مثل بني سيف النصر وغيرهم ، أما سيدي ادريس فلما رأى الضيق الذي وقع فيه العرب بين الانكليز من جهة ، والطلليان من جهة أخرى . والمخمصة التي أصابتهم على أثر سد الطارق ، بين الجبل الأخضر ومصر ، جنح الى الصلح ، وعقد مع ايطالية وانكثرة الاتفاق الذي اعترفنا له فيه بامارة برقة والجبل الأخضر ، وتقلد بموجبه ادارة أمورها ، ماعداً مدينتي بنغازي ودرنة ، وتعهدت ايطاليا بدفع الرواتب لجنوده . وهو الاتفاق الذي نقضته ايطاليا ، بعد حكم وزارة الفاشيستي مباشرة ، وحدثت من بعده الحرب ولما كان شرط هذا الصلح الأصلي هو اخراج نوري والآراك من هناك ، خرج هؤلاء من برقة الى الغرب لاحقين بمصرطة . وكان استبدت بأمر مصرطة رجل أصله من غمارة الناس اسمه رمضان شنيوي ، ساد بشجاعته وحزمه ومضائه ، وكان في خدمة ايطاليا أولاً ، ثم انقلب عليها ، واستخلص من يدها مصرطة وما جاورها ، بعد الواقعة الشهيرة المسماة بالقرضانية ، التي انهزم بها الطليان شر هزيمة سنة ١٩١٥ ، وكان مبدأها بين الطليان والسنوسية . فالطليان استنفروا لمعاونتهم رمضان شنيوي وقومه ، فزحف ببضعة آلاف من رجله ، فلما وجد السنوسية وهم الف وخسمائة مقاتل قد وقفوا في وجه ١٢ الف مقاتل من الطليان ، وأذاقوهم مر الكفاح ، هجم هو على الطليان من الورا ، وهم على غير انتظار ، فلهنج من ذلك الجيش الايطالي كله سوى خمسمائة شارد فروا الى جهة البحر ، وغنم العرب جميع أثمان ذلك الجيش . واسترجع العرب بعد هذه الواقعة جميع برطرابلس ، سوى مدينة طرابلس المحمية بالبوراج الحربية ، واستمر ذلك من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢٣ ، اذ جهزت وزارة الفاشيستي جيشاً جراراً استرجع مصرطه ، ومسلاته ، وترهونه ، وغريان ،

وغيرها . ثم كره العرب عليها وأخذوها ، ثم زحف الطليان ثانية واسترجعوها ، والأحوال بين الفريقين لاتزال مدمّاً وجزراً . وقد مثل دوراً عظيماً في هذه الوقائع رمضان شنيوى هذا الملقب بالسواحلى ، وجاهد في الطليان حق الجهاد ، ولكنه كان صعب المقادة ، أشوس ، مرالعداوة ، وكان يناصر السوسية العداة . فلما قدم عليه نورى مغتافاً مما فعله سيدى ادرىس ، تلقاه براً وترحبياً ، وعزّز به مركزه ، مما كان يرد على نورى من نظارة الحربية بالاستانة من الأموال والاعتاد ، وعلت كلمته بانتسابه الى الدولة ، وقبوله نورى قائداً ووالياً ، وان كانت في الحقيقة الكلمة بقيت لرمضان في الأمر والنهى . وقد وفق الله طرابلس في أمر ، وهو أنه كان الاستاذ عبدالرحمن عزام ، من آل عزام بالجيزة ، ومن شبان مصر الناهضين ^(١) ذوى الحصافة والنجابة ، يجمع حنكة الشيوخ الى حسنة الشبان ، قد انحق بجاهدى السلام يوم زحفوا لقتال الانكاز ، شهد الوقائع ثم غرب مع نورى الى طرابلس ، ولما دخل نورى مصراته ، كان عبد الرحمن يده اليمنى ، فصرف كيف يأخذ رمضان بالحسنى ، ولين بقدر الامكان من شدته ، وأصلح بينه وبين أهالى ترهونه ، وزليطن ، واورفله ، وغيرها ، وشكلوا حكومات متحالفة ، مركزها مصراته ، وعلى رأسها نورى باشا . وكان القائم بأعبائها عبدالرحمن عزام المؤمأ اليه . ثم لما استدعى أنور أخاه نورى الى الاستانة ، وولاه قيادة جيش القافقاس ، استصحب معه الى الاستانة الأستاذ عبد الرحمن عزام ، وقال لى نورى مرة هذه الجملة ، واستدللت منها على عقله وانصافه : « لولا هذا الشاب ، ما كان يمكننى أن أوفق في طرابلس » .

ثم لما أرسلت الدولة الأمير عثمان فؤاد ، ابن الأمير صلاح الدين ، ابن السلطان مراد ، ابن السلطان عبد المجيد خان ، الى طرابلس أميراً وقائداً عاماً عليها ، مكان نورى باشا ارسلت معه عبد الرحمن عزام المصرى مستشاراً ومدبراً ، فلما انتهت الحرب الكبرى وانقضت المتاركة ومن جملة شروطها اخلاء الأتراك لطرابلس ، صدرت الارادة السلطانية الى الأمير عثمان فؤاد بترك تلك البلاد . فذهب الى تونس ، وسلم نفسه الى الفرنسيس ، وهؤلاء سلموه الى الطليان الذين أفرجوا عنه . ولكن بقيت الحكومة الوطنية في طرابلس على ما كانت عليه ، وهى حمومة حلقية ، مركزها مصراته ، وعبدالرحمن عزام هو الذى يدير

(١) وهو من أعضاء مجلس النواب المصرى في عهد الوزارة الوفدية

أمورها، ويرتق فتوقها، ويؤلف بين الجهات المتنافرة، حتى ينسئ لهم بالاتحاد حفظ استقلالهم. الا أن شرة رمضان السواحل، كانت غالبه عليه، فقصده مرة قتال اورفله، فغفل أهل اورفله في وجهه الآبار، وأنشبهوه في معاطش هلك فيها أكثر زجاله، وقيد فيها أسيراً. ولما أرادوا احضاره الى عبد النبي بلخير زعيم اورفله، قال هذا لقومه: « لاندعوه يصل الى خوفاً من أن يغلبني الحياء فأستحييه ». ففهموا منه انه يرجح قتله فقتلوه، وبعد رمضان المذكور جعل الطرابلسيون رئيساً على حكومتهم الوطنية الحلقية أحمد بك المريضة وهو زعيم ترهونه، وظل رئيساً مقبياً بمعسكر المجاهدين جنوبي البلاد التي استرجعها الطليان.

ثم نعود الى سيدي أحمد الشريف. فنقول انه لما فارق برقة، فغادياً للخلاف مع ابن عمه الذي صار أميراً على برقة، غرب الى سوكنه كما سبق فأرسل اليه رمضان السواحل قوة تقاته، عليها ضباط من الترك ممن كانوا مع نوري باشا أخي أنور. فالسيد هزم القوة التي جاءت تقاته، وقتل في تلك الواقعة الضابط المدعور بتو توفيق. ولكن اشتدت الأزمة بالسيد لانقطاع المدد عنه من كل الجهات، فالانكليز أصبحوا أعداءه وضبطوا أملاكه، وزواياه، في سيوه والواحات الدواخل، وذلك لانقياده الى الأتراك ومسيره مع نوري لمهاجة مصر. والأتراك تركوه أيضاً، لانحياز نوري باشا الى رمضان السواحل في مصراته، واعتصامه به، وهذا كان عدواً للسوسية. فوصل الأمر بالسيد وعساكره التي كانت نحو ثلاثة آلاف، أن أخذوا يقتاتون الحشائش، وأن مات منهم خلق كثير جوعاً، وهو صابر على هذه البلية صبر الكرام، والازمة تزداد به وبأجناده يوماً فيوماً، وهو لا يقدر أن يعود الى الجغبوب، خوفاً من الخصام مع ابن عمه، واتقاء التحرش بالانكليز. ولا يقدر أن يدخل مصراته والبلاد التي حولها، لكون رمضان السواحل وغيره من أعداء السوسية له بالمرصاد. قال لي السيد من فه: « بلغ بي الضيق من هذه الحالة، وأنا أرى رجلى امام عيني تموت جوعاً، أن وصلت الى درجة اليأس، وقررت في نفسي الصلح مع الانكليز مستخيراً الله، وفي تلك الليلة رأيت فيما يرى النائم، استاذي سيدي أحمد الريني يقول لي: قد عرف الاخوان مرادك، فلم يرضوا لك بما عزمتم عليه، فارجع الى ما كنت عليه واستأنف العمل، فلما استيقظت من النوم أقفعت عن تلك الفكرة وحررت الى

أنور كتابا ، بعث به ضمن كتاب الى نوري قائلا له : احذر أن تؤخر ارسال كتابي الى أخيك . فأرسل بالكتاب الى الاستانة ، وجاءني من أنور الجواب » .

وكان السيد قبل ذلك ، بعث الى ، انا محرر هذه السطور ، بكتاب يشكولى به من معاملة نوري ، أيام كانا في السوم ، ويبدى لى شيئا من التعتب على أنور ، ولكن لم تقع له فرصة لارساله ، وبقى محتفظاً بذلك الكتاب الى أن جاء الى الاستانة العلية ، وانهت الحرب ، وشرعت أرساله من اوربا الى مكانه يروسه ، فأرسل الى ذلك الكتاب بعينه ، بعد فوات وقته ، كأنه يريد أن يطلعنى على تلك المايجريات الماضية ، ولولا كون هذا الرقيم فى أوراقى التى تركتها فى أوربا ، لكنت أكلت هذه القصة بنشره . ومن الغريب ، انى مع كون هذا الكتاب من السيد لم يصلنى يومئذ ، فقدقت تجاه السيد بما لم أكن لاعمل زيادة عليه فيما لو وصلنى كتابه اذكنت بدأت اشم من معية أنور رائحة الوحشة من سيدى احد الشريف ، وأسمع بعض رجال الدائرة المسماة بدائرة « التشكيلات » التابعة للحريية يلمزون السيد ، ويعزون اليه امورا ، كنت على يقين انها بهتان محض . مثل كونه يريد الخلافة لنفسه ، ومثل أنه غير مخلص للدولة وما أشبه ذلك . وكان أنور دعانى مرة للافطار معه فى رمضان فقلت له : « ان بعض بطاتك بدأوا يغمزون السيد احد الشريف ويشيعون عنه أراجيف يصعب تصديقها ، وهذا الأمر يمس جانبك أنت ، ولا ينحصر فى السوسية ، لأن أكثر مظهرك كان بهؤلاء الجماعة . فان ظهر بعد ذلك انهم خائنون ، لا سمح الله ، فتكون أنت الملووم ، ويستال الناس بذلك على كونك قائل الرأى . وان كان عندك شىء راهن بحقهم ، فصرح لى به لنعلم درجة الخبر من الصحة » . قال لى أنور رحمه الله :

« حاشا ، ما يقدر أحد أن يتهم سيدى أحد الشريف بالخيانة ولكن الانكليز كانوا يخذعونه أحيانا » . قلت له : « ان سيدى أحد الشريف لم ينخدع للانكليز ، وانما كان يصانهم كما يصانعونه ، وما نلصكا عن محاربتهم الاخشية الفشل ، إذ كان يعلم أن القوة التى لديه غير كافية للدخول الى مصر ، أفلا ترى كيف أن الانكليز بمجرد زحف الأربعة الآلاف مجاهد الى مرسى مطروح ، رموهم بثلاثين ألف مقاتل ، وبالمدافع ، والطائرات ، والدبابات ، ولولا لطف الله بهم لوقعوا جميعاً أسرى وأخوك من الجلبة ... » قال لى أنور :

« أنا أعطيتهم أوامر بأن يتجنبوا المارك الفاصلة » . فقلت له : « ياسبحان الله ! انت

عسكري صنعتك الحرب وأدري منى بهذه الامور ، أفأذا هاجم الانسان من هو أقوى منه مراراً ، أفيبقى له الاختيار في الكرك والفر؟ . » واتتهت هذه المحاورة باقتناع أنور ، وتركه مؤاخذه السيد . ثم أخذت منه الاذن لسيدى عبد العزيز العيساوى ، الذى كان معتمداً للسادة السنوسية فى استانبول ، وهو من الفضلاء الاجلاء ، أن يواجهه فى نظارة الحرية ، بعد أن بقى محجوباً عنه عدة أشهر ، ثم أن يعود الى وطنه بالفواصة . فأذن له وأعاده معزراً مكرماً ، وكتبت معه كتاباً الى السيد . وما مضت مدة حتى جاء مكتوب السيد الى أنور ، حسباً تقدم . فأنفذ أنور يوسف بك شتوان بالفواصة ، فتلاق مع السيد وتفرر مجىء السيد الى الاستانة بالفواصة ، فركب من مرسى العقيلة من ساحل سرت ، قاصداً بحر الادرياتيک .

قال لى السيد : « قبل ركوبى الفواصة ، تحدثت مع الضباط الألمان الذين فيها ، وسألتهم عن خطر ركوبها فقالوا لى : لا يخلو الأمر من الخطر ، ولكننى ما باليت بذلك لأننى كنت رأيت أستاذى سيدى احمد الربيعى فى المنام فقال لى : الشئى الغلاتى ستأخذ من « بولا » فى اليوم التالى سألت الضباط هل يوجد محل اسمه بولا ؟ فقالوا لى : « نعم ان المرسى الذى سنزل فيه من بلاد النمسا اسمه « بولا » فاعتقدت أننا بالفوق هذا المكان ، بحول الله وقوته » قال لى : « وقد عرضت لنا الهلكة ثلاث مرات ، ونحن فى البحر : أول مرة صادفنا بوارج للعدو ففصنا تحت الماء ، ورأيت مرآكب العدو بعينى ، بواسطة مرآة يرى الانسان بها من تحت البحر ما هو فوق البحر ، ومازلنا متوارين عنهم حتى مضوا . ومرة ثانية أصاب الآلة المحركة تعطيل ، فكنت أرى ضباط الفواصة يميئون ويذهبون ، وهم فى حيرة عظيمة ، فلم يخبرونى بالحقيقة الا بعد أن أصلحوا الآلة . ومرة ثالثة نام قيم الآلة ، فصادمت الفواصة صخراً وكادت تفرق ، ولكن كنا على مقربة من « بولا » وقد فصل سيدى أحمد الشريف من مرسى العقيلة بساحل سرت فى ذى القعدة سنة ١٣٣٦ ، ووصل الى « بولا » من ساحل النمسا فى بحر الادرياتيک بعد أسبوع من ركوبه وسافر من « بولا » الى فينا ومعه حاشيته ، ويوسف بك شتوان . ولما حصل فى فينا أرسل الامبراطور يبنى مشاهدة السيد ، فاجاب شتوان معتذراً عن امكان هذه الملاقاة قبل أن يذهب السيد الى الاستانة ويقابل السلطان . ولكن هذا

الجواب وقع بدون اطلاع السيد ، ولما اطلع عليه فيما بعد لم يستحسنه اذ رأى أنه كان يليق بمقابلة الامبراطور في عاصمته لا سيما أنه طلب ذلك . ثم سافروا الى الاستانة ، فاستقبل في محطة « سرکه جي » بزيد الاجلال والاكرام ، وكان أنور باشا في المحطة بنفسه . وأقبل علماء الترك عليه ، وهنأوه بالقدوم ، وتبركوا بمعرفته . وأنزله الدولة بسراى « طوب قبو » مقر السلاطين القديم . وصادف وقتئذ الاحتفال بتقليد السلطان محمد السادس السيف ، في مسجد أبي أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، الذى يقول له الأتراك : « سلطان أيوب » . وكانت العادة أن الذى يقلد السلطان السيف عند جلوسه ، هو الشلبي شيخ الطريقة المولوية . وسلالة مولانا جلال الدين الرومى ، قدس الله سره . فاختار السلطان السابق محمد السادس ، الاستاذ السنوسى لتقليده سيف السلطنة في ذلك المحفل المشهود ، وأنعم عليه برتبة الوزارة السامية ، وبالنشان المرصع ، واحتفى به كثيراً ، هو وولى العهد الأمير عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خان ، الذى تولى الخلافة بدون سلطنة بعد انتصار الأتراك على اليونان ، وخرج محمد السادس من دار السعادة . ثم خلعت الجمهورية التركية أخيراً وأقصته هو وجميع آل عثمان عن المملكة ، والسلطنة وأسقطتهم من التبعية التركية .

وكانت الحرب أوشكت أن تنتهى ، وأيقن الأتراك أن الدائرة ستدور عليهم وعلى الألمان فتكلم أنور مع السيد السنوسى ، في لزوم رجوعه بالسرعة الى طرابلس ، وقال له كلاماً يدل على كونه آماله في مسلمى افريقية صارت أكثر منها في سائر العالم الاسلامى . وصرح له أن السلطان نفسه ، يريد أن تعود الى بلدك لتقوى بك عزائم المجاهدين ، ونحن حاضرون أن نقويك بالمال والعتاد والسلاح . وقرر أنور اعطاء السيد (١٢) ألف بندقية مع عدتها ، و (١٠) مدافع و (٣٠) رشاشاً و (٢٠٠) ألف جنية . فساله السيد قائلاً « بلغنى من بعض الضباط الطرابلسيين الذين في خدمة الدولة ، انكم تبغوننى أقاتل ابن عمى سيدى اندريس ، لكونه اتفق مع الانكليز والطلليان » . فقال له أنور : « معاذ الله أن نبغى منك ذلك ، لأننا نعلم أنه لم يبق للاسلام في افريقية حصن أحسن من هذا البيت السنوسى الكريم ، وانه ان وقع لا سمح الله الشقاق في هذا البيت فسد الأمر واضمحلت القوة السنوسية التى عليها معول الاسلام في افريقية . فكن على ثقة باننا نبغى اتحادكم قبل كل شئ ، نصحاً بالاسلام وضناً باستقلاله ، وان معاونتنا لكم

انما هي محض حمية على الاسلام ، لأن تركيا من جهتها لم يبق لها أذنى أمل باسترداد طرابلس ، ولسننا لانحسب أن نرى اخواننا مسلمي افريقية تبعه للاجانب . وكان أنور كما هو مشهور عنه ، متمسكا بوحدة الاسلام ، يفار عليه في أي بقعة كانت ، ولا يفرق بين عربي وتركي وهندي الخ ، وطالما اختلف مع زملائه من أجل هذه السياسة .

وبعد أن أجمع السيد الاوبة الى طرابلس ، جاء من قال له ان الغواصة ستزلك في ساحل مصرطة ، وهي بيد رمضان السواحل اليوم ، فلا يجوز أن تأمن جانبه ، فأخذ السيد يفكر في كيفية النزول الى البر بحيث يظا ساحلا لا يكون فيه عليه يد لا من الطليان ولا من رمضان شتيوى ، واذ ذاك صارت تتتابع الحوادث بسرعة البرق ، فتغيرت الوزارة ، وسقط أنور ، وندم السيد على تأخره عن السفر ، وحاول الانسلا من الاستانة الى النمسا ، حتى يركب منها الغواصة قافلا الى وطنه فلما أحس محمد السادس وحيد الدين بذلك ، أخذ يداوره عن عزيمته هذه ، ويقول له : « يعز علينا أن تفارقنا في هذه الآونة الحرجة . والسيد يظن أنه أثناء عقد الهدنة مع تركيا شدد الحلفاء على السلطان في ملازمة السيد عن الابحار الى طرابلس ، حتى اذا دخلوا الاستانة كان السيد في قبضة يدهم ، أما أنور فكان السيد يختلف اليه بعد سقوطه فكان يداور السيد في السفر معه الى أوروبا ويقول له : « لا يجوز أصلا بقاؤك في الاستانة والحلفاء على وشك دخولها . » وأما الصدر الأعظم ، المشير احمد عزت باشا ، فلما كان السفر بالغواصة ممسنا من بحر الادرياتيك ، أشار على السيد بالسفر خفية واللحاق ببلاد ، وبان لا يبالي بكلام السلطان . فلما انعمت المتاركة ، وصار السفر بالغواصة متعذرا اشار على السيد في الذهاب الى بروسة ، وكان هذا رأى وحيد الدين ايضا . فتحول السيد من الاستانة الى بروسة ، وقامت الحكومة العثمانية بكل ما يلزم له . وكان السلطان يديم السؤال عنه وكلما تعين وال لبروسه يتلقى الامر بالذهاب الى السيد قبل كل شيء ، والوقوف عند خاطره ، والمبادرة الى امراضه . فالسيد السنوسى من أول يوم قدم فيه الى تركيا ، الى هذه الساعة ، لقي من بر الاتراك وحفاوتهم واجلالهم ، سواء من حكومة الاستانة مع تقلب وزراتها ، أو من حكومة انقره في مختلف صفحاتها ، ما لم يطرأ عليه أذنى تغيير ، ولا اوجب التبرم في فليس ولا كثير . حتى كأن جميع الايام التي قضاها بين اظهرهم يوم واحد . فكانت الامة التركية اينما حل وكيف

ارتحل ، تهرع اليه على اختلاف الطبقات ، بدون تكلف ولا تصنع ، ولا انتظار أوامر حكومة ، بل بشعور عام أوجده فيها اتحاد الكلمة على نزاهة هذا الرجل ، وتجرده عن المآرب الشخصية ، وعزوفه عن حظوظ الدنيا وانصراف همه كله الى الذب عن بيضة الاسلام بدون غرض سوى مرضاه الله ورسوله ، وحفظ استقلال المسلمين . فكان كثير من الترك ، والكرد ، والجرس ، والارناؤوط ، يقصدون زيارته لمجرد التبرك بتقبيل يده ، والافتداء بهديه وتلقى وارداته الروحية ونفحاته القدسية ، وكثير منهم اخذوا عنه الطريقة السوسية . وكانت مدة مقامة يروسه ما يقرب من سنتين تأست خلالها الحكومة الانقروية ، فأرسل اليه رئيسها مصطفي كمال باشا يدعوه الى الانحياز الى انقرة ، شداً لعهد الاسلام ، وترجيحاً لكفة الجهاد على كفة القعود . وكانت القوى المليية التي مركزها انقرة ، هي في الحقيقة آخر ما بقي من قوة الدولة الفعلية ، فاعمل السيد الروية في هذا الامر ، فرأى ان حكومة الاستانة ، لاسيما في ايام الداماد فريد ، اصبحت كالحلوس الملقى ، لا تملك ضراً ولا نفعاً ، ولا تقدر أن تذود عن حق مسلم ، فضلاً عن كون بقائه في يروسه مع دنو اليونان منها ، يعرض شخصه للوقوع في ايدي الحلفاء . فآزمع السيد التحول الى الاناضول ، واول بلدة نزل بها اسكى شهر ، حيث وافاه مصطفي كمال باشا ومعه رعيه باجمعهم ، وتلقوه برأ وتكريماً ، واحتفلوا بمقدمه احتفالا عظيماً . ثم ان بعض الترك ، ممن لا حاجة الى بيان اسمائهم ، استطلعوا رأيه في أمر الخلافة ، وارادوه عليها ، وأبدوا واعادوا في اقناعه بها ، فاعتذر عن ذلك وأفهمهم ان لا سبيل الى قبوله هذا الأمر ، لاسباب عديدة . فتركوا مراجعته في هذا المشروع ، وخبروه في الإقامة بأي بلد يريده فاختار قونية ، وأقام بها عدة أشهر . وأثناء إقامته بقونية ثارت تلك الثورة على الحكومة الانقروية ، لأسباب ليس هنا موضعها ، فبذل السيد كلمته في اتحاد الثورة ، ونصح الأهالي بطاعة الحكومة المليية ، وصعد المنبر يوم الجمعة ، فحث الناس على اجتناب الفتنة ، وبصرهم عواقب الشقاق بينا العدو أخذ منهم بالحناق ، وبين لهم كيف أن أنقرة هي شمال الاسلام ، وثمالة ما بقي في حوضه في هذه الأيام ، فلا يجوز لهم والحالة هذه الخروج عليها ، وتوهين قوتها ، حتى لقد عاتبه كثيرون من أهل قونية في تشييعه لأنقرة ، وغضب آخرون . ولولا احترامهم لمقامه العظيم ، ونسبه الكريم ، لسه السوء يوم سالت السماء في أسواق قونية ،

وما زال في الوعظ والارشاد ، حتى وصلت العساكر الملية فبددت شمل الثأرين وقبضت على مئات منهم وحاكمتهم في ديوان حرب ، وصلبت كثيراً منهم ، وكادت تبطش بالشلبي شيخ المولوية وسلالة مولانا جلال الدين الرومي البكري الصديقي قدس الله سره . فكان السيد واسطة خير وشفيعاً له ولغيره . فأنفذ كثيرين ولطف مصائب كثيرة ، بحسن شهادته ولطف مواعظه ، في هذه الفتنة التي كسأر الفتن لا تصيب الذين ظلموا خاصة . ثم اتدبت الحكومة الملية لنذهب الى بلاد الاكراد ، لاجاد بعض الفتن ، واعمال نفوذه الديني في نصيحة العشار التي كانت غير راكنة . فذهب السيد الى ديار بكر ، وأقام بها وبماردين وبادورفا ، مدة وفدت فيها عليه زعماء القبائل العربية والكرديّة المناربة في هاتيك الديار ، وراودوه على الإقامة بينهم ، وأظهروا له من الطاعة لأمره والالتقاد لسكتمه ما هو فوق الوصف ، ولكنه أبدى لهم استحالة ذلك عليه وكونه مقيداً ببلاده ، لا بد له من الرجوع الى الغرب ، وانما نصح لهم في الانفاق مع الحكومة الملية ومظاهرتها توحيداً لكلمة الاسلام واثقاء الفتنة ، التي انما يستفيد منها العدو أثناء حرب لافح لا بدري ما تلذ . وكان يشند عزائم الناس ، ويحثهم على الجهاد . واحدى المرار بينا هو في ماردين ، قال : « ان هجوم الأعداء سيبدأ بهذين اليومين وسيكون نصيبهم الختلان » فلم يمض يومان حتى ورد عليه برقية من الغازي مصطفي كمال باشا قائلاً له : « ان العدو بدأ بالهجوم نساءك الدعاء . فكان ذلك مدعاة لهنة الضباط الأتراك ، الذين سمعوا من السيد أن العدو سيهاجم بهنين اليومين وقيدوا ذلك بالورق يوم قاله لهم ، فكان الأمر طبق ما قال . وكان الغازي في برقيته طلب أيضاً من السيد قراءة البخاري الشريف تبركا واستنزالا للنصر على جيوش الاسلام ، فذهب الى المسجد الجامع بماردين ، وشرع بالقراءة ، وداوموا عليها الى أن وردت البشارة بكون العدو ارتد خسرأ من وقعة سقاريا . ثم أقام السيد بطرسوس فراراً من برد الأناضول . وفي أثناءها تم الظفر الأخير بالعدو ، وأخرج من كل أقسام تركيا ، وجاء مصطفي كمال باشا الى ولاية أطنه ، وزار السيد في منزله بطرسوس ، فبالغ السيد في الاحتفال به ، وقدم بعض هدايا نفيسة للسيدة الخاتون حليلته . وبعد ذلك ذهب الى أنقرة لهنة الحكومة بظفرها الأخير ، واستتباب الأمر وعقد الصلح ، وكانت زيارات السيد لأنقره ثلاث مرات : أولاها يوم توجه الى بلاد الأكراد بطلب من الحكومة

الملية . والثانية أثناء الحرب بعد هزيمة العدو في سقاريا . والثالثة بعد نهاية الحرب وعقد الصلح . وفي هذه المرة الأخيرة كان معه عجمي باشا السعدون ، أمير المنتفق الذي لم يفارق جيش الدولة وترك وطنه العراق حياً بها ، ومداومة على مبدئه . وقد كان السيد في جميع زيارته لأنقره يلقى من الغازي ومن هيئة الحكومة جميع ما هو أهله من الاجلال والاكرام . وآخر مقامه كان بمرسين ، التي آثرها على طرسوس ، فنزل بقرية « خريستيان كوى » التي كان يسكنها الأروام قبل المهجرة ، وهي على مسافة نصف ساعة وكان كولونل ايطالى قد وافى أنقره آخر مرة من زيارته لها ، واستأذن السيد في ملاقاته ، فأذن له ، فنكلم مع السيد في حقن الدماء في طرابلس ، والاتفاق على أساس للصلح . فاجابه السيد بأنه لا يكره الصلح ، على شرط استقلال وطنه الحقيقي وبعد الاخذ والرد ، أحال السيد أخذ خلاصة الاقتراحات الايطالية الى الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش . وكان السيد قبل أن رضى بالاخذ والرد مع هذا الكولونل سأله : « أعندك تفويض من حكومتك بالدخول مئى في حديث الصلح ؟ » فقال له الكولونل : « كلاً . وإنما يمكننى الحصول على التفويض من اليوم الى شهر » . فقال له السيد : اذا ، بعد الحصول على الاذن من حكومتك ، تفويض بما تريد بيانه الى الاستاذ الشيخ جاويش . وأوعز السيد الى الشيخ جاويش بان يعيد عليه الجواب . فبعد مدة جاءه الشيخ بخلاصة الشروط . فوجدها السيد غير موافقة وقال للشيخ جاويش : « قل لهم لا تقبل أن تكون القوة العسكرية في أيديهم ، ولا أن تكون الشرطة منهم ، وكل ما نتسامح معهم فيه هو الامتيازات الاقتصادية ، واستثمار البلاد حقاً لهم دون غيرهم من الاجانب . فاما حقوق الملكية فلا نزل عن شئ منها ، وسلاحنا لا بد أن يبقى في أيدينا ، وعلى غير هذه الشروط فلا سلام ولا كلام ، لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود به على الطليان ، بل هما ملك أهلها » . فلما عاد الشيخ الى الطليان بالجواب علموا أن لا سبيل الى الصلح ، فاذاعوا في الجرائد أن خبر مفاوضتهم للسيد السنوسى بالصلح غير صحيحة . والحال أنه قبل هذه الاذاعة بقليل ، كان ورد الى السيد الخبر من الشيخ جاويش بان الكولونل ايطالى قدم الى مرسين لمواجهته ، كما أن هذا الكولونل لما واجه السيد وشافهه بأمر الصلح في أنقره ،

أخبر السيد الغازي مصطفي كمال بما جرى فأشار عليه بالصلح ان طاب له ووافقته شروطه .
عند ما قدمت الى الاستانة في أواخر سنة ١٩٢٣ ، وهي أول مرة دخلتها بعد الحرب
قررت لأجل الاستجمام من عناء الاشغال وترويح النفس بعد طول النضال ان أسكن ببلد
صغير تهيأ لي فيه العزلة ونسهل الرياضة ، ويكون دائماً من وطني سورية للملاحظة شغلي
الخاص ، وتعهد أملاك فيها ، فاخترت مرسين ، والقيت مرساة غربي فيها . وكان السيد
السنوسي بلغه قدومي الى دار السعادة ، فكتب لي يرغب الي في سرعة المجيء ويرحب بي .
فلما جئت الى مرسين ذهبت تورأ لزيارته ؟ فأبى الا أن انزل عنده ، ريثما اكون استأجرت
منزلاً في البلدة ، وقد رأيت في هذا السيد السند بالعيان ، ما كنت اتخيله عنه بالسمع وحق لي
والله أن أنشد :

كانت محادثة الركبان نخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيّب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذني بأحسن مما قد رأى بصري

رأيت في السيد حبراً جليلاً ، وسيدا غطريفاً ، وأستاذاً كبيراً ، من أنبل من
وقع نظري عليهم مدة حياتي ، جلالة قدر ، وسراوة حال ورجاحة عقل ، وسجاجة خلق ،
وكرم مهزة وسرعة فهم ، وسداد رأي ، وقوة حافظه ، مع الوفاق الذي لا تقص من جانبه
الوداعة ، والورع الشديد في غير رثاء ولا سمعة . سمعت أنه لا يرقد في الليل أكثر من
ثلاث ساعات ، ويقضى سائر ليله في العبادة والتلاوة ، والتهجد ، ورأيته مراراً تنفج بين
يديه السفر الفاخرة اللاتقة بالملوك فيأكل كل الضيوف والحاشية ويجتري هو بطعام واحد
لا يصيب منه الا قليلاً ، وهكذا هي عادته . وله مجلس كل يوم بين صلاتي الظهر والعصر
لتناول الشاي الأخضر الذي يؤثره المغاربة . فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال
المعية ، ويتناول كل منهم ثلاثة اقداح شاي ممزوجاً بالعنبر . فأما هو فيتحمى شرب الشاي
لعدم ملائمته لصحته . وقد يتناول قدحا من النعناع . ومن عادته أنه يوقد في مجاله غالباً
الطيب ، وينبسط السيد الى الحديث ، وأكثر احاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورفاقتهم
وسير سلفه السيد محمد بن علي بن السنوسي ، والسيد المهدي ، وغيرهما من الاولياء والصالحين
واذا تكلم في العلوم قال قولاً سديداً ، سواء في علم الظاهر أو علم الباطن . وهو يذهب الى
تعظيم الاولياء ، ويرى فيهم الوسائل بين الله والعبد . وينكر على القائلين أن لا وسيلة

بين الخلقى والمخلوق ، بل يقول ان الانبياء ، صلوات الله عليهم ، ان هم الا وسائل الى الله .
ويقول اذا وقع خلاف في مسألة بين علماء الشرع ، و بقيت غامضة ، فالقول فيها ما يقوله
علماء الباطن أهل التصوف . وهو شديد الاعتقاد والافتداء باثنين : الاول عنه سيدي محمد
المهدي الذي لا يرى فوق طبقة احداً الا سيد الكائنات ، عليه السلام . والثاني استاذه ومرشده
سيدي احمد الريني ، من أكابر السادة السنوسية ، وأركان هذه الطريقة ، ويقول انه كان
علامة بجرأ في جميع العلوم . قرأ في فاس وأتقن العلوم بأسرها حتى الفلك والاسطرلاب ،
والهندسة ، والرياضيات . وهو يعتمد على كلامه له ، ومن جملة ذلك أنه قبل وفاته ، رحمه
الله ، بأيام قال له : أماكم جهاد طويل عريض ، فينبغي لك أن تجاهد ولا تقعد ، وان
الجهاد ينتهي بنصركم . وانما لا تجعل لنفسك مركزاً معيناً تلازمه ، ولا تسكن مهاجراً للنقاط
المحكمة بل قب دائماً على قدم الدفاع . وإياك والصلح « فسأله السيد « اين يكون هذا الجهاد ؟ »
وكان ظن انه يعني حرباً تقع بين السنوسية والفرنسيس في جهة واداي ، لانه كان القتال
مستمراً بين الفريقين على عين كلك . فأجابه سيدي احمد الريني : « كلا ! هذا
جهاد ضد عدو يأتيكم من جهة البحر ، وهو الطليان » . قال له : « وستأتيكم النجدة من
استانبول » . فما مضى على وصاة سيدي الريني شهران ، حتى نشبت حرب طرابلس وتحقق
كل ذلك . فالسيد متمسك بكلام استاذه لا يحيد عنه . وقد لحظت منه صبراً قل أن يوجد
في غيره من الرجال وعزماً شديداً تلوح سماؤه على وجهه ، فيينا هو في تقواه من الابدال ،
اذا هو في شجاعته من الأبطال . وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس يشهد كثيراً من
الوقائع بنفسه ، ويمتطي جواده بضع عشرة ساعة على التوالي بدون كلال ، وكثيراً ما كان
يفامر بنفسه ولا يقتدى بالأمرء وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب
مسافة كافية ، أن لا تصل اليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة . وفي احدي المرار أوشك أن
يقع في أيدي الطليان ، وشاع أنهم أخذوه اسيراً . وقد سألته عن تلك الواقعة فخفي لي
خبرها بتفاصيله ، وهو أنه كان يبرقة ببلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد في قلة من
المجاهدين ، وغير بعيد عن جيش الطليان ، فسرحوا اليه قوة عدة آلاف ومعها كهرباة (١)
خاصة لركو به . اذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت من أيديهم تلك المرة . فبلغه خبر زحفهم ،

وكان يمكنه أن ينجم عن اللقاء أو أن يتحرف بنفسه الى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر، أو يترك الحرب للعرب تصادمهم فلم يفعل . وقال لى « خفت انى ان طلبت النجاة بنفسى ، أصاب المجاهدين الوهل ، فدارت عليهم الدائرة ، فبنت للطلبان وهم بضعة آلاف بثلمائة مقاتل لا غير ، واستتات العرب ، وصدموا العدو ، فلما رأى هؤلاء وفرة من وقع من القتل والجرحى ، ارتدوا على اعقابهم ، وخلصنا نحن الى جهة وافتنا فيها جوع المجاهدين . » قال لى : « وفى هذه الواقعة جرح الضابط نجيب الحورانى ، الذى كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية ، كان قائداً ولكنه كان يفاس بنفسه فى كل واقعة ، فجرح مرتين واستشهد فى الثالثة رحمه الله . ولم يحزن السيد على أحد حزنه عليه ، ابهر شجاعته وشديده اخلاصه . وكان السيد يكتب لى من الجبل الأخضر وافر الثناء عليه ، وهو اليوم دائم الترحيم عليه . والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلى ، من مشايخ بلاد عجلون ، ترك فى بلاد القرب ذكراً خالداً .

والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر ، سيال القلم ، لا يمل الكتابة أصلاً . وله عدة كتب منها كتاب كبير أطلعنى عليه فى تاريخ السادة السنوسية ، وأخبار الاعيان من مرديهم والمتصلين بهم ، ينوى طبعه ونشره فيكون أحسن كتاب لمعرفة أخبار السنوسيين وانما يفهم الانسان من مطالعة أخبار سيدى محمد السنوسى ، وولده سيدى المهدي ، ومحادثة سيدى أحمد الشريف ، ان طريقتهم طريقة عملية ، تعمل بالكتاب والسنة ، ولا تكتفى بالاذكار والادوارد ، دون القيام بوزائم الاسلام ، كما كان عليه الصدر الأول . ولذلك وقفوا للجهاد ووقفوا فى وجه دولة عظيمة كدولة ايطالية ، منذ ثلاث عشرة سنة ، لولاهم كانت سيدة طرابلس وبرقة منذ أول شهر من غاراتها عليهما . ويذكر الناس ان الطليان قدروا لتسويج طرابلس وبرقة كلهما مدة خمسة عشر يوماً ، من أول نزولهم . وان قواداً من الانكليز المنسكين فى حروب المستعمرات والبوداي ، قالوا ان الطليان افرطوا فى التفاؤل بظنهم الاستيلاء على بر طرابلس فى ١٥ يوماً ، والحقيقة انه قد تأخذ هذه المسئلة معهم ثلاثة أشهر ... فلينظر الانسان كيف ان الماسة التى قدرها أركان الحرب فى ايطالية ١٥ يوماً وقدرها أركان الحرب فى انكلترا ثلاثة أشهر ، تطاولت ثلاث عشرة سنة كاملة ، والحرب اليوم هى كما كانت فى بدايتها . وكل هذا بفضل السادة السنوسية ، ولا سيما هذا السيد

العظيم سيدى أحد الشريف . وكان الاوربيون فى عهد السلطان عبد الحميد يشكون الى السلطان حركة السنوسى ، ويتوجسون خيفة من تشكيلاته وحركاته ويرون فيه أعظم خصم للدعوة الاوربية فى افريقية ، وطالما ضغطت دول أوربا على السلطان لاجل أن يستدعى سيدى المهدي الى الاستانة ، وبأمره بالاقامة بها ، ولا يأذن له بالعودة الى وطنه ، ليخلو للاوربيين الجو فى تقسيم أواسط افريقية ، وخضد الشوكة الاسلامية فى تلك الديار . فكان السلطان يعامل هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بصنوف الاعذار ؛ بل كان يلاطف السنوسى كثيراً بالهدايا والكتابات ، الى ان اشتد الضغط على السلطان فى قضية السنوسى ؛ فارسل رجلا اسمه عصمت بك الى بنغازى ، ومنها الى جفجوب ، بمأمونية سرية ، فبلغ المهدي ما هو عليه السلطان من الارتباك من جهة ضغط الدول عليه فى أمر الدعاية السنوسية ، فأجابه السيد المهدي بحسب ما قرأت فى التاريخ الذى تقدم ذكره ، بكلام لا يتضمن نفيًا ولا إيجابًا ، وانما تلاه آيات كريمة فى معنى الاتكال على الله ولكن السيد المهدي لم يعتم بعدها ان فارق جفجوب الى واحة الكفرة ، وبنى فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة فى وسط الصحراء . والأغلب ان سبب تحوله من واحة الجفجوب ، القريبة من مصر و برقة ، الى واحة الكفرة ، التى هى فى أواسط الصحراء الكبرى ، ثم توغله من الكفرة الى ناحية قرو التى اختاره الله فيها ، وهى على أبواب السودان هما من ارتياحه الى العزلة ، وميله الى التناؤى عن مرا كز السلطة الرسمية ، والخروج من مناطق تأثير الدول الاستعمارية ، بحيث انتبذ مرا كز محاطة بالفياق والتقفار ، مأهولة باقوام لا يزالون على الفطرة ، فأصبح حرًا فى بث دعوته لا تصل اليه يد بضغط ، ولا تعلو فوق كلمته كلمة ، وعكف على تهذيب تلك الأقوام ، ونشأهم فى طاعة الله بعد ان كانوا يتسكون فى مهامه الجهل فبدلت به الأرض غير الأرض ، وانقلبت به أخلاق هاتيك الأمم انقلاباً حير العقول ، ولم يقف فى الدعاية الروحية على واحلت الصحراء ، واطراف السوادين ، بل بث دعائه فى أواسط افريقية فكان منهم مثل الشيخ محمد بن عبد الله البنى ، والشيخ حودة المقعاوى ، والسيد طاهر الدغمارى . ورجالات آخرون جاوا السوادين مبشرين وهادين ، فكان السيد المهدي هو الزاجم الاكبر لجمعيات المبشرين الاوربية ، للنبتة فى قارة افريقية كلها ، وعلى يده وبسبب دعايته الحثيثة اهتدى للاسلام ملايين من الزنوج ، فلهدا جمعيات المبشرين بأسرها

تشكو حزنها ، وبها من نجاح الاسلام في أواسط افريقية ، مثل بلاد النيجر ، والكونغو والكامرون ، وديار بحيرة تشاد ؛ وتوجه أكثر شكواها الى الطريقة السنوسية ، كما طالعنا ذلك في مؤلفات أوربية عديدة : هذا من جهة القوة الروحية وأما من جهة القوة المادية ، فقد كان السيد المهدي يهدى الهدى الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم ان أحكام القرآن محتاجة الى السلطان ، فكان يحث اخوانه ومريديه دائماً على الفراسة ، والرمية ، ويث فيهم روح الأنفة والنشاط ، ويحملهم على الطراد والجلاد ، ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أمر غراس وعظه في مواقع كثيرة ، لا سيما في الحرب الطرابلسية التي أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى وتضارع أعظمها جبروتا وكبراً ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هي التي كانت مظهر بطش السنوسيين بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيين في مملكة كام ومملكة واداي من السودان استمرت من سنة ١٣١٩ الى سنة ١٣٣٢ هجرية ، وحدثنى السيد أحمد الشريف ان عمه المهدي ، كان عنده خسون بندقية خاصة به ، وكان يتعاهدها بالمسح والتنظيف بيده ، لا يرضى أن يمسخها له أحد من اتباعه العدودين بالمئات ، قصدا وعمدا ليقنن به الناس ويحتفلوا بأمر الجهاد ، وعدته وعثاده . وكان نهار الجمعة يوما خاصا بالنمرينات الحربية ، من طراد ورمية ، وما أشبه ذلك . فكان يجلس السيد في مرقب عال ، والفرسان تنقسم صفين . ويبدأ الطراد ، فلا ينتهي الا في آخر النهار . وأحيانا يضعون هدفاً ، يأخذون بالرمية حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران . وكان يجيز الذين يسبقون في الطراد أو يقرطسون في الرمي بجوائز ذات قيمة ، ترغيباً لهم في فضائل الحرب . كما أنه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصاً عندهم للشغل بالأيدي ، فيتركون في ذلك اليوم الدروس كلها ، ويشغلون بأنواع المهن من بناء ، ونجارة ، وحدادة ، ونساجة ، ومهافة ، وغير ذلك ، لا تجد منهم ذلك اليوم اعاملا بيده والسيد المهدي نفسه يعمل بيده لا يفتر حتى ينبه فيهم روح النشاط للعمل . وكان السيد المهدي ، وأبوه من قبله ، يهتمان جد الاهتمام بالزراعة ، والفرس تستدل على ذلك من الزوايا التي شادوها ، والجنان التي نسقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بساتين ، وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة الى بلادهم من أقاصى البلدان . وقد أدخلوا

في الكفرة وجغوب زراعات وأعراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها . وكان بعض الطلبة يلمسون من السيد محمد السنوسى أن بعلمهم الكيمياء فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة المحراث » . وأحياناً يقول لهم : « الكيمياء هي كد اليمين وعرق الجبين » . وكان يشوق الطلبة والمردين الى القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جلاً تطلب خواطرم ، وتزيد رغبتهم في حرفهم ، حتى لا يزدروا بها أو يظنوا أن طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وإيس غيركم بأفضل منكم » . وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف ، ويقول لهم وهو يشغل معهم : « يظن أهل الاوريات والسيحات انهم يسبقوننا عند الله لا والله ما يسبقوننا » . يريد بأهل الاوريات العلماء وبأهل السيحات العابدين والقاتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصناع لا تظنوا أنكم دون العلماء والزهاد مقاما ، بمجرد كونكم صناعا وعملة ، وكونهم هم علماء وقراء . هذا ليزيدهم رغبةً وشوقاً ، ويعلم الناس حرمة الصناعة التي لا مدنية الا بها .

هذه الفرقة فرقة عملية لاتعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسير . فهي تجمع بين العمل الشرعى بخدايفره ، والتجرد الصوفى الى أقصى درجاته ، وتنظم بين الظاهر والباطن ، نظماً لم يوفق اليه غيرها . ويظهر أن مؤسس هذه الطريقة السيد محمد بن على بن السنوسى ، وولديه السيد المهدي ، والسيد الشريف ، وكبار أعوانهم مثل سيدى أحمد الريني ، وسيدى عمران بن بركة ، وسيدى أحمد التواتي ، وسيدى عبدالرحيم بن أحمد ، وسيدى عبدالله السنى ، وسيدى أبى القاسم العيساوى ، وغيرهم كانوا على أخلاق عظيمة ومدارك سامية ، تدل عليها أقوالهم وأفعالهم . حدثني سيدى أحمد الشريف أن عمه الأستاذ المهدي كان يقول له : « لاتحقرن أحدا ، لا مسلماً ولا نصرانياً ولا يهودياً ولا كافراً ، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك . اذ أنت لاتدرى ماذا تكون خاتمة » . وبمثل هذه الآداب كانوا يأخذون أولادهم ومريديهم ، فكان من هؤلاء أقطاب وأبطال ، يتجمل التاريخ بذكرهم . وواسطة عقدهم اليوم هو السيد أحمد الشريف الذى نحن في ترجمته . وقد ذرف السيد المشار اليه على الحسين ولكن هيئته لاتدل على وصوله الى هذه السن ، لدورة الشيب في شعره ، وهورائع المنظر ، بهى الطلعة ، عبل الجسم ، قوى

البنية ، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يجله ويحترمه (١).

بني علينا شيء لابد من الإشارة اليه وهو ان الذين يقرأون هذه السيرة من الناشئة الجديدة يرون فيها مالا يوافق مشربهم ، من القول بالولايات والكرامات ، والاعتقاد بالكشف ، وبما فوق الطبيعة ، مما يرونه حديثاً ماضياً ، لا يليق بالترية العصرية التي ينبغي أن تكون مبنية على محض الحقائق الفنية . وقلما يعظم في أعين هذه الناشئة رجل ينطوى على هذه العقائد ، مهما كان عظيماً . بل قصارى ما هناك أنهم يحترمونه لحسن نيته وخالوص اعتقاده لا غير .

وانتي أحب أن أجاب هذه الطبقة التي قد توجه مثل هذا الاعتقاد الى هذا المقام بأن العالم المتمدن لا يزال حتى هذه الساعة منقسماً الى فريقين : روجي وملدى ، وأن الفريق الروحي هو أكبر جداً وأحصى عدداً من الفريق المادى ، بل يوجد في أوروبا وأميركا واليابان عدد لا يحصى من خول علماء الطبيعة ، يعتقدون بوجود العالم الروحي ، وآخرون يعترفون بأن مشكل الروح لم ينحل بعد ولا أكنه سر الروح وانصالحا بالجد أحد . وإذا رأينا أناساً مثل فلاناريون الفلكي الشهير وفيكتور هوغو أكبر شعراء الفرنسيين ، وسواهما من صيابة العلماء ، يعتقدون باستحضار الأرواح ويشهدون بوقوع المحاورات بينهم وبين الأموات ، وعرفنا أن جمعيات لانعد ولا تحصى في أوروبا مؤلفة خاصة لأبحاث الروحية ، واثبات الحوادث التي لاتعلل الابد بوجود شيء وراء المادة ، لم يحق لنا أن نعجب من اعتقاد بعض العظماء بالخوارق والكرامات والمناسبات الروحية . وإذا علمنا أن رجلاً مثل باستور بمكانه من العلم والاكتشافات الكيماوية التي لم يسبق اليها أحد ورجلاً مثل غلادستون في الشهرة ، وبتوقد الذهن كانوا من أشد الناس تمسكا بالدين ومن الموقنين بأن السيد المسيح اله وانسان معاً ، ظهر لنا أن الاحلاد التام أو الرفض للاعتقاد بكل ما هو خارج عن المادة ، ليسا بشرط في علو درجة العقل ، ولا بدليل على التبحر في العلم . وما أوتيتم من العلم الا قليلا .

(١) لقد كتب سعادة أمير البيان هذا الفصل من عهد بعيد وحدث في أثناء طبع الكتاب للمرة الثانية أن وافتنا أخبار الهجاز بوفاة السيد أحمد السنوسى في المدينة المنورة في منتصف ذى القعدة سنة ١٣٥١ والعصر الأول من مارس سنة ١٩٣٣ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح رايضه . « الناصر »

الجزائر والأمير عبد القادر وفرنسا

المشكلة

يس هنا محل سرد تاريخ المغرب الأوسط من أوله الى آخره ، وانما نذكر بمناسبة الامير عبد القادر الحسنى الجزائرى سبب استيلاء فرنسا على الجزائر ، وأوليات ذلك ومصاربه ، تمهيداً للدور الذى قام به هذا المجاهد الكبير فى الديار المغربية فنقول :

لا يخفى انه عندما استولت فرنسا على الجزائر كان هذا الفطر من جلة أجزاء السلطنة العثمانية التى افتتحته منذ سنة ١٥١٦ وأجلت الاسبانول عن أكثر مدنه البحرية التى كانوا احتلوها وامتدوا الى ما وراءها . وكان القائم بهذا الفتح هو عروج الريس البحرى التركى ، ثم أخوه خير الدين الملقب ببروس ، أى ذى اللحية الحمراء ، الذى وصلت القوة البحرية الاسلامية فى أيامه الى أوجها الأعلى بحيث أصبحت هى سيدة البحر المتوسط بلا مرأ ، وتضاءلت أمامها جميع أساطيل النصرانية . وكان مركز خير الدين هو مدينة الجزائر ، وقد مد منها جناح سلطته باسم السلطان العثمانى على سواحلها ودواخلها ، فصارت تلسان وما يليها ، وقسطنطينة وما يقبها ، داخله تحت الحكم العثمانى . وقد توالى بعد خير الدين الولاة من قبل الدولة على تلك البلاد يتولون أمورها على شكل ادارة داخلية مستقلة أشبه بادارة ترنس ومصر . وكان هؤلاء الولاة فى شغل دائم ونصب مقيم من مكافئة الدول المسيحية فى البحر المتوسط ورد غاراتها المتواصلة على سواحل المغرب . ولما كان أساس نزول خير الدين بهانيك الديار هو القوة البحرية فقد بقيت تلك الاياة مركز قوة بحرية عظيمة مدة ثلاثة قرون ، استفحل فيها شأنها طيلة القرن السابع عشر وأدرك أمرها الهزال والضعف فى القرن الذى بعده . وكانت الدولة العثمانية تنوكت دائماً فى حروبها على أسطول الجزائر ، وتجعله ردهاً للأسطول العثمانى فى كل موقف خطير ، الى أن انقلب أسطول الجزائر من الجهاد الى اللعاص ، ومن الدفاع الشريف عن حوزة الاسلام الى الاعتداء على الناس والسبى والنهب والاسترقاق ، مما لم يزل يتأدى ولا تنجع فيه الوسائل حتى ضاق بذلك ذرع ودل النصرانية ، وآل الأمر الى تولى احداهن (فرنسا) كبر اسقاط تلك القوة واستئصالها

من شأقتها ، والاستيلاء على العرش الذى درجت منه . فقد صارت لصوصية البحر ، أو القرصنة ، فى أواخر القرن السادس عشر مورد رزق وواسطة كسب لحكومة الجزائر ولأهلها وأصبح هؤلاء يؤلفون الشركات وبينون السفن ويجهزونها بالعدد اللازمة ، وبينونها فى البحر تغزو وتعيث ، فتأخذ السفن غصباً وتنهب البضائع التى فيها ، وتسطو على ركابها فتسوقهم أسارى من رجال ونساء وأطفال وتبيع بعد ذلك الأموال والأرواح فى أسواق الجزائر ، فتأخذ الحكومة من ذلك نصيباً معلوماً ويتقسم الباقي على أصحاب السفن والبحرية . وإذا كان الأسير من أسرة ذات ثروة أو وجاعة فنعم الغنيمة إذ كان أقارب الأسرى وحكوماتهم المتبوعة وبعض رهبانيات النصارى يفكرون الأسرى بمبالغ طائلة . واستمرت هذه الحال دهوراً حتى عيل صبر الدول الأوروبية لا سيما فرنسا وانكلترا وضربتا الجزائر بالمدافع سنة ١٦٥٩ وسنة ١٦٦٤ وتكرر ذلك سنة ١٦٨٢ و١٦٨٣ ثم سنة ١٦٨٦ لى أن تمكنت دولنا انكلترا وفرنسا من صيانة سفانها من اعتداء قرصان الجزائر وصارت تجول فى البحار بدون معارض . أما الدول التى من الدرجة الثانية مثل السويد وهولندا والدانمرك وناپولى الخ فكانت مضطرة أن تدفع لحكومة الجزائر جزية سنوية تشتري بها حرية سير سفانها . وكانت دولة أوستريا والمجر مغفأة بوصاة خاصة من الباب العالى . ومازال الأمر كذلك حتى أيام نابوليون ، فاتهز قرصان الجزائر فرصة الحروب التى اشتعلت يومئذ فى كل أوربا وضاعفوا عيشهم فى البحر المتوسط ، فارتفع العويل من كل جهة ، ولما تقرر الصلح قررت الدول فى (اكس لاشابل) منع الجزائريين بتاتاً من التعرض لأى سفينة ، فلم يسمعوا لأحد كلاماً فأطلق الانكليز مدافعهم على الجزائر انتقاماً .

وفى سنة ١٨٢٧ حصلت منافرة بين حسين داي والى الجزائر ودقال فحصل فرنسا فده يدى الداي الى القنصل وضر به بالمروحة ، فحصرت فرنسا سواحل الجزائر واغتممتها فرصة لفتح تلك البلاد ، فاحتلت الجزائر فى ٥ ايلول سنة ١٨٣٠ وكان ذلك لعهد الملك كارلوس العاشر ، وكان مراد الفرنسيين فى الأول الاحتفاظ ببعض المدن البحرية وتقرير نظام لادارة البلاد الداخية بالاتفاق مع الدول ، ثم انقلبت الأفكار وتألفت لجنة اسمها « اللجنة الافريقية » لهذا صكرة فيما اذا كان الاول ترك الجزائر تحت شروط معلومة ، تفادياً من الكلف الباهظة التى يقتضيها فتح القطر الجزائرى أو الاستمرار على سياسة الفتح والاحتلال

الى النهاية . مسألة شبيهة جداً بمسئلة سورية اليوم بين الحزب الذى یرى تركها لأهلها خوف التورط فى حروب مستقبله اما مع العرب أو مع الترك أو مع غيرهم ؛ والحزب الذى یرى التمسك بسورية والسيطرة عليها لأجل نفوذ كلمه فرنسا فى المشرق مهما كلف ذلك من المشاق . وفى سنة ١٨٣٤ رجح رأى الاستيلاء ، وتعين حاكم عام للجزائر ، ولكن بقى الفرنسيس مترددين فى قضية الزحف الى الداخل ، وجعلوا يدخلون المدن تدريجاً ، فاستولوا على وهران ومستغانم وعنابة وبجاية . وسنة ١٨٣٦ قصدوا قسطنطينة ، وكان فيها أحمد بك فهزمهم . فأعدوا حملة ثانية فى السنة التالية ففتحوها وامتدوا من هناك الى الصحراء . وفى سنة ١٨٤٤ كانوا فى بيسكرة

أما فى الجهة الغربية فان المقاومة كانت أطول أمداً ، وأصعب مراساً ؛ وذلك أن الأهالى اختاروا لهم أميراً قاتلوا تحت لوائه وهذا الأمير كان رجلاً من أعظم الرجال وهو عبد القادر بن محيى الدين الحسى . أصل سلفهم من المغرب الأقصى ومن آل البيت فيما يقال . هاجروا من هناك الى نواحي وهران ، واشتهر منهم رجال بالورع واقتدت بهم الناس ولا سيما السيد مصطفى بن محمد المختار ، والسيد محيى الدين والد المترجم . وكانت ولادة المترجم سنة ١٢٢٣ الموافقة لسنة ١٨٠٨ ونشأ فى مهد العلم والتقوى ، واعتنى بالتحصيل جد الاعتناء ؛ حتى تفوق بالأدب والفقه والتوحيد والحكمة العقلية ؛ وكان مع ذلك لا يهمل المشافقة بالسلاح وركوب الخيل بحيث نبغ من جهة عالماً فاضلاً ، ومن جهة ثانية ثقفاً فارساً فجمع بين السيف والقلم . وفى سنة ١٨٢٧ وقعت مشاحنة بين والده السيد محيى الدين وبين حسن بك حاكم وهران التركى ، فاتهى الأمر بجلاء السيد محيى الدين عن وطنه ، فأزمع الرحلة الى المشرق وحج البيت الحرام وكان معه ولده عبد القادر . وبعد سنتين من غيابهما عادا الى وطنهما ، فكانت بعد ذلك الحرب بين أتراك الجزائر والفرنسيس فيقتال ان عبد القادر منع والده من الانضمام الى حسن بك حاكم وهران فلم الحاكم البلدة الى الفرنسيس ، ودارت رحى القتال بين الحامية الفرنسوية وبين الأهالى ؛ فتولى قيادة هؤلاء السيد محيى الدين ، وظهر فى أثناء هذه الحرب من بسالة عبد القادر وإقدامه ورباطة جأشه وإصالة رأيه ، ما جمع له محاب القلوب وعقد به آمال الناس . ولما أراد أهالى تلك البلاد مبايعة السيد محيى الدين أميراً عليهم ؛ اعتذر بعلاوسه ، وأشار عليهم بولده عبد القادر فى

٢١ تشرين الثاني سنة ١٨٣٢ فبوع بالامارة ، وقيل بالسلطنة أولاً ، فتحاشى لقبها مراعاة لسلطان فارس ، واكتفى بالامارة . ونص هذه المبايعة منشور في كتاب « عقد الاجياد في الصافات الجياد » تأليف أكبر أولاده الأمير محمد باشا .

جعل عبد القادر عاصمته مدينة المعسكر ، ورتب جنوده وباشر القتال ، ولم يكن قتاله قاصراً على جهاد الفرنسيين فحسب ، بل اضطر ان يقاتل حساده ورفقاءه من أهل البلاد أنفسهم ، فقام بجميع ذلك أحسن قيام ، حتى دانت له كل عمالة وهران تقريباً ، وفي ٢٦ شباط سنة ١٨٣٤ انعقدت بينه وبين الفرنسيين المعاهدة المعروفة « بمعاهدة ديمبيل » التي بها تعترف فرنسا لعبد القادر بجميع العمالة الوهرانية خلا مدينة وهران وآرزواو ومستغانم وكان له الحق بموجب هذه المعاهدة ان يعين معتمدين (قناصل) في وهران والجزائر ومستغانم وغيرها ، وان يستورد الاسلحة من أى جهة أراد . فعظم شأن عبد القادر وتأثر سلطانه . وصار الامر الشرعى لجميع أهالى الجهات الغربية من المغرب الاوسط . ثم مدرواق ملكه على البلاد التي لم تكن داخلة في ضمن حدوده ، مثل ميدية ومليانة ، ورتب فيها المسالخ بالرغم من احتجاج حاكم الجزائر العام ، ولما كان الحسد والمنافسة هما أقتل أمراض المسلمين . بحيث لا تثقل عليهم سلطة الغريب كما تثقل سلطة أخيهم ، نار على الأمير قبيلتنا الدوائر والزمامة وانضمنا الى فرنسا فطلب تسليم رؤسائهم اليه فأبى الجزائر « تريزل » ذلك فبرز عبد القادر الى القتال واتصر على الفرنسيين في يوم المقطع (٢٦ تموز ١٨٣٥) فجردت فرنسا جيشاً كثيفاً استولى على عاصمته المعسكر تحت قيادة المارشال « كلوزل » وكانت بقية من الاتراك لا تزال في قلعة تلمسان فناوشوه من الورا . فانهمز هزيمة ثانية في حرب مع الجزائرال الفرنسيين « بوجو » ولكنه بقي ثابت العزم متوفر القوة . وتمكن بدعائه السياسى ان اصطالح مع الفرنسيين على شروط تضمن له أحسن مما ضمنته معاهدة (ديمبيل) وذلك في معاهدة « التفنة » (٣٠ ايار ١٨٣٧) التي اعترفت فرنسا له فيها بجميع عمالة وهران وقسم كبير من عمالة الجزائر . فلما انتهى الخصام بينه وبين فرنسا شرع يقوى سلطته على البلاد التي ادخلت حديثاً تحت حكمه . ورتب مسالخ في لاغوات وميجانة وزيبان وخضع له أهل هاتيك الامراف ماعدا المرابط محمد التيجاني الذي أبى الاعتراف بامارته . فزحف عبد القادر بنفسه الى (قصر عين ماضى) وحصره وبعد

حصار خمسة أشهر افتتحة مع أنه حصن منيع لم يتمكن الأتراك طول مدة حكمهم في الجزائر أن يدخلوه ثم رتب عبد القادر جيشاً منظماً على نمط جيوش الدول ، وقسمه الى مشاة وفرسان ومدفعية ، واستجاد لتعليمه وتدريبه ضباطاً من الجيش التونسي ومن الجند التركي الذي بطرابلس ومن الفارين من الجيش الفرنسي . وسن لهذا الجيش نظاماً يتعلق بمأكله وملبسه ورواتبه ومدة التعليم وشروط الترقى فيه ونيل الأوسمة وغير ذلك . وجعل دهاليز لادخار الحبوب وانا بير للاقوات ومعامل للسلاح ، ورسم القلاع ، ولم يغفل عن شيء مما يلزم تناسيس الحكومات الشرعية

ولما كانت معاهدات الدول الاستعمارية مع أهالي الاقطار التي تضع نصب اعينها الاستيلاء عليها هي في الغالب محاط استراحة بين الحملة والحملة . ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير بحيث لدى توفر القوة لا تعمد عنديراً في نقض تلك المعاهدات التي لم تبرمها منذ البداية الا على نية النقض ، وكانت في الواقع مصدقة لنوله تعالى في هؤلاء « وما وجدنا لاكثرهم من عهد » شرعت فرنسا بالتعلل من جهة تفسير بعض فقرات معاهدة التفنة ، وازادت التفصي منها ، حال كون الامير يتقاضى العمل بها فنشبت الحرب بين الفريقين . لأن فرنسا كانت اعدت عدتها والامير ابت نفسه النزول عما خولنه اياه المعاهدة ، فزحف المارشال « فالى » و « الدوق دومال » من جهة ، واغارت عساكر الامير على متيجة من جهة اخرى . ونادى الامير بالجهاد وذلك في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ فاستمرت الحرب من ذلك التاريخ الى سنة ١٨٤٣ بدون انقطاع . وقام فيها الامير عبد القادر مقامه المحمود الذي طبق ذكره الآفاق . وان كان عدم تكافؤ القوتين المتقابلتين آل أخيراً الى سقوط اكثر حصونه ، واستيلاء العدو على اكثر مدنه ، مثل تاغدمت والمسكر ونازة ووادي الشيف . فانكفاً الى الغرب ، فزحف العدو الى تلمسان ونواحي ندرومة واخذتها فتحول الأمير الى الجنوب وهناك ايضاً كبس (الدوق دومال) محلته (ما يسميه الأتراك بالقراركاه) وغنم أكثرها ففت هذا الحادث في عضده وخفله أكثر أنصاره فقرأ الى المغرب وسعى في حل سلطان المغرب على اصلاء الفرنسيين الحرب فكانت بين جيش المغرب والجيش الفرنسي

الفرنسارى « واقعة ايسلى » (١٢ أغسطس ١٨٤٤)

ولما كان المغاربة لا يملكون من آلات القتال ما يملكه الفرنسيين اتصر الجندال « بوجو » على الجيش المغربي ، وكانت بوارج فرنسا ضربت بالمدافع ثغرى طنجة ومغادور ، فضيقت فرنسا على سلطنة المغرب من البر والبحر . وأجبرت السلطان مولاي عبد الرحمن صاحب الغرب على عقد الصلح (١٠ ايلول ١٨٤٤) بالشروط التي تريدها . وأولها منع عبد القادر من تجاوز حدود الجزائر . فلبث هذا نحو سنتين متربصاً منتظراً غرة من العدو ليهتبلها . فلما لاح له في ثورة سنة ١٨٤٦ انقض على بلاد الجزائر ثانية وأوجف في الغارة حتى بلغ بلاد البربر المسماة عند الفرنسيين (كاييلي) ، وأعاد الأمر كما بدأ . إلا أن قوة عبد القادر كانت هذه النوبة قد تناقصت ، وقدم الفرنسيين في الجزائر قد رسخت . فلم تستمر غلرته وأحاطت به الجيوش من كل جهة . فأسرع الاوبة الى الحدود المراكشية فعادت فرنسا تتقاضى مولاي عبد الرحمن تسليمه . وما زالت تلح في ذلك حتى ساق عليه السلطان قوة عظيمة . فلما رأى نفسه بين نارين وان اخوانه المسلمين قد صاروا عليه البأ مع الفرنسيين ، اشتد به الغضب وسلم نفسه الى الفرنسيين على يد « الجنرال لاموريسيار » (٢٣ كانون الأول ١٨٤٧) . ووقع الاتفاق على أن يخرج بعائلته من الجزائر ذاهباً الى الاسكندرية أو عكا

وعلى رواية أخرى وهي التي مال اليها صاحب « تاريخ الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى » لما يش الأمير عبد القادر من الفوز على الفرنسيين بقوته الخاصة ، حدثته نفسه بقلب سلطنة المغرب ، والجلوس على عرش فاس ، فأوجس السلطان عبد الرحمن خيفة من دسائسه ، وأرسل تلك القوة لمطاردته وخضد شوكرته ، قبل أن يستعصى أمره . ولذلك صاحب الاستقصا بعد أن أثنى أولاً على جهاده وعلو همته ، عاد فرماه أخيراً بسوء النية والفساد في الأرض . وهو في كتنا الحائنين لم يلقبه بالأمير بل « بالهاج عبد القادر بن محي الدين »

فأخذ الأمير الى طولون حيث كان المراد نسفيره الى الشرق بحسب العهد الذي انعقد . الا انه في تلك الايام حصلت في فرنسا ثورة سنة ١٨٤٨ وسقط الملك لويس فيليب فاعتلت الحكومة الموقفة في اطلاق سراحه وأبقته في بلادها أسيراً الى سنة ١٨٥٢ اذ بشره لويس نابليون بنفسه انه تقرر اخلاء سبيله . فذهب الى الاستانة ثم أقام بربصا . وسنة ١٨٥٥

استاذن في الذهاب الى الشام بمعرفة الحكومة الفرنسية فأذنت الدولة العلية له بذلك . ولما حصلت في دمشق الحادثة المؤلة المسماة بحادثة سنة الستين . التي كان منشأها من رعاغ القوم ؛ اهتم الأمير عبد القادر بوقاية المسيحيين وأنقذ منهم عدداً وافراً . وان لم يكن هو المنفرد بذلك بل شاركه في هذه المبرة كثير من أعيان دمشق مثل محمود أفندي حزة ، وبنى العابد ، وبنى المهائني وغيرهم ، فاستحق بهذا الفعل الجليل ناء الجيغ وجاءته الأوسمة مع عبرات الشكر من فرنسا وأكثر الدول الأوروبية . وقضى بقية حياته في منافسة العلماء واسداء الخيرات ، وكان كل يوم يقوم الفجر ويصلى الصبح في مسجد قريب من داره في محلة العمارة . لا يتخلف عن ذلك الا لمرض . وكان يتهجده الليل ويمارس في رمضان الرياضة على طريقة الصوفية وما زال مثالا للبر والتقوى والاخلاق الفاضلة الى أن توفي رحمه الله سنة ١٨٨٣ فدفن بمقام الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي في الصالحية . وترك من الولد الأمراء محمد باشا ، ومحيي الدين باشا ، والهاشمي ، وابراهيم ، وأحمد ، وعبد الله ، وعلى وعبد الرزاق ، وعبد المالك ، فالأمير محمد باشا وشقيقه محي الدين انتقلا الى الاستانة وجعلتها الدولة في مجلس الأعيان الى ان توفيا وكان الثاني منهما شاعراً أديباً ، عالي الهمة ، وذهب سنة ١٨٧٠ بدون علم أبيه الى الجزائر ليرأس الثورة القبانية التي اشتعلت يومئذ فلما بلغ الخبر أباه أعلن سخطه عليه لأن الامير بعد أن أعطى عهده لفرنسا حافظ على قوله الى المات واما الهاشمي فن ولد له الامير خالد الذي هو على رأس الحركة الوطنية الحاضرة في الجزائر وأما الامير عبد الله فهو في قيد الحياة بدمشق ، وأما الامير على فقد كان مبعوثاً عن الشام منذ سنة ١٩١٤ في مجلس الأمة بالاستانة ، وكان محرر هذه السطور قد انتخب عن حوران أيضاً وسفرنا يومئذ الى دار السعادة معاً ، فلما افتتح المجلس وصارت المذاكرة في انتخاب الرئيس ونواب الرئيس وكانت العادة أن يكون الرئيس الاول تركيا والرئيس الثاني من أبناء العرب ، واستشارني طلعت بك حينئذ ، وكنت العضو العربي الوحيد في القلم العمومي لمجلس الامة ، وطلعت هو الرئيس ، فانفقنا على دعوة المبعوثين لانتخاب الامير على رئيساً ثانياً ، وهكذا كان ، ولما شبت الحرب العامة أرسلته الدولة الى ألمانيا حيث قابل الامبراطور غيليوم وأمضى مناشير ألقّت بها الطيارات الالمانية على العساكر المغربية ، تخمهم على ترك العسكر الفرنسي . والاتحاق بالامان حلفاء الدولة العلية ، فأخذ الفرنسيس حذرهم من

مفعول هذه المناشير ، وصاروا يؤخرون المغاربة الى الوراء بعد ان كانوا يضعونهم دائماً في الأمام وقوداً للنار . و بعد أن قضى الأمير على مدة في ألمانيا عاد الى الاستانة ومنها الى سورية اذ وجد أخاه الأمير عمر محبوساً مع من حبسهم جلال باشا قائد الجيوش في سورية اثناء الحرب لأوراق وجدت عليه في قنصلية فرنسا ، فنتشع الى جلال في أخيه فلم يقبل شفاعته ، ونفاه هو أيضاً مع أولاده وسائر أسرة الأمير عبد القادر الى برصا ، ولم ير حرمة جهاد والده ولا خدمة الأمير على في ألمانيا ولا قبل ذلك في حرب طرابلس الغرب ، فاشتد عليه الغم ولم يلبث ان مرض ونقل الى الاستانة وتوفي بها رحمه الله . وأما الأمير عمر فكان من جملة الاعيان المشوقين . وطالما راجعنا في أمرهم وطلبنا عنهم العفو أو تحويل جزاء القتل الى النفي فلا أمر يريد به الله أني جلال باشا الا ازهاق الانفس ، فكانت من الاغلاط الكبرى التي ذافت الدولة العلية مرارة مغبتها وسهلت طريق الاجانب . وما أذكره ان جلال باشا سأني عما اذا كنت انكر مما لاؤه الأمير عمر لفرنسا مع انه هو لم يقدر على الانكار . فأجبت له من ينكر ذلك ولكن أرى وجوب الصفع عنه حرمة للمرحوم والده الذي لا يخفى ماله من المكانة في العالم الاسلامي فقال لي جلال بالتركية (بكانه) أي وماذا يجيئني من ذلك . وأما الأمير عبد الرزاق فذهب شاباً وكان نادراً في الذكاء وجمال الصورة والسيرة . وآخر أولاد الأمير عبد القادر هو الأمير عبد المالك قضى بضعة عشرة سنة مجاهداً في المغرب بين القبائل الثائرة على فرنسا وعلى اسبانية . ولم يزل في تلك الديار يتحرك تارة ويسكن أخرى الى كتابة هذه السطور

وكان المرحوم الأمير عبد القادر متضلعا من العلم والادب ، ساهى الفكر ، راسخ القدم في التصوف ، لا يكتفي به نظراً حتى يمارسه عملاً ، ولا يحن اليه شوقاً حتى يعرفه ذوقاً . وله في التصوف كتاب سماه (المواقف) فهو في هذا المشرب من الافراد الافذاذ وربما لا يوجد نظيره في المتأخرين وله كتاب آخر تمتع اسمه (ذكرى العاقل وتنبية الجاهل) في الحكمة والشريعة . وقد ذكر مؤرخو الافرنجة أن مملكته العلمية والدينية كاتنا من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التي أسسها وانه كان ينال باللسان ما قد يعجز عنه باللسان . ولم ينكروا عليه حفاظه للعهود لكنهم زعموا انه كان لا يتوقف ان يخفها فيما لورأى في ذلك مصلحة المنسجمة في مصلحة الاسلام . قال في دائرة المعارف الاسلامية

الفرنسوية : « كان عادلا لكن على الطريقة الشرقية ، برأ رؤوفا ، لكن يجوز أن ينقلب سفا كاللدماء جاسياً اذا رأى ضرورة ايقاع الرعب في قلوب الاعداء »

قلنا يظهر ان الافرنج يريدون أن يحفظوا مزية خفور العهد لدى تبين المصلحة لأنفسهم دون سواهم ، وكذلك سفك الدماء لأجل لقاء الرعب عند الضرورة . وحبذا لو حصروها في دائرة الضرورة ، بل اعمالهم في غاراتهم الاستعمارية ثم في الحرب العامة الاوربية قد فضحت أمورهم وأثبتت أنهم يسفكون الدماء في ضرورة وفي غير ضرورة . وليس مثلهم بمن يحق له أن ينتقد في هذا الباب رجلا شهد له جميع أعماله بالوفاء كالامير عبد القادر . ولنختم هذه الترجمة بشئ من شعر الامير الذي يدل على علو نفسه :

تسألني أم البنين وانها لأعلم من تحت السماء بأحوالى
الافاسألى جنس الفرنسيس تعلمى بأن منابهم بسيفي وعسالى
ومن عادة السادات بالجيش تحتى وبى يحتى جيشى وتمنع أبطالى

الجزائر و قبائل البربر

شكيب

بعد أخذ الأمير عبد القادر أسيراً وانعقاد معاهدة الصلح بين فرنسا والمغرب (١٨٤٥) تحددت الحدود بين الجزائر ومراكش ، وعلت كلمة فرنسا في القطر الجزائري ، فأخذت العساكر الفرنسية تتقدم الى جهات الصحراء وتبنى فيها المخافر وتؤسس المساح وتطيداً لقدمها في البلاد ، فنثار نائر يقال له أبو زيان في واحات زيبان من الصحراء ، فكان نصب ثورته الفشل فنثار زعيم آخر اسمه الشريف محمد بن عبد الله فسيقت عليه العساكر الفرنسية فافتتحت مدينه لغوات وزحفت الى ورغله (١٨٥٤) وفر الشريف شريداً .

وكانت البلاد المسماة (كابيلى) أى القبائلية ، اشارة الى قبائل البربر التي تسكنها ، لا تزال مستعصية على الفرنسيين شائعة بانفها ، لا تعطى المقادة ، فوالى هؤلاء عليها للزحوف بقيادة « الجنرال بوجو » و « الجنرال سانت آرنو » و « الجنرال راندون » فما زالوا يفادونها القتال ويراوحونها من سنة ١٨٤٤ الى سنة ١٨٥٧ والدناء جارية من الفريقيين حتى خضعت تلك القبائل في وادى الساحل ووادى سيباو ، وانهمز أبو بغلة الذي اشتهر في تلك الحرب وبقيت قبائل الجرجورة مدة حافظة استقلالها ، الى أن أذعننت هي أيضا ولكن على شرط حفظ تشكيلاتها الادارية وعاداتها وعرفها ، فولت فرنسا على بلاد القبائل رؤساء مسلمين يراقب عليهم ضباط فرنسيس بجانبهم ، وجعلت أقلاماً عربية في تلك الادارات ، وسمحت للقبائل بالمحافظة على عاداتهم وأوضاعهم مما هو سنة الدول الاستعمارية في الأقوام التي تلبو منها شدة البأس وصعوبة المراس ، الى أن تكون تمكنت منها بطول عهد الحكم وازالة ما بقي من أسباب المقاومة ، فتعدل حينئذ الى اجراء الأحكام الاستعمارية على وجهها الأكل ، ولكن الثورات في الجزائر لم تكن انتهت لذلك العهد بل كان على فرنسا أن تتمد ثورات أخرى ، كلما انطلقت نار احداها اشتعلت أخرى . ففي عام ١٨٥٩ كانت ثورة بنى سنان على حدود المغرب الأقصى ، فكلفت فرنسا حملة عسكرية .

وفي جنوبي وهران كانت ثورة أولاد سيدي الشيخ التي استمرت ثلاث سنوات متتابعة . واضطر بها الجنرال « فيمفن » الى تعقب الثوار الى وادي الجير من عمل المغرب ، ولم تسكن هذه الفتنة الا سنة ١٨٦٧ . ولكن لما انكسرت فرنسا في الحرب مع المانيا سنة ١٨٧١ كانت الثورة الكبرى اذ لاحت الفرصة للجزائريين ورأوا الصيد سانحاً ، فخار المقراني قائد ميجانه ، وضافره على الحركة مرابط يقال له الشيخ الحداد مع ولده سي عزيز ومعهم أتباع الطريقة الرحانية ، فاشتعلت الفتنة في جميع القبائل ، وامتدت الى بعض أعمال قسنطينة واتصلت ببعض عمل الجزائر ، ولكن العالة الوهرانية في تلك الآونة بقيت ساكنة لم تشارك سائر اخواتها ، أما الثائرون فأحاطوا بجميع الحصون الفرنسية التي في بلاد القبائل وخرّبوا قرية « بالسترو » وكادوا يستولون على متيجة ، جردت فرنسا جيوشاً جرارة عقدت عليها للاميرال « غويدون » لشهرته بالصرامة والمضاء ، فدارت رحى القتال ونشبت هناك ٣٤٠ واقعة انتهت أخيراً بسبب التفوق الفرنسي في فن الحرب ووفرة اعتادها بجمود نار الثورة ، وسقط المقراني قتيلاً في وادي سفلات ، خلفه في الزعامة أخوه أبو مزراق ، فزال هذا يكفح حتى وقع أسيراً بمحل يقال له الرويات في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٧٢ وكان ذلك ختام الثورة فاقصت فرنسا من القبائل أولاً بأن الفت لهم استقلالهم الاداري ، ثانياً بأن اغتصبت من أراضيهم ٤٥٣ الف هكتار (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) سلمتها الى المستعمرين الفرنسيين الذين يقال لهم « الكولون » ، ثالثاً بان ضربت عليهم غرامة حربية فادحة تجعلهم دائماً رازحين تحت أوقار الديون ، ومن بعد هذه الثورة لم يحصل من مقاومات الجزائريين ما يستحق الذكر الا ثورة أبي عمامة سنة ١٨٨١ ، ومن ثمة ساد السكون في ذلك القطر وانقطع الأمل من القيام بالسيف ، لاسيما بعد أن لحق القطر التونسي ثم القطر المراكشي بالقطر الجزائري وصارت كلها مستعمرة واحدة يلقيها الفرنسيين بأفريقية الفرنسية . الا أن الحرب العامة انشأت روحاً جديدة في بر الجزائر لم تسكن موجودة من قبل ، وهي ان الجزائريين قدموا لفرنسا جزراً لسيوف وقوداً للكرات النارية أكثر من ٢٠٠ الف مقاتل في الحرب العامة قتل منهم نحو ٦٢ الفا كانوا فداء لفرنسا بأرواحهم ، وكان الفرنسيين يوم نشوب الحرب العامة واحتياجهم الى عضد المستعمرات قد بالغوا في التملق للاهالي ، وتبنلوا جلود النمر بأصواف النعاج ، وطافوا

على الجزائريين يقولون انما هو وطن واحد ندافع عنه جميعا حتى اذا فزنا بما نرجوه فسمنا حقوقه بالمساواة بدون تمييز لفرنساوى عن جزائرى ؛ ولا لمسيحي عن مسلم ، وان ادارة الجزائر بعد الحرب ستكون شكلا آخر لا يشبه شيئا مما كان الى ذلك الحين ، وان المسلمين سيتمتعون بجميع الحقوق التى تتمتع بها الامم المستقلة ، الى غير ذلك من المواعيد التى كانت فرنسا وسائر دول الحلفاء توزعها جزافا على الأمم المهتزمة ، ترغيباً لها فى القتال الى جانب الحلفاء ، مما يعرفه عرب آسية اكثر من سواهم ، كيف لا وهم الذين وعدهم الحلفاء بأنهم اذا انمازوا الى صفهم فى الحرب العامة أعادوا لهم السلطنة العربية بعدايفرها ، والخلاصة مواعيد بدون حساب يبذلها أناس كانت تجول فى محاجرهم دموع التاسيح ؟ وهم يقولون هلماوا ايها الاقوام الى القتال فى جانب الحلفاء لنصرة الحق على الباطل ، وانفروا خفافاً وثقالا لمكافئة هذه الامة الالمانية الفاشمة التى تريد استعباد الامم ، حال كون مقصد الحلفاء من هذه الحرب هو رفع سلطة القوى عن الضعيف ، وابتاء كل امة قسطها من حق الاستقلال . فزالت هذه المواعيد تبذل ، وتلك الالفاظ تتكرر وتصل ، حتى استوسق للحلفاء النصر وانتهت الحرب ، وقضى الأمر فقلب الحلفاء لتلك الامم ظهر المجن ، وتناسوا جميع تلك الوعود ، ونكثوا بعامة هانيك العهود ، وادرك اولئك الاقوام الذين بذلوا ارواحهم فى سبيل نصرتهم أن هذه النصره انما كانت عليهم لا لهم ، وانهم انما اعانوا على انفسهم ، وشاركوا فى تخريب بيوتهم بايديهم . ومن جلة هذه الامم اهل الجزائر ، فثارت خواطرمهم وغلت قلوبهم وتنجزوا فرنسا ما سبق من وعودها ، وذكروها بالانين والسنين الف قتيل الذين ذهبوا منهم فى سبيلها ، فبعد اللتيا والتى اعطتهم فرنسا حق الانتخاب بمعنى أن تقبل اصواتهم فى الانتخابات البلدية ، وكذلك حق الترقى فى الدرجات العسكرية . بعد أن كانت لهم دائرة معينة لا يتجاوزونها مهما بلغ من نصح خدمتهم . وكذلك تساوا مع المستعمرين فى الامول الاميرية ، بعد أن كان هؤلاء يدفعون مالا والجزائريون يدفعون أمثاله عن الارض الواحدة . وكل هذه الحقوق الجديدة ليست شيئا مما كان الفرنسيين يمنونهم اياه اثناء الحرب ، وما هى الافك بعض حلقات من تلك السلسلة الطويلة التى هم راسفون بها منذ نحو قرن . فلذلك قاموا يناصبون الفرنسيين الحرب المنوية التى بدأت تتجلى فى الانتخابات والاجتماعات ، واخذت تمتد بينهم الحركة الفكرية النازعة الى

الاستقلال ، واتتهز حزب الشيوعيين في فرنسا فرصة القنوط والغضب اللذين استوليا عليهم ، فبثوا فيهم الدعوة الاشتراكية الشيوعية . فتلقاها كثير من عملتهم وصعاليكهم وربما من التمويل منهم ؟ لا رغبة فيها بذاتها بل فيما يصاحبها من تخفيف السلطة الحاكمة والوطأة الاستعمارية .

ولقد كان الفرنسيين يظنون ان الواسطة الوحيدة لنزع فكرة الاستقلال من رؤوس الوطنيين ، وامانة روح المقاومة ، هي ملاشاة التعليم الاسلامي ، وطمس معالم الشريعة التي يظنونها هي وحدها موقداً للحماية الاهلية ، ومنزعا للتماس من الحكم الاجنبي ، فلهذا كانت سياستهم في الجزائر من الاول الى الآخر سياسة تساهل ديني في الظاهر ، مع التحامل في الباطن ، فانهم متعوا ليس الفرنسيون فقط ، بل الايطالي والاسبانيون ، بل اليهودي والمالطي ، بحقوق لم يسمحوا بها للجزائري المسلم . وجعلوا المسلمين هم الطبقة الدنيا في السياسة والادارة والاجتماع وكل شيء . وقصروا امتناعهم بالحقوق - التي يتمتع بها كل الخلق من سواهم - على تجنسهم بالجنسية الفرنسية ، وقبولهم القانون الفرنسي الذي يصادم الشريعة في كثير من الاحوال الشخصية ، بحيث لا يقدر المسلم ان يقبل العمل به الا بعد ان ينزل عن اسلامه . وجعلوا كثيراً من التمتع بالنعم والأعطية والمكافآت موقوفاً على التنصر . ولم يرق الجنرال يوسف رتبة جنرال الاعلى هذا الشرط . ومنذ سنتين طلب أحد النواب الأحرار في البرلمان في باريس الغاء القانون الذي تمنح بموجبه في الجزائر الهبات العقارية للاوربي واليهودي والجزائري الذي يرضى أن يتنصر . وهو قانون سنه الحكومة الفرنسية منذ نحو ثلاثين سنة لا غير أي على عهد الجمهورية التي تزعم ان الاديان عندها سواء ، وقد أجب ممثل الحكومة يومئذٍ موافقاً على استهجان هذا القانون ، ومعلنا نية الحكومة الغاءه ، لاسيما بعد التفادي الذي تفاداه المسلمون في هذه الحرب ، ولكن است على ثقة من كونهم قرنوا القول بالفعل اذ طالما قالوا ولم يفعلوا ، ولم يجتزئ الفرنسيين بهذه الوسائل الرسمية لتزهد المسلمين في الاستمساك بعروة شريعتهم ، بل فسحوا المجال للبعثات الدينية ، وعضدوا « الكردينال لا فيجري » في بث مرسلية اللقبيين بالمرسلين البيض ، والتفتوا كثيراً من أطفال الفقراء من المسلمين وأيتامهم ، ونشأوهم في المدارس الدينية ، وقد جعلتني الاقدار في احدى مدن إيطاليا بقائد الف في

الجيش الايطالى كان يرغب الى أن أرسله الى احدى الحكومات الاسلامية لاجل الخدمة فيها فسالته عن سبب هذا الخنث ، فاجابني انه مسلم مغربي ، وكانت سحنأؤه تدل على ذلك ، فقلت له وكيف صار ضابطا في الجيش الايطالى ، فقال لى انه تربى في احدى تلك المدارس على أن يمجّد الاسلام ، ويتجنس باحدى الجنسيات الثلاث الكاثوليكية : الفرنسية ، والايطالية ، والأسبانية . فهو يومئذ اختار الايطالية ولكنه اليوم يبغى الرجوع الى أصله وبالجملة فإنه وان كانت الحكومة الفرنسية غير دينية في بلادها الأصلية ، فهى في الخارج سائرة على قول غمبنا : « عداوة الدين ليست من بضائع التصدير » . وهذا مرجعه الى سببين أحدهما أنها تعتقد أن الدعوة الدينية قد تكون عضداً للحركة الاستعمارية ، ومن هذا الباب كان جذب فرنسا بضع الجزويت في سورية ، مع أن الجمهورية تناصب هؤلاء العداوة في فرنسا ، والسانى أن أكثر النفوذ في المستعمرات انما هو للقوة العسكرية ، وأكثر أمراء الجيش تجدهم من الحزب الكاثوايكي . وما لا ينبغي أن نساها أن الفرنسيين قلبوا كثيراً من مساجد الاسلام في الجزائر كنائس . لجامع القشاة في نفس مدينة الجزائر هدموه وبنوا محله كنيسة ، والمسجد المسمى بمسجد « ميزو مورتو » حولوه كنيسة ، وكثير من الجوامع حولوها ثكنة عسكرية وانباراً ، وكان في مدينة الجزائر يوم فتحوها ١٧٦ من مسجداً وزاوية فلم يبق منها الا ٤٨ فقط . وأما الأوقاف وما استولوا عليه منها فذلك شرحه طويل ، لا يسعه هذا المكان ، وقد تقرأ في التآليف الرسمية عن حالة الجزائر ما يخجل لك أنه وان كان لا أثر للساواة بين الأوربيين والمسلمين في الادارة ، ولا في القضاء ، ولا في الهيئة الاجتماعية ، فهناك شئ من الاعتناء بحالة المسلمين ، ومن النظر في رفاهيتهم وسعادتهم ولكن اذا سألت هؤلاء أو قرأت مؤلفات الأحرار من الفرنسيين أنفسهم ، تعلم من الحقائق ما يسوء كل ذى وجدان سليم ، وفي العام الماضى ذهب المسيو « فاليان كوتوريه » أحد النواب الشيوعيين في البرلمان ، وساح مدة طويلة في الجزائر وتونس فنشر في جريدة « الأومانيتيه » مقالات متعددة عن درجة اهتضام أولئك الاهلين لا يبقى معها أدنى مجال للكابرة . وحسبك أن ستمائة ألف ولد من أولاد الجزائريين لا يجردون مكتباً يتعلمون فيه القراءة ، من أصلهم ستة آلاف في نفس مدينة الجزائر ، فكيف يقال ان الحكومة تعتنى بهم .

وقد لجأ الفرنسيين الى وسيلة أخرى لتمكين قدم استيلائهم في المغرب ، وهو زرع الخلاف بين العرب والبربر ، واقناع البربر بكون أصلهم من سلالة أوروبية ، وان لغتهم غير عربية ، فلا ينبغي ان يتعلموا العربي . وبما لا يكتمه بعضهم ان على فرنسا قصر اللغة العربية ضمن حدود معلومة ، وحل جميع من أصلهم بربر على اللغة البربرية ، وهذا ينافي دعواهم ، من كونهم انما يتوخون في الاستعمار نشر المدينة ، لأنه مما لامشاحة فيه أن البربرية لا تصلح للدنية بخلاف اللغة العربية التي تعد في الدرجة الأولى من لغات الأرض شرقاً وغرباً ، وانما هناك سبب آخر نأتيك منه بشاهد واحد :

قال « فيكتور بيكه » الفرنسي في كتابه المسمى (مراكش) Le Maroc, Par

Victor Piquet الذي ظهر سنة ١٨١٨ ما ترجمته :

« ان البربر كان منهم مجوس ووثنيون ويهود ، وفي صدر النصرانية قبلوا الدين المسيحي لكنهم نسوه عند ما تمكنوا من الاستقلال . ثم دانوا بالاسلام الذي ببساطة قواعده يستميل العقل ويرسخ في جميع الأمم التي تدن به » .

ثم قال : « ان البربر أسلموا اسلاماً لا يزال مشوباً بأحوال وأوضاع خاصة بهم »

ثم قال : « ان العالم الاختصاصي في أمور البربر المسمى « دونه » الذي جال بين قبائل

البربر نوه بمحاسن سجايها هذا الشعب البربري . وقال ان به مناط الآمال في شمال افريقية »

ثم قال : « انه شعب يظهر عليه الميل من نفسه الى المدينة الفرنسية . لذلك يجب

علينا قبل كل شيء أن لا نرهبه أكثر مما هو . ولأجل بلوغ هذه الغاية يجب أن يمحمل

البربر على الثقافة الفرنسية ، وأن يتكلموا بالفرنساوي قبل وصول الثقافة العربية واللسان

العربي اليهم . وعلى هذا الشكل يتحقق بلاريب - أكثر مما هو مظنون - خيائنا

العظيم بمراكش فرنسوية » .

ثم قال في صفحة ٣٠٢ من كتابه :

« وفي النية تأسيس مكاتب فرنسوية بربرية في الجهات التي لم تستعرب من بلاد

البربر . وهذا تصور حسن جداً لكننا لسوء الحظ قد تأخرنا في انفاذه . فاذا كانت بلاد

القبائل من الجزائر ليس فيها الا بعض أقوام من البربر . فان قسماً عظيماً من أهل المغرب

الأقصى لا يعرفون العربية أو يتكلمون باللغتين البربرية والعربية ، وليس لنا أدنى

مصلحة أن ينشر بينهم اللغة العربية — لغة الجامعة الإسلامية — بل بالعكس » .

ولسنا نحن يقول ان جميع المفكرين من الفرنسيين هم على هذا الرأي من مناصبة اللغة العربية والشريعة الإسلامية بالوسائل الممكنة، كلا فان فئة منهم تجنح الى الحرية التامة، وتناضل دائماً عن حقوق الأهالي، وتعتقد عمق تلك الوسائل الاستعمارية، ولسن مع الأسف لا تزال هذه الفئة هي الفئة القليلة ولا تزال الدولة لاولئك، وأنت ترى أنه مع كل مساعي الفرنسيين في مناصبة العربية والشريعة لم يقدروا أن يمنعوا الحركة الوطنية التي تنقوى يوماً فيوماً في الجزائر، مع أن أكثر القائمين بها هم ممن حصلوا جميع علومهم باللغة الفرنسية »

ونود أن نلخص هنا فصلاً من كتاب « البيكولوجيا السياسية » للفيلسوف الافرنسي الشهير غستاف لوبون وذلك فيما يتعلق بسياسة فرنسة الاستعمارية في الجزائر . قال في صفحة ٢٢٨ مايلي :

« إتي لا أتوخي هنا انتقاد الأشخاص وانما أريد انتقاد الآراء والمبادئ التي ينفذها الأشخاص بقطع النظر عنهم لأنني أعلم أن الضرورات السياسية لا المبادئ والنظريات هي التي تدير أعمال رجال السياسة . فليس على الأشخاص إذآ يجب توجيه الاعتراض فان هؤلاء مقيدون بمبادئ وأوضاع معلومة وان تغييرها في غاية الصعوبة . ومن نظر الى ظاهر الشعب الافرنسي حسبه أشد الشعوب نزوعاً للثورة ولكن الشعب الافرنسي في الحقيقة هو في نفسه محافظ أكثر من كل شعب آخر

« جزائر العرب قطر مساحته كساحة فرنسة ولكن سكانه قليلون بالنسبة الى سعة أرضه . وفيه خمسة ملايين من المسلمين تؤكد التقارير الرسمية أنهم مخلصون للحكومة الفرنسية إلا انهم برغم اخلاصهم المزعوم يحتاجون الى ستين الف عسكري لتقييمهم على الطاعة أي إلى جيش بمثله تقريباً تخضع انكلترة ٢٥٠ مليوناً من الهنود من هؤلاء ٥٠ مليوناً من المسلمين أشد مراساً من الجزائريين^(١)

وبين هذه الخمسة الملايين من مسلمي الجزائر ثمانمائة ألف أوربي نصفهم افرنسيون

(١) غستاف لوبون عول على احصاءات قديمة والحقيقة أن عدد أهل الهند اليوم ٣٢٠ مليوناً منهم

والنصف الآخر طليان واسبانيون وغيرهم . وهؤلاء الأوربيون لا يختلطون في النسب مع المسلمين وإنما يختلطون بعضهم مع بعض بحيث يتكون منهم في المستقبل شعب قائم بذاته «أما المسلمون فنلتاهم بربر والتكثرت عرب والفوارق بينهم قليلة أهمها انقسامهم الى

حضر وبدو

«ولقد كتب المسيو « لوروا بوايو » Leroy Beaulieu من أساتيد مدرسة «كوايج دوفرانس» كتاباً مهماً عن مسألة الجزائر هو زيادة التعبير عن الرأي السائد في فرنسا بشأن الجزائر والجزائريين وهو أنه يجب علينا « أن نفرس المسلمين »

أما الكيفية التي يريدون أن يفرنسوها هؤلاء المسلمين فهي قريبة من طريقة الأمريكيين الأوائل في اغتصابهم أراضي الأقوام الجر في أمريكا وتركهم اياهم أحراراً أن يموتوا جوعاً

« نعم هذه هي طريقتنا الادارية في الجزائر وانظركيف يصفها المسيو « فينيون » Vignon في كتابه الذي هو من أهم الكتب في هذا الموضوع . قال :

«لما رأت الادارة أن الولاة كانوا بعد كل ثورة يضبطون جانباً من أراضي القبائل رأت أنه يمكن أيضاً اعتيام أحسن الأراضي وتسلمها للمستعمرين « الكولون » ودحر القبائل الى الصحراء . وكلما كان العنصر الأوربي في الجزائر ينمو كانت القبائل تخرج بالقوة من أراضي آباؤها وأجدادها وتُدخِر الى الصحارى حتى خرجت قبائل بأمرها من بلاد كانت هي أوطانها ومساقط رؤوسها . ولا جرم أن نتيجة هذه السياسة التي استمرت نحواً من ثلاثين سنة على وتيرة واحدة لم تكن غير المنتظر . فان العربي المدحور بدون انقطع الذي ليس آمناً ولاساعة أن يجنى ثمرة تعبته قدفرت همته وأصبح لايعتنى بحرث ولا زرع . ولو فرضنا أنه حرث وزرع فلم يكن له أن يسترجع البذر الذي زرعه في الأرض لأن القبائل كانت قد أخرجت من الأراضي الصالحة الخصيبة ودُحرت الى أراض جرداء محرومة من المياه لا تخرج مايقوم بقوت الزراع ولا ما يكفي لطف مواشيه . وهكذا كانت تزداد بغضاء الوطنيين للمستعمرين وتزداد الهوة الفاصلة بينهما عمقاً

«ولما قرر المجلس الاستشاري سنة ١٨٦٣ أن أصحاب الأملاك يلبثون متصرفين بالأملاك التي كانت في أيديهم لم يمنع ذلك من تتبع سياسة دحر الأهالي الى الصحراء وإنما

لجأوا فيها الى طريقة ثانية وهي تغيير الصيغة والاسم . فهي الآن تسمى « بالاستملاك لأجل المصلحة العمومية » وطريقة هذا الاستملاك تتماز بأمرين أحدهما انها لا تتجد أراضي للمستعمرين الا من أراضي المسلمين وانها تحدث دوائر استعمارية خاصة للأوربيين لا يحق لأهالي الجزائر المسلمين أن يسكنوا فيها كذوى أملاك^(١) الثاني أن المسلم يأخذ تمويضا عن الأرض التي تُزعت من يده ٥٠ أو ٦٠ فرنكاً عن كل هكتار^(٢) فإذا كان الجزائري المسلم يملك ٣٠ أو ٤٠ هكتاراً خرج منها بألف وخمسةائة فرنك . هذا كل ما يجوز له لمعيسته طول حياته وهو مبلغ لا يقوم بأوده أكثر من سنتين . اهـ

قال : « ومن أغرب الحوادث التي جرت في الجزائر وتجلت فيها استبداد الحكومة بافطع شكل الاستعمار الرسمي الذي أورد له المسيو فينيون أمثلة من أعاجيب الدهر من قبيل توزيع أراضي على أناس يعرفون من الزراعة بقدر ما يعرفون من لغة السنسكريت وبناء دور لم يبقَ فيها الآن ديار وذهبت نفقاتها كلها سدى . ولم تفد هذه التجارة برجال حكومتنا أدنى عبرة لأنه من عهد قريب كان والي الجزائر يطلب من الحكومة ٥٠ مليوناً لينزع بها أراضي من أيدي العرب ويبنى قرى للمستعمرين مكان قرى كانت قد خربت ولكن مجلسي البرلمان والسنات لحسن الحظ رفضا هذا الاقتراح خشية أن يؤدي تنفيذه الى ثورة

» فلا عجب اذا كنا بأعمال كهذه أنفقنا على استعمار الجزائر أربعة مليارات من خزانة فرنسة فضلاً عن دخول بلاد الجزائر

فاننا منذ احتلنا الجزائر لم يوجد عندنا في أمرها الا رأيان أحدهما أن نطرد العرب الى الصحراء ونأخذ أراضيهم والثاني أن نفرنسهم ونصبهم بصبقتنا . فأما العرب فلم يتبها طردهم كما كان المظنون لأن الصحراء لا تنبت ما يعيش به هؤلاء وهم ملايين من النسم ولأن طردهم قولاً واحداً لا يمكن بدون مقاومة منهم . وكذلك لم يتيسر اننا أن نفرنسهم كما ظننا لأن نقل أمة من عقلية نشأت عليها الى عقلية أخرى غريبة عنها شديد الامتناع

« فكل من هاتين الطريقتين مذمومة ولا مصلحة لنا بها . ولا تزال فرنسة باستعمالها

(١) أي يسكنون فيها كصفة لاغير

(٢) ثلاث ليرات عن مساحة ١٠ آلاف متر مربع تقابل

تخسر وتضيع الى أن تفهم أن أمثل الطرائق هي ترك أهالي الجزائر على عاداتهم وعقائدهم وطرز معيشتهم كما هو عمل الشعوب المستعمرة كالانكليز والهولانديين في مستعمراتهم فمضى أبسط الطرق وأقلها خساراً وأعلها حكمة

«ولكن الرأي العام في فرنسا ضد هذا الأسلوب في الاستعمار . وعندنا الناس لا يعرفون أهمية الأوضاع الدينية في الشرق وان الحياة عند أتباع محمد كما عند أتباع سيوا (معبود الهنود) وأتباع بودا (معبود الصينيين) هي كلها جارية وفق أوامر دينية . وليس عند الانكليز من يعتقد أنه لأجل حياة مبدئياً يجوز أن تموت بلاد .

«فنحن كان يجب أن تكون سياستنا تعزيز الديانة الاسلامية ورجاها بدلا من مناصبتها العداء وكذلك كان يجب علينا احترام العادات والمنازع والأوضاع العربية التي هي عند هذه الأمة من الدين . فالسيو « لوروا بوليو » يسفه هذا الرأي ويقول « ان احترام منازع العرب وتقاليدهم وقواعدهم يوجب خروج جيشنا ومستعمرينا من افريقية . ولعمري لم نجد تعليلا معقولا لهذه الدعوى . وهانحن أولاء نرى الانكليز يحترمون قواعد المسلمين وعقائدهم في الهند وليس في نية الانكليز أن يجلبوا عن الهند» اه

ثم يذكر غستاف لوبون رأي « لوروا بوليو » في البربر وزعمه انهم أورييون وانه من الممكن كثيراً أن يتفرنسوا . وهو يهزأ برأيه هذا ويرد على زعم « لوروا بوليو » ان العرب كلهم رعاة وبدو ويقول ان القبيلين فيهما بدو وحضر بحسب طبيعة الأرض وان من العرب حضراً في الجزائر كما في سورية ومصر وجزيرة العرب . وان قابلية العرب للتمدن ثابتة بالحضارة الزاهرة التي كانت لهم ولم يكن مثلها للبربر

قال : « ثم يذكر « لوروا بوليو » من الأمور التي أوجبت تأخر العرب تمدد الزوجات ولا أريد الآن الخوض في هذا المبحث ولكنني أكتفي بالقول ان تمدد الزوجات الشرعي عند المسلمين أفضل من تمدد النساء بدون صورة شرعية عند الأوربيين وما ينشأ عن ذلك من الولادات غير المشروعة . ولقد أعطيت هذا البحث حقه في كتابي « تاريخ مدنية العرب » وأثبت أنه في ممالك العرب تعلمت نسوة تحت الحجاب ونبغ منهن مثلما نبغ من مدارس الاناث في عصرنا »

ثم قال : « لقد تحقق الآن ان تعدد الزوجات لم يكن في يوم من الأيام سبباً في جود المسلمين . أيلزم أن ننبه قومنا الى أن العرب وأن العرب وحدهم هم الذين عرفونا بالعالم اليوناني اللاتيني وان جامعات اوربة ومن جملتها جامعة باريز بقيت مدة ستة قرون متوالية تعيش بتراجم كتب العرب وتطبيق قواعدهم العلمية . نعم لقد كانت المدينة العربية من أهر المدن التي عرفها التاريخ ولقد ماتت كما مات غيرها ولكن تليل موتها بكونه من نتائج تعدد الزوجات ليس فيه شيء من التدقيق »

ثم قال : « وقد عدت » لوروا بوليو « الثقافة اللاتينية من جملة العوامل التي يجب أن نتمتع عليها في استجلاب العرب الينا . وهذا هو الرأي السائد في فرنسا اليوم وقد كنت أنا نفسي من القائلين به ولم أعدل عنه الا باسفار ومراقبات كثيرة . ومع اني لا أومل أن أهدى طريق قارئاً فرنسياً واحداً فاني أرى الموضوع أجل من أن لا اصارح فيه بكل أفكارى . ولقد خصصت الفصل الآتي من كتابي هذا بهذا المبحث وسيجد القارئ أن الثقافة الاوربية بعيدة عن اصلاح حالة الشرقيين بل هي أجدر بأن تزيدهم بؤساً في مادتهم ومعانهم . فان هذه الثقافة التي هي نتيجة احساساتنا واحتياجاتنا نحن منذ قرون وأعصر لم تكن لتطابق احساسات أقوام آخرين واحتياجاتهم فتكون نتائج تطبيق ثقافة مخالفة لأذواقهم وشواعرهم واحتياجاتهم هي تجريدهم دفعة واحدة سواء كانوا عرباً أو هندوياً أو شرقيين آخرين من أفكارهم وعقائدهم الموروثة التي عليها قائم بناء وجودهم . فان صح حل « لوروا بوليو » وأمثاله ممن يشيرون بنشئة العرب في الثقافة الاوربية فان الجزائر تكون لنا ما كانت البندقية لاوستريا وإبرلادة لانكثرة والازراس لالمانيا

« ان مؤرخينا يندبون فقدنا الهند بعد أن كنا فتحنا جانباً منها . وأنا أقول : لا ينبغي لنا كل هذا الأسف لأنه لو بقيت لنا الهند وأخذنا نديرها كما ندير سائر مستعمراتنا الآن أي بالمبادئ والطرق التي يشي بها « لوروا بوليو » لما طال الأمر حتى اشتعلت بها الفتنة وعم الخراب وخرجت من يدنا .

« ولقد طبقوا في الهند الصينية وفي السودان والسنغال هذه السياسة بعينها أي حل الأهالي الوطنيين على أوضاعنا وقوانيننا فجاءت باقبح النتائج وكرهتنا الى أولئك الأقوام

وأفقدنا الأموال والرجال »

الى أن قال : « لقد أثبت التاريخ أن مدينتين مختلفتين تمام الاختلاف لاتندمجان وأنه مارويت الأمة المغلوبة مندجحة في الغالبة الا اذا كانتا متشابهتين من الأصل . فالشرق يندمج في الشرق أما في الغربي فلا . وهذا هو سر نفوذ العرب في الشرق وفي الصين وفي الهند وفي افريقية فانهم كانوا كيفما تغلبوا طبعوا تلك الأمم بطابعهم وأعطوها صبغتهم وحيث حلت حضارة الاسلام ظهر أنها استقرت وثبتت . فهي في الهند قد غلبت على حضارات أقدم منها وهي في مصر قد عربت بلداً دخل فيه الفرس والرومان واليونان ولم يؤثروا فيها الا قليلا . واتنا لنجد الاسلام يتقدم في الهند والصين وفي القارة الافريقية وهذا برغم معاكسة المبشرين بالانجيل المنبئين في كل مكان .

« ان الاوربيين مستعمرون ماهرون بدون نزاع ولكن من بعد رومة العظمى لم يأت مدنون بالفعل أقدر من المسلمين الذين تمكنوا من أن يحملوا أمماً كثيرة على دينهم وشريعتهم وصناعاتهم

« والاوربيون نظير الانكاييز في الهند يقدرون أن يتغلبوا على شعوب شرقية هي متأخرة عنهم فاما محاولة تغيير عقلية هذه الشعوب فليست مما ينال لأن الفرق بينهم وبيننا في الأذواق والمشارب والشواعر والاحتياجات عظيم جداً لايتأتى قطع مراحلها الا بأعصر طويلة ولأن مايلزم لهم لايلزمنا . ولقد كنت أفضى العجب من أن أرى المتأدين الشرقيين الذين زاروا أوربة هم أقل الشرقيين افتناناً بحضارتها . وكنت أجدهم يرون دائماً الشرق أسعد وأصلح وأقوم من الاوربي مادام لم يتصل به » انتهى ببعض اختصار
وفي الصفحة ٢٥٣ قال غستاف لوبون :

« ان الرأي الذي أنا مبديه في استحالة صبغ العرب بصبغتنا واقامتهم على ثقافتنا ليس هو رأياً خاصاً بي بل تجده عند جميع الاوربيين الذين سافروا في الجزائر واطلعوا على امورها حق الاطلاع ونظروا الى الحقائق كما هي لا كما هو الهوى . وهو أيضاً رأى الأدباء الراسخين من العرب . وافتد شافهت من المسلمين عدداً لا يحصى من مراكش الى أقصى آسية ورأيتهم مجمعين على أن التربية الاوربية للمسلمين تزيدهم عداوة لاوربة وقد تكون

عداوتهم من قبل فآرة أو غير موجودة . واندأ كدلى أرباب المعرفة من المسلمين الذين حدثهم ان النتيجة الوحيدة لتعليمنا ناشتتهم هى افساد أخلاقها ، وإيجاد احتياجات لم تكن بضرورية لها وإيجاد روح الثورة فيها . وأنا على ثقة ان التربية الاوربية ان تمت وعمت فى الجزائر تسعون نتيجتها صوتاً صرخاً من جميع مسلميها : «الجزائر للعرب» . وذلك كما ان جميع الهنود المعلمين بصرخون بصوت واحد الهند للهنود » اه

وفى الصفحة ٢٦٣ يتكلم غستاف لوبون عن عقم مساعى المبشرين المسيحيين وكيف ان عدد الذين نصر وهم هو قليل جداً بالقياس الى الملايين والملايين التى بذلوها وان المتصرين لا يكونون الا من أدنى الطبقات . ويفيض فى هذا الموضوع . ثم يذكر على سبيل الاستشهاد الأربعة آلاف يقيم مسلم الذين رباهم الكردينال لافيجرى فى الديانة المسيحية . فقد كانوا فى محيط منقطعة فيه جميع علاقتهم مع المسلمين وقد تلقوا التربية المسيحية بكل معناها وما بلغوا الرشد حتى عادوا الى الاسلام دين آبائهم الا النادر منهم » اه

بلاد الطاغستان والشيخ شامل

الشيخ شامل

على الضفة الغربية من بحر الخزر بين ٤٣ و ٤١ من العرض الشمالي بلاد يقال لها طاغستان مساحتها نحو ٢٩٧٦٣٠ كيلومتر مربع وعند نفوسها سبعة ألاف ، أما اذا انضم اليها جميع بلاد القوقاس الشمالية فيقال ان أهلها يبلغون مليونين الى ثلاثة . وقد فتح العرب في خلافة هشام بن عبد الملك الطاغستان سنة ١٠٥ للهجرة ووطد أخوه مسلمة الحكم العربي في تلك الديار ، وكانوا يلقبونها بالدر بند ، وكانت تغرا من تغور العرب ومنها انتشر الاسلام في تلك الاقطار ، وكان الاهالي من قبل وثنيين ونصارى ويهوداً . وروى المؤرخون ان احد ملوك تلك الامة صاحب مملكة خيدان كان يقيم شعائر الملل الثلاث فيصلي يوم الجمعة مع المسلمين والسبت مع اليهود ، والاحد مع النصارى . وكان في تلك الاقطار عدة ملوك يلون عدة شعوب صغيرة معروفة باسم اللزقيين ، ولما اجتاح المغول بلادهم كان أكثر هؤلاء صاروا مسلمين ، ولما كانت غارة تمرلك (سنة ١٣٩٥ مسيحية) كان أشهر شعوب الطاغستان قبيلتين أحدهما القياتاق ، والآخر القومق ويقال لم غازي قومق ، وكان حكم القياتاق الذي يلي الدر بند في يد السلطان طوقناميش شرف الدين اليزدي ، وكان ملك القومق يسمى بالشامكال أشبه بلقب كسرى لفارس وفرعون لمصر ، وكان هؤلاء من أشد أنصار الاسلام وأحسبهم في بث دعوته . وفي سنة ١٥٧٨ استولى على هاتيك البقاع الأتراك العثمانيون ولكن لم تطل فيها مدتهم . وأكثر أشراف الطاغستان يدعون انهم من أصل عربي وان آباءهم قدموا مع مسلمة بن عبد الملك واحياناً يخلطون معه بأ مسلم ويجمعون قبره في مدينة غنراق ويقولون انه هو باني الجماع الأول في بلاد القمق . وقد صادفت في الروسية بعض أشراف الطاغستان فقالوا لي ان أصلهم من العرب يوم فتحوا الدر بند وهم يفتخرون بذلك . واشتهر من ملوك القياتاق السلطان أحد خان المتوفى سنة ٩٩٦ هجرية أي ١٥٨٧ مسيحية وهو الذي يقال انه بنى مدينة « المجالس »

لأنه كان يجتمع فيها شيوخ الأمة ويتفاوضون في الأمور العامة . وفي سنة ١٦٤٠ انفصلت فرقة من القبايق وانتجعت الأراضي الواقعة جنوبي الطاغستان وأمرت عليها حسين خان ، فجعل مركز إمارته ساليان وكوبا ، ومن هذا الفرع ظهر في القرن الثامن عشر فتح على خان أمير كوبا والدر بند

وقد طمع الروس في الاستيلاء على الطاغستان منذ أواخر القرن السادس للمسيح فلم يفلحوا وهزمهم أولاد الشامكال وأخرجوهم من بلد سولاك التي كانوا احتلواها ، ثم سنة ١٦٠٤ كروا ثانية على الطاغستان وقصدوا بلدة طاركهوف لم يفوزوا بباطل وكان الشامكال قد خضع لآل عثمان ، وتبعه أمير تابازاران ، والأمير الآخر الملقب بالعصمي ، فلما زحف الشاه عباس سلطان العجم على هذه البلاد سنة ١٦٠٦ انحاز اليه العصمي رستم خان وبقى الشامكال متمسكا بالعثمانيين الا أن رستم خان انحاز أخيراً الى هؤلاء خالفه الشامكال الى سلطان العجم ولما ضعف أمر الدولة الصفوية في فارس ثارت أهالي الطاغستان ونبئت طاعة الفرس ، واستقل سركاى خان بإمارة القومق . ثم تحالف هو والأمير الملقب بالعصمي ، والمدرس الحاج داود ، بمن كان مطاعاً بين العامة واستولوا على شامكي ثم أرسلوا الى استانبول يطلبون من الدولة أن ترسل اليهم خلع الولاية وتعرفهم من رعاياها . فاحتج بطرس الأكبر صاحب الروسية بأن ثلثمائة تاجر روسي قد قتلوا يوم فتح شامكي وساق جيشاً استولى على الدر بند وسأر سواحل الخزر الغربية (١٧٢٢) الا ان نادر شاه صاحب فارس غزا هذه البلاد واسترجع أكثرها من أيدي الروس (١٧٣٥) وزحف تتر القريم التابعون للدولة العثمانية على الطاغستان في تلك الأثناء ففشلوا ، وبقى الحكم هناك للعجم لكن المملكة الفارسية بعد نادر شاه تضعف أمرها ، فتقلص ظلها عن الطاغستان ، وزحف الروس ثانية فاجتاحوا البلاد سنة ١٧٧٥ وفي سنة ١٧٨٤ خضع لهم الشامكال مرتضى على وبعد ذلك استولوا على القوقاس ، فتمكنت قدمهم في الطاغستان ولما استولى آل قاجار^(١) على فارس أحبوا أن يستردوا حقوق فارس على الطاغستان فاشتعلت الحرب بينهم وبين الروس ولم تنته الا سنة ١٨٠٦ اذ فاز الروس بالاستيلاء على هذا القطر ، وسنة ١٨١٣ نزل لهم العجم عن كل حق لهم فيه

(١) الأسرة المالكة في إيران عند كتابة هذه السطور

ولما تخلى الترك من جهة والفرس من جهة عن الطاغستان ، عقد أمراء البلاد محالفة فيما بينهم على مناهضة الروس فاشتبك القتال بين الفريقين ، وتجمشت الروسية كلفا عظيمة الى أن تمكنت من تدويج البلاد فألفت لقب العصى من أمراء قايتاق (١٨١٩) ولقب المعصوم أمير تبازاران (١٨٢٨) وجعلت لدى الأمراء الباقين ضابطاً روسيين يأخذون على أيديهم ، فاستسلموا جميعاً للحكومة الروسية ، فنار الشعب على الروس وعلى الأمراء وتولى كبر الثورة علماءهم وشيوخ الطريقة النقشبندية المنتشرة هناك ، وكانهم سبقوا سائر المسلمين الى معرفة ككون ضررهم هو من أمرائهم الذين أكثرهم يبيعون حقوق الأمة بلقب ملك أو أمير ، وتبوء كرسى أو سرير ، ورفع علم كاذب ، ولذة فارغة ، باعطاء أوسمة ومراتب ، فناروا منذ ذلك الوقت على الأمراء وعلى الروسية حاميتهم ، وطلبوا أن تكون المعاملات وفقاً لأصول الشريعة لا للعادات القديمة الباقية من جاهلية أولئك الأقوام ، وكان زعيم تلك الحركة غازى محمد الذى يلقبه الروس بقاضى ملا ، وكان من العلماء المتبحرين فى العلوم العربية ، وله تأليف فى وجوب نبد تلك العادات القديمة المخالفة للشرع اسمه « اقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان »

وفى ٢٩ تشرين الاول سنة ١٨٣٢ بمد جهاد طويل احيط بغازى محمد فى قرية جيمرى ، واستشهد فى معمة القتال رجه الله ، فخلفه حزة بك الذى استشهد أيضاً رجه الله بقرب غزاق بعد ذلك بستين ، فتولى زعامة الثورة الشيخ شامل افندى المقصود بهذه الترجمة . وهو على نمط الامير عبد القادر الجزائرى ، خرج من المشيخة الى الامارة ، وتناول السيف من طريق القلم . ولم يدن الشيخ شامل فى سعة علم سلفيه ولكنه كان احسن منهم ادارة للامور ، وبصيرة بالحروب ، فشرعن ساق الجهاد والتف ذلك الشعب الأبي من حوله ، فنب عن حوض ملته نحو ٣٥ سنة ظفر فيها بالروس فى وقائع عديدة والتي الرعب فى قلوبهم . وجلاهم عن جميع البلاد الا بعض مواقع ثبتوا فيها فى الناحية الجنوبية وكانت أعظم الدبرات التي والاها عليهم هى فى سنتى ١٨٤٣ و ١٨٤٤ حيث افتتح جميع الحصون التي كانت لهم فى الجبال وغنم منهم ٣٥ مدفعاً وأعتاداً حربية وموثناً وافرة ، وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى ، فجردت الروسية بعظمة ملكها وسلطانها جيوشا جريارة ونادت هى بالجهاد فى الطاغستان . ونظم شعراء الروس القصائد فى وصف تلك الحروب ،

وما زالت توالى الزخوف حتى تمكنت من البلاد ولكن بقي الشيخ شامل عشر سنوات يناوشها القتال في الجهات الغربية من الجبال ولم يسلم هذا المجاهد العظيم للروس الا في ٦ ايلول سنة ١٨٥٩ فعمد الروس على أثر تسليمه الى اعادة سلطة الأمراء ليتمكنوا بهم من خضد شوكة العلماء الذين لم نمن المقاومة الا بهم ومنهم . ولكن لما استتب لهم الامر بواسطة هؤلاء الامراء عادوا فخلعوهم هم أيضا كما هي العادة بأن هذه الدول تبدأ اولاً باستعمال نفوذ الامير الوطني في اغراضها . وتصريفه في حاجاتها ، حتى اذا قضتها كلها رجعت اليه ونبذته نبد الحصاة ، وذهب يقرع سن الندم على استرساله اليها واعتماده عليها ، ففي عام ١٨٦٢ استأصلت الحكومة الروسية جميع ما كان بقي من جرائم الامارة الاهاية وأزالت اولئك الامراء حتى عن كراسيهم الوهمية . وبقي الامر كذلك الى سنة ١٨٧٧ اذ نشبت الحرب بين الروسية والعثمانية فثار الطاغستانيون وافتتحوا قلعة القومق ، ورفع ابناء البيونات التي كانت مالكة من قبل اعلام الثورة ، واستعادوا لقب العصمي ، ولقب المعصوم ، ولكن لما دارت الدائرة على الدولة العثمانية في تلك الحرب ، تمكن الروس من قمع الثورة بدون عناء كبير

ولما انحلت الحكومة الروسية القيصرية ، وقامت الحكومة البولشفكية سنة ١٩١٧ محلها وأعلنت استقلال الأمم المهضومة ، وخيرت الشعوب التي كان القيصرية الروس قد أخضعوها بحد السيف بين أن تبقى منضمة الى الروسية الأصلية ، أو تنفصل عنها ، كان أهالي بلاد القوقاس أجمعين ممن أعلنوا استقلالهم التام ، فتألفت جمهورية في كرجستان ، وأخرى في الطاغستان ، والثالثة في آذربيجان ، والرابعة في أريغان ، وأوفدت كل من الجمهوريات الأربع وفودها الى الاستانة لمفاوضة الأتراك والألمان في الاعتراف بهذه الجمهوريات الأربع ، وصار الحديث في ارتباطها بعضها ببعض بشكل حلقي ، وكان الوفد الطاغستاني الجركسي مؤلفاً من عبد المجيد بك ، وعلى بك ، وحيدر بك بامت الذي كان ناظر الخارجية الطاغستاني . وما مضت مدة قصيرة حتى داخل الكرج الدولة الالمانية وطلبوا حمايتها فاعترفت لهم بالاستقلال دون غيرهم واحدت ذلك خلافاً بين الأتراك والالمان لان تركيا تقاضت حليفها المانيا الاعتراف باستقلال الجمهوريات الثلاث الباقية حتى ان طلعت باشا الصدر الأعظم يومئذ سعى لدى ألمانيا في معرفة استقلال جمهورية اريغان الارمنية التي كانت

تتقرب من الدولة العلية ، وكان رجال الدولة يريدون بمساعدتها اصلاح ذات البين بينهم وبين الأرمن فتقدم أنور باشا الى هذا العاجز أن أذهب الى برلين وأتكملم في هذا الموضوع وأقنع نظارة الخارجية الألمانية بلزوم المساواة بين جمهوريات القوقاس كلها ، والا لم يكن مناص من الاختلاف . وكلفني الوفد الطاغستاني أيضاً أن أهتم بقضيتهم نوعاً لأنهم حسبوا أن الترك قد يصرفون معظم عنايتهم في مصلحة جمهورية أذربيجان التركية فقط فبدلت في تلك الأيام جهدي مع نظارة الخارجية في برلين في تمهيد الخلاف ، وكان أكثر الكلام مع فون روزنبرغ الذي كان مديراً للامور الشرقية ، وهو هو اليوم بينما أحرر هذه الأسطر ناظر الخارجية الألمانية . ولم يلبث أن حضر الى برلين طلعت باشا والسكونت برنستورف سفير ألمانيا في الاستانة ، واشتركتنا في حل هذه المسائل جيداً وتم الاتفاق لولا أن الحرب في الجبهة المقدونية جاءت بما لم يكن في الحساب . وطلبت بلغاريا الهدنة ، وابتدأت نهاية الحرب فوقف كل شيء من جهة ألمانيا وتركيا ، واحتل الانكاز القوقاس ، وعلق القوقاسيون عامة آمالهم بانكثرة أنها تعترف باستقلالهم وتوطد لهم حكوماتهم ، لاسيما أنها كانت تعطف على الطاغستانيين قديماً أثناء مقاومتهم الطويلة للروس فكان الأمر بالعكس اذ حصرت انكثرة جهودها في مناهضة البولشفيك واعادة الحكم الامبراطوري على أصله وأمدت الجنرال دينكين عدو هؤلاء بالمال والسلاح ، فبدأ الجنرال بالحرب مع البولشفيك حتى غزا الطاغستان وحاول القضاء على استقلالهم فجرت بين الفريقين الوقائع الدامية ، ومازالت الى أن انقضى أمر دينكين ، واستتب الأمر للبولشفيين أنفسهم ، فجرد هؤلاء جيوشاً على جمهوريات القوقاس الأربع . فقبعضوا على أزمتهما وألحقوها بحكومة موسكو خلافاً لوعدهم الأول ؛ وتار أهالي الطاغستان عليهم فتغلبت الخدمة البولشفية على الثوار وقبضت على بعضهم وألقتهم في السجون ، وشرذ قسم من رؤساء الحكومة المستقلة ؛ ومنهم عبد المجيد بك وصديقنا حيدر بك بامات الى أوروبا ، حيث يواصلون مساعيهم لأجل قضيتهم القومية الى يومنا هذا .

وببلاد الطاغستان متعددة اللغات فمنها لغة الآفار ، ولغة القومق ، ولغة القبايق ، ولغة الدارغا ، ولغة تابازاران ومنهم من يتكلم بلغة فارسية ؛ وفي الوردبند والسواحل يتكلمون بالتركية الاذرية أى الجغتاي ، وهي أرقى جداً من اللغات السابقة الذكر ،

ولكن لسان العلم في جبال الطاغستان هو اللسان العربي ، وهو اللسان الذي يتكاتب به أعيان تلك الأمة ، وقد صادفت سنة ١٩١٩ الوفد الطاغستاني الجركسي في « برن » قاعدة سويسرة ولزمتهم مكاتبات الى رؤساء بلادهم ، فكلفتني حيدر بك بامات بتحريرها لهم بالعربية الفصحى ، وكثير من علماء طاغستان معدودون من علماء العربية .

قد حرر تاريخ الطاغستان كثير من مؤرخي الألمان والروس والفرنسيس مذكورة أمماؤهم في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، ولصديقنا الاستاذ عزيز بك مكبر ناموس السفارة التركية الحالية بموسكو وأحد فضلاء الأمة الجركسية ، رسالة باللغة الفرنسية وافية بأخبار تلك الأمة . ولميرزا حسن افندي ابن الحاج عبد الله افندي الأقدري الطاغستاني تاريخ باللهجة الآذرية اسمه « كتاب آثار طاغستان » طبع في بطرسبرج سنة ١٨٩٥ ولم يسمح الروس بنشره الا سنة ١٩٠٢ بعد رفع المراقبة عن المطبوعات ، ومحرم هذا التاريخ كان ممن اشترك بشورة ١٨٧٧ ونفاه الروس مدة مديدة .

وقد عرفت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر كامل باشا حفيد المرحوم الشيخ شامل ، وانقضت بيننا الصحبة لما رأيت من حسن أخلاقه ، ولما نشبت الحرب الكبرى استدعته الدولة الى الاستانة وكانت له مواقف في خدمتها تليق بمن كان حفيدا لذلك الجد الأجد .

المهدى المنتظر

المهدي

اتفقت الأديان السماوية الثلاثة على ظهور واحد في آخر الزمان . فاليهود لايزالون منتظرين المسيح الذي يجدد ملكهم قبيل انقراض الدنيا . والنصارى يرون في عيسى عليه السلام المسيح الذي بشرت به الأنبياء ويقولون برجوعه في آخر الوقت لآبادة الدجال الذي ينبيء به يوحنا . والمسلمون أيضاً عندهم المهدي الذي يظهر قبل قيام الساعة ليملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . وروون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مانعناه لانقوم الساعة حتى يخرج من ذريتي رجل اسمه كاسمى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ويظهر الاسلام على الدين كله . وبعضهم قال ان المهدي الذي سيظهر في آخر الزمان هو عيسى عليه السلام . وبعضهم قال بل هو علي بن أبي طالب . والشيعه الامامية يقولون انه محمد الحجة ابن الحسن العسكري ، بن علي النقي ، بن محمد النقي ، بن علي الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، ابن محمد الباقر ، ابن علي السجاد زين العابدين ، ابن الامام الحسين السبط ، ابن سيدنا الامام علي رضى الله عنه وعنهم جميعاً ، وان محمد الحجة هذا دخل مع أمه صغراً سرداباً بالحلة من أرض العراق واختفى فهم ينتظرونه الى الآن . قال القلقشندي في صبح الاعشى : ويقال أنهم في كل ايلة يقفون عند باب السرداب ببغلة مشدودة ملجمة من الغروب الى مغيب الشفق ، ينادون أيها الامام قد كثر الظلم ، وظهر الجور ، فاخرج الينا . وروى ياقوت أنهم كانوا في قاشان من بلاد العجم يركبون كل صباح الى لقائه ، وذلك في أواخر القرن الخامس للهجرة . وروى ابن بطوطة انه لما مر بالحلة رأى مسجداً سدولا على بابه سجع من الحرير ، وأنه كان يأتي كل يوم مائة رجل متقلدين السلاح فيصلون العصر ، ثم يذهبون الى قائد البلد ، فيعطيهم بغلة ملجمة مسروجة فيطوفون بها ، وهم يطبلون ويزمرون ، حتى اذا انتهوا الى باب ذلك المسجد نادوا : يا امام الزمان اخرج فان الظلم قد ظهر ، والفساد قد كثر .. الخ

والفرقة الكيسانية يجعلون المهدي محمداً بن الخنفة^(١) و ينتظرونه ويقولون انه لم يمت وانه محتف في جبل رضوى ، بين المدينة وينبع . وكان عند ملوك الصفوية في العجم عادة ، وهي اسراج رأسين من الخيل معدين دائماً في القصر لاستقبال المهدي وعيسى المنتظر مجئهما كل ساعة . وهذا يشبه عمل بعض المهوسين من الافرنج الذين يقيمون بالقدس منتظرين مجيء السيد المسيح ويوم الدينونة . روى هوارت Hunt الفرنساوى صاحب تاريخ العرب المطبوع سنة ١٩١٣ أن انكليزيا ورد بيت المقدس وأقام بالوادى الذى يقال انه ستكون به الدينونة ، وشرع كل صباح يقرع الطبل منتظراً الحشر . وسمعت أن امرأة « انكليزية فيما أظن » جاءت القدس وكانت تغلى الشاي كل يوم لأجل أن تقدمه للسيد المسيح ساعة وصوله وحدث لامرتين الشاعر الفرنسوى العظيم في رحلته بجبل لبنان أنه زار في قرية جون السيدة استيرستانهوب ابنة أخى بيت Pili الوزير الانكليزى الشهير فرأى عندها فرساً مسرجاً دائماً ليكون ركوبة للسيد المسيح المنتظر وصوله .

وقد استخدم قضية المهدي كثير من الدول الاسلامية لترويج دعواتها فالدولة الفاطمية عند ماظهرت بتونس ادعت أن عبيدالله مؤسسها هو المهدي . ومحمد بن تومرت لما قام بمصمودة في المغرب قام بالدعوة الى المهدي ، وبها تأسست دولة الموحدين بنى عبد المؤمن . وقام في أيام الدولة المرينية بفاس رجل اسمه التويزرى أصله من توزر من تونس وادعى أنه المهدي واعتصم برباط حصين اسمه (ماسا) بالسوس الأقصى . واعصوب حوله رؤساء صنهاجة فقتله المصامدة . وكذلك ظهر رجل آخر اسمه العباس بين سنئ ٧٠٠ و٦٩٠ للهجرة في نواحي الريف من الغرب وقال انه المهدي وثار معه جماعة فقتل وانهى أمره . وظهر في السنيغال سنة ١٨٢٨ ميلادية رجل ادعى أنه المهدي وأحدث ثورة ثم انكسر وذهبت ريحه . ولما احتل الفرنسيس مصرأ في زمان بونايرت قاتلهم بين دمنهور ورشيد رجل مغربي من طرابلس ادعى أنه المهدي ومازال يقاتلهم حتى قتل .

وبعد ثورة أجدعرباني بمصر ظهر في السودان رجل اسمه محمد أجد ادعى أنه المهدي ويقال ان والده كان يسمى عبدالله وأمه كانت تسمى أمّنة ، وكان له أخوان أكبر منه يصنعان السفن في النيل الأبيض ، فأرسله يحصل العلم في نواحي الخرطوم ، ولما بلغ الخامسة

والعشرين من سنة انقطع الى العبادة في أحد الكهوف ، وظهر من ورعه وزهده ما تحدث به الناس فانبتمت قبيلة البغارة وهي قبيلة عظيمة عربية الأصل من جهينة فنصرته وقالت انه هو المهدي . وأعلن هو ذلك سنة ١٣٠٠ هجرية . وكان رؤوف باشا والى السودان المصرى أرسل ٢٠٠ جندي للقبض عليه ، فقتلهم جماعة محمد أحمد جيمعاً ، وانحاز هذا الى جبل هناك والتفّ حوله السودانيون فجدت الحكومة المصرية جيشاً تحت قيادة جيفلر باشا البافارى فهاجه نحو ٥٠ الف سودانى وأبادوه ، ولم ينج من المصريين سوى ١٢٠ رجلاً ، فدخل المهدي الأبيض سنة ١٨٨٣ في ١٧ كانون الثانى وجعلها كرسى حكمه . فجدت الحكومة المصرية جيشاً آخر بقيادة هيكل باشا فأباده السودانيون أيضاً وأخيراً أبادوا قوة غوردون باشا في الخرطوم ، واستولوا على السودان كله . وبعد موت المهدي خلفه التعايشى أحد زعماء قبيلة البقارة ، واستفحل أمره فأشار الانكليز على مصر « والاشارة هنا بمقام الأمر » أن تتخلى عن السودان وتتركه وشأنه ، ولم يكن ذلك الا توطئة لفتوحهم هم للسودان ، فانهم مالبثوا أن جردوا جيشاً من المصريين يقوده ضباط انكليز رئيسهم الجنرال كشر فاستفتحوا السودان رجال مصر ومال مصر ، وعادوا يقولون للمصريين ان السودان مشترك بيننا وبينكم ، والحقيقة أن للاحق لهم بهذه الشركة ، لأن السودان كله لمصر ولا تستغنى عنه مصر طرفه عين فضلا عن كون هذه الشركة هي اسمية ، لأن كل شئ في السودان هو في يد انكلترا ، ومن ولى أمر السودان فقد أخذ بمخنق مصر ، لا تملك هذه معه أن تصعد نفساً ، ولذلك مسألة السودان هذه هي العقدة الكبرى المعضلة الواقفة في وجه حل المسئلة المصرية بين انكلترا ومصر ، واذا تخلت مصر عن السودان فقد تخلت عن نفسها .

افغانستان

للأمير شكيب

هنا موقف عظيم من أعظم مواقف الاسلام في العالم ، ومعترك شهير من أجل مقاماته فيما حدث ، فضلا عما تقدم ، ولعمري لولم يبق للاسلام في الدنيا عرق ينبض ، لرأيت عرقه بين سكان جبال الحلايا والهندكوش نابضاً ، وعزمه هنالك ناهضاً ، ألا وانه من هناك غزا الفاتح العربي محمد بن القاسم في صدر الاسلام الهند ، وفتح السند (٧١٢ ميلادية) ووصل الى حدود اللتان ومن تلك الجبال انحدر ذلك المجاهد الكبير اسكندر الاسلام ، وحامي المعارف والعلوم في عصره ، السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي التركي ، في أوائل القرن الحادي عشر ليليلاد ، ودوخ الهند من أقصاها الى أقصاها ، وتألّب عليه رجاوات (ملوك) لاهور ، واناغبال ، ودهلي ، واجير ، وقنوج ، وغفالپور ، وكالنجار ، واودجين ، حزمة واحدة ، ووقف العالم البراهمي بازاء العالم الاسلامي ، واصطفت الاقران ، واتصب الميزان ، فادال الله للعالم الاسلامي من العالم البراهمي في واقعة «باتنداه» ، وتمزق شمل الراجاوات كل بمزق ، وفتح محمود كشمير ودهلي ، واقام ولاية من قبله في لاهور ، وجعل راجا قنوج من أتباعه ، واكمل توطيد ملكه في جميع البنجاب ، وغزا كلنجار تلك المدينة الموصوفة بمنعتها ، فانقاد له ملوك تلك الديار صاغرين .وقصد كوجرات وحطم الصنم الأعظم المعروف بسومنتا وفتح بهاضية ذلك الفتح الذي تحدثت به الركبان ، وكتب فيه تلك الرسالة الطنانة شيخ الكتاب أبو الفضل بديع الزمان ، فقال انه « الفتح الذي تضاءلت أمامه الفتوح ، وأنتت عليه الملائكة والروح » الخ وذكّر عن الهند وعجائبها وعظمة الخلائق التي فيها ، ما عرف بقدر تلك الفتوحات التي أتاحها الله للاسلام على يد أمين البوالة وبين الملة (١) قال المسيو رينه غروسه René Grousset صاحب تاريخ آسية الذي ظهر سنة ١٩٢٢ في ثلاثة مجلدات متحصلاً من روايات أ كابر المحققين ، وذلك في بحث الهند لهدد الاسلام ، ما يأتى تعريبه :

(١) هو لقب السلطان محمود الغزنوي

« ان محمودا قام بصليبية اسلامية ^(١) استمرت الى القرن الثامن عشر وكانت كسائر الصليبيات ، جامعة بين روح الدعوة الدينية ، وروح الطمع في السحت ، وان محموداً بقيت صورته العالية مشرفة على ثمانية قرون ملأى بالفتوحات ؛ لأن الجهاد الذي كان هو أول أبطاله ، لم يبلغ حد النهاية الا في فجر العصر الحديث بعد أن عرفت أرض البراهمة من جبال حلايا الى سواحل كورومانديل ، اسم الله تعالى ودانت لسلاطين الترك المغوليين »

واقفتي آثر محمود بن سبكتكين التركي ، محمد الغوري الأفغاني ، الذي استولى على سلطنة آل سبكتكين وغزا مثلهم الهند ، وشتت في واقعة « تانسوار » الثلاثمائة ألف فارس والثلاثة آلاف فيل التي حشدها افتتاله ملوك الهند ، وافتتح دهلي ، وفتوح ، وميراث ، وآغرا ، وضماها الى ممالكة (١١٩٤ ميلادية) وأتم عمله بملوكه آيبك التركي الذي فتح بنارس ، وضرب الجزية على ملوك كفالابور ، ومالقا ، وافتتح كوجرات ، وكالنجار ، وضم الى المملكة بوندلكاند . ثم القائد بختيار الأفغاني ، الذي افتتح مغدلا ، والبغاله ، وأزال الدولة البوذوية من تلك الأقطار فكان عمل هؤلاء الفاتحين مقدمة لسلطنة اسلامية علمي قاعدتها دهلي وقد بسطت جناحها على الهند بمخدافيرها ، واستتبت من القرن العاشر للمسيح الى أوائل القرن التاسع عشر اذ هزمت وعجزت وانقرضت على أيدي الانكليز كما هو معلوم . وليس المراد هنا تاريخ الدول الاسلامية التي تعاقبت من ذلك الوقت على الهند ؛ ولكن المراد هو ذكر العلاقة الشديدة التي بين اسلام الهند وبلاد الأفغان التي منها انحدر الفاتحون المسلمون سواء كانوا من العرب ، أو من العجم ، أو من الترك ، أو من الأفغان واثبات ان تلك الجبال كانت ولم تزل على ما يعاوها من التلوج مستوقد حاسة ، وثمار حية ، وموطن فتوة ، ومعادن فروسة ، واليك ملخص تاريخ علاقاتها مع الانكليز منذ وضعوا أيديهم على الهند الى يومنا هذا : -

قال المسيو لومارشان Le Marchand أحد ضباط الجيش الفرنسي ومن أعضاء الأكلادمية العسكرية في كتابه « حرب الانكليز مع الأفغان » الذي ظهر سنة ١٨٧٩ ما يأتي تعريبه ملخصا :

(١) يسنون بذلك سلسلة حروب أشبه بحرب الصليب

« ان مبدأ علاقة انكلترة مع افغانستان كان في القرن التاسع عشر ، وذلك عند ما أرسل نابليون الأول « الجنرال غاردان » لمفاوضة العجم في عقد محالفة بينها وبين فرنسا ، لأجل فتح الهند ، فلما بلغ الانكليز ذلك أسرعوا بارسال وفد الى كابول ليتخذوا من الأفغان ردةً ضد العجم ، وكان يومئذ في كابول أمير عليه لقب شاه مثل شاه الفرس فحصلت عليه ثورة ، واستولى على الملك أخو الصدر الأعظم الذي كان عند ذلك الشاه وفر أحو الشاه الأفغاني الى الهند ، ملتجئاً الى الانكليز مستمداً نصرتهم لاسترداد ملكه كما ان أمير الأفغان الجديد ، وهو المسمى دوست محمد خان ، عقد حلفاً مع الروس فكان عمله هذا كافياً لتجريد حملة انكليزية على افغانستان ١٨٣٩ . وكان قد سبق الحملة الى كابول السائح الانكليزي المشهور برنس Burnes ليقاوم فيها دسائس الضابط فيكوفيتش الروسي فلما رجع برنس الى الهند أفتح « اللورد اوكلاند » بوجود الزحف واعادة الشاه القديم شجاع الملك ، ولكن ما أعيد الشاه المذكور حتى وجد الانكليز حاجة ماسة الى تعزيره بجيش عظيم ، لما كان قد انتشر في البلاد من الفوضى ، وظهر من عدوان الأهالي للانكليز. وفي سنة ١٨٤١ شبت نار الثورة في كابول ، وقتل فيها المعتمد البريطاني ، وعدد من ضباط الانكليز ، ثم اضطر القائد الانكليزي ، بالنظر الى تخرج موقعه ، الى طلب الأمان على نفسه وعلى جنده ، على أن يخرج من البلاد بدون توقف لا يلوى على شيء ، وهكذا خرج في أشد زمهرير الشتاء ، وكان ما كان من الملحمة المشهورة التي استأصل فيها الأفغانيون ١٦ ألف أو ١٧ ألف جندي انكليزي ليس منهم سوى ٤ الى ٥ آلاف مقاتل ، وذلك في كمين نصبوه لهم في « خورد كابول » فلم ينج سوى الطبيب العسكري « بريدون Brydon » الذي فر الى جلال آباد ليخبر قومه بالفادحة العظمى . ثم ان الأفغان تقدموا وحصروا جلال آباد التي كانت فيه جامية إنكليزية ، فقاومتهم زهاء شهرين الى أن زحف « الجنرال بولوك » من الهند فأقتدها . ثم بعد مدة زحف الانكليز بحملة عظيمة على كابول ونسفوا قلاعها ، ودار الملك وأخنوا بنارهم عما سبق (قال) : وقد أردنا الاشارة الى هاتين الحملتين اللتين تقدمتا للانكليز في افغانستان لما لهما من العلاقة بالحرب الحاضرة (١) كما أنه لا يخلو من الفائدة معرفة ما يعترض جيشاً أوربياً يريد التوغل في تلك الديار من العقبات

الصعاب وما يستجلب النظر من كون كتائب العساكر الأفغانية التي كان الانكليز قد كتبوها واستخدموها وظنوها أضعفت من جلة جيشهم قد انقلبت عليهم وكانت أشد أعدائهم وطأة في تلك الحرب « انتهى

نقول ما أستأصل جيش أوربي قوة وطنية في آسية أو افريقية ، وخطر بيال مؤرخ أوربي أن يذكر ما هناك من الاعذار المشروعة ، والاسباب المعقولة ، التي قضت بالطائفة للاوربيين على الوطنيين ، مع ما بين الفريقتين من التفاوت في الأعتاد الحربية ، والاختراعات الفنية ، والمعرفة بعلم التعبئة ، وأصول القتال ، فإذا أتاح الله واقعة بالعس قضى فيها بغلبة الوطنى على الاوربي أسرع المؤرخون الأوربيون الى تمويه تلك الدبرة بالهاس الأسباب المحففة ، واتحجال الأعذار المتنوعة ، التي لا تكاد تخلو منها هزيمة ، وذلك حرصاً على الشرف الاوربي أن يمس نقص ، وعلى المكاثة الافرنجية أن تتزعزع في نظر الوطنيين . فالجيش الانكليزي في خورد كابل وهو ١٧ ألفاً قد أفنى على بكرة أبيه ، سواء كان كله مقاتلين أم كان بعضه مقاتلا والآخر حاملا للذخيرة . والانكليز قد نعموا من تلك الواقعة أن ينظروا الى الأفغان بغير العين التي ينظرون بها الى جيرانهم الهند وعرفوا ان الأفغانى لا ينام على النار ، ولا يقبل أن يطاق الاجنبى وطنه ولا يواطى العدو على استقلال بلاده ، كما حصل من كثير من أمراء المسلمين الذين كان الواحد منهم يسعى بين يدي القوة الأجنبية ، ويدلل أمامها مناكب قومه ، طمعا في أن تلبسه تاجا موهوما ، أو تركبه عرشاً اسمياً ، كلا . ان الافغان منذ أول احتكاكهم بالانكليز أفهموا بأعمالهم هؤلاء أنهم ليسوا من طينة غيرهم من جيرانهم ، وأن المنافسة فيما بين أمرائهم على الملك لانصل الى حد الاجتراف بالاستقلال ، والمساحة بأمور الملك ، وأن الوفاء بالعهد عندهم لا يبلغ درجة تواطؤ الرجل مع الاجنبى على قومه ، ومقاتلة الجندي الافغانى جندياً افغانياً آخر يذب عن حوض وطنه ، بسبب كون الاول يأخذ جراية من ذلك الاجنبى ؟ كما فعل كثير من سلاطين الاسلام ورؤسائه واجناده ، واغتروا بالنعمة الزائلة والجائزة الموقته التي لم تلبث أن أفضحت بكاءهم دما ، واكلهم اناملهم ندماً ، بعد انتضاء الوطر ، واستتباب الأمر للفاتح الغريب ، مما لا تحصى ولا تعد أمائيله ، سواء في آسية أو في افريقية . ونقول مع الأسف ان الاسلام لما يبيل تماما من هذا المرض ، وانه ان كان ورد في أثره الشريف انه لا

يلدغ المؤمن من جحر مرتين فتراه اليوم يلدغ من جحر واحد مائة مرة ولا يتوب . وقد رأينا أن أكثر فتوحات أوربا في بلاد المسلمين والشرقيين عموماً إنما انتقت لها على أيدي المسلمين والشرقيين ، فأوربا اعتادت أن تستعين عليهم بهم وأن تضرب الأُخ بالأُخ وان تفرع النبع بالنبع ، وان تجرد على الاقطار التي تنوى استعمارها جنوداً من أهالي المستعمرات ، تخلصهم بنز من جنود أوربية ، وتضع على رأسهم قواداً أوربيين ، وتنال بذلك مناهها ، وفي حرب أفغانستان هذه ، وفي التي تليها . قد استعملت من أجناد الهند ورجالها وجالها وأفيالها ، ومن العساكر المتقدمة من ملاوكها وأفيالها ، حتى من نفس ملاوك الاسلام في الهند ؛ ما لا حاجة الى احصائه هنا ، كما انه في ثورة الهند الكبرى سنة ١٨٥٧ وهي التي اشفت انكلترة فيها أن تخسر الهند بأسرها ، يعترف المؤرخ المتقدم ذكره وغيره أنهم لم يكن بقي في جميع الهند سوى ١٠ آلاف جندي انكليزي لحفظ ١٩٠ مليوناً^(١) يردفها لواء واحد من متطوعة البنجاب ، وانه في تلك الأزمة ظهرت مهارة اللورد لورانس باستنفار بعض الزعماء لتسكين جنود من الأهليين ؛ اجتمع منهم فيما بعد فيلق جرار ، كان هو السبب في حفظ انكلترة لا للبنجاب فقط بل لجميع الهند . فالهنود هم الذين في الحقيقة فتحوا أنفسهم بأنفسهم لحساب انكلترة أولاً وآخراً ، وقد حاولت هذه الدولة أن تجرى على هذه الطريقة في أفغانستان فلم تنسق لها لا أولاً ولا آخراً ، ولو كان الأفغان مثل الهنود أو البلوج أو غيرهم من الأمم التي علفت في الحبال الاوربية لكانت أفغانستان اليوم ولاية من ولايات الهند ، أو امارة يليها بالاسم أمير من أهلها والحكم الحقيقي فيها للوزير المقيم أو للعميد أو للعميد كما يسمونه ، ولم يكن في عرض البلاد وطولها بندقية واحدة يتقي بها أفغان ذل العبودية ، بل الشعب كان يومئذ كله أعزل مقل الأقطار ، والقوة العسكرية التي تكون عنده يومئذ عبارة عن حامية انكليزية مؤلفة من بريطانيين وهنود وأفغان يخدمون في بلادهم على بلادهم ، بدراهم معدودات . هكذا كان شأن الأفغان لو اتبعوا خطة غيرهم من الأمم الشرقية الغافلة ، أو لو اقتنوا بنوابي « ايسا كل » و « نانك » و « تاونا » و « خان » السير خوجه محمود وغيرهم من أمراء الهند الذين كانت لهم اليد الطولى في قمع الثورة الهندية الكبرى . بل تجد المسيو لومارشان يقول في الصفحة ٢٨٩

(١) عدد سكان الهند في ذلك الوقت

من المجلد الأول من تاريخه « ان القبيلة الدورانية التي هي ثلث الأفغان ومنها الأسرة المالكة عندهم من الاعتزاز بنسبتهم وقومهم ما يحملهم مؤثرين لأى أمير كان مهما كان سمي السيرة ، على الحكم الأجنبي ، ولم يكونوا يأسفون على سقوط الأمير وتشريده مع عترته على شرط أن يكون لهم الخيار فيما بعد فى اختيار حكومتهم »

ثم نعود الى ذكر غزاة الانكليز فى بلاد الأفغان فنقول : ورد فى دائرة المعارف الاسلامية المحررة بالفرنسوية بقلم المسيو هوتسمه Houtsma ورفاقه خلاصة تاريخ الأفغان مستخلصة من نحو مائة مصنف بالعربية والفارسية والانكليزية والفرنسية والألمانية ومن جملة ما فيها أن الانكليز بعد أن دخلوا بلاد الأفغان للاخذ بأثر جيشهم سنة ١٨٤٢ وحلوا اجلاس الشاه شجاع الملك على عرش تلك المملكة ، رأوا ما هناك من صعوبة المراس ، وتعذر البقاء . وهجم على شجاع الملك من قتله ، فأزعم الانكليز الخروج من تلك البلاد وأخذوا معهم فتح جنك ابن الشاه المقتول ، ثم عمدوا الى مصالحة دوست محمد خان الذى علموا أنه هو الملك الوحيد الذى يمكنه أن يضبط زمام الأفغان ، فانهقد الصلح بين الفريقين على شرط أن الانكليز يحترمون حدود الأفغان ، وانصرف دوست محمد خان الى تحصين بلاده ، واسترد بلخ ، وكولم وقندز ، وبذخشان . ولما اشتعلت الثورة الهندية الكبرى سنة ١٨٥٧ التزم الحيداد ، ولم يستبيل تلك الغرة لمقاتلة الانكليز . ومات دوست محمد سنة ١٨٦٣ فنار الخلاف بين أولاده وتقاتلوا مدة طويلة ، والانكليز ينظرون اليهم من بعيد معتزلين الخلاف كله لعلهم أنهم لو أنشباوا أطفالهم فيه لتعرضوا لخسائر لا تحصى كالتى عرفوها من قبل ، ولكان آل الأمر الى اتحاد الأفغان كلهم يداً عليهم ، فلم يزالوا متربصين الى أن استوسق الأمر لشير على خان أحد أولاد دوست محمد خان ، وأطلق أحد أدباء الانكليز كلمة « عزلة رئيسية » على خطة الحكومة البريطانية يومئذ وسارت مثلاً . فلما أجمع الأفغان على طاعة شير على اتفق معه اللورد لورانس أولاً ثم خلفه اللورد مايو فأيد اتفاق سلفه على شروط معلومة ، وأولها أنه لا يدخل عسكري انكليزى واحد بلاد الأفغان لأجل اطفاء ثورة أو تدويح قبيلة عاصية (١) وأنه لا يرسل ضابط انكليزى معتمداً فى مدينة من مدن الافغان

(١) هذا خلاف طلب الذين تواتقوا مع الانكليز على أن يدخل هؤلاء بلادهم ويخمدوا لهم الثورات

ويغضوا لهم المعاصاة ثم بعد استتباب الطاعة يجلبون عن البلاد بزعمهم

وأنة لا يكون للامير راتب معين من انكلترة مشاهرة ولا مسانته . وقد توارث أولاد دوست محمد خان هذه الغيرة الشديدة من رؤية الأجنبي في بلادهم من والدهم الذي كان يقول للورد لورانس سنة ١٨٥٦ ما يأتي : « ان كنتم تريدون أن نبقى أممياً فلا تكرهوني على قبول ضباط انكليزي في بلادى » .

ويقول المؤرخ لومارشان السابق الذكر « انه قد بقيت العلاقات بين الانكليز وشيرعلى سائرة على هذه الوتيرة ، الى أن دخل الروس خيوه سنة ١٨٧٢ فراع ذلك شير على خان ، وأوفد من قبله من يسر غور الحكومة الهندية فيما لو وصل الروس في الاعتداء الى بلاده ، فورده الجواب بقبول رأى انجاده ان جرى عليه اعتداء بدون حق من جهة الروس ولكن الشروط التي وضعت لأجل القيام بتلك النجدة لم تكن لترضيه » .

قلنا : ان صاحب حرب تاريخ الانكليز والأفغان أغفل ذكر هذه الشروط عمدا لأنه من أول هذا التاريخ الى آخره مؤيد لسيرة انكلترة ، الا أنه بالبداهة يدرك القارئ أن الشروط التي وضعها الانكليز ولم تعجب شير على في حال احتياجه اليهم لا بد أن تكون مرة المذاق على أمير يهيمه أن تبقى مملكته بكرة لا تطمئنها قدم أجنبي ، ولا شك ان أول شرط منها كان اقامة مسيطرين انكليز في افغانستان ، ووضع حاميات انكليزية في بعض المواقع الافغانية وربما يكونون اقترحوا عليه قبول الحماية البريطانية ، ليصبح كأحد نوابي الهند أو نظام حيدر آباد ، ظانين أنهم يستفيدون من فرصة أزمته هذه لبسط حاية لا تزال تحدهم أنفسهم بها . ولكن لننظر الآن ماذا فعل شير على خان . يقول لومارشان

« انه لما ورد جواب الانكليز نفر وامتعض وصارت علاقته مع الانكليز في فتور مستمر ، وأبى السماح بالمرور لضباط انكليزي أرادوا انفاذه الى حدود شمالي افغانستان للفحص عن حالة الحدود ، وكذلك لم يأذن للسير دوغلاس فورسيت Douglas Forsyth العائد من كاشغر الى الهند . ورفض قبول مبلغ من النقود كان الانكليز بعثوا اليه به وبعبكس ذلك كانت علاقته ودية مع الحاكم الروسي في تركستان . ووقع هذا الجفاء في أواخر أيام اللورد نورثبروك ، فلما جاء اللورد ليتون خلفا لنور ثبروك بذل الجهد المستطاع لتأليف ذات البين مع شير على ، واقترح عليه ارسال جرى من قبل انكلترة هو السير بلي Peilly ليفاوضه في كابول في رغائبه ومراضيه ، فأبى شير على قبول هذا المعتمد ، واقترح هو ارسال معتمد الى بشاور للفاوضه في النقاط

الواقع الخلاف عليها ، وهي تدخل انكلترة بينه وبين ابنه يعقوب خان (١) وخطتها في مسألة حدود سبستان ، بين أفغانستان والعجم ، وارسال حاكم الهند هدايا رأساً الى أحد أمراء الافغان ، مع أنه تابع لمملكة شير على ، ورفض انكلترة رأى التحالف معه والاعتراف بتولية عهده ابنه عبد الله خان الى غير ذلك . فرضيت انكلترة بهذه المفاوضات في بشاور ، لكنهما لم تجب شير على الى مطالبه واعتلت عن كل منها بسبب ، فلم يسفر ذلك المؤتمر عن أدنى طائل . ثم ان هناك مسألة القبائل الافغانية العاتية المحادة للهند فان هذه القبائل بأجمعها تعترف برئاسة الامير ، وليس منها واحدة خلا قبائل البلوج التي الى الجنوب تقر بسلطان انكلترة عليها أو ترضى باختيارها وطأة قدم انكليزي لأرضها . وان جيع ما عند الانكليز من المعلومات عن هذه القبائل أو عن منازلها لم يتيسر لهم الا بواسطة الجغرافيين والمخططين الذين كانوا تابعين للجيش أثناء الحملات العديدة التي حلها الانكليز على تلك الديار ، ومن الغريب أنه مع شدة غيرة هذه الأقوام على بكاره بلادهم ، وحرصهم على أن لا تطأها قدم انكليزي تجدهم يحولون من بلدة الى بلدة في الهند ويتجرون بما يريدون في أسواقها ، ويخدمون جنوداً في الجيش البريطاني ، وتجد منهم عند الانكليز عمالاً ومأمورين ينتقدون الرواتب الجزيلة . فلا يبالغ الانسان اذا قال انه لا يكاد يخلو اذى في البنجاب من ضابط أو من ضباط متعددين من أبناء هذه القبائل ، وترى منهم ضابطاً في مدارس ومجاى وحيدر آباد . وبالرغم من كل هذه الأسباب التي كان ينبغي أن تجعل اللحمة بينهم وبين الانكليز شديدة ، فلا بد من الاعتراف بأن هذه الحالة منذ استولى الانكليز على البنجاب وجاوروا تلك القبائل لم تتغير تقريباً .

قلنا ان الوطنيين في أكثر البلدان ، الا من رحم ربك ، عودوا المستعمرين أنهم متى قبلوا وظائفهم وانتقدوا روايتهم جاروهم في جميع مقاصدهم ونبعهم في كل مراميمهم ، حتى فيما هو على الضد من مصلحة قومهم ، وفيما يمس استقلال وطنهم ، وأكثر ما سقطت البلدان المستعمرة تحت السلطة الاوربية انما كان على أيدي ماجورين من أنفس الأهالي ؛ يبيعون أوطانهم بخسيس الحطام وقليل المتاع ، ولهذا تجد المؤرخين الأوربيين نظير لومارشان هذا يقضون العجب من صنيع هذه القبائل الافغانية المحادة للهند كيف أنها مع شدة اختلاطها

(١) كان ثار عليه وأخذت انكلترة تحببه

بالانكليز وارتفاقها بأموالهم ووظائفهم لم توأطى الانكليز على بلادها ، ولم تتمكن لها في أرضها كما صنع كثير من غيرها ، فهؤلاء قد خالفوا العادة الجارية من غيرهم ، وهذا الأمر يدهش الاوربيين كثيراً .

ويقول هذا المؤرخ « ان القبائل البلوجية هي على خلاف ذلك فلها ادارة السند كانت دائماً أرفق وأهنأ من ادارة البنجاب. أما القبائل التي بين جبال ماهابون وجبال بوزدار فانها نحو خمس عشرة قبيلة ، منها ثلاث عشرة سالت الدماء غزراً بينها وبين الانكليز ، وساق عليها هؤلاء لا أقل من ٣٠ حملة (١) فن هذه القبائل قبيلة الجادون يسكنون المنحدر الجنوبي من جبل ماهابون وقوتها تقوم بنحو ٥٠٠٠ مقاتل ، وكانوا اذا شنوا الغارات على الأراضي الهندية اكنفى الانكليز محصرهم ، وسنة ١٨٦٣ جردت عليهم حملة بقيادة السير فايلد فاعادت العساكر أدراجها الاعدوا هم الى الثورة . ثم قبيلة البونازفال وهم من أشجع أعداء الانكليز وقعت الحرب بينهم وبين الانكليز سنة ١٨٦٣ فخر الانكليز في مصارعهم ٩٠٠ رجل بما بلوه من مر كفاحمهم . وبعدهم قبيلة السواتي الذين ساق عليهم الانكليز حملة سنة ١٨٤٩ ويقدر مجموع هاتين القبيلتين بنحو ٢٥ ألف مقاتل . ثم قبيلة اريانزاي وقد غزاهم الانكليز مرتين سنة ١٨٥٢ وعددهم ٣٠٠٠ مقاتل . ثم قبيلة عثمان كيل (٢) وعددها ١٠ آلاف رجل اشتدت وطأنهم على الانكليز ، حتى جردوا عليهم ثلاث حملات الواحدة عام ١٨٤٩ بقيادة الكولونل برادفورد ، والثانية عام ١٨٥٢ بقيادة السير كولين كامبل ، والثالثة سنة ١٨٦٦ بقيادة الجنرال دونسفورد . ثم الى الجنوب من هؤلاء قبيلة الماهوند الكبيرة وهي تقدر أن تحشد ٢٠ ألف مقاتل ، وقد ناجزها الانكليز سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٢ ثم بعد ذلك بستين تجددت الفتنة بينهم وبين أحد أخفاذها سنة ١٨٦٤ نشبت بين الفريقين معركة في سهل شو بكدودور

«وجميع هذه القبائل تنزل شمالي مضيق خير الشهير بالجبال التي تتاخم الهند الانكليزية ويوجد الى الجهة الغربية ، قبائل أخرى لا تقل عن هذه شدة بأس ، وصعوبة مراس ، مثل الباجورى والثنيفارى وغيرها ، ولكن مرادنا الكلام على القبائل التي بجوارها لتخوم الهند كانت الحروب متواصلة بينها وبين الانكليز . فبين مضيق خير وكوروم منازل

(١) هذا الى عام ١٨٧٩ فا ظنك بما جرى من الحملات منذ ٤٥ سنة الى اليوم

(٢) معنى كيل فضيلة أو رهط

قبيلة الافريدى التى تعد ٢٥ ألف محارب ، وهى على ما يظن أهم قبائل التخوم وقد تبارزت مع الانكليز مراراً عديدة ، وسافوا عليها زحواً سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٣ و ١٨٥٥ وأخيراً سنة ١٨٧٧ بقيادة الجنرال كايس والجنرال روس

« وكذلك قبيلة الميرنازى التى تجهز نحو ٥٠٠٠ محارب تبارزت مع الانكليز سنة ١٨٥١ و ١٨٥٥ و ١٨٦٩ وقبيلة التورى وهى تعادل الأولى فى العدد ، غزاها الانكليز عام ١٨٥٦

ثم الى الجنوب من هذه تجد قبيلة الاوراكرى من ١٥ الى ٢٠ ألف مقاتل حل عليها الانكليز سنة ١٨٥٥ و ١٨٦٨ و ١٨٦٩ بقيادة شامبرلين وجونس وكايس . وبين مضيق كوروم وغومول ، تسكن قبيلة الداڤارى قائلها الجنرال كايس عام ١٨٧٢ ، ثم قبيلة الوزيرى الشهيرة التى زحف عليها الانكليز سنة ١٨٥٢ بقيادة نيكولسون وسنة ١٨٥٩ بقيادة السير نفيل شامبرلين ، وسنة ١٨٦٩ بقيادة كايس لردعها عن الغارات والعدايات على حدود الهند . « وعلى جانبي غومول تسكن قبيلة المحسود وزيرى التى طالما أفلقت راحة التخوم الهندية ثم قبائل البوزدار ، والكازرانى ، والشهورانى ، التى هى دائماً فى جدال مع الجنود الانكليزية

« ولكن الى الجنوب من هذه قبائل أخرى كانت دائماً فى وئام تام مع الانكليز مثل الكتران ، والسكوزاه ، واللاڤارى ، والغورشانى ، والمارى ، والبوغتى ، ويقول لومارشان ان سبب هذه المسألة هو حب هذه القبائل للمال وايشاره على ماسواه ، فالانكليز عالجوهم بالسواء الذى رأوه الانجع فيهم » انتهى

وما لا يجوز أن ننسأه أن الاحصاءات التى أورها هذا المؤرخ عن عدد هذه القبائل انما هى عن الوقت الذى كان فيه عدد سكان الهند ١٩٠ مليوناً بدلا من ٣٢٠ مليوناً عند كتابة هذه السطور فلاجل صحة الحساب يبنى اضافة ٣٥ فى المائة على الأقل الى الأعداد التى أورها ، كما أنه قد وقعت منذ ٤٠ سنة معارك كثيرة بين البريطانيين وهذه القبائل من بعد الوقائع التى ذكرها ، واليك شاهداً ما جرى مع الافريدى :

ورد فى دائرة المعارف الاسلامية الآتفة الذكر « أن الافريدى هم عدة أنفاذ وهم الآدم كيل ، الذين منهم الجافا كى المجاورون لمضيق كوهات ولقبيلة خاناق ثم الآكا كل

المتدة منازلهم من آكور الى باراه . ثم الكوكي ككيل والكمبركيل والزا كا ككيل ، والمالكدين ككيل ، والكامركيل ، والسيباه ويقال لهؤلاء الافريدي الخيريون ، ينتجعون في الصيف الميدان في ناحية تيراه ، و ينزلون في الشتاء الى السهول ، وهؤلاء الخيريون معدودون في أشد القبائل عتواً وتوحشاً ، وأصعبهم مقادة ، ولا يزالون يشنون الغارات على السهول ولا سيما الزا كا ككيل الذين هم أقبحهم سيرة . وكانوا الى تاريخ سنة ١٨٩٧ يتباهون دائماً بأن أرضهم لم تظأها قدم فاتح ، ولكنهم في تلك السنة نفسها رأوا العساكر الانكليزية الهندية تجوس خلال ديارهم كلها^(١) »

ثم يقول « انهم كانوا ينتقدون مبالغ من المال لأجل أن يتركوا المضايق مفتوحة للسابلة ، وبعد أن استلمحت انكلترة بلاد بشاور لم تتعرض لاستقلالهم ، و بقيت تؤدي اليهم هذه الأعطيات لأجل حرية المرور ، ولكن مضيق ككوهات كان أكثر الاحيان مسدوداً بسبب المنازعات التي بينهم بحيث ان الانكليز غزوا الجافا كي منهم في شرقي مراكوهات سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ولكن لم تطل مدة الاحتلال^(٢) ثم انه في سنة ١٨٩٧ أعلن أحد المشايخ الجهاد في بلاد الشينفاري ، فأتصل الصريح بالافريدي والماهوند ، وهاجم الناثرون قلعة لاندي كوثال وافتتحوها ، وكذلك دخلوا عنوة المواقع العسكرية التي في جنوبي بلاد الاورا كزاي ، فجرد الانكليز جيشاً بقيادة السير لوكارت ، فاصطلت معارك حامية دامية ، وأصيب الجيش بخسائر ثقيلة ، ولكن جميع زوايا الديار قد جيست ، وجميع الفصائل العاصية قد اقتص منها . وبعد موقف طويل في ناحية الميدان ، عاد الجيش الى سهول بارا . ثم جردت حملة ثانية الى أودية خير و بازار ، وبعد ذلك أطاع الافريدي كافةً وصاروا ينتظمون في جيش الحدود ، ولكن سنة ١٩٠٨ عاد الزا كا ككيل الى عيشتهم المعتاد فسبق عليهم جيش الى أودية بازار وبارا ونسكل بهم »

ثم ورد في دائرة المعارف « أنه بموجب المعاهدة المنعقدة سنة ١٨٩٣ بين انكلترة والامير عبد الرحمن خان ، تخلى الامير عن بلاد الافريدي وسنة ١٨٩٧ أرسل هولاء وفوداً الى

(١) يذهب أن يعرف أن محرر هذا الفصل من دائرة المعارف هو انكليزي .

(٢) لا بد أن يكونوا لقوا منهم عذاباً واصباً ؛ لأن عدم اطالة الاحتلال لا سيما في قطة كهذه لا تنطبق

كابول يستنصرونه على الانكلاز فلم يلب نداءهم « انتهى
 فيظهر أن حالة هذه القبائل ومرودها على العيث والاخلال براحة الحدود الانكليزية
 منذ استولى الانكليز على الهند ، ولا سيما على البنجاب وديار بشاور كانت تدعو الحكومة
 البريطانية الى التحرش بأمر الأفغان اناجزه حرباً تكون عاقبتها اعترافه لها بالسلطة على
 منازل هذه القبائل لتمكن بذلك من الاخذ بنواصيها . وهكذا حصل فان الانكليز
 حشدوا جيشاً عظيماً عام ١٨٧٨ وقاموا بتجهيزات لا يقدر عليها غيرهم ، وتطوع معهم
 كثير من أمراء الهند ومن المرتزقة من القبائل التي في شمال البنجاب ، ومن أمة السيك
 الهندية المشهورة بالسلالة والتي لا تقبل في شدة البأس عن قبائل البانان السابقة الذكر وزحفوا
 بعدد وعدد تضمن لهم نجاح الحركة ، فبعد وقائع عديدة دخلوا كابول بقيادة اللورد
 دو برنس ، وفر شير علي خان الى مزار شريف في القسم التركي من مملكته حيث مات
 سنة ١٨٧٩ وكان شير علي قد غضب على ولده يعقوب خان لمقاومته له ، وحاربه في هرات ،
 فلم يقدر عليه ، فأمهله ريثما صرف جنوده ، وأظهر له العفو عما سلف ، فاستدعاه الى
 حضرته وأمنه ، فلما قدم اليه ألقاه في السجن وبقى مسجوناً الى أن دخل الجيش البريطاني
 الهندي كابول فأخرجوه من سجنه ، ونصبوه أميراً وعقدوا معه معاهدة غاندامق التي تخلى
 لهم فيها عن بعض الأراضي بجوار مضيق بولان ووادي كورام ، وتعهد بقبول بعثة
 بريطانية تقيم بعاصمة الأفغان فلم تمض على هذه المعاهدة أشهر فلائل حتى جرت ثورة في
 هذه العاصمة ، وذبح الأهالي أعضاء هذه البعثة بأجمعهم ، فعاد اللورد روبرتس بجيشه
 ودخل كابول ثانية ، الا أن الأفغان جهروا من خلفه وجاءوا فحصروه في كابول ، فغلق
 الانكليز يعقوب خان وأشخصوه الى الهند وداخلو الامير عبد الرحمن خان بن أفضل خان بن
 دوست محمد خان في قبول الامارة ، وكان جيش انكليزي في قندهار ، فزحف الى كابول
 على أن يكون من هناك جلاء جميع الجيوش الانكليزية عن افغانستان ، فلاقاه في الطريق
 قبيلة أحد كليل وأذاقوه علقم القتال فلم يخلص منها الا بشق الانفس ، ثم حشد أيوب خان
 ابن شير علي جيشاً في هرات وزحف به الى قندهار فالتقى بعسكر انكليزي فكسرهم ،
 فأسرع اللورد روبرتس الى قندهار واصطلت الحرب مع أيوب خان ، وأدرك الانكليز بهذه
 التجربة الثانية انه ما كل حراء تمره وان الاولى اخلاء افغانستان بأسرها فاتفقوا مع الامير

عبد الرحمن على أن يكون هو الأمير وجلاوا سريعاً عن البلاد . فأدار الأمير عبد الرحمن الأمور بحكمة سلم له بها أهالي الشرق والغرب ، ورّم فتوق بلاده وأقام العدل وأرهم الحد في المفسدين ، ووطد نفوذ الحكومة وأسس معملاً للسلاح ، وأصلح بقدر إمكانه تدريب الجيش ، ووسع حدود البلاد من جهة الشرق ، واستولى على ولاية كافرستان التي هدى الله أهلها على يده إلى الإسلام فسمها نورستان ، وبالاجال فقد ذقت مملكة الافغان في زمانه طعم الراحة ، وعرفت معنى الوحدة . ومازال يدد أمورها إلى أن قبضه الله إليه سنة ١٣١٩ هجرية وفق ١٩٠١ ميلادية . وهو معدود من أفضل ملوك هذا العصر في سداده وحكمه ومضاء عزيمته وبلغنى أن له تاريخاً مطولاً بالفارسي ذكر فيه ما جريات حياته . وخلفه ولده الأمير حبيب الله خان الذي خاطبته الحكومة البريطانية بقلب ملك ، وإن كان لم يتمكن من تأسيس علاقات خارجية مع غيرها مما بقي معه استقلال أفغانستان مشوباً بشئ من القصر لم ينفك قيده الإهمة ولده من بعده .

ولما نشبت الحرب العامة أحب الأتراك والألمان أن يجتذبوا الأمير حبيب الله خان إلى جهتهم وسارت بعثة ألمانية إلى كابول وخاطبته في ذلك فكان يعتقد أنه لو خاض غمرات هذه الحرب لجنى على نفسه وعلى وطنه فلم يأت بأدنى حركة نفيظ الانكليز ، وقد يعد عمله هذا مستحسناً لأن حفظ العهود أمر محمود ، والنظر في العواقب من أجل المناقب . إلا أنه عفا الله عنه ، كان يقدر أن ينتهز تلك الفرصة لمطالبة انكلترة بكثير من حقوق الافغان التي انتهمتها أثناء ما كانت أفغانستان في الضيق وذلك نظير أخذ البلاد التي ابتزتها إياها بدون حق والحجر الذي وضعته عليها في الأمور السياسية الخارجية وكنعها من الحصول على ثغر بحري تكون حرة فيه بوارداتها وصادراتها . فأهمل الأمير حبيب الله ذلك ، ومشى في سياسته على مقتضى مكارم الأخلاق الشرقية التي تأبى مهاجمة العدو في حالة ضيقه ، لا على مقتضى السياسة العملية الأوروبية التي لانعرف هذه المكارم بل تعدها من قبيل الخيالات الشعرية ، أو مبادئ الفطرة الأولى التي ليست في شئ من مبادئ المدينة الحضارة المبنية على الحقائق الراهنة ، وذلك بخلاف ما يدعى الأوروبيون من كون الشرقيين لايحترمون سوى بالقوة ولا يتأخرون عن نقض العهود إذا آنسوا من عدوهم الضعف . فيرمون الشرقيين بما هو في الحقيقة دأب الغربيين . ولقد ذهب أمانة حبيب الله خان مع انكلترة سدى إذ

بعد أن وضعت الحرب العامة أوزارها لم يزل من الانكليز أدنى مكافأة على وفائه وكيف ينال وجيع الخلفاء صاروا بعد الحرب غير ما كانوا أثناء الحرب ونسوا عهودهم مع كثير من الأمم التي نصرتهم في الحرب نصراً عزيزاً . وفي سنة ١٩١٩ وجد حبيب الله خان في مشاته بجلال آباد مقتولا ولم يعرف قاتله ، ولا سبب قتله ، وتوعدت الأقوال ولم يزل سر هذه الغيلة مجهولا ، وسمعت أن مصطفى الصغير الجاسوس الهندي الانكليزي الذي افتضح أمره أخيراً في انقره بعد أن قدمها جاسوساً في ثياب صديق ، قد زعم أثناء محاكمته التي آلت الى قتله أنه هو الذي دبر مؤامرة اغتيال حبيب الله خان بإشارة من الانكليز ، ولا أعتقد بصحة ذلك اذ لا يمكن أن دولة عظيمة كدولة انكلترا تقدم على أفعال كهذه لبس فيها شيء لامن حفظ الكرامة ولامن الحكمة ، والانكليز موصوفون بهذين الأمرين . فضلا عن هذا فالمرحوم حبيب الله خان كان للانكليز صديقاً وفياً . ولبت بهم طول مدة ملكه برأ حفيا ، فلا يعقل أن تكون هذه الضربة منهم بل الأليق بالعقل أن يكون قتله وقع بمؤامرة أناس متحمسين نعموا عليه شدة محافظته على ولاء الانكليز ، واضاعته فرصة الحرب العامة التي كان يمكنه في أثناءها أن يسترد كثيراً من حقوق الافغان المقتصة . وان الذين عرفناهم من رجال الدولة الافغانية يكذبون زعم مصطفى الصغير ، ويقولون ان هذا لم يكن يومئذ هناك ولا الأمير قتل في المكان الذي عينه من جوار كابول ، بل استشهد رحمه الله في جلال آباد . وقد ثبت أن مصطفى الصغير هذا افترى روايات كثيرة في تضاعيف استنطاقه في انقرة ، لا يعلم الانسان مقصده منها ، ومن جللتها افحام نفسه في حديث هذه المؤامرة . ثم ان الأمة الافغانية بعد استشهاد الأمير عوات على مبايعة جلالة ولده أمان الله خان ، مع كون ولي العهد هو نصر الله خان أخاه الأكبر ، فن حسن الحظ أن عدول الأمة عن ولي العهد الى أخيه لم يحدث شيئاً من القلق ، ولا صحبه شيء من الكوارث مما يدل على تعقل كل من الأمرين الأخوين اللذين أحدهما لم ينهض الى الحسام ، ولا أسرع الى الفتنة لأجل الملك ، والثاني لم يعامل أخاه الابالحسنى ، ولا جله الحنر منه على التضييق عليه ، كما كان يفعل الملوك السابقون . فاستتب أمر الدولة الافغانية على أحسن مايرام ، وانفتت الكلمة ، ولكن الأمير الجديد لم يستو على عرش كابول حتى أرسل الى الانكليز بمطالب أمته التي منها إعادة الأراضي التي اغتصبوها من ضمن حدود أفغانستان الجنوبية ، والتفرغ عن مرفأ بحري

تكون الدولة الافغانية فيه حرة ، وحق تأسيس العلاقات الخارجية رأساً مع سائر الدول بما كان الأفغان لا يفتأون يطالبون به ، فأبى الانكليز التسليم بهذه الشروط وجرّ ذلك الى زحف الجيش الافغاني ومن ضافره من قبائل البوتان السابقة الذكر ، واختراقهم حدود الهند ، ودارت رحى الحرب فكانت سجالاً ، وصادفت خروج بريطانيا العظمى من الحرب الكبرى وملل الشعب الانكليزي من سفك الدماء وبذل القناطير المنقطرة ، وعلم الانكليز ما أمامهم من العقبات في حرب الافغان وانها ستكون أشد عليهم من الحروب السابقة فجنحوا الى السلم ، وعرضوا على الافغان الهدنة ، وذهب محمود ترزي خان ناظر الأمور الخارجية في كابول الى الهند واتفق مع الانكليز على مشاركة السلاح ، وأوفدت انكليزة وفدأ الى عاصمة الافغان للتفاوض على شروط الصلح أثناء كون الجيوش من الطرفين مرابطة على العهد ، فانعقد الصلح في سنة ١٩٢١ على شروط . أولها استقلال الافغان في الأمور الخارجية كما كانت مستقلة في الأمور الداخلية والثاني حق امرار السلاح من طريق الهند والثالث تحديد منطقة متحايدة من بلاد قبائل البوتان لاتكون ملكاً لا للانكليز ولا للافغان . ولم ينتظر شاه افغانستان عقد المعاهدة لتأسيس سفارته لدى الممالك الاسيوية والأوربية بل قبل الصلح أرسل سفيراً الى طهران ثم سفيراً الى أنقرة ، وعقد مع الأتراك معاهدة متينة للسلم والحرب ، ثم معاهدة مع حكومة موسكو ، وأرسل اليها سفيراً هو أول سفرائه في أوروبا ، وهو الفاضل النبيل محمد خان . ثم أوفد الوزير الجليل الجنرال محمد ولي خان بيعته فوق العادة الى أوروبا لتأسيس سفارته في عواصمها فبدأ بفارسوفيا عاصمة بولونيا ثم قدم برلين ، ثم ذهب الى رومة ، ثم الى باريز ، ثم الى أميركا ، وأثناء مقامه بواسطون دعاه سفير انكليزة فيها باسم حكومة بريطانيا العظمى أن يزور لندن فلبى الدعوة ، ولما جاء الى العاصمة استقبله رجال حكومتها براً وترحيباً ، الا أنه رأى وزير المستعمرات يفاوضه في بعض المسائل ، فأبى محمد ولي خان الدخول في أدنى مفاوضة مع وزير المستعمرات ، كما سمعت ذلك من فمه ، وقال : لاشغل لنا الامع نظارة الخارجية . فاعتنروا له عن هذا الخطأ غير المقصود ، وشرعت الخارجية تفاوضه في عقد معاهدة الصلح فأجلب : انما ذلك هو عائد الى الحكومة الافغانية في كابول ، وهي في مذاكرة مستمرة مع الوفد البريطاني الذي هناك . ولما تم عقد الصلح أرسلت الحكومة الافغانية عبد الهادي

خان من أئبه نبياء شبانها سفيراً الى لندن ، كما انها جعلت غلام صديق خان من أنجب نجبائها أيضاً سفيراً برلين ، والامير شير أحمد خان سفيراً في رومة ، ثم عند ما استقال الوزير الجليل الفاضل محمود ترزى خان من نظارة الخارجية الهامساً لترويج النفس في أوروبا ، بعد ان التناث مزاجه لكثرة الاشغال التي عاناها عينه الامير سفيراً له في باريز ، وهو بمن قاموا بخدمات جلائل لا يساهاه تاريخ الافغان . فانتدب الامير نظارة الخارجية محمد ولي خان السابق الذكر . ثم ان من قام بخدمة الحكومة الافغانية في أوروبا محمد أديب خان من أجل أدباء دمشق اذ كان هو الممثل للدولة الافغانية في برلين لاول تأسيس السفارة الى أن تعين مؤخراً معتمداً لها في وطنه الاصلى دمشق . وقد كان محرر هذه السطور حظ معرفة هؤلاء الامائل باجمعهم ، وعند ما قدم الوفد الافغانى برلين ، احتفلنا بهم في النادى الشرقى الذى يرئاسة هذا العاجز ورأينا من ذكائهم وشهامتهم وحيثهم ما صدق لنا التواريخ الماثورة عن جنسهم ، أما الوزير محمود ترزى خان فقد سبقت لنا معرفته منذ مدة مديدة اذ كان وقع بين والده المرحوم غلام خان وبين المرحوم الامير عبد الرحمن خان نفور أدى الى هجرة غلام خان وطنه واقامته بالشام وهناك أسعد الحظ بمعرفته عرضاً فكان له نحوى عاطفة أوروبية ، وأهدانى مرة تذكراً نفيساً وهو مديح نظمته بالفارسي في شمائل الحضرة النبوية ، عليها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وكتبه مذهباً بخطه الاينق . وكان رحمه الله من صناديد الكتائب والكتاب ، وابطال الحرب والمجرب ، وذرف على التسعين ، وهو يقوم الفجر ويصلى في الجامع الاموى ، لا يتخلف يوماً واحداً ، وكان معه ولده محمود ترزى خان الذى هو اليوم سفير افغانستان في باريز ، وهو الوطنى الذى حرر مدة طويلة جريدة « سراج الاخبار » وجاهد في ترقية ادارة بلاده وثقيف قومه بالفنون العصرية ، بقلمه البليغ ورأيه الاصيل ، ما لم يوفق الى مثله غيره .

ولقد باشر شاه الافغان الحالى تنظيم ادارة البلاد الملكية ، وتعليم الجيش وتسلحه على الطرق الحديثة وتوسيع معمل السلاح الذى في كابول ، وأرسل عدداً وافراً من الطلاب للتحصيل في أوروبا ، من جتلهم أولاده واخوته الصغار ، فجعل قسماً منهم في برلين والقسم الآخر في باريز ، وانتدب عدداً من ضباط الاتراك لتدريب الجيش ، وعدداً من الاساتذة والمتخصصين الاوبيين لترقية التعليم والادارة ، واستدعى طائفة من المهندسين

لتخطيط الطرق الحديدية ، واستخرج المعادن واستثار خيرات البلاد فالمملكة الافغانية سائرة في أيام الامير امان الله خان الشاه الحالى سيراً حثيثاً الى الامام بحيث يحكم العارفون أنه لا تمضى ٢٠ سنة على أفغانستان ، حتى نصير أعز دولة في آسية الوسطى ، وتعود ركنا للشرق والشرقين . وهي الآن تحتوى على نيف وتسعة ملايين من السكان ، ولما انعقدت المعاهدة بين كابول وموسكو سنة ١٩٢١ كان من جملة شروطها تخيير ولاية كوشكه في الرجوع الى الأفغان ، وهي ولاية على حدود تركستان كان الروس اغتصبوها منذ نحو أربعين سنة ، وصبر عبد الرحمن خان على ذلك خشية أن يتهور في حرب مع دولة عظيمة كلروسية لا طاقة له بها . فبعد استرداد أفغانستان لهذه الولاية يناهز عددها ١ ملايين نسمة وعلاقات الدولة الأفغانية جيدة مع جميع الدول ، الا أنها متضامنة مع تركيا تضامناً تاماً ، حل الأمير أن يصرح لسفير انكلترة عندما عقد الصلح معه في كابول وأن يخاطب نفس ملك الانكليز ، بأن أفغانستان لا يمكنها أن تخلص الود لانكلترة ما دامت هذه تنصب العنوان لتركيا ملجأ للخلافة الاسلامية . ولعمري انه لا يوجد في العالم الاسلامي فرد فيه ذرة من العقل الا وهو يتخنى الوثام بين انكلترة وبين تركيا ، وأفغانستان ، ومصر ، وبلاد العرب ، وسائر بلاد الاسلام ، لما لانكلترة من المصالح الشائكة والعلاقات الكثيرة في الشرق ، وما في الائتلاف بين هذين العنصرين من المنافع الجزيلة لهما معاً . ولكن مادامت انكلترة سائرة على الطريقة التي اتبعتها منذ ٤٠ سنة ، وهي السعي في تفكيك أوصال الاسلام ، وابعاد حياض من كل جهة ، استئصالاً لشأفة قوته السياسية ، وتقليباً لجميع أظفاره أن تحدته نفسه بأذى وقوف في وجه قوة استعمارية ، وما دامت هي آخذة على نفسها القيام بمحطم هذه العداوة ، فان أمد الصراع بين هاتين القوتين لا يزال طويلاً ، وليس من المرجح أن الانكليز هم الذين سيربحون في هذه التجارة .

أما القبائل المرذكرة فقد ازدادت الوقائع بينها وبين الانكليز بعد الحرب العامة ولا يمضى شهر واحد حتى تأتي جوائب الأخبار بمحركة أو واقعة ، وقد عول الانكليز على قتال هذه القبائل بالطائرات القاذفة من عل بالكرات المحسوة ديناميتاً ، وهي طريقة عمدت اليها أوروبا بعد الحرب الكبرى التي ترقى فيها فن الطيران الى هذا الحد ، فصار لكل دولة مستعمرة أسراب من هذه الطائرات مرصد أكثرها للتكبير بالأقوام التي تتور على

السلطة الاستعمارية أو تطالب بحق استقلالها ، أو لا تريد أن تطيع الأحكام الجائرة الجارية عليها . ولا ينحصر عمل هذه الطائرات بالفرق الثائر أو العصاة الخارجة ، بل الطريقة المتبعة هي أنه عند ما تبدو من ناحية علامة عصيان أو مقاومة ، ترسل الطائرات فوق القرى أو المدن فتقذف عليها أجالا من الديناميت تنسف الديار ، وتقتل النساء ، والأطفال ، ولولم يكن لأحد من أهالي تلك المدن أو القرى أدنى صلة مع الثائرين إنما هو الارهاب ، والقاء الرعب في القلوب ، واجراء المثلث بهؤلاء ايشخى أولئك . وقد وجدت دول الاستعمار هذه الطريقة أقرب منالا وأقل نفقة من تجريد العساكر وتمقب الثوار الى مكائهم . ولا تكثرة وزارة خاصة بالطيران تنفق سنوياً خمسة ملايين جنيه انكليزي على طيارات الشرق التي هي مرصدة لقبائل البوتان وأهل الهند وأهل جزيرة العرب والعراق ومصر الخ . كما ان عند فرنسا أوفاً مؤلفة من هذه الطيارات تستخدمها في المغرب وسورية . ومع هذا فكل من هاتين الدولتين تدعى أن استخدام هذه الوسائل الجهنمية وقتل النساء والأطفال إنما هما لأجل المدنية

من بعد صدور هذا الكتاب طبعته الأولى جدت في بلاد الافغان حوادث ذات بال خلاصتها ان الشعب انتفض على أمان الله الملك الذي تولى المملكة بعد والده حبيب الله خان وهزم الثوار جنده فالتجأ أمان الله الى الفرار من كابول الى قندهار ومنها الى الهند حيث ركب البحر من بمباى وجاء الى أوربة واختار الإقامة برومة . وتولى عرش الأفغان من بعده نادر خان الذى كان ناظر الحربية لأوائل عهد أمان الله ثم صار سفيراً لأفغانستان في باريز ثم استعفى واعتزل وأقام مدة سنوات بمدينة طولون

وتحرير القصة ان أمان الله تولد فيه الميل الى التفرنج والافتداء بالاوربيين في كل شئ وأعجبه في هذا الباب مسلك مصطفي كمال المستأثر بأموار تركيا ووجد في مصطفي كمال حجة على من خالفه في هذا الرأي وكثر كلامه في القضاء على العادات الاسلامية القديمة ولا سيما حجاب النساء . وكان يزعم ما يزعمه رجال انقرة اليوم من أن التمسك بهذه العادات هو الذى أفضى بالاسلام الى هذا الضعف وأن طريق النجاة الوحيد للمسلمين هو الافتداء بالاوربيين في ماخذهم ومناصكهم ولباسهم وطعامهم وجميع ما عولوا عليه . وبالاختصار فكل ما رآه الافرنج حسناً فهو حسن ولولا أن يكون الافرنج أقدر على معرفة

الحسن من غيره ما كانوا نجحوا هذا النجاح الباهر الى غير ذلك من التعليقات الانقرية الواهية المردودة بالبداهة وبحجة ان علماء الافرنج أنفسهم معترفون بأن رقى الامم المادى لا يتم لا ضمن مقوماتها الروحية ومشخصاتها الاجتماعية وبدليل أن الافرنج تقدموا هذا التقدم فى العلوم والمعارف والفنون والصناعات ولبشوا عاصرين بالتواجد على تقاليدهم المسيحية لا يخرجون عنها وقد يكونون أشد اعتصاماً بها من المسلمين بتقاليدهم

فأمان الله خان أعجبه خطة مصطفى كمال فى هذا الموضوع ويقال ان محمود ترزى خان الذى هو أبو زوجته وناظر الخارجية عنده كان يزين له هذا المسلك وان العلاقة الوثيقة التى كانت بينه وبين الحكومة التركية السكالية هى التى كانت أكثر السبب فى جنوحه الى هذه الخطة

وسنة ١٩٢٨ أراد أمان الله أن يقوم بسياحة فى أوربة والبلاد الشرقية فجاء الى مصر ومعه زوجته الملكة ثريا ووافاه اليها محمود ترزى خان حوه قادماً اذ ذاك من أنقرة . ويظهر ان مصطفى كمال كان أرسل الى أمان الله بوجود الظهور فى مصر بمظهر التفرنج الذى كان الغازى قد حل عليه أهل تركيا وجاء ثقيلًا على الشعب التركى ورأوا أنفسهم منفردين عن العالم الاسلامى فكان من جملة سياسة مصطفى كمال أن ينشر عادة سفور النساء ولبس القبعة وعادة الرقص المختلط وغير ذلك من الأمور التى أوجبها على الأتراك وأن يحمل عليها المسلمين من غيرهم كما جرى منه مؤخراً فى تقاضيه من سفير مصر بانقرة عبد الملك بك حمزة أن يخلع طربوشه فى حفلة رسمية مما أدى الى منازعة بين مصر وتركيا وصارت مسألة دولية بينهما . فلا شك فى أن محمود ترزى وصل الى مصر متزوداً بتعليقات مصطفى كمال باشا الى أمان الله خان بأن يبدأ ببند التقاليد الاسلامية من مصر لأن الناس لحظوا ان الملكة ثريا دخلت الى مصر متحجبة على عادة نساء المسلمين وانها بدأت بالسفور فى مصر . وكذلك بدأ أمان الله بلبس القبعة فى مصر وأفضى الى الصحفين بحديث معناه وجوب عدول الشعوب الاسلامية عن أزيائها الحاضرة . وذهب أمان الله خان الى الجامع الأزهر بالقبعة فبعد ان كان العلماء قد اجتمعوا هناك اعظاماً لقدمه عند ما شاهده آتياً بالقبعة انصرفوا مشمئزئين ولكن ملك الأفغان لم يكن عنده يومئذ الا الرغبة فى تقليد مصطفى كمال وهذا الذى هوى به عن عرشه

ثم جاء أمان الله الى أوربة مع الملكة ثريا وزار عاصمة ايطاليا ثم عاصمة فرنسا ثم عاصمة سويسرة ثم عاصمة ألمانيا ثم موسكو ثم انقرة وغيرها ولقي في كل مكان اكراماً وحفاوةً الا انه كانت أخبار تفرنجيه وسفور زوجته قد وصلت الى افغانستان وهاجت عليه رجال الدين والشعب الأفغاني

ولقد كان أمان الله يكره علماء الشرع الاسلامي في مملكته ويحب خضد شوكتهم اقتداءً بجدّه عبد الرحمن خان لكن جدّه كان يقهر رجال الدين ويحطّ من مكاتهم وفي الوقت نفسه يحافظ على الدين من حيث هو وعلى العوائد الاسلامية فهذا أمكن عبد الرحمن خان ان يقهر علماء زمانه بدون أن يتعرض لخطر الثورة في بلاده بخلاف حفيده الذي باقدامه على ما أقدم عليه من نبد العوائد الاسلامية والتشبه بالافرنج في السكلى والجزئى قد هاج عليه حنق العلماء وأوجد لهم عليه طريقاً فهاجوا عليه القبائل وأشاعوا أن الملك استخف بالدين واستهتر واقتدى بالافرنج في ماآخذه ومناكره وبدأ الهييجان على أمان الله في غيابه الا أن الثورة لم تشتعل عليه الا بعد أو بته الى كابول ولم تنحصر أسبابها في التفرنج وحل النسوة على السفور بل اتهم الملك أعداؤه بأنه غلّ من مال الدولة وذهب الى اوربة يتنزه وينفق على لذاته بينما قد مضى أشهر على الجند وهم لا يقبضون أرزاقهم ولا رواتبهم فتغيرت عليه قلوب عسكره . وعند ما أثار العلماء قبائل الافغان على الملك كان أكثر الناس قد انفضوا من حوله ونشبت الحرب فانكسر الجند الذى كان يقى معه وثار رجل اسمه ابن السقا أصل أبيه سقاء من رعاى الناس وهو نفسه كان من قطاع الطرق فاعصوب حوله كثير من الدعار ومن كانوا يتر بصون بالملك الدوائر وهاجوا كابول وكادوا يدخلونها ففر الملك الى قندهار التى هى مركز عشيرة الدرانية التى ينتسب اليها بيت الملك وترك الملك لأخيه الأكبر عناية الله خان طانا أن المشكل ينحلّ بنزوله هو عن العرش . وبايع رجال الحكومة أخاه وبقى ملكاً نجواً من ثلاثة أيام اذ دخل ابن السقا هذا بأعوانه خلفوه ايضاً ولحق بأخيه وتسلم ابن السقا زمام الأمر وقتل وقتك وحرص القبائل على قتال أمان الله والزحف اليه فى قندهار فأحس هذا بشغل الحلة وفرّ بالطيارة الى الهند ومنها أبحر الى اوربة وأول مدينة صعد اليها رومة واستقر بها اسبب لا نعلمه

أما ابن السقا فقد عضده رجال الدين واستوسق له الأمر وبقيت الامرة بيده عدة أشهر ورجما كان قد طال حكمه لولا ماحدثته به نفسه من مبايعة الناس له أميراً غير مكنت

بالوزارة . ولم يكن الافغان ليقبلوا السقا اميراً لجنى بذلك على نفسه . وذهب نادر خان من طولون ومعه اخوته وزحف الى كابول بالقبائل الموالية لبيت الملك وعضده رجال الدين الذين كانوا لا يرضون بالسقا اميراً ولكنهم يخشون رجوع امان الله فهزم جنود السقا وقبض عليه وقتله ومزق شمل اتباعه واستوسق له الامر وسار بالرعية سيرة الامير العادل الحازم في غير عنف ، الشفيق في غير ضعف واقفى سنتى امان الله في الاعتناء بالعلم والتعليم وتنظيم الجيش وترقية وسائل العمران الحقيقي لكن بدون تعرض للمسائل الاجتماعية ولا تشبث باحداث انقلابات في الازياء والعوائد والتقاليد كما أراد أن يفعل ابن عمه امان الله . ولقد خرجت بلاد الافغان من هذه الثورة منهوكة القوى فشرع نادر خان يرأب الصدوع ويضمد الجروح ويرى جميع الناس يتمنون له النجاح ويرجون الخير والفلاح لهذا الشعب الباسل المجيد الذى هو في طليعة الشعوب الاسلامية في الذكاء والحية وكرم المهزة وشدة البأس اما امان الله فبقي مدة يترقب ان يدعوه نادر شاه الى الاستواء ثانية الى العرش ولكن نادر شاه احتفظ بالعرش لنفسه لا لمجرد حبه الامارة ولا مطاوعةً للنفس الامارة بل نزولا عند ارادة الاهالى وعلماء الشرع . فكان ذلك مما أحفظ امان الله خان وأحدث بينه المسكين السابق واللاحق من الجفاء ما كل انسان يود زواله

ولما كانت الحوادث التاريخية التي تمه التاريج العام أقرب الى الثقة فيما اذا استقفاها الراوى من منابعها الاصلية وحدث فيها عن اصحاب الشان رأساً رأيت ان اختم هذا المبحث عن افغانستان برواية ما جرى من الحديث بينى وبين جلالة امان الله بعد زواله عن العرش الافغانى

كنت جيد معجب بامان الله فى الدور الاول من امارته كما يتضح من الفصل الذى كتبه عنه فى الطبعة الاولى من هذا الكتاب وذلك لكونه تم استقلال الافغان واجتهد فى ترقية شؤون تلك الامة وكانت لى علاقة بسفرآته ورجاله يوم كنت رئيساً للنادى الشرقى فى برلين سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٣ . ولما تألفت جمعية المانية افغانية فى تلك العاصمة واتخبت لها رئيس أول من الالمان اتخبت أنا لها رئيساً ثانياً . وكانت ترد لى الكتب من كابول متضمنة الشكر من جانب امان الله خان عما كنت ابذله من الجهد فى خدمة الدولة الافغانية . ولهذا لما سمعت بخبر قدومه الى الغرب كنت متحفزاً لاستقباله وتقديم الواجب لجلالته كرجل سبقت له معه علاقة الا انى لما علمت بما ظهر منه من مصرثم فى اوربة من مشايعة

السياسة الانقرية التي لم أوافق ولن أوافق عليها وعلمت ان الملك فؤاداً نصحه بالمحافظة على أوابد قومه وعوأندهم ولم يسمع نصح جلالة الملك فؤاد أمسكت عن السلام عليه حتى بعد مجيئه الى لوزان حيث كنت مقبياً وتسرر عتاب حاشيته لي على ذلك ولم أفعل . وكنت متوقفاً لا تطول اماره امان الله بعد هذه المظاهر التي ظهر بها في بلاد كافغانستان أهلها شديدو الاستمساك باوضاعهم الدينية والقومية .

ففي شهر رمضان سنة ١٣٤٩ جاء الملك امان الله الى سويسرة وبمعه أديب خان الاديب الدمشقي الذي لي معه محبة من ايام برلين وهو خال الملكة ثرياً ونزلاً في مونتر و كالني أديب خان بالهاتف لاجل السلام على الملك فذهبت من لوزان الى مونتر و سلمت عليه وتلطف هو فاعاد لي الزيارة بمنزلي بلوزان . وجرت بيني وبينه عدة مجالس نخلنا فيها جميع المسائل التي أوجبت الانقلاب الذي جرى في افغانستان ولم اكنم عنه شيئاً من الاتقادات التي وجهتها على سياسته وحررت بها بعض مقالات في الجرائد العربية فكان جوابه عن ذلك انه قسم ما عزى اليه من الامور الى ثلاثة اقسام قسم أقر فيه بالخطأ والتسرّع وقال ان مجلس وزرائه لم ينهه له . وقسم قال انه جرت فيه مبالغة كثيرة بحسب عادة الرواة في المبالغة . وقسم أنكر وقوعه منه بتاتاً وقال انه من باب الافراء عليه . واخذ يذكري متعدد خدماته للامة الافغانية . وأجبت بان هذه الخدمات لم ينكرها أحد ولكن الناس يتمنون لو اتفق مع ابن عمه نادر خان حباً براحة هذه الامة التي أتعبتها الفتنة التي وقعت فيها واستمرت اكثر من سنة .

ثم ذكر لي رغبته في اداء فريضة الحج الشريف وقال ان الوقت لم يسمح له بادائها يوم جاء الى أوربة ماراً بالشرق الادنى مع انها كانت في نيته فينت له ان ذلك كان أيضا من جملة ما أخذ الناس عليه ولكن من الممكن تلافي هذا الأمر . فابدى لي رغبته في الكتابة لجلالة ابن سعود في عزمه على الحج ذلك العام . فقلت له ان مثل جلالاته يلقي في الحرمين الشريفين كل الاجلال اللائق بامثاله وان الملك ابن سعود من أحسن خلق الله وفادةً ومعاملة لكل قادم فكيف اذا كان القادم ملكاً من ملوك الاسلام . ومع هذا فقد كتبت الى جلالة ملك الحجاز ونجد بنية الملك امان الله الحج تلك السنة . ولما توجه الى الحجاز لاداء الفريضة عامله الملك ابن سعود معاملة الأخ لاخيه وعاد الملك امان الله من مكة الى رومة حيث هو مقيم الآن وحيث لا يرى الناس لاقامته بها وجها .

المسلمون في الصين

المسئول

مسلمو الصين^(١) كأنهم ليسوا من هذه الدنيا فالملومات عنهم قليلة والروايات بشأنهم متناقضة والى هذه الساعة لم يعرف المؤرخون كيف كان وصول الاسلام الى الصين. أوصل اليها بحر أم طريق الهند أم وصل برأ بطريق تركستان وما وراء النهر كما أن الجغرافيين وعلماء الاحصاء الى اليوم لم يتفقوا على عدد المسلمين الصينيين فمنهم من يجعله عشرين مليوناً ومنهم من يجعله خمسة وعشرين مليوناً ومنهم من يقول ثلاثون ومنهم من يقول أربعون وكثيرون أكدوا القول بأن في الصين ٦٠ مليون مسلم ومن هؤلاء بعض علماء من مسلمي الصين جاءوا الى الاستانة ومصر وأكدوا أن المسلمين هناك لا يقلون عن ستين مليوناً وكذلك روى لى مستشار سفارة الصين في برن قاعدة سويسرة وبخلافه قال غيرهم فأكدوا أن مسلمي الصين لا يزيدون على عشرة ملايين وان بعثة أولون Mission d'Ollone التي أرسلت بمساعدة نظارة المعارف الفرنسية وجابت بعض أقطار الصين لا تجد المسلمين يزيدون على خمسة ملايين في جميع بلاد الصين وان كانت تقول انها لا تقدر أن تجزم بشئ .

وأما دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، فتقول انه لا يمكن الاعتماد على قول وثيق من جهة العدد ولكن برومهال Broumhall أرسل سؤالاً الى نحو ثمانمائة شخص من أهل الصين لجاءه نحو ٢٠٠ جواب من أما كن مختلفة فأستخلص ما يأتي :

ولاية كانسو أقل ما يقدر فيها مليونان من المسلمين ومعظمه ثلاثة ملايين ونصف مليون . والمسلمون في كانسو كثيرون في غربي هذه الولاية ومواليدهم تزيد بالنسبة على مواليد الصينيين ويوجد نواح خلت من الاسلام بعد الثورات التي جرت في « ليانغ تشوفو » لم يبق سوى ٧٠ مسلماً . وفي « هسي نينغ فو » يوجد ٢٥٠ ألفاً وفي « لان تشوفو » قاعدة الولاية ٢٥ ألفاً ولهم جوامع عظيمة وربما منعوهم بسبب الثورات الأخيرة من السكنى في داخل المدن فكثروا في الضواحي وكانت لهم جوامع فيها كما هو الحال في

(١) راجع صفحة ٢٩٣ و ٣٠٠ من الجزء الأول

« نينغ هسيا » و « نينغ ليانغ » .

ولاية « شنسى » كان فيها قبل الثورات مليون مسلم ولا يظن أنه باق فيها اليوم أكثر من خمسمائة ألف . ويوجد في « سنغان فو » سبعة جوامع وفي (تشونغ فو) ثلاثة

ولاية شانسى يقال ان فيها ٢٥ ألف مسلم

ولاية (تشيهلى) الاحصاءات تختلف كثيراً فمنها ما يجعل مسلمى هذه الولاية ٢٥٠ ألفاً ومنها ما يجعلهم مليوناً وفي باكين من ٣٠ الى ٤٠ جامعا ومنها المسجد الأعظم (نين شيه) الذى يدرس فيه على رضا التركي . ويقدر عدد المسلمين فيها بعشرة آلاف . وفي أرباضها مسلمون كثيرون . كذلك في الشمال من جدار الصين الكبير عدد وافر من المسلمين .

ولاية « شاتونغ » هم فيها من ١٠٠ الى ٢٠٠ ألف نسمة .

ولاية (هونان) هم فيها أكثر من ٢٠٠ ألف نسمة فى مدينة (هوى شينغ فو » أربعمائة ألفاً والقرى المجاورة كلها مسلمة وفي (شنج شو) عشرة آلاف وأهالى « هوى تين شى » كلهم مسلمون ومساجدهم كثيرة .

ولاية (كيانغ سو) مظنون أن فيها ٢٥٠ ألف مسلم . وفي « نانغ كينغ عشرة آلاف لهم ٢٥ جامعاً

ولاية « ستشوان » ليس عندنا معلومات راهنة الا عن قسم منها فيه ٥٠ ألف مسلم والمظنون أن الولاية كلها تحوى ٢٥٠ ألفاً . ومركز الاسلام هو فى الشمال الغربى من البلاد مثل (سونغ بان تينغ) وينمو الاسلام كثيراً على حدود التبت . وبلدة (كيوشياو) فيها ١٢ اماماً و ١٠٠ اهونغ (أى عالم)

ولاية (كوى تشوا) لا يوجد فيها أكثر من عشر آلاف مسلم ولهم أربعة مساجد .

ولاية (ينان) يختلف الاحصاء فيها من ١٦٠ ألفاً الى مليون . وقد نفت الثورات من بلاد الاسلام فيها جانبا كبيراً وان مدنا كثيرة صارت قاعاً صفضاً . ويقال ان مسلمى ينان يخفون عددهم الحقيقى اجتناباً لخاوف الحكومة الصينية . ولا يختلف مسلمو ينان عن الصينيين لا فى الزى ولا فى الفكر ويظن دافيز Davies أن المسلمين فى السهول هم أضعاف

مضاعفة عمائم في الجبال وانهم ثلاثة في المائة أى ثلاثمائة ألف نسمة لا غير . وأما سوليه Soulie ففي مجلة العالم الاسلامى سنة ١٩٠٩ حزرهم من ٨٠٠ ألف الى مليون وكذلك البشرود يقول ان في نان مليوناً من المسلمين وعلى كل حال لحساب تيرسان Thiersant صاحب كتاب (المحمدية في الصين Le Mahamétisme en Chine) بأن مسلمى نان هم أربعة ملايين هو بعيد .

ولاية « هوبه » ليس فيها أكثر من عشرة آلاف وفي (فوشانغ) ثلاثة مساجد وفي (هانكو) مسجداً .

ولاية (كيانغ سى) هم أكثر قليلاً من ٢٥٠٠

ولاية (آن هوى) فيها أربعون ألفاً ويكثرون في شمالها وفي العاصمة (انكينغ) ستة آلاف ومسجداً .

ولاية « تشيكيانغ » فيها ٧٥٠٠ فقط . ومدينة (هانغ تشوفو) التي يذكرها جغرافيو العرب وشاهد فيها ابن بطوطة عملة اسلامية عظيمة غنية لم يبق فيها اليوم الا مئات من العائلات ونحو أربعة مساجد .

ولاية (كوانغ تونغ) فيها ٢٥ ألفاً وأما خانسو التي يسميها جغرافيو العرب الخنساء وابن بطوطة يقول لها (سيني كالان) فلم يبق فيها سوى ١٠ آلاف مسلم وخمسة جوامع .

ولاية (كوانغ سى) فيها من ١٥ الى عشرين ألفاً منهم ثمانية آلاف في العاصمة (كوى لين) وفي هذه المدينة وفي (فونشو) ستة جوامع .

ولاية (فوكيين) فيها ألف مسلم فقط ولم مساجد في (آموى) وفي (فونشو) وفي (تشانغ تشوفو) ولا يوجد في آموى أكثر من أربعين الى خمسين مسلماً من طبقة مأمورى الحكومة .

ولاية منشوريا فيها ٢٠٠ ألف مسلم منهم في مدينة موكدن ١٧ ألفاً .

ولاية مونغوليا : المسلمون فيها هم في الجنوب واحصاؤهم متعذر .

أما التركستان الصينى وان لم يدخل هنا فالاحصائيون يجعلون فيه من مليون الى مليونين وأربعمائة ألف مسلم .

ونتيجة هذه الاحصاءات ان حدها الأصغر هو ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف وان حدها الأعظم هو سبعة ملايين واربعمائة ألف . ومن أغرب الغرائب ان المبشرين الاوربيين يناقض بعضهم بعضا في الشهادات في مثل ان بعضهم يذكر وسطا اسلامياً عظيماً فيه المدارس والمساجد والآخريين يقولون اننا لم نشاهد من ذلك شيئاً . « انتهى بتصرف عن الانسيكلو بديية الاسلامية » .

على أن تيرسان صاحب كتاب (المحمدية في الصين) الواقع في مجلدين يخصص للمسلمين ٢٥ مايونا في الصين وكذلك الجغرافي الفرنسي الشهير اليزه ركوس يقول في جغرافيته العامة ما يأتي :

« ان المسلمين لهم بال كبير في المملكة الصينية وقد حزرهم سكانسكوف بعشرين مليوناً ولكن هذا العدد يظهر ضئيلاً بالقياس الى أقوال مؤرخين آخرين من الصين ففي ولاية كانسو كان المسلمون هم الأكثرية كما أنهم كانوا في كثير من نواحي شمال الصين نحو ناث السكان ويجب أى نحسب معهم الدونغنان وسائر مسلمي دونغارية وكولجه وتركستان الشرقى لأجل أن نعلم أهميتهم ويراهم الانسان أعلى درجة من سائر أبناء وطنهم وأعز نفوساً وأصرح نظراً وفي ولايات غربى الصين يتقلدون السلاح وهم لا يشربون المسكرات ولا التبغ ولا الافيون فتجدهم أصح اجساماً من أبناء الملل الأخرى ويوجد بينهم تضامن يجعلهم أسعد حالاً وأعظم ثروة من غيرهم ويفرضون على جماعتهم ضريبة معلومة نظير العشر من الدخل لأجل انفاقه في مصالح الجماعة وهذا في ولايات كانسو وشنسى وفي بلاد ينان عندهم مدارس يتعلمون فيها العربية ويفهمون معانى القرآن كما ان الصلاة هي في كل مكان بالعربية وفي كانسو يوجد مئات من الجوامع ثم ان التجارة في الشمال تكاد تكون منحصرة في أيديهم لاسباب تجارة المواشى فتجدهم هم الذين يبيعون باكين وسائر المدن الشمالية الساحلية الخ » .

وقد همت مسألة إسلام الصين دول أوربا كثيراً لأنها توجست ولا تزال تتوجس خيفة من انتشار الاسلام في الصين الى حد أن يصير هو الغالب على تلك المملكة التي عددها يزيد على اربعمائة مليون فاذا قدر الله دخول هذه المئات من الملايين في الاسلام حصل انقلاب في وجه العالم .

الاسلام في الصين

والاسلام قديم بالمهجرة في بلاد الصين يذكر الصينيون أن أول ظهوره بين ظهرانيهم كان لعهد السلطان (تايتسونغ) وذلك في القرن السابع للمسيح وان أول داخل من المسلمين الى تلك الديار رجل من عصابة النبي يقال له ابن حزة جلا الى الصين بثلاثة آلاف مهاجر وزلوا في (سنگان فو) وانه جاء على أثرهم مسلمون آخرون من طريق البحر وأقاموا بجهات يونان . ويذكر مؤرخو الصين انه في نواحي سنة ٧٥٨ اقبل على بحر الصين متلصمة من العرب يأخذون كل سفينة غصباً فعانوا في تلك البحار وجلسوا خلال الديار واكتسحوا ضواحي كنتون واحتوا على ماني الاهراء السلطانية التي هناك . وهذه تبشير دخول العرب لتلك البلاد بحسب ماورد في تواريخ الصين .

ولم أجد الى الآن في الكتب التي طالعته من كتب العرب أثراً لقصة ابن حزة هذا ولما يوافقها وانما روى المسعودي في تاريخه قصة تحكيها من بعض الوجوه تؤثرها بالاختصار . وهي أن رجلاً من قريش من ولد هبار بن الأسود ، خرج الى مدينة سيراف ، وكان من أرباب البصيرة وذوى الأحوال الحسنة . ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد الهند ، ولم يزل من مركب الى مركب ، ومن بلد الى بلد ، الى أن انتهى الى بلاد الصين الى مدينة (خانقو) ثم دعتهم همة الى أن سار الى ديار ملك الصين ، وكان الملك يومئذ بمدينة جدان وهي من كبار مدنهم فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر انه من أهل بيت نبوة العرب ، فأمر بعد هذه المدة الطويلة بانزاله في بعض المساكن وازاحة العلة بما يحتاج اليه . وكتب الى الملك المقيم بخانقو يأمره بالبحث عنه ، ومسألة التجار وعمما يدعيه من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم . فكتب صاحب خانقو بصحة نسبه ، فأذن له بالوصول اليه ووصله بمال واسع وأعادته الى العراق .

ويظهر من كتب العرب ، ان أول صقع عرفوه من بلاد الصين هو كاشغر . وذلك منذ سنة ست وتسعين للهجرة اذ غزاها قتيبة بن مسلم الباهلي في خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي . قال ابن الأثير الجزري في تاريخه انه سار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلاً على معبر النهر ليمنع من يرجع الابلجواز منه ،

ومضى الى فرغانة وأرسل الى شعب عصام من سهل الطريق الى كاشغر، وهي ادنى مدائن الصين، فغتم وسبى وأوغل حتى بلغ قريب الصين، فكتب اليه ملك الصين أن ابعث الى رجلا شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم. فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جلال وألسن وبأس وعقل وصلاح فأمر لهم بعودة حسنة ومتاع حسن من الخبز والوشى وكان منهم هيرة ابن مشمرج السكلابي فقال لهم اذا دخلتم عليه فأعلموه اني قد حلفت أني لا أنصرف حتى أظأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم. فساروا وعليهم هيرة فقال لهم ملك الصين قولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قلة أصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم. قالوا: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون. وأما تخوفك ايانا بالقتل فان انا أجلا اذا حضرت فآكرمها القتل لسنا نكرهه ولا نخافه. وقد حلف أن لا ينصرف حتى يظأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية. فقال فانا نخرجهم من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيظأه ونبعث اليه بعض ابنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية رضاه. ثم اجازهم وبعث بما ذكر الى قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطى التراب. فقال سواد ابن عبد الملك السلوي:

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم للصين ان سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على الفدى خوف الردى حاشى الكريم هيرة بن مشمرج
ادى رسالتك التي استدعيت فأتاك من حنث اليمين بمخرج

ووصل الخبر الى قتيبة في هذه الغزاة بموت الوليد ثم قتل قتيبة في السنة نفسها ولا يبعد انه لو بقى حيا لاستأنف الكرة على الصين لما هو معهود من بعد هتمته في الجهاد. ولا شك أن الاسلام كان قد دخل في البلاد منذ ذلك الوقت وكثرت أتباعه وما زالوا على نمو وازدياد يلحظ ذلك من تضاعيف الحوادث المذكورة في تواريخ العرب فقد ذكر ابن الأثير انه في سنة أربع وستين ومائتين ظهر ببلاد الصين انسان لا يعرف جمع غمراً من العامة وأهل الشر وقصد بهم مدينة خانقو وحصرها. قال وهي حصينة ولها نهر عظيم وبها عالم كثير من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وغيرهم من أهل الصين. هذا في القرن الثالث للهجرة. وأما بعد ذلك فترى الأخبار عن مسلمي الصين كثيرة: نقل الامام أحمد القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ عن الشريف حسن بن الجلال السمرقندي وكان من السفار وعن جلال الآفاق

ودخل الصين وجاب آفاقه وجاس خلاله انه قال ان من عجائب مارأى في مملكة القان (أى الخان) انه مع كفره في رعاياه من المسلمين أمم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ومتى قتل أحد الكفار مسلماً قتل القاتل الكافر وأهل بيته ونهبت أموالهم وان قتل مسلم كافراً لا يقتل به بل يطلب بديته ودية الكافر عندهم جاز لا يطلب بغيره .

ولم يدخل الاسلام بيت الملك في تلك البلاد الا ما كان ببلاد المغول في ذرية جنكيزخان وفي كاشغر . قال ابن خلدون في الجزء الخامس من تاريخه عند ذكر الترك انه كانت لهم دولة ببلاد تركستان وكاشغر وان ملوكهم أسلموا بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم وكان بينهم وبين بنى سامان القائمين فيما وراء النهر بدولة بنى العباس حرب وسلم .

قال يحيى بن أحمد بن على النسابة كاتب جلال الدين خوارزم شاه في تاريخ دولته ان مملكة الصين منقسمة من قديم الزمان على تسعة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر ويتولى كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان ويكون نائباً عن الخان الأعظم وكان جنكيز أحد الخانات المذكورين فتغلب عليهم جميعاً وصار الملك الأعظم . وفي كتاب ابن فضل الله حكياً عن صاحب علاء الدين عطاء ان دينه ودين قومه كان المجوسية حتى ملكوا الأرض واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وماوراء الهند فأسلم من ملوكهم من هداة الله للاسلام . وذكروا ابن خلدون في السكلام على ملوك بنى جفغاي بتركستان وكاشغر وما وراء النهر انهم كانوا أولاً كلهم على دين المجوسية يعضون عليها بالتواجذ فلما صار الملك الى ترماشين منهم أسلم سنة خمس وعشرين وسبعمائة وجهاد وأكرم التجار المترددين .

وذكر الملك المؤيد صاحب حاه في تاريخه في خبر الملوك بنى دمرش خان وهو من أولاد جنكيزخان انه لما مات دوشى خان ولى مكانه ابنه ناظوخان ثم مات وولى بعده طرطوخان ثم مات فولى بعده ابن أخيه واسمه بركة فأسلم على يد شمس الدين الباخورى وكان مقبياً ببخارى كتب اليه يدعوه الى الاسلام فأسلم وان بركة هذا أعمل الرحلة الى لقاء شمس الدين فلم يأذن له في الدخول حتى تطارح عليه أصحابه وسهلوا الاذن لبركة فدخل وجدد اسلامه وعاهد الشيخ على اظهار الاسلام وأن يحمل عليه سائر قومه فحملهم واتخذ المساجد والمدارس في بلاده وقرب العلماء والفقهاء ثم ذكر المؤرخون اسلام أربك بن طفرلجاي من سلاتهم واسلام تكدار بن هولاكو وخريندا بن ارغو ثم أحد بن هولاكو.

وفي مختصر الدول لأبي الفرج الملطي صورة كتاب كتبه الى سلطان مصر في ذلك الوقت جاء فيه « بقوة الله باقبال قالن فرمان أحد . أما بعد فان الله تعالى بسابق عنايته و بنور هدايته قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا و ريعان الحدائث الى الاقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته (الى أن قال) وأنفذنا أقصى القضاة قطب الدين والاتابك بهاء الدين وهما من ثقات هذه الدولة القاهرة ليعرفاهم طريقتنا ويتحقق عندهم ماينطوي عليه لعموم المسلمين جيل سنتنا وينا لهم أنا من الله على بصيرة وأن الاسلام يجب ما قبله الخ » .

وقال الفلقشندى (في صبح الأعشى) ان أول من أسلم من ملوك هذه المملكة ترمشبرين فأسلم وأحسن اسلامه وأخلص وأيد الاسلام وقام به حق القيام وأمر به أمراءه وعساكره وذكر أيضاً عن بكدار أنه أسلم .

وقد بقي الاسلام في أعقاب الاويغور طائفة جنكيزخان الى يومنا هذا . ففي جغرافية اليزه ركولوس أن الاويغور والطائفون سكان بلاد كانسو كانوا قديماً من عبدة اللاما ومن النساطرة فأسلموا وأسلم بهم جميع سكان الشمال والغرب من مملكة جفطاي ثم ازداد عددهم بمهاجرة المهاجرين من أهالي التركستان الشرقى ومسلمي المغول الذين بقوا من عهد تمرلنك وبهذا صارت الأغلبية للاسلام في هذا القسم من مملكة الصين .

ولما دخل ابن بطوطة الصين على ما ذكر في رحلته كان الاسلام فيها غصا وافرأ حسب مايفهم من كتابه فهو يقول في الجزء الرابع من رحلته : وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون .

ولما ذكر مدينة زيتون قال : وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما في بلدة سجلماسة في بلادنا وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة . ثم قال عن تعرفه من صدور تلك البلاد وجاء الى قاضي المسلمين تاج الدين الأردوبلي وهو من الأفاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبدالله الأصفهاني وهو من الصلحاء وجاء الى من كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحد التجار الذين استندت منهم حين قدومي على الهند وهؤلاء التجار لسكناهم في بلاد

الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الاسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم .

وقال عند ذكره مدينة صين كلان ان بعض جهاتها بلدة المسلمين لم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولم قاض وشيخ ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضى بينهم وكان نزول عند أوجد الدين السنجرى وهو أحد الفضلاء الأكارب وذوى الأموال الطائلة .

وذكر عند وصوله الى مدينة قنجنفو ان المسلمين فيها يسكنون داخل السور الثالث وانه نزل عند شيخهم ظهير الدين القرلاني وقال عن الخنساء انها ست مدن كبار وان بالمدينة الثانية منها مسكن اليهود والنصارى والترك وبالثالثة مسكن المسلمين وبها المساجد ولأولاد عثمان بن عفان المصرى وهم كبراء المسلمين فيها زاوية تعرف بالعنانية وبها طائفة من الصوفية والمسلمون كثيرون في هذه البلدة .

والظاهر أن الاسلام ما برح ينتشر في آفاق الصين حتى بلغ عدد أهله عشرات من الملايين . زعم سكانشوف أنهم عشرون مليوناً فقط وذهب الأثريون الى أن عددهم فوق هذا بكثير وأحسام صاحب كتب (Le Mhuométisme en Chine) المحمدية في الصين) خمسة وعشرين مليوناً وزعم بعضهم أنهم أربعون مليوناً وقال آخرون انهم يربون أيضاً على ذلك وان السواد الأعظم في ولاية كانسو هو منهم وهناك مدينتا سالار وكنشياو محط رحال الطلاب والمتفقيين من جميع أقطار الاسلام الصينية . وقد أحصى عدد المساجد في بعض مدن كانسو فبلغ مئات وهو ما لم يعد الا لعواصم الاسلام الكبرى مثل الاستانة العلية ودمشق والقاهرة وان كثيراً من ولايات الصين الشمالية ثلثها من المسلمين وهم أهل التجارة والسكد والعمل ولذلك تجد حالتهم أجمل وأزير من حالة بقية الصينيين وكثيراً ما يأخذون أولاد الفقراء من الوئذين ويربونهم في حجر الاسلام خصوصاً عند حصول المجاعات الشديدة . وقد شدد فقهاؤهم عليهم في أداء الزكوات فيجمعونها في صناديق لكل بلد ينفقون منها في شداؤهم ويسدون بها عوز محاييهم فتجد المعدمين منهم قليلين ولم بعضهم على بعض حنان ورأفة وحفيظة فيما بينهم وعلى عدوهم لا توجد في الأم التي تساكنهم كذلك بسبب تجافيفهم الأفيون وأنواع السكرات تجد أجسامهم أحسن

من اجسام غيرهم فهم يفوقون جيرانهم الصينيين صورة ومعنى ويسميه الصينيون «هواى هواى» وهذا لقب طائفة الاويغور في الماضى وأما هم فيؤثرون أن يسموا «كياومن» اى أهل الدين عطقاً على «ان الدين عند الله الاسلام». . ومسلمو بلاد يونان الجنوبية يعرفون باسم «بانطى» وجميع المسلمين هناك يتميزون عن سائر الأهالى بملابحهم وشاراتهم ووحدة ملابسهم ويلوح عليهم من النعرة والأنفة مالا يلوح على سواهم وكلهم من أهل السنة والجماعة ولكنهم فى الفقه فئتان الخفية والشافية وهم يكسرون جداً الاختلاط بالوثنيين ولا يزوجونهم وانما يأخذون من بناتهم فى الأباين شراء بالدرهم .

وقد وقعت لمسلمى الصين فى هذا القرن مع أهل تلك المملكة حروب تشيب لها الأبطال اذا استقصى خبرها المؤرخ لم تكفه فيها المجلدات وملخصها أن اول ثورة حصلت هناك هى فى بلاد يونان بسبب عملة من الفريقين كانوا يعملون فى أحد المعادن فأسفر القتال عن القلب للمسلمين وتكررت الحوادث والظهور لهم حتى بلغ الخلق من ولاية الصين مبلغه فاستنقروا اليهم الوثنيين قاطبة ونادوا باستئصال شأفتهم ونعفية آثارهم وذلك فى يوم معين من شهر ايار (مايو) أحد شهور سنة ١٨٥٦ فاستشعر المسلمون ذلك قبل وقوعه وأخذوا له أهبتهم وجزوا واستلأموا فلما وقعت الواقعة توفرت الطائفة لجهتهم ولم تنسل الحكومة منهم مأرباً الا فى القرى التى مسلحوها قليون . وتكررت الوقائع وصد الفريقان بعضهم لبعض من أكثر جهات البلاد والمسلمون فى غلبة وظهور حتى افتتحوا عنوة مدينة «طالى فو» وهى منيعة حصينة من الطراز الأول فى حصون الصين وفتحوا منها طريقاً الى برمانيا يسربون منه اليها الميرة والسلاح ثم استولوا على مدينة «يونان فو» حاضرة البلاد ومضى على دولتهم هذه وهبوب ريحهم بتلك الأرض ثلاث عشرة سنة والصين لا تزداد أمامهم الا اتخذالا حتى أيقنت أن لا قبل لها بقهرهم بذباب السيف فالت الى اعمال الحيلة والدسائس وجاذبت زعماءهم حبال الرشوة ومنتهم الأمانى وأدرت عليهم العطايا الوافرة سراً وولتهم الأعمال الخطيرة حتى فصمت عرى اتحادهم وحلت بنفثات سحرها عقدة جامعتهم بل استألت بعض رؤسائهم الى أن وقفوا فى صفها يقاتلون بنى ملتهم فبديهي أن تنحل بعد ذلك عصبتهم وتفشل ريحهم وأن يزرع الصينيون فيهم الاتقام حتى يهلك منهم ثلاثون الفاً بعد السيف ويلحق اقوام منهم بمملكة برمانيا .

أما في شمالى الصين فاستطار شرر الفتنة سنة ١٨٩٠ وذلك في « هوانشيو » شرقى « سينغان فو » وكانت الدائرة على الصينيين وتأثرهم المسلمون في كل سهل وجبيل يقتلون ويسبون ولكنهم عجزوا عن دخول « سينغان فو » لمناعة أسوارها ثم امتد هيب الثورة في تلك البلاد ونادى منادى الاسلام بيا للثارات فقاموا قيامة الرجل الواحد وفر الصينيون والغول من أمامهم وانهاهال المسلمون في آثرهم يشلونهم شلا ويستقصونهم أسراً وقتلا وامتلأت ولايات شانسى وآنسو عيشاً ودماراً والتجأ الوثنيون الى الكهوف والمغاور وظنوا أنها ما نعمتهم فلم تكن بما نعمتهم واشتمل الخراب على تلك البلاد حتى لم يبق قرية الا خوت على عروشها ولم يذر المسلمون الا على المسيحيين ولم يبق عامراً من تلك الجهات الا الأعمار الكبيرة بما أدير عليها من سياج الأسوار . وقدّر عدد الذين هلكوا في هذه المعمة بالملايين . وحدث بعض مؤرخى الأفرنج أن من المسلمين من بلغ منه الخنق أن قتل أولاده وامراته ليتوفر على الجهاد . والحاصل أن هذه الفتنة كانت من أكبر الفتن واستمرت خمسة عشر عاماً كاد ينقطع أمل الصين في خلاها من استرداد البلاد ولكن لم يلبث الشقاق ان دخل بين المسلمين فأدخل عليهم الوهن وتنظت عصاهم قطعاً فنالت منهم عساكر الامبراطور واسترجعت الشانسى ثم الكانسو ثم معاقل تيان شان وبددت شمل الباقين من الثوار في دز ونغاريا ولكنهم لا يزالون الى الآن أهل صولة وشوكة وشأنهم على ازدياد وجدهم في صعود ومنهم كثير من الحكام وقواد الجيش . وكثير من المؤرخين الأوربيين يظنون أن لهم وحدهم مستقبل السلطان في الصين . وقد بعثت الدولة الروسية مرة بعثا علميا جال في الصين وجب آفاقها واطلع على دخالل أمورها فكان من جملة ما قرره تحذير الروسية من مستقبل الاسلام في تلك المملكة لأنه ينمو ويتقدم واذأ أخذ يوماً بزمام الدولة انقلبت هيئة الشرق الأقصى انقلاباً عظيماً لأن الصين اسلامية ليست كالصين وثنية (وأتم الاعلون إن كنتم مؤمنين)^(١)

(١) كان محرر هذه السطور قد نشر مقالات متتابعة في مجلة المنطف عن الصين وأحوالها في سنة ١٩٠١ وعقد فصلاً خاصاً بالاسلام في الصين يفي إعادة نشره عن البحث والتقيب في كتب ورحلات كثيرة لأنه تحمس تمحيماً جيداً (وهو هذا الفصل المتقدم) فلذلك نقلناه بينه عن مجلة المنطف جزء تموز (يوليو) سنة ١٩٠١ . ونضيف اليه التحقيقات التي جدت بعد هذا العهد مثل أقوال بنته أولون وكلام الانيكلويدية الاسلامية مع ملاحظاتها عليها .

ولقد ذهبت بعثة أولون الفرنسية بغات في كثير من بلاد الصين من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٠٩ ونشرت عن مشهوداتها وما اتصلت اليه من المعلومات كتاباً ذكرت في مقدمته أن أصل ارسالها كان من نظارة المعارف لأجل فحص عام عن أحوال الصين . ولكن بعض العلماء استجلبوا نظر النظارة المشار اليها الى موضوع اسلام الصين بنوع خاص . فلذلك وجهت همها الى التحقيق عن أحوال المسلمين في الصين ونشرت ذلك الكتاب الذي تضمن خلاصة تدقيقاتها .

وهي ان المسلمين لم يكونوا يؤلفون في كل ولاية وحدة مستقلة قائمة بذاتها وان بين مسلمي الصين مذاهب مختلفة خلافا لما كان يظنه السياح من قبل وان الطرق الصوفية معروفة لديهم . وظهر لبعثة أولون هذه في آخر أيام سياحتها وجود علاقات سرية بين مسلمي الصين ومسلمي الشرق الادنى .

و بعد تحرير بعثة أولون ما حررته عن مسلمي الصين ظهر كتاب انكليزي اسمه (الاسلام في الصين) لسأخ اسمه برومهال وذلك في ٢٥ يناير سنة ١٩١١ وهو كتاب قضى صاحبه ١٩ سنة في السياحة في الصين والبحث والتنقيب وأخذ عن نحو ٢٠٠ رجل أمدهم بمعلوماتهم . فتهاقت على قراءته رجال بعثة أولون لعلمهم يجدون شيئاً لم يحصوه في كتابهم فاذا به زعمهم لم يكشف شيئاً جديداً فانهم واذا هو لا يخرج عن كتاب تيرسان Thiersant الفرنسي .

وبحسب تحقيقات بعثة أولون كان ظهور الاسلام في ولاية ينان وربما في كل الصين على يد الرجل الملقب « بالسيد الاجل » وهو سيد شريف من آل البيت اسمه شمس الدين عمر دخل في خدمة دولة الصين ونصح لها وكان من أفراد الرجال في جميع المزايا فتقدم في الدولة وتولى المناصب العالية وانتهى الامر بأن السلطنة عهدت اليه بولاية ينان فأفاض الخير ونشر الامان ووزع العدل وآتى من المآثر ما لا يزال الصينيون يلهجون به الى هذا اليوم وكان دخول الاسلام الى ينان في عهده .

وجاء في تاريخ « كيوسين تانغ شو » انه في صدر الاسلام ورد الصين عسكر عربي عدته ثلاثة آلاف ومن ذلك الوقت دخل الاسلام في الصين ويظن ان هذا الحادث وقع سنة ٧٥٦ مسيحية .

ويقال ان أصل مجيئ المسلمين الى الصين هو لأجل معاضدة سلطان مخلوع من سلاطين الصين . ومن ذلك الوقت صاروا يتخدمون قواداً وأجناداً في بلاط السلاطين وبقيت هذه العادة الى عصرنا الحاضر فيجد الانسان توابير نامة من المسلمين يقودها أمراء من المسلمين في دولة الصين .

وأما السيد الاجل فقد اطعموا في ينان على تاريخ محمر في سنة ١٦٨٤ يقال فيه انه لما زحف جنكيز خان الى الغرب جاء السيد الاجل عمر بألف فارس وقدم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطاقته (١٢٠٦ — ١٢٢٩) ولما آل الأمر الى السلطان أوغوناي (١٢٣٠ — ١٢٤٢) ولاء ثلاث ولايات وهي « فونغ » و « تسينغ » و « يون ناي » ثم استدعاه الى باكين وعهد اليه بمنصب عال . ثم لما تولى السلطان نانفو (١٢٥١ — ١٢٥٩) عهد اليه بادارة ست نظارات بالاشتراك مع (نا اول هوان) ثم جعله مديراً عاماً لمقاطعة (يان كينغ) فأحسن الادارة جداً فشهد اليه بنظارة الاستخبارات . ثم لما زحف السلطان الى بلاد (تسو تشوان) جعله ناظراً لليرة العسكرية فقام بها أحسن قيام فلما تولى السلطان قوبيلاي أعطاه رتبة الوزارة وجعله عضواً في مجلس أمانة السر الاعلى . وكان كلما تقلد عملاً ظهرت فيه فضائله وحلزم رضى السلطنة . وسنة ١٢٧٤ تقدم اليه السلطان في ان يقبل ولاية ينان وكانت أحوالها مختلفة وكان أهل ينان شديدى الغباوة والجهل فلما ذهب الى هناك وجد القيادة في يد أمير من بيت السلطنة نخاف هدامته و اراد أن يجاذبه الجبل الا ان السيد الاجل بحكمته وحسن سياسته استماله اليه وصيره صديقاً . وكانت تلك الولاية في غاية الانحطاط والبلاد خراباً فنشر السيد الاجل العلم و بنى المدارس واعتنى بتهديب الاخلاق وكذلك وجه همه الى عمارة الارضين فهد الطرق وبنى المعابر والجسور والسدود لاجل المياه مما تلافى به خطر القحط فكانت بعض الانهار تطفى على الاراضى فتذهب بها زروع الفلاحين فجعل لها حواجز تقي من ضرر الطغيان . وكانت أراضى أخرى تعطش في الصيف من قلة المياه فبنى خزانات وحياضاً احتياطاً من وراء العطش . وأزال المعارم والمظالم وأبطل السخرة وشيد ملاجئاً للايتام والعجزة وخفف المكوس وأحدث انموذجات زراعية يحتذى على مثالها وحفر الآبار وأقام الأسواق وأدخل في طاعة الدولة مالا يعد ولا يحصى من الأقوام وأثناء وجوده في تلك الولاية عمر مساجد للاسلام ولكنه شيد أيضاً هياكل لكونفوشيوس

وليوزا . وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة فيحدها من الشرق سونغ ومن الغرب
يرمانيه ومن الشمال التبت ومن الجنوب آنام . وبحسن سياسة السيد الاجل خضع ملوك
التونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن ملك لويان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر الى السيد الاجل
بالزحف اليه فلما سار بالجيش رآه الناس حزينا كثيراً فسألوه عن سبب كآبته فأجاب :
لست كثيراً لموتى ذاهباً الى الحرب بل لكوني أتصور منكم كثيراً سيهلكون في هذه
الملحمة بدون ذنب اقترفوه وأنهم سيمقتلون وينهبون أناساً كثيرين موادعين لا ذنب
لهم أيضاً . ولما وصل الى مكان الثورة أرسل الى الثوار يعرض عليهم التسليم فلبثوا ثلاثة
أيام لا يجاوبون فهاجم العسكر وطلب القواد الاذن بالهجوم فلم يأذن لهم بل راجع رئيس
الثوار في أمر التسليم فأظهر هذا الطاعة لكنه لم يسلم البلدة فوثب رؤساء الجند على البلدة
فغضب السيد الاجل واستدعاهم وقال لهم : ان ابن السماء أمرني أن أتولى بلاد ينان وأحكم
فيها بالعدل والأمان لا بالقتل والعدوان فلا أرضى أن تهاجوا البلد مادام الثأرون وعدوا
بالطاعة فان أيتيم الاسفك الدماء جزاؤكم القتل . ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم
خلاقاً لأمره . فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا وسلموا وسكنت البلاد وأطاعت على
بكرة أبيها .

وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الاجل ويتباهون بأعماله فأمنت السواجل
واستراحت الرعية وساد العدل وفاضت الخيرات وعمرت البلاد وصار يقال هنيئاً لبلاد ينان .
أما آثاره في الزراعة فلا تزال بقاياها الى الآن وان كثيراً مما بناه من الجسور لا يزال قائماً
الى يومنا هذا .

وكانت بلاد « تشاوتيان » تطلق عليها الأنهر فتتحول الى بحيرة ، فحفر السيد الاجل
نهرأ حذر اليه تلك للياه كلها فصرفها عن الأراضي التي كان الماء يضرها من قبل . وحفر
ترعا كثيرة وخلقها اسقيا البقاع المحتاجة الى الري . وجعل يريداً مؤلفاً من ٣٦٠ فارساً
وحراساً بقدرهم يسهرون على السدود بحيث اذا حصل فتق في أحدها أسرع البرد
باخبار الحكومة لجمعت الحكومة الاهالي ونهضوا لرقق الفتق .

ومات السيد الاجل رحمه الله سنة ١٢٧٩ (مسيحية) فكان له مآتم عم الصين

بأسرها وبكاه أهل ينان كما يبكي الاولاد أباهم . وعم الحداد البلاد المجاورة الى بلاد سونغ وتبت وغيرها وذبحت القرابين في البلاط السلطاني .

وخلف خمسة أولاد و ١٩ حفيدا فكان خلفه في الامارة ابنه ثم ابن ابنه وتداول أحفاده الامارة وكانوا جميعا أعضادا للسلطنة .

وفي أيام دولة « مينغ » راجع السلطان « ناي تسوكاو هوانغ تي » (١٣٦٨ — ١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالرعية ووفرة آثار العمران مثل السيد الاجل فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه « ين تشو » وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر في المملكة وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الاجل وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء هياكل تذبج فيها القرابين عن روجه .

وسنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومه الصينية بتأليف سيرة للسيد الاجل بقلم « تشينغ هو » ويوجد في بلاد ينان هيكمل باسم الامير « هيان يانغ » وهو لقب السيد الاجل عند الصينيين . ولا تزال أعقاب السيد الاجل الى اليوم وأسرته معروفة منذ ٨٥٠ سنة . وأما اولاده الخمسة فأولهم نصير الدين والصينيون يقولون له « ناسولا تينغ » صار وزيراً للدولة ثم والياً على شنسي ثم على ينان ومات سنة ١٢٩٢ والثاني حسن صار قائداً عاما لجيوش « كوانغ تونغ » والثالث حسين صار وزيراً للدولة ثم والياً على ولاية « كيانغ سي » ثم والياً وقائداً عاماً لولاية ينان بعد أخيه نصير الدين والرابع شمس الدين عمر كان مديراً عاماً لمقاطعة « كيين تشانغ » من ولاية كيانغ سي والخامس مسعود والصينيون يقولون له « ماسوهو » وصار وزيراً ثم والياً على ينان .

أما أحفاده فأشهرهم « بايان فنتشان » من أولاد نصير الدين صار وزيراً للعدلية ثم والياً عاماً على ينان بعد عمه الحسين وقد نال ألقاب جده كلها وأسرع لنجدة الامبراطور في باكين فنال لقب الأمير الأمين المجتهد . وهو الذي رسم المسجد الأعظم في سينغان فو ونال للدين الاسلامي من الدولة الصينية اسم « الدين الطاهر الحق » . ومن أولئك الاحفاد عمر والصينيون يقولون له « قوما أول » وكان من وزراء الدولة وصار والياً على « كيانغ تشو »

ومنهم جعفر كان قائداً عاماً لساكر « كينغ هو » ومنهم حسين صار وزيراً للدولة وخلف أخاه بايان تشيان على ولاية ينان . وشادى صار حاكماً فى إحدى مقاطعات ينان . وأيوب والصينيون يقولون له « ابونغ » وكان مدير قلم التشرىفات فى دار القرايين . وبيانتشار صار وزيراً للقلم الأعلى ولقبه الامبراطور بالجابى الأكبر . وبرهان وصار حاكماً فى « يونان سين » و « كولى » وكان قائداً عاماً لساكر هونان

ومن أحفاد أحماد السيد بعده بسبعة بطون رجل يقال له حاجى والصينيون يقولون له « سى هانتى » أدى اليه سلطان الصين مبالغ من النقود بنى بها مساجد فى نانكين وسينغان فو . ومن أعيان هذه الاسرة رجل اسمه يوسف ينه و بين السيد الأجل ١٤ بطناً ولد فى نحو سنة ١٦٠٠ والصينيون بسمونه ماشيكونغ وكان عالماً فاضلاً ذهب الى باكين سنة ١٦٩٥ واستناره الامبراطور فى الأمور الدينية والعسكرية وصار مدرساً فى مدرسة « كروتسوكيين » سنة ١٦٨٥ نشر كتاباً اسمه « بوصلة الاسلام »^(١) ومنهم فى عصرنا هذا أمير ألاى كان فى الجيش الصينى سنة ١٩٠٧ . ومنهم رئيس جماعة مسلمى « ينان فو » وناظر أوقافهم . ورأس هذه الأسرة اليوم هو « نافاسينغ » امام جامع ماشوكيا .

ويوجد أسر أخرى هاشمية فى الصين فان كتاباً اسمه « حياة محمد » ألفه صبنى اسمه « ليوتشيه » فيه مقدمة من قلم رجل يقال له ساىو من ذرية الرسول ﷺ وتاريخ هذا الكتاب سنة ١٧٧٥ .

وسنة ١٤٤٥ كان فى مدينة سينغان فو أسرة شريفة نبوية منها حافظ بن كولى محمد ابن الشريف بدر الدين بن شمس الدين . والذي يظهر أن الثورات التى قام بها المسلمون فى القرن الماضى قد أضرت بهم وأوقفت تقدمهم ولولاها كانت لهم الكلمة العليا فى حكومة الصين . وقد ظهرت بعثة أولون آثار الفتنة الأخيرة ورأت بعينها الخراب الذى أصاب الديار ولحظت النقص الذى لحق بالنفوس والثمرات وعرفت أن كثيرين من المسلمين لا يزالون تحت المراقبة . وقد سألت بعثة أولون أحد أدباء « لان تشيو » واسمه « فوق بين » قبل لها انه أعلم من يوجد بأخبار هذه الثورة فقص لها ما يأتى : —

(١) البوصلة ابرة المنطيس التى يحمى عليها البحارة

« سنة ١٨٩٤ نارت فتنة في الشرق والغرب من الصين أصلها اثنان « مياوباي لين » و « ماهوا لونغ » فأخذوا يعيشان فساداً في كانسو واتصل الثاني منهما بشوار كانوا عصوا في جنوبي شنسي وشمالها فأنار أهالي « تينغ هيا » وأهالي « شان هوا » وأهالي « مينينغ تياولينغ » وهذه هي مدينة في شمال سور الصين فسافت الحكومة جيوشاً على تينغ هيا وحاصرتها وقتلت خلقاً كثيراً ثم افتتحتها عام ١٨٩٥ بعد حروب طويلة . إلا أنه سنة ١٨٩٨ عادت الثورة فاشتعلت فسافت الحكومة جيوشاً وسفكت دماء كثيرة واستردت كثيراً من المدن العاصية . وسنة ١٨٧١ أسرت ماهوا لونغ وزعيمها آخر اسمه مابانسيو وصلبتها وهاجت مدن هونشيرو وسينينغ وسوتشيرو وأجندت الثورة في جميع بلاد شنسي وكانسو . وسنة ١٨٧٤ زحف جيش « ليوكين تانغ » وجيش « كين شوان » قاصدين الزعيم الديني « باي ين هو » وهاجوا « نغان تسي ين » أو كاشغرفانهزم الزعيم الى أرض الروس وقتل ملك كاشغرف وتحدت حدود « سين كيانغ » أي التركستان الصيني من الشمال والجنوب . ونصبت الصين ليوكين تانغ والياً عاماً على كاشغرف انتهى

فظهر من هنا أن ماهوا لونغ التأثير المسلم حمل كبير الثورة مدة ست سنوات ولولاه لم يتمن يعقوب بك سلطان كاشغرفن يعمل شيئاً وأن سلطنته كاشغرف لم تستمر ١٣ سنة الا بفضل ثورة ماهوا لونغ المذكور وقد لعب الدور الأعظم في قتال المسلمين الجنرال « تونغ فوسيانغ » وهو هو الذي ترأس ثورة البوكسر الشهيرة على الأور بين سنة ١٩٠٠ ولما طلبت دول أوروبا من الصين تسليمه فر الى كانسو وتخبأ بها . وكانت له قصور شاهقة وأراض واسعة ومات سنة ١٩٠٧ وأعيدت اليه بعد الموت الألقاب التشريفية التي كانت دولة الصين تزعتها منه اجابة لطلب الدول وكانوا يظنون في أوروبا هذا الجنرال مسلماً وذلك لوجود عساکر كثيرة من المسلمين يلبسون العمام في جيشه فالتبس عليهم الأمر والحقيقة أن هذا الجنرال كان أعدى أعداء الاسلام وأنه من شدة خبثه ومكره ضرب بعضهم ببعض وأوقع بأسهم بينهم لا سيما بواسطة القائد المسلم « مغان لينغ » الذي فتك كثيراً بأبناء ملته .

وأما ثورة ينان فاستمرت من سنة ١٨٥٥ الى ١٨٧٣ وانتهت بالويل على المسلمين . وسبب انكسارهم اختلاف رؤسائهم وعدم تذكرهم قوله تعالى « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » فان الثائر « توفنسيو » نودي بسلطانا في « تالي » ولكن الزعيمين

« ماتوسين » و « ماجولونغ » قاتلاه واتصرا لحكومة الصين . وكان للثائر ماهوا لونغ شيعة يقولون انه قطب الوقت وان القطبانية انتقلت بعد وفاته الى خلفائه . وقد خلفه صهر « ماناهي » وفي سنة ١٩٠٨ كان عمره ٥٥ سنة وحفيده « مااول هي » وكان عمره ثلاثين سنة تبع كلا منهما حزب الا أن حزب الصهر أعظم . ومركز الصهر « شاكيو » ومركز الحفيد « نانغ كياوتشوان » وهذه هي ناحية عظيمة الشأن في اسلام الصين فيها مدرسة كلية لهم في « بينغ لينغ » وهذه الفرقة تلقب سائر المسلمين بالظاهرة . ويقولون في كانسو ان الخلفاء الراشدين الأربعة أسواكل منهم طريقة فأبو بكر طريقته الخفية يذكرون بصوت منخفض والثانية الجمهورية يذكرون بصوت عال وهي طريقة عمر والثالثة الكبارية أو الكبروية وهي طريقة عثمان لأنه كان كبيراً مسناً والرابعة القادرية وهي طريقة على . والحاصل أن الانقسام الذي يراه السياح الأوربيون ورواد حكوماتهم بين مسلمي الصين ويؤولون له التأويلات بحسب عاداتهم هو عبارة عن فرقة القائلين بالشرعية المحضة بدون نظر الى التوصل وفرقة القائلين بالتصوف والآخذين بالعراق على أنها لاتنافي الشرعية . فالأوربيون مثل بعثة اولون يرون في ذلك دياتين .

ومن عادة مسلمي الصين أن يشتروا أولاد الوثنيين ويربوهم في الاسلام روى ذلك نيرسان صاحب « الحمدي في الصين » وغرونارد Grenard وقالت بعثة اولون انها لما مرت من هناك كانت في الصين محضة شديدة فكان الصينيون يبيعون أولادهم والمسلمون يشترونهم لأن المسلمين بتاسكهم أيسر حالا من الصينيين . وفي ثورة البوكسر قتل ألوف من المسيحيين ونهبت أموالهم وبيعت نساؤهم وأولادهم فاشترى مسلمو « بينغ هيا » عدداً منهم وهذا محقق لأن مطران مغولية كان يسي في استردادهم .

وفي شمال بينغ هيا عاد الاسلام ينمو ويزداد وجميع المسلمين يتجرون بالجلد والصوف وكل نواتية الأنهر لاسيا النهر الأصفر هم منهم . والمدينة التي على هذا النهر المسماة « باوتلر » شغلها كله في أيديهم . والمدينة المسماة « كوكوكوتا » أي الزرقاء التي فيها من كل الأجناس يسكنها ٢٠٠٠ أسرة مسلمة . ويقول اولون انه صادف فيها رجلا مسلما يعرف وجود الخليفة في الاستانة لأنه كان ذهب الى باكين وتلاقى مع على رضا وحسن حافظ ورجع ومعه صورهما وصورة راية الخليفة . قال أولون : على أنه اذا انثت هذه الدعوة هناك

دخل الاسلام الصينى فى طور جديد . ولكن أولون لو انتظر الى هذه الأيام لعرف أن كثيراً من حزب التجدد فى الأتراك يرون الخلافة ضرراً عليهم ولذلك قد أخرجوها وأخرجوها من الاستانة .

وكان السلطان عبد الجيد أرسل من الاستانة حسن حافظا وعلى رضا فأسسا مدرسة فى مسجد نيوكياى كان فيها ١٢٠ طالبا وأقبل المسلمون عليهما لالكونهما قادمين من قبل خليفة المسلمين لأن هؤلاء فى الصين لم يكونوا يعرفون هذا الأمر وانما احتفلوا بهما لأنهما آتبان من الآفاق التى ظهر فيها النبي صلى الله عليه وسلم ولقد بث هذان الداعيان روح الانضمام الى الخلافة ورفع العلم العثماني وزارا بلاد هونان ونغان هواى وكوانغ تونغ أعظم الحواضر الاسلامية ونشرا فى الصين الجرائد الاسلامية منها عثمانية أو تركية ومصرية وروسية وبلغارية ويوجد اليوم جريدة اسلامية فى باكين اسمها « تشنغ تسونغ نغاي كوباو » أى الجريدة الوطنية .

وفى باكين ٢٩ جامعا أكبرها « نيوكياى » ومنها جامع « سيتان باى ايو » كان هيكلا وثنياً الى سنة ١٩٠٠ فلما ثارت ثورة البوكسر جعلوه مركزا لهم فلما زحفت جيوش الدول الى باكين خاف الصينيون أن يحرقوه فعرض أحد علماء المسلمين أن يحوله جامعا ويرفع منه الأصنام حتى يظنه الأوربيون مسجدا للاسلام فلا يتعرضوا له فرضى الصينيون بذلك ولما انتهت الحرب أبقوه جامعا وهو من أعظم جوامع باكين .

أما بلاد كاشغر فبعد أن خدت فيها الثورة أخنت الدولة الصينية ادارتها بيدها وجعلت فى كل من مدنها الكبار مفوضاً امبرطورياً وقائداً عسكرياً . فدن غربى كاشغر هى كاشغر وباركند ويانغى حصار وقوطان . وأما مدن شرقى هذا القطر فهى أوش واكسو وكوتشار وبيدجان وهالى وطورقان وهار اشار . والجميع احدى عشر مدينة كل منها يتبعها مدن عديدة فعين لكل منها قاض لفصل قضايا المسلمين ولا بد لكل هؤلاء أن يذهبوا كل سنة مرة الى العاصمة كما أنه يأتى كل سنة مفتشون من العاصمة للتفتيش عن أحوال المسلمين .

أما الانسكلو بيديا الاسلامية فتذكر ما ملخصه : أن أصل دخول الاسلام فى الصين هو لأجل التجارة لأن المسلمين بعد أن نائلت دولتهم فى بغداد سارت سفنهم من خليج

فارس الى الهند والصين وعرفوا غفورا الصين من صدر الاسلام كما أنهم من الجهة الأخرى دخلوا الى شمالى الصين بواسطة الترك من زمان جنكيزخان وأعقابها فان جنكيز لم يكن يعبأ بالدين وكان يجمع حوالبه من جميع الملل ودخل في جنده كثير من الترك والأفغان والبا تان وأناس من الفرس وفي زمان قوبلاي خان دخل جماعة من الفرس في خدمة دولة الصين وذكر منهم ابن بطوطة أناساً في رحلته وأشار اليهم السائح الايطالى ماركو بولو وكان كل هؤلاء مسلمين فنشروا الاسلام في الصين . وكان في زمن جنكيز اتصل بخدمة بلاطه رجل من بخارى يدعى أنه من آل البيت اسمه السيد الأجل ولهذا الرجل تراجم عديدة ذكرتها الأنسيكلو بيديا ونقلت منها تنقأ وقالت ان ماركو بولو تكلم على ابنه نصير الدين وروت كثيراً من أخباره عن رحلة أولون واليه والى ابنه هذا تعزو ظهور الاسلام في ينان .

أما حالة المسلمين الاجتماعية فهي كما هي في سائر بلاد الاسلام والعمل انما هو بالشرع الشريف . على أن تبرسان يروى أن مسلمي الصين مضطرون في أمر الزواج أن يتقيدوا بقانون المملكة الصينية ولو خالف الشرع ولا نعلم مبلغ ذلك من الصحة . ويقول أولون ان الحجاب غير مرسوم عند نساء المسلمين في الصين بل النساء يخرجن سافرات وهكذا يقول غيره نار الا أنه يستثنى من ذلك نساء الأغنياء ، وفي هوتشو ينتقب النساء الملمات بنقاب أسود تحت الاعين . وعادة وضع القدم في القالب لتصغيره معروفة عند المسلمين كما عند سائر الصينيين وفي كانسو يتنافس بها المسلمون اكثر من سواهم . ويتزوج المسلم بالصينية بل يستحب أن يأخذ غير مسلمة لعل الله يشرح صدرها للاسلام ولكن لا يحل لمسلمة أن تتزوج بغير مسلم . ومع التشديد في منع ذلك يوجد حوادث مستثناة فان الامبراطور « شيسين لونغ » كان متزوجاً بأمية تركية مسلمة . أما العفة ومطهارة العرض فهما محفوظتان عند المسلمين اكثر مما هما عند سائر الصينيين .

واحترام الآباء والاجداد معروف عند مسلمي الصين ، وتراهم يحفظون شجرات الانساب كسائر أهل الصين . ولا يوجد عندهم تفاوت في الطبقات الاجتماعية الا ما كان من تعظيم آل البيت وتمييزهم ولكن مسألة ادعاء النسب النبوي غير فاشية هناك كما في سائر بلاد الاسلام لذلك عدد أصحاب هذه الدعوى قليل وكان منهم الزعيم الناثر ما هو الوونغ . أما

سحنة مسلمى الصين فهى فى الغالب كسائر أهل الصين وإنما يجند فيهم الرأى كثيراً من السحنات العربية والتركية بسبب المهاجرة ومجى الطراء . وعلى كل الأحوال فالسواد الأعظم من مسلمى الصين هم من السلالة الصينية ولقبتهم هى لغة الصين وكتابتهم هى كتابة أهل الصين وان كان يوجد فى طجة نطقهم مالا تخلو منه مكان من الاختلاف بحيث يعرف الصينى المسلم من الصينى الوثنى من لهجته . ولا شك أن اختلاف الدين أوجد بين الصينى المسلم والصينى الوثنى تبايناً كبيراً فالمسلمون يرون أنفسهم أعلى جداً من الصينيين وهؤلاء يلقبون المسلمين باسم « هوى هوى » والمسلمون يكرهون هذا اللقب ويعبون أن يقال لهم « باى شان » أى أعصاب العائم البيض . ويوجد فى الصين جنس من الاسلام هم مباينون لسائر مسلمى الصين والصينيين فى اللغة والسحنة وهم قوم يقال لهم « السالار » يسكنون على الضفة اليمنى من « هوانغ هو » وما جاوره فهؤلاء يشبهون آراك كاشغر فى الخلقة ولقبتهم من التركى المحرف ومنههم حنى ويعرفون الحروف العربية ولا يوقدون البخور ولا يضعون أسماء سلاطين الصين فى جوامعهم وهم يجهرون فى الصلاة وقد ظهر بينهم مرشد فى نحو سنة ١٧٥٠ اسمه « مامينغ هين » أو محمد أمين وهو الذى يقلدونه الى الآن .

ويمتاز مسلمو الصين على سائر الصينيين بعلو الهمة وقوة الجسم فتجدهم من أجل ذلك مشغوفين بالخدمة العسكرية وتجد عدداً كبيراً من ضباط الجيش الصينى مسلمين ومنهم كثير فى المناصب المدنية الا أنهم فى المناصب العسكرية أرغب . وأما المهن فان بعضها يكاد ينحصر فيهم وذلك نظير المكاراة وقيادة المواشى ويقال لصاحبها « مافو » فان هذه المهنة هى فيهم خاصة وكذلك حرفة الخانات والاماكن المعدة للسافرين فهى مما يختص بهم . وبالاجال تجد الصينيين أقوم من المسلمين على الزراعة وتجد المسلمين أقوم من الصينيين على تربية المواشى

وأهل الصين ينظرون الى المسلمين بعين الحنن ويعتقدون أنهم يريدون تأسيس سلطنة ضمن السلطنة ولذلك تجد المسلمين يميلون الى الاور بين بعض الميل ومحسبونهم اخواناً بازاء الصينيين . وان كنت تجد فى قواد الجيش الصينى من المسلمين من اشتهروا ببغض الاجانب فالعامل فيه هو غطرسة الاجانب الاور بين لا التعصب الدينى . وبما لا ينكر أن مسلمى الصين يلجأون الى جميع الوسائل لاجل زيادة عددهم فيشترى فى الخماص مئات

أولف من أولاد الوثنيين ويربونهم في الاسلام ويجذبون الى دينهم كثيراً من الصينيات بواسطة الزواج . وضباط الجيش من المسلمين يهدون الى الاسلام كثيراً من جنودهم . وقد أخبر أولون أنه صادف جمعا من الذين أسلموا حديثاً . نعم ان ثورات المسلمين الاخيرة وقفت سير الاسلام بعض الشيء ولكن بما لا نزاع فيه وبما اتفق عليه جميع سياح الاور بين الذين سبروا غور الصين أنه لا يعد مستحيلا دخول الصين في الاسلام لا سيما بعد أن أعلن الصينيون المجددون سنة ١٩١٢ كون الماندشو والمغول والمسلمين والتبتيين والصينيين كلهم متساويين ويذهب بعض الاور بين الى امكان حصول ديانة جديدة يمزج فيها الاسلام بعقيدة كنفوشوس لا سيما أن في العالم الاسلامي حركة دينية ظاهرة نحو التجدد .

أما الحركة الدينية الحاضرة في اسلام الصين فهي عبارة عن أن « ماهو الوغ » الذي تقدم ذكره قام بطريقة خاصة من قواعد الجهر في الصلاة وارتداء الأبدى بدل القبض والاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور وتزعم بعثة أولون أن المسلمين الصينيين انقسموا بذلك الى قسمين : أصحاب الديانة القديمة ويقال لها « لاوشياو » وأصحاب الديانة الجديدة وتسمى « سين شياو » وعقبت على ذلك الانسيكولو بديعة الاسلامية بقولها ان هذه الحالة هي في سائر بلاد الاسلام فان هناك من يتمسك بالأولياء والأقطاب ويعتقد بتصرفهم في الكون باذن الله ، ومنهم من لا يعتقد بذلك ولا يخرج عن ظاهر الشرع

ثم ذكرت الانسيكولو بديعة أن السلطان عبدالحيد فكر في الاستفادة من مسلمي الصين بإيجاد علاقات معهم باسم الخلافة فأرسل الى الصين سنة ١٩٠٠ أحد القواد وهو أنور باشا^(١) لهذه الغاية فأخفق اخفاقا تاما . ثم ان الاهونغ^(٢) وانغ هاوزان الياس عبد الرحمن مفتى باكين قدم الى الاستانة فالتمس من السلطان ارسال بعثة اسلامية الى الصين فأرسل اثنين هما على رضا وحافظا فأسسا مدرسة سنة ١٩٠٧ . وجالا في بعض بلاد الاسلام « ولكن الحكومة الصينية قضت على الدبسة التركية » فالتجأ ذانك التركيان الى سفارة المانية في باكين ووعدت سفارة المانية في الاستانة بأن تحمل سفارة المانية في الصين على حاجتهما ولكن الحكومة الصينية لم ترد أن تسمع كلاما فلما رأى المرسلان المذكوران أن السلطان

(١) غير أنور باشا الصبيد ناظر الحرية

(٢) الاهونغ عند أهل الصين العالم المسلم

تركهما التجأ إلى سفارة فرنسا فغتمتهما ثم عادا إلى الاستانة ولا يزال في تركية الدستورية نية تأسيس سفارة في باكين وهي جنة ليست على ما يظهر قريبة التحقيق (كذا) .
ثم أردفت ذلك بقولها : انه وان كان المستقبل لا يأذن بالتكهنات . فيمكن مع ذلك أن يقال ان استيلاء الاسلام على الصين وظهوره على سائر أديانها هما شبح لا يفيد المسلمين سوى الخراب والخسار . ولكن اذا كان يتسلسل حوادث غير منتظرة تحققت آمالهم في هذا الأمر ولو لمدة موقته فتكون مصيبة على الصين لأن الاسلام ليس بدين مدنية والاسلام هو قبل كل شيء عدو للمدنية الافرنجية حال كون استمداد الصين انما هو لاقتباس هذه . فان كان المسلمون يريدون الاشتراك في حركة التجديد الصيني فلا بد من أحد أمرين : اما أن ينقادوا إلى الأفكار الجديدة ويسيروا مع دعاة الإصلاح الصينيين إلى تجديد مملكة صينية على قاعدة القومية الصينية وبذلك يكونون غير مجرمين . واما أن تبقى في قلوبهم نيات النسل على سائر الصينيين فبمجرد ظهور هذه النيات يسحقهم الصينيون سحقاً لأن المسلمين عددهم قليل جداً في وسط رؤساء الحركة الإصلاحية وان الأمة الصينية تحسن عملاً في الحذر من العناصر الاسلامية التي في داخلها وفي منع نمو الاسلام في الصين بشراء أولاد الصينيين . انتهى بالحرف .

وقد يأخذ القارئ العجب كيف ان دائرة المعارف الاسلامية تصرح بمثل هذه الأقوال التي فيها من التحامل والبغضاء وسوء النية بحق المسلمين مالا يمكن المراء فيه . ولماذا ارسال السلطان عبد الحميد بعثة تهذيوية إلى باكين يعد « دسيسة » وبعثت الدول الأوروبية التي هي مائلة للصين والشرق والغرب لاتعد « دسائس » ؟ ولماذا وجود سفارة تركية في باكين يعد جنة حال كون أولى الأمم بأن تكون لهم سفارة عند الصين هم الترك نظراً لتجاور الترك مع الصينيين ولوحدة الأصل ثم لماذا يجب على الصين هذا الحذر كله من الاسلام والاسلام دين قسّم وافر من أهلها ولا يجب عليها الحذر من الافرنج الذين مانسبوا أصابعهم في مكان الا انتهى الأمر باستيلائهم عليه واستعبادهم لأهله ولماذا الدين الاسلامي عدو للمدنية وقد شهد كثير من أعظم أوربا ونخبة المستشرقين انه خدم المدنية ؟ وأخيراً لماذا يغار هذا الكاتب على الصينيين أكثر من غيرتهم على أنفسهم فانهم تسامحوا مع المسلمين في تركهم يأخذون أولادهم في المساعب ويربونهم في حجر الاسلام وهذا الكاتب

لايسامح في ذلك .

ولكن من علم أن محرر هذا الفصل من الانسيكلو بيدة الاسلامية الفرنسية هو الاستاذ المستشرق مرتين هارتمان الألماني بطل عجبه . فان هذا الأستاذ قضى حياته في محاربة الاسلام والاجتهاد في اظهار معايبه والتحامل عليه في كل فرصة وهو أشبه بلامنس اليسوعي بكون كل منهما استشرق في مدينة بيروت ووقف عمره على مجادلة الاسلام وألسس في هذه السبيل العنان طواه واحنة صدره . عرفت هارتمان هذا وأنا طالب في مدرسة الحكمة في بيروت لم أتجاوز الخامسة عشرة سنة من عمري ثم لقيته بعد ذلك باثنتين وثلاثين سنة في برلين وهو يحرر في مجلة « الشرق الجديد » أثناء الحرب . وكان يتردد الىّ ولم أكن أعرف حقيقة مشربه ولااطلعت على كتاباته اذ ذاك الا أنه قيل لي مرة ان الأستاذ هارتمان كان من ألد أعداء الأتراك لايفتر عن الطعن فيهم فما باله عاد الآن يحمد طريقتهم أنرى ذلك من أجل كون الترك حالفوا الألمان ؟ فبحثت عن السبب فعملت أنه رضى عن الأتراك بمجرد ما علم أن فتنة منهم تسير في خطة غير اسلامية ولهذا كان معجبا بمبادئ ضياكوك ألب وأمثاله . وحدثني المرحوم الشيخ صالح التونسي أنه جرى اجتماع في برلين أثناء الحرب حضره كثير من المسلمين فقام هارتمان وعرف الجهاد عند الاسلام بكيفية تقشعر منها الأبدان فانبرى له الشيخ صالح وتكلم في حقيقة معنى الجهاد وفند دعوى هارتمان في الأمور التي زعم أن الشرع يبيحها لأجابه هارتمان أن مايقوله الشيخ صالح هو شيء جديد غير مافى الشريعة . فرد عليه الشيخ صالح بقوله بل هذه هي أحكام الشريعة وان هارتمان يجهل الشريعة وطالت المشاحة بينهما وفصل بينهما الاستاذ المستشرق ميتفوخ وقال ان حد الجهاد هو ما قاله الشيخ صالح لاما قاله الشيخ هارتمان .

ومن أغرب شواهد التهور الذي كان عليه هارتمان هذا في احتقار الاسلام أنه في مقاله عن الصين هذه أشار الى الحديث النبوي الذي نقله المستشرق المجرى غولده سيهر وهو : « اتركوا الترك ماتركوكم » فهزأ به وزعم أنه حديث موضوع يقصد به اضافة العلم الى النبي ﷺ وتعظيم قدره والحال أنه قد يكون محمد لم يسمع بذكر الترك في حياته . ولولا كون هارتمان قدمات بعد الحرب بقليل وقيل أن اطلعت على جلته هذه لكنت أظهرت له مافيا من قلة المعرفة وعدم التمييز وفساد الاستشراق واثبت له أنه لا يضح أن يعد مستشرفا

من يعتقد أن سيداً من سادات العرب — بصرف النظر عن النبوة — لا يعرف وجود الترك في الدنيا مع أن العرب في الجاهلية كانوا يعرفون الترك والروم كما يعرفون العجم. وكان اسم الترك معروفاً لديهم وادراً في أشعارهم ولم يكن جهل العرب واصلاً إلى حد أنهم يجهلون وجود الترك . وإنما القول بأنهم كانوا بهذه الجهالة هو عين الجهالة وقلة العقل والظن بأن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب ربما لم يسمع في حياته بوجود أمة اسمها الترك هو منتهى الصغارة والضعة ولا يشابهه إلا أقوال لامنس اليسوعي التي يأسف من يقرأها على تصدق أناس أعماهم الغرض إلى هذا الحد لدعوى الاستشراق وتصديهم للكتابة عن الشرق والاسلام . وقد صنف المسيو دينه Dinet وسليمان بن إبراهيم كتاباً بالفرنسية اسمه « أنك في واد وأنا في واد » أظهر فيه ما في تأليف لامنس من السخافات والآراء الخيالية التي لاتشبه إلا صاحبها ولاتنقص إلا كاتبها .

هذا ونعود إلى موضوع الاسلام في الصين فنقول ان أحد أدباء الصين ورد مصرأ في العام الماضي فتقلت جرائد مصر عنه أحداث عن بلاده من جللتها أن في الحكومة الصينية الحاضرة أربعة وزراء مسلمين وهم الجنرال محمد كاشونغ ناظر الحربية ثم الجنرال محمد شيسانغ ناظر الطرق وناظرين آخرين أحدهما وزير الزراعة والثاني وزير الأمور الدينية الاسلامية الذي هو بمثابة شيخ الاسلام . وقال هذا السامع ان مسلمي الصين متفقون مع حكومة الصين في مبدأ تعزيز الرابطة الشرقية . وذكر أن عدد المسلمين في الجيش الصيني هو نحو نصف مليون منهم ٥٠٠ ضابط وأخبر عن وجود جريدة اسلامية في الصين اسمها « راية الاسلام » والله أعلم .

ولقد اطلعنا على كتاب اسمه « مسلمو يُّنَّان » Les musulmans du Yunnan لكاتب افرنسي أقام بجنوبي الصين عدة سنوات اسمه المسيو « كورديه » Cordier من أعضاء اكلاديمية علوم المستعمرات قال فيه ان مسلمي الصين يبلغون عشرين مليوناً أى واحداً من عشرين من الأمة الصينية لكن لهذه الاقلية الاسلامية هناك شأن لا يستهان به

ولما كان صاحب هذا التأليف عالماً مؤرخاً فيما يظهر من كلامه أحياناً ان تأثر عنه بعض معلومات تم بها فائدة هذا البحث

فهو يرى أن دخول الاسلام في الصين بدأ من القرن الاول للهجرة وذلك ان الفاتح العربي قتيبة كان بين سنة ٧١١ و ٧١٤ قد وصل بفتوحاته من سمرقند الى كلشفر وانه قد وجد في المجموعة الكبرى الصينية صور الكتب التي وردت من ملوك بخارى وسمرقند وتركستان الى اهل الصين لذلك العهد يستخرجونه لاتخاذهم من العرب . ومنها يستدل على الرعب الشديد الذي حل بالترك اذ انثذ من سطوة العرب^(١) وان قتيبة بعد أن حمل تلك الشعوب التي أطاعته على الاسلام أرسل الى ابن السماء برسالة يدعوها الى الاسلام و يشرح له عقيدة القرآن وبحسب قول مارغوليوت قد راع اهل الصين الاخبار التي جاءت عن قوة العرب فانرضى بأن يرسل الى قتيبة بالجزية

والمسيو كورديه يشك في تأدية اهل الصين للجزية نظراً للمهود من كبرياء ملوك الصين ولكنه يرى محققاً أن اهل الصين أعجب جداً بشجاعة العرب واقدام قائدهم قتيبة لانه سنة ٧٥٦ كان نار أحد العصاة المسمى « آنلوشان » على العاهل « سوتسونغ » واستفحل أمر الناثر هذا فأرسل العاهل الى الخليفة أبي جعفر المنصور يستنجد على الثوار فأمدّه بجيش أربعة آلاف مقاتل من العرب فذهبوا الى الصين وأخمدوا الثورة وأعادوا الى الامبراطور ملكه بعد ان كاد يذهب من يده . ولما سكنت الحال استقر هؤلاء الجنود العرب في بلاد الصين وتزوجوا وتولدت منهم طبقة خاصة وهذه بلا نزاع النواة الأولى للاسلام في الصين

وهل كان محيى* هذه النجدة العربية للامبراطور « سوتسونغ » بجرأ أم برأ ؟ الجواب هذا غير معلوم الا أنه مما لا شك فيه ان مدينة كاتون كان فيها مسلمون من القرن الأول للاسلام مؤلفون من بحارة العرب والعجم الذين كانوا في تردد دائم على سواحل الصين وقد كثرت عددهم الى حد انهم سنة ٧٥٨ ناروا على الحكومة بسبب ضريبة أرهاقتهم فذهبوا البادة وأحرقوها وخرجوا . ثم لم يطل الأمر ان رجعوا الى هناك لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين سيراف وكنتون وكانت المحطة بينهما جزيرة سيلان

وسنة ٨٧٢ وصل الى كنتون السائح العربي ابن وهب وقصد بلاط العاهل وأراه هذا صور الأنبياء نوح وموسى وعيسى ومحمد وصور حكماء الصين . و بعد هذا التاريخ بسبع

(١) راجع الصفحة ٨ من كتاب كورديه

سنوات نار نأثر اسمه « هوانغ تشاو » ونهب كنتون وقتل فيها مائة ألف مسلم
وبعد ذلك نسكت التواريخ الصينية عن ذكر المسلمين في الصين الى زمن ثوراتهم

الأخيرة اهـ

قلت : اما ارسال قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح بلاد الترك رسالة مع وفد اتخبه الى ملك
الصين فقد ذكره ابن الأثير تفصيلاً كما سبق لنا نقل ذلك في الطبعة الأولى من هذا الكتاب
والذي يظهر هو أن ملك الصين راعه الامر ووجد العرب قد كادوا يطأون بلاده فأرسل
الجزية الى قتيبة خلافا لما ذهب اليه كورديه من أن كبر ملوك الصين أعلى من ذلك . ولو
كان الكبر يمنع مثل هذا الامر لما استنجد عاهل الصين بأبا جعفر المنصور وبينهما مسافة
بضعة أشهر

وأما ذهب ابن وهب من البصرة الى كنتون ثم الى بلاط ملك الصين وتكون هذا أراه
صور الأنبياء والحكماء فهذه القصة واردة في كتب العرب

والذي يظهر أن العرب كثروا جدا في كنتون صدر الاسلام وكانت السفن لا تنقطع
بين مرافق الاسلام ومرافق الصين

جاء في كتاب « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » قال .

« حدثني القاضي احد بن سيار قال حدثني شيخ من التجار بعمان قال : كنت بالاباة أريد
الخروج الى البحر فرأيت سائلا بباب الجامع فصيح اللسان مليح المسألة فرقت له وأعطيته
دراهم صالحة وخطفت في الوقت الى عمان فقضيت بها شهورا ثم قضى لي ان مضيت الى
الصين فدخلتها سالماً فاذا أنا يوما أطوف فاذا الرجل بعينه قائماً في السوق يتصدق فتألمته
فعرفته فقلت له : ويحك سائلا بالاباة وسائلا بالصين . فقال : قد دخلت الى هذا البلد ثلاث
دفعات وهذه الرابعة اطلب المعيشة فلا أجدها الا من الكدية فأرجع الى الاباة ثم أرجع الى
هنا . قال فعجبت من شدة حرمانه » اهـ

والذي أريد استخلاصه من هذه النكتة أن كنتون كانت لعهد دولة العرب أشبه
ببمباي الهند اليوم بالنسبة الى البصرة أو الى الكويت أو الى البحرين الخ

وكورديه يرى أن الاسلام دخل الصين من الطريقين البحري والبري . اما مقاطعة
« ينان » فيذهب هذا الرجل الى ان الاسلام جاءها من الشمال عن طريق مقاطعة

« شانسى » كما أنه يجوز أن يكون جاء المسلمون من الهند الى بيرمانيا الى ينان . ولكن هذا الاحتمال ضعيف . وبحسب الروايات المأثورة فى الصين دخل الاسلام فى ينان فى أيام دولة « تانغ » ثم ازداد فى أيام جنكيزخان الذى غزا جنوبى الصين وكان فى جيشه مسلمون فاستوطنوا تلك البلاد . وكان السيد الاجل مغولياً مسلماً من هؤلاء فاعتنى بتمكين المسلمين هناك ولهذا لما وصل السائح الايطالى الشهير الى « يونان فو » ذكر أن أهلها مزيج من وثنيين ونصارى ناطرة ومسلمين . وزعم الجنرال « فيتش » Fytche فى مجلة « ادنبورغ ريفيو » ان الامبراطور « هويوتسونغ » من عائلة « تانغ » عند ما حصلت عليه ثورة « نغالوشان » استنجد العرب فى قمع الثورة فأرسلوا اليه عشرة آلاف مقاتل أخذوا له الثورة ولكنهم لم يرجعوا الى بلادهم فأسكنهم الامبراطور فى ينان . ولم يذكر الجنرال مصدر هذه الرواية . وذهب « جون آندرسون » John Anderson الى أن مسلمى ينان هم من سلالة العرب ومعهم عنصر تركمانى هبط اليهم من شانسى وكانسو

وذهب « بورن » Bourne الى أن مسلمى ينان هم قسمان : جماعة « تاليفو » وجماعة « ليننغان » فالأوائل هم سلالة عسكر جنكيزخان . والأواخر هم من مهاجرى شانسى . قال وقد أسكن الأوائل فى غربى ينان الأمير « هيان يانغ فانغ » المعروف بالسيد الاجل وذهبت مادام فاسال Madame Vassal فى كتابها على « ينانغو » الى أن أصل مسلمى ينان هو من الملاحه العرب الذين جاءوا الى كنتون فى القرن السابع المسيحى ونهبوا هذه البلدة ثم تفرقوا فى جبال ينان . ولكن كورديه يقول : كيف لم يترك هؤلاء آثاراً اسلامية فى طريقهم بين كنتون وينان

قال كورديه : وكيف كان أصل وجود الاسلام فى ينان فالمسلمون لم يزالوا ثمة فى ازدياد بصورة منتظمة ولولا الذين ذهبوا منهم فى الثورة الأخيرة من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣ لكان عددهم عظيماً جداً . أما عدد الذين ذهبوا منهم فى المذابح التى وقعت فى المدن الكبار مثل « كين تسينغ » و « تشنغ كيانغ » و « سين هينغ » و « كوانغ يى » ولا سيما « تالى » فيظن أنه ثلاثمائة ألف نسمة . وقد قتل فى تالى وحدها ٣٠ ألفاً . وهذا هو تعديل الأب بورياس Pourias الذى كان معاصراً للثورة .

أماعدد مسلمي ينان في الوقت الحاضر فقير معروف بالهام فبعثة «اولون»^(١) D'ollon
 لآزديهم على ماتين وخسين الفأ . وقال « دافيس » Davies انهم ثلاثاة الف . وقال
 « كاراي » Carey انهم ثلاثاة وخسون ألفاً وقال « سوليه » Soulié انهم من ثماناة الى
 تسعمائة ألف . وجعلهم « تيرسان » Thersan من ثلاثة الى أربعة ملايين . قال كورديه :
 أما أنا فقد سألت المسلمين أنفسهم محلة محلة وبلداً بلداً وقابلتها مع المعلومات التي عندي
 من المبشرين المسيحيين فوصلت الى عدد يتراوح بين ٣٠٠ الف و ٤٥٠ ألفاً

وأهم المراكز الاسلامية هي « ينانسن » و « شاتين » و « تشاوتونغ » و « تشوان
 تشوان » و « سين هينغ » و « نالي » و « يونغ تشانغ » و « بوويل » و « بووهي »
 و « سماو » و « يون تشيو » . ثم حرر كورديه جدولاً تقريبياً عن عددهم في كل بلد ثم
 قال : ولا أضمن مع هذا ان هذا العدد هو الصحيح اذ لابد لمن أراد أن يعرف ذلك أن يقيم
 في ينان مدة سنتين بالأقل وهو يفحص في كل ناحية وفي كل كورة

ثم ذكر كورديه انه قد اختلف السياح كثيراً في هذا الأمر وان « موير » Muir
 ذهب الى أنه يوجد مسلمون منتشرون الى حدود التبت . والحال أن مسلمي ينان اكدوا
 لكورديه انه لا يوجد مسلمون وراء « لي كيانغ » وقال « موريسون » Morrison انه
 يوجد قرى اسلامية متعددة في الجبال . ويقول ان في « تشاوتونغ » ثلاثة آلاف عائلة مسلمة
 وان فيها شارعاً ملائ بالمساجد وكلها نظيفة وان تجارة الجلود في تلك الناحية كلها بأيدي
 المسلمين

وقد ذكر موريسون أنه صادف في أحد الجوامع « ملأ » أي شيخاً يقرئ بعض
 الاحداث فأخذ يحادثه فوجد أنه لا يعلم شيئاً عن الخارج . وسأله عما اذا كان جامع قرطبة
 وجامع القرويين بفاس أو أجل أو أكبر من جوامع تشاوتونغ ؟

ثم قال كورديه : ان الاسلام انتشر في وقت واحد في « كوانغ تونغ » و « ستشوان »
 و « شانسي » و « شنسي » و « كانسو » و « ينان » ولكن ثورات المسلمين لم تقع الا في المقاطعات
 الثلاث الأخيرة . وليس ذلك الالأسباب طبيعية . فولاية « كانسو » هي قطعة مستطيلة بين
 « العوي » و « التبت » يحدها الجبل من جهة والمغارة من أخرى . فالصينيون يهتمهم

(١) التي تقدم الكلام عليها في حواشي الطبعة الأولى

أن تبقى هذه الولاية بأيديهم لأنها نقطة الاتصال بين الشرق والغرب ومنها يتمكنون من رد قبائل التركان عن التجاوز . والمسلمون أيضاً تهمهم هذه الولاية لأنهم بها يتصلون باخوانهم مسلمي التركستان وفي الوقت نفسه بمسلمي سنشوان ونيان . ويأملون أن يركبوا سلطنة من هذه الولايات الثلاث . فن هنا كثرت الثورات فيها

و نيان نفسها معدودة كأنها قطر منفصل عن الصين تحدها أعلى التبت وحراج بيرمانيا والتونكيين العليا والمسلمون فيها يقدرون أن يكونوا على اتصال بمسلمي الهند

ولكن هذه التعليلات لايقبلها الجميع ومن الناس من يقول ان ثورات مسلمي الصين لم يكن لها منشأ الا الظلم . فالأب داود يقول ان مسلمي شانسي لايفكرون أبداً في انشاء حكومة ولا يريدون الاالذب عن حياتهم ومالم وأن يعيشوا بسلام وأمان وان كانت الثورة امتدت واشتدت فما ذلك الامن عسف العسكرية ونهبهم للأهالي . ثم قال : « وليس مسلمو الصين متعصبين كسلمي الغرب وجميع اسلامهم الاعتقاد ببعض مبادئ اسلامية والختان والامتناع عن أكل الخنزير . وقليل من شيوخم حجوا الى مكة واذا قرأوا القرآن لم يفهموه » وذهب جون أندرسون الى أن ثورة ينان كان سببها ظلم ولاة الصين . وهكذا قال « برومهال » Broomhal قال ومن سنة ١٨٣٤ الى سنة ١٨٤٠ نشبت ثورة أساسها قتل حاكم « شوانغ نينغ فو » لأف وستائة مسلم في « مونغ ميان نينغ »

وذهب « كلارنيه » Carné الى عكس ذلك ووصف مسلمي ينان بالشدة والقسوة والافراط في العصبية ومزيد الجراءة وقال انهم هم البادئون بالشر . وهكذا زعم الاب بورياس الذي كان سنة ١٨٦٦ في ينان فأكد ان المسمين هم الذين أشعلوا الحرب وطمحووا الى الاستقلال وان بلاد ينان كانت تقريباً في أيديهم وكانت طاعتهم للحكومة اسمية وكان الصينيون يتقون شرهم فأنت ترى اختلاف الآراء وتناقض الروايات في هذه المسئلة . وقال فرنسيس غارنيه Francis Garnier ان المبشرين الكاثوليك أعطونا عن أسباب الثورة معلومات يعارض بعضها بعضاً بحسب الاماكن التي كانوا فيها

وقال « كولبورن بار » الانكليزي : ان مسلمي ينان هم من أصل واحد مع البوذيين وغيرهم من الصينيين الاصليين . وقال الكاتب جونستون وغيره من السياح ان التعصب الديني لم يكن السبب في الثورة

ولقد كانت ذكرت بعثة « أولون » أنها لم تحب في ينان كثرة الاختلاط بالمسلمين والاحفاء في الاسئلة خشية إيجاد الوسواس عند حكومة الصين التي لا نطمئن اليهم

وقد أدهش كورديه هذا الكلام . وقال انه بعد سفر بعثة أولون بقليل جاء الى ينانغو وخالط المسلمين وذهب الى الجوامع وأخذ صوراً فوتوغرافية وأحفي ما شاء في أسئلة شيوخ الدين وطلبتهم ولم يثر ذلك أدنى شبهة عند مأموري حكومة الصين . وربما أثار الشبهة بحق بعثة أولون أن رجالها كانوا كلهم عسكريين . ومرة أراد أحدهم وهو بزي مدني أن يزور دار السلاح في ينانغو ووجد من ساربه اليها أشبه بمتفرج . وكان مدير دار السلاح أراد أن يطلعه على كل ما فيها الا أن هذا الضابط لم يلبث ان عرف بنفسه وصرح بكونه ضابطاً وان رتبته كذا : فعندها اشتبه مدير دار السلاح بالامر وبعد ان قدموا الى المتفرج الافرنسي الشاي والحلواء بحسب العادة اعتنروا له عن اطلاعه على المعمل بحجة ان العملة كانوا في العطلة وما أشبه ذلك

ثم قال كورديه — ويظهر انه هو كان هناك مدير مدرسة — انه لم يجد أدنى فرق في السحناء بين الصينيين المسلمين والصينيين البوذيين وانه كان عنده في المدرسة ٧٥ طالباً منهم ٥٠ كانوا مسلمين ومع شدة تحديقه وتدقيقه لم يجد في خلقتهم فرقاً . فهو يرى انهم باجمعهم من سلالة واحدة . وأما الاب داود الذي ساح كثيراً في ينان فيقول انه برغم وجود دم عربي ودم تترى في مسلمي ينان فالغالب عليهم السحنة الصينية

ثم ذكر كورديه ان مسلمي ينان يدخنون ومنهم من يشرب الأفيون ومنهم من يشرب السكرات لكن سراً . وهم في هذا ككسائر الصينيين لكن الاجماع عندهم واقع على اجتناب لحم الخنزير

قال : وليس للمسلمين هناك مهنة خاصة بهم بل هم أرباب أشغال وحرف مختلفة كغيرهم . وقد كانوا في القديم يحبون الجندية وكان القواد المسلمون يستكثرون منهم . فلما تحول الجيش إلى النسق الجديد قل عددهم فيه لأنه في الجيش لا يقدر الجندي المسلم بممارسة شعائر دينه في الوقت الذي يريد اذا كانت الخدمة المنظمة تقيده بواجبات أخرى

وقال كورديه : كل من يعرف الجزائر يحار من شدة المشابهة التي يجدها بين هيئة بيوت مسلمي الجزائر وهيئة بيوت مسلمي ينان . فجميعها مساكن تحيط بدار في الوسط

وأمام المساكن أروقة يمر بها الانسان من محل الى محل بدون أن تصيبه الشمس أو المطر وليس للجوامع طرز بناء خاص يميزها عن غيرها الا ما ندر كما على باب جامع ينانفو الذى فيه شئ من الزينة مع كتابة عربية . وليس للجوامع ما ذن كما فى سائر البلدان . قال كورديه : وفي ينانفوستة جوامع . ويقال ان فى تالى ١٥ جامعاً وان فى شرق ينانف وسطها ٣٥ جامعاً . ثم قال : ان بين جوامع المسلمين وهياكل البوذيين بوناً عظيماً من جهة النظافة فان هياكل الصينيين ليس فيها شئ من النظافة التى تجدها فى مساجد الاسلام سواء فى ذلك داخل المسجد أو صحته . ولعل السبب فى هذا ان المساجد هى دائماً مشغولة بالمصلين على حين أن الهياكل لا يأتونها أهلها الا فى الأعياد . قال : واذا دخل الانسان جامعاً لم يقدر الا أن يشعر بخشوع اكيد لا سيما إذا قايستها بمعابد الوثنيين بما فيها من أدوات ومواعين وأصنام بشعة المنظر وآلهة سمجة الملبس . وأشد ما يكون الخشوع اذا اجتمعت جماعة المؤمنين للصلاة يدخلون بلباسهم البضاء فيتركون نعالم عند الأبواب ويتوضؤون وهم يقرأون شيئاً بصوت منخفض ثم يتقدمون رويداً الى الصلاة صفوفاً وراء « الاهونغ » (الامام) الذى يؤم بهم .

والاهونغ لا يمارس الامامة عندهم الا ثلاث سنوات فقط . ولكن ان شاءت الجماعة تمدله هذه المدة . وامام الجامع الأكبر فى ينانفو مضى عليه ٢٥ سنة وهو فى هذه الخدمة . ومعاشات الأئمة هى من جماعة المؤمنين لا يستثنى منهم الا الفقراء . وعلى الاهونغ خدمة ثانية وهى تعليم الاحداث العقيدة الدينية واللغة العربية فى جانب كل جامع مكتب للولاد . وفى بعض المساجد يوجد مدارس تعلم فيها الآداب الصينية وغيرها من مواد برامج المدارس الابتدائية .

وليس لهذه المدارس امتحانات رسمية لكن متى رأى الاهونغ تلميذه قد آتم دروسه يامر به فى أحد الأعياد أن يفسر آية من القرآن أمام جماعة المؤمنين . ومن ثمة يحق لهذا الدارس الذى آتم تحصيله أن يلبس الثوب الأخضر وينتعل نعال المحمل الاسود ويتمتع بعامة بيضاء تدور بطربوش ذى قنزعة . وهذه الحوائج يشترها له جماعة المؤمنين أو الذين انفقوا على تحصيل هذا الطالب الى أن صار منتهياً . ثم ان هذا يعود فيقرئ غيره العقيدة العربية

وليس للأئمة معاش محدد بل معاشاتهم تابعة لدرجة غلة أوقاف المساجد التي يقومون عليها . وقد يخصص للإمام مقدار من الارز من غلة اراضي المسجد . ثم ان المؤمنين يؤدون اليهم شيئاً عند عقد الأنكحة وفي الجنائز

وتنوعه أعشار المسلمين هناك لا يعرفون من العربية الا « سلام عليكم » و « بسم الله » و « الله أكبر » وبعض كلمات . وأما الأئمة فليسوا بعلماء في العربية قال كورديه : حدثني أحد الاهونغات ان ٢٠ في المائة من المسلمين يقرأون العربي بدون أن يفهموه . وخسة أوستة يقرأون العربي ويفهمون بعض الصلوات . وواحد في المائة يقرأ العربي ويكتبه ويفهمه كما يلزم . لكن ليس في الالف واحد يقدر أن يتحدث كما يريد باللغة العربية . ويقول كورديه انه لم يلحظ عند الأئمة اجتهاداً في نشر العربية كأنهم يخشون بنشرها المزاجحة على وظائفهم

قال كورديه : وكل مرة كان الاهونغات يشهدون لى بآية من القرآن كانوا يتلوها باللغة الصينية . ويقال للاستاذ منهم في علم التوحيد « هوليفو » ثم اذا ارتقى قيل له « اهونغ » وهو من « اخوند » بالفارسية . واذا ذهب الى الحج قيل له « اولتش » والشيوخ الكبار من هؤلاء يقال لهم « سوفو » ويوجد من يقال لهم « أوسوتو » أى الاستاذ . وهؤلاء هم الذين حصلوا العلم في « تاوتشيو » أو « بين لينغ » من مدن كانسو وهناك مدارس أسانيزها من خريجي الأزهر بمصر . وليس في بنان الأستاذان من هذه الدرجة أحدهما درس العربية مدة ١٨ سنة منها ١٠ سنوات في كانسو . وهو الآن مدرس في « شاتين » . وقال كورديه انه يعرفه

ثم قال ان مسلمي الصين هم سنيون على المذهب الحنفي . وبلاد « هينكيانغ » و « كانسو » و « بنان » أهلها هم أشد المسلمين تمسكاً بالسننة

قال كورديه : ولم أرهم يتوضؤون بالتدقيق الذي يتوضأ به مسلمو المغرب والجزائر لأن الصيني بفطرته يكره الغسل والاعتسال . وهذه الامة الصينية بأجمعها هي كما قال الدكتور « سفيث » Svaift الانكليزي أمة قدررة (كذا)

قال : والصدقة والزكاة جاريان . وجميع الشرفيين بفطرتهم يحبون الصدقات الا أنهم لا تجدهم يجرون أحكام الزكاة الشرعية بحروفها . فالحكم الشرعي هو أن على المسلم أن

بؤدى للزكاة واحداً من ٤٠ من نفوده ورأس بقر من كل ٣٠ رأساً وخرופاً من كل ٤٥ من الخراف والخمس من المعادن الخ الا أن مسلمي ينان أفقر من أن يقوموا بكل هذا وان كانت هذه الامور جارية في سائر بلاد الاسلام . والضيافة أيضاً أمر مقدس عند المسلمين وكل غريب أو ابن سبيل يقدم الى محل يقال له ضيف الله ويطعم ولا يسأل . وكان محمد ﷺ يوصى بالصدقات الخفية ولكن غلب على المتصدقين حب الظهور

قال : وأقل أركان الاسلام نفوذاً في الصين الحج نظراً لبعده المسافة الى مكة فلا يستطيع الحج الا الأغنياء المترفون . ومن كل ينان لا يحج في السنة الا خمسة أوسته . ومن كانسوة عشرة . ومن « ستشوان » عشرة

نعم ذهب سنة ١٩٢٣ من ينان ١٠ حجاج الى مكة وفي السنة التي بعدها بلغ عددهم ٢٣ حاجاً

ثم ذكر كورديه شيئاً غريباً وهو أنه قد بلغ مسلمي ينان أن فرنسة أحسنت معاملة اخوانهم مسلمي تركيا أكثر من انكلترة فالوا الى فرنسة سنة ١٩٢١ جاء منهم ٢٢ شخصاً فأخذوا تواصي من قنصلية فرنسة ولم يذهب الى قنصلية انكلترة الا واحد فقط

وطريق الحج من ينان الى التونكين حيث يبحرون من « هونغ كونغ » الى سنغافوره الى جدة

ثم ذكر كورديه بعض عادات المسلمين هناك فقال : اذا ولد المولود استدعوا الاهونغ فقرأ له بعض الأدعية وأعطاه اسماً عربياً ولأجل أن ينتخب الاسم يفتح كتاب الله ويقلب الصفحات سبعاً بسبع ثم ينتخب الكلمة السابعة من السطر السابع . ويعد ثلاثة أيام من الولادة يكون ما يسمونه بالحمام الثالث . ويومئذ يقدم الأصحاب هدايا من ثياب وعقود للمولود ويعمل أهله خبزاً خاصاً من دقيق وسكر معجوناً بالزيت . وأما سنة الختان فيجرونها اذا كان الولد في السابعة أو الثامنة . وأما في الزواج فلا فرق في الأعراس عن البوذيين غير أنه في لسله الزفاف يأتي خمسة من الاهونغات ويجتمعون الى العروسين وبلقون عليهما نضائح ويدعون لها

وأما الجنائز فعند ما يحتضر الانسان يستدعى الاهونغ ليقرأ له ما تيسر وبعد الموت يوضع في نعش هو النمش العام لجميع الموتى من المسلمين . وعند الخروج بالميت يكون

محمولاً على الأكف الرأس الى الامام والأرجل الى الوراء لكنهم في الطريق يعكسون الأمر ويجعلون الأرجل الى الامام . وعند الدفن يكشف الاهونغ عن وجه الميت ويوضع في الحفرة والوجه متجه الى مكة . وبعد الموت بثلاثة أيام يوزعون في بيت الميت خبزاً معجوناً بالزيت

وعلى وجه الاجال لا تجدد مسعى ينان شدة التمسك التي عند مسلمي تركيا أو افريقيه باسلامهم ولا ترى ما تراه في الجزائر مثلاً وهو أنه متى جاء وقت الصلاة أينما وجد المسلم خر ساجداً

وفي ينان طانفتان من المسلمين « كوكياو » و « سين كياو » واختلافهما انما في بعض الآراء الدينية لافي الشعائر . والفئة الثانية هي الضعيفة والفئة الاولى هي الجماعة

والحرية الدينية تامة في الصين وقد أعلنت رسمياً في القانون الأساسي الذي أعلن سنة ١٩١٣ و بعد ذلك نشرت الحكومة وصايا أدبية في كتب خاصة فيها : «إن الصينيين والمغول والمنشوش والتبتيين والمسلمين كلهم أبناء جمهوريتنا الصينية بدون تفریق بين أجناس ولا أديان . ولكل أن يعتقد ببوذا أو عيسى أو محمد فليس للدولة ديانة رسمية بل الديانة حرة والحرية هي عبارة عن مجموع الحقوق المدنية لكل إنسان في شخصه وأمواله وشرفه وعقيدته فكل ذلك يحميه القانون»

وبرغم هذا فقد أحدث الانقلاب الجمهوري في الصين ثورة في الافكار والمبادئ نشأ عنها اعتداء على الاديان والمعتقد . وأراد بعض دعاة التجدد جعل منهج كنفوشيوس هو دين الدولة الرسمي وهدموا هياكل للديانة البوذية والديانة الطاوية وأقفلوا هياكل ومنعوا شعائر . ولم يسلم المسلمون من بعض الاذى وجملت بعض الجرائد عليهم . ولكن هذه الثورة عادت فسكنت^(١) ورجع البوذيون يبنون هياكل ويقيمون شعائرهم وكذلك المسلمون تمتعوا بتام حريتهم في اقامة شعائرهم الدينية ورجع الولاة في الصين ورجال الدولة يعززون منهج بوذا

ولقد استفاد المسلمون من هذه الحرية الدينية وصاروا يجاهرون بشعائرهم أكثر من ذي قبل وصاروا ينقشون على أبواب المساجد الآيات بالحروف العربية والاعلانات بأن

(١) هنا شيء شبيه بما جرى في فرلة يوم الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩

هنا مدرسة لحفظ القرآن وهنا جمعية خيرية وهم جراً
يقول كورديه : لو أن الحكومة الصينية أظهرت من التسامح الديني منذ مائة سنة
ما أظهرته منذ سنة ١٩١٣ لما كان جرى شيء من هذه الثورات التي ناراها المسلمون في
كانسو وتركستان وبتآن

وعما لا شك فيه أن المسلمين ناهلوا في كثير من شعائرهم في الماضي مراعاةً للحكومة
الصينية ولدين الأكثرية . ومن الجلة اصطلاحهم على عدم بناء المآذن في جوامعهم . لم
يكن لهذا سبب سوى ضعفهم . ولهذا يمكن القول بأن الانقلاب الذي حصل في الصين قد
أفادهم

وفي اوربة كانوا يحبون أن يعرفوا كيف كانت حركة المسلمين بازاء هذا الانقلاب
في الصين ؟ والحقيقة أن هذا الانقلاب لم يدخل فيه غير رجال العسكرية وأن الشعب سواء
كان بوذيًا أو مسلماً لزم الصمت وكان الناس قابعين في بيوتهم من الخوف أربعة أيام الثورة
ولما استوسق الأمر للجمهورية واستقر الحكم الجديد زين الناس منازلهم وقدموا النهائي
للحاكم . وكان المسلمون من الجلة فقد زينوا البيوت والجوامع واشتركوا بالافراح

ويميل كورديه الى القول بأن سكون مسلمي ينان الزائد ولزومهم العزلة التامة أصلهما
الحوال الذي كان عكس فصل الثورة التي أبادت خضراءهم منذ خمسين سنة . ومن ذلك
الحين صاروا لا يتعرضون لشيء من الأمور العامة . نعم لم بعض رؤساء من الاهونغات
أو من التجار نالوا هذه الرئاسة اما بصفتهم الدينية أو بمخضمتهم لجماعتهم أو بدوتهم من
حجاج البيت الحرام . وقد عرفت من هؤلاء الزعماء رجلاً موسراً اسمه « ماسين كيين »
عمره ٣٨ سنة ليس لرعايته سبب غير ثروته . أما سرواتهم القديما الذين كان لهم الحول
والطول في الماضي فلم يبق منهم أحد

ثم ذكر لوجود مسلمي ينان وخولهم اسباباً أخرى هي قلة اتصال بعضهم ببعض
وبسائر مسلمي الصين ثم استيلاء الفقر عليهم مما يعرف من الأرزاق التي يقدمونها للائمة
وخدمة المساجد فانها كلها ضئيلة وأكثرها من الحبوب والارز والزيت والنقد نادر . وكثير
من المساجد في حال الخراب وقبر السيد الأجل الشهير هو بحال الخراب أيضا وليس من يرعه
وبالجلة يغمول مسلمي ينان ناشئ عن خوفهم من السلطة الصينية لقرب عهدهم

بالتورة الكبرى التي جرفت منهم نحواً من ثلاثمائة ألف نسمة
ثم ان نظام الحرية في الصين أفاد المسلمين من جهة أخرى وهو أنه نشأ عندهم كما
نشأ في تركيا وغيرها من بلاد الاسلام فكرة التأليف بين العلم والدين وبين العقائد القرآنية
والتنازع العصرية وان القائمين بهذه الفكرة وان كانوا لا يزالون فئة ضعيفة فانهم ماضون
في عملهم يرون أن بقاء المسلمين على هذا الجهد الذي هم فيه يؤدي الى تلاشي الاسلام
ورأس القائمين بهذا العمل هم المسمى « شا » امام جامع باب الجنوب في « ينانغو »
والمسمى « ما » مدير المجلة الاسلامية المنشورة في ينان
وهذه المجلة هي لسان هذه الفئة الناطق بالاصلاحات التي يريدونها
وبرنامجهم هو ما يلي :

- (١) تأليف جمعيات اسمها « جمعيات الترقى » وقد تألف منها في ينان ستون جمعية
لكنها في غير ينان لا تزال قليلة
- (٢) ايجاد علاقات بين هذه الجمعيات كلها لتوحيد المساعي
- (٣) نشر جرائد اسلامية بقدر الامكان . وكان في الصين ثلاث جرائد اسلامية
الأولى في بكين والثانية في شنغاي والثالثة في ينان . والاوليان احتجبتا وبقيت
الثالثة (١)

- (٤) تأسيس مدارس منظمة يقوم عليها مديرون مسلمون
- (٥) ايجاد وحدة تامة في العمل واشتراك في السعي والوصول الى تأسيس شئ أشبه
بجمعية الشبان المسيحيين

ويقول السيد « ما » ان الذي أبقانا بحال التأخر ولم يساعدنا على تبوء المقام اللائق
بنا هو أن المثقفين في حزبنا قليلون وانا أشبه بمبشرى الكاثوليك لم نقدر أن نستجلب
الينا الا الطبقة الدنيا من الشعب . فيجب علينا العمل لبث المعارف بكل جهدها حتى ينسى
للمسلمين أن يرشحوا المناصب الحكومة رجالاً أكفاء فانه في ينان اذا استثنينا الجنرال
« ماتسونغ » وثلاثة من معاوني الحكام يبقى جميع المأمورين المسلمين شاغلين ووظائفهم
صغيرة .

(١) السموع أن قد صدرت الآن مجلات وجرائد اسلامية جديدة

ثم قال كوردبه : ان كلام السيد « ما » هو الصحيح فالمة التي لا تتألف الا الجهاد نبقى في حال الانحطاط . ثم قال كوردبه :

ان الاسلام انتشر في اوروبا بالقوة القاهرة باديء ذي بدء (١) لكنه ما لبث ان نبغ من أبنائه علماء وفلاسفة كانوا هم الوصلة بين العالم اليونانى اللاتينى القديم والعالم المسيحى الجديد وكان لجامعات العرب العلمية في قرطبة واشبيلية وغرناطة وطلطلة تأثير عميق في المدينة الاوربية . ثم قال : أما جيوش جنكيز خان فانتشرت في ممالك آسية بدون أن تعنى بشيء من الفتوحات العلمية أو الأدبية أو الصناعية

ثم ذكر أن انتشار الاسلام في الصين كان بواسطة طبقة الجند فأنحصر في أوساط غير راقية وأبى به الجود على منازعه وعوائده القديمة الانتشار في جميع الأوساط ولا ينكر أنه وجد قواد مسلمون كثيرون في الجيش الصينى ولكنه لم يوجد ولاة وحكام كثيرون

ونقل كوردبه عن مجلة العالم الاسلامى الافرنسية أن الجود هو الذى أوقف سير الاسلام في الهند أيضاً وهذا الجود كان مصدره الآداب الاسلامية (٢)

ثم قال ان تأخر الصين كلها كان منشؤه الآداب الصينية أيضاً لأنه كما قال « ركلوس » Reclus (الجغرافى الافرنسى) أخذ أدباء الصين بقواعد كنفشيوس فلا يقرون أن يتصوروا وجود أحسن منها ولا أن يعدلوا عن البحر الى السواقي بزعمهم . وما زالوا على هذه الأفكار الى أن بدأت تذهب بالتعليم الجديد

ثم قال ان لجنة « شا » و « ما » هذه وان لم يكن عملها عظيماً الى الآن فليس مما يستخف به . وهى ماضية في توحيد الحركة الاسلامية الصينية . ومذ الثورة الجمهورية الصينية تحمّس مسلمو الصين كما تحمّس غيرهم من أبناء وطنهم وأنفوا لجناً كل منها مستقلة بذاتها لكنها في صلة دائمة مع أخواتها . وقد كان رئيس الجمعية الاسلامية في ينانغو الجنرال « فانغ » ثم صار مكانه الجنرال « ماتسونغ » ولهذا الجمعية فروع في النواحي . وللرئيس اثنان معاونان ثم للجمعية مدير ادارة وهو اميرالاي الآن ويده ادارة دار السلاح . ولهذا معاون أيضاً وهو اليوم أحد تجار الملح واسمه « ما »

ولهذه الجمعية نفاذ عظيم في جماعة الاسلام هناك فهى التي تزيد أو تنقص عدد الأئمة

(١) هذا من كوردبه وم وعدم تحقيق

وتؤسس المدارس وتفصل الخصومات الشرعية

وكان السيد « ما » القائم بحركة التجديد قد أصدر مجلة اسمها « مجلة الجوامع » وتوقفت مرتين بسبب قلة المشتركين وهي الآن تظهر للمرة الثالثة (سنة ١٩٢١)

ثم قال ان لهذه المجلة ملحقاً اسمه « السراج المتلألئ » وذكراً أن الجريدة تقبل جميع ما يكتب اليها العلماء والمفكرون والفقهاء ولا تؤدي اليهم بمقابلة مقالاتهم شيئاً سوى أن الجريدة ترسل اليهم مجاناً وان الجريدة تنشر رسوماً وتصاوير وتكافئ من ينقشها وانه ان أعان الجريدة أحد بشيء تكتب اسمه وتشكره على مبرته وان كان مبلغ الاعانة طائلاً تنشر صورته

ثم نقل كورديه بعض أمودجبات من منشورات هذه المجلة . مثلاً : أن نفوذ الوعظ في الجمهور هو على نسبة تبحر الواعظ في المعارف فعلى المسلمين أن يتعلموا

واليك مثلاً آخر : ان المعارف في أوربة ما نمت وترقت الا بعد ظهور البرونستانتية . ولولا الاسلام كانت أوربة قبلاً في جهل وكانوا يقصدون بلاد العرب للتعلم

واليك مثلاً آخر : بينما المسلمون في الغرب مظلومون مقهورون نحن معاشر الاسلام في الصين أحرار تتمتع بالحقوق التي يتمتع بها سائر أبناء وطننا . فلنعكف على التعلم والتهذب وبذلك نكون جاهداً لأجل عظمة الصين

واليك مثلاً آخر : اذا كنا لا تعلم الا العربية أصبحنا كالصم البكم في بلادنا . وان كنا لا تعلم غير الصيني لم يتيسر لنا أن تفاهم مع الخارج . فيجب علينا اذاً تعلم اللغتين . ان مدرسينا لا يعرفون الصيني كما يجب فلذلك ان خسروا وظائفهم صعب عليهم تحصيل معيشتهم

وفي أحد الأعداد يدعو الى ارسال مرشدين لوعظ النساء ولارشاد الأحداث الذين يجاهلون القراءة

وفي عدد آخر يعلن أن الجريدة فقيرة تعيش من الاعانات وان من النفقات ما لا بد منه فيجب على المشتركين أن يؤديوا ما عليهم

وفي عدد آخر يقول : تفتأون تذكرون « توفنسيو » زعيم الثورة الينانية (١)

(١) من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣

وتسبون أنه ما قام الا ليخلع سلطنة المانشو وأنه كان في جميع أحواله يحنو حنو الملوك
القدماء الخ

وفي أحد الأعداد يتساءل : هل يلزم تعليم البنات ؟ فيجيب بالإيجاب قائلاً ان قوة
الأمم الاوربية ناشئة عن كون الجميع متعلمين نساء ورجالاً
وفي أحد الأعداد يقول انه ليس للاديان أن تعنى بالمظاهر الجذابة بل يجب أن تعنى
بتعليم الحقائق .

قال : ولهذا فأقوى الأديان البوذية والبروتستانتية والاسلامية

قال كورديه : وأن لجنة ادارة المجلة كانت مؤلفة من الجمعية الاسلامية ومن مجالس
الأوقاف ومن جمعية طلبة المسلمين القدماء ومن جماعة المدرسة العربية في عاصمة ينان ومن
أمة المساجد ومن ذوى الحمية

لقد أحيينا أن نلخص هذا الكتاب الذى ألفه السيوكورديه في التعريف بمسلى
ينان لأنه أشبه بصورة مصغرة عن مسلى الصين بأجمعهم ولأن ينان ولاية من ولايات الصين
والبلاد هناك متشابهة والمسلمون بمخاصة يشبه بعضهم بعضاً أكثر من جميع الأمم ولو تبينت
أصولهم . ثم اننا نقلنا أمائيل من كتابات جريدة المسلمين في «ينان» لأن الجرائد من أدل
الأمر على عقليات الشعوب وطرز تفكيرها وعلى اختلاجاتها الروحية

ورأينا فيما أترناه عن هذا الكتاب ما فيه كفاية عن تلك البلاد بالنسبة الى ما يلزم
القرءاء معرفته عنها . وبقى من هذا الكتاب القسم المتعلق بثورة ينان العظيمة الشهيرة
فهذه قد اكتفينا منها بالخلاصة التى أسلفناها^(١) وبالاختصار كان المسلمون قد غلبوا على ولاية
ينان واستبدوا بأمرها وأصبح زعيم الثوار سلطاناً بالفعل واستمر استقلالهم ثلاث عشرة
سنة الى أن تمكن الصينيون من ضرب بعضهم ببعض وايقاد الفتنة فيما بينهم فتنازعوا
وفشوا وذهبت ریحهم كما حصل في كثير من مواطنهم وانتهى الأمر بمجزرة قلماً سمع
التاريخ بمثلا . والى اليوم لم يقم مسلمو ينان من هذه المجزرة التى أبادت منهم مئات ألوف
ولقد ختم كورديه كتابه هذا بلمحة دالة على الاسلام فى الصين بازاء البائيسلاميسم
أى الجامعة الاسلامية ولم يقتصر فيها على مسلى الصين فحسب بل تناول مسلى الهند ومسلى

(١) راجع صفحة ٢٢٧ من هذا الجزء

الجاوى وتوابعها ومسلمى الفيليين. ونحن ملخصون رأيه فى حالة الاسلام بهذه الأقطار الأربعة

رأى كورديه فى حالة الاسلام

فى الصين والهند وجاوى والفيليين

قال: ان حركة ابن عبد الوهاب فى قلب الجزيرة العربية خيلت لأوربة ان هناك نهضة عربية واسعة النطاق لاستئناف عظمة السلطنة العربية الا أن جيوش محمد على قضت عليها ثم قال: ان كثيرين من المؤرخين الأوربيين وفى مقدمتهم «لوتروب ستودارد» يذهبون الى أن «العالم الاسلامى فى مخاض شديد وان المائتين والخمسين مليون مسلم المنتشرين من مراكش الى الصين ومن تركستان الى الكونغو يختلجون تحت تأثير أفكار جديدة وانهم سيدخلون فى طور جديد قد يحدث انقلاباً فى العالم كله» يقول كورديه: ان فرسة لاينبى لها أن تراقب حركات مسلمى الجزائر وتونس ومراكش فقط بل حركات مسلمى آسية أيضا. نعم ان المسلمين الذين فى مستعمر. فرسة فى الهند الصينية هم عدد قليل الا أن مركز هذه المستعمرة الكبيرة هو واقع بين الصين والهند وماليزيا والفيليين والاسلام فى جميع هذه الأقطار راسخ القدم كما لا يخفى فيجب على فرسة أن تراقب سير الأفكار الاسلامية فى آسية لتعرف ماينها من اتصال لأن أكثر الثورات انما تنشأ عن اتجاهات فكرية جديدة

ثم ذكر كورديه حركة الاسلام فى الهند وقال: ان المسلمين فى الهند كانوا وقفوا بازاء الهندو الذين يتطلبون الاستقلال التام وينادون «بانديماتران» أى سلام على الوطن الأم. وذلك لأن معنى هذه اللمة عند الهندو هو اخراج كل غريب من الهند والاسلام من اللمة. ولذلك كان المسلمون فى البداية عضداً للانكليز. فلما حصلت الحرب الكبرى وانهت بتقسيم الانكليز لتركيا ورأى المسلمون ان انكلترة أرادت القضاء على الخلافة وابداء تركيا غضبوا وانضموا الى الهندو. وهى أول مرة اتحد فيها هذان الفريقان بسوء سياسة انكلترة

فأما فى بلاد اندونيسيا أى المستعمرات الهولندية جاوى وسومطرة وتوابعهما فبعد أن ذكر كورديه تاريخ دخول الاسلام فيها وصل الى الحالة الحاضرة التى عليها مسلمو هذه الجزائر فقال: ان اسلامهم ليس بشديد الصبغة وان العالم الاسلامى لم يزد بهم الا زيادة عند

فقط . وان ادارة هولاندة هي من التسامح بحيث لاتجعل لاتتفاضهم سيلا . قسارى الأمر ان مسلمى اندونيسيا ينشدون العلم والتعلم ويجتهدون بواسطة العلم أن يحصلوا على حق ادارة أنفسهم بأنفسهم . ولم يخلُ الأمر من وقوع ثورات هناك كما جرى في بلاد «اتشين» وهذا فيها قديم يقال ان أصله من أغلاط الهولانديين وأخذهم البرى بذب المجرم وارتكابهم في تلك البلاد الظلم وسفك الدماء

ثم ذكر اسلام الفيليين فقال : ان ظهور الاسلام في تلك الجزائر التي يقال لها «مينداناو» وفي أرخبيل سولو كان في وقت ظهور الاسلام في بورنيو . يقال ان تجار العرب نشروا الاسلام هناك فقبيل لهم « المورو » كما كان يقال لمسلمى الأندلس . وعم من بعدها مسلمى الفيليين . وقد بدأ وجود الاسلام في هذه الأماكن من قبل سنة ١٥٠٠ وكان سلطان بورنيو تزوج ابنة سلطان مينداناو فأسس سلطنة سولو التي استفحل أمرها . ولما كان بين الاسبانيول وبين المورو عداوة من عهد الأندلس فقد غلظوا على المسلمين وأخرجوهم فبدأت الثورة في « لوسون » من سنة ١٥٧٦ وصارت الحرب متصلة بين الفريقين فمن جهة المسيحيين الحرب الصليبية ومن جهة المسلمين الجهاد في سبيل الله

وكان سلطان سولو أشد أمراء المورو مقاومة فاعترف الاسبانيول باستقلاله سنة ١٨٣٦ لكنهم عادوا فقاتلوه سنة ١٨٤٤ و ١٨٥٠ ثم تصالحوا سنة ١٨٦٠ ولم يكن لهم في سلطنة سولو الى حد سنة ١٨٧٦ الاسبادة اسمية

أما اميريكيو الولايات المتحدة فلما انتزعوا الفيليين من أيدي الاسبانيول استخفوا بأمر سلاطين المورو فعرفوا عاقبة خطئهم لأن هؤلاء كانوا لايتناهون عن العيث والقتل والفساد في الأرض حتى ملت الحكومة الاميريكية منهم . وكان الاميريكيون يرجون بواسطة التعليم وفتح المدارس أن يصلوا الى السلام ولكنهم أسرعوا في التفاؤل وكانوا وعدوا الفيليين بالاستقلال الداخلى لكنهم استعجلوا في الوعد^(١)

قال كورديه : ان جميع هذه الثورات لم تنشأ عن بانيسلاميم ولاعن ارتباط عام بين المسلمين ولاعن مجرد بقض وشنآن للأجانب . بل هذه ثورات منشؤها نهوض الأهالى بطلب حقوقهم من الأمم التي تسلطت عليهم . ولا يوجد مسلم واحد لا عالم ولا جاهل يحلم بجمع

(١) فلنا انه في أواخر هذه السنة المنصرمة سنة ١٩٣٢ قرر مجلس النواب الأمريكى استغلال الفيليين

بلاد الاسلام تحت سلطة أمير واحد واستئناف دولة الخلفاء . نعم لما كان أكثر المسلمين وقع تحت عبودية الأجانب فتجدهم يحنون بعضهم الى بعض بسبب اتحاد العقيدة والتشابه في المصيبة الأجنبية الواقعة عليهم . ولازرى أدنى عجب في هذا الأمر

ثم عاد كورديه الى ذكر منشأ الاسلام فقال : انه لم توجد ديانة من الديانات الكبرى لا الزرداشتية ولا البوذية ولا النصرانية انتشرت بسرعة انتشار ملة محمد . فانها بدون عسء امتدت في ثلاثة قرون من اليرانه الى حلايا ومن قلب آسية الى قلب افريقية . ولم تكن أسباب سرعة هذا الانتشار سوى ضعف ملكتي يزنطية وفارس وحجاسة العرب الفاتحة وفر وسيتهم الباهرة وسذاجة العقيدة التي نشروها . ثم باختلاط الغالين بالمغلوبين تولدت هذه الحضارة الاسلامية التي لمعت لمعانا شديداً بينما كان الغرب هائماً في الظلمات (١)

الا أن لمعان الاسلام لم يمسكن طويل الأمد . بل بدأ بالانحطاط من القرن العاشر

(المسيحي) الى أن قال : انه من سنة ١٠٧١ تغلب الترك على القدس واتته دولة العرب ومع أن الترك كانوا محار بين أشداء فلم يكونوا أهل ملكة عمرانية . وفي سنة ١٢١٣ سقطت خلافة قرطبة بتغلب النصارى . ثم في سنة ١٢٥٨ سقطت بعداد في أيدي المغول فاضمحلت القوة الاسلامية . ثم استأف الترك السلطنة وأخذوا يزنطية وبلاد البلقان والمجر وشمال افريقية والشرق الأدنى فصار لهم من فارس الى مرا كس . الا انهم من بعد فشلهم أمام اسوار فينا (سنة ١٦٨٣) تراجعوا القهقري

وكان جاء عصر التجدد في أوربة « رنسانس » وأهتدى الأوربيون الى كشف أمريكا فاتسعت موارد ثروتهم وامتد ظل سلطانهم . ومن ثمة لم يكتفوا بدفع المسلمين عن بلدانهم بل تجاوزوا عليهم وأخذوا يفتحون بلاد الاسلام قطراً قطراً فانفصلت بلاد اليونان ثم رومانيا ثم بلغاريا عن تركيا . واستولت انكلترة على مصر والهند . واستولت الروسية على القوقاس وآسية الوسطى . وبسطت فرنسا يدها على شمال افريقية . وهلم جرا وعند نهاية الحرب العامة لم يكن بقي مستقلاً من ممالك الاسلام غير تركيا . وهذه أيضا كانت معاهدة فرساي أخنت على استقلالها

لكن ان كانت قوة الاسلام العسكرية والسياسية قد سقطت فان قوته الأدبية لم

تسقط ومن القرن السابع عشر الى الآن زراها على ازدياد

ثم مثل كورديه نمو قوة الاسلام المعنوية بالوهابية ثم بالسوسية التي هي أقوى الفرق
الاسلامية بعد الوهابية . وذكر ان امامها الحالي هو السيد أحمد الشريف ابن شقيق
سيدي المهدي

وعاد نغم كلامه بذكر اسلام الصين قائلاً ان ثورات شانسي ونيان هي كما قال
غارنيه والأب داود واندرسون وغيرهم لم تحصل عن تعصب ديني بل عن حسن المحافظة
على النفس . وكذلك ثورات كانوس سنة ١٨٦٤ و ١٨٩٥ كانت للأسباب نفسها وانتهت
صلحاً . وبقيت مقاطعة سنشوان التي هي بين شانسي وكانسو سا كنة مع
اشتعال أربع ثورات من عن جوانبها

قال : ولقد كثرت تكهن العلماء والمؤرخين على مستقبل اسلام الصين وكل منهم
أدلى بدلوه وقال « فاسيليف » سنة ١٨٦٧ : اذا انتشر الاسلام في الصين كما انتشر مذهب
بوذا يتقلب وجه العالم

وقال « دوترسان » صاحب كتاب « المحمدية في الصين » انه ان تقسّمت الصين
وفقدت وحدتها السياسية استفاد المسلمون في المقاطعات التي أكثرها منهم واستقلوا .
وتكون مدة استقلالهم بحسب حسن ادارتهم ومشيئة الله . وان ترقت الصين في العلوم
والمعارف وصارت دولة من أعظم دول الكرة الأرضية كان لا مناص لها من أن تترك
أضاليلها وعقائدها الوثنية وأن تأخذ بديانة تعبد بها الواحد الأحد ولن نجد لها حينئذ
أقرب من الاسلام الذي يدين به عشرون مليوناً من أبنائها . ولكن لتكن أوربة من
حادث كهذا على ثقة انه لن يحدث انقلاباً لأن اسلام الصين سيكون مصطبغاً بصبغة
مسيحية (؟) لا يهجمه الا السلام ونشر المدنية الحق (؟) . وقد اتفق كورديه هذا الكلام
وقال : هذا حلم من الأحلام . فن يقول ان اسلام الصين سيصطبغ بصبغة مسيحية ؟

ومن تخوفوا من مصير الصين الى الاسلام الكاتب الانكليزي آرنولد

قال كورديه . وقد مضى خمسون سنة على هذه الآراء ولم يتقدم الاسلام في الصين
شبراً وذلك لأن الأمة الصينية ليست بأمة ذات اشتغال بالعقائد وانما هي أمة مادية لا يهجمها
الا الحياة الدنيا

وقال « اولون » ان الثورات كثيرة في الصين والاتقلابات مستمرة فان وصلت النوبة الى قائد مسلم وتمكن من الاستواء على العرش لا يبعد أن يتحول قسم كبير من أهل الصين الى الاسلام

وهذا أيضاً خطأ بحسب رأى كورديه لأن الجنرال « ماتونغ » فى يتأن هو مسلم وهو القائد الأول فيها وما أسلم على يده واحد . وكذلك الجنرال « ما » المشهور والنهاية بحسب رأى كورديه ان مسلمى الصين يقبلون على تيار التجدد نظير أبناء وطنهم الصينيين وان جميعهم مع ذلك يغلب عليهم السكون بمقتضى فطرتهم . انتهى

تعليقات على مبحث مسلمى الصين

مقالات وأحاديث للصينيين أنفسهم

أحبينا لأجل زيادة شفاء الغليل من مبحث اسلام الصين أن نشر خمس مقالات احداها ظهرت فى جريدة الأهرام تاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ والثانية ظهرت فى الأهرام أيضا سنة ١٩٢٣ والثالثة والرابعة فى جريدة الفتح تاريخ غرة رمضان و ٦ ذى القعدة سنة ١٣٥١ والخامسة فى الجامعة العربية بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٣٥١

فالأولى تتضمن حديثاً لرئيس البعثة الصينية فى الجامعة الأزهرية والثانية تتضمن حديثاً لعالم صينى نزيل تكية الكلشنى بمصر والثالثة هى محررة بقلم السيد محمد مكيه الصينى من المجاورين بالأزهر

حديث لرئيس البعثة الصينية الازهرية

الاسلام والمسلمون في الصين

قصدت في صبيحة أمس الى الدار التي اعدتها وزارة الاوقاف ليسكن فيها اعضاء البعثة الصينية التي اوفدها حكومة الصين لدراسة العلوم الدينية والمدنية في الجامعة الازهرية وسألت عن أعضائها وعن رئيسهم فأخبرت بان ادارة المعاهد الدينية قد أعدت هذا اليوم لاختبارهم في اللغة العربية وفي القرآن الكريم وفي الخط العربى والاملاء والانشاء ، فذهبت الى مقر لجنة الامتحان في الجامع الازهر وظلت أتتظر حتى اتهموا ، ثم تقدمت الى مدير البعثة وطلبت منه أن يحدثني عن الحالة الاجتماعية في الصين وعن الاسلام والمسلمين في تلك الديار النائية القاصية فابتسم وقال لك عندى كل شئ وانى على استعداد لان أتحدث معك في كل شئ إلا السياسة فانى لا أعرفها ولا أكاف نفسى عناء القوص في اسرارها وبواطنها واكناهما ، فقلت له وهل محظور عليك ان تتكلم في السياسة . وهل السياسة عندكم شئ * نأوى أو كلى لا يعنى بما لا بمقدار ، وهل بلغت الصين في السياسة شأوا بعيدا ونالت كل ما تصبو اليه الامم من الحضارة والمدنية فأضحت لا تنظر الى السياسة الا كما تكون المحية عند الرجل الدينى المتعمق في معانى الايمان ؟ فنظر الى رئيس البعثة نظرة ذات طابع صينى وقطع على حديثى وقال : انى يا سيدى رجل دينى فقط : وأرأس بعثة دينية فقط ، وهناك فوارق متعددة بين الدين والسياسة ، ولقد درسنا الدين في بلادنا الى درجة محدودة وجننا نطلب المزيد هنا ، وما اتصلت ولا اتصل أحد من أعضاء البعثة بالسياسة ولا جالسنا أحد الرجال السياسيين لانا نرعى في مزرعة وهم يرعون في مزرعة أخرى . وما أبعد الفارق بين المزرعتين . وسكت . فقلت وهل لنا أن نتحدث عن الناحية الاجتماعية والدينية في الصين ، فقال لك هذا ، وجلس ، وجلس حوالينا أعضاء البعثة وجرى بيننا هذا الحديث :

قلنا — ما هو عدد المسلمين في الصين وما هو عدد غيرهم من الطوائف الاخرى ،

وهل هناك تنافس ديني بين المسلمين وغيرهم من تلك الطوائف ، ولاي سبب يرجع ذلك التنافس ، اذا كان موجودا ؟

قال — أما عدد المسلمين في الصين فخمسون مليوناً ، وعدد السكان أربعمائة مليون ، والمذاهب الدينية في الصين متعددة كالكونفوشية فالبوذية فالسليحية ومع ذلك فان أكثر أهل الصين لا دين لهم ، وهم يعبدون أشياء متعددة ، كالجمال والنور والنار ، وبعضهم يعبد الماشية والمواب ، وهناك مذهب ديني قليل الانتشار يسمى « التوصينية » نسبة الى رجل يقال له « لوتزا » وأصحابه هم المتصوفة المتقشفون الزاهدون الذين لا يتزوجون طوال أيام حياتهم ، ولا ينظرون الى المرأة ولا يتصلون بها أى اتصال وانى أقر لك ان بين المسلمين وبين أفراد الطوائف الاخرى تنافسا دينيا بعيد المدى شديد الأثر ، وذلك لان الطوائف غير المسلمين تمقتنا وترميننا في اعتقادنا الديني ، وهم متعصبون ضدنا كثيرا ويرجع السبب في أغلب المعارك الدموية الداخلية الى ذلك التعصب الديني ولكن الاديان في الصين أمام القانون سواء وحرية المعتقدات مكفولة والحكومة لا تناصر طائفة على طائفة ولا تؤازر مذهبا دون مذهب فهي لا دينية ولا تتبع خطط دين معين

قلنا — وهل يوجد بين الموظفين في الحكومة أفراد مسلمون ؟ وما هو عددهم ؟؟

قال — نعم يوجد بين الموظفين في الحكومة أفراد مسلمون . منهم خمسة قواد في الجيش ومحافظ لاحدى عواصم المقاطعات ، وبعضهم يشغل وظائف في المجالس البلدية والمحلية وبعضهم في وظائف التدريس ، وهناك مسلمون كثيرون في الجيش كجنود لانهم مشهورون بالشجاعة والاقدام . واما في الوظائف الملكية المدنية فعددهم قليل جداً .

قلنا — أليس هناك قانون عام للتجنيد ، وكيف تكون أكثرية الجنود من المسلمين

مع أن القانون عام ينفذ على الجميع ؟؟

قال — المسألة نسبية . والقانون حقيقة عام ولكن عدد المسلمين في بعض المقاطعات الصينية أكثر من عدد أية طائفة من الطوائف الأخرى لاني اذا قلت لك ان عدد المسلمين في الصين خمسون مليوناً لوجب أن يكون عدد كل طائفة من بقية الطوائف الاخرى أقل من ذلك بكثير وفي الصين أكثر من خمسين ديناً ومذهباً

قلنا — هل لك ان تحدثني عن نظام الزواج والطلاق عندكم ؟؟

قال — ان جميع المسلمين يتزوجون ويطلقون وفق ما جاء به القرآن الكريم والزواج عندنا لا يتم الا بعد موافقة الزوج والزوجة ورضائهما عن بعضهما رضاً تاماً موثقاً به . ووثيقة الزواج وإشهاد الطلاق عندنا تسجل أمام المجالس البلدية والمحلية . ومن يتزوج أو يطلق من غير أن يثبت زواجه أو طلاقه أمام تلك المجالس يعاقب بالسجن قلنا — يؤخذ من هذا أن ليس هناك محاكم شرعية لكي تفصل في المنازعات الزوجية التي تحدث بين الزوجين المسلمين بمقتضى أحكام الشريعة الاسلامية ؟؟

قال — لا ، لا ، ليس عندنا محاكم شرعية لمثل هذا النوع من القضايا ؛ بل ان المنازعات الزوجية عندنا وما اليها من المشاكل الشخصية تدخل ضمن المسائل المدنية . ويفصل فيها مجلس قضائي مؤلف من أعضاء متعلمين ومنتخبين انتخاباً حراً عن طريق التصويت المباشر وهو يصدر احكامه في المسائل المدنية التي تدخل ضمنها مسائل الزواج ، والحكومة ملزمة بتنفيذ أحكامه

قلنا — أليس للمسلمين في الصين رياسة دينية ؟؟

قال — نعم ليس للمسلمين عندنا رياسة دينية وليس لنا رئيس ديني ، وليس هناك من يشرف على التقاليد والأصول الاسلامية غير الجمعيات الأهلية المحلية والتي لأذ كرك هنا أن مسلمي كل مقاطعة نوعاً من التقاليد مصطلحاً عليه ، ومقاطعة يونان فو ، هي أشد المقاطعات حرصاً على الاسلام ، وغيره على آدابه وتقاليد

قلنا — هل المسلمون في الصين مثقفون ثقيفاً علمياً عصرياً يسمح لهم بان يزاولوا أو يتقلدوا الوظائف المدنية الراقية ، وما هي نسبة المتعلمين منهم ؟؟ وهل أحوالهم المالية تسر على وجه العموم ؟؟

قال — إني آسف لان اقرر هنا ان عدد المسلمين المتعلمين تعليماً عالياً عسرياً قليلون جداً ، والاغلبية منهم أمية ، واما نسبة المتعلمين فهي اثنان في المائة أو أقل من ذلك في بعض المقاطعات ، والمسلمون في الصين فقراء كثيراً وحالتهم المالية لا تسر على وجه العموم قلنا — هل الذي يرتكب جريمة هتك العرض مثلاً ، يعاقب عقاباً دينياً ام

مدنياً ؟؟

قال — ان الذي يرتكب أية جريمة جنائية يحاكم أمام المحاكم الجنائية التي لها قانون

مدنى أهلى

قلنا — وهل المسلمون متمسكون بدينهم ، وهل هناك مساجد للصلاة
قال — أعود فأكرر الاسف إذ أقول ان مسلمى الصين لا يفهمون الاسلام على
الوجه الصحيح ، وذلك يرجع الى جهلهم وعدم تعليمهم ، وعندنا مساجد كثيرة بنى بعضها
منذ دُخل الاسلام فى الصين ، وأول من بنى مسجدا هو الملك « طان » الذى أسس مسجد
كواتنج ، ومع أن المساجد كثيرة إلا انها خربة لا يؤمها إلا القليلون
قلنا — ما هو مركز مصر الدينى عند مسلمى الصين ، وما هو مقام الازهر
عندهم ؟؟

قال — ان مركز مصر الدينى عندنا هو مركز كبير لا يسمو عليه أى مركز فى
الوجود ، واتنا نجب مصر من قلوبنا ونعدها قبة الاسلام ، وبخاصة لانها بلد الجامع الازهر
الذى نعتقد فيه أنه منبع الاسلام الصحيح
قلنا — وهل المرأة الصينية متحجبة أم سافرة ، وهل لها حقوق مدنية مقررة فى
دستور البلاد ؟

قال — ان المرأة الصينية سافرة وحالتها الآن أحسن بكثير من ذى قبل وهى تتمتع
بالحقوق المدنية التى يتمتع بها الرجل . اذ ان لها حق الانتخاب والتوظيف فى القضاء
والادارة وفى المجالس البلدية والمحلية

واتهى الحديث بنا الى هذا القدر وشعرت انه متعب فاستأذنت فى الانصراف
وشكرته وودعنى بما يبدو عليه من الحياء والتواضع
أجد عبد الحليم العسكرى

حديث عالم مسلم صيني

نزىل تكية الكلكشى فى مصر

فى صباح الخميس أول يوم من عيد الفطر المبارك قصدنا نحن الثلاثة زيارة هذا العالم الذى قرأنا بعض أخباره وآثاره فى الجرائد والمجلات المصرية . فلما بلغنا شارع تحت الربع سعدنا الى باب التكية واستقبلنا مقام الكلكشى وبه وجهة مصنوعة من الفسيفساء الجميلة . الألوان المتقنة الصنع ثم اتجها ذات اليمين وصعدنا درجاً فسبحاً وبالذور الأعلى وجدنا غرفة عليها منظر البساطة والزهة وبها سريران وصندوق مملوء بالكتب والأوراق وفى وسطها رجل فى نحو الستين من عمره قصير القامة نحيف البنية أصفر الوجه على الجبين بارز الفك الأعلى لا نبات بعارضية ويكاد يكون شعر شاربه عذارا وبجواره فتى فى نحو العشرين من عمره حينئها باللغة العربية فرد العالم تحيتنا بعبية فصحي وأظهر سروراً عظيماً بزيارتنا فى هذا اليوم المبارك ثم أجلسنا وقدم لنا الشاى الصينى الحقيقى فى آنية صينية ثم قدمنا اليه أسمائنا ودار بيننا الحديث الآتى . قال العالم : —

« اسمى « واى ون كين » وترجته بالعربية سعيد إلباس وصناعتى عالم اسلامى وامام بلدى تنسين ومحمر جريدة تنسين وقد سافرت من بلدى منذ عام وغائيتى من هذه السياحة الاطلاع على أحوال الأقطار الاسلامية والاستنارة بالأفكار الجديدة الموجودة فى الشرق الأوسط والشرق الأدنى فزرت بلاد الهند وها أنا فى مصر وسأزور سوريا والأناضول والاستانة ثم أعود الى وطنى »

قلنا — كم عدد المسلمين فى بلادكم وما هى حالة تعليمهم وشؤونهم الاجتماعية
أجلب — يبلغ عدد المسلمين فى الصين نحو سبعين مليوناً وكلهم يقومون بواجباتهم الدينية وفى بلدى نحو أربعين مسجداً ومعظمهم يقرأون الكتب العربية بنطق صينى ما عدا العلماء الذين يتعلمون العربية منذ الصغر . ويؤدون الصلاة باللغة العربية . وتعدد الزوجات وان يكن مباحاً بالشرع فى الدين الاسلامى الا أنه مفقود من عاداتنا فلكل رجل امرأة واحدة بحكم عاداتنا والطلاق نادر جداً ويكاد يكون معدوماً . وقد درست فى صغرى

وشباب الفقه والحديث والسنة وعلوم الكلام والتصوف والتوحيد وآداب اللغة العربية

سألناه — هل يوجد لبوذا وكونفوشيوس أتباع كثيرون في الصين

أجاب — ان بوذا متبع في بلاد الهند فقط وذكروه عندنا قليل أما كونفوشيوس فله أتباع كثيرون في الصين ويطلق عليهم اسم « أصحاب كونفوشيوس » ولم يكن هذا الزعيم المصلح نبياً مرسلًا ولم يقل بذلك هو نفسه أو أحد من أصحابه بل كان حكماً وكل تعاليمه خاصة بشؤون هذه الدنيا وتدير الأمور المادية والسياسية والإدارية وأصحابه ليسوا مقبدين بعبادة إله معين فهم يعبدون ما يشاءون كأجدادهم فيعبدون الأشجار والأنهار وبالجملة فانهم مشركون .

سألناه — وما حلة الصين منذ دخول الحكم الجمهوري في البلاد ؟

أجاب — ان الشرق عامة محتاج الى حكم قوى يكون مصدره العدل والحكمة وحب الخير ولكن الحكام الذين من هذا القبيل لا وجود لهم في هذا الزمان وأفضل مثال لهم الخلفاء الراشدون في صدر الاسلام ونحن المسلمين في الصين نعتقد في أن الاسلام دين شوري وديموقراطية وقد جاء فيه « وَسَآوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ »

سألناه — هل حصل تقدم في البلاد في الأعوام الاخيرة ؟

أجاب — نعم فقد أبطلت عادات كثيرة من العادات الرديئة مثل تقييد أقدام الفتيات ومنعها من النمو ظناً بأن هذا أثر من آثار الجلال وأصبح هذا الفعل معاقباً عليه وبدأت بلاد الصين تشعر بوجودها القومي وتسترذ المقاطعات التي كانت اغتصبتها منها بعض الدول الاجنبية وهي سائرة ببطء لانها أمة عظيمة وملكها مترامي الأطراف .

سألناه — وما هو شعوركم نحو الدول الاجنبية

أجاب — ان اليابان وان كانت من جنسنا الا انها دولة قوية وميالة لانتهاzna فهي كما وجدت فرصة للانقضاض علينا فلا تتأخر وهذا دليل على أن اتحاد الجنس والدين لا يقف في سبيل المصلحة السياسية فنحن نبغضها . أما الدولة المحبوبة لدينا فعلا فهي الولايات المتحدة وهي التي ننسج على منوالها كل شيء وهي تظهر لنا المحبة وكل معاملتها معنا كانت بالاقوال والكتابات لا بالافعال الهمجية كغيرها مثل الحرب أو الاستيلاء

على بلادنا

سألناه — ما رأيك في علماء مصر ممن زرتهم وزاروك

قال — لم يزرنى أحد منهم ولا أعرف الا اسماعيل بك رأفت والشيخ طنطاوى جوهرى. وقد عرفت كثيراً من العلماء بالكتب مثل الشيخ محمد عبده وأظنه كان من أعظم رجال العالم قاطبة ولا ينتظر أن يجود الزمان بمثله في الوقت الحاضر فقد كان عالماً دينياً وسياسياً واجتماعياً وليس في مصر من يخلفه . واسم مصطفي كامل باشا معروف جداً لدينا في الصين لأنه أسس الحركة الوطنية في مصر كذلك اسم مصطفي كمال غير أننى غير مشتغل بالسياسة ولا يهمنى أمرها الا من حيث تهتم ترقية شؤون قومى وقد ترجمت كتباً كثيرة من اللغة العربية الى اللغة الصينية مثل تاريخ مصر القديم أما التاريخ الحديث فليس معلوماً لدينا ولم تصلنا كتب عنه ونحسب أن تكون علاقة مصر بمسلمى الصين قوية

سألناه — هل تستطيعون وتودون أن تلقوا محاضرة باللغة العربية عن حالة المسلمين بالصين من الوجهة الدينية والاجتماعية في جمهور من المتعلمين المصريين

أجاب — أستطيع ذلك على شرط أن أولفها بالكتابة أولاً ثم أقرأها لأننى لا أستطيع أن أرتجل خطبة . فشكرناه واستأذناه في الانصراف ونرجو من وزارتى الأوقاف والمعارف وعلماء مصر وأدبائها أن يعتنوا بزيارة هذا العالم واكرام وفادته فقد قال لنا عند ذكر مصطفي كامل انه يعلم أن شعار المصريين هو - « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا »
(الأهرام)
ا . رؤوف - ح . رمزى - لطفى

الاسلام في الصين - غابرة وحاضرة

- ١ -

يسألني دائماً اخواننا المسلمون عن أحوال الاسلام في الصين ، ويسرني غاية السرور عنايتهم بالدين ورغبتهم في العلم ولوفي الصين . فأكتب بحول الله هذا الكلام الوجيز لفضاء حاجتهم الشديدة وتوطيد التعارف والتفاهم بين شعوب الاسلام وأسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه الخير وهو القريب المحيب

تاريخ دخول الاسلام في الصين

متى دخل الاسلام في بلاد الصين ؟ هذه مسألة غامضة فيها روايات متعددة مختلفة وعلى الرواية المشهورة عند المسلمين الصينيين أنه في سنة ٦٣٧ م (قبل وفاته عليه السلام) وعلى رواية أخرى كان ذلك في سنة ٥٩٩ م (قبل الهجرة النبوية) وعلى تحقيق حجة التاريخ الاسلامى الصينى البروفسور جنيون أن أول وافد من الدولة الاسلامية الى الدولة الصينية أوفد سنة ٦٥١ م (في عهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه) وقال البروفسور : ان مناط الاختلاف في ذلك تباين التقويم الصينى مع التقويم العربى لأن السنة الصينية سنة قمرية شبيهة بالسنة الشمسية في كل سنة بسيطة ثلاثمائة وأربعة وخسون يوماً كالسنة القمرية تماماً ، وأما السنة الكيكية فيزداد فيها شهر واحد وتكسب السنة مرة في كل ثلاث سنوات ومرتين في كل خمس سنوات وسبع مرات في كل تسع عشرة سنة لتتفق مع السنة الشمسية ، واستعملت الحكومة الصينية التقويم العربى سنة ١٣٨٤ م وهى توافق سنة ٧٨٦ م فطرحت ٧٨٦ سنة من التقويم الصينى ليعرف مبدأ التقويم العربى بالنسبة الى التقويم الصينى ، فوقع الخلاف ، وهذا كلام معقول مرجح عندنا . والله أعلم

العلاقة بين الدولتين الاسلامية والصينية

ذهب في عهد الخلفاء الراشدين الى الصين الوفود الاسلامية والتجار المسلمون من العرب والفرس متعاقبين ، وكانت الجالية الاسلامية في عاصمة الصين وحدها عددها أربعة

آلاف شخص وهي أكثر من الجالية الافرنجية الموجودة الآن في بكين ، وعلى احصاء البروفسور جنيون بعثت الى الصين في عهد اسرة «نان» وأسرة «سون» من سنة ٦٥١ الى سنة ١٢٠٧ م الوفود الاسلامية ٧٦ مرة واستنجد سنة ٧٦٢ م عاهل الصين بالمسلمين على التأثر الفاتك شيجونى

العظماء المسلمون المتقدمون

كان عواهل الصين يجاملون المسلمين . وفي عهد أسرة «يون» وهي أسرة جنكيزخان (سنة ١٢٧٧ - ١٣٦٧ م) كان للمسلمين منزلة عالية سياسية واجتماعية ، والأعيان المسلمون المسجلة أسماؤهم في سجل طبقة الأعيان الملكي كانوا أكثر من مائة نفر . وكان السيد جاسر الدين والياً عادلا على ولاية يونان ، وحفر في نواحي عاصمتها قنوات كثيرة مازالت باقية مفيدة ، وبنى فيها لأهلها الكافرين هيكلا للفيلسوف الأكبر كونفوشيوس ، وهو أول هيكل بنى له في ولاية يونان . وللسيد جاسر الدين ذكر خالد عند سكانها فأقاموا تماثله في هيكل الحكماء (الباتيون) في عاصمتها وقد تولى ابنه السيد باين رئاسة الوزراء سنة (١٣٣٣ - ١٣٤٠ م) . وألف الأديب المسلم جنس بضعة عشر مؤلفا ، ومازال ديوان البار المسلم دنهاتنى منشراً حتى الآن . وكان مهندساً في بناء سور القصور في بكين ونال سنة ١٣٣٣ م عشرة من الأدباء المسلمين الشهادة العلمية الملكية العليا وفي أسرة «مين» (سنة ١٣٦٥ - ١٦٤٣ م) استعمل التقويم العربى فقام الشيخ محمود بترجة الكتب التقويمية العربية وأرسل العاهل سنة ١٤٠٦ م الطوائى المسلم جنبها فأندأ الاساطيل الصينية المؤلفة من ٣٧٠٠٠ بحرى الى جزائر الهند الشرقية وسيلان وسواحل الهند الجنوبية والعراق وسواحل جزيرة العرب وساحل أفريقية الشرقية ليدعو سكانها لأداء الخراج لعاهل الصين واهداء التقادم ، ومن رفض دعوته هدهد بالقوة والسلطنة . وجده وأبوه كانا حاجين ، ومسقط رأسه في ولاية يونان . وصنف العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) في آخر القرن الثامن عشر باللغة الصينية كتاب (سيرة سيد المرسلين) وكتاب (شريعة الاسلام) وكتاب (أسرار الاسلام) وهذه المؤلفات هي التي تيقن بها الصينيون أن الاسلام دين حنيف لا يخالف مبادئ الفيلسوف كونفوشيوس بل يؤازرها ، فأدخلت في دار الكتب الملكية فانكشفت ستور الاسلام في الشرق الأقصى . ومسقط رأس العلامة صالح ليوجلين

ومدفنه في نانكين عاصمة الصين الجديدة وقد زرت روضته الطاهرة سنة ١٣٤٧ هـ وألن العلامة يوسف مافوسو (رحمه الله) باللغتين العربية والصينية مؤلفات مفيدة في العربية والعلوم الاسلامية وطبع مؤلفات العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) بعد التصحيح فازدهر الاسلام مرة أخرى . وطلع عقبه المعلم العظيم الحاج نورالحق ماجبان (رحمه الله) فتخرج في مدرسته العلماء العاملون أفواجا ، ومسقط رأسهما في ولاية يونان

ثورة المسلمين

كان طغاة الأسرة المنشورية (سنة ١٦٤٤ — ١٩١١ م) قد اضطهدوا المسلمين وساموهم خسفاً وزاد عليهم في اضطهاد المسلمين الأمراء المنشوريون الظالمون في ولاية سنكيايج (التركستان الصينية) فأخذوا أموالهم وفضحوا عيالهم ، فقام المسلمون يدافعون عن أنفسهم وأعراضهم ، فوقعت الثورة الهائلة في مائة سنة تقريبا (سنة ١٧٥٨ — ١٨٧٣ م) خمس مرات وناهيك بالكتب التاريخية الأميرية في هذه الثورات وعدد أجزائها كالاتى :

- (١) تاريخ ثورة سويسان في ولاية كنسيو (سنة ١٧٥٨ م) ٢٠ جزءاً
- (٢) تاريخ ثورة مامنين في ولاية كنسيو (سنة ١٧٦٨ م) ٢٠ جزءاً
- (٣) تاريخ ثورة جنغغ في ولاية سنكيايج (سنة ١٨٢٥ — ١٨٢٧ م) ٨٠ جزءاً
- (٤) تاريخ ثورة سليمان دونسيو في ولاية يونان (١٨٥٥ — ١٨٧٣) ٥٠ جزءاً
- (٥) تاريخ ثورة يعقوب في ولايات شانسى وكنسيو وسنكيايج (سنة ١٨٥٥ — ١٨٧٥ م) ٣٣٠ جزءاً

آثار الاسلام

هى كثيرة ، وأهمها ما زرتة سنة ١٣٤٦ هـ وهى كالاتى :

- (١) ضريح سعد بن أبى وقاص في خارج ريبض مدينة كنتون بنى هذا الضريح وسط القرن السابع تقريباً
- (٢) مسجد مدينة كنتون ، وهو أول مسجد في الصين أسس وسط القرن السابع تقريباً أيضاً وفيه منار شامخ عليه مسحة من جبال الفن العربى
- (٣) المسجد الأعظم في عاصمة ولاية شانسى بنى بنفقات الخزانة الملكية سنة ١٤٤٣ م

على نحو ما وصفه النصب التذكارى الحجري الموجود الآن فيه
(٤) مسجد نانكين بنى سنة ١٣٨٨ م بنفقات الخزانة الملكية أيضا

أسباب انتشار الاسلام فى الصين

انشر الاسلام فى الصين انتشاراً سريعاً مدهشاً والأسباب فى ذلك أربعة وهى :

- (١) تجارة المسلمين : هى سبب دخول الاسلام فى الصين الأصلية فى عهد أسرة « تان » (سنة ٦١٨ - ٩٠٥ م) وازدهار الاسلام فى عهد أسرة « سون » (سنة ٩٦٠ - ١٢٧٦ م) وأسرة « مين » (سنة ١٣٦٨ - ١٦٤٣ م)
- (٢) الفتوح الاسلامية : هى سبب اسلام سكان ولاية سنكيانج (التركستان الصينية) فى عهد أسرتى « سون » و « مين » فضلا عن أنها كانت سبباً فى اسلام التركستان الروسية فى عهد أسرة « تان »

(٣) تناسل المسلمين : هو سبب ازدهار الاسلام وازدياد المسلمين فى الصين الأصلية.

بعد أسرة « يون » (سنة ١٢٧٧ - ١٣٦٧ م) وأسرة « مين »

(٤) اختلاط الكافرين بالمسلمين وتأثرهم بأديانهم : هو سبب اسلام أبناء التتار فى

التركستان الصينية والروسية

لاعجب فى السنين الأولى والثانى وأما السبب الثالث فهو من خواص الاسلام اذ يحرم المسلمون النكاح بينهم وبين الكافرين ليحفظوا اعتقاداتهم التوحيدية وعاداتهم الاسلامية. فتوارثوا دينهم جيلا بعد جيل ، بخلاف الكافرين اذ يمكن أن تعتنق أفراد أسرة من أسرهم أدياناً مختلفة فإذا مات المعتنق انقطع دينه عن أهله. وجواز تعدد الزوجات عند المسلمين من أهم أسباب زيادة أنسالمهم أيضا . وأما السبب الرابع فلا يوجد الا فى الاسلام مثلا تغلب فى القرون المتوسطة الميلادية التتار بسيوفهم على المسلمين وأسلم أبناؤهم من بعد بتهديب وتأثير المسلمين ، وما أعجب قوة تأثير الاسلام

و يوجد فى ذلك سوى الأسباب السابقة السببان الآتيان :

(١) عدم اذاعة الدعوة الى الاسلام . لأجل هذا ماضى الاسلام بحسد الكافرين ،

فلم يوجد قط فى تاريخ الاسلام فى الصين ما حصل بين التروية والبوذية زمن الأسر الست (سنة ٤٢٠ - ٥٨٨ م) وأسرتى « تان » و « يون » من النزاع الشديد ، ولم يصب الاسلام

مأصاب الأديان الأخرى من اضطهاد كما حصل (سنة ٨٤١ - ٨٤٦ م) اذ حتم أتباع كنفوشيوس هدم الأوثان . وليس في الاسلام أوثان يلزم هدمها . وزد على ذلك أن الكافرين لم يقاوموا المسلمين كما قاوموا أصحاب الأوثان لأن المسلمين ما كانوا يدعون الناس الى الدخول في دينهم كما كان يفعل أصحاب الأوثان فظهرت عند أتباع الفيلسوف كنفوشيوس فكرة هدم الأوثان خشية أن يكثر معتقوها

(٧) عدم نقد مبادئ الفيلسوف كنفوشيوس : المسلمون لم ينقدوا مبادئه التي تثبت وجود الملك الحق وتعلم الناس بمكارم الأخلاق ، بل أسس السيد جاسر الدين هيكله لمن لم يتأدبوا بأداب هذا المعلم المعظم واستدل العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) بمبادئه على بعض أسرار الاسلام ، ولذلك تعايش المسلمون مع أتباع كنفوشيوس بالألفة والمودة فلم يسمع أحد ينقد الاسلام كما نقدت البوذية في عهد أسرة « نان » والمسيحية في عهد أسرة « مين » والحمد لله الحكيم العليم

— ٢ —

عدد مسلمي الصين ومساكنهم

المسلمون في الصين يزداد عددهم عاما بعد عام حتى بلغوا خمسين مليوناً يتفرقون في الولايات كلها وأكثرتهم في ولاية كينسيو ثم ولاية يونان ثم ولاية هانان ثم ولاية شانتونغ ثم ولاية هاني . وعدد سكان الصين أربعمائة مليون فالمسلمون ثمنهم

لغة مسلمي الصين ومذهبهم

المسلمون في ولاية سينكيان يتكلمون باللغة التركية لأنها منشأ الأتراك ، والمسلمون في الصين الأصلية يتكلمون باللغة الصينية . وأما الكتب الدينية فأكثرها العربية وتليها الفارسية ولذلك يعرف رجال الدين هاتين اللغتين ولكنهم في المطالعة أقوى منهم في المحاطبة وبعبارة أخرى انهم يفهمون كثيراً ويعبرون قليلاً . والسبب في ذلك أنهم يتوارثونها من أساتذتهم الصينيين الذين يعلمونهم الترجمة ولا يعلمونهم الانشاء ، وانهم ينقطعون عن التسكلمين بهما فلا يجدون فرص الممارسة . وزد على ذلك انهم يقرأون الكتب الدينية

ولا يقرأون الكتب الأدبية، ضعفت الثقافة العربية يوماً فيوماً بطبيعة الحال . وأما منذهبهم فكلهم أحناف

مهنة المسلمين

المسلمون في المدن يعالجون التجارة وأهم تجارتهم في شنغهاي وبكين وتينجين جواهر وحجارة كريمة وتحف قديمة . وفي الولايات المجاورة لسور الصين الكبير فراء وأصواف وأوبار وخيل ومواش . وفي ولاية يونان جلود وأرز وفخوم شجرية . والمسلمون في القرى والارياف يشتغلون بالزراعة وتجارتهم وزراعتهم مشهورون بالاجتهاد والاقتصاد

مكانة مسلمي الصين

الأدبية والاجتماعية والسياسية

المسلمون هناك أكثرهم لا يملكون من الرزق إلا كفاف حاجتهم . والسبب في هذا أن في مشاركتهم مع الكافرين عسراً في الأكل والشرب ، مع أن رؤساء دينهم ينصحونهم دائماً بالزهد والفقاعة ، فيكفون عن التكاثر والتسابق . ويعيرون درس اللغة الصينية لاعتقادهم أن اللغة العربية لغة الكتاب والسنة فيجب على كل مسلم أن يدرسها ويقدها . وأما اللغة الصينية فهي لغة الكفرة لا تلم من العناصر المخالفة لدينا حتى قال بعضهم من قرأ الكتب الصينية فقد كفر والنتيجة من ذلك ان صار رجال الدين في الصين أميين في اللغة الرسمية إلا نادراً ومن يعرف القراءة والكتابة من المسلمين واحد في المائة أو أقل ومن الكافرين تسعة في المائة أو أكثر فكيف يمكن المسلمين أن ينافسوا غيرهم في معركة الحياة وان قررت في الدستور الصيني حرية الدين ومساواة الشعوب في الحقوق

الجمعيات الاسلامية الصينية

أنشئت (جمعية التقدم الاسلامية الصينية العمومية) سنة ١٣٢٩ هـ في بكين عاصمة الصين والجمعيات الفرعية لها في عواصم بعض الولايات ، وازمحت هذه الجمعيات الفرعية سنة ١٣٣٧ هـ لسبب من الأسباب السياسية فما بقي منها الا ما في ولاية يونان ، فمثل جمعية التقدم الاسلامية الصينية كمثل شجرة ذابلة فروعها الا فرع واحد لولاه لحكم على الشجرة

بالييس وهذا الفرع الناضر هو (جمعية التقدم الاسلامية الصينية) في عاصمة ولاية يونان وقد أنشأت فيما يسكنه المسلمون من المدن والقرى في ولاية يونان جمعيات فرعية كثيرة ، وأنشأت أيضاً واحدة في حدود ولاية كوينجو وواحدة في حدود ولاية سيچيوان وواحدة في رنجون (ميناء بروم) وفيها ادارات للعارف والهداية والصلح والافتاء ، ولها نفوذ ماض على جمعياتها الفرعية بأسرها وثقة كاملة عند الحكومة المحلية حتى انها تستنبرها فيما يتعلق بالمسلمين ووكلت اليها تسوية الخلاف بين المسلمين وهي الصلة الوحيدة بين الحكومة والمسلمين فهي ترفع شكاية المسلمين وعرائضهم الى الحاكم وتبلغ قوانين الحكومة وأوامرها إلى المسلمين وتصدر منها (مجلة المنبه الاسلامي) باللغة الصينية بنفقات جمعياتها الفرعية الشهرية وهي أول جمعية اسلامية صينية استأذنت صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشريف في ارسال أعضاء البعثة الصينية الأولى الى الجامعة الأزهرية ليتفقهوا في الدين ولينشروا قومهم اذا رجعوا اليهم فارجع الفضل في مجيئ البعثات الصينية الأزهرية متعاقبات الا الى رحابة صدر الأزهر الشريف وجهد هذه الجمعية العظيمة ولما رجع فضيلة الأستاذ الجليل الحاج هلال الدين هاديحين من مصر الى الصين أنشأ مع زملائه في شنغهاي سنة ١٣٤١ هـ (الجمعية العلمية الاسلامية الصينية) لاداعة دعوة الاسلام وإحياء العلوم الدينية وتنشيط التعليم الاسلامي وتوطيد كتلة المسلمين بوساطة مجلته وأنشأ المرحوم الجنرال مافوسيان وبعض كبار المسلمين في نانكين عاصمة الصين المحروسة سنة ١٣٤٥ هـ (نقابة المسلمين) باذن الحكومة المركزية

المدارس الاسلامية الصينية

لمسجد كل ريف يسكنه المسلمون مدرسة دينية أولية يدرس فيها الأولاد بالحروف الهجائية العربية ، ثم بعض السور القصيرة ثم كتاب يشتمل على الدعوات الكثيرة الاستعمال في العبادات ، ثم بضعة أجزاء من القرآن الكريم ، ثم كتاب في أسئلة الإيمان وأجوبتها يسمى (أربعة فصول) وكتابان في الفقه الحنفي يسمى أحدهما (المهمات) والآخر (عمدة الاسلام) . وهذه الكتب الثلاثة كلها باللغة الفارسية ، وكذلك دروس مدرسة البنات التي تدرسها الماعلات ، الا أنه يدرس فيها بعض الحكايات والقصص الاسلامية مثل قصة موسى عليه السلام وقصة عيسى عليه السلام وقصة زواج نبينا محمد عليه السلام

بمخديجة رضى الله عنها، وقصة زواج ثابت والد الامام الأعظم أبي حنيفة وما شا كل ذلك
 والمسجد كل قرية أو مدينة يسكنها المسلمون مدرستان ثانوية وعالية يؤمهما الطلبة
 من الأرياف والقرى ويدرّس في الثانوية الصرف والنحو وكتب الدراسة في الصرف
 (قسم الصرف) للعلامة يوسف مافوسوا ، و (مفتاح المراح) للحاج نور الحق ماجيبان ،
 و (مراح الأرواح) لأحمد بن علي . وفي النحو (قسم النحو) للعلامة يوسف مافوسوا ،
 و (حواصل النحو) للحاج نور الحق ماجيبان و (الكافية) لابن الحاجب . ويدرّس في
 العالية النحو والمنطق والبلاغة والتفسير والفقه والكلام ، وكتب الدراسة (شرح الكافية)
 و (قسم المنطق) و (قسم البيان) و (شرح التلخيص) و (تفسير الجلالين) و (شرح
 الوقاية) و (شرح العقائد النسفية) والمدرس هو إمام المسجد غالباً ويسكن هو والطلبة في
 أروقة المسجد ينفق عليهم الأغنياء من المسلمين القيارى . وإذا آتم الطالب دروس الأقسام
 بعد بضعة عشر سنة خلع عليه أستاذه خلعة ، وهي جبة خضراء من الجوخ ، وأهدى اليه
 الموسرون نفقات السفر فرجع الى وطنه ظافراً مفتخراً ، فأقام له أهل بلده حفلة التكريم
 بعد أن استقبلوه خارج البلد واكلوا اليه منصب الامام أو الخطيب أو المؤذن أو المدرس .
 وأما الذين لم يحظوا بمنصب من المناصب الدينية فمنهم من يشتغل بالزراعة ومنهم من يعيش
 بالصدقات من تلاوة القرآن الكريم في المآتم . هذا هو نظام المدارس الاسلامية القديمة في
 وطنى ولاية يونان ، ويقرب من ذلك ما في سائر الولايات ، بيد أنه يدرّس في مدارس ولاية
 كدسيو (تفسير البيضاوى) و (تفسير حسين) باللغة الفارسية و (الدر المختار) وكتاب في
 أصول الدين يسمى (المكتوبات)

ولما شعر حضرات رؤساء جمعية التقدم الاسلامية الصينية في ولاية يونان بنقصان
 النظام القديم أنشأوا في عاصمتها سنة ١٣٢٦ هـ القسم الألىّ والقسم الابتدائى للدرسة
 الاسلامية وقسمها الثانوى سنة ١٣٣٩ هـ وتدرّس في هذه المدرسة اللغة الصينية واللغة العربية
 والعلوم الدينية والعصرية اللازمة وقد قرروا منهاج الدراسة ونظام الامتحان ومدة
 الدراسة ، وسجلت وزارة المعارف العمومية الصينية اسمها في سجل أسماء المدارس القانونية
 سنة ١٣٢٩ هـ . وأنشأ المرحوم الجنرال مافوسيان على هذا النظام (مدرسة المعلمين الاسلامية
 الثانوية) في عاصمة ولاية شاتونغ سنة ١٣٤٣ ثم نقلت في السنة التالية لسبب من الاسباب

الى بكين عاصمة الصين المنسوخة سنة ١٣٥٠ هـ وكذلك أنشأت الجمعية الكلية الاسلامية الصينية في شنغهاي سنة ١٣٤٥ هـ (الأكلاديمية الاسلامية) التي تخرجت فيها سنة ١٣٥٠ هـ بعد ما أخذت شهادة المدرسة الحكومية الثانوية في عاصمة يونان سنة ١٣٤٣ هـ. وأنشأت في ولاية سيچوان سنة ١٣٤٥ (مدرسة المعلمين الاسلامية الثانوية) وهذه المدارس الأربع هي المدارس الجديدة لتدريس اللغة العربية والدين الاسلامي، وتقوم كلها على الصدقات والهبات الشخصية، وأما المدارس القديمة فما زالت باقية في القرى والمدن. وأما المدارس الالزامية فكلها على قانون وزارة المعارف العمومية وقد يعلم فيها شيء قليل من المعلومات الاسلامية وتكاد تم القرى والمدن التي يسكنها المسلمون

المجلات الاسلامية الصينية

لما سمع اخواننا الصينيون أبناء النهضة الاصلاحية في المار، الاسلامية قاموا يتسابقون ويتفاخرون باصدار المجلات لاشاعة هذه النهضة، فتظاهرت متتابعة كما تورق الأشجار بعد مطر الربيع، ولكن قلة المال وأدت بعضها قبل البلوغ وأشهر باقيتها (نضارة الهلال) في بكين و(المنبه الاسلامي) في يونان و(نور الاسلام) في تينجين و(مجلة العلوم الاسلامية) في كاتون وهذه المجلات ما زالت ضعيفة بسيطة بالنسبة الى سائر المجلات الصينية لقلّة التغذية المالية والعلمية ولو صاغتها اليد البيضاء لكانت الصلة الوثيقة لاتحاد المسلمين في الصين مع إخوانهم في الدنيا مشارقها ومغاربها

النهضة الجديدة والخلاف بين المسلمين

كان العلماء في الصين يبالتون في ثواب النوافل، فاشتغل المسلمون بها عن الواجبات وأكثروا لا يصلون ولا يصومون ولا يزكّون ولا يحجون، بل يهتمون باقامة المناسم ويدعون اليها رؤساء الدين والمتعلمين ليقرأ كل واحد منهم سوراً من سور جزء عم أو جزءاً من أجزاء القرآن الكريم، واصلوا على النبي عليه السلام بالترجيع والتفريد، ثم تقدم اليهم الوليمة الفاخرة والصدقات الجزيلة، واذا جاء مولد النبي عليه السلام أو مولد السيدة فاطمة رضی الله عنها أقاموا حفلة الذكرى بصدقات المسلمين وعملوا اللوائيم في أروقة المسجد فحضرها المسلمون والمسلمات جميعاً يسمعون القرآن والصلوات والوعظ واذا حان

وقت الصلاة صلى بعضهم وبعضهم يأكلون ويشربون . فلما وجد بعض علماء الدين الخطر في هذه العادات المستبعدة نصحوا المسلمين بأداء الواجبات بدلا عن التوافل ، وأخذوا يحرمون الطعام والصدقة لأجل تلاوة القرآن ، فعارضهم المتعصبون والمتنفذون بهذه الحال ، وانشقت عصاهم ووقعت الفتنة بينهم غير مرة ، وهذه الخصومة تميل الآن الى الضعف والنقصان بحول الله ، وأسأله تبارك وتعالى أن يوفقنا للاتحاد ويعصمنا من كل خصام وشقاق انه جواد كريم

كتب أحد سفلة الكتاب الكفار في (مجلة الآداب الصينية) حكاية فكاهية بهيمية خلاصتها أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير لأنهم أبناء الخنزير وطبعت المطبعة الحديثة بشنغهاي هذه الحكاية كتاباً مستقلاً ، فقام المسلمون في شنغهاي يتناورون في الجمعية العلمية الاسلامية الصينية في هذا الأمر الخطير فاتفقوا على أن يقدموا احتجاجاً على ادارة المجلة ، فوعد رئيس تحريرها أن ينشر في الجرائد اليومية المشهورة اعتذاره الى المسلمين ويصحح الغلط في الحكاية في العدد الأخير من نفس المجلة ويضمن أن لا يقع فيها مثل هذه الحادثة مرة أخرى ويحرق بحضرة المسلمين الباقي من العدد الذي فيه الحكاية . ولكن المسلمين في بكين لم يقتنعوا بهذه التسوية ، فاجتمعوا وتناوروا في لجنة الدفاع عن الاسلام وفي أثناء الاجتماع قطع السيد الغيور «ليهيتين» سبأته فسال الدم منها فكتب بدمه هذه الكلمة : «دافعوا عن دينكم !» فبلغت حساسة المسلمين الحاضرين ذروتها ، وغطت الغيوم سماء المجلس ، فتحالت الحاضرون أن يدافعوا عن دينهم الى النهاية مهما كلفهم الأمر ، وأجمعوا على أن يرفقوا الى المسلمين في البلاد كلها ويوفدوا أربعة مندوبين الى نانكين ليشتكوا الى الحكومة الصينية المركزية ما في هذه الحكاية الخبيثة ، وقد شاركهم في ذلك المنديون من قبل المسلمين في شنغهاي ، والرسائل البرقية طارت الى الحكومة الصينية المركزية بشكاية المسلمين من أقطار الصين فأمرت (١) الحكومة الجمهورية الصينية بمعاقة الكاتب الملعون وتعطيل مجلة (الآداب الصينية) وإغلاق (المطبعة الحديثة) وسنت قانوناً خاصاً لحماية الأديان توطيداً لما في الدستور من حرية الدين ومساواة الشعوب في الحقوق ، وأعلنت أن المسلمين من العناصر المهمة للامة الصينية ولهم تاريخ مجيد في خدمة

الوطن ويحترمهم أبناء الأمة كل الاحترام ، فاتسهي الأمر بذلك واستقبل المسلمون في محطة سكة الحديد بشنغهاي المندوبين وأقاموا لهم في الجمعية العلمية الاسلامية الصينية حفلة التكريم شكراً لهم على جهدهم وإخلاصهم للدين الحنيف والكرامة الاسلامية جزاهم الله عنا وعن دينه خير الجزاء

هذا ولأجل أن يقف قراء الفتح على مبلغ ما كان لهذا الحادث من الأثر في الصين تنقل لهم من تعليقات جريدة « شينبو » أكبر جرائد الصين اليومية العبارة الآتية :

قد ورد في أمر مجلس التنفيذ للحكومة الجمهورية الصينية « المسلمون عناصر خطيرة للامة الصينية وقد اشتهروا بخدمة الوطن واحترامهم أبناء الأمة جميعاً »، واني لمعجب بانحد كلمة المسلمين وحاستهم الفاتقة في الدفاع عن دينهم ، واني لمعتقد أن أبناء وطننا لو كان لكل واحد منهم في الدفاع عن الوطن مثل هذه الروح لكانت مكانة وطننا السياسية أحسن مما هي عليه الآن ، ولما سقطت منشوريا في أيدي اليابانيين ، وان اخواننا المسلمين ما صاروا عناصر خطيرة للامة الصينية الا بتأديب القرآن، وقد قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة « **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُوهُمْ وَآخِرِ جُوهْمُ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** » ، لم يكن اعتداء اليابانيين في منشويا أشد من القتل ! لو قام ولاة الأمور منا يدافعون أعداءهم كما أوصانا القرآن لما شق اليوم ثلاثون مليوناً من اخواننا تحت حوافر خيول اليابانيين . فأرجو من اخواننا المسلمين أن يعملوا بأمر الله تعالى في الدفاع عن الوطن كما يدافعون عن الدين ، لترسم مآثرهم ومفاخرهم في تاريخ الأمة وتحتترمهم أمم العالم جميعاً . انتهى كلام الجريدة الصينية

يأيتها القراء الكرام جاهدوا في سبيل الله على حسب الامكان بعد ما تعرفون قدر الجهاد مما تقدم !

محمد مكين الصيني

المسلمون فى الصين وأحوالهم الاجتماعىة والسياسية

حديث طريف للوفد الصينى المسلم مع مندوب « الجامعة العربية » بالقدس

« وبينما كنا نحرر هذا الكتاب قدم وفد من علماء مسلمى الصين الى مصر ومعهم عدة من الطلبة الجدد يريدون ادخالهم فى الجامع الأزهر وأقبل على هذا الوفد مندوبو الجرائد يستعلمون منه عن أحوال مسلمى الصين . وقد جاء رجال الوفد المذكور الى القدس الشريف وأخذت منهم جريدة الجامعة العربية المعلومات الآتية نأثرها هنا لأنها أحدث حديث فى الشرق الأقرب عن مسلمى الشرق الأقصى » . أما المذاج التى أجزاها الجنرال الصينى المسيحي فونتسيانغ واستأصل بها أوفواً وأوفواً من المسلمين فقد كنا أول من نبه الناس لها يوم وقوعها وذلك بمقالات فى جريدة الثورى بمصر واقترحنا حينئذ على المسلمين أن يرفعوا احتجاجاتهم الى دولة الصين والى الدول وعلى جمعية الرابطة الشرقية أن تفحص عن هذه الفادحة وتتوسط لدى الصين والدول وكل هذا لم يحرك من أحد سا كناً وباللأسف واتنا لا نقدر أن ننكر هذه الحقيقة المؤلمة»

أما حديث الوفد الصينى للجامعة العربية فهو هذا :

اغتمت فرصة وصول الوفد الصينى المسلم الى القدس المؤلف من السيدين الحاج عبد الله الصديق جاو بين سكرتير مدرسة المعلمين الاسلامية فى بكين ومدير مطبعتها ومكتبتها ومحرر مجلة نضارة الهلال فى بكين ، والحاج عبد الرحيم ماسون نين إمام جامع تونسيبا لو فى بكين ووكيل مدرسة المعلمين الاسلامية فيها . فتقدمت اليهما بامم جريدة « الجامعة العربية » حيث يقمان بالزاوية النقشبندية ملتصقا منهما ان يتفضلا على قرائها بحديث عن رحلتها وعن حاة اخواننا مسلمى الصين ، فأجابا ملتصقا بكل بشاشة وسرور . وقد ازداد ابتهاجهما عندما أطلعتهما على العدد الاخير من الجامعة العربية المشتمل على مقال عن مسلمى الصين وبعض معلومات عنهم . والى القراء موجز الحديث الذى اشترك فيه السيدان المذكوران :

غادر السيدان الحاج عبد الله الصديق جاو بين والحاج عبد الرحيم ماسون نين مدينة

بكين عاصمة الصين السالفة في أول شهر شعبان الماضى على رأس بعثة صينية مؤلفة من خمسة طلاب من مدرسة المعلمين الاسلامية في بكين فوصلوا الى القاهرة في الثالث من شهر رمضان المبارك ليدخلوا البعثة المذكورة في الازهر الشريف لتعلم العلوم الدينية الاسلامية والقرآن الكريم واللغة العربية .

أما أعضاء هذه البعثة العلمية فهم : سعيد ونجش مين ، على خان خون كوى ، شعيب جندان كوى، اسماعيل ماجن بوم ، سليمان جنبنتو . وقد دخلوا في الازهر الشريف ولقوا كل مساعدة من الحكومة المصرية والشعب المصرى

والسيدان المذكوران ينويان زيارة بلاد الحجاز لقضاء فريضة الحج ، وذلك من أسباب رحلتهم الرئيسية كما ان من أسبابها أيضا زيارة بيت المقدس والمدينة المنورة والتعرف على اخوانهم المسلمين في هذه الاقطار والوقوف على أحوالهم

ويبلغ عدد المسلمين في الصين نحو خمسين مليوناً وهم آخنون في الازدياد بالتدريج وأكثرتهم يقطنون في الولايات الغربية والشمالية وفي ولاية « يونان » في الجنوب . أما حالتهم فحسنة وتقدمهم مطرد . وحالتهم المادية متوسطة وحالتهم العلمية بالنسبة الى أهل الصين عامة في المقام الاول . وأكثر أهل الصين بوذيون وكونفوشيوسيون وقليل منهم اعتنقوا الديانة المسيحية ولكن عدد النصارى أخذ في الازدياد بسبب كثرة الارساليات الدينية الاجنبية والوسائل المادية التي تلجأ اليها هذه الارساليات . والمسلمون والنصارى في الصين في درجة علمية واحدة وهم أرقى على وجه العموم من البوذيين . أما الكونفوشيوسيون فهم متعلمون أكثر من الجميع .

ومن الغريب في المذاهب الصينية ان البوذى أو الكونفوشيوسى الذى يعتنق النصرانية ، يقوم بالطقوس الدينية المسيحية في الكنائس ثم يقوم أيضا بالطقوس البوذية والكونفوشيوسية في المعابد الوثنية ، فهم يخلطون بينهما خلطاً عجيباً . والكتب الدينية النصرانية كالتوراة والانجيل مترجمة الى اللغة الصينية . أما المسلمون فهم مستقلون في شؤونهم الدينية معتمون باسلامهم وبصلاتهم وبصيامهم وبزواجهم وعباداتهم ومعاملاتهم وتقاليدهم الاسلامية . ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ، والنكاح فيهم محصور بالمسلمين والمسلمات ونادر من المسلمين الذين يتزوجون من غير المسلمات ، واذا حدث

حادث مثل هذا فلنكى يحمل المسلم زوجته غير المسلمة على اعتناق الاسلام وهي بعد زواجها منه لا بد أن تصير مسلمة كما أن المسلمين لا يستعملون الآنية التي يستعملها غير المسلمين والمسلمون في الصين غير مكروهين من قبل بقية الطوائف الصينية وهم وطنيون

بكل معنى الكلمة ويعيشون مع مواطنيهم بكل وفاق ويتعاملون معهم أحسن التعامل وعلماء المسلمين في الصين يقرأون القرآن وكتب الفقه والحديث والتفسير والتوحيد وبقية العلوم الدينية والاسلامية باللغة العربية ويفهمونها ولكنهم لا يحسنون التكلم بها ، وكذلك يدرسون علوم الصرف والنحو والبلاغة بالعربية ويدرسونها في المدارس ويستعملون الحروف العربية ، كما أنهم يقرأون اللغة الفارسية .

ولهم مساجد كثيرة . وفي كل مسجد مدرسة ابتدائية . أما المدارس الثانوية والعالية فقليلة عندهم . ومدرسة المعلمين الاسلامية في بكين تتألف من ٦ صفوف ابتدائية و ٦ ثانوية . على أن هذه المدارس خاصة بالمسلمين يجمعون أموالها من أنفسهم . وهم في الوقت نفسه يتعلمون في مدارس الحكومة العمومية .

وهم يقيمون الصلاة بواسطة الاذان ولكن ماآذنههم غير مرتفعة والوضوء عندهم يكون بالماء الساخن والمساجد تحتوي على ماء ساخن للوضوء . وهم يعنون بالنظافة . وأكثرتهم يشتغلون بالتجارة والزراعة

وقبل نحو سنتين عند ما اشتد ساعد الجنرال فونفسيانغ الصيني الملقب بالمسيحي الذي قام ضد حكومة الصين وشق عصا الطاعة وقاد الجيوش للزحف عليها ، ظل مسلمو الصين على ولائهم لحكومتهم وصمدوا في وجه الجنرال فونفسيانغ السفاح الذي حاول اجتياح ولاية كانسو الاسلامية وذبح كثيراً من أهالي المسلمين وارتكب فيهم شتى الفظائع وكان هذا هو السبب الظاهري لتلك المذابح . أما السبب الحقيقي فهو تعصب الجنرال المذكور ومقته للمسلمين ليس الا .

ومسلمو الصين أهل نجدة وشجاعة ، وهم رجال حرب وقاتل وكثير منهم جنود في الجيش وفيهم قواد وجنرالات كبار مثل الجنرال عماد الدين ماخون كوى حاكم ولاية كانسو الذي تحت امرته جيش مؤلف من خمسين ألف مسلم صيني . ومثل الجنرال ماشن جن حاكم ولاية شنغاي — كوكوور — فان جيشه مؤلف من ثلاثين الف جندي مسلم ، ومثل

الجنرال ماخو بين حاكم ولاية تنغشاي فان جيشه مؤلف من عشرة آلاف جنسى مسلم ،
 وغيرهم . ومسلمو الصين يشاركون مواطنيهم غير المسلمين في مقتهم لليابان التي انتخت ظلم
 الصين والاعتداء عليها ديدنا لهم . وهم لا يوافقون على استقلال منشوريا الذي تم بمساعدة
 اليابان وفصلها عن جسم الصين
 والمرأة المسلمة في الصين لا تحتجب وهي تتمتع بالحقوق التي يتمتع بها الرجل وحالتها
 آخذة بالتقدم

ورئيس الجمهورية الحاضر غير مسلم ولكن ليس في دستور الحكومة الحاضرة ما يمنع
 من أن يكون الرئيس مسلما . وفي الوزارة وزيران مسلمان أحدهما محمد ماتوشيان وزير
 منغوليا والتبث وقد توفى المرحمة الله وهو والد الجنرال عماد الدين ماخون كوى حاكم ولاية
 كانصو . والثاني وزير المعرف واسمه ما جنغ وو .
 وليست للمسلمين في الصين رئاسة دينية وإنما تقوم الجمعيات المحلية بالاشراف على
 التقاليد الاسلامية .

وقد ختم السيدان الفاضلان حديثهما باظهار شديد رغبتهما باتخاذ الاسباب والوسائل
 الكاملة لحفظ الصلات وتوثيق الروابط بين مسلمي الصين الذين هم اكبر كتلة اسلامية بعد
 مسلمي الهند ، وبين بقية اخوانهم المسلمين في العالم الاسلامى .
 ثم أنبأ التناء المستطاب على سماحة المفتى الاكبر السيد محمد أمين أفندى الحسينى
 وقال إن أعماله الباهرة وخدمته للمسلمين قد تطايرت أنباؤها الى الصين وانهم هناك معجبون
 بسماحته كل الاعجاب ، ثم تمنيا أن تقترن مشروعاته الجليلة بالخير والفلاح

مسلمو الروسية

في عهد البلاشفة

للشيخ

عند ما ذهبت الى موسكو في حزيران أو يونيو عام ١٩٢١ ، لتفحص الأحوال ، عن قرب ومعرفة ما اذا كان ممكناً فعلا انتفاع الشرق من الروسية الحاضرة ، وما هي درجة هذا الانتفاع ، سألت عن أحوال المسلمين في الروسية ، وتلاقيت مع بعض أدباء الطاغستانيين والقازانيين ، فاستقصيت منهم عما أريده وقيل لي : ان بموسكو بضعة عشر ألف ترى لهم مسجداً جامعان ، وكذلك في بتروغراد كان نحو عشرة آلاف منهم ، ولم جامع بديع البناء . وكنت في إحدى الجمع أدت الصلاة في أحد جامعي موسكو ، حيث يؤم في الجماعة الشيخ عبد الودود فتاح الدين قاضي المسلمين في موسكو وبتروغراد ، ويتبعه في القضاء المسلمون الذين في ولايات « باراسلوه » و « توير » و « يقالومنه » و بلدتي « ايفانو » و « جنيسنسكي » والأخيرة بلدة معامل ، فيها عملة مسلمون كثيرون . ويقولون له هناك « حضرة عبد الودود » ويسمونه المحتسب . ومعنى المحتسب عندهم ، هو الذي ينظر في الأمور الدينية ، ويرجع اليه أئمة المساجد . فالاستاذ عبد الودود فتاح الدين هو المحتسب في جميع البلدان المار ذكرها . ومرجعه المجلس الاسلامي الأعلى الذي بمدينة أوظا . وقد رأيت منه عالماً فاضلاً ، مطلعاً على الأمور ، بصيراً بأمر قومه ، وقبل أن تحادثت معه سمعت خطبته في صلاة الجامع ، فالعادة عندهم هي أن يبدأ الخطيب بخطبة بالتركية القازانية لسان القوم ، يعظهم فيها ويتكلم في أهم الأمور التي تناسب الحال ، فإذا انتهى من هذه الخطبة صعد المنبر ، وخطب الخطبة الرسمية بالعربية . فحضرة عبد الودود وقف بحذاء المنبر وشرع يخطب بالتركية ، وتبقي يتكلم أكثر من نصف ساعة ، ومع كون تركية الترتخفاف بعض الاختلاف في الألفاظ وتصريف الأفعال عن تركية العثمانيين فقد كنت أفهم كل ما يقوله تقريباً ، وأعجبني جداً وعظه ونسق خطابه ، وعلمت أنهم مدركون الاحتياجات

العصرية ، متنبهون لما يجب أن يتنبهوا اليه . ولما انتهى من خطبته بالتركي صعد المنبر أخوه ، وهو مثله من العلماء نخطب بالعربية بالتسجيع على نمط خطباء بلادنا ، ولكن بأعراب صحيح ولفظ فصيح لا تفرقه عن لفظ خطباء العرب في شيء ، مما جعلني على الظن أن هذا الخطيب كان مجاوراً في مكة أو في المدينة مدة طويلة ، حتى أمكنه أن يخرج الحروف العربية مخارجها كأحسن المجودين من العرب ، اذ لم أعرف في أمة الترك من يقدر على ذلك الا من نشأ منذ صغره في بلاد العرب ، فانه قد يتقن القارئ التركي علم التجويد ، ولا يزال معروفاً من لفظه أنه تركي ، ولا يبرح عاجزاً عن اخراج الحاء والعين والواو ، مثلاً ، ومخارجها الصحيحة الا اذا ربي بين العرب . فأما خطيب جامع موسكو ، فسمعت منه لفظ خطيب عربي ، فدهشت عندما عرفت أنه لا يعرف بلاد العرب ، وانه انما تعلم التجويد في قازان ، وقد ازدددت دهشاً لما سمعت بعض القراء يقرأون كقراء العرب نغمة وترتيلاً ، بدون أن يكون أحد منهم جاور في الحرمين ، ولا عرف البلاد العربية . مع أن اخواننا الترك العثمانيين يتعلمون التجويد ويحفظون القرآن ، ويتقنون كل ذلك ، وتبقى نعمتهم على ما هي عليه .

سألت حضرة عبد الودود بعد الصلاة وقد دعاني الى الشاي في منزله المناوح للمسجد ، ثم سألتهم عليه في عهد البولشفيك ، وما هو الفرق بين الادارة القيصرية السابقة والادارة الشيوعية الحاضرة ، فأخذ يقص لي المحاسن والمساوي الا أنه قال : « أما من جهة الحرية الدينية فقد صرنا في بمجوحة عظيمة ، اذ أن البولشفيين لا يسألون الانسان عن عقيدته ، ولا يعرفون الا كلمة « روسي » أياً كان دينه ، وكان الدخول في الاسلام ممنوعاً لهسد الحكومة السابقة أما الآن ، فالحكومة لا تعترض أحداً ، وان كثيرين في هاتين السنتين أسلموا على يدي . بل كان أهالي مائة قرية من جوار قازان قد حملتهم الحكومة القيصرية على النصرانية قسراً منذ مائتي سنة وحوالت مساجدهم كنائس وأرسلت اليهم القسوس ، وكانوا لا يزالون في الباطن مسلمين ، لكن لم يقدرُوا أن يظهرُوا اسلامهم الا بعد أن سقطت القيصرية وجاء البولشفيك ، فعادوا الى الاسلام وأعادوا مساجدهم الى أصلها » .

ثم سألتهم عن تشكيلاتهم الشرعية فقال : ان قازان وسيبيريا وبلاد الباشقرد والفرغيز والمدن التي فيها مسلمون من جوار موسكو ، هذه لها مجلس اسلامي أعلى مركزه بمدينة أوقا . وهذا المجلس مؤلف من أربعة قضاة ، يرأسهم المفتي لأعظم . والمفتي الأعظم اليوم هو

العلامة جان بارودي بن محمد بارودي ، وهذا الرجل هو من خول العلماء وله تصانيف ، وكان أصلح أصول التدريس الاسلامي في الروسية ، وأيقظ المسلمين ، فلهدا نفاه القيصر الى سيبيريا ، ولم يعد من منفاه الا بعد سقوط القيصرية ، فانتخب مفتياً أعظم في أيام البولشفيك أما القضاة الأربعة اليوم فهم ، العلامة رضاه الدين بن نخر الدين من المشهورين في البلاغة والتاريخ ، وكشاف الدين ترجاني امام قازان سابقاً ، وصابر جان الحسني امام أوقاف والسيدة مخلصه بوبيا ، وهي سيدة عالة فاضلة قد اقترحت الحكومة البولشفية ادخالها في المجلس الأعلى بقولها : ان النساء هن نصف البشر ، وانه من العدل وجود امرأة فيه للحفاظ على حقوق المسلمات (١) . فهذا هو المجلس الاسلامي الأعلى ، وفيه تنحل جميع المسائل الشرعية . ويتبع هذا المجلس تسعون ناحية ، كل ناحية منها فيها محاسب مثل الاستاذ عبد الودود ، فالمختصون مرجعهم المجلس الأعلى ، والأئمة في المساجد مراجعهم المختصون . وأما تركستان فلها تشكيلات دينية ، ومفت أعظم مركزه طاشقند . وكذلك يوجد مفت أعظم لمسعى القوقاس ، ومفت لمسعى القريم .

سأت حضرة عبد الودود عما يقال من عدد مسلمي الروسية كلها فقال لي : « في ولايات قازان ، واورنبورغ ، وأوقا وتوابعا ، مع الباشقرد ٥ ملايين . والغيرغيزه ٥ ملايين . وتتر سيبيريا نصف مليون . وولايات تركستان ، طاشقند ، وسمرقند ، وخوقند الح ١٢ مليوناً . وبخارى مليونان وخيوه مليون واحد . فهذه ٢٥ مليوناً ونصف مليون . « فقلت له ، وفي القوقاس ثلاثة ملايين الى أربعة طاغستانيون ، وجركس . وثلاثة ملايين في اذربيجان وكرجستان . ونصف مليون أو أكثر في القريم . فهذه نحو ٣٣ مليوناً . فوافقني على هذا القول ، وسألت غيره حتى بمن كانوا من أعضاء مجلس الدوما الروسي ، فقالوا ان عدد مسلمي الروسية نحو ٣٥ مليون نسمة .

وفي بولونيه نحو ١٥ ألب نسمة مسلمون ، يقطنون عدة قرى . وفي مملكة ليتوانيه من ممالك البلطيك المستقلة بعد الحرب نحو ١٠ آلاف نسمة ، لم يبق بعض قرى ، وعندهم مساجد ، ولكنهم لا يعرفون لا العربية ، ولا التركية ، وانما يتكلمون بالليتوانية والروسية وكان يحسن أن يؤخذ منهم بعض طلبة الى الاستانة وآخرون الى مصر لأجل تعليمهم العربي والتركي . وكان منهم طالب أديب في برلين ، جعلناه عضواً في النادي الشرقي .

(١) روى الطبري أن كثيراً من الفقهاء أجازوا قضاء المرأة

السيد جمال الدين الافغانى

حكيم الشرق

شكيب

فيلسوف الاسلام ، وعلم الاعلام ، وكوكب الاصلاح ، الذى أطلعه الله فى افق المشرق بعد أن اشتد به الظلام ، حجة الشرق الناهضة ، وآية الحق الباهرة ، الذى قال عنه ارنست رنان ، الفيلسوف الفرنسى المشهور بعد أن عرفه : « كنت أتمثل أمامى عند ما كنت اخطبه ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين » . قد بلغ من شهرته ، واللهجة بذكره ، والضراوة بعقريته ولاسيما بمصر والشام ، وسائر البلاد العربية ، ان ترجمة حاله تكاد تكون احدثه الجميع ، فلا حاجة الى الاطالة بجميع تفاصيلها ، ولا الى الاطاحة بفررها وحجولها ، فصارى مافى الأمر ان هناك حوادث لم تكتب الى اليوم ، وان الروايات تضاربت فى أمرين أحدهما ، هل هو أفغانى مولود فى افغانستان ، أم فارسى مولود فى همدان كما زعم بعضهم ، والثانى ، هل هو فيلسوف الهى أم مسلم ، أم فيلسوف مادى معطل . وعلى الأمر الأول نقول : ان كل من عرفوا السيد جمال الدين علموا منه انه من افغانستان ، وانه من سادات كثر الحسينية المشهورين فى تلك الديار ، ووالده السيد صفتى وكان مولده فى اسد آباد بقرب كتر سنة ١٢٥٤ هجرية وفق ١٨٣٨ ميلادية وكذلك عرف به كبير تلاميذه ، الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مفتى الديار المصرية ، فى صدر رسالة الدهريين تأليف السيد جمال الدين . ولقد لقيت فى المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسيناً أحد ولاة افغانستان ، ومن سادات كثر المشار اليهم ، ومن أفاضلهم ، وعلمت منه ان السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم ، كما انى سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الافغانية وسفرائها ، الذين جعلت بهم التقادير فى اوربا بعد تأسيس سفاراتهم بها ، فلا أعلم كيف تتفق كل هذه الروايات من أهل تلك الديار ، على كون المترجم

أفغاني الدار علويًا حسيديًا ، من أسرة نسبتهم كالشمس ، ومقامهم في بلاد الافغان أشهر من أن ينوه به ، ويكون في الحقيقة من همدان ومولوداً بها ؟ ونقول على الثاني : ان الاستاذ الشيخ محمد عبده تعرض الى ادحاض هذه التهمة أكثر من مرة وعرب من الفارسية بمساعدة عارف افندي أبي تراب الافغاني رسالة « النيتشرين » أى الطبيعيين التي يرد فيها السيد جمال الدين على الملحدة والمعتلة ، ويقم العقيدة الالهية على أساطين المنطق ، والحكمة العقلية ، ويثبت صحة الوحي ، وينتهي الى ايضاح البراهين المحمدية ، كل ذلك بملكة قل أن تتاح قوتها لفيلسوف غيره ، ولكن بعض الناس — ولا سيما العلماء الحشوية — أبوا أن يروا في الفلاسفة الاملحدين ومعتلين ، ومن هذا جاء قولهم العامي : من تمنطق تزندق . وبمثل هذه المبادئ السخيفة والكلمات المحزنة ، أضلوا العوام ، ووضعوا عقائدهم في خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ، وجنوا على الاسلام جناية كبرى ظهر أثرها في الانحطاط السياسي والاجتماعي ، الذي نراه عليه الآن . واذا قام مصلح أو مجدد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية ، ويبحث على النظر ، وينهى عن التقليد ، ويبين مضار الجود ، كان أول ما يتسرعون اليه رميه بالزندقة ، واتهامه بوهن العقيدة . وقد يصادف ذلك هوى في افئدة من يميلون الى التعطيل فعلا ، فيلقفون ما يسمعون من هذا القبيل بدون تشبث ، ويسارعون الى اذاعته بين الناس ، لأن من أحب شيئاً أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه ، ولهذا صدر الاستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين ، التي أسلفنا ذكرها بمقدمة في ترجمة حال استاذة السيد جمال الدين قال فيها تقريباً ما يأتي : « يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل ما نراد من اختلاف آراء الناس في أمره ، وتضارب أقوالهم في حقيقة حاله ، حتى كأنه قوة روحية قامت في كل ذهن بما يلائمه ، أو حقيقة كاية نزلت في كل عقل بشكل يشاكله ، والرجل على صفاء جوهره ، وزكاء مخبره لم يتناولوه وضع الموضوعين ، ولا حزر الخراسين الخ » . ثم شرع بترجمته على الوجه الصحيح ، الذي هو أدري به من كل مترجم غيره ، بمكانه من خلطة السيد الاستاذ ، وماله به من تمام الخبرة ، ومعه من إطول العشرة . فذكر نسبه ، وحسبه ، ومولده ، ونشأه ، ورحلته ، ومذهبه في السياسة ، ومذهبه في الفقه ، وقال في هذا : « انه حنفي حنفي مع ميل الى مشرب السادة الصوفية ، رضي الله عنهم » . وذكر عن مذهب السياسي انه كان جل اجتهاده ، في أن

يرى احدى الدول الاسلامية ، في صف كبريات الدول الاوربية . وأطال في وصف مواهبه العقلية ، وقدرته العلمية ، الى أن قال : « وبالجملة فلو قلنا ان ما أوتيه من الذكاء ، هو أقصى ماقدّر لغير الأنبياء ، لكننا غير مبالغين » . ووصف شمائله الباهرة ، وأخلاقه العظيمة ، وهمه العالية ، وشجاعته التي لا تعرف للموت معنى ، وعدم مبالاته بالدنيا ، وانتهى الى قوله فيما أتذكر : « وهو حلیم يسع حلمه ماشاء الله أن يسع ، الى أن يدنو أحد ليمس دينه ، أو شرفه ، فينقلب الى غضب ، تنقض منه الشهب ، فبينما هو حلیم أواب ، اذا هو أسد وناب » . قلت وسترى عاقبة غضبه عندما أهانه الشاه ناصر الدين ملك العجم ، والصورة الفجيعة التي انتهى بها ذلك الخلاف ، مما سنويه لك في آخر هذه الترجمة . وقد اتفق أرباب النظر في هذا العصر ، على أن قدوم السيد جمال الدين الافغانى الى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية ، التي بدأت في البلاد العربية وسائر الشرق الأدنى ، ولم تزل تنمو الى الآن ، رامية الى تحقّق الشرق بالمعارف التي ساد بها الغرب ، ورفع سيطرة هذا عن ذلك ، واعادة الشرق سيرته الأولى من الرقي . ولم يقرأ السيد جمال الدين على أحد بالأزهر ، ولكنه كانت له حلقة خاصة في منزله انتظم فيها عدد من أدباء القطر ، يستفيضون بحر حكمته ويستمطرون صوب صوابه ، اشتهر منهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وإبراهيم افندى اللقاني ، والسيد وفا القونى ، وسعد باشا زغلول ، الذي قيل لى انه أدرك أخريات أيام السيد بمصر ، ولازمه ثلثة من أدباء الشام ، النازلين بمصر مثل أديب اسحاق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستاني ، وغيرهم واندفع مر يدوه وحلّة علمه ، يكتبون ويخطبون وينثون الى الملاء ماالتقطوه من فوائده ، وانتظموه من فرائده ، وكان ذلك اسانا عاليا لاعهد للناس بأمثاله ، وأسلوباً راقياً انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله ، فأحدث في الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله ، ونفخ فيها روحا سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله ، فنشطت هم واستجدت عزائم ، وهبت قوى وفاضت قرائح .

وقال الشيخ محمد عبده في وصف تلك الحركة ما يأتي تقريبا : — لأن نص كلامه ليس بيدي الآن — فاستنارت الأبواب ، واستضاءت البصائر ، وانحلت عقل الأوهام عن قوائم العقول . الى أن قال انه لم يكن بمصر للكتابة قبل جمال الدين شأن يذكر ، ولم يكن يعرف من الكتاب سوى عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، وفلان على ضعف

فيه ؛ وفلان على اختصاص فيه ، وبقية من بقى فاما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، واما مؤلفون فى بعض الكتب الأدبية الخ ؛ ولم تكن الثورة التى أحدثها السيد جمال الدين فى السياسة بأقل منها فى المعارف ، ولعمري هاتان توأمان ، فقلما انتشر العلم فى مكان الا هتف بالحرية. وأول أثر ظهر لجمال الدين فى ميدان السياسة ، هو الحركة التى هبت فى أواخر أيام الخديوى اسماعيل باشا وآلت الى خلعه من الخديوية ، وكان للسيد اليد الطولى فيها ولما جلس توفيق باشا على كرسي مصر شكر لجمال الدين مساعبه ، لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية فى حقه ، وجاء من دس الى الخديوى الجديد أن السيد ان يقف عند هذا الحد ، وقد تحدته نفسه بشورة ثانية ، وباقامة حكم جمهورى وما أشبه ذلك ، مما لا يعيى تنميقة السعاة والمتملقين ، فصدر الأمر بجأة بنفى جمال الدين وأخرج الى السويس ، ومنها ذهب الى الهند ، ولم يدخل بعدها مصر . وجرت الحركة العرايية فى غيابه ، واحتل الانكليز مصر . ومما لا مرء فيه أن المبدأ الوطنى ؛ الذى رأس تلك الحركة كان من زرعه هو ، وان كان هب على ذلك الزرع ، من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ، ولفحه من الدسائس الأجنبية ماصوح نضرته ، وأذهب ثمرته ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث فى الشرق أو حركة اصلاح تشفق من ورأئها الدول أن تتمزق حجب القباوة التى هى أصدق عوامل الاستعمار الا أن ذلك الزرع لم تذهب بزرته من الأرض ، وعاد فأخرج شطأه ، ومازال ينمو حتى استوى على سوقه ، يعجب جمال الدين لو عاش الى اليوم ، ويقتاظ به الذين لا يبرحون مماطلين فى الجلاء عن مصر ..

وفى سنة ١٨٨٥ ذهب جمال الدين الى أوربا ، وأول مدينة سعد اليها لندرة ثم تحول منها الى باريز حيث وافته الشيخ محمد عبده أ كبر تلاميذه ، وأكمل وعاء علومه ، فأصدرا فيها « العروة الوثقى » التى بلغت من ايقاظ الشرق وهز أعصاب العالم الاسلامى ، مالم تبلغه صحيفة سيارة قبلها ، ولا بعدها ، ولكن لم يسعفهما الوقت أن يصدرا منها الا بضعة عشر عدداً ، فعاد الشيخ محمد عبده الى بيروت حيث كان منفاه على أثر الحادثة العرايية ، وبقى جمال الدين فى أوربا يجول فى مدنها ويثافن أهل العلم فيها الى أن تلاقى بالشاه ناصر الدين صاحب فارس بلغنى أنهما تصادفاً فى منيخ عاصمة بافاربه ، فدعاه الشاه أن يكون بمعيته لما شاهده من وفرة علمه وفضله ، وتقدم اليه فى الذهاب معه الى طهران ؛ فابى السيد دعوته ،

وأكرم الشاه نزه في عاصمة فارس ، ومازال في علياء عنده ، حتى نفس عليه الحساد منزله هذه لدى الشاه ، ولما كان السيد جمال الدين لا يكتم فكره ، ولا يحتاط من قوة نفسه ، أن يجهر بكل ما يجيش به صدره . وكان بعد ذا وذا يجد في ادارة أحكام العجم ، مالا يطبق عليه صبراً أقل منه بكثير ، في الهمة ، وابعاء الضيم ، وصحة الوجدان فما ظنك برجل نظيره . لم يصعب على أولئك المفسدين ، أن يحكموا الوشاية ، ويوقعوا العداوة بينه وبين الشاه حتى انتهى الأمر باعتقاله وحجسه ، ثم باخراجه مهاناً من فارس الى بغداد ، حيث خاطب المجتهد الكبير ، ميرزا محمد حسن الشيرازي رأس الشيعة في وقته بكتاب شهير ، عدد فيه مساوئ الشاه ، واستيلاء العتة على عقله ، وشرح فيه مضرة امتياز شركة التبناك ، الذي يقضى باستئثار الأجانب بأهم محصول بلاد العجم ، فكان هذا النداء ، من أعظم أسباب الفتوى التي أفتاها ذلك الامام ببطلان هذا الامتياز ، واضطرت الحكومة الفارسية خوف انتقاص العامة الى الغائه . ولكن السيد جمال الدين لم يشف غليله بهذه الحركة وحدها ، وأخذ بما كس الشاه وحكومته بكل وسيلة ، وكان كلما نذكر اهانة الشاه له ، وبين جنبه تلك النفس العظيمة ، التي لو قلنا ان أنفس الملوك في جنبها تعد أنفس سوقه ، لكننا غير مغالين حاج به هائج الانتقام ، وتقصد الأخذ بالثار ، لا سيما أنه كان رأى بعينه في ايران ، من آثار الاستبداد والظلم وبغائع العنف والغشم وذهاب مصالح الأمة العامة في سبيل اهواء افراد ، وشهوات آحاد ، ما يمكن في خلدك فكرة العمل لقلع الشاه من مركزه . وصادف بعد ذلك أنه ذهب الى لندن مرة ثانية ، فرر في مجلة سماها « ضياء الخافقين » مقالات على أحوال فارس تقيم وتقعده ، وكان السلطان عبد الحميد قد دعا السيد جمال الدين الى الاستانة وذلك في سنة ١٨٩٢ فجاءها وكانت هذه المرة الثانية لدخوله هذه العاصمة . اذ كان قد عرف الاستانة مرة قبلها في زمن السلطان عبد العزيز . هذا ولما كانت سبقت لحرر هذه السطور معه مراسلات بواسطة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده كان أول من سألت عنهم عند سفرى الأول الى أوروبا سنة ١٨٩٢ المذكورة ، هو المرحوم السيد جمال الدين فقيل لي انه قصد الاستانة وأظهر لي التخوف على مصيره في الاستانة هنرى روشفور ، الكاتب الفرنسى الشهير ، الذي عرفته وهو منفي بلندرة . وكان روشفور يحب السيد جمال الدين ويحترمه ، وقد وصفه في كتابه « ما جريات حياتي » بقوله هكذا على أسلوبه الخاص به في الكتابة :

« السيد جمال الدين الأفغاني من سلالة النبي ، والمعود هو أيضاً أنه أشبه بنبي » ثم قال :
« اتى شერთ نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التي أجدها ترابطي بكل داع الى ثورة أو
مقاوم لسلطة . »

ولما ورد السيد جمال الدين الاستانة أنزله السلطان منزلاً كريماً ، في دار ضيافة خصه
بها في نشان طاش ، وأجرى عليه الأرزاق الوافرة ، وكان يدخل على السلطان ويصلى صلاة
الجمعة معه . ومضت مدة وجمال الدين حظيَّ عند أمير المؤمنين ، لا خوف عليه ولا هو يحزن
وكان الجولم يسفر بينه وبين السيد أبي الهدى الصيادي فناً ذلك أجل القصص بحقه الى
السلطان ، وانما كانت تلك فترة لا يعبأ بها ، اذ ما عمم الأستاذ الصيادي أن وجه عليه حللانه
عند مولاه ، وان دفع يتهم جمال الدين بالكفر والزندقه ، كما هو ديدن هؤلاء في شأن كل
من أرادوا تنقصه من الحكماء . وقد اطلعت على نشرة من جانب السيد أبي الهدى تناول
ثلاثة من أعباده وهم السيد فضل العلوي الحضرمي أمير ظفار ، والشيخ ظافر المدني
الطرابلسي شيخ الطريقة الشاذلية ، والسيد جمال الدين الأفغاني ، وثلاثتهم كانوا من
المقربين الى السلطان ، وكان لكل منهم نصب وافر من الشتم والوقيعه في هذه النشرة ،
وحصة السيد جمال الدين كانت تهمة الاحاد وفساد الاعتقاد . ومن جلة الشواهد على ذلك
كونه قال مرة : « أنا أطوف بأشجار البندل طواف الحجيج بالكعبة » . والبندل هي
السود بالتركية وذلك أنه يوجد محل نزاهة بظاهر الاستانة قد سد السلاطين العظام فيه
أودية بحيث تكونت منها بحيرات لسقيا العاصمة ، وقد أحاطت بتلك البرك غابات ملتفة
بديعة ، فغاية ما يقال ان جمال الدين عبر عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية ، فاستخرج
منها أبو الهدى الحداد وكفراً . وكان جواسيس السلطان يحصون عليه جميع حركاته
وسكناته ، ليقدموا ذلك الى السلطان . فما يروى أنه كان هو وعبد الله نديم الكاتب المصري
المشهور في منزله « الكاغد خانه » ، فصادفاً الجناب الخديوي عباس حلمي ، وسلم بعضهم
على بعض ، وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك . فيقال ان السيد أبا الهدى قدم
تقريراً للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديوي على الاجتماع في
الكاغد خانه . وهناك عند الاجتماع بإيعاه تحت الشجرة . لكن السلطان بحسب قول جمال
الدين لم يحفل بهذه الوشاية . ولكن هذا الخلاف مع أبي الهدى لم يزعزع مكانة جمال الدين

من السلطان ورب بما زاده لديه زلفي ، وإنما أدى الى وحشة الخليفة منه ، استمرازه في مجاله التي كانت تنتابها الناس دائماً على القدرح في شاه العجم مما حل سفير ايران على رفع الشكوى الى السلطان ، فاستدعى السلطان اليه السيد جمال الدين وقال له : « ان سفير العجم ترجاني أن أنسلكم معك في الكف عن الوقعة في الشاه وأنا : بناء على أملي فيك وعدته بأنك تكف عنه » وقد روى لي السيد رحمه الله هذه القصة عند مراجعت من أوربا الى الاستانة في أواخر سنة ١٨٩٢ . فقال لي هكذا بالحرف : « فقلت للسلطان ما كنت ناويا أن أترك شاه العجم حتى أتزله في قبره ، ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه ، فلا بد من طاعته . » بمثل هذا كان المترجم يخاطب الملوك ولا يبالي عن موقع مثل هذا الكلام منهم ، مع أن أشدهم حنراً ووسواسا كان السلطان عبد الحميد ، فلا عجب ان وقع في نفسه شيء منه . ولكن إيت السيد كف بالفعل عن أذى الشاه ، اذ لم يلبث أن عاوده الغضب الذي هو العيب الذي عوذ الله به حسناته العديدة ، والتي جرّ عليه كثيراً من المصائب ، حتى قال الشيخ محمد عبده في وصفه : « وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعتة الفطنة » . ففي أحد الايام قدم على جمال الدين رجل من العجم ، بابي المذهب ، اسمه رضا آقا خان ، صادف أنه وجد مع جمال الدين في حبس واحد في قزوين عندما اعتقله الشاه ، فخلصت بينهما محبة أكيدة ثم تفارقا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفي الى بغداد ثم أخلى سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه مجيء السيد الى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسر به السيد كثيراً ، وكان دائماً يحادثه ويتكلمان على شقاء الأمة الإيرانية بسوء ارادة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقا خان يوماً انه هو حاضر أن يفدى نفسه لتخليص أمته فقال له جمال الدين : « ان كان كذلك فاذهب وافعل » فذهب رضا آقا خان ، وبعد أشهرينما ناصر الدين شاه في جامع عبد العظيم في طهران اذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال له : « بدى از جمال الدين » أي خذها من يد جمال الدين ووردت الأخبار الى الاستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانها أمة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثارها ويفتك بالمعاني الذي على رأسها ، لا تكون قد فقدت جرائم الحياة » . وكلاما من هذا القبيل كان يردده . ثم لما ورد عدد من مجلة « الابولستراسيون »

التصويرية الفرنسية ، وفيها صورة القائد رضا آقاخان مصلوباً معلقاً ، والناس ينظرون من حوله هتف : « علو في الحياة وفي المات . وقال : انظروا كيف علقوه عالياً عليهم حتى يكون ذلك رمزاً الى أنهم كلهم كانوا من دونه » . وكان الجواسيس ينقلون الى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين ، وانه مازال وراء الشاه حتى « أنزله في قبره » كما قال . ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ، وذهب هذا الى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسعى في تدير مكيدة مع بعض الايرانيين ، فخلع الشاه أو لقله ، فندم جداً على افلاته ، ويقال انه هو الذي بعث الى السلطان عبد الحميد يرجو منه استقدام جمال الدين اليه ، ووضعه تحت المراقبة أماناً من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبي الهدى . ولما ورد الاستانة أمر بالمبالغة في بره واکرامه ، ليليه عن عداوة شاه العجم ، فكان مع ذلك ما كان ، ولا يمنع حذر من قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضباً شديداً . وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ومنع أي أحد من الاختلاط به الا بارادة سلطانية ، فأصبح السيد في قصره محبوساً . وكانت الحكومة الايرانية شرعت في تحقيق حادثة القتل فثبت اديها اغراء جمال الدين لرضا آقاخان بالاشترك مع شخص فارسي آخر اسمه رضا آقاخان أيضاً ، وشخص بفسادى اسمه الشيخ ابراهيم . فطلبت الدولة الايرانية من البلب العالي تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبي تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلغنى أنه جرى تسليمهما وقتلا في ايران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة . ثم ان التضييق بلغ حده على المترجم حتى أرسل الى فيس موريس مستشار سفارة انكلترة يلتمس منه ايماله الى باخرة يخرج بها من الاستانة ، فحضر فيس موريس اليه وتعهد له بما طلب ، واذ ذلك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل اليه أحد حجاجه يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لا يرضى بمس كرامة الخليفة الى هذا الحد ، ولا يلتمس حياة أجنبية . فثارت في أنفة حية الاسلام ، و بعد أن كان زمّ حقايقه للسفر قال لفيس موريس انه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن . ولكن المراقبة عليه كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلا بد له من اذن خاص . و بعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، فصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحية يتولاها قبور زاده

اسكندر باشا ، كبير جراحي القصر السلطاني ، وكان هذا مقرباً جداً الى الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، ومالبت الا أياماً قلائل حتى فاضت روحه رحمة الله وعفا عنه . وهنا تقول الناس أشكالا وألواناً في قضية هذا السرطان وهذه العملية الجراحية ، تقرب عهد المرض بمحادثه قتل الشاه ، وما كان معروفاً من وساوس عبد الحميد . فقبل ان العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمداً ، وقيل لم تلحق بالتطهيرت الواجبة فنا : بحيث انتهت بموت المريض . وحدثني صديقي الكونت لاون أوسترووروغ ، المستشرق العلامة ، مترجم كتاب الأحكام السلطانية لماوردى ، وحديثه هذا كان لى في هذه الأيام الأخيرة في لوزان (شهر يناير سنة ١٩٢٣) . أن المترجم كان صديقه فدعاه اليه بعد اجراء العملية الجراحية وقال له ، ان السلطان أبى أن يتولى العملية الا جراحه الخاص ، وانه هو رأى حاله ازدادت شدة بعد العملية ، فيرجو منه أن يرسل اليه جراحا فرنسويا ، مستقل الفكر ، طاهر الذمة ، لينظر في عقب العملية . فأرسل اليه الدكتور لاردى ، وهو رجل لا يزال حيا واقامته بجنيف من سويسرة ، فوجد ان العملية لم تجر على وجهها ، ولم تعقبها التطهيرت اللازمة ، وان المريض قد أشفى بسبب ذلك ، وعاد الى أسترووروغ ، وأنبأه بهذا الأمر المحزن ، وماضت أيام حتى فارق جلال الدين الحياة . وقال لى واحد ممن كانوا في خدمة عبد الحميد وقد رويت له هذه القصة : أن قبور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الدناءة ، ولكن كان رجل عراقى اسمه جارح طبيب أسنان يتردد كثيراً على جلال الدين ويعاين له أسنانه ، وكانت نظارة الضابطة قد استهالت جارح هذا بالدرهم وجعلته جاسوساً على المترجم ، فصار له عدواً في ثياب صديق . قال لى صاحب هذه الرواية : فأردت مرة أن أمنع جارحاً من الاختلاط بجمال الدين فأشأرت الى ناظر الضابطة اشارة خفية بأن اتركه ، وفهمت من الاشارة انه يذهب الى هناك ويطلب أسنان السيد بعلم من النظارة والسيد لا يعلم بشئ من ذلك ، ويستخلص جارحاً ويتق به . قال فلا أعلم ماذا فعل جارح بواسطة طبه وثقة جلال الدين به ، فصارى ما أعلم انه لم تمض عدة أشهر على حادثه الشاه ، حتى ظهر السرطان في فك السيد من الداخل ، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح ، وجرح هذا ملازم للمريض . وبعد موته كنا نراه دائماً حزينا ، كئيبا ، كاسف البال ، واجم الوجه ، خزيان ، مما جعلنا نشبهه أن يكون ذا يد في افساد الجرح بعد العملية ، أوفى

توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل ، فلعمات السيد أخذ يعذبه وجدانه على حياته هذا الرجل العظيم ، الذي كان وثق به . قال ولا أجزم بكونه هكذا فعل ، ولكنني أجزم بأنه كان جاسوساً على السيد والله من وراء العلم . وكانت وفاته رحمه الله في ٩ آذار سنة ١٨٩٧ وصلى عليه في جامع التشويقية في نشان طاش ، ودفن في مقبرة على مقربة منه .

ولى في جريدة الاهرام يومئذ مقالة بين يدي فقدته ليست في يدي الآن لمراجعة تاريخها . وكنت لماعدت من أوروبا الى الاستانة سنة ١٨٩٢ ، ذهبت اليه في نهار وصولي ، فاستقبلني برأ وترحيباً ولزمته تلك المدة الى أن اضطرت الى السفر الى وطني سورية ، ففارقته أسفا وأنا أمتنى نفسي بالعودة الى الاستانة ، لشاهدته والاستفادة منه . وسألني مرة عما شاهدته في أوروبا وأرى نتيجة استخلصتها من حال أولئك القوم ، لأنه كان فيلسوفاً تاماً لا يرى الجزئيات الامن خلال الكلليات ، فلما أردت أن أبدي له ما يعين لي في هذا الباب ، وكنت يومئذ في أول شبابي لم أجاوز الثانية والعشرين من العمر ، غلبتني مهابة حكمته وخشيت أن لا أصيب المحز ، فتحوت لسكلامي بشيء من انكار النفس واستكبار أن يكون مثلي ممن يجوز أن يتكلم بحضرة مثله ، فأرأيت انهض وأمسك بيدي وهتف قائلاً : « أنا أهنيء أرض الاسلام التي أنبتك » . فسمع الناس هذه الجملة وما زالوا يتناقفونها ، وما خاله قصدتها الا الجنب بضبيء الى الأمام ، وجبر مانقص من قوتي المعنوية . وحكيت له مرة أن احدى جرائد امبركا بحثت في موضوع اكتشاف تلك القارة ، فقالت يروي أن العرب خاضوا الاوقيانوس الاطلانتيكي ناشدين البر الذي وراءه ، وسالت هل عند مؤلفي العرب شيء من هذا الخبر ، فعبت ذلك جريدة النشرة الاسبوعية في بيروت ، وألقت السؤال نفسه على علماء العرب وكنت في باريز ، فلما اطلعت على القضية لبيت ذلك النداء وراجعت في المكتبة الوطنية كتب الشريف الادريسي الجغرافي العربي الشهر ، ونقلت من كتابه نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق ، خبر الاخوة المغرورين ، الذين ركبوا سفينة من أشبونة وجعلوا فيها كل ما يلزمهم من الزاد والماء ، وخاضوا بها ببحر الظلمات الى الغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شهر الى جزيرة خالية لم يجدوا بها الا الوحوش ، فركبوا البحر متجهين الى الجنوب ، وبعدهم شهر أيضاً نزلوا بجزيرة فيها أناسي وملك يحكم عليهم ، ففعلوا من عنده متجهين شرقاً ، حتى نفذوا بعد مدة الى مرسي اسنى بالمغرب الأقصى . فلما اكملت له الرواية

واتى حررتها جوابا على النشرة الأسبوعية ، وقد أترتها عنها جميع الجرائد العربية ، التفت الى قائلا : « لا أريد أن أسرّ المسلمين بكلمة . هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم . أجاوبه : ان آباءنا قد كانوا كذا وكذا . وعاشوا في خيال مافعل آباؤهم غير مفكرين بان ما كان عليه آباؤهم من الرفعة ، لاينبى ماهم عليه اليوم من الخمول والضعف . قال : ان الانسان اذا بنى قصرا مستوفيا جميع شروط البهاء والنيقة ، ولم يفته فيه شئ من الرفاهة والفرهة ، فهو يفكر حينئذ بأن يأتى الى قصره بالرياش الفلاني النادر من القطر الفلاني ، ويكمل زينة قصره بالآنية الفلانية التي لا يملكها الا القليلون ، وأن يجعل في حديقة القصر هذه الزهرة البديعة وتلك الريحانة العجيبة . فأما وهو قصر متداع الى السقوط ، والجص نازل الى الأرض ، والسقوف قد هوت من كل جانب ، وهو لا يقدر على ترميمها ، فهل يحظر بباله أن يأتى لا كمال زينة قصره بهذه الآنية ، وتلك الزهرة ، وهاتيك الديباجة ، كلا ، لعمري ان من أعوزته الضروريات ، لاجابة به الى الحكايات . قال لى : « وأنالا أقول لك لماذا حققت عن قضية جد العرب لاكتشاف أميركا ، ولكننى أقول لك ان الشرقيين قد أصبحوا بهذه المثابة ، وهى كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر ، قالوا : أفلاترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أتم أولاء كما تم . فلا يلبق بكم أن تذكروا مفاخر آباؤكم الا أن تفعلوا فعلهم . » وكأنه ينظر بهذا الى قول القائل :

بنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثلما فعلوا

وكان من شدة ما يجد من الام لحال الاسلام ، تحظر له خواطر نادرة في هذا الموضوع ، فقال لى احدى المرار : « قد فسدت اخلاق المسلمين الى حد أن لا أمل بأن يصلحوا ، الا بأن ينشأوا خلقا جديدا ، وجيلا مستأنفا ، فبذا لولم يبق منهم ، الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسيّرهم فى طريق السلامة . » وقال لى نوبة أخرى : « لم يبق فى الاسلام أخلاق ، فهذا محمود سامى (البارودى الشاعر الكبير ، رئيس النظار أثناء حرب عراقى) عاهدنى ثم نكث معى ، وهو أفضل من عرفت من المسلمين . » وقال لى أيضا : « ان المسلمين قد سقطت همهم ، ونامت عزائمهم ، ومانت خواطرهم ، وقام شئ واحد فيهم وهو شهواتهم . » وكان يندد هذا التنديد كله لما كان فيه من اللوجد لاسترداد الاسلام مجده القديم ، ولما كان يراه من غفلة المسلمين عن الاخذ باسباب

الرفي ومن السبات العميق الذي أمعنوا فيه ، على حين صاح صائح الجذب بسائر الامم هيا على الفلاح . ومن قرأ مجموعة العروة الوثقى التي كانت ترجان أفكاره ، بقلم تلميذه الشيخ محمد عبده رأى انه أنبأ منذ أربعين سنة بما سيؤول اليه حال الاسلام ، وما ستكون معه سياسة الدول المستعمرة ، مما تحقق كله فيما بعد ، حتى كأنه كان ينظر الى الحوادث المستقبلية في مرآة . وكان في أطوار حياته ، فيلسوفاً كاملاً ، عالماً عاملاً ، فلا يقول ما لا يفعل ولا يكتب في من الحكمة بالنظر دون العمل ، كما هو شأن كثير من العلماء الحفاظين الذين قلوبهم في واد وألستهم في واد . فكان يفطم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات الا اللذة العقلية العالية . وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ، ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج ، فأبى وأعرض ، وقال له : قضيت حياتي مثل الطير على الغصن ، فلا أريد في آخر أيامي أن أتعلق بعائلة . وكنت سامراً مرة عنده وعن هذا الموضوع ، فقال له أحد الدمشقيين : يا مولاي لماذا لا تتأهلون ويكون لكم الذرية الصالحة ؟ فلم يعجبه قوله ، ولما انصرف الرجل أقبل على السيد وقال « لم تدخل روح الفلسفة في هذه الامة » . وليس مراده بذلك التزهيد في الزواج ، وانما تقرير حقيقة وهي أن الفلسفة لا تنال بالنسل والذرية ، وان الفلاسفة قلوبهم في شغل شاغل عن ذلك ، وكان ينظر الى المال نظره الى التراب فلا يدخره ، ولا يعرف معنى تسميره ، ولا يتناول منه الا ما هو ضروري للحياة . ولما كان في الاستانة ، كان عنده فهران هو الذي بيده الحساب والقبض والصرف ، أما هو فلا يدري من ذلك شيئاً ، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضي عسكر مثلاً ، فأبى أن يقبل الرتبة ، وأن يلبس كسوتها المزركشة بالنصب ، وكذلك رفض قبول الوسام مهما كان عالياً ، فسأته عن ذلك فقال : أكون كالبلبل يحمل على صدره الجلاجل ؟ وبالجملة فلم يكن يؤخذ لارغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد كان راغباً عن الدنيا بخلافها عيوقاً عن زينتها معرضاً عن زخرفها كما مر بك . وأما الرهبة فلم يكن يعرف الخوف الى قلبه سيلاً ، وفيما سردنا لك من قصصه ما فيه مقنع . وعرض حديث أجريت فيه ذكر الشيخ محمد عبده فقلت ، انه من الأفراد بمصر ، فاجابني : « لا يوجد مثله بمصر » . وكان هذا قبل أن صار الاستاذ في منصب افتاء الديار المصرية ، ونال تلك الشهرة العظمى .

تحريرنا في ترجمة حال هذا الحكيم الكبير ، هذه الدقائق لأنه مما لا مشاحة فيه ،

أنه هو الموقف الأعظم للشرق ، وان طريقته ستزداد انتشاراً ، ومبادئه ستطبق في يوم من الأيام الشرق بأجمعه ، فيسأل الخلف عن أحوال حياته ، ويستقصون عن خواطره ، ويجدون في جمع آثاره ، كما نرى الاور بين اليوم يحرصون جد الحرص ، على اكتشاف أقل شيء يعزى الى عظيم من عظمائهم ، سواء من خير أو أشر . ومن غريب ضرائب البشر أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم في حياتهم معشرا ما يحرصون عليها بعد ذهابهم ، وكنت أسأل مرة مارسيل كاشين ، وجان لونغه ، وجانعة من رؤساء الاشرافيين الفرنسيين ، عن جوريس نابغة السوسيايست في هذا العصر ، فبعد أن حدثوني عنه ساعة قالوا لي : « لم تكن تقدره قدره في حياته كما تقدره قدره اليوم » وأظن الحال كذلك مع رنان ، ومع فيكتور هوغو ، ومع سبنسر ، ومع بشارك وجيع الأعاظم . فان أقدارهم تزداد بالوفاة ، والولع بآثارهم يتضاعف مع تقادم العهد . وهكذا شأننا مع جلال الدين ومحمد عبده ، وغيرهما من كبار المصلحين ، كلما تقادم عليهم العهد ، حرص الناس من آثارهم على اللفظة الشاردة ، والكلمة الفاردة ، ليكتبوها عنهم بماء الذهب . ولجمال الدين تاريخ للافغان ، ومقالات متفرقة كان عندي منها مجموعة ، سطا عليها لص علم ، وآخر ما نشر له ، رسالة الدهريين التي سبق ذكرها . وبالجملة فلم يكن يحفل بوفرة التصانيف ، وإنما كان مؤلف أم ومصنف مالك .



ومن ترجم السيد جلال الدين ، العلامة غولد سيهر المستشرق المغربي المشهور ، شيخ المستشرقين في العلوم الشرعية ، وصاحب التصانيف العديدة . فقد رأينا له في دائرة المعارف الاسلامية ، المحررة باللغة الفرنسية ترجمة خاصة بالمرحوم السيد جلال الدين ، جاء فيها ما ترجمته :

« السيد محمد بن صفر ، من أعظم رجال الاسلام في القرن التاسع عشر ، كان بحسب رأى براون فيلسوفاً ، كاتباً ، خطيباً ، صحفياً . وقبل كل شيء ، كان رجلاً سياسياً يرى فيه مريدوه وطنياً كبيراً ، وأعداؤه مهيجاً خطيراً . وقد كان له تأثير عظيم في حركات الحرية ، والمنازع الشوروية ، التي جددت في العشرات الأخيرة من هذه السنين ، في الحكومات الاسلامية وكانت حركته ترمى الى تحرير هذه الممالك من السيطرة الاوربية ، وانقاذها من الاستغلال الاجنبي ، والى ترقية شؤونها الداخلية بتأسيس ادارات حرة .

وكذلك كان يفكر في جمع هذه الحكومات بأجمعها ومن جلتها إيران الشيعية ، حول الخلافة الاسلامية . لتتمكن بذلك الاتحاد من منع التدخل الاوربي في أمورها . فجمال الدين بقلبه ولسانه ، كان أصدق ممثلاً لفكرة الجامعة الاسلامية . وأسرتة الشريفة تنتمي الى الحسين بن علي بن أبي طالب بواسطة المحدث الشهير الترمذى ، فهو من أجل ذلك يلقب بالسيد . ثم يقول انه بعد اكمال تحصيله بكابل ، ذهب الى الهند ، ثم جمع البيت سنة ١٢٧٣ ، أو ١٨٥٧ و بعد اوبته من الحج ، دخل في خدمة دوست محمد خان أمير الافغان ، ورافقه في حصار هراة ، ولما توفي دوست محمد خان ، دخل في خدمة محمد أعظم الذي استوزره الى أن كان سقوطه واستيلاء شير علي خان على المملكة . فرحل السيد جمال الدين الى الهند (١٨٦٩) ومنها قدم القاهرة حيث أقام أربعين يوماً ، ومنها قصد الاستانة ، فأقبل عليه وزراؤها وعلمائها ، وأجلوا قدره ، وعرفوا فضله ، وعينته الدولة عضواً بمجلس المعارف وصار يلقي بعض الدروس في أياصوفيا والسلطان أحمد ، ودعى مرة الى القاء خطبة في دار الفنون على فوائد الصناعة ، فذكر النبوة من جهة الوظائف الاجتماعية (١) فأدى ذلك الى أن حسن افندي فهمي شيخ الاسلام رماه بالزندقة ، واضطر الى مغادرة الاستانة فأصداً مصر . فأجرت الحكومة المصرية عليه معاشاً شهرياً ١٢ ألف غرش بدون أن تكلفه إلقاء درس خاص ، وإنما كان يقرأ على حلقة من الطلاب في منزله ، واجتمع حوله كثير من العطاش الى مناهل العلوم العالية الخ .

وذكر غولد سيهر سائر ما يعرف من أحواله مما حرره الشيخ محمد عبده ، في صدر رسالة الرد على الدهريين ، وما هو بمعنى ترجنتنا له في هذا الكتاب ، الا أنه يقول انه لما نفي من مصر الى الهند جعلوا اقامته بجيدير آباد الدكان ، وهناك كتب رده على الدهريين ، وانه قد زعم ويلفريد سكافن بلونت وهو مما لم يذكر غيره من مترجيه ، أن جمال الدين ذهب

(١) حقيقة هذه القصة أن السيد يومئذ شبه الاجتماع الانساني بنجم أعضاؤه الصناعات المختلفة ، فبسه السنعة الفلانية باليد ، والفلانية بالرجل ، وهنذه بالعين ، وتلك بالأذن ؛ ثم قال وأما الرأس المدبر لهذا الجسم ، فهو اما النبوة أو الحكمة ، والفرق بينهما أن النبوة وحى إلهي مصوم من الخطأ ، وان الحكمة وضع بشري قد يخطئ وقد يصيب . وكان حسن فهمي افندي شيخ الاسلام يومئذ ، ناقلاً علي الأفغاني قراراً سابقاً في مجلس المعارف ينال من رزقه ، فانتبه فرصة هذا الخطاب ليقول ، ان الأفغاني جبل النبوة من جهة الصناعات

من الهند الى أمريكا ، وانه منها جله الى لندن سنة ١٨٨٣ ..
 وذكر غولد سيهر مناقشة جمال الدين مع رنان ، في أمر قابلية الاسلام للعالم ، فقال
 ما يأتي بالحرف :

« وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذاً أبواب المراسلة ، فنشر فيها مقالات
 ممتعة ، عظيمة القيمة على السياسة الشرقية ، التي كانت تتنازعها انكلترة والروسية ، وعلى
 أحوال تركيا ومصر ، وعلى معنى حركة المهدي السوداني . وفي ذلك الوقت جرت بينه وبين
 انست رنان ، المناظرة التي أساسها محاضرة ألقاها رنان في السوربون على الاسلام والعلم .
 جمال الدين أراد تفنيد مزاعم رنان بعدم قابلية الاسلام للتوليد العالمي ، وذلك في مقالة
 بجريدة « الدبا » ترجمت أيضاً الى الألمانية . ثم بعد ذلك بقليل ، ترجمت محاضرة رنان ،
 مصحوبة برد من قلم حسن افندي عاصم الخ » .

ثم ذكر غولد سيهر العروة الوثقى ، وكيف شددت الحكومة الانكليزية بمنعها من
 أول عدد صدر منها من الدخول الى مصر والهند . وقال انه سنة ١٨٨٥ ، بالرغم مما اشتهر
 به المترجم من عداوة انكلترة ، داخله الانكليز باشارة المستر بلونت في أمر إيجاد حل لمسألة
 المهدي السوداني ، ولكن لم يقترن شيء من ذلك بالعمل . ثم زعم أن الشاه ناصر الدين
 دعاه بالبرق سنة ١٨٨٦ الى حاضرة ملكه طهران ، وأكرم مشواه وبالغ في الاحتفاء به ،
 ولكن خشية الرقباء حلت جمال الدين على الاستئذان من الشاه والذهاب الى الروسية ،
 حيث أقام مدة وصارت له علاقات كثيرة ، وان لقاءه للشاه في منيخ كان في المرة الثانية
 ودعاه هذا الى الرجوع الى طهران ، وذلك سنة مجيئ الشاه الى معرض باريز (١٨٨٩)
 وذكر غولد سيهر أن سبب الفتنة بين جمال الدين والشاه كان الصدر الأعظم ميرزا علي
 أصغر خان الملقب بأمين السلطان ، نفاسة على جمال الدين بالمكانة التي أحرزها في ايران ،
 وان جمال الدين التجأ الى مقام عبد العظيم الذي هو أشبه بحرم من دخله فهو آمن ، وأقام
 به سبعة أشهر والناس تتردد عليه ، الى أن أرسل الشاه كتبية . . . فارس ، اخترقوا حرمة
 الحرم وأخذوا السيد منه عنوة ، وساقوه مكبلاً بالحديد الى خانقين (١) .

ثم استوفى بقية خبره ، وكيفية معاناته لحكومة الشاه ، ثم مجيئه الى الاستانة ،
 وموته فيها على الوجه الذي حررناه .

الاسلام والجنود السوداء

مقالة روجر لابلون والتعليق عليها

للشيخ
مكي بن عبد الله

- ١ — الاسلام الاسود
- ٢ — الاسلام عند السنغاليين
- ٣ — الخلاصة
- ٤ — الجنس الاسود والاسلامية

انه مما يجدر بأن يطلع عليه الشرقيون عامة والمسلمون خاصة ، ما يصدر في أوروبا في الأحياء من الكتابات المتعلقة بهم ، والتصانيف الباحثة عن مصيرهم ، والمقالات المصورة لأحوالهم وشؤونهم بلون مخيلات الكتاب الذين حرروها ، الناطقة عن هوى الأحزاب التي ينتمي هؤلاء الكتاب اليها ، بحيث يعرف منها الشرقي أو المسلم أو المستضعف المغلوب على أمره كائناً من كان ، ماذا يطبخ له في الخفاء ، وماذا يدس بحقه تحت الستار ، وماذا يدبر عليه بدون علمه مما لا يطلع عليه الا في الندرى ، وما هو رام الى ادامة استغلاله ، والاحتياط من وراء اساره ، وتأمين رسفانه الأبدى في سلاسل العبودية . فن هذا القليل وما نوردته مثالا ، مقالة مشبعة ظهرت مؤخراً في مجلة من أشهر المجلات الفرنسية هي مجلة باريز Revue de Paris في عدد أول ابريل سنة ١٩٢٣ ، لكاتب فرنساوي اسمه روجر لابلون^(١) عنوانها « الاسلام والجنود السوداء » كشف فيها النقاب عن جميع ما ينوي بعضهم في حق المسلمين الذين تحت نير الافرنجة عامة ونير الفرنسيين خاصة ، وتوخي عدم حصر ذلك في الميدان السياسي والاداري ، بل تجاوزه الى الميدان الديني والاجتماعي ، مما لا يجوز التهاون به ولا الاعضاء عنه ولو لأجل العلم به على الأقل . وقد جرت عادة المضللين والمهاككين ومخدرى الأعصاب من الاوربيين ، عندما يتحدثون انسان بشأن مقالة

(١) راجع الصفحة ٣٠٦ من هذا الجزء

كهنه أو مصنف من بابها ، أن يكون جوابهم أبداً بأن هذه هي آراء أفراد ، لا يؤبه لها ولا يلتفت إليها ، وليست الحكومات المستعمرة لتقيم لها وزناً ، وكلمات كلها من هذا النمط ، فليحذر الشرفيون وجميع المسلمين من قبول هذه الأقاويل ، والاسترسال الى هذه التموهيات ، لتلايندبوا عاقبة سذاجتهم وحسن ظنهم . ان المبادئ والآراء التي في المقالة الآتية تعريها ، وفي مئات بل في ألوف من أمثالها الصادرة تباعاً في العالم الأوربي هي عقيدة حزب كبير جداً في أوروبا ، بل يمكننا أن نقول هي عقيدة السواد الأعظم من أهالي الممالك الاستعمارية ، لا يخرج عن هذه العقيدة سوى الاحزاب الاشتراكية ، والشيعوية ، وغلاة الراديكال ، ومن ند لعله من العلل من جمهور الأحزاب الأخرى المتوسطة والتميامنة ومن يليها ، وذلك كعالم كبير طاهر الوجدان ، أو فيلسوف عامل واسع الفكر صادق الانسانية ، أو سياسي محنك راجح العقل يغلب ادراكه هواه ، ويعلم ما في هذه الأفكار من التهور وما يترب عليها من الاخطار ، وما يكون لاجرائها بالفعل من سوء العاقبة . وما عدا من ذكرناهم ، فالغالب من القوم هو على هذه العقيدة فلا ينبغي أن نخادع أنفسنا ، وأن تتغابي عن الحقيقة لذة بالتغابي كمن يكتم مرضه ، فانه اذا كان قبيحاً بالمرء أن يغش غيره ، فأقبح منه أن يغش نفسه . فمن الأمور التي لا يجوز أن نعش أنفسنا بها ، الذهاب الى كون هذه المبادئ الصارة بالشرق وبالعالم الاسلامي هي مبادئ الفئمة القليلة ، وأن تلك الحكومات غير ماشية بموجبها . والحقيقة أن ليس هناك الا الفرق بين عدو عاقل يمنعه عقله ، وتر بأ به رويته ، عن المجاهرة بمكنون فكره ، وافتلاق خواطر الأمم المستضعفة بصراحة نيته ، وعدو متهور غلبت عليه حرارة صدره وشدة طمعه ، حتى باح بكل ما ينويه لتأييد عبودية تلك الأمم المقهورة ، لا سيما المسلمين ، الذين يرونهم أشد خطراً من الجميع بما ينفت القرآن في روعهم ، من روح العزة وتهوين الموت ابتغاء الحياة الكريمة . وهذا القسم الثاني هو نظير روجر لابون هذا الذي نأتيك بمقاله معرباً بالحرف قال :

— ١ —

لمحة على حالة الاسلام الحاضرة

« نجد الناس في فرنسا ينظرون بدون قلق ، الى القلاقل والى حركات العصيان

البادية في العالم الاسلامي . بل ربما ينظرون اليها مع شيء من الشبهة أو السخرية ببعض جيراننا ، الذين لا يوصفون بخلوص النية ، ولا يكرهون أن تشدد وتمتد عندهم هذه الحركات ، ويعتقدون أن مجرد الترف الى الشعوب الاسلامية ، وادعاء المحافظة على حقوقهم ، هما مما يزحج عنا نحن هذا الخطر الذي يتهدد غيرنا . ثم انهم لا يريدون أن يسمعوا كلام المتشائمين ، الذين تهجس في صدورهم علاقات الاناضول مع التونسيين والجزائريين . والمراكشيين ، والدسائس الجارية على الحدود الشرقية من سلطنتنا الافريقية . بل يقابلون مخاوفهم هذه بتصريحات الأتراك ، الداعية الى الركون والطمأنينة . ويعتمدون على الفشل الذي لقيه اعلان تركيا الجهاد في الحرب العامة بمعاونة المانية . ثم يسليهم الفرح ، الذي يديه لنا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة ، وينخدعون بكل سهولة بظاهر الشرقي ، الذي من شأنه كتمان سريرته تحت ستار الادب الغض ، والكياسة الزائدة . وينسون أن الاسلام المبني على قاعدة الخضوع للقوة الغالبة ، تصلح له الصراحة وسياسة الخزم ، أكثر من سياسة التودد والرمامة عن حقوقه .

نعم ان السكون الذي نرى رواقه الآن ممتداً على ممالكنا الاسلامية ، قد يصبو الخطة المتبعة عندنا ، لانه على ضد ما هي الحالة في الريف الاسبانيولى ، وبرقة الابطالية ، ومصر الانكليزية . ولكن النار نوشك أن نصل اليها ان كنا لا نريد أن نلتفت جهة الشرق الذي منه انبعثت الحرب ، والذي حوادثه الحاضرة ليست الامقدمات لما هو أعم وأطم .

سنة ١٨٩٧ أثبتت كوپولاني ودپونت Coppelani et Depont في كتابهما على الطرق الدينية الاسلامية ما كان من التأثير لاتصار الترك في تساليا ، فقالا ان الامم الاسلامية كلها ماتت طربا لبشائر النصر الذي أحرزه أبناء ملتهم . ولكن هذا الغليان لم يكن يومئذ ذابال . لان اوربا كانت يومئذ قوية ثابتة متحدة ، وكان المارد الروسي ملقيا بكله الثقيل على جميع العالم الشرق والاسلامي ، فلم يكن ليحجراً أحد من المسلمين على أقل حركة بالرغم من دسائس عبد الجيد ، ومن مظاهرات غليوم الثاني الولاية للاسلام في الارض المقدسة . أما الآن فقد تغير كل هذا ، فان أوربا قد ضعفت ، وجرأة الملقين قد تضاعفت ؛ والحركة القومية تعمل عملها في الشعوب ، وموسكو بدلا من أن تكون هي ذات اليد الضاغطة على المسلمين اذا هي التي تعضد هذه الحركة وتظاهر أمحبابها على التملص من التبر الاجنبي .

ان الاهتمام الذى يراقب به العالم الاسلامى حركات الثائرين من مسلمى آسية ، لاجل التخلص من ربة الغرب ، هو ارهاص لا يجوز الاستخفاف به . فان فوز شعب اسلامى على حكومة اوربية لا يخلو أبدأ من رد فعل يمتد الى أقصى البلدان عن مرزح المعركة ، فلو رأيت جرائد الاستانة أيام انكسار الاسبانيول فى الريف كيف كانت تهمل وتكبر ، وتنتشر فى صفحاتها الاولى بشائر نصر المراكشيين المسلمين ، وخرائط ميادين الحرب ؛ لفضيت العجبت ، وانك لترى أقل اضطراب يقع فى برقه أو تونس أو سورية أو الهند مبالغا فيه أشد المبالغة فى الصحف التركية .

مع ذلك سياسة محاسنة الاسلام لا تزال ماشية ، على ما فيها من تضليل الافهام . ونبد التصائح المبنية على التجارب ، ولا يبرح بعضهم معتقدين أن لا خطر من هذه السياسة ، وان كان ثمة من خطر فيكون على جيراننا فقط . ولقد اشتدت مجارى الحب والبغض بعد الحرب ، الى حد أن أصبح الانسان يرى الصواب فى عدم اقتحام غمرتها ، وبدلا من أن يبين الخطأ الفظيع الذى دل عليه الاختبار الطويل ، تجده يجترئ بالتعديل الخفيف ، منتظراً أن تأتى الحوادث بما يرد حرارة تلك الاهواء .

وانتا فى هذه الدسائس التى يوشك أن يصل اليها اذاها ، نحس بتأثير برلين ، فهناك النادى الشرقى المؤسس سنة ١٩٢٠ ، تحت حماية مجلس برلين البلدى والجنرال لود ندورف ، يصدر جريدة لواء الاسلام بالعربى والتركى والفارسى ، التى الغاية منها بث الدعوة ، وتفسير حوادث اوربا وآسية بالشكل المناسب . ويضاف الى هذه العوامل الناشئة عن حالة الحرب ، عوامل أخرى للهيجان ، هى غير واردة توأ ، بل هى من فطرة الاسلام نفسه . فقد تكرر مراراً أن ديانة النبي تحتم على أتباعها الاستسلام للقوة ، وأنها تجعل القوة خاصة الهية تجب طاعتها ولو كان صاحبها كافراً ، فالقوة من الله ومن ذا الذى يقدر أن يناهض قوة الله .

وان هذا المشرب المخالف لديدن الاوربيين ، الذين يندفعون بعامل العاطفة ، هو السبب الوحيد فيما نجده من انقياد أشد الأمم الاسلامية للفتح الاجنبى . واكثر ما يحدث من

الاغلاط في سياسة هذه الأمم نائى عن الجهل بهذه الحقيقة،^(١) فالاسلام لا يخضع بفطرته الا لسلطة القاهرة . والسلطة والعلاء عنده توأمان . وعند ما كانت أوروبا متحدة وكان هناك ما يسمونه بالمجتمع الدولي ، كانت مكانة أوروبا فوق أن تنازع ، وكانت الشعوب الاسلامية واحداً بعد واحد تلقى السلاح ، ولم يكن ثمة منها الا بعض حركات عارضة ، ونورات منحصرة ، فكانت قوة التأثيرين ، من مهدي وزعيم لا تنبسط ولا على جميع القبائل المجاورة . ولما جاءت الحرب الكبرى ، كنت ترى بنجايي لاهور ، وهنود البنغال ، وكافنبور ، ومصري وادي النيل ، والاعراب ، والبرابر ، والمراكشيين ، والبابا^(٢) يتجنسون تحت رايات دول الحلفاء ، وان مليوناً ونصف مليون مقاتل من المسلمين ، قاتلوا بزيد السالة عساكر خليفة استانبول وقبصر برلين . وهذا النفوذ التركي الذي يعدونه الآن عنصراً ضرورياً للنظام والسكون في العالم الاسلامي ، لم نجد له أدنى دور يذكر في الحرب العامة ، ولا استجلب للألمان أدنى حليف من المسلمين ، ولا أحدث أدنى مشاققة للحلفاء . بل تبارى المشايخ في مراكش والمغرب ، على نشر الفتاوى المضادة لابناء ملتهم من الأتراك . فلما أمضيت متاركة مودروس ، ووقف جيش الحلفاء الظافر عند الدانوب ، وجيش الانكليز عند الفرات . كانت ديار آل عثمان تموج بالعساكر الاسلامية المقاتلة تحت ألوية الحلفاء ، وقتوى شيخ الاسلام ودعوة الجون ترك لم يسمعها أحد . وكان الشرق كله يتوقع أحكام أوروبا التي أبطأ صدورها ، وكان موطناً نفسه على الطاعة ، لكن لم يطل الأمر حتى انصرفت الجيوش ، وظهر الضعف والتردد في عزائم الحلفاء . فعادت الحركة الى الشرق وعاشت آمال أهله ، وعرفت ذلك احدى جرائد انقرة بقولها : « ان أوروبا حل بها الوهن بسبب التنازع ، ويد الله أخذت على أيدي الصليبيين الغالبيين ، بينما كانوا على وشك اغراق المؤمنين بسيلهم » فنشط الاسلام ، ونزعت تركيا ومصر والعراق وأفغانستان والهند الى الثورة ، وعجل في ذلك التحالف مع البولشفيك ، وشعرت الدول الغربية على أثر الخسائر التي أولدتها الحرب بخور القوى ، وبال حاجة الى مداخلتها التأثيرين في أمر الصلح ، وجنح الجميع الى الموادة . فانكثرة مالت الى الرفق بافغانستان وقارس

(١) أى كون الاسلام عبداً للقوة

(٢) جبل من أوائل بلاد السودان يتزلون بين صحراء افرقية من الشمال وأعلى السنبال من الجنوب

والعراق . وفرنسا أبدت التساهل في كيليكييا . وإيطاليا سلكت مسلك التؤدة في طرابلس الغرب والباينة . فسكنت الأمور وهدأت الأحوال ، ولكن سقط جاه أوربا في نظر الاسلام وتشجع الثائرون . ورأيت هذه الثورات بأجمعها مطبوعة على غرار واحد ، فإنه يوجد على رأسها دائماً بعض مفكرين ، ينحون بزعمهم المناحي الغربية ، آخذين ببعض معلومات قرأوها ، وأسأت هضمها عقولهم مع قلة الخبر وشدة الكبر ، ثم من تحتهم أمة جاهلة ليست على سوية واحدة ، ذات أخلاق حسنة ، لكنها لا تحسن شيئاً غير اظهار احتياجها الى النظام والسلام . على أن لها من يثير نأثر عصبيتها ، من المشايخ والمرابطين المستولين على العقول والافتدة .

وفي مصر ازداد عدد المعلمين من أطباء ومحامين ومهندسين ومهنيين ، ممن يريد تحرير بلاده ، وينتظر أن يحل محل الانكليز الموظفين ، فتخرج بذلك مركز انكلترة . وما لاشك فيه ؛ أن مبادئ الوطنيين جديدة بالاحترام ، لكننا نراهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الاحتلال الانكليزي ونجدهم متمسكين بكلمات فارغة غير متوقفين عن انتقاد الأحوال الضرورية التي هي بنات التجربة ، ولا متجنبين أخطار التعصب وعداوة الاجانب ، بل مجتهدين في تلقين مبادئهم هذه ذلك الفلاح الذي ترى يبيع قطعه ، ودائنين في اثارته ، على ادارة ذاق بها طعم الراحة والسعادة .

هذا هو تاريخ الحركة المصرية ، وهذا ما يمكن أن يكون غداً سير حركة الاستقلال في بلدان تهمنا أكثر من مصر . فإن المسئلة الوطنية القومية قد بدأت تنمو وتتقوى عند جميع شعوب الشرق ، لا سيما العرب . ومن العيب أن تتجاهل ذلك ، ونحن الآن بعد مضيّ مائة سنة على فتحنا افرريقية ، أخذنا ندرك الخطأ الذي ركبناه ، في طريقة ضمنت لنا الفتح الحربي والفوز السياسي ، لكنها أهملت الفتح المعنوي الذي كنا نراه من القسم المستحيل . ومن اهمال هذا الفتح المعنوي ، تأتي المتاعب كما اشتد الهيجان في العالم الاسلامي . ففي الجزائر بالرغم من الصداقة والأمانة اللتين أظهرهما الجيش الوطني أثناء الحرب كانت نتيجة انتخابات ١٩١٩ مما يوجب قلق الفكر فان السهامة ألق وطني ، الذين آتيناهم حق الانتخاب بموجب أمر ٤ شباط ، رشحوا بأجمعهم كل من عرف بيبغض فرنسا ، وكان

من جامعة الأمير خالد^(١) وكذلك الشبان ، الذين حصلوا العلم في مدارسنا وتلقوا تربية أوربية ، كانوا أشد الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين . فاما العامة ، فهي باقية بعيدة عنا جداً من الجهة المعنوية ، ومنذ خفق العلم الفرنسي فوق مرسي الجزائر ، تكونت بين هذه الأمة وثام لم تعرفه من قبل .

لقد عظمت الأغلاط التي ارتكبتها ولاية الأمور الذين تسلموا مقاليد الجزائر ، بالغائم العمل بعاتات البربر وعرفهم القديم ، وحلمهم طراً على شريعة القرآن . ومن المسموع ، أنه كان في ذلك الوقت ٨٠٠ ألف بربري غير مسلمين ولا مستعربين . قالولة من الفرنسيين مراعاة للشرط الذي وقع عند تسليم الجزائر ، من عدم مس الشعائر الاسلامية ، تجنبوا الى حد المبالغة ، الاخلال بكل ما يخاف هذا الشرط ، وظنوا أنه صار من واجباتهم حل البربر على أحكام مخالفة لعاداتهم وعرفهم . وبدلاً من أن يجعلوا هذه العادات القديمة الباقية للبربر من عهد الرومان قوانين مرعية نافذة ، عدلوا بهم عنها الى أحكام الشرع التي بأيدي القضاة والمرابطين ، وهكذا أوجدوا وحدة دينية قومية ، عجز فاتحو شمالي افريقية^(٢) منذ ١٢ قرناً عن إيجادها . ولقد دخلت الاهواء والعواطف في هذه المسئلة ، فلم يبدأ احتكاكنا بالاسلام ، حتى جعل الاسلام يستفيد من أصحاب العقول الشاذة عندنا ، ومن دعاة البع والأمور الغريبة ، الذين أخذ بعقولهم ما في حياة اتباع محمد من الكرامة والرصانة ، وما في الصلاة فوق رلام الرمل ، من السذاجة المقرونة بزعمهم بالوقار والهيبة . وكانوا يستحلون تلك الحركات البسيطة الجليلة ، التي تزيدها جلالاً وجلالاً في نظرهم ، هيئة برانس المسلمين أثناء صلاتهم . نعم اشتغل هؤلاء المفتونون بحب العرب بالأمور الصورية عن الأمور المعنوية ، وتناسوا حالة العربي النفسية ، وما عنده من الكراهة لكل مخلوق غير مسلم ، وما هناك من عقيدة القضاء والقدر التي هي عقيدة الجنود ، والتي لا تتمزج مع الاحتياجات العصرية .

ان هؤلاء المفتونين بالاسلام ، الذين يبرون بأقطاره سراعاً ، يذكرون دين الرسول

(١) ابن الأمير الهاشمي ابن الامير عبد القادر

(٢) الفاهون المسلمون

بمزيد الاطراء^(١) وسنة ١٨٣٨ نهت جريدة « الدنيا » عن تنصير المسلمين بحجة أن ذلك يفقدهم صبغتهم المحلية ، وأن ذلك مخالف للمصلحة . وفي أيامنا هذه كاتب شهر^(٢) يلوم على تنصير البنات المسلمات في سان لويس (في السنيغال) ، بحجة أن الراهبات يفبرن لمن ملابسهن الوطنية التي هي أليق بهن . فأحكام كهذه مستعجلة ، لا تزال تقوى عاطفة الميل عند الأمة الفرنسية الى المسلمين ، الذين منهم عدد عظيم في تبعية فرنسا ، وتحول دون رؤية عيوب الدين الاسلامي ، المستورة بطواهرة الشعرية ، فلفظة اسلام ومغرب وحجاز وما أشبه ذلك ، كادت تكون ألفاظاً صوفية تأخذ بلب بعض الناس .

على أننا لا نكون هجمناً على الاسلام ، ولا تعرضنا لهذه الشعوب الاسلامية في عقائدها المحترمة اذا كنا ننبه الناس الى أخطار ديانته ، من جملة برنامجها الحرب المقدسة ، وعداوة غير المسلم ، والتوحيد بين الشرع الديني والقانون المدني ، مما يجعل الامتزاج صعباً . وناهيك أن الشرع الاسلامي بمنعه الزواج بين المستعمرين الأوربيين والنساء المسلمات ، قد وقف سداً دون كل اختلاط بين الفريقين ، مع أن الجنس اللاتيني هو غير الجنس الانكليز صا كونى ، فان الجنس الصا كونى حينما حل بأمريكا وزيلانده الجديدة واسترالياه لاشئ العنصر الأصلى هناك ، أما اللاتيني فهو يهوى الامتزاج مع العناصر التي يجدها أمامه ، فجيوش تراجانوس اللاتيني امتزجت بأقوام الدانوب وتكونت منها أهالى رومانيا الحاضرة ، وأما بربر شمالي افريقية الذين هم ذوو قرى مع اللاتين ، فلم يكن بينهم وبين هؤلاء امتزاج أصلاً ، بل تجدد الفروق تسع يوماً فيوماً بين الفريقين . كذلك ترى التقدم بطيئاً جداً ، في الأمم الاسلامية التي في شرق أوروبا وآسية ، لأن فقد حرية البحث يقضى على روح الانتقاد ، ويعزز عقيدة الاستسلام والرضى بأى شئ كان . لانكون أهنا الدين الاسلامي اذا بينا حالة التأخر التي عليها الأمم التي دانت به ، لاسباب اذا تركت وشأنها . فان الاسلام يعارض التقدم العصري بمحاجز قوانينه المدنية والدينية ، وحصون شرائعه الاجتماعية ، وما هناك من الأوامر والنواهي . فلو كان بربر افريقية يتبعون غير

(١) وذكر الكاتب هنا اسم رجل من هذا الفرسة دو كاسترى De Castries له مؤلف في الاسلام

(٢) ذكر اسمه وهو السيد آدم P. Adam ؛ في كتاب اسمه قرطاجنة Carthage

دين الاسلام لكان مركزنا هناك أقوى مما هو اليوم ، واذا قررنا هذه الحقيقة فلا يكون مرادنا منها الاقتداء برومة في حملها الأمم المغلوبة على قبول ديانة الفاتحين .

ان تلك الآراء الفاسدة المتعلقة بالاسلام ، هي عبارة عن استنتاجات غير صحيحة ، من مقدمات واهية صارت عند البعض حقائق كلية . ومن جملة هذه النتائج الباطلة ، كون المسلم لا يصبأ عن دينه . فهذه الفكرة مع خشية فوران التعصب مما هو وهم بحث ، جل رجال الحكومة الفرنسية في الجزائر منذ بداية فتح فرنسا لهذا القطر ، على معارضة مساعي جمعيات التبشير الفرنسية ، الرامية الى تنصير المسلمين . حتى انهم كانوا يجعلون حراساً على أبواب الكنائس لمنع المسلمين من غشيانها . وكان قيس عربي من سورية دخل الجزائر وصار له نفاذ عظيم بين أبناء جلدته^(١) فطرده السلطة الفرنسية من هناك . وبالجملة فقد حلوا الأهالي على الخضوع لأحكام القضاة القرآنية ، وتوقف بذلك سير حركة التنصير ، التي كانت قد بدأت بين البربر غير المتدينين . ثم لقيت مجاهيد الراعي جالبرت (Le Pasteur Galabert) في مدينتي القصور وبجاية ، ومساعي الكردينال لافيغري في افرقية لأجل التقريب بين الوطنيين والأمة الفاتحة حنراً شديداً وأصبحت تلك المشروعات على شفا السقوط ، ولم يفهم بعضهم فوائدها ولاغاياتها الانسانية ، بل كانوا من شدة خوفهم أن تكون حركة دينية ، يضعون العرافيل في وجه هؤلاء المبشرين ويطعنون في المنتصرين ، ويصومونهم بجميع عيوب قومهم ، مضافة اليها عيوب الأمة التي دخلوا في دينها فزعموا أن الرجال من المنتصرين هم من طبقة السكبرين المدمنين ، وأن النساء المنتصرات هن من الغانيات المهتكات ، وغاب عنهم ان الهيئة الاجتماعية الاسلامية مع ما هي عليه من شدة التستر ، فيها عيوبها ، وأن عيوب المنتصرين ، كان تحفّ جداً لوكثر سوادهم وصاروا جماعات . بعد أن مضى قرن على فتح فرنسا للجزائر ، تضاعف عدد الوطنيين فيها واضمحلت العداوة التي كانت بين العرب والبربر . وترانا لانقدر أن نعلم على أقلية غير مسلحة كما يعتمد الانكليز على القبط بمصر . ولهذا مثيل في مستعمرات هولانده ، التي صار فيها مركز هذه الدولة حرجاً ، فقد كان مسلمو الجاوى وبورنيو وسومطره لأول فتح هولانده تلك الجزائر ، خمسة ملايين ، فصاروا اليوم ٣٠ مليوناً ، ولم يكن للاسلام ثمة بادئ ذي بدء الا

تبع قليل ، فصار الاسلام في هذا الزمان سيد تلك البلاد . وتجد المسلمين هناك تحت ادارة فئة قليلة مستنيرة من ذوى الاطماع ، متحفزين لرفس وصاية هولانده الأبوية . فأما أرخبيل الفيلبين الذى أهله تنصروا لعهد الاسبانيول ، فان مطالبهم الاستقلالية بادية بشكل معقول بخلاف بلاد الاسلام التى تلاقى حركة الرقى فيها ، روح الفوضى والاختلاط التى هى من خاصيات الجماعات الاسلامية اذا تركت وشأنها . ان شبان الاسلام فى آسية الغربية ، يريدون أن يشبهوا قابليتهم للترقى بقابلية اليابان ، ويدعون أنهم يقدرون على ماقدرون عليه اليابان فى الأمور الاجتماعية والاقتصادية ، وينسون أن اليابان لم تكن لترقى بهذا الرقى العجيب لو بقيت مقيدة بأثقال العقائد القدرية ، ويففلون عن أن التجدد السياسى لابد أن يسبقه التجدد الاجتماعى .

ماعداء مدة قصيرة للأمويين فى اسبانية وللعباسيين فى بغداد ، لم يوفقى الاسلام فى وقت من الأوقات الى تأسيس مدينة خاصة به ، بل جميع أجيال أمة محمد لم تلاحق مجهودا يأذن لها بتوليد عقول كبيرة . بل ان الخصائص التى اشتهرت بها هى خصائص التدمير ، سواء للدنيات التى وجدتها أمامها ، أو التى حصلت فى داخلها . ومادام السيف فى يد الاسلام كان الاسلام قادراً أن يجرى أحكامه ، فلما قضت الأيام بأن تصحب قوة السيف قوة أخرى هى قوة العلم ، سقط الاسلام . واليوم لأجل أن يزحزح نير الغرب عن عنقه ، نراه يدرك قيمة العلم ويقدر قدر الثقافة الأوربية ، ولكن أكثر ما يريد أن يأخذ من أوربا هو صنعة السلاح . ثم ادع لم أن صناعة الأدوات الحربية لا تكفى ، عاد يطلب الاسلحة المعنوية فصارت المطبوعات للسلم سيفاً ذاطبع آخر يستله فوق رؤوس غير المؤمنين . وتجد الجرائد الاسلامية تتكاثر بمصر ، وتركيا ، والهند ، والجاوى ، والمستعمرات الانكليزية والفرنسوية وكذلك جرائد أخرى تصدر فى الولايات المتحدة ، والبرازيل ، والارجنتين ، عربية سورية وأرناؤوطية . وفى برلين يظهر لواء الاسلام ، وفى باريز ولندن ورومة تصدر جرائد اسلامية جديدة أيضاً ، تبحث فى الشؤون الاسلامية . ومنازع هذه الصحف تختلف باختلاف المراكز التى تصدر فيها ، جرائد الشرق وجرائد أميركا وبرلين تمتاز بشدة المهجة وفرط اللعناء ، وأما جرائد العواصم الأخرى فزيتها ، لطف المهجة وبراعة الطلب والكلام المعقول ، ولكن الهدف واحد ولو تنوعت الأساليب ، وهذا الهدف هو تقوية روح

التكافل بين الأمم الاسلامية ، ونشر الاسلام وتحرير أبنائه وزرع بذور الشفاق بين الدول الغربية لأجل تبشير فوز المشرق .»

— ٢ —

الاسلام الأسود

قال بينغر Binger : ان درجة حرارة المسلم الأسود هي على قدر ظاهر لونه ، فالعصية الدينية العميقة التي تجدها عند المغاربة والأقوام السامية الأصل ، الساكنة في جهات نهر النيجر وبحيرة تشاد ، لا تجدها عند المسلمين من أبناء اللون الأسود ، مثل البامبارة Bambara والسيره Serès والبورو Boros ، الذين عندهم تساهل عجيب في ممارسة شعار دينهم . وماعدا حركات محدودة من آثار دعوة المرابطين ، ومن اجتهادات الحاج عمر واحد وبين السنغاليين والبولي Fulbès ، والسونينكة Soninké ، الذين فيهم شيء من الدم البربري ، لم تصادف في افريقية السوداء حرباً دينية ، ولا مقاومة أصلها عقيدة القضاء والقدر .

وان عقيدة السنة والجماعة في افريقية الغربية ، مختلطة عند الأهالي مع عاداتهم القديمة ، ومع الأوضاع الفتيشية كالتلسم والرقى . وقد أورد بينغر مثلاً على ضعف حرارة المسلم الأسود قضية ساموري ، الذي بالرغم من كونه مسلماً دينياً ، أكل بدون نحر ج من لحم ثور ذبحه العكر السنغالي ، على شكل يخالط الأوامر القرآنية ، فقتل هذه المخالفة تعد أثماً كبيراً عند مسلمي الشمال . ثم ذكر بينغر مثلاً آخر وهو أنه كان أسود مسيحي يظهر الاسلام أحياناً ليستفيد من الرخص المعطاة للمسلمين في عيد المولد النبوي أو العيد الكبير .

فهذا الفتور في تمسك الزنجي بديانته يتمسك بها بأقصى الشدة ، الساميون والتورانينون ، يعضده بعضهم دليلاً على انحطاط عقل الزنجي وفقد قوة التمييز عنده ، والصحيح هو غير ذلك . بل الزنجي رجل حلیم ، واسع المشرب ، سهل القيادة ، قريب المأخذ ، مع حسن صادق ومزعم علمي ، وميل الى الخير يجدر بإبناء ملته من البيض والصفير أن يقتدوا فيه به . وهو يمتاز بعدم التشدد في إقامة شعائر دينه ، وبالتساهل مع أبناء الأديان

الأخرى . وضرته السليمة تمنعه أن ينظر الى الأبيض نظره الى رجل ذاهب الى النار ، بل هو يرى الأوربي من الرقى والتفوق ، بحيث لا يصدق أبداً أن مثل هذا الأبيض يمكنه أن يخطئ . ولاشك في انه بحسب ميله للانقياد والانطباع لو صار به قليل عناء ، لكان يتقبل دين سيده الأبيض ، الفاعح بلاده ، بشرط أن هذا الفاعح يدعو لذلك (١) وان كنت تراه يدين بالاسلام فهذا لظنه أنه ينال بذلك رفعة ، مع أنه أولى به أن ينتصر اذ الأوربي عنده أعلى من المسلم ، ومهما كان يرى من عزة المسلم ، فهو يعلم أنها ليست شيئاً بالقياس الى عزة أوربا .

وعليه فينبغي أن نعلم أن اسلام السودان هوسطحي قائم بصور ظاهرة فقط ، ولأجل تحليل هذه القضية التي لا توجد الاثمة ، زعموا وجود علل أخرى غير ذهنية الزنجي نفسه ، فذكروا تأثير الاقليم والعدالت والبيئات ، وقالوا ان البلاد الشمالية من الكرة هي غير مساعدة على انتشار الاسلام ، لأن طول النهار المفرط وقصر النهار المفرط يحدنان اختلاطاً عظيماً بعلم الليقات القرآني ، فصلاة الظهر وصلاة العصر تختلطان مع صلاة المغرب وصلاة العشاء هناك ، فيتطرقى الشك الى قلب المؤمن . ففي أواسط افريقية الحالة أيضاً هي مشابهة لتلك الحالة ، فالأنهار والشجر الكبار التي يعد بها القرآن المؤمنين ، هي في هذه الأصقاع من الكثرة بحيث يصبح هذا الثواب لاقيمة له . فالاسلام لأجل نجاح دعوته محتاج الى صحارى واسعة تتجلى بها عظمة الله تعالى كصحارى آسية الوسطى ، أما في خط الاستواء فالاسلام مركزه قلبي ، لأنه ينحصر ثمة في الآفاق الضيقة بين الغابات الملتفة ، حيث يصعب على المؤمنين معرفة القبلة ، فيعدلون عن شعائر الدين . على أنه مهما فرضنا كون شعائر الاسلام سليمة في الظاهر نتساءل ، هل يوجد لنا مصلحة في تمكينه يمتد وينتشر بين هذه الأقوام ، لايل في أن نعترف به ديناً رسمياً لمن دان به منهم . سيحصل لعمري في غربي افريقية ماقد حصل في الجزائر ، ويمتد الاسلام وينتشر بسببنا (١) وتحت حاية أسلحتنا عند أقوام أشداء لم يرالوا منذ قرون يرفضون الاسلام ، الذي يأتيهم به تجار الرقيق من العرب ويحبطون فتوحاتهم الدينية والعسكرية . ونحن كلما أوغلنا في تلك الديار ازداد الاسلام بسطة . وقد أرادوا تأويل ذلك بأسباب عديدة منها ، كون العربية لسان الرسول القرشي هي لسان التجار الجائلين بتلك الأقطار ، ومنها أن مبداي الاسلام تطابق عقيدة

الاستسلام للقدر التي عليها الزنجي ، ومنها أن هذا يميل الى بساطة الاعتقاد وتجذبه سذاجة الشعائر ، وقالوا ان ممارسة هذه الشعائر ، سهلة طبيعية ، ثم هناك لذات النعيم التي يعجبها هؤلاء الطمع عامل آخر ، ومعلوم انه لأجل أن يكتب المرء مع السعداء يكفيه لفظ كلمة لاله الا الله ، فانه بها يصير مسلماً بدون أن يشعر . وعززوا هذه الأقوال بأن عقائد الأوربيين تنافي البساطة ، وان شعائرها صعبة ، وان آدابهم كثيرة التجريد ، وفيها تحريم كثير على اللذات الحسية ومنع لتعدد الأزواج ، وبالجملة فقالوا ان الاسلام وجد ديناً موافقاً للزنجي كما وجد موافقاً للعربي ، ومن العيب الاجتهاد في وضع دين آخر محلّه في تلك الأصقاع . فهذه الظنون التي صارت قضايا مسلمة لم توضع موضع الحك والنقد ، ولو محصت لثبت أن ليس بصحيح كون الاسلام هو العقيدة التي تلائم الأسود الخالص أكثر من سواها ، فان أقلية مهمة من السنغاليين قد أمكن تنصيرها . وبلاد الأوغانده صار أهلها كلهم نصارى . أما كون العرب والبربر يأبون كل دين غير الاسلام ، فلنا من القبط والحبشة مثال كاف لابنات كون الاسلام ليس ذا تأثير عليهم الى ذلك الحد .

ثلاثة أرباع الحبشة وهم جنس أمهاره Amharas ومعهم أقلية بربرية وزنوج ، لبثوا متمسكين بالنصرانية بالرغم من تلاطم أمواج الاسلام في جوانبهم . وأحسن من ذلك أن بلاداً بأسرها مثل هرر كانت أسلمت بعد ثورة الدراويش ، فعدت الى النصرانية بعد ظفر النجاشي منليك بالأمير عبدالله سنة ١٨٨٤ . ولقد بقيت الديانة المسيحية والقومية الحبشية متحدتين كما هو الشأن في الشرق ، بأن الديانة والقومية سيران معاً ، وحفظنا استقلالهما أكثر من ألف سنة . وبيننا قبائل بربرنا في الجزائر وأمم البويل Peuls والفولبي Fulbés ، الذين هم من جنس بربر الحبشة مشتقون هباء منثورا بسبب عقيدتهم الدينية ، الداعية الى الكسل والخمول ، رأيت الحبشة بأمانتها لدينها ، واقفة في وجه الفتح العربي . وتمكنت المسيحية ان تعيش في وسط هذه الأمم الزنجية والبربرية ، وان كانت شعائرها هناك لا تزال معقدة ، لأنها ممتزجة بعقائد يهودية ، وعادات ييزنطية ، فالاكليروس (طبقة القسيسين) له في الحبشة نظام صارم ، وهو تابع للكنيسة الأرثوذكسية في الزواج ، وعزوبة الكهنة ، ويخرج القسيس في المراسم الدينية بالاثواب المزركشة بالقصب بين قرع الطبول ونقر الدفوف . فالحبشي بهذه العادات هو بعيد اذاً عن سهولة الشعائر الاسلامية

وهو يصوم صوم المسلمين الشاق ، واذا بلغ الكبر يترهب في دير . فن هنا يظهر بطلان قول البعض « ان النصرانية شديدة التعقيد ، شاقة التكليف ، كثيرة المعاني المجردة بالنسبة الى مدارك الزنجي الساذج ، فهي تخالف ظروف حياته وتبطل نظام اجتماعه ، ولذلك فالأسود المنتصر هو أسود مقلوع من أصله ، حال كون الأسود المسلم هو مسلماً بطبعه . »

فانت ترى أن النصرانية قد رسخت عند الامهارة ، الذين هم من قبيل السينغاليين والبربر والبويل بدون أن يكونوا مقلوعين من أصلهم ، وتجدها تنمو هناك كما ينمو الاسلام ، وعقيدة أو توخيوس^(١) تتلوى هناك مع الزمان والمكان كالاسلام الذي يناسب الامم الفطرية مثل الأمم السوداء : واذا كان عمل المبشرين شاقاً في البلاد السودانية والاسلامية ، فانما هو لكونهم يريدون وضع عقيدة ام راقية جداً محل عقائد أقوام هم في أدنى الدرجات (تأمل) ، أما النصرانية ، كما كانت في القرون الأولى ونصرانية الحبشة الحاضرة ، فشرهما يمكن بسهولة نشر الاسلام ، الذي كان نجاحه بسبب المستوى العقلي الذي عند ناشره ، لا لسبب معالي عقائدهم (تأمل أيضا) .

لا شك ان الزنجي عند ما يدين بالاسلام يتقدم تقدماً محسوساً ، فبعض أرباب الخيالات الذين لا يحبون أن يروا الا المحاسن ، يجدون في الاسلام الامتناع عن المسكرات ، وتهذيب الاخلاق ، وترقية سوى الحياة ، واعلاء حال المرأة في الاجتماع ، فيشربون بالسعي في نشر الاسلام بين أمم الفتيش في مناطق خط الاستواء ، وكأن من طبيعة هذا العصر ، ان الناس يقدرون قدر المنهب بنسبة درجة نجاحه بدون تأمل فيما يجري اليه من العواقب ، فحمل الزنجي على الاسلام هو من باب الرفع الى أسفل ، وهو من قبيل المداواة بالطلاسم والرق ، مما هو وخيم العاقبة (تأمل) . ان اساس الدين الذي يدين به المسلم وتصطبغ به نفسه مهما كان حليماً ، والذي لا يعرفه الا ذوو الخلطة والخبرة الطويلة ، ان هو الا عامل ثورات مستقبلية ، من مصلحتنا ان لا نتركها تفعل مفعولها . حتى ان هؤلاء المتهوسين بالاسلام أنفسهم ، يقفون حيارى احياناً عند ما يرون من الجماعات الاسلامية ، تلك المطامح التي لا تقف عند

(١) عاش في القرن الخامس للمسيح وكان يقول ان ليس في المسيح سوى طبيعة الهية ، خلافاً لقول نسطور ، الذي كان يقول أن ليس فيه الا طبيعة بشرية وكما حرمت الجماع قول نسطور ، حرم الجميع الحقديوني قول اوتوخوس وقرر الطبيعيين ، ولكن القبط والحبشة تابعون لذهبه

حد ، وهاتيك الاحقاد المتأصلة في نفوسهم .

أما البعض الآخر فقد هالهم هذا النزوع الاسلامي الى الثورة ، فالتقدوا طريقنا في بناء المدارس والمؤسسات الاسلامية والترغيب في لغة القرآن ، وأوضحوا عظيم الخطر الناشئ من تضامن الشعوب الاسلامية ، ودهشوا من قضية ارسال معلمين جزائريين لتعليم العقائد الدينية في جنة وتمبكتو (١) وهؤلاء النفر يقولون انه لا يكون من باب مس كرامة الاسلام ، ولا من السعي في نقض مبانيه ، ولا من حجب الحرية الدينية اذا اتخذنا التحوطات اللازمة بزاء أخطار الحالة الحاضرة ، لا سيما ان هذه المساحات التي لا يجبرنا عليها أحد لا تقر بنا زلني الى الأمم الاسلامية ، وانه ليس للحكومة أن تدخل في حياة رعاياها الخاصة ، بل عليها أن تأخذ حنرها من ديانة ، هي فيما عدا بعض مبادئ نادرة فيها شيء من السباحة ، يمكنك أن تختصرها بهذه الجملة « قاتلوا الكفار واستعبدهم واطرحوهم في الارض » (٢)

فبين آراء المقاومين المتشدين وآراء التهوسين الميالين الى الاسلام ، يوجد مكان لعمل معتدل حازم ، وهو انه لا ينبغي أن يسار على سياسة اسلامية واحدة ، بل على سياسة متعلقة بالظروف وبالبلدان وبدرجة حرارة الاهلين ، فيمكن تنكب طريق قهر الاسلام بدون السعي في تأييده . واذا أيدنا في مستعمراتنا سلطة ادارتنا الملكية ، وجعلناها فوق الشريعة الاسلامية ، كان ذلك خطوة أولى في منع انتشار الاسلام بين الاقوام ، التي لم ترسخ قدمه بينهم . ولكن مادام القاضي الاوربي يرسل القضايا المعضلة ، التي يعجز عن حلها الى القاضي المسلم ، وفي المسائل التي يتناكر فيها الحصان ولا تمكن معرفة الصحيح بينهما ، يحيل القضية على اليمين كما في القرآن ، وهي طريقة بسيطة تكفي أولئك القضاة مؤونة التدقيق لتهيئة الحكم ، فنكون قد جعلنا للقضاء الشرعي نفوذاً ليس من الحكمة في شيء ولا سيما في هذا الوقت . كذلك نتحتم المراقبة الخفية للشايخ والمرابطين ، الذين بين الزوج المستعدين لقبول الدعوة الى الثورة ، فانه كما قال سنة ١٩٠٥ الحاكم العام بونتي Ponty :

(١) تمبكتو في أول السودان الغربي مشهورة ، اما جنة فهي مدينة بالسودان على مسافة ٣٠٠ كيلو متر الى الجنوب الغربي من تمبكتو ، وعلى ١٦٠ كيلو متراً الى الشمال الشرق من سيغو وسيكورو ، وأول أوربي دخل جنة هو رجل فرساوي اسمه رينيه كاليه سنة ١٨٢٨

(٢) أين وجد هذا ؟

زيارات الغرباء القادمين من المشرق بحجة الصدقات مضرة ، اذ هؤلاء يجوبون بلاد
السنغال والبول والسونينكه ، دعاة كثيراً أو قليلاً الى الجامعة الاسلامية ، ويدعون
انهم شرفاء ، ويلبسون عمام خضراء ، وكلما حدث هيجان اسلامي كانوا هم المشحنين لقراره ،
والمدبطين للاراجيف . ولا ننس حج مكة فانه في الآونة الحاضرة ، يؤثر تأثيراً مضراً بنا
بين رعايانا المسلمين ، ومع هذا ، فلبعض غافلون عن منع حج رعايانا الى مكة وعمما يحذنه
هذا السفر من أسباب تشويش اذهانهم ، لما يستمعون فيه من الأخبار الملققة عن وقائع
البلاد الاسلامية ، فتى أبوا الى ديارهم عادوا أقل ميلا لنا . فان الحاج يسمع في الحجاز
أبناء عن جميع العالم لم تطبع في صحيفة والاوربي مصور فيها بشكل ظالم غاصب (استغفر
الله ...) لا تحصى سياته والمسلم مصور بشكل غالب ظافر لا بد أن يأخذ بشاره . كما ان
الطوائل التي أحرزها بعض الشرقيين ترى هناك بالمبالغة والغلو ، ويتفاهلون فيها بعودة
الايام ، التي كان فيها العلم الاخضر منصوراً خفافاً فوق رؤوس الامم ، الغلو به . وهناك
المشعوذون المترنمون بنصرات الغازي (أي مصطفي كمال) واهلاكه الكفار كما أهلك
المسلمون قريشاً يوم بدر . وكل هذه الوقائع تبرز فيها قوتها الخيمية الشرقية بشكل رائق
رائع ، فيذهب الحاج من مستعمراتنا أمينا لنا ويعود غير ما ذهب ، بل تتبدل نفسه ،
ويصير مبتهجا بنصرة أبناء ملته ، وتقوى فيه روح التضامن الاسلامي ، فيفرح بفوز
أبناء محمد ، ويتمنى لهم الظفر النهائي . وبعد اياها الى وطنه يستحيل أن لا يلقي الى بعض
أهل بلده ولو نجحاً ما سمعه في مكة ، وحيث يكون نال لقب حاج فلا بد له من الاجتهاد في
اثبات أهليته لهذا اللقب ، هذ عدا ما يحمله معه من القصائد والجرائد والحماسيات التي
يوزعها على أبناء وطنه ، وان كان ممن يعرف الكتابة راسل من تعرف بهم من الحجاج
مكرراً لهم آيات الكتاب المقدس حول الحجر الاسود .

وينضم الى هذه التأثيرات السيئة نفوذ الطرق الصوفية فان دورها مهم . وربما كان لها
القول الفصل فيما لو هبت العاصفة المتهبته دائماً للهبوب في جو الاسلام . فان أتباع عبد القادر
الجيلاني ولى بغداد مالتون افريقيتنا ، وهم هؤلاء التيجانية ، الذين كانت لهم اليد الطولى
في ثورة السينيغامبيا عندما قام بها الحاج عمر . ولهم زوايا في بلماكو ، وبافولاب ،
وسيفو ، وجنة ، وتبكتو . ولهم وسيلة مع السنوسي في طرابلس ، فكل هؤلاء المتحمسين

دعاة ثورة وعداوة للاوربيين . لا ينكر أن بعض الطرق قد أفادتنا في الجزائر ومراكش وغربي افريقية ، وكان نفوذ رجالها السلمى موافقاً لنا ، وهؤلاء مثل الشيخ سيديا ، والشيخ سعدبو ، والمختار الكنتي ، الذين هم في موريتانيا (غربي مراكش) وبلاد النيجر . فقد كانوا معنا في فتح تلك البلاد ، ولكن مساعداتهم هذه هي نوع من الأعمال التجارية ، التي يريد أصحابها دائماً بقاء التوازن لأجل استدرار فائدته . وأما الخطر الأعظم ، فهو خطر الطرق الاسلامية التي مراكزها الأصلية في غير مستعمراتنا ، كبلاد العرب والعراق وطرابلس لأنها خارجة من يد نفوذنا .

هذه على وجه الاجال العوامل المضرة التي سلطتنا الافريقية معرضة لها . ولاتقاء ضررها وصف الناس أدوية كثيرة ، منها علاج جمع كل الآراء وهو نشر اللغة الفرنسية ، فهو أمر ضروري وهو رأى لوشانليه Le Châtelier الذي يقول : « يوم لا يبقى اللسان العربي هو لغة التجارة في افريقية ، لا يبقى خطر من جهة الاسلام لأن مدارسه تصير قفرة » . وهذا هو رأى بول برت Paul Bert الفسيولوجي المعروف القائل : « حل المسألة العربية هو في الكتاب ، وأتمنى أن أرى في كل قرية مغربية معلماً عربياً ومعلماً فرنسياً » وهو أيضاً رأى الرحالة قاتل أمور افريقية عالماً ينغر . وهو كذلك مشرب الكردنيال لافيجرى مؤسس جمعيات التبشير الذي قال : « لا حاجة بنا الى الدعوة لنفس الدين ، بل الحاجة هي الى التعليم والتمريض »

وإذا نظرنا الى درجة انتشار لغتنا في الشرق بين أولئك الأقوام والأمم المختلفة ، نأسف كيف لم نقدر أن نشرها في مستعمراتنا كما هي منتشرة في الشرق ، وأغرب منه أنه لو كان علما انتشر في مستعمراتنا بالسهولة التي انتشر بها في السلطنة العثمانية ، لربما كان أناس يحتاجون على ذلك قائلين ، يجب على حكومتنا أن تبقى متحايدة . مع أنهم يرون أن البعثات الفرنسية في البلاد الاسلامية ، التي كالأناضول وكردستان والعراق وفلسطين قد نجحت نجاحاً تاماً بدون ايراث أقل قلق في سلطنة آل عثمان الكريمة ، الرحبة الصدر ، وقد حصرت همها في تعليم لغتنا للروم والأرمن والكرج واليهود والمسلمين والكاثوليك ، وجميع هذه الأجناس التي جمعها في عالم ثقافتنا . ولم يثر ذلك في البلاد التركية ، ولا العربية ولا الفارسية شيئاً من العصبية التي خيف من اثارها في الجزائر . ثم هذه مصر التي هي

تحت الحكم البريطاني ، تعرف لغتنا كما تعرف لغتها العربية . أما الجزائر فأنها تجهل لغتنا تقريباً . ليس مقصدنا بهذا أن نوجد في مستعمراتنا نخبة علماء ومفكرين ، اذ يجوز أن ينبغ فيها أدباء راسخون ، وأرباب عقول سامية ، لكن يخشى أن يظهر من هم متعلمون نصف تعلم تكون لهم مطامع وماآرب (تأمل) إنما المقصد هو وضع لغتنا التي هي عامل مدينتنا موضع لغة أخرى ، (أى العربية) هي قاعدة ثقافة أخرى وفكرة أخرى ، ان خرض معرفة العربي على عمالنا في المستعمرات هو حسن ، لكن اغناءهم عن العربي تعميم اللغة الفرنسية كما في الشرق هو أحسن .

— ٣ —

الاسلام عند السنغاليين

تجد السنغالي في بيته كما هو في تابوره ، مرن الأفكار بعيداً عن الدين المشهود عند الجزائري والمراكشي ، اعتقاده بالخرافات أكثر من اعتقاده بالدين ، مهم الامندر بأمور معيشته أكثر من اهتمامه بالمذهب الديني . وترى أنه في جميع مواطن الحرب لم تغلح لدى السنغاليين دعوة الجامعة الاسلامية ، وقد احتك هؤلاء بالاسلام في البلاد العربية (١) ولم يحدث بذلك عندهم أقل انحراف ، بل بقي السنغالي بسيطاً ، طيب السريرة أميناً لرؤسائه ، ولم تؤثر فيه تحريكات شيوخ الدين ، الذين طالما أثروا بعساكر الهند الانكليزية وفر هؤلاء على أرضها ، فالسنغاليون لم يفر منهم ولا واحد الى العدو ، لا في سورية ، ولا في كيليكييا ، ولا في جميع الشرق الأدنى .

ان العرب والتورانيين يزدرون بالاسود ، وهذا الاسود يقابلهم على ذلك بالانفصال عن دياتهم عند ما يختلط بهم ، وهذا أمر واقع سواء في الشرق أو في شمالي افريقية . وترى السنغاليين في الاستانة والأناضول لا يدخلون الجوامع ، ولا يخاطبون المشايخ ، ولا المفتين ولا يحملون في حقائبهم أوراقاً مضرة ، ولا بطائق من وارد بلاد الاسلام متضمنة مدائح الفازي غالب الكفار . وان العداوة بين الأهالي والسود في شمالي افريقية وان لم تاخذ

(١) أى في سورية والأناضول والاستانة

شكلاً حاداً ، هي السبب الكافل عدم امتداد دعوة سياسية بينهم . وفي نفس السيفغال لا في الجيش فقط ، لم يمكن التعصب الاسلامي احداث أقل عدوان لفرنسا ، بل بالعكس ، الاسلام في تلك البلاد الى الورا لا الى الأمام .

على أنه اذا كانت سداجة هذا الجنس وسلامة عقولهم ، لا تجعلان في جيشنا خوفا من دعوة الجامعة الاسلامية ، فلا يجوز أن نهمل التحولات اللازمة لاتقاء روح سارية في أما كن أخرى . فالأطباء يعلمون أن أحسن واق من أمراض المستعمرات ، هو تعاطي الاسباب المانعة اظهورها ، فكما أن العمال في بلادنا الاسلامية يجب أن يعملوا منازع ديانة الأقسام الذين يولون عليهم ، كذلك القواد الذين دأبهم تعليم الجنود المسلمين يجب أن يعرفوا القواعد المبني عليها الاسلام ، وما ذا يوجد في أدمغة أتباعه . وعلى القائد أو الضابط أن يميز جيداً بين الاسود الذي هو مسلم حقاً ، من الاسود الذي اسلامه سطحي . فينبغي أن نعرف عناصر الاسلام المختلفة في ممالكنا الافريقية ، للتمييز بين العناصر القابلة منها للانثارة ، والتي هي غير قابلة لها ، ثم أن نعمل في السيفغال احصاء نجدده كل مدة للأجناس والأديان ، لنعلم تطورات الاسلام هناك ، والميول الروحية التي عند عساكرنا السيفغالية . ومن المهم أن نعرف ما هو اعتقاد الجزائريين بالسيفغاليين ، لأن هؤلاء في نظر أولئك ، هم القوة التي وكل اليها توطيد السكينة في شمالي أفريقية ، ولا ترى ذلك محدثاً عندهم أدنى غضب لأن من طبيعة المسلم أن يطبع دائماً القوة القاهرة ولا يحق من التدابير المتخذة بحقه ، والجزائري ولو كان يحترق الاسود ، ينظر بدون حقد ، بل بعين الرضى الى ترتيب نواير السيفغاليين وبالاجال المسلم السيفغالي في سلك الجندية لا يمارس فرائض دينه . وقد جرت العادة الى اليوم بان لا يعارض في أمر دينه كصوم رمضان ، والاحتفال بالأعياد ، واقامة الصلوات ، وأن يترك هذا كله لارادته . وكلما قل التعرض له في هذه الأمور كان خيراً . وكذلك لحظ أنه من العيب حمله على مراعاة فروض دينه ، أملا باستمالة المسلمين بهذه الوساطة ، فالمسلم أثناء الخدمة يفهم الضرورات التي تمنعه من أداء تلك الفرائض ، وهو يتعجب من اهتمام الأوربي بديانة المسلم أكثر من اهتمامه بديانة نفسه . انه من الواجب اذاً أن يراقب من العساكر السيفغالية من يفرطون في مراعاة شعائر

دينهم^(١) ولعمري ، أى فرصة أحسن من وجودهم فى الخدمة العسكرية لتعلم لغتنا ، إنها أحسن من كل المعلمين الذين يريدون ينقلوا إلى غرب إفريقيا . والذى حصل إلى اليوم من النجاح فى هذا الباب ليس بقليل فإذا كان الضباط فى الجزائر مضطربين أن يتعلموا لغة جنودهم ، فى السودان الضباط يتعلمون لغة جنودهم ، فهؤلاء مضطربون أن يتعلموا لغة الضباط ثم هناك ضرورة أخرى لتعلم الفرنسية ، وهى جهل الجنود أنفسهم ببعض لغات بعض لأنهم من أصناف وألسن مختلفة ، فلا حيلة لهم أن يتفاهموا إلا باللغة الفرنسية .

ومما جرت عليه القيادة ، اجتناب تكتيب الكتائب ، على صورة يكون فيها العنصر الإسلامى غالباً ، فتجد السنغاليين مشتتين بين الجماعات الفتيشية والمسيحية . وهالك على ذلك مثلاً : فى مدينة فيلبييل بالجزائر يربط الآلاى الخامس عشر السنغالى ، الذى عدده ١٧٠٩ جنود ، فتجد فيه ٥٤٢ مسلماً و١٣٢ مسيحياً و١٠٣٣ فتيشياً أو غير تابع لمذهب خاص . والتابور ١٣٩ الذى بمدينة الجزائر ، الذى عدده ٤٨٩ جندياً فيه ١٤٥ مسلماً و١٨٢ مسيحياً و١٦٤ فتيشياً ، فازدياد عدد المسيحيين من يوم إلى آخر هو ثمرة مساعى المبشرين والمؤسسات الخيرية . وتجد فى يسكرة (بالجزائر) راهبات مستشفى لافيحجرى يربن صغار السنغاليين . انه إلى يومنا هذا لم تدخل حكومتنا بصورة رسمية فى قضية تنصير السنغاليين ولا تزال مظاهرة الحياد فى هذا الموضوع ، لكن مع ملاحظتنا الوجهة السياسية فقط ، يحق لنا أن نسأل هل من مصلحة مستقبلنا سوق الجماعات الفتيشية إلى الإسلام أم إلى النصرانية وعلى كل حال ، فقد دلت التجربة فى الجزائر ، على ان المجرى الدينى الإسلامى دخل فى حكم هذه القواعد البديهية التاريخية التى يتلقاها الخلف عن السلف بدون أدنى تحريف ولا تبديل ، فعساكرنا السنغاليون ، مع كونهم غرقى فى بحر جماعات كلهم مسلمون ، لم يبدوا حتى اليوم أقل انجذاب إلى المحمدية . ولقد شهدوا مواطن حرية عديدة كان الهياج الإسلامى فيها شديداً ولم تنزع صدقاتهم ، مما هو جدير بكل تقدير ، وهو ما يبعثنا على الاكثار من تجنيدهم ، وعلى تأمين طرق مكافآتهم المالية ، واعطائهم رواتبهم فى أوقاتها انه عندما انتصر الترك فى ازمبر ، أشار الدكتور اسماعيل صدق بك أحد كبار الوطنيين المصريين إلى الحفلات التى اجريت يومئذ بمصر . والاجتماعات التى تداعت إليها

الأهالى على صوت الطبل فقال : « هذا الطبل ، يؤذن بان أبناء مصر يقفرون أن يحرقوا مصرأ ، مثلما حرر اخوانهم الترك بلادهم » .
 فنحن لنا الثقة التامة فى شعوبنا العربية الكريمة ، ولا نعتقد انها تتحرك بما يسوله لها المهيجون فى يوم من الأيام ، ولكن لا شك بأن أماتهم تكون أمنن ، اذا صارت مبنية على قوة ، لا يمكن الدعوة ، ولا الديانة أن تززعها .

الخلاصة

ان أحد المؤلفين البلجيكين المدعو المسيو كوليه Collet ، بعد أن أتبع له أن يدفع تدقيقاً عميقاً فى حالة تطور الاسلام ، فى الهند النيرلاندية ^(١) ألف كتاباً قال فيه : « ان التفاؤل الى حد التأميل بأنه يمكن احتكار قوة الاسلام الحيوية فى سبيل منفعة دولة أوربية هو حلم لذيذ ، لكنه غير مبنى الا على مطالعات كثيرة من ذوى العقول السطحية » .
 فهذه الكلمات هى ذات أهمية فى هذا الزمن ، الذى يظن فيه بعضهم ان التودد الى الاسلام هو العلاج الأفضل . ولقد سبقت ألمانيا الى هذه الفكرة ، لكن لا تصريحات غليوم الثانى فى الأرض المقدسة بصداقته للثلاثمائة مليون مسلم ، ولا سياسية برلين التركية لم تحدثنا أقل اضطراب فى مستعمرات الحلفاء الاسلامية ، ولا انضم شعب اسلامى واجد عدائياً الى ألمانيا ، بل جميع البلاد العربية انضمت الى الحلفاء ثم بعد المشاركة حاولت ايطاليا أن تعلن صداقتها للاسلام ، ووضع الدكتور انريكو انساباتو Enrico Insabato مصنفاً فى ذلك قائلا : « ان دولة غير مسالمة ، اذا عرفت أن تنهج خطة ولاء للمسلمين وتعطف عليهم ، أمكنها أن تصير صديقة لكل البلاد الاسلامية » فلم تلبث نتيجة هذا التأميل أن ظهرت بالعكس ، اذ بعد أشهر قلائل فسر زعماء طرابلس الغرب بحسب أهوائهم القانون السمح ، الذى جدت به عليهم ايطالية ، وطالبوا بالاستقلال التام ، فعادت عندئذ ايطالية الى طرق أخرى عبر عنها المسيو آماندولا وزير المستعمرات الايطالية بقوله : « أرجو أن يعمد العصاة الى المقاومة ليكون ذلك واسطة لتدوين القطر ، ولكن الحكومة لن تعاملهم كذئب قتل » .

وقد سارت في البانية الحوادث سيراً مشابهاً لهذا . ولا تنكر أن مبادئ المسيو انساباتو ، يمكنها أن توجد بين أمة أوربية والاسلام ، علاقات حسنة مبنية على حرمة متبادلة ، وعاطفة متقابلة ، لكن هذا يجب أن يكون مبنياً على فكرة نظام ثابت ، وراحة موطدة . وهذا هو رأى المستشرقين الحقيقيين ، الذين سبروا غور أفكار المسلمين بأقامتهم سنين طوالاً في بلاد هؤلاء ، نابذين الأغراض الشخصية والخيالات المرسلة بدون تحقيق ، فقد قال أحد هؤلاء : « ان القوة هي وحدها علة بقائنا ، وإذا أتينا بأقل علامة على نقص قوتنا ، فتحنا على أنفسنا باب الثورات » . وقال آخر : « نحن المال ، والسلاح ، والعقل ، والعدل ، فإذا خسرننا هذه المستعمرات نكون خسرنناها برضانا » . فهؤلاء المحققون الذين استبطنوا نايًا دخائل النفس المحمدية في غير الكتب والحكايات ، لا يستحسنون فرح الاسلام الفرنسي بنصرات الأتراك الأخيرة . فان جداول التبرعات التي جرى الاكتاب بها في الجزائر وفاس ودا كلر^(١) وناماتاف^(٢) لاعانة الترك الغالبين والأدعية في المساجد بفوزهم ، والتهاني التي وردت على أنفرة من ٣٠٠ مليون مسلم ، هذه كلها مقدمات لحوادث تالية . وكذلك حال هؤلاء المدققين ، ما شاهده من تأثير الوقائع التركية في تونس ، وصفاقس ، والقيروان ، وسوسة . فقد وردت برفية من المهديّة تفيد أن الشعور الذي كان يحصل من تلك المظاهر الحفيلة ، هو أن الشعب التونسي معجب جداً بشعب كالشعب التركي يأخذ حقه عنوة بقوة المدفع . أي أن التونسيين يطمعون ، بان يأخذوا هذا الحق قريباً بالواسطة نفسها . ليس عامة الوطنيين هؤلاء الساذجون طيبو السرائر . المقدرين قدر السعادة التي هم راتعون في بحبوحتها . والعارفون فضل الأمان والأطمئنان . هم الذين نحن منهم على حذر . بل ليس الاسلام نفسه ، الذي عرف أثناء الحرب العامة أن يعلى نفوس رعايانا هؤلاء ، الى أن تحملوا ما تحملوه من الرزايا الفادحة بصبر الأبطال ، هو موجب عدم ركوتنا . بل حزننا انما هو من تلك الفئة القليلة ، التي عليها مسحة التريية الأوربية ، والتنشئة الغربية ، الذين قرأوا ما هضمته عقولهم هضمًا سيئاً ، غلبت عليهم المآرب ، واستغواهم التعصب ،

(١) أحد موانئ النيفال

(٢) مدينة بحرية في ماداغسكار

وأحبوا وطنهم، ولكن أحبوا أكثر منه منافعهم الشخصية. فهؤلاء الشبان المسلمون لا يقلعون عن غيهم مهما جرى، ومهما أعطوا من الحقوق. ومهما أجرى معهم من التسامح، فلا يكون ذلك الا طريقاً لتوقيف الأوربي عند حده، وأخذهم مكانه.

ففي وجه التضامن الاسلامي، الذي يزداد كل يوم كلما ازداد نجاح اتباع الاسلام، نجد الحصن الذي كان الغرب يتمتع به بدأ ينهار، وعلاقات أوربا بعضها مع بعض تسوء. فاذا كنا لا نقدر على تلافى هذا النزاع الغربي، فعلى الأقل يجب علينا في وسط مستعمراتنا أن نوحّد الجبهة بإزاء المهيجين والمقلقين^(١) بتدابير عامة شاملة، ويلزم أن نمنع سريان العدوى الى الجيش، فان السكون الحاضر في مملكتنا الافريقية، لا يجوز أن يصرف أنظارنا عن مشاهدة الغيوم المتلبدة في الشرق.

ان صور أبطال الاسلام مائة أسواق مصر وبيوت فلاحى الأرياف، فهذه حالة روحية، قد تسرى الى مستعمراتنا لا سيما تونس شمالاً، وممالك بحيرة تشاد جنوباً، واذا نالت مصر استقلالها صارت مركزاً لتحرير الاسلام.

لا أحد يمكنه أن يتكهن على درجة هذه الحركة، لكن من راقب الحوادث الجارية تهيأ له الاستنتاج بأنه لا يجوز التفاؤل المفرط، كما لا يجوز التشاؤم بدون سبب. فالحالة تستدعي الاكثر ان وان لم تكن التهلكة محققة الوقوع، فعلى أى الأحوال يتعين حفظ القوة العسكرية التي لا يعتبر المسلم شيئاً غيرها، هذا مع الحزم والعدل، وبسط الأمان وتيسير المنافع المادية. انتهى

إدحاض الأباطيل والمفتريات

اعتنينا بتعريب هذه المقالة بحرفها حتى لا نترك مجالاً للكآبة، ولا محلاً للناكرة. وكنا نود لو تركناها كما هي تكفي بنفسها مؤونة الرد عليها، لولا أن يكون في الشرق لسوء الحظ، من يتلقى كلام كل أوربي تقريباً حقيقة رياضية، أو قضية مسلمة، ولولا أنه لا يزال عندنا من حسن الظن في هؤلاء القوم، ما يجعل التنبيه فرضاً، والتمحيص حتماً. نعم ان افتتان الناشئة من الشرقيين بعدل أوربا، وانصافها، ومعالي زعامتها، قد خف كثيراً بعد الحرب العامة عند ما تجلت عرائس الحقائق على مناص المذابح، وقشعت رياح الحوادث غيوم الأوهام، التي كانت متلبدة في الشرق، من جهة تلك الفضائل وهاتيك المعالي،

ولكن مع الأسف نقول ، انه لم تبرح لهذا المرض عندنا عقايل كافية للضرر ، وبقايا جازية للارتكاس في الخطأ ، والارتكاس في المرض ، فلم نر مندوحة من ادحاض ما في هذه المقالة من الأباطيل ، واطهار ما فيها من التناقضات ، لا أكثرانا بنفس محررها ، بل بكونها نظرية الأكثرين في قومه وأمثال قومه ، ولو كان بعضهم يكتبها والبعض الآخر يعلنها .

بدأ الكاتب بتخطئة الاوربيين ، الذين يشمت بعضهم ببعض عندما تقوم على فئة منهم ثورة اسلامية ، قائلا ما معناه : ان كل ثورة اسلامية هي خطر على جيع دول اوربا ، فالتى لم تصل اليها النار حالا تصلها فيما بعد . فهو من أنصار توحيد الجبهة الاوربية في وجه الاسلام والشرق أجمع . والحال أن هذه المسئلة غير محتاجة في أوربا الى تنبيه من حضرته ، بل هي قاعدة أساسية ماشية عليها الدول الاستعمارية ، منذ وجد الاستعمار ، وانبسطت يد الغرب الى الشرق . فانها مهما اختلفت هذه الدول وتناهدت في أوربا ، تقف صفا كالبنيان المرصوص في وجه الشرقيين ، لاسيا المسلمين منهم . ولو شئنا استقصاء الشواهد والأدلة على ذلك لم تكفنا المجلدات ، فلا نغني أنفسنا بالاستشهاد بتواريخ لانتهى وانما نقول اذا طرأ بعض الأوقات عوارض بسيطة تخالف هذه القاعدة الاستعمارية الكلية ، فتكون عوارض جزئية محدودة لأسباب مجربة لا مناص منها ، وضمن الدائرة التي لا تحل بالتضامن الأوربي العام في وجه الشرق ، وهو التضامن الذي لا يزال دستور الاستعمار الأعظم . مثلا : لما أسقطت فرنسا الحكومة العربية في الشام وطرقت الملك فيصل خلافاً للمعاهدات التي كانت بين فرنسا وانكلترة ، وبين هاتين الدولتين والغرب ، ارتفع عويل العرب الى السماء ، واشتدت مشاحناتهم لانكلترة ومطالبتهم لها بمنطوق المعاهدات ، وصادف أثناء ذلك ، أن مسألة العراق أعضلت وعز حلها ، فأرسلت انكلترة فيصلا الى العراق قياما بجزء مما تعهدت به للعرب ، وتوفيراً للال والرجال على نفسها ، لأنها بقيت تقاتل في العراق مدة سنتين بمائة وعشرين ألف جنسدى والنار لا تزداد الا اشتعالا . فكان نصيبها لفصل ملكا على العراق مخالفا لهورى فرنسا ، التي قابلت هذا العمل بعقد اتفاق مع الأتراك بشأن كيكيا ، وأعدت تلك الولاية الى تركيا بدون أن تستشير في هذا الوفاق حليفتها انكلترة . فعد بعضهم هذه السياسة من الحليفتين مخالفة لقاعدة التضامن الأوربي الاستعماري ، وليس

الأمر كذلك ، فان انكثرة لم يكن ليتمكنها أن تستخف تماماً باليهود التي قطعها للامة العربية ، والى حد أنها لا تفكر أن ترضى هذه الأمة بشئ ، مع استمرار الحرب في العراق وامكان نشوبها في أماكن أخرى ، ومع ما كان يبدو لها من علامات تقرب العرب الى الترك لاسيما بعد أن خذلت العرب في الشام ، ولم تبد على اسقاط فرنسا للحكومة العربية بدمشق أدنى اعتراض ، فكان ارسالها فيصلا الى العراق نوعا من الكفارة لبعض تلك السيئات . وكذلك فرنسا أنفقت على كيليكييا نحو مليارين ، وخسرت فيها بضعة عشر ألف جندي ورأت نفسها مع حرج الحالة المالية وانصرافها الى تقاضى ألمانية ، التعويضات التي ليس استيفاؤها بالأمر السهل ، عاجزة عن متابعة الأعمال الحربية في كيليكييا . ولحظت من جهة أخرى ان انكثرة تستثمر لحساب نفوذها في الشرق مجاهيد فرنسا في قتال الأتراك . فعدلت عن تلك الخطة الأولى وجنحت الى مسألة الترك ، وتركت لهم ولاية هي في الواقع تركية ، وكان من أصعب الأمور على فرنسا أن تقدر على حفظها بدون جيش جرار . وبذل المليار بعد المليار . فلا الانكليز حاولوا ارضاء العرب في العراق حباً بالعرب . ولا الفرنسيين حاولوا ارضاء الترك حباً بالترك . بل التزاما من كل من الفريقين لمصلحته تحت ضغط الحوادث . ومع هذا . فلم يحدث انفراد كل منهما بسياسة هذه أدنى نلعة في جدار التضامن العام بازاء الشرق . لأنه لا الانكليز عضدوا العرب على فرنسا مع كثرة ما ناداهم العرب للمحافظة على عهودهم المقطوعة للعرب . ولا الفرنسيين أعانوا الأتراك على الانكليز في شئ ، يذ كر مما ظهر في مؤتمر لوزان ، المنعقد أثناء تحرير هذه السطور ، اذ جبهة الحلفاء كانت فيه واحدة من الأول الى الآخر في وجه الترك والعرب والمصريين الخ . وكل ما جرى في أثناء هذا المؤتمر من الاختلافات الأوربية وأولها مسألة الرور ، لم يزعزع في شئ بناء التضامن الغربي بازاء الشرق . وبالاختصار فكل ما يقع من اختلاف النظريين الدول الغربية بشأن المسائل الشرقية ، يبقى محصوراً في دائرة ضيقة ، لا يمكن أن يكسب صفة عامة وتبقى القاعدة عندهم ، هي ، ان نجاح أي غربي في أي بقعة كانت من الشرق هو نجاح للجميع والعكس بالعكس .

أما الذين يشيرو اليهم روجر لابون من كونهم يشتمون بجيرانهم ، أي الفتة التي من الفرنسيين تفرح بمشكلات انكثرة في مستعمراتها الاسلامية ، فهؤلاء أكثرهم من

الشيوعيين والاشتراكيين وهؤلاء كما تقدم أصداد الاستعمار ، لأنهم يقولون ان الاستعمار قضية عائدة على الطبقة المتمولة ، وهم لا يريدون أن يسفكوا دماءهم في أفريقية وآسية ، ويموتوا بحميات هاتيك الاصقاع النائية لأجل زيادة ثروة الممولين في بلادهم ، ناهيك أن طبقة العملة تشبه أهالي المستعمرات بكون الفريقتين مستضعفين هؤلاء من الخارج ، وأولئك من الداخل ، فيبين الفريقتين جاذب التضامن الذي بين الضعفاء والمظلومين ، وما عدا هؤلاء ، فيوجد غلاة الحزب الشبالي الذين يحبون الحرية كما لا يخفى ، وجميع هؤلاء لا يدعون الا فئة قليلة بالقياس الى بقية الأحزاب ، وان وجد من غيرهم من الفرنسيين من يشتم بالانكليز في مشكلاتهم الاستعمارية اما حسداً أو نفاسة ، أو على أثر اختلاف دولي اشتد بين الامتين ، فلا يتعدى ذلك بعض كلمات فارغة ، ولا ينشأ عنه شيء بالفعل أبداً ولا يدخل أصلا في برنامج الحكومات السياسي .

فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتين بين جميع الأوربيين في وجه الاسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصا لاسيما أن بين هؤلاء رابطة دينية ، لا يمكن زوالها غضب روجر لابون أم رضى . وقد كان يمكن أن تراخى هذه الرابطة الاسلامية بالعدل والاحسان من قبل الدول المستعمرة ، اذ كان لا يوجد شيء تستلصق به قلوب الأعداء مثل العدل ، وكان الانسان كما يقولون أسير الاحسان من أى جهة أتى . فاللؤلؤ المستعمرة بدل العدل والاحسان ، لم تعرف في مستعمراتها سوى الضغط والظلم ، وامتهان الوطنيين والكيل لهم بكميال وللأوربيين بكميال آخر ، والحجر على حريتهم ، والتصرف بحقوقهم ودمائهم ومرافقهم ، وابتزازهم أراضيهم ، وهذا مامتازت به فرنسا أكثر من غيرها بدليل نسق استعمارها بالجزائر وتونس مما لا يحتاج الى بيان ، ومن شاء زيادة الوقوف فليقرأ كتاب «تونس الشهيدة» ليعلم ماذا يجري هناك أو فليقرأ بعض كتابات الفرنسيين أنفسهم ومن جلتها ما كتبه المسيو فاليان كوتوريه Vaillant Couturier أحد أعضاء البرلمان الفرنسي من الحزب الشيوعي ، على أثر سياحة طويلة في الجزائر وتونس أجراها في العام الماضي ونشر خلاصة مشاهداته في جريدة الاومانيتيه ، بل فليتعلم النظر في المبادئ التي يوصى بها لابون نفسه والمرء مؤاخذ بإقراره فيعلم درجة الضغط الواقع على أولئك المساكين ، وبأى نظر تنظر الأمة المستعمرة اليهم ، فليست اذاً الرابطة الاسلامية وحدها

هى التى تجمع قلوب الجزائريين والتوانسة والمراكشيين وغيرهم الى قلوب أهالى الأناضول بل هناك رابطة المستضعفين بعضهم مع بعض ، ورابطة الأخ الذى تحت نير العبودية مع خيه الذى تمسكن من رفع ذلك النير عن عنقه . هذه لعمري روابط طبيعية لا تزول ولا تنفخ ، لا بالسهر ولا بالمراقبة ولا بالحجر ولا بالحجز ، ولا بمنع القضاء بالأحكام القرآنية كما يشير به لابون ولا بالتعب فى تنصير المسلمين كما يريد اذ كل هذه التدابير لا يكون لها نتيجة سوى أن تزيد النار اضطراما . بل الوساطة الوحيدة لا لازالة تلك الرابطة لأنها لا تزول أبداً ، بل لحصرها ضمن حدود لا تضر فيها بمصلحة فرنسا ، هى معرفة فرنسا حقوق الوطنيين المسلمين ، ومعاملتهم على سوى واحد مع الاوربيين وعدم التنرع بأى الوسائل لوضع اليد على أملاكهم ، وتجنب استغلالهم كما يستغل الانسان حرته ، وعدم القذف بهم فى الثغور والمهالك ، ليكونوا فداء عن أبناء فرنسا وهم غير متمتعين بشئ من حقوق المساواة مع أبناء فرنسا الى غير ذلك من الشروط التى لو توفرت لعاش الوطنيون المسلمون فى دعة وراحة مع الفرنسيين ولم يضرروا لهم الخندق ، ولكانوا ارتبطوا معهم برابطة محبة أكيدة بخلاف ما هى الحالة الآن ، اذ الرابطة الوحيدة التى تربط شمالى افريقية بفرنسا هى قوة السلاح ، وهذه كما لا يخفى مهما طال وجودها ، فقد يأتى يوم يخونها الدهر فيه ، فتذهب وتحل محلها قوة أخرى ، والدهر لا يدوم لأحد .

ثم يقول « يتسلون بالفرح الذى يبيده انا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة » فلم نفهم ما هى خطتهم الحاضرة التى تستوجب كل هذا المنّ على المسلمين ؟ هل هى اعدائهم كيليكيا الى تركيا ؟ فهذا قد بينا أسبابه ، وان فرنسا لم يمكنها أن تعمل غير ذلك فى الآونة الحاضرة أم اعطاها حق الانتخابات لسلمى الجزائر ، وهو أدنى ما يمكن أن يكافأ به قوم قدموا لها نحو ٣٠٠ ألف مقاتل فى الحرب العامة ، تلف منهم ٦٢ ألفا . فبدلا من أن تسويهم باليهود أو الماالبيين على الأقل ، كان أقصى ما منحتهم من الحقوق أن يكونوا ناخبين لاعضاء المجالس البلدية . أم سماحها بزيادة عدد الوطنيين فى الندوة التونسية ، لكن بشرط أن لا يكونوا الاغلبية وان لا يكون لهم الحق فى التعرض للامور السياسية أبدا ، وان لا يمساو بشئ المبادئ الاستعمارية الماشية عليها حكومة تونس ؟ أم أخذها لسورية التى ثلاثة ارباعها مسلمون نقضا لكل عهد وميثاق ، وتعديا على حقوق الامم وخلافا

لنصريحتها اثناء الحرب ، ثم معاملة سورية بصفة مستعمرة ، واستزاف أموالها ، والخلل بوحدتها ، واثارة الاحقاد الدينية التي كانت ساكنة فيها منذ زمن طويل ، وحبس مفكرها ونبيائها لمطالبتهم اياها باستقلال بلادهم ، واعتبار سورية أرضاً فرنسوية مع المزور بأهلها بأنهم هم مستقلون ، وانها هي انما اتدبتها جمعية الأمم للوصاية عليهم لترشدهم وتعلمهم كيف يدرون فيما بعد أنفسهم بأنفسهم . . . أم الحرب القائمة بينها وبين أهالي مراكش والتي لولا حسن ادارة المارشال ليوتى بنفسه ، لكانت غير منحصرة في بعض جهات تلك السلطنة بل كانت عامة لجميعها ؟ ما هي خطتهم الحاضرة اذاً ، وماذا فيها من هذه الأيادي البيضاء على المسلمين ؟ لما انتصر الاتراك على اليونان لم ترد فرنسا أن تنتصر لليونان كما أراد لويد جورج ، لكونها من النزاع مع المانية في شغل يستغرق كل قوتها فالت الى الصلح ولم تكن في ذلك وحدها ، بل كان رأى الجميع والانكليز أنفسهم الذين أسقطوا لويد جورج وضع حد لهذه الحرب في المشرق ، ومع هذا فقد أجد الناس كلهم — ألا اليونان فقط — سياسة البول السلمية وسياسة فرنسا من الجملة ، وأظهر لها مسلمو المغرب الشكر على سداد هذه السياسة ، التي هي كلها في مصلحة نفسها في الواقع ولكن لم تلبث أن تقاضت بدل مسألتها هذه التي لم تكن فيها بالمنفردة مطالب اقتصادية ثقيلة على الاتراك ودعاوى خارجة عن العدل والنصفة ، ومن جللتها التحريج على الترك في النزول لها عن حق سيادة الدولة العثمانية على سورية .

اذاً بماذا تبين فرنسا وتعتد على المسلمين ؟ حتى يقرع لابون بعض عقلاء قومه بانهم كانوا مسرورين من مظاهر الرضى التي أهداها مسلمو المغرب .

ثم يبحر أبناء جنسه من الاعتزاز بظاهر الشرق الذي يخفى الحقد ويبدى الولاء . ولا تنكر أن هذا من الأمور التي يتجاوز بها الشرقيون الحد المعقول ، والتي كانت السبب في كثير من المضار ، لأن الافرنجي من شأنه أن لا يحمل الافراط في الكياسة الا بمحل الضعف وانه كلما تواضع الانسان أمامه احتقره واستصغر شأنه ، هذا مجرب فيهم الاماندر . ولكن الشرقيين مفظورون على الجمالة ، فتراهم يظهرن التودد الى أقوام استولوا على بلدانهم واستعبدوهم ، فهؤلاء الذين عرفوا جيداً ماذا فعلوا بهم ويعرفون أن سياستهم معهم لا توجب أدنى مودة ، يعتقدون أن هذه الظواهر هي كلها كذب وملتق ورثاء ، وانه كامن

وراءها الحقد والبغضاء اذلا يعقل أن الانسان يجب من أساء اليه . فليحتر الشرفيون والمسلمون من أن يأتوا بتصادق كلام هذا الرجل ، وليجعلوا للجاملة حداً لثلاثتهم بالثناء والخذاع . فلقد كان من الافراط بهذه الجاملة من النتيجة السيئة في احتلال سورية ، وادعاء أن أهلها هم الذين طلبوا ذلك ما ليس هنا محل بيانه وما طالما نهينا اليه . أمادعوا بأن الاسلام مبنى على الخضوع للقوة القاهرة فكذب محض ، واختلاق منه ، فان الاسلام أمر بأوامر ونهى عن نواه لا بد للمسلم أن يجرى عليها اذا أراد أن يبقى مسلماً ، مهما وقف في طريقه ولو ذهبت بذلك نفسه . وهذا مبسوط في كتب الشريعة التي يفترى عليها لاجون بدون علم ولا حياء ، وليس للمسلم أن يتقى في دينه الا في بعض نقاط لا يكون فيها خطر على وجود الاسلام ، ولو كان المسلم مأموراً بالاستسلام للقوة الغالبة ، لما قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم قريشا وهي أقوى منه ، ولا قاوم الخلفاء الراشدون تلك الأمم كلها ودون خوفا وهم لم يكونوا شيئاً بالقياس الى ما كانت عليه تلك الأمم . كلا ، فالاسلام مبنى على العزة وعدم المبالاة بالحياة ولا بالمال في الذب عن شريعة الاسلام ، وان القرآن ملآن بذلك والحديث الشريف مستفيض به ، وما سقطت الاسلام الا بعد أن فتر عمل أهله بتلك الآي ، وغلبت عليهم « كراهية الموت وحب الدنيا » وفقاً للحديث النبوي الذي أنبأهم بالحالة التي وصلوا اليها وبالأسباب الداعية الى حصولها ، وهو حديث « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع الخ » .

ثم يقول ان ابتهاج الاسلام بعضه بفوز بعض لم يكن من قبل ذا بال ، نظراً لقوة أوربا واتحادها في وجهه بخلاف ما هي اليوم ، والروسية التي كانت أعظم ضاغط على الاسلام صارت في هذه الآونة تناصره وتشد أزره . والجواب أن تضامن أوربا كلها على الاسلام ، كاف بدون الروسية ، ولا يشك أن الحرب العامة قد استنزفت قوى أوربا والروسية ، وكرهت الحرب الى السواد الاعظم من العالم فاستفاد الشرفيون كلهم من هذا الضعف بدون نزاع وهبوا للمطالبة باستقلالهم ورفع الانيار عن أعناقهم ، ومن يلومهم على ذلك الا الذين لا وجدان لهم مثل هذا الكاتب والحزب الذي هومنه ، على أنه لو فرض أنها لم تحصل الحرب العامة لما كان الشرفيون راضين بأن يبقوا عبيداً الى الأبد .

أما ابتهاج الأتراك بل المسلمين أجمع بنصرة المرزا كشيخين على الاسبانول فليس فيه

شيء من العجب ، فقد كان الاوربيون كلهم مبتهجين باتصار البلقانيين على الأتراك
 ابتهاجاً أنساهم كل ما تركبه البلغار واليونان والصرب من الفظائع في تلك الحرب ،
 وكان أحلى ما يروق للانكليز يومئذ وقائع الجبل الأسود التي تجلت فيها بسالة ذلك الشعب
 الصغير الأثني ، أفلا يحق للمسلمين أن ينتهجوا بنصر فئة قليلة من المغاربة ، كلهم قبائل
 متطوعة ، على دولة عظيمة سافت عليهم ٢٠٠ ألف مقاتل ، فاستأصلوا منهم نحو ٣٠ ألفاً
 وغنموا ١٧٠ مدفعاً و ٢٠ ألف بندقية وانتهى الامر بان عاد الاسبانيول كجاءوا ولم يفوزوا
 بطائل . ان فرنسا وقتئذ مع بعضها لاسبانية والمنافسة بينهما على طنجة وغيرها ، لم يسرها
 فوز الريفيين ، بل أوجست منه خيفة وعاونت اسبانية بما أمكنها . وان الأمير محمد عبد
 الكريم أرسل وفدأ الى لندن يلتمس وساطة انكلترة في الصلح ، فلم تقبل انكلترة هذه
 الوساطة ، مع شدة ادعائها محبة السلام . فلماذا لعمري ؟ الجواب بسيط ، وهو لأجل التكافل
 الأوربي في وجه الاسلام . وكذلك المسلمون يفرحون بظفر الريفيين ، أولاً ، لكونهم
 اخوانهم في الدين ، ثانياً ، لكونهم فئة قليلة مظلومة ، غلبت فئة كثيرة قوية ظالمة ، طامعة
 الى استعباد تلك الفئة القليلة العدد الأبية للضم .

أما ما ادعاه من كون النادى الشرقى يرلين هو من مراكز دعوة الجامعة الاسلامية ،
 وانه يصدر جريدة لواء الاسلام لبث هذه الدعوة ، فلما كان محرر هذه السطور هو رئيس
 النادى الشرقى يرلين قد نشرنا في بعض الجرائد تكذيباً لدعواه هذه ، ولكون النادى هو
 تحت حماية مجلس يرلين البلدى والجنرال لوندوروف ، كما افترى علينا كذبا وبهتاناً ، وبيننا
 أن النادى هو محفل اجتماعى ليس له شغل بالسياسة ، تأسس مجتمعا للشرقيين من كل
 الأجناس والأديان ، وفيه أتراك ، وعرب ، وجركس ، وتتر ، وافغان و فرس ، ومصريون
 وهنود ، ومغاربة ، وفيه مسلمون ، ونصارى ، ويهود ، وبراهمة الخ . وأن جريدة لواء
 الاسلام ليس لها أدنى علاقة بالنادى الشرقى . فاذا كانت كل معلومات لابون هي من قبيل
 هذا الخبر فيكون مقصده التيهيج فقط ، لايهام أبناء جلدته بوجود حركة اسلامية ألمانية ،
 يتوسل بها الى زيادة الضغط على المسلمين .

ثم زعم أن ليست نتائج الحرب العامة هي العاملة فقط في هياج المسلمين ، بل هناك
 عوامل من طبيعة الاسلام نفسه ، لأن الاسلام لا يخضع بزعمه الا للقوة . فكرر هنياته

الأول الذي لم نعلم على أى شئ بناه ، اذسنة الأمم كلها انها تخضع للقوة وتنشز عند فقدانها ، لم يختص الاسلام وحده بذلك . بل الاسلام والشرق فيهما بقايا من كرم الأخلاق ، والعبو عند القدرة والسجاجة ، وترك الانسان حقه لمجرد علو الهمة ، والميل الى المساكين وهذه كلها مناقب يهزأ بها الغرب ولا يفهم لها معنى ، بل يسمعون ويقرأون نوادر كثيرة عن الشرقيين لا سيما العرب منهم ، وينقلونها في كتبهم من باب الكرم العريض والايثار على النفس وعبو الموتور عن الواتر بمجرد دخوله بيته ولو كان قاتلاً ابنه فلذة كبده ، وكم من والد سامح يقتل ولده ووالدة سمحت بقتل ولدها لمحيء القاتل الى يتهم مستصفاً ، وكم من تجاوز عن القود وعن الدية معاً ، فهل سمعنا أو قرأنا أن فداً أوريبا فعل مثل ذلك مما يقع عند العرب كل يوم تقريباً ؟ وكم في التاريخ للاسلام من نوادر عفو عند القدرة ، فدعرف منها الافرنج شيئاً كثيراً باحتكاكهم مع عرب الأندلس ، وفي أثناء الحرب الصليبية مع صلاح الدين الأيوبي الذي كانت سيرته بهم بعد سيرتهم بالاسلام عند دخولهم القدس سبب عار لا يمحي للصليبيين ،^(١) كما أقر بذلك المؤرخون المنصفون من الافرنجة ، لأنها أظهرت ما هناك من سعة الفرق في علو النفس ، ورقة الاحساس ، بين الأمم الاسلامية والأمم الأوربية . أفيقال بعد هذا ان المسلمين لا يخضعون الا للقوة القاهرة ، وانهم لا يؤثرهم حسن المعاملة ولا العدل ، بل العامل الوحيد الذي يؤثر بهم ويكفل طاعتهم هو ارهاف الحد ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواه هذا الكاتب وأمثاله ، ان يقولون الا كذباً .

والحقيقة هي أن القوة المسلحة هي العامل الوحيد الذي يؤثر بالافرنج ، وأقرب شاهد على ذلك مثل الترك الذي لا حاجة لبيانه اذكل أحد يعرفه ، فقد أصمت أوربا أذاتها عن جميع ما نادوها به من العهود والمواثيق والتاركت والحقوق الدولية ، الى أن أثبتوا قوتهم بالقلبة على اليونان وغيرهم ، فعرفتهم حينئذ بشراً ، ورضيت أن تجالسهم في مؤتمر لوزان وأخذت تصانهم وتداريهم . وهناك مثل اليابان التي لم تعتبر عندهم دولة متمدنة الا بعد أن قهرت الروس ، وأثبتت قوتها العسكرية . كلن أحد كبار الوزراء اليابانيين يحادث على

(١) قتلوا ٧٠ ألفاً في المسجد الأقصى ولم يصفوا عن النساء ولا الأطفال ، فلما استرد صلاح الدين القدس

لم يقتل منهم أحداً

نظامى باشا سفير تركيا في رومة مؤخراً فقال له : « ان شتمتم أتم الأتراك أن تكونوا متمدنين في نظر أوربا ، فاجتهدوا أن تكونوا أقوياء لا غير . فاننا نحن اليابانيين كنا بلغنا مبلغهم ، وتجاوزنا أمدهم في العلم والصناعة ، وصرنا نضع من الأمتعة ما يضاهاى الذى يصنعونه ، ونبيعهم بأثمان أرخص من أثمانهم ، ولبشوا يعدوننا مع البرابرة . الى أن هجمنا في يوم من الأيام على الروسية ، ونسفننا لها بوارج بدون اعلان حرب منا مخالفين بذلك الحقوق الحربية الدولية ، ثم تابعتنا الحرب الى أن اتصرنا على الروس نهائياً ، وعرفوا أننا نعرف أن نقتل ونهلك وندمر مثلما يقتل الأوربيون ويدمرون ، صرنا عندهم دولة عظيمة وصاروا يعدوننا متمدنين » . هذا كلام وزير ياباني كان تولى الصدارة في اليابان ، وان شاء الشرق أن يفهم جيداً ما هي أوربا فليستظهر دائماً هذه الامثلة . ويعلم الله أننا لم نكن لنوضح كل هذا من شأنهم في تقديس القوة المادية والتسمر على الضعيف والتبصص للقوى ، لو لم يكونوا دائماً يقذفوننا بهذه التهمة عينها ، فقد تكررت منهم هذه الكلمات بحق الشرقيين الوفا من المرار . وعند كل مناسبة ، تجدهم يقولون : الشرقيون لا يعرفون الا القوة . الشرقيون لا يفهمون الا بلغة السيف . الشرق لا يأتي الا بالارهاب . لا ننس أنك تحاطب أمة شرقية . اعلم أنك في الشرق . وما أشبه ذلك ، والحق أن القوة المادية هي معبود الغربيين قبل الشرقيين . ثم ذكر أنه في الحرب العامة ، اتقادت أكثر الأمم الاسلامية الى الحلفاء ، وقاتل منها مليون ونصف مليون مقاتل تحت راياتهم ، ولم يعبأوا باعلان الخليفة الجهاد ، ونبارى علماء المغرب في الفتيا بعدم وجوب الحرب في جانب الأتراك والألمان الى غير ذلك .

والجواب عليه ان كان معنى بالأمم الاسلامية البامبارة والسنغاليين وأمثالهم فهؤلاء مساكين لا يقدرون على شئ ، ولا يعرفون شيئاً ، بل تراهم كالأطفال يساقون الى الجزيرة ولا يشعرون حتى يصل السككين الى أعناقهم ، ولم تترك فرنسا في سبيل ابقائهم في أدنى دركات الجهل والحيولة بينهم وبين الشريعة الاسلامية واللغة العربية واسطة الاستخدمتها لأجل أن تلعب بهم الكرة ، وتنتقل منهم كل شئ اسمه ارادة ، فهؤلاء لا كلام فيهم . أما الجزائر يون والتونسيون والمراكشيون ، فع كونه الجهل أيضاً غمياً على عانتهم ان لم يكن في نسبة السنغاليين فقرباً منها ، ومع كونه لا يصعب على فرنسا شراء ضباط كثيرين منهم

فقد طاف عمال الفرنسيين عليهم يخطبون ويعظون ويعقدون المآجعات ويمحادثون العلماء والزعماء أثناء الحرب وفي كل أحاديثهم وخطبهم ، يصرحون بأن هذه الحرب هي حرب تحرير الأمم ، فكل من قاتل فيها وبذله نال بعد الحرب استقلاله ، وكل من تخلف عنها لاحظ له من الحرية ، وان هذه النوبة هي نوبة الجزائر وتونس لنيل الحكم الذاتي بحيث لا يبقى بينهما وبين فرنسا الاصلة حلف فقط . وان الألمان الذين هم أشد أعداء الاسلام ، قد خدعوا تركيا ، بل استمالوا فرقة الجون ترك فقط . وهي الغالبة على الأمر والآخذة على يد السلطان الخليفة ، فأعلنت هذه الفرقة الحرب بدون علم الخليفة وبلا علم الأمة ، وكذلك الفتوى بالجهاد هي تزوير من فرقة جون ترك ، هذه التي هي مارقة من الاسلام تهين الدين وتجاهر بعدوانه ^(١) وسيكون نصيب تركيا فيما لو اتصرت ألمانية ، السقوط بين أيدي الألمان الذين سيقضون على الاسلام القضاء المبرم بعكس الحلفاء الذين هم أحباء الاسلام ، ولا يريدون بأهله الا خيراً (!) فبعد أن يتسنى النصر للحلفاء ستمنح فرنسا الحكم الذاتي الى جميع مستعمراتها الاسلامية ، وستعطى انكلترا مصر استقلالها التام وسيساعد الحلفاء العرب على تأسيس سلطنة عربية ، تأت من سورية وفلسطين والعراق وجزيرة العرب ، وعلى استئناف مجد الخلافة العباسية . وقالوا لأهل الهند انهم سينالون الحكم الذاتي بأجمعهم ، وأقسموا لهم جهد أيماهم انهم ولو اتصروا على تركيا ، فلا ينال تركيا من الحلفاء أدنى سوء ، بل كل ما يريدونه من تركيا هو الانفصال عن هذه الدولة الألمانية التي تنوى وضع اليد على تركيا . هذه التصريحات والثناء كيديات كررها الحلفاء أوفواً من المرات على أهالي مستعمراتهم الاسلامية ، لا سيما الجزائر وتونس ومراكش ومصر والهند ، وعلى الامة العربية ، ولبنوا يكررونها الى السنة الرابعة من الحرب العامة ، اذ قوى أملهم بالنصر النهائي فعند ذلك تغيرت نعمتهم ، وبدأت تلك الامم التي انقادت لوساوسهم تلحظ انها انما وقعت في شرك ، وانها كانت من تمويهاتهم في غرور مبين . ولقد أصابت احدى الجمعيات السورية في أمريكا بوصفها الحلفاء أثناء الحرب العامة وهم يثبون الدعوة لقضية تحرير الشعوب بزعمهم . فقالت في منشور أذاعته بعد الحرب : « فلورأيت الحلفاء ودموعهم

(١) واستشهدوا على ذلك بأشياء

تسبيل ، وهم يستنهضون الأمم لنصرتهم في هذه الحرب التي لم يتابعوها بزعمهم إلا لأجل تحرير الأمم كافة ، وقهر التسلط الألماني الخ « نعم بقى الحلفاء يشنون هذه الدعوة ودموعهم نسيل رقة وحناناً (١) الى أن قضوا وطرحهم ، فقلبوا ظهر المجن اسكل من عاونهم وقاتل في صفوفهم ، وجفت دموعهم اذ ذلك ، وعادوا ذئاباً بعد أن كانوا حملاناً ، وتناسوا كل ما تعهدوا به أثناء الحرب بدون أدنى خجل ولا وجل ، فلذلك هاجت أحقاد تلك الأمم التي خدعوها بزخرف القول وختلوها بمواعيد ، لم تعد مواعيد عرقوب عندها شيئاً ، وقاموا عليهم من كل جهة ، فنهضت مصر تطالب باستقلالها التام ولم تزل ناهضة ، وحقن أهل الجزائر من خلف المواعيد الفرنسية حقناً دل عليه صنيعهم في انتخابات ١٩١٩ ، التي لم يرشحوا فيها واحداً موالياً لفرنسا . ولا تزال الحركة الوطنية تقوى فيما بينهم بفضل سوء السياسة الاستعمارية لا بدسائس الأناضول ولا بتحريكات الجامعة الاسلامية ، وازدادت ثورة المراركشين اشتعالا ، وهي منذ خمس سنين مضت من بعد الحرب العامة لم تكن يوماً واحداً ، وثار ت الهنـد ثورات مختلفة الأنواع ، منها بالسلاح كما في شمالي الهند وكثورة الموبلاه في الملبيار وغيرها ، ومنها بالسياسة كالثوتمر الوطني الذي انعقد ممثلاً من جميع شعوب الهند وأديانها ، وكاتحاد المسلمين والهندوس ، وكقيام جمعية الخلافة ، وكقطاعة المتاجر البريطانية بحيث نقصت في الهند نحو ٣٠ في المائة . ثم قام أهل العراق في وجه الانكليز ، الذين كانوا أعلنوا لهم يوم دخولهم بغداد سنة ١٩١٧ ، أنهم لم يأتوا ليجلسوا بلادهم ، بل ليعيدوا اليها الحكم العربي كما كان ، فلما استوسق الظفر لانكثرة حاولت الاستيلاء على العراق والحاقها بالهند ، فنار العراقيون بهما مدة سنتين أذاقوها فيها عرق القربة ، ولم يضعوا السلاح حتى مكنتهم من تأسيس حكومة عربية ، اشترطوا أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً ، وإن يبرحوا حتى يروا استقلالها تاماً ، وأما أهل تونس فنترك القول لهم ، فقد ورد في كتاب « تونس الشهيدة » المطبوع في باريس سنة ١٩٢٠ في خلاصة الكتاب ما يأتي :

« كانت مفاداة الشعب التونسي بجانب فرنسا ، في الحرب التي اكتسحت العالم المتمدن ٦٥ ألف مقاتل و ٣٠ ألف قاعـل من أمة لا تزيد على مليونين من النفوس ، وقد قتل وجرح من الجسة والسنتين ألف مقاتل ٤٥ ألفاً ، وكانت لنا ثقة تامة في الحصول

على أمانينا القومية على أثر ظفر الحق (١) والعدل بين الأمم ، وتنفيذ مبدأ تعيين الشعوب لمصيرها ، الذي كان أعظم رجال الدول نادوا به ووعدوا بهذه الشعوب أمام الله والناس . فهذه الثقة هي التي جعلتنا على القيام بواجب المشاطرة الوجيعة بدون قيد ولا شرط في الحرب العظمى العائدة لتلاصنا فكان ديناً على فرنسا اعطاؤنا حريتنا من وجهين ، الأول الخسائر التي تحملناها من أجلها ، والثاني المواعيد الشهيرة التي قطعناها لنا ، فقد نالت الشعوب الصغيرة حتى من التي كانت في صفوف الأعداء حريتها ، أما نحن فقد ادخرت لنا فرنسا لأجل المكافأة على خسارتنا طريقة من أغرب ما يتصوره العقل ، وذلك بتسيئة برنامج استعمار جديد زيادة على القديم ، تتمكن به من غصب أملاكنا وهضم حقوقنا ، فقد اعترفت ايطان فئة من صعاليك الفرنسيين ومعترتهم ومحاوليهم في بلادنا ، وتيسير أسباب معاشهم من مالنا وتقديم الأراضي اللازمة لهم من أرضنا . فإهي فائدة فرنسا لعمرى من متابعة خطة هي من سنة ١٨٨١ ، وعلى الخصوص من سنة ١٨٩٢ حتى اليوم مصدر كل عمل تأتيه في تونس وبدلاً من أن تعدل عنها ولو على وجه المكافأة لرزاينا من أجلها ، تكون النتيجة ، أنها بعد انتهاء حرب الحق والعدل (١) تزداد فيها توسعاً وتفنتاً الخ .

لا نطمع أن ننقل هنا كل ما ورد في « تونس الشهيدة » من الحقائق الرسمية ، التي تثبت الى أي حد وصل الفرنسيين من استعمار تلك البلاد ، واستعباد أولئك العباد ، وكما تقدم كانت مكافأتهم على الخسة والأربعين ألف رجل الذين فقدوهم فداء لفرنسا ، أن قررت الحكومة الفرنسية ارسال كل المحاويع والسفلة والأفاقين الذين في بلادها الى تونس ، واعطاءهم أراضي فيها من أملاك الحكومة التونسية وأوقاف التونسيين ، والانفاق عليهم لهارة تلك الأراضي بواسطة قرض يعقد باسم تونس ، ويدفع فائضه أهل تونس .

وبالجملة فإذا شاهد المسيور روجر لابون ومن على شاكلة هيجاناً في العالم الاسلامي فليبحث عن أسبابه في مظالم الحكومات الاستعمارية ، ونكشها بمواعيدها ، وخبطها هذه الشعوب بعضا العسف ، واستنارها بأراضيهم ، وأموالهم ، ووضعهم تحت أقدام المستعمرين حقارة واهانة فالشعوب الاسلامية والشرقية مهما بلغ بها الضعف فلن تفر في يوم من الأيام على العبودية للاور بيين ، يلزم أن يرفع الأور بيون خيال تأييد هذه العبودية من رؤوسهم وأما زعمه أنه بعد معاهدة مودروس كان الاسلام بأمره قد استخذى ، وصار منتظراً أي

حكم يصدر من أوروبا ليطيعه ، وان السبب في كونه رفع رأسه فيما بعد ، واستأثف آماله ، وعاد الى المحاصنة ، هو ما رآه من انصراف الجيوش من الشرق ووقوع المنازعات بين الحلفاء فهذا كذب محض ، وهتان بحث ، ينقضه التاريخ وتكذبه القیود الرسمية ، فقد وضعت الحرب أوزارها ، ومصر والاساتنة والعراق والأناضول والقوقاس وسورية ملائى بجيوش الحلفاء التي لبثت مرابطة في هذه البلدان مدة طويلة . وعندما أهالى مصر نهضوا لطلب استقلالهم كانت مصر تموج بالجيوش الانكليزية . وان أهل العراق هبوا لمقاومة انكسرة غير هيايين المائة والعشرين ألف جندى ، التي ساقتها عليهم ، كما أنه لما نهض مصطفى كمال في الأناضول كانت الجيوش الانكليزية في الاساتنة والأناضول والقوقاس بعشرات الألوف ، وكان جيش فرنساوى نحو ٤٥ ألفاً في كيليكيا ، وجيش آخر في الاساتنة وجوارها ، وكان جيش للارمن في حدود أرضروم ، وبعد ذلك زحف ١٥٠ ألف يونانى ، فأطبق الأعداء على الأناضول من كل جهة ، ومع هذا فلم يزد الترك ذلك الانباتا . فكيف يقال انهم تشجعوا بانصراف الجيوش عنهم . وأما في سورية فبلغ عدد الجيش الفرنساوى ٧٠ ألف مقاتل ولم يمنع ذلك أهلها من مقاتلة الفرنسيين ، ولا صرفهم الخوف من كثافة الجيوش عن طلب حقهم الذى لا يزالون يطالبون به ، وأما شمالي الهند فلما زحفت عليه القبائل الأفغانية وجيش كابول ، أُرصد الانكليز لمقابلتهم ٣٠٠ ألف مقاتل ، فكيف يكون المسلمون قد طمعوا ونجروا بانصراف الجيوش عن بلدانهم . وكذلك فارس أجبرت الانكليز على الجلاء عن بلادها ، والجيش البريطانى منتشر في أكثر البلاد .

ثم يقول كان أكثر الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين هم الذين حصلوا العلم في مدارس فرنسا . اذاً فالفریق الذى تلقى تربية اسلامية والفریق الذى تلقى تربية أوربية كلاهما واحد في طلب الحرية ، وهذا أمر يدهى ، اذ لا الاسلام يرضى لأبنائه بهذا الاهتضام ، ولا أوروبا بتجزه على أمة من أبنائها ، وكلا التعليمين ملتقيان في نقطة الاستقلال وان السفسة التي معناها أن المسلم لا بد أن يكون تحت حكم أوربي لاجل انتظام سير المدينة التي دياتته تمنعه منها ، هذه لا يقبلها المسلم العتيق ولا الجديد ، بل لا يقبلها أوربي عنده وجدان سليم ، وما هي الا أكذوبة خلقت لتسويخ الاستعمار واقناع الأحرار من الاوربيين ، الذين يقولون : « مالنا ولؤلؤ القوم نهضم حقوقهم ، وتتحكم فيهم ، ونذهب

فنتقلهم في عقر دورهم « فيريد حزب الغزو والاستعمار أن يجاوبهم : « ان هذا ليس في شئ من الظلم ، لأن هؤلاء القوم لا يزالون عصاة على المدنية ما داموا مسلمين » . ثم يقول وهو من أغرب ما سمع في باب القحة انه « منذ خفق العلم الفرنسي فوق مرسى الجزائر تكوّن بين هذه الأمة وتام لم تعرفه من قبل » . وفي محل آخر يندب قصور عمال فرنسا في تأريث نار الشقاق بين العرب والبربر كما كان من قبل . وقلما سمعنا أن قوما يدعون أنهم في أرقى طبقات المدنية يأسفون من كونهم لم يحسنوا التفرقة ؛ ولم يحكموا المعاداة بين الأيبي التي ساء بختها بسقوطها تحت أيديهم ، ويطنون أسفهم وندمهم من جراء هذا الأهمال . على أن كلامه هذا هو كذب محض ، فان عمال فرنسا في الجزائر لم يهملوا وسيلة لشحذ العداوة بين العرب والبربر الا توسطوا بها ، ولكن الذي جمع بين العرب والبربر هو رابطة الاسلام ، ورابطة الظلم المحيط بالقربيين . واذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسورية أى منذ سنة ١٩١٨ الى ساعة تحرير هذه السطور ، لم يفتروا يوما واحدا عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سورية وبين النصارى والدروز في لبنان ، بعد أن كانت هذه الضغائن والنحول قد سكنت وتلاشت تقريبا ، فتجد سورية ولبنان اليوم في أسوء حال من هذه الجهة مما بذرته يد الاحتلال ، التي ظنت انها لا تمتد الا على بناط شقاق ، ولا تتمكن الا من خلال فتنة ، فما ظنك بما كان يفعله عمال فرنسا في الجزائر من تحريك الاحن بين العرب والبربر الذين ليسوا في مستوى أهل سورية ، لكن فرنسا لاتكلم بيد الا وتأسوا باخرى ، فكل ما زرعه عمالها من الشقاق بين ذينك الجيلين في المغرب ذهب بفضل الظلم والعصب والامتهان وسوء الادارة ، التي وحدتهما . وهذا شان كل من حاق بهم خطر عام . وليس بصحيح انه لما دخل الفرنسيين الجزائر كان فيها ٨٠٠ الف بربرى غير مسلمين ، فالاسلام دين البربر قاطبة منذ أكثر من الف سنة ، واللسان العربى هم يعرفونه جميعا الا ما ندر من جهلائهم . وقد اجتهد عمال فرنسا كثيرا في فتنهم في دينهم ، ووقفوا الى بعض ما قصدوه وذلك بأن أدخلوا عليهم الشكوك في عقائدهم ، فاصبح بعضهم معطلين أو ملحدين ، ولكن لم يتمكنوا من نقلهم من الاسلام الى النصرانية ، ولا ينكر أن كثيرا من الفرنسيين ومن عمالهم أيضا ، هم من ذوى الوجدان والاستقامة وارباب العقل والحكمة قتمهم عن استقامة طبع وطهارة وجدان ، تأبوا أن يزعجوا مسلمي

الجزائر في دينهم وان ينكثوا بعهده المحافظة على حرية الدين الاسلامي ، ومنهم عن حسن تدبير ، وبعد ادراك تجنبوا أن يتعرضوا للجزائريين في عقائدهم وشريعتهم خوفا من اتقاضهم ، وتفاديا من زيادة نفورهم ، فهؤلاء هم الذين روجر لابون لا يزال يندد بهم ، ويقبح عملهم ، ويزعم أنهم كانوا يعززون الاسلام ، ويعاونون على تأييده ، ولبس الأمر كذلك لما من فرنسوى على وجه الأرض عزز الاسلام أوسى في نشره ، وانما هناك فئتان احدهما ، ترى التعرض للمسلمين في كل شئ حتى في دينهم ، وأخرى ترى ذلك من قبيل اللعب بالنار وتتوجس من ورائه الثورات والفتن ، فلا تحب أن تتعرض للدعوة الدينية ، ولا أن تثير هذا الساكن ، وان رضيت بشئ من ذلك تنسكت فيه الطرق الرسمية . على أن تميز غير المسلم على المسلم في شرق افريقية وسائر مستعمرات فرنسا ، ليس بما تشي فيه فرنسا الضراء ، وناهيك انه من نحو عامين فقط ، اقترح أحد نواب السوسيا ليست في البرلمان الفرنسي إلغاء قانون ، بمقتضاه لا تعطى مكافئات عقارية لذوى الخدمة النصح الاليسيجيين واليهود ، ومن يتنصر من المسلمين . وهذا قانون ليس بتقديم العهد ، بل وضعه مجلس نواب فرنسا منذ ثلاثين سنة ، وقد أجات الحكومة على اقتراح النائب الاشرافي بأنه يليق إلغاء هذا القانون بعد الخسائر الجلييلة التي تحملها الجزائر يون فداء لفرنسا . فأتت ترى كذب دعوى هؤلاء ، الذين يزعمون أن الحكومة الفرنسية قصرت في احتقار الاسلام واهتمامه في الجزائر . نعم هناك فئة قليلة من الفرنسيين ترى هذا الضغط بشئ التدبير ، ولعمري كل عاقل في الدنيا يحكم لهذه الفئة بالصواب في رأيها .

ثم يفترى على الاسلام بقوله انه مادان به شعب الا تأخر وتقهقر ، وانه مانع ، بقوانينه الدينية من الترقى الاجتماعى . والحال أن الاسلام ليس فيه شئ يمنع الترقى ، ولا توجد شريعة في الدنيا تقس العلم وتعل شأنا العرفان وتجعل العلماء نلو الأنبياء كشرية الاسلام ، واذا كانت الأمم الاسلامية قد انحط شأنها في القرون الأخيرة لأسباب عديدة من جلتها : تكالب أوربا على بلادها ، وتظاهرها على استئصال قوتها فلم يكن نفس الاسلام هو باعث التقهقرى بل كانت لذلك بواعت أخرى لم تحمل منها أمة ومثال ذلك أن أوربا بقيت منحطة جاهلة ، متخسمة ، ملفوفة في حنادس الهمجية ، من بعد ماتنصرت بأف سنة . وبلغ من جهلها وانحطاطها أن مائة عربى افتتحوا قسما من ايطالية وقسما من سويسرة

في أوائل القرن العاشر ، واستولوا على أكثر الجبال والمضايق ، وبنوا القلاع والأبراج ، وجاذبوا الجبل جميع ملوك تلك الأطراف ولبشوا مالكي هانتيك الحصون والقلاع ، ضاربين على أهالي تلك البلاد الذلة والمسكنة نحو قرن تام ، ولم يكن عددهم أنمي مانغاو وأكثر ما كثروا ليزيد على ألف رجل ، نجزى بهذا الفتح العجيب عن ذكر فتوحات العرب للاندلس والجنوبي فرنسا وجنوبي إيطاليا الخ وتهذيبهم أهالي جميع الممالك التي احتلواها وغلبوا عليها . فكما أن همجية أوروبا لذلك انهدم لم يكن السبب فيها الدين المسيحي ، فانحطاط الإسلام اليوم ليس السبب فيه الشرع المحمدي . وإنما هي أدوار تتعاقب ، وتارات تتناوب ، وكل مملكة أوكل مدسنة نظراً عليها أحوال من داخلها ومن خارجها ، ففتنق وتسعد ، ثم تعود فتفتنق ثانية ، ثم تعود فسعد ثانية وهلم جرا . ولقد سعت قرطاجنة ثم شقيت وكان دينها واحداً ، ولقد علت رومة في أيام الوثنية ثم سقطت في أيام النصرانية ، فهل كان الدين المسيحي هو السبب في سقوطها ؟ كلا . ثم هذه اسبانية منذ أر بعامة سنة ، كانت أقوى مملكة وأزهر مملكة ، وكانت اكتشفت أميركا وصارت في بسطة مستعمراتها نظير انكثرة الحاضرة ، ثم لم تزل ترجع الى الوراء حتى عادت كالمرجون القديم ، وصارت تعجز عن قبائل الريف ، ولما كانت في عنجبية عزها كانت نصرانية ولما وصلت الى حالتها بقيت نصرانية . وكان التتر غالبين على الروس وملوك الروس يؤدون الجزية الى أعقاب تملرك احقابا متطاولة ، ثم أصبح التتر كلهم رعايا الروس ، وصارت الملوك الباقية لهم اتباعا وخولا لقيصر روسيا ، ولما علا التتر كانوا مسلمين ولما انحط الروس كانوا نصارى والآن تغيرت الأحوال ، وكل باق على دينه . والدولة العثمانية الاسلامية وصلت الى بولونيه ، واستولت على المجر ، وحاصرت فينا ، وصارت ملاذاً لفرنسا وناهضت أوروبا بأجمعها قرناً عديدة ، وكانت هي مسلمة ، وكانت أوروبا نصرانية أكثر مما هي اليوم . فمن العبث أن نقول ان الدين المسيحي أو الدين الاسلامي ، هو سبب تأخر هذه المملكة أو تقدمها وإنما التأخر أو التقدم تسكون له مقدمات وأسباب تتراكم فتعمل عملها ، وناهيك أن اليابان أمة شرقية وثنية ، بلغت باجتهادها وصدق عزيمتها أن ضارعت أقوى دولة أوربية لا بل ، فهزت أقوى سلطنة مسيحية وهي الروسية ، فلما كانت لم تزل في دور الانحطاط جاهلة مجهولة علوا ذلك في أوروبا بكونها أمة غير أوربية ، وغير مسيحية ، كما يعللون اليوم أسباب تأخر

مالك الاسلام فلما نهضت اليابان نهضتها هذه ، وكذبت فلسفتهم المبنية على الاهواء والمآرب ، لم يقدرُوا أن يدعوا أن اليابانيين تنصروا حتى أمكنهم أن يتقدموا ، ولولا تنصرهم لما بلغوا هذه الدرجة فزعموا أن اليابانيين وان لم ينصروا فقد تفرنجوا ، ولولم يتفرنجوا لم يصروا الى هذه الرتبة . وبعضهم لم يجزؤ أن يقول ان اليابانيين تفرنجوا فقالوا : ان اليابانيين قاموا بانقلاب اجتماعي في داخل بلادهم حتى رقوا هذا الرقي . ان هذا لعمري كلام فارغ ، فان كل أمة تعتمد على العلم والعرفان ، وتعمم المدارس في بلادها ، وتنشد الأثوار من حيث أنت ، يحصل بها انقلاب اجتماعي بطبيعة الحال ، فالإيابان نشدت العلم وأخذت ماعند الأوربيين من المعارف والفنون ولكنها بقيت شرقية في كل شيء ، بل بقيت على دينها مذهب سينتو مع مذهب بوذا ، لم تحدد عنهما ، ويخطئ من يظن أن اليابان بعد أن تعلمت وترقت ، أصبحت بلادين أو استخفت بالدين . فان كان من أهلها دهريون أو قائلون بالطبيعة ، أو بوجود قوة مبدعة لحسب ، فهؤلاء يوجد منهم في كل أمة . وبالاختصار فيمكن الاسلام أن يرقى رقى اليابان ورقى أوروبا ويبقى مسلماً ولكن الفتنه المستعمرة من الافرنج يريدون أن يلبثوا متسلطين على بلاد الاسلام ، فلا يزالون ينتحلون لديومة سلطنتهم عليها أعاليل ومعاذير ، من جلثها أن الاسلام دين جود أو مشار فوضى وخلل فلا يترك وشانه ، كما كرر ذلك هذا الرجل عدة مرار كذبا وميناً .

ومن غريب ما رواه ان قسيسا عربيا من سورية جاء بلاد الجزائر وصارت له مكانة عند أبناء جلدته عرب الجزائر ، فأولو الأمر من الفرنسيين هناك حرصا على عدم تنصير المسلمين طردوه من الجزائر ، والذي يظهر لنا ان كانت هذه الحكاية صحيحة ان هذا القسيس بسبب كون لغته هي العربية ، أراد أن يدخل مع المسلمين في مباحثات ومناظرات دينية ، وربما يكون تجاوز الجدل الى النيل من الاسلام مما أدى الى هيجان الأفكار ، ورفع بعض المسلمين القضية الى أولى الأمر ، فخافوا الفتنه وطرودوا الكاهن المذكور وبرهنوا بطردهم اياه على عقل وحكمة . ولو أن داعيا مسلما دخل بين جماعة من النصارى الذين تحت حكم الاسلام ، ووافق يجادلهم في دينهم ويثير خواطرهم ، وكنت واليا في ذلك المكان لطرده ، وكان في ذلك عين المصلحة . أما قول هذا الفرنسي أن الكاهن السوري كان عند أبناء جلدته عرب الجزائر فهو غريب فان الفرنسيين بعد دخولهم سورية جعلوا العرب

غير السوريين والسوريين غير العرب ، واجتهدوا في اثبات كون السوريين هم من سلائل الآراميين والفينيقيين وانهم ليسوا من العرب ، حال كون السوريين هم في الأغلب من العرب الذين أوطنوا سورية قبل الاسلام وبعده ، والذين هم من أصل فينيقي هم عرب أيضا لتبوت هجرة الفينيقيين من جزيرة العرب والذين هم من سلائل الآراميين عدا كونهم ساميين أبناء عم العرب قد ذهب الأكثرون من محقق علم التاريخ في أوربا ، ان آباءهم الآراميين جاءوا أيضا من جزيرة العرب مهد الأمم السامية بأسرها .

ثم ادعى أنه لم تنسق للاسلام مدينة تذكر الامدة قصيرة أيام الأمويين بالأندلس والعباسيين في بغداد أي نحو ثمانمائة سنة في الأندلس ، ونحو خمسمائة سنة في بغداد فهذه الأدوار رآها قصيرة لتعزير برهانه الساقط ، مع أنها أطول على كل حال من مدينة أوربا ، التي لم تبدأ الامنذ أربعمائة سنة وفي القرون الوسطى كانت كمدنية أوربا اليوم . وبعد أن اتهم الاسلام بالجنود والجنول ، وعدم القابلية للنباهة ، زعم أنه أخذ اليوم يتوسل الى العلم ، ويجتهد في صنعة السلاح ، ولم يقف عند السلاح المادى بل تجاوزه الى السلاح المعنوى ، الذى هو الطبع والنشر وصارت له جرائد كثيرة في الشرق والغرب قائمة بدعوة اتحاد الاسلام . اذن الاسلام لم يكن جامدا كما يدعى هؤلاء الناس . ثم يتكلم على اسلام السودان وانه مشوب بخرافات فتيشية ويتفاهل بذلك خيرا ، وأكثر هؤلاء على هذا النمط من التفاؤل بعدم تحقق السودان بالاسلام الحقيقي ، فلا أكاد أقرأ لكاتب أو سائح أوربي كلاما على اسلام الزوج أو الجاوى أو الصينيين أو غيرهم عن أسلموا حديثا الا رأيتهم يجتهد في اثبات كون اسلامهم ليس تاما ، وانه لا تزال عندهم عقائد وثنية أو عادات وثنية . وكأن هؤلاء الأوربيين يسلمون أنفسهم بذلك من قبيل ، اللهم اننا لا نسألك دفع القضاء ولكن نسألك اللطف فيه . فعداوتهم لمذهب بوذا ومذهب سينتو ودين براهما ، بل لعبادة الضم نفسه ، ليست بدرجة عداوتهم للاسلام ، الذى كله توحيد وتنزيه . وأما قوله ان الزنجي لم يسلم الا ليناال رفعة ، ولما كان يرى الأوربي أعلى من المسلم كان الأولى أن يتخذ دين الأوربي لنفسه . فنحن لا يسؤنا أن الاسود الفتيشى يصير نصرانيا كما يسؤ أكثر الاوربيين صيرورة الفتيشى مسلما ، لاتا نعلم أن النصرانية ترقى عقله وخلقه ، وترفع سويته الاجتماعية عما كان . ولكن الزوج الفتيشين بالرغم عن جمعيات التبشير التي

لا تعد ولا تحصى وعن نفوذ أوروبا الذى يكتنفها سواء من الدول الكاثوليكية أو البروتستانتية ، وعن « كون الأوربي هو أعلى وأقوى من المسلم » فى نظر الزوج ، فلا يزال هؤلاء يرجحون الاسلام ، ونحو . ٤ مليوناً من هؤلاء دانوا به فى القرن الماضى ، وفى هذه المدة ، بدون بعثات ، ولا جمعيات ، ولا دول تعضد الجمعيات . ولا تنكر ان كثيرين من هؤلاء الزوج القتيشين تنصروا ، وقد أحسنوا بذلك صنعا ، لكن هؤلاء فئة قليلة فى جانب الذين أسلموا كما يعترف بذلك سياح الاوربيين ، الذين جالوا فى افريقية وكتبوا عنها ، وأنفس المبشرين والرهبان الملقين بالرهبان البيض وغيرهم ، ممن كتاباتهم ملأت الدنيا بهذه القضية .

ثم قال : ان البلاد الضاربة فى الشمال هى غير مساعدة على انتشار الاسلام فيها ، لائن طول النهار المفرط وقصره المفرط ، يحدثان خلافاً بمواقيت الصلاة ، فيتطرق الشك الى قلب المؤمن . الى غير ذلك من التهمم والرقاعة مما كنا نحب أن لا نجابهه عليه لسخفه ، ولكن قلنا حيث اتنا خضنا فى هذا الموضوع فلنتناوله بأطرافه فنقول :

ان أحكام الصلاة والصوم جعلت لاعتليية البلاد التى فيها النهار نهار والليل ليل ، فلا يضر تلك الأحكام بعض أقسام من الكرة هى من النادر الذى لا يعتد به . على ان الفقهاء قرروا انه فى مثل هذه الاصقاع النادرة ، التى يطول فيها النهار هذا الطول المفرط أو يقصر هذا القصر المفرط ، يكون العمل فى الصلاة والصوم مقيساً عليه فى أقرب بلد من تلك الجهات ، وانحل بذلك الاشكال ، وليس فى الاسلام حرج بل هو أوسع وأسمح مما يتخيله هؤلاء القوم أو مما يريدون أن يخيلوه لأبناء جلدتهم . وان القرآن الكريم ليس بكتاب جغرافية ولا قوسموغرافية ، بل كتاب توحيد وتنزيه ، وتهذيب نفوس ، وتطهير أخلاق ومع هذا فلم يرد فيه شئ يخالف قواعد العلم بل وجدت فيه آيات بينات يحار غير المؤمن بالوحى من شدة مطابقتها للتحقيقات الحديثة سواء فى علم الفلك ، أو فى علم تكوين الأرض مما كان فى عهد نزول القرآن مجهولا ، وذلك مثل آية « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَاتِرَتًا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا » ، تأمل ما فى هذه الآية من الانطباق على جميع النظريات العلمية الحديثة التى معناها ان الأرض والاجرام الفلكية كلها كانت كتلة واحدة فانفصل بعضها عن بعض ، وكذلك ان الحياة بدأت فى

المياه . ثم تأمل هذه الآية « وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » التي تثبت انه لا يوجد في الفلك جرم غير متحرك على الاطلاق مع أن الفلكيين في عصر القرآن كانوا يقولون بالسيارات والثوابت حتى التجأوا يومئذ عند تفسير هذه الآية الى التأويلات والاحتمالات البعيدة ، الى أن تقرر في علم الهيئة الجديد كون الاجرام الفلكية بأجمعها متحركة ، وصدقت الآية بدون أدنى تأويل . وانظر الى قوله تعالى « من كل زوج بهيج » وكيف كرر ذلك مراراً حتى يفهم الانسان ان الخلق كله من حيوان ونبات وجماد ، مبنى على الازدواج حتى النبات فيه ذلك ، والجماد فيه القوتان السلبية والايجابية مما لم يكن شئاً منه معلوماً في زمن البعثة ، فلم يفهم العلماء بعد مرماه الى أن تكفلت به التحقيقات العصرية . وأمعن النظر في قوله « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » مما هو المثل الملازم لكيفية دوران الأرض مع سكونها الظاهر وتدبر قوله « إِنَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَشَفَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ » الآية التي يشير فيها الى القوة الكهربائية وغير ذلك من الآيات التي تدعش الغازي المتعلم ، بما فيها من الحقائق العلمية بشرط أن يكون ذا ملكة عربية ، يقدر بها أن يتدبر عمق غور تلك الآيات لا أن يكون أجنبياً عن أدب العربية . وقد ألق العلامة الفلكي العظيم ، المنقطع النظر في علم الفلك والطبيعة والتقويم المرحوم الغازي أحمد مختار باشا كتاباً في تطبيق الآي القرآنية على العلوم العصرية ، جمع فيه نحو تسعين آية كريمة ، وأوضح ما جمعت من القواعد العلمية بأوجز لفظ وأقصر تعبير يعجز عن مثله البشر ، كما أنه شرح هذه النظريات كلها حسبما اتفق عليه علماء العصر الحاضر ، وأخرج منها وجوه المطابقة طالعاً كالشمس ، وبلغنى ان أحد الضباط الأتراك ممن نبغ في علم الفلك والهيئة ، نبوغاً باهراً قد ألب كتاباً ممتعاً جليلاً أجاد فيه الى الدرجة القصوى تطبيق قواعد هذا العلم على القرآن ، فعلمت بكتابه هذا بعض جمعيات التبشير المعهودة ، فأخذوا يراودونه في أن يبيهم إياه بضمن جزيل لأجل أن يحرقوه ، ويخفوا من الارض كتاباً فنيا يستدل به على فضل القرآن المجيد ، وانطباقه على العلم . وليس هذا ببعيد عن هذه الجمعيات المنهوسة . ولولا كوننا تتعاضد عن المناقشات الدينية ، ونكرها وفتقد ضررها ، ونوجب حرمة الكتب السماوية التي تتمسك بها أديان محترمة كالدين المسيحي وشريعة موسى ، لاؤردنا في مقابلة تهكم هذا الرجل بالقرآن أقوال العلماء المحققين من أبناء جلدته الفرنسيين

في اطلال نظريات التوراة من جهة تكوين الارض وبدأ الخلق ولكننا نؤثر اجتناب كل قول يمس عواطف هذه الملل الكريمة التي نرى أعظم خدمة للانسانية ايجاد الوثام بينها وبين الاسلام ، ولكن ان أبي الامراء نحيله على كلام أكبر فلنسى المسيو فلانريون الشهير ، في خاطراته من صفحة ١٧٠ الى صفحة ١٧٨ حيث يذكر أنه كان مؤمنا معتقداً ناشئاً نشأة دينية ، وبقى كذلك الى الثامنة عشرة من عمره ، اذ بدأت تحالجه الشكوك وذكر أسباب هذه الشكوك وأظهر أن أصلها هو عدم الانطباق بين الفن والدين ، وأتى هناك على قصة كوبرنيك ، ثم غاليله الفلكيين العظيمين ، والحرم الذي صدر بحق الاول ثم الثاني . وان شاء التوسع في ذلك فليقرأ كتاب « اختلاف العلم والدين » للعلامة ديارب الاميركاني وغيره مما لا شأن لنا فيه ، لانتا نحن هنا في مقام سياسي لا نحب أن نخرج عنه ولانتا نكره المناقضات الدينية ، ولنا على رأى التهافت على الكتب السماوية بالانتقاد والتخطئة كلها وردت فيها عبارة تخالف قاعدة علمية أو حقيقة فلكية فمنا فنفدها ، فان هذه الكتب انما هي لغرض آخر أروى ، ولا بد من أن ينظر فيها الى طاقة العوام. في الفهم والآفات الغرض المقصود منها ، فضلا عما في آيات هاتيك الكتب المقدسة من الكنايات والمجازات المألوفة في اللغات التي جادت بها ، فلا بد لقارئها من أن يلحظ هذا الاثر .

ثم قال ان الاسلام لم يوجد ليمتد الا في صحارى آسية الواسعة التي تتجلى فيها عظمة الله ، ولا يصلح بين الأنهار والشجر الكبار التي تجرد الافق بينها ضيقا كما في بلاد خط الاستواء حيث تصعب معرفة القبلة . وأيم الله قد وصل هذا الكاتب من الرقاعة ، الى حد أن صار الانسان لا يتنزل الى الجواب على كلامه أصلا ولقد ثبت أن الاسلام منتشر في خط الاستواء أكثر من كل مذهب آخر ، ولكن قد ظهرت نيته من هذه المباحثات ، وهي أن يحمل الحكومة الفرنسية على عدم الاعتراف باسلام السود ، ومعاملتهم كزواج فتيشين تنصرف الحكومة بهم كما نشاء في العقيدة كما أنه يوجد في جزيرة ماداغسكار قبائل كثيرة أسلمت بواسطة الطارئين على تلك الجزيرة من عرب زنجبار وجزر القمر ، فلم تشاء الحكومة الفرنسية المسيطرة على الجزيرة أن تعرفهم بصفة مسلمين ، بل بقيت تعدهم وثنيين ولا تعتبر مسلمين الا المسلمين الغرباء النازلين بالموانئ ، وما المقصود من انكراها اسلامهم الا التعرض لهم في عقائدهم وردهم عن الاسلام قسرا .

ثم لاجل ترغيب الحكومات الاوربية في تصير الزنوج ومنع انتشار الاسلام قال ، ان اقلية ذات بال من السيفال صارت مسيحية ، وان اهالى الاوغانده صاروا كلهم نصارى ، فليس الاسلام هو الدين الطبيعى للسود كما يقال دائماً . ونحن نجابه به انهم ان كانوا نصارى ، فهو افضل جداً عند الاسلام من أن يبقوا فتيشيين يعبدون الوثن أو النار أو مظهرا من مظاهر الطبيعة فان النصرانية تزلفهم من الانسانية وتبعث فيهم روح الفضيلة ، وتنتاشهم من ذلك التوحش الذى كانوا فيه . وذلك بخلاف ما يمتنى كثير من الأوربيين ، الذين أعمى الغرض قلوبهم من أن يبقى الزوج على الفتيشية ولا يصيروا مسلمين ، مع أنهم في دخائل ضمايرهم يعلمون مزايا الاسلام العالية ورغبة أهالى افريقية فيه أكثر من غيره . أما قوله ان جميع أهالى الاوغانده صاروا نصارى ففيه مبالغة وهو مثل قوله ان بلداً بأسرها مثل هرر صار أهلها نصارى . وهاك ما ورد عن الأوغانده فى انسيكلو بيديه الميسو موريس فال Maurice Wale التاريخية الجغرافية ومؤلفها من فحول علماء فرنسا ، وهو مفتش المعارف العمومية فى المستعمرات أى خبير بأحوالها فهو يقول عن الأوغانده : « انها قطر فى الشمال الغربى من بحيرة فيكتور يا نياززا ، مساحتها ١٥٠ ألف كيلومتر مربع وأهلها مليون نسمة ، قد حصلت فيها قلاقل على أثر موت الملك متيزا بسبب المناظرات الدينية بين المسلمين والكاثوليك والبروتستانت ، وقد تغلب البروتستانت على الآخرين بعض ضباط الانكليز لهم ، والاوغانده هى تحت حاية انكلترة » انتهى . قلنا ان الانكليز اقتطعوا الاوغانده من أصل السودان المصرى استبداداً من عند أنفسهم وضموها الى مستعمراتهم ، ولم يرضوا أن يقوها من جملة السودان المصرى ، لأن السودان المصرى هو بزعمهم تحت حكم مشترك بين انكلترة ومصر فالانكليز مضطرون أن يقبلوا ولو بالاسم بقاء حصه لمصر فى حكم السودان المصرى ، لكنهم يريدون أن ينفردوا وحدهم بملك الأوغانده ، وقد عززوا البعثات البروتستانية هناك بكل قوتهم ، ولكنهم لم يقدروا أن يستأصلوا الاسلام من تلك الأرض . وأما عن هرر فيقول الميسو فال « انه قد افتتحها منليك نجاشى الحبشة سنة ١٨٨٧ ، وكانت من سنة ١٨٧٥ تابعة لمصر ، وان أهلها ٣٥ ألف نسمة مسلمون شيعة . أما فى دائرة المعارف الاسلامية فيقول ان أهلها ٥٠ ألف نسمة ، منهم الثلث من أهل البلاد الأصليين ، والباقيون بين سوماليين وأحبشاش وهنود وسوريين وأرمن وروم وأوربيين . الى أن يقول ان

الاسلام دخل هرر منذ سنة ١٠٠٠ للمسيح ، فهو فيها قديم جداً ولا يزال يطراً عليها أناس من جزيرة العرب ومصر ويثنون دعوة الاسلام من هرر في بلاد غالا Gallia الوثنية ، وقد نقصت هذه الدعوة قليلا بعد مجيء الحبش المسيحيين ، لكن مسلمى هرر لا يزالون معدودين من المتشددين في دينهم ، وقد ذكر المسيو موريه Morie الفرنسي في كتابه تاريخ الحبشة المطبوع سنة ١٩٠٤ . أن الامبراطور منليك بعد أن فتح هرر وبدد جمع الأمير عبد الله على عبد الشكور ، هدم الجامع الأعظم في هرر وأقام محله كنيسة . ولم يقل ان أهل هرر تركوا الاسلام ، ولا أحد قال انهم تركوه .

ثم قال انه كان عمل البشرين شاقاً في البلاد الاسلامية ، فهذا من أجل كونهم يحاولون وضع عقيدة أمم راقية جداً محل عقائد أقوام هم في أدنى الدرجات . فتحن نسك القلم عن الرد على هذه الفقرة التي لا تدل على شيء سوى قحة كاتبها على حين أن الاسلام يهزأ بهن المظاعن على أن لابون يجعل نصرانية القرون الأولى (١) أيضاً من قبيل الاسلام في ملاءمته للمستوى العقلي المنخفض ، فليتأمل الانسان وايتدبر في قحة هؤلاء الناس حتى على الدين الذي ينتمون اليه ، ويريدون بث دعوته بزعمهم .

وبعد أن أشار بالتضييق على التعليم الاسلامي ، ومراقبة من يواظب على صلته من مسلمى السنيغال ، وبين مضار الحج ، وحرص على جميع هذه التدابير ، التي يعلم منها مبلغ احترام هؤلاء القوم للحرية الدينية ، عاد فأشار بالطرق الآتية الى قلع اللغة العربية من شمالي افريقية ، وجعل الفرنسية لغة الأهالي .

ومن الغريب أنه استشهد على وجوب هذه الطريقة ، بكلام بول برت الذي يقول : ان حل المسألة العربية هو بالسكتانيب ، وآتمنى أن أرى في كل قرية من قرى المغرب معلماً عربياً ومعلماً فرنسواً ، فكلام بول برت كلام رجل عاقل مجرب لا غبار عليه ، وليس منا من يصكره أن يتعلم مسلو المغرب وافريقية اللغة الفرنسية ، بل نود ذلك من صميم أفئدتنا . وانما الذي يعارضه المسلمون بكل قوتهم هو أن تحمل اللغة الفرنسية محل اللغة العربية ، وتصير هي لغتهم القومية ، اذلا يوجد في الدنيا قوم يرضون بسلب لغتهم مهما كانت ، لما ظنك بالناطقين بالعربية التي يفتخر بها كل منسوب اليها ، ويجعل قدرها

(١) أي النصرانية التي هي قرية العهد من السيد المسيح والحواريين

حتى الغرباء عنها . وأما استشهاده بانتشار اللغة الفرنسية في الشرق وزعمه أنه قد تعلمها الأكراد والترك والعرب والأرمن والكرج الخ ، فمع كونه بالغ في دعواه هذه بمبالغة عظيمة إذ ليس الامر كما يقول ، وان تعلم الفرنسية منحصر في الطبقة الراقية فقط ، فإنه لا ينطبق على الغرض الذي يتوخاه ، لأن مقصود هذه الفئة المستعمرة أن تحموا اللغة العربية تدريجاً من المغرب ، وتحمل الناشئة الاسلامية منذ الصغر على اللغة الفرنسية توسلاً بذلك الى محو الاسلام ، القائم هناك باللغة العربية . مع ان الأمم الشرقية التي يذكر أنها كلها تعلمت اللغة الفرنسية لم تجعل هذه اللغة لسانها القومي ، بل جعلتها في مقدمة اللغات الأجنبية التي يناسب تعلمها لاغير ، فلذلك لم يحدث من تعلم الفرنسي أذى محذور ما دام تعلماً اختيارياً لا يضر باللغات القومية ، بل يزيد عليها علماً . ولكن متى حاولت فرنسا عمداً وقصداً قلع اللغة العربية رأساً وتدرجياً ، وقصر المغاربة على الفرنسية ، قامت عليها القيامة في جميع تلك الأقطار وفي غيرها ، وأظن أن العقلاء في فرنسا يدركون استحالة ذلك .

ولقد تقدم في هذه العجالة ما يكفيننا مؤونة الرد على سائر كلامه ، الذي تجده كثيراً ما ينقض بعضه بعضاً ، ومن جملة تناقضاته أنه بعد كل جلالة الشديدة على الاسلام يقول انهم لا يحذرون في تونس من عامة الأهالي الراضين في السعادة والامان^(١) ولا يحذرون من الاسلام نفسه ، الذي أعلى نفوس هذه الأقوام ، حتى تحملت ما تحمته من الخسائر الفادحة . فعرف هنا أن الاسلام يعلى النفوس ، وينهض بالهمم . قال ولكنهم يحذرون من تلك الطبقة المتعلمة الذين قرأوا أشياء فاسدت هضمها عقولهم . ولعمري ما من أمة في الارض قام بتحريرها الا نباهها والطبقة المتعلمة منها فلماذا اذا قام الأروام أو البلغار أو الصرب أو الأرمن أو الكرج الخ ، بطلب استقلالهم كانت الطبقة الناهضة منهم محل اعجاب اوربا وثنائها ، وعطفت جميع تلك الدول المتمدنة عليها ، فاذا جاء الدور الى أمة مسلمة تطلب تحريرها ، قامت اوربا سدأ في وجه مطالبها ولو كانت هي اليوم أرقى من هاتيك الأمم عند ما نهضت للاستقلال ؟ لماذا كل ما هب قوم من الشرقيين والمسلمين ل طرح نير

(١) كما هم راضون أهل سورية الآن بل أهل سورية لا يزالون أسعد حالاً لأن اليد لا تمتد الى غضب أراضيهم وأوقانهم

العبودية عن أعناقهم رموا بالتعصب والتعنت ، وكرهية الأوربيين ، وقيل ان ذلك هو من عمل القرآن في قلوبهم ، ومن تحريض رجال الدين . وان كان الطالبون منهم هم من الفئة التي طلبت العلم في اوربا ، وانصفت بعدم الدين ، قيل انهم طبقة قد قرأت أشياء لم تحسن هضمها ، هذه الجملة التي لا تزال نجدتها في كلامهم بكثرة وأصيلا ، كلما تكلموا عن أمة اسلامية أو شرقية يطالب نهاؤها بتحريرها قالوا عنهم هذه الجملة : قرأوا أشياء أساءوا هضمها .

اجال الكلام أنهم غلبوا على هذه المستعمرات واستعبدوا هذه الأمم ، فيريدون أن يحتاطوا لأجل تأييد سلطانهم عليها بجميع الوسائل ، ولا يقفون عن شيء في سبيل احكام سلاسل هذه العبودية ، ظانين أنهم يحفظونها راسفة في هذه الأصفاد الى الأبد ، فتراهم يفكرون في تهينة الأسباب لاستئصال كل ما يخشون وقوفه في وجه ما آربهم السيئة ، من دين ، ولسان ، وقومية ووطنية وما هم بقادرين على شيء من هذه المكاييد الشيطانية ، التي لا يزيدهم استعمالها الا خبالا . وان كان نعمة أمل بحسن العلاقات وتمكن الألفة بينهم وبين تلك الأمم ، فلا يكون الا بسياسة العدل والمساواة ، واحترام ديانتهم ولغتهم ، والعدول عن تلك الأساليب الاستعمارية الخبيثة مما هو برنامج احزاب الشمال منهم .

وان كان ظن هؤلاء الجماعة أن تنصير السودانيين أوالمغاربة ، يؤمنهم أبديا على تلك المستعمرات ، ويكفيهم شر استقلالها مما صرح به بقوله : « لسا في الجزائر كالانكليز بمصر اذهم يعمدون فيها على أقلية قبطية » . فهذا وهم عريق في البطلان ، لأن هؤلاء الأمم سواء كانت مسلمة أو نصرانية ستطلب استقلالها وتأخذها وأنت ترى أن أمما كثيرة نارت على أمم كانت تسودها ، ولم يمنع من ذلك اشتراك السائد والمسود في الدين ، ولديك امبراطورية النمسا أعظم شاهد ، وان قيل ان ذلك يكون في أوربا المتقدمة لافي أفريقية أيننا لك بمثل الحبشة مع انكلترة ، ثم مع ايطالية ، أفتحملت الحبشة حكم الطليان لكونهم نصارى وكونها هي نصرانية ؟ كلا . ثم يقول لسا كالانكليز الذين يتوكأون بمصر على أقلية قبطية . فهذه لعمرى مكابرة في المحسوس ، اذ يكاد أن يكون الأقباط بمصر أشد تمسكا باستقلال مصر وجلاء الانكليز عنها من أنفس المسلمين ، فأى توكؤ توكانه انكلترة عليهم ؟ وأعجب من هذا أن الزنوج الذين تنصروا في غربي افريقية يكرهون الأوربيين

كما يكرههم الزوج المسلمون وتجد الفريقين متحابين يود بعضهم نجاح بعض ، وقد تلاقى بعض المسلمين مع بعض كبار السودانيين النصارى في لندن ممن هم حكام في بلادهم تحت سيطرة الأوربيين ، فوجدهم يتمنون فوز المسلمين كما يتمنون فوز أنفسهم . وفى العام الماضى تقابلنا فى جنيف باثنين من رجال جمهورية ليريا فى غينية^(١) وكانا من الأوربيين يمثلان ليريا فى جمعية الأمم ، فأخبرانا ان هذه الجمهورية التى تأسست سنة ١٨٢٢ للعبيد الذين تحرروا فى أميركا ، واعترفت الدول باستقلالها سنة ١٨٤٧ ، يسكنها اليوم مليون ونصف مليون نسمة ، منهم مليون وثمانمائة الف مسلم ، وثلاثمائة الف مسيحي وبينهم ٥٠٠ أوربى فقط . والمسلمون والمسيحيون هناك يعيشون كالاخوة ، ويغارون جميعاً على وطنهم . فهذا سيكون مصير افريقية فى يوم من الأيام بازاء المستعمرين ، ولا ينفع الأهالى كون أهل افريقية من هذا الدين أو ذاك الدين .

ولنأت بشاهد آخر على نيات الفرنسيس بحق مسلمى مستعمراتهم ، وهو كتاب للسيو بر يفيه J. Brévié . والى بلاد النيجر الفرنسيوى ، الذى عليه صفة رسمية ولا يمكن أحداً أن يمارى بقوله انه كاتب منفرد برأيه الخاص ولا انه خال من الصبغة الحكومية ، فانظر ماذا تقول جريدة الاوفر L'œuvre ، المعروفة انها من الجرائد الحرة ومن حزب الراديكال فى عددها المؤرخ فى ٢٢ يونيه سنة ١٩٢٣ . تحت عنوان :

الجنس الأسود والاسلامية

فدنشر المسيو بر يفيه حاكم مقاطعة النيجر كتابا متعماً ، يشرح فيه المقاومة الناجحة التى تبديها الأمم السوداء للاسلام فى السنين الأخيرة ، حال كونه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، غلب الاعتقاد بأن جميع الأجناس الزنجية صائرة الى الاسلام لامحالة ، فالآن مشهودة حركة بالعكس ، وبالرغم من الوعظ والارشاد اللذين يقوم بهما البشرىون المسلمون تجد الزوج متمسكين بعقائد آبائهم وعادات أسلافهم .

فالمسيو بر يفيه فى كتابه المسمى « الاسلامية ضد الطبيعية . فى السودان الفرنسيوى » Islamisme contre Neturalisme au Soudan Français يعترف أنه مهما كان من مدنى الفتيشيين فى درجات الحضارة فليس من المستحيل عليهم الترقى والتمدن ضمن دائرة

قوميتهم وخارجا عن الاسلام . ففي السنين الأوائل من استيلاء فرنسا على غربي افريقية كان عمالنا بسبب معرفتهم المدنية الاسلامية يميلون الى دعاة الاسلام الذين أمكنهم هكذا ان يبنوا بكل أمان تعاليم هي في الظاهر أرقى من عقائد الفتيشيين (تأمل) أما الآن فتقهقر الدعوة الاسلامية ، أمر لم يبق فيه شك . وان احصاء عدد الناشئة المتعلمة من المسلمين يتناقص في بلاد النيجر ، كما انه لم يتقدم الى الأمام في سائر البلدان التي امتد اليها الاسلام من قبل . وقد عزا المسيور برفيه هذا التقهقر الاسلامي الى تناقص عدد الزعماء ، والى تزايد عدد مدارسنا التي زاحت مدارس المشايخ المرابطين ، والى الغاء تجارة الرقيق التي هي من الأركان الاقتصادية عند تجار المسلمين ، والى الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع .

فالآن سياستنا عاملة بهذه المبادئ ، وقد توزع بلاغ على مأموري الادارة مصرح فيه بما يأتي : « يجب التزام الحياد مع الانتباه التام بحيث ان كلا من فريق الاسلام والفتيشية يمكنه أن يترقى وينمو في وسطه بدون تسلط هذا على عقيدة هذا » .

وقد وجد الأنسب حفظ تلك الهيئة الاجتماعية ، التي كان لها في الماضي زعماء تمثل عاداتها ، والتي هي الصورة الحقيقية لمزج ذلك العرق الأهمود . وابقاء تشكيلاتها البلدية المبنية على مبدأ المشيخة ، والعمل بأحكام قضاتها ، الذين كان يضرب بعدلهم المثل حتى يقال في الحكم الذي قد استوفى شروطه : « هذا حكم من أحكام البامبارة القدماء » .

والحقيقة أن الغرض هو احياء عادات الزوج القديمة وتقاليدهم الموروثة التي نشأوا عليها ويقول المسيور برفيه : « انه يوجد من ذلك قواعد قضائية كافية لأجل حل المشكلات الاجتماعية وفصل الخصومات الفردية ، وهي من وجوه كثيرة لا تقل متانة عن الشرع الاسلامي . وانه يجب علينا أن نجتمع تلك الهيئة الاجتماعية ، التي توشك أن تنحل ، والتي هي متفرقة أشتاتا حول تلك الأصول القديمة . انتهى » .

فليسمح لنا القارىء أن نأخذ من هذا الكلام النتائج الآتية :

أولا - ان كتاب حاكم مقاطعة النيجر الفرنسي ، والمشور الرسمي الذي أشار بصدوره الى مأموري الادارة يدلان دلالة واضحة على كون فرنسا قد بدأت تقاوم انتشار الاسلام بنفوذ الحكومة ، وان عبارة وجوب الحياد مع الانتباه لمنع تسلط عقيدة أمة على أخرى ، هو من قبيل التميويه ، فانه ولا في وقت من الأوقات تسلط الاسلام بالقوة في المستعمرات

الفرنسية على عقائد الفتيشيين ، كما أنه ولا في وقت من الأوقات روج عمال الحكومة الفرنسية في المستعمرات الدعوة الاسلامية ، بل غاية ما هناك ان عمال الادارة الفرنسية لم يكونوا يناصرون الدعوة الاسلامية العداء ظاهراً ولم يجتهدوا في منع انتشارها كما هم يجتهدون اليوم ، وذلك كان منهم عملاً بمبدأ الحرية الدينية المشهور ، فالآن لما هاهم تقدم الاسلام بين الزوج قرروا توقيف نموه فعلاً ، بحجة أنهم لا يسمحون بتسلطه على عقائد الفتيشيين . وتحت هذه الجملة « منع تسلط عقيدة على أخرى » ، يعملون ما يشاءون لمنع المشايخ المرابطين من بث دعوة الاسلام بين السودانيين ، واقفال المدارس التي يمكن أن يفتحها المسلمون في قرى الوثنيين ، وغير ذلك من التدابير التي ليس على الفرنسيين فيها من رقيب ولا حسيب هناك ، ولا ينتظر القارئ أن يجدها مكتوبة على الورق وان كانت جارية بالعمل . ولا شك ان اغتباط حاكم النيجر بعدم تقدم الاسلام ، في هذه السنوات الأخيرة فيما بين الزوج ، وتفاؤله بحسن المستقبل ، هما من آثار التدابير الحكومية التي اتخذتها فرنسا لمنع انتشار الاسلام ، والتي يشير بها روجر لابون وأمثاله ، لوقف الدعوة الاسلامية في غربي افريقية وأوسطها . وافد ظهر هنا اننا كنا على صواب في قولنا ان آراء روجر لابون لم تكن آراء فرد مستقل بفكره ، بل هي آراء الحزب الأغلب بفرنسا بدليل كتاب المسيو بريفيه هذا ، والأوامر الرسمية الصادرة في هذا المعنى .

ثانياً - يظهر جيداً من قول الحاكم المذكور ، وكلام جريدة الاوفر ، أن الفرنسيين عولوا على احياء عادات الفتيشيين وعقائدهم ، واجزاء الأحكام بموجبها ، ومعلوم انه لم يكن ذلك اعجاباً بها ولا اعتقاداً بأنها تشبه الشريعة الاسلامية في شيء ، بل من باب اختيار أهون الشرين عليهم ، فانهم لما رأوا دعوة التبشير الأوربي غير ناجحة بين الزوج كما يرومون ، وانه لانسبة بين ما يكتبه الاسلام وما تكسبه النصرانية في افريقية ، بسبب كون الأسود يكره الأوربي فطرة وينفر من تقليده في دينه ، عادوا فرأوا ان بقاء الفتيشيين على عقائدهم الوثنية هو أوفق لمصلحة فرنسا من تدينهم بالاسلام ، فوجدوا الاحزم أن يعملوا لتأييد الفتيشية ، ويجعلوا عاداتها وعرفها قوانين جارية معمولاً بها ، ويعترفوا بافضية الفتيشيين ، وبالجملة فكل شيء يهون عند الأوربي — الا النادر الاندر — بالنسبة الى فوز الاسلام ونجاح دعوته .

ثالثا - من كلام الميسور يرفيه يتبين أنهم بدأوا بقصر القضاء الشرعي الاسلامي ، لقوله ان من جملة أسباب تناقص النشء الاسلامي ، هو « الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع » فانت ترى ما في ذلك من الاخلال بمبدأ الحرية الدينية ، ومن معارضة المسلمين رأسا بأمور دينهم ، على حين ان الفرنسيس في الوقت نفسه يريدون احياء أفضية الوثنيين ، ويجعلون اصطلاحاتهم القديمة قوانين وأصولا يرجع اليها في الأحكام . ولا يبعد أن يكونوا قد اجبروا أنفس المسلمين على مراجعة قضاة الوثنيين توهينا لنفوذ الشريعة الاسلامية ، الذي هو هدفهم المرعى المتجلى وراء كل حركة من حركاتهم وتديير من تدايرهم . وان لم يكونوا اجبروا جميع المسلمين على ذلك ، فلا بد أن يكونوا ساقوا الى ذلك الزوج ، الذين أسلموا حديثا ، لأنه ظهر ان الحكومة الفرنسية عولت على ان لاتعترف باسلام من يريد أن يدخل في الاسلام من الآن فصاعداً من الأمم السوداء ، وقد أسلمت قبائل كثيرة في ماداغسقر ، فلم ترض السلطة الفرنسية في تلك الجزيرة أن تحصيها في المسلمين ، ولا أن تعتدها مسلمة بوجه من الوجوه ، واحتجت لعمليها هذا المخالف لكل حرية دينية ، بأن اسلام تلك القبائل هو خليط بعقائد وثنية . وربما يكونون اجبروا على التقاضي عند قضاة القبائل الوثنية من كان قد أسلم من هاتيك القبائل بحجة أنهم كلهم من أصل واحد ، فأمة « البامبار » هذه المنتشرة في السودان الفرنسية ليست بأجمها وثنية ، بل منها قسم كبير لاسيما أهل كارتا Kanarta مسلمون . والا فامعنى قول الميسور يرفيه ان من جملة أسباب تناقص الناشئة الاسلامية ، الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع الاسلامي ؟

رابعا - قد نوه الميسور يرفيه حاكم النيجر وتابعته جريدة الاوفر بمحاسن قضاء البامبار ، ومثانة أصولهم وأوضاعهم ، وظهر أن الفرنسيس يريدون أن يجعلوها دساتير للاحكام وصرح الحاكم المذكور انها لاتقل عن الشرع الاسلامي مثانة ، وغير ذلك من المزايم التي جملهم عليها مجرد رغبتهم في منع العمل بالشريعة الاسلامية . والحقيقة انه ليس عند البامبارة شيء من هذا ، فالبامبارة جيل من السودان الفرنسية يحدهم بلادهم شمالا السودان الذي يسكنه المغاربة من كولوودوغو Kulodugu الى تامباكاره Tambakara وجنوبا السنيغال الأعلى من مدين Medine الى بافولابه Bafoulabe أى بين ١٢ الى ١٤ من العرض الشمالى و ٦ الى ١٠ من الطول الغربى (من باريز) وهم أهم أجيال الجنس

المائدى . وقد وصفهم السياح الأوربيون بالعمل والحرص ، والاقتصاد ، أما عاداتهم وأوضاعهم ففطرية ، اذ الأب هورئيس العترة والمتصرف بها كما يريد ، والاولاد الى سن الرشد ارقاء له ، وهو يزوج بنته بدون علمها كما أن البنت متى تزوجت صارت أمة لبعليها ، والطلاق عندهم مباح ، كذلك تعدد الزوجات ، والارث ينتقل من الاخ الى الاخ . وكانوا ينقسمون الى طبقات ثلاث ، الاشراف وهم المحاربون ويقال لهم تونتيني ومعنى تونتيني قوأس ، ثم الفلاحون ، ثم العبيد ، أما الآن فيرأسهم الاسر الملوكية القديمة مثل بنى «كاروبالى» و«دياره» و«ماساسى» ويأتى بعدهم طبقة يقال لها «نومو» أى الحدادون ، ثم طبقة يقال لها «غارانغوى» أى صناع الجلد ، ثم طبقة السحرة ، ثم الارقاء وكل قرية من قراهم ، لها زعيم يفصل فيها الخصومات بموجب أصول يتوارثها الخلف عن السلف . وهذه القرى المرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً واهياً لاتشند أواخيه فيما بين البامبارة الا عند قتال عدو عام ، كما حصل فى حروبهم مع الاسلام . وللبامبارة لغة اسمها «البلماناكا» هى من جملة لغات امة المائدى ، وهى فى منتهى الاختصار ، فليس من حالات للاسماء ولا للأفعال ، بل هى تلزم حالا واحدة فى المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والحاضر والماضى والمستقبل . والكتابة عندهم قليلة وإنما يستعملون لها الحروف العربية ، وليس للفتح آداب ، وإنما هى أخبار وقصص لاتنتهى الى أبعد من القرنين الاخيرين ، وبعض أغاني يرقصون عليها . وأما دياتهم فهى وثنية محضة ، وكل عائلة عندهم لها حيوان معبود اسمه تنة Tenne لايقدر ان يقتلوه ، ولا أن يأكلوه ، ولأن ينظروا اليه اجلالاً له . ويعتقدون ان الاسلاف ، هم حافظون للاخلاف ، لذلك يدفنون موتاهم فى دهايز بيوتهم ، ويضعون اشارات على مدافنهم كصور وجوه أو أيد ، ويقدمون عليها القرابين ، ومن قبل كانوا يذبحون الاسرى . وكثيراً ما يعبدون أشجاراً يذبحون أمامها الحيوانات قربانا ، من غنم وكلاب وديكة ، وربما قدموا لها الفواكه والحبوب . وهم يسبحون مثل هذه الاشجار المقدسة بالعليق . وأما السحرة ، فهم عندهم بمثابة الكهنة يخرجون من طبقة الحدادين . ولهم جمعيات سرية ، ويتكهنون بالمقبيات ويفحصون احشاء الحيوانات التى تقرب بذبحها ، ويطوفون فى الليالى بين القرى مرتدين البسة مخيفة يقصدون بها القاء الرعب . وليس للبامبارة تاريخ معروف سوى انهم كانوا من جملة الاجيال

التابعة لسلطنة مالى الاسلامية، فلما سقطت هذه السلطنة أصبحوا مستقلين بأنفسهم، وأسس أحد زعمائهم المسمى «كلاديان كور وبارى» على البلاد الواقعة على ضفتى النيجر مملكة واسعة، وقام من بعده أولاده فتنازعوا فيها بينهم حتى آل الملك الى أحد احفاده المسمى «يتو»، فجمع تحت حكمه جميع بلاد البامباره وملك مدة ٣٠ سنة، وخلفه ابنه فوسع ملكه، ثم جاء ملك اسمه «نقولو» فبسط ملكه حتى حدود تمبكتو. وفى النصف الاول من القرن التاسع عشر كان منهم ملوك أعزة فى «سيفو» و«مانسونغ» و«دودياره» تغلبوا على بومباريه «كآرتا» و«ضربوا الجزية على أهل «ماسينا» و«فوتا» (١٨٣٠) وكان لهم اماره أخرى فى «الكآرتا» أسسها فى أواسط القرن السابع عشر «ساكبا» ابن كلاديان كلر وبارى، ثم انتقل الملك من أعقابه الى اماره أخرى صاحبها «سيه ماسا» استمرت فى أعقابه الى أواسط القرن التاسع عشر فى «نيورو» هذا هو ملخص تاريخ البامباره.

وفى أواسط القرن التاسع عشر، ظهر الحاج عمر الشهير ملك «التيكولور» فاستولى على الكآرتا وأزال ملكها، وزحف الى مملكة سيفو، وكان ملكها قد تحالف مع ملك ما سينا لصد الاسلام، فسقط كلاهما ودخل الحاج عمر الى سيفو فى ١٠ مارس سنة ١٨٦١ وأقام بكر أولاده ملكا عليها. ولكن البومباره اتقضوا عدة مرار على المسلمين، وفاز منهم قوم «البليديفو» بالاستقلال، وقطعوا ما بين سلطنة التيكولور ومملكة سيفو، ودام ذلك النزاع الى سنة ١٨٩١، اذا وصلت الجيوش الفرنسية واحتلت البلاد وأزالت سلطنة التيكولور الاسلامية. وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية، ان البومباره يمثلون فى السودان الفرنساوى، العنصر المحاصم للاسلام. وقد أيد هذا القول كلام حاكم النيجر فى كتابه السابق الذكر، وسياسة الحكومة الفرنسية التى يظهر انها تريد لتحيي العداءة التى كانت عند هذه الأمة للاسلام. وتجعل البامباره سداً فى وجه المسلمين. فأما الأصول والعادة التى أشار المسيو بريفيه الى متانتها من تقاليد البومباره، فقد مر بك من مجملها ما تعلم به انحطاطها وانحطاط عقائد أولئك القوم، الذين يعبدون الحيوان والشجر وما أشبه ذلك، ولا ينحجل المسيو بريفيه من أن يقول: «انها لا تقل عن الاسلام متانة وان تعاليم الاسلام هى - فى الظاهر - أرقى من تعاليم الفتيشين». ومتى كان الوالى من

ولاة الفرنسيس على تلك الديار ، يبلغ به التعصب وموت الضمير حد أن يقول مثل هذا القول ، فإذا تأمل من عدله وانصافه بين هاتيك الرعية ...

خامساً - تحقق هنا بالرغم من تمويه الأمر الرسمي الذي يوصى بالمساواة ، أن فرنسا تحاول هناك بنفوذها وقوتها، وكل وسيلة لديها ، أن تمنع انتشار الدعوة الاسلامية ، وتفضل ، أن يبقى الزوج على عبادة الحجز والشجر والكب والهرو غير ذلك ، على أن يديوا بهذه الديانة السامية النقية ، التي هي الاسلام . وهذا لعمري منتهى الغلوفى العدوان ، اذ لا يشك أحد في كون المسلمين يريدون ان كان هؤلاء الزوج لم يشرح الله صدرهم للاسلام ، أن يدين هؤلاء بالنصرانية ، ويردوا شرعة تهذيبها ، ولا يستمروا على تلك العقائد التي لا تليق بالانسانية . وافند تذكرنا بهذه القضية قصة رواها المؤرخون ، ونقلها المستشرق الفرنسيساوى العلامة البارون « كارادوفو » Kara de Vaux في كتابه « ابن سينا » وهو أن الخليفة المأمون العباسي بينما كان مرة غازيا بلاد الروم ، مر ببلدة حران ، فالتقاء أناس بزى غريب وأثواب ضيقة يرخون ذوائبهم فسأهم : من أنتم ؟ فقالوا : حرانيون . فقال ، أنتم نصارى ؟ قالوا ، لا . قال أفيهود أنتم ؟ قالوا لا . قال أفعنسكم كتاب الهى أو لكم رسول ؟ قالوا لا . قال لهم ، ان كنتم لا ترغبون في الاسلام ، فتنصروا ، أو تهودوا ، واتخذوا ديناً يعرفه الاسلام . فأنت ترى أن المسلمين لا يضيق صدرهم بنصرانية الوثنيين ، ولكن الأوربيين يفضلون كل انحطاط فيتشى على كل معالى الاسلام ، وهم مع هذا يدعون خدمة الانسانية والمدنية .

ونختم هذا المقال بكلام قاله الحاج عبد الله الجزائرى زريل برلين ، في مقالة نشرها في مجلة العالم الاسلامى الألمانية^(١) وذلك على « الآباء البيض » الذين أسس رهبانيتهم الكردنيال لا فيجى ، وأرسلهم يطوفون في بلاد الاسلام بافريقية بزى المسلمين ، ويدخلون في كل ناد ويتحككون بكل عائلة ، ويتوسلون بكل وسيلة لاجل بث دعوتهم بين الناشئة الاسلامية ، متسلحين لذلك بنفوذ الحكومة الفرنسية ، التي هي عضدهم أينما ذهبوا وكيفما انقلبوا . فبعد أن أفاض الحاج عبد الله الموما اليه ، وهو من خيرة رجال العلم والادب ، والمتمكنين من اللغة الفرنسية في ذكر الفتن التي أحدثها هؤلاء الآباء البيض

(١) التي كان يصدرها أثناء الحرب الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش والاستاذ عبد الملك بك حزة

في وسط الأمر الإسلامية بالمغرب ، والعقائد التي تخلخلت على أيديهم ، والبشوق التي انفتحت بواسطتهم ، وكيف أن الحكومة الفرنسية - التي يقولون انها لا تقوم بدعوة دينية - كانت تميز المنتصرين على غيرهم، وتعفيهم أحياناً من العقوبات ، وتستنيهم بما لا تستثنى منه غيرهم ترغيباً لهم، في أن يصبأوا عن دينهم قال ما يأتي : « نحن لا نريد أصلاً بهذا أن نوجه أدنى طعن على الدين الكاثوليكي ، ونحن نعلم أن جميع الأديان جيدة ، وأن كلاً منها يدعو المتسكين الى الفضيلة وحسن التربية ، ولا نعترض فيما لو كان المسلم يصبأ عن دينه باقتناع وجدانه ، وإنما دعوة الآباء البيض لها شكل آخر ، فانهم يهجمون على الاسلام في كل مكان ويحولون بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، ويخربون نظام العائلات فيضطر الأب أن ينكر ولده ، والأخ أن يهجر أخاه ، والعشيرة أن تبرا من بعض أبنائها . وغالباً يخرج مثل هؤلاء الذين اجتذبهم الآباء البيض مفسدين لا هم من الجياد لا في الاسلام ولا في النصرانية . »

ونحن نرى أن ارضاء العنان للآباء البيض في بث الدعوة الدينية بين مسلمي افريقية وتحرش فرنسا بهذه المسائل ولو من تحت ستار مما يضرها في سياستها ، ويجر عليها من المتاعب أضعاف ما تتوخى ربحه ، فانه لا يهيج الاحقاد ولا يورث الضغائن شيء ، مثل المنازعات الدينية ، التي لا يفلح قوم جعلوها قطب رحى سياستهم .

الاسلام في افريقية^(١)

للشيخ

من أعظم الكتب المؤلفة في هذا الموضوع كتاب
« الاسلام والنصرانية في افريقية » تأليف المسيو بونه موري

L'Islamisme et le Christianisme en Afrique G. Bonet Maury

وقد نقل عنه المستر ستودارد بعض أشياء ، ونحن نلخص منه ما يأتي ، لأنه جمع
فاوحي في تاريخ مسابقة الاسلام والنصرانية في القارة الافريقية . قال :

« ان الاسلام انبسط على افريقية الشمالية الغربية ، فتحولت هذه الاقطار دار
اسلام رغبة أوكرها ، لكنه افتتح افريقية الشرقية سلباً . وكان مبدأ ذلك بواسطة تجار
العرب والهنود الذين كانوا يفدون على تلك الديار زرافات ، فوصلوا الى رأس Guardafui
والى جنوبي Capricorne . ولقد وجد منذ القرن الألف بعد المسيح مسلمون في كيلوان ،
على أكثر من ٢٠ من العرض الجنوبي أدنى من زامبازه Zambéze » الى أن يقول :
« في أواخر القرن الحادى عشر (للمسيح) طمست أكثر الكنائس الارثوذكسية التى
كانت تمتد على ساحل افريقية الشرقية ، ومن مصر الى المغرب الا بعض جماعات لبثت
أشبه بجزر صغيرة مجهولة ، فى وسط الاقيانوس الاسلامى . ولكن هناك كنيسة بقيت قائمة
على صخرة المتانة معتصمة بجبالها ، وهى الكنيسة الحبشية التى بمركزها وشجاعة أبنائها
الجيليين ، صلت جميع غارات الاسلام . وقد كان هؤلاء الأحباش من أتباع الكنيسة
المنشقة ، لا يعرفهم الكاثوليك الرومانيون ، ولا الارثوذكس البيزنطيون . »

ثم قال : « بعد أن وطد دعاة الاسلام دعائم هذا الدين فى جميع سواحل افريقية
الشمالية ، قصدوا داخل البلاد ضاربين الى الصحراء التى يسكنها البربر ، وفاقوا فى ذلك
أساقفة افريقية اللاتينية الذين فى أوج عزهم وسلطانهم لم يفكروا فى نشر الدين المسيحى
فى تلك الجهات . فزنج السودان تلقوا القرآن من جهتين احدهما البربر المسلمون ،
والثانية قوافل العرب ، التى كانت تحترق فزان والواحات الى تمبكتو . فسلطين دولة المرابطين

(١) راجع صفحة ٣٠١ و ٣٠٢ من الجزء الاول

وكانوا متحمسين جداً في الاسلام ، خرجوا من مراکش قاصدين أواسط افريقية لحل أهالي بلاد غانة ومالي على الاسلام ، فظهر أبو بكر بن عمر من أعوان الملك سني على ، وهو بربري الأصل ، وشيد مملكة السونفاي في غانة سنة ١٠٨٧ ميلادية وهوؤلاء السونفاي هم من الجنس النوبي ، رحلوا من مصر العليا عند الفتح العربي ، وكانت لهم دولة لم تبدأ بالانحطاط الا في زمن فتح المنصور (السعدي) سلطان مراکش للسودان .

فد رواق سلطانه الى أبعد من زاوية النيجر ، وجميع البلاد المعروفة الآن بساحل الذهب ، والداهومي ، وبلاد نيجريا ، الى بحيرة تشاد . وقد كانت هذه السلطنة تنقسم الى أربع ممالك ، وكانت قاعدتها جنة Djenné التي كنت ترى فيها التجار والعلماء من المغرب الأقصى والجزائر ومصر ، وكانت سفائن هذا السلطان تسري في النيجر ، وقوافل الصحراء تحمل البضائع الى أطراف هذه السلطنة ، فتنقل الذهب والعاج والنحاس والمسك ، ودين محمد . وابنت المرابطون في القرى ، يعلمون القرآن والكتابة بالعربية . وكان أبناء المشايخ يأتون الى تمبكتو لتحصيل العلم ، فلم تكن تمبكتو سوقا لتجارة أواسط افريقية فقط ، بل كانت دار علم انتشر ذكرها حتى سواحل البحر المتوسط . ولما مات أبو بكر بن عمر في سنة ١١٢٠ ، كانت بلاد النيجر أو نيجرينيا الى حدود الكونغو اسلامية .

هداما كان من جهة البربر وأما العرب ، فان احدي فصائل بني هلال تقدمت من نواحي طرابلس الى واحة « ودّان » ومن هناك الى « والانه » ثم تقدمت نحو السودان ، فتلاقت مع البربر الآتين من الشمال الغربي واختلطت بهم ، وصارت تمبكتو التي اختطها الطوارق في سنة ١٠٧٧ ، مركزاً للدعوة الاسلامية نثبت منها الى كل الجهات .

وفي الجنوب الغربي وصل الاسلام الى البامبارة bambarras والمادينغ Madinges والبله Peulls ، الذين في القرن التاسع عشر صاروا أشد حاته وأجهد دعائه ، في بلاد النيجر والسينغال الأعلى . وكان في بلاد المادينغ المسماة بلاد الملّ Melle قد أسلم الزعماء والأشراف والتجار منذ القرن الثاني عشر ، وبقى العامة فتيشين . ووصل الاسلام في الجنوب الشرقي الى بحيرة تشاد ، في القرن الثالث عشر . وأما في الشمال الشرقي ، فكانت الغاله Gallas والنوبة ، قد دخلوا في الاسلام بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٣٥٠ .

ثم قال تحت عنوان « مساعدة الاسلام على تمدن افريقية » ما يأتي :

« لم ننظر الى الآن نتائج الفتح العربي الامن الوجهة الدينية ، مع انه يجب أن نعرف هل كانت للاسلمين في هذه الصفحة الأولى من استيلائهم (٦٣٨ - ١٠٥٠) يد في مدينة افريقية الشمالية أم لا ، وهل كان لهم سهم في نشر العلوم والآداب والصناعات ، أم لا . ففي هذا المقام يلزم أن نفرق بين مصر والمغرب ، لأن الفرق بين مدينتي هذين القطرين الذي أولها أخذ عن اليونان ، والثاني عن الرومان ، لم يخل من التأثير في ثقافته الاسلامية .

فلننظر أولاً الى مصر وقبل كل شيء يجب أن نصحح خطأ شاع طول القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر . والحال أن العرب في ذلك العصر كانوا أشد اعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم ، من أن يقدموا على عمل كهذا . كما انه معلوم أن قسماً من تلك المكتبة ، كان احترق في أثناء ثورة الاسكندريين ، التي احترق فيها أسطول قيصر ، وأن قسماً آخر أحرقه المسيحيون في القرن السادس . واختط العرب الفسطاط وتركوا للقبط ممفيس ، ولم يعترضوا القبط في دينهم ولا عاداتهم ، وأطلقوا لهم الحرية في انتخاب البطرك ، وبناء الكنائس . وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة ، هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين ، من رمي فتاة في النيل كل سنة التماساً لفيضانه .

وبعد أن انفصلت مصر عن بغداد ازدهرت المعارف والفنون في مصر ، وتأسست بمصر المدرسة الجامعة الباقية الى اليوم ، وهي الأزهر . وكان لها مكتبة فيها ٦٠٠٠ مجلد ، وكرتان تمثلان الأرض ، وبنى مرصد فلكى ، اشتغل فيه علماء من الطبقة الأولى مثل ابن عيين صاحب الزيج الحاكي . وصحح العرب بمعارفهم الفلكية وبتدقيقات سياحهم ، أكثر نظريات الجغرافيين اليونانيين ، ويكفيك ذكر المسعودي وابن حوقل وابن بطوطة وأبي الحسن لانهما شأوا العرب في علم الجغرافية ، وان من الأسباب التي دعت الى احتفال العرب بهذا العلم ، ما فرضه القرآن من الحج ولو مرة واحدة الى مكة . أما في صنعة البناء فمع كون العرب احتدوا شيئاً على مثال البيزنطيين ، لا ينكر أنهم تركوا فيها آثاراً خالدة مثل قصر الخلافة في القاهرة ، ومثل القبة ، وزيزه بقر بلمرو (في صقلية) ، ولا ننس من المساجد جامع الحسن ، وجامع عمرو ، والأزهر . الى أن قال :

أما انتشار العلوم والآداب في المغرب ، فقد كان بطيئاً في البداية بسبب مقاومة البربر لها ، والفن التي وقعت بين أمراء الاسلام . ولكن فيما بعد شيبت المدارس والمساجد

في القيروان ، وبجاية ، وتلمسان . وكان في بجاية في القرن الثاني عشر علماء نوابغ ، وفيها كان المتصوف الكبير أبو مدين ، وفيها تعلم ليونارد بوناكسي الحساب والجبر والهندسة . وكان في تلمسان أيضا مدرسة شهيرة أقرأ فيها ابن خلدون وغيره . وفي القرن الماضي تخرج فيها محمد السنوسي . وهناك جوامع شهيرة في الحسن مثل جامع سيدي عقبة ، المنبئ على مرقد الفاتح المذكور ، وجامع سيدي أبي مدين في ضواحي تلمسان ، ثم الجامع الكبير في القيروان . وكل هذه لا تداني في الروق والبهاء جوامع مراکش . (وأطال في وصفها)

وخلاصة فصله هذا هو ما يأتي :

« ان حصة الاسلام في مدينة افريقية كانت أقل من حصة النصرانية فيما يتعلق بتنفيذ الأهالي وتربيتهم ، ولكنها أهم في العلوم الصحيحة وصنعة البناء . »
 ثم قال تحت عنوان « قيلم النصرانية لأخذ النار » نقله ملخصاً لطول شرحه :
 « في القسم الاول من القرون الوسطى ، أهملت أوروبا المسيحية افريقية ، الا ما كان من مساعي بعض الباباوات . ولكن تألفت فيما بعد الرهبانيات وجدت الحركة الصليبية ، وكانت سيرة مسلمي المغرب ومصر والشام الى ذلك الوقت تجاه النصارى ، سيرة تسامح وتساهل ، لا بل سيرة ولاء واحسان ، بخلاف الأمم المسيحية التي كانت سالكة تجاه الاسلام خطة البغض والعدوان ، بدون رحمة ولا هوادة . ثم لما وقعت الحرب الصليبية استمد مسلمو المشرق مسلمي المغرب لقتال الصليبيين . فتخلف المغاربة عن هذه النجدة لسببين ، أحدهما كون المغاربة بربراً أكثر مما هم عرب ، فلذلك كان اسلامهم فاتراً ، الثاني كون جيرانهم الفرنج ذوى علاقات تجارية معهم ، ولم يكونوا يطالبونهم بمالك وبلدان كما كانوا يطالبون مسلمي الشرق ويتقاضونهم أن يتخلوا لهم عن بيت المقدس . ثم بلغت العلاقات بين ملوك المغاربة والافرنج ، أن كان أمراء تونس ومراكش يستخدمون في جيوشهم جنساً من الافرنج يأذنون لهم باقامة شعائر دينهم علناً ، في السكن التي ينزلون بها (١) ، وكانت قد انقضت عدة معاهدات بين الأوربيين والمغاربة في القرن الثاني عشر والثالث

(١) يقال ان المأمون أحد سلاطين الموحدين كان عنده عمرة آلاف جندي افرنجي ، وكان قد شيد

عشر، أشهرها معاهدة بين جمهورية ييزا، وسلطان المغرب، وأمراء تلمسان، وجزر الباليار — عند ما كانت للعرب (٢٥ يونيو ١١٣٣) — . ومعاهدات بين جمهورية جنوى، والسلطان عبد المؤمن (١١٣٥). فكانت هذه المعاهدات تضمن للفرنج دماءهم وأموالهم، وتبيح لهم أن يتحاكموا عند فناصلهم، وأن يقيموا شعائر دينهم جهرا وكان ملوك الاسلام هم الذين يعطونهم عرصات الارض اللازمة لبناء الكنائس والمقابر. ومن الوثائق المشهورة الشاهدة بعظم التسامح الذي كان عليه ملوك الاسلام لذلك العهد، المعاهدة التي عقدها أبو عبد الله المستنصر صاحب تونس مع فيليب الجرى ملك فرنسا، وشارل دوق انجو، وتيبو ملك نافار سنة ١٢٧٠ وذلك بعد وفاة القديس لويس ملك فرنسا، والتي جاء بها في الشرط السادس « ان الرهبان والقسوس المسيحيين، يمكنهم أن يقطنوا في ممالك أمير المؤمنين وتعطى لهم الارض اللازمة، لبناء الكنائس والاديرة، ودفن الموتى. وللرهبان المذكورين أن يقيموا شعائر دينهم، ويلقوا المواعظ علناً كما لو كانوا في بلادهم ». فكثر بذلك عدد النصارى في بجاية وسردونية بقرب القيروان، وكذلك في المغرب الاقصى، حتى كان لهم مطران يقيم بفاس. ثم تحول الى مراكش (١٢٢٣) وبقى هناك كرسي للطران الى القرن السادس عشر. ولما استولى جوان الاول ملك البرتغال على سبتة (١٤١٨)، جعل هناك اسقفية ثانية. وكانت كنائس كاثوليكية عديدة في وهران، وتلمسان، وعنابة، وبجاية والمهدية، وتونس، وطرابلس وكان يخدم فيها الرهبان الفرنسيكان والدومينيكان، ولكن بث الدعوة المسيحية بين المسلمين كان محظوراً.

وكما كان عند بعض سلاطين الموحدين نجد من النصارى فكان أيضاً عند السلاطين المرينيين أخلافهم مثل هذا الجند، حتى طمعوا أن يستأثروا بحراسه بعض الثغور البحرية مثل طنجة، وسبتة، وسلا. وكتب البابا اينوشنسوس الرابع (١٣٤٦) الى السيد ملك المغرب كتاباً طويلاً، حاول فيه اقناعه باعطاء الجند الافرنجى الذي عنده قلعة من هذه القلاع البحرية تكون في عهدهم، وذلك بأن للملك المشار اليه أعداء أقوياء يمكنهم أن يباغثوه، ويسلبوا ملكه، وان أصدق أنصاره هم الجنود النصارى الذين عنده وما داموا في خدمته، فالدول النصرانية كلها تنصره، ولكن قد تطرأ حوادث غير منتظرة وتغلب

الكثيرة على الشجاعة ، فكان من المصلحة أن يعطى هؤلاء الأجناد المسيحيين بعض المدن البحرية المسورة ، ليعتصموا بها عند الضرورة فالسلطان السيد لم يسمع كلام البابا وجاء مطران مرا كس الى رومة (١٣٥٠) وجدد السى ، فكتب البابا الى السلطان المرتضى خلف السيد يلح عليه فى إجابة ذلك الطلب والا فهو يمنع المسيحيين من الدخول فى خدمته فلم يعبأ سلاطين المغرب بهذا الوعد ولا ذلك الوعيد ، ولا رضوا بأن يسلموا المرزقة الافرنج الذين فى جيشهم قلعة على ساحل البحر ، وبقى مع هذا عندهم أجناد كثيرة من الافرنج .

أما سيرة مسلمى الشمال الشرقى من افريقية ، فكانت تخالف فى هذا الموضوع سيرة مسلمى الشمال الغربى ، اذمن المعلوم أن الزحفة الصليبية الخامسة التى كان أكثر رجالها من الجمار والامان ، والزحفة السابعة التى قام بها القديس لويس ملك فرنسا كانت وجهتهما مصر ، فأثارت الحفيظة الدينية عند أهلها بعد أن كانوا أولا فى غاية التساهل مع المسيحيين فلما استرد المصريون دمياط (١٢٢٨) ، هدموا كنيسة مارمرقس فى اسكندرية وهدم السلطان قلاون عند توليه عرش مصر جميع المدن البحرية ، من الاسكندرية الى طرابلس الغرب وطردهم الافرنج من هذه المدينة . بعد أن كان مضى عليها نحو ١٤٠ سنة وهى فى حوزة امراء النورماندين أصحاب صقلية . وفى ذلك الوقت استقر فرسان ماريوحنا المطرودون من فلسطين ، ومن افريقية ، فى جزيرة رودس . وبلغ البغض أقصاه بين المسيحيين والمسلمين واضطر نصارى النوبة والغال Gallas أن يدخلوا فى الاسلام فى القرن الرابع عشر . ولكن الأحباش ازدادوا تمسكا بالنصرانية ، وأرسل النجاشى زيرا يعقوب وفدا من قبله الى مجمع فلورنسه (١٤٥٢) يلتمس توحيد الكنيسة الحبشية مع الكنيسة الرومانية ، ولما كان التصبب المنهجي شديدا بين الشرقيين والغربيين ، ترصد الأقباط هذا الوفد عند ما بهم من ايطاليا وقتلوه .

وكان كثيرون من أسارى الافرنج أرقاء فى بلاد الاسلام ، يشتغلون فى مزارع كبار المسلمين وهم فى أقصى درجة من الفاقة ، حتى كان بعضهم يصبأ عن دينه طمعا فى الخلاص من الرق . فأنشأ الفرنج جمعيات رهبانية لفداء هؤلاء الأسارى ، أشهرهم العصبة المسماة بالفقراء Alfakker من رهبان مار يعقوب الاسبانيولين ، وطائفة التالوثيين Trinitaires

ورهبان سيدة مرسى Notre-dame de la Merey وهاتان الطائفتان من الفرنسيين . وقد كان تأسيس نظام التالوثيين سنة ١١٩٨ ، على يد رجل اسمه يوحنا منى من البروفانس في جنوبي فرنسا ، وكان أتباعه يمشون على أقدامهم ولا يؤذن لهم بالركوب الا اذا مسهم الاعياء ، فيركبون الحير ، ولهذا لقبوا بالاخوان ذوى الحير . وانتشرت دعوتهم في كل أوروبا ، وكان لهم في فرنسا وحدها ١٥٠ ديراً . وقيل ان عدد من أنقذوا من أسرى المسيحيين من سنة ١١٩٨ الى القرن الثامن عشر يبلغ ٩٠٠ الف . وأما النظام الثانى المنسوب الى سيدة مرسى ، فكان غرضه منع الأسرى الفرنج من الدخول فى الاسلام وهم فى الأسر ، وكان من مبادئه إعجابهم استعمال السيف اذا الجأ الأمر لأجل الدفاع عن النصرانية ، وقبول الأسر والبقاء رهناً عند العدو ، لأجل منع الأسرى من التحول عن دينهم . وكثير منهم ألقوا بأنفسهم فى التهلكة ، وعاشوا سنين فى الأقياد والأصفاد عند امراء الاسلام ، لأجل المحافظة على ديانة أسرى قومهم وبلغ عدد أسفارهم الى مدينة الجزائر وحدها من جراء فداء الأسرى ٧٣ رحلة ، وعدد من أنقذوه ١٢ الفا وخمسمائة أسير ولكن بعض الرهبان تجاوزوا حدود الجية الى التهور وقام فى أذهانهم دعوة المسلمين الى النصرانية فلم يقدروا على تنصير مسلم واحد ، ووقعوا من أجل ذلك فى البلاء . ومنهم من ذهب قتيلاً خفة عقله ، وهؤلاء مثل انطون ريفولى ، ودانيال بلقيدير ، وريموند لول ، وهو أشهرهم . وكان يعقوب الأول ملك أراغون قد استرد جزيرة ميورقة من أيدي العرب سنة ١٢٦٩ ، فوجد لول هذا هذه الجزيرة مركزاً صالحاً لبث الدعوة المسيحية فى المغرب ، وبنى ديراً للفرنسيين فى الجزيرة وجعل الغرض منه تدريس العربية لامكان بث الدعوة ، وكان هو متضلعا فى العربية وقصد تنشئة مبشرين فى هذا الدير ، ويقذف بهم فى بلاد الاسلام للغاية المذكورة . وذهب هو بنفسه الى تونس ، وأخذ يناظر علماء الاسلام ، ويقذف بالرسول أمامهم فالتقوه فى السجن ولولا رافة أمير تونس به ، لأوردوه حتفه . وبعد ذلك خلوا سبيله ، فجا إلى الجزائر مبشراً ، ثم الى بجاية حيث ضاق ذرعهم به فقتلوه (٢١ يونيو ١٣١٥) . وبالجملة ، فان النصرانية أمكنها بواسطة المعاهدات التجارية وحسن المعاملة ، أن تظا أرض المغرب ، ولا تجد النفرة التى وجدتها فى مصر وطرابلس الغرب على أثر الحروب الصليبية

ما يدل على كون اللطف والمحاسنة ، أوفى بالمقصود من العنف والمخاشنة .

وفي تلك الأيام حصلت حركة دينية عند البربر ، وظهرت عندهم الطرق الدينية المشابهة للرهبانيات عند النصارى ، وترجع هذه الحركة الى سببين ، أحدهما ، عقيدة التصوف التي ترمى الى الفناء في الاله ، والثاني دعوة أهل البدع والاهواء ، وغير المسلمين ، الى الاسلام . وأتباع هذه الطرق يشبهون الرهبان في الانقطاع للعبادة ، وكثرة الصلاة ، ومنهم من هم نظير الرهبان العسكريين ، يعتقدون أنهم مكلفون باستعمال السيف لنشر الدعوة ، ولكنهم يفترون عن رهبان النصارى بعدم البتولة ، وعدم فطم النفس عن النساء^(١) . ويقال لمحل اجتماعهم رباط ، ولرئيس الطريقة مرابط . ولذلك لما قام عبدالله بن ياسين ، بالدعوة الدينية لهداية البربر من لمتونة وغيرها ، اجتمعت حوله عصاة سموا بالرابطين ، وكانت لهم دولة وصوله بلغت أوجها في زمان يوسف بن تاشفين (١٠٥٠) . وقام مقام المرابطين الموحدون ، وكانت لهم دولة عظيمة ، وكان الشرفاء أعقاب ادريس ، من أتباع العقيدة الصوفية ، وكانت هذه العقيدة تقرأ في فاس وتونس ، وهما أعظم مراكز العلم بأفريقية ، وقد أخذ بها خلق كثير . وكان عبد القادر الجيلاني المولود في جيلان من فارس ، متصوفا عظيما زكى النشأة كثير التعظيم لسيدنا عيسى ، منساهلا مع النصارى الذين كان يقول انهم أهل كتاب وان الله سينير عقولهم يوماً ، فأخذ بالوعظ والارشاد ومات في بغداد سنة ١١٦٦ ميلادية ، وله أتباع لا يحصى عددهم ، ووصلت طريقته الى اسبانية ، فلما زالت دولة العرب من غرناطة انتقل مركز الطريقة القادرية الى فاس . وبواسطة أنوار هذه الطريقة زالت البدع من بين البربر ، وتمسكوا بالسنة والجماعة . وكان هذه الطريقة هي التي في القرن الخامس عشر ، اهتدى على يدها زنوج غربي افريقية . أما الطريقة الثانية فهي الشاذلية نسبة الى أبي الحسن الشاذلي ، أخذ عن عبد السلام بن مشيش ، الذي أخذ عن أبي مدين ، وكانت ولادة أبي مدين في اشبيلية سنة ١١٢٧ ميلادية وقرأ في فاس ، وحج البيت الحرام ، ثم استقر يعلم التصوف في بجاية . وتبعه خلق كثير انقسموا بعده الى ثلاث فرق ، الأولى الشاذلية المنتشرة في الجزائر والثانية البرقاوية الذين مركزهم في مراکش

(١) لارهبانية في الاسلام كما لا يخفى

والثالثة المدينة الذين هم كثيرون فى طرابلس الغرب. قال : (وبعء أن أفاض فى بحث الطرق والزوايا وتشكيلاتها وأوضح المشابهة التى بينها وبين الرهبانيات فى القرون الوسطى)

ان العرب لم ينتظروا تشكيل الطرق حتى يشوا الدعوة القرآنية فى السودان ، بل منذ أواخر القرن السابع كانوا اخترقوا فزان ودخلوا السودان، وكانت فى غانة لأوائل القرن الثامن ليلاد اثنتاعشرة مدرسة للقرآن ، ولكن الاخوان (اتباع الطرق) هم الذين تم على يدهم اسلام القسم الأعظم من مسلمى أواسط افريقية ، وهم الذين أوقدوا الحية الدينية بعد أن كادت تفر ، وأدخلوا معظم السودان فى الاسلام بالارشاد والتعليم ، وبالأخذ والعطاء ، وبالمجاهرات مع ملوك الزنج . وقد تقدم ذكر أبى بكر بن عمر المتوفى الذى امتاز بنشر الاسلام فى السودان ، حتى دانت له جميع الأقطار السنغالية والنيجيرية الى الكونغو . كذلك بنو حسن من عرب بنى هلال ، توجهوا جهة وذن جنوبي طرابلس وتقدموا منها فى الصحراء الى والاته ، فتلاقى هناك العرب مع البربر وامتزج بعضهم ببعض ، وجاءت من هذا الاختلاط القبائل المشدوف (هذه القبائل ليست هى المشدوف فقط بل المشدوف والدويش وغيرها وقد ألف على هذه القبائل المسيو جورج بوله Georges Poulet كتابا اسمه « مغاربة افريقية الغربية الفرنسية » بحث فيه عن تاريخها الماضى والحاضر ، وعن أحوالها الاجتماعية من كل نوع ، ونظراً لكون المؤلف من مأمورى المستعمرات فقد أتبع له أن يطلع على وثائق لا يطلع عليها غيره ، فجاء كتابه بغاية التدقيق). والمغاربة المذكورون منهم من أعقاب بنى حسن الهلاليين ، ومنهم من صنهجة وغيرها من البربر ، وبينهم اشراف ينتمون الى آل البيت ، ومجالاتهم من الساقية الحمراء جنوبي السوس الأقصى ، الى نهر السنغال ، وهم خس طبقات الأولى ، أهل الحرب وهم بنو حسن . والحراثون وهم أشبه بالرعية ، لكنهم أحرار . والمرابطون أى طلبة العلم . وصنهجة الذين يدفعون الضرائب . ثم العبيد . وأشهر القبائل المذكورة الطراززة وهم نحو ٨٠ ألف نسمة ، كان أميرهم لمهد تأليف كتاب المسيو بوله سنة ١٩٠٤ ، هو أحمد بن سلام . ثم البراكنة وهم أولاد عبد الله وعددهم ٤٠ ألفاً ، وأميرهم أحمد وولد سيدى على .

ثم الأبكاك وعددهم ١٦ ألفا ، وأميرهم بكار ولد سويدي أحد . ثم الشرايط وهم ٢٠ ألفا ، وأميرهم المختار ولد أحد . والقبائل الساحلية منها آل سيدي محمود وهم ٤ ألفا ، وأميرهم سيدي المختار ولد محمد محمود . ثم أولاد مبارك وهم ١٨ ألفا ، وهم مع أولاد ناصر من سلائل بني حسن الهلاليين ، وعدد أولاد ناصر ١٢ ألفا . ثم الكوته وهم خمسة آلاف . ومن قبائل الساحل المشدوف وهم أكثرها عددا ، وينقسمون الى عدة فرق لكل منها زعيم ، وزعيم الزعماء محمود مختار وهناك قبائل ساقية الجراء مثل أولاد دليم ، والرغيبات ، والعروسي ، والفيلاي ، والصاليل ، ورئيس هذه القبائل الشيخ ماء العينين المشهور . وقد جن المسيو بوله عددهم جميعا بثلاثمائة ألف ، وكانت بين امراءهم وبين فرنسا معاهدات لذلك العهد ، اظن انها صارت الآن في خبر كان لاسبيا ما كان مع امراء القبائل التي في السنغال) .

ثم قال المسيو موري تحت عنوان « اكتشافات البرتغاليين على سواحل افريقية واستئناف البعثات الكاثوليكية » :

لا يخفى ان العرب ومن معهم من البربر كانوا افتتحوا اسبانية ، واجتازوا جبال اليرانه ، واوغلوا في بلاد الغال (فرنسا) ولولا انتصار شارل مارنل عليهم في يوانيه ، لكانت فرنسا اسلامية ، ولاصاب الكنيسة الغالية ما اصاب كنيسة افريقية وكنيسة اسبانية على أنه في نفس اسبانية ، كان البرتغاليون ، وأهل نافر ، واستورية ، لايزالون يقاومون العرب . ولاسبيا البرتغال ، فقد كانوا أول من طرد العرب من بلادهم . ولم يكتفوا بذلك بل شنوا الغارات على العرب في أرضهم ، فافتتحو سبتة ، وطنجة ، وتطوان . ثم امتدوا على ساحل افريقية الغربية حتى عرفوه كله . وأشهر من قام منهم بهذه الاسفار والفتوحات ، هو الأمير هنري ابن الملك جوان الأول الذي كانت أمه أميرة انكليزية ، فانه ترك اشبونة دار الملك وانتبذ نفسه مكانا في ساغر بقرب رأس سان فنانس ، يحيط به بعض اليهود . وبعض علماء المغاربة من فاس ومراكش ، الذين كانوا علماء العالم لذلك الوقت وأخذوا ينقبون في جغرافيات العرب وغيرها حتى عرفوا امكان الدوران حول افريقية . ورسم الأمير هنري هذا الرجل العظيم الذي كان له الفضل على جميع أوربة ، خطة سير السفن عليها ، فاجتازت ، رأس بوجدور (١٤٤٢) ، والرأس الأخضر (١٤٤٤) على أنوار غابات (م ٢٤ - ثاني)

مدار Madères ، التي استمر بها الحريق سبع سنين الى أن بلغت سياره ليون Sierra Léone . سنة ١٤٧١ بعد موت هنرى أيضا ، واظب البرتغاليون على الايغال في الاقياوس حتى قطعوا خط الاستواء وجزوا زايير (الكونغو) ، ثم رأس الزوابع الى ميناء آلفوا (١٤٨٦) . وفي ٨ يوليو عام ١٤٩٧ وصل فاسكو دوغاما الى موزامبيق ، ومنها الى ماليندى وثانى سنة نزل في كاليكوت من الهند الشرقية .

ولامت هذه الفتوحات ، شرع البرتغال بنشر الدين المسيحى وتأسيس الاسقفيات واختاروا لهذا الأمر الجزر البحرية ، لما فيها من الواقية . فجعلوا كرسياً أسقفياً فى احدى جزر الخالدات ، وآخر فى جزيرة مادر ، وآخر فى جزيرة امام الرأس الأخضر . وآخر فى جزيرة بازاء زايير ، ومنها صعد الدومينيكيون الى بلاد الكونغو وبثوا دعوة الانجيل ، ونجحوا نجاحاً حل البابا على وضع أسقف فى سان سلفادور (١٥٩٥) . وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة أرسل ملك الكونغو الفارس الثالث ، بعثة الى البابا يلتمس بها مبشرين فارسلوا اليه الكبوشيين فكان نجاحهم باهراً . وخلفهم الجزويت ، فأسسوا مدارس فى سان باولو ، وسان سلفادور (١٦١٩) وصاروا يتقدمون الى داخل البلاد حتى بلغوا كازانقى على ٦٠٠ ميل من الساحل ولكن هذه البعثات كلها سقطت فى أواسط القرن الثامن عشر لاسيما عند الغاء رهبانية الجزويت ، وحاولت جمعية البعثات الخارجية فى باريز (١٧٦٠) أن تقوم مقام الجزويت فى الكونغو ، فلم تفلح . مع هذا بقيت لذلك التعليم آثار ، وكان ألوف من الزنوج يقرأون ويكتبون .

وبعد قرن كامل من انقطاع التبشير هناك جاء « آباء الروح القدس » وحيوا ماكلن درس من آثار الجزويت والدومينيكيين (١٨٦٧) ، وساعدوا على الغاء تجارة الرقيق وعلى الاكتشافات الجغرافية ، وأدخلوا فى هاتيك الاصقاع زراعات وصناعات كثيرة وكان البرتغاليون قد بشروا بالانجيل فى افريقية الشرقية ، واتخذوا مركزاً للدومينيكيين فى موزامبيق (١٦١٤) وأقام القديس فرانسيس كسافارس مدة فى موزامبيق ، وفى مالينده ، وفى جزيرة سقطرة . وأسس فاسكو دوغاما ديرا للتبشير فى جزيرة زنزيبار ، وامتدت منه البعثات الى مومباسه ، والساحل ، ونمت هناك رعوياى مسيحية عديدة فى القرن السادس عشر والسابع عشر ، ولكن سنة ١٦٩٨ جاءت غارة عربية من مسقط

أختت على تلك الكنائس ، ورفعت علم الاسلام وحده . سنة ١٧٢٨ ، حاول المبشرون استئناف العمل ففشلوا ، ولزم انتظار القرن التاسع عشر لاجل الرجوع الى بث الدعوة المسيحية في هاتيك الاقطار .

وكان جوان الثانى ملك البرتغال سنة ١٤٨٧ انفذ اثنين من رجاله الفونسو بايفا ، ويرو كوفيلهام ، من طريق مصر الى الهند للبحث عن رجل هندى مسيحي يزعمون أن اسمه القسيس يوحنا ، فات أحدهما المسمى بايفا بمصر وذهب كوفيلهام الى الهند ، ثم عاد الى افريقية ووصل الى الحبشة ، فأكرم النجاشى موصله ، ولكنه لم يسمح له بالخروج . فأخذ هذا الرجل يرأسل بلاده ويخبرهم بما رأى ، فأرسلت حكومة البرتغال وفداً من الأشراف والسكينة ، ومعهم عدد من الحدادين ، والتجارين ، والبنائين ، والاطباء الى بلاد الحبشة ، واستمرت هذه العلاقة بين المملكتين دهرا طويلا ، حتى ان راهبا يسوعياً برتقالياً اسمه بايز حول النجاشى سوسينيوس الى الكتلكة (١٦٢٤) . وقيل ان أكثر الاحباش كانوا مستعدين للانضمام الى الكنيسة الرومانية لولا عناد بطرك اللاتين ما نذر Mendez الذى لم يأخذهم بالتؤدة ، بل حاول حلهم على جميع العقائد والشعائر اللاتينية دفعة واحدة وأراد تأسيس ديوان تفتيش ، لمراقبة الذين يأبون الانقياد . فغرت من ذلك ثورة ذهبت فيها حياة المبشرين البرتغاليين ومن تابعهم من الحبش (١٦٤٠) ، وحاول الفرنسيين التبشير فى الحبشة تحت حاية فناصل فرنسا ، فلم يفلحوا ، وقتل المبشرون الذين أرسلوهم الى سواكن ، ومصوع . ولكن الفرنسيين الطليان أسوا امر اكلهم فى بلاد الغاله (١٨٣٩) ، ثم توجه اخوان فرنسيان انطون ، وأرنولد آبادى ، ومعهما راهب غازارى اسمه سايتو من قبل مدرسة البروباغنده فى رومة ، التى أردفتهم بثلاثة آخرين فأقام أحدهم جا كويس فى عدوة بقرب النجاشى ، وذهب سايتو الى غندار للتبشير فى بلاد الآماره . وكان أحدهم مونتورى قاصداً للسودان المصرى ، فبعد خمس سنوات من وصولهم ، أسوا عدة كنائس . وفى سنة ١٨٥٣ كان عدد الحبش الكاثوليك خمسة آلاف ، بالرغم من مقاومة أبونا سلامة رئيس الكنيسة القبطية الحبشية . وبقيت هذه البعثة ناجحة حتى تولى النجاشى تيودوروس ، فأراد استئصالها وحل جا كويس على الأدهم ، فات فى الحبس سنة ١٨٦٠ . وبعد وفاته قام مقامه المطران بيانسى ومع

المطران ماساية ، ووجها عزمهما الى التبشير في بلاد الغالة ، وبواسطة الحكومة الفرنسية مع الباب العالي أخذوا فرماناً بتأسيس مركز في جزيرة مصوع (١٨٦١) ، واستؤنف العمل الديني في الحبشة . ولكن لم يطل الامر حتى وقعت المناقشة بين فرنسا واطالية في هاتيك الجهات ، وأسست ايطالية مستعمرة الاريتره ، وجعلت مركزها مصوع وأفردتها بأسقفية ، وطردت منها المبشرين الفرنسيين ، ولم يبق لهؤلاء سوى رعويات في تيغري ، وبلاد الآماره . وكانوا شادوا مدارس ، ومستشفيات ، ودوراً للصناعات ، وملاجئ ، للايتام والمجانيم . ونشر الطليان الدعوة المسيحية في بلاد الغالة ، وهم جبل أذكياة أشداء يسكنون بين الحبشة وبحيرة فيكتوريا نيازرا . وصارت هناك رعويات مسيحية زاهرة وامتدت الى بلاد كفا . ثم دخلت الى هرر ، بالرغم من معارضة أمراء الاسلام هناك . ولتنظر الى الدعوة المسيحية في جهات أخرى فنقول ، ان مارفنسان دوپول الفرنسي كان وجه همته نحو جزيرة ماداغسكر ، التي بسطت يدها عليها فرنسا في أيام الوزير ريشليو ، فانتشر في سواحلها تجار الفرنسيين وأرسل الرهبان العازريون اثنين منهم سنة ١٦٤٨ ، فأخذوا بالتبشير وصبرا على المكراه ، ومناخ تلك الجزيرة لم يؤاتهما ، فاتا بعد أن نصرا ٦٠٠ نسمة من الوطنيين . ثم ذهب بدلا عنهم أربعة آخرون فاتوا بالحي . فاثني ذلك عزم الرهبان ولا سيما عزيمه مارفنسان دوپول ، الذي بقى يحرصهم على السفر للتبشير ، فذهب آخرون وزرعوا هناك الانجيل ، وتحملوا من الاتقلم والعذاب ما تحملوه ، ولكنهم تغلبوا على الوثنية مع تملدى الايام ، فالآن الجزويت ، والبروتستانت ، الفرنسيون ، والكويكرس ، والنورويجيون يستغلون مازرعه العازريون من مائتي سنة في تلك الجزيرة العظيمة .

ثم تألفت رهبانية آباء الروح القدس ، وسنة ١٧٧٨ أبحر الابوان بيرونو وغليكور الى السنغال ، فأخذوا ينصرون الزوج في سان لويس وجزيرة غوري Gorée وفي سنة ١٨٤٨ اندمجت هذه البعثة في بعثة قلب مريم الاقدس تحت ادارة يهودى متنصر اسمه ليرمان ، أحسن التدبير ، ووربط الدعوة الكاثوليكية بالحكومة المدنية ، فانتعت مؤسسات هذه البعثة في افريقية تدريجاً ، فوجد لها مرا كز في الكونفو البرتغالي ، وفي غامبية ، وفي مستعمرة سيرا ليونه الانكليزية ، وزنجبار ، ولها في المستعمرات الفرنسية اسقفية ، كرسياها داكار Dakar التي فيها ١٥ ألب متنصر . ومركز في كيتا Kita في السودان

السنيغالي ، وآخر في كونا كرى من غينية الفرنسية . واسقفية في غابون Gabon من الكونغو الفرنسية . وأخرى في أوبانغي Oubangui من الكونغو الأعلى . ولم يقتصر هؤلاء الرهبان على التبشير بالانجيل بل نشروا العلم ، وأحيوا الزراعة ، وآتوا بنباتات جديدة ، وأدخلوا حيث وجدوا صناعات مفيدة ، وهدبوا الأخلاق وأبطلوا كثيراً من قبيح العادات .

ثم أتى بعد رهبانتي العازرين والروحيين ، بعثة ليون الافريقية وبعثة الآباء البيض . ففي سنة ١٨٥٦ أسس المطران دوماريون برازيلك أصله من الدعاة في الهند الشرقية ، مدرسة لتخريج المبشرين المراد ارسالهم لتنصير الزنوج . ثم عين هو أسقفاً في سيارا ليون ، فذهب ومعه عدد من الرهبان فهلكوا بالحمى الصفراء ، فقطعوا عنهم للقيام مقامهم ، وما زالوا صابرين ثابتين حتى أفلح عملهم ، فترى لهم اليوم كراسي في ساحل العاج ، والنيجبر الأدنى ، وساحل الذهب ، والداهومي ، وبنين . وقد وفقوا توفيقاً كبيراً في ساحل العاج وفتحوا نوع مدارس منها مدرسة دينية في دابو وقد أجدوا طبعاً أهل تلك البلاد من السكينة وحب العمل ، بخلاف أهالي داهومي ، الغلاظ الشداد ، المتحصين للفتيشية ، ثم أسسوا مدرسة زراعية في توكبو ، وأسقفية في بنين Benin

وأخر رهبانية تأسست لنشر الدين المسيحي في افريقية هي الآباء البيض ، أسس هذه الجمعية الكردينال لا فيجري مطران الجزائر سنة ١٨٦٩ ، وعاكسه في هذا المشروع المارشال ماكاهون ، الذي كان رأيه أشبه برأى الشركة الانكليزية في الهند من تجنب الدخول في قضية التنصير ، لئلا يحصل مشكلات للإدارة الفرنسية ، فالكردينال كان يرى غير هذا الرأي ، ويقول انه يجب الامتزاج بالأهالي واستجلابهم اليها ، لئلا يلبثوا على عقيدة القرآن ، التي تجعل بيننا وبينهم فاصلة كبرى . فإزال الكردينال مصراً على فكره حتى أنشأ هذه الرهبانية وراعى فيها عادات القوم ، وأردفها برهبانية أخرى للنساء اسمها « الراهبات المبشرات لسيداتنا العنراء » (١)

(١) الحقيقة ان كلامن رهبانتي الآباء البيض والراهبات المذكورات ، نالت عند الحكومة الفرنسية في كل شيء وارتفعت منها شكوى الجزائريين ، وغيرهم من سكان المستعمرات الفرنسية بدون فائدة ، وليس هنا مقام تفصيل ذلك

وميادين عمل الرهبان البيض هي أولا الجزائر وتونس . ثانيا الصحراء والسودان . ثالثا بلاد خط الاستواء من افريقية . رابعا بلاد نياسا غربي الموزامبيق التي فيها كرسى أسقفية^(١) .

وبلاذ خط الاستواء الافريقية وبلاد نياسا كتاهما ، من المستعمرات البريطانية والبرتغالية ، فلاتهماننا الا في الدرجة الثانية . ولكنهما مع ذلك لا تخلوان من العمل ، فيما يتعلق بمقاومة الاسلامية ومنع الرق^(٢) . فان قرار مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ بمنع الرق ، قد قاومه تجار العرب بالسلاح واضطرت الدول الى قمع ذلك بالقوة^(٣) .

أما في الجزائر وتونس ، فلما كان الحكم لفرنسا لم يكن من حاجة الى استعمال القوة فرهبانية الآباء البيض تلجأ الى الوسائل السلمية لا غير . فهي تؤسس بقرب كل محطة مستوصفا طبيا ، وصيدلية . الأول منهما ، يصف العلاجات والثاني يعطيها مجاناً ، ثم مدرسة ودار أيتام . وليس الا بعد وقت طويل وبأذن أهل الأولاد ، يلحق الآباء هؤلاء الأولاد

(١) لسائل أن يسأل : لماذا يصلون في تونس والجزائر ولا يصلون في المغرب الأقصى ؟ والجواب دور الآباء البيض وراعات التبشير ، يأتي في المغرب الأقصى بعد أن يتم اخضاع الثاثرين في جبال الاطلس ونزع السلاح من أيدي القبائل ، أما الآن والثورة لا تزال نائرة ، فالحكومة الفرنسية تمهل في هذا الامر وان كانت لا تهمل .

(٢) ان الرق ليس من الاسلامية بل ان الرق عادة قديمة عرفتها النصرانية والاسلامية وغيرهما ، وما حجب الاسلام شيئاً الى الناس أكثر من تحرير الرقيق الذي هو من أفضل الفريعات شرعا . ثم لما نمت أوروبا وتجارة الرقيق ثارت في وجهها شعوب مسيحية ككثيرة مثل البوير في جنوبي افريقية ، وكل أحد يعلم أن أمريكا احتست قسمين في أمر العبيد ، وثار الحرب بين الفريقين أربع سنوات ، فاجتهد بعض مؤلفي أوروبا بالساق الرق بالاسلام خاصة ، هو من حلة التحامل على الاسلام ، كما انني وان كنت أحد صنع الدول التي ساعدت على إلغاء الرق ، لا أنكر أن معاملة السيد السود في بلاد الاسلام ، هي أفضل بكثير من معاملات الأمم المستعمرة لرعاياها البيض ، نعم ان هذه الأمم لا تبني أهالي الجزائر ، وتونس ، وتونسكين ، وغيرهم ارقاء في الأسواق ، ولكنها لا تعرف لهم أدنى حق بلزاه الأوربيين ، وهي لتنع يدها على ماشاوت من أراضيهم ومعادن بلادهم ، وتستمر أرضهم ودمهم وعرق جبينهم قسراً بدون أن يكون لهم بذلك أدنى خيار فهل الرق سوى هذا ؟ .

(٣) يذكر المؤلف هنا مقاومة العرب وينسى مقاومة الجنس الأوربي في الترنتفال .

التعليم الديني^(١) أما اليتامى فيعلمون التعليم الديني فرضاً . وقد تقدم الآباء البيض الى الداخل فزارت لهم مؤسسات في لاقوات (١٨٦٨) وفي أوارغله (١٨٧٣) ، وفي توغورت (١٨٧٨) الخ ولما دخلت العساكر الفرنسية مدينة تمبكتو سنة ١٨٩٤ في ١٠ يناير تحت قيادة الكولونيل بونيه والقومندان جوفر ، أسس الآباء البيض مركزاً في تمبكتو وستة أخرى في جوارها .

وخلاصة ما قامت به الرسائل الكاثوليكية من برتقال ، وطلبان ، وفرنيس ، في القارة السوداء ، هي انها حاجت هذه القارة من الجانب الغربي ، ومن الصحراء ، ومن الكونغو ، ومن جهات البحيرات الكبيرة ، نعم انها لم تقدر أن تمزق العصبة الاسلامية ، لكنها هذبت قسماً عظيماً من الأمم الفتيشية ، وتوفقت الى ابطال كثير من عاداتهم البربرية .

ثم ذكر المؤلف ، اشتراك المسيحيين والمبشرين في تهذيب افريقية فقال : ان لفنستون في أحد تقاريره يقول : « ان نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري . وهذه حقيقة كلية اذ من المحال أن نكتشف أراضى جديدة بدون أن ينبه ذلك فينا شوق دعوة أهلها الى الانجيل ، هذه البشارة التي أعطتنا السلام والعزاء والرجاء » . فلقد رأينا المبشرين الكاثوليك ، يتعقبون آثار البحارة البرتغاليين والفرنسيين والطلبان ، ويؤسسون أوطاناً مسيحية في سواحل افريقية الغربية والشرقية ، متخذين هذه المراكز في سواحل شرق افريقية محاطة في طريقهم الى الهند ، ولكن كل هذا ما عدا الذي جرى في الحبشة ، لم يتجاوز مناطق معلومة من سيف البحر . ولكن جاء فيما بعد ذلك السائحون الجوابون في الربع الأخير من القرن الثامن عشر والأربع والثلاثين من القرن التاسع عشر فدخلوا من مصاب الأنهر . وتوغلوا في البلاد ومنهم من ذهب قتيلاً جرأته فكانوا هم طلائع المبشرين ، وعلى آثارهم سار هؤلاء ، وبالأجبال فداخل افريقية التي تولى منها هؤلاء الجوابون الى باطن هذه القارة ، هي أربعة أوجه ، أولها النيل لامتداد طريقه من مصر الى أقصى منابعه . الثاني نهر الغامبية ثم نهر السينغال . الثالث ، رأس الرجاء المعروف

(١) غير مقبول أن يسمح المسلمون أهل الأوطان بتلقينهم تلياً دينياً غير الاسلام بمجرد رضام ، بل هنا أحد أمرين ، اما أن يكون أهل الأوطان لا يجسرون على الاعتراض أو يكونون هم أنفسهم تركوا الاسلام

بالكاتب نظراً لأهمية هذا الموقع التجارى . الرابع ، الجزائر منذ استولت عليها فرنسا ثم طرابلس . الخامس ، جزيرة زنجبار بسبب علاقتها مع السواحل التي تحاذيها .

وأول من توغل في افريقية من جهة النيل هو جيمس بروس James Bruce الاكوسى المتوفى سنة ١٧٩٤ ، وصل الى مصر سنة ١٧٦٨ ، وصعد الى الاقصر وشاهد آثارها ، ثم الى اسوان ومنها الى القصر ، ومنها أجاز الى جدة وركب البحر من جدة الى مصوع ، ومن هذه صار الى الحبشة مزوداً بتوصية من بطريك القبط في مصر الى الرأس ميشل ، وأقام مدة بمدينة غندار قصد منابع النيل وظن أنه وصل الى رأس نبع النيل الأزرق ، والحقيقة أنه لم يصل الا الى العبادى ، وهو ملتقى أنهر من النيل لا أصل نبعه . ثم عاد الى مصر من طريق اسوان . وبعد ١٢ سنة من سياحة بروس هذا جاء الى مصر فولناى الكاتب الفرنساوى الشهير ، ولفت أنظار قومه الى وادى النيل قائلاً : «يجب للاستيلاء على وادى النيل ثلاث حروب : الأولى مع انكلترة . الثانية مع العثمانية . الثالثة وهي أشدهن مراسع الاسلام . لأنه هو السائد في هذا الوادى . وربما كانت هذه العقبة غير قابلة للجواز» (كذا) وكان نابليون بونابرت قد قرأ كلات فولناى ، فكانت مما استفزته الى غزو مصر . ولم يكن تجسيم فولناى صعوبة هذه الحملة الا ليزيد فيها رغبة بونابرت ، فى غرامه باقتحام الصعاب وعشقه للجد ، فكانت تلك الغزاة الشهيرة التي ظهر فيها من مزايا نابليون العسكرية مظهره ، وانما لم يقدر الناس قدر مهارته السياسية ، استجلابه خواطر المسلمين وامتزاجه بهم فى عقائدهم وعاداتهم ، وقد كانت غزاة مصر هذه من سنة ١٧٩٨ الى ١٨٠١ ، مبدأ لاسفار ورحلات صوب منابع النيل استمرت الى ١٨٤١ وقد خذا حنو نابليون بونابرت فى سبيل الاكتشاف والبحث ، أمير مصر الكبير محمد على فى زمانه ، وصل فريدريك غاليو Gailliaud الى طيبة وواحة سيوه ، ثم صعد مجرى النيل الى أن وجد خرب العاصمة القديمة مرويه Meroé (١٨١٨ الى ١٨٢٠) الى ان بلغ الدرجة ١٠ من العرض الشمالى . وبعدهذا بيضع سنين وصل عالم المانى الى التوبة العليا ، وكان أول أوربى دخل كردوفان غربى النيل الأبيض ، ثم أنفذ محمد على بعثة وصلت الى درجة ٤ من العرض الشمالى فى غوندىوكورو . وامتد عمل السباح الى الحبشة وبلاد شوا وبلاد الغالا ، فكان ممن اشتهروا بذلك روشه ديريكور

، وThéophile Lefebvre (١٨٣٩ الى ١٨٤٣) ، وRochet d'Hericoure ونيوفيل لوفابفر (١٨٣٣ الى ١٨٣٨) وهؤلاء من الفرنسيين ثم الانكليزي شارل بيك Beke والالمانيان كراف ويزنغان ثم ان الالمانيين أرهاردت وريهان ، هما اللذان توغلا في اصقاع البحيرات الكبرى ، ووصلا الى قن الثلج من بلاد كينيا Kenia والكيمانجارو Kilmundjaro (١١ مايو ١٨٤٨) ومن هناك انفتحت الطريق التي انطلق منها سموئيل باكر (١٨٦٤ الى ١٨٧٣) والكولونل غوردون ، وأمين باشا ، ولينانت بك وغيرهم . وكان هؤلاء السياح أثر بعيد الصيت في تهذيب الزنوج ، واجتهد سموئيل باكر وأصحابه بالغاء الرق ، مستظهِراً على ذلك بأمر الخديوي ، وهلك غوردون في الخرطوم بيد المهدي ، بعد أن أقام بضعة عشرة سنة يرقى من أخلاق السودانين .

ولم يكن شئ يشابه همة هؤلاء السياح الأبطال في شرقي افريقية ، سوى همة أعضاء تلك الجمعية الانكليزية المسماة African Association التي تأسست سنة ١٧٨٨ في لندن وكانت الاطالس الجغرافية الى ذلك الحين لا تمثل أواسط افريقية الا برقعة بيضاء متسعة ، لأن الجغرافيين لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً . وكما كان السياح الذين ساروا من مصر غرضهم منابع النيل ، كان السياح الذين صدعوا من نهري السنغال والسنغامبيه يقصدون تمبكتو ، تلك المدينة الشهيرة عند العرب . فالماجور دانيال هوغتون Houghton ركب نهر السنغامبيه ، ووصل الى مدينة Médina ، ومنها الى عاصمة بامبوك Bambock (١٧٩١) ، لكنه لم يبلغ نهر النيجر ، وانقطع خبره . أمامونغاو پارك Mungopark الاكومي ، فصعد من بلادغامبيه ، فوصل الى النيجر عند سيفو Segou وعاد من حيث أتى ، ثم بعد تسعة سنوات ، عاد فصعد النيجر ووصل الى تمبكتو ، ثم أوغل الى بوسانغ ، وهلك قليلاً سنة ١٨٠٦ . وكان رفيقه الفرنسي موليان Mollien قد اكتشف منبع نهر السنغال ، و منابع نهر الغامبية وريوغرانده سنة ١٨١٨ .

ثم ان رينيه كاليه Rene Caillié الفرنسي ، لم يزل يجوب تلك الأقطار حتى وصل الى تمبكتو بعد مشاق لاتوصف ، وذلك في فبراير سنة ١٨٢٨ ، و بعد أن أقام بها مدة

لحق بقافلة مغربية عائدة الى فاس ، فوصل الى هذه العاصمة في ١٢ اغسطس ، ومنها ذهب الى الرباط وأبحر الى فرنسا ، وأكرمته الحكومة والجمعية الجغرافية ، لكونه أول أوروبي وصف تمبكتو وصفاً عن عيان ^(١) .

وسافر الصابط لتغ Laing الاكوسى من طرابلس الغرب ، قاصداً تمبكتو في ١٦ يوليو ١٨٢٥ ، فبلغها في ١٨ أغسطس ١٨٢٦ ، ولكنه قتل أثناء اياها . وأما الاكوسى كلاپرتون Claperton فاكشف بحيرة تشاد ، وملكة الفلاته ، وزار مدن كانوا ، وكازينال ، وسوكوتو ، ومات في سوكوتو سنة ١٨٢٧ وكان معه رفيق اسمه ريشاد لاندر فاكشف مصب النيجر ثم أكمل اكتشاف مجرى النيجر الدكتور بايكي الاكوسى ومعه جماعة ، وذلك من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٨٦٤ .

فهؤلاء السياح وأمثالهم هم الذين بقصص أسفارهم هاجواشوق مبشرى الكنيسته الانكليكانية والميتودية الانكليزية ، وكان الانكليكانيون منذ سنة ١٨٠٤ أسوا مراكز لهم في سيراليون Sierra Leone واقتدى بهم الميتوديون بعد ١٠ سنوات من ذلك التاريخ ، وفي سنة ١٨٦١ ، كانت لنعارى الزنج في تلك الأقطار كنيسته مستقلة بذاتها .

وأما طريق الكاب فهى الطريق الثالثة التى دخل منها المبشرون الى باطن افريقية ، والمبشرون هنا لم يسبقهم السياح بل كانوا هم السابقين ، بدأ بذلك جورج شמיד سنة ١٧٣٧ ، ويانسن سنة ١٨٠٠ ، فوصلا الى بلاد الهوتنتوت ، ثم ان الدكتور تيودور فان دير كيب الهولاندى ، ذهب الى بلاد الكافر من ناحية بور اليزابت . ثم الدكتور فيليب الانكليزى وصل الى بلاد البوشمن Buschmen ، الذين هم أشد أولئك الأقوام توحشا ، وقد تكلم هؤلاء المبشرون عن قسوة طائفة البوير نحو السود ، ولا سيما الدكتور فيليب هذا ، الذى كانت له اليد الطولى في الغاء الرق بتلك الديار ، وكان هو السبب في اعطاء الهوتنتوت حقوق رعايا المستعمرات .

ومن ذهب للتبشير في بلاد الكاب ييسو Bisseux الفرنساوى أحد دعاة البعثة الانجيلية الباريزية ، وصل الى وادى شارون Charron فوجد هناك أربعة آلاف مستعمر

(١) أما العرب فكانوا يعرفون تمبكتو منذ قرون ، وبيت هذه المدينة والمالك التى تجاورها أعصرا طويلا جزءا من سلطنة المغرب الأقصى ، ووصول السائح العربى الى تمبكتو ، لم يكن له من الشأن أكثر من وصوله الى احدى مدن المغرب .

فرنسي من أعقاب الهوغتوط (برنستانات الفرنسيين) ، جلوا الى هناك عند طردهم من فرنسا ، ولكنهم كانوا نسوا اللغة الفرنسية تماما ، ولم يبق عندهم من آباؤهم الا بعض نسخ فرنسية من التوراة . ثم ان اثنين من بروستانات باريز لمير Lemire ورولان Roland وصلا سنة ١٨٣٣ الى لسوتو Tessouto . وصار هذا القطر من ذلك الوقت مركزاً للدعاية البونستانقية الفرنسية . وبعد هذا التاريخ بخمسين سنة ، تقدم أوجين كويليار Eugene Coillard الفرنسي الى بلاد زمبازه العليا ، ونصر كثيراً من زواج الماروتزي Marotsé . ولكن الاكوسيين أحرزوا قصب السبق في تهذيب أهالي تلك الأقطار ، اشتهر منهم موفاف Moffat الذي قضى زهاء نصف قرن ، يجتهد في تنصير أمة البيتشوانه Betchouana وترجم التوراة الى لغة البيتشوانه Sitschouana ، فأوجد في لغة أولئك المتوحشين أدباً لم يكن معروفاً ، وازوج موفاف ابنته ، من ليفنستون الشهر المولود سنة ١٨١٥ ، وكان هذا رحلة ومبشراً معاً ، بدأ سياحته بين نهر الاورانج وزمبازه ، ثم دخل أواسط القارة الافريقية ، ومنها خرج في لواندة Loanda بساحل الكونغو ، ومنها ذهب الى كليمان Quelimane بساحل الموزامبيق ، وهو أول أوروبي اطلع على مجرى نهر زمبازه ، وهذه رحلته الأولى من سنة ١٨٥٣ الى ١٨٥٦ ثم باشر رحلته الثانية (١٨٥٨ الى ١٨٦١) فعرف بها مجرى النهر الأدنى ، ودخل بلاد الشبري Chiré ، واكتشف النياسا Nyassa من البحيرات الكبرى في أواسط افريقية . وأما في رحلته الثالثة ، فحلب الاقليم الواقع بين بحيرة نياسا وبحيرة تنغانيكا ، وعرف طرف التنغانيكا الجنوبي ، وسنة ١٨٦٨ اكتشف بحيرة بانغفلو Bangwilo ، وفي هذه السنة انقطعت أخبار ليفنستون المذكور ، فقلق بال الناس عليه نظراً لباهر اقامه وجرأته ، فأرسل مدير جريدة النيويورك هرالده أحد الأخبليين المدعو هنري ستانلي لتعقب آثار ليفنستون ، فسافر ستانلي من باريز سنة ١٨٧١ ، فالتقى ليفنستون بعد ١٠ سنوات في محل يقال له أوجيجي على ضفة بحيرة التنغانيقا ، ومات ليفنستون بعد ذلك بستين أي عام ١٨٨٣ على ضفة بحيرة بانغفلو . وكانت ليفنستون هذا همة عالية ، وعزيمة راسخة ، استخدمهما في الغاء الرق ومنع تجارة الرقيق ، وتعرض من أجل ذلك مراراً للإخطار .

أما الطريقان الباقيتان الى داخل افريقية فهما (الجزائر وطرابلس) اللتان كانت تذهب

منهما القوافل الى باطن القارة السوداء ، وكانت هذه القوافل تحدث عن بحيرة عظيمة في الداخل يقال لها وانغاره ، وكانت جمعية الشركة الافريقية في لندره أرسلت الماجور بدى Peddie والضابط ليون بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٩ فهلك الاول، وعجز الثاني عن تجاوز فزان ولكن فصل انكلترة في طرابلس كان يؤكد لتلك الشركة أن الطريق من طرابلس الى برنو هي مفتوحة نظير الطريق من لندره الى ادمبرغ .^(١)

فأرسلت الشركة الافريقية بعثة عقدت عليها للماجور دنهام ، فسارت من طرابلس في آخر مارس عام سنة ١٨٢٢ فمرت من فزان ووصلت الى كوكا عاصمة برنو في ١٧ فبراير عام ١٨٢٣ وتوغل كلا برتون أحد اعضاء هذه البعثة الى بحيرة تشاد وزار كانو ، وسكوتو . ثم أرسل الانكليز بعثة ثانية تحت قيادة جس ريشلر نسون ، وكان معه اللامانيان أوفر فزغ Owerveg وبارت Barth فساروا من طرابلس في خريف سنة ١٨٥٠ ، واخترقوا فزان الى العابر ووصلوا الى بحيرة تشاد . وسنة ١٨٥٢ مات الالماني اوفر فزغ ولكن زميله بلرت لم يقتر عزمه بل أوغل في بلاد الاداموه في الجنوب وعرف أن نهر بينوى Binoué هو من شعب نيجر . ثم ذهب الى سيكوتوني الغرب ، ومنها صعد وادى النيجر الى الشمال الغربي حتى بلغ تمبكتو فاقام بهذه المدينة من سبتمبر سنة ١٨٥٣ الى مايو من السنة التالية وعاد من تمبكتو ، الى برنو ، ومنها عاد الى أوروبا سنة ١٨٥٥ .

وأما الفرنسي فبعد فتح الجزائر ، بدءوا يجوبون الصحراء ، فكان اسماعيل بودريه ترجمان القلم العربي في «الاقوات» أول من أتى بالمعلومات الحقيقية عن الصحراء وعن التوارق الذين بين واحته وارغله ، وغات وذلك في نحو سنة ١٨٥٠ وعقبه في سنة ١٨٥٩ هانرى دوقافيه نجاه بمعلومات كثيرة عن التوارق . وبعد ذلك بسنين أرسل الكردينال لافي جري رهبانه الاباء البيض الى أقاصي الصحراء ، حيث أسسوا مراكز للتبشير وفتحوا

(١) الحقيقة أن هذه الرحلات التي قام بها السياح الاوربيون في باطن افريقية ، وعدها أهل أوروبا مآثر عبقرية ، ووضع أصحابها في صف أعظم الدهر ، كان العرب من سياح وتجار ودرائش ، قاموا بأضفاف أضفافها منذ قرون ، ولكن بدون بأو ولا تغرولا وضواء عظيمة بل بكل بساطة لا يرى الواحد منهم في الذهاب الى بحيرة تشاد او الى السكنفو من الغرابة ، أكثر مما يرى في الذهاب من تونس الى غنماس . ولما وصل الاوربيون الى تلك الأقطار التي ظنوا أنها مجهولة عند كل العالم ، لم يجدوا من مجاهلها مكاناً الا فيه عرب ، أو آثار للعرب واللغة العربية .

مدارس للتعليم .

ومن المداخل المهمة التي كانت للاكتشاف والتبشير جزيرة بمباسا Mombasa وتوابها ، وقد كانت مستعمرة برتغالية أو برتغالية ، فاستولى عليها امام مسقط ، ثم سلطان زنجبار . ولما كانت منفذاً للقوافل الواردة من الداخل رأّت فيها جمعية التبشير الانكليكانية محلا مناسباً لبث الدعوة . وسنة ١٨٤٤ جاء رجل الماني من ورتمبرغ اسمه كرايف . فسكن في ربابى بقرب بمباسا ، ثم انضم اليه جوارب آخر الماني اسمه ريمان ، فأزعموا السير والنظر في داخل البلاد ، وكان أهم ما اكتشفاه ، جبلان مغطاة فتنهما بالنلج الابدى جنوبي خط الاستواء ، وهما كينيا وكيليا نجاروا^(١) وتقدم هذان الرحالان في بلاد جافا Djagga وكان أهلها من أشد الزوج توحشا يأكلون لحوم البشر فاخذ كرايف وريمان يرشدانهم ويهذبان من أخلاقهم ، وفي احدى المرات أراد أحد ملوك تلك الناحية أن يكافئ كرايف على هدايا قدمها له فوهبه عاجا ومواشى وعدداً من العبيد فقال له كرايف : أما العبيد فلا أقبلهم لان العبودية هي خلاف القانون الالهي ، وأما المواشى والعاج ، فاجئت الى بلاد اوزامبارة لاجل حطام الدنيا ، فاذا شاء الملك يعطيني بعض اولاد غير ارقاء آخذهم معي الى ربابى وأرى بهم . ولما علمت جمعية لندن الجغرافية باكتشافات هذين الجوابين أرسلت بعثة عكست عليها لضابطين من الجيش الانكليزي الهندي وهما ريشارد بورتون ، وسبيك ، فسافروا من زنجبار سنة ١٨٥٨ واكتشفوا بحيرة تانغانিকা^(٢) ثم بحيرة نياسا التي لم يروا الاقبا منها واطلقوا عليها اسم بحيرة فكتوريا ثم توغل سبيك ورفيق آخر معه في شمالي خط الاستواء الى الغرب ، فصادقا نهراً ظننا أنه من أصول النيل ، ثم سارا في نحو الشمالي فوصلا الى غونديكورو في بحر الجبيل ، وتلاقيا مع صموئيل باكر وأمراته اللذين كانا يبحثان عن منابع النيل آتيين من الخرطوم .

وبعد عشرين من هذا التاريخ تلاقى هانزى ستانلي مع ليفينغستون في أو جيغى على شاطئ التانغانিকা . والضابط كامرون خرج من زنجبار سنة ١٨٧٣ فلقى في الطريق قافلة الزوج الامناء ، التي كانت آتية بجثة ليفينغستون وأوراقه الثمينة ، وسار

(١) ١١ مايو عام ١٨٤٨

(٢) ١٣ فبراير ١٨٥٨

من الشرق الى الغرب محترقا جميع قارة افريقية واكتشف مجرى لوكايا Loukaya ولوالا به Loualaba ونفذ الى ساحل بنقويله Benguela على سيف الاطلانتيك (١٨٧٨) . ثم ان هازى ستانلى تمكن من نقل مركب بخارى الى بحيرة فيكتوريا نياززا ، فجال في جميع أقسام هذا البحر الداخلى وأقام مدة ببلاد اوغاندا Ouganda ، ثم ضرب الى الغرب ، فوصل الى أعلى نهر الكونغو وعرف الشلالات التى سميت منذ ذلك الوقت باسمه . وأما الضابط البرتقالى سر با بنيتو Serpa - Pinto فأخترق هذه القارة من الغرب الى الشرق ، اذ سار من بنقويله في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٧ ، وأوغل في مجاهل نانو ، وهيرامبو ، ويهسى ، ووصل الى الزامبيز الاعلى ومنها الى بلاد الماتيليبه Matelébe ، والترانسفال .

فاسفار هؤلاء السياح هاجت شوق جمعيات التبشير الى بث الدعوة الدينية ، لاسيما كتاب ستانلى الى مسيحي انكلترة الذى حرره من مقرمتيسه Mtesa ملك الاوغانده (١٨٧٨) فقد أحدث هياجا عظيما ، ورأيت جمعيات كليات اكسفورد ، وكامبريدج ، ودبلن ، وجمعية الكنيسة الانكليكانية ، والاباء البيض ، والمبشرين الالمان ، ينسابقون الى رود هاتيك الارزاء والدعاية فيها .

وهذه الاسفار أيضا كان لها التأثير الأكبر في اهتمام الدول الأوربية بمنع تجارة الرقيق المنجحة (١) وكانت انكلترة هي السابقة في هذه الحلبة ، ولما كانت جزيرة زنجبار هي أعظم مركز لهذه التجارة فقد اجبر الانكليز سلطان زنجبار عام ١٨٧٣ على امضاء تعهد بمنع تجارة العبيد ، وأخذت مراكب انكلترة تضبط جميع مراكب العرب التى تجرد فيها عبيداً ، وكثر عدد هؤلاء المستنقذين ، فعمروا لهم مكانا يشتغلون فيه قصاد جزيرة بمباسه سنة ١٨٧٦ انعقد مؤتمر جغرافى فى بروكسل ، اتخبت فيه ليوبولد ملك البلجيك رئيسا للشركة الشعوبية لتحضير افريقية ، وهذه الشركة ، هى التى أوجدت حكومة الكونغو الحرة .

وسنة ١٨٨٥ ، انعقد فى برلين مؤتمر لتقسيم افريقية بدعوة البرنس بيسلارك ، وخرج فى نصيب المانية حصص صالحة مثل مستعمرات الكامرون ، وتوقو ، وزنجبار ، وتقرر بين الدول التشديد فى الغاء الرق ، والتعهد بحماية رسالات التبشير الساعية فى تهذيب

(١) اوافق على أنها منجحة

السود بدون تفريق بين المذاهب والأجناس ، كما ان حرية الأهالي الدينية بقيت مضمونة وقد أيد قرارات مؤتمر برلين هذا مؤتمر انعقد في بروكسل عام ١٨٨٨ ، تداعت اليه جميع الدول النصرانية وأرسلت اليه بعض الدول الاسلامية مثل تركيا ، وإيران ، وزنجبار معتمديها ، وتقرر انشاء دائرة دولية في زنجبار لمراقبة ابطال الرق .

الرسالات البروتستانتية في افريقية

لم تصل البعثات التبشيرية الى افريقية الا بعد البعثات الكاثوليكية بقرنين ونصف قرن ، وهو أمر طبيعي لأن البروتستانتية قبل أن تفكر في نشر دعوتها في خارج أوروبا ، كان عليها أن توطد قدمها في داخل أوروبا . ولكن البروتستانتين بعد أن بدأوا في التبشير سبقوا أقرانهم الكاثوليك في الاجتهاد والنجاح . وكانت الدول المسيحية بادئ ذي بدء أرادت حل الزنوج على التنصر بنفوذ الحكومات ، وسارت زمانا على هذه الخطة ، ولكن دول انكلترا وهولانده ، والدانمارك ، رفضت في التالي هذه الطريقة خشية حدوث الثورات في مستعمراتها ، وتركت ايتاه مهمة التنصير للجمعيات غير الرسمية .

وان أكثر الأمم رسالات دينية في افريقية هي الأمة الانكليزية ، فانها تنفق بقرن ثلثي نفقات الرسالات البروتستانية باجمعها . ولكن الذين بدأوا بالتبشير لم يكونوا الانكليز بل الألمان والدانمركيين . وقد كان أول من افتحم هذه الأخطار من الألمان هو المورافيين حاولوا الدخول من أربعة أبواب معا : الجزائر ، والقاهرة ، وساحل غينية ، والكامب . ففشلوا في الثلاثة الأبواب الأولى بسبب تمسك أهل الاسلام بدينهم ، وبما فتكت بهم الحمى في غينية ، فقد كانوا يرسلون الفوج بعد الفوج ، فتحصدهم الحمى تباعا حتى عدلوا عن رسالة غينية ، ولم يستأنف العمل هناك الا بعد ستين سنة بواسطة جمعية (بال) من سويسرة الالمانية . أما في بلاد الكاب ، فقد كانت لهم اليد الطولى في تهذيب الهونتوت والكافر Kafres ، وتخفيف آلام المجنومين . ولما توطن البشر الألماني جورج شميد في بافيانس كلوف على ٥٠ ميلا شرقي الكاب ، كان الفلاحون الهولنديون « البوير » يحترقون الهونتوت الى حد أنه هو قرأ امام عدة كنائس الاعلان الآتي « ممنوع دخول المهنتوت والكلاب الى هنا » . وسنة ١٧٩٢ أسس المورافيون في تلك البلاد مركزاً أطلقوا عليه اسم وادي الرحمة Gnabental ، وفي سنة ١٨٠٠ صار هذا المركز قرية ذات ١٢٠٠ نسمة

فيها صناعات وأشغال مفيدة ، واليوم هي من أزهر بلاد الكاب ، وفيها ثلاثة آلاف هونتوتو مسيحي . ثم أوغل المورافيون في بلاد الكافر الى مسافة ٦٠٠ ميل شرق الكاب . وعافت أعمالهم حروب الانكليز مع أمة الكافر ، لكنهم ثبتوا في موقفهم وصبروا على الشدائد من سنة ١٨٢٨ الى سنة ١٨٨٥ ، اذ فاقوا الى تأسيس مركز في شمالي بحيرة نياسه Nyassa في الجنوب الغربي من المستعمرة الألمانية الشرقية . وكان للبعثة المورافية عام ١٩٠٢ نحو ١٢ مركزا ، و٢٢ مدرسة ، و٢٠٠٠ تلميذ ، ونحو ١٠ آلاف متنصر وعلماوا الأهالي البناء والحراث . ولكن أهم عمل قاموا به هو معالجة المجازيم ، فان الانكليز منذ سنة ١٨١٨ بنوا مستشفى لمجنوبي الهونتوتو وسلموا خدمته الى المورافيين ، وكان مستشفى واسعاً ذا جدران عالية وباب واحد ، فلدثوا يخدمون هذا المستشفى ٤٤ سنة ، وكان الدكتور لابتر مدير المستشفى متعزيا عند وفاته ، بأنه وجد من المجازيم ٩٥ رجلا قبلوا الدين المسيحي . ولما أرادت الحكومة الانكليزية استبدال قسوس انكليز بهم ، خرجوا من ذلك المعهد الصحي باكين ، ومن الغريب انه لم يصب ولا واحد من المورافيين بالجذام مع شدة عدوى هذا المرض .

ويأتى بعد المورافيين دعاة جمعية بال (أو بازل بالألمانية) فقد نطحوا افريقية سنة ١٨٢٨ بطلب ملك الدانمرك ، فذهبوا الى ساحل الذهب وكانوا سبعة ، مات منهم خمسة بالحي ، والتجأ أحد الاثنين الباقين الى أحد الجبال حيث الهوا نقي ، فجعل هناك مركز رسالة ومصحة معاً ، وسنة ١٨٣٥ أسس في اكروينغ كنيسة لنصارى السود ، وكانت مبادئ العمل في غاية المشقة اذ مضت ٣٤ سنة ولم ينتصر سوى ٨٠٠ شخص ، ولكن منذ سنة ١٨٥٧ أخذت الرسالة تنجح وعند التنصرين ينمو ، حتى كان مجموعهم سنة ١٩٠٢ نحو ١٨ ألفا . وهذه الرسالة اليوم ممتدة الى بلاد الاشانتي التي قاعدتها كوماسي ، والى حدود مستعمرة طوغو الألمانية . ولها أيضا تسعة مراكز في مستعمرة الكامرون الألمانية ، حيث يلف حولها نحو ثلاثة آلاف نصراني كامروني ، وعندها في الكامرون ١٣٦ من الكتابيب ، يختلف اليها نحو ٣٢٠٠ ولد . وقد ترجم رجال هذه البعثة التوراة الى اللغة المسماة دولاً Doualla

ثم جمعية برلين الافريقية وهي احدى جمعيات برلين الانجيلية ، أسسها ديستلكامب

Diestelkamp سنة ١٨٨٦ للتبشير في شرقي افريقية ، فأرسلت دعواتها الى الجنوب الغربي من مملكة الاورانج ، والى غربي غريكا ، والى بلاد الباسوت في الترانسفال ، والى شمالي بحيرة نياسه ، فيوجد لها في هذه الأيام ٢٧ مركز دعاية و ٢١ ألف متنصر ، وازهر مؤسساتها مدينة بوتشايلاو ، التي عدد سكانها ٤ آلاف كلهم نصارى ، وفيها صناعات ومهن في غاية الفائدة .

ثم جمعية الكنائس الانجيلية في بلاد الرين أرسلت دعواتها للتبشير في بلاد الهوتنتوت ، ثم نظحت بلاد الناما Namas ، والهريرو و Herreros الذين هم من أشد القبائل عتواً والاوقامبو الذين بين نهر الاورانج والكوئين ، ثم إن أحد البيوتات التجارية الالمانية من برآم أسس محلات تجارية في اوتجيمبنغه Otijimbinge فأمتد هناك الالمان وجعلوا لأنفسهم مستعمرة سموها مستعمرة الجنوب الغربي الافريقي ، فالرسالة الانجيلية الرينية عندها في هذه الأيام في مستعمرة الكاب ٢٥ مركز دعاية ونحو ١٦ ألف متنصر ، وفي مستعمرة الجنوب الغربي المذكورة ٢٤ مركزاً ونحو ١٢٥٠٠ متنصر .

ثم جمعية شمالي ألمانيا التي مركزها برآم ، وجمعية هرمانسبورغ التي مركزها هانوفر هما أيضاً نشغلتان في الدعاية بافريقية ، فالأولى تحم هذا المقصد في ساحل العبيد وعندها نحو ٣ آلاف مريد ، والثانية تشغل في بلاد الباسوتو شمالي الترانسفال ، والباسوتو قوم كان البوير يعاملونهم معاملة أرقاء . ثم تقدم دعاة هذه الجمعية الى بلاد الزولو ، وشرعوا في التعليم والتبشير ، فمن نصف قرن الى اليوم صار عندهم نحو ٤٣ ألف متنصر .

ثم تأتي جمعيات السويد والنرويج ، فلسويد جمعية تبشر في مستعمرة ايطالية بالاريتره ، وفي بلاد كوانه ، ومقاطعة حازه ، شمالي الحبشة الى الغرب ، وكان عندها سنة ١٩٠٢ عشرة مرا كز و ٥٠٠ مريد و ١٤ مكتباً للصفار . أما النرويجيون ، فقد أسسوا في ماداغسكار رسالة في غاية العظم ، فانتخبوا مقاطعة بتسليو للعمل بالاتفاق مع جمعية لندن التبشيرية ، ثم تقدموا الى بلاد ساكالا في الساحل الغربي من ماداغسكار ، والى الساحل الجنوبي الشرقي . وبعد جهد استمر ٣٠ سنة ، كان عندهم سنة ١٩٠٠ خمسمائة مكتب ، وواحد وخمسون ألف وثلثمائة مريد ، ولهم أيضاً مدرسة علمية عالية ، ومدرسة لاهوتية ، ومدرسة طبية تابعة لمستشفاهم بتاناناريف .

ثم الجمعيات الهولندية ، وأول من اعتنى منها بالتبشير ، جمعية تأسست سنة ١٧٩٧ في روتردام ، اسمها جمعية جنوبي افريقية لتوسيع مملكة المسيح . وكان بطلاها تيودور فان دركاب وكيشرر ، فذهبا الى بلاد الكاب وباشرا العمل في بلاد الهوتنتوت وعند ذلك اشتدت عزيمته الكنيسة الهولندية في الكاب ، فقامت بمايجب عليها من التبشير بين زوج بلاد الأورانج والترانسفال . ولما دخلت بلاد الكاب تحت سلطة انكلترة سنة ١٨١٥ ، انطلقت أيدي الجمعيات التبشيرية الانكليزية في العمل لاسيا جمعية التبشير بالانجيل المعروفة بهذه الأحرف الثلاثة S.P.G. فقد بثت الدعاية بين الأهالي بهمة المطران غراي ، وسنة ١٨٦٤ دخلت هذه الجمعية ماداغسکر ، وأسست كرمى اسقفية في تاناناريف ، وصار عندها ٩١ الف مرید .

ثم برزت الى الميدان جمعية رسالات الكنيسة الانكليزية المؤسسة عام ١٧٩٩ ، وكان معظمهما مصروفا نحو افريقية ، وكانت كلتها « يبنى رجال ذوو عقل ديني لا كمال عمل روجي » وفي البداية كانت تكتب أكثر دعواتها في ألمانية ، فقد أخذت من مجمع مدينة بال وحده ثمانين داعياً كلهم من الطراز الأول . وكان ميدان عملها الكاب ووادي النيجر الأوسط ثم مومباسه ، ثم الأوغانده حيث وقع الخلاف بين المبشرين الكاثوليكين والمبشرين البروتستانتين وجر الى معارك دموية ، ومع هذا ، فإن هذه الجمعية جمعت حولها ١٦٤ الف متنصر في الأوغانده وحدها وكان يوجد هناك نحو ٢١٢ الف زنجي كاثوليكي ، و ٤٠ الف مسلم . ولا يزال نحو ٣٨٠ الف زنجي على عبادة الأصنام^(١) فالرسالة الانكليزية بواسطة هذه الجمعية تمكنت من تأسيس خمس عشرة اسقفية وهي ما يأتي : اسقفية الكاب (١٨٤٧) سياراليون (١٨٥٢) ناتال (١٨٥٣) ، غرامستاون (١٨٦٣) ، بلومفونتن (١٨٦٣) ، الزولو (١٨٧٠) سان جان في بلاد الكافر (١٨٧٣) تاناناريف بمدغسکر (١٨٧٥) ، بريتوريه (١٨٧٨) ، ززيبار وشرقي افريقية . خط الاستواء . بلاد النيجر . نياسه وماشونه في روديزيه Rhodésia . ويضاف الى هذه الاسقفيات مدارس للعلوم والمهن كالحداثة ، والنجارة ، وجر الأثقال ، وغيرها ، وأشهر هذه المعاهد الذي في غراهامستون ، ثم الذي

(١) قرأت في بعض الكتب الفرنسية أن الانكليز عززوا قوة الدعاية الانكليزية بالسلاح في الأوغانده وضاقوا الكاثوليك والمسلمين

في بلاد الكافر، ثم الذي في جوار الكاب، ثم الذي في كيبوزي .
ولقد اعترف بمجلائل أعمال هذه الجمعيات أبعاد الناس عن الدعوة الدينية . فقال اليزه
ركلوس الجغرافي الفرنسي الشهير : انه بتاثير دعاية الجمعيات الانكليزية دخل كثير من
زنوج سيراليون في النصرانية وصار منهم أكثر الوعاظ والمبشرين ، وأقبل الناس على التعلم
وتحرر الأرقاء ، وتأسست مملكة سوداء حرة .

ثم جمعية رسالات لندن المؤسسة سنة ١٧٩٥ ، أرسلت دعواتها الى بلاد البوشمن في
الأورانج الأعلى ، والى ما بين بلاد الكاب وبحيرة ناكامي ، والى جزيرة ماداغسكار ، وأسست
سنة ١٨٧٧ مراکز بقرب تنقانيكا ، واورامبو ، وواجيجي . وقد كان مرادو هذه الجمعية
بلغ عددهم سنة ١٨٥٠ في بلاد الكاب ٣٥ الف نسمة ، وأما في سنة ١٩٠٢ فكان عددهم
٩٦ ألفاً عدا رعية كنيسة ناتال . وتنصر على يد ليفنستون أحد أولاد ملوك بامانقواتو
المدعو كلما ، فنجح استعمال الأثرية الكحولية بين الأهالي .

وقد اقتنت بالكنيسة الانكليكانية الكبرى الكنائس التالية ، فالكنيسة المعمدانية
نشرت دعوتها في خليج غينية وجعلت لنفسها مركزاً في جزيرة فرناندوبو الاسبانية ،
ثم بثت دعواتها في الكامرون حيث بنت مدينة فكتوريا التي صارت قاعدة مستعمرة
الكامرون الألمانية ، وتركت في تلك البلاد مآثر عظيمة من تزكية الأخلاق . والغاء الرق
وابطال السحر واسقاط السحرة الى أن صاروا يتوارون في الغاب وصارت الفتيشية سخرة
يهزأ الجميع منها . ولما استولى الألمان على الكامرون لم يرتاحوا الى وجود المبشرين
الانكليز فيها ، فتمخلى هؤلاء عن مؤسساتهم لجمعية بال الألمانية (١٨٨٧) ، ولبت النصارى
الوطنيون مستقلين بكنائسهم . وتحولت الجمعية المعمدانية من الكامرون الى الكونغو
حيث كان البرتغاليون قد أدخلوا كثيرين في الكتلركة ، فاجتهد الانكليز المعمدانيون في
استمالة قسم من أهل الكونغو ، ولكن الى اليوم لايزيد عدد المتنصرين على أيديهم على
أكثر من ٦٠٠ نسمة (١٩٠٦) .

ويرجع الى هؤلاء المعمدانيين الفضل في تنبيه الأفكار ، الى ما كان يجريه عمال
البلجيك في الكونغو من المظالم والفظائع ، التي تسمت منها الطباع ، والتي شاع ذكرها فيما
بعد ، فصدر أمر ملك البلجيك ليوبولد حينئذ بالتحقيق عن هذه الفظائع ، ونار من أجل

ذلك غضب أولئك المستخدمين الذين افتضحت أعمالهم لكن المبشرين قاموا بواجبهم تجاه النصرانية والانسانية جميعا .

ثم الكنيسة المسماة بالمتودية Wesleyenne ou Méthodiste ^(١) بدأت بالتبشير في سيراليون سنة ١٧٩٦ ، ونجحت نجاحاً عظيماً حتى يعد مریدوها اليوم بنحو ٧٥٠ ألف نسمة منهم ١٥٠ مبشراً زنجياً وعندها فروع ممتدة من غامبيه الى النيجر . وللكنيسة المتودية هذه رعية في بلاد الكاب ، والكافر ، والزولو ويحصى مریدوها هناك بنحو ١٠٠ ألف نسمة . وفيما بين الزنوج المتوديين ظهرت الحركة المسماة بالاتيوية Ethiopisme التي معناها نزوع المسيحيين السود من أمة البانتو Bantous في جنوبي افريقية الى ادارة الكنائس الأهلية بدلا عن الأوربيين ، عملا بقاعدة « افريقية للافريقيين » ، وقد بزغت هذه النزعة سنة ١٨٩٦ في الترانسفال ، وأخذت اسم الاتيوية بحجة ان أصحابها يريدون الالتئام الى الكنيسة الاتيوية أي الحبشية ، لأنها كنيسة مسيحية أصلية في افريقية تأسست منذ أيام الحواريين . وهم يرمون المبشرين الأوربيين بكونهم غالبا يجعلون التبشير مصيدة للدنيا ، وغرضا من أغراض السياسة والتجارة ، ولا يفهمون حقيقة احتياج الروح السوداء ، فرماهم تأسيس كنيسة افريقية حرة لا تحت سيطرة المبشرين الأوربيين ، ولكن أصحاب هذا المشروع كان ينقصهم العلم اللازم والقوة الكافية لتحقيقه ، فراجعوا الكنائس السوداء بأمر كالأجل مساعدتهم ، فلم يقوزوا بطائل يذكر فانضموا سنة ١٩٠٠ الى كنيسة الكاب الانغليكانية ، واتخذوا لقب الجمعية الحبشية وعدهم نحو ١٠ آلاف ، ^(٢)

ثم الكنيسة البرسبترية L'Église Presbytérienne في بلاد الايكوس لها مراكز دعاية في بلاد نانا ، وعندها مدرسة في بليستفورد . وكذلك الكنيسة الايكوسية الحرة لها مراكز في بلاد الكافر ، والزولو ، وعندها مدرسة صناعية في لوفيدال ، فيها نحو ٥٠٠

(١) كنيسة بروتستانية أسسها في ا كسفورد يوحنا ولسلي John Wesley سنة ١٧٢٩

(٢) يعلم القارىء المفكر من هنا ان نزعة الاستقلال عمت جميع الأمم حتى السوداء ، وصارت الى المسائل الدينية أيضاً فا كاد قسم من الزنوج يتنصرون على أيدي الأوربيين حتى نهضوا يطلبون استقلالهم الكنسى ، ويحنون الى الحبشة الصارى ، ملتسبين الاضمام اليهم لأنهم افريقيون في الجنس .

طالب ، و ينبعها مزرعة نموذجية ، تبلغ غلتها كل سنة ألف فنتار من الحبوب
وبالاجال فالرسالات الألمانية امتازت بالتدقيق في اللغات الافريقية ، وبالثبات وحفظ
النظام ، ولكن الرسالات الانكليزية والايكوسية امتازت بالجرأة وبعد الهمة ، وبالصدق
في تحرير الزبوج ، ومنع المظالم الواقعة عليهم من المستعمرين ، على ان كلا الفريقين
ادخل في افريقية الشغل اليدوي ، والصناعة والزراعة ، مقرونة بالتعليم الديني والتهديب ،
فصرت ترى من هؤلاء السود زراعا وعشقا^(١) وممرضين وميكانيكيين وقوامين على
التلغراف .

أما البروتستانتيون الفرنسيين فقد أرادوا الاقتداء بغيرهم من أبناء سائر الكنائس
الانجيلية ، وتأسست لهم جمعية تبشيرية في باريس سنة ١٨٢٨ ، وأرادت بث دعائها في العالم
الوثني مبتدئة في ذلك بالمستعمرات الفرنسية مثل جزر الانتيل ، والبونديشيري ، ولكن
الكاثوليكين أبوا ذلك ، فلم يسمح كارلوس العاشر ملك فرنسا للبروتستانت الفرنسيين
بالتبشير في تلك الأصقاع ، فاعمل هؤلاء همته في بلاد الكاب لاسيا عند جبل يقال لهم
الباسوتو Bassoutos وقد مضى على دخولهم تلك البلاد سبعون سنة هذبوا فيها أخلاق
هذا الجبل ، وأوجدوا بينهم العلوم والمهن ، وأسسوا مدارس وكتاتيب ومطابع ،
وعندهم الآن ٣٠ ألف مسيحي من الأهالي و ١٢ ألف ولد في كتاتيب الجمعية ، وقد جمع
المبشرون لغة هؤلاء القوم في معجم ، وألفوا لها نحواً و صرفاً وآداباً ، وترجوا لها
التوراة .

ولما تأسست في فرنسا الحكومة الحرة أذنت لهم بالتبشير في المستعمرات الفرنسية ،
فذهبوا الى السنغال سنة ١٨٦٢ ، والى الكونغو الفرنسي ، والى زمبزية العليا ، والى
ماداغسكر . فأما الرسالة السنغالية فكان عليها أن تجادل خصمين عنيدين . المناخ الوبي ،
والتعصب الاسلامي . وبالرغم من ذلك ، تمكنت من تأسيس مركزين أحدهما في سان لويس
والآخر ، في بونديبور . أما في الكونغو الفرنسي فكان أولاً المبشرون الامريكيون من
الكنيسة البرسبترية ، فلما قضت الحكومة الفرنسية بتعليم اللغة الفرنسية بصورة اجبارية
دعا المبشرون الاميريكيون جمعية التبشير البروتستانتية الفرنسية لأخذ مراكزهم (١٨٩٢)

(١) جمع عشيق أو عشوق وهو الذي يسوى رياحين الهدائق

وأسسوا أربعة مراكز جديدة ، وشرعوا في الوعظ بين قبيلتين أحدهما يقال له الغياوه Galons والثاني الباهوين Pahuins . وأما في زميزية العليا فانهم جعلوا ميدان عملهم بلاد البار وتزى Barolsis ، فنجحوا نجاحاً عظيماً ، ومن لم ينتصر من هؤلاء القوم ، فقد تهذبت أخلاقه بالاحتكاك مع المبشرين ونشر التعليم المسيحي ، ومنهم لفانيكا ملك البلاد الذي أمر بجمع الأشرية الكحولية في مملكته ، فالبعثة الفرنسية الأنجيلية عندها هناك ستة مراكز ، مع مدارس وكنائس عديدة . ولكن بدأت تزاحمها منذ سنوات في ذلك القطر الجمعية الحبشية المار ذكرها ، والتي مبدؤها « افريقية للأفريقيين » .

ولما استوت فرنسا على ماداغسكار بنامها سنة ١٨٩٥ ، كان التبشير في هذه الجزيرة الكبرى في يد الجمعية النورويجية ، ورسالتين انكليزيتين احداهما ، رسالة لندن ، والثانية رسالة الكويكرس . فلما زحفت العساكر الفرنسية ، اتهم بعض دعاة رسالة لندن بتحريض أمة الهوفا Hovas على المقاومة ، فطلبت الحكومة الفرنسية تحلى رسالة لندن عن قسم من مؤسساتها لرسالة فرنسا الانجيلية ، وكان رسالة لندن حينئذ خمسمائة كنيسة ، وثلاثمائة وخمسة وسبعون كتاباً للاولاد . ولم يخل هذا الأمر من احداث شكوك وشبهات في افكار الماداغسكاريين المنتصرين حديثاً فاهتبل الجزويت هذه الفرقة لتحذير الحكومة من البروتستانتية ، وزعموا ان بروستانتى هو مرادف انكليزى ، وان كاثوليكي مرادف لفرنسي أو محب لفرنسا ، فبمساعدة بعض ضباط الفرنسيين ألغوا في السجون عدداً كبيراً من القسوس الانجيليين من الوطنيين ، وانتزعوا منهم نحو مائة كنيسة ومدرسة ، وسلموها الى الرسالة الكاثوليكية . وما زال هذا الاعتداء واقعاً حتى تولى الجزيرة الجنرال غاليانى ، فأبطله . والآن تحت يد البعثة الفرنسية الانجيلية في ماداغسكار في مقاطعة ايميرنه Imérina ٣٤٢ كنيسة يختلف بينها ٧٧٧٥٨ مؤمناً وفي مقاطعة بستيليو Bestileo ١٨٧ كنيسة يختلف بينها ٣٣٣٢٩ مؤمناً ، هذا عدا المدارس الابتدائية والعالية ، ودور المعلمين والمعلمات ، ومستشفى للجذام .

ولا ننسى مساعى الكنيسة الانجيلية المتيودية الفرنسية في بلاد البربر Kehylie من جزائر الغرب ، فقد ذهب الى هناك مبشر اسمه جالبرت عظيم الثبات والمهارة فجعل مركزاً في المين Matheu ، وآخر في القصور ، وآخر في بجاية ، ونصر عدداً من المسلمين

أكثرهم من البربر ، فظهر أن تنصير المسلمين لاسيما من أمة البربر ، ليس من الصعوبة بالدرجة التي كانوا يظنونها .

ثم ان الأمريكيين قد تعاطوا أيضا التبشير في افريقية وذلك ، أن سود امريكا اهتموا باخوانهم سود افريقية من قبيل تضامن الجلدة ، وان البيض نذكروا انهم هم الذين كانوا قد أتوا بهؤلاء السود واستخدموهم واستعبدوهم ، وأذاقوهم العذاب ألوانا ، فرسالتهم التبشيرية الى افريقيه ، هي تكفير جنائية الاعتداء على الانسانية مما ارتكبه آباؤهم بحق الافريقيين .

فلالامريكيين في افريقية ثلاث رسالات : الرسالة المتيودية ، والرسالة المعمدانية ، والرسالة البرسبترية . فلما تأسست مستعمرة ليبيرية في ساحل غربي افريقية وجاءها الزوج من اميركا (١٨٢٠) أرادت الكنيسة المتيودية أن تؤسس في ليبيره مركزاً فلم تتمكن من ذلك ولكن سنة ١٨٥٨ أسست أسقفية وجد فيها وعاظ مشهورون مثل بورنس وتايلر . (١)

(١) سنة ١٩٢٢ كان محرر هذه السطور من جملة الوفد السورى ، المطالب باستقلال سورية في جنيف لدى جمعية الأمم ، فحسب العادة كنا نطلب من جميع الوفود الولية بدون استثناء ، المرافقة معهم لبسط القضية السورية لهم ، فكأنوا في الغالب بمجيون سؤالنا ولما كانت جمهورية ليبيره هي من جملة أعضاء عصبة الأمم ورد لنا الجواب من مندوبها أيضاً بتعيين موعد للمناقشة ، فذهبت أنا وزميلي احسان بك الجابرى . وتذكرنا ساعة ذهابنا ، كيف ان حكومة أمة سوداء زنجية تكون حرة مستقلة وعضواً في عصبة الأمم ، وان فطرأ مثل سورية وفلسطين هما من أدم وأشرف أقطار العالم ، وأمة كالامة العربية تكون محرمة استغلالها ، ولا يكون لها حق أن تساوى هذه الامة الزنجية الصغرى ، في الجلوس على كرسى في عصبة الامم . ولما وصلنا الى المحلل الذي فيه مندوبو ليبيره التقانا اثنان اوريان ، نكلما معنا بالفرنسية ، وعرفنا منهما انها مندوب تلك الجمهورية ، ففرحنا لها قصتنا والتسنا منها كالعادة ضم أصواتها الى أصوات الذين يطالبون باستقلال الامم ، فاعتنرا بأنهما يخافان الضرر من غرماننا الفرنسيين والانكليز فيما لورضا أصواتها بإسمافتنا في مطالبنا ، اذ قالنا ان جمهورية ليبيره صغيرة ومجاورة لمستعمراتهم ، فيمكنهم الانتقام من الليبيين ، ونحن في الباطن عفرناهما ، ولكنهما قالنا ، انها يتيمان نجاح قضيتنا ونجاح كل البلاد الاسلامية فسألناهما وهل في جمهورية ليبيره مسلمون ؟ فالتفت أحدهما وقال مؤكداً : « ان جمهورية ليبيره سكانها مليون وخمسمائة ألف نسمة ، منهم ثلاثمائة ألف نصارى ، ومليون ومائتا ألف مسلمون . فسألناه وكم عدد الأوربيين في ليبيره ؟ فقال : الأوربيون الثابون لليبيره م ٥٠٠ نسمة لاغير . فلم نرد في السؤال على ذلك ، ونظن ان ازدياد عدد المسلمين هناك أمر حديث العهد . »

أما الرسالة المعمدانية الاميركية فلها مراکز فى موز و فيه ، وسيراليون ، وفى ليبيريا ، وفى بلاديروبو ، وقاعدتهم فى هذه لاغوس على ساحل غينيه . وقد عضدهم فى مساعيهم كلها مبشرو الجمعية المعمدانية السوداء .

وأما الكنيسة البرسيترية الاميركية ، فقد وجهت نظرها من الأول الى مصر (١٨٥٤) ، وساعدها الخديوى سعيد باشا فى مشروعاتها ، فشادت مدارس فى القاهرة والاسكندرية وسنة ١٨٦٣ ، اسست الكنيسة القبطية الانجيلية وصارت لها شعب فى أسوط ، والاقصر ، والمنصورة ، وسنة ١٨٩٥ ادخلت النصرانية فى اسوان بعد أن كانت انقرضت من هناك منذ ١٢ قرناً ، فالاقباط الانجيليون اليوم (١٩٠٦) يبلغ عددهم ٢٥ ألفاً وانهى المسيويون مورى كلامه الملخص هنا بقوله ، ان نجاح هذه البعثات الانجيلية كلها فى افريقية ، دليل على كون قوة الدعاية النصرانية لاتغلب فيما لو تجردت من الأغراض السياسية ، فانه لا يوجد آفة على التبشير أعظم من المآرب الاستعمارية ، اذ بذلك الأهالى يجعلون التبشير لجميع الآثام والموبقات ، التى تصدر من عمال الحكومات المستعمرة .

نهضة الاسلام فى افريقية وأسبابها

ووسائل دعوتها

(١٧٩٠ — ١٩٠٠)

قال : ذكرنا مجاهيد الرسائل الكاثوليكية والبروتستانتية فى افريقية ، سواء ، لأجل اعادة الاقباط والاحباش الى حظيرة الكنيسة الرومانية ، أو لأجل تصير الزنوج ، وبقى علينا استئناف الكلام على امتداد الاسلام فى افريقية .

فقد رأينا كيف ان الاسلام بين سنة ٦٣٨ و ١٠٥٠ مسيحية فى دوره الأول فتح سريعاً شمالى افريقية وأدخلها فى دينه ، وامتد من ساحل البحر المتوسط الى السودان امتداداً كان بطيئاً ، لكنه كان أميناً . وقد توقف سير الاسلام قليلاً فى القرن العاشر بسبب ثورات البربر ، وحروب الروم ، وقتل ملوك المغرب بعضهم مع بعض ، ولكنه استأنف همته وأدخل فى حظيرته نصارى النوبة ، وأمم الغاله ، والسواحليين (سواحل زنجبار) ، وقبائل الصحراء ، ثم أسس فى السودان ممالك عزيزة ، ومراکز

عظيمة لبث الدعوة ، وهذا في دوره الثاني .

أما في الدور الثالث من سنة ١٧٥٠ الى ١٩٠١ فقد نهض نهضة ثالثة ، على أيدي مشايخ الطرق أو الاخوان ، وذلك انه في أواخر القرن الثامن عشر ، لما دخلت الدعوة البروتستانتية من كل نوع الى افريقية ، وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهديها بسائق المنافسة ، كان لابد من أن يتنبه الاسلام لمقاومة النصرانية ، وان يشتد الصراع بين هاتين القوتين المتقابلتين ، مقرونا ذلك بالاهواء السياسية ، التي تزيده شدة وحدة .

وأكثر أسباب هذه النهضة الأخيرة ، راجعة الى التصوف ، والاعتقاد بالأولياء ، وبظهور المهدي .

ثم ذكر المؤلف كيفية دخول التصوف في الاسلام مالم نأثره ، لأن مؤلفي الاسلام أدري بهذا الموضوع ، وأشار الى عقيدة الأولياء قائلا ، انها مخالفة أشد المخالفة لروح القرآن وان نبي الاسلام ﷺ كان نظره عاليا جدا الى السماء ، ومجتهدا أن يعالو الى آفاق بعيدة بانظر المؤمنين و بصلواتهم ، ولكن المؤمنين لم يلبثوا أن شعروا بالاحتياج الى الوسيلة عند الله ، واتخذوا متوسطين لديه تعالى ، يكونون أقرب متناولا . فلم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى ظهرت في الاسلام العقيدة بالأولياء ، وابتدعت زيارة قبورهم ، وصاروا يعتبرون لهم خصائص ، ويعززون اليهم الكرامات والخواارق وأصبح نسل منهم أتباع ومريدون ، وأشبهت القضية العقيدة الكاثوليكية من هذا الوجه ، قالوا الفلاني يشفي من الريح كما كان القديس فيا كر يشفي مرض الباسور . والشيخ محمد أبو طالب ، يقصده الناس لأجل لقيان الحوائج الضائعة ، كما كانوا في النصرانية يقصدون القديس انطون بادو والامام الشافعي ، يستغيث به طلاب الأزهر ، للنجاح في دروسهم والولى الفلاني هو شفيع المحامين مثل القديس ايف Ives . والآخر مستغاث السياح ، يقيهم من اللصوص في الطريق .

وأفاض المؤلف في ذكر الأولياء والقبور ، والقبب المشيدة للزيارات وأداء الندور بما لا يحتاج القارئ الى معرفته ، ثم وصل الى عقيدة المهدي فقال :

معلوم الدور الذي أخذته عقيدة المسيح المنتظر في اليهودية وظهر فيما بعد أنها مستعارة من الفرس . كذلك المسلمون يعتقدون بظهور رجل في آخر الزمان يقال له المهدي

علاء الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً ويستولون على ذلك بأحاديث للنبي ﷺ . ثم ذكر المهديين الذين ظهروا في الاسلام أو ادعوا المهديوية فعدّ منهم ابن تومرت ، الذي ظهر بدولة الموحدين في القرن الثاني عشر للسّيح . ثم قال ان كثيرين من مسلمي الهند اعتقدوا في أكبر خان المغولي سلطان سلاطين الهند . في القرن السادس عشر انه المهدي المنتظر ثم قال انه سنة ١٨٦٢ ظهر واحد من أمة البله Penih من بلاد ماسينا في أواسط افريقية كان درويشا من أتباع الطريقة النيجانية ، فزعم انه المهدي وأسس في السودان مملكة مستقلة ، الا وهو الحاج عمر الذي سيأتي ذكره (١)

قال وأشهر المهديين في عصرنا محمد أحمد الذي ظهر في السودان سنة ١٨٨١ فخذ خسين الف مقاتل من المؤمنين المتحمسين ، وهزم العساكر المصرية المرسلّة لقتاله في عدة وقائع ، واستولى على الأبيض قاعدة كردوفان وعلى بربر مفتاح بلاد النوبة ، ثم حصر الخرطوم عاصمة السودان المصري الواقعة في الزاوية المتشكلة من فرعي النيل الأبيض والازرق ، وكان فيها قائد أ كوسى اسمه غوردون فدافع عنها دفاع الأبطال ، ولكنه لم يقدر على المهدي ، فدخل هذا الخرطوم وقتل غوردون وأطاع له جميع السودان (١٨٨٥) لكنه لم تطل حياته بعد هذا الفتح فمات في ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٥ تاركا سلطنة عظيمة ممتدة من اسوان الى النوبة الى دنقلة الى كردفان الى واحلت دار فور . وخلفه عبد الله التعايشي فوسع الفتح التي كان فتحها المهدي وما زال حتى تغلب عليه الجنرال كيتشنر في ٣ اغسطس سنة ١٨٩٩ في واقعة أم درمان ، و بقيت للمهدي أشياع تقاثل في الأطراف ، إلا أنهم انقرضوا شيئاً فشيئاً .

ولم يعترف جميع مسلمي افريقية بمهديوية محمد أحمد وكان من جملة المعارضين له رئيس الفرقة السنوسية ، (٢) ثم قال المسيو بونه موري مصنف الكتاب الذي نقلنا عنه كل هذا نقل ما يأتي ملخصاً :

(١) هو الحاج عمر الفوق قال لي سيدي احمد الصريف انه كانت له صلة مع السنوسية وانه زار الجنجوب
 (٢) هذا صحيح فان المهدي السوداني محمد احمد دعا سيدي محمد المهدي السنوسي للاتحاد معه ووعدته بأن يحمله مقدم رجاله ، فرفض دعوته واحتج على دعواه ، وبينهما مراسلات في هذا الشأن أبتجها سيدي احمد الصريف في تاريخ جده وعمه الذي سينفرد ، وقد اطلعت السيد للشار اليه عليه في هذه الأيام الأخيرة

انه في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمسيح تأسست طرق الدراويش. كأنها من نوع المقابلة للرهبانيات النصرانية في القرون الوسطى ، وللحروب الصليبية . وفي القرن الثامن عشر والتاسع عشر حصلت نهضة جديدة عند أتباع الطريقتين القادرية والشاذلية ووجدت طريقتان هما النيجانية والسنوسية .

القادرية

القادرية مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد (١١٦٦) ، وكان له حرمة حقيقية للسيد المسيح وكان يقول : « يلزم أن ندعو لانافسنا فقط ، بل لكل من خلقه الله مثلنا » . فلذلك امتاز أتباعه بروح التسامح مع النصارى واليهود . والقادرية كشيرون جداً في المغرب وزاويتهم الكبرى في « عزارات » أسسها الشيخ مختار الكبير . وبعد وفاته انقسمت القادرية الى ثلاث فرق: الاولى القادرية البكائية الذين مركزهم الزاوية المذكورة ، وقد انتشروا الى تمبكتو . الثانية القادرية الذين في آردار^(١) ، والثالثة القادرية الذين في الالاته وقد انتشروا الى السودان الغربي فلهم مراكز في كانكان وتيمبو ، من بلاد فوتاخالون^(٢) وفي مورساردو من بلاد الماندنيق ،^(٣) ومن هذه النقطة امتدوا الى الجهات المجاورة فعمروا ديار بلال الله ، وذكر الله ، ومدينة . وما زالوا حتى وصلوا الى مقاطعة سيراليون^(٤) وبالاجمال فالقادرية هم أحسن مبشرى الدين الاسلامي في غربي

(١) آردار واحة من الصحراء الغربية شرق الرأس الأبيض على مسافة ٤٠٠ كيلو متر شمال السنغال أهلها بربر وعرب وأم قراها ، شقيط ، ووادان ، واتار ، عرفها الاوربيون منذ سنة ١٨٥٠ بواسطة ليوبولد بانه

(٢) أحد أقسام السودان الفرنسي واقع بين غنيبة الفرنسية والسودان المعروف بهذا الاسم والسنغال وغنيبة البرتغالية وهو بلاد جبلية لكن ارتفاع أعلى قممها عن سطح البحر لا يزيد على ١٣٠٠ متر . ومنها تنبع أنهر النيجر والسنغال والغامبي . ومناخها لأبس به . وفيها معادن ومن حاصلاتها الزيت والفطن والمنظ أي الكاوتشوك ، وأهلها ستمائة الف نسمة من جنس الجالوقه والبله والتريقولور ، وكلهم مسلمون وامراؤم يغال لهم الملى من جنس الله . وعاصمة البلاد تيمبو وهي تحت حماية فرنسا ، يشرف عليها والى غنيبة الفرنسية . عن معجم موريس قال Maurice Wahl مفتش المعارف في المستعمرات الفرنسية

(٣) جبل من الزنبر في غربي افريقية ينسب اليهم قبائل البامباره والمالينكة والسويتكة

(٤) مستعمرة انكليزية على ساحل غنيبة يحدها غنيبة الفرنسية شمالا والسودان الفرنسي من الشمال الغربي والعرق ، وجمهورية ليريه من الجنوب ، والايفانوس الاطلانتيكي من الغرب ، عدد سكانها ١٢٦ ألف نسمة ، ومناخها وري لكثرة مستعمراتها

افريقية من السنغال الى بنين ، التي بقرب مصب النيجر . وهم يفتشون الاسلام بطريقة سلمية أى بالاستعمار والتجارة والتعليم ، وتجد التجار الذين من السونينكة والماندجوله المنتشرين على مدن النيجر وفي بلاد كلارنا Kaarta وماسينة Macina ، كلهم من مریدی الطريقة القادرية ومن مریدیهم من يخدمون في مهنة الكتابة والتعليم ويفتحون كتابات ليس في زوايا الطريقة فقط ، بل في كل القرى فيلقنون صغار الزنج الدين الاسلامي أثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا الى مدارس طرابلس والقيروان ، وجامع القرويين بفاس ، والجامع الأزهر بمصر فيخرجون من هناك طلبة مجازين أى أساتذة ، ويعودون الى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان .

الشاذلية

أما الطريقة الشاذلية فقد تأسست في النصف الأول من القرن الثالث عشر للبلاد ، وهي من أوليات الطرق التي أدخلت التصوف في المغرب ، ومركزها بوبريت في مراکش . وكان من أسيانها سيدي العربي الرقاوي (المتوفى سنة ١٨٢٣) ، الذي أوجد عند مریدیيه حاسة دينية شديدة امتدت الى المغرب الأوسط ، وكان للدرقاوية دور فعال في مقاومة الفتح الفرنسي . وبما امتاز به الدرقاوية هو شدة الطاعة لمشايجهم ، فان الدرقاوي المار الذكر كان يوصيهم ساعة موته قائلاً : « يجب على الاخوان أن يكونوا في يد المرشد كالخنة بين يدي الغاسل » . فأشبه هذه المبادئ حتى في صيغة التعبير نفسها بمبدأ رهبانية اغناطيوس دولوبولا .

التيجانية

وهناك الطريقة التيجانية ، مؤسسها أحمد بن محمد التيجاني المتوفى في فاس سنة ١٧٨٢ ، وكان يتظاهر بالتسامح مع غير المسلمين ، ومع هذا ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تقف التيجانية عن استعمال القوة في محاصرة أقرانهم ، ونشر العقيدة الاسلامية ^(١) . وأهم مراكز التيجانية عين ماضي على ٧٠ كيلومتراً في الجنوب الشرقي

(١) اذا لحظ القارى ان تغيير طور التسامح الذي كان عليه التيجانية لم يعم الا في النصف الثاني من القرن الماضي ، علم أنه لم يكن الا من أثر تكالب الآباء البيض جماعة لا فيجري وأمثالهم ، فما لامشاحة فيه أن التسامح يولد التسامح ، والتكالب يبيح التكالب

من اللاغوات ، وفي تياسين . وهم كثيرون في مراکش ، ولقد تبع الطريقة التيجانية عدد كبير من أهالي ماسينه في السودان وأهالي فوتاتورو Fouta-Toro وفوتاجالون وامة البله وصاروا من أشد أنصار الاسلام وانضموا حول راية الحاج عمر ، فكانوا طيلة أربعين سنة هم سادة السودان من تمكنتو الى الاقيانوس الاطلانتيكي .

وكان الحاج عمر هذا ابن شيخ مرابط ولد سنة ١٧٩٧ في قرية الغارمن بلاد ديمار^(١) فرباه أبوه وعلمه ، ثم حج البيت الحرام وزار المدينة ، وقرأ مدة في الأزهر وعاد الى بورنو سنة ١٨٣٣ ، ثم ذهب الى بلاد الهاوسه وأخذ يعظ الناس بالرجوع الى عقيدة السلف ويطعن في تساهل الفادرية . وفي أثناء ذلك جاء أخوه أحمد ومضى به الى بلاد فوتا من السنغال ، فخرج على بلاد البامباره وحصلت معه هناك حوادث وعوارض كثيرة ، ولكنه تغلب عليها ، وانضم اليه في بلد كنكان^(٢) رجل يقال له محمد وسار على طريقته وادخل في الاسلام فرقة من البله يقال لهم الواسولونكة Ounssoulonké .

ولما علت كلمة الحاج عمر ونظر اليه الناس نظرهم الى المهدي ، حشد جيشاً صغيراً وأثار جميع مسلمي بلاد غابون^(٣) وهزم البامباره الوثنيين شر هزيمة في تومبا ، واستولى بعدها على كونيا كلرى^(٤) وسنة ١٨٥٤ جعل مقره العام في نيورو Niouro^(٥) ثم استولى على ملكة سيفو^(٦) وعلى بلاد ماسينه . وكانت وفاة الحاج عمر سنة ١٨٦٥ وهو في حرب مع زنوج ماسينه ، وقد خلف للطريقة التيجانية سلطنة اسلامية عظيمة في وسط بلاد الزنوج الفتيشين .

(١) ناحية من قطر السنغال على الضفة اليسرى من النهر بين والو من الغرب وتورو من الشرق

(٢) مدينة من السودان الفرنسي جنوبي النيجر الأعلى أهلها خمسة آلاف نس

(٣) ناحية من بلاد الكونغو الفرنسي أشهر مدنها ليرفيل وغلانس Libreville et Gillass وبلاد

أولاي Oulli وبلاد الرب Rip ، ووطد فيها دعائم الطريقة التيجانية . وسنة ١٨٤٧ عاد الى نواحي فوتاجالون ، وبنى قلعة حصينة في ديهيراي Dinguiray ناحية من السودان الفرنسي شمالي النيجر أهلها من التوكولور والزنوج المالينكة

(٤) من بلاد غينية الفرنسية

(٥) من السودان الفرنسي شمالي السنغال الأعلى عاصمة احدو الاولى أهلها من البله ، اختصها الفرنسيين

سنة ١٨٩٠

(٦) من السودان الفرنسي على الضفة اليمنى من متوسط النيجر قاعدة ملك احد واتحصها الفرنسيين

سنة ١٨٩٠

ثم خلف الحاج عمر ابن أخيه ومر يد آخر له اسمه احمد وشيخو بن عمر ، وحاولا توسيع فتوحات الحاج عمر ، وأثارا أهالي فوتاتورو والسوينكة الذين في بلاد كآرآته Kaarta والتوكولور الذين في السنغال على فرنسا (١) ، فصار وجود هذه السلطنة التيجانية في وسط السودان خطراً عظيماً على سيادتنا .

وكان تحمير اختلاف هو هذا : هل يتم تمدن السودان الغربي على يد فرنسا وضباطها والمبشرين المسيحيين ، أم على يد التيجانية ورسول الاسلام ؟

فالكولونل ارشينارد باخذه جنه Djenne (٢) وبنديجار (٣) أوقف غرة التيجانية في هذا القسم من افريقية ويسر فتح السودان بين يدي المدينة الاوربية : ثم عقب ذلك فتح الكولونل دورغينيس ديبيورد Dorgnis-Desbordes لبلبلماكو Bammakou واستلحاق القومندان غاليني Galiéni لبلاد فوتاجلون ، وافتتاح الكولونل ارشينارد لبلاد ماسينه ، وتوجت جميع هذه الفتوحات باحتلال تمبكتو (١٠ يناير ١٨٩٤) مما خلد أعظم الشرف للعساكر الفرنسية ، وأعاد ذكرى ظفر شارل مارتل في پواتيه Poitiers ، سبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل افريقية ، فيما لولم يتم هذا الظفر (٤)

السنوسية

ثم السنوسية وهم أشد عداء للاوربيين من جميع طرق الهراويش ، وقاعدتهم لجهاد في الكفار وجمع كلمة المسلمين أجمعين على العدو العام ، وكان مع هذا ، مؤسس هذه الطريقة سيدي محمد بن علي السنوسي مستقلاً في رأيه غير متقيد بالمذاهب . (٥)

(١) لا يخل أن كل قوم يحافظون على استقلالهم فهم تاثرون عصاة في نظر المستعمرين

(٢) بلدة من السودان الفرنسي الى الجنوب الغربي من تمبكتو عدد أهلها ستة آلاف نسمة احتلها

فرنسيس سنة ١٨٩٣

(٣) من السودان الفرنسي في بلاد ماسينه لا تبعد كثيراً عن ضفة النيجر اليسى

(٤) يشير الى أن افريقية كانت تكون كلها اسلامية لولا قضاء فرنسا على سلطنة التيجانية منه ، كما ان اوربا كانت تكون اسلامية لولا انتصار شارل مارتل على العرب في پواتيه وهي الكلمة التي يطق عليها مؤرخو الافرنج .

(٥) سأل محرر هذه السطور سيدي أحمد العريف خليفة سيدي محمد بن علي السنوسي ، وحيده ، عن حقيقة هذه الرواية ، فأحسرك ذلك ، وأما قال ان جده كان متبعاً للنف . وقد لحظت ان الأستاذ للشار اليه يبيض في الصلاة مثل الحنفية وغيرهم ولا يرسل يديه مثل المالكية فسأله عن سبب مخالفته في ذلك

ولد محمد بن علي السنوسي بقرب مستغانم (١) سنة ١٧٩١ ، وقرأ العلوم في فاس (٢) ثم حج السيد محمد السنوسي بيت مكة (١٨٢٩) وفي أثناء طريقه تلقى اجازات كثيرة ، ودخل في عدة طرق ، وعاد الى المغرب وقرأ في لاغوات . وسنة ١٨٣٩ عاد الى الشرق ، وأخذ يقرأ في الازهر ولكن أحد المشايخ راعاه ما هو فيه من استقلال الفكر ، والتزوع الى الاجتهاد ، فاقى بمخالفته للشرع (٣)

وكذلك حصلت ريبة في أمره بمكة ، لميله الى بعض المبادئ الوهاية (٤) ، ولكنه وجد في اتفاق تام مع السيد أحمد بن ادريس القاسمي شيخ القادرية ، وعند وفاة هذا الاستاذ أسس طريقة جديدة وذهب الى افريقية ، وجال في برقة ، وبنى الزاوية البيضاء ، أول زاوية له (٥) . وكثر أتباعه في واحة القرافرة ، وفي القطر الطرابلسي ،

للملكية مع أنه مالكي فأجاب ، أن جده كان يترض على السادة المالكية في ذلك ، ويقول ان الذي ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو القبيض ، وان الذين تقلوا اسباب الدين عن الامام مالك اخطأوا .
(١) بحلة يقال لها الواسطة

(٢) سيدي أحمد الصريف يقول ان ولادة جده كانت سنة ١٢٠٢ هجرية وفي الترجمة التي ألفها لجده ذكر ما تلقاه من العلوم وقرأ من الكتب ، وأسماء من أخذ عنهم من الأشياخ ، وهو شيء هائل بالمره قل أن يوفق أحد مثله ، وما يجمر بالذكر أنه أخذ عن السيد أحمد بن ادريس دفين صيا في عير ، والسيد أحمد بن ادريس المشهور بالولاية أخذ عن سيدي عبد الوهاب التازي للمعر الذي عاش ١٣٠ سنة وأدرك الولي الكبير سيدي عبد العزيز البليغ وأخذ عنه ؛ ويظهر أن أبناء البيت السنوسي كلهم منتسبون الى العلم ، فان والد السيد محمد السنوسي وجده وأعمامه وأبناء أعمامه ، وكثيراً من نسأهم مثل جدته لأبيه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة كانوا علماء ؛ وأكثر تربية السيد السنوسي كانت على يد السيدة فاطمة الشار إليها ، وكانت من فضليات أهل زمانها . متبصرة في العلوم ؛ متقطعة للتدريس والوعظ . يحضر دروسها ومواظبها الرجال . وقد اعتفت كثيراً هذه السيدة بترية ابن أخيها لما توسسته فيه من باهر التجابة ، أما والده السيد علي فكان قد توفي شاباً في سن الخامسة والعشرين . وكان يجمع الى العلم والصلاح القروسية والرامية الى الدرجة القصوى . لذلك تجدد النسوية يتزع بهم عرق الى السيف كما يتزع بهم عرق الى العلم .

(٣) لعله يشير الى الشيخ عليش الذي بلفسه أشياء لم يقف فيها على حقيقتها . فأصدر فتوى بحق الشيخ السنوسي ، وقيل انه لما فهم جليلة الأمر رجع عنها .

(٤) هذا ما ينكره السنوسية

(٥) ان بعض معمرى الجبل الاخضر يقولون، أنهم سمعوه يقول وهو بيني البيضاء هذمان الافرنج سيأتون يوماً الى هناك ، ويهدمون قبلة الصحابي سيدي رافع رضي الله عنه ، ويربطون خيولهم في مسجد الزاوية البيضاء ، يأخذون حجراً من بستان البيضاء قديماً منحوتاً مكتوباً عليه ، عبارات لا تنبئة . وان هؤلاء

وفي التوات^(١) وفي السودان حيث له عشرون زاوية^(٢)، ثم سنة ١٨٥٥ أسس مركز طريقته في جفجوب وهي سوقا القديمة، على مسافة ثلاثة أيام من سيوه، وصارت أعظم مدرسة لمبشرى الاسلام في أواسط افريقية. وكان المؤدى الى بحيرة تشاد طريقان أحدهما، شرقى من سوكنه الى مرزوق، والثانى غربى من غدامس والعاير، فالسنوسيه نشرها طريقتهم في وادى والباقيرى وبوركو وتبعوا نهر ينوى الى أن بلغوا النيجر الاذنى حيث نجدهم يهدون تلك القبائل الى الاسلام وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد هي مركز الاسلام العام في أواسط افريقية. ويقوم عدد مريدى الطريقة السنوسية باربعة ملايين، وطريقة هؤلاء الجماعة في التبشير، هي أن يشتروا الارقاء صغارا من السودان ويربوهم في جفجوب، وغدامس، وغيرها، ثم متى بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم اعتقوهم، وسرحوهم الى أطراف السودان، يهدون أبناء جلدتهم الباقين على الفتيشية، وهكذا يرحل كل سنة مئات من مبشرى السنوسية لبت دعاية الاسلام في جميع افريقية الداخلية من سواحل الصومالى شرقاً، الى سواحل السينغامبية غرباً، ولقد حذا سيدى محمد المهدي وأخوه سيدى محمد الشريف حذو والدهما في السعى الى الغرض الذى توخاه، الا وهو تخليص الاسلام من النفوذ الأجنبي، واعادة الامامة العامة كما كانت في عصر الخلفاء.

وبالاجال، فان مريدى هذه الطرق هم الذين سعوا في نشر الاسلام ووقفوا اليه في افريقية، قال كوپولانى Coppulani ان هؤلاء نارة بهيئة تجار وطورا بهيئة مبشرين، يهدون الى الاسلام الأقوام القتبشيين، وتجدهم يبنون زوايا جديدة في هذه الاقطار الواسعة الشاسعة الممتدة من شمالي افريقية الى اقصى أقاصى السودان، وأحيانا يؤسسون ممالك مثل سلطنة راج، واجدو، وسامورى. انتهى ملخصا

ثم انتقل المسيوبونه مورى الى ذكر تشكيلات الزوايا، والمدارس، والجموع، والجامعات، مثل الأزهر في مصر والقر وبين في فاس، والزيتونة في تونس، وغيرها، وبرامج التعليم فيها. وقال ان العلوم التى فيها تنقسم الى قسمين الاول، العلوم الاعدادية (مايسمونه بالآلات) كالتحوى والصراف والبيان والمنطق والقراءة والعروض والحساب والجبر

المسرين الذين سعوامنه هذا الكلام رأوا مصداقه فلهى آخر حياتهم. لأن الطليان جاءوا وهموا قبة سيدى رافع — وان كانوا جددوا بناءها بعد ذلك — وربطوا خيلهم في مسجد البيضاء، وأخذوا الحجر القى عليه اللاتينى من الجدار

(١) غربي الجزائر

(٢) مجموع زوايا السنوسية اليوم ثلاثمائة زاوية

والثاني ، العقائد وأدب الدين وأسباب التنزيل والحديث والفقه - (قال) : ويقرأون في بعض مدارس فاس ، الكيمياء والطب والهندسة والانشاء والتصوف والموسيقى (قال) : ولم أجد ذكر الفلك في العلوم التي يعلمونها هناك ولا في محل مع ان علم الفلك كانت به عناية عظيمة في المغرب . »

فلنا لعل هذا خطأ ممن أطلعه على برامج التعليم أو سهو ، أو ان علم الفلك أهمل في هذه السنين الأخيرة ، فانه من العلوم التي كانت تعلم في فاس وغيرها من مدارس الاسلام بالاعتناء الزائد ، واليك مثالا على ذلك ماقرأته في سيرة سيدي محمد بن علي السنوسي نفسه ، وهي مخطوط الفقه حفيده سيدي أحمد الشريف ، يذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم في فاس فيقول : « ومنهم العلامة المهام سيدي محمد بن الطاهر الفيلاي الشريف العلوي قرأت عليه مختصر السعد ، وجمع الجوامع ، والسلم ، وجملة صالحة من مختصر الشيخ خليل ، وهو يروي عن الحافظ ابن كيران ، والعلامة الزروالي ، وشيخهم العلامة ابن شقرون ، باسانيدهم السابقة ، وغيرهم من أمثال علماء فاس . ومنهم العلامة المتق الماهر المتفطن أبو المواهب سيدي أبو بكر بن زيان الادريسي ، حضرته في علوم كثيرة ، وقرأت عليه الفرائض والحساب ، والأربعين وصناعتها ، والأسطرلابين وصناعتها ، والعلوم الأربعة للرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة والارتماطيقى ، وأصول قواعد الموسيقى ، والمساحة ، والتعديل ، والتقويم ، وعلم الأحكام والنسب (بكسر النون) والوقف والقواعد الجفرية ، والأصول الزايرجية ، والبسط والتكبير ، والجبر ، والمقابلة وغيرها الخ . »

فانت ترى أن الهيئة كانت تدرس في فاس في القرن الماضي وأخبرني السيد أحمد الشريف أن أستاذه سيدي أحمد الريني كان يارعا بهذه العلوم ، ويعلم الهيئة والاسطرلاب ، وكان تلقاها عن السيد العلامة ابن السنوسي ، وكانت عندهم الآلات المتعلقة بهذا العلم ، والكرات والازياج وغير ذلك .

ثم ذكر المسيو بونه موري برنامج الأزهر وأشار الى أن أول مصلح لتعليم الأزهر ، هو الشيخ المهدي العباسي وذكر ما أدخله فيه من الإصلاحات لعهد الخديوي اسماعيل ، وان المصلح الثاني ، هو الشيخ محمد عبده الذي أدخل في برنامج الأزهر الجغرافية ، والتاريخ ، والتاريخ الطبيعي ، والرياضيات ، والفلسفة ، وغير ذلك فنفض في الأزهر روحا جديدة . (قال) وقاومه بعض العلماء الجامدين وغيروا عليه قلب الخديوي ، فأثرت هذه الحوادث في صحته وتوفى في رمل الأسكندرية سنة ١٩٠٥ .

الزوايا السنوسية

- لما كان قد تقدم ذكر الزوايا السنوسية في عدة مواضع وكان عندنا أسماء القسم الأشهر منها آتارنا الحاق هذا الجدول بما تقدم من خبر هذه الطريقة وهي : —
- زاوية التاج ، في واحة الكفرة ، مقر السادة السنوسية ، ذرية سيدي محمد بن السنوسي .
- » الجغبوب ، في واحة الجغبوب المقر الثاني للسادة المشار اليهم وفيها المدرسة الكبرى لتخريج تلاميذهم
- » طرابلس الغرب ، وشيخها سيدي عبد الوهاب العيساوي .
- » الرجبان ، في جبل يفرن من عمل طرابلس ، وشيخها سيدي محمد العيساوي .
- » مزده ، فوق قصبه غريان ، شيخها سيدي عبد الله السني .
- » طبقة ، بقرب زنتان ، اشياخها أولاد سيدي محمد الأزهرى .
- » الحرابة ، بين نالوت وفساطو بالجبل الغربي .
- » سيناون فوق نالوت — زاوية درج فوق سيناون .
- » غدامس ، على حدود ايلالة تونس ، شيخها سيدي أحمد الحبيب .
- » مصراطه ، شيخها السنوسي بن عبد العال .
- زاوية ثانية ، في مصراطه ، شيخها عبد الله بن شنيشيع .
- » مسلاته — زاوية القطرون .
- » مراده ، بين جغبوب وفزان في الصحراء ، شيخها سيدي محمد الروبي .
- » مرزوق ، قاعدة فزان شيخها سيدي عبد اللطيف بن عبيد .
- » هون ، في البلاد التي على أبواب السودان ، شيخها سيدي مصطفى الهوني .
- » سوكنه ، في البلاد الواقعة بين طرابلس وفزان ، شيخها سيدي الشريف حامد بن بركلت .
- » واو في جنوبي طرابلس نحو السودان ، شيخها سيدي محمد الأشهب .
- » غات شيخها الحاج أحمد الغاتي — التوات جنوبي عمالة الجزائر .
- » الهواري في واحة الكفرة على مسافة خمس ساعات شمالي مقر السادة ، وشيخ زاوية الهواري سيدي الفضيل السوسي .

- زاوية الجوف في نفس واحة الكفرة ، شيخها سيدي عبد الهادي الفضيل .
- » تزربو عن زاوية التاج على مسيرة ستة أيام ، شيخها القطب الصالح السيد المدني من تلاميذ سيدي ابن السنوسي الكبير .
- » ريبانه على ثلاثة أيام من الكفرة ، شيخها سيدي حسين بزامة .
- » الوجنقة الكبرى في أوائل السودان على خط دارفور على مسيرة ١٧ يوما الى الجنوب من الكفرة ، شيخها سيدي عبد ربه البرعصي .
- » الوجنقة الصغرى ، شيخها سيدي عبد الرازق الفاخري .
- » قرو عن الوجنقة الكبرى على مسيرة ثلاثة أيام الى الغرب ، شيخها انفاضل الأديب سيدي محمد بن عبد الله السني أحد دعاة الاسلام في أواسط افريقية . أصله من بلاد سنار في الحبشة عباسي النسب .
- » البرقوات — زاوية زندر في السودان .
- » يرضى على أبواب السودان ، شيخها ابراهيم الغربي — زاوية كانو في بلاد النيجر .
- » قانت بالقرب من غات ، شيخها السنوسي الفاتح الانصاري .
- » عين كلك التي جرت الحرب عليها بين السنوسية والفرنسيس على مسيرة ستة أيام غربي قرو ، شيخها الفاضل سيدي عبد الله الفضيل الزوي . وعين كلك هذه فيها أنهار جارية ومن أخصب بقاع البسيطة .
- » ون قبلي زاوية عين كلك على مسافة يوم ونصف يوم مائلة الى الشرق وهي على مسافة نحو ٢٠ يوما من مرزوق فزان ، وشيخ الزاوية هذه سيدي المهدي السني ولد سيدي محمد السني .
- » بني غازي شيخها الاستاذ العلامة سيدي أحمد العيساوي .
- » أم شخب على مسيرة ٧ ساعات الى الجنوب من بني غازي كان شيخها الأديب سيدي محمد علي بن عبد المولى
- » الطيلمون على مسيرة ١٠ ساعات من بنغازي الى الغرب شيخها سيدي محمد علي المحجوب
- » مسوس قبلي الطيلمون وشيخ هذه الزاوية سيدي سنوسي الاشهب
- » اجداية غربي بنغازي شيخها سيدي عبد اللطيف الزوي .

زاوية القطفية على مسيرة ٤ أيام الى الغرب من بنغازى شيخها الزوالى بن عبد اللطيف .

» النوفلية غربى القطيفة بمسافة ٦ أيام شيخها سيدى أحمد بن ادريس .

» الزعفران غربى النوفلية على مسافة يوم ونصف يوم بجوار قصر سرت شيخها ابن شفيح

» زليطن فى محل اسمه زو و شيخها سيدى محمد بن عثمان بن بركة .

» زويله من فزان .

» زله شرقى زاوية سوكنه شيخها سيدى الخريصى .

» أوجه شيخها سيدى عبد الله الفضيل .

» جالوتسمى زاوية العرق و شيخها سيدى عبد الله التواتى .

» اللبة فى أوجه أيضا و شيخها الحاج محمد فريطيس .

» شنحره فى بلاد جالو وأوجه شيخها سيدى محمد صالح .

» سيوه وهى الزاوية الأولى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدى يوسف بن عبد

الله بن أحمد .

» سيوه المنسوبة الى آل معرف شيخها سيدى محمد بن عبد الله الزوي رقيق سيدى

أحمد الشريف الأستاذ الأكبر فى سياحته الى الاستانة والأناضول .

» سيوه الثالثة تخص السادة رأسا والوكيل عليها أحمد الجبيرى .

» سيوه الرابعة شيخها الشيخ أحمد أبوغالى .

» حطية الزيتون على مسافة ٦ ساعات الى الشرق من زاوية بنى معرف وهى تخص

السادة رأسا والوكيل عليها سيدى الحسين الشريف .

» القاره على مسافة ١٣ ساعة على الفارس الى الشرق من حطية الزيتون وهى تخص

السادة رأسا والوكيل عليها صالح ولد سيدى يوسف .

» الفرافرة على مسافة ستة أيام الى الشرق شيخها سيدى السنوسى بن خالد .

» القصر الى الشرق من الفرافرة فى الواحات شيخها ابن سيدى محمد الموهوب .

» الواحات البحرية شيخها سيدى صالح السعدى .

» الواحات البحرية الثانية شيخها سيدى البروك القطعانى .

» منديشة الى جهة صحراء الفيوم شيخها سيدى عبد المالك الموهوب .

» القلمون فى الواحات أيضاً . وكل هذه الزوايا فى سيوه والواحات فى عيون ونخيل وكروم .

- زاوية الفيوم وشيخها سيدي عبد العال السنوسي .
- » الزينية بالصعيد المصري فيها أولاد الولي الكبير سيدي أحمد بن ادريس .
- » سيدي ابراهيم الريس الفاسي في الصعيد
- » حوش ابن عيسى بجهة الاسكندرية شيخها سيدي محمد بن مالك
- » الغيط عند العامرية في مديرية البحيرة شيخها سيدي مرتضى الغرياني
- » بهيج وشيخها سيدي موسى العقاري
- » سيدي يادم الايرش على مسافة ساعتين من بهيج
- » سيدي عبد العاطي بن محيظة على مسيرة نصف يوم من زاوية سيدي يادم
- » الضبعة ويقال لها زاوية شنيئة وشيخها سيدي عبد المنعم أبو شنيئة وهي على مسيرة يومين من زاوية سيدي عبد العاطي
- » قريوة على مسافة يوم من شنيئة وشيخها سيدي عبد الرحيم الفاخري
- » فوكه على مسافة ثلاث ساعات من قريوة شيخها سيدي عبد الرحيم التهاي
- » محطة فوكه وشيخها سيدي موسى بن موسى .
- » بقوش وشيخها سيدي هارون بن بدر القناشي وهي على ساعتين من فوكه
- » سيدي علي بن مورد الى الغرب من زاوية بقوش بساعتين
- » أم الرخم غربي مرسى مطروح وشيخها أبو القاسم الطيب
- » نجيلة الى الغرب بيوم من أم الرخم وشيخها سيدي عبد القادر بن عمر
- » شماس على ٣ ساعات من نجيلة الى الغرب وشيخها سيدي عمر الاوجلي
- » عليم الجلول على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من زاوية شماس وشيخها سيدي محمد الشريف
- » براني على مسافة يوم الى الغرب من هذه وشيخها سيدي الشريف بن ميلود
- » سيدي عمران بن ابراهيم على مسافة يوم من زاوية براني ومن زاوية سيدي عمران ابن ابراهيم الى السلوم مسيرة يوم . وهذه الزوايا من الاسكندرية الى السلوم كلها في بلاد أولاد علي
- » جبيل على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من السلوم شيخها سيدي محمد الشارف من أولاد عم السادة
- » أم ركه في موقع دفنة على ٣ ساعات من زاوية جبيل وهي زاوية سيدي علي بن عبد الله

- زاوية سيدي حسين الغرياني في دفنة أيضا على ثلاث ساعات من أم ركبته
- » المرصص في غربي مرسى طبرق على مسافة يومين من التي قبلها وشيخها سيدي صالح الشريف
- » أم الرزم أو أم ارزم (١) على مسيرة يومين من المرصص وشيخها سيدي مرتضى فركاش وعندها عين فضاخة وبستان جليل
- » سيدي محمد بن فارس على ساعتين من أم ارزم الى البحر
- » مرطوبة على مسافة ساعتين الى الغرب من التي قبلها وشيخها سيدي عبد الله فركاش وفيها عيون عذبة جارية من الجبل الذي فوقها وبساتين
- » درنه في نفس المدينة شيخها السنوسي الغرياني
- » العزيات من درنة الى الجنوب على مسافة يوم شيخها سيدي السنوسي الجبالي
- » الحيلة على مسافة يوم من العزيات شيخها محمد بن الحسين
- » بشاره على بضع ساعات الى الجنوب الغربي من درنه وشيخها سيدي عبد القادر فركاش وعندها عين جارية وبساتين
- » ماره الى الشرق من بشاره وشيخها سيدي عبد الله أبو سيف وهي على رأس نبع ماره من ازنه وأعذب ينابيع الدنيا وعليه البساتين والطواحين
- » ترت الى الغرب من بشاره وشيخها كان سيدي محمد الغزالي . وكل هذه الزوايا في بلاد قبيلة العبيدات الكبيرة
- » نقا شرقي ترت شيخها سيدي الحبيب بن جلول — زاوية العوينة بهانك الهجات أيضا
- » الفائدية المنسوبة الى قبيلة فأند وشيخها سيدي صالح بن اسماعيل
- » شحات أي مدينة سيرنا القديمة وهي بلدة عالية في رأس جبل مشرف على البحر تنبع المياه من مغارة بأعلاه وتسقط في شلالات بديعة ولها منظر من أجمل مناظر الدنيا وشيخ زاوية شحات سيدي محمد الدردي . والزاوية هي زاوية قبيلة الحامسة
- » ماسه وهي الزاوية البيضاء التي كانت أول ما أسسه السنوسي الكبير تبعد عن شحات نحو ساعتين الى الغرب وهي على بضع دقائق من مقام سيدي رويغ الاضاري رضي الله عنهما وشيخ الزاوية البيضاء الآن سيدي محمد الغماري . والزاوية زاوية البراعصة
- » الحامة غربي الزاوية البيضاء على ساحل البحر وشيخها سيدي السنوسي الغماري
- » الحنية غربي الحامة وشيخها سيدي أحمد بن العيسوي
- » القصرين قبلي زاوية الحامة وشيخها سيدي محمد العربي

(١) أم ارزم معناها الريح

- اوية العرقوب بشرق زاوية القصور وشيخها سيدي جاد الله الجبالي
- » القصور شرقي قصبة المرج وشيخها البطل المشهور القائد للجهاديين في حرب الطليان سيدي عمر المختار وهي زاوية قبيلتي العرقا والعبيد
- » اسقفه غربي دريانة وشيخها سيدي الأمين الغماري
- » دريانة غربي طلعيته وشيخها الشريف الغماري
- » المرج على أربع ساعات قبلي طلعيته وهي زاوية سيدي عمران السكوري
- » كرسا تبعد عن زاوية ماره السابقة الذكر بمسافة ساعتين صوب البحر وجاعتها التراكي وشيخها سيدي يوسف العيجال
- » الأزون على ٤٠ دقيقة من زاوية التراكي وشيخها سيدي الحبيب الجلول
- » كفضته على ساعتين ونصف ساعة الى الجنوب من زاوية الحتيسة السالفة الذكر وشيخها سيدي حبيده بن عمور
- » ميراد مسعود بحري زاوية القصرين وشيخها سيدي محمد بن حوا
- » الحامدية غربي ميراد مسعود وشيخها سيدي عبد الله السكالي
- » عائلة دغار على مسافة نصف ساعة من الحامدية الى الغرب وشيخها سيدي محمد الغالي
- » نيان شيخها سيدي العربي الغماري
- » طلعيته على أربع ساعات بحري قصبة المرج وشيخها التواني الكلبي
- » توكره غربي طلعيته وشيخها سيدي عبد الله الجيلاني
- » برسس غربي توكره وشيخها ابن سيدي عبد الله الجيلاني . وأكثر هذه الزوايا في بلاد قبيلة الدرسا
- » مستفانم في القطر الجزائري وشيخها سيدي أحمد بن نكوك
- » سيدي محمد بن صادق في بلاد الجريد من مملكة تونس وفي تلك البلاد خمس زوايا أخرى تحت نظارة الشيخ المذكور
- » جدة في الحجاز تحت نظارة شيخ زاوية أبي قبيس بمكة
- » أبي قبيس بمكة المشرفة شيخها سيدي حامد - زاوية الطاطص وهي تحت نظر الشيخ المذكور
- » الجديدة في طريق المدينة - زاوية بدر الشهداء وشيخها سيدي محمد الغماري
- » المدينة المنورة وشيخها سيدي مصطفي الغماري - زاوية ينبع البحر
- » ينبع الوجه - زاوية الحمراء - زاوية الصفراء - زاوية رابع - زاوية صبح العيص . وهذه كلها في الحجاز وجملة ما هو مفقود عندنا من هذه الزوايا ١٣٠ زاوية لا تزال زوايا كثيرة في المغرب والسودان والحبشة والصومال مجهولة عندنا .

